



فتح القدير

أبحار مع بين في الرواية والدراسة
من علم التفسير

تأليف

الإمام الشوكاني

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعاني

الكلود بصنعاء سنة ١١٧٣ هـ وللتوفى بها سنة ١٢٥٠ هـ

رحمته الله تعالى

المجلد الأول

من إصدارات

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

المملكة العربية السعودية

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ لـ

وِزَارَةِ الشُّؤْنِ دِيْنِيَّةِ وَالْأوقَافِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ

الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

قَامَتْ بِالإِشْرَافِ عَلَى الطَّبَاعَةِ

دَارُ النُّوَادِرِ

شَرِكَةُ دَارِ النُّوَادِرِ الْكُوَيْتِيَّةِ - ذ.م.م. - الْكُوَيْتِ

الكويت - حولي - ص. ب. : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ترجمة

الإمام الشوكاني

مأخوذة من كتابه البلر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ومن
ترجمة تلميذه العلامة حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني .

نسبه ومولده

هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني ، الإمام العلامة الرباني ، والسهيل الطالع من القطر اليماني ، إمام الأئمة ومفتي الأمة ، بحر العلوم وشمس الفهوم ، سند المجتهدين الحفاظ ، فارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر ، نادرة الدهر ، شيخ الإسلام ، قدوة الأنام ، علامة الزمان ، ترجمان الحديث والقرآن ، علم الزهاد ، أوجد العباد ، قامع المبتدعين ، آخر المجتهدين ، رأس الموحدين ، تاج المتبعين ، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها ، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة ، شيخ الرواية والسماعة ، عالي الإسناد ، السابق في ميدان الاجتهاد ، على الأكابر الأعماد ، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها ، العارف بغوامضها ومقاصدها .

ولد حسبا وجد بخطه في وسط نهار الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣ هجرية في بلدة هجرة شوكان . وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ .

قال صاحب الترجمة في كتابه « البدر الطالع » عند ذكر نسب والده : وعرف (أي والده) في صنعاء بالشوكاني ، نسبة إلى شوكان ، وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان ، بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم ، وهو أحد المواضع التي يطلق عليها شوكان . قال في القاموس : وشوكان موضع بالبحرين وحصن باليمن ، وبلدة بين سرخس وأبيورد : منه عتيق بن محمد بن عنبس وأخوه أبو العلاء عنبس بن محمد الشوكاني هـ ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية ، لأن وطنه ووطن سلفه وقرابته بمكان عدني شوكان ، بينه وبينها جبل كبير مستطيل ، يقال له هجرة شوكان ، فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان ، والله أعلم .

نشأته وطلبه العلم

نشأ رحمه الله تعالى بصنعاء ، وتربى في حجر أبيه على العفاف والطهارة ، وأخذ في طلب العلم وسماع العلماء الأعلام ، وفرغ نفسه للطلب وجد واجتهد ، فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين ، وتحتمه على الفقيه حسن ابن عبد الله الهبل ، وجوَّده على جماعة من مشايخ القرآن (بصنعاء) . ثم حفظ الأزهار للإمام مهدي في الفقه ، ومختصر الفرائض للعصيفري ، والملمحة للحريري ، والكافية والشافية لابن الحاجب ، والتهذيب للعلامة التفتازاني ، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني ، والغاية لابن الإمام ، وبعض مختصر المشهي لابن الحاجب في أصول الفقه ، ومنظومة الجزري في القراءات ، ومنظومة الجزار في العروض ، وآداب البحث والمناظرة للإمام العضد ، ورسالة الوضع له أيضا . وكان حفظه لبعض هذه المختصرات قبل شروعه في الطلب ، وبعضها بعد ذلك . وقبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب ، فطالع كتباً عدة ومجاميع كثيرة ، ثم شرع في الطلب والسماع والتلقي من أفواه الرجال ، إلى أن صار إماما يشار إليه ، ورأسا يرحل إليه ، ولم يزل مكبا على العلم قراءة وتدريسا ، إلى أن فارقه أجله ولقي ربه ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

مشايخه الذين أخذ عنهم العلم سماعاً وقراءة

قرأ رحمه الله على والده شرح الأزهار ، وشرح الناظري لمختصر العصفري . وقرأ شرح الأزهار أيضاً على السيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المدائني ، والعلامة أحمد بن عامر الخدائي ، والعلامة أحمد بن محمد الحرازي وبه انتفع في الفقه وعليه تخرج ، وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة ، وكرر عليه قراءة شرح الأزهار وحواشيه . وقرأ عليه بيان ابن مظفر ، وشرح الناظري وحواشيه . وفي أيام قراءته في الفروع شرع في قراءة النحو ، فقرأ الملحة وشرحها على السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم ابن محمد ، وقواعد الإعراب وشرحها للأزهري والحواشي جميعاً على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي ، وشرح السيد المفتي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي ، وأكمله من أوله إلى آخره على كل واحد منهما . وقرأ شرح الحبيصي على الكافية وحواشيه على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي من أوله إلى آخره ، وكذلك قرأه من أوله إلى آخره على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني . وقرأ شرح الجامي على الكافية مع ما يحتاج إليه من حواشيه على السيد العلامة عبد الله بن الحسين بن علي ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن أوله إلى آخره . وقرأ شرح الرضوي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وبقي منه بقية يسيرة . وقرأ شرح الشافية للطف الله الغياث جميعاً على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني . وقرأ شرح إيساغوجي للقاضي زكريا على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً ، وشرح التهذيب للشيرازي ولليردي على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني من أولهما إلى آخرهما ، وشرح الشمسية للقطب وحاشيته للشریف على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي ، واقتصر على البعض من ذلك ، وشرح التلخيص لمختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني جميعاً ، ماعداً بعض المقدمة فعلى العلامة على بن هادي عرهب ، والشرح المطول للسعد التفتازاني أيضاً وحاشيته للجلبي وللشریف ؛ أما المطول فجميعه وكذلك حاشية الجلبي ، وأما حاشية الشریف فما تدعو إليه الحاجة ، وقرأ الكافل وشرحه لابن لقمان على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً ، وشرح الغاية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني وحاشيته لسيلان ، وشرح العنيد على المختصر وحاشيته للسعد ، وما تدعو إليه الحاجة من سائر الحواشي ، وكل ذلك على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي ، وشرح جمع الجوامع للمحلي وحاشيته لابن أبي شريف على شيخه السيد الإمام عبد القادر بن أحمد ، وكذلك شرح القلائد للنجدي ، وشرح المواقيف العنيدية للشریف ، واقتصر على البعض من ذلك . وقرأ شرح الجزرية على العلامة هادي بن حسين القارني . وقرأ جميع شفاء الأمير الحسين على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي ، وسمع أوائله على العلامة عبد الرحمن بن حسن الأكوخ . وقرأ في البحر الزخار وحاشيته وتخریجه وضوء النهار على شرح الأزهار على الشيخ السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ولم يكمل . وقرأ الكشف وحاشيته للسعد ، وبعد انقطاعها حاشيته للسراج مع مراجعة غير ذلك من الحواشي على شيخه العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي ، وتم ذلك إلا فوتاً يسيراً في آخر الثلث الأوسط . وسمع البخاري من أوله إلى آخره على السيد العلامة على بن إبراهيم بن أحمد بن عامر . وسمع صحيح مسلم جميعه ، وسمع الترمذي جميعاً ، وبعض موطأ مالك ، وبعض شفاء القاضي عياض على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ، وكذلك سمع منه

بعض جامع الأصول وبعض سنن النسائي ، وبعض سنن ابن ماجه وسمع جميع سنن أبي داود وتخريجها للمنذرى وبعض المعالم للخطابي ، وبعض شرح ابن رسلان على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي ، وكذلك بعض المستقى لابن تيمية على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد . وكذلك سمع على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي وفاته بعض من أوله . وكذلك سمع على العلامة عبد القادر بن أحمد بعض فتح الباري ، وعلى الحسن ابن إسماعيل بعض شرح مسلم للنووي ، وبعض شرح العمدة على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني ، والتنقيح في علوم الحديث على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي ، والنخبة وشرحها على العلامة القاسم بن يحيى ، وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها له على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد ، وجميع منظومة الجزار وجميع شرحها له في العروض على شيخنا المذكور ، وشرح آداب البحث وحواشيه على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني ، والخالدي في الفرائض والضرب والوصايا والمساحة ، وطريقة ابن الهائم في المناخة على السيد العارف يحيى بن محمد الحوثي ، وبعض صحاح الجوهرى وبعض القاموس على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد مع مؤلفه الذى سماه فلك القاموس . هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته وله غير ذلك من المسموعات .

بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم

أخذ عنه العلم ابنه العلامة على بن محمد الشوكاني . وكان صالحا عالما مبرزاً في جميع العلوم وكان نادرة زمانه على صغر سنه ، والعلامة المتحلى بفرائض البيان والمعاني حسين بن محسن السبعي الأنصارى الباني ، والعلامة الأديب محمد بن حسن الشجني الذماري ، والعلامة الشيخ عبد الحق بن فضل الهندي ، والشريف الإمام محمد بن ناصر الحازمي وغير هؤلاء ، وكلهم جهابذة محققون ونبلاء مدققون ، أولو أفهام خارقة وفضائل فائقة ، ول بعضهم تأليف رحم الله الجميع .

مذهبه وعقيدته

تفقه على مذهب الإمام زيد وبرع فيه ، وألف وأفتى حتى صار قدوة فيه ، وطلب الحديث وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربة التقليد وتحلى بمنصب الاجتهاد ، فألف كتاب « السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار » وقد تكلم فيه على عيون من المسائل وصحيح ما هو مقيد بالدلائل ، وزيف ما لم يكن عليه دليل ، فقام عليه أهل عصره وغالبهم من المقلدة الجاهدين على التعصب في الأصول والفروع ، ولم تنزل المجادلة والمصاولة بينه وبينهم دائرة ، ولم يزالوا ينددون عليه في المباحث من غير حجة ، فجعل كلامه في شرح الأزهار الذى هو في فقه آل البيت المختار موجهاً إليهم في التنفير عن التقليد المذموم ، وإيقاظهم إلى النظر في الدليل ، لأنه كان يرى تحريم التقليد ، وقد ألف في ذلك رسالة سماها « القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد » وعند ما ألف هذه الرسالة تحامل عليه جماعة من علماء الوقت ، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت ،

وثارت من أجل ذلك فتنة في صنعاء اليمن بين من هو مقلد ، ومن هو مقتد بالدليل ، توها من المقلدين أنه ما أراد إلا هدم مذهب آل البيت .

قال بعض من ترجمه : وحاشاه من التعصب على من أوجب الله محبتهم ، وجعل أجر نبينا صلى الله عليه وسلم في تبليغ الرسالة مودتهم ، لأن له الولاء التام لهم . وقد نشر محاسنهم في مؤلفه در السحابة ، بما لا يخالج بعده ريبة لمرتاب ، على أن كلامه مع الجميع من أهل المذاهب سواء بسواء ، لأن المأخذ واحد ، والرد واحد والخطب يسير ، والخلاف في المسائل العلمية الظنية سهل ، وعقيدته عقيدة مذهب السلف من حمل صفات الباري تعالى ، الواردة في القرآن الحكيم والسنة النبوية الصحيحة على ظاهره من غير تأويل ولا تحريف . وقد ألف رسالة في ذلك سماها [التحف بمذهب السلف] .

ذكر مؤلفاته

له مؤلفات مفيدة في فنون عديدة : منها ، كتاب نيل الأوطار شرح متقى الأخبار في الحديث الشريف ١ وأدب الطلب ومنهى الأرب ، وتحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين ٢ ، وإرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات : ردًا على الخبيث موسى بن ميمون الأندلسي اليهودي في ظاهر المستند والزندق في باطن المعتقد ، والطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف : في المسألة المشهورة التي تنازعا فيها بين يدى تيمورلنك ، وشفاء العلل في حكم الزيادة في الثمن لمجرد الأجل ، وشرح الصدور في تحريم رفع القبور ، وطيب النشر في المسائل العشر : جواب عن سؤال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي ، ورسالة أجاب بها الشريف إبراهيم بن أحمد بن إسحاق ، ومنها الصوارم الهندية المسلوقة على الرياض الندية : لإبطال قول من أوجب غسل الفرجين قبل الوضوء وجعله من أركانه كما هو مذهب الزيدية ، ورسالة في اختلاف العلماء في تقدير مدة النفاس ، ورسالة في الرد على القائل بوجوب التحية ، والقول الصادق في حكم الإمام نفاسي ، ورسالة في حد السفر الذي يجب معه قصر الصلاة ، وله تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع : يعني جمع الصلاتين في الحضر ردًا على القائلين بجوازه من الزيدية ، والرسالة المكملة في أدلة البسملة ، وإطلاع أرباب الكمال على مافي رسالة الجلال في الهلال من الاختلال ، ورسالة في حكم الطلاق البدعي هل يقع أم لا ، ورسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق ، ورسالة في حكم رضاع الكبير هل يقتضي التحريم أم لا ، ورسالة تنبيه ذوى الحجا على حكم بيع الرجا ، ورسالة القول المحرر في حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر ، وعقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد ، ورسالة في إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع ، ورسالة زهر النسرين في حديث المعمرين ، وإتحاف المهرة في الكلام على حديث : لا عدوى ولا طيرة ، وعقود الجمان في بيان حلود البلدان ، وأخرى سماها إرشاد الأعيان إلى تصحيح مافي عقود الجمان ردًا على السيد العلامة حسين ابن يحيى الديلمي ، ورسالة حل الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأزبال ، وأخرى ردًا على مناقضها

(١) طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر على ورق جيد مضبوطة الأحاديث بالشكل الكامل ومعنى بتصحيحها في سنة

(٢) طبع لأول مرة سنة ١٣٥٠ هـ مع ضبط المتن بالشكل الكامل . بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

السيد العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكباني ، التي سماها إرسال المقال على إزالة حل الإشكال ، فرد شيخ الإسلام المترجم له على تعقبه بتفويق النبال إلى إرشاد المقال ، ورسالة بغية في مسألة الرؤية : يعني رؤية الله في الآخرة بين فيها مذهب أهل السنة ، وزيف مقال أهل البدعة ، والتشكيك على التفكيك ، وإرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي ، ورسالة رفع الجناح عن نافي المباح هل هو مأمور به أم لا ، والقول المقبول في رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول ، وجواب السائل عن قول الله تعالى - والقمر قدرناه منازل - ، وأمنية المنشوق إلى معرفة حكم علم المنطق ، وإرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد ، ورسالة وبل الغمامة في قوله تعالى - وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة - ، ورسالة في قول المحدثين رجال إسناده ثقات ، ورسالة البحث الملم المتعلق بقوله تعالى - لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - ، والبحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر ، ورسالة الدواء العاجل لدفع العدو الصائل ، ورسالة عجيبة في رفع المظالم والمآثم ، والدر النضيد ، في إخلاص كلمة التوحيد ، ورسالة في وجوب توحيد الله عز وجل ، ورسالة المقالة الفاخرة في اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة ، ونزهة الأحداق في علم الاشتقاق ، ورفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة ، وتحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل ، وكشف الأستار عن حكم الشفعة بالحوار ، والوشى المرقوم في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم ، وكشف الأستار في إبطال القول بفناء النار ، ورسالة في الإرشاد إلى مذهب السلف سماها : التحف في الإرشاد إلى مذهب السلف : جواب سؤال ورد عليه من علماء مكة المشرفة في إجراء الصفات الإلهية على ظاهرها من غير تأويل ، ورسالة الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الإلحاد ، ورسالة على حديث : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، ورسالة إشراق النيرين في بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين ، ورسالة في حكم التسعير ، ورسالة نثر الجواهر في شرح حديث أبي ذر ، ورسالة منحة المنان في أجرة القاضي والسجان ، ورسالة في مسائل العول ، ورسالة تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال : يعني طلب ولاية الجور من الأغنياء ظلما من المال يسمونه معونة ، وقطر الولى في معرفة الولى ، والتوضيح في تواتر ماجاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح ، ورسالة في حكم الاتصال بالسلطين ، ورسالة جيد النقد في عبارة الكشف والسعد ، ورسالة بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد ، والروض الواسع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع ، ورسالة فتح الخلاق في جواب مسائل عبد الرزاق مشتملة على جواب مائة وخمسين سؤالا في علم المنطق ، إلى غير ذلك من التصانيف التي لم يتسع المقام لبسطها وذكرها . وأما الأبحاث التي اشتملت عليها فتاواه المسماة بالفتح الرباني فكثيرة جدا ، والله أعلم .

مراجعته

- ١ - النحاس : هو أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس أبو جعفر من أهل مصر ، رحل إلى بغداد فأخذ عن المبرد والأخفش على بن سليمان ونفطويه والزجاج وغيرهم ، ثم عاد إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .
- ب - ابن عطية : هو عبد الله بن عطية بن عبد الله بن حبيب أبو محمد المقرئ المفسر ، مات سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ، قيل أنه كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر للاستشهاد بها على معاني القرآن وغيره وكان ثقة .
- ج - ابن عطية أيضا : هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي ، عالم بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو والأدب واللغة ، حسن التقييد ، له نظم ونثر . ولى قضاء « المرية » من بلاد المغرب سنة تسع وعشرين وخمسمائة . ألف كتابه الوجيز في التفسير ، فأحسن فيه وأبدع ، وطار لحسن نيته كل مطار ، كذا قال في الإحاطة من مؤلفات المغاربة ، ومولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة في بلاد المغرب .
- د - القرطبي : قال الذهبي في النبلاء في ترجمته ما لفظه : القرطبي الإمام العلامة المفسر صاحب التصانيف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي المالكي ، نزيل منية ابن خصيب من الديار المصرية ، عمل التفسير الكبير وتعب عليه وحشاه بكل فريدة ، وألف كتاب الأسنى في الأسماء الحسنی ، وكتاب التذكرة في أمور الآخرة ، وغير ذلك . وكان من أوعية العلم ، ثم قال : وسمع من ابن دواح وابن الحميري وأبي العباس بن المزني وعدة ، روى عنه بالإجازة ولده شهاب الدين أبو العلاء بالمنية ، ثم قال : ومات سنة نيف وسبعين وستمائة في أوائل سنة إحدى بالمنية انتهى .
- وقال في تاريخ الإسلام العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن بكير بن فرج : الإمام القرطبي إمام متقن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله . ثم ذكر موته .
- وقال بعده : وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان ، وله الأسنى في شرح الأسماء الحسنی ، والتذكرة ، وأنها تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه انتهى .
- وقال الكتبي في تاريخه : كان شيخا فاضلا ، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه ، منها تفسير القرآن مليح إلى الغاية في ستة عشر مجلدا انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل القرآن منتهى الحكمة

وهدى به كل شئ مستقيماً

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

تفنيه

جری المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية

نافع مع تعرضه للقراءات السبع وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف

العثماني

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

كِتَابُ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يروى المفتقر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسنى اليمنى غفر الله له وللمؤمنين .
للقاضى الحافظ الشهير محمد بن على بن محمد الشوكانى الصنعانى ، المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية ، عن المولى الجهيد
الكبير سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد الله حميد الدين أبقاه الله تعالى ، عن السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله
أبى طالب الحسن اليمنى ، المتوفى سنة ١٣٠٩ ، عن القاضى الحافظ أحمد بن محمد بن على الشوكانى ، المتوفى سنة
١٢٨١ ، عن أبيه المؤلف . قال رحمه الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى جعل كتابه المبين كافلا ببيان الأحكام ، شاملا لما شرعه لعباده من الحلال والحرام ، مرجعا
للأعلام عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام وتحالف الكلام ، قاطعا للخصام شافيا للسقام مرهما للأوهام . فهو العروة
الوثقى التى من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم ، والحادثة الواضحة التى من سلكها فقد هدى إلى الصراط المستقيم .
فأى عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم ، وأى لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم .
كلا والله إن بلاغات البلغاء المصاقع ، وفصاحات الفصحاء البواقع ، وإن طال ذبولها ، وسالت سيولها ، واستنت
بمباديها خيولها ، تنقاصر عن الوفاء بأوصافه ، وتتصاغر عن التشبث بأدنى أطرافه ، فيعود جيدها عنه عاطلا ،
وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا ، فهو كلام من لا تحيط به العقول علما ، ولا تدرك كنهه الطباع البشرية فهما ،
فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام ، وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال
والإعظام . والصلاة والسلام على من نزل إليه الروح الأمين ، بكلام رب العالمين ، محمد سيد المرسلين ، وخاتم
النبيين ، وعلى آله المطهرين ، وصحبه المكرمين .

وبعد : فإن أشرف العلوم على الإطلاق ، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق ، وأرفعها قدرا بالاتفاق ، هو

علم التفسير لكلام القوى القدير ، إذا كان على الوجه المعتبر في الورد والصدر ، غير مشوب بشيء من التفسير بالرأى الذى هو من أعظم الخطر ، وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان ، قريبة إلى الأفهام والأذهان ، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق ، ويدرى بها من يميز بين كلام البشر ، وكلام خالق القوى والقدر ، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل ، ومن لم يفهمه فليس بمتأهل للتحصيل ، ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » .

ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشاخصة الأركان ، العالية البنيان ، المرتفعة المكان ، رغبت إلى الدخول من أبوابه ، ونشطت إلى القعود في محرابه ، والكون من أحزابه ، ووطنت النفس على سلوك طريقة ، هى بالقبول عند الفحول حقيقة ، وهى أنا أوضح لك منارها ، وأبين لك لإيرادها وإصدارها فأقول :

إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين ، وسلكوا طريقين : الفريق الأول اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية ، وقنعوا برفع هذه الرواية . والفريق الآخر جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية ، وما تفيده العلوم الآلية ، ولم يرفعوا إلى الرواية راسا ، وإن جاءوا بها لم يصححوا لها أساسا ، وكلا الفريقين قد أصاب ، وأطال وأطاب ، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب ، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب ، فإن ما كان من التفسير ثابتا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كان المصير إليه متعينا ، وتقديمه متحما ، غير أن الذى صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن ، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان . وأما ما كان منها ثابتا عن الصحابة رضى الله عنهم ، فإن كان من الألفاظ التى قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوى بوجه من الوجوه فهو مقدم على غيره ، وإن كان من الألفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم . فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب ، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة . وأيضا كثيرا ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى ، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية ، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التى تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعانى والبيان ، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة ، لا تفسير بمحض الرأى المنهى عنه . وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه ، وابن المنذر والبيهقى في كتاب الروية عن سفيان قال : ليس في تفسير القرآن اختلاف ، إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا . وأخرج ابن سعد في الطبقات وأبو نعيم في الحلية عن أبى قلابة قال : قال أبو الدرداء : لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها . وأخرج ابن سعد أن عليا قال لابن عباس : اذهب إليهم - يعنى الخوارج - ولا تخصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ، ولكن خاصمهم بالسنة ؛ فقال له : أنا أعلم بكتاب الله منهم ، فقال : صدقت ، ولكن القرآن حمال ذو وجوه . وأيضا لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف ، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن ، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف ، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صح إسناده إليه . وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين ، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين ، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه ، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضى للترجيح بين التفاسير

المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه ، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب ، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم ، أو الأئمة المعبرين . وقد أذكر ما في إسناده ضعف ، إما لكونه في المقام ما يقويه ، أو لموافقته للمعنى العربى ، وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد ، لأنى أجده في الأصول التى نقلت عنها كذلك كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطى وغيرهم ، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً ولا يبينونه ، ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه إنهم قد علموا ثبوته ، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد ، بل هذا هو الذى يغلب به الظن ، لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك ، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحسن ، فن وجد الأصول التى يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم إليها فليُنظر في أسانيد ما موففاً إن شاء الله .

واعلم أن تفسير السيوطى المسمى « بالدر المنثور » قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وتفسير الصحابة ومن بعدهم ، وما فاته إلا القليل النادر . وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير ، مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى بقولى ومثله أو نحوه وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجدتها في غيره من تفاسير علماء الرواية ، أو من الفوائد التى لاحت لي من تصحيح أو تحسين أو تضعيف ، أو تعقب أو جمع أو ترجيح .

فهذا التفسير وإن كبر حجمه ، فقد كثر علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحق سهمه ، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فوائده وقواعد شوارده ، فإن أحبت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين ، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لبّ الباب ، وعجب العجائب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مأرب الألباب . وقد سميت :

فتح القدير

الجامع بين فى الرواية والدراية من علم التفسير

مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية ، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية ، راجياً منه جلّ جلاله أن يديم به الانتفاع ويجعله من الذخائر التى ليس لها انقطاع .

واعلم أن الأحاديث فى فضائل القرآن كثيرة جداً ، ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به فى الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه ، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته .

قال القرطبي : ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه ، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو ؛ فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلو ، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه ، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلو ولا يدريه ، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا . وينبغى له أن يعرف المكى من المدنى ، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده فى أول الإسلام ، وما نذبه لهم إليه فى آخر الإسلام ، وما فرض فى أول الإسلام وما زاد عليهم من الفرائض فى آخره ، فالمدنى هو الناسخ للمكى فى أكثر القرآن .

وقال أيضا : قال علماؤنا : وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين . فمن ذلك أن علي بن أبي طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ، فقال له رجل : جعلت فداك ، تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ؟ فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) . وقال مجاهد : أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن نزلت وما يعنى بها . وقال الشعبي : رجل مسروق في تفسير آية إلى البصرة ، فقيل له إن الذي يفسرها رجل إلى الشام ، فتجهز ورجل إلى الشام حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة في قوله عز وجل (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . قال ابن عبد البر : هو ضميرة بن حبيب . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يمنغني إلا مهابته ، فسألته فقال : هي حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب . ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب . وذكر ابن أبي الخوارى أن فضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم : لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، فقالوا : قد تعلمنا القرآن ، فقال : إن في تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ، فقالوا : كيف يا أبا علي ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه ومتشابهه وناسخه من منسوخه ، فإذا عرفتم ذلك استغنيت عن كلام فضيل وابن عيينة . وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر .

سورة الفاتحة

معنى الفاتحة في الأصل أول ما من شأنه أن يفتح به ، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام ، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية ، فسميت هذه السورة « فاتحة الكتاب » لكونه افتتح بها ، إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف ، وأول ما يتلوه التالى من الكتاب العزيز ، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن . وقد اشتهرت هذه السورة الشريفة بهذا الاسم في أيام النبوة . قيل هي مكية ، وقيل مدنية .

وقد أخرج الواحدى في أسباب النزول ، والثعلبى في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال : نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما في دلائل النبوة ، والثعلبى والواحدى من حديث عمرو بن شرحبيل « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما شكى إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحي ، فذهبت به إلى ورقة فأخبره فقال له : إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلقي : يا محمد يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا في الأرض ، فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول ثم اتنى فأخبرني ، فلما خلا ناداه يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، حتى بلغ ولا الضالين » الحديث . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال : لما أسلمت فتيان بنى سلمة وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له : هل لك أن تسمع من أبيك ما روى عنه ؟ فسأله فقرأ عليه : الحمد لله رب العالمين ، وكان ذلك قبل الهجرة . وأخرج أبو بكر بن الأنبارى في المصاحف عن عبادة قال : فاتحة الكتاب نزلت بمكة . فهذا جملة ما استدلل به من قال إنها نزلت بمكة . واستدل من قال إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه ،

والطبراني في الأوسط من طريق مجاهد عن أبي هريرة « أن إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب » وأنزلت بالمدينة . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو نعيم في الحلية وغيرهم من طرق عن مجاهد قال : نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة ، وقيل إنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة جمعا بين هذه الروايات . وتسمى « أم الكتاب » قال البخاري في أول التفسير : وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة . وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن أيوب عن محمد بن سيرين كان يكره أن يقول أم الكتاب ويقول : قال الله تعالى « وعنده أم الكتاب » ولكن يقول فاتحة الكتاب . ويقال لها الفاتحة لأنها يفتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام . قال ابن كثير في تفسيره : وصح تسميتها بالسبع المثاني ، قالوا : لأنها تنفي في الصلاة فتقرأ في كل ركعة . وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لأم القرآن : هي أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي القرآن العظيم » . وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي هريرة أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني » . وأخرج نحوه ابن مردويه في تفسيره والدارقطني من حديثه ، وقال كلهم ثقات . وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى (سبعا من المثاني) بالفاتحة .

ومن جملة أسماؤها كما حكاه في الكشف سورة الكثر ، والواقية ، وسورة الحمد ، وسورة الصلاة . وقد أخرج الثعلبي أن سفيان بن عيينة كان يسمى فاتحة الكتاب الواقية . وأخرج الثعلبي أيضا عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير أنه سأل سائل عن قراءة الفاتحة خلف الإمام ، فقال عن الكافية تسأل ؟ قال السائل : وما الكافية ؟ قال : الفاتحة ، أما علمت أنها تكني عن سواها ولا يكني سواها عنها . وأخرج أيضا عن الشعبي أن رجلا اشتكى إليه وجع الخاصرة ، فقال : عليك بأساس القرآن ، قال : وما أساس القرآن ؟ قال : فاتحة الكتاب . وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله أعطاني فيما من به علي فاتحة الكتاب ، وقال هي من كنوز عرشي » . وأخرج إسحاق بن راهويه في مسنده عن علي نحوه مرفوعا . وقد ذكر القرطبي في تفسيره للفاتحة اثني عشر اسما وهي سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير في تفسيره . وقال القرطبي : أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلا ما روى عن حسين الجعفي أنها ست وهو شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل إياك نعبد آية ، فهي عنده ثمان ، وهو شاذ انتهى . وإنما اختلفوا في البسملة كما سيأتي إن شاء الله . وقد أخرج عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة ، وابن الأثير في المصاحف عن محمد بن سيرين أن أبي بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين ، ولم يكتب ابن مسعود شيئا منهن . وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف ، وقال : لو كتبها لكتبت في أول كل شيء .

وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث ، منها ما أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد » قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ؟ قال نعم - الحمد لله رب العالمين - هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته . . وأخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له « أتعب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ؟ ثم أخبره أنها الفاتحة » . وأخرجه النسائي وأخرج أحمد في المسند

من حديث عبد الله بن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها » وفي إسناده ابن عقيل ، وقد احتج به كبار الأئمة ، وبقية رجاله ثقات . وعبد الله بن جابر هذا هو العبدى كما قال ابن الجوزى ، وقيل الأنصارى البياضى كما قال ابن عساكر . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما أخبروه بأن رجلاً رقى سلباً بفاتحة الكتاب : وما كان يدريه أنها رقية » الحديث . وأخرج مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبريل إذ سمع نقباً فوقف ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط » ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يوتيهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته » وأخرج مسلم والنسائي والترمذى ، وصححه من حديث أبي هريرة « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثاً ، غير تامة » . وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت » وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي زيد وكان له صحبة قال « كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض فجاج المدينة ، فسمع رجلاً يتعبد ويقرأ بأم القرآن ، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستمع حتى ختمها ثم قال ما في القرآن مثلها » . وأخرج سعيد بن منصور في سننه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم » . وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه ، وحديث أبي هريرة مرفوعاً . وأخرج الدارمي ، والبيهقي في شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فاتحة الكتاب « شفاء من كل داء » . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن السنن في عمل اليوم والليلة ، وابن جرير والحاكم ، وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه « أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أقبل راجعاً من عنده ، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد ، فقال أهله : أعندك ما تداوى به هذا ؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير ، قال : فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية ، أجمع بزاقى ثم أتفل فبرأ ، فأعطاني مائة شاة ، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال : كل ، فمن أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق » . وأخرج الفريابي في تفسيره عن ابن عباس قال « فاتحة الكتاب ثلث القرآن » . وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد ، فكأنما قرأ ثلث القرآن » . وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم « فاتحة الكتاب تعدل بثلاثي القرآن » . وأخرج الحاكم وصححه ، وأبو ذر الهروي في فضائله ، والبيهقي في الشعب عن أنس قال « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسيره له ، فنزل فثنى رجل من أصحابه إلى جنبه ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ألا أخبرك بأفضل القرآن ، فتلا عليه الحمد لله رب العالمين » . وأخرج أبو نعيم والديلمي عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فاتحة الكتاب تجزى ما لا يجزى شيء من القرآن ، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان ، وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات » . وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن مرسلًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

اختلف أهل العلم هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها ، أو هي بعض آية من أول كل سورة ، أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها ، أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل ؟ والأقوال وأدلتها مبسوسة في موضع الكلام على ذلك . وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل . وقد جزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة . وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام فلم يجعلوها آية لامن الفاتحة ولا من غيرها من السور ، قالوا : وإنما كتبت للفصل والتبرك . وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرجه الحاكم في المستدرک . وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وغيرها آية » وفي إسناده عمه وبن هارون البلخي وفيه ضعف ، وروى نحوه الدارقطني مرفوعاً عن أبي هريرة .

وكما وقع الخلاف في إثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة . وقد أخرج النسائي في سننه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة « أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة ، وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم . وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتح الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم » قال الترمذي : وليس إسناده بذلك . وقد أخرج الحاكم في المستدرک عن ابن عباس بلفظ « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بسم الله الرحمن الرحيم » ثم قال صحيح . وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : كانت قراءته مدّاً ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمدّ بسم الله ويمدّ الرحمن ويمدّ الرحيم . وأخرج أحمد في المسند وأبو داود في السنن وابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم في مستدرکه عن أم سلمة أنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » وقال الدارقطني : إسناده صحيح .

واحتج من قال بأنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين » . وفي الصحيحين عن أنس قال « صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين » . ولمسلم « لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها » . وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل . وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة . وأحاديث الترك وإن كانت أصح ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من مخرج صحيح ، فالأخذ به أولى ولا سيما مع إمكان تأويل الترك ، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي ، أعني كونها قرآناً ، والوصفي أعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتح بها من السور في الصلاة . ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالاً ورداً وتعقباً ودفعاً ، ورواية ودراية موضع غير هذا . ومتعلق بالباحث وهو أقرأ أو أتلو لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له ، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل ، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به ، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام ،

ولا يعارضه قوله تعالى - اقرأ باسم ربك الذي خلق - لأن ذلك المقام مقام القراءة ، فكان الأمر بها أهم ؛ وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسما أو فعلا فلا يتعلق بذلك كثير فائدة . والباء للاستعانة أو للمصاحبة ، ورجح الثاني الزمخشري . واسم أصله ^٣ وحذفت لامه ، ولما كان من الأسماء التي بنوا أوائلها على السكون زادوا في أوله الهمزة إذا نطقوا به لتلايقع الابتداء بالساكن ، وهو اللفظ الدال على المسمى ؛ ومن زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة وسيبويه والباقلاني وابن فورك ، وحكاه الرازي عن الحشوية والكرامية والأشعرية فقد غلط غلطا بينا ، وجاء بما لا يعقل ، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لامن الكتاب ولا من السنة ولا من لغة العرب ، بل العلم الضروري حاصل بأن الاسم الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله ، والبحث مبسوط في علم الكلام . وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » وقال الله عز وجل - ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها - وقال تعالى - قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى - . والله علم لذات الواجب الوجود لم يطلق على غيره ، وأصله إله حذفت الهمزة وعوضت عنها أداة التعريف فلزمت . وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق كالنجم والصعق ، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة ، وبعده من الأعلام المختصة . والرحمن الرحيم : اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم . وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا ، ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا . وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . وقال ابن الأنباري والزجاج : إن الرحمن عبراني والرحيم عربي وخالفهما غيرهما . والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل . وأما قول بني حنيفة في مسيلمة رحمن اليمامة ، فقال في الكشف : إنه باب من تعنتهم في كفرهم . قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين ، قال الله تعالى - وكان بالمؤمنين رحما - وقد ورد في فضلها أحاديث . منها ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه وابن خزيمة في كتاب البسمة والبيهقي عن ابن عباس قال : استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن : بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرج نحوه أبو عبيد وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضا . وأخرج الدارقطني بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان جبريل إذا جاءني بالوحي أول ما يلقى عليّ بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم في المستدرک ، وصححه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس « أن عثمان بن عفان سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال : هو اسم من أسماء الله ، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب » . وأخرج ابن جرير وابن عدي في الكامل وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ دمشق ، والثعلبي بسند ضعيف جدا عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب لتعلمه ، فقال له المعلم : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال له عيسى : وما بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال المعلم : لا أدري ، فقال له عيسى : الباء بهاء الله ، والسين سنه ، والميم مملكته ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة » وفي إسناده إسماعيل بن يحيى وهو كذاب . وقد أورد هذا الحديث ابن الجوزي في الموضوعات . وأخرج ابن مردويه والثعلبي عن جابر قال : لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق ، وسكنت الريح ، وهاج البحر ، وأصغت البهائم بأذانها ، ورجعت الشياطين من السماء ، وحلف الله بعزته وجلاله أن لا تسمى على شيء إلا بارك فيه . وأخرج

أبو نعيم والديلمي عن عائشة قالت : لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجعت الجبال حتى سمع أهل مكة دويها ، فقالوا : سحر محمد الجبال ، فبعث الله دخانا حتى أظلم على أهل مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقنا سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها » . وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله له بكل حرف أربعة آلاف حسنة ، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة ، ورفع له أربعة آلاف درجة » . وأخرج الخطيب في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب » . وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها والكلام عليها بما يتبين بعد البحث إن شاء الله . وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء ، وعند الذبيحة ، وعند الأكل ، وعند الجماع وغير ذلك .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) *

(الحمد لله) الحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، وبقيد الاختيار فارق المدح ، فإنه يكون على الجميل وإن لم يكن الممدوح مختارا كمدح الرجل على جماله وقوته وشجاعته . وقال صاحب الكشف : إنهما أخوان ، والحمد أخص من الشكر موردا وأعم منه متعلقا . فمورد الحمد للسان فقط ، ومتعلقه النعمة وغيرها . ومورد الشكر للسان والحنان والأركان ، ومتعلقه النعمة . وقيل إن مورد الحمد كمورد الشكر ، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل بخيرية واستهزاء . وأجيب بأن اعتبار موافقة القلب والجوارح في الحمد لا يستلزم أن يكون موردا له بل شرطا - وفرق بين الشرط والشرط وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد وأنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به ، لأن المنعم هو الله عز وجل ، أو على أن حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادعائيا . ورجح صاحب الكشف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق ، والصواب ما ذكرناه . وقد جاء في الحديث « اللهم لك الحمد كله » وهو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف وهو لله . وأصله النصب على المصدرية بإضمار فعله كسائر المصادر التي تنصبها العرب ، فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات المستفاد من الحمل الاسمية دون الحدوث والتجدد اللذين تفيدهما الحمل الفعلية ، واللام الداخلة على الاسم الشريف هي لام الاختصاص . قال ابن جرير : الحمد ثناء أثني به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه ، فكانه قال : قولوا الحمد لله ؛ ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلا على ذلك بما حاصله : أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر . قال ابن كثير : وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية . والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالحنان واللسان والأركان انتهى . ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين ، فإن ذلك لا يرد على ابن جرير ، ولا تقوم به الحجة ؛ هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة

(*) استحسنا إثبات جميع الفاتحة مشكولة هنا للتبرك ، ثم أثبتناها بكما لها مفرقة على مقتضى ما أثبتها المفسر الشوكاني ، فليعلم ذلك .

شرعية ، فإن ثبتت وجب تقديمها . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال عمر : قد علمنا سبحانه الله ولا إله إلا الله ، فما الحمد لله ؟ فقال عليّ : كلمة رضيها لنفسه . وروى ابن أبي حاتم أيضا عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة الشكر ، وإذا قال العبد الحمد لله قال شكرني عبدى . وروى هو وابن جرير عن ابن عباس أيضا أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله والاستحذاء له والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك . وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير ، وكانت له صحبة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك » وأخرج عبد الرزاق في المصنف والحكيم الترمذى في نوادر الأصول والخطابي في الغريب والبيهقى في الأدب والديلمى في مسند الفردوس عن عبد الله ابن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن الحبلى قال « الصلاة شكر والصيام ، وكل خير تفعله شكر وأفضل الشكر الحمد » . وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النّوّاس بن سميّان قال « سرقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لئن ردّها الله عليّ لأشكرن ربى فرجعت ، فلما رآها قال : الحمد لله ، فانتظروا هل يحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوما أو صلاة ، فظنوا أنه نسي فقالوا : يا رسول الله قد كنت قلت : لئن ردّها الله عليّ لأشكرن ربى ، قال : ألم أقل الحمد لله ؟ » .

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث . منها ما أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه ، والبخارى في الأدب المفرد عن الأسود بن سريع قال : « قلت يا رسول الله ألا أنشدك محمدا حدث بها ربى تبارك وتعالى ؟ فقال : أما إن ربك يحب الحمد » . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » . وأخرج ابن ماجه والبيهقى بسند حسن عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ » . وأخرج الحكيم الترمذى في نوادر الأصول والقرطبي في تفسيره عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو أن الدنيا كلها بخذافيرها في يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله ، لكان الحمد أفضل من ذلك » قال القرطبي : معناه لكان إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا ، لأن ثواب الحمد لا يفنى ، ونعيم الدنيا لا يبقى . وأخرج البيهقى في شعب الإيمان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها » . وأخرج عبد الرزاق في المصنف نحوه عن الحسن مرفوعا . وأخرج مسلم والنسائي وأحمد عن أبي مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » الحديث . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والترمذى وحسنه وابن مردويه عن رجل من بنى سليم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « سبحانه الله نصف الميزان ، والحمد لله تملأ الميزان ، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض ، والطهور نصف الإيمان ، والصوم نصف الصبر » . وأخرج الحكيم الترمذى عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه » . وأخرج البيهقى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « التانى من الله ، والعجلة من الشيطان ، وما شئء أكثر معاذير من الله ، وما شئء أحب إلى الله من الحمد » . وأخرج ابن شاهين في السنة والديلمى عن أبان بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « التوحيد

ثمن الجنة ، والحمد ثمن كل نعمة ، ويتقاسمون الجنة بأعمالهم . وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع » . وأخرج ابن ماجه في سننه عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فلم يدر الملك كيف يكتبها ، فصعدا إلى السماء فقال : يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله وهو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدي ؟ قالوا يا رب إنه قال : لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدي حتى يلقيها وأجزيه بها . وأخرج مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

(رب العالمين) قال في الصحاح : الرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة ، وقد قالوه في الجاهلية للملك . وقال في الكشاف : الرب المالك . ومنه قول صفوان لأبي سفيان : لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن ، ثم ذكر نحو كلام الصحاح . قال القرطبي في تفسيره : والرب السيد ، ومنه قوله تعالى - اذكرني عند ربك - وفي الحديث « أن تلد الأمة ربتها » ، والرب : المصلح والمدير والخابر والقائم قال : والرب المعبود . ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

والعالمين : جمع العالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، قاله قتادة . وقيل أهل كل زمان عالم ، قاله الحسين بن الفضل . وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس . وقال الفراء وأبو عبيد : العالم عبارة عن يعقل وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشیاطين . ولا يقال للبهائم عالم ، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل . حكى هذه الأقوال القرطبي في تفسيره وذكر أدلتها وقال : إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، دليله قوله تعالى - قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما - وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجوده ، كذا قال الزجاج . وقال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة انتهى . وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليبا للعقلاء على غيرهم . وقال في الكشاف : ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه ، وهي الدلالة على معنى العلم . وقد أخرج ماتقدم من قول ابن عباس عنه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبیر . وأخرج ابن جبیر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى - رب العالمين - قال : إله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن . والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم .

(الرحمن الرحيم) قد تقدم تفسيرهما . قال القرطبي : وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه ، فيكون أعون على طاعته وأمنع كما قال تعالى - نبي عبادي أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم - وقال - غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد » انتهى . وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله - الحمد لله رب العالمين - قال : ما وصف من خلقه ، وفي قوله الرحمن الرحيم ، قال : مدح نفسه .

ثم ذكر بقية الفاتحة (ملك يوم الدين) قرئ ملك ومالك ومالك بسكون اللام وملك بصيغة الفعل . وقد اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أو مالك؟ ف قيل إن ملك أعم وأبلغ من مالك ، إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ، قاله أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري . وقيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم ، فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك . وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك ، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك ، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا . واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي . والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر ، فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعق ونحوها ، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية ؛ فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور ، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور . والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته ، والمالك صفة لفعله . ويوم الدين : يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال - وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله - وهذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم : يأسارق الليلة أهل الدار ؛ ويوم الدين وإن كان متأخرا فقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل كقولك : هذا ضارب زيدا غدا . وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ ملك بغير ألف . وأخرج نحوه ابن الأنباري عن أنس . وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضا « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقرءون مالك بالألف » . وأخرج نحوه سعيد ابن منصور عن ابن عمر مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا وكيع في تفسيره وعبد بن حميد وأبوداود عن الزهري يرفعه مرسل . وأخرجه أيضا عبد الرزاق في تفسيره وعبد بن حميد وأبوداود عن ابن المسيب مرفوعا مرسل . وقد روى هذا من طرق كثيرة ، فهو أرجح من الأول . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ مالك يوم الدين » وكذا رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعا . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود وناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب . وكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : يوم الدين يوم يدين الله العباد بأعمالهم .

(إياك نعبد وإياك نستعين) قراءة السبعة وغيرهم بتشديد الياء ، وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر ؛ وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة ؛ وقرأ أبو السوار الغنوي « هياك » في الموضعين وهي لغة مشهورة . والضمير المنفصل هو « إيا » وما يلحقه من الكاف والهاء والياء هي حروف لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور ، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص ، وقيل للاهتمام ، والصواب أنه لهما ولا تراحم بين المقتضيات . والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لانهبد غيرك ولا نستعينه ، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل . قال ابن كثير : وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات ، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظا له كما تقرر في علم المعاني . والحجىء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد ، وقيل إن المقام لما كان عظيما لم يستقل به الواحد استقصارا لنفسه واستصغارا لها ، ، فالجىء بالنون لقصد

التواضع لالتعظيم النفس ؛ وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية ، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب ، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله إياك نعبد : يعني إياك نوحّد ونخاف ياربنا لا غيرك ، وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها . وحكى ابن كثير عن قتادة أنه قال في إياك نعبد وإياك نستعين : يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تسعينوه على أمركم . وفي صحيح مسلم من حديث المعلّى بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال : حمدني عبدي ، وإذا قال الرحمن الرحيم قال : أثني على عبدي ، فإذا قال مالك يوم الدين قال : مجدني عبدي ، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » . وأخرج أبو القاسم البغوي والباوردي معا في معرفة الصحابة والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة فلقى العدو فسمعته يقول : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها » .

(اهدنا الصراط المستقيم) قرأه الجمهور بالصاد ، وقرأ السراط بالسين ، والزراط بالزاي ؛ والهداية قد يتعذر فعلها بنفسه كما هنا ، وكقوله - وهديناه النجدين - وقد يتعدى بإلى كقوله - اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وإنك تهدي إلى صراط مستقيم - وقد يتعدى باللام كقوله - الحمد لله الذي هدانا لهذا - إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم - قال الزخشي : أصله أن يتعدى باللام أو بإلى انتهى . وهي الإرشاد أو التوفيق أو الإلهام أو الدلالة . وفرق كثير من المتأخرين بين معنى المتعدى بنفسه وغير المتعدى فقالوا : معنى الأول الدلالة ، والثاني الإيصال . وطلب الهداية من المهتدي معناه طلب الزيادة كقوله تعالى - والذين اهتدوا زادهم هدى - والذين جاهلوا فينا لهدينهم سبلنا - والصراط : الطريق ، قال ابن جرير : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم : هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وهو كذلك في لغة جميع العرب . قال : ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه . وقد أخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ اهدنا الصراط المستقيم بالصاد » . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه عن ابن عباس « أنه قرأ الصراط بالسين » . وأخرج ابن الأنباري عن ابن كثير أنه كان يقرأ السراط بالسين . وأخرج أيضا عن حمزة أنه كان يقرأ الزراط بالزاي . قال الفراء : وهي لغة لعذرة وكتب وبنى القين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال « اهدنا الصراط المستقيم يقول : ألهنا دينك الحق » . وأخرج ابن جرير عنه وابن المنذر نحوه . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله أنه قال « هو دين الإسلام وهو أوسع مما بين السماء والأرض » . وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا عن ابن مسعود وناس من الصحابة . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن النّوّاس بن سميان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتي

الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأيواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه » فالصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي من فوق : واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم . قال ابن كثير بعد إخراجهم : وهو إسناد حسن صحيح . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو بكر الأنباري والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود أنه قال « هو كتاب الله » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدى وابن عساكر عن أبي العالية قال : هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه من بعده . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي العالية عن ابن عباس مثله . وروى القرطبي عن الفضيل بن عياض أنه قال : الصراط المستقيم طريق الحج ، قال : وهذا خاص والعموم أولى انتهى . وجميع ما روى في تفسير هذه الآية ماعدا هذا المروي عن الفضيل يصدق بعضه على بعض ، فإن من اتبع الإسلام أو القرآن أو النبي فقد اتبع الحق . وقد ذكر ابن جرير نحو هذا فقال : والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي معناه به ، وفقنا للثبات على ما ارتضيته ، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وفق إليه ممن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه ، واتباع منهاج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنهاج الخلفاء الأربعة وكل عبد صالح ، وكل ذلك من الصراط المستقيم انتهى .

(صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) انتصب صراط على أنه بدل من الأول ، وفائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير ، ويجوز أن يكون عطف بيان ، وفائدته الإيضاح ، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال - ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما - وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام ، وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضللال ، أو صفة له على معنى أنهم جمعوا بين النعمتين نعمة الإيمان والسلامة من ذلك ، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون غير لا تتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام ، لأنها هنا غير مبهمة لاشتهار المغايرة بين الحسنين . والغضب في اللغة قال القرطبي : الشدة ، ورجل غضوب : أي شديد الخلق ، والغضوب : الحية الخبيثة لشدها . قال : ومعنى الغضب في صفة الله : إرادة العقوبة فهو صفة ذاته ، أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث « إن الصدقة لتطفي غضب الرب » فهو صفة فعله . قال في الكشف : هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده ، والفرق بين عليهم الأولى وعليهم الثانية ، أن الأولى في محل نصب على المفعولية ، والثانية في محل رفع على النيابة عن الفاعل . و« لا » في قوله ولا الضالين تأكيد للنفي المفهوم من غير ، والضللال في لسان العرب قال القرطبي : هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، ومنه ضل اللبن في الماء : أي غاب ، ومنه - أثذا ضللنا في الأرض - أي غبنا بالموت وصرنا ترابا . وأخرج وكيع وأبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ - صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين - وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد أن عبد الله بن الزبير قرأ كذلك . وأخرج

الأنباري ، عن الحسن أنه كان يقرأ « عليهم » بكسر الهاء والميم وإثبات الياء . وأخرج ابن الأنباري عن الأعرج أنه كان يقرأ « عليهم » بضم الهاء والميم وإلحاق الواو . وأخرج أيضا عن ابن كثير أنه كان يقرأ « عليهم » بكسر الهاء وضم الميم مع إلحاق الواو . وأخرج أيضا عن أبي إسحاق أنه قرأ « عليهم » بضم الهاء والميم من غير إلحاق واو . وأخرج ابن أبي داود عن عكرمة والأسود أنهما كانا يقرآن كقراءة عمر السابقة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) يقول : طريق من أنعمت عليهم من الملائكة والنبين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنهم المؤمنون . وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) قال النبیون (غير المغضوب عليهم) قال اليهود (ولا الضالین) قال النصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج أيضا عن سعيد بن جبیر مثله . وأخرج عبد الرزاق وأحمد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير والبغوي وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبد الله ابن شقيق قال « أخبرني من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بوادي القرى على فرس له سأل رجل من بني القين فقال : من المغضوب عليهم يا رسول الله ؟ قال اليهود ، قال : فمن الضالون ؟ قال النصارى » . وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكره . وأخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن عبد الله بن شقيق قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحاصر أهل وادي القرى فقال له رجل « إلى آخره ، ولم يذكر فيه أخبرني من سمع النبي كالأول . وأخرجه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن شقيق عن رجل من بني القين عن ابن عم له أنه قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكره . وأخرجه سفيان بن عيينة في تفسيره وسعيد بن منصور عن إسماعيل بن أبي خالد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « المغضوب عليهم : اليهود ، والضالون : النصارى » . وأخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن المغضوب عليهم هم اليهود ، وإن الضالين النصارى » . وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه والطبراني عن الشريد قال « مرّ بي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا جالس هكذا ، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي فقال : أتقعد قعدة المغضوب عليهم ؟ » قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدي بن حاتم : وقد روى حديث عدي هذا من طرق ، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها انتهى . والمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين ، وهو الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف . قال ابن أبي حاتم : لا أعلم خلافا بين المفسرين في تفسير المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى . ويشهد لهذا التفسير النبوي آيات من القرآن ، قال الله تعالى في خطابه لبني إسرائيل في سورة البقرة - بثما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين - . وقال في المائدة - قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضلّ عن سواء السبيل - وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قال اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال : أنا من غضب الله أفرّ ، وقالت له النصارى : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله ، فقال لا أستطيعه ، فاستمرّ على فطرته وجانب عبادة الأوثان .

فائدة في مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواترا ، قد دلت على

ذلك ، فمن ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مدّ بها صوته » ولأبي داود « رفع بها صوته » وقد حسنه الترمذى . وأخرجه أيضا النسائي وابن أبي شيبه وابن ماجه والحاكم وصححه ، وفي لفظ من حديثه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال « رب اغفر لى آمين » أخرجه الطبرانى والبيهقى . وفي لفظ أنه قال « آمين ثلاث مرات » أخرجه الطبرانى . وأخرج وكيع وابن أبي شيبه عن أبي ميسرة قال « لما أقرأ جبريل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاتحة الكتاب فبلغ ولا الضالين قال : قل آمين ، فقال آمين » . وأخرج ابن ماجه عن عليّ قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال ولا الضالين قال آمين » . وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا قرأ » يعنى الإمام « غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين بحكم الله » . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبي شيبه وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقى بسند قال السيوطى : صحيح عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين » . وأخرج ابن عدى من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن اليهود قوم حسد ، حسدوكم على ثلاثة : إفشاء السلام ، وإقامة الصف ، وآمين » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ مثله . وأخرج ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عباس قال « ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين ، فأكثروا من قول آمين » ووجه ضعفه أن فى إسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف . وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال آمين لم يبق ملك فى السماء مقرب إلا استغفر له » . وأخرج أبو داود عن بلال أنه قال « يارسول الله لاتسبقتنى بآمين » ومعنى آمين : استجب . قال القرطبي فى تفسيره : معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء . وقال فى الصحاح معنى آمين كذلك فليكن . وأخرج جوير فى تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال « قلت يارسول الله : ما معنى آمين ؟ قال : رب افعل » . وأخرج الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله . وأخرج وكيع وابن أبي شيبه فى المصنف عن هلال بن يساف ومجاهد قالا : آمين اسم من أسماء الله . وأخرج ابن أبي شيبه عن حكيم بن جبير مثله . وقال الترمذى : معناه لاتخيب رجاءنا . وفيه لغتان ، المد على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين ، قال الشاعر فى المد :

يارب لاتسبني حبا أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها ألفين آمينا

قال الجوهري : وتشديد الميم خطأ . وروى عن الحسن وجعفر الصادق والحسين بن فضل التشديد ، من أم إذا قصد : أى نحن قاصدون نحوك ، حكى ذلك القرطبي . قال الجوهري : وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين ، وتقول منه : أمن فلان تأمينا . وقد اختلف أهل العلم فى الجهر بها ، وفى أن الإمام يقولها أم لا ؟ وذلك مبين فى مواضعه .

سورة البقرة

قال القرطبي في تفسير سورة البقرة : مدنية نزلت في مدد شتى . وقيل هي أول سورة نزلت بالمدينة لإيقوله تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) فإنها آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى ، وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن انتهى . وأخرج أبو الضريس في فضائله وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ وابن مردويه والبيهقي في دلائل النبوة من طرق عن ابن عباس قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال : أول سورة أنزلت بالمدينة سورة البقرة .

وقد ورد في فضلها أحاديث منها ما أخرجه مسلم والترمذي وأحمد والبخاري في تاريخه ومحمد بن نصر عن النّوّاس بن سميان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » قال : وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال « كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما ظلّتان سوداوان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما » . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة » ، ثم سكّت ساعة ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف » . قال ابن كثير : وإسناده حسن على شرط مسلم . وأخرج نحوه أبو عبيد وأحمد وحيد بن زنجويه ومسلم وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا الطبراني وأبو ذر الهروي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا البزار في سننه بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعا . وأخرج مسلم والترمذي وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة » . وأخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدي في الكامل وابن عساكر في تاريخه عن أبي الدرداء مرفوعا نحوه . وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن مغفل مرفوعا نحوه . وأخرج النسائي والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود مرفوعا نحوه ، وسنده ضعيف . وأخرجه الدارمي والبيهقي والحاكم وصححه من حديثه بنحوه . وأخرج أبو يعلى وابن حبان والطبراني والبيهقي عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن لكل شيء سناما ، وسنام القرآن سورة البقرة ، من قرأها في بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام ، ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخله الشيطان ثلاث ليال » . وأخرج أحمد ومحمد بن نصر والطبراني بسند صحيح عن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « البقرة سنام القرآن وذروته » ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت - الله لا إله إلا هو الحي القيوم - من تحت العرش فوصلت بها » . وأخرج البغوي في معجم الصحابة وابن عساكر في تاريخه عن ربيعة الجرسى قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي القرآن أفضل ؟ قال : السورة التي يذكر فيها البقرة ، قيل فأى البقرة أفضل ؟ قال : آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش » . وأخرج أبو عبيد وأحمد والبخاري في صحيحه تعليقا ومسلم والنسائي عن أسيد بن حضير قال « بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس

فسكت فسكنت فانصرف إلى ابنه يحيى وكان قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصاييح عرجت إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتدرى ما ذلك ؟ قال لا يا رسول الله ، قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت تنظر إليها الناس لا تتوارى منهم » ولهذا الحديث ألفاظ . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثاً فاستقرأ كل رجل منهم » يعنى ما معه من القرآن « فأثنى على رجل من أحدثهم سناً فقال : مامعك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، قال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم ، قال اذهب فأنت أميرهم » . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عثمان بن أبى العاص قال : استعملنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف ، وذلك أنى كنت قرأت سورة البقرة . وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن الصلصال بن الديهمس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « اقرءوا سورة البقرة فى بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً » قال « ومن قرأ سورة البقرة فى ليلة توج بتاج فى الجنة » . وأخرج أبو عبيد عن عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل له : ألم تر إلى ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة ترهز مصاييح ، قال : فلعله قرأ سورة البقرة ، قال : فسئل ثابت فقال : قرأت سورة البقرة . قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد ، إلا أن فيه إيهاماً ثم هو مرسل .

وقد روى أئمة الحديث فى فضائلها أحاديث كثيرة وآثاراً عن الصحابة واسعة ، ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي ، وما هو خاص بخواتم هذه السورة ، وقد سبق بعض ذلك ، وما هو فى فضلها وفضل آل عمران ، وقد سبق أيضاً بعض من ذلك وما هو فى فضل السبع الطوال ، كما أخرج أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « أعطيت السبع مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المثانى مكان الزبور ، وفضلت بالمفصل » وفى إسناده سعيد بن بشير وفيه لين ، وقد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبى هلال . وأخرج أيضاً عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « من أخذ السبع فهو خير » . وقد رواه عنها أحمد فى المسند باللفظ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير » . وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى - ولقد آتيناك سبعاً من المثانى - قال : هى السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، وبذلك قال مجاهد ومكحول وعطية بن قيس وأبو محمد القارى شداد بن عبد الله ويحيى بن الحارث الذمارى .

وقد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله . فأخرج ابن الضريس والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة ، والسورة التى يذكر فيها آل عمران ، وكذا القرآن كله » قال ابن كثير : هذا حديث غريب لا يصح رفعه ، وفى إسناده يحيى بن ميمون الخوَّاص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به . وأخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال « لا تقولوا سورة البقرة ، ولكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة » . وقد روى عن جماعة من الصحابة خلاف هذا . فثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الحمرة من بطن الوادى ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة . وأخرج

ابن أبي شيبه وأحمد ومسلم وأهل السنن والحاكم وصححه عن حذيفة قال « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة من رمضان فافتتح البقرة ، فقلت يصلى بها في ركعة ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلاً » الحديث . وأخرج أحمد وابن الضريس والبيهقي عن عائشة قالت « كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الليل فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء » . وأخرج أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال « قمت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة ، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف » الحديث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : الَمْ (١)

(الَمْ) قال القرطبي في تفسيره : اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ، والله في كل كتاب من كتبه سر ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا نحب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها ، وتمد كما جاءت . وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلى ابن أبي طالب . قال : وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمرو وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله عز وجل . قال : وقال جمع من العلماء كثير : بل نحب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها . واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة ، فروى عن ابن عباس وعلى أيضاً أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لانعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما : هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب : كان ينفرون عند استماع القرآن ، فلما نزل الَمْ والمص استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وآله وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبت في أسماعهم وآذانهم ويقم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لما عرضوا عن القرآن بمكة - وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه - فأنزلنا استغربوها فيفتحون أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها ، كقول ابن عباس وغيره الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد ، وذهب إلى هذا الزجاج فقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى . وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة كقوله : فقلت لما قني ، فقالت قاف : أي وقفت . وفي الحديث « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة » قال شقيق : هو أن يقول في اقتل اق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « كفى بالسيف شا » أي شافيا ، وفي نسخة شاهدا . وقال زيد بن أسلم : هي أسماء للسور . وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه . ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما ذكره الزنجشري في الكشف فإنه قال : واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء : وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف . بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ، ومن المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ، ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء

والقاف ، ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ، ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء ، ومن المفتحة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ، ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء ، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والتاء والعين والسين والحاء والنون ، ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء . ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكنوزة بالمدكورة منها ، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته ، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله ، وهو المطابق للطائفة التنزيل واختصاراته ، فكان الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبيكات لهم وإلزام الحججة إياهم ، وما يدل على أنه تعمد بالذكور من حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلام ، أن الألف واللام لما تكاثرا وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين ، وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر انتهى . وأقول : هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها ، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحججة والتبيكات كما قال ، فهذا متيسر بأن يقال لهم : هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها ، فيكون هذا تبكيئا وإلزاما يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة ، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح ، هو أيضا مما لا يفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيئا منه فضلا عن أن يكون تبكيئا له وإلزاما للحجة أيا كان ، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه ولم يفهم السامع هذا ، ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدى لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلا عن كله . ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها ، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهل ولا إسلامي ولا مقرر ولا منكر ولا مسلم ولا معارض ، ولا يصح أن يكون مقصدا من مقاصد الرب سبحانه ، الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به . وهب أن هذه صناعة عجيبة ونكدة غريبة ، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ أو فصيح ، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين ، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر . وأيضا لو فرض أنها كلمات مركبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك ، لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألغاز والتعمية ، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر بل من عكسهما وضد رسمهما - وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازما بأن ذلك هو ما أراد الله عز وجل ، فقد غلط أقبح الغلط وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط ، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسر بها راجعا إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت ، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك ، وإذا سمعه السامع منهم كان معدودا عنده من الرطانة ، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدم ما يدل عليه ويفيد معناه ، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثله ما تقدم ذكره . ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم ، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا ؟ وإذا تقرر لك أنه لا يمكن الاستفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين : الأول التفسير بمحض الرأي الذي ورد

النهي عنه والوعيد عليه ، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتكيب عن طريقه ، وهم أتقى الله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم وخزعبلات أفكارهم عليه . الثاني التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع ، وهذا هو المهيح الواضح والسييل القويم ، بل الحادة التي ما سواها مردوم ، والطريقة العامة التي ما عداها معلوم ، فمن وجد شيئا من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ويتكلم بما وصل إليه علمه ، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري ، أو الله أعلم بمراده ، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة ، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم ريغ ، فكيف بما نحن بصددده ؟ فإنه ينبغي أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلا ، ولكلام العرب فيه مدخلا ، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير . وانظر كيف فهم اليهود عند سماع الم فلاهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها ، كما أخرج ابن إسحاق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال : « مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة (الم ذلك الكتاب لا ريب) فأتى أخاه حي بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه الم ذلك الكتاب ، فقال : أنت سمعته ؟ فقال نعم ، فشى حي في أولئك نفر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك (الم ذلك الكتاب) قال بلى ، قالوا : أجماعك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك الأنبياء ما نعلمه بين نبي منهم مائة ملكه وما أجل أمته غيرك ، فقال حي بن أخطب : وأقبل على من كان معه الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون في دين نبي إنما مدته ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد هل مع هذا غيره ؟ قال نعم ، قال : وما ذاك ؟ قال المص ، قال : هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال نعم ، قال : وما ذاك ؟ قال - الر - قال : هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان ، هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان ، فهل مع هذا غيره ؟ قال نعم - المر - قال : فهذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى قليلا أعطيت أم كثيرا ثم قاموا ، فقال أبو ياسر لأخيه حي ومن معه من الأخبار : ما يلزيكم لعله قد جمع هذا لحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة ، فقالوا : لقد تشابه علينا أمره ، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم - هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات - فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء ، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الموضع ، فإن هؤلاء الملاء قد جعلوا ما فهموه عند سماع (الم ذلك الكتاب) من ذلك العدد موجبا للتشيط عن الإجابة له والدخول في شريعته ، فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول يفهم ، لدفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ظنوه بآدي بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاعوا به من التشكيك على من معهم :

فإن قلت : هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به ؟ قلت : لا أعلم أن رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم تكلم في شيء من معانيها ، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها ، فأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وله طرق عن ابن مسعود . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري عن عوف بن مالك الأشجعي نحوه مرفوعاً . فإن قلت : هل روى عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلى ؟ قلت : قد روى ابن جرير والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود أنه قال الم حرف اشتقت من حروف اسم الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله الم وحَمَّ ونَّ قال : اسم مقطع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضاً في قوله ، الم ، والمص ، والر ، والمر ، وكهيعص ، وطه ، وطسم ، وطس ، ويس ، وص ، وحَمَّ ، وق ، ون ، قال : هو قسم أقسمه الله وهو من أسماء الله . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله الم قال : هي اسم الله الأعظم . وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في قوله الم قال : ألف مفتاح اسمه الله ولام مفتاح اسمه لطيف وميم مفتاح اسمه مجيد . وقد روى نحو هذه التفسير عن جماعة من التابعين فيهم عكرمة والشعبي والسدي وقتادة ومجاهد والحسن . فإن قلت : هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة ؟ قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه . قلت : لا لما قلنا ، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فإن قلت : هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا مدخل للغة العرب فلم لا يكون له حكم الرفع ؟ قلت : تنزيل هذا منزلة المرفوع ، وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم ، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين ، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام وهو التفسير لكلام الله سبحانه ، فإنه دخول في أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم إنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد ، وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد . على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه ، ثم ها هنا مانع آخر ، وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلف متناقض ، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكما لا وجه له ، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض ولا يجوز . ثم ها هنا مانع غير هذا المانع ، وهو أنه لو كان شيء لما قالوه مأخوذاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تفقوا عليه ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه ، فلما اختلفوا في هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم لو كان عندهم شيء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعها إليه ، لاسيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها . والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك ، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا ، وإذا انتهت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه ، وسيأتي لنا عند تفسير قوله تعالى - منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات - كلام طويل الذيول ، وتحقيق تقبله صحاحات الأفهام وسليات العقول

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)

الإشارة بقوله ذلك إلى الكتاب المذكور بعده . قال ابن جرير : قال ابن عباس (ذلك الكتاب) هذا الكتاب وبه قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل وزيد بن أسلم وابن جريج ، وحكاه البخارى عن أبى عبيدة . والعزب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب مكان الإشارة إلى القريب الحاضر كما قال خفاف : أقول له والرمح يأطر منته تأمل خفافاً أننى أنا ذلكا

أى أنا هذا ، ومنه قوله تعالى - ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم - وتلك حجتنا آتينها إبراهيم - تلك آيات الله نتلوها عليك - ذلكم حكم الله يحكم بينكم - وقيل إن الإشارة إلى غائب ، واختلف في ذلك الغائب ، فقيل هو الكتاب الذى كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق (لاريب فيه) أى لا مبدل له ، وقيل ذلك الكتاب الذى كتبه الله على نفسه فى الأزل أن رحمته سبقت غضبه ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده : إن رحمتى تغلب غضبى » . وفى رواية « سبقت » . وقيل الإشارة إلى ما قد نزل بمكة ، وقيل إلى ما فى التوراة والإنجيل ، وقيل إشارة إلى قوله قبله الم ، ورجحه الزمخشري ، وقد وقع الاختلاف فى ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبها حكاها القرطبي وأرجحها ما صدرناه ، واسم الإشارة مبتدأ ، والكتاب صفته ، والخبر لاريب فيه ، ومن جوز الابتداء بالم جعل ذلك مبتدأ ثانياً ، وخبره الكتاب أو هو صفته ، والخبر لاريب فيه ، والجملة خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون المبتدأ مقدراً وخبره الم وما بعده . والريب مصدر ، وهو قلق النفس واضطرابها ، وقيل إن الريب : الشك . قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى هذا خلافاً . وقد يستعمل الريب فى التهمة والحاجة ، حكى ذلك القرطبي . ومعنى هذا النى العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالاته وضوحاً يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغى الارتياح فيه بوجه من الوجوه ، والوقف على « فيه » هو المشهور . وقد روى عن نافع وعاصم الوقف على (لاريب) . قال فى الكشف : ولا بدّ للواقف من أن ينوى خبراً ونظيره قوله تعالى - قالوا لاضير - وقول العرب : لا بأس ، وهى كثيرة فى لسان أهل الحجاز ، والتقدير : لاريب فيه فيه هدى . والهدى مصدر . قال الزمخشري : وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال فى مقابلته انتهى . ومحل الرفع على الابتداء وخبره الظرف المذكور قبله على ما سبق . قال القرطبي : الهدى هديان : هدى دلالة وهو الذى يقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى - ولكل قوم هاد - وقال - وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم - فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ، وتفرد سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم - إنك لاتهدى من أحببت - فالهدى على هذا يحى معنى خلق الإيمان فى القلب ، ومنه قوله تعالى - أولئك على هدى من ربهم - وقوله - ولكن الله يهدى من يشاء - انتهى . والمتقين من ثبتت لهم التقوى . قال ابن فارس : وأصلها فى اللغة قلة الكلام . وقال فى الكشف : المتقى فى اللغة : اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى ، والوقاية : الصيانة ، ومنه : فرس واق ، وهذه الدابة تقى من وجارها : إذا أصابها ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر ، فهو يقى حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه . وهو فى الشريعة : الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك انتهى . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن الكتاب : القرآن ، لاريب فيه : لاشك فيه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله « لاريب فيه » قال : لاشك فيه . وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم عن أبى الدرداء قال : الريب الشك . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله ، وكذا ابن جرير عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله - هدى للمتقين - قال : نور للمتقين وهم المؤمنون . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير

وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله - هدى للمتقين - أى الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق مما جاء منه . وأخرج ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل أنه قيل له : من المتقون ؟ فقال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة . وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة أن رجلا قال له : ما التقوى ؟ قال : هل وجدت طريقا ذا شوك ؟ قال نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى . وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : تمام التقوى أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الحرام . وقد روى نحو ما قاله أبو الدرداء عن جماعة من التابعين . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى في تاريخه والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقى في الشعب عن عطية السعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس » فالمصير إلى ما أفاده هذا الحديث واجب ، ويكون هذا معنى شرعيا للمتنى أخص من المعنى الذى قدمنا عن صاحب الكشف زاعما أنه المعنى الشرعى .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

هو وصف للمتقين كاشف . والإيمان في اللغة : التصديق ، وفي الشرع ما سأتى . والغيب في كلام العرب : كل ما غاب عنك . قال القرطبي : واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب في هذه الآية هو الله سبحانه ، وضعفه ابن العربي . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تعارض بل يقع الغيب على جميعها ، قال : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه في حديث جبريل حين قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم « فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » ، قال : صدقت انتهى . وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره » . وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم كلاهما في معرفة الصحابة عن تويلة بنت أسلم قالت « صليت الظهر أو العصر في مسجد بنى حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيليا فصلينا سجدتين ، ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد استقبل البيت ، فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ، فجلسنا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أولئك قوم آمنوا بالغيب » . وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال « كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيمانا ؟ فقالوا : يا رسول الله الملائكة ، قال : هم كذلك ويحق لهم ، وما يمنهم وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها ، قالوا : يا رسول الله الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالاته والنبوة ، قال : هم كذلك ويحق لهم ، وما يمنهم وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها ، قالوا : يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء ، قال : هم كذلك ، وما يمنهم وقد أكرمهم الله بالشهادة ، قالوا : فمن يارسول الله ؟ قال : أقوام في أصلاب الرجال يأتون من بعدى يؤمنون بي ولم يروني ويصدقوني ولم يروني ، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه ، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا » وفي إسناد محمد بن أبي حميد وفيه ضعف . وأخرج الحسن بن

عرفة في حربه المشهور والبيهي في الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكر نحو الحديث الأول ، وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري وهو منكر الحديث . وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعا ، والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعا أيضا ، والبزار عن أنس مرفوعا . وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ياليتني قد لقيت إخواني . قالوا : يا رسول الله ألسنا إخوانك ؟ قال : بلى ، ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصروني نصركم ، فياليتني قد لقيت إخواني » وأخرج نحوه ابن عساكر في الأربعين السباعية من حديث أنس ، وفي إسناده أبو هذبة وهو كذاب ، وزاد فيه « ثم قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) الآية » . وأخرج أحمد والدارمي والبارودي وابن قانع معا في معجم الصحابة والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري قال « قلت : يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا آمنا بك واتبعناك ؟ قال : ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء ، بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب الله بين لوحيين فيؤمنون بي ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا » . وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والحاكم عن أبي عبد الرحمن الجهنفي قال « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ طلع راكبنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كنديان أو مذحجيان حتى أتيا ، فإذا رجلان من مذحج ، فدنا أحدهما لبياعه ، فلما أخذ بيده قال : يا رسول الله أرأيت من جاءك فأمن بك واتبعك وصدقك فإذا له ؟ قال : طوبى له ففسح على زنده وانصرف ، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده لبياعه فقال : يا رسول الله أرأيت من آمن بك وصدقك واتبعك ولم يرك ؟ قال : طوبى له ثم طوبى له ، ثم مسح على زنده وانصرف » . وأخرج الطيالسي وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات » . وأخرج أحمد وابن حبان عن أبي سعيد « أن رجلا قال : يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك ؟ قال : طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني » وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه . وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث أنس نحو حديث أبي أمامة الباهلي المتقدم . وأخرج سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور وأحمد ابن منيع في مسنده ، وابن أبي حاتم وابن الضباري والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال : والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ - ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه - إلى قوله - المفلحون - : وللتابعين أقوال ، والراحح ماتقدم من أن الإيمان الشرعي يصدق على جميع ما ذكر هنا . قال ابن جرير : والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً . قال : وتدخل الحشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل . والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل . وقال ابن كثير : إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة . بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص . وقد ورد فيه آيات كثيرة انتهى .

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

هو معطوف على « يؤمنون » والإقامة في الأصل : اللوام والثبات . يقال قام الشيء : أي دام وثبت . وليس من القيام على الرجل ، وإنما هو من قولك قام الحق : أي ظهر وثبت ، قال الشاعر : وقامت الحرب بنا على ساق * وقال آخر : وإذا يقال أقيموا لم تبحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان

وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها . والصلاة أصلها في اللغة : الدعاء من صلى يصلي إذا دعا . وقد ذكر هذا الجوهري وغيره . وقال قوم : هي مأخوذة من الصلاة ، وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب . ومنه أخذ المصلي في سبق الحيل ، لأنه يأتي في الحلقة ورأسه عند صلوئ السابق ، فاشتقت منه الصلاة لأنها ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الحيل . وإما لأن الراكع يثنى صلويه ، والصلاة مغرز الذنب من الفرس والاثنان صلوان ، والمصلي تالي السابق لأن رأسه عند صلوه . ذكر هذا القرطبي في تفسيره . وقد ذكر المعنى الثاني في الكشف هذا المعنى اللغوي . وأما المعنى الشرعي فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والأذكار . وقد اختلف أهل العلم هل هي مبقاة على أصلها اللغوي أو موضوعة وضعاً شرعياً ابتدائياً . فقليل بالأول ، وإنما جاء الشرع بزيادات هي الشروط والفروض الثابتة فيها . وقال قوم بالثاني . والرزق عند الجمهور ما صلح للانتفاع به حلالاً كان أو حراماً خلافاً للمعتزلة . فقالوا : إن الحرام ليس برزق ، والبحث في هذه المسألة موضع غير هذا . والإنفاق : إخراج المال من اليد ، وفي المجيء بمن التبعية ههنا نكتة سرية هي الإرشاد إلى ترك الإسراف . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن إسحاق عن ابن عباس في قوله (يقيمون الصلاة) قال : الصلوات الخمس (ومما رزقناهم ينفقون) قال : زكاة أموالهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها - ومما رزقناهم ينفقون - قال : أنفقوا في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبيرة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله - ومما رزقناهم ينفقون - قال : هي نفقة الرجل على أهله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر ميسورهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات في سورة براءة هن الناحيات المبينات . واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات ، وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل ، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أنهم إشعار بالتعميم .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

قبل هم مؤمنو أهل الكتاب ، فإنهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزله على من قبله وفيهم نزلت . وقد رجح هذا ابن جرير ، ونقله السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة ، واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى - وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم - وبقوله تعالى - الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين - الآية . والآية الأولى نزلت في مؤمنى العرب . وقيل الآيتان جميعاً في المؤمنين على العموم . وعلى هذا فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى صفة للمتقين بعد صفة ، ويجوز أن تكون مرفوعة على الاستثناء ، ويجوز أن تكون معطوفة على المتقين فيكون التقدير : هدى للمتقين والذين يؤمنون بما أنزل إليك . والمراد بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم : هو القرآن ، وما أنزل من قبله : هو الكتب السالفة . والإيقان : إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه ، قاله في الكشف . والمراد أنهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك . والآخرة تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول ، وهي صفة الدار كما في قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً - وفي تقديم الظرف مع بناء

الفعل على الضمير المذكور إشعار بالحصر ، وأن ما عدا هذا الأمر الذى هو أساس الإيمان ورأسه ليس بمستأهل للإيقان به والقطع بوقوعه . وإنما عبر بالماضى مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على ما لم يوجد ، أو تنبيها على تحقق الوقوع كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله . وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) أى يصدقونك بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ، ولا يحسبون ما جاءهم به من ربهم (وبالأخرة هم يوقنون) إيماننا بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان : أى لاهولاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

والحق أن هذه الآية فى المؤمنين كالتى قبلها ، وليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أنزل إلى من قبله بمقتضى لجعل ذلك وصفا لمؤمنى أهل الكتاب ، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ولا فى النظم القرآنى ما يقتضى ذلك . وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين فى غير آية . فمن ذلك قوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل - وكنقوله - وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم - وقوله - آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله لانفرق بين أحد من رسله - وقال - والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم -

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

هذا كلام مستأنف استئنافا بيانيا ، كأنه قيل : كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والإيمان بالغيب والإتيان بالفرائض والإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقيل (أولئك على هدى) ويمكن أن يكون هذا خيرا عن الذين يؤمنون بالغيب الخ فيكون متصلا بما قبله . قال فى الكشف : ومعنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) مثل لتمسكهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به ، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه ، ونحوه : هو على الحق وعلى الباطل . وقد صرحوا بذلك فى قوله : جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى انتهى . وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام ، واشتهر الخلاف فى ذلك بين المحقق السعد والمحقق الشريف . واختلف من بعدهم فى ترجيح الراجح من القولين ، وقد جمعت فى ذلك رسالة سميتها [الطود المنيف فى ترجيح مقال السعد على مقال الشريف] فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام ويجمع بين أطراف الكلام على التمام . قال ابن جرير : إن معنى (أولئك على هدى من ربهم) على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم ، و (المفلحون) أى المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسوله . هذا معنى كلامه . والفلاح أصله فى اللغة : الشق والقطع ، قاله أبو عبيد : ويقال الذى شقت شفته أفلح ، ومنه سمي الأكار فلاحا لأنه شق الأرض بالحرث ، فكان المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . قال القرطبي : وقد يستعمل فى الفوز والبقاء وهو أصله أيضا فى اللغة ، فعنى (أولئك هم المفلحون) الفائزون بالجنة والباقون . وقال فى الكشف : المفلح الفائز بالبغية ، كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه انتهى . وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث الذى أخرجه أبو داود « حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور . فكان معنى الحديث : أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمي فلاحا . وفى تكرير اسم الإشارة دلالة على أن كلاما من

الهدى والفلاح مستقل بتميزهم به عن غيرهم ، بحيث لو انفرد أحدهما لكفى تميزاً على حياله . وفائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره . وقد روى السدى عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة أن الذين يؤمنون بالغيب : هم المؤمنون من العرب ، الذين يؤمنون بما أنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل إلى من قبله : هم ، والمؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد قدمنا الإشارة إلى هذا وإلى ما هو أرجح منه كما هو منقول عن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة . وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نياس أو كما قال : فقال ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) إلى قوله (المفلحون) هؤلاء أهل الجنة ، قالوا : إنا نرجو أن نكون هؤلاء ، ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم) إلى قوله (عظيم) هؤلاء أهل النار ، قالوا : ألسنا هم يا رسول الله ؟ قال : أجل »

وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال « كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله إن لي أخا وبه وجع فقال وما وجعه ؟ قال : به لم ، قال : فأتني به فوضعه بين يديه ، فعوذته النبي بفاتحة الكتاب وأربع آيات ومن أول سورة البقرة ، وهاتين الآيتين - وإلهكم إله واحد - وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة ، وآية من آل عمران - شهد الله أنه لا إله إلا هو - ، وآية من الأعراف - إن ربكم الله - ، وآخر سورة المؤمنين - فتعالى الله الملك الحق - ، وآية من سورة الجن - وأنه تعالى جد ربنا - ، وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وقل هو الله أحد والمعوذتين ، فقام الرجل كأنه لم يشتك قط » . وأخرج نحوه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عبد الرحمن بن أبي يعلى عن رجل عن أبي مثله . وأخرج الدارمي وابن الضريس عن ابن مسعود قال : من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة وآيتين بعد آية الكرسي وثلاثاً من آخر سورة البقرة لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ، ولا شيء يكرهه في أهله ولا ماله ، ولا تقراً على مجنون إلا أفاق . وأخرج الدارمي وابن المنذر والطبراني عنه قال : « من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح : أربع من أولها ، وآية الكرسي ، وآيتان بعدها ، وثلاث خواتمها أولها - لله ما في السموات » . وأخرج سعيد بن منصور والدارمي والبيهقي عن المغيرة بن سبيع ، وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه . وأخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا مات أحدكم فلا يحبسوه ، وأسرعوا به إلى قبره ، وليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وعند رجله بخاتمة سورة البقرة » وقد ورد في ذلك غير هذا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول ، معنونا له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم ، وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان ، وأن وجود ذلك كعدهم . و« سواء » اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ، والهمزة وأم مجردتان لمعنى

الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام ، وصحّ الابتداء بالفعل والإخبار عنه بقوله : سواء ، هجرا لحانب اللفظ إلى جانب المعنى ، كأنه قال : الإنذار وعدمه سواء ، كقولهم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه : أى سماعك . وأصل الكفر فى اللغة : السّر والتغطية ، قال الشاعر : * فى ليلة كفر النجوم غمامها * . أى سترها ، ومنه سى الكافر كافرا لأنه يغطى بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان . والإنذار : الإبلاغ والإعلام . قال القرطبي : واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فىمن سبقت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبي : نزلت فى رؤساء اليهود حنّ بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظرائهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فىمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ، والأول أصح ، فإن من عين أحدا فلأنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر انتهى . وقوله (لا يؤمنون) خبر مبتدأ محذوف : أى هم لا يؤمنون ، وهى جملة مستأنفة لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل : هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار وعدمه ماذا يكون منهم ؟ فقيل لا يؤمنون : أى هم لا يؤمنون . وقال فى الكشف : إنها جملة مؤكدة للجملة الأولى ، أو خبر لأن والجملة قبلها اعتراض انتهى . والأولى ما ذكرناه ، لأن المقصود الإخبار عن عدم الاعتداد بإنذارهم ، وأنه لا يجدى شيئا بل بمنزلة العدم ، فهذه الجملة هى التى وقعت خبرا لأن ، وما بعدها من عدم الإيمان متسبب عنها لأنه المقصود . وقد قال بمثل قول الزمخشري القرطبي . وقال ابن كيسان : إن خبر إن سواء ، وما بعده يقوم مقام الصلة . وقال محمد ابن يزيد المبرد : سواء رفع بالابتداء ، وخبره أنذرهم أم لم تنذرهم ، والجملة خبر إن . والختم : مصدر ختمت الشيء ، ومعناه : التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه ولا يوضع فيه غيره . والغشاوة : الغطاء ، ومنه غاشية السرج ، والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسيان : أى لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها ، والأسماع غير مؤدية لما يطرقتها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم ، والأبصار غير مهتدية للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته جعلت بمنزلة الأشياء الختوم عليها ختما حسيا ، والمستوثق منها استيثاقا حقيقيا ، والمغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلا ، وإسناد الختم إلى الله قد احتجّ به أهل السنة على المعتزلة ، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره صاحب الكشف ، والكلام على مثل هذا متقرر فى مواطنه .

وقد اختلف فى قوله تعالى (وعلى سمعهم) هل هو داخل فى حكم الختم فيكون معطوفا على القلوب أو فى حكم التغطية ، فقيل : إن الوقف على قوله (وعلى سمعهم) تام ، وما بعده كلام مستقل ، فيكون الطبع على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار كما قاله جماعة ، وقد قرئ (غشاوة) بالنصب . قال ابن جرير : يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره : وجعل على أبصارهم غشاوة ، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتيان على محلّ وعلى سمعهم ، كقوله تعالى - وحوّر عين - وقول الشاعر : * علقها تبنا وماء باردا * . وإنما وحّد السمع مع جمع القلوب والأبصار ، لأنه مصدر يقع على القليل والكثير . والعذاب : هو ما يؤلم ، وهو مأخوذ من الحبس والمنع ، يقال فى اللغة أعذبه عن كذا : حبسه ومنعه ، ومنه عنوبة الماء لأنها حبست فى الإناء حتى صفت . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني فى الكبير وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس فى قوله (سواء عليهم أنذرهم) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرض أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ، ولا يفضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول . وأخرج

ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضا في تفسير الآية : أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق ، فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا ، وقد كفروا بما عندهم من علمك (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (إن الذين كفروا) قال : نزلت هاتان الآيتان في قادة الأحزاب ، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية - ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا - قال : فهم الذين قتلوا يوم بدر ، ولم يدخل القادة في الإسلام إلا رجلا : أبو سفيان ، والحكم بن العاص . وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله (أنذرهم أم لم تنذرهم) قال : أوعظهم أم لم تعظهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في هذه الآية قال : أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم ، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : الختم على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا يعقلون ولا يسمعون ، وجعل على أبصارهم : يعني أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون . وروى ذلك السدي عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى - فإن يشأ الله يختم على قلبك - وقال - وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة - . قال ابن جرير في معنى الختم : والحق عندي في ذلك ما صرح نظيره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم ذكر إسنادا متصلا بأبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تغلق قلبه » فذلك الران الذي قال الله - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - . وقد رواه من هذا الوجه الترمذي وصححه والنسائي . ثم قال ابن جرير : فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقها ، وإذا أغلقها أتاها حينئذ الختم من قبل الله سبحانه والطبع فلا يكون إليها مسلك ولا للكفر منها مخلص ، فذلك هو الختم الذي أذكره الله في قوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) نظير الطبع والختم على ما تتركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها ، فذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فض خاتمته ، وحل رباطه عنها .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ^(٨) يُخْدِعُونَ
اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ^(٩)

ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخالص ، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخالص ، ثم ذكر ثالثا المنافقين وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين ، بل صاروا فرقة ثالثة لأنهم وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى وفي الباطن الطائفة الثانية ، ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار . وأصل ناس أناس حذفت همزته تخفيفا ، وهو من النوس وهو الحركة ، يقال : ناس ينوس : أي تحرك ، وهو من أسماء الجموع جمع إنسان وإنسانة على غير لفظه ، واللام الداخلة عليه للجنس ، ومن تبعيضية : أي بعض الناس ، ومن موصوفة : أي ومن الناس ناس يقول . والمراد باليوم الآخر : الوقت الذي لا ينقطع ، بل هو دائم أبدا . والخداع في أصل اللغة : الفساد ، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي ، وأنشد :

أبيض اللون رقيق طعمه طيب الريق إذا الريق خلدع

وقيل : أصله الإخفاء ، ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء ، حكاه ابن فارس وغيره . والمراد من مخادعتهم الله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين ، وإن كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع . وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل ، فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم . والمراد بالمخادعة من الله : أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء ، فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه . والمراد بمخادعة المؤمنين لهم : هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهرا وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم ، كما أن المنافقين خادعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر . والمراد بقوله تعالى (وما يخادعون إلا أنفسهم) الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كما كانوا مخادعين لأنفسهم ، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن . وأما من عرف البواطن فن دخل معه في الخداع فلأنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك ، ومن هذا قول من قال : من خادعته فأنخدع لك فقد خدعك . وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « يخادعون » في الموضعين ، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي وابن عامر في الثاني « يخدعون » . والمراد بمخادعتهم أنفسهم : أنهم يمتنونها الأمانى الباطلة وهي كذلك تمتهم . قال أهل اللغة : شعرت بالشيء ففطنت . قال في الكشف : والشعور علم الشيء علم حس ، من الشعار - ومشاعر الإنسان : حواسه . والمعنى : أن لحوق ضرر ذلك لهم كالمحسوس ، وهم لتمام غفلتهم كالذي لا حس له . والمراد بالأنفس هنا ذواتهم لاسائر المعاني التي تدخل في مسمى النفس كالروح والدم والقلب . وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم المنافقون من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال : والمراد بهذه الآية المنافقون . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين قال : لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . وأخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له : ما النفاق ؟ قال : أن يتكلم بالإسلام ولا يعمل به . وأخرج أحمد بن منيع في مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة « أن قائلا من المسلمين قال : يا رسول الله ما النجاة غدا ؟ قال : لا تخادع الله قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره ، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله ، فإن المرأى ينادى يوم القيامة على رعووس الخلائق بأربعة أسماء : يا كافريا فاجر يا خاسرا يا غادرا ، ضلّ عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله ، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع ، وقرأ آيات من القرآن - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا - الآية ، و- إن المنافقين يخادعون الله - الآية » . وأخرج ابن جرير عن ابن وهب قال : سألت ابن زيد عن قوله (يخادعون الله والذين آمنوا) قال : هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله ، والذين آمنوا أنهم مؤمنون بما أظهروه . وعن قوله (وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون) أنهم ضروا أنفسهم بما أضمرُوا من الكفر والنفاق . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (يخادعون الله) قال : يظهرون للإله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

المرض : كل ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر ، قاله ابن فارس . وقيل : هو الألم ، فيكون على هذا مستعارا للفساد الذي في عقائدهم إما شكًا ونفاقًا ، أو جحدا وتكديبا ، وتقديم

الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها مبالغة في ثقل هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة . والمراد بقوله (فزادهم الله مرضا) الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النعم ، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية . ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق . والأليم المولم : أى الموجه ، و« ما » فى قوله (بما كانوا يكذبون) مصدرية : أى بتكذيبهم وهو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) والقراء مجتمعون على فتح الراء من قوله مرض ، إلا مارواه الأصمعى عن أنى عمرو أنه قرأ بإسكان الراء ، وقرأ حمزة وعاصم والكسائى (يكذبون) بالتخفيف ، والباقون بالتشديد . وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (فى قلوبهم مرض) قال : شك (فزادهم الله مرضا) قال شكاً . وأخرج عنه ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله (فى قلوبهم مرض) قال النفاق (ولهم عذاب أليم) قال : نكال موجه (بما كانوا يكذبون) قال : يبدلون ويحرفون . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثل ما قاله ابن عباس أولاً . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كل شىء فى القرآن أليم فهو الموجه . وأخرج أيضاً عن أبى العالية مثله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله أيضاً . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (فى قلوبهم مرض) أى ريبة وشك فى أمر الله (فزادهم الله مرضا) ريبة وشكاً (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) قال : إياكم والكذب فإنه باب النفاق . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : هذا مرض فى الدين وليس مرضاً فى الأجساد وهم المنافقون . والمرض : الشك الذى دخل فى الإسلام . وروى عن عكرمة وطاوس أن المرض : الرياء .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ

هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)

(إذا) فى موضع نصب على الظرف والعامل فيه قالوا المذكور بعده . وفيه معنى الشرط . والفساد ضد الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها . فسد الشىء يفسد فساداً وفسوداً فهو فاسد وفسيد . والمراد فى الآية : لا تفسدوا فى الأرض بالنفاق وموالات الكفرة وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن ، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما فى الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار وبطلان الزرائع ، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن والتنازع . و« إنما » من أدوات القصر كما هو مبين فى علم المعانى . والصلاح ضد الفساد . لما نهاهم الله عن الفساد الذى هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة ، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هى عليه حقيقة وهو الفساد ، إلى الاتصاف بما هو ضد ذلك وهو الصلاح ، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت والزور المحض حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم ، فرد الله عليهم ذلك أبلغ رد لما يفيد حرف التنبيه من تحقق مابعده ، ولما فى إن من التأكيد ، وما فى تعريف الخبر مع توسط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له ، وردهم إلى صفة الفساد التى هم متصفون بها فى الحقيقة رداً مؤكداً مبالغاً فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستفاد من إنما . وأما نفي الشعور عنهم فيحتمل أنهم لما كانوا يظهرون الصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص ، ظنوا أن ذلك ينفع على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وينكم عنه بطلان ما أضمره ، ولم يشعروا بأنه عالم به ، وأن الخبر يأتيه بذلك من السماء ، فكان نفي الشعور عنهم من هذه

الحيشية لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد . ويحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحا لما استقرّ في عقولهم من محبة الكفر وعداوة الإسلام . وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال : الفساد هنا هو الكفر والعمل بالمعصية . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إنما نحن مصلحون) أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال : إذا ركبوا معصية فقليل لهم لا تفعلوا كذا قالوا إنما نحن على الهدى . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن سلمان أنه قرأ هذه الآية فقال : لم يجيء أهل هذه الآية بعد . قال ابن جرير : يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لا أنه غنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد انتهى . ويحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست في المنافقين ، بل يحملها على مثل أهل الفتن التي يدين أهلها بوضع السيف في المسلمين ؛ كالحوارج وسائر من يعتقد في فسادهم أنه صلاح لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

أي وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والأنصار أجابوا بأحق جواب وأبعده عن الحق والصواب ، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء واستخفا ، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء واستخفا فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وآكد قول . وحصر السفاهة وهي رقة الحلوم وفساد البصائر وسخافة العقول فيهم مع كونهم لا يعلمون أنهم كذلك إما حقيقة أو مجازا ، تنزيلا لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه وأنهم متصفون به ؛ ولما ذكر الله هنا السفه ناسبه نفي العلم عنهم لأنه لا يتسافه إلا جاهل . والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف : أي إيماننا كإيمان الناس . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) أي صدّقوا كما صدّق أصحاب محمد أنه نبي ورسول ، وأن ما أنزل عليه حق ، (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) يعنون أصحاب محمد (ألا إنهم هم السفهاء) يقول : الجهال (ولكن لا يعلمون) يقول : لا يعقلون . وروى عن ابن عساكر في تاريخه بسند واه أنه قال : آمنوا كما آمن الناس أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله (كما آمن السفهاء) قال : يعنون أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عن الربيع وابن زيد مثله . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود : أي إذا قيل لهم : يعنى اليهود (آمنوا كما آمن الناس) عبد الله بن سلام وأصحابه (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

(لقوا) أصله لقيوا ، نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين . ومعنى لقيته ولاقيته : استقبلته قريبا . وقرأ محمد بن السميع البياضي وأبو حنيفة لا قوا ، وأصله لاقيوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا ،

ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين . وخلوت بفلان وإليه : إذا انفردت به . وإنما عدى بإلى وهو يتعدى بالباء فيقال : خلوت به لاخلوت إليه ، لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا . والشياطين جمع شيطان على التكسير . وقد اختلف كلام سيويه في نون الشيطان فجعلها في موضع من كتابه أصلية وفي آخر زائدة ، فعلى الأول هو من شطن أى بعد عن الحق ، وعلى الثانى من شطّ : أى بعد أو شاط : أى بطل ، وشاط : أى احترق ، وأشاط : إذا هلك قال : * وقد يشيط على أرماحنا البطل * . أى يهلك . وقال آخر :

وأبيض ذى تاج أشاطت رماحنا لمعترك بين الفوارس أقمنا

أى أهلك . وحكى سيويه أن العرب تقول : تشيطن فلان : إذا فعل أفعال الشياطين . ولو كان من شاط لقالوا : تشيط ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

أيمّا شاطن عصاه عكا ه ورماه فى السجن والأغلال

وقوله (إنا معكم) معناه مصاحبوكم فى دينكم وموافقوكم عليه . والهزؤ : السخرية واللعب . قال الراجز :

قد هزئت منى أم طيسله قالت أراه معدما لا مال له

قال فى الكشف : وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ : مات على المكان . عن بعض العرب مشيت فلغبت فظننت لأهزان على مكاني ، وناقته تهزأ به : أى تسرع وتحفّ انتهى . وقيل أصله الانتقام ، قال الشاعر :

قد استهزوا منهم بألنى مدجج سراتهم وسط الصحاصح جثم

فأفاد قولهم (إنا معكم) أنهم ثابتون على الكفر ، وأفاد قولهم (إنما نحن مستهزون) ردّهم للإسلام ورفعهم للحق ، وكأنه جواب سؤال مقدّر ناشئ من قولهم إنا معكم : أى إذا كنتم معنا فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم ؟ فقالوا : إنما نحن مستهزون بهم فى تلك الموافقة ، ولم تكن بواطننا موافقة لهم ولا ماثلة إليهم ، فردّ الله ذلك عليهم بقوله (الله يستهزى بهم) أى ينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم ويستخفّ بهم انتصافا منهم لعباده المؤمنين ، وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة مشاكلة . وقد كانت العرب إذا وضعت لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكرته بمثل ذلك اللفظ وإن كان مخالفا له فى معناه . وورد ذلك فى القرآن كثيرا ، ومنه - وجزاء سيئة سيئة مثلها - فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم - والجزاء لا يكون سيئة . والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق ، ومنه - ومكروا ومكر الله - و- إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا - يخادعون الله والذين آمنوا - يخادعون الله وهو خادعهم - تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - . وهو فى السنة كثير كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لا يملّ حتى تملوا » وإنما قال (الله يستهزى بهم) لأنه يفيد التجدد وقتا بعد وقت ، وهو أشدّ عليهم وأنكأ لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الحملة الاسمية ، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتا بعد وقت ، والمتجددة حيناً بعد حين ، أشدّ على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر لأنه يألفه ويوطن نفسه عليه . والمدّ : الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ فى الشر وأمدّ فى الخير ، ومنه - وأمددناكم بأموال وبنين - وأمددناهم بفاكهة ولحم - . وقال الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته : إذا أعطيته . وقال الفراء والليثاني : مددت فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النهر ، ومنه - والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر - وأمددت فيما كانت زيادته من غيره ، ومنه - يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة - والطغيان مجاوزة الحد والغلو فى الكفر ومنه - إنا لما طغى الماء - أى تجاوز المقدار الذى قدرته الخزان . وقوله فى فرعون - إنه طغى - أى أسرف فى الدعوى حيث قال - أنا ربكم الأعلى - . والعمة والعامه : الحائر المتردد ،

وذهبت إبله لعمهى : إذا لم يدر أين ذهبت ، والعمه فى القلب كالعمى فى العين . قال فى الكشف : العمه مثل العمى ، إلا أن العمى فى البصر والرأى ، والعمه فى الرأى خاصة انتهى . والمراد أن الله سبحانه يطيل لهم المدّة ويمهلهم كما قال - إنما نملّ لهم ليزدادوا إثماً - . قال ابن جرير (فى طغيانهم يعمهون) فى ضلالهم وكفرهم الذى قد غمّهم يترددون حيارى ضلّالا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ، لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا . وقد أخرج الواحدى والثعلبى بسند واه ، لأن فيه محمد بن مروان وهو متروك ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى وأصحابه ، وذكر قصة وقعت لهم مع أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بعضهم قالوا : إنا على دينكم (وإذا خلوا إلى شياطينهم) وهم إخوانهم قالوا (إنا معكم) على مثل ما أنتم عليه (إنما نحن مستهزؤن) بأصحاب محمد (الله يستهزئ بهم) قال : يسخر بهم للنقمة منهم (ويمدهم فى طغيانهم) قال : فى كفرهم (يعمهون) قال : يترددون . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عنه بمعناه وأطول منه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه بنحو الأول . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله (وإذا خلوا إلى شياطينهم) قال : رؤسائهم فى الكفر . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال (وإذا خلوا) أى مضوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه ما قاله ابن مسعود ، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله (ويمدهم) قال : يملّ لهم (فى طغيانهم يعمهون) قال : فى كفرهم يتمادون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه ما قاله ابن مسعود فى تفسير يعمهون . وأخرج الفريانى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (ويمدهم) يزيدهم (فى طغيانهم يعمهون) قال يلعبون ويترددون فى الضلالة . وأخرج أحمد فى المسند عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن ، فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال : نعم

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

قال سيويه : صحت الواو فى (اشتروا) فرقا بينها وبين الواو الأصلية فى نحو - وأن لو استقاموا - . وقال الزجاج : حركت بالضم كما يفعل فى نحن . وقرأ يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وقرأ أبو السماك العلوى بفتحها لحقة الفتحة . وأجاز الكسائى همز الواو . والشراء هنا مستعار للاستبدال : أى استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى - فاستحبوا العمى على الهدى - فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا ، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعوا إيمانهم ، والعرب قد تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشيء . قال أبو ذؤيب :

فإن تزعمينى كنت أجهل فيكمو فإنى شريت الجلم بعدك بالجهل

وأصل الضلالة الحيرة والخور عن القصد وفقد الاهتداء ، وتطلق على النسيان ، ومنه قوله تعالى - قال فعلتها إذا وأنا من الضالين - ، وعلى الهلاك كقوله - وقالوا - إذا ضللنا فى الأرض - وأصل الربح الفضل . والتجارة : صناعة التاجر ، وأسند الربح إليها على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك وخسرت صفقتك ، وهو من الإسناد المجازى ، وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل كما هو مقرر فى علم المعانى . والمراد : ربحوا وخسروا . والاهتداء قد سبق تحقيقه : أى وما كانوا مهتدين فى شرائهم الضلالة ، وقيل فى سابق علم الله . وقد أخرج ابن إسحاق وابن

جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (اشترى الضلالة بالهدى) أى الكفر بالإيمان . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : آمنوا ثم كفروا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : استحبوا الضلالة على الهدى ، قد والله رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكُمْ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)

(مثلهم) مرتفع بالابتداء ، وخبره إما الكاف فى قوله (كمثل) لأنها اسم : أى مثل مثل كما فى قول الأعشى :

أنتهون ولن تهى ذوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والقتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا تصوب فيه العين طورا وترقى

أراد مثل الطعن وبمثل ابن الماء ، ويجوز أن يكون الخبر محذوفا : أى مثلهم مستنير كمثل ، فالكاف على هذا حرف . والمثل : الشبه ، والمثلان : المتشابهان (والذى) موضوع موضع الذين : أى كمثل الذين استوقدوا ، وذلك موجود فى كلام العرب كقول الشاعر :

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أمّ خالد

ومنه - وخضتم كالذى خاضوا - ومنه - والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون - . ووقود النار : سطوعها وارتفاع لهيها ، (واستوقد) بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب ، فالسين والتاء زائدتان ، قاله الأخفش . ومنه قول الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أى يجبه . والإضاءة فرط الإنارة ، وفعلها يكون لازما ومتعديا . و (ماحوله) قيل مازائدة ، وقيل هى موصولة فى محل نصب على أنها مفعول أضأت وحوله منصوب على الظرفية ، و (ذهب) من الذهاب ، وهوزوال الشيء . و (تركهم) أى أبقاهم (فى ظلمات) جمع ظلمة . وقرأ الأعمش بإسكان اللام على الأصل . وقرأ أشهب العقيلي بفتح اللام ، وهى عدم النور . و (صم) وما بعده خبر مبتدأ محذوف : أى هم . وقرأ ابن مسعود صما بكما عميا بالنصب على الذم ، ويجوز أن ينتصب بقوله تركهم . والصمم : الانسداد ، يقال قناة صماء : إذا لم تكن مجوفة ، وصممت القارورة : إذا سددتها ، وفلان أصم : إذا انسدت خروقه مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل الأخرس والأبكم واحد . والعمى : ذهاب البصر . والمراد بقوله (فهم لا يرجعون) أى إلى الحق ، وجواب لما فى قوله فلما أضاءت ، قيل هو (ذهب الله بنورهم) وقيل محذوف تقديره : طفئت فبقوا حائرين . وعلى الثانى فيكون قوله (ذهب الله بنورهم) كلاما مستأنفا أو بدلا من المقدر . ضرب الله هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبتغونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام

الإسلام ، كمثل المستوقد الذى أضاءت ناره ثم طفت ، فإنه يعود إلى الظلمة ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة ، فكان بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر بقاء المنافق فى حيرته وتردده . وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت . ومنه قولهم « للباطل صولة ثم يضمحل » وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنا عظيما فى إبراز خفيات المعانى ورفع أستار محجبات الدقائق ولهذا استكثر الله من ذلك فى كتابه العزيز ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذلك فى مخاطباته ومواظبه . قال ابن جرير : إن هؤلاء المضروب لهم المثل ها هنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات ، واحتج بقوله تعالى - ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين - . وقال ابن كثير : إن الصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم ، وهذا لا ينبنى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم كما يفيد قوله تعالى - ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون - . قال ابن جرير : وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال - رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت - أى كدوران عيني الذى يغشى عليه من الموت ، وقال تعالى - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا - اهـ . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم النى ، فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) يقول : فى عذاب (صم بكم عى) فهم لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قالوا : إن ناسا دخلوا فى الإسلام عند مقدم النبى صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ثم نافقوا ، فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارا فأضاءت ماحوله من قذى وأذى فأبصره حتى عرف مايتقى ، فبينما هو كذلك إذ طفت ناره فأقبل لا يدري مايتقى من أذى . فكذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام والخير من الشر ، فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر ، فهم صم بكم هم الخرس ، فهم لا يرجعون إلى الإسلام . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (كمثل الذى استوقد نارا) قال : ضربه الله مثلا للمنافق ، وقوله (ذهب الله بنورهم) قال : أما النور فهو إيمانهم الذى يتكلمون به ، وأما الظلمة فهو ضلالهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو ما تقدم .

أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ
كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك لقصد التخيير بين المثليين : أى مثلهم بهذا أو هذا ، وهى وإن

كانت في الأصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوى من غير شك - وقيل إنها بمعنى الواو ، قاله القراء وغيره ، وأنشد :

وقد زعمت ليلي بأنى فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها
وقال آخر : نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
والمراد بالصيب : المطر ، واشتقاقه من صاب يصوب : إذا نزل . قال علقمة :

فلا تعدلى بينى وبين معمر سقتك روايا الموت حيث تصوب
وأصله صيوب ، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما فعلوا في ميت وسيد . والسماء في الأصل : كل ماعلاك فأظلك . ومنه قيل لسقف البيت سماء . والسماء أيضا : المطر سمي بها لنزوله منها ، وفائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها أنه لا يختص نزوله بجانب منها دون جانب ، وإطلاق السماء على المطر واقع كثيرا في كلام العرب ، فمنه قول حسان :

ديار من بنى الحسحاس قفر تعفيا الدوامس والسماء

وقال آخر : • إذا نزل السماء بأرض قوم • والظلمات قد تقدم تفسيرها ، وإنما جمعها إشارة إلى أنه انضم إلى ظلمة الليل ظلمة الغيم . والرعد : اسم لصوت الملك الذى يزجر السحاب . وقد أخرج الترمذى من حديث ابن عباس قال « سألت اليهود النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله ، قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر . قالت : صدقت » الحديث بطوله ، وفي إسناده مقال . قال القرطبي : وعلى هذا التفسير أكثر العلماء - وقيل : هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها ، وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعاً للفلاسفة وجهلة المتكلمين وقيل غير ذلك ، والبرق : مخراق حديد بيد الملك الذى يسوق السحاب ، وإليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق . وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة : إن البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصاعدة المشتملة على جزء نارى يتلهب عند الاصطكاك . وقوله (يجعلون أصابعهم في آذانهم) جملة مستأنفة لا محل لها كأن قائلها قال : فكيف حالهم عند ذلك الرعد ؟ فقيل : يجعلون أصابعهم في آذانهم . وإطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور ، والعلاقة الجزئية والكلية لأن الذى يجعل في الأذن إنما هو رأس الأصبع لا كلها . والصواعق ويقال للصواعق : هى قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذى يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها ، ويدل على ذلك ما فى حديث ابن عباس الذى ذكرنا بعضه قريبا وبه قال كثير من علماء الشريعة . ومنهم من قال : إنها نار تخرج من فم الملك . وقال الخليل : هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد الصائغ : نار تسقط من السماء في رعد شديد . وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ومن قال بقولهم : إنها نار لطيفة تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامها . وسيأتى في سورة الرعد إن شاء الله في تفسير الرعد والبرق والصواعق ماله مزيد فائدة وإيضاح . ونصب (حذر الموت) على أنه مفعول لأجله . وقال القراء : منصوب على التمييز . والموت : ضد الحياة . والإحاطة ، الأخذ من جميع الجهات حتى لا تفوت المحاط به بوجه من الوجوه . وقوله (يكاد البرق يخطف أبصارهم) جملة مستأنفة كأنه قيل : فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ ويكاد : يقارب . والخطف : الأخذ بسرعة ، ومنه سمي الطبر خطافا لسرعته . وقرأ مجاهد (يخطف) بكسر الطاء والفتح أفصح . وقوله (كلما

أضواء لهم مشوا فيه) كلام مستأنف كأنه قيل كيف تصنعون في تارقي خفوق البرق وسكونه، وهو تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدة على أهل الصيب (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) بالزيادة في الرعد والبرق (إن الله على كل شيء قدير) وهذا من جملة مقدوراته سبحانه. وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (أو كصيب) هو المطر ضرب مثله في القرآن (فيه ظلمات) يقول ابتلاء (ورعد وبرق) تخويف (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يقول: يكاد يحكم القرآن يدل على عورات المنافقين (كلما أضواء لهم مشوا فيه) يقول: كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزا اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله - ومن الناس من يعبد الله على حرف - الآية. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: كان رجلا من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعل كلا أصابهما الصواعق يجعلان أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه وإذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فأتى محمدا فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما ووضعوا أيديهما في يده وحسن إسلامهما فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقا من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينزل فيهم شيء أو يذكروا بشيء فيقتلوا، كما كان ذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما، وإذا أضواء لهم مشوا فيه: أي فإذا كثرت أموالهم وأولادهم وأصابوا غنيمة وفتحوا مشوا فيه وقالوا: إن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم حينئذ صدق واستقاموا عليه، كما كان ذاك المنافقان يمشيان إذا أضواء لهم البرق، وإذا أظلم عليهم قاموا فكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وارتدوا كفرا كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال (أو كصيب) قال: هو المطر وهو مثل للمنافق في ضوئه يتكلم بما معه من كتاب الله مراعاة الناس، فإذا خلا وحده عمل بغيره فهو في ظلمة ما أقام على ذلك. وأما الظلمات: فالضلالات. وأما البرق: فالإيمان، وهم أهل الكتاب، وإذا أظلم عليهم: فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضا نحو ما سلف. وقد روى تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين.

واعلم أن المنافقين أصناف، فمنهم من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، ومنهم من قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت في الصحيحين وغيرهما «ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوثق خان» وورد بلفظ أربع وزاد «وإذا خاصم فجر». وورد بلفظ «وإذا عاهد غدر». وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثليين لصنف واحد من المنافقين.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الْثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب التفاتاً للنكتة السابقة في الفاتحة .
وياحرف نداء ، والمنادى أى وهو اسم مفرد مبنى على الضم ؛ وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته . قال
سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين ، وصار الاسم بينهما كما قالوا : ها هو ذا . وقد تقدم الكلام فى تفسير الناس
والعبادة ، وإنما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم ، لأن جميع النعم مترتبة عليها ، وهى أصلها الذى لا يوجد شىء
منها بدونها ، وأيضاً فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق - ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله - فامتن عليهم بما
يعترفون به ولا ينكرونه . وفى أصل معنى الخلق وجهان : أحدهما التقدير . يقال : خلقت الأديم للسقاء : إذا
قدّرتَه قبل القطع . قال زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبه ض القوم يخلق ثم لا يفرى

الثانى : الانشاء والاختراع والإبداع . ولعل أصلها الترجى والطمع والتوقع والإشفاق ؛ وذلك مستحيل
على الله سبحانه ، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كان بمنزلة قوله لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع
وبهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه . وقيل : إن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كى .
والمعنى هنا : لتتقوا ، وكذلك ما وقع هذا الموقع ، ومنه قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكفّ ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كشبه سراب فى الملا متألق

أى كفوا عن الحرب لنكف ، ولو كانت لعل للشك لم يوثقوا لهم كل موثق ، وبهذا قال جماعة منهم قطرب . وقيل
إنها بمعنى التعرّض للشىء كأنه قال : متعرّضين للتقوى . وجعل هنا بمعنى صير لتعدّيه إلى المفعولين ، ومنه
قول الشاعر :

وقد جعلت أرى الإثنين أربعة والأربع اثنين لما هدنى الكبر

و (فراشا) أى وطاء يستقرون عليها . لما قدّم نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشا لهم ، لما كانت
الأرض التى هى مسكنهم ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم ، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة
المضروبة عليهم ، والسقف للبيت الذى يسكنونه كما قال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - . وأصل البناء : وضع
لبنة على أخرى ، ثم امتنّ عليهم بإنزال الماء من السماء . وأصل ماء موه ، قلبت الواو لتحركها وانفتاح ما قبلها ألفا
فصار ماه ، فاجتمع حرفان خفيفان فقلبت الهاء همزة . والثمرات جمع ثمرة . والمعنى : أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات
وأنواعا من النبات ليكون ذلك متاعا لكم إلى حين . والأنداد جمع ندّ ، وهو المثل والنظير . وقوله (وأنتم تعلمون)
جملة حالية والخطاب للكفار والمنافقين . فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال - ولكن
لا يعلمون . ولكن لا يشعرون . وما كانوا مهتدين . صمّ بكم عمى - . فيقال : إن المراد أن جهلهم وعدم شعورهم
لا يتناول هذا : أى كونهم يعلمون أنه المنعم دون غيره من الأنداد ، فإنهم كانوا يعلمون هذا ولا ينكرونه كما حكاه
الله عنهم فى غير آية . وقد يقال : المراد وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والامكان لو تدبرتم ونظرتم . وفيه دليل
على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد . قال ابن فورك : المراد وتجعلون لله أندادا بعد علمكم الذى هو نبي
الجهل بأن الله واحد انتهى . وحذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ما هم عليه من العلم بنوع واحد من
الأنواع الموجبة للتوحيد . وقد أخرج البزار والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : ما كان

- يا أيها الذين آمنوا - فهو أنزل بالمدينة ، وما كان - يا أيها الناس - فهو أنزل بمكة . وروى نحو ذلك عن ابن أبي شيبه وعبد ابن حميد والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه . وروى نحوه أبو عبيد وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر من قول علقمة . وأخرج ابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر عن الضحاك مثله . وكذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران . وأخرج نحوه أيضا ابن أبي شيبه وابن مردويه عن عروة وعكرمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يا أيها الناس) قال : هي للفريقين جميعا من الكفار والمؤمنين . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (لعلمكم) يعني كى . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال لعل من الله واجب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله (الذى جعل لكم الأرض فراشا) أى تمشون عليها وهى المهاد والقرار (والسما بناء) قال كهيئة القبة وهى سقف الأرض . وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن أنه سئل : المطر من السماء أم من السحاب ؟ قال : من السماء . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعب قال : السحاب غربال المطر ، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض والبذر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن معدان قال : المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع فى سماء الدنيا ، فيجتمع فى موضع يقال له الأبرم ، فتجىء السحاب السود فتدخله فتشربه مثل شرب الإسفنجة فيسوقها الله حيث يشاء . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : ينزل الماء من السماء السابعة ، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال : المطر منه من السماء ، ومنه ما يستقيه الغيم من البحر فيعذبه الرعد والبرق . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر عن ابن عباس قال : إذا جاء القطر من السماء تفتحت له الأصدا فكان لوئوا . وأخرج الشافعى في الأم وابن أبي الدنيا في كتاب المطر وأبو الشيخ في العظمة عن المطلب بن حنطب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء » . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما نزل مطر من السماء إلا ومعه البذر ، أما لو أنكم بسطتم نطعا لرأيتموه . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : المطر مزاجاة من الجنة ، فإذا كثر المزاج عظمت البركة وإن قل المطر ، وإذا قل المزاج قلت البركة وإن كثر المطر . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : ما من عام بأمر من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، وينزل مع المطر كذا وكذا من الملائكة يكتبون حيث يقع ذلك المطر ومن يرزقه ومن يخرج منه مع كل قطرة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فلا تجعلوا لله أندادا) أى لا تشركوا به غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر (وأنتم تعلمون) أنه لا رب لكم يرزقكم غيره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (أندادا) قال : أشباها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود (أندادا) قال : أكفاء من الرجال يطيعونهم فى معصية الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (أندادا) قال شركاء . وأخرج ابن أبي شيبه وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال « قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما شاء الله وشئت ، قال : جعلتنى لله ندا ما شاء الله وحده » . وأخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفى قالت « جاء خبر من الأحبار إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون ، قال : وكيف ؟ قال : يقول أحدكم لا والكعبة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من حلف فليحلف برب الكعبة . فقال : يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : يقول أحدكم ما شاء الله وشئت ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فن قال منكم ما شاء الله قال ثم شئت »

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي عن حذيفة بن ايمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي وابن مردويه عن طفيل بن سبرة « أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مرّ برهط من اليهود فقال : أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابن الله ، فقالوا : وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . ثم مرّ برهط من النصراني فقال : أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ، قالوا : وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبح أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فخطب فقال إن طفيلاً رأى رؤيا وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الجلاء منكم فلا تقولوها ، ولكن قولوا ما شاء الله وحده لا شريك له » وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأنداد هو الشرك أخى من ديب النمل على صفا سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص ، ولولا القط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ، هذا كله شرك . وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال « قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » الحديث .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

(في ريب) أى شك مما نزلنا على عبدنا : أى القرآن أنزله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم . والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل . والتزيل التدريج والتنجيم . وقوله (فأتوا) الفاء جواب الشرط وهو أمر معناه التعجيز . لما احتج عليهم بما يثبت الوحداية ويبطل الشرك عقبه بما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يدفع الشبهة في كون القرآن معجزة ، فتحدّاهم بأن يأتوا بسورة من سوره . والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها كاشمال سور البلد عليها . و « من » في قوله (من مثله) زائدة لقوله فأتوا بسورة مثله . والضمير في مثله عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم . وقيل عائد على التوراة والإنجيل ، لأن المعنى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق مافيه . وقيل يعود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى من بشر مثل محمد : أى لا يكتب ولا يقرأ . والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون ، والمراد هنا الآلهة . ومعنى (دون) : أدنى مكان من الشيء واتسع فيه حتى استعمل في تحطى الشيء إلى شيء آخر ، ومنه مافى هذه الآية ، وكذلك قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - وله معان أخر ، منها التقصير عن الغاية والحقارة ، يقال هذا الشيء دون : أى حقير ، ومنه :

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دوناً

والقرب يقال هذا دون ذاك : أى أقرب منه ويكون إغراء ، تقول : دونك زيدا : أى خذه من أدنى مكان (من دون الله) متعلق بادعوا : أى ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صادقين فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ، وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم . والصدق خلاف الكذب ، وهو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أولهما على الخلاف المعروف في علم المعاني (فإن لم تفعلوا) يعنى فيما مضى (ولن تفعلوا) أى تطيقوا ذلك فيما باتى

وتبين لكم عجزكم عن المعارضة (فاتقوا النار) بالإيمان بالله وكتبه ورسله والقيام بفرائضه واجتناب مناهيه وعبر عن الإتيان بالفعل لأن الإتيان فعل من الأفعال لقصد الاختصار ، وجملة لن تفعلوا لا محل لها من الإعراب لأنها اعتراضية ، ولن للنفي المؤكد لما دخلت عليه ، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها ، لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة وفيما بعدها وإلى الآن . والوقود بالفتح : الحطب ، وبالضم : التوقد أى المصدر ، وقد جاء فيه الفتح . والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها لأنهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا فجعلت وقودا للنار معهم . ويدل على هذا قوله تعالى - إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم - أى حطب جهنم . وقيل المراد بها حجارة الكبريت ، وفي هذا من التهويل مالا يقدر قدره من كون هذه النار تنقد بالناس والحجارة ، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها ، والمراد بقوله (أعدت) جعلت عدة لعذابهم وهيئت لذلك . وقد كرر الله سبحانه تحدى الكفار بهذا في مواضع في القرآن ، منها هذا ، ومنها قوله تعالى في سورة القصص - قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين - وقال في سورة سبحان - قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - وقال في سورة هود - أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين - وقال في سورة يونس - وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين - .

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر ، أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه ، والحق الأول ، والكلام في هذا مبسوط في مواضعه . وقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مامن نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (وإن كنتم في ريب) قال : هذا قول الله لمن شك من الكفار فما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وإن كنتم في ريب) قال : في شك (مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله) قال : من مثل القرآن حقا وصدقا لا باطل فيه ولا كذب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد (فاتوا بسورة من مثله) قال : مثل القرآن (وادعوا شهداءكم) قال : ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنها مثله . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (شهداءكم) قال : أعوانكم على ما أنتم عليه (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) فقد بين لكم الحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) يقول : لن تقدرُوا على ذلك ولن تطيقوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه كان يقرأ كل شيء في القرآن وقودها برفع الواو الأولى ، إلا التي في السماء ذات البروج - النار ذات الوقود - بنصب الواو . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إن الحجارة التي ذكرها الله في القرآن في قوله (وقودها الناس والحجارة) حجارة من كبريت خلقها الله عنده كيف شاء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير أيضا عن عمرو بن ميمون مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (وقودها الناس والحجارة) قال : أوقد عليها ألف عام حتى احترت ،

وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لها . وأخرج ابن أبي شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن أبي هريرة مرفوعاً مثله . وأخرج أحمد ومالك والبخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « نار بنى آدم التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ قال فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » . وأخرج الترمذى وحسنه عن أبي سعيد مرفوعاً نحوه . وأخرج ابن ماجه والحاكم وصححه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً . وأخرج مالك فى الموطأ والبيهقى فى البعث عن أبي هريرة قال : أترونها حمراء مثل ناركم هذه التى توقدون ، إنها لأشد سواداً من القار . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (أعدت للكافرين) قال : أى لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والوعيد والوعيد كماهى عادته سبحانه فى كتابه العزيز ، لما فى ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته ، وتنشيط عباده الكافرين عن معاصيه . والتبشير : الإخبار بما يظهر أثره على البشرية ، وهى الجلدة الظاهرة ، من البشر والسرور . قال القرطبي : أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال : من بشرنى من عبيدى فهو حرّ فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حرّاً دون الثانى واختلفوا إذا قال : من أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حرّ ، فقال أصحاب الشافعى : نعم لأن كل واحد منهم مخبر ، وقال علماؤنا : لا ، لأن المكلف إنما قصد خبأ يكون بشاره ، وذلك مختص بالأول انتهى . والحق أنه إن أراد مدلول الخبر عتقوا جميعاً ، وإن أراد الخبر المقيد بكونه بشاره عتق الأول ، فالخلاف لفظى . والمأمور بالتبشير قيل هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل هو كل أحد كما فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم « بشر المشائين » وهذه الحمل وإن كانت مصدرة بالإنشاء فلا يقدح ذلك فى عطفها على ما قبلها ، لأن المراد عطف جملة وصف ثواب المطيعين على جملة وصف عقاب العاصين من دون نظر إلى ما شتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خبراً وإنشاء . وقيل : إن قوله (وبشر) معطوف على قوله (فاتقوا النار) ، وليس هذا بجيد . و(الصالحات) الأعمال المستقيمة . والمراد هنا : الأعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم - وفيه ردّ على من يقول إن الإيمان بمجردده يكفى ، فالجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح . والجنات : البساتين ، وإنما سميت جنات لأنها تجنّ من فيها : أى تستر به شجرها ، وهو اسم لدار الثواب كلها وهى مشتملة على جنات كثيرة . والأنهار جمع نهر ، وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر ، والمراد : الماء الذى يجرى فيها ، وأسند المجرى إليها مجازاً ، والجارى حقيقة هو الماء كما فى قوله تعالى - واسأل القرية - أى أهلها وكما قال الشاعر :

ونبت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس

والضمير فى قوله (من تحتها) عائد إلى الجنات لاشتمالها على الأشجار : أى من تحت أشجارها . وقوله (كلما رزقوا) وصف آخر للجنات ، أو هو جملة مستأنفة كأن سائلاً قال : كيف ثمارها . و(من ثمرة) فى معنى من أى

ثمرة : أى نوع من أنواع الثمرات . والمراد بقوله (هذا الذى رزقنا من قبل) أنه شبيهه ونظيره ، لأنه هو ، لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما ، وذلك أن اللون يشبه اللون وإن كان الحجم والطعم والرائحة والماوية متخالفة . والضمير فى به عائد إلى الرزق ، وقيل : المراد أنهم أتوا بما يرزقونه فى الجنة متشابهاً بما يأتيهم فى أول النهار يشابه الذى يأتيهم فى آخره ، فيقولون هذا الذى رزقنا من قبل ، فإذا أكلوا وجدوا له طعماً غير طعم الأول . و(متشابهاً) منصوب على الحال . والمراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قدر الحيض والنفاس وسائر الأدناس التى لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا . والخلود : البقاء الدائم الذى لا ينقطع ، وقد يستعمل مجازاً فيما يطول ، والمراد هنا الأول . وقد أخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة واليزار وابن أبى حاتم وابن حبان والبيهقى وابن مردويه عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة نور يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمره نضيجة وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة خضراء » الحديث . والأحاديث فى وصف الجنة كثيرة جداً ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وأخرج ابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك » . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو حاتم وأبو الشيخ وابن حبان والبيهقى فى البعث وصححه عن ابن مسعود نحوه موقوفاً . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (تجرى من تحتها الأنهار) قال : يعنى المساكن تجرى أسفلها أنهارها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) قال : أتوا بالثمرة فى الجنة فنظروا إليها (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فى الدنيا (وأتوا به متشابهاً) فى اللون والمراى وليس يشبه الطعم . وأخرج عبد بن حميد عن على بن زيد وقتادة نحوه . وأخرج مسدد فى مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ليس فى الدنيا مما فى الجنة شيء إلا الأسماء . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : قولهم (من قبل) معناه : هذا مثل الذى كان بالأمس . وأخرج ابن جرير عن يحيى بن أبى كثير نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال (متشابهاً) فى اللون مختلفاً فى الطعم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله (متشابهاً) قال : خيار كله يشبه بعضه بعضاً لارذل فيه ، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال : من الحيض والغائط والبزاق والنخامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : من القدر والأذى وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنخمن . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى صفات أهل الجنة فى الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوطون . وثبت أيضاً عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من صفات نساء أهل الجنة مالا يتسع المقام لبسطه ، فليُنظر فى دواوين الإسلام وغيرها . وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وهم فيها خالدون) أى خالدون أبداً ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهلهم أبداً لانقطاع له . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وهم فيها خالدون) يعنى لا يموتون . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : يا أهل النار لأموت

ويا أهل الجنة لا موت ، كل هو خالد فيما هو فيه . وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة نحوه . وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه من حديث معاذ نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو قيل لأهل النار إنكم ما كنون فى النار عدد كل حصاة فى الدنيا لفرحوا بها ولو قيل لأهل الجنة إنكم ما كنون عدد كل حصاة لحزنوا ، ولكن جعل لهم الأبد » .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

أنزل الله هذه الآية ردًا على الكفار لما أنكروا ماضيه سبحانه من الأمثال كقوله - مثلهم كمثل الذى استوقد نارا - وقوله - أو كصيب من السماء - فقالوا الله أجل وأعلام أن يضرب الأمثال . وقال الرازى : إنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا أورد هاهنا شبهة أوردها الكفار قدحا فى ذلك وأجاب عنها ، وتقرير الشبهة أنه جاء فى القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل ، وهذه الأشياء لا يلىق ذكرها بكلام الفصحاء فاشتمال القرآن عليها يقدر فى فصاحته فضلا عن كونه معجزا . وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا تقدر فى الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملا على حكمة بالغة انتهى . ولا يخفك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له ولا دليل عليه ، وقد تقدمت إلى شىء من هذا صاحب الكشف ، والظاهر ما ذكرناه أولا لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلىين اللذين هما مذكوران قبلها ، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قدحا فى الفصاحة والإعجاز . والحياة : تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم : كذا فى الكشف ، وتبعه الرازى فى مفاتيح الغيب . وقال القرطبي : أصل الاستحياء الانقباض عن الشىء والامتناع منه خوفا من مواجهة القبيح ، وهذا محال على الله انتهى ، وقد اختلفوا فى تأويل ما فى هذه الآية من ذكر الحياة فقيل : ساغ ذلك لكونه واقعا فى الكلام المحكى عن الكفار ، وقيل : هو من باب المشاكلة كما تقدم ، وقيل هو جار على سبيل التمثيل . قال فى الكشف : مثل تركه تخيب العبد وأنه لا يرد يديه صفرا من عطائه لكرمه بترك من يترك رد المحتاج إليه حياة منه انتهى . وقد قرأ ابن محيصن وابن كثير فى رواية عنه « يستحي » بياء واحدة وهى لغة تميم وبكر بن وائل ، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت ، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين . وضرب المثل : اعتماده وصنعه . و « ما » فى قوله (مابعوضة) لإبهامية أى موجبة لإبهام مادخلت عليه حتى يصير أعم مما كان عليه وأكثر شيوعا فى أفرادها ، وهى فى مريض نصب على البدل من قوله (مثلا) و (بعوضة) نعت لها لإبهامها ، قاله الفراء والزجاج وثعلب ، وقيل : إنها زائدة ، وبعوضة بدل من مثل . ونصب بعوضة فى هذين الوجهين ظاهر ، وقيل : إنها منصوبة بنزع الخافض ، والتقدير : أن يضرب مثلا ما بين بعوضة فحذف لفظ بين . وقد روى هذا عن الكسائى ، وقيل : إن يضرب بمعنى يجعل فتكون

بعوضة المفعول الثاني . وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورؤية بن العجاج « بعوضة » بالرفع وهي لغة تميم . قال أبو الفتح : وجه ذلك أن « ما » اسم بمنزلة الذي ، وبعوضة رفع على إضمار المبتدأ ، ويحتمل أن تكون « ما » استفهامية كأنه قال تعالى (ما بعوضة فما فوقها) حتى لا يضرب المثل به ، بل يدان لمثل بما هو أقل من ذلك بكثير ، والبعوضة فعولة من بعض : إذا قطع ، يقال : بعض وبضع بمعنى ، والبعض : البق ، الواحدة بعوضة ، سميت بذلك لصغرها قاله الجوهري وغيره . وقوله (فما فوقها) قال الكسائي وأبو عبيدة وغيرهما : فما فوقها والله أعلم مادونها : أي أنها فوقها في الصغر كجناحها . قال الكسائي وهذا كقولك في الكلام أترأه قصيرا فيقول القائل أوفوق ذلك أي أقصر مما ترى . ويمكن أن يراد فما زاد عليها في الكبر . وقد قال بذلك جماعة . قوله (فأما الذين آمنوا) أما بحرف فيه معنى الشرط ، وقد رده سيوييه بمهما يكن من شيء فكذا . وذكر صاحب الكشاف أن فائدته في الكلام أنه يعطيه فضل توكيد وجعل تقدير سيوييه دليلا على ذلك . والضمير في (أنه) راجع إلى المثل . و (الحق) الثابت ، وهو المقابل للباطل والحق واحد الحقوق ، والمراد هنا الأول . وقد اختلف النحاة في (ماذا) فقيل : هي بمنزلة اسم واحد بمعنى : أي شيء أراد الله ، فتكون في موضع نصب بأراد . قال ابن كيسان : وهو الجيد . وقيل « ما » اسم تام في موضع رفع بالابتداء ، و « ذا » بمعنى الذي ، وهو خبر المبتدأ مع صلته ، وجوابه يكون على الأول منصوبا وعلى الثاني مرفوعا . والإرادة نقيض الكراهة ، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه ، و (مثلا) قال ثعلب : منصوب على القطع ، والتقدير : أراد مثلا . وقال ابن كيسان : هو منصوب على التمييز الذي وقع موقع الحال ، وهذا أقوى من الأول . وقوله (يفضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) هو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بأما ، فهو خبر من الله سبحانه . وقيل : هو حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا : ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى ؟ وليس هذا بصحيح ، فإن الكافرين لا يقرّون بأن في القرآن شيئا من الهداية ، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة . قال القرطبي : ولا خلاف أن قوله (وما يفضل به إلا الفاسقين) من كلام الله سبحانه . وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا وفي نسبته إلى الله سبحانه . وقد نقح البحث الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في هذا الموضع تنقيحا نفيسا ، وجوده وطوله وأوضح فروعه وأصوله ، فليرجع إليه فإنه مفيد جدا . وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هاهنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره ، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سببا ، فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي . وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله (يفضل) يخذل . والفسق : الخروج عن الشيء ، يقال فسقت الرطبة : إذا خرجت عن قشرها . والفأرة من جحرها ذكر معنى هذا الفراء . وقد استشهد أبو بكر بن الأنباري في كتاب الزاهر له على معنى الفسق بقول رؤبة بن العجاج :

يهوين في نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائسر

قد زعم ابن الأعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق ، وهذا مردود عليه ، فقد حكى ذلك عن العرب وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهري وابن الأنباري وغيرهم . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « خمس فواسق » الحديث . وقال في الكشاف : الفسق الخروج عن القصد ، ثم ذكر عجز بيت رؤبة المذكور ، ثم قال : والفاسق في الشريعة : الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة انتهى . وقال القرطبي : والفسق في عرف الاستعمال الشرعي : الخروج من طاعة الله عز وجل ، فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان انتهى . وهذا هو أنسب بالمعنى اللغوي ، ولا وجه لقصره على

بعض الخارجين دون بعض . قال الرازي في تفسيره : واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أو كافر ؟ فعند أصحابنا أنه مؤمن ، وعند الخوارج أنه كافر ، وعند المعتزلة لا مؤمن ولا كافر ، واحتج المخالف بقوله تعالى - بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان - وقوله (إن المنافقين هم الفاسقون) وقوله - حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان - وهذه المسألة طويلة مذكورة في علم الكلام انتهى . وقوله (الذين ينقضون) في محل نصب وصفا للفاسقين . والنقض : إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد ، والنقضة : مانقض من حبل الشعر . والعهد : قيل هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره ، وقيل : هو وصية الله إلى خلقه وأمره بإياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسن رسله ، ونقضهم ذلك : ترك العمل به ؛ وقيل : بل هو نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر مخلوقاته ، ونقضه : ترك النظر فيه ؛ وقيل : هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيّننه للناس . والميثاق : العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهي الشدة في العقد والربط ، والجمع المواثيق والميثاق ؛ وأنشد ابن الأعرابي :

حُمي لا يحل الدهر إلا بإذننا ولا نسأل الأقوام عهد الميثاق

واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الاستعارة . والقطع معروف ، والمصدر في الرحم القطيعة ، وقطعت الحبل قطعا ، وقطعت النهر قطعا . « وما » في قوله (ما أمر الله به) في موضع نصب يقطعون و (أن يوصل) في محل نصب بأمر . ويحتمل أن يكون بدلا من ما ، أو من الهاء في به . واختلفوا ما هو الشيء الذي أمر الله بوصله فقيل : الأرحام ؛ وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب البعض الآخر ؛ وقيل : المراد به حفظ شرائعه وحدوده التي أمر في كتبه المنزلة وعلى ألسن رسله بالمحافظة عليها فهي عامة ، وبه قال الجمهور وهو الحق . والمراد بالفساد في الأرض الأفعال والأقوال المخالفة لما أمر الله به ، كعبادة غيره والإضرار بعباده وتغيير ما أمر بحفظه ؛ وبالحملة فكل ما خالف الصلاح شرعا أو عقلا فهو فساد . والخسران : النقصان ، والخاسر ، هو الذي نقص نفسه من الفلاح والفوز ، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل كان عملهم فسادا لما نقصوا أنفسهم من الفلاح والربح . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : لما ضرب الله هذين المثليين للمنافقين قوله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) وقوله - أو كصيب من السماء - قال المنافقون : الله أعلا وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا) الآية . وأخرج الواحدى في تفسيره عن ابن عباس قال : إن الله ذكر آلهة المشركين فقال - وإن يسلبهم للذباب شيئا - وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت ، فقالوا : رأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا ؟ فأنزل الله (إن الله لا يستحي) وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة نحو قول ابن عباس . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما نزلت - يا أيها الناس ضرب مثل - قال المشركون : ما هذا من الأمثال فيضرب ؟ فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله تعالى (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) قال : يؤمن به المؤمن ، ويعلمون أنه الحق من ربهم ويهديهم الله به ، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله (يضلّ به كثيرا) يعني المنافقين (ويهدي به كثيرا) يعني المؤمنين (وما يضلّ به إلا الفاسقين) قال هم المنافقون . وفي قوله (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) قال : هو ما عهده إليهم في القرآن فأقرّوا به ثم كفّروا فنقضوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس

في قوله (وما يضلّ به إلا الفاسقين) يقول : يعرفه الكافرون فيكفرون به . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : فسقوا فأضلهم الله بفسقهم . وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص قال : الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان يسميهم الفاسقين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ما تعلم الله أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق ، فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به الله . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث ثابتة في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهي عن نقض العهد والوعيد الشديد عليه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) قال : الرحم والقراية . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (ويفسدون في الأرض) قال : يعملون فيها بالمعصية . وأخرج ابن المنذر عن مقاتل في قوله (أولئك هم الخاسرون) يقول : هم أهل النار . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فإنما يعنى به الكفر ، وما نسبته إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذم .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ (٢٨)

كيف مبنية على الفتح لخفته وهي في موضع نصب بتكفرون ، ويسأل بها عن الحال ، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم وهي متضمنة لهزمة الاستفهام ، والواو في (وكنتم) للحال وقد مقدرة كما قال الزجاج والقراء ، وإنما صح جعل هذا الماضي حالا لأن الحال ليس هو مجرد قوله (كنتم أمواتا) بل هو وما بعده إلى قوله (ترجعون) كما جزم به صاحب الكشف كأنه قال : كيف تكفرون ؟ وقصتكم هذه : أي وأنتم عالمون بهذه القصة وبأولها وآخرها . والأموات جمع ميت ؛ واختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين - فقل إن المراد (كنتم أمواتا) قبل أن تخلقوا : أي معدومين ، لأنه يجوز إطلاق اسم الموت على المعدوم لاجتماعهما في عدم الاحساس (فأحياكم) أي خلقكم (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) يوم القيامة . وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذي لا محيد للكفار عنه ، وإذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين ثم أحياء في الدنيا ثم أمواتا فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى . قال غيره : والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا . وقيل : إن المراد كنتم أمواتا في ظهر آدم ثم أخرجكم من ظهره كالذر ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل (كنتم أمواتا) أي نطفة في أصلاب الرجال (ثم يحييكم) حياة الدنيا . (ثم يميتكم) بعد هذه الحياة (ثم يحييكم) في القبور (ثم يميتكم) في القبر (ثم يحييكم) الحياة التي ليس بعدها موت . قال القرطبي : فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات وثلاث إحياءات وكونهم موتى في ظهر آدم وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفة في أصلاب الرجال ، فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله أوجدكم قبل خلق آدم كالبهاثم وأماتهم فيكون على هذا خمس موتات وخمس إحياءات ، وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في الحديث « ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماهم الله إماتة ، حتى إذا كانوا فحما أذن في الشفاعة فجىء بهم ، إلى أن قال : فينبئون نبات الحبة في حميل السيل » وهو في الصحيح من حديث أبي سعيد . وقوله (ثم إليه ترجعون) أي إلى الله سبحانه فيجازيكم

بأعمالكم. وقد قرأ يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق ومجاهد وسلام ويعقوب بفتح حرف المضارعة ، وقرأ الجماعة بضمه . قال في الكشف : عطف الأول بالفاء وما بعده بثم ، لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء ، والإحياء الثاني كذلك مترأخ عن الموت إن أريد به النشور تراخيا ظاهرا ، وإن أريد به إحياء القبر فنه يكتسب العلم بتراخيه ، والرجوع إلى الجزاء أيضا مترأخ عن النشور انتهى . ولا يخفاه أنه إن أراد بقوله أن الإحياء الأول قد تعقب الموت أنه وقع على ماهو متصف بالموت ، فالموت الآخر وقع على ماهو متصف بالحياة ، وإن أراد أنه وقع الإحياء الأول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثاني فغير مسلم ، فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثاني عند آخر أوقات حياته ، فتأمل هذا . وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى (وكنتم أمواتا) الآية ، قال : لم تكونوا شيئا فخلقكم (ثم يميتكم ثم يحييكم) يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : يميتكم ثم يحييكم في القبر ثم يميتكم . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (وكنتم أمواتا) قال : حين لم تكونوا شيئا ، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة ، ثم يرجعون إليه بعد الحياة . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : خلقهم من ظهر آدم فأخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ، ثم خلقهم في الأرحام ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم يوم القيامة . والصحيح الأول .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

قال ابن كيسان (خلق لكم) أى من أجلكم ، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل ، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر ، وفي التأكيد بقوله (جميعا) أقوى دلالة على هذا . وقد استدلل بهذه الآية على تحريم أكل الطين ، لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض . وقال الرازي في تفسيره : إن لقائل أن يقول : إن جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الأرض فيكون جامعا للوصفين ، ولا شك أن المعادن داخلة في ذلك ، وكذلك عروق الأرض وما يجري مجرى البعض لها ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه انتهى . وقد ذكر صاحب الكشف ماهو أوضح من هذا فقال : فإن قلت : هل أقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة ؟ قلت : إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء ويراد الجهات العلوية جاز ذلك ، فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية انتهى . وأما التراب فقد ورد في السنة تحريمه ، وهو أيضا ضار فليس مما ينتفع به أكلا ، ولكنه ينتفع به في منافع أخرى ؛ وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل ، بل كل ما يصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه ، وجميعا منصوب على الحال . والاستواء في اللغة : الاعتدال والاستقامة ، قاله في الكشف ، ويطلق على الارتفاع والعلو على الشيء ، قال تعالى - فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك - وقال - لتستروا على ظهوره - وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية . وقد قيل : إن هذه الآية من المشكلات . وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها وترك التعرض لتفسيرها ، وخالفهم آخرون . والضمير في قوله (فسواءهن) مبهم يفسره ما بعده كقولهم : زيد رجلا ، وقيل : إنه راجع إلى السماء لأنها في معنى الجنس ، والمعنى : أنه عدل خلقهن فلا اعوجاج فيه . وقد استدلل بقوله (ثم استوى) على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء . وكذلك الآية التي في حم السجدة . وقال في النازعات

- أنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها - فوصف خلقها ثم قال - والأرض بعد ذلك دحاها - فكانت السماء على هذا خلقت قبل الأرض ، وكذلك قوله تعالى - الحمد لله الذي خلق السموات والأرض - وقد قيل : إن خلق جرم الأرض متقدم على السماء ودحوها متأخر . وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم ، وهذا جمع جيد لا بدّ من المصير إليه ، ولكن خلق مافي الأرض لا يكون إلا بعد الدحو ، والآية المذكورة هنا دلت على أنه خلق مافي الأرض قبل خلق السماء ، وهذا يقتضي بقاء الإشكال وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع . وقوله (سبع سموات) فيه التصريح بأن السموات سبع ، وأما الأرض فلم يأت في ذكر عددها إلا قوله تعالى - ومن الأرض مثلهن - فقيل : أى في العدد ، وقيل : أى في غلظهن وما بينهما . وقال الداودي : إن الأرض سبع ، ولكن لم يفتق بعضها من بعض . والصحيح أنها سبع كالسموات . وقد ثبت في الصحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من أخذ شبراً من الأرض ظلما طوّقه الله من سبع أرضين » وهو ثابت من حديث عائشة وسعيد بن زيد . ومعنى قوله تعالى (سواهن) سوى سطوحهن بالإملاس ؛ وقيل : جعلهن سواء . قال الرازي في تفسيره : فإن قيل فهل يدل التنصيص على سبع سموات : أى فقط ؟ قلنا : الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد والله أعلم انتهى . وفي هذا إشارة إلى ما ذكره الحكماء من الزيادة على السبع . ونحن نقول : إنه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله إلا السبع فنقتصر على ذلك ولا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع ولم يأت شيء من ذلك ، وإنما أثبت لنفسه سبحانه أنه بكل شيء عليم ، لأنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما ثبت أنه خالفه . وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله تعالى (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً) قال : سخر لكم مافي الأرض جميعاً كرامة من الله ونعمة لابن آدم وبلغة ومنفعة إلى أجل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً) قال : سخر لكم مافي الأرض جميعاً (ثم استوى إلى السماء) قال : «خلق الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك قوله (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) يقول : خلق سبع سموات بعضهن فوق بعض ، وسبع أرضين بعضهن فوق بعض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة في قوله (هو الذي خلق لكم مافي الأرض) الآية ، قالوا : إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسماه سماء ثم انبسط الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتحها سبع أرضين في يومين الأحد والاثنين ، فخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره في قوله - ن والقلم - والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة والصخرة في الريح ، وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض ، فتحرك الحوت فزلزلت الأرض ، فأرسي عليها الجبال فقرت ، فذلك قوله تعالى - وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم - وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها ، وسخرها وما ينبغى لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء وذلك قوله - أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض - إلى قوله وبارك فيها - يقول : أنبت شجرها - وقد رُفِيها أقواتها - يقول : أقوات أهلها - في أربعة أيام سواء للسائلين - يقول : من سأل فهكذا الأمر ، - ثم استوى إلى السماء وهى دخان - وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ، ثم فتحها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة ؛ وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض - وأوحى في كل سماء أمرها - قال : خلق في كل أسماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً من الشياطين ، فلما فرغ

من خلق ما أحب استوى على العرش . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (ثم استوى إلى السماء) يعني صعد أمره إلى السماء فسواهن : يعني خلق سبع سموات ، قال : أجرى النار على الماء فبخر البحر فصعد في الهواء فجعل السموات منه . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حديث أبي هريرة في الصحيح قال « أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر » . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث في وصف السموات ، وأن غلط كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام ، وأنها سبع سموات ، وأن الأرض سبع أرضين وكذلك ثبت في وصف السماء آثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور بعض ذلك في تفسير هذه الآية ، وإنما تركنا ذكره هاهنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص ، بل هو متعلق بما هو أعم منها .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٠)

« إذ » من الظروف الموضوعة للتوقيت وهي للمستقبل ، وإذا للماضي ، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المبرد : هي مع المستقبل للمضى ومع الماضي للاستقبال . وقال أبو عبيدة : إنها هنا زائدة . وحكاها الزجاج وابن النحاس وقالوا : هي ظرف زمان ليست مما يزداد ، وهي هنا في موضع نصب بتقدير اذكر أو بقالوا ؛ وقيل هو متعلق بخلق لكم ، وليس بظاهر والملائكة جمع ملك بوزن فعل ، قاله ابن كيسان ، وقيل ، جمع ملاك بوزن مفعل قاله أبو عبيدة ، من لأك : إذا أرسل ، والألوكة : الرسالة . قال ليلى :

وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل

وقال عدى بن زيد : أبلغ النعمان عنى مألكا أنه قد طال حبسى وانتظار

ويقال ألكنى : أى أرسلنى . وقال النضر بن شميل : لا اشتقاق لملك عند العرب ، والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ، ومثله الصلادمة ، والصلادم : الخيل الشداد واحدا صلدم - وقيل : هي للمبالغة كعلامة ونسابة و (جاعل) هنا من جعل المتعدى إلى مفعولين . وذكر المطرزي أنه بمعنى خالق ، وذلك يقتضى أنه متعد إلى مفعول واحد ، والأرض هنا : هي هذه الغبراء ، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان - وقيل إنها مكة . والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة ، ويجوز أن يكون بمعنى المخلف : أى يخلفه غيره ؛ قيل هو آدم ؛ وقيل كل من له خلافة في الأرض ، ويقوى الأول قوله خليفة دون خلائف ، واستغنى بآدم عن ذكر من بعده قيل : خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب للمشورة ولكن لاستخراج ما عندهم ؛ وقيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم ذلك السؤال فيجابون بذلك الجواب ؛ وقيل لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم . وأما قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بنى آدم في الأرض لكونهم مظلة للإفساد في الأرض ؛ وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة بنى آدم ، بل قبل وجود آدم فضلا عن ذريته ، لعلم قد علموه من

الله سبحانه بوجه من الوجوه لأنهم لا يعلمون الغيب ؛ قال بهذا جماعة من المفسرين . وقال بعض المفسرين : إن في الكلام حذفاً ، والتقدير : إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ، فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وقوله (يفسد) قائم مقام المفعول الثاني . والفساد : ضدّ الصلاح وسفك الدم : صبه ، قاله ابن فارس والجوهري : ولا يستعمل السفك إلا في الدم ، وواحد الدماء دم ، وأصله دمى حذف لامه ، وجملة ونحن نسبح بحمدك حالية . والتسبيح في كلام العرب : التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم . قال الأعشى :

أقول لما جاءني فخره سبحانه من علقمة الفاخر

(بحمدك) في موضع الحال : أي حامدين لك ، وقد تقدم معنى الحمد . والتقديس : التطهير ، أي ونظهرك عما لا يليق بك مما نسب إليه الملحدون وافتراه الجاحلون . وذكر في الكشف أن معنى التسبيح والتقديس واحد وهو تبعيد الله من السوء ، وأنهما من سبج في الأرض والماء وقدّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد . وفي القاموس وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما ذكرناه والتأسيس خير من التأكيد خصوصاً في كلام الله سبحانه : ولما كان سؤالهم واقفاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم . أجاب الله سبحانه عليهم بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل ، لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه ، وعلى من لا يعلم أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة . ولم يذكر متعلق قوله (تعلمون) ليفيد التعميم ، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصور . وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه ثم قرأ (إني جاعل في الأرض خليفة) وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً نحوه وزاد . وقد كان فيها قبل أن يخلق بالني عام الجن بنو الجن ، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء ، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، فلما قال الله (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) كما فعل أولئك الجن فقال الله (إني أعلم ما لا تعلمون) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أطول منه . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش ، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوق في صدره كبر وقال : ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي فاطلع الله على ذلك منه فقال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً قالوا ربنا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) قال إني أعلم ما لا تعلمون) وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : قد علمت الملائكة وعلم الله أنه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد في الأرض . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : إياكم والرأي ، فإن الله ردّ الرأي على الملائكة وذلك أن الله قال (إني جاعل في الأرض خليفة) قالت الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها) قال (إني أعلم ما لا تعلمون) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي سابط أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت » فهي أول من طاف به وهي الأرض التي قال الله (إني جاعل في الأرض خليفة) قال ابن كثير : وهذا مرسل في سنده ضعف ، وفيه مدرج ، وهو أن المراد بالأرض مكة ، والظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك انتهى . وأخرج

عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : : التسبيح والتقديس المذكور في الآية هو الصلاة . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول من لبي الملائكة قال الله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) قال : فرادوه فأعرض عنهم ، فطافوا بالعرش ست سنين يقولون : لبيك لبيك اعتذارا إليك ، لبيك لبيك نستغفرك ونتوب إليك) وثبت في الصحيح من حديث أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أحب الكلام إلى الله ما اصطفاه الملائكة سبحانه ربي وبحمده » . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله (ونقدس لك) قال : نصلي لك . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : التقديس : التطهير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (ونقدس لك) قال : نعظمك ونكبرك . وأخرج عن أبي صالح قال : نعظمك ونمجدك . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (أعلم ما لا تعلمون) قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في تفسيرها قال : كان في علم الله أنه سيكون من الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن آدم لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أي رب (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) الآية ، قالوا ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله للملائكة : هلموا ملكين من الملائكة حتى يهبطا إلى الأرض فننظر كيف يعملان ؟ فقالوا : ربنا هاروت وماروت ، قال : فاهبطا إلى الأرض ، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر وذكر القصة . وقد ثبت في كتب الحديث المتبعة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة في صفة خلقه سبحانه لآدم وهي موجودة فلا نطول بذكرها .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ (٢٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٢٣)

(آدم) أصله آدم بهزتين إلا أنهم لينوا الثانية وإذا حركت قلبت واو ، كما قالوا في الجمع أوادم ، قاله الأخفش . واختلف في اشتقاقه ؛ فقيل من أديم الأرض وهو وجهها - وقيل من الأدمة وهي السمرة . قال في الكشف : وما آدم إلا اسم عجمي ، وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالغ وفالغ وأشباه ذلك ، و (الأسماء) هي العبارات والمراد : أسماء المسميات ، قال بذلك أكثر بذلك العلماء ، وهو المعنى الحقيقي للاسم . والتأكيد بقوله (كلها) يفيد أنه علمه جميع الأسماء ولم يخرج عن هذا شيء منها كائنا ما كان . وقال ابن جرير : إنها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم ، ثم رجع هذا وهو غير راجح . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أسماء الذرية . وقال الربيع بن خيثم : أسماء الملائكة . واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء ، والظاهر الأول لأن عرض نفس الأسماء غير واضح . وعرض الشيء إظهاره ، ومنه عرض الشيء للبيع . وإنما

ذكر ضمير المعروضين تغليبا للعقلاء على غيرهم . وقرأ ابن مسعود « عرضهن » وقرأ أبي « عرضها » وإنما رجع ضمير عرضهم إلى مسميات مع عدم تقدم ذكرها ، لأنه قد تقدم ما يدل عليها وهو أسماؤها . قال ابن عطية : والذي يظهر أن الله علم آدم الأسماء وعرض عليه مع ذلك الأجناس أشخاصا ، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم ، فقال لهم آدم : هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا . قال الماوردي : فكان الأصح توجه العرض إلى المسمين . ثم في زمن عرضهم قولان : أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثاني أنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم . وأما أمره سبحانه للملائكة بقوله (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فهذا منه تعالى لقصد التبيكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك . والمراد (إن كنتم صادقين) أن بني آدم يفسدون في الأرض فأنبئوني ، كذا قال المبرد ، . وقال أبو عبيد وابن جرير : إن بعض المفسرين قال : معنى (إن كنتم صادقين) إذ كنتم ، قالا : وهذا خطأ . ومعنى (أنبئوني) أخبروني . فلما قال لهم ذلك اعترفوا بالعجز والقصور (فقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) وسبحان : منصوب على المصدرية عند الخليل وسيبويه وقال الكسائي : هو منصوب على أنه منادى مضاف وهذا ضعيف جدا . والعلم : للمبالغة والدلالة على كثرة المعلومات . والحكيم صيغة مبالغة في إثبات الحكمة له . ثم أمر الله سبحانه آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة فعجزوا . واعترفوا بالقصور ، ولهذا قال سبحانه (ألم أقل لكم) الآية . قال فيما تقدم - أعلم ما لا تعلمون - ثم قال هنا (أعلم غيب السموات والأرض) تدرجا من المجمل إلى ما هو مبين بعض بيان ، وبسوط بعض بسط . وفي اختصاصه بعلم غيب السموات والأرض رد لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين والكهادر وأهل الرمل والسحر والشعوذة . والمراد بما يبدو وما يكتُمون : ما يظهرون ويسرون كما يفيد معنى ذلك عند العرب ، ومن فسر به شيء خاص فلا يقبل منه ذلك إلا بدليل . وقد أخرج الفريابي وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وعلم آدم الأسماء كلها) قال : علمه اسم الصخرة والقدر وكل شيء . وأخرج ابن جرير عنه نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه في تفسير الآية قال : عرض عليه أسماء ولده إنسانا وإنسانا والدواب ، فقبل هذا الحمل هذا الحما هذا الفرس . وأخرج الحاكم في تاريخه وابن عساكر والديلمي عن عطية بن بشر مرفوعا في قوله (وعلم آدم الأسماء كلها) قال : علم الله آدم في تلك الأسماء ألف حرفة من الحرف وقال له : قل لأولادك ولذريتك إن لم تصبروا عن الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدين ، فإن الدين لي وحدي خالصا ، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له . وأخرج الديلمي عن أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مثلت لي أمتي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها » وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في تفسير الآية قال : أسماء ذريته أجمعين (ثم عرضهم) قال : أخذهم من ظهره . وأخرج عن الربيع بن أنس قال : أسماء الملائكة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس (ثم عرضهم) يعني عرض أسماء جميع الأشياء التي علمها آدم من أصناف الخلق . (فقال أنبئوني) يقول أخبروني (بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) إن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة (قالوا سبحانك) تنزيها لله من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره تبنا إليك (لا علم لنا) تبرءوا منهم من علم الغيب (إلا ما علمتنا) كما علمت آدم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : عرض أصحاب الأسماء على الملائكة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (إنك أنت أعلم الحكيم) قال :

العليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله (إن كنتم صادقين) أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء (وأعلم ماتبدون) قال : قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها وما كنتم تكتمون) يعنى : ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال (ماتبدون) ماتظهرون (وما كنتم تكتمون) يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ

مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

(إذ) متعلق بمحذوف تقديره : واذكر إذ قلنا . وقال أبو عبيدة : إذ زائدة وهو ضعيف . وقد تقدم الكلام فى الملائكة وآدم . السجود معناه فى كلام العرب : التذلل والخضوع . وغايته وضع الوجه على الأرض . قال ابن فارس : سجد إذا تطامن ، وكل ما سجد فقد ذل ، والإسجاد : إدامة النظر . وقال أبو عمر : وسجد إذا طأ رأسه ، وفى هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أُمجد الله له ملائكته . وقيل : إن السجود كان لله ولم يكن لآدم ، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود ، ولا ملجئ لهذا فإن السجود للبشر قد يكون جائزا فى بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح . وقد دلت هذه الآية على أن السجود لآدم وكذلك الآية الأخرى أعنى قوله - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين - وقال تعالى - ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا - فلا يستلزم تحريمه لغير الله فى شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون كذلك فى سائر الشرائع . ومعنى السجود هنا : هو وضع الجبهة على الأرض ، وإليه ذهب الجمهور . وقال قوم : هو مجرد التذلل والانقياد . وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده ؟ وقد أطال البحث فى ذلك البقاعى فى تفسيره . وظاهر السياق أنه وقع التعليم وتعقبه الأمر بالسجود وتعقبه إسكانه الجنة ثم إخراجهم منها وإسكانه الأرض . وقوله (إلا إبليس) استثناء متصل لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور . وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين (كان من الجن) الذين كانوا فى الأرض : فيكون الاستثناء على هذا منقطعا . واستدلوا على هذا بقوله تعالى - لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - وبقوله تعالى - إلا إبليس كان من الجن - والجن غير الملائكة ، وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة ، لما سبق فى علم الله من شقائه عدلا منه - لا يستل عما يفعل - وليس فى خلقه من نار ولا تركيب الشهوة فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة وأيضا على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلا تغليبا للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذى هو فرد واحد بين أظهرهم . ومعنى (أبى) امتنع من فعل ما أمر به . والاستكبار : الاستعظام للنفس ، وقد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم « أن الكبر بطر الحق وغمط الناس » وفى رواية « غمض » بالصاد المهملة (وكان من الكافرين) أى من جنسهم . قيل إن « كان » هنا بمعنى صار . وقال ابن فورك : إنه خطأ ترده الأصول . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كانت السجدة لآدم والطاعة لله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : سجدوا كرامة من الله أكرم بها آدم . وأخرج ابن عساكر عن إبراهيم المزنى قال : إن الله جعل آدم كالكمبة وأخرج ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ابن عباس قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشرف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد . وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال إنما سمي إبليس لأن الله أبلسه من الخير كله : أى آيسه منه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن الأنبارى عنه

قال : كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حتى يسمون جنا . وأخرج ابن المنذر والبيهقي في الشعب عنه قال : كان إبليس من خزان الجنة ، وكان يدبر أمر سماء الدنيا . وأخرج محمد بن نصر عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله أمر آدم بالسجود فسجد ، فقال : لك الجنة ولمن سجد من ولدك ؛ وأمر إبليس بالسجود فأبى أن يسجد ، فقال : لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وكان من الكافرين) قال : جعله الله كافرا لا يستطيع أن يؤمن . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره إلى ما ابتدئ إليه خلقه من الكفر ، قال الله (وكان من الكافرين) .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

(اسكن) أى اتخذ الجنة مسكنا وهو محل السكون ، وأما ما قاله بعض المفسرين من أن في قوله « اسكن » تنبيها على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلا منزلا له فإنه لا يملكه بذلك ، وإن له أن يخرج منه ، فهو معنى عرفي ، والواجب الأخذ بالمعنى العربى إذا لم تثبت في اللفظ حقيقة شرعية . و (أنت) تأكيد للضمير المستكن في الفعل ليصح العطف عليه كما تقرر في علم النحو أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكن إلا بعد تأكيده بمنفصل . وقد يجيء العطف نادرا بغير تأكيد كقول الشاعر :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كنعاج الملا تعسفن رملا

وقوله (وزوجك) أى حواء وهذه هى اللغة الفصيحة زوج بغير هاء ، وقد جاء بها قليلا كما في صحيح مسلم من حديث أنس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مع إحدى نسائه ، فرب به رجل فدعاه وقال : يا فلان هذه زوجتى فلانة » الحديث ، ومنه قول الشاعر :

وإن الذى يسعى ليفسد زوجتى كساع إلى أسد الشرى يستميلها

و (رغدا) بفتح المعجمة ، وقرأ النخعي وابن وثاب بسكونها ، والرغد : العيش الهنىء الذى لا عناء فيه ، وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف . و (حيث) مبنية على الضم وفيها لغات كثيرة مذكورة في كتب العربية . والقرب : الدنو . قال في الصحاح : قرب الشيء بالضم يقرب قربا : أى دنا ، وقربته بالكسر أقربه قربانا : أى دنوت منه ، وقربت أقرب قرابة مثل كتبت أكتب كتابة : إذا سرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة ، والاسم القرب

قال الأصمعي : قلت لأعرابي ما القرب ؟ قال : سير الليل لورود الغد . والنهي عن القرب فيه سدّ للذريعة وقطع للوسيلة ، ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل ، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل ، لأنه قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا يحمل إليه ، فالأولى أن يقال : المنع من الأكل مستفاد من المقام . والشجر : ما كان له ساق من نبات الأرض وواحدة شجرة وقرئ بكسر الشين وبالياء المثناة من تحت مكان الجيم . وقرأ ابن محيصن « هذى » بالياء بدل الهاء وهو الأصل . واختلف أهل العلم في تفسير هذه الشجرة ، فقيل : هي الكرم وقيل السنبلة ، وقيل التين ، وقيل الحنطة ، وسيأتي ما روى عن الصحابة فمن بعدهم في تعيينها . وقوله (فتكونا) معطوف على (تقربا) في الكشف ، أو نصب في جواب النهي وهو الأظهر . والظلم أصله : وضع الشيء في غير موضعه ، والأرض المظلومة : التي لم تحفر قط ثم حفرت ، ورجل ظليم : شديد الظلم . والمراد هنا (فتكونا من الظالمين) لأنفسهم بالمعصية ، وكلام أهل العلم في عصمة الأنبياء واختلاف مذاهبهم في ذلك مدوّن في مواطنه ، وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع فليرجع إليه فإنه مفيد . وأزلهما من الزلة وهي الخطيئة أي استزلهما وأوقعهما فيها ، وقرأ حمزة « فأزلهما » بإثبات الألف من الإزالة وهي التنحية : أي نحاهما . وقرأ الباقر بن محمد الألف . قال ابن كيسان : هو من الزوال : أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية . قال القرطبي : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى ، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى ؛ يقال منه : أزलته فزل و(عنها) متعلق بقوله أزلهما على تضمينه معنى أصدر : أي أصدر الشيطان زلتهما عنها أي بسببها ، يعني الشجرة . وقيل الضمير للجنة ، وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما : أي أبعدهما عن الجنة . وقوله (فأخرجهما) تأكيد لمضمون الحملة الأولى : أي أزلهما إن كان معناه زال عن المكان ، وإن لم يكن معناه كذلك فهو تأسيس ، لأن الإخراج فيه زيادة على مجرد الصرف والإبعاد ونحوهما ، لأن الصرف عن الشجرة والإبعاد عنها قد يكون مع البقاء في الجنة بخلاف الإخراج لهما عما كانا فيه من النعيم والكرامة أو من الجنة . وإنما نسب ذلك إلى الشيطان لأنه الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة . وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في إزلالهما ، فقيل إنه كان ذلك بمشافهة منه لهما ، وإليه ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى - وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين - والمقاسمة ظاهرها المشافهة : وقيل لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة ؛ وقيل غير ذلك مما سيأتي في المروى عن السلف . وقوله (اهبطوا) خطاب لآدم وحواء ، وخوطبا بما يخاطب به الجمع لأن الاثنين أقلّ الجمع عند البعض من أئمة العربية ؛ وقيل إنه خطاب لهما ولذريتهما ، لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنساني جعلاً بمنزلة ، ويدل على ذلك قوله (بعضكم لبعض عدوّ) فإن هذه الحملة الواقعة حالاً مبيناً للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك . والعدوّ خلاف الصديق ، وهو من عدا إذا ظلم ؛ ويقال ذئب عدوان : أي يعدو على الناس ، والعدوان : الظلم الصراح وقيل إنه مأخوذ من المجاوزة ، يقال عداه : إذا جاوزه ، والمعنيان متقاربان ، فإن من ظلم فقد تجاوز . وإنما أخبر عن قوله (بعضكم) بقوله (عدوّ) مع كونه مفرداً ، لأن لفظ بعض وإن كان معناه محتملاً للتعدد فهو مفرد فروعياً جانب اللفظ وأخبر عنه بالمفرد ، وقد يراعى المعنى فيخبر عنه بالتعدد . وقد يجاب بأن (عدوّ) وإن كان مفرداً فقد يقع موقع المتعدد كقوله تعالى - وهم لكم عدوّ - وقوله - يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو - قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة . والمراد بالمستقر : موضع الاستقرار ، ومنه - أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر - وقد يكون بمعنى الاستقرار ، ومنه - إلى ربك يومئذ المستقر - فالآية محتملة للمعنيين ، ومثلها قوله - جعل لكم الأرض قراراً - والمتاع : ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها . واختلف المفسرون في قوله

(إلى حين) فقليل إلى الموت ؛ وقيل إلى قيام الساعة . وأصل معنى الحين في اللغة : الوقت البعيد ، ومنه - هل أنى على الإنسان حين من الدهر - والحين الساعة ، ومنه - أو نقول حين ترى العذاب - والقطعة من الدهر ، ومنه - فذرهم في غمرتهم حتى حين - أي حتى تفنى آجالهم ، ويطلق على السنة ؛ وقيل على ستة أشهر ، ومنه - توتى أكلها كل حين - ويطلق على المساء والصباح ، ومنه - حين تمسون وحين تصبحون - وقال الفراء : الحين حينان : حين لا يوقف على حده ، ثم ذكر الحين الآخر واختلافه بحسب اختلاف المقامات كما ذكرنا . وقال ابن العربي : الحين المجهول لا يتعلق به حكم ، والحين المعلوم سنة . ومعنى تلقى آدم للكلمات : أخذه لها وقبوله لما فيها وعمله بها ؛ وقيل فهمه لها وفطانتها لما تضمنته . وأصل معنى التلقى الاستقبال : أي استقبال الكلمات الموحاة إليه ومن قرأ بنصب « آدم » جعل معناه استقبلته الكلمات . وقيل إن معنى تلقى تلقن ، ولا وجه له في العربية . واختلف السلف في تعيين هذه الكلمات وسيأتي . والتوبة : الرجوع يقال تاب العبد : إذا رجع إلى طاعة مولاه ، وعبد تواب : كثير الرجوع فعنى تاب عليه : رجع عليه بالرحمة فقبل توبته أو وفقه للتوبة . واقتصر على ذكر التوبة على آدم دون حواء مع اشتراكهما في الذنب ، لأن الكلام من أول القصة معه فاستمر على ذلك واستغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها لكونها تابعة له ، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها في قوله - وعصى آدم ربه فغوى - . وأما قوله (قلنا اهبطوا) بعد قوله (قلنا اهبطوا) ، فكرره للتوكيد والتغليظ . وقيل إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأول كرره ولا تراحم بين المقتضيات . فقد يكون التكرير للأمرين معا . وجواب الشرط في قوله (فلما يأتينكم مني هدى) هو الشرط الثاني مع جوابه قاله سيويه . وقال الكسائي : إن جواب الشرط الأول والثاني قوله (فلا خوف) واختلفوا في معنى الهدى المذكور فقليل : هو كتاب الله ؛ وقيل التوفيق للهداية . والخوف : هو الذعر ، ولا يكون إلا في المستقبل . وقرأ الزهري والحسن وعيسى بن عمار وابن أبي إسحاق ويعقوب « فلا خوف » بفتح الفاء والحزن ضد السرور . قال اليزيدي : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم . وقد قرئ بهما . وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة . وقد تقدم ذكر تفسير الخلود . وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي ذر قال « قلت يا رسول الله أرأيت آدم نبيا كان ؟ قال : نعم كان نبيا رسولا كلمه الله قال له - يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن أبي ذر قال « قلت يا رسول الله من أول الأنبياء ؟ قال : آدم قلت : نبي ؟ قال : نعم . قلت : ثم من ؟ قال : نوح وبينهما عشرة آباء » . وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه والبيهقي في الشعب نحوه من حديث أبي ذر مرفوعا وزاد « كم كان المرسلون ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر جمعا غفيرا » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة الباهلي ، أن رجلا قال : « يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم ، قال : كم بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون قال : كم بين نوح وبين إبراهيم ؟ قال : عشرة قرون ، قال : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قال : يا رسول الله كم كانت الرسل من ذلك ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر جمعا غفيرا » . وأخرج أحمد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه من حديث أبي أمامة نحوه ، وصرح بأن السائل أبو ذر . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ماسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عنه قال « ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة » . وأخرج الفريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال : لبث آدم في الجنة ساعة من نهار ، تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا . وقد روى تقدير اللبث في الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ما تقدم عن ابن عباس كما رواه أحمد في الزهد . وأخرج

ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : لما سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه . وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « استوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء من الضلع رأسه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته تركته وفيه عوج » وروى أبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما سميت حواء لأنها أم كل حي . وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن النخعي قال : لما خلق الله آدم وخلق له زوجة بعث إليه ملكا وأمره بالجماع ففعل ، فلما فرغ قالت له حواء : يا آدم هذا طيب زدنا منه . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : الرغد الهنيء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الرغد سعة المعيشة . وأخرج عنه في قوله (وكلا منها رغدا حيث شئتما) قال : لأحساب عليكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال : الشجرة التي نهى الله عنها آدم السنبلة وفي لفظ : البر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : هي الكرم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : هي اللوز . وأخرج ابن جرير عن بعض الصحابة قال : هي التينة . وروى مثله أبو الشيخ عن مجاهد وابن أبي حاتم عن قتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب ابن منبه قال : هي البر . وأخرج أبو الشيخ عن أبي مالك قال : هي النخلة . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن عبد الله ابن قسيط قال : هي الأترج . وأخرج أحمد في الزهد عن شعيب الجبائي قال : هي تشبه البر وتسمى الدعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فأزلهما) قال : فأغواهما . وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم بن بهدلة قال : (فأزلهما) فنحاهما . وأخرج أبو داود في المصاحف عن الأعمش قال : قراءتنا في البقرة مكان فأزلهما فوسوس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة ففجته الخزنة ، فأتى الحية وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البعير وهي كأحسن الدواب ، فكلما أن تدخله في فيها حتى تدخل به إلى آدم ، فأدخلته في فيها ، فمرت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر ، فكلمه من فيها فلم يبال بكلامه ، فخرج إليه فقال : يا آدم - هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى - وحلف لهما بالله - إني لكما لمن الناصحين - فأبى آدم أن يأكل منها ، فتقدمت حواء فأكلت ، ثم قالت : يا آدم كل ، فإني قد أكلت فلم يضرني ، فلما أكلا - بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة - . وقد أخرج قصة الحية ودخول إبليس معها عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس . وأخرج ابن سعد وأحمد في الزهد وعبد ابن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن آدم كان رجلا طوالا كأنه نخلة سموق طوله ستون ذراعا كثير شعر الرأس ، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته » الحديث . وأخرج ابن منيع وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس . قال : قال الله لآدم : ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها ؟ قال : يارب زينته لي حواء ، قال : فإني عاقبتها بأن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها ، وأدमितها في كل شهر مرتين . وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لولا بنو إسرائيل لم يبخز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » . وقد ثبتت أحاديث كثيرة عن جمعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما في محاجة آدم وموسى ، وحج

آدم موسى بقوله : أتلو مني على أمر قدّره الله علىّ قبل أن أخلق ؟ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ) قال : آدم وحواء وإبليس والحية (ولكم في الأرض مستقرّ) قال : القبور (ومتاع إلى حين) قال : الحياة . وروى نحو ذلك عن مجاهد وأبي صالح وقتادة كما أخرجه عن الأول والثاني أبو الشيخ وعن الثالث عبد بن حميد . وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله (ولكم في الأرض مستقرّ) قال : القبور (ومتاع إلى حين) قال : إلى يوم القيامة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفاء وحواء بالمروة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال « أول ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند » وفي لفظ « بدجنى أرض الهند » . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه أهبط إلى أرض بين مكة والطائف . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عنه قال : قال عليّ بن أبي طالب : أطيب ريح الأرض الهند ، هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة . وأخرج ابن سعد وابن عسّاكر عن ابن عباس قال : أهبط آدم بالهند وحواء بجدّة ، فجاء في طلبها حتى أتى جمعا ، فازدلفت إليه حواء ، فلذلك سميت المزدلفة ، واجتمعا يجمع . وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنزل آدم عليه السلام بالهند فاستوحش ، فنزل جبريل فنادى بالأذان ، فلما سمع ذكر محمد قال له : ومن محمد هذا ؟ قال : هذا آخر ولدك من الأنبياء » . وقد روى عن جماعة من الصحابة أن آدم أهبط إلى أرض الهند ، منهم جابر أخرجه ابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن عسّاكر ، ومنهم ابن عمر أخرجه الطبراني . وأخرج ابن عسّاكر عن عليّ قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهابا ولا فضاة ، فلما أهبط آدم وحواء أنزل معهما ذهابا وفضة ، فسلكه ينابيع في الأرض منفعة لأولادهما من بعدهما وجعل ذلك صداق لحواء ، فلا ينبغي لأحد أن يزوج إلا بصداق » . وأخرج ابن عسّاكر بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « هبط آدم وحواء عريانين جميعا عليهم ورق الجنة فعد ييكى ويقول لها : يا حواء قد آذاني الحر ، فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها ، وأمر آدم بالحياكة وعلمه » . وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس مرفوعا « أول من حاك آدم عليه السلام » . وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة وما أهبط معه وما صنع عند وصوله إلى الأرض ، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال : أي رب ألم تخلقني بيدك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب ألم تنفخ في من روحك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب ألم تسبق إلى رحمتك قبل غضبك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب ألم تسكني جنتك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب أرايت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم . وأخرج الطبراني في الأوسط وابن عسّاكر بسند ضعيف عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاه الكعبة فصلى ركعتين » الحديث . وقد روى نحوه بإسناد لا بأس به أخرجه الأزرقي في تاريخ مكة ، والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدعوات وابن عسّاكر من حديث بريدة مرفوعا . وأخرج الثعلبي عن ابن عباس في قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال : قوله - ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين - . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن كعب القرظي في قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن

مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والضحاك مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قيل له : ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه ؟ قال : علم شأن الحج فهي الكلمات . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد في قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي ، فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي ، فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي ، فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم . وأخرج نحوه البيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن أنس . وأخرج نحوه ابن الزهد عن سعيد بن جبير . وأخرج نحوه ابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس . وأخرج نحوه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن عليّ مرفوعا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (فلما يأتينكم مني هدى) قال الهدي : الأنبياء والرسل والبيان . وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فمن تبع هدى) بثقليل الباء وفتحها . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (فلا خوف عليهم) يعني في الآخرة (ولا هم يحزنون) يعني لا يحزنون للموت .

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف ، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهى عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه ، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبا ذكر في خطبته ، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن مازال ينزل مفترقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قبضه الله عز وجل إليه ، وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد تكون متناقضة كتحریم أمر كان حلالا ، وتحليل أمر كان حراما ، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحينما في عبادة ، وحينما في معاملة ، ووقتا في ترغيب ، ووقتا في ترهيب ، وآونة في بشارة ، وآونة في نذارة ، وطورا في أمر دنياء ، وطورا في أمر آخرة ، ومرة في تكاليف آتية . ومرة في أقاصيص ماضية ؛ وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والتار والملاح والحادي ، وهل هذا إلا من

فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض ، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور ، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف ، تقرّر عنده أن هذا أمر لا بد منه ، وأنه لا يكون القرآن بليغا معجزا إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة ، وتبين الأمر الموجب للارتباط ؛ فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى مقاله المتكلمون في ذلك ، فوجده نكلفا محضا ، وتعسفا بينا انقذح في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة ، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبا على هذا الترتيب الكائن في المصحف ؛ فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب ، وأيسر حظ من معرفته يعلم علما يقينا أنه لم يكن كذلك ، ومن شك في هذا وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول ، المطلعين على حوادث النبوة ، فإنه ينثليج صدره ، ويزول عنه الريب ، بالنظر في سورة من السور المتوسطة ، فضلا عن المطولة لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة ، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها في الترتيب ، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل - اقرأ باسم ربك الذي خلق - وبعده - يأيها المدثر - يأيها المزمل - وينظر أين موضع هذه الآيات والسور في ترتيب المصحف ؟ وإذا كان الأمر هكذا ، فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدّم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخرا ، وتأخر ما أنزله الله متقدما ، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدّى لذلك من الصحابة ، وما أقل نفع مثل هذا وأنزرت ثمرته ، وأحقر فائدته ، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس ، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين مقاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاءاته ، أو إلى مقاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحا وأخرى هجاء ، وحيناً نسيباً وحيناً رثاء ، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة ، فعمد هذا المتصدى إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه ، ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد والخطبة التي خطبها في الحج والخطبة التي خطبها في النكاح ونحو ذلك ؛ وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك ، لعدّ هذا المتصدى لمثل هذا مصاباً في عقله متلاعباً بأوقاته عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله ؛ وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة ، وهو ركوب الأحقوة في كلام البشر ، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب ، وأبكت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان . وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربيّ ، وأنزله بلغة العرب ، وسلك فيه مسالكهم في الكلام ، وجرى به مجاريهم في الخطاب . وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون متخالفة ، وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين ، فضلاً عن المقامات ، فضلاً عن جميع مقاله مادام حياً ، وكذلك شاعرهم . ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثر في ساحاتها كثير من المحققين ، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الوطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام ، فإذا قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف :

فدع عنك نهبا صيح في حجراته وهات حديثا ما حديث الرواحل

قوله (يا بنى إسرائيل) اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ومعناه

عبد الله ، لأن إسر في لغتهم هو العبد وإيل هو الله ، قيل إن له اسمين ؛ وقيل لإسرائيل لقب له ، وهو اسم عجمي غير منصرف ، وفيه سبع لغات : إسرائيل بزنة إبراهيم ، وإسرائيل بمدّة مهموزة مختلطة رواها ابن شنبوذ عن ورش ، وإسرائيل بمدّة بعد الياء من غيرهمز وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر ، وقرأ الحسن من غير همز ولا مدّة وإسرائيل بهزة مكسورة . وإسرائيل بهزة مفتوحة ، وتميم يقولون إسرائيل . والذكر هو ضد الإنصات وجعله بعض أهل اللغة مشتركا بين ذكر القلب واللسان . وقال الكسائي : ما كان بالقلب فهو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . قال ابن الأنباري : والمعنى في الآية : اذكروا شكر نعمتي ، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة ، وهي اسم جنس ، ومن جملتها أنه جعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتب والمن والسلوى ، وأخرج لهم الماء من الحجر ، ونجاهم من آل فرعون وغير ذلك . والعهد قد تقدم تفسيره ، واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو ؟ فقيل هو المذكور في قوله تعالى - خذوا ما آتيناكم بقوة - وقيل هو ما في قوله - واخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا - وقيل هو قوله - وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب - . وقال الزجاج : هو ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل هو أداء الفرائض ، ولا مانع من حمله على جميع ذلك . ومعنى قوله (أوف بعهدكم) أي بما ضمننت لكم من الجزاء . والرهب والرهبنة : الخوف ، ويتضمن الأمر به معنى التهديد ، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم في - إياك نعبد - وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار والتفسير مثل زيدا ضربته (وإياي فارهبون) كان أوكد في إفادة الاختصاص ، ولهذا قال صاحب الكشاف : وهو أوكد في إفادة الاختصاص من إياك نعبد ، وسقطت الياء من قوله (فارهبون) لأنها رأس آية (ومصدقا) حال من « ما » في قوله - ما أنزلت - أو من ضميرها المقدر بعد الفعل أي أنزلته . وقوله (أول كافر به) إنما جاء به مفردا ، ولم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ ، متعدد المعنى نحو فريق أو فوج . وقال الأخفش والفراء : إنه محمول على معنى الفعل ، لأن المعنى أول من كفر . وقد يكون من باب قولهم هو أظرف الفتيان وأجمله كما حكى ذلك سيبويه ، فيكون هذا المفرد قائما مقام الجمع ؛ وإنما قال أول مع أنه قد تقدم مهم إلى الكفر به كفار قريش ، لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب ، لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء ، وما يلزم من التصديق ، والضمير في به عائد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي لا تكونوا أول كافر بهذا النبي مع كونكم قد وجدتموه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل ، مبشرا به في الكتب المنزلة عليكم . وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السالفة ، وقيل إنه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله (بما أنزلت) وقيل عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله (لما معكم) وقوله (ولا تشتروا بآياتي) أي بأوامري ونواهي (ثمنا قليلا) أي عيشا نزررا ورئاسة لا خطر لها . جعل ما اعتاضوه ثمنا ، وأوقع الاشتراء عليه وإن كان الثمن هو المشتري به ، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال : أي لا تستبدلوا بآياتي ثمنا قليلا ، وكثيرا ما يقع مثل هذا في كلامهم . وقد قدّمنا الكلام عليه في تفسير قوله تعالى - اشترؤا الضلالة بالهدى - ، ومن إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر :

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها فما أصبت بترك الحج من ثمن

وهذه الآية وإن كانت خطابا لبني إسرائيل ونهيا لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه ، فنأخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به ، أو إثبات باطل نهى الله عنه ، أو امتنع من تعليم

ما علمه الله وكنم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به ، فقد اشترى بآيات الله ثمننا قليلا . وقوله (وإياي فاتقون) الكلام فيه كالكلام في قوله تعالى - وإياي فارهبون - وقد تقدم قريبا . واللبس : الخلط ، يقال لبست عليه الأمر ألبسه : إذا خلطت حقه بباطله وواضحه بمشكله ، قال الله تعالى - وللبسنا عليهم ما يلبسون - قالت الخنساء

ترى الجليس يقول الحق تحسبه رشدا وهيات فانظر مابه التبسا

صدق مقالته واحذر عداوته والبس عليه أمورا مثل ما لبسا

وقال العجاج : لما لبست الحق بالتعجنى عتبى فاستبدلن زيدا منى

ومنه قول عنترة : وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبت نفضت لها يدي

وقيل : هو مأخوذ من التغطية : أى لاتغطوا الحق بالباطل ، ومنه قول الجعدي :

إذا ما الضجيج ثنى جيدها تثنت عليه وكانت لباسا

وقول الأخطل : وقد لبست لهذا الأمر أعصره حتى تجلل رأسى الشيب فاشتعلا

والأول أولى . والباطل في كلام العرب : الزائل ، ومنه قول لبيد . ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

وبطل الشيء يبطل بطولا وبطلانا ، وأبطله غيره ويقال ذهب دمه بطلا : أى هدر ، والباطل : الشيطان ، وسمى الشجاع بطلا لأنه يبطل شجاعة صاحبه ، والمراد به هنا خلاف الحق . والباء في قوله بالباطل يحتمل أن تكون صلة وأن تكون للاستعانة ذكر معناه في الكشف ، ورجح الرازي في تفسيره الثاني . وقوله (وتكتموا) يجوز أن يكون داخلا تحت حكم النهي ، أو منصوبا بإضمار أن ، وعلى الأول يكون كل واحد من اللبس والكنم منبها عنه ، وعلى الثاني يكون المنهى عنه هو الجمع بين الأمرين ، ومن هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهي وأن كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده ، والمراد النهي عن كنم حجج الله التي أوجب عليهم تبليغها وأخذ عليهم بيانها ، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشيء معين ، ومعنى خاص فلم يصب إن أراد أن ذلك هو المراد دون غيره ، لا إن أراد أن مما يصدق عليه . وقوله (وأنتم تعلمون) جملة حالية ، وفيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل ، وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة ، وهذا التقيد لا يفيد جواز اللبس والكنم مع الجهل ، لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شيء حتى يعلم بحكمه خصوصا في أمور الدين ، فإن التكلم فيها والتصدي للإصدار والإيراد في أبوابها إنما أذن الله به لمن كان رأسا في العلم فردا في الفهم ، وما للجهال والدخول فيما ليس من شأنهم والقفود في غير مقاعدهم . وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يا بني إسرائيل) قال للأخبار من اليهود (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أى بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه (وأوفوا بعهدي) الذي أخذت في أعناقكم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاءكم (أوف بعهدكم) أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال (وإياي فارهبون) أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به) وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاءكم به وأنتم تجدونه عندكم فيما علمون من الكتب التي بأيديكم ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (أوفوا بعهدي) يقول : ما أمرتكم به من طاعتي ونهيتهكم عنه من معصيتي في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره (أوف بعهدكم) يقول : أرض عنكم وأدخلكم الجنة . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن المنذر عن

مجاهد في قوله (أوفوا بعهدى) قال : هو الميثاق الذى أخذه عليهم في سورة المائدة - لقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل - الآية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : أوفوا لى بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعدتكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (إياى فارهبون) قال : فاحشون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (وآمنوا بما أنزلت) قال القرآن (مصدقا لما معكم) قال التوراة والإنجيل . وأخرج ابن جرير عن ابن جرير في قوله (أول كافر به) قال : بالقرآن . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال : يقول يامعشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقا لما معكم ، لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل (ولا تكونوا أول كافر به) أى أول من كفر بمحمد (ولا تشتروا بآياتى) يقول : لاتأخذوا عليه أجرا ، قال : وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول : يابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : لاتأخذ على ما علمت أجرا ، إنما أجر العلماء والحكماء والخلماء على الله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (ولا تلبسوا الحق بالباطل) قال : لاتخلطوا الصدق بالكذب (وتكتموا الحق) قال : لاتكتموا الحق وأنتم قد علمتم أن محمدا رسول الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (ولا تلبسوا) الآية ، قال : لاتلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام (وتكتموا الحق) قال : كتموا محمدا وهم يعلمون أنه رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : الحق التوراة ، والباطل الذى كتبوه بأيديهم .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

قد تقدم الكلام في تفسير إقامة الصلاة واشتقاقها ، والمراد هنا الصلاة المعهودة ، وهى صلاة المسلمين على أن التعريف للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس ، ومثلها الزكاة . والإيتاء : الإعطاء يقال آتيت به : أى أعطيته . والزكاة مأخوذة من الزكاء ، وهو النماء ، زكا الشيء : إذا نما وزاد ، ورجل زكى : أى زائد الخير ، وسمى لإخراج جزء من المال زكاة : أى زيادة مع أنه نقص منه ، لأنها تكثر بركته بذلك ، أو تكثر أجر صاحبه ، وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير ، كما يقال زكا فلان : أى طهر .

والظاهر أن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية هى المرادة بما هو مذكور في الكتاب والسنة منها . وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه . وقد اختلف أهل العلم في المراد بالزكاة هنا ، فقيل المراد المفروضة لاقرانها بالصلاة ؛ وقيل صدقة الفطر ، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك . والركوع في اللغة الانحناء ، وكل منحن راكم ، قال لبيد :

أخبر أخبار القرون التى مضت أدب كأنى كلما قمت راكم

وقيل الانحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار الركوع أيضا للانحناء في المنزلة ، قال الشاعر :

لاتهين الفقير علك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

ولأنما خص الركوع بالذكر هنا ، لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم ؛ وقيل لكونه كان ثقيلًا على أهل الجاهلية وقيل إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة . والركوع الشرعى : هو أن ينحن الرجل ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راکعًا ذاكرًا بالذكر المشروع . وقوله (مع الراكعين) فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة والخروج إلى المساجد . وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ما هو معروف . وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم في كون ذلك عينًا أو كفاية ؛ وذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغّب فيها وليس بواجب ، وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة ، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة . وثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم الذى يصلى مع الإمام أفضل من الذى يصلى وحده ثم ينام . والبحث طويل الذبول ، كثير النقول ، . والهمزة في قوله (أتأمرون الناس بالبر) للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين ، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه ، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله (وتنسون أنفسكم) مع التطهر بتزكية النفس والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهامًا للناس وتلبيسًا عليهم كما قال أبو العاتية :

وصفت التقي حتى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك يسطع

والبر : الطاعة والعمل الصالح ، والبر : سعة الخير والمعروف ، والبر : الصدق ، والبر : ولد الثعلب ، والبر : سوق الغنم ، ومن إطلاقه على الطاعة قول الشاعر :

لاهم رب أن يكونوا دونكا يبرك الناس ويفجرونكا

أى يطيعونك ويعصونك . والنسيان بكسر النون هو هنا بمعنى الترك : أى وتركون أنفسكم ، وفي الأصل خلاف الذكر والحفظ : أى زوال الصورة التى كانت محفوظة عن المدركة والحافظة . والنفس : الروح ، ومنه قوله تعالى - الله يتوفى الأنفس حين موتها - يريد الأرواح . وقال أبو خراش * نجاسالم والنفس منه بشدقه * والنفس أيضا الدم * ومنه قولهم : سالت نفسه ، قال الشاعر :

تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير الطبات تسيل

والنفس الجسد ، ومنه :

نبئت أن بنى سحيم أدخلوا أبياتهم تأمور نفس المنذر

والتأمور البدن . وقوله (وأنتم تتلون الكتاب) جملة حالية مشتملة على أعظم تقرير وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت : أى كيف تتركون البر الذى تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدة الوعيد عليه ، كما ترونه في الكتاب الذى تتلونه والآيات التى تقرأونها من التوراة . والتلاوة : القراءة ، وهى المراد هنا وأصلها الاتباع ؛ يقال تلونه : إذا تبعته ؛ وسمى القارئ تاليا والقراءة تلاوة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذى هو عليه . وقوله (أفلا تعقلون) استفهام للإنكار عليهم والتقرير لهم ، وهو أشد من الأول وأشد ، وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم ، فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذى قاموا به في المجمع وتادوا به في المجالس إيهامًا للناس بأنهم

مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه ، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه ، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم واثمنهم عليه ، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ؛ ثم ربط هذه الحملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم ، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والحصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته ، وهم في ذلك كما قال المعري :

ولأنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لاحب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقرير إلى تقرير ، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال : إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحمله الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجب العلم . والعقل في أصل اللغة : المنع ، ومنه عقاب البعير ، لأنه يمنع عن الحركة ، ومنه العقل في الدية لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني . والعقل نقض الجهل ، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة : أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المزرية ويصح أن يكون معنى الآية : أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم . وقول (واستعينوا بالصبر) الصبر في اللغة : الحبس ، وصبرت نفسي على الشيء : حبستها . ومنه قول عنتره :

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

والمراد هنا : استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات على دفع ما يرد عليكم من المكروهات وقيل الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة . واستدل هذا القائل بقوله تعالى - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما تنفيده الألف واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة . واختلف المفسرون في رجوع الضمير في قوله - وإنها لكبيرة - فقيل إنه راجع إلى الصلاة وإن كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما . كما قال تعالى - والله ورسوله أحق أن يرضوه - إذا كان أحدهما داخلا تحت الآخر بوجه من الوجوه ، ومنه قول الشاعر :

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاض كان جنونا

ولم يقل ما لم يعاض بل جعل الضمير راجعا إلى الشباب ، لأن الشعر الأسود داخل فيه ؛ وقيل إنه عائد إلى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لأن الصبر هو عليها ، كما قيل سابقا ؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مرادا معها ، لكن لما كانت آكد وأعم تكليفا وأكثر ثوابا كانت الكناية بالضمير عنها ، ومنه قوله - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - كذا قيل ؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة ، ومثل ذلك قوله تعالى - وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها - فأرجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعاً وأكثر وجوداً ، والتجارة هي الحاملة على الانفضاض ، والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أن الصبر هناك جعل داخلا تحت الصلاة ، وهنا لم يكن داخلا وإن كان مرادا ؛ وقيل إن المراد بالصبر والصلاة ، ولكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر ، ومنه قوله تعالى - وجعلنا ابن مريم وأمه آية - أي ابن مريم آية وأمه آية . ومنه قول الشاعر :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

وقال آخر : لكل هم من الهموم سعة والصبح والمساء لافلاح معه
وقيل رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة ؛ وقيل رجع إلى المصدر المفهوم من قوله (واستعينوا) وهو
الاستعانة ؛ وقيل رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل . والكبيرة التي يكبر أمرها ويتعاضم شأنها على
حاملها لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ، ومنه - كبر على المشركين ماتدعوهم إليه - . والخاشع : هو
التواضع ، والخشوع : التواضع . قال في الكشف والخشوع : الإخبات والتطامن ، ومنه الخشعة للرملة المتطامنة
وأما الخضوع : فالإين والانقياد ، ومنه خضعت بقولها : إذا لينته انتهى . وقال الزجاج : الخاشع الذي يرى أثر
الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الأقوى ، ومكان خاشع : لا يهتدى إليه ، وخشعت الأصوات : أى
سكنت ، وخشع يبصره : إذا غضه ، والخشعة : قطعة من الأرض رخوة . وقال سفيان الثوري : سألت الأعمش
عن الخشوع فقال : يا ثوري أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ؟ ليس الخشوع بأكل الخشن
ولبس الخشن وتطأطي الرأس ، لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء ، وتخضع لله في كل فرض
افترض عليك انتهى . وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته : إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح
سكون وتواضع ، واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتماد استعمال جوارحهم في الصلاة ، وملازمهم
لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة ، وإتباعهم لأنفسهم إعتابا عظيما في الأسباب الموجبة للحضور والخشوع
لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب ، تسهل عليهم تلك
المتاعب ، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب ، بل يصبر ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة ، ولأمر ما هان
على قوم ما يلاقونه من حر السيوف عند تصادم الصفوف ، وكانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم :

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أى جنب كان في الله مصرعى

والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ، ومنه قوله تعالى - إني ظننت أني ملاق حساييه - وقوله - وظنوا أنهم
مواقعوها - ومنه قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألني مدجج سراتهم بالفارسي المسود

وقيل إن الظن في الآية على بابه ، ويضم في الكلام بذنوبهم ، فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين ، ذكره المهدوي
والماوردي ، والأول أولى . وأصل الظن : الشك مع الميل إلى أحد الطرفين ، وقد يقع موقع اليقين في مواضع ،
منها هذه الآية . ومعنى قوله (ملاقوا ربهم) ملاقوا جزائه ، والمفاعلة هنا ليست على بابها ، ولا أرى في حمله على
أصل معناه من دون تقدير المضاف بأسا . وفي هذا مع ما بعده من قوله (وأنهم إليه راجعون) إقرار بالبعث وما
وعد الله به في اليوم الآخر . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (واركعوا) قال : صلوا . وأخرج ابن
أبي حاتم أيضا عن مقاتل في قوله (واركعوا مع الراكعين) قال : أمرهم أن يركعوا مع أمة محمد يقول : كونوا
منهم ومعهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر) الآية ، قال : أولئك أهل
الكتاب كانوا يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ولا ينتفعون بما فيه . وأخرج الثعلبي
والواحدى عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة ، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذى
قربته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الدين الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل ، يعنون
محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن أمره حق ، وكانوا يأمرؤن الناس بذلك ولا يفعلونه . وأخرج ابن جرير عنه

في قوله (أتأمرون الناس بالبر) قال : بالدخول في دين محمد . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة ، وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم في تصديق رسلى ؟ وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي عن أبي الدرداء في الآية قال : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا . وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « رأيت ليلة أسرى بي رجلا تقرض شفاهم بمقاريض من نار ، كلما قرضت رجعت ، فقلت لجبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » . وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية » وفي الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعا عند الخطيب وابن النجار ، وعن الوليد بن عقبة مرفوعا عند الطبراني والخطيب بسند ضعيف وعند عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه موقوفا ، ومعناها جميعا : أنه بطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : بما دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم ؟ قالوا : إنا كنا نأمركم ولا نفعل . وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عنه نحوه . وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن قانع في معجمه والخطيب في الاقتضاء عن سليك مرفوعا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال « ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه ، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات » . وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود مثله ، وما أحسن ما أخرجه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أو بلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : فإن لم تحش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله عز وجل (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) أحكمت هذه الآية ؟ قال لا ، قال : فالحرف الثاني ، قال : قوله تعالى - لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون - أحكمت هذه الآية ؟ قال لا ، قال : فالحرف الثالث ، قال : قول العبد الصالح شعيب - ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه - أحكمت هذه الآية ؟ قال لا ، قال : فابدأ بنفسك . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال : إنهما معونتان من الله فاستعينوا بهما . وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر وأبو الشيخ في الثواب والديلمي في مسند الفردوس عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية » . وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للصابرين ، ولم نذكرها هنا لأنها ليست بخاصة بهذه الآية ، بل هي واردة في مطلق الصبر ، وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ما هنا منها شطرا صالحا ، وفي الكتاب العزيز من الثناء على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب . وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا حزبه

أمر فزع إلى الصلاة» وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كانوا : يعنى الأنبياء ، يفرعون إذا فزعوا إلى الصلاة » . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه حديث حذيفة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه كان في مسير له ، فنعى إليه ابن له ، فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال : فعلنا كما أمرنا الله فقال (واستعينوا بالصبر والصلاة) . وقد روى عنه نحوه ذلك سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي لما نعى إليه أخوه قثم . وقد روى نحوه ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين . وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله (ولأنها لكبيرة) قال : لثقلته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إلا على الخاشعين) قال : المؤمنين حقاً . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (إلا على الخاشعين) قال : الخائفين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كل ظن في القرآن فهو يقين ، ولا يتم هذا في مثل قوله - إن الظن لا يغني من الحق شيئاً - وقوله - إن بعض الظن إثم - ولعله يريد الظن المتعلق بأمور الآخرة كما رواه ابن جرير عن قتادة قال : ما كان من ظن الآخرة فهو علم . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (وأنهم إليه راجعون) قال : يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

قوله (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) قد تقدم تفسيره ، وإنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قرنه بالوعيد وهو قوله (واتقوا يوماً) وقوله (وأني فضلتكم) معطوف على مفعول اذكروا : أي اذكروا نعمتي وتفضيلي لكم على العالمين ، قيل المراد بالعالمين عالم زمانهم - وقيل على جميع العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وقال في الكشف : على الجحيم الغفير من الناس كقوله - باركنا فيها للعالمين - يقال رأيت عالماً من الناس : يراد الكثرة انتهى . قال الرازي في تفسيره : وهذا ضعيف ، لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل ، وكل ما كان دليلاً على الله كان علماً وكان من العالم . وهذا تحقيق قول المتكلمين : العالم كل موجود سوى الله ، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات انتهى . وأقول هذا الاعتراض ساقط ، أما أولاً فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه ، وأما ثانياً فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجوداً بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه ، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق ، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات ؛ وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا ، ولا في اشتقاقه ما يدل عليه ؛ وأما من جعل العالم أهل العصر ، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على

أهل كل عصر ، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا على ما بعده من العصور ، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى - إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يوث أحدًا من العالمين - وعند قوله تعالى - ولقد اخترناهم على علم على العالمين - وعند قوله تعالى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - فإن قيل : إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم . قلت : لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزما لكونهم أفضل من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى - كنتم خير أمة أخرجت للناس - فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات . وقوله (واتقوا يوما) أمر معناه الوعيد ، وقد تقدم معنى التقوى . والمراد باليوم يوم القيامة : أى عذابه . وقوله (لا تجزى نفس عن نفس شيئا) فى محل نصب صفة ليوم ، والعائد محذوف . قال البصريون فى هذا وأمثاله تقديره فيه . وقال الكسائى هذا خطأ ، بل التقدير لا تجزىه . لأن حذف الظرف لا يجوز ، ويجوز حذف الضمير وحده . وقد روى عن سيبويه والأخفش والزجاج جواز الأمرين . ومعنى : لا تجزى لا تكفى وتقضى ، يقال جزا عنى هذا الأمر يجزى : أى قضى ، واجتزأت بالشئ أى اجتزى : أى اكتفيت ، ومنه قول الشاعر :

فإن الغدر فى الأقوام عار وإن الحسرى يجزى بالكراع

والمراد أن هذا اليوم لا تقضى نفس عن نفس شيئا ولا تكفى عنها ، ومعنى التنكير التحقير : أى شيئا يسيرا حقيرا ، وهو منصوب على المفعولية أو على أنه صفة مصدر محذوف : أى جزاء حقيرا والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الاثنان ، تقول استشفعته : أى سألمته أن يشفع لى : أى يضمّ جاهه إلى جاهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له ، وسميت الشفعة شفعة لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وقبل بالمشاة الفوقية لأن الشفاعة مؤنثة ، وقرأ الباقون بالياء التحتية لأنها بمعنى الشفع . قال الأخفش : الأحسن التذكير . وضمير منها يرجع إلى النفس المذكورة ثانيا : أى إن جاءت بشفاعة شفع ، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولا : أى إذا شفعت لم يقبل منها . والعدل بفتح العين : الفداء وبكسرهما : المثل . يقال عدل وعديل للذى مائل فى الوزن والقدر . وحكى ابن جرير أن فى العرب من يكسر العين فى معنى الفدية . والنصر : العون ، والأنصار : الأعوان ، وانتصر الرجل : انتقم ، والضمير أى هم يرجع إلى النفوس المدلول عليها بالنكرة فى سياق النفي ، والنفس تذكر وتؤنث . وقوله (إذ نجيناكم) متعلق بقوله (اذكروا) والنجاة : النجوة من الأرض وهى ما ارتفع منها ، ثم سمي كل فائز ناجيا . وآل فرعون : قومه ، وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل ، وقيل غير ذلك ، وهو يضاف إلى ذوى الخطر . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم نحو آل محمد . ولا يضاف إلى البلدان فلا يقال من آل المدينة . وقال الأخفش : قد سمعناه فى البلدان قالوا آل المدينة . واختلفوا هل يضاف إلى المضر أم لا ، فمنه قوم وسوّه آخرون وهو الحق ، ومنه قول عبد المطلب :

وانصر على آل الصلي ب وعابديه اليوم آلاك

وفرعون : قيل هو اسم ذلك الملك بعينه - وقيل إنه اسم لكل ملك من ملوك العماقة كما يسمى من ملك الفرس كسرى ، ومن ملك الروم قيصر ، ومن ملك الحبشة النجاشي . واسم فرعون موسى المذكور هنا : قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد بن مصعب بن الريان . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . وقال الجوهري : إن كل عات يقال له فرعون ، وقد تفرعن وهو ذو فرعة : أى دهاء ومكر . وقال فى

الكشاف : تفرعن فلان : إذا عتا وتجبر . ومعنى قوله (يسومونكم) يولونكم ، قاله أبو عبيدة ؛ وقيل يذيقونكم ويلزمونكم إياه ، وأصل السوم اللوام ، ومنه سائمة الغنم ل مداومتها الرعى ؛ ويقال سامه خطة خسف : إذا أولاه إياها . وقال في الكشاف : أصله من سام السلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه انتهى . وسوء العذاب : أشده ، وهو صفة مصدر محذوف : أى يسومونكم سويا سوء العذاب ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، وهذه الجملة في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ مقدر ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال : أى سائمين لكم . وقوله (يذبحون) وما بعده بدل من قوله (يسومونكم) وقال الفراء : إنه تفسير لما قبله وقرأه الجماعة بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن بالتخفيف . والذبح في الأصل : الشق ، وهو فرى أوداج المذبوح والمراد بقوله تعالى (ويستحيون نساءكم) يتركونهن أحياء ليستخدمنهن ويمتهنهن ؛ وإنما أمر بذبح الأبناء واستحياء البنات لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده ، وعبر عن البنات باسم النساء لأنه جنس يصدق على البنات . وقالت طائفة : أنه أمر بذبح الرجال واستدلوا بقوله (نساءكم) والأول أصح بشهادة السبب ، ولا يخفى ما في قتل الأبناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من إنزال الذل بهم وإلصاق الإهانة الشديدة بجميعهم لما في ذلك من العار . والإشارة بقوله (وفي ذلكم) إلى جملة الأمر . والبلاء يطلق تارة على الخير ، وتارة على الشر ؛ فإن أريد به هنا الشر كانت الإشارة بقوله (وفي ذلكم بلاء) إلى ما حل بهم من النعمة بالذبح ونحوه ؛ وإن أريد به الخير كانت الإشارة إلى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإبقاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين . وقد اختلف السلف ومن بعدهم في مرجع الإشارة ، فرجع الجمهور الأول ، ورجح الآخرون الآخر . قال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر بآوته أبلوه بلاء ، وفي الخير أبلية إبلاء وبلاء ، قال زهير :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

قال : فجمع بين اللغتين لأنه أراد فأنعم عليهما خير النعم التي يختبر بها عياده . وقوله (وإذا فرقنا) متعلق بما تقدم من قوله (اذكروا) وفرقنا : فلقنا ؛ وأصل الفرق الفصل ، ومنه فرق الشعر ، وقرأ الزهري « فرقنا » بالتشديد ، والبلاء في قوله (بكم) قيل هي بمعنى اللام : أى لكم ؛ وقيل هي الباء السبية : أى فرقناه بسببكم ؛ وقيل إن الجار والمجرور في محل الحال : أى فرقناه متلبسا بكم . والمراد هاهنا أن فرق البحر كان بهم : أى بسبب دخولهم فيه : أى لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم . وأصل البحر في اللغة : الاتساع ، أطلق على البحر الذي هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر والخليج ، ويطلق على الماء المالح ، ومنه أبحر الماء : إذا ملح ، قال نصيب :

وقد عاد ماء الأرض بحرا فزادني إلى مرضى أن أبحر المشرب العذب

وقوله (فأنجيناكم) أى أخرجناكم منه (وأغرقنا آل فرعون) فيه . وقوله (وأنتم تنظرون) في محل نصب على الحال : أى حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم ؛ وقيل معناه : وأنتم تنظرون : أى ينظر بعضكم إلى البعض الآخر من السالكين في البحر ؛ وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون وإلى آل فرعون يغرقون . والمراد بآل فرعون هنا هو وقومه وأتباعه . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا تلا (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) قال : مضى القوم ، وإنما يعنى به أنتم . وأخرج ابن جرير عن سفيان بن عيينة قال في قوله (اذكروا نعمتي) هي أيادي الله وأيامه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : نعمة الله التي أنعم بها على بني

إسرائيل فيما سمي وفيما سوى ذلك ، فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله (وأنى فضلتكم على العالمين) قال : فضلوا على العالم الذي كانوا فيه ، ولكل زمان عالم . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي العالية في قوله (فضلتكم على العالمين) قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على من كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (لا تجزى نفس عن نفس شيئا) قال : لا غنى نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئا . وأخرج ابن جرير عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن الثناء عليه قال « قيل يا رسول الله ما العدل ؟ قال : العدل الفدية » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي مالك والحسن وسعيد بن جبيرة وقاتدة والربيع بن أنس نحو ذلك وأخرج عبد الرزاق عن علي في تفسير الصرف والعدل قال : التطوع والفريضة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب ههنا ، والقول الأوّل أظهر في تفسير هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالت الكهنة لفرعون إنه يولد في هذا العام مولود يذهب بملكه ، فجعل فرعون على كل ألف امرأة مائة رجل ، وعلى كل مائة عشرة ، وعلى كل عشر رجلا ، فقال : انظروا كل امرأة حامل في المدينة ، فإذا وضعت حملها فإن كان ذكرا فاذبحوه ، وإن كان أنثى فخلوها عنها ، وذلك قوله (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (يسومونكم سوء العذاب) قال : إن فرعون ملكهم أربعمئة سنة . فقالت له الكهنة : إنه سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه ، فبعث في أهل مصر نساء قوابل ، فإذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ، ويستحي الجوارى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بلأ من ربكم عظيم) يقول : نقمة . وأخرج وكيع عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (وإذا فرقنا بكم البحر) فقال : إى والله لفرق البحر بينهم حتى صار طريقا يبسا يمشون فيه ، فأنجاهم الله وأغرق آل فرعون عدوهم . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال : ما هذا اليوم ؟ قالوا : هذا يوم صالح نجي الله فيه بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نحن أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصومه » . وقد أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبيرة أن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عن أمور ، منها عن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة ، فكتب معاوية إلى ابن عباس فأجابه عن تلك الأمور وقال : وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار : فالبحر الذي أفرج عن بنى إسرائيل . ولعله سيأتى إن شاء الله تعالى زيادة على ما هنا عند تفسير قوله تعالى - أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم - .

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)
ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ
بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

قرأ أبو عمرو (وعدنا) بغير ألف ، ورجحه أبو عبيدة وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما من الله فإنما هو التفرد بالوعد على هذا وجدنا القرآن كقوله - وعدكم وعد الحق - وقوله - وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين - ومثله ، قال أبو حاتم ومكي : وإنما قالوا هكذا نظرا إلى أصل المفاعلة أنها تفيد الاشتراك في أصل الفعل وتكون من كل واحد من المتواعدين ونحوهما ، ولكنها قد تأتي للواحد في كلام العرب كما في قولهم : داويت العليل ، وعاقبت اللص ، وطارقت النعل ، وذلك كثير في كلامهم . وقرأ الجمهور « واعدنا » قال النحاس : وهي أجود وأحسن وليس قوله - وعد الله الذين آمنوا - من هذا في شيء ، لأن واعدنا موسى إنما هو من باب الموافاة ، وليس هو من الوعد والوعيد في شيء ، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا ؛ والفصيح في هذا أن يقال واعدته . قال الزجاج : واعدنا بالألف هاهنا جيد ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة ، فمن الله سبحانه وعد ومن موسى قبول . قوله (أربعين ليلة) قال الزجاج : التقدير تمام أربعين ليلة ، وهي عند أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، وإنما خص الليالي بالذكر دون الأيام لأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة . ومعنى قوله (ثم اتخذتم العجل) أى جعلتم العجل لها من بعده : أى من بعد مضى موسى إلى الطور . وقد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوا عشرين يوما وعشرين ليلة . وقالوا : قد اختلف مواعده فاتخذوا العجل ، وهذا غير بعيد منهم ، فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل ويشاهدونه بأبصارهم ، فلا يقال كيف تعدون الأيام والليالي على تلك الصفة ، وقد صرح لهم في الوعد بأنها أربعون ليلة ، وإنما ساءمهم ظالمين لأنهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام ، والجملة في موضع نصب على الحال . وقوله (من بعد ذلك) أى من بعد عبادتكم العجل ، وسمى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته كذا قيل ، وليس بشيء لأن العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر . وقد كان جعله لهم السامري على صورة العجل . وقوله (لعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه . وأصل الشكر في اللغة : الظهور من قولهم دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ماتعطى من العلف . قال الجوهري الشكر : الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف ، يقال شكرته وشكرت له ، وباللام أفصح ، وقد تقدم معناه ، والشكران خلاف الكفران . والكتاب : التوراة بالإجماع من المفسرين . واختلفوا في الفرقان ؛ وقال الفراء وقطرب : المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا الفرقان . وقد قيل إن هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك ، فقد قال تعالى - وإمّا آتينا موسى وهارون الفرقان - وقال الزجاج : إن الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيدا . وحكى نحوه عن الفراء ، ومنه قول عنزة :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقصر بعد أم الهيثم

وقيل إن الواو صلة ، والمعنى : آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزايدت في النعوت كقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقيل المعنى : أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتابا وفارقا بين الحق والباطل ، وهو كقوله - ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء - وقيل الفرقان : الفرق بينهم وبين قوم فرعون ، أنجى هؤلاء وأغرق هؤلاء . وقال ابن زيد : الفرقان : انفراق البحر ؛ وقيل الفرقان : الفرج من الكرب ؛ وقيل : إنه الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما ، وهذا أولى وأرجح ويكون العطف على بابه كأنه قال :

آتيناً موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له. قوله (يا قوم) القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء ، ومنه قول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

ومنه قوله تعالى - لا يسخر قوم من قوم - ، ثم قال - ولا نساء من نساء - ، ومنه - ولوطا إذ قال لقومه - أراد الرجال ، وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى - إنا أرسلنا نوحا إلى قومه - والمراد هنا بالقوم عبدة العجل . والبارى الخالق ، وقيل إن البارى هو المبدع المحدث ، والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال ، وفي ذكر البارى هنا إشارة إلى عظيم جرمهم : أى فتوبوا إلى الذى خالقكم وقد عبدتم معه غيره . والفاء فى قوله « فتوبوا » للسببية : أى لتسبب التوبة عن الظلم ، وفى قوله « فاقتلوا » للتعقيب : أى اجعلوا القتل متعقبا للتوبة . قال القرطبي : وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده ؛ قيل قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا ؛ وقيل : وقف الذين عبدوا العجل ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوه . وقواه (فتاب عليكم) قيل فى الكلام حذف : أى فقتلتم أنفسكم فتاب عليكم : أى على الباقيين منكم . وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم . وأما ما قاله صاحب الكشف من أنه يجوز أن يكون خطابا من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارتئكم ، فهو بعيد جدا كما لا يخفى . وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية فى قوله (أربعين ليلة) قال : ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة . وقد أخرج ابن جرير عنه فى قوله (من بعد ذلك) قال : من بعد ما اتخذتم العجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله (وإذ آتيناً موسى الكتاب والفرقان) قال : الكتاب هو الفرقان ، فرق بين الحق والباطل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الفرقان جماع اسم التوراة والإنجيل والزبور والقرآن . وأخرج ابن جرير عنه قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم ، واختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الحناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فأنجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقى كانت له توبة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال : قالوا لموسى ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضا ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا ، فأوحى الله إلى موسى : مرهم فليرفعوا أيديهم ، وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقى . وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة ، وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير عن الزهرى نحوه مما سبق . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية فى قوله (إلى بارتئكم) قال : خالقكم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

قوله (وإذ قلتم) هذه الحملة معطوفة على التي قبلها ، وظاهر السياق أن القائلين هذه المقالة هم قوم موسى -

وقيل هم السبعون الذين اختارهم ، وذلك أنهم لما أسمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى هنا (ثم بعثناكم من بعد موتكم) وسيأتي ذلك في الأعراف إن شاء الله . والجهرة : المعاينة ، وأصلها الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة والمجاهرة بالمعاصي ؛ ورأيت الأمر جهرة وجهارا : أى غير مستتر بشيء ، وهى مصدر واقع موقع الحال . وقرأ ابن عباس « جهرة » بفتح الهاء وهى لغتان مثل زهرة وزهرة ، ويحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جاهر . والصاعقة قد تقدم تفسيرها ، وقرأ عمر وعثمان وعلى « الصعقة » وهى قراءة ابن محيصن ، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم (وأنتم تنظرون) فى محل نصب على الحال ، والمراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذى ماتوا عنده ؛ وقيل المراد بالصاعقة الموت ، واستدل عليه بقوله (ثم بعثناكم من بعد موتكم) ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير ، لأن المصعوق قد يموت كما فى هذه الآية ، وقد يغشى عليه ثم يفيق كما فى قوله تعالى - وخر موسى صعقا فلما أفاق - وما يوجب بعد ذلك قوله (وأنتم تنظرون) فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الحملة كبير معنى ، بل قد يقال إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت . والمراد بقوله (ثم بعثناكم) الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت ، وأصل البعث الإثارة للشيء من محله ، يقال : بعثت الناقة : أى أثرتها ، ومنه قول امرئ القيس :

وإخوان صدق قد بعثت بسحرة

فقاموا جميعا بين غاث ونشوان

وقول عنزة : وصحابة شم الأنوف بعثهم

ليلا وقد مال الكرى بطلاها

ولما عوقبوا بأخذ الصاعقة لم لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من روثته فى الدنيا . وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الروثة فى الدنيا والآخرة ، وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا والآخرة ووقوعها فى الآخرة . وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة ، وهى قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة ، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار ، وقواعد لا يغير بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب ، وسيأتيك إن شاء الله بيان ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية ، وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة ، وليس هذا موضع المقال فى هذه المسألة . قوله (وظللنا عليكم الغمام) أى : فعلناه كالظلة . والغمام جمع غمامة كسحابة وسحاب ، قاله الأخفش . قال الفراء ويجوز غمام . وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى فى التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين . والمن : قيل هو الترنجبين . قال النحاس : هو بتشديد الراء وإسكان النون ، ويقال : الطرنجبين بالطاء ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وهو ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويحف جفاف الصمغ ، ذكر معناه فى القاموس ؛ وقيل إن المن العسل ؛ وقيل شراب حلو ؛ وقيل خبز الرقاق ؛ وقيل إنه مصدر يعم جميع مامن الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه ما ثبت فى صحيح البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد بن زيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن الكأمة من المن الذى أنزل على موسى » . وقد ثبت مثله من حديث أبى هريرة عند أحمد والترمذى ، ومن حديث جابر وأبى سعيد وابن عباس عند النسائى . والسلوى : قيل هو السمانى ، كجبارى طائر يذبحونه فى كلونه . قال ابن عطية : السلوى طير بإجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلى فقال :

وقاسمهما بالله جهدا لأنما

ألد من السلوى إذا ما أشورها

ظن أن السلوى العسل . قال القرطبي : ما ادعاه من الإجماع لا يصح . وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل . واستدل بيت الهدلي ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ، وأنشد :

لو شربت السلوى ماسلوت ما بي غنا عنك وإن غنيت

وقال الجوهري : والسلوى العسل . قال الأخفش : السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر ، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى . وقال الخليل : واحده سلواة ، وأنشد :

وإني لتعروني لذكراك سلوة كما انتفض السلواة من سلكه القطر

وقال الكسائي : السلوى واحدة وجمعه سلاوى . وقوله (كلوا) أى قلنا لهم كلوا ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : قلنا كلوا فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر فظلموا أنفسهم وما ظلمونا ، فحذف هذا للدلالة (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) عليه ، وتقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (حتى نرى الله جهرة) قال : علانية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى (فأخذتكم الصاعقة) قال : ماتوا (ثم بعثناكم من بعد موتكم) قال : فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (ثم بعثناكم) نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وظللنا عليكم الغمام) قال : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذى يأتى الله فيه يوم القيامة ، وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر وكان معهم فى التيه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وظللنا عليكم الغمام) قال : كان هذا الغمام فى البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس ، وأطعمهم المن والسلوى حين برزوا إلى البرية ، فكان المن يسقط عليهم فى محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك ، فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعه أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقى عنده ، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبه شيء ، وهذا كله فى البرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : المن شيء أنزل الله عليهم مثل الطل ، والسلوى طير أكبر من العصفور . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن نجاهد قال : المن صمغة ، والسلوى طائر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى قال : قالوا يا موسى كيف لنا بما هاهنا أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على الشجرة الترنجيبين . وأخرجوا عن وهب أنه سئل ما المن ؟ قال : خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال : المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل ، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المن ينزل عليهم بالليل على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ماشاءوا - والسلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه ماشاءوا . وأخرج ابن جرير عنه نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى السلوى مثله . وقد روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وما ظلمونا) قال نحن أعز من أن نظلم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) قال : يضرّون .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ

سُجِّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

قال جمهور المفسرين : القرية هي بيت المقدس ؛ وقيل إنها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس ؛ وقيل من قرى الشام . وقوله (كلوا) أمر بإباحة - و (رغدا) كثيرا واسعا ، وهو نعت لمصدر محذوف : أى أكلا رغدا ، ويجوز أن يكون في موضع الحال ، وقد تقدم تفسيره . والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة ؛ وقيل هو باب القبة التي كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . والسجود قد تقدم تفسيره وقيل هو هنا الانحناء ؛ وقيل التواضع والخضوع ، واستدلوا على ذلك بأنه لو كان المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به ، لأنه لا يمكن الدخول حال السجود - سبق . وقال في الكشف : إنهم أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرا لله وتواضعا . واعترضه أبو حيان في النهر الماد فقال : لم يؤمروا بالسجود ، بل هو قيد في وقوع المأمور به وهو الدخول ، والأحوال نسب تقييدية ، والأوامر نسب إسنادية انتهى . ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد ، فمن قال اخرج مسرعا فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة ، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفا للأمر . ولا ينافي هذا كون الأحوال نسبا تقييدية ، فإن اتصافها بكونها قيودا مأمورا بها هو شيء زائد على مجرد التقييد . وقوله (حطة) بالرفع في قراءة الجمهور رر على إضمار مبتدأ ، قال الأخفش : وقرئت «حطة» نصبا على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة ؛ وقيل معناها الاستغفار ومنه قول الشاعر :

فاز بالخطية التي أمر الله بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس في المجمل (حطة) كلمة أمروا بها ولو قالوها لحطت أوزارهم . قال الرازي في تفسيره : أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة ، وذلك لأن التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها ، وإذا اشتهر وأخذ بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكى توبته لمن شاهد منه الذنب ، لأن التوبة لا تتم إلا به انتهى ، وكون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه ، بل مجرد عقد القلب عليها يكتفى سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا ، وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله عز وجل أحب إلى الله وأقرب إلى مغفرته . وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية فذلك باب آخر . وقوله (يغفر لكم) قرأه نافع بالياء التحتية المضمومة ، وقرأه ابن عامر بالتاء الفوقية المضمومة وقرأه الباقر بالنون وهي أولى . والخطايا جمع خطيئة بالهمز ، وقد تكلم علماء العربية في ذلك بما هو معروف في كتب الصرف . وقوله (وسنزيد المحسنين) أى نزيدهم إحسانا على إحسانهم المتقدم ، وهو اسم فاعل من أحسن . وقد ثبت في الصحيح «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقوله (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم) قيل إنهم قالوا حنطة ؛ وقيل غير ذلك . والصواب أنهم قالوا : حبة في شعرة كما سيأتى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله (فأنزلنا على الذين ظلموا) هو من وضع الظاهر موضع المضمرة لنكتة كما تقرر في علم البيان ، وهى هنا تعظيم الأمر عليهم وتقبيح فعلهم ، ومنه قول عدى بن زيد :

لاأرى الموت يسبق الموت شيء نغصص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر الموت في البيت ثلاثا تهويلا لأمره وتعظيما لشأنه . وقوله (رجزا) بكسر الراء في قراءة الجميع إلا ابن محيصن فإنه قرأ بضم الراء . والرجز : العذاب : والفسق قد تقدم تفسيره . وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ادخلوا هذه القرية) قال : بيت المقدس . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : هي أريحاء قرية من بيت المقدس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (ادخلوا الباب) قال : باب ضيق (سجدا) قال : ركعا . وقوله (حطة) قال : مغفرة ، فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة استهزاء ، قال : فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الباب هو أحد أبواب بيت المقدس ، وهو يدعى باب حطة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال قيل لهم (ادخلوا الباب سجدا) فدخلوا مقلعي رؤوسهم وقالوا حنطة : حبة حمراء فيها شعيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (ودخلوا الباب سجدا) قال : طأطأوا رؤوسكم (وقولوا حطة) قال قولوا لا إله إلا الله . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (قولوا حطة) قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : كان الباب قبل القبلة . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجدا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعيرة ، والأول أرجح لكونه في الصحيحين . وقد أخرجه معهما من أخرج هذا الحديث الآخر : أعنى ابن جرير وابن المنذر . وأخرج ابن أبي شيبة عن علي قال : إنما مثلنا في هذه الأمة كسفينة نوح وكباب حطة في بنى إسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب . وأخرج مسلم وغيره من حديث أسامة بن زيد وسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « وإن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به أناس من قبلكم ، فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها » .

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ
اِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١)

الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس المطر . ومعناه في اللغة : طلب السقيا . وفي الشرع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صفته من الصلاة والدعاء . والحجر يحتمل أن يكون حجرا معينا فتكون اللام للعهد ، ويحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس . وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة . وقوله (فانفجرت) الفاء مترتبة على محذوف تقديره فضرِب فانفجرت ، والانفجار : الانشقاق ، وانفجر الماء انفجارا تفتح ، والفجرة : موضع تفتح الماء . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون ، وإذا استغنوا عن الماء جفت . والمشب : موضع الشرب ؛ وقيل هو المشروب نفسه . وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركونهم غيرهم . قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها إلى غيرها ، والأسباط ذرية الاثنى عشر من أولاد يعقوب . وقوله (كلوا) أى قلنا لهم كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المتفجر من الحجر . وعثا يعثو عثوا ، وعثا يعيث عثا ه لغات : بمعنى أفسد . وقوله (مفسدين) حال مؤكدة . قال في القاموس : عثى كرمى ، وسعى ورضى ، عثيا وعثيانا ، وعثا يعثو عثوا : أفسد : وقال في الكشف : العثى أشد الفساد . فقيل لهم : لاتمادوا في الفساد في حال فسادكم ، لأنهم كانوا متمادين فيه انتهى . قوله (لن نصبر على طعام واحد) تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة والرزق الطيب والعيش المستلذ ، ونزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش :

إن الشقى بالشقاء مولع لا يملك الرد له إذا أتى

ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقا إلى ما كانوا فيه ، ونظرا لما صاروا إليه من العيشة الرافهة ، بل هو باب من تعنتهم ، وشعبة من شعب تعجر فهم كما هو دأبهم وهجيراهم في غالب ما قص علينا من أخبارهم . وقال الحسن البصرى : إنهم كانوا أهل كراث وأبصال وأعداس فزغوا إلى عكرهم : أى أصلهم عكر السوء ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا (لن نصبر على طعام واحد) والمراد بالطعام الواحد هو المن والسلوى ، وهما وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاما واحدا : وقيل لتكررها في كل يوم وعدم وجود غيرهما معهما ولا تبدة بهما . ومن في قوله (مما تنبت) تخرج . قال الأخفش زائدة ، وخالفه سيويه لكونها لا تزداد في الكلام الموجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا ليخرج فأراد أن يجعل ما مفعولا ، والأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سياق الكلام : أى تخرج لنا ما كولا . وقوله (من بقلها) بدل من ما بإعادة الحرف ، والبقل : كل نبات ليس له ساق ، والشجر : ماله ساق . قال في الكشف : البقل ما أنبتته الأرض من الخضر ، والمراد به أطيب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهاها انتهى . والقثاء بكسر القاف وفتحها . والأولى قراءة الجمهور . والثانية قراءة يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف وهو معروف . والقوم : قيل هو الثوم ، وقد قرأه ابن مسعود بالثاء . وروى نحو ذلك عن ابن عباس ، وقيل : القوم الحنطة ، وإليه ذهب أكثر المفسرين ، كما قال القرطبي . وقد رجح هذا ابن النحاس . وقال الجوهري : القوم الحنطة ، ومن قال بهذا الزجاج والأخفش ، وأنشد :

قد كنت أحسبني كأغني واحد ترك المدينة عن زراعة قوم

وقال بالقول الأول الكسائي والنضر بن شميل ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الفراديس والقومات والبصل

أى الثوم ، وقال حسان :

وأنتم أناس لثام الأصول طعامكم القوم والحوقل

يعنى الثوم والبصل ؛ وقيل القوم : السنبلة ؛ وقيل الحمص ، وقيل القوم كل حب يخبز . والعدس والبصل معروفان . والاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر (وأدنى) قال الزجاج : إنه مأخوذ من الدنو : أى القرب والمراد : أتضعون هذه الأشياء التى هى دون موضع المن والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه ، والحل الذى لا تطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعى له والتعب فى تحصيله ، وقوله (اهبطوا مصرا) أى انزلوا ، وقد تقدم معنى الهبوط . وظاهر هذا أن الله أذن لهم بدخول مصر ؛ وقيل إن الأمر للتعجيز لأنهم كانوا فى التيه ، فهو مثل قوله تعالى - كونوا حجارة أو حديدًا - ، وصرف مصر هنا مع اجتماع العلمية والتأنيث لأنه ثلاثى ساكن الوسط ، وهو يجوز صرفه مع حصول السبين ، وبه قال الأخفش والكسائى . وقال الخليل وسيبويه : إن ذلك لا يجوز وقالوا : إنه لاعلمية هنا لأنه أراد مصرا من الأمصار ولم يرد المدينة المعروفة ؛ وهو خلاف الظاهر . وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطلحة بن مصرف بترك التنوين ، وهو كذلك فى مصحف أبى وابن مسعود . ومعنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمرا لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم ، مع دلالة على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها ، ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا :

ضربت عليك العنكبوت بوزنها وقضى عليك به الكتاب المنزل

وهو ضرب من الهجاء بليغ ، كما أنه إذا استعمل فى المديح كان فى منزلة رفيعة ، ومنه قول الشاعر :

إن المروءة والشجاعة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشر

وهذا الخبر الذى أخبرنا الله به هو معلوم فى جميع الأزمنة ، فإن اليهود أقامهم الله أزل الفرق وأشدّهم مسكنة وأكثرهم تصاغرا ، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل مازالوا عبيد العصى فى كل زمن ، وطروقة كل فعل فى كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ فى الكثرة أى مبلغ ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين فى ماله ، إما بحق كتوفير ماعليه من الجزية ، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرئ على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه . ومعنى (باءوا) رجعوا ، يقال باء بكذا : أى رجع به ، وباء إلى المباءة : أى رجع إلى المنزل ، والبواء : الرجوع ، ويقال هم فى هذا الأمر بواء : أى سواء : يرجعون فيه إلى معنى واحد ، وباء فلان بفلان : إذا كان حقيقا بأن يقبل به لمساواته له ، ومنه قول الشاعر :

ألا تنتهى عنا ملوك وتنقى محاربنا لا ييؤا الدم بالدم

والمراد فى الآية أنهم رجعوا بغضب من الله ، أو صاروا أحقاء بغضبه ؛ وقد تقدم تفسير الغضب . والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من حديث الذلة وما بعده بسبب كفرهم بالله وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال لمكان العصمة ، بل المراد نعى هذا الأمر عليهم وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت فى نفس الأمر . ويمكن أن يقال أنه ليس بحق فى اعتقادهم الباطل ، لأن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لم يعارضوهم فى مال ولا جاه ، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين

والدنيا كما كان من شعيا وزكريا ويحيى ، فإنهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون أنهم ظالمون » وتكرير الإشارة لقصد التأكيد وتعظيم الأمر عليهم وتهويله ، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى والإشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده ، وقيل يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر والقتل فيكون ما بعدها سببا للسبب وهو بعيد جدا . والاعتداء تجاوز الحد في كل شيء .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وإذا استسقى موسى لقومه) قال ذلك في التيه ، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيها اثنتا عشرة عينا من ماء ، لكل سبط منهم عين يشربون منها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ومجاهد وابن أبي حاتم عن جوير نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا تعثوا في الأرض) قال : لاتسعوا في الأرض فسادا . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال : يعني ولا تمشوا بالمعاصي . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : لاتسيروا في الأرض مفسدين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (لن نصبر على طعام واحد) قال : المن والسلوى استبدلوا به البقل وما حكي معه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وفومها) قال : الخبز ، وفي لفظ : البر ، وفي لفظ : الحنطة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الفوم الثوم . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ « وثومها » وروى ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه قال : قراءتي قراءة زيد ، وأنا آخذ بيضعة عشر حرفا من قراءة ابن مسعود هذا أحدها « من بقلها وقثائها وثومها » . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (الذي هو أدنى) قال : أردأ . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (اهبطوا مصرا) قال مصرا من الأمصار . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية : أنه مصر فرعون . وأخرج نحوه ابن أبي داود وابن الأنباري عن الأعمش . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وضربت عليهم الذلة) قال : هم أصحاب الحزبية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة والحسن قال : ضربت عليهم الذلة والمسكنة : أي يعطون الحزبية عن يد وهم صاغرون . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : المسكنة الفاقة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله (وباءوا بغضب من الله) قال : استحقوا الغضب من الله . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (وباءوا) قال : انقلبوا . وأخرج أبو داود الطيالسي وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

قيل : إن المراد بالذين آمنوا المنافقون ، بدلالة جعلهم مقترنين باليهود والنصارى والصابئين : أي آمنوا في الظاهر . والأولى أن يقال إن المراد الذين صدقوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا من جملة أتباعه ، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد ، وهو أن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحق ما ذكره الله من الأجر ، ومن فاته ذلك فاته الخير كله والأجر دقه وجله . والمراد بالإيمان هاهنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان

فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية ، فمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا بالقرآن فليس بمؤمن ، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ولم يبق يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً . وقوله (هادوا) معناه صاروا يهوداً ، قيل هونسبة لهم إلى يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة فقلبتا العرب دالا مهملة ؛ وقيل معنى هادوا : تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل ، ومنه قوله تعالى - إنا هدنا إليك - أى تبنا - وقيل إن معناه السكون والموادعة . وقال في الكشف : إن معناه دخل في اليهودية والنصارى قال سيويه : مفردة نصران ونصرانة كندمان وندمانه ، وأنشد شاهداً على ذلك قول الشاعر :

تراه إذا زار العشا متخففاً ويضحى لديه وهو نصران شامس

وقال الآخر : فكلتاها خرت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تخنف

قال : ولكن لا يستعمل إلا بياء النسب فيقال : رجل نصراني وامرأة نصرانية . وقال الخليل : واحد النصارى نصرى . وقال الجوهري : ونصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى ، ويقال ناصرة ، وعلى هذا فالياء للنسب . وقال في الكشف : إن الياء للمبالغة كالتي في أخرى ، سموا بذلك لأنهم نصرؤا المسيح . والصابيين جمع صابى - وقيل صاب . وقد اختلف فيه القراء فهزوه جميعاً إلا نافعا ، فمن همزه جعله من صبأت النجوم : إذا طلعت ، وصبأت ثنية الغلام : إذا خرجت . ومن لم يهمزه جعله من صبا يصبو : إذا مال ؛ والصابى في اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ ، وسموا هذه الفرقة صابئة ، لأنها خرجت من دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة . وترويه (من آمن بالله) في موضع نصب بدلا من الذين آمنوا وما بعده وقد تقدم معنى الإيمان ، ويكون خبر إن قوله (فلهم أجرهم) ويجوز أن يكون قوله « من آمن بالله » في محل رفع على أنه مبتدأ خبره قوله « فلهم أجرهم » وهما جميعا خبر إن ، والعائد مقدر في الجملة الأولى : أى من آمن منهم ودخلت الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط . وقد تقدم تفسير قوله تعالى (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت (إن الذين آمنوا والذين هادوا) الآية . وأخرج الواحدى عن مجاهد نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى في ذكر السبب بنحو ما سبق ، وحكى قصة طويلة . وأخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا) قال : فأنزل الله بعد هذا - ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين - . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن علي قال : إنما سميت اليهود لأنهم قالوا - إنا هدنا إليك - . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : نحن أعلم من أين سميت اليهود باليهودية من كلمة موسى عليه السلام - إنا هدنا إليك - ولم تسمت النصارى بالنصرانية ؟ من كلمة عيسى عليه السلام - كونوا أنصار الله - . وأخرج أبو الشيخ نحوه عنه . وأخرج ابن جرير عن قتادة : إنما تسموا نصارى بقرية يقال لها ناصرة . وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن جرير عن ابن عباس قال : إنما سميت النصارى لأن قرية عيسى كانت تسمى ناصرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال الصابئون فرقة بين اليهود والنصارى والمجوس ليس لهم دين . وأخرج عبد الرزاق عنه قال : قال ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى في تفسير الصابئين غير هذا .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ لَكُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

قوله (وإذا أخذنا) هو في محل نصب بعامل مقدر هو اذكروا كما تقدم غير مرة . وقد تقدم تفسير الميثاق ، والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق بأن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة وبما هو أعم من ذلك أو أخص . والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فيه ؛ وقيل هو اسم لكل جبل بالسريانية . وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح قال لهم : خذوها والتزموها ، فقالوا لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها والتزموها ، فقالوا لا ، فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأتوا ببحر من خلفهم ونار من قبل وجوههم ، وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق أن لاتضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل ، فسجدوا توبة لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال ابن جرير عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق . قال ابن عطية : والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان ، لأنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة انتهى . وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره ، وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا أو أشد منه . ونحن نقول : أكرههم الله على الإيمان فآمنوا مكرهين ، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان . وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عن من تكلم بكلمة الإسلام والسيف مصلت قد هزته حامله على رأسه . وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذرا عن قتله بأنه قالها تقية ولم تكن عن قصد صحيح « أنت فتشت عن قلبه » وقال « لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس » وقوله (خذوا) أي وقلنا لكم خذوا (ما آتيناكم بقوة) والقوة : الجدة والاجتهاد . والمراد بذلك ما فيه أن يكون محفوظا عندهم ليعملوا به . قوله (ثم توليت) أصل التولى الإدبار عن الشيء والإعراض بالجسم ، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا ، والمراد هنا : إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم ، وقوله (من بعد ذلك) أي من بعد البرهان لهم والترهيب بأشد ما يكون وأعظم ماتجوزه العقول وتقدره الأفهام ، وهو رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم . وقوله (فلولا فضل الله عليكم) بأن تداركم بلطفه ورحمته حتى أظهرتم التوبة لخسرتم . والفضل : الزيادة . قال ابن فارس في المجمل : الفضل الزيادة والخير ، والإفضال : الإحسان انتهى . والخسران : النقصان ، وقد تقدم تفسيره . والسبت في أصل اللغة : القطع ، لأن الأشياء تمت فيه وانقطع العمل ؛ وقيل هو مأخوذ من السبوت ، وهو الراحة والدعة . وقال في الكشف : السبت مصدر سبت اليهود : إذا عظمت يوم السبت انتهى . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افرقت فرقتين : فرقة اعتدت في السبت : أي جاوزت ما أمرها الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه : والفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين : فرقة جاهرت بالنهي واعتزلت وفرقة لم توافق المعتدين ولا صادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي ولا اعتزلوا عنهم فسخهم الله جميعا ولم تنج إلا الفرقة الأولى فقط » وهذه من جملة الحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في العجرفة وعاندوا

أنبياءهم ، وما زالوا في كل موطن يظهر من حماقاتهم وسخف عقولهم وتعنتهم نوعاً من أنواع التعسف ، وشعبة من شعب التكلف ؛ فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله - إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لا تأتيهم كذلك نبلوهم - فاحتالوا لصيدها ، وحفروا الحفائر وشقوا الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد ، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة . والخاسي : المبعد ، يقال : خسأته فخساً وخسأ : أبعدته فبعد . ومنه قوله تعالى - ينقلب إليك البصر خاسئاً - أي مبعداً . وقوله - اخسئوا فيها - أي تباعدوا تباعد سخط ، ويكون الخاسي بمعنى الصاغر . والمراد هنا . كونوا بين المصير إلى أشكال القرود مع كونهم مطرودين صاغرين ، فقررة خبر الكون . وخاسئين خبر آخر ؛ وقيل إنه صفة لقررة والأول أظهر . واختلف في مرجع الضمير في قوله (فجعلناها) وفي قوله (لما بين يديها وما خلفها) فقيل العقوبة ، وقيل الأمة ، وقيل القرية ، وقيل القررة ، وقيل الحيتان ، والأول أظهر . والنكال : الزجر والعقاب ، والنكل : القيد لأنه يمنع صاحبه ؛ ويقال للجاء الدابة نكل لأنه يمنعها ، والموعظة مأخوذة من الاتعاظ والانزجار ، والوعظ : التخويف . وقال الخليل : الوعظ التذكير بالخير . وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة ، وكان بنو إسرائيل أسفل منه . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الطور ما أنبت من الجبال ، وما لم ينبت فليس بطور . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) قال : أيحذ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (واذكروا ما فيه) قال : اقرءوا ما في التوراة واعملوا به . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في قوله (لعلكم تتقون) قال : لعلكم تنزعون عما أنتم عليه . وأخرج ابن جرير عنه قال (ولقد علمتم) أي عرفتم (واعتدوا) يقول : اجترءوا في السبت بصيد السمك ، فسخهم الله قررة بمعصيتهم ، ولم يعش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . وأخرج ابن المنذر عنه قال : القررة والخنازير من نسل الذين مسخوا ، وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : انقطع ذلك النسل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قررة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كقوله - كمثل الحمار يحمل أسفارا - . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : أحلت لهم الحيتان وحرمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه فكان فيهم ثلاثة أصناف ، وذكر نحو ما قدّمناه عن المفسرين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : صار شباب القوم قررة ، والمشيخة صاروا خنازير . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (خاسئين) قال : دليلين . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (خاسئين) قال : صاغرين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (فجعلناها نكالاً لما بين يديها) من القرى (وما خلفها) من القرى (وموعظة للمتقين) الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عنه (فجعلناها) يعني الحيتان (نكالاً لما بين يديها وما خلفها) من الذنوب التي عملوا قبل وبعد . وأخرج ابن جرير عنه (فجعلناها) قال : جعلنا تلك العقوبة وهي المسخة (نكالاً) عقوبة (لما بين يديها) يقول : ليحذر من بعدهم عقوبتي (وما خلفها) يقول : للذين كانوا معهم (وموعظة) قال : تذكرة وعبرة للمتقين .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا

قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ
قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)
قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا
تَسْرُ النَّظِيرِينَ (٦٩) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْإِنِّ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

قيل : إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدّم في التلاوة ومؤخر في المعنى على قوله تعالى - وإذ قتلتم نفسا -
ويجوز أن يكون قوله : قتلتم مقدّمًا في النزول ، ويكون الأمر بالذبح مؤخرًا ، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على
حسب تلاوتها ، فكان الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ، ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمرُوا أن يضربوه ببعضها
هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب ؛ وقد تقرر في علم العربية أنها مجرد الجمع من دون ترتيب ولا معية ،
وسياتي في قصة القتل تمام الكلام ، والبقرة اسم للأثني ، ويقال للذكر ثور ؛ وقيل إنها تطلق عليهما ، وأصله من
البقر وهو الشق لأنها تشق الأرض بالحرث ، قال الأزهري : البقر اسم جنس ، وجمعه باقر . وقد قرأ عكرمة ويحيى
ابن يعمر (إن الباقر تشابه علينا) وقوله (هزوا) الهزوهنا : اللعب والسخرية ، وقد تقدم تفسيره . وإنما يفعل ذلك
أهل الجهل لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء ، ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله سبحانه من الجهل . وقوله
(قالوا ادع لنا ربك) هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة ، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به
ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم كما
سيأتي بيانه . والفارض : المسنة ، ومعناه في اللغة الواسع . قال في الكشاف : وكأنها سميت فارضا لأنها فرضت
سناها : أي قطعها وبلغت آخرها انتهى . ويقال للشيء القديم فارض ، ومنه قول الراجز :

يارب ذي ضغن على فارض له قرو كقرو الحائض

أي قديم ، وقيل الفارض : التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها . والبكر : الصغيرة التي لم تحمل ، وتطلق
في إناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتحله الفحل ، وتطلق أيضا على الأول من الأولاد ، ومنه قول الراجز :

يابكر بكيرين ويا صلب الكبد أصبحت مني كذراع من عضد

والعوان : المتوسطة بين سني الفارض والبكر ، وهي التي قد ولدت بطنا أو بطنين ؛ ويقال هي التي قد
ولدت مرة بعد مرة ، والإشارة بقوله (بين ذلك) إلى الفارض والبكر ، وهما وإن كانتا مؤنثتين فقد أشير إليهما
بما هو للمذكر على تأويل المذكور ، كأنه قال : بين ذلك المذكور ، وجاز دخول بين المقتضية لشيئين لأن المذكور
متعدد . وقوله (فافعلوا) تجديد للأمر ، وتأکید له ، وزجر لهم عن التعنت ، فلم ينفعهم ذلك ولا نجع فيهم ، بل
رجعوا إلى طبيعتهم ، وعادوا إلى مكرهم واستمروا على عادتهم المألوفة ، (فقالوا فادع لنا ربك) . واللون : واحد

الألوان ، وجهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء . قال بعضهم : حتى قرنها وظلفها . وقال الحسن وسعيد ابن جبير : إنها كانت صفراء القرن والظلف فقط ، وهو خلاف الظاهر . والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة . وروى عن الحسن أن صفراء معناه سوداء ، وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها ، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو أقبح الألوان أنه يسر الناظرين ، وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجزى على الأسود بوجه من الوجوه ، فإنهم يقولون في وصف الأسود : حالك وحلكوك ودجوجي وغريب . قال الكسائي : يقال فقع لونها يفقع فقوعا : إذا خلصت صفرتها . وقال في الكشف : الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه . ومعنى (تسر الناظرين) تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجابا بها واستحسانا لونها . قال وهب : كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، ثم لم ينزعوا عن غوايتهم ولا ارعوا من سفههم وجهلهم ، بل عادوا إلى تعنتهم فقال (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشبه علينا) أي أن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة ، ووعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى ما دلهم عليه ، والامثال لما أمروا به . والذلول : التي لم يذلها العمل : أي هي غير مذلة بالعمل ولا ربيعة به . وقوله (تثير) في موضع رفع على الصفة لبقرة : أي هي بقرة لا ذلول مثيرة ، وكذلك قوله (ولا تسقى الحرث) في محل رفع لأنه وصف لها : أي ليست من النواضح التي يسنى عليها لسقى الزروع ، وحرف النني الآخر توكيد للأول : أي هي بقرة غير مذلة بالحرث ولا بالنضح ، ولهذا قال الحسن : كانت البقرة وحشية . وقال قوم : إن قوله « تثير » فعل مستأنف . والمعنى : إيجاب الحرث لها والنضح بها . والأول أرجح ، لأنها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذلة ربيعة ، وقد نبي الله ذلك عنها . وقوله (مسلمة) مرتفع على أنه من أوصاف البقرة ، ويجوز أن يكون مرتفعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أي هي مسلمة . والجملة في محل رفع على أنها صفة ، والمسلمة : هي التي لا عيب فيها ؛ وقيل مسلمة من العمل ، وهو ضعيف لأن الله سبحانه قد نبي ذلك عنها ، والتأسيس خير من التأكيد ، والإفادة أولى من الإعادة . والشية أصلها وشية حذفت الواو كما حذفت من يشي ، وأصله يوشى ، ونظيره الزنة والعدة والصلة ، وهي مأخوذة من وشى الثوب : إذا نسج على لونين مختلفين ، وثور موشى في وجهه وقوائمه سواد . والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر . فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبق بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك ، ولا تحتل الشركة بوجه من الوجوه ، أقصروا من غوايتهم ، وانتبهوا من رقدتهم وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضيق عليهم (قالوا الآن جئت بالحق) أي أوضحت لنا الوصف ، وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها ، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات (فذبحوها) وامتثلوا الأمر الذي كان يسرا فعسروه ، وكان واسعاً فضيقوه (وما كادوا يفعلون) ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة للاستبعاد ، ومحلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم ، وقيل إنهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف ، وقيل لارتفاع ثمنها . وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول ، والأول أرجح . وقد استدلل جماعة من المفسرين والأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل .

وليس ذلك عندى بصحيح لوجهين : الأول : أن هذه الأوصاف المزیدة بسبب تكرار السؤال هي من باب التقييد للمأمور به لا من باب النسخ ، وبين الباين بون بعيد كما هو مقرر في علم الأصول . الثاني : أنا لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه ، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأول أن يعمدوا

إلى بقرة من عرض البقر فذبجوها ، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفراء ، ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة ، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنة كانوا يتواطؤون عليها ، ويديرون الرأي بينهم في أمرها ثم يوردونها ، وأقل الأحوال الاحتمال القادح في الاستدلال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عبيدة السلماني قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض ، فقال ذو الرأي منهم : علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى فذكروا ذلك له ، فقال (إن الله يأمركم أن تذبجوا بقرة) الآية ، قال : فلم يعترضوا لأجزاء عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبجها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدتها ذهباً ، فذبجوها فضربوه ببعضها ، فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال هذا ، لابن أخيه ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً ، ولم يورث قاتل بعده . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب « من عاش بعد الموت » عن ابن عباس أن القاتل وجد بين قريتين ، وأن البقرة كانت لرجل كان ييرأباه فاشترىها بوزنها ذهباً . وأخرج ابن جرير عنه نحوه من ذلك ، ولم يذكر ماتقدم في البقرة . وقد روى في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة . وأخرج البزار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأهم أو لأجزأت عنهم » وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لولا أن بني إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ما أعطوا أبداً ، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبجوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم » وأخرج نحوه الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر عن عكرمة يبلغ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرجه ابن جرير عن ابن جريج يرفعه . وأخرجه ابن جرير عن قتادة يرفعه أيضاً ، وهذه الثلاثة مرسلة . وأخرج نحوه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال : الفارض الهرمة ، والبكر الصغيرة ، والعوان النصف . وأخرج نحوه عن مجاهد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (عوان بين ذلك) قال : بين الصغيرة والكبيرة ، وهي أقوى ما يكون وأحسنه . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله (صفراء فاقع لونها) قال : شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله (صفراء) قال صفراء الظلف (فاقع لونها) قال : صافي . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال (فاقع لونها) أي صاف (تسر الناظرين) أي تعجب . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله (صفراء فاقع لونها) قال : سوداء شديدة السواد . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (لا ذلول) أي لم يذلها العمل (تثير الأرض) يعني ليست بذلول فتثير الأرض (ولا تسقى الحرث) يقول : ولا تعمل في الحرث (مسلمة) قال : من العيوب . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . وقال (لاشية فيها) لا يبيض فيها ولا سواد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (مسلمة) لا عوار فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (قالوا الآن جئت بالحق) قالوا : الآن بينت لنا (فذبجوها وما كادوا يفعلون) وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب في قوله (وما كادوا يفعلون) لغلاء ثمنها .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا
أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ
قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

قد تقدم ما ذكرناه في قصة ذبح البقرة ، فيكون تقدير الكلام (وإذا قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم
تكتُمون) فقال موسى لقومه (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) إلى آخر القصة ، وبعدها (فقلنا اضربوه ببعضها)
الآية . وقال الرازي في تفسيره : اعلم أن وقوع القتل لابد أن يكون متقدما لأمره تعالى بالذبح ، فأما الإخبار عن
وقوع ذلك القتل ، وعن أنه لابد أن يضرب القتل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدما على الإخبار عن
قصة البقرة ، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ ، لأن هذه القصة في
نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود ، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يقدم ذكر
السبب على ذكر الحكم ، وأخرى على العكس من ذلك ، فكأنهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة ،
فلما ذبحوها قال : وإذا قتلتم نفسا من قبل ، ونسب القتل إليهم بكون القاتل منهم ، وأصل ادأرأتم تدارأتم ، ثم
أدغمت التاء في الدال ، ولما كان الابتداء بالمدغم الساكن لا يجوز زادوا ألف الوصل ؛ ومعنى ادأرأتم : اختلفتم
وتنازعتم ، لأن المتنازعين يدرأ بعضهم بعضا : أي يدفعه ، ومعنى (مخرج) مظهر : أي ما كنتم بينكم من أمر القتل
فأله مظهره لعباده ومبينه لهم ، وهذه الجملة معترضة بين أجزاء الكلام : أي فادأرأتم فيها فقلنا . واختلف في تعيين
البعض الذي أمروا بأن يضربوا القتل به ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفي أن نقول :
أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها ، فأى بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم
إذا لم يرد به برهان . قوله (كذلك يحيي الله الموتى) في الكلام حذف ، والتقدير (فقلنا اضربوه ببعضها) فأحياء الله
(كذلك يحيي الله الموتى) أي إحياء كمثل هذا الإحياء . (ويريكُم آياته) أي علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته ،
وهذا يحتمل أن يكون خطابا لمن حضر القصة ، ويحتمل أن يكون خطابا للموجودين عند نزول القرآن . والقسوة :
الصلابة واليبس ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة
من إحياء القتل وتكلمه وتعيينه لقاتله ، والإشارة بقوله (من بعد ذلك) إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين
القلوب ورقتها . قيل « أو » في قوله (أو أشد قسوة) بمعنى الواو كما في قوله تعالى - آثما أو كفورا - وقيل هي
بمعنى بل ، وعلى أن « أو » على أصلها أو بمعنى الواو ، فالعطف على قوله (كالحجارة) أي هذه القلوب هي
كالحجارة أو هي أشد قسوة منها ، فشبهوها بأى الأمرين شتم فإنكم مصيبون في هذا التشبيه . وقد أجاب الرازي
في تفسيره عن وقوع « أو » ههنا مع كونها للتريد : أي لا يليق لعلام الغيوب بثانية أوجه ، وإنما توصل إلى أفعل
التفضيل بأشد مع كونه يصح أن يقال وأقسي من الحجارة ، لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، كما قاله في

الكشاف . وقرأ الأعمش « أو أشد » بنصب الدال ، وكأنه عطفه على الحجارة فيكون أشد مجرورا بالفتحة . وقوله (وإن من الحجارة) إلى آخره ، قال في الكشاف إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة وتقرير لقوله (أو أشد قسوة) انتهى . وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف ولا مألوف ، والأولى جعل ما بعد الواو تذييلا أو حالا . التفجر : التفتح ، وقد سبق تفسيره . وأصل (يشقق) يتشقق أدغمت التاء في الشين ، وقد قرأ الأعمش « يتشقق » على الأصل . وقرأ ابن مصرف ينشق بالنون ، والشق واحد الشقوق ، وهو يكون بالطول أو بالعرض ، بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الحرق . والمراد : أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق ، ومن الحجارة ما يهبط : أي ينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه من الخشية لله التي تداخله وتحل به ؛ وقيل إن الهبوط مجاز عن الخشوع منها ، والتواضع الكائن فيها انقيادا لله عز وجل ، فهو مثل قوله تعالى - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله - وقد حكى ابن جرير عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار ، وكما قال الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

وذكر الجاحظ أن الضمير في قوله (وإن منها) راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ، وهو فاسد ، فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت في القسوة وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق والتأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة ، التي هي أشد الأجسام صلابة وأعظمها صلادة ، فإنها ترجع إلى نوع من اللين ، وهي تفجرها بالماء وتشققها عنه وقبولها لما توجهه الخشية لله من الخشوع والانقياد بخلاف تلك القلوب . وفي قوله (وما الله بغافل عما تعملون) من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى ، فإن الله عز وجل إذا كان عالما بما يعملونه مطلعا عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها) قال : اختلفتم فيها (والله مخرج ما كنتم تكتمون) قال : ماتغيبون . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن المسيب بن رافع قال « ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك في كتاب الله (والله مخرج ما كنتم تكتمون) » وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو أن رجلا عمل عملا في صحرة صماء لا باب لها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائنا ما كان » وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليها منها رداء يعرف به » ورواه البيهقي أيضا بنحوه من قول عثمان قال : والموقوف أصح . وأخرج أبو الشيخ والبيهقي عن أنس مرفوعا حديثا طويلا في هذا المعنى ، ومعناه : أن الله يلبس كل عامل عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون ، ولو عمله في جوف بيت إلى سبعين بيتا على كل بيت باب من حديد ، وفي إسناده ضعف . وأخرج ابن عدي من حديث أنس أيضا مرفوعا « إن الله مرد كل امرئ رداء عمله » . ولجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فقلنا اضربوه ببعضها) قال : ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنهم ضربوه بفخذها . وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : ضرب بالبضعة التي بين الكتفين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن

وهب بن منبه قصة طويلة في ذكر البقرة وصاحبها لاحاجة إلى التطويل بذكرها ، وقد استوفاهما في الدر المنثور . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) قال : من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى ومن بعد ما أراهم من أمر القتل (فهي كالحجارة أو أشد قسوة) ثم عذر الله الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم فقال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) إلى آخر الآية . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أى من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال « إن الحجر ليقع على الأرض ولو اجتمع عليه فنام من الناس ما استطاعوه ، وأنه ليهبط من خشية الله » .

أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

قوله (أفطمعون) هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود . والخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوله ولهم . و (يؤمنوا لكم) أى لأجلكم ، أو على تضمين آمن معنى استجاب : أى أنطمعون أن يستجيبوا لكم . والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه . و (كلام الله) أى التوراة ، وقيل إنهم سمعوا خطاب الله لموسى حين كلمه ، وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى ، وقرأ الأعمش « كلم الله » . والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة ، فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسقاط الحدود عن أشرفهم ، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه ونقصوا ، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال : أى ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم . ومعنى قوله (من بعد ما عقلوه) أى من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذى فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هى ، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها ، وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالتهم . (وإذا لقوا الذين آمنوا) يعنى أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا (قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض) أى إذا خلا الذين لم ينافقوا بالنافاقين قالوا لهم عاتبين عليهم (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) أى حكم عليكم من العذاب ، وذلك أن ناسا من اليهود اسلموا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آبائهم ، وقيل إن المراد ما فتح الله عليهم في التوراة من صفة محمد ، وقد تقدم معنى خلا . والفتح عند العرب : القضاء والحكم ، والفتح : الإضاى بلغة اليمن ، والفتح : النصر ، ومن ذلك قوله تعالى - يستفتحون على الذين كفروا - وقوله - إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح - ومن الأول - ثم يفتح بيننا بالحق وهو خير الفاتحين - أى الحاكمين ، ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيتين ، والحاجة : إبراز الحجة ، أى لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون : نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه . والحجة ، الكلام المستقيم ، وحاججت فلانا فحججته أى غلبته بالحجة . (أفلا تعقلون) مافيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم . ثم ونجهم الله سبحانه

(أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) من جميع أنواع الأسرار وأنواع الإعلان ، ومن ذلك أسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ثم قال الله لنبيه ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) وليس قوله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) الآية : قال : هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما سمعوه ووعوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) الآية ، قال : الذين يحرفونه والذين يكتبونه هم العلماء منهم ، والذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (يسمعون كلام الله) قال : هي التوراة حرفوها . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أي بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه إليكم خاصة (وإذا خلا بعضهم إلى بعض) قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فقد كنتم تستفتحون به عليهم ، وكان منهم - ليحاجوكم به عند ربكم - أي تقرّون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه وهو يخبرهم أنه النبي الذي كان ينتظر ونجد في كتابنا أجحدوه ولا تقرّوا به . وأخرج ابن جرير عنه أن هذه الآية في المنافقين من اليهود وقوله (بما فتح الله عليكم) يعني بما أكرمكم به . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : نزلت هذه الآية في ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم . وقد أخرج ابن جرير عن ابن زيد أن سبب نزول الآية : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن ، فكان اليهود يظهرون الإيمان فيدخلون ويرجعون إلى قومهم بالأخبار ، وكان المؤمنون يقولون لهم : أليس قد قال الله في التوراة كذا وكذا ؟ فيقولون نعم ، فإذا رجعوا إلى قومهم (قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) الآية» وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أن سبب نزول الآية : «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال : يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت ، فقالوا : من أخبر هذا الأمر محمدا ؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم)» أي بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم . وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أن السبب في نزول الآية : «أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عالمهم وهو ابن صوريا فقال له : احكم ، قال : فجبوه ، والتجبية : يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى ذنب الحمار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أبحكم الله حكمت ؟ قال : لا ، ولكن نساءنا كن حسانا فأسرع فيهن رجالنا فغيرنا الحكم ، وفيه نزل (وإذا خلا بعضهم إلى بعض) الآية» وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) قال : هم اليهود وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، فصانعوهم بذلك ليرضوا عنهم (وإذا خلا بعضهم إلى بعض) نهى بعضهم بعضا أن يحدثوا بما فتح الله عليهم وبين لهم في كتابه من أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونعته ونبوته وقالوا : إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند ربكم (أفلا تعقلون) . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) قال : ما يعلنون من أمرهم وكلامهم إذا لقوا الذين

آمنوا ، ومايسرون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوبا عندهم . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) يعنى من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكذبهم ، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنا ، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ
تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ
أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

قوله (ومنهم) أى من اليهود . والأمر منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب ، ومنه حديث « إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب » وقال أبو عبيدة : إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب ، فكأنه قال : ومنهم أهل الكتاب ، وقيل : هم نصارى العرب ؛ وقيل : هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم للذنوب ارتكبوها ؛ وقيل : هم المجوس ؛ وقيل غير ذلك والراجح الأول . ومعنى (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأمانى التى يتمنونها ويعملون بها أنفسهم . والأمانى جمع أمنية وهى ما يتمناه الإنسان لنفسه ، فهو لاء لا علم لهم بالكتاب الذى هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ولا يقرءون المكتوب ، والاستثناء منقطع : أى لكن الأمانى ثابتة لهم من كونهم مغفورا لهم بما يدعونهم لأنفسهم من الأعمال الصالحة ، أو بما لهم من السلف الصالح فى اعتقادهم ؛ وقيل الأمانى الأكاذيب كما سيأتى عن ابن عباس . ومنه قول عثمان بن عفان : ماتمت منذ أسلمت : أى ما كذبت ، حكاه عنه القرطبي فى تفسيره ؛ وقيل الأمانى : التلاوة ، ومنه قوله تعالى - إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته - أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته ، أى لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر ، ومنه قول كعب بن مالك :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر : تمنى كتاب الله آخر ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وقيل الأمانى : التقدير . قال الجوهري : يقال منى له : أى قدر ، ومنه قول الشاعر :

لا تأمن وإن أمسيت فى حرم حتى تلاقى ما يمنى لك المانى

أى يقدر لك المقدر . قال فى الكشف : والاشتقاق من منى إذا قدر ، لأن الممنى يقدر فى نفسه ويجوز ما يتمناه

وكذلك المخلوق والقارئ يقدر ان كلمة كذا بعد كذا انتهى . « وإن » في قوله (وإن هم إلا يظنون) نافية : أى ما هم . والظن هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم كذا في القاموس ، أى ما هم إلا يترددون بغير جزم ولا يقين ؛ وقيل الظن هنا بمعنى الكذب ؛ وقيل هو مجرد الحدس . لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأمانى ويعتمدون على الظن الذى لا يقفون من تقليدهم على غيره ولا يظفرون بسواه . والويل : الهلاك . وقال الفراء : الأصل في الويل وى : أى حزن كما تقول وى لفلان : أى حزن له ، فوصلته العرب باللام ، قال الخليل : ولم نسمع على بنائه إلا وىح ، وويس ، وويه ، وويك ، وويب ، وكله متقارب في المعنى ، وقد فرق بينها قوم وهى مصادر لم ينطق العرب بأفعالها ، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء . والكتابة معروفة ، والمراد : أنهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله . وقوله (بأيديهم) تأكيد لأن الكتابة لا تكون إلا باليد فهو مثل قوله - ولا طائر يطير بجناحيه - وقوله - يقولون بأفواههم - وقال ابن السراج : هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم . وفيه أنه قد دلّ على أنه من تلقائهم قوله (يكتبون الكتاب) فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك . والاشتراء : الاستبدال ، وقد تقدم الكلام عليه ، ووصفه بالقلّة لكونه فانيا لاثواب فيه ، أو لكونه حراما لا تحلّ به البركة ، فهو لاء الكتبة لم يكتبوا بالتحريف ولا بالكتابة لذلك المحرف حتى نادوا في التحايل بأنه من عند الله ، لينالوا بهذه المعاصى المتكررة هذا الغرض الزير والعوض الحقيق . وقوله (مما يكسبون) قيل من الرشا ونحوها ؛ وقيل من المعاصى ، وكرر الويل تغليظا عليهم وتعظيما لفعالهم وهتكاً لأستارهم (وقالوا) أى اليهود (لن تمسنا النار) الآية . وقد اختلف في سبب نزول الآية كما سيأتى بيانه . والمراد بقوله (قل اتخذتم عند الله عهدا) الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياما معدودة : أى لم يتقدم لكم مع الله عهدا بهذا ، ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم إخلاف العهد : أى إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون . قال في الكشاف ، و« أم » إما أن تكون معادلة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير لأن العلم واقع بكون أحدهما ، ويجوز أن تكون منقطعة انتهى ، وهذا توبيخ لهم شديد . قال الرازى في تفسيره : العهد في هذا الموضع يجرى مجرى الوعد ، وإنما سمي خبره سبحانه عهدا لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة . وقوله (بلى) إثبات بعد النفي : أى بلى تمسكم لأعلى الوجه الذى ذكرتم من كونه أياما معدودة . والسيئة المراد بها الجنس هنا ، ومثله قوله تعالى - وجزاء سيئة سيئة مثلها - من يعمل سوءا يجز به - ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار ، بل لا بد أن تكون سيئة محيططة به ؛ قيل هى الشرك وقيل الكبيرة . وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواترا من خروج عصاة الموحدين من النار ، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لاختصاص السبب . وقد قرأ نافع « خطيأته » بالجمع ، وقرأ الباقون بالإفراد ، وقد تقدم تفسير الخلود .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في قوله (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب) قال لا يدرون مافيه (وإن هم إلا يظنون) قال : وهم يححدون نبوتك بالظن . وأخرج ابن جرير عنه قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ، ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله . وقد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لحدودهم كتب الله ورسله . وأخرج ابن جرير عن النخعي قال :

منهم من لا يحسن أن يكتب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إلا أمانى) قال : الأحاديث . وأخرج ابن جرير عنه أنها الكذب . وكذا روى مثله عبد بن حميد عن مجاهد ، وزاد (وإن هم إلا يظنون) قال : إلا يكذبون . وأخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فويل للذين يكتبون الكتاب) قال : نزلت في أهل الكتاب . وأخرج أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، وصححه عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » وأخرج ابن جرير من حديث عثمان مرفوعا قال : الويل جبل في النار » وأخرج البزار وابن مردويه من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعا أنه حجر في النار . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فويل للذين يكتبون الكتاب) قال هم أحبار اليهود ، وجدوا صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكتوبة في التوراة أكحل أعين ربعة جعد الشعر حسن الوجه ، فلما وجدوه في التوراة محوه حسدا وبغيا ، فأتاهم نفر من قريش فقالوا : تجدون في التوراة نبيا أميا ؟ فقالوا : نعم نجده طويلا أزرق سبط الشعر ، فأنكرت قريش وقالوا : ليس هذا منا . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (ثمنا قليلا) قال : عرضا من عرض الدنيا (فويل لهم) قال : فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب (وويل لهم مما يكسبون) يقول : مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم . وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثارا عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستدلين بهذه الآية ، ولادلالة فيها على ذلك ، ثم ذكر آثارا عن جماعة منهم أنهم جوزوا ذلك ولم يكرهوه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر - ابن أبي حاتم والطبراني والواحدى عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة ، ثم ينقطع العذاب ، فانزل الله في ذلك (وقالوا لن تمسنا النار) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : وجد أهل الكتاب مسيرة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين فقالوا : لن تعذب أهل النار إلا قدر أربعين ، فإذا كان يوم القيامة ألجموا في النار فساروا فيها حتى انتهوا إلى سقر ، وفيها شجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعدودة ، فقال لهم خزنة النار : يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تعذبوا في النار إلا أياما معدودة ، فقد انقضى العدد وبقي الأبد ، فيؤخذون في الصعود يرهقون على وجوههم . وأخرج ابن جرير عنه أن اليهود قالوا : لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة مدة عبادة العجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : اجتمعت يهود يوما فخاصموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات أربعين يوما . ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورد بديه على رأسه : « كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا تخلفكم فيها إن شاء الله أبدا ففهم نزلت هذه الآية (وقالوا لن تمسنا النار) » وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد والبخاري والدارمي والنسائي من حديث أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأل اليهود في خير : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيرا ، ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اخسثوا والله لا تخلفكم فيها أبدا » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (قل أتخذتم عند الله عهدا) أي موثقا من الله بذلك أنه كما تقولون . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه فسر العهد هنا بأنهم قالوا لا إله إلا الله ، لم يشركوا به ولم يكفروا . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (أم تقولون على الله ما لا تعلمون) قال : قال القوم : الكذب والباطل ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بلى من كسب سيئة) قال : الشرك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد

وعكرمة وقتادة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله (وأحاطت به خطيآته) قال : أحاط به شره وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (بلى من كسب سيئة) أى من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط كفره بماله من حسنة (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى من آمن بما كفرتم به وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدون فيها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (وأحاطت به خطيآته) قال : هى الكبيرة الموجبة لأهلها النار . وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن أنه قال : كل ما وعد الله عليه النار فهو الخطيئة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الربيع ابن خيثم قال : هو الذى يموت على خطيئته قبل أن يتوب وأخرج مثله ابن جرير عن الأعمش .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ
وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ
هَوَّلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْلُتُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (٨٥)
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ (٨٦)

قد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل . وقال مكى : إن الميثاق الذى أخذه الله عليهم هنا هو ما أخذه الله عليهم فى حياتهم على ألسن أنبيائهم ، وهو قوله (لاتعبدون إلا الله) وعبادة الله إثبات توحيدِهِ وتصديق رسله والعمل بما أنزل فى كتبه . قال سيويه : إن قوله (لاتعبدون إلا الله) هو جواب قسم ، والمعنى ، استحلقتناهم والله لاتعبدون إلا الله ، وقيل هو إخبار فى معنى الأمر ، ويدل عليه قراءة أبى وابن مسعود « لاتعبدوا » على النهى ويدل عليه أيضا ما عطف عليه من قوله : (وقولوا - وأقيموا - وآتوا) وقال قطرب والمبرد : إن قوله (لاتعبدون) جملة حالية : أى أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين . قال القرطبي : وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحزرة والكسائى « يعبدون » بالياء التحتية . وقال الفراء والزجاج وجماعة : إن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لاتعبدوا إلا الله وبأن تحسنوا بالوالدين ، وبأن لاتسفكوا الدماء : ثم حذف أن فارتفع الفعل لزوالها . قال المبرد : هذا خطأ ، لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا . وقال القرطبي : ليس بخطأ بل هما وجهان صحيحان وعليهما أنشد

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
بالنصب لقوله أحضر وبالرفع . والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتنال أمرهما ،
وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق . والقربى : مصدر كالرجعى والعقبى ، هم القرابة . والإحسان
بهم : صلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ إليه القدرة . واليتامى جمع يتيم ، واليتيم فى بنى آدم
من فقد أبوه . وفى سائر الحيوانات : من فقدت أمه . وأصله الانفراد . يقال : صبي يتيم : أى منفرد من أبيه
والمساكين جمع مسكين ، وهو من أسكنته الحاجة وذللته ، وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير
من أهل الفقه . وروى عن الشافعى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين . وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة
فى مواطنها . ومعنى قوله (وقولوا للناس حسنى) أى قولوا لهم قولاً حسناً فهو صفة مصدر محذوف ، وهو مصدر
كبشرى . وقرأ حمزة والكسائى « حسنا » بفتح الحاء والسين . وكذلك قرأ زيد بن ثابت وأبى مسعود . قال الأخفش
هما بمعنى واحد ، مثل البخل والبخل ، والرشد والرشد وحكى الأخفش أيضاً « حسنى » بغير تنوين على فعلى .
قال النحاس : وهذا لا يجوز فى العربية ، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى
وهذا قول سيبويه . وقرأ عيسى بن عمر « حسنا » بضمتين : والظاهر أن هذا القول الذى أمرهم الله به لا يختص
بنوع معين ، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعاً كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر . وقد قيل إن ذلك هو
كلمة التوحيد ، وقيل الصدق ، وقيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيل غير ذلك . وقوله (وأقيموا الصلاة
وآتوا الزكاة) قد تقدم تفسيره ، وهو خطاب لبنى إسرائيل ، فالمراد الصلاة التى كانوا يصلونها ، والزكاة التى
كانوا يخرجونها . قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتزل النار على ما يقبل ، ولا تنزل على مالا
يقبل . وقوله (ثم توليت) قيل الخطاب للحاضرين منهم فى عصر النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم مثل سلفهم
فى ذلك ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . وقوله (إلا قليلا) منصوب على الاستثناء ، ومنهم عبد الله بن سلام
وأصحابه . وقوله (وأنتم معرضون) فى موضع نصب على الحال ، والإعراض والتولى بمعنى واحد ، وقيل :
التولى بالجسم ، والإعراض بالقلب . وقوله (لا تسفكون) الكلام فيه كالكلام فى لا تعبدون وقد سبق . وقرأ
طلحة بن مصرف وشعيب بن أبى حمزة بضم الفاء ، وهى لغة . وقرأ أبو نهيك بضم الياء وتشديد الفاء وفتح السين
والسفك : الصب ، وقد تقدم ، والمراد أنه لا يفعل ذلك بعضهم ببعض . والدار : المنزل الذى فيه أبنية المقام ،
بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم يكن فيه أبنية ؛ وقيل سميت داراً
لدورها على سكانها ، كما يسمى الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه . وقوله (ثم أقررتم) من الإقرار : أى
حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم فى حال شهادتكم على أنفسكم بذلك ؛ قيل الشهادة هنا بالقلوب
وقيل هى بمعنى الحضور : أى أنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك ، وكان الله سبحانه قد أخذ فى التوراة على
بنى إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسترقه . وقوله (ثم أنتم هؤلاء) أى أنتم هؤلاء المشاهدون
الحاضرون تخالفون ما أخذ الله عليكم فى التوراة فتقتلون أنفسكم إلى آخر الآية ؛ وقيل إن هؤلاء منصوب بإضمار
أعنى ؛ ويمكن أن يقال منصوب بالذم أو الاختصاص : أى أذم أو أخص . وقال القتيبي : إن التقدير يا هؤلاء
قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه لا يجوز . وقال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل
هؤلاء مبتدأ وأنتم خبر مقدم وقرأ الزهرى « تقتلون » مشدداً ، فمن جعل قوله (أنتم هؤلاء) مبتدأ وخبراً جعل
قوله (تقتلون) بيانا لأن معنى قوله (أنتم هؤلاء) أنهم على حالة كحالة أسلافهم من نقض الميثاق . ومن جعل

هو لاء منادى أو منصوبا بما ذكرنا جعل الخبر تقتلون وما بعده . وقوله (تظاهرون) بالتشديد ، وأصله تتظاهرون أدغمت التاء في الظاء لقربها منها في المخرج ، وهي قراءة أهل مكة . وقرأ أهل الكوفة « تظاهرون » مخففا بحذف التاء الثانية ، لدلالة الأولى عليها . وأصل المظاهرة المعاونة ، مشتقة من الظهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر ، ومنه قول الشاعر :

تظاهرت من كل أوب ووجهة على واحد لازلت قرن واحد

ومنه قوله تعالى - وكان الكافر على ربه ظهيرا - وقوله - والملائكة بعد ذلك ظهير - . وأسارى حال . قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقول : ما صار في أيديهم فهو أسارى ، وما جاء مستأسرا فهو الأسرى . ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو . وإنما هذا كما تقول سكارى وسكرى . وقد قرأ حمزة « أسرى » . وقرأ الباقون « أسارى » والأسرى جمع أسير كالقتلى جمع قتيل والجرحى جمع جريح . قال أبو حاتم : ولا يجوز أسارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سكارى . وقال ابن فارس : يقال في جمع أسير أسرى وأسارى انتهى . فالعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل . وقرأ به الجمهور ، والأسير مشتق من السير ، وهو القيد الذي يشد به الحمل ، فسمى أسيرا لأنه يشد وثاقه ، والعرب تقول : قد أسرقته : أى شده ، ثم سمي كل أخيد أسيرا وإن لم يؤخذ . وقوله (تفادوهم) جواب الشرط ، وهي قراءة حمزة ونافع والكسائي ، وقرأ الباقون « تفدوهم » . والفداء : هو ما يوجد من الأسير ليفك به أسره ، يقال فداه وفاداه : إذا أعطاه فداه . قال الشاعر :

قفي فادى أسيرك إن قوى وقومك ما أرى لهم اجتماعا

وقوله (وهو محرم عليكم إخراجهم) الضمير للشأن وقيل مبهم تفسره الجملة التي بعده ؛ وزعم الفراء أن هذا الضمير عماد ، واعترض عليه بأن العماد لا يكون في أول الكلام . و (إخراجهم) مرتفع بقوله (محرم) ساد مسد الخبر ، وقيل بل مرتفع بالابتداء ومحرم خبره . قال المفسرون : كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسراهم ؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك . بقوله (أفئذ منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) . والخزى : الهوان . قال الجوهري : والخزى بالكسر يخزى خزيا : إذا ذلّ وهان ، وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملاءمين اليهود موفرا ، فصاروا في خزى عظيم بما ألصق بهم من الذلّ والمهانة بالقتل والأسر وضرب الجزية والجلاء ، وإنما ردهم الله يوم القيامة إلى أشدّ العذاب لأنهم جاءوا بذنب شديد ومعصية فظيمة . وقد قرأ الجمهور يردّون بالياء التحتية . وقرأ الحسن بالفوقية على الخطاب . وقد تقدّم تفسير قوله (وما الله بغافل عما يعملون) وكذلك تفسير (أولئك الذين اشتروا) وقوله (فلا يخفف) إخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة ، فلا يخفف عنهم ذلك أبدا ماداموا ، ولا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ، ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عدوهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل) قال يوثبهم أى ميثاقكم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وقولوا للناس حسنى) قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وروى البيهقي في الشعب عن عليّ في قوله (وقولوا للناس حسنى) قال : يعنى الناس كلهم ، ومثله روى عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس

في قوله (ثم توليت) قال : أى تركتم ذلك كله . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : معناه أعرضتم عن طاعى إلا قليلا منكم وهم الذين اخترتهم لطاعى . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية في قوله (لاتسفكون دماءكم) لا يقتل بعضكم بعضا (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) لا يخرج بعضكم بعضا من الديار (ثم أقررتم) بهذا الميثاق (وأنتم تشهدون) وأنتم شهود . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله (ثم أقررتم) أن هذا حق من ميثاقى عليكم (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) أى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) قال : تخرجونهم من ديارهم معهم (تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان) فكانوا إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت معهم بنو قينقاع مع الخزرج والنضير وقريظة مع الأوس وظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يسافكوا دماءهم ، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما في التوراة (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم (وهو محرم عليكم) في كتابكم لإخراجهم (أفثومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أفثادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفرا بذلك . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) قال : استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

الكتاب : التوراة ، والتقفيه : الإتيان والإرداف ، مأخوذة من القفا وهو مؤخر العنق ، تقول : استقفيته : إذا جئت من خلفه ، ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام . والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلا جعلهم تابعين له وهم أنبياء بنى إسرائيل المبعوثون من بعده . و (البيّنات) الأدلة التي ذكرها الله في آل عمران والمائدة . والتأييد : التقوية . وقرأ مجاهد وابن محيصن (آيدناه) بالمدّ وهما لغتان . وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة : أى الروح المقدسة . والقدس : الطهارة ، والمقدس : المطهر - وقيل هو جبريل أيد الله به عيسى ، ومنه قول حسان :

وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس : وسمى جبريل روحا وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة - وقيل القدس هو الله عز وجل ، وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس : الاسم الذى كان عيسى يحى به الموتى ؛ وقيل المراد به الإنجيل ؛ وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه ، أيد الله به لما فيه من القوة . وقوله (بما لا تهوى أنفسكم) أى بما لا يوافقها ويلائمها ، وأصل الهوى : الميل إلى الشيء . قال الجوهري : وسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار . ونحهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهزمة التوبيخ فقال (أفكلما جاءكم رسول) منكم (بما لا) يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقارا للرسول واستبعادا للرسالة ، والفاء في قوله « أفكلما » للعطف على مقدّر أى آتيناكم يا بنى إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم أفكلما جاءكم رسول . وفريقا منصوب بالفعل الذى بعده والفاء

للتفصيل ، ومن الفرق المكذبين عيسى ومحمد ، ومن الفريق المقتولين يحيى وزكريا . والغلف جمع أغلف ، المراد به هنا : الذى عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه ، ومنه غلفت السيف : أى جعلت له غلافا . قال فى الكشف : هو مستعار من الأغلف الذى لم يختن كقوله - قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه - وقيل إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمير : أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لاتفهم عنك ، وقد وعينا علما كثيرا ، فرد الله عليهم ما قالوه فقال (بل لعنهم الله بكفرهم) وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والإبعاد ، ومنه قول الشماخ :

ذعرت به القطا . ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

أى كالرجل المطرود . والمعنى : أبعدهم الله من رحمته ، و(قليلا) نعت لمصدر مخنوف : أى إيماننا قليلا (ما يؤمنون) و« ما » زائدة ، وصف إيمانهم بالقلة لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم وعجرفتهم وشدة لجأهم ، وبعدهم عن إجابة الرسل ما قصه ، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . وقال معمر : المعنى لا يؤمنون إلا قليلا مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره ، وعلى هذا يكون قليلا منصوبا بنزع الخافض . وقال الواقدي معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا . قال الكسائى : تقول العرب مررنا بأرض قل ماتتبت الكراث والبصل أى لاتتبت شيئا . وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى به التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة (وقفينا من بعده بالرسول) يعنى رسولا يدعى أشمويل بن بابل ، ورسولا يدعى منشائيل ، ورسولا يدعى شعيا ، ورسولا يدعى حزقيل ، ورسولا يدعى أرميا وهو الخضر ، ورسولا يدعى داود وهو أبو سليمان ورسولا يدعى المسيح عيسى بن مريم ، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله وانتخبهم من الأمة بعد موسى فأخذنا عليهم ميثاقا غليظا أن يؤدوا إلى أمهم صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفة أمته . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) قال : هى الآيات التى وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير ، وإبراء الأسقام . والخبر بكثير من الغيوب ، وما ورد عليهم من التوراة والإنجيل الذى أحدث الله إليه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (وأيدناه) قال : قويناه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : روح من القدس الاسم الذى كان عيسى يحيى به الموتى . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال : القدس : الله تعالى . وأخرج عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج عن ابن عباس قال : القدس الطهر . وأخرج عن السدى قال : القدس البركة . وأخرج عن إسماعيل بن أبى خالد أن روح القدس جبريل . وأخرج عن ابن مسعود مثله وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن جابر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : روح القدس جبريل . وقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « اللهم أيد حسان بروح القدس » وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله (فريقا) قال : طائفة . وأخرج عن ابن عباس قال : إنما سمي القلب لثقله . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عنه أنه كان يقرأ (قلوبنا غلف) مثقلة : أى كيف نتعلم وقلوبنا غلف للحكمة : أى أوعية للحكمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وقالوا قلوبنا غلف) مملوءة علما لاتحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (قلوبنا غلف) قال : فى غطاء . وروى ابن إسحاق وابن جرير عنه أنه قال : فى أكنة . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : هى القلوب المطبوع عليها . وأخرج وكيع عن عكرمة وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : هى التى لاتفقه . وأخرج ابن أبى شيبه وابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص وابن جرير عن حذيفة قال : القلوب أربعة : قلب أغلف فذلك

قلب الكافر ، وقلب مصفح فذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه مثل السراج فذلك قلب المؤمن ؛ وقلب فيه إيمان ونفاق ؛ فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب ؛ ومثل المنافق كمثل قرحة يمدّها القيح والدم . وأخرج أحمد بسند جيد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ؛ وقلب أغلف مربوط على غلافه ؛ وقلب منكوس ؛ وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج فيه نوره ؛ وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ؛ وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح ، فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي مثله سواء موقوفاً . وأخرج عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (فقليل ما يؤمنون) قال : لا يؤمن منهم إلا قليل

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)
بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)
وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)

(ولما جاءهم) يعنى اليهود (كتاب) يعنى القرآن ، و (مصدق) وصف له ، وهو فى مصحف أبى منصور ونصبه على الحال وإن كان صاحبها نكرة فقد تخصصت بوصفها بقوله (من عند الله) وتصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل أنه يخبرهم بما فيهما ويصدقهما ولا يخالفه . والا ستفتاح الاستنصار : أى كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت فى آخر الزمان الذى يجدون صفته عندهم فى التوراة ؛ وقيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح : أى يخبرونهم بأنه سيبعث ويعرفونهم بذلك ، وجواب « لما » فى قوله (ولما جاءهم كتاب) قيل هو قوله (فلما جاءهم ما عرفوا) وما بعده ؛ وقيل هو محذوف : أى كذبوا أو نحوه ، كذا قال الأخفش والزجاج . وقال المبرد : إن جواب « لما » الأولى هو قوله (كفروا) وأعيدت « لما » الثانية لطول الكلام ، واللام فى الكافرين للجنس . ويجوز أن تكون للعهد ويكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمّر ، والأوّل أظهر و « ما » فى قوله (بشما) موصولة أو موصوفة : أى بشئ الشئ أو شيئاً (اشتروا به أنفسهم) قاله سيويه . وقال الأخفش « ما » فى موضع نصب على التمييز كقولك : بشئ رجلاً زيد . وقال الفراء : بشما يحملته شئ واحد ركب كعبدا . وقال الكسائى « ما » و « اشتروا » بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه ، والتقدير : بشئ اشتروا بهم أن يكفروا . وقوله (أن يكفروا) فى موضع رفع على الابتداء عند سيويه وخبره ما قبله . وقال الفراء والكسائى : إن شئت كان

في موضع خفض بدلا من الهاء في به : أي اشترى بأن يكفروا . وقال في الكشف : إن « ما » نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ، بمعنى شيئا اشترى به أنفسهم ، والمخصوص بالذم أن يكفروا ، واشترى بمعنى باعوا . وقوله (بغيا) أي حسدا . قال الأصمعي : البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح : إذا فسد ، وقيل أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغيا . وهو علة لقوله (اشترى) وقوله (أن ينزل) علة لقوله (بغيا) أي لأن ينزل . والمعنى : أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسدا ومنافسة (أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن « أن ينزل » بالتخفيف . (فباعوا) أي رجعوا وصاروا أحقاء (بغضب على غضب) وقد تقدم معنى باعوا ومعنى الغضب ؛ قيل الغضب ؛ الأول لعبادتهم العجل ، والثاني لكفرهم بمحمد ؛ وقيل كفرهم بعيسى ثم كفرهم بمحمد ؛ وقيل كفرهم بمحمد ثم البغي عليه ؛ وقيل غير ذلك . والمهين مأخوذ من الهوان ؛ قيل وهو ما اقتضى الخلود في النار . وقوله (بما أنزل الله) هو القرآن ؛ وقيل كل كتاب : أي صدقوا بالقرآن أو صدقوا بما أنزل الله من الكتب (قالوا نؤمن) أي نصدق (بما أنزل علينا) أي التوراة . وقوله (ويكفرون بما وراءه) قال الفراء : بما سواه . وقال أبو عبيدة : بما بعده . قال الجوهري : وراء بمعنى خلف ، وقد يكون بمعنى قدّام وهي من الأضداد . ومنه قوله تعالى - وكان وراءهم ملك - أي قدّامهم ، وهذه الحملة أعني ويكفرون في محل النصب على الحال : أي قالوا نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراءه مع كون هذا الذي هو وراء ما يؤمنون به هو الحق . وقوله (مصدقا) حال مؤكدة وهذه أحوال متداخلة أعني قوله (ويكفرون) وقوله (وهو الحق) وقوله (مصدقا) ثم اعترض الله سبحانه عليهم لما قالوا نؤمن بما أنزل علينا بهذه الحملة المشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ : أي إن كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الأنبياء وقد نهيتهم عن قتلهم فيما أنزل عليكم ؟ وهذا الخطاب وإن كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم ، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم . واللام في قوله (ولقد) جواب لقسم مقدّر . والبيّنات يجوز أن يراد بها التوراة أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ويجوز أن يراد بالجميع ثم عديم العجل بعد النظر في تلك البيّنات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عنادا بعد قيام الحجة عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق) قال : هو القرآن (مصدق لما معهم) من التوراة والإنجيل . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال : حدثني أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منا ، لأن معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن ، وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا : إن نبيا ليبعث الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتبعناه وكفروا به ففينا والله وفيهم أنزل الله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم وكانوا يجدون محمدا في التوراة فيسألون الله أن يبعثه نبيا فيقاتلون معه العرب ، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل . وقد روى نحو هذا عن ابن عباس من غير وجه بألفاظ مختلفة ومعانيها متقاربة . وروى عن غيره من السلف نحو ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (بئسما

اشترؤا به أنفسهم) قال : هم اليهود كفروا بما أنزل الله وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بغيا وحسدا للعرب
نباؤوا بغضب على غضب) قال : غضب الله عليهم مرتين بكفرهم بالإنجيل وبعيسى وبكفرهم بالقرآن وبمحمد .
وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بغيا أن ينزل الله) أى أن الله جعله من
غيرهم (فباؤوا بغضب) بكفرهم بهذا النبي (على غضب) كان عليهم بما صنعوه من التوراة . وأخرج ابن جرير
عن عكرمة نحوه . وأخرج أيضا عن مجاهد معناه . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (ويكفرون بما
وراءه) قال : بما بعده . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : بما وراءه : أى القرآن .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا
قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمَنْ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ
يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

قد تقدم تفسير أخذ الميثاق ورفع الطور . والأمر بالسماح معناه الطاعة والقبول ، وليس المراد مجرد الإدراك
بحاسة السمع ، ومنه قولهم « سمع الله لمن حمده » أى قبل وأجاب ، ومنه قول الشاعر .
دعوت الله حتى خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول

أى يقبل ، وقولهم فى الجواب (سمعنا) هو على بابيه وفى معناه : أى سمعنا قولك بحاسة السمع وعصيناك : أى
لأنقبل ما تأمرنا به ، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم « سمعنا » ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة فى
مخاطبة أنبيائهم وذلك بأن يحملوا قوله تعالى (اسمعوا) على معناه الحقيقى أى السماع بالحاسة . ثم أجابوا بقولهم
(سمعنا) أى أدركنا ذلك بأسماعنا عملا بموجب ما تأمر به ، ولكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد لله عز وجل
بل مراده بالأمر بالسماح الأمر بالطاعة والقبول لم يقتصرؤا على هذه المغالطة بل ضمؤا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم
فقالوا (وعصينا) ، وفى قوله (وأشربؤا) تشبيه بليغ : أى جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه ،
ومثله قول زهير :
فصحوت عنها بعد حب داخل والحب يشربه فؤادك دائما

ولأنما عبز عن حب العجل بالشرب دون الأكل ؛ لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها والطعام
يجاوزها ولا يتغلغل فيها ، والباء فى قوله (بكفرهم) سببية : أى كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم وخذلانا . وقوله
(قل بئسما يأمركم به إيمانكم) أى إيمانكم الذى زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بما وراءه فإن هذا
الصنع وهو قولكم (سمعنا وعصينا) فى جواب ما أمرتم به فى كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء
بإخلاص مازعمتم ، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يبدل

على أنكم كاذبون في قولكم (نؤمن بما أنزل علينا) لا صادقون ، فإن زعمتم أن كتابكم الذي آمنتم به أمركم بهذا فبئسما بأمركم به إيمانكم بكتابكم ، وفي هذا من التهم بهم ما لا يخفى . وقوله (قل إن كانت لكم الدار الآخرة) هو رد عليهم لما ادّعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركونهم في دخولها غيرهم ، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى ، وأنها صادرة منهم لاعن برهان ، و (خالصة) منصوب على الحال ويكون خبر كان هو عند الله أو يكون خبر كان هو خالصة ، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركونهم فيها غيرهم إذا كانت اللام في قوله (من دون الناس) للجنس أو لا يشاركونهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد . وهذا أرجح لقولهم في الآية الأخرى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) وإنما أمرهم بتمنى الموت لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة ، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا ، ولهذا قال سبحانه (ولن يتمنوه أبدا) و « ما » في قوله (بما قدّمت أيديهم) موصولة والعائد محذوف : أي بما قدّمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة ، فضلا عن كونه قاطعا بها فضلا عن كونها خالصة له مختصة به - وقيل إن الله سبحانه صرفهم عن التمنى ليجعل ذلك آية لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم . والمراد بالتمنى هنا : هو التلطف بما يدل عليه ، لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه ، فإن ذلك لا يراد في مقام الحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى ، وفي تركهم للتمنى أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجريء على الله وعلى أنبيائه بالدعوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل ، فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت ، إما لأمر قد علموه ، أو للصرفة من الله عز وجل . وقد يقال : ثبت النهى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تمنى الموت فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهى عنه في شريعته . ويجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحجة ، وإقامة البرهان على بطلان دعواهم . وقوله (والله عليم بالظالمين) تهديد لهم وتسجيل عليهم بأنهم كذلك . واللام في قوله (ولتجدنهم) جواب قسم محذوف ، وتنكير حياة للتحقير : أي أنهم أحرص الناس على أخقر حياة وأقل لبث في الدنيا ، فكيف بحياة كثيرة ولبث متناول ؟ وقال في الكشف : إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ، وتبعه في ذلك الرازى في تفسيره . وقوله (ومن الذين أشركوا) قيل هو كلام مستأنف ، والتقدير : ومن الذين أشركوا ناس (يودّ أحدهم) وقيل إنه معطوف على الناس : أي أحرص الناس وأحرص من الذين أشركوا ، وعلى هذا يكون قوله « يودّ أحدهم » راجعا إلى اليهود بيانا لزيادة حرصهم على الحياة ، ووجه ذكر الذين أشركوا بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم . فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغاً في الحرص إلى غاية لا يقادر قدرها . وإنما بلغوا في الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين ، لأنهم يعلمون بما يحلّ بهم من العذاب في الآخرة ، بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فإنهم لا يقرّون بذلك ، وكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود . والأول وإن كان فيه خروج من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف ، ولا ضير في استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود . وقال الرازى : إن الثانى أرجح ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا انتهى ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحا قد أفاده قوله تعالى (ولتجدنهم أحرص الناس) ولا يستلزم استثناء الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس ، وخص الألف بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة . وأصل سنة سنة وقيل سنة . واختلف في الضمير في قوله (وما

هو بمزحزحه) ف قيل هو راجع إلى أحدهم ، والتقدير : وما أحدهم بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، وعلى هذا يكون قوله (أن يعمر) فاعلا لمزحزحه ، وقيل هو لما دل عليه يعمر من مصدره : أى وما التعمير بمزحزحه ، ويكون قوله « أن يعمر » بدلا منه . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : هو عماد ؛ وقيل هو ضمير الشأن ؛ وقيل « ما » هى الحجازية والضمير اسمها وما بعده خبرها والأول أرجح ، وكذلك الثانى والثالث ضعيف جدا لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين ، ولهذا يسمونه ضمير الفصل ، والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة . والمزحزحة : التنحية ؛ يقال مزحزحته فتزحزح : أى نحيتة فتنحى وتباعد ، ومنه قول ذى الرمة :

يا قابض الروح عن جسم عصى زمنا وغافر الذنب زحزحني عن النار
والبصير : العالم بالشيء الخبير به ، ومنه قولهم : فلان بصير بكذا : أى خبير به ، ومنه قول الشاعر :

فإن تسألوني بالنساء فإننى بصير بأدواء النساء طيب

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله (وأشربوا فى قلوبهم العجل) قال : أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية أن اليهود لما قالوا (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) الآية ، نزل قوله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة) الآية . وأخرج ابن جرير مثله عن قتادة . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن قوله (خالصة من دون الناس) يعنى المؤمنين (فتمنوا الموت) فقال لهم رسول الله : « إن كنتم فى مقاتلكم صادقين فقولوا : اللهم أمتنا ، فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه » . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (فتمنوا الموت) أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك ، ولو تمنوه يوم قال ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم عنه قال : « لو تمنى اليهود الموت لماتوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه نحوه . وأخرج البخارى وغيره من حديثه مرفوعا : « لو أن اليهود تمنوا لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار » . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه فى قوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) قال : اليهود (ومن الذين أشركوا) قال : وذلك أن المشركين لا يرجون بعثا بعد الموت فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودى قد عرف ماله من الخزى بما ضيع ما عنده من العلم (وما هو بمزحزحه) قال : بمنحيه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم عنه فى قوله (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال : هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم « ذه هز ارسال » يعنى عش ألف سنة .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ
فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت فى اليهود . قال ابن جرير الطبرى : وأجمع أهل التأويل جميعا أن هذه الآية نزلت جوابا على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى لهم . ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك ؟ فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم من أمر نبوته ، ثم ذكر روايات في ذلك ستأتي آخر البحث إن شاء الله . والضمير في قوله (فإنه)
 يحتمل وجهين : الأول أن يكون لله ويكون الضمير في قوله (نزل) لجبريل : أى فإن الله سبحانه نزل جبريل على
 قلبك ، وفيه ضعف كما يفيد قوله (مصداقاً لما بين يديه) . الثانى أنه لجبريل ، والضمير في « نزل » للقرآن : أى
 فإن جبريل نزل القرآن على قلبك ، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم . وقوله (بإذن الله) أى بعلمه
 وإرادته وتيسيره وتسهيله ، و (ما بين يديه) هو التوراة كما سلف أو جميع الكتب المنزلة وفي هذا دليل على شرف
 جبريل وارتفاع منزلته ، وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك ، أو من
 تنزيل الله له على قلبك ، وهذا هو وجه الربط بين الشرط والجواب ، أى من كان معادياً لجبريل منهم فلا وجه
 لمعاداته له ، فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة ، أو من كان معادياً له ، فإن سبب معاداته أنه وقع
 منه ما يكرهونه من التنزيل ، وليس ذلك بذنب له وإن نزهوه ، فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان ،
 لأن هذا الكتاب الذى نزل به هو مصدق لكتابهم وهدى وبشرى للمؤمنين ، ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة
 مشتملة على شرط وجزاء يتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب والوعيد الشديد له فقال (من كان عدواً لله
 وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين) والعداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله
 والبغض لأوليائه ، والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له - وإنما خص جبريل
 وميكائيل بالذكر بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلتهما ، وأنها وإن كانا من الملائكة فقد
 صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفى منزلة التغاير
 الذاتى كما ذكره صاحب الكشف وقرره علماء البيان . وفي جبريل عشر لغات ذكرها ابن جرير الطبرى وغيره ،
 وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك . وفي ميكائيل ست لغات ، وهما اسمان عجميان ، والعرب إذا نطقت بالعجمي
 تساهلت فيه . وحكى الزمخشري عن ابن جنى أنه قال : العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه . وقوله (للكافرين)
 من وضع الظاهر موضع المصغر : أى فإن الله عدو لهم لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت
 منه . وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال :
 « حضرت عصابة من اليهود النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن
 لا يعلمهن إلا نبى ، قال : سلوني عما شئتم ، فسألوه وأجابهم : ثم قالوا : فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها
 نجامعك أو نفارقك ، فقال : ولي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو واهب ، قالوا : فعندها نفارقك لو كان
 وليك سواه من الملائكة لا تبعناك وصدقناك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : هذا عدونا ، فعند ذلك أنزل
 الله الآية . » وأخرج نحو ذلك ابن أبي شيبه فى المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي عن عمر بن الخطاب
 فى قصة جرت لهم معهم وإسنادها صحيح ولكن الشعبي لم يدرك عمر ، وقد رواها عكرمة وقتادة والسدى وعبد الرحمن
 ابن أبى لى عن عمر . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد والبخارى والنسائى وغيرهم عن أنس قال « سمع
 عبد الله بن سلام بمقدم النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو فى أرض يثرب ، فأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم
 فقال : إني سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشرط الساعة ، وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع
 الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال : أخبرني بهن جبريل أنفاً ، فقال جبريل ؟ قال نعم ، قال : ذاك عدو اليهود من
 الملائكة ، فقرأ هذه الآية (من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك) قال : أما أول أشرط الساعة فنار تخرج من
 المشرق فتحشر الناس إلى المغرب ، وأما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما ما ينزع الولد إلى أبيه

أو أمه ، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فإنه نزل على قلبك بإذن الله) يقول : فإن جبريل نزل القرآن بأمر الله يشدد به فؤادك ويربط به على قلبك (مصدقا لما بين يديه) يقول لما قبله من الكتب التي أنزلها والآيات والرسائل الذين بعثهم الله . وقد ذكر السيوطي في هذا الموضع من تفسيره « الدر المنثور » أحاديث كثيرة واردة في جبريل وميكائيل وليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْبُحُرَىٰ مِمَّا خَلَتْ مِنْ خَلْقٍ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

الضمير في قوله (إليك) للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك . وقوله (إلا الفاسقون) قد تقدم تفسيره ، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ، ويحتمل أن يراد اليهود لأن الكلام معهم ، والواو في قوله (أو كلما) للعطف دخلت عليها همزة الاستفهام كما تدخل على الفاء ، ومن ذلك قوله تعالى - أفحكم الجاهلية يبغون - أفأنت تسمع الصم - أفنتخذونه وذريته - وكما تدخل على ثم ، ومن ذلك قوله تعالى - أثم إذا ما وقع - وهذا قول سيويه . وقال الأخفش : الواو زائدة . وقال الكسائي : إنها أو حركت الواو تسهلا . قال ابن عطية : وهذا كله متكلف ، والصحيح قول سيويه والمعطوف عليه محذوف ، والتقدير : أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا . قوله (نبذ فريق) قال ابن جرير : أصل النبذ الطرح والإلقاء ، ومنه سمي اللقيط منبذا ، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء ، قال أبو الأسود :

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا أخلقت من نعالك

وقال آخر :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحل الحرام

وقوله (وراء ظهورهم) أى خلف ظهورهم ، وهو مثل يضرب لمن يستخف بالشئ فلا يعمل به تقول العرب : اجعل هذا خلف ظهرك ودبر أذنك وتحت قدمك : أى اتركه واعرض عنه ، ومنه ما أنشده القراء :

نمى بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعي على جوابها

وقوله (كتاب الله) أى التوراة لأنهم لما كفروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم فى التوراة الإيمان به وتصديقه واتباعه وبين لهم صفته ، كان ذلك منهم نبذا للتوراة ونقضا لها ورفضاً لما فيها ، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن : أى لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذى جاء به هذا الرسول ، وهذا أظهر من الوجه الأول . وقوله (كأنهم لا يعلمون) تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي ، ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم . قوله (واتبعوا ماتلوا الشياطين) معطوف على قوله « نبذوا » أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتلوا الشياطين من السحر ونحوه . قال الطبرى : اتبعوا بمعنى فعلوا . ومعنى « تتلوا » تتقوله وتقرؤه و(على ملك سليمان) على عهد ملك سليمان ، قاله الزجاج ؛ وقيل المعنى فى ملك سليمان : يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره . قال القراء : تصلح « على » وفى « فى » هذا الموضع ، والأول أظهر . وقد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان وأنه يستجيزه ويقول به ، فردّ الله ذلك عليهم وقال (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) ولم يتقدم أن أحداً نسب سليمان إلى الكفر ، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبته إلى الكفر لأن السحر يوجب ذلك ، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال (ولكن الشياطين كفروا) أى بتعليمهم . وقوله (يعلمون الناس السحر) فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر بعد خبر . وقرأ ابن عامر والكوفيون سوى عاصم « ولكن الشياطين » بتخفيف لكن ورفع الشياطين ، والباقون بالتشديد والنصب . والسحر : هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التى تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء ، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير ، وهو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته ؛ وقيل أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله خفية ؛ وقيل أصله الصرف لأن السحر مصروف عن جهته ؛ وقيل أصله الاستمالة لأن من سحر سحره فقد استماله . وقال الجوهري : السحر الأخذة ، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر . وقد سحره يسحره سحرا ، والساحر : العالم ، وسحره أيضاً بمعنى خدعه . وقد اختلف هل له حقيقة أم لا ؟ فذهبت المعتزلة وأبو حنيفة إلى أنه خدع لا أصل له ولا حقيقة . وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة . وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر ، سحره لبيد ابن الأعصم اليهودى حتى كان يخيل إليه أنه يأتى الشئ ولم يكن قد أتاه ثم شفاه الله سبحانه ، والكلام فى ذلك يطول . وقوله (وما أنزل على الملكين) أى ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين فهو معطوف على السحر ؛ وقيل هو معطوف على قوله « ما تتلوا الشياطين » أى واتبعوا ما أنزل على الملكين . وقيل إن « ما » فى قوله (وما أنزل على الملكين) نافية ، والواو عاطفة على قوله « وما كفر سليمان » وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله « ولكن الشياطين كفروا » ذكر هذا ابن جرير وقال : فإن قال لنا قائل : وكيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : واتبعوا ماتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنياً

بالمملكين جبريل وميكائيل ، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان مما نخلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم انتهى . وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه : هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه ، فالسحر من استخراج الشياطين للطاقة جوهرهم ودقة أفهامهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمثن ، قال الله - ومن شر النفاثات في العقد - ثم قال : إن قيل كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل ؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع ، أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما ، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن « المملكين » بكسر اللام ، ولعل وجه الحزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على السن ملائكته . وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر ، فإن الله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول المملكان (إنما نحن فتنة) قال ابن جرير : وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان وبابل قيل هي العراق ؛ وقيل نهاوند ؛ وقيل نصيبين ؛ وقيل المغرب . وهاروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان . وقوله (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا) قال الزجاج : تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه ؛ قال : وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر ، ومعناه : أنهما يعلمان على النهي فيقولان لهم لا تفعلوا كذا ، و « من » في قوله « من أحد » زائدة للتوكيد ؛ وقد قيل إن قوله « يعلمان » من الإعلام لا من التعليم ، وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الأنباري وابن الأعرابي ، وهو كثير في أشعارهم كقول كعب بن مالك :

تعلم رسول الله أنك مدركي وأن وعيدا منك كالأخذ باليد

وقال القطامي :

تعلم أن بعد الغي رشيدا وأن لذلك الغي انقشاعا

وقوله (إنما نحن فتنة) هو على ظاهره : أي إنما نحن ابتلاء واختبار من الله لعباده ؛ وقيل إنه استهزاء منهما لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله وفي قولهما (فلا تكفر) أبلغ إنذار وأعظم تحذير : أي أن هذا ذنب يكون من فعله كافرا فلا تكفر ، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد ، وبين من تعلمه ليكون ساحرا ومن تعلمه ليقدر على دفعه . وقوله (فيتعلمون) فيه ضمير يرجع إلى قوله « من أحد » قال سيبويه : التقدير فهم يتعلمون ، قال : ومثله - كن فيكون - وقيل هو معطوف على موضع ما يعلمان ، لأنه وإن كان منفيًا فهو يتضمن الإيجاب . وقال الفراء : هي مردودة على قوله « يعلمون الناس السحر » أي يعلمون الناس فيتعلمون وقوله (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) في إسناد التفريق إلى السحرة وجعل السحر سببا لذلك دليل على أن للسحر تأثيرا في القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد . وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة ، لأن الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر وبين ما هو الغاية في تعليمه ، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفة أخرى : إن ذلك خرج مخرج الأغلب ، وأن الساحر يقدر

على غير ذلك المنصوص عليه ؛ وقيل ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً لقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) والحق أنه لا تنافي بين قوله (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وبين قوله (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فإن الاستفادة من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه ، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن أذن الله بتأثيره فيه . وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه وحقيقة ثابتة ، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة كما تقدم ، وقوله (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب إليه منفعة بل هو ضرر محض وخسران بحت ، واللام في قوله (ولقد) جواب قسم محذوف ، وفي قوله (لمن اشتراه) للتأكيد و « من » موصولة وهي في محل رفع على الابتداء ، والخبر قوله (ماله في الآخرة من خلاق) وقال الفراء إنها شرطية للمجازاة . وقال الزجاج : ليس هذا بموضع شرط ، ورجح أنها موصولة كما ذكرنا . والمراد بالشراء هنا الاستبدال أى من استبدل ما تملوا الشياطين على كتاب الله . والخلاق : النصيب عند أهل اللغة ، كذا قال الزجاج . والمراد بقوله (ما شروا به أنفسهم) أى باعوها . وقد أثبت لهم العلم في قوله (ولقد علموا) ونفاه عنهم في قوله (لو كانوا يعلمون) واختلفوا في توجيه ذلك فقال قطرب والأخفش : إن المراد بقوله (ولقد علموا) الشياطين ، والمراد بقوله (لو كانوا يعلمون) الإنس . وقال الزجاج : إن الأول للملكين وإن كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم : الزيدان قاموا . والثاني المراد به علماء اليهود ، وإنما قال (لو كانوا يعلمون) لأنهم تركوا العمل بعلمهم . وقوله (ولو أنهم آمنوا) أى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من القرآن (واتقوا) ما وقعوا فيه من السحر والكفر ، واللام في قوله (لثوبة) جواب لو ، والمثوبة : الثواب . وقال الأخفش : إن الجواب محذوف والتقدير ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا ، فحذف للدلالة قوله « لثوبة » عليه وقوله (لو كانوا يعلمون) هو إما للدلالة على أنه لا علم لهم ، أو لتزليل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس « قال ابن صوريا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا محمد ما جئتنا بشيء يعرف ، وما أنزل الله عليك من آية بينة ، فأنزل الله تعالى في ذلك (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) » وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد : والله ما عهد إلينا في محمد ولا أخذ علينا شيئاً ، فأنزل الله (أو كلما عاهدوا) الآية . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (آيات بينات) يقول : فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ الكتاب ، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، ففي ذلك عبرة لهم وحجة عليهم (لو كانوا يعلمون) . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (نبذه) قال : نقضه . وأخرج أيضاً عن السدي في قوله (مصدق لما معهم) قال : لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة ، واتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت ، كأنهم لا يعلمون بما في التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتصديقه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة ، فأشربتها قلوب الناس واتخذوها دواوين ، فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود ، فأخذها فدفعها تحت الكرسي ، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال : ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنوع ؟ قالوا : نعم ، فأخرجوه فإذا هو سحر ، فتناستها الأمم . وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال

(واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان) الآية . وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عنه قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا ، وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها ، فأكفروه جهال الناس وسبوه ووقف علماؤهم ، فلم يزل جهالهم يسبونهم حتى أنزل الله على محمد (واتبعوا ماتتلوا الشياطين) الآية وأخرج ابن جرير عنه قال : كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئا من شأنه أعطى الجرادة وهي امرأته خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي ، فأخذته فلبسه ، فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس ، فجاء سليمان فقال : هاتي خاتمي ، فقالت : كذبت لست سليمان ، فعرف أنه بلاء ابتلى به ، فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أخرجوها فقرءوها على الناس وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، فبريء الناس من سليمان وأكفروه حتى بعث الله محمداً وأنزل عليه (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وأخرج ابن جرير عنه في قوله (وما تتلوا) قال : ماتبع . وأخرج أيضاً عن عطاء في قوله (ماتتلوا) قال : نراه ما يحدث . وأخرج أيضاً عن ابن جريج في قوله (على ملك سليمان) يقول : في ملك سليمان . وأخرج أيضاً عن السدي في قوله (وما أنزل على الملكين) قال : هذا سحر آخر خاصموه به ، فإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علمته الإنس فصنع وعمل به كان سحرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وما أنزل على الملكين) قال : لم ينزل الله السحر . وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : هما ملكان من ملائكة السماء . وأخرج نحوه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا . وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن ابن عباس (وما أنزل على الملكين) يعني جبريل وميكائيل (بيابل هاروت وماروت) يعلمان الناس السحر . وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن البرز أنهما كانا يقرؤنها وما أنزل على الملكين داود وسليمان . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : هما علجان من أهل بابل . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أشرفت الملائكة على الدنيا ، فرأت بني آدم يعصون ، فقالت يارب ما أجهل هؤلاء ، ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك ، فقال الله : لو كنتم في محلاتهم لعصيتهموني ، قالوا : كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : فاختاروا منكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، ثم أهبطا إلى الأرض وركبت فيهما شهوات بني آدم ، ومثلت لهما امرأة فاعصما حتى واقعا المعصية ، فقال الله : اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فنظر أحدهما لصاحبه قال ماتقول ؟ قال : أقول إن عذاب الدنيا ينقطع وإن عذاب الآخرة لا ينقطع ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما اللذان ذكر الله في كتابه (وما أنزل على الملكين) الآية . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر أنه كان يقول : أطلعت الحمراء بعد فإذا رأها قال لامرجا ، ثم قال : إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سألا الله أن يهبطهما إلى الأرض ، فأهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس ، فإذا أمسيا تكلمتا بكلمات فعرجا بها إلى السماء ، فقيض لهما امرأة من أحسن النساء وألقيت عليهما الشهوة فجعلتا يوشرانها وألقيت في أنفسهما ، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعادا ، فأتتهما للميعاد فقالت : علماني الكلمة التي تعرجان بها ، فعلماهما الكلمة فتكلمتا بها فعرجتا إلى السماء فمسخت فجعلت كما ترون ، فلما أمسيا تكلمتا بالكلمة فلم يعرجا ، فبعث إليهما : إن شئكما فعذاب الآخرة وإن شئكما فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن

تلقيا الله ، فإن شاء عذبكما وإن شاء رحمكما ، فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال : بل نختار عذاب الدنيا ألف ألف ضعف ، فهما يعذبان إلى يوم القيامة . وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بالفاظ ، وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار ، كما أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب من طريق الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب قال : ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب ، فقيل لو كنتم مكانهم لأتيتم مثل ما يأتون ، فاختراروا منكم اثنين ، فاختراروا هاروت وماروت ، فقال لهما : إني أرسل إلى بني آدم رسلا فليس بيني وبينكم رسول ، انزلا لا تشركا بي شيئا ولا تزنيا ولا تشربا الخمر ، قال كعب : فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استعملا جميع ما نهيأ عنه . قال ابن كثير : وهذا أصح ، يعني من الإسنادين اللذين ذكرهما قبله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب قال : إن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة ، والعجم أناهيد ، وذكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر عند الحاكم . قال ابن كثير : وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جدا . وقد أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانت الزهرة امرأة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه : أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت ، فهي هذه الكوكبة الحمراء : يعني الزهرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عنه فذكر قصة طويلة ، وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر وزنيا بالمرأة وقتلاها . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وابن عباس هذه القصة وقالوا : إنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة وأنها وقعا في الخطيئة . وقد روى في هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاهما السيوطي في الدر المنثور ، وذكر ابن كثير في تفسيره بعضها ثم قال : وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . وحاصلها راجع في تفضيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل بالإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال انتهى . وقال القرطبي بعد سياق بعض ذلك : قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح منه شيء ، فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم ذكر ما معناه : أن العقل يجوز وقوع ذلك منهم ، لكن وقوع هذا الجائر لا يدرى إلا بالسمع ولم يصح انتهى . وأقول هذا مجرد استبعاد . وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه ، ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات ، وما ذكره من أن الأصول تدفع ذلك ، فعلى فرض وجود هذه الأصول فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة ولا وجه لمنع التخصيص ، وقد كان إبليس يملك المنزلة العظيمة وصار أشد البرية وأكفر العالمين . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (إنما نحن فتنة) قال : بلاء . وأخرج البزار بإسناد صحيح والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : «من أتى كاهنا أو ساحرا وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» . وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له ، ومن عقد عقدة ، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

«من تعلم شيئا من السحر قليلا أو كثيرا كان آخر عهده من الله». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (من خلاق) قال : قوام . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال (من خلاق) من نصيب ، وكذا روى ابن جرير عن مجاهد . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن (ماله في الآخرة من خلاق) قال : ليس له دين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (ولبئس ما شروا به) قال : باعوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (لثوبة) قال : ثواب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

قواه (راعنا) أى راقبنا واحفظنا وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى (راعنا) ارعنا ونرعاك واحفظنا ونحفظك وارقبنا ونرقبك ؛ ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك : أى فرغه لكلامنا ، وجه النهى عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبا ؛ قيل إنه في لغتهم بمعنى اسمع لاسمعت ؛ وقيل غير ذلك ، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة ، وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربى ، مبطنين أنهم يقصدون السب الذى هو معنى هذا اللفظ في لغتهم وفى ذلك دليل على أنه ينبغى تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشم سدأ للذريعة ودفعاً للوسيلة وقطعا لمادة المفسدة والتطرق إليه ، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال (وقولوا انظرونا) أى أقبل علينا وانظر إلينا ، فهو من باب الحذف والايصال ، كما قال الشاعر :

ظاهرات الجمال والحسن ينظر ن كما ينظر الأراك الظباء

أى إلى الأراك ، وقيل معناه انتظرونا وتأن بنا ، ومنه قول الشاعر :

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب

وقرأ الأعمش (أنظرونا) بقطع الهمزة وكسر الظاء بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ، ومنه قول الشاعر :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرونا نخبرك اليقينا

وقرأ الحسن (راعنا) بالتثنية ، وقال : الراعى من القول السخرى منه انتهى . وأمرهم بعد هذا النهى والأمر بأمر آخر وهو قوله (واسمعوا) أى اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه ، ومعناه : أطيعوا الله فى ترك خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك اللفظ وخاطبوه بما أمرتم به ، ويحتمل أن يكون معناه : اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة ، ثم توعد اليهود بقوله (وللكافرين عذاب أليم) ويحتمل أن يكون وعيدا شاملا لجنس الكفرة . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم (راعنا) لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم نظير الذى ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبة ، ولا

تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاى» وما أشبه ذلك . وقوله (ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية ، فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودّون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه ، ثم ردّ الله سبحانه ذلك عليهم فقال (والله يختص برحمته من يشاء) الآية . وقوله (أن ينزل) في محل نصب على المفعولية ، و « من » في قوله (من خير) زائدة ، قاله النحاس ، وفي الكشف أن « من » في قوله (من أهل الكتاب) بيانية ، وفي قوله (من خير) مزيدة لاستغراق الخير ، وفي قوله (من ربكم) لابتداء الغاية ، وقد قيل بأن الخير الوحي ؛ وقيل غير ذلك والظاهر أنهم لا يودّون أن ينزل على المسلمين أى خير كان ، فهو لا يختص بنوع معين كما يفيد وقوع هذه الثمرة في سياق النفي وتأكيد العموم بدخول « من » المزيدة عليها ، وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص . والرحمة قيل هي القرآن ؛ وقيل النبوة ؛ وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى (والله ذو الفضل العظيم) أى صاحب الفضل العظيم فكيف لا تودّون أن يختص برحمته من يشاء من عباده .

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود : أن رجلاً أتاه فقال : اعهد إلىّ فقال : إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأوعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شرّ ينهى عنه . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال (راعنا) بلسان اليهود : السبّ القبيح ، وكان اليهود يقولون ذلك لرسول الله سرّاً ، فلما سمعوا أصحابه يقولون ذلك أعلنوا بها ، فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم ، فأنزل الله الآية . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عنه أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه ، فانتهد اليهود بعد ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدي قال : كان رجلاً من اليهود : مالك بن الصيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قالاه وهما يكلماناه : راعنا سمعك واسمع غير مسمع ، فظنّ المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم ، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : فأنزل الله الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صخر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فقالوا : ارعنا سمعك ، فأعظم الله رسوله أن يقال له ذلك ، وأمرهم أن يقولوا (انظرونا) ليغزووا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويوقروه . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن قتادة : أن اليهود كانت تقول ذلك استهزاء ، فكره الله للمؤمنين أن يقولوا كقولهم وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الرحمة القرآن والإسلام .

مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

النسخ في كلام العرب على وجهين : أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً : أعني من اللوح المحفوظ ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية ، ومنه - إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون - أى تأمر بنسخه . الوجه الثاني الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ، وهذا الوجه الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل

اللغة : أحدهما إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله (ما ننسخ من آية) وفي صحيح مسلم « لم تكن نبوة قط إلا تناخت » أي تحولت من حال إلى حال . والثاني إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم : نسخت الريح الأثر ، ومن هذا المعنى - فينسخ الله ما يلقى الشيطان - أي يزيله . وروى عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب . ومنه ما روى عن أبي وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول . قال ابن فارس : للنسخ نسخ الكتاب ، والنسخ أن تزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره ، كالأية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى ، وكل شيء خلف شيئا فقد انتسخه : يقال نسخت الشمس الظل ، والشيب الشباب ، وناسخ الورثة أن يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث قائم ، وكذا تناسخ الأزمنة والقرون . وقال ابن جرير (ما ننسخ) ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره ، وذلك أن نحول الحلال حراما ، والحرام حلالا ، والمباح محظورا ، والمحظور مباحا ، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرى ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره ، وسواء نسخ حكمها أو خطها ، إذ هي في كلتي حالتها منسوخة انتهى . وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره ، بل نحيل من أراد الاستشفاء عليه . وقد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفا وخلفا ، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه ولا يؤبه لقوله . وقد اشتهر عن اليهود ، أقماهم الله ، إنكاره ، وهم محجوجون بما في التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : إني قد جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه ، ثم قد حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوان . وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من الأخت ، وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره . وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ، ثم قال الله له لا تذبحه ، وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم ، ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم . وقوله (أو ننسها) قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والهمز ، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأبي بن كعب وعبيد بن عمير والنخعي وابن محيصن ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم : نسأت هذا الأمر إذا أخرته . قال ابن فارس : ويقولون نسأ الله في أجلك وأنسأ الله أجلك . وقد انتسأ القوم إذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأتهم أنا أخرتهم ، وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها : أي نتركه في أم الكتاب فلا يكون . وقيل نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقر (ننسها) بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك : أي نتركها فلا نبذلها ولا ننسخها ، ومنه قوله تعالى - نسوا الله فنسيهم - أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الأزهري أن معناه نأمر بتركها يقال أنسيته الشيء : أي أمرته بتركه ، ونسيته تركته ، ومنه قول الشاعر :

إن على عقبة أقضيها لست بناسيها ولا منسيها

أي ولا أمر بتركها . وقال الزجاج : إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك ، لا يقال أنسى بمعنى ترك ، قال : وما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (أو ننسها) قال : نتركها لا نبذلها فلا يصح ، والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى (أو ننسها) نبيح لكم تركها من نسي إذا ترك ثم تعديه . ومعنى (نأت بخير منها أو مثلها

نأت بما هو أنفع للناس منها في العاجل والآجل ، أو في أحدهما ، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة ، ومرجع ذلك إلى إعمال النظر في المنسوخ والناسخ ، فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم في العاجل ، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع لهم في الآجل ، وقد يستويان فتحصل المماثلة . وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) يفيد أن النسخ من مقدوراته ، وأن إنكاره إنكار للقدر الإلهية ، وهكذا قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) أى له التصرف في السموات والأرض بالإيجاد والاختراع ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته ، فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبد بهم بها وشرعها لهم . وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأشخاص وهذا صنع من لا ولي لهم غيره ولا نصير سواه ، فعليهم أن يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والإجلال .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن عدى وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الوحي بالليل وينساه بالنهار ، فأنزل الله (ما ننسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها) وفي إسناده الحجاج الخزري ينظر فيه . وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال « قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانا يقرآن بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان فلم يقدر أحدهما على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنها مما نسخ أو نسي فاهوا عنها » وفي إسناده سليمان ابن أرقم وهو ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (ما ننسخ من آية أو ننسأها) يقول : ما تبدل من آية أو نتركها لا نبطلها (نأت بخير منها أو مثلها) يقول : خير لكم في المنفعة وأرفق بكم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال (ننسأها) نوخرها . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله (ما ننسخ من آية) قال : ثبت خطها ونبدل حكمها (أو ننسأها) قال : نوخرها . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير عن قتادة في قوله (نأت بخير منها أو مثلها) يقول فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبو ذر الهروي في فضائله عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف « أن رجلا كانت معه سورة ، فقام من الليل فقام بها فلم يقدر عليها ، وقام آخر فقام آخر فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فاتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاجتمعوا عنده فأخبروه ، فقال : إنها نسخت البارحة » وقد روى نحوه عنه من وجه آخر . وقد ثبت في البخاري وغيره عن أنس أن الله أنزل في الذين قتلوا في بدر معونة « أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ ، وهكذا ثبت في مسلم وغيره عن أبي موسى قال : كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها ، غير أني حفظت منها « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوفه إلا التراب » وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ، أولها - سبح لله ما في السموات - فأنسيتها ، غير أني حفظت منها « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة » وقد روى مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة ، ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر .

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ

كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ
اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

(أم) هذه هي المنقطة التي بمعنى بل : أى بل تريدون ، وفي هذا توبيخ وتقريع ، والكاف في قوله (كما
سئل) في موضع نصب نعت لمصدر محذوف : أى سؤالا مثل ما سئل موسى من قبل حيث سأله أن يريهم الله
جهرة ، وسألوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي بالله والملائكة قبيلا . وقوله (سواء) هو الوسط من كل شيء
قاله أبو عبيدة ، ومنه قوله تعالى - في سواء الجحيم - ومنه قول حسان يرثى النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

يا ويح أصحاب النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد

وقال الفراء : السواء القصد : أى ذهب عن قصد الطريق وسمته : أى طريق طاعة الله . وقوله تعالى (ود)
كثير من أهل الكتاب) فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنهم وردّهم عن الإسلام والتشكيك عليهم في دينهم .
وقوله (لو يردّونكم) في محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور . وقوله (من عند أنفسهم) يحتمل أن يتعلق
بقوله « ود » أى ودّوا ذلك من عند أنفسهم ، ويحتمل أن يتعلق بقوله (حسدا) أى حسدا ناشئا من عند أنفسهم ،
وهو علة لقوله « ود » . والعفو : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس ، صفحت عن فلان :
إذا أعرضت عن ذنبه ، وقد ضربت عنه صفحا : إذا أعرضت عنه ، وفيه الترغيب في ذلك والإرشاد إليه - وقد
نسخ ذلك بالأمر بالقتال ، قاله أبو عبيدة . وقوله (حتى يأتي الله بأمره) هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو
والصفح : أى افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه ، وما قد قضى به في
سابق علمه ، وهو قتل من قتل منهم ، وإجلاء من أجلى ، وضرب الجزية على من ضربت عليه ، وإسلام من
أسلم . وقوله (وأقيموا الصلاة) حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة ، من
إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : قال رافع بن حريملة ووهب ابن
زيد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا محمد ائتنا بكتاب ينزل علينا من السماء نقرأه أو فجر لنا أنهارا نتبعك
ونصدقك ، فأنزل الله في ذلك (أم تريدون أن تسألوا رسولكم - إلى قوله - سواء السبيل) وكان حي بن أخطب
من أشدّ اليهود حسدا للعرب إذ خصهم الله برسوله ، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل
الله فيهما (ود كثير من أهل الكتاب) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي قال : سألت
العرب محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتيهم بالله فيروه جهرة ، فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن
أبي حاتم عن أبي العالية قال : قال رجل : لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل ، فقال النبي صلى الله عليه وآله
وسلم : « ما أعطاكم الله خير ، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدّها مكتوبة على بابه وكفارتها ،
فإن كفرها كانت له خزايا في الدنيا ، وإن لم يكفرها كانت له خزايا في الآخرة . وقد أعطاكم الله خيرا من ذلك
قال - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه - الآية ، والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ، فأنزل الله

(أم تريدون أن تسألوا رسولكم) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : سألت قريش محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهابا ، فقال : نعم ، وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل إن كفرتهم ، فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أن يرهبهم الله جهرة . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) قال : يتبدل الشدة بالرخاء . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (فقد ضلّ سواء السبيل) قال : عدل عن السبيل . وأخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن كعب بن مالك قال : كان اليهود والمشركون من أهل المدينة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أشدّ الأذى ، فأمر الله بالصبر على ذلك والعفو عنهم ، وأنزل الله (ود كثير من أهل الكتاب) وفي الصحيحين وغيرهما عن أسامة بن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا - وقال - ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم الآية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله (من عند أنفسهم) قال : من قبل أنفسهم (من بعد ما تبين لهم الحق) يقول : إن محمدا رسول الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (فاعفوا واهضوا) وقوله - وأعرض عن المشركين - ونحو هذا في العفو عن المشركين قال : نسخ ذلك كله بقوله - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله - الآية ، وقوله - اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - . وأخرج ابن جرير عن السدي نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (وما تقدّموا لأنفسكم من خير) يعني من الأعمال من الخير في الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (تجلوه عند الله) قال : تجددوا ثوابه .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

قوله (هودا) قال الفراء : يجوز أن يكون هودا بمعنى يهوديا ، وأن يكون جمع هائد . وقال الأخفش : إن الضمير المفرد في كان هو باعتبار لفظ من ، والجمع في قوله «هودا» باعتبار معنى من ؛ قيل في هذا الكلام حذف ، وأصله : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . هكذا قال كثير من المفسرين ، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف . وظاهر النظم القرآن أن طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم ، ووجه القول بأن في الكلام حذف ما هو

معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلا عن دخول الجنة كما في هذا الموضع ، فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت : ليست النصراني على شيء ، وقالت النصراني ليست اليهود على شيء والأمانى قد تقدم تفسيرها ، والإشارة بقوله تلك إلى ما تقدم لهم من الأمانى التي آخرها أنه لا يدخل الجنة غيرهم . وقيل إن الإشارة إلى هذه الأمانة الآخرة ، والتقدير أمثال تلك الأمانة أمانيتهم على حذف المضاف ليطلق أمانيتهم ، قوله (هاتوا) أصله هاتوا حذف الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين ، ويقال للمفرد المذكور هات وللمؤنث هاتي ، وهو صوت بمعنى احضر . والبرهان : الدليل الذي يحصل عنده اليقين . قال ابن جرير : طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه . وقوله (إن كنتم صادقين) أى فى تلك الأمانى المجردة والدعوى الباطلة ، ثم رد عليهم فقال (بلى من أسلم) وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة : أى ليس كما يقولون بل يدخلها من أسلم وجهه لله . ومعنى أسلم : استسلم ؛ وقيل أخلص . وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان ولأنه موضع الخواص الظاهرة ، وفيه يظهر العز والذل ؛ وقيل إن العرب تنجر بالوجه عن جملة الشيء ، وأن المعنى هنا الوجه وغيره ؛ وقيل المراد بالوجه هنا المقصد : أى من أخلص مقصده وقوله (وهو محسن) فى محل نصب على الحال ، والضمير فى قوله (وجهه) (وله) باعتبار لفظ من ، وفى قوله (عليهم) باعتبار معناها . وقوله (من) إن كانت الموصولة فهى فاعل لفعل محذوف أى بلى يدخلها من أسلم . وقوله (فله) معطوف على « من أسلم » وإن كانت من شرطية فقوله « فله » هو الجزاء ، ومجموع الشرط والجزاء رد على أهل الكتاب وإبطال لتلك الدعوى . وقوله (وقالت اليهود) وما بعده فيه أن كل طائفة تنفى الخير عن الأخرى ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجرا لرحمة الله سبحانه . قال فى الكشف : إن الشيء هو الذى يصح ويعتد به ، قال وهذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء ، وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ فى ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده ، وهكذا قولهم أقل من لاشيء . وقوله (وهم يتلون الكتاب) أى التوراة والإنجيل والجملة الحالية ؛ وقيل المراد جنس الكتاب ، وفى هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع ، لأن الوقوع فى الدعوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو وإن كان قبيحا على الإطلاق لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشد قبحا وأفظع جرما وأعظم ذنبا . وقوله (كذلك قال الذين لا يعلمون) المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا مثل مقالة اليهود اقتداء بهم لأنهم جهلة لا يقدر على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم ، وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى وهم الذين لا علم عندهم ، ثم أخبرنا سبحانه بأنه المتولى لفصل هذه الخصومة التى وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه فيعذب من يستحق التعذيب وينجى من يستحق النجاة :

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (وقالوا لن يدخل الجنة) الآية ، قال : قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصراني لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا (تلك أمانيتهم) قال : أمانى يتمنونها على الله بغير حق (قل هاتوا برهانكم) قال : حجتكم (إن كنتم صادقين) بما تقولونه أنه كما تقولون (بلى من أسلم وجهه لله) يقول : أخلص لله . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (قل هاتوا برهانكم) قال : حجتكم وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة فى قوله (بلى من أسلم وجهه) قال : أخلص دينه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما قدم وقد نجران من النصراني على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتتهم أخبار اليهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء

وكفر بعيسى والإنجيل ، فقال له رجل من أهل نجران : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، قال : فأنزل الله في ذلك (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب) أى كل يتلو في كتابه تصديق من كفر به . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : هم العرب قالوا ليس محمد على شيء .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)
وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمُتَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم : أى لأحد أظلم ممن منع مساجد الله ، واسم الاستفهام في محل رفع على الابتداء وأظلم خبره . وقوله (أن يذكر فيها اسمه) قيل هو بدل من مساجد - وقيل إنه مفعول له بتقدير كراهية أن يذكر ؛ وقيل إن التقدير من أن يذكر ، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام ؛ وقيل إنه مفعول ثان لقوله (منع) والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه . والمراد بالسعى في خرابها : هو السعى في هدمها ورفع بنيانها ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها فيكون أعم من قوله (أن يذكر فيها اسمه) فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد كتعليم العلم وتعليمه ، والقعود للاعتكاف ، وانتظار الصلاة ؛ ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما قيل في قوله تعالى - إنما يعمر مساجد الله - . وقوله (ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) أى ما كان ينبغي لهم دخولها إلا حال خوفهم ، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد ، وبين كافر وكافر ، كما يفيدته عموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب ، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يفتن لهم أحد من المسامحين فيزولون بهم ما يوجب الإهانة والإذلال ، وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم ، بل هو كناية عن المنع لهم من دخول مساجدنا . والخزى : قيل هو ضرب الجزية عليهم وإذلالهم ، وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تفسيره . والمشرق . : موضع الشروق . والمغرب : موضع الغروب : أى هما ملك لله وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الأرض كلها . وقوله (فأينما تولوا) أى أى جهة تستقبلونها فهناك وجه الله : أى المكان الذي يرتضى لكم استقباله ، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه - فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره - قال في الكشف : والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام : أى في بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجدا ، فصلوا في أى بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها ، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا تختص أماكنها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان انتهى . وهذا التخصيص لا وجه له فإن اللفظ أوسع منه . وإن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس . وقوله (إن الله واسع عليم) فيه إرشاد إلى سعة رحمته . وأنه يوسع على عباده في دينهم ولا يكلفهم ما ليس

في وسعهم ؛ وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شيء كما قال - وسع كل شيء علما - وقال الفراء : الواسع الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشا منعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزل الله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : هم النصارى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : هم الروم كانوا ظاهرُوا بختنصر على خراب بيت المقدس . وفي قوله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) قال : فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه ، وقد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها . وفي قوله (لهم في الدنيا خزي) قال : أما خزيهم في الدنيا فإنه إذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية قتلهم فذلك الخزي . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنهم الروم . وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب : أنهم النصارى لما أظهروا على بيت المقدس حرقوه . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : هم المشركون حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن البيت يوم الحديبية . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح قال : ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (لهم في الدنيا خزي) قال : يعطون الجزية عن يدهم صاغرون . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة ، قال الله تعالى (والله المشرق والمغرب) الآية ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه الله إلى البيت العتيق ونسخها فقال - ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام - . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به ، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية (أينما تولوا فثم وجه الله) وقال في هذا أنزلت هذه الآية . وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطني والحاكم وصححه . وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يصلي على راحلته قبل المشرق ، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى . وروى نحوه من حديث أنس مرفوعاً أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود . وأخرج عبد بن حميد والترمذي وضعفه وابن ماجه وابن جرير وغيرهم عن عامر ابن ربيعة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة ، فقلنا : يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله (والله المشرق والمغرب) الآية ، فقال : مضت صلاتكم . وأخرج الدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن جابر مرفوعاً نحوه إلا أنه ذكر أنهم خطوا خطوطاً . وأخرج نحوه ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . وأخرج نحوه أيضاً سعيد بن منصور وابن المنذر عن عطاء يرفعه وهو مرسل . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (فثم وجه الله) قال : قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً . وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ما بين المشرق والمغرب قبلة » . وأخرج ابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن عمر نحوه .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)
بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

قوله (وقالوا) هم اليهود والنصارى - وقيل اليهود : أى قالوا - عزيز ابن الله - وقيل النصارى : أى - قالوا
المسيح ابن الله - وقيل : هم كفار العرب : أى قالوا للملائكة بنات الله . وقوله (سبحانه) قد تقدم تفسيره ، والمراد
هنا تبرؤ الله تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد . وقوله (بل له ما فى السموات والأرض) رد على القائلين بأنه
اتخذ ولدا : أى بل هو مالك لما فى السموات والأرض ، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه ، والولد من جنسهم
لا من جنسه ، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد . والقانت : المطيع الخاضع : أى كل من فى السموات والأرض
مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله ، وللقنوت فى أصل اللغة أصله القيام . قال الزجاج : فالخلق قانتون
أى قائمون بالعبودية إما إقرارا وإما أن يكونوا على خلاف ذلك ، فأثر الصنعة بين عليهم ؛ وقيل أصله الطاعة ،
ومنه - والقانتين والقانتات - وقيل السكون ، ومنه قوله - وقوموا لله قانتين - ولهذا قال زيد بن أرقم : كنا نتكلم
فى الصلاة حتى نزلت - وقوموا لله قانتين - فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام ؛ وقيل القنوت : الصلاة ، ومنه
قول الشاعر :

قانتا لله يتلو كتبه وعلى عمد من الناس اعتزل

والأول أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة ؛ قيل هى ثلاثة عشر معنى ، وهى مبينة . وقد نظمها بعض أهل
العلم كما أوضحت ذلك فى شرحى على المنتقى . وبديع : فعيل للمبالغة وهو خبر مبتدأ ، محذوف : أى هو بديع
سمواته وأرضه ، أبداع الشيء : أنشأه لاعتى مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع . وقوله (وإذا
قضى أمرا) أى أحكمه وأتقنه . قال الأزهري : قضى فى اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه ،
قيل هو مشترك بين معان ، يقال قضى بمعنى خلق ، ومنه - فقضاهن سبع سموات - وبمعنى أعلم ، ومنه - وقضينا
إلى بنى إسرائيل فى الكتاب - وبمعنى أمر ، ومنه - وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه - وبمعنى ألزم ، ومنه : قضى
عليه القاضى ، وبمعنى أوفاه ، ومنه - فلما قضى موسى الأجل - وبمعنى أراد ومنه - فإذا قضى أمرا فإنما يقول له
كن فيكون - . والأمر واحد الأمور . وقد ورد فى القرآن على أربعة عشر معنى : الأول الدين ، ومنه - حتى
جاء الحق وظهر أمر الله - . الثانى بمعنى القول ، ومنه - فإذا جاء أمرنا - . الثالث العذاب ، ومنه - لما قضى الأمر -
الرابع عيسى ، ومنه - فإذا قضى أمرا - أى أوجد عيسى عليه السلام . الخامس القتل ، ومنه - فإذا جاء أمر الله
السادس فتح مكة ، ومنه - فتربصوا حتى يأتى الله بأمره - . السابع قتل بنى قريظة وإجلاء النصير ، ومنه - فاعفوا
وأصفحوا حتى يأتى الله بأمره - . الثامن القيامة ، ومنه - أتى أمر الله - . التاسع القضاء ، ومنه - يدبر الأمر - .
العاشر الوحي ، ومنه - ينزل الأمر بينهن - . الحادى عشر أمر الخلائق ، ومنه - ألا إلى الله تصير الأمور - .
الثانى عشر النصر ، ومنه - هل لنا من الأمر من شيء - . الثالث عشر الذنب ، ومنه - فذاقت وبال أمرها -

الرابع عشر الشأن ، ومنه - وما أمر فرعون برشيد - هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين وليس تحت ذلك كثير فائدة ، وإطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها . وقوله (فإنما يقول له كن فيكون) الظاهر في هذا المعنى الحقيقي ، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ ، وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله ، ومنه قوله تعالى - إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون - وقال تعالى - إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون - وقال - وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر - ومنه قول الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له كن قوله فيكون

وقد قيل إن ذلك مجاز ، وأنه لا قول وإنما هو قضاء يقضيه ، فعبّر عنه بالقول ، ومنه قول الشاعر ، وهو عمر ابن حمة الدوسي :

فأصبحت مثل النسر طار فراخه إذا رام تطيارا يقال له قع

وقال آخر : قالت جناحه لساقيه الحقا ونجيا لحكمكما أن يمزقا

والمراد بقوله (وقال الذين لا يعلمون) اليهود ؛ وقيل النصارى ، ورجحه ابن جرير لأنهم المذكورون في الآية ؛ وقيل مشركو العرب ، و(لولا) حرف تضيض : أي هلا (يكلمنا الله) بنبوة محمد فنعلم أنه نبي (أو تأتينا) بذلك علامة على نبوته . والمراد بقوله (قال الذين من قبلهم) قيل هم اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب ، أو الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى ، أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى (تشابهت) أي في التعنت والاقتراح ، وقال الفراء (تشابهت) في اتفاقهم على الكفر (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أي يعترفون بالحق وينصفون في القول ويدعون لأوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم .

وقد أخرج البخاري من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله تعالى « كذبنى ابن آدم وشتمني ، فأما تكذيبه إياي فيزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقول له ولد فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولدا » . وأخرج نحوه أيضا من حديث أبي هريرة ، وفي الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (سبحان الله) قال : تنزيه الله نفسه عن السوء . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن موسى بن طلحة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن التسبيح أن يقول الإنسان : سبحان الله ، قال : برأه الله من السوء . وأخرجه الحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه عن جده طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير سبحان الله ، فقال : هو تنزيه الله من كل سوء . وأخرجه ابن مردويه عنه من طريق أخرى مرفوعا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (كل له قانتون) قال مطيعون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (بديع السموات والأرض يقول : ابتدع خلقهما ولم يشركه في خلقهما أحد . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله

فليكن لنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك (وقال الذين لا يعلمون) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنهم كفار العرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : هم النصارى والذين من قبلهم يهود .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنْ آتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

قوله (بشير او نذير) يحتمل أن يكون منصوبا على الحال ، ويحتمل أن يكون مفعولا له : أى أرسلناك لأجل التبشير والانذار . وقوله (ولا تسئل) قرأه الجمهور بالرفع مبنيًا للمجهول : أى حال كونك غير مسئول ، وقرئ بالرفع مبنيًا للمعلوم . قال الأخفش : ويكون في موضع الحال عطفًا على (بشير او نذير) أى حال كونك غير سائل عنهم ، لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم ، وقرأ نافع (ولا تسئل) بالجزم : أى لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء أو لا يصدر منك السؤال عن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه : أى أن هذا أمر فظيع وخطب شنيع ، يتعاطى المتكلم أن يجريه على لسانه أو يتعاطى السامع أن يسمعه . قوله (ولن ترضى عنك اليهود) الآية : أى ليس غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقتضونه عليك من الآيات ويوردونه من التعتات ، فإنه لو جشتم بكل ما يقتضونه وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك ، ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل في دينهم ويتبع ملتهم . والملة : اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسن أنبيائه وهكذا الشريعة ، ثم رد عليهم سبحانه فأمره بأن يقول لهم (إن هدى الله هو الهدى) الحقيقى ، لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن اتبع أهواءهم وحاول رضاهم وأتعب نفسه في طلب ما يوافقهم ، ويحتمل أن يكون تعريضا لأمتهم وتحذيرا لهم أن يوافقوا شيئا من ذلك ، أو يدخلوا في أهوية أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع . وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة ، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ، ترك الدهان لأهل البدع المتتمذهين بمذاهب السوء ، التاركين للعمل بالكتاب والسنة ، المؤثرين لمحض الرأى عليهما ، فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه لنا لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله والوقوع في حباله ، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما فى كتابه وسنة رسوله ، لا ما هم عليه من تلك البدع التى هى ضلالة محضة ، وجهالة بينة ورأى منهار ، وتقليد على شفا جرف هار ، فهو إذ ذاك ماله من الله من ولى ولا نصير ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة وهالك بلا شك ولا شبهة . وقوله (الذين آتيناهم الكتاب) قيل : هم المسلمون والكتاب هو القرآن ، وقيل من أسلم من أهل الكتاب ، والمراد بقوله (يتلون) أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله

ويحرمون حرامه ، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه ، ومنه قوله تعالى - والقمر إذا تلاها - أى اتبعها كذا قيل ، ويحتمل أن يكون من التلاوة : أى يقرءونه حق قراءته لا يحرفونه ولا يبدلون. وقوله (الذين آتيناهم الكتاب) مبتدأ وخبره (يتلون) أو الخبر قوله (أولئك) مع ما بعده .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ليت شعري ما فعل أبواي » فنزل (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) فما ذكرهما حتى توفاه الله . قال السيوطي : هذا مرسل ضعيف الإسناد . ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبي عاصم مرفوعا وقال : هو معضل الإسناد ضعيف لا تقوم به ولا بالذى قبله حجة . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال (الجحيم) ما عظم من النار . وأخرج الثعلبي عن ابن عباس قال : إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبلتهم فلما صُرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم . فأنزل الله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) الآية . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله (الذين آتيناهم الكتاب) قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (يتلون حق تلاوته) قال : يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه . وأخرجوا عنه أيضا قال : يتبعونه حق اتباعه ، ثم قرءوا - والقمر إذا تلاها - يقول اتبعها . وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال في قوله (يتلون حق تلاوته) إذا مرّ بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مرّ بذكر النار تعوذ بالله من النار . وأخرج الخطيب في كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (يتلون حق تلاوته) قال : يتبعونه حق اتباعه ، وكذا قال القرطبي في تفسيره أن في إسناده مجاهيل ، قال : لكن معناه صحيح . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير من طرق عن ابن مسعود في تفسيره هذه الآية مثل ما سبق عن ابن عباس في قوله (يحلون حلاله) إلى آخره . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : يتكلمون به كما أنزل ولا يكتُمونه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في هذه الآية قال : هم أصحاب محمد ، ثم حكى نحو ذلك عن عمر بن الخطاب . وأخرج وكيع وابن جرير عن الحسن في قوله (يتلون حق تلاوته) قال : يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

قوله (يابني إسرائيل - إلى قوله - ولا هم ينصرون) قد سبق مثل هذا في صدر السورة ، وتقدم تفسيره ، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي ، ذكر معناه ابن كثير في تفسيره . وقال البقاعي في تفسيره : إنه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم ، وختم ذلك بالترهيب لتضييع

أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم ، أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم ، والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم ، ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم ، ليعلم أن ذلك فذلك القصة ، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة انتهى . وأقول : ليس هذا بشيء ، فإنه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار ، والأحق بإعادة الذكر هو قوله سبحانه - يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون - فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم في هذه السورة هي أيضا أولى بأن تعاد وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم والوفاء بالعهد والرهبة لله سبحانه ، وبهذا تعرف صحة ما قد مناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني إسرائيل من هذه السورة فراجعه ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الخواري أنه قال : كرره تعالى إظهارا لمقصد الثناء آخر الخطاب بأوله ، ولينخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلا لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمه يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية فيتلوها ليكون في تلاوته جامعا لطرفي الثناء ، وفي تفهيمه جامعا لمعاني طرفي المعنى انتهى . وأقول : لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك . وأما قوله ولينخذ ذلك أصلا لما يرد من التكرار في سائر القرآن فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقرره في الأفهام لا يختص بتكرير آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها ، فلم تم حينئذ النكتة في تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما ، والله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تدركها العقول ، فليس في تكليف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هنالك فتذكر . قوله (وإذا ابتلي) الابتلاء : الامتحان والاختبار : أي ابتلاه بما أمره به ، و (إبراهيم) معناه في السريانية أب رحيم ، كذا قال الماوردي . قال ابن عطية : ومعناه في العربية ذلك . قال السهيلي : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي . وقد أورد صاحب الكشف هنا سؤالا في رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير ، وأجاب عنه بأنه قد تقدم لفظا فرجع إليه ، والأمر في هذا أوضح من أن يشتغل بذكره ، أو ترد في مثله الأسئلة أو يسود وجه القرطاس بإيضاحه . وقوله (بكلمات) قد اختلف العلماء في تعيينها ، فقيل هي شرائع الإسلام ، وقيل ذبح ابنه ، وقيل أداء الرسالة ، وقيل هي خصال الفطرة ، وقيل هي قوله - إني جاعلك للناس إماما - وقيل بالطهارة كما سيأتي بيانه . قال الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم انتهى . وظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله (إني جاعلك) وما بعده ، ويكون ذلك بيانا للكلمات ، وسيأتي عن بعض السلف ما يوافق ذلك ، وعن آخرين ما يخالفه . وعلى هذا فيكون قوله (إني جاعلك) مستأنفا كأنه ماذا قال له . وقال ابن جرير ما حاصله إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بجديد أو إجماع ، ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له ، ثم قال : فلو قال قائل إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب : يعني أن الكلمات هي قوله (إني جاعلك للناس إماما) وقوله (وعهدنا إلى إبراهيم) وما بعده . ورجح ابن كثير أنها تشمل جميع ما ذكر ، وسيأتي التصريح بما هو الحق بعد إيراد ماورد عن السلف الصالح . وقوله (فأتهمن) أي قام بهن أتم قيام ، وامتثل أكمل امتثال . والإمام : هو ما يؤتم به ، ومنه قيل للطريق إمام وللبناء إمام ، لأنه يؤتم بذلك : أي يهتدى به السالك ؛ والإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ . وقوله (ومن ذريتي) يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم ، أي واجعل من ذريتي أئمة ، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام وإن لم يكن بصيغته : أي ومن

ذرتي ماذا يكون يارب؟ فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك ولا يقومون به ولا ينالهم عهد الله سبحانه. والذرية مأخوذة من الذرة، لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذرة، وقيل مأخوذة من ذرأ الله الخلق يذروهم إذا خلقهم. وفي الكتاب العزيز - فأصبح هشيأ تذروه الرياح - قال في الصحاح: ذرت الريح السحاب وغيره تذروه وتذريه ذروا وذريا: أي نسفته؛ وقال الخليل: إنما سموا ذرية لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر. واختلف في المراد بالعهد فقيل الإمامة؛ وقيل النبوة؛ وقيل عهد الله أمره؛ وقيل الأمان من عذاب الآخرة، ورجحه الزجاج والأول أظهر كما يفيد السياق. وقد استدلل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد، لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالما. ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد وماتفيده الإضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية. وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالما، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه انتهى. ولا يخفاه أنه لا جدوى لكلامه هذا. فالأولى أن يقال إن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالما، وإنما قلنا إنه في معنى الأمر لأن أخباره تعالى لا يجوز أن تتخلف. وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة وغيرها كثيرا من الظالمين. قوله (وإذ جعلنا البيت) هو الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، و(مثابة) مصدر من ثاب يثوب مثابا ومثابة، أي مرجعا يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، ومنه قول ورقة بن نوفل في الكعبة: مثاب لأقفاء القبائل كلها تختب إليها العملات الذوابل

وقرأ الأعمش «مثابات» وقيل المثابة من الثواب: أي يثابون هنالك. وقال مجاهد: المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الشاعر:

جعل البيت مثابات لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر

قال الأخفش: ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه فهي كعلامة ونسابة. وقال غيره: هي للتأنيث وليست للمبالغة. وقوله (وأما) هو اسم مكان: أي موضع أمن. وقد استدلل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى - ومن دخله كان آمنا - وقيل إن ذلك منسوخ. وقوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على أنه فعل ماض: أي جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوه مصلى. وقرأ الباقر على صيغة الأمر عطفًا على اذكروا المذكور أول الآيات، أو على اذكروا المقدّر عاملا في قوله (وإذ) ويجوز أن يكون على تقدير القول: أي وقلنا اتخذوا. والمقام في اللغة: موضع القيام. قال النحاس: هو من قام يقوم، يكون مصدرا واسما للموضع، ومقام من أقام، وليس من هذا قول الشاعر:

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل

لأن معناه أهل مقامات. واختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس ويصلون عنده ركعتي الطواف؛ وقيل المقام الحج كله، روى ذلك عن عطاء ومجاهد؛ وقيل عرفة والمزدلفة، روى عن عطاء أيضا. وقال الشعبي: الحرم كله مقام إبراهيم. وروى عن مجاهد:

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي

في سننه عن ابن عباس في قوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه) قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس في الرأس ؛ وخمس في الجسد . في الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق والسواك ، وفرق الرأس ؛ وفي الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عنه نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عنه قال : ما ابتلى أحد بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم . وقرأ هذه الآية فقل له : ما الكلمات ؟ قال : سهام الإسلام ثلاثون سهما : عشرة في براءة - الثابتون العابدون - إلى آخر الآية ، وعشرة في أول سورة قد أفلح - وسأل سائل - والذين يصدّقون بيوم الدين - الآيات ، وعشرة في الأحزاب - إن المسلمين - إلى آخر الآية ، (فأتهمن) فكتب له براءة قال تعالى - وإبراهيم الذي وفى - . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم عنه قال : منهنّ مناسك الحج . وأخرج ابن جرير عنه قال : الكلمات (إني جاعلك للناس إماما - وإذ يرفع إبراهيم القواعد) والآيات في شأن المناسك ، والمقام الذي جعل لإبراهيم ، والرزق الذي رزق ساكنو البيت وبعث محمد في ذريتهما . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد في قوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال : ابتلى بالآيات التي بعدها . وأخرج أيضا عن الشعبي مثله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلى بهنّ إبراهيم فأتهمنّ : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقهم ، ومحاботه نمرود في الله حين وقفه على ماوقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلاقهم ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليجرقوه في الله ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها ، وما ابتلى به من ذبح ولده ؛ فلما مضى على ذلك كله (قال) الله (له أسلم قال أسلمت لرب العالمين) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فأتهمن) قال : فأداهنّ . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من فطرة إبراهيم السواك » قلت : وهذا على تقدير أن إسناده إلى عطاء صحيح فهو مرسل لا تقوم به الحجة ، ولا يحلّ الاعتماد على مثله في تفسيره كلام الله سبحانه ، وهكذا لا يحلّ الاعتماد على مثل ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : من فطرة إبراهيم غسل الذكر والبراجم ، ومثل ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عنه قال : ست من فطرة إبراهيم : قص الشارب ، والسواك ، والفرق ، وقص الأظفار ، والاستنجاء ، وحلق العانة ، قال : ثلاثة في الرأس - وثلاثة في الجسد . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة ، ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم . وأحسن ما روى عنه ما أخرجه الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقصّ أو يأخذ من شاربته . قال : وكان خليل الرحمن إبراهيم يفعل . ولا يخفّاك أن فعل الخليل له لا يستلزم أنه من الكلمات التي ابتلى بها ، وإذا لم يصح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين ملك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول : إنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه بقوله (قال إني جاعلك) إلى آخر الآيات ، ويكون ذلك بيانا للكلمات أو السكوت وإحالة العلم في ذلك على الله سبحانه . وأما روى عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم

في تعيينها ، فهو أولا أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة فضلا عن أقوال من بعدهم ، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك ، وأن له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعيين اختلافا يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم دون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس ، فكيف يجوز العمل بذلك - وبهذا تعرف ضعف قول من قال : إنه يصار إلى العموم ويقال تلك الكلمات هي جميع ما ذكر هنا ، فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس (قال إني جاعلك للناس إماما) يقتدى بدينك وهديك وسنتك (قال ومن ذريتي) إماما لغير ذريتي (قال لا ينال عهدى الظالمين) أن يقتدى بدينهم وهديهم وسنتهم . وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عنه قال : قال الله لإبراهيم (إني جاعلك للناس إماما) قال ومن ذريتي (فأبى أن يفعل ، ثم قال (لا ينال عهدى الظالمين) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهد ظالما ، فأما في الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمون وغازوهم وناكحوهم ، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في تفسير الآية أنه قال : لا أجعل إماما ظالما يقتدى به . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : يخبره أنه إن كان في ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئا من أمره . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أنه قال : ليس لظالم عليك عهد في معصية الله . وقد أخرج وكيع وابن مردويه من حديث عليّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (لا ينال عهدى الظالمين) قال : لاطاعة إلا في المعروف ، وإسناده عند ابن مردويه هكذا : قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد ، حدثنا أحمد بن عبد الله ابن سعد الأسدي ، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني ، حدثنا وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكره . وأخرج عبد بن حميد من حديث عمران بن حصين سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لاطاعة لخلق في معصية الله » وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : ليس للظالم عهد وإن عاهدته فانقضه . قال ابن كثير : وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل وابن حبان نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (مثابة للناس وأمنا) قال : يثوبون إليه ثم يرجعون . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : لا يقضون منه وطرا يأتونه ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وأمنا) قال : أمنا للناس . وأخرج البخاري وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال : وافقت ربي في ثلاث ووافقتني ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب - واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساؤه في الغيرة ، فقلت لهن - عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن - فنزلت كذلك . وأخرجه مسلم وغيره مختصرا من حديث ابن عمر عنه . وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا ، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) » وفي مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة في الأمهات وغيرها ، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار ، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه ، كما في البخاري من حديث ابن عباس ، وهو الذي كان ملصقا بجدار الكعبة . وأول من نقله عمر بن الخطاب كما

أخرجه عبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة . وأخرج ابن أبي حاتم من حديث جابر في وصف حج النبي صلى الله عليه وآله قال : لما طاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له عمر : هذا مقام إبراهيم ؟ قال : نعم . وأخرج نحوه ابن مردويه .

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ
مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

قوله (عهدنا) معناه هنا : أمرنا أو أوجبنا . وقوله (أن طهرا) في موضع نصب بنزع الخافض : أى بأن
طهرا قاله الكوفيون ؛ وقال سيديويه : هو بتقدير أى المفسرة : أى أن طهرا فلا موضع لها من الإعراب ، والمراد
بالطهير قيل من الأوثان ؛ وقيل من الآفات والريب ؛ وقيل من الكفار ؛ وقيل من النجاسات وطواف الحنب
والخائف وكل خبيث . والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع ، وأن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير
فهو يتناوله إما تناولا شموليا أو بدليا ، والإضافة في قوله (بيتي) للتشريف والتكريم ؛ وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق
وأهل المدينة وهشام وحفص « بيتي » بفتح الياء ، وقرأ الآخرون بإسكانها . والطائف : الذى يطوف به ؛ وقيل
الغريب الطارئ على مكة . والعاكف : المقيم : وأصل العكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشيء ؛ وقيل
هو المجاور دون المقيم من أهلها . والمراد بقوله (الركع السجود) المصلون ، وخص هذين الركنين بالذكر لأنهما
أشرف أركان الصلاة . وقوله (وإذ قال إبراهيم) ستأتى الأحاديث الدالة على أن إبراهيم هو الذى حرّم مكة ،
والأحاديث الدالة على أن الله حرّمها يوم خلق السموات والأرض والجمع بين هذه الأحاديث فى هذا البحث .
وقوله (بلدا آمنا) أى مكة ، والمراد : الدعاء لأهله من ذريته وغيرهم كقوله - عيشة راضية - أى راض صاحبها .
وقوله (من آمن) بدل من قول أهله : أى أرزق من آمن من أهله دون من كفر . وقوله (ومن كفر) الظاهر أن
هذا من كلام الله سبحانه ردّا على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم : أى وأرزق من كفر فأمتعه
بالرزق قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار ؛ ويحتمل أن يكون كلاما مستقلا بيانا لحال من كفر ، ويكون فى حكم
الإخبار عن حال الكافرين بهذه الحملة الشرطية : أى من كفر فإنى أمتعه فى هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق (ثم
أضطره) بعد هذا التمتع (إلى عذاب النار) فأخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير إلا تمتيعهم فى هذه الدنيا ،
وليس لهم بعد ذلك إلا ما هو شرّ محض وهو عذاب النار ؛ وأما على قراءة من قرأ (فأمتعه) بصيغة الأمر وكذلك
قوله (ثم أضطره) بصيغة الأمر فهى مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم ، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين
دعا للكافرين بالإمتاع قليلا ، ثم دعا عليهم بأن يضطرهم إلى عذاب النار . ومعنى (أضطره) ألزمه حتى صيره

مضطرا لذلك لا يجد عنه مخلصا ، ولا منه متحوّلا . قوله (وإذ يرفع) هو حكاية لحال ماضية استحضارا لصورتها العجيبة . والقواعد : الأساس ، قاله أبو عبيدة والفراء . وقال الكسائي : هي الجدر . والمراد برفعها رفع ما هو مبنى فوقها لا رفعها في نفسها فإنها لم ترتفع ، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه ، كما يقال ارتفع البناء ، ولا يقال ارتفع أعلى البناء ولا أسافله . قوله (ربنا تقبل منا) في محل الحال بتقدير القول : أي قائلين ربنا . وقرأ أبي وابن مسعود « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا » . وقوله (واجعلنا مسلمين لك) أي اجعلنا ثابتين عليه أو زدنا منه - قيل المراد بالإسلام هنا مجموع الإيمان والأعمال . وقوله (ومن ذريتنا) أي واجعل من ذريتنا ، و « من » للتبويض أو للتبيين . وقال ابن جرير : إنه أراد بالذرية العرب خاصة ، وكذا قال السهيلي . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به . والأمة : الجماعة في هذا الموضع ، وقد تطلق على الواحد ، ومنه قوله تعالى - إن إبراهيم كان أمة قانتا لله - وتطلق على الدين ومنه - إنا وجدنا آباءنا على أمة - وتطلق على الزمان ، ومنه - وادكر بعد أمة - . وقوله (وأرنا مناسكنا) هي من الرواية البصرية . وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير وابن محيصن وغيرهم « أرنا » بسكون الراء ، ومنه قول الشاعر :

أرنا إداوة عبد الله يملؤها من ماء زمزم إن القوم قد ظمئوا

والمناسك جمع نسك ، وأصله في اللغة : الغسل ، يقال نسك ثوبه : إذا غسله . وهو في الشرع اسم للعبادة ، والمراد هنا مناسك الحج ؛ وقيل مواضع الذبح ؛ وقيل جميع المتعبدات . وقوله (وتب علينا) قيل المراد بطلبهما للتوبة التثبيت ، لأنهما معصومان لا ذنب لهما ؛ وقيل المراد تب على الظلمة منا .

وقد أخرج ابن جرير عن عطاء قال (وعهدنا إلى إبراهيم) أي أمرناه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أن طهرا بيتي) قال : من الأوثان . وأخرج أيضا عن مجاهد وسعيد بن جبير مثله ، وزادوا الريب وقول الزور والرجس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إذا كان قائما فهو من الطائفين ، وإذا كان جالسا فهو من العاكفين ، وإذا كان مصليا فهو من الركع السجود . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال : هم العاكفون . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « إن إبراهيم حرّم مكة ، وإنّي حرّمت المدينة ما بين لابتيها ، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضائها » كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث جابر . وقد روى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق جماعة من الصحابة ، منهم رافع بن خديج عند مسلم وغيره ، ومنهم أبو قتادة عند أحمد ، ومنهم أنس عند الشيخين ، ومنهم أبو هريرة عند مسلم ، ومنهم علي بن أبي طالب عند الطبراني في الأوسط ، ومنهم أسامة بن زيد عند أحمد والبخاري ، ومنهم عائشة عند البخاري . وثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض وهي حرام إلى يوم القيامة » أخرجه البخاري تعليقا ، وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة . وأخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس . وأخرجه الشيخان وأهل السنن من حديث أبي هريرة ، وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا ، ولا تعارض بين هذه الأحاديث ، فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرّمها وأنها لم تزل حرما آمنا نسب إليه أنه حرّمها : أي أظهر للناس حكم الله فيها ، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية وابن كثير . وقال ابن جرير :

إنها كانت حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرّمها وتعبدهم بذلك انتهى . وكلا الجمعين حسن . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي قال : بلغني أنه لما دعا إبراهيم للحرم فقال (وارزق أهله من الثمرات) نقل الله الطائف من فلسطين . وأخرج نحوه ابن أبي حاتم والأزرقي عن الزهري . وأخرج نحوه أيضا الأزرقي عن بعض ولد نافع بن جبير بن مطعم . وقد أخرج الأزرقي نحوه مرفوعا من طريق محمد بن المنكدر . وأخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظي قال : دعا إبراهيم للمؤمنين وترك الكفار ولم يدع لهم بشيء ، قال الله (ومن كفر فأمته) الآية . وأخرج نحوه سفيان بن عيينة عن مجاهد . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (من آمن منهم بالله) قال : كأن إبراهيم احتجها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (ومن كفر) أيضا فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أخلق خلقا لا أرزقهم أمتهم قليلا ثم اضطهم إلى عذاب النار ، ثم قرأ ابن عباس - كلا نمد هؤلاء وهؤلاء - الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : قال أبي بن كعب في قوله (ومن كفر) أن هذا من قول الرب . وقال ابن عباس : هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمته قليلا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : القواعد أساس البيت . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وغيرهم عن سعيد بن جبير قصة مطولة وآخرها في بناء البيت ، قال : فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولما يرفع إبراهيم القواعد) قال : القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك . وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت ، ومن أي أحجار الأرض بنى ، وفي أي زمان عرف ، ومن حجه ؟ وما ورد فيه من الأدلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الأسود . وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره فليرجع إليه ، وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك ، ولما لم يكن ما ذكره متعلقا بالتفسير لم نذكره . وأخرج ابن أبي حاتم عن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية (ربنا واجعلنا مسلمين لك) قال : كانا مسلمين ولكن سألاه الثبات . وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم ، قال : مخلصين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (ومن ذريتنا) قال : يعنينا العرب . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قال إبراهيم رب أرنا مناسكنا ، فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال : ارفع القواعد ، فرفع القواعد وأتم البنين ، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به نحو منى ، فلما كان عند العقبة فإذا إبليس قائم عند الشجرة ، فقال : كبر وارمه ، فكبر ورماه ، فذهب إبليس حتى أتى الحجرة الوسطى ففعل به إبراهيم كما فعل في الأولى ، ثم كذلك في الحجرة الثالثة ، ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب حتى أتى به عرفات ، قال : وقد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاثا ، قال : نعم ، قال : فأذن في الناس بالحج ، قال : وكيف أؤذن ؟ قال : قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات ، فأجاب العباد : لبيك اللهم لبيك ، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج . وأخرج ابن جرير من طريق ابن المسيب عن علي قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : قد فعلت أي رب فأرنا مناسكنا : أبرزها لنا علمناها ، فبعث الله جبريل فججّ به . وفي الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم تتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك ، وفي أكثرها أن الشيطان تعرّض له كما تقدّم عن

مجاهد . وقد أخرج ابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس نحو ذلك ، وكذلك أخرج عنه أحمد وابن أبي حاتم والبيهقي .

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَأَوْصَى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

الضمير في قوله (وابعث فيهم) راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقا . وقرأ أبي « وابعث في آخرهم » ويحتمل أن يكون الضمير راجعا إلى الذرية . وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة ، فبعث في ذريته (رسولا منهم) وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقد أخبر عن نفسه بأنه دعوة إبراهيم كما سيأتي تخريج ذلك إن شاء الله ، ومراده هذه الدعوة . والرسول هو المرسل . قال ابن الأنباري : يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال ورسلة إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق . ويقال جاء القوم أرسالا : أي بعضهم في أثر بعض ، والمراد بالكتاب : القرآن . والمراد بالحكمة : المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشرعية . وقوله (يزكّيهم) أي يطهرهم من الشرك وسائر المعاصي . وقيل إن المراد بالآيات ظاهر الألفاظ ، والكتاب معانيها ، والحكمة الحكم ، وهو مراد الله بالخطاب ، والعزير الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان . وقال الكسائي (العزيز) الغالب (ومن يرغب) في موضع رفع على الابتداء ، والاستفهام للإنكار . وقوله (إلا من سفه نفسه) في موضع الخبر ؛ وقيل هو بدل من فاعل يرغب ، والتقدير : وما يرغب عن ملة إبراهيم أحد إلا من سفه نفسه . قال الزجاج : سفه بمعنى جهل : أي جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن سفه بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء مشددة . قال الأخفش (سفه نفسه) أي فعل بها من السفه ما صار به سفيها ؛ وقيل إن نفسه منتصب بنزع الخافض ؛ وقيل هو تمييز ، وهذان ضعيفان جدا ؛ وأما سفه بضم الفاء فلا يتعدى قاله المبرد وثعلب . والاصطفاء : الاختيار ، أي اخترناه في الدنيا وجعلناه في الآخرة من الصالحين ، فكيف يرغب عن ملته راغب . وقوله (إذ قال له) يحتمل أن يكون متعلقا بقوله (اصطفيناه) أي اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام ، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف هو اذكر . قال في الكشف : كأنه قيل اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله ، والضمير في قوله (وأوصى بها) راجع إلى الملة أو إلى الكلمة : أي أسلمت لرب العالمين . قال القرطبي : وهو أصوب لأنه أقرب مذكور : أي قولوا أسلمنا انتهى . والأول أرجح لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام ، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم وأولى بهم . ووصى وأوصى بمعنى ، وقرئ بهما ، وفي مصحف عثمان (وأوصى) وهي قراءة أهل الشام والمدينة ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود (ووصى) وهي قراءة الباقرين (ويعقوب) معطوف على إبراهيم : أي وأوصى يعقوب بنه كما

أوصى إبراهيم بنيه . وقرأ عمر بن فايد الأسواري وإسماعيل بن عبد الله المكي بنصب يعقوب ، فيكون داخلين
أوصاه إبراهيم ، قال القشيري : وهو بعيد لأن يعقوب لم يدرك جدّه إبراهيم وإنما ولد بعد موته . وقوله (يابني)
هو بتقدير أن . وقد قرأ أبي وابن مسعود والضحاك بإثباتها . قال الفراء : ألغيت أن لأن التوصية كالقول ، وكل
كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها ، وقيل إنه على تقدير القول : أي قائلا يابني . روى
ذلك عن البصريين . وقوله (اصطفى لكم الدين) أي اختاره لكم ، والمراد ملته التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ،
وهي الملة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) فيه إيجاز بليغ . والمراد
الزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (ومن يرغب عن ملة إبراهيم) قال : رغبت اليهود والنصارى
عن ملته ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ، تركوا ملة إبراهيم الإسلام ، وبذلك بعث الله نبيه محمدا
صلى الله عليه وآله وسلم بملة إبراهيم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في
قوله (ولقد اصطفيناه) قال : اخترناه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ووصى بها
إبراهيم بنيه) قال : وصاهم بالإسلام ، ووصى يعقوب بنيه بمثل ذلك . وأخرج الثعلبي عن فضيل بن عياض في
قوله (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أي محسنون بربكم الظن .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا
نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ
لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا
هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ

بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

قوله (أم كنتم شهداء) أم هذه قيل هي المنقطعة ؛ وقيل هي المتصلة ، وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية ، فردّ الله ذلك عليهم وقال لهم : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم ، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون . والشهداء جمع شاهد ، ولم ينصرف لأن فيه ألف التانيث التي لتأنيث الجماعة ، والعامل في « إذ » الأولى معنى الشهادة ، وإذ الثانية بدل من الأولى ، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته ، وإنما جاء بما دون من في قوله (ماتعون) لأن المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالأوثان والنار والشمس والكواكب . ومعنى (من بعدى) أى من بعد موتى . وقوله (إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) عطف بيان لقوله (آبائك) وإسماعيل وإن كان عما ليعقوب لأن العرب تسمى العمّ أبا وقوله (إله) بدل من إلهك وإن كان نكرة فذلك جائز ولا سيما بعد تخصيصه بالصفة التي هي قوله (واحدا) فإنه قد حصل المطلوب من الإبدال بهذه الصفة . وقيل إن إله منصوب على الاختصاص ؛ وقيل إنه حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن ، لأن الغرض الإثبات حال الوجدانية . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر وأبور جاء العطاردي « وإله أهلك » فقيل أراد إبراهيم وحده . ويكون قوله (وإسماعيل) عطفا على أهلك وكذلك (إسحاق) وإن كان هو أباه حقيقة وإبراهيم جدّه ، ولكن لإبراهيم مزيد خصوصية ؛ وقيل إن قوله « أهلك » جمع كما روى عن سيويه أن أبين جمع سلامة ومثله أبون ، ومنه قول الشاعر :

فلما تبين أصواتنا بكين وقد بننا بالأيننا

وقوله (ونحن له مسلمون) جملة حالية : أى نعبد له حال إسلامنا له ، وجوز الزمخشري أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الحمل الاعتراضية آخر الكلام . والإشارة بقوله (تلك) إلى إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه و (أمة) بدل منه وخبره (قد خلت) أو أمة خبره ، وقد خلت نعت لأمة ، وقوله (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) بيان لحال تلك الأمة وحال مخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه ، لا ينفعه كسب غيره ولا يناله منه شيء ولا يضره ذنب غيره ، وفيه الردّ على من يتكل على عمل سلفه ويرّوح نفسه بالأمانى الباطلة ، ومنه ما ورد في الحديث « من بطأ به عمله لم يسرع نسبه » والمراد : أنكم لا تنتفعون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيئاتهم ولا تسألون عن أعمالهم كما لا يسألون عن أعمالكم ، ومثله - ولا تزر وازرة وزر أخرى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - . ولما ادّعت اليهود والنصارى أن الهداية بيدها والخير مقصور عليها ردّ الله ذلك عليهم بقوله (بل ملة إبراهيم) أى قل يا محمد هذه المقالة ، ونصب ملة بفعل مقدر : أى تتبع ؛ وقيل التقدير : نكون ملة إبراهيم : أى أهل ملته ؛ وقيل بل نهتدى بملة إبراهيم ، فلما حذف حرف الجر صار منصوبا . وقرأ الأعرج وابن أبي عتبة « ملة » بالرفع : أى بل الهدى ملة إبراهيم . والحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، وهو في أصل اللغة : الذى تميل قدماه كل واحدة إلى אחها . قال الزجاج وهو منصوب على الحال : أى تتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفا . وقال على بن سايان : هو منصوب بتقدير أغنى والحال خطأ كما لا يجوز جاءنى غلام هند مسرعة . وقال في الكشف : هو حال من المضاف إليه كقولك : رأيت وجه هند قائمة ، وقال قوم : الحنف الاستقامة ،

فسمى ديننا إبراهيم حنيفا لاستقامته ، وسمى معوج الرجلين أحنف تفاولا بالاستقامة ، كما قيل للدينغ سليم ، وللمهلكة مفازة . وقد استدل من قال بأن الحنيف في اللغة المائل لا المستقيم بقول الشاعر :

إذا حول الظل العشي رأيت حنيفا وفي قرن الضحى يتنصر

أى أن الحرياء تستقبل القبلة بالعشي ، وتستقبل المشرق بالغداة ، وهى قبلة النصارى ، ومنه قول الشاعر :

والله لولا حنف فى رجله ما كان فى رجالكم من مثله

وقوله (وما كان من المشركين) فيه تعريض باليهود لقولهم - عزيز ابن الله - وبالنصارى لقولهم - المسيح ابن الله - أى أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التى أنتم عليها من الشرك بالله فكيف تدعون عليه أنه كان على اليهودية أو النصرانية . وقوله (قولوا آمنا بالله) خطاب للمسلمين وأمرهم بأن يقولوا هذه المقالة ؛ وقيل إنه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق ، والأول أظهر . والأسباط : أولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولدا ، ولكل واحد منهم من الأولاد جماعة ، والسبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى العرب ، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع ، فهم جماعة متابعون ؛ وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر : أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر ؛ وقيل الأسباط حفدة يعقوب : أى أولاد أولاده لا أولاده ، لأن الكثرة إنما كانت فيهم دون أولاد يعقوب فى نفسه ، فهم أفراد لا أسباط . وقوله (لانفرق بين أحد منهم) قال الفراء : معناه لانؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى . قال فى الكشف : وأحد فى معنى الجماعة ، ولذلك صح دخول بين عليه . وقوله (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) هذا الخطاب للمسلمين أيضا : أى فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا ، وعلى هذا فمثل زائدة كقوله - ليس كمثل شئ - . وقول الشاعر : * فصيروا مثل كعصف مأكول * . وقيل إن المماثلة وقعت بين الإيمانيين : أى فإن آمنوا بمثل إيمانكم . وقال فى الكشف : إنه من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام ، قال : أى فإن حصلوا ديننا آخر مثل دينكم مساويا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا ؛ وقيل إن الباء زائدة مؤكدة ؛ وقيل إنها للاستعانة . والشقاق أصله من الشق وهو الجانب ، كأن كل واحد من الفريقين فى جانب غير الجانب الذى فيه الآخر ؛ وقيل إنه مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب ، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه ، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين ، وكذلك قول الشاعر :

ولا فاعلموا أنا وأنتم بغاة مابقينا فى شقاق

وقول الآخر : إلى كم تقبل العلماء قسرا وتفخر بالشقاق وبالنفاق

وقوله (فسيكفهم الله) وعد من الله تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عانده وخالفه من المتولين ، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير وبنى قينقاع . وقوله (صبغة الله) قال الأنخض وغيره : أى دين الله ، قال : وهى منتصبة على البدل من ملة . وقال الكسائى : هى منصوبة على تقدير اتبعوا ، أو على الإغراء : أى الزموا ، ورجح الزجاج الانتصاب على البدل من ملة ، كما قاله الفراء . وقال فى الكشف : إنها مصدر مؤكدة منتصب عن قوله (آمنا بالله) كما انتصب - وعد الله - عما تقدمه ، وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس ، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ ، والمعنى تطهير الله لأن الإيمان تطهير النفوس انتهى ، وبه قال سيبويه : أى كونه مصدرا

مؤكدًا . وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء ، وهو الذى يسمونه المعمودية ويجعلون ذلك تطهيراً لهم ، فإذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانياً حقاً ، فردّ الله عليهم بقوله (صبغة الله) أى الإسلام ، وسماه صبغة استعارة ، ومنه قول بعض شعراء همدان :

وكل أناس لهم صبغة وصبغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذاك أولادنا فأكرم بصبغتنا فى الصبغ

وقيل إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام بدلاً من معمودية النصارى ، ذكره الماوردى . وقال الجوهري : صبغة الله دينه وهو يؤيد ما تقدم عن الفراء ؛ وقيل الصبغة الختان . وقوله (قل أتحتاجوننا فى الله) أى أتجادلوننا فى الله : أى فى دينه والقرب منه والخطوة عنده ، وذلك كقولهم - نحن أبناء الله وأحباؤه - وقرأ ابن محيصن « أتحتاجونا » بالإدغام لاجتماع المثلين . وقوله (وهو ربنا وربكم) أى نشترك نحن وأنتم فى ربوبيته لنا وعبوديتنا له ، فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحتاجوننا فى ذلك . وقوله (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى لنا أعمال ولكم أعمال فلستم بأولى بالله منا ، وهو مثل قوله تعالى - فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون - . وقوله (ونحن له مخلصون) أى نحن أهل الإخلاص للعبادة دونكم ، وهو المعيار الذى يكون به التفاضل والحصلة التى يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره ، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق ؟ وفيه توبيخ لهم وقطع لما جاءوا به من المجادلة والمناظرة . وقوله (أم يقولون) قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص « قولون » بالتاء الفوقية ، وعلى هذه القراءة تكون أم ما هنا معادلة للهمزة فى قوله (أتحتاجوننا) أى أتحتاجوننا فى الله أم تقولون إن هؤلاء الأنبياء على دينكم ؛ وعلى قراءة الياء التحتية تكون أم منقطعة : أى بل يقولون . وقوله (قل أنتم أعلم أم الله) فيه تقرير وتوبيخ : أى أن الله أخبرنا بأنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى وأنتم تدعون أنهم كانوا هوداً أو نصارى فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه . وقوله (ومن أظلم) استفهام : أى لا أحد أظلم (ممن كنتم شهادة عنده من الله) يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى ، بل كانوا على الملة الإسلامية ، فظلموا أنفسهم بكتبتهم لهذه الشهادة بل بادعائهم لما هو مخالف لها ، وهو أشدّ فى الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذى لا أحد أظلم منه ؛ ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتبتهم هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم ، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب ؛ وقيل المراد هنا ما كتبتهم من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وفى قوله (وما الله بغافل عما تعملون) وعيد شديد ، وتهديد ليس عليه مزيد ، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع ، وكرر قوله سبحانه (تلك أمة قد خلت) إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذى هو المقصود فى هذا المقام .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (أم كنتم شهداء) يعنى أهل الكتاب . وأخرج أيضاً عن الحسن فى قوله (أم كنتم شهداء) قال : يقول لم يشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت أن لا تعبدوا إلا الله ، فأقرّوا بذلك وشهد عليهم أن قد أقرّوا بعبادتهم أنهم مسلمون . وأخرج عن ابن عباس أنه كان يقول : الحمد أب ويتلو الآية . وأخرج أيضاً عن أبى العالية فى الآية قال : سعى العلم أبا . وأخرج أيضاً نحوه عن محمد بن كعب . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن سوريا الأعور للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا

يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله فيهم (وقالوا كونوا هودا) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (حنيفا) قال : متبعا . وأخرج أيضا عن ابن عباس في قوله (حنيفا) قال : حاجا . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : الحنيف المستقيم . وأخرج أيضا عن خصيف قال : الحنيف المخلص . وأخرج أيضا عن أبي قلابة قال : الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم . وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « بعثت بالحنيفية السمحة » . وأخرج أحمد أيضا والبخارى في الأدب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال « قيل يا رسول الله أى الأديان أحب إلى الله؟ قال : الحنيفية السمحة » . وأخرج الحاكم في تاريخه وابن عساكر من حديث أسعد بن عبد الله بن مالك الخزاعي مرفوعا مثله . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما الآية التي في البقرة (قولوا آمنا بالله) كلها وفي الآخرة - آمنا بالله واشهد أنا مسلمون - . وأخرج البخارى من حديث أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله » الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الأسباط بنو يعقوب كانوا اثني عشر رجلا كل واحد منهم ولد أمة من الناس . وروى نحوه ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى ، وحكاه ابن كثير في تفسيره عن أبي العالية والربيع وقتادة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فإن الله لا مثل له ، ولكن قولوا فإن آمنوا بالذى آمنتم به وأخرج ابن أبي داود في المصاحف والخطيب في تاريخه عن أبي جرة قال : كان ابن عباس يقرأ (فإن آمنوا بالذى آمنتم به) وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (فإنما هم في شقاق) قال فراق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (صبغة الله) قال : دين الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : فطرة الله التي فطر الناس عليها . وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن بنى إسرائيل قالوا : يا موسى هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله ، فناداه ربه : يا موسى سألوكم هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها في صبغتي » وأنزل الله على نبيه (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) . وأخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس موقوفا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : إن اليهود تصبغ أبناءها يهودا ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى وإن صبغة الله الإسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام ولا أطهر وهو دين الله الذى بعث به نوحا ومن كان بعده من الأنبياء . وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد عن ابن عباس في قوله (صبغة الله) قال : البياض . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أتجادوننا) قال : أتخاصموننا . وأخرج ابن جرير عنه قال : أتجادلوننا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (ومن أظلم ممن كتم شهادة) الآية قال أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله ، واتخذوا اليهودية والنصرانية ، وكنتموا محمدا وهم يعلمون أنه رسول الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع في قوله (تلك أمة قد خلت) قال يعنى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

قوله (سيقول) هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وقيل إن (سيقول) بمعنى قال ، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته واستمرار عليه وقيل إن الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة ، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوينا لصدمته وتخفيفا لروعته وكسرا لسورته . والسفهاء جمع سفیه ، وهو الكذاب البهات المعتمد خلاف ما يعلم ، كذا قال بعض أهل اللغة . وقال في الكشف : هم خفاف الأحلام ، ومثله في التماموس . وقد تقدم في تفسير قوله (إلا من سفه نفسه) ما ينبغي الرجوع إليه ، ومعنى (ما ولاهم) ماصرفهم (عن قبلتهم التي كانوا عليها) وهي بيت المقدس ، فردّ الله عليهم بقوله (قل لله المشرق والمغرب) فله أن يأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء . وفي قوله (يهدى من يشاء) إشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأهل ملته إلى الصراط المستقيم . وقوله (وكذلك جعلناكم) أى مثل ذلك الجعل جعلناكم ؛ قيل معناه : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا . والوسط الخيار أو العدل ، والآية محتملة للأمرين ، ومما يحتملها قول زهير :

هم وسط ترضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

ومثله قول الآخر : أنتم أوسط حتى علموا بصغير الأمر أو إحدى الكبير

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفسير الوسط هنا بالعدل كما سيأتى ، فوجب الرجوع إلى ذلك ومنه قول الراجز :

لا تذهبن في الأمور مفرطا * لا تسألن إن سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا

ولما كان الوسط مجازيا للغلو والتقصير كان محمودا : أى هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى ولا قصرُوا تقصير اليهود في أنبيائهم ، ويقال فلان أوسط قومه وواسطتهم : أى خيارهم . وقوله (لتكونوا شهداء على الناس) أى يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم أنهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم ، ويكون الرسول شهيدا على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم ، ومثله قوله تعالى - فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - ؛ قيل إن قوله (عليكم) يعنى لكم : أى يشهد لهم بالإيمان ؛ وقيل معناه : يشهد عليكم بالتبليغ لكم . قال في الكشف : لما كان الشهيد كالرقيب والمهيم على المشهود له جىء بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى - والله على كل شيء شهيد - كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد - انتهى . وقالت طائفة : معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت ؛ وقيل المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول ،

وسياتى من المرفوع مايبين معنى الآية إن شاء الله ؛ وإنما أخر لفظ « على » فى شهادة الأمة على الناس ، وقدّمها فى شهادة الرسول عليهم ، لأن الغرض كما قال صاحب الكشاف فى الأوّل : إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم . وقوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) قيل المراد بهذه القبلة هى بيت المقدس : أى ما جعلناها إلا لنعلم المتبع والمقلّب ، ويؤيد هذا قوله (كنت عليها) إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة ؛ وقيل المراد الكعبة : أى ما جعلنا القبلة التى أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لذلك الغرض ، ويكون (كنت) بمعنى الحال ؛ وقيل المراد بذلك القبلة التى كان عليها قبل استقبال بيت المقدس فإنه كان يستقبل فى مكة الكعبة ، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفا لليهود ثم صرف إلى الكعبة . وقوله (إلا لنعلم) قيل المراد بالعلم هنا الرؤية ؛ وقيل المراد إلا لتعلموا أنا نعلم بأن المنافقين كانوا فى شك ؛ وقيل ليعلم النبي ؛ وقيل المراد لنعلم ذلك موجودا حاصلا ، وهكذا ما ورد معللا بعلم الله سبحانه لا بدّ أن يؤول بمثل هذا كقوله - وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء - . وقوله (وإن كانت لكبيرة) أى ما كانت إلا كبيرة ، كما قاله القراء فى أن وإن أنهما بمعنى ما وإلا . وقال البصريون : هى الثقيلة خفت ، والضمير فى كانت راجع إلى مايدل عليه قوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) من التحويلة أو التولية أو الجعلة أو الردّة ، ذكر معنى ذلك الأخفش ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة : أى وإن كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة إلا على الذين هداهم الله للإيمان ، فانشرح صدورهم لتصديقك ، وقبلت ما جئت به عقولهم ، وهذا الاستثناء مفرغ لأن ما قبله فى قوة النفي : أى أنها لا تخفّ ولا تسهل إلا على الذين هدى الله . وقوله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) قال القرطبي : اتفق العلماء على أنها نزلت فىمن مات وهو يصلى إلى بيت المقدس ، ثم قال : فسمى الصلاة إيمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل ؛ وقيل المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة ، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم . والأول يتعين القول به ، والمصير إليه لما سياتى من تفسيره صلى الله عليه وآله وسلم للآية بذلك . والرعوف كثير الرأفة ، وهى أشدّ من الرحمة . قال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكبر من الرحمة والمعنى متقارب . وقرأ أبو جعفر بن يزيد بن القعقاع « لروف » بغير همز ، وهى لغة بنى أسد ، ومنه قول الوليد بن عتبة :

وشر الغالين فلا تكنه يقاتل عمه الروف الرحيم

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان أوّل ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار ، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأن أوّل صلاة صلاها العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الكعبة ، فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجال ، وقتلوا فلم ندر ما يقول فيهم ، فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرعوف رحيم) وله طرق أخرى وألفاظ متقاربة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال إن أوّل ما نسخ فى القرآن القبلة . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود فى ناسخه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه ، وبعد ما تحوّل إلى المدينة ستة عشر شهرا ، ثم صرفه الله إلى الكعبة . وفى الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدّم ، وكذلك وردت أحاديث فى الوقت الذى نزل فيه استقبال القبلة ، وفى كيفية استدارة المصلين لما بلغهم

ذلك ، وقد كانوا في الصلاة فلا نطوّل بذكرها . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائي والترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والاسماعيلي في صحيحه والحاكم وصححه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال : : عدلا . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ماأتانا من نذير ، وماأتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته » فذلك قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ، مامن الناس أحد إلا ودّ أنه منا ، ومامن نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه » . وأخرج ابن جرير عن أبي سعيد في قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) بأن الرسل قد بلغوا (ويكون الرسول عليكم شهيدا) بما عملتم ، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال مرّوا بجنّازة فأثنى عليها خيرا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « وجبت وجبت وجبت ، ومرّوا بجنّازة فأثنى عليها شرا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : وجبت وجبت وجبت فسأله عمر فقال : من أثنتم عليه خيرا وجبت له الجنة ، ومن أثنتم عليه شرا وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض » زاد الحكيم الترمذي ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الآية وفي الباب أحاديث منها عن جابر مرفوعا عند ابن المنذر والحاكم وصححه ، ومنها عن عمر مرفوعا عند ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي ، ومنها عن أبي زهير الثقفي مرفوعا عند أحمد وابن ماجه والطبراني والدارقطني في الأفراد والحاكم في المستدرک والبيهقي في السنن ، ومنها عن أبي هريرة مرفوعا عند ابن جرير وابن أبي حاتم ، ومنها عن سلمة بن الأكوع مرفوعا عند ابن أبي شيبة وابن جرير والطبراني . وأخرج ابن جرير عن عطاء في قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) قال : يعني بيت المقدس (إلا لنعلم) قال نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (إلا لنعلم) قال لنميز أهل اليقين من أهل الشك (وإن كانت لكبيرة) يعني تحويلها على أهل الشرك والريب . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بلغني أن ناسا من أسلم رجعوا فتمالوا مرة هاهنا ومرة هاهنا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبلة ، قالوا : يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) . وقد تقدّم حديث البراء . وفي الباب أحاديث كثيرة ، وآثار عن السلف .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَشُنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ

آيَةُ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

قوله (قد نرى تقلب وجهك) قال القرطبي في تفسيره : قال العلماء : هذه الآية مقدمة في النزول على قوله (سيقول السفهاء) ، ومعنى (قد) تكثير الروية ، كما قاله صاحب الكشاف ، ومعنى (تقلب وجهك) تحوّل وجهك إلى السماء ، قاله قطرب . وقال الزجاج : تقلب عينيك في النظر إلى السماء ، والمعنى مثقارب . وقوله (فلنلنك) هو إما من الولاية : أى فلنعطينك ذلك . أو من التولى : أى فلنجعلنك متوليا إلى جهة ، وهذا أولى لقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) . والمراد بالشر هنا : الناحية والجهة ، وهو منتصب على الظرفية ومنه قول الشاعر :

أقول لأم زنباع أقيمي صدور العيس شطري نيم

ومنه أيضا قول الآخر :

ألا من مبلغ عمرا رسولا وما تغني الرسالة شطر عمرو

وقد يراد بالشر النصف ، ومنه «الوضوء شطر الإيمان» ، ومنه قول عنزة :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطري وأحمى سائري بالمنصل

قال ذلك لأن أباه من سادات عبس وأمه أمة ، ويرد بمعنى البعض مطلقا . ولا خلاف أن الله اد بشطر المسجد هنا الكعبة . وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعايين ، وعلى أن غير المعايين يستقبل الناحية ، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به ، والضمير في قوله (أنه الحق) راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحول إلى جهة الكعبة ، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي يستقبل الكعبة ، أو لكونهم قد علموا من كتبهم أو أنبيائهم أن النسخ سيكون في هذه الشريعة فيكون ذلك موجبا عليهم الدخول في الإسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (وما الله بغافل عما يعملون) قد تقدم معناه . وقرأ ابن عامر وحزرة والكسائي يعملون بالمشناة الفوقية على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقرأ الباقر بالباء التحتية . وقوله (ولئن أتيت) هذه اللام هي موطئة للقسم ، والتقدير : والله لئن أتيت . وقوله (ماتبعوا) جواب القسم المقدّر قال الأخفش والفراء : أجيب لئن يجواب لو لأن المعنى : ولو أتيت ، ومثله قوله تعالى - ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا - أى ولو أرسلنا ، وإنما قالوا هكذا لأن لئن هي ضد لو ، وذلك أن الأولى تطلب في جوابها للمضي والوقوع ولئن تطلب في جوابها الاستقبال . وقال سيبويه : إن معنى لئن يخالف معنى لو فلا تدخل إحداها على الأخرى ، فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلك . قال سيبويه : ومعنى - ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا - ليظللن انتهى . وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترويح خاطره لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية ، ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهان فضلا عن برهان واحد وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق

لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم ، حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق ، بل كان تركهم للحق تمرداً وعناداً مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء ، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً . وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : أى لا تتبع يا محمد قبلتهم ويمكن أن يكون على ظاهره دفعا لأطماع أهل الكتاب ، وقطعا لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبلة التي كان عليها . وقوله (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على مبايعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما عندهم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله ، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته . قال في الكشف : وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس انتهى . وقوله (ولئن اتبعت أهواءهم) إلى آخر الآية ، فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة ، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون وحاشاه من الظالمين ، فما ظنك بغيره من أمته ، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب ، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية ووسيلة طاغوتية ، وهى ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة ، لما يرجوه من الخطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة ، أو كانوا من ذوى الصولة ، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل ، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب ، كما يشبه الماء الماء ، والبيضة البيضة ، والتمر التمرة ، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل ، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام ، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه ، وهم على العكس من ذلك والضد لما هنالك ، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة ويدفعونه من شناعة إلى شناعة ، حتى يسلخواه من الدين ويخرجوه منه ، وهو يظن أنه منه في الصميم ، وأن الصراط الذى هو عليه هو الصراط المستقيم ، هذا إن كان في عداد المقصرين ، ومن جملة الجاهلين ؛ وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه ، وصار نقمة على عباده الله ومصيبة صلبها الله على المقصرين ، لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق ، ولا يتبع إلا الصواب ، فيضلون بضلاله ، فيكون عليه إثمهم وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة ، نسأل الله اللطف والسلامة والهداية وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) قيل الضمير لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : أى يعرفون نبوته . روى ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم ؛ وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التي قد منا ذكرها ، وبه قال جماعة من المفسرين ، ورجح صاحب الكشف الأول . وعندى أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذى سبقت له هذه الآيات . وقوله (ليكنتمون الحق) هو عند أهل القول الأول نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعند أهل القول الثانى استقبال الكعبة . وقوله (الحق من ربك) يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول ، ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله « من ربك » أى الحق هو الذى من ربك لا من غيره . وقرأ على بن أبى طالب الحق بالنصب على أنه بدل من الأول أو منصوب على الإغراء أى الزم الحق . وقوله (فلا تكونن من المترين) خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

والامتراء : الشك ، نهاه الله سبحانه عن الشك في كونه الحق من ربه ، أو في كون كتابهم الحق مع علمهم ، وعلى الأول هو تعريض للأمة : أى لا يكن أحد من أمتة من الممتريين ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه .

وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال : صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء ، وعلم الله من قاب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك في السماء) الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) . وأخرجه الطبراني من حديث معاذ مختصرا لكنه قال : سبعة عشر شهرا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو في قوله تعالى (فلنولينك قبلة ترضاها) قال : قبلة إبراهيم نحو الميزاب . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم عن البراء في قوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال : قبله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي حمزة . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال (شطره) نحوه . وأخرج البيهقي عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية قال (شطر المسجد الحرام) تلقاءه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب . وأخرج البيهقي في سننه عنه مرفوعا قال : البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (وإن الذين أوتوا الكتاب) قال : أنزل ذلك في اليهود . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ليعلمون أنه الحق) قال : يعني بذلك القبلة . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير عن أبي العالية نحوه . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) يقول : ما لليهود بتابعي قبلة النصارى ، ولا النصارى بتابعي قبلة اليهود . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (الذين آتيناهم الكتاب) قال : اليهود والنصارى (يعرفونه) قال : يعرفون رسول الله في كتابهم (كما يعرفون أبناءهم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه في قوله (يعرفونه) أى يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) قال : يكتمون محمدا وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير عن أبي العالية قال : قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم (الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين) يقول : لا تكونن في شك يا محمد أن الكعبة هي قبلتك ، وكانت قبلة الأنبياء من قبلك .

وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِثَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٠١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٠٢).

قوله (ولكل) بحذف المضاف إليه لدلالة التنوين عليه : أى لكل أهل دين وجهة ، والوجهة فعلة من المواجهة وفى معناها الجهة والوجه ، والمراد القبلة : أى أنهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قباتهم (ولكل وجهة) إما بحق وإما بباطل ، والضمير فى قوله (هو موليا) راجع إلى لفظ كل . والهاء فى قوله (موليا) هى المفعول الأول ، والمفعول الثانى محذوف : أى موليا وجهه . والمعنى : أن لكل صاحب ملة قبله صاحب القبلة موليا وجهه ، أو لكل منكم يأمة محمد قبله يصلى إليها من شرق أو غرب أو جنوب أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين - ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وإن لم يجر له ذكر ، إذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك ، والمعنى : أن لكل صاحب ملة قبله الله موليا إياه . وحكى الطبرى أن قوما قرءوا «ولكل وجهة» بالإضافة ، ونسب هذه القراءة أبو عمرو الدانى إلى ابن عباس . قال فى الكشف : والمعنى وكل وجهة الله موليا فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه انتهى . وقرأ ابن عباس وابن عامر «مولاها» على ما لم يسم فاعله . قال الزجاج : والضمير على هذه القراءة لواحد : أى ولكل واحد من الناس قبله الواحد مولاها : أى مصروف إليها . وقوله (فاستبقوا الخيرات) أى إلى الخيرات على الحذف والإيصال : أى بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيد السياق وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير كما يفيد العدوم المستفاد من تعريف الخيرات ، والمراد من الاستباق إلى الاستقبال : الاستباق إلى الصلاة فى أول وقتها . ومعنى قوله (أينا تكونوا يأت بكم الله) أى فى أى جهة من الجهات المختلفة تكونوا يأت بكم الله للجزاء يوم القيامة أو يجمعكم جميعا ، ويجعل صلاتكم فى الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة ، وقوله (ومن حيث خرجت) كرر سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة ، وللاهتمام به ، لأن موقع التحويل كان معتنى به فى نفوسهم ؛ وقيل وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ومواطن الشبهة ، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج فى صدورهم ؛ وقيل إنه كرر هذا الحكم لتعدد علله ، فإنه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل : الأولى ابتغاء مرضاته ، والثانية جري العادة الإلهية أن يولى كل أهل ملة وصاحب دعوة جهة يستقل بها والثالثة دفع حجج المخالفين فقرن بكل علة معلولها ؛ وقيل أراد بالأول : ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها ، ثم قال : وحيث كنتم معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها فولوا وجوهكم شطره ؛ ثم قال (ومن حيث خرجت) يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار فكان هذا أمر بالتوجه إلى الكعبة فى جميع المواطن من نواحي الأرض . وقوله (لثلا يكون للناس عليكم حجة) قيل معناه : لثلا يكون لليهود عليكم حجة إلا للمعاندین منهم القائلين ماترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه

فعلى هذا المراد بالذين ظلموا : المعاندون من أهل الكتاب ؛ وقيل هم مشركو العرب ، وحجتهم قولهم : راجعت قبلتنا ؛ وقيل معناه : لئلا يكون للناس عليكم حجة لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم ترونها . وقال أبو عبيدة : إن إلهنا بمعنى الواو : أى والذين ظلموا فهو استثناء بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر :

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلا دار مروانا

كأنه قال : إلا دار الخليفة ودار مروان ؛ وأبطل الزجاج هذا القول وقال : إنه استثناء منقطع : أى لكن الذين ظلموا منهم فإنهم محتجون ، ومعناه : إلا من ظلم باحتجائه فيما قد وضع له كما تقول مالك على حجة إلا أن تظلمنى : أى مالك على حجة البتة ولكنك تظلمنى ؛ وسمى ظلمه حجة لأن المحتج بها سماه حجة وإن كانت داحضة . وقال قطرب : يجوز أن يكون المعنى : لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا ، فالذين بدل من الكاف والميم فى عليكم . ورجح ابن جرير الطبرى أن الاستثناء متصل ، وقال : نبي الله أن يكون لأحد حجة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فى استقبالهم الكعبة ؛ والمعنى : لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا ماؤلاهم ، وقالوا : إن محمدا تحير فى دينه ، وماتوجه إلى قبلتنا إلا أنا أهدي منه . وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودى أو منافق . قال : والحجة بمعنى الحاجة التى هى الخاصة والمجادلة ، وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم . ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجاج : قال القرطبي : وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود ثم استثنى كفار العرب كأنه قال : لكن الذين ظلموا فى قولهم رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله . وقوله (قلا تخشوهم) يريد الناس : أى لا تخافوا مطاعنهم فإنها داحضة باطلة لا تضركم . وقوله (ولأتم نعمتى عليكم) معطوف على (لئلا يكون) أى ولأن أتم قاله الأخفش ؛ وقيل هو متمطوع عما قبله فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر مضمرة ، والتقدير : ولأتم نعمتى عليكم اعرفتم قبلتى قاله الزجاج ؛ وقيل معطوف على علة مقدرة كأنه قيل : واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتى عليكم . وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة ؛ وقيل دخول الجنة . وقوله (كما أرسلنا) الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر مخنوف . والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم إتماما مثل ما أرسلنا قاله الفراء ، ورجحه ابن عطية . وقيل الكاف فى موضع نصب على الحال ؛ والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال ، والتشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة . وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير : أى فاذكرونى كما أرسلنا قاله الزجاج . وقوله (فاذكرونى أذكركم) أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة . قال سعيد بن جبير : ومعنى الآية اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة حكاه عنه القرطبي فى تفسيره ، وأخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير ، وقد روى نحوه مرفوعا كما سيأتى . وقوله (واشكروا لى) قال الفراء : شكر لك وشكرت لك . والشكر : معرفة الإحسان والتحدث به ، وأصله فى اللغة : الطهور . وقد تقدم الكلام فيه . وقوله (ولا تكفرون) نهى ولذلك حذف نون الجماعة ، وهذه الموجودة فى الفعل هى نون المتكلم ، وحذفت الياء لأنها رأس آية ، وإثباتها حسن فى غير القرآن . والكفر هنا : ستر النعمة لا التكذيب ، وقد تقدم الكلام فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولكل وجهة هو موليها) قال : يعنى بذلك أهل الأديان ، يقول : لكل قبلة يرضونها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية : صلوا نحو بيت المقدس مرة ، ونحو الكعبة مرة أخرى . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن

قتادة في قوله (فاستبقوا الخيرات) يقول : لا تغلبن على قبلكم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله (فاستبقوا الخيرات) قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (فاستبقوا الخيرات) يقول فسارعوا في الخيرات (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا) قال : يوم القيامة . وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال : لما صرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة : تحير على محمد دينه ، فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم أهدي منه سبيلا ويوشك أن يدخل في دينكم ، فأنزل الله (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) قال : يعني بذلك أهل الكتاب حين صرف نبي الله إلى الكعبة قالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : حجبتهم قولهم قد أحببنا وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ومجاهد في قوله (إلا الذين ظلموا منهم) قال : الذين ظلموا منهم مشركو قريش أنهم سيحتجون بذلك عليكم ، واحتجوا على نبي الله بانصرافه إلى البيت الحرام وقالوا : سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا ، فأنزل الله في ذلك كله (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يقول : كما فعلت فاذكروني . وأخرج أبو الشيخ والديلمي من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فاذكروني أذكركم) يقول : اذكروني يامعشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي . وأخرج الديلمي وابن عساكر مثله مرفوعا من حديث أبي هند الداري وزاد : فمن ذكرني وهو مطيع فحق علي أن أذكره بمغفرتي ، ومن ذكرني وهو عاص فحق علي أن أذكره بمقت . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : يقول الله : ذكرى لكم خير من ذكركم لي . وقد ورد في فضل ذكر الله على الإطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧).

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره وشكره ، عقب ذلك بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن من جمع بين ذكر الله وشكره ، واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به ، ودفع ما يرد عليه من المحن فقد هدى إلى الصواب ووفق إلى الخير ، وإن هذه المعية التي أوضحها الله بقوله (إن الله مع الصابرين) فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب ، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال وإن كانت

كالحبال . وأموات وأحياء مرتفعان على أنهما خبران لمخوفين : أى لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات بل هم أحياء ، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم ، لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذى هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر ، وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ . وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر ، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك ، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية ، ومثل هذه الآية قوله تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون - . والبلاء أصله المحنة ، ومعنى نبلوكم : نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على القضاء أم لا ؟ وتنكير شيء للتقليل : أى بشيء قليل من هذه الأمور . وقرأ الضحاك بأشياء . والمراد بالخوف : ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره . وبالجموع : المجاعة التى تحصل عند الجذب والقحط . وبنقص الأموال : ما يحدث فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها . وبنقص الأنفس : الموت والقتل في الجهاد . وبنقص الثمرات : ما يصيبها من الآفات وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها . وقيل المراد بنقص الثمرات : موت الأولاد . وقوله (وبشر الصابرين) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يقدر على التبشير . وقد تقدم معنى البشارة . والصبر أصله الحبس ، ووصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة ، لأن ذلك تسليم ورضا . والمصيبة واحدة المصائب : وهى النكبة التى يتأذى بها الإنسان وإن صغرت . وقوله (إنا لله وإنا إليه راجعون) فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين وعصمة للمتحنين ، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله ، والاعتراف بالبعث والنشور . ومعنى الصلوات هنا : المغفرة والثناء الحسن قاله الزجاج . وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد . وقال في الكشف : الصلاة الرحمة والتعطف ، فوضعت موضع الرأفة ، وجمع بينها وبين الرحمة كقوله : رأفة ورحمة - رءوف رحيم - . والمعنى : عليهم رأفة بعد رأفة ورحمة بعد رحمة انتهى . وقيل المراد بالرحمة : كشف الكربة وقضاء الحاجة . و (المهتدون) قد تقدم معناه ، وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : غشى على عبد الرحمن بن عوف في وجعه غشية ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها ، حتى قاموا من عنده وجللوه ثوبا ، وخرجت أم كلثوم بنت عقبة امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة ، فلبثوا ساعة وهو في غشيته ثم أفاق . وأخرج ابن منده في المعرفة عن ابن عباس قال : قتل تميم بن الحمام بيلر ، وفيه وفي غيره نزلت (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال (في سبيل الله) في طاعة الله في قتال المشركين . وقد وردت أحاديث أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة . فنها عن كعب بن مالك مرفوعا عند أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه . وروى أن أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض ، كما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة قال : بلغنا ، فذكر ذلك . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا بنحوه ، وروى أنها على صور طيور خضر ، كما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العالية . وأخرجه ابن أبي شيبة في البعث والنشور عن كعب . وأخرجه هناد بن السرى عن هذيل . وأخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن كعب بن مالك مرفوعا ، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء في قوله (ولنبلونكم

بشيء من الخوف والجوع) قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (ولنبلونكم) الآية، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر وبشرهم فقال (وبشر الصابرين) وأخبر أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتخفيف سبيل الهدى. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتها، وأحسن عقابه، وجعل له خلفا صالحا يرصاه». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن رجاء بن حيوة في قوله (ونقص من الثمرات) قال: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا ثمرة. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أعطيت أمتي شيئا لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون» وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة.

إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨).

(أصل) الصفا في اللغة: الحجر الأملس، وهو هنا علم لجبل من جبال مكة معروف، وكذلك (المروة) علم لجبل بمكة معروف، وأصلها في اللغة: واحدة المروي، وهي الحجارة الصغار التي فيها لين. وقيل التي فيها صلابة، وقيل نعم الجميع. قال أبو ذؤيب:

حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تفرع

وقيل إنها الحجارة البيض البراقة: وقيل إنها الحجارة السود. والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة: أي من أعلام مناسكه. والمراد بها مواضع العبادة التي أشعرها الله لإعلاما للناس من الموقف والسعى والمنحرف، ومنه إشعار الهدى: أي إعلامه بغرز حديد في سنامه، ومنه قول الكميت:

نقتلهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بهم يتقرب

وحج البيت في اللغة: قصده، ومنه قول الشاعر:

وأشهد من عوف حثولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزعفرا

والسب: العمامة: وفي الشرع: الإتيان بمناسك الحج التي شرعها الله سبحانه. والعمرة في اللغة: الزيارة. وفي الشرع: الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة. والجناح أصله من الجنوح، وهو الميل، ومنه الجنوح لا عوجاجها. وقوله (يطوف) أصله يتطوف فأدغم. وقرئ «أن يطوف»، ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري. وحكى الزمخشري في الكشاف عن أبي حنيفة أنه يقول: إنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم. وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين. ومما يقوى دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى في آخر الآية (ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) وذهب الجمهور إلى أن السعى واجب ونسك من جملة المناسك، واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها: رأيت قول الله (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف

بهما) فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها ، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله (إن الصفاء والمروة من شعائر الله) الآية ، قالت عائشة : ثم قد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما . وأخرج مسلم وغيره عنها أنها قالت : لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفاء والمروة ولا عمرته ، لأن الله قال (إن الصفاء والمروة من شعائر الله) . وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال « إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا » وأخرج أحمد في مسنده والشافعي وابن سعد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجرأة قالت : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوف بين الصفاء والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبته من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعي » وهو في مسند أحمد من طريق شيخه عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة عنها ، ورواه من طريق أخرى عن عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة أن امرأة أخبرتها فذكرته . ويؤيد ذلك حديث « خلوا عني مناسككم » اهـ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ
عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خُلِدُوا فِيهَا لَأَيْخَفَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦١) وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٢)

قوله (إن الذين يكتُمون) إلى آخر الآية ، فيه الإخبار بأن الذي يكتم ذلك ملعون - واختلفوا من المراد بذلك ؟ فقيل أحبار اليهود ورجال النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه ، وهو الراجح لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول ، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق . وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره ، فإن من لعنه الله ولعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والحسرة إلى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها . وفي قوله (من البيئات والهدى) دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة : « حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعائين : أما أحدهما فبيئته ، وأما الآخر فلو بيئته قطع هذا البلعوم » أخرجه البخاري . والضمير في قوله (من بعد ما بيناه) راجع إلى ما أنزلنا . والكتاب أتم جنس ، وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب ، وقيل المراد به التوراة . واللعن : الإبعاد والطرده . والمراد بقوله (اللاعنون) الملائكة والمؤمنون قاله الزجاج وغيره ، ورجحه ابن عطية ، وقيل كل من يتأتى منه

اللعن فيدخل في ذلك الجن ؛ وقيل هم الحشرات والبهائم . وقوله (إلا الذين تابوا) الخ ، فيه استثناء التائبين والمصلحين لما فسد من أعمالهم ، والمبينين للناس ما بينه الله في كتبه وعلى ألسن رسله . قوله (وماتوا وهم كفار) هذه الجملة حالية ، وقد استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين ، لأن حاله عند الوفاة لا يعلم ، ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم ، لأنه يعلم بالوحي ما لا نعلم ؛ وقيل يجوز لعنه عملاً بظاهر الحال كما يجوز قتاله . قوله (أولئك عليهم لعنة الله) الخ ، استدل به على جواز لعن الكفار على العموم . قال القرطبي : ولا خلاف في ذلك . قال : وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر ، بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره سواء كان الكافر عاقلاً أو مجنوناً . وقال قوم من السلف : لا فائدة في لعن من جنّ أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر . قال : ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم لا على الأمر به . قال ابن العربي : إن لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق ، لما روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى بشارب خمر مراراً ، فقال بعض من حضر : لعنه الله ما أكثر ما يشربه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم ، والحديث في الصحيحين . وقوله (والناس أجمعين) قيل هذا يوم القيامة ، وأما في الدنيا ففي الناس المسلم والكافر ، ومن يعلم بالعاصي ومعصيته ومن لا يعلم ، فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس ؛ وقيل في الدنيا ، والمراد أنه يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم . وقوله (خالدين فيها) أي في النار ؛ وقيل في اللعنة . والإنظار : الإمهال ، وقيل معنى لا ينظرون : لا ينظر الله إليهم فهو من النظر ؛ وقيل هو من الانتظار : أي لا ينتظرون ليعتدروا ، وقد تقدم تفسير (الرحمن الرحيم) . وقوله (وإلهمكم إله واحد) فيه الإرشاد إلى التوحيد وقطع علائق الشرك ، والإشارة إلى أن أول ما يجب بيانه ومحرم كتمانها هو أمر التوحيد .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سأل معاذ بن جبل أخو بني سلمة وسعد بن معاذ أخو بني الأشهل وخارجة بن زيد أخو بني الحارث بن الخزرج نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة ، فكتموا إياه وأبوا أن يخبروه ، فأنزل الله فيهم (إن الذين يكتبون ما أنزلنا) الآية . وقد روى عن جماعة من السلف أن الآية نزلت في أهل الكتاب لكتبتهم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم وآله . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال : كنا في جنازة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين ، فتلعنه كل دابة سمعت صوته ، فذلك قول الله تعالى (ويلعنهم اللاعنون) يعني دواب الأرض . وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : الجن والإنس وكل دابة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد قال : إذا أجذبت البهائم دعت على فجار بني آدم . وأخرج عنه عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان قال في تفسير الآية : إن دواب الأرض والعقارب والحنافس يقولون : إنما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن حكيم بن حمر عن عبد بن حميد عن أبي جعفر قال : يلعنهم كل شيء حتى الحنفاء . وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتم العلم والوعيد لفاعله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (إلا الذين تابوا وأصلحوا) قال : أصلحوا ما بينهم وبين الله ، وبينوا الذي جاءهم من الله ولم يكتبوه ولم يحسدوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (أتوب عليهم) يعني أتجاوز عنهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن

أبي العالية قال : إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ، ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة قال : يعنى بالناس أجمعين المؤمنين . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (خالدين فيها) يقول : خالدين في جهنم في اللعنة . وقال في قوله (ولا هم ينظرون) يقول : لا ينظرون فيعتنرون . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا هم ينظرون) قال : لا يؤخرون . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين - وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم - والم الله لا إله إلا هو الحق القيوم - . وأخرج الديلمي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ليس شيء أشد على مرده الجن من هؤلاء الآيات التي في سورة البقرة (وإلهكم إله واحد) الآيتين .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) .

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله (وإلهكم إله واحد) عقب ذلك بالدليل الدال عليه ، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم ، مع علم كل عاقل بأنه لا يتها من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بشيء منها ، أو يقتلر عليه أو على بعضه ، وهي خلق السموات ، وخلق الأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وجرى الفلك في البحر ، وإنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض به ، وبث الدواب منها بسببه ، وتصريف الرياح ، فإن من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها انبهر له ، وضاق ذهنه عن تصور حقيقته . ونحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه ؛ وإنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة ، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ، ووجد الأرض لأنها كلها من جنس واحد وهو التراب . والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر ، وإضاءة أحدهما وإظلام الآخر . والنهار : ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وقال النضر بن شميل : أول النهار طلوع الشمس ، ولا يعد ما قبل ذلك من النهار . وكذا قال ثعلب ، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد

وكذا قال الزجاج . وقسم ابن الأنباري الزمان إلى ثلاثة أقسام : قسم جعله ليلا محضا ، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقسم جعله نهارا محضا ، وهو من طلوع الشمس إلى غروبها . وقسم جعله مشتركا بين النهار والليل ، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار . هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة . وأما في الشرع فالكلام في ذلك معروف . والفلك : السفن ، وإفراده وجمعه بلفظ واحد ، وهو هذا ويذكر ويؤث . قال الله تعالى - في الفلك المشحون - والفلك التي تجري في البحر - وقال - حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم - وقيل واحده فلك بالتحريك ، مثل أسد وأسد . وقوله (بما ينفع الناس) يحتمل أن تكون ماموصولة

أى بالذى ينفعهم ، أو مصدرية : أى بنفعهم ، والمراد بما أنزل من السماء المطر الذى به حياة العالم وإخراج النبات والأرزاق . والبث : النشر ، والظاهر أن قوله (بث) معطوف على قوله (فأحيا) لأنهما أمران متسبيان عن إنزال المطر . وقال فى الكشف : إن الظاهر عطفه على أنزل . والمراد بتصريف الرياح : إرسائها عقيما ، وملقحة وصرًا ونصرا ، وهلاكها وحارة وباردة ، ولينة وعاصفة ؛ وقيل تصريفها : إرسائها جنوبا وشمالا ودبورا ، وصبا ونكبا وهى التى تأتى بين مهبي ريحين ؛ وقيل تصريفها : أن تأتى السفن الكبار بقدر ماتحملها والصغار كذلك ، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر . والسحاب سمي سحابا لانسحابه فى الهواء ، وسحب ذيل سحبا وتسحب فلان على فلان : اجتراً . والمسخر : المذل ، وسخره : بعثه من مكان إلى آخر ؛ وقيل تسخيره : ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق . والأول أظهر . والآيات الدلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ويتفكر بعقله .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قالت قریش للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً نتقوى به على عدونا ، فأوحى الله إليه : إني معطيهم فأجعل لهم الصفا ذهباً ، ولكن إن كفروا بعد ذلك عذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، فقال : رب دعنى وقومى فأدعوهم يوماً بيوم ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبیر . وأخرج وكيع والفریابی وآدم ابن أبى إياس وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى الضحى قال : لما نزلت (وإلهم إله واحد) عجب المشركون وقالوا : إن محمداً يقول (وإلهم إله واحد) فليأتنا بآية إن كان من الصادقين ، فأنزل الله (إن فى خلق السموات والأرض) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء نحوه . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن سلمان قال : الليل موكل به ملك يقال له شراهيل ، فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلاها من قبل المغرب ، فإذا نظرت إليها الشمس وجبت فى أسرع من طرفة عين ، وقد أمرت الشمس أن لا تغرب حتى ترى الخرزة ، فإذا غربت جاء الليل ، فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجرى ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلقها من قبل المطلع ، فإذا رآها شراهيل مدّ إليه خرزته ، وترى الشمس الخرزة البيضاء ، فتطلع ، وقد أمرت أن لا تطلع حتى تراها ، فإذا طلعت جاء النهار . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله (والفلك) قال : السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال (بث) خلق ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وتصريف الرياح) قال : إذا شاء جعلها رحمة لواقع للسحاب ، وبشرا بين يدي رحمة ، وإذا شاء جعلها عذاباً ريحاً عقيماً لا تلقح . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال : كل شيء فى القرآن من الرياح فهى رحمة ، وكل شيء فى القرآن من الريح فهى عذاب . وقد ورد فى النهى عن سب الرياح وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) .

لما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته ، أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه ، وجليل قدرته وتفرده بالخلق ، قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه نداً يعبد من الأصنام . وقد تقدم تفسير الأنداد ، مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد ، بل أحبوا حباً عظيماً وأفرطوا في ذلك إفراطاً بالغاً ، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً في صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه ، فالمصدر في قوله (كحب الله) مضاف إلى المفعول ، والفاعل محذوف وهو المؤمنون . ويجوز أن يكون المراد كحبهم لله : أى عبدة الأوثان قاله ابن كيسان والزجاج . ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول : أى كما يحب الله . والأول أولى لقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) فإنه استدراك لما يفيد التشبيه من التساوى : أى أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد ، لأن المؤمنين يخلصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء ، والكفار لا يخلصون أصنامهم بذلك ، بل يشركون الله معهم ، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله ، ويمكن أن يجعل هذا : أعنى قوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) دليلاً على الثانى ، لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله ؛ وقيل المراد بالأنداد هنا الرؤساء : أى يطيعونهم في معاصى الله ، ويقوى هذا الضمير في قولهم (يحبونهم) فإنه لمن يعقل ، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك (إذ تبرأ الذين اتبعوا) الآية . قوله (ولو ترى الذين ظلموا) قراءة أهل مكة والكوفة وأبو عمرو بالياء التحتية ، وهو اختيار أبى عبيد . وقراءة أهل المدينة وأهل الشام بالفوقية ، والمعنى على القراءة الأولى : لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعاً قاله أبو عبيد . قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير انتهى . وعلى هذا فالرواية هي البصرية لا القلبية . وروى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد ، وليست عبارته فيه بالجيدة ، لأنه يقدر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب ، فكأنه يجعله مشكوكاً فيه . وقد أوجبه الله تعالى ، ولكن التقدير وهو الأحسن : ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله - ويرى بمعنى يعلم : أى لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه . قال : وجواب لو محذوف : أى لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة كما حذف في قوله - ولو ترى إذ وقفوا على النار - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - ومن قرأ بالفوقية فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفرغهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً . وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم ذلك ولكن خوطب بهذا الخطاب ، والمراد به أمته ؛ وقيل (أن) في موضع نصب مفعول لأجله : أى لأن القوة لله ، كما قال الشاعر :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرماً

أى لادخاره ؛ والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب ، لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ؛ ودخلت (إذ) وهى لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه . وقرأ ابن عامر (إذ يرون) بضم الياء ، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو جعفر « إن القوة » وإن الله بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف ، وعلى تقدير القول . قوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا) بدل من قوله (إذ يرون العذاب) ومعناه :

أن السادة والرؤساء تبرءوا ممن اتبعهم على الكفر . وقوله (ورأوا العذاب) في محل نصب على الحال : يعني التابعين والمتبوعين ؛ قيل عند المعاينة في الدنيا ؛ وقيل عند العرض والمساءلة في الآخرة . ويمكن أن يقال فيهما جميعا إذ لا مانع من ذلك . قوله (وتقطعت بهم الأسباب) هي جمع سبب ، وأصله في اللغة : الحبل الذي يشد به الشيء ويجذب به ، ثم جعل كل ماجر شيئا سببا ، والمراد بها : الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم وغيره ؛ وقيل هي الأعمال . والكثرة : الرجعة والعودة إلى حال قد كانت ، ولو هنا في معنى التمتنى كأنه قيل : ليت لنا كرامة ؛ ولهذا وقعت الفاء في الجواب . والمعنى : أن الاتباع قالوا : لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحا ونبرأ منهم كما تبرءوا منا . والكاف في قوله (كما تبرءوا منا) في محل نصب على النعت لمصدر محذوف ؛ وقيل في محل نصب على الحال ، ولا أراه صحيحا . وقوله (كذلك يريهم الله) في موضع رفع : أي الأمر كذلك : أي كما أراهم الله العذاب يريهم أعمالهم ، وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله (حسرات) متصّب على الحال ، وإن كانت القلبية فهو المفعول الثالث ؛ والمعنى : أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها فتكون عليهم حسرات ، أو يريهم الأعمال الصالحة التي أوجبها عليهم فتركوها فيكون ذلك حسرة عليهم . وقوله (وما هم بخارجين من النار) فيه دليل على خلود الكفار في النار ، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص ، وجعله الزمخشري للمقوية لغرض له يرجع إلى المذهب ، والبحث في هذا يطول .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) قال : مباهاة ومضاربة للحق بالأنداد (والذين آمنوا أشد حبا لله) قال : من الكفار لأهلهم . وأخرج ابن جرير عن أبي زيد في هذه الآية قال : هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله (والذين آمنوا أشد حبا لله) من حبهم لأهلهم . وأخرج ابن جرير عن السدي في الآية قال : الأنداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون الله إذا أمرهم أطاعوه وعصوا الله . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة بن نوح ماقال ابن زيد . وأخرج ابن جرير عن الزبير في قوله (ولو ترى الذين ظلموا) قال : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم فاتخذوا من دوني أندادا يحبونهم كحبكم إياي حين يعاينون عذابي يوم القيامة الذي أعددت لهم ، لعلمتم أن القوة كلها لي دون الأنداد ، والآلهة لا تغني عنهم هنالك شيئا ولا تدفع عنهم عذابا أحلت بهم ، وأيقنهم أني شديد عذابي لمن كفر بي وادّعى معي إلها غيري . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا) قال : هم الجبابرة والقادة والرؤوس في الشرك (من الذين اتبعوا) قال : هم الشياطين تبرءوا من الإنس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (فتقطعت بهم الأسباب) قال : المودة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : هي المنازل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : هي الأرحام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال : هي الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا والمودة . وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : هي الأعمال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الربيع قال : هي المنازل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (لو أن لنا كرة) قال : رجعة إلى الدنيا . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (حسرات) قال : صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة بن نوح ماقال ابن زيد في قوله (وما هم بخارجين من النار) قال : أولئك أهلها الذين هم أهلها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ثابت بن معبد قال : ما زال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت (وما هم بخارجين من النار) .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ أَبْكُمْ أَعْمَى أَفَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) .

قوله (يا أيها الناس) قيل إنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبنى مدلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام . حكاها القرطبي في تفسيره ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقوله (حلالا) مفعول أو حال ، وسمى الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه . والطيب هنا هو المستلذ كما قاله الشافعي وغيره . وقال مالك وغيره : هو الحلال فيكون تأكيدا لقوله (حلالا) . ومن في قوله (مما في الأرض) للتبويض للقطع بأن في الأرض ما هو حرام (وخطوات) جمع خطوة بالفتح والضم ، وهي بالفتح للمرة ، وبالضم لما بين القدمين . وقرأ القراء خطوات بفتح الخاء ، وقرأ أبو سهاك بفتح الخاء والطاء ؛ وقرأ عليّ وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعمش «خطوات» بضم الخاء والطاء والهمز على الواو . قال الأخفش : وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطية من الخطأ لا من الخطو . قال الجوهري : والخطوة بالفتح : المرة الواحدة ، والجمع خطوات وخطا انتهى . والمعنى على قراءة الجمهور : لاتقفوا أثر الشيطان وعمله ، وكل ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان ؛ وقيل هي النور والمعاصي ، والأولى التعميم ، وعدم التخصيص بفرد أو نوع . وقوله (إنه لكم عدو مبين) أي ظاهر العداوة ، ومثله قوله تعالى - إنه عدو مبين - وقوله - إن الشيطان لكم عدو فاتخلوه عدواً - . وقوله (بالسوء) سمي السوء سوءا لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته ، وهو مصدر ساءه يسوؤه سوءا ومساءة إذا أحرزه . (والفحشاء) أصله سوء المنظر ، ومنه قول الشاعر :
• وجيد كجيد الرّم ليس بفاحش • ثم استعمل فيما يقبح من المعاني ، وقيل السوء : القبيح ، والفحشاء : التجاوز للحد في القبح ؛ وقيل السوء : مالا حد فيه ، والفحشاء : ما فيه الحد ؛ وقيل الفحشاء : الزنا ؛ وقيل إن كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء . وقوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) قال ابن جرير الطبري : يريد ما حرّموه من البحيرة والسائبة ونحوهما مما جعلوه شرعا ؛ وقيل هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم . والظاهر أنه يصدق على كل ما قيل في الشرع بغير علم . وفي هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص أو ظاهر من الأعيان الموجودة في الأرض فأصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه ، وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى - هو الذي خلق لكم ما في الأرض - . والضمير في قوله (وإذا قيل لهم) راجع إلى الناس ، لأن الكفار منهم وهم المقصودون هنا ؛ وقيل كفار العرب خاصة ، و(ألفينا) معناه وجدنا ، والألف في قوله (أولو كان آبائهم) للاستفهام ، وفتحت الواو لأنها واو العطف . وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش واعتقادهم الفاسد مالا يقادر قدره ، ومثل هذه الآية قوله تعالى - وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا - الآية ، وفي ذلك دليل على قبح التقليد ، والمنع منه ، والبحث في ذلك يطول . وقد أفردته بمؤلف مستقل سمّيته [القول المفيد : في حكم التقليد] واستوفيت

الكلام فيه في [أدب الطلب ومنهى الأرب] . وقوله (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق) فيه تشبيه واعظ الكافرين ، وداعيتهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالراعى الذى ينعق بالغنم أو الإبل فلا يسمع إلا دعاء ونداء ولا يفهم مايقول ، هذا فسر الزجاج والفراء وسيبويه ، وبه قال جماعة من السلف . قال سيبويه : لم يشبهوا بالناعق ، إنما شبهوا بالمنعوق به ، والمعنى : مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا ، كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم فحذف للدلالة المعنى عليه . وقال قطرب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم : يعنى الأصنام ، كمثل الراعى إذا نعق بغنمه وهو لا يدرى أين هى . وبه قال ابن جرير الطبرى . وقال ابن زيد : المعنى : مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجهاد كمثل الصائح فى جوف الليل فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لا يسمع ، ويجيبه مالا حقيقة فيه . والنعيق : زجر الغنم والصياح بها ، يقال نعق الراعى بغنمه ينعق نعيما ونعاقا ونعقانا : أى صاح بها وزجرها ، والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون : أجهل من راعى ضأن . وقوله (صم) وما بعده أخبار لمبتدأ محذوف : أى هم صم بكم عمى . وقد تقدم تفسير ذلك .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال « تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعنى (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه فما يتقبل منه أربعين يوما ، وأما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) قال : عمله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال « ماخالف القرآن فهو من خطوات الشيطان » وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : خطاه . وأخرج أيضا عن عكرمة قال : هى نزغات الشيطان . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : هى تزيين الشيطان . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما كان من يمين أونذر فى غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه أتى بضرع وملح فجعل يأكل ، فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم : فقال : لا أريد ، فقال : أصائم أنت ؟ قال لا . قال : فما شأنك ؟ قال : حرمت على نفسى أن آكل ضرعا ، فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فأطعم وكفر عن يمينك . وأخرج عبد بن حميد عن عثمان بن غياث قال : سألت جابر بن زيد عن رجل نذر أن يجعل فى أنفه حلقة من ذهب ، فقال : هى من خطوات الشيطان ولا يزال عاصيا لله فليكفر عن يمينه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحج حيا من خطوات الشيطان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى مجلز قال : هى النذور فى المعاصى . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله (إنما يأمركم بالسوء) قال : المعصية (والفحشاء) قال : الزنا . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخير منا ، فأنزل الله فى ذلك (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) وأخرج ابن جرير عن الربيع وقتادة فى قوله (ألفينا) قالوا : وجدنا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن

عباس في قوله (ومثل الذين كفروا) الآية ، قال : كمثل البقر والحمار والشاة إن قلت لبعضهم كلاما لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك ؛ وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك . وروى نحو ذلك عن مجاهد أخرجه عبد بن حميد ، وعن عكرمة أخرجه وكيع . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال لي عطاء في هذه الآية : هم اليهود الذين أنزل الله فيهم (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب) إلى قوله (فما أصبرهم على النار) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) .

قوله (كلوا من طيبات ما رزقناكم) هذا تأكيد للأمر الأول : أعني قوله (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) وإنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس ، قيل والمراد بالأكل الانتفاع ؛ وقيل المراد به الأكل المعتاد ، وهو الظاهر . قوله (واشكروا لله) قد تقدم أنه يقال شكره وشكر له يتعدى بنفسه وبالحرف . وقوله (إن كنتم إياه تعبدون) أي تخصونه بالعبادة كما يفيد تقدم المفعول . قوله (إنما حرم عليكم الميتة) قرأ أبو جعفر (حرم) على البناء للمفعول و (إنما) كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب وتنتهي ماعداه . وقد حصرت هاهنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها . قوله (الميتة) قرأ ابن أبي عبيدة بالرفع ، ووجه ذلك أنه يجعل « ما » في « إنما » موصولة منفصلة في الخط ، والميتة وما بعدها خبر الموصول ، وقراءة الجميع بالنصب . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع الميتة بتشديد الياء ، وقد ذكر أهل اللغة أنه يجوز في ميت التخفيف والتشديد . والميتة ما فارقتها الروح من غير ذكاة . وقد خصص هذا العموم بمثل حديث « أحل لنا ميتتان ودمان » أخرجه أحمد وابن ماجه والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا ، ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى - أحل لكم صيد البحر - فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر . وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها وميتها . وقال بعض أهل العلم : إنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر ، وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء . وقال ابن القاسم : وأنا أنقيه ولا أراه حراما . قوله (والدم) قد اتفق العلماء على أن الدم حرام ، وفي الآية الأخرى - أودما مسفوحا - فيحمل المطلق على المقيد لأن ما خلط باللحم غير محرم ، قال القرطبي : بالإجماع . وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم ، فبأكل ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا ينكره . قوله (ولحم الخنزير) ظاهر هذه الآية والآية الأخرى أعني قوله تعالى - قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير - أن المحرم إنما هو اللحم فقط . وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره . وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم . وحكى القرطبي الإجماع أيضا على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فإنه تجوز الخرازة به . قوله (وما أهل به لغير الله) الإهلال : رفع الصوت ، يقال أهل بكذا : أي رفع صوته . قال الشاعر يصف فلاة :

نهل بالفرقد ركبائها كما يهل الراكب المعتمر

وقال النابغة : أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

ومنه إهلال الصبي ، واستهلاله : وهو صياحه عند ولادته . والمراد هنا : ما ذكر عليه اسم غير الله كالللات والعزى إذا كان الذابح وثنيا ، والنار إذا كان الذابح مجوسيا . ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله ، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم ، فإنه مما أهل به لغير الله ، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن . قوله (فن اضطر) قرىء بضم النون للاتباع وبكسرهما على الأصل في التقاء الساكنين ، وفيه إضمار : أى فن اضطر إلى شيء من هذه المحرمات . وقرأ ابن محيصن بإدغام الضاد في الطاء . وقرأ أبو السماك بكسر الطاء . والمراد من صيره الجوع والعلم إلى الاضطرار إلى الميتة . قوله (غير باغ) نصب على الحال . قيل المراد بالباغى : من يأكل فوق حاجته ، والعادى : من يأكل هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة ؛ وقيل غير باغ على المسلمين وعاد عليهم ، فيدخل في الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان وقاطع الرحم ونحوهم ؛ وقيل المراد غير باغ على مضطر آخر ولا عاد سد الجوعة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (كلوا من طيبات ما رزقناكم) قال : من الحلال . وأخرج ابن سعد عن عمر بن عبد العزيز أن المراد بما في الآية : طيب الكسب لا طيب الطعام . وأخرج ابن جرير عن الضحاك : أنها حلال الرزق . وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم - وقال - يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم - ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وما أهل) قال : ذبح . وأخرج ابن جرير عنه قال (ما أهل به) للطواغيت . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : ما ذبح لغير الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية . قال : ما ذكر عليه اسم غير الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (غير باغ ولا عاد) يقول : من أكل شيئا من هذه وهو مضطر فلا حرج ، ومن أكله وهو غير مضطر فقد بنى واعتدى . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (غير باغ) قال : فى الميتة (ولا عاد) قال : فى الأكل . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (غير باغ ولا عاد) قال : غير باغ على المسلمين ولا معتد عليهم ، فمن خرج يقطع الرحم أو يقطع السبيل أو يفسد فى الأرض أو مفارقا للجماعة والأئمة ، أو خرج فى معصية الله فاضطر إلى الميتة لم تحل له . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : العادى الذى يقطع الطريق . وقوله (فلا إثم عليه) يعنى فى أكله (إن الله غفور رحيم) لمن أكل من الحرام رحيم به إذ أحل له الحرام فى الاضطرار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (فن اضطر غير باغ ولا عاد) غير باغ فى أكله ، ولا عاد يتعدى الحلال إلى الحرام وهو يجد عنه بلغة ومندوحة .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦).

قوله (إن الذين يكتُمون) قيل المراد بهذه الآية علماء اليهود ، لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . والاشتراء هنا : الاستبدال ، وقد تقدم تحقيقه ، وسماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته ، وهذا السبب وإن كان خاصا فلا اعتبار بعموم اللفظ ، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله ، وأخذ عليه الرشا ، وذكر البطون دلالة وتأكيذا أن هذا الأكل حقيقة ، إذ قد يستعمل مجازا في مثل أكل فلان أرضي ونحوه : وقال في الكشاف : إن معنى (في بطونهم) ملء بطونهم قال : يقول أكل فلان في بطنه ، وأكل في بعض بطنه انتهى . وقوله (إلا النار) أي أنه يوجب عليهم عذاب النار ، فسمى ما أكلوه نارا لأنه يؤول بهم إليها ، هكذا قال أكثر المفسرين - وقيل إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة ، ومثله قوله سبحانه - إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا - وقوله (ولا يكلمهم الله) فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم ، يقال فلان لا يكلم فلانا إذا غضب عليه . وقال ابن جرير الطبري : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه لا بما يكرهونه . كقوله تعالى - اخشوا فيها ولا تكلمون - . وقوله (ولا يزكهم) معناه : لا يثنى عليهم خيرا . قاله الزجاج ؛ وقيل معناه : لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم . وقوله (اشتروا الضلالة بالهدى) قد تقدم تحقيق معناه . وقوله (فما أصبرهم على النار) ذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد إلى أن معناه التعجب . والمراد تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار ، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم . وحكى الزجاج أن المعنى : ما أبقاهم على النار ، من قولهم : ما أصبر فلانا على الحبس : أي ما أبقاه فيه ؛ وقيل المعنى : ما أقل جزعهم من النار ، فجعل قلة الجزع صبرا . وقال الكسائي وقطرب : أي ما أدومهم على عمل أهل النار ؛ وقيل « ما » استفهامية ، ومعناه التوبيخ : أي أي شيء أصبرهم على عمل النار . قاله ابن عباس والسدي وعطاء وأبو عبيدة . (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) الإشارة باسم الإشارة إلى الأمر : أي ذلك الأمر وهو العذاب . قاله الزجاج . وقال الأخفش : إن خبر اسم الإشارة محذوف والتقدير : ذلك معلوم . والمراد بالكتاب هنا القرآن (بالحق) أي بالصدق ؛ وقيل بالحجة . وقوله (وإن الذين اختلفوا في الكتاب) قيل المراد بالكتاب هنا التوراة ، فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى وأنكرهم اليهود ؛ وقيل خالفوا ما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيها ؛ وقيل المراد القرآن ، والذين اختلفوا كفار قريش ، يقول بعضهم هو محمّر ، وبعضهم يقول هو أساطير الأولين ، وبعضهم يقول غير ذلك . (لني شقاق) أي خلاف (بعيد) عن الحق ، وقد تقدم معنى الشقاق .

وقد أخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله) قال : نزلت في يهود . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : كتموا اسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخذوا عليه طمعا قليلا . وأخرج ابن جرير أيضا عن أبي العالية نحوه . وأخرج الثعلبي عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت في اليهود . وأخرج

ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال : اختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة (فما أصبرهم على النار) قال : ما أجراهم على عمل النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (فما أصبرهم على النار) قال : ما أعملهم بأعمال أهل النار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر في قوله (فما أصبرهم على النار) قال : والله ما لهم عليها من صبر ولكن يقول ما أجراهم على النار . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير أيضا عن السدي في الآية قال : هذا على وجه الاستفهام يقول : ما الذي أصبرهم على النار ؟ وقوله (وإن الذين اختلفوا في الكتاب) قال : هم اليهود والنصارى (لنى شقاق بعيد) قال : فى عداوة بعيدة .

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) .

قوله (ليس البر) قرأ حمزة وحفص بالنصب على أنه خبر ليس والاسم (أن تولوا) وقرأ الباقون بالرفع على أنه الاسم قيل إن هذه الآية نزلت للرد على اليهود والنصارى ، لما أكثروا الكلام في شأن القبلة عند تحويل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكعبة ؛ وقيل إن سبب نزولها أنه سأل رسول الله سائل ، وسيأتى ذلك آخر البحث إن شاء الله . وقوله (قبل المشرق والمغرب) قيل أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى لأنهم يستقبلون مطلع الشمس ، وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود ، لأنهم يستقبلون بيت المقدس وهو في جهة الغرب منهم إذ ذاك . وقوله (ولكن البر) هو اسم جامع للخير ، وخبره محذوف تقديره : بر من آمن . قاله الفراء وقطرب والزجاج ؛ وقيل إن التقدير : ولكن ذو البر من آمن ، ووجه هذا التقدير : الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى ، ويجوز أن يكون البر بمعنى البار ، وهو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيرا ، ومنه في التنزيل - إن أصبح ماؤكم غورا - أى غائرا وهذا اختيار أبي عبيدة . والمراد بالكتاب هنا الجنس أو القرآن ، والضمير في قوله (على حبه) راجع إلى المال ؛ وقيل راجع إلى الإيتاء المدلول عليه بقوله (وآتى المال) وقيل إنه راجع إلى الله سبحانه : أى على حب الله ، والمعنى على الأول : أنه أعطى المال وهو يحبه ويشح به ، ومنه قوله تعالى - لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون - والمعنى على الثانى : أنه يحب إيتاء المال وتطيب به نفسه ، والمعنى على الثالث : أنه أعطى من تضمنته الآية فى حب الله عز وجل لا لغرض آخر ، وهو مثل قوله - ويطعمون الطعام على حبه - ومثله قول زهير . إن الكريم على علاته هرم . وقد تم ذوى القربى لكون دفع المال إليهم صدقة وصلة إذا كانوا فقراء ، وهكذا يتامى الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا يتامى ، لعدم قدرتهم على الكسب . والمسكين : الساكن إلى ما فى أيدي الناس لكونه لا يجد شيئا . (وابن السبيل) المسافر المنقطع وجعل ابنا للسبيل لملازمته له . وقوله

(وفي الرقاب) أى فى معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم ؛ وقيل المراد شراء الرقاب وإعتاقها ؛ وقيل المراد فك الأسارى . وقوله (وآتى الزكاة) فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة التطوع ، لا صدقة الفريضة . وقوله (والموفون) قيل هو معطوف على « من آمن » ، كأنه قيل : ولكن البرّ المؤمنون والموفون . قاله الفراء والأخفش ؛ وقيل هو مرفوع على الابتداء ، والخبر محذوف ؛ وقيل هو خبر لمبتدأ محذوف : أى هم الموفون ؛ وقيل إنه معطوف على الضمير فى آمن ، وأنكره أبو على وقال : ليس المعنى عليه . وقوله (والصابرين) منصوب على المدح كقوله تعالى - والمقيمين الصلاة - ، ومنه ما أنشده أبو عبيدة :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معركة والطيبين معاقد الأزر

وقال الكسائى : هو معطوف على ذوى القربى كأنه قال : وآتى الصابرين . وقال النحاس : إنه خطأ . قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله (والموفين والصابرين) . قال النحاس : يكونان على هذه القراءة منسوقين على ذوى القربى أو على المدح . وقرأ يعقوب والأعمش (والموفون والصابرون) بالرفع فيهما . (والبأساء) الشدة والفقر . (والضراء) المرض والزمانة (وحين البأس) قيل المراد وقت الحرب ، والبأساء والضراء اسمان بنيا على فعلاء ولا فعل لهما لأنهما اسمان وليسا بنعت . وقوله (صدقوا) وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بها وأنهم كانوا جادّين ؛ وقيل المراد صدقوهم القتال ، والأول أولى .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وصححه عن أبى ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فتلا (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم) حتى فرغ منها ، ثم سأله أيضا فتلاها ، ثم سأله فتلاها . قال : وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك ، وإذا عملت بسيئة أبغضها قلبك . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن القاسم بن عبد الرحمن قال : جاء رجل إلى أبى ذر فقال : ما الإيمان ؟ فتلا عليه هذه الآية ، ثم ذكر له نحو الحديث السابق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية قال : يقول ليس البرّ أن تصلوا ولا تعملوا ، هذا حين تحول من مكة إلى المدينة وأنزلت الفرائض . وأخرج عنه ابن جرير أنه قال : هذه الآية نزلت بالمدينة ، يقول : ليس البرّ أن تصلوا ، ولكن البرّ ما ثبت فى القلب من طاعة الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن البرّ ، فأنزل الله (ليس البرّ) الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال : كانت اليهود تصلّى قبل المغرب ، والنصارى قبل المشرق ، فنزلت (ليس البرّ) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية مثله . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله (وآتى المال على حبه) قال : يعطى وهو صحيح صحيح يأمل العيش ويخاف الفقر . وأخرج عنه مرفوعا مثله . وأخرج البيهقى فى الشعب عن المطلب « أنه قيل : يا رسول الله ما آتى المال على حبه فكلنا نحبه . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدثك بطول العمر والفقر » . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وآتى المال على حبه) يعنى على حب المال . وأخرج عنه أيضا فى قوله (ذوى القربى) يعنى قرابته . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة » أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقى فى سننه

من حديث سلمان بن عامر الضبي ، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل تجزى عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها ؟ فقال : لك أجران : أجر الصدقة ، وأجر القرابة ، وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح » . وأخرج أحمد والدارمي والطبراني من حديث حكيم بن حزام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : هو الذي يمر بك وهو مسافر . وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله (والسائلين) قال : السائل الذي يسألك . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (وفي الرقاب) قال : يعني فك الرقاب . وأخرج أيضا عنه في قوله (وأقام الصلاة) يعني وأتم الصلاة المكتوبة (وآتى الزكاة) يعني الزكاة المفروضة . وأخرج الرمزي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدى والدارقطني وابن مردويه عن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : في المال حق سوى الزكاة ثم قرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (والموفون بعهدهم) قال : فن أعطى عهد الله ثم نقضه فالله ينتقم منه ، ومن أعطى ذمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم غدر بها فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم خصمه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) يعني فيما بينهم وبين الناس . وأخرج ابن أبي شبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال (البأساء) الفقر (والضراء) السقم (وحين البأس) حين القتال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (أولئك الذين صدقوا) قال : فعلوا ما ذكر الله في هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله (أولئك الذين صدقوا) قال : تكلموا بكلام الإيمان ، فكانت حقيقة العمل صدقوا الله . قال : وكان الحسن يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، فإن لم يكن مع القول عمل فلا شيء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ
وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِغَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي
الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩).

قوله (كتب) معناه فرض وأثبت ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول

وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك - وقيل إن (كتب) هنا إشارة إلى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ . و (القصاص) أصله قص الأثر : أي اتباعه ، ومنه القاص لأنه يتبع الآثار ، وقص الشعر اتباع أثره ، فكان القاتل يسلك طريقا من القتل ، يقص أثره فيها ، ومنه قوله تعالى - فارتدّا على آثارهما قصصا - وقيل إن

القصاص مأخوذ من القص وهو القطع ، يقال قصصت ما بينهما : أى قطعت . وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد وهم الجمهور . وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبي ليلى وداود إلى أنه يقتل به . قال القرطبي : وروى ذلك عن علي وابن مسعود . وبه قال سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم بن عتيبة ، واستدلوا بقوله تعالى - وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس - وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى (الحر بالحر والعبد بالعبد) مفسر لقوله تعالى - النفس بالنفس - وقالوا أيضا : إن قوله - وكتبنا عليهم فيها - يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لنبى إسرائيل فى التوراة . ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله صلى الله عليه وآله وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم » ويجاب عنه بأنه مجمل والآية مبينة ، ولكنه يقال إن قوله تعالى (الحر بالحر والعبد بالعبد) إنما أفاد بمنطوقه أن الحر يقتل بالحر ، والعبد يقتل بالعبد ، وليس فيه ما يدل على أن الحر لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم ، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا ، ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا ، والبحث فى هذا محرر فى علم الأصول . وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر وهم الكوفيون والثوري ، لأن الحر يتناول الكافر كما يتناول المسلم ، وكذا العبد والأثني يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم . واستدلوا أيضا بقوله تعالى - إن النفس بالنفس - لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على النفس المسلمة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل المسلم بالكافر ، واستدلوا بما ورد من السنة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يقتل مسلم بكافر ، وهو مبين لما يراد فى الآيتين ، والبحث فى هذا يطول . واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل بالأثني ، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل . وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبو ثور . وذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة ، وهو الحق . وقد بسطنا البحث فى شرح المتقى فليرجع إليه . قوله (فمن عفى له من أخيه شيء) « من » هنا عبارة عن القاتل . والمراد بالأخ المقتول أو الولي والشئ عبارة عن الدم ، والمعنى : أن القاتل أو الجاني إذا عفى له من جهة المجنى عليه أو الولي دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئا من الدية أو الأرش ، فليتبع المجنى عليه الولي من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعا بالمعروف ، وليؤد الجاني ما لزمه من الدية أو الأرش إلى المجنى عليه ، أو إلى الولي أداء بإحسان ؛ وقيل إن « من » عبارة عن الولي والأخ يراد به القاتل ، والشئ : الدية ؛ والمعنى أن الولي إذا جنح إلى العفو عن القصاص إلى مقابل الدية ، فإن القاتل يخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص كما روى عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل فى ذلك ؛ وذهب من عداه إلى أنه لا يخير ، بل إذا رضى الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل يلزمه تسليمها ؛ وقيل معنى « عفى » بذل : أى من بذل له شيء من الدية ، فليقبل وليتبع بالمعروف ؛ وقيل إن المراد بذلك أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من الديات ، فيكون عفى بمعنى فضل ، وعلى جميع التقادير فتتكبر شيء للتقليل ، فيتناول العفو عن الشيء اليسير من الدية ، والعفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة . وقوله (فاتباع) مرتفع بفعل محذوف ؛ أى فليكن منه اتباع ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى فالأمر اتباع ، وكذا قوله (وأداء إليه بإحسان) . وقوله (ذلك تخفيف) إشارة إلى العفو والدية : أى أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض أو بعوض ، ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود ، فإنه أوجب عليهم القصاص ، ولا عفو ؛ وكما ضيق على النصارى فإنه أوجب عليهم العفو ولا دية . قوله (فمن اعتدى بعد ذلك) أى بعد التخفيف ، نحو أن يأخذ الدية ثم يقتل القاتل ، أو يعفو ثم يستقص . وقد اختلف أهل العلم فىمن قتل القاتل بعد

أخذ الدية . فقال جماعة منهم مالك والشافعي : إنه كمن قتل ابتداء ، إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه . وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم ؛ عذابه أن يقتل ألبته ، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو . وقال الحسن : عذابه أن يرد الدية فقط ، ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى . قوله (ولكم في القصاص حياة) أى لكم في هذا الحكم الذى شرعه الله لكم حياة ، لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصا إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه ، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية . وهذا نوع من البلاغة بليغ ، وجنس من الفصاحة رفيع ، فإنه جعل القصاص الذى هو موت حياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا ، إبقاء على أنفسهم واستدامة حياتهم ؛ وجعل هذا الخطاب موجها إلى أولى الألباب . لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب ويتحامون ما فيه الضرر الآجل ؛ وأما من كان مصابا بالحمق والطيش والخفة فإنه لا ينظر عند سورة غضبه وغليان مراحله طيشه إلى عاقبة ولا يفكر في أمر مستقبل ، كما قال بعض فتاكهم :

سأغسل غنى العار بالسيف جالبا على قضاء الله ما كان جالبا

ثم علل سبحانه هذا الحكم الذى شرعه لعباده بقوله (لعلكم تتقون) أى تتحامون القتل بالمحافظة على القصاص ؛ فيكون ذلك سببا للتقوى . وقرأ أبو الجوزاء (ولكم في القصاص حياة) قيل أراد بالقصاص القرآن : أى لكم في كتاب الله الذى شرع فيه القصاص حياة : أى نجاة ؛ وقيل أراد حياة القلوب ؛ وقيل هو مصدر بمعنى القصاص ، والكل ضعيف ، والقراءة به منكرة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : إن حين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء ، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا ، فكان أحد الحيين يتناول على الآخر في العدة والأموال ، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، وبالمراة منا الرجل منهم ، فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : كانوا لا يقتلون الرجل بالمراة ، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة والمرأة ، فأنزل الله - النفس بالنفس - فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم في العمد رجالهم ونساءهم في النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستوين في العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساءهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي مالك قال : كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول فكأنهم طلبوا الفضل ، فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليصلح بينهم ، فنزلت هذه الآية (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) قال ابن عباس : فنسخها - النفس بالنفس - وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس (فمن عفى له) قال : هو العمد رضى أهله بالعفو . (فاتباع بالمعروف) أمر به الطالب (وأداء إليه بإحسان) من القابل ، قال : يؤدى المطلوب بإحسان . (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) مما كان على بني إسرائيل . وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عنه من وجه آخر . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم ، فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص في القتلى) إلى قوله (فمن عفى له من أخيه شيء) فالعفو أن تقبل الدية في العمد (فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك

تخفيف من ربكم ورحمة) مما كتب على من كان قبلكم (فمن اعتدى بعد ذلك) قيل بعد قبول الدية (فله عذاب أليم) وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو ليس بينهما أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو العفو أمروا به، وجعل الله لهذه الأمة القتل والعفو والدية إن شاءوا أحلها لهم ولم تكن لأمة قبلهم. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها أبدا». وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه إذا قتل بعد أخذ الدية فله عذاب عظيم، قال: فعليه القتل لا تقبل منه الدية. قال وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «لا أعافى رجلا قتل بعد أخذ الدية» وأخرج سمويه في فوائده عن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكر مثله. وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة أنه قال: يقتل. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (ولكم في القصاص حياة) قال: جعل الله في القصاص حياة ونكالا وعظة إذا ذكره الظالم المعتدى كفى عن القتل. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله (لعلكم تتقون) قال: لعلك تتق أن تقتله فتقتل به. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (يا أولى الألباب) قال: من كان له لب يذكر القصاص فيحجزه خوف القصاص عن القتل (لعلكم تتقون) قال: لكي تتقوا الدماء مخافة القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا
إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢).

قد تقدم معنى (كتب) قريبا، وحضور الموت: حضور أسبابه وظهور علاماته، ومنه قول عنترة:

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندواني

وقال جرير: أنا الموت الذي حدثت عنه فليس لهارب مني نجاة

وإنما لم يؤنث الفعل المسند إلى الوصية، وهو (كتب) لوجود الفاصل بينهما - وقيل لأنها بمعنى الإيصاء، وقد روى جواز إسناد ما لا تأنيث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل. وقد حكى سيويه: قام امرأة، وهو خلاف ما أطبق عليه أئمة العربية، وشرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصي خيرا. واختلف في جواب هذا الشرط ما هو؟ فروى عن الأخفش وجهان:

أحدهما أن التقدير: إن ترك خيرا فالوصية، ثم حذفت الفاء كما قال الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

والثاني: أن جوابه مقدّر قبله: أي كتب الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا. واختلف أهل العلم في مقدار الخير، فقليل مازاد على سبعمائة دينار، وقيل ألف دينار؛ وقيل مازاد على خمسمائة دينار. والوصية

في الأصل : عبارة عن الأمر بالشئ والعهد به في الحياة وبعد الموت ، وهي هنا : عبارة عن الأمر بالشئ بعد الموت . وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده وديعة أو نحوها . وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيرا أو غنيا ، وقالت طائفة : إنها واجبة . ولم يبين الله سبحانه هاهنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين والأقربين ؛ فقبل الخمس ؛ وقبل الربع ؛ وقبل الثلث . وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ؟ فذهب جماعة إلى أنها محكمة ، قالوا : وهي وإن كانت عامة فعناها الخصوص . والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالأبوين الكافرين ومن هو في الرق ، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم . قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال كثير من أهل العلم : إنها منسوخة بآية المواريث مع قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا وصية لوارث » وهو حديث صححه بعض أهل الحديث ، وروى من غير وجه . وقال بعض أهل العلم : إنه نسخ الوجوب ونفى الندب ، وروى عن الشعبي والنخعي ومالك . قوله (بالمعروف) أى العدل لا وكس فيه ولا شطط . وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه . وقوله (حقا) مصدر معناه الثبوت والوجوب . قوله (فن بدله) هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية ، وكذلك الضمير في قوله (سمعه) والتبديل : التغيير ، والضمير في قوله (فلإنما إثم) راجع إلى التبديل المفهوم من قوله (بدله) وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا جنف فيها ولا مضارة ، وأنه ييؤء بالإثم ، وليس على الموصى من ذلك شئ ، فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به . قال القرطبي : ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز ، مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو شئ من المعاصي أنه يجوز تبديله ، ولا يجوز إمضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث . قاله أبو عمر انتهى . والجنف : المجاوزة ، من جنف يحنف : إذا جاوز ، قاله النحاس ؛ وقبل الجنف : الميل ، ومنه قول الأعشى :

تحنف عن حجر اليمامة يافى وما قصدت من أهلها لسوائكا

قال في الصحاح : الجنف الميل ، وكذا في الكشف . وقال ليلى :

إني امرؤ منعت أرومة عامر ضيمي وقد جنفت على خصومي

وقوله (فأصلح بينهم) أى أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية بإبطال ما فيه ضرر ومخالفة لما شرعه الله ، وإثبات ما هو حق كالوصية في قرابة لغير وارث ، والضمير في قوله (بينهم) راجع إلى الورثة ، وإن لم يتقدم لهم ذكر ، لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق ؛ وقبل راجع إلى الموصى لهم ، وهم الأبوان والقرابة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن ترك خيرا) قال : مالا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه عن عروة ، أن علي بن أبي طالب دخل على مولى لهم في الموت وله سبعمائة درهم أو ستمائة درهم فقال : ألا أوصى ؟ قال لا ؟ إنما قال الله (إن ترك خيرا) وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي عن عائشة ، أن رجلا قال لها : أريد أن أوصى قالت : كم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف ، قالت : كم عيالك ؟ قال : أربعة ، قالت : قال الله (إن ترك خيرا) وإن هذا شئ يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقي عن ابن عباس قال : إذا ترك الميت سبعمائة درهم فلا يوصى .
وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الزهري . قال : جعل الله الوصية حقاً مما قلّ منه ومما كثر . وأخرج
عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكر حديثاً وفيه « انظر
قربتك الذين يحتاجون ولا يرثون ، فأوص لهم من مالك بالمعروف » وأخرج أيضاً عن طاوس قال : من أوصى
لقوم وسماهم وترك ذوى قرابته محتاجين انتزعت منهم وردت على قرابته . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن
حميد وأبو داود في النسخ وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن محمد بن بشير عن ابن
عباس قال : نسخت هذه الآية : وأخرج عنه من وجه آخر أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم أن هذه
الآية نسخها قوله تعالى - للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون - الآية . وأخرج عنه من وجه آخر ابن جرير
وابن أبي حاتم أنها منسوخة بآية الميراث . وأخرج عنه أبو داود في سننه والبيهقي مثله . وأخرج ابن جرير عنه أنه
قال : في الآية نسخ من يرث ، ولم ينسخ الأقربين الذين لا يرثون . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير
وابن المنذر والبيهقي عن ابن عمر أنه قال : هذه الآية نسخها آية الميراث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن
أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فمن بدّله) الآية ، قال : وقد وقع أجر الموصى على الله وبرئ من إثمه ، وقال
في قوله (جنفاً) يعني إثمًا (فأصلح بينهم) قال : إذا أخطأ الميت في وصيته أو حاف فيها فليس على الأولياء حرج
أن يردوا خطأه إلى الصواب . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه لكنه فسر الجحف بالميل . وأخرج ابن
جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (جنفاً أو إثمًا) قال : خطأ أو عمداً . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي
في سننه عنه قال : الجحف في الوصية والإضرار فيها من الكبائر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) .

قد تقدّم معنى (كتب) ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على
هذه الأمة . والصيام أصله في اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال ؛ ويقال للصمت صوم لأنه إمساك
عن الكلام ، ومنه - إني نذرت للرحمن صوماً - أي إمساكاً عن الكلام ، ومنه قول النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة نحت العجاج وخيل تعلق اللجما

أي خيل ممسكة عن الجري والحركة . وهو في الشرع : الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب
الشمس . وقوله (كما كتب) أي صوماً كما كتب على أن الكاف في موضع نصب على النعت ، أو كتب عليكم
الصيام مشياً ما كتب على أنه في محل نصب على الحال . وقال بعض النحاة : إن الكاف في موضع رفع نعتاً للصيام ،
وهو ضعيف لأن الصيام معروف باللام ، والضمير المستتر في قوله (كما كتب) راجع إلى ما . واختلف المفسرون
في وجه التشبيه ما هو ؛ فقل هو قلة الصوم ووقته ، فإن الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغفروا ؛

وقيل هو الوجوب ، فإن الله أوجب على الأمم الصيام ؛ وقيل هو الصفة : أى ترك الأكل والشرب ونحوهما في وقت ؛ فعلى الأول معناه : أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم ؛ وعلى الثاني : أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم ؛ وعلى الثالث : أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم . وقوله تعالى (لعلكم تتقون) بالمحافظة عليها ؛ وقيل تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة ، لأنها تكسر الشهوة وتضعف دواعي المعاصي ، كما ورد في الحديث أنه جنة وأنه وجاء . وقوله (أياما) منتصب على أنه مفعول ثان لقوله (كتب) قاله الفراء : وقيل إنه منتصب على أنه ظرف : أى كتب عليكم الصيام في أيام . وقوله (معدودات) أى معينات بعد معلوم ، ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة إشارة إلى تقليل الأيام . وقوله (فمن كان منكم مريضا) قيل للمريض حالتان : إن كان لا يطبق الصوم كان الإفطار عزيمة ، وإن كان يطبقه مع تضرر ومشقة كان رخصة ، وبهذا قال الجمهور وقوله (على سفر) اختلف أهل العلم في السفر المباح للإفطار ؛ فقيل مسافة قصر الصلاة ، والخلاف في قدرها معروف ، وبه قال الجمهور ، وقال غيرهم بمقادير لادليل عليها . والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذى يباح عنده الفطر ، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذى يباح عنده الفطر . وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة . واختلفوا في الأسفار المباحة ، والحق أن الرخصة ثابتة فيه ، وكذا اختلفوا في سفر المعصية . وقوله (فعدة) أى فعلية عدة ، أو فالحكم عدة ، أو فالواجب عدة ؛ والعدة فعلة من العدد ، وهو بمعنى المعدود . وقوله (من أيام آخر) قال سيبويه : ولم ينصرف لأنه معدول به عن الآخر ، لأن سبيل هذا الباب أن يأتي بالآلف واللام . وقال الكسائي : هو معدول به عن آخر ؛ وقيل إنه جمع أخرى ، وليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاء . قوله (وعلى الذين يطيقونه) قراءة الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء ، وأصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء ، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وقرأ حميد على الأصل من غير إعلال . وقرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو : أى يكلفونه . وروى ابن الأنباري عن ابن عباس « يطيقونه » بفتح الياء وتشديد الطاء والياء مفتوحين بمعنى يطيقونه . وروى عن عائشة وابن عباس وعمرو بن دينار وطاوس أنهم قرءوا « يطيقونه » بفتح الياء وتشديد الطاء مفتوحة . وقرأ أهل المدينة والشام (فدية طعام) مضافا . وقرءوا أيضا (مساكين) وقرأ ابن عباس (طعام مسكين) وهى قراءة أبي عمرو وعاصم وحمة والكسائي . وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية ، هل هى محكمة أو منسوخة ؛ فقيل إنها منسوخة ، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام لأنه شق عليهم ، فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم وهو يطيقه ، ثم نسخ ذلك ، وهذا قول الجمهور . وروى عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ ، وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة ، وهذا يناسب قراءة التشديد : أى يكلفونه كما مر . والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) . وقد اختلفوا في مقدار الفدية ؛ فقيل كل يوم صاع من غير البر ، ونصف صاع منه ؛ وقيل مد فقط . وقوله (فمن تطوع خيرا فهو خير له) . قال ابن شهاب : معناه من أراد الإطعام مع الصوم . وقال مجاهد معناه : من زاد في الإطعام على المد ؛ وقيل من أطعم مع المسكين مسكينا آخر . وقرأ عيسى بن عمرو ويحيى بن وثاب وحمة والكسائي « يطوع » مشددا مع جزم الفعل على معنى يتطوع ، وقرأ الباقر بتخفيف الطاء على أنه فعل ماض . وقوله (وأن تصوموا خير لكم) معناه : أن الصيام خير لهم من الإفطار مع الفدية ، وكان هذا قبل النسخ ؛ وقيل معناه : وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن معاذ ابن جبل قال : أحملت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال ، فذكر أحوال الصلاة ثم قال : وأما أحوال الصيام ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدم المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وصام عاشوراء ، ثم إن الله سبحانه فرض عليه الصيام وأنزل عليه (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) إلى قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فأثبت الله صيامه على الصحيح المقيم ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، ثم ذكر تمام الحديث . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كما كتب على الذين من قبلكم) قال : يعنى بذلك أهل الكتاب . وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني عن دغفل بن حنظلة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان على النصارى صوم شهر رمضان ، فرض ملكهم فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدنّ عشرا ، ثم كان آخر فأكل لحما فأوجع فوه فقال : لئن شفاه الله لنزيدنّ سبعة ، ثم كان عليهم ملك آخر فقال : ماندهم من هذه الثلاثة الأيام شيئا أن نتمها ونجعل صومنا في الربيع ، ففعل فصارت خمسين يوما » وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (لعلكم تتقون) قال : تتقون من الطعام والشراب والنساء مثل ما اتقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحو ما سبق عن معاذ . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم » . وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت : كان عاشوراء صياما ، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر . وأخرج عبد بن حميد أن ابن عباس قال : إن قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه) قد نسخت . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه نحو ذلك ، وزاد أن الناسخ لها قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر) الآية . وأخرج نحو ذلك عنه أبو داود في ناسخه . وأخرج نحوه عنه أيضا سعد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من شاء صام ، ومن شاء أن يفطر ويفتدي فعل ، حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها (فمن شهد منكم الشهر) . وأخرج البخاري عن ابن أبي ليلى قال : حدثنا أصحاب محمد ، فذكر نحوه . وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله (وعلى الذين يطيقونه) قال : الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم فيفطر ويطعم مكان كل يوم مسكينا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والدارقطني والبيهقي ، أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عاما قبل موته ، فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والدارقطني وصححه عن ابن عباس أنه قال لأم ولد له حامل أو مرضعة : أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصيام ، عليك الطعام لا قضاء عليك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والدارقطني عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان وهي حامل ، قال : تفطر وتطعم كل يوم مسكينا ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله (فمن تطوع خيرا) قال : أطعم مسكينين . وأخرج عبد بن حميد عن طاوس في قوله (فمن تطوع خيرا) قال : إطعام مساكين . وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب في قوله (وأن تصوموا خير لكم) أي أن الصوم خير لكم من الفدية . وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جدا .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥).

(رمضان) مأخوذ من رمض الصائم يرمض : إذا احترق جوفه من شدة العطش ، والرمضاء ممدود : شدة الحر ، ومنه الحديث الثابت في الصحيح « صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال » أي أحرقت الرمضاء أجوافها . قال الجوهري : وشهر رمضان يجمع على رمضان وأرمضاء - يقال إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام الحر فسمى بذلك وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب : أي يحرقها بالأعمال الصالحة . وقال الماوردي : إن اسمه في الجاهلية ناتق ، وأنشد المفضل :

وفي ناتق أجلت لدى حومة الوغا وولت على الأدبار فرسان خثعما

وإنما سموه بذلك لأنه كان ينتقم لشدة عليهم ، وشهر مرتفع في قراءة الجماعة على أنه مبتدأ خبره (الذي أنزل فيه القرآن) أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أي المفروض عليكم صومه شهر رمضان ، ويجوز أن يكون بدلا من الصيام المذكور في قوله تعالى (كتب عليكم الصيام) . وقرأ مجاهد وشهر بن حوشب بنصب الشهر ، ورواها هارون الأعور عن أبي عمرو وهو منتصب بتقدير الزموا أو صوموا . قال الكسائي والقراء : إنه منصوب بتقدير فعل « كتب عليكم الصيام وأن تصوموا » وأنكر ذلك النحاس وقال : إنه منصوب على الإغراء . وقال الأخفش : إنه نصب على الظرف ، ومنع الصرف للألف والنون الزائدتين . قوله (أنزل فيه القرآن) قيل أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم كان جبريل ينزل به نجما نجما . وقيل أنزل فيه أوله ، وقيل أنزل في شأنه القرآن ، وهذه الآية أعم من قوله تعالى - إنا أنزلناه في ليلة القدر - . وقوله - إنا أنزلناه في ليلة مباركة - يعني ليلة القدر . والقرآن اسم لكلام الله تعالى ، وهو بمعنى المقروء كالمشروب سمي شرابا ، والمكتوب سمي كتابا ، وقيل هو مصدر قرأ يقرأ ، ومنه قول الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أي قراءة ، ومنه قوله تعالى - وقرآن الفجر - أي قراءة الفجر . وقوله (هدى للناس) منتصب على الحال : أي هاديا لهم . وقوله (وبينات من الهدى) من عطف الخاص على العام لإظهارا لشرف المعطوف بإفراده بالذكر ، لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه ، والبينات تختص بالمحكم منه . والفرقان : ما فرق بين الحق والباطل : أي فصل . قوله (فمن شهد منكم الشهر) أي حضر ولم يكن في سفر بل كان مقيا ، والشهر منتصب على أنه ظرف ، ولا يصح أن يكون مفعولا به . قال جماعة من السلف والخلف : إن من أدركه شهر رمضان مقيا غير مسافر لزمه صيامه ، سافر بعد ذلك أو أقام استدلالا بهذه الآية . وقال الجمهور : إنه إذا سافر أفطر ، لأن معنى الآية : إن حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه وسافر فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره ، وهذا هو الحق ، وعليه دلت الأدلة الصحيحة من السنة . وقد كان يخرج صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان فيفطر . وقوله (فمن كان منكم مريضا

أو على سفر فعدة من أيام أخر (قد تقدم تفسيره . وقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ، ومراد من مراداته في جميع أمور الدين ، ومثله قوله تعالى - وما جعل عليكم في الدين من حرج - وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يرشد إلى التيسير وينهى عن التعسير كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وهو في الصحيح . واليسر السهل الذي لا عسر فيه . وقوله (وتكملوا العدة) الظاهر أنه معطوف على قوله (يريد الله بكم اليسر) أي يريد بكم اليسر ، ويريد إكمالكم للعدة وتكبيركم ؛ وقيل إنه متعلق بمحذوف تقديره : رخص لكم هذه الرخصة لتكمالوا العدة ، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملوا العدة . وقد ذهب إلى الأول البصريون قالوا : والتقدير يريد لأن تكمالوا العدة ، ومثله قول كثير بن صخر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلا بكل سبيل

وذهب الكوفيون إلى الثاني ؛ وقيل الواو مقحمة ؛ وقيل إن هذه اللام لام الأمر ، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها . وقال في الكشف : إن قوله (لتكملوا العدة) علة للأمر بمراعاة العدة (وتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير ، والمراد بالتكبير هنا : هو قول القائل الله أكبر . قال الجمهور ومعناه الحضي على التكبير في آخر رمضان . وقد وقع الخلاف في وقته ، فروى عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر وقيل إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة وقيل إلى خروج الإمام ؛ وقيل هو التكبير يوم الفطر . قال مالك : هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام ، وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : يكبر في الأضحى ولا يكبر في الفطر . وقوله (ولعلكم تشكرون) قد تقدم تفسيره .

وقد أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن عدي والبيهقي في سننه عن أبي هريرة مرفوعا وموقوفا « لاتقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، ولكن قولوا شهر رمضان » . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وثبت عنه أنه قال « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وثبت عنه أنه قال « شهرا عيد لا ينقصان : رمضان وذو الحجة » وقال « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة » وهذا كله في الصحيح . وثبت عنه في أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول رمضان بدون ذكر الشهر . وأخرج ابن مردويه والأصبهاني في الترغيب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنما سمي رمضان لأن رمضان يرمض الذنوب » وأخرج أيضا عن عائشة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن ابن عمر نحوه . وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزل الزبور لثماني عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله ، لكنه قال « وأنزل الزبور الاثني عشر » وزاد « وأنزل التوراة لست خلون من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثماني عشرة خلت من رمضان » وأخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر ، إلا أنها لم تذكر نزول القرآن . وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن مقسم قال : سأل عطية بن الأسود ابن عباس فقال : إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) . وقوله - إنا أنزلناه

في ليلة القدر - وقوله - إنا أنزلناه في ليلة مباركة - فقال ابن عباس إنه أنزل في ليلة القدر وفي رمضان وفي ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلا في الشهور والأيام . وأخرج محمد بن نصر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه ، والبيهقي والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة لأربعة وعشرين من رمضان ، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترتيبا . وأخرج ابن جرير عنه أنه قال « ليلة القدر هي الليلة المباركة وهي في رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور » . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (هدى للناس) قال : يهتدون به (وبينات من الهدى) قال : فيه الحلال والحرام والحدود . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس في قوله (فنشهد منكم الشهر فليصمه) قال : هو إلهاله بالدار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن علي قال : من أدرك رمضان وهو مقيم ثم سافر فقد لزمه الصوم لأن الله يقول (فنشهد منكم الشهر فليصمه) . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (يريد الله بكم اليسر) قال : اليسر الإفطار في السفر ، والعسر : الصوم في السفر . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله (ولتكموا العدة) قال : عدة شهر رمضان . وأخرج ابن جرير عن الضحاك : أنه قال : عدة ما أفطر المريض في السفر . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين يوما » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم ، لأن الله يقول (ولتكموا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه كان يكبر : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر والله الحمد . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه كان يكبر : الله أكبر كبيرا ، الله أكبر كبيرا الله أكبر والله الحمد وأجل ، الله أكبر على ما هدانا .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) .

قوله (وإذا سألك عبادي عني) يحتمل أن السؤال عن القرب والبعد كما يدل عليه قوله (فإنني قريب) ويحتمل أن السؤال عن إجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله (أجيب دعوة الداع) ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك ، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي سيأتي بيانه . وقوله (فإنني قريب) قيل بالإجابة ، وقيل بالعلم ، وقيل بالإنعام . وقال في الكشف : إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة إنجابه حاجة من سأله بمن قرب مكانه ، فإذا دعى أسرع تلبية . ومعنى الإجابة هو معنى ما في قوله تعالى - ادعوني أستجب لكم - وقيل معناه : أقبل عبادة من عبدني بالدعاء لما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من أن الدعاء هو العبادة ، كما أخرجه أبو داود وغيره من حديث النعمان بن بشير ، والظاهر أن الإجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي ، وكون الدعاء من العبادة لا يستلزم أن الإجابة هي القبول للدعاء : أي جعله عبادة متقبلة ، فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة . والمراد أنه سبحانه يجب بما شاء وكيف شاء ، فقد يحصل المطلوب قريبا وقد يحصل بعيدا ، وقد يدفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه ، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعائه ، كما في قوله سبحانه

- ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين - ومن الاعتداء أن يطلب ما لا يستحقه ولا يصلح له ، كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء أو فوقها . وقوله (فليستجيبوا لي) أي كما أجبتهم إذا دعوني فليستجيبوا لي فيما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعات ؛ وقيل معناه : أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له : أي التقيام بما أمرهم به وترك لما نهاهم عنه . والرشد خلاف الغي ، رشد يرشد رشدا . ورشدا . قال الهروي : الرشد والرشد والرشد : الهدى والاستقامة . قال : ومنه هذه الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أقریب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن قال : سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين ربنا ؟ فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن أنس أنه سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين ربنا ؟ فنزلت . وأخرج ابن عساكر في ينجيه عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تعجزوا عن الدعاء ، فإن الله أنزل على - ادعوني أستجب لكم فقال رجل : يا رسول الله ربنا يسمع الدعاء أم كيف ذلك فأنزل الله هذه الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء أنه بلغه لما نزلت - ادعوني أستجب لكم - قالوا : لو نعلم أي ساعة ندعو فنزلت . وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « مامن مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » . وثبت في الصحيح أيضا من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي » . وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله (فليستجيبوا لي) قال : ليدعوني (وليؤمنوا بي) أي أنهم إذا دعوني استجبت لهم . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال (فليستجيبوا لي) أي فليطيعوني . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الربيع بن أنس في قوله (لعلهم يرشدون) قال : يهتدون .

أَحْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) .

قوله (أحل لكم) فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حراما عليهم ، وهكذا كان كما يفيد السبب لنزول الآية وسبأني . والرفث : كناية عن الجماع . قال الزجاج : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته ، وكذا قال الأزهرى ، ومنه قول الشاعر :

ويرين من أنس الحديث زوانيا وبين عن رفق الرجال نفار

وقيل الرفث : أصله قول الفحش ، رفث وأرفث : إذا تكلم بالقبيح ، وليس هو المراد هنا ، وعدى الرفث إلى التضمينه معنى الإمضاء ، وجعل النساء لباسا للرجال ، والرجال لباسا لهن لا متزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولا يسه. قال أبو عبيدة وغيره : يقال للمرأة لباس وفراش وإزار . وقيل إنما جل كل واحد منهما لباسا للآخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس . وقوله (تختانون أنفسكم) أى تخونونها بالمباشرة فى ليلى الصوم ، يقال خان واختان بمعنى ، وهما من الخيانة . قال القتيبي : أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدى الأمانة فيه انتهى . وإنما هم خائنون لأنفسهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم وقوله (فتاب عليكم) يحتمل معنيين : أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم ، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة كقوله - علم أن لن تحصوه فتاب عليكم - يعنى خفف عنكم ، وكقوله - فن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله - يعنى تخفيفا ، وهكذا قوله (وعفا عنكم) يحتمل العفو من الذنب ، ويحتمل التوسعة والتسهيل . وقوله (وابتغوا) قيل هو الولد : أى ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل ، وقيل المراد ابتغوا القرآن بما أبيع لكم فيه قاله الزجاج وغيره ؛ وقيل ابتغوا الرخصة والتوسعة ؛ وقيل ابتغوا ما كتب لكم من الإماء والزوجات ؛ وقيل غير ذلك مما لا يفيد النظم القرآنى ، ولا دل عليه دليل آخر ، وقرأ الحسن البصرى « واتبعوا » بالعين المهملة من الإتياع ، وقوله (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هو تشبيه بليغ ، والمراد هنا بالخيط الأبيض : هو المعترض فى الأفق ، لا الذى هو كذب السرحان ، فإنه الفجر الكذاب الذى لا يحل شيئا ولا يجرمه . والمراد بالخيط الأسود : سواد الليل ، والتبين : أن يمتاز أحدهما عن الآخر ، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر . وقوله (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فيه التصريح بأن للصوم غاية هى الليل ، فعند إقبال الليل من المشرق وإدبار النهار من المغرب يفطر الصائم ويحل له الأكل والشرب وغيرهما . وقوله (ولا تباشروهن) وأنتم عاكفون فى المساجد) قيل المراد بالمباشرة هنا الجماع ؛ وقيل تشمل التقبيل واللمس إذا كانا لشهوة لا إذا كانا لغير شهوة ، فهما جائزان كما قاله عطاء والشافعى وابن المنذر وغيرهم ، وعلى هذا يحتمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل ، فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة ، والاعتكاف فى اللغة : الملازمة ، يقال عكف على الشيء : إذا لازمه ، ومنه قول الشاعر وظل بنات الليل حولى عكفا عكوف البواكى حولن صريع

ولما كان المعتكف يلزم المسجد قيل له عاكف فى المسجد ومعتكف فيه ، لأنه يحبس نفسه لهذه العبادة فى المسجد والاعتكاف فى الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص . وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب وعلى أنه لا يكون إلا فى مسجد ، وللاعتكاف أحكام مستوفاة فى كتب الفقه وشروح الحديث . وقوله (تلك حدود الله) أى هذه الأحكام حدود الله . وأصل الحد المنع ، ومنه سمي البواب والسجان حدادا ، وسميت الأوامر والنواهي حدود الله ، لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها ، وأن يخرج عنها ما هو منها ، ومن ذلك سمي الحدود حدودا لأنها تمنع أصحابها من العود . ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعدىها بالمخالفة لها ، وقيل إن حدود الله هى محارمه فقط ، ومنها المباشرة من المعتكف والإفطار فى رمضان لغير عذر وغير ذلك مما سبق النهى عنه ، ومعنى النهى عن قربانها على هذا واضح . وقوله (كذلك بين الله آياته) أى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات

المادية إلى الحق وقد أخرج البخارى وأبو داود والنسائي وغيرهم عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما ، فكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته ، فلما رآته نائما قالت : خيبة لك أمت ؟ فلما انتصف النهار غشى عليه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام) إلى قوله (من الفجر) ففرحوا بها فرحا شديدا . وأخرج البخارى أيضا من حديثه قال : لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، فكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) الآية . وقد روى في بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام ، ثم قال : وإن عمر بن الخطاب أتى امرأته ، ثم أتى رسول الله فقال : يا رسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي ، وذكر ما وقع منه ، فنزل قوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : إن المسلمين كانوا في شهر رمضان ، إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة ، ثم إن ناسا من المسلمين أصابوا النساء والطعام في رمضان بعد العشاء ، منهم عمر بن الخطاب ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله (أحل لكم ليلة الصيام) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الرفث الجماع . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : الدخول والتغشى والإفشاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع ، غير أن الله حيي كريم يكتفي بما شاء عما شاء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) قال : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد : قواه (تختانون أنفسكم) قال : تظلمون أنفسكم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فالآن باشروهن) قال : انكحوهن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال : الولد . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وقناة والضحاك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال : ليلة القدر . وأخرج البخارى في تاريخه عن أنس مثله . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال (وابتغوا) الرخصة التي كتب الله لكم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد . قال : أنزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله (من الفجر) فعلموا أنه يعني الليل والنهار . وفي الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم ، أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود ، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ، فقال : إن وسادك إذا لعريض ، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل . وفي رواية في البخارى وغيره . إنه قال له : إنك لعريض القفا . وفي رواية عند ابن جرير وابن أبي حاتم : أنه ضحك منه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك قال : كانوا يجامعون وهم معتكفون حتى نزلت (ولا تباشروهن)

وأنتم عاكفون في المساجد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه . . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال « إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه ويستأنف » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (تلك حدود الله) قال : يعني طاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال (حدود الله) معصية الله : يعني المباشرة في الاعتكاف . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها الجماع . وأخرج أيضا عن سعيد بن جبيرة في قوله (كذلك) يعني هكذا بين الله .

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) .

هذا يعم جميع الأمة وجميع الأموال ، لا يخرج عن ذلك إلا ماورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه ، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل ، وما كول بالحل لا بالإثم ، وإن كان صاحبه كارها كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه ، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها ، ونفقة من أوجب الشرع نفقته . والحاصل أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكة ، فهو مأكول بالباطل وإن طابت به نفس مالكة : كمهر البغي ، وحلوان الكاهن ، وثمن الخمر . والباطل في اللغة : الذاهب الزائل . وقواه (وتدلوا) مجزوم عطفًا على تأكلوا فهو من جملة المنهى عنه ، يقال أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر ، يقال أدلى دلوه : أرسلها ، والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة ، وفي هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال والفروج ، فمن حكم له القاضي بشيء مستند في حكمه إلى شهادة زور أو يمين فجور فلا يحل له أكاه ، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وهكذا إذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فإنه من أكل أموال الناس بالباطل . ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال . وقد روى عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك ، وهو مردود لكتاب الله تعالى ولسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في حديث أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » وهو في الصحيحين وغيرهما . وقوله (فريقًا) أي قطعة أو جزءًا أو طائفة ، فعبر بالفريق عن ذلك ، وأصل الفريق : القطة من الغنم تشد عن معظمها . وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس بالإثم ، وسمى الظلم والعدوان إثما باعتبار تعلقه بفاعله . وقواه (وأنتم تعلمون) أي حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء ، وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قواه (ولا تأكلوا أموالكم) الآية ، قال : هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه . وروى سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد قال : معناها لا تخصم وأنت تعلم أنك ظالم . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة أن امرأة القيس بن عابس وعبدان بن أشوع الحضرمي اختصما في أرض ، وأراد امرؤ القيس أن يحلف ، فنزلت (ولا تأكلوا أموالكم) الآية .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ
مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

قوله (يسألونك) سيأتي بيان من هم السائلون له صلى الله عليه وآله وسلم ، والأهلة جمع هلال ، وجمعها باعتبار هلال كل شهر ، أو كل ليلة ، تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذوات ، والهلال : اسم لما يبدو في أول الشهر وفي آخره . قال الأصمعي : هو هلال حتى يستدير - وقيل هو هلال حتى ينير بضوئه السماء وذلك ليلة السابع . وإنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته ، ومنه استهل الصبي : إذا صاح ، واستهل وجهه وتهلل : إذا ظهر فيه السرور . قوله (قل هي مواقيت للناس والحج) فيه بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه ، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجازات والإيمان وغير ذلك ، ومثله قوله تعالى - لتعلموا عدد السنين والحساب - والمواقيت جمع الميقات ، وهو الوقت . وقراءة الجمهور « والحج » بفتح الحاء . وقرأ ابن أبي إسحاق بكسرها في جميع القرآن . قال سيبويه : الحج بالفتح كالرد والشدة ، وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى : وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر الاسم . وإنما أفرد سبحانه الحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، ولا يجوز فيه النسيء عن وقته ، ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها . وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب ، أعني قوله (قل هي مواقيت) من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب ، تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل ، وأحق بأن يتطلع لعلمه . قوله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الأنصار كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه ، لأنهم يعتقدون أن الحرم لا يجوز أن يحول بينه وبين السماء حائل ، وكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم . وقال أبو عبيدة : إن هذا من ضرب المثل ، والمعنى : ليس البر أن تسألوا الجهال ، ولكن البر التقوى وأسألوا العلماء كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابي ، وقيل هو مثل في جماع النساء ، وأنهم أمروا بإتياتهن في القبل لا في الدبر ، وقيل غير ذلك . والبيوت جمع بيت ، وقرئ بضم الباء وكسرها . وقد تقدم تفسير التقوى والفلاح ، وسبق أيضا أن التقدير في مثل قوله (ولكن البر من اتقى) ولكن البر بر من اتقى .

وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس في قوله تعالى (يسألونك عن الأهلة) قال : نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عثمة . وهما رجلان من الأنصار قالوا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقا مثل الحيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد ؟ فنزلت (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس) في حل دينهم ولصومهم ولفطرم وعدد نسائهم والشروط التي إلى أجل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الأهلة لم جعلت ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الأهلة) الآية ، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم وعدد نسائهم ومحل دينهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية نحوه . وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس نحوه . وقد

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرويته وأفطروا لرويته ، فإن غمّ عليكم فعدّوا ثلاثين يوما » . وأخرج أحمد والطبراني وابن عدى والدارقطني بسند ضعيف عن طلق بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكر نحوه حديث ابن عمر . وأخرج البخاري وغيره عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فنزلت (وليس البر) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن جابر قال : كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري ، فقالوا : يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، فقال : إني رجل أحسى ، قال : فإن ديني دينك ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه . وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ
جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدُونِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) .

لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعا قبل الهجرة لقوله تعالى - فاعف عنهم واصفح - وقوله - واهجرهم هجرا جميلا - وقوله - لست عليهم بمسيطر - وقوله - ادفع بالتي هي أحسن - ونحو ذلك مما نزل بمكة ؛ فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ، ونزلت هذه الآية ؛ وقيل إن أول ما نزل قواه تعالى - أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا - فلما نزلت الآية كان صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل من قاتله ، ويكف عن كف عنه حتى نزل قواه تعالى - اقاتلوا المشركين - وقوله تعالى - وقاتلوا المشركين كافة - . وقال جماعة من الساف : إن المراد بقواه (الذين يقاتلونكم) من عدا النساء والصبيان والرهبان ونحوهم ، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة ، والمراد بالاعتداء عند أهل القول الأول هو مقاتلة من يقاتل من الطوائف الكفرية . والمراد به على القول الثاني مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره . قوله (حيث ثقفتموهم) يقال ثقف يثقف ثقفا ، ورجل ثقيف : إذا كان محكما لما يتناوله من الأمور . قال في الكشف : والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ، ومنه رجل ثقف : سريع الأخذ لأقرانه انتهى . ومنه قول حسان :

فلما يثقفن بني لوى جذيمة إن قتلهم دواء

قوله (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي مكة . قال ابن جرير : الخطاب للمهاجرين ، والضمير الكفار

قريش انتهى . وقد امثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر ربه ، فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه . قوله (والفتنة أشد من القتل) أى الفتنة التى أرادوا أن يفتنوكم ، وهى رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل ؛ وقيل المراد بالفتنة : المحنة التى تنزل بالإنسان فى نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه ؛ وقيل إن المراد بالفتنة الشرك الذى عليه المشركون ، لأنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ، فأخبرهم الله أن الشرك الذى هم عليه أشد مما يستعظمونه ؛ وقيل المراد فتنهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم فى الحرم أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم . والظاهر أن المراد الفتنة فى الدين بأى سبب كان ، وعلى أى صورة اتفقت ، فإنها أشد من القتل . قوله (ولا تقتلوه عند المسجد الحرام) الآية ، اختلف أهل العلم فى ذلك ، فذهب طائفة إلى أنها محكمة ، وأنه لا يجوز القتال فى الحرم إلا بعد أن يتعدى بالقتال فيه فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له ، وهذا هو الحق . وقالت طائفة : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - ويحاج عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن بين العام على الخاص ، فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم ، ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : إنما لم يحل لأحد قبلى ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وهو فى الصحيح . وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله صلى الله عليه وآله وسلم لابن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة : ويحاج عنه بأنه وقع فى تلك الساعة التى أحل الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (فإن انتهوا) أى عن قتالكم ودخلوا فى الإسلام . قوله (وقاتلوه حتى لا تكون فتنة) فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هى أن لا تكون فتنة وأن يكون الدين لله ، وهو الدخول فى الإسلام ، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له ، فن دخل فى الإسلام وأقنع عن الشرك لم يحل قتاله ؛ قيل المراد بالفتنة هنا الشرك ، والظاهر أنها الفتنة فى الدين على عمومها كما سلف . قوله (فلا عدوان إلا على الظالمين) أى لا تعتدوا إلا على من ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ، ولم يدخل فى الإسلام ، وإنما سمى جزاء الظالمين عدوانا مشاكلة كقوله تعالى - وجزاء سيئة سيئة مثلها - . وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله) الآية أنها أول آية نزلت فى القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله ، ويكف عن كفه عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى هذه الآية قال : إن أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تعتدوا) يقول لا تقتلوا النساء والضيان والشيخ الكبير ولا من أتى السلم وكف يده ، فإن فعلتم فقد اعتديتم . وأخرج ابن أبى شيبه عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : إن هذه الآية فى النساء والذرية . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله (والفتنة أشد من القتل) يقول : الشرك أشد من القتل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى الآية قال : ارتداد المؤمن إلى الوثن أشد عليه من أن يقتل محقا . وأخرج ابن أبى شيبه وأبو داود فى ناسخه وابن جرير عن قتادة فى قوله (ولا تقتلوه عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) قال : حتى يبدءوا بالقتال ، ثم نسخ بعد ذلك فقال (وقاتلوه حتى لا تكون فتنة) . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه عن قتادة أن قوله (ولا تقتلوه عند المسجد الحرام) وقوله - يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير - فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين جميعا فى براءة قوله - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة . . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (فإن انتهوا) قال : فإن تابوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس

في قوله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) يقول : شرك بالله (ويكون الدين) ويخلص التوحيد لله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في الآية ، قال : للشرك . وقواه (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) قال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم . وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله (ويكون الدين لله) يقول : حتى لا تعبدوا إلا الله . وأخرج أيضا عن عكرمة في قوله (فلا عدوان إلا على الظالمين) قال : هم من أبي أن يقول لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) .

قواه (الشهر الحرام بالشهر الحرام) أى إذا قاتلوكم في الشهر الحرام وهدتكم حرمة قاتلتموهم في الشهر الحرام مكافأة لهم ومجازاة على فعلهم . (والحرمات) جمع حرمة ، كالظلمات جمع ظلمة ؛ وإنما جمع الحرمات لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام ، والحرمة : مامنع الشرع من انتهاكه . والقصاص : المساواة ، والمعنى : أن كل حرمة يجرى فيها القصاص ، فمن هتك حرمة عليكم فلکم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصا ؛ قيل وهذا كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقتال ؛ وقيل إنه ثابت بين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسخ ، ويجوز لمن تعدى عليه في مال أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدى عليه ، وبهذا قال الشافعي وغيره . وقال آخرون : إن أمور القصاص مقصورة على الحكام ، وهكذا الأموال لقوله صلى الله عليه وآله وسلم « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » أخرجه الدارقطني وغيره ، وبه قال أبو حنيفة وجمهور المالكية وعطاء الخراساني ؛ والقول الأول أرجح ، وبه قال ابن المنذر واختاره ابن العربي والمقرطبي ، وحكاه الداودي عن مالك ، ويؤيده إذنه صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها وهو في الصحيح ، ولا أصرح وأوضح من قوله تعالى في هذه الآية (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى ، أغنى قوله (والحرمات قصاص) وإنما سمي المكافأة اعتداء مشاكلة كما تقدم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معتمرا في سنة ست من الهجرة وحبس المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذى القعدة ، وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين وأقصه الله منهم تزلت في ذلك هذه الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا . وأخرج أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (فمن اعتدى عليكم) الآية ، وقوله - وجزاء سيئة - الآية ، وقوله - ولمن انتصر بعد ظلمه - الآية ، وقوله - وإن عاقبتم - الآية قال : هذا ونحوه تزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين ، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى ، فأمر الله المسلمين من يتجازى منهم أن يتجازى بمثل ما أوتى إليه أو يصبروا ويعفوا ؛ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وأعز الله سلطانه ، أمر

الله المسلمين أن يذهبوا في مظالمهم إلى مخطئهم ، ولا يغلبوا بعضهم على بعض كاهل الجاهلية ، فقال - ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا - الآية ، يقول : ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه ، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية ولم يرض بحكم الله تعالى انتهى . وأقول : هذه الآية التي جعلها ابن عباس رضي الله عنه ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة ومؤيدة له ، فإن الظاهر من قوله - فقد جعلنا لوليه سلطانا - أنه جعل السلطان له : أي جعل له تسلا يتسلط به على القاتل ، ولهذا قال - فلا يسرف في القتل - ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصا للقتل من عموم الآيات المذكورة لانساختها لها ، فإنه لم ينص في هذه الآية إلا على القتل وحده ، وتلك الآيات شاملة له ولغيره ، وهذا معلوم من لغة العرب التي هي المرجع في تفسير كلام الله سبحانه .

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) .

في هذه الآية الأمر بالإتفاق في سبيل الله ، وهو الجهاد ، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله والبناء في قوله (بأيديكم) زائدة ، والتقدير : ولا تلقوا أيديكم ، ومثله - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الميرد (بأيديكم) أي بأنفسكم تعبيرا بالبعض عن الكل ، كقوله - بما كسبت أيديكم - وقيل هذا مثل مضروب ، يقال فلان ألقى بيده في أمر كذا : إذا استسلم ، لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه ، فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان وقال قوم : التقدير ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم . والتهلكة : مصدر من هلك يهلك هلاكا وهلكا وتهلكة : أي لا تأخذوا فيما يهلككم . والسلف في معنى الآية أقوال سيأتي بيانها ، وبيان سبب نزول الآية . والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا ، وبه تال ابن جرير الطبري . ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين ، ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رأوا السبب ، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها ، وهو ظن تدفعه لغة العرب . وقوله (وأحسنوا) أي في الإتفاق في الطاعة ، أو أحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد والبخاري والبيهقي في سننه عن حذيفة في قوله (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال : نزلت في النفقة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو ترك النفقة في سبيل الله مخافة العيلة . وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في الشعب عنه قال : هو البخل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال : كان رجال يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير نفقة ، فلما يقطع لهم ، ولما كانوا عيالا ، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة . والتهلكة : أن يهلك رجال من

الجوع والعطش ومن المشى . وقال لمن بيده فضل (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير والبغوى في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن ماجة والطبرانى عن الضحاك ابن أبى جبير : أن الأنصار كانوا ينفقون فى سبيل الله ويتصدقون ، فأصابهم سنة فساء ظنهم وأمسكوا عن ذلك ، فأنزل الله الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أسلم بن عمران قال : كنا بالقسطنطينية ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد ، فخرج صف عظيم من الروم فصفقنا لهم ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله يلقى بيده إلى التهلكة ؟ فقام أبو أيوب صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا أيها الناس إنكم تؤولون الآية هذا التأويل . وإنما أنزلت فىنا هذه الآية معشر الأنصار ، إنما أعز الله دينه وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سرّا دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أموال الناس قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ماضع منها ؟ فأنزل الله على نبيه يرد علينا (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة : الإقامة فى الأموال وإصلاحها وترك الغزو . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه والبيهقى عن البراء بن عازب قال فى تفسير الآية : هو الرجل يذنب الذنب فيلقى بيديه فيقول : لا يغفر الله لى أبدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال فى تفسير الآية : إنه القنوط . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : التهلكة عذاب الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق فأسرع رجل إلى العدو وحده ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفع حديثه إلى عمرو بن العاص فأرسل إليه فردّه ، وقال : قال الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) . وأخرج ابن جرير عن رجل من الصحابة فى قوله (وأحسنوا) قال : أدوا الفرائض . وأخرج عبد بن حميد عن أبى إسحاق مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : أحسنوا الظن بالله .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩١) .

قوله (وأتموا الحج) اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله ، فقيل : أدائهما والإتيان بهما من دون أن يشوبهما شيء مما هو محظور ، ولا يخل بشرط ولا فرض لقواه تعالى - فأتعن - وقواه - ثم أتموا الصيام إلى الليل - . وقال سفيان الثورى : إتمامهما أن تخرج لهما لا لغيرهما ، وقيل لإتمامهما أن تفرد كل واحد منهما من

غير تمتع ولا قران ، وبه قال ابن حبيب . وقال مقاتل : إتمامهما أن لا يستحلوا فيهما ما لا ينبغي لهم ؛ وقيل إتمامهما أن يحرم لهما من دويرة أهله ؛ وقيل أن ينفق في سفرهما الحلال الطيب ، وسيأتي بيان سبب نزول الآية وما هو مروى عن السلف في معنى إتمامهما . وقد استدل بهذه الآية على وجوب العمرة لأن الأمر بإتمامهما أمر بها ، وبذلك قال عليّ وابن عمرو بن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد بن جبيرة ومسروق وعبد الله بن شدّاد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكية . وقال مالك والنخعي وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم : أنها سنة . وحكى عن أبي حنيفة أنه يقول بالوجوب . ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله . ومن جملة ما استدل به الأولون ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح أنه قال لأصحابه « من كان معه هدى فليهلّ بحج وعمرة » . وثبت عنه أيضا في الصحيح أنه قال « دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » . وأخرج الدارقطني والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرّك بأيّهما بدأت » . واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعي في الآية وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي صالح الحنفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الحجّ جهاد والعمرة تطوع » . وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعا مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد والترمذي وصححه عن جابر « أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العمرة أواجبة هي ؟ قال : لا وأن تعتمروا خير لكم » وأجابوا عن الآية وعن الأحاديث المصروفة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها ، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف ، وهذا وإن كان فيه بعد ، لكنه يجب المصير إليه جمعا بين الأدلة ولا سيما بعد تصريحه صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدّم في حديث جابر من عدم الوجوب ، وعلى هذا يحمل ماورد مما فيه دلالة على وجوبها ، كما أخرجه الشافعي في الأم أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم لعمر بن حزم « إن العمرة هي الحج الأصغر » . وكحديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أوصني ، فقال : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتحجّ وتعتصر ، وتسمع وتطيع ، وعليك بالعلمانية ، وإياك والسر » وهكذا ينبغي حمل ماورد من الأحاديث التي قرن فيها بين الحج والعمرة في أنهما من أفضل الأعمال ، وأنهما كفارة لما بينهما ، وأنهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك . قوله (فإن أحصرتم) الحصر : الحبس . قال أبو عبيدة والكسائي والخليل : إنه يقال أحصر بالمرض ، وحصر بالعدو . وفي الجمل لابن فارس العكس يقال : أحصر بالعدو ، وحصر بالمرض . ورجح الأول ابن العربي وقال : هو رأى أكثر أهل اللغة . وقال الزجاج : إنه كذلك عند جميع أهل اللغة . وقال الفراء : هما بمعنى واحد في المرض والعدو . ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيباني فقال : حصرني الشيء وأحصرني : أي حبسني . وبسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه في معنى الآية ، فقالت الحنفية : المحصر من يصير ممنوعا من مكة بعد الاحرام بمرض أو عدو أو غيره . وقالت الشافعية وأهل المدينة المراد بالآية حصر العدو . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر وينحر هديه إن كان ثمّ هدى ويحلق رأسه ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو وأصحابه في الحديبية . وقوله (فما استيسر من الهدى) « ما » في موضع رفع على الابتداء أو الخبر : أي فالواجب أو فعليكم ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب ، أي فانحروا أو فاهلوا ما استيسر : أي ما تيسر ، يقال يسر الأمر واستيسر ، كما يقال صعب واستصعب ،

والهدى والهدى لغتان ، وهما جمع هدية ، وهى ما يهدى إلى البيت من بدنة أو غيرها . قال الفراء : أهل الحجاز وبنو أسد يخففون الهدى ، ونحيم وسفلى قيس يثقلون . قال الشاعر :

خلفت برب كعبة والمصلى وأعناق الهدى مقلدات

قال : وواحد الهدى هدية ، ويقال فى جمع الهدى أهد . واختلف أهل العلم فى المراد بقوله (ما استيسر) فذهب الجمهور إلى أنه شاة . وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير : جمل أو بقرة . وقال الحسن : أعلا الهدى بدنة ، وأوسطه بقرة ، وأدناه شاة ، وقوله (ولا تخلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر وغير محصر ، وإليه ذهب جمع من أهل العلم - وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة : أى لا تخلقوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدى الذى بعثتموه إلى الحرم قد بلغ محله ، وهو الموضع الذى يحل فيه ذبحه . واختلفوا فى تعيينه ، فقال مالك والشافعى : هو موضع الحصر اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أحصر فى عام الحديبية . وقال أبو حنيفة : هو الحرم لقوله تعالى - ثم محلها إلى البيت العتيق - وأجيب عن ذلك بأن المخاطب به هو الآمن الذى يمكنه الوصول إلى البيت . وأجاب الحنفية عن نحره صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديبية بأن طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة هو من الحرم ، ورد بأن المكان الذى وقع فيه النحر ليس هو من الحرم . قوله (فمن كان منكم مريضا) الآية ، المراد بالمرض هنا ما يصدق عليه مسمى المرض لغة . والمراد بالأذى من الرأس : ما فيه من قمل أو جراح ونحو ذلك ، ومعنى الآية : أن من كان مريضا أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية . وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك ، فثبت فى الصحيح « أن رسول الله رأى كعب بن عجرة وهو مخرم وقمله يتساقط على وجهه ، فقال : أيؤذك هوأم رأسك ؟ قال : نعم ، فأمره أن يحلق ويطعم ستة مساكين ، أو يهدى شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام » . وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو شاة . وحكى عن الجمهور أن الصوم المذكور فى الآية ثلاثة أيام ، والإطعام لستة مساكين . وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام ، والإطعام عشرة مساكين . والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم ويبطل قولهم . وقد ذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم وداود إلى أن الإطعام فى ذلك مدان بمد النبى صلى الله عليه وآله وسلم أى لكل مسكين وقال الثورى نصف صاع من بر أو صاع من غيره . وروى ذلك عن أبي حنيفة . قال ابن المنذر : وهذا غلط لأن فى بعض أخبار كعب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له : تصدق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين . واختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل ، فروى عنه مثل قول مالك والشافعى ، وروى عنه أنه إن أطعم برأ فقد لكل مسكين ، وإن أطعم تمرا فنصف صاع . واختلفوا فى مكان هذه الفدية فقال عطاء : ما كان من دم فبمكة ، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء . وبه قال أصحاب رأى . وقال طاوس والشافعى : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة ، والصوم حيث شاء . وقال مالك ومجاهد : حيث شاء فى الجميع ، وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان . قوله (فإذا أنتم من تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى برأتم من المرض - وقيل من خوفكم من العدو على الخلاف السابق ، ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنتم فى ذهاب المرض ، فيكون مقويا لقول من قال إن قوله (فإن أحصرتم) المراد به الإحصار من العدو ، كما أن قوله (فمن كان منكم مريضا) يقوى قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر . وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الأمة على حسب ما سلف ، والمراد بالتمتع المذكور فى الآية أن يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالا بمكة إلى أن يحرم بالحج ، فقد استباح بذلك

ملا يحل للمحرم استباحته ، وهو معنى تمتع واستمتع . ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع ، بل هو عندى أفضل أنواع الحج كما حررته في شرحى على المتن . وقد تقدم الخلاف فى معنى قوله (فما استيسر من الهدى) قوله (فمن لم يجد) الآية ، أى فمن لم يجد الهدى ، إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ، صام ثلاثة أيام فى الحج : أى فى أيام الحج ، وهى من عند شروعه فى الإحرام إلى يوم النحر ، وقيل يصوم قبل يوم التروية يوماً ويوم التروية ويوم عرفة ، وقيل ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة ، وقيل يصومهن من أول عشر ذى الحجة ، وقيل مادام بمكة ، وقيل إنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم . وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى ، ومنعه آخرون . قوله (وسبعة إذا رجعت) قرأه الجمهور بخفض سبعة ، وقرأ زيد بن على وابن أبى عتبة بالنصب على أنه معمول بفعل مقدر : أى وصوموا سبعة ، وقيل على أنه معطوف على ثلاثة ، لأنها وإن كانت مجرورة لفظاً فهى فى محل نصب كأنه قيل فصيام ثلاثة . والمراد بالرجوع هنا الرجوع إلى الأوطان . قال أحمد وإسحاق : يجزىه الصوم فى الطريق ، ولا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه ، وبه قال الشافعى وقادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم . وقال مالك : إذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم ، والأول أرجح . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم « فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة إذا رجع إلى أهله » فبين صلى الله عليه وآله وسلم أن الرجوع المذكور فى الآية هو الرجوع إلى الأهل . وثبت أيضاً فى الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ « وسبعة إذا رجعت إلى أمصاركم » وإنما قال سبحانه (تلك عشرة كاملة) مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة ، لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام فى الحج والسبعة إذا رجع . قاله الزجاج . وقال المبرد : ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لثلاث يتوهم متوهم أنه قد بقى منه شيء بعد ذكر السبعة ، وقيل هو تأكيد كما تقول كتبت بيدي . وقد كانت العرب تأتى بمثل هذه الفداكة فيما دون هذا العدد ، كقول الشاعر :

ثلاث واثنتان فهن خمس وسادسة تميل إلى سهاى

وكذا قول الآخر : ثلاث بالعداد وذاك حسبي وسنت حين يدركنى العشاء

فذلك تسعة فى اليوم رى وشرب المرء فوق الرى داء

وقوله (كاملة) تأكيد آخر بعد الفداكة لزيادة التوضيحية بصيامها ، وأن لا ينقص من عددها . وقوله (ذلك) لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام (الإشارة بقوله (ذلك) قيل هى راجعة إلى التمتع ، فتدل على أنه لا تمتع لحاضري المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه ، قالوا : ومن تمتع منهم كان عليه دم ، وهو دم جناية لا يأكل منه ، وقيل إنها راجعة إلى الحكم ، وهو وجوب الهدى والصيام ، فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام ، كما يقوله الشافعى ومن وافقه . والمراد بمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام : من لم يكن ساكناً فى الحرم ، أو من لم يكن ساكناً فى المواقيت فما دونها على الخلاف فى ذلك بين الأئمة . وقوله (واتقوا الله) أى فيما فرضه عليكم فى هذه الأحكام ، وقيل هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الدلائل وابن عبد البر فى التمهيد عن يعلى بن أمية قال « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالجرمارة وعليه جبة وعليه أثر خلوق ، فقال : كيف تأمرنى يا رسول الله أن

أصنع في عمري ؟ فأنزل الله (وأتموا الحج والعمرة لله) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أين السائل عن العمرة ؟ فقال : ها أنذا ، قال : اخلع الجبة واغسل عنك أثر الخلق ، ثم ما كنت صانعا في حجك فاصنعه في عمرتك . وقد أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه ، ولكن فيهما أنه نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم الوحي بعد السؤال ولم يذكر ما هو الذي أنزل عليه . وأخرج ابن أبي شيبة عن علي في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) قال : أن تحرم من دويبة أهلك . وأخرج ابن عدي والبيهقي مثله من حديث أبي هريرة مرفوعا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : من تمامهما أن يفرد كل واحد منهما عن الآخر ، وأن يعتصر في غير أشهر الحج . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وزار البيت فقد حل ، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل . وقد ورد في فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فإن أحصرتم) يقول : من أحرم بحج أو عمرة ثم حبس عن البيت بمرض يجهد أو علو يجسه ، فعليه ذبح ما استيسر من الهدى شاة فما فوقها ، وإن كانت حجة الإسلام فعليه قضاؤها ، وإن كانت بعد حجة الفريضة فلا قضاء عليه وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (فإن أحصرتم) يقول : الرجل إذا أهل بالحج فأحصر بعث بما استيسر من الهدى ، فإن كان عاجل قبل أن يبلغ الهدى محله فحلق رأسه ، أو مس طيبا ، أو تداوى بدواء ، كان عليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك - فالصيام ثلاثة أيام ، والصدقة ثلاثة أصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ، والنسك شاة (فإذا أمتم) يقول : فإذا برىء فضى من وجهه ذلك إلى البيت أحل من حجته بعمرة ، وكان عليه الحج من قابل ، فإن هو رجع ولم يتم من وجهه ذلك إلى البيت كان عليه حجة وعمرة ، فإن هو رجع متمتعا في أشهر الحج كان عليه ما استيسر من الهدى شاة ، فإن هو لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع . قال إبراهيم : فذكرت هذا الحديث لسعيد بن جبير فقال : هكذا قال ابن عباس في هذا الحديث كله . وأخرج مالك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي في قوله (فما استيسر من الهدى) قال : شاة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس مثله . وأخرج الشافعي في الأم وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي (فما استيسر من الهدى) قال : بقرة أو جزور ، قيل أو ما يكفيه شاة ؟ قال : لا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس قال في تفسير (ما استيسر) ما يجد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : إن كان موسرا فن الإبل ، وإلا فن البقر ، وإلا فن الغنم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طريق القاسم عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر . وكان ابن عباس يقول : ما استيسر من الهدى شاة . وأخرج الشافعي في الأم وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لا حصر إلا حصر العدو ، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء ، إنما قال الله (فإذا أمتم) فلا يكون الأمن إلا من الخوف . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لا إحصار إلا من عدو . وأخرج أيضا عن الزهري نحوه . وأخرج أيضا عن عطاء قال : لا إحصار إلا من مرض أو عدو أو أمر حادث . وأخرج أيضا عن عروة قال : كل شيء حبس المحرم فهو إحصار . وأخرج البخاري عن المسور أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحر قبل أن يخلق وأمر أصحابه بذلك . وأخرج أبو داود في ناسخه عن ابن عباس

في قوله (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) ثم استثنى فقال (فمن كان منكم مريضا) الآية : وأخرج الترمذي وابن جرير عن كعب بن عجرة قال : لني نزلت ولماي عنى بها (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (فمن كان منكم مريضا) يعني من اشتد مرضه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عنه . قال : يعني بالمرض أن يكون برأسه أذى أو قروح ، أو به أذى من رأسه . قال : الأذى : هو القمل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : النسك المذكور في الآية شاة . وروى أيضا عن علي مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) يقول : من أحرم بالعمرة في أشهر الحج . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم أن ابن الزبير كان يقول : إنما المتعة لمن أحصر ، وليست لمن خلى سبيله . وقال ابن عباس : هي لمن أحصر ومن خلى سبيله . وأخرج ابن جرير عن علي في قوله (فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) قال فإن أخر العمرة حتى يجمعها مع الحج فعليه الهدى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن علي بن أبي طالب في قوله (فصيام ثلاثة أيام) قال : قبل التروية يوم ، ويوم التروية ، ويوم عرفة فإن فاتته صامهن أيام التشريق . وأخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عمر مثله إلا أنه قال : وإذا فاتته صام أيام منى فلأنهن من الحج . وأخرج ابن جرير والدارقطني والبيهقي عن ابن عمر نحوه مرفوعا . وأخرج ابن أبي شيبة عن علقمة ومجاهد وسعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هديا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة ، وإن كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه ، وسبعة إذا رجع إلى أهله . وأخرج الدارقطني عن عائشة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من لم يكن معه هدى فليصم ثلاثة أيام قبل يوم النحر ، ومن لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام فليصم أيام التشريق » . وأخرج أيضا عن عبد الله بن حذافة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره في رهط أن يطوفوا في منى في حجة الوداع ، فينادوا : إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله ، فلا نصوم فيهن إلا صوما في هدى » . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عطاء في قوله تعالى (ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) قال : ست قريبات : عرفة ، وعرة ، والرجيع والنخلتان ، ومر الظهران ، وضجنان . وقال مجاهد : هم أهل الحرم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . قال : هم أهل الحرم . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) .

قوله (الحج أشهر) فيه حذف ، والتقدير : وقت الحج أشهر ، أى وقت عمل الحج ؛ وقيل التقدير : الحج فى أشهر ؛ وفيه أنه يلزم النصب مع حذف حرف الجر لا الرفع . قال للفراء : الأشهر رفع لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات ؛ وقيل التقدير : الحج حج أشهر معلومات ، وقد اختلف فى الأشهر المعلومات ، فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهرى : هى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله ؛ وبه قال مالك . وقال ابن عباس والسدى والشعبي والنخعي : هى شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ؛ وبه قال أبو حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم . وقد روى أيضا عن مالك . ويظهر فائدة الخلاف فى ما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر ، فمن قال إن ذى الحجة كله من الوقت لم يلزمه دم التأخير ، ومن قال ليس إلا العشر منه قال يلزم دم التأخير . وقد استدل بهذه الآية من قال إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهر الحج ، وهو عطاء وطاوس ومجاهد والأوزاعى والشافعى وأبو ثور قالوا : فمن أحرم بالحج قبلها أحل بعمره ، ولا يجزىه عن إحرام الحج كن دخل فى صلاة قبل وقتها فلأنها لا تجزىه . وقال أحمد وأبو حنيفة : إنه مكروه فقط . وروى نحوه عن مالك ، والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة من غير كراهة . وروى مثله عن أبى حنيفة . وعلى هذا القول ينبغى أن ينظر فى فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة فى الآية . وقد قيل إن النص عليها لزيادة فضلها . وقد روى القول بجواز الإحرام فى جميع السنة عن إسحاق بن راهويه وإبراهيم النخعي والثورى والليث بن سعد ، واحتج لهم بقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى موافقت للناس والحج) فجعل الأهلة كلها موافقت للحج ، ولم يخص الثلاثة الأشهر ، ويحاج بأن هذه الآية عامة ، وتلك خاصة ، والخاص مقدم على العام . ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة ، فكما يجوز الإحرام للعمرة فى جميع السنة ، كذلك يجوز للحج ، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآنى فهو باطل ، فالحق ما ذهب إليه الأولون إن كانت الأشهر المذكورة فى قوله (الحج أشهر) مختصة بالثلاثة المذكورة بنص أو إجماع ، فإن لم يكن كذلك فالأشهر جمع شهر ، وهو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة ، والثلاثة هى المتينة فيجب الوقوف عندها ، ومعنى قوله (معلومات) أن الحج فى السنة مرة واحدة فى أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة ، أو المراد معلومات ببيان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها ولا التأخر عنها . قوله (فمن فرض فيهن الحج) أصل الفرض فى اللغة : الحز والقطع ، ومنه فرضة القوس والنهر والجبل ، وفرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقوس ؛ وقيل معنى فرض : أبان ، وهو أيضا يرجع إلى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . والمعنى فى الآية : فمن ألزم نفسه فيهن الحج بالشروع فيه بالنية قصدا بالنية ، وبالإحرام فعلا ظاهرا ، وبالتلبية نطقا مسموعا . وقال أبو حنيفة : إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوفه . وقال الشافعى : تكفى النية فى الإحرام بالحج . والرفث قال ابن عباس وابن جبير والسدى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك : هو الجماع . وقال ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرفث : الإفحاش بالكلام . قال أبو عبيدة : الرفث : اللغاء من الكلام ، وأنشد :

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم

يقال رفث يرفث بكسر الفاء وضمها . والفسوق : الخروج عن حدود الشرع ؛ وقيل : هو الذبح للأصنام ؛ وقيل التناز باللقاب ؛ وقيل السباب . والظاهر أنه لا يختص بمعضية معينة ، وإنما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد اسم الفسوق ، كما قال سبحانه فى الذبح للأصنام - أو فسقا أهل - لغير الله به .

وقال في التنازع - بئس الاسم الفسوق - . وقال صلى الله عليه وآله وسلم في السباب « سباب المسلم فسوق » . ولا يخفى على عارف أن إطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصي لا يوجب اختصاصه به . والجدال مشتق من الجدال وهو القتل ، والمراد به هنا الممارسة ؛ وقيل السباب ؛ وقيل الفخر بالآباء . والظاهر الأول . وقد قرئ بنصب الثلاثة ورفعها ، ورفع الأولين ، ونصب الثالث ، وعكس ذلك ، ومعنى النفي لهذه الأمور النهي عنها . وقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) حث على الخير بعد ذكر الشر ، وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية ، وفيه أن كل ما يفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شيء . وقوله (وتزودوا) فيه الأمر باتخاذ الزاد ، لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا ؟ فكانوا يحجون بلا زاد ويقولون : نحن متوكلون على الله سبحانه ؛ وقيل المعنى : تزودوا للمعادكم من الأعمال الصالحة (فإن خير الزاد التقوى) والأول أرجح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية ، وسيأتي . وقوله (فإن خير الزاد التقوى) إخبار بأن خير الزاد اتقاء المنهيات ، فكأنه قال : اتقوا الله في إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد فإن خير الزاد التقوى ؛ وقيل المعنى : فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة والحاجة إلى السؤال والتكفف . وقوله (واتقون يا أولى الألباب) فيه التخصيص لأولى الألباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى ، لأن أرباب الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها ، ولب كل شيء خالصه . قوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فيه الترخيص أن حج في التجارة ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق ، وهو المراد بالفضل هنا ، ومنه قوله تعالى - فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله - أي لا إثم عليكم في أن تبتغوا فضلا من ربكم . مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج . قوله (فإذا أفضتم) أي دفعتم ، يقال فاض الإناء : إذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه ؛ ورجل فياض : أي متدفقة يدها بالعطاء ، ومعناه : أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول ، كما ترك في قولهم دفعوا من موضع كذا . وعرفات : اسم لتلك البقعة : أي موضع الوقوف ، وقرأه الجماعة بالتنوين ، وليس التنوين هنا للفرق بين ما ينصرف وما لا ينصرف ، وإنما هو بمنزلة النون في مسلمين . قال النحاس : هذا الجيد . وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات قال : لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين . وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء تشبيها بتاء فاطمة ، وأنشدوا : تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر على

وقال في الكشف : فإن قلت هلا منعت الصرف ، وفيها السببان التعريف والتأنيث ، قلت : لا يخلو التأنيث ، إما أن يكون بالتاء التي في لفظها ، وإما بتاء مقدرة كما في سعاد ، فالتى في لفظها ليست للتأنيث وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث ، ولا يصح تقدير التاء فيها لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها ، كما لا تقدر تاء التأنيث في بنت لأن التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها انتهى ، وسميت عرفات لأن الناس يتعارفون فيها ؛ وقيل إن آدم التقي هو وحواء فيها فتعارفا ؛ وقيل غير ذلك . قال ابن عطية : والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع ، واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة ، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده ، والمراد بذكر الله عند المشعر الحرام دعاؤه ، ومنه التلبية والتكبير ؛ وسمى المشعر مشعرا من الشعار ، وهو العلامة ، والدعاء عنده من شعائر الحج ، ووصف بالحرام لحرمة ؛ وقيل المراد بالذكر صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعا . وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها . والمشعر : هو جبل قرح الذي يقف عليه الإمام ؛ وقيل هو ما بين جبلي المزدلفة من مازمي عرفة إلى وادي محسر . قوله (واذكروه

كما هداكم (الكاف نعت مصدر مخنوف ، وما مصدرية أو كافة أى اذكروه ذكرا حسنا ، كما هداكم هداية حسنة ، وكرر الأمر بالذكر تأكيدا - وقيل الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام ، والثانى أمر بالذكر على حكم الإخلاص - وقيل المراد بالثانى تعديد النعمة عليهم ، وإن « فى قوله (وإن كنتم من قبله) مخففة كما يفيد دخول اللام فى الخبر - وقيل هى بمعنى قد : أى قد كنتم ، والضمير فى قوله (من قبله) عائد إلى الهدى ؛ وقيل إلى القرآن .

وقد أخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله تعالى (الحج أشهر معلومات) شوال وذو القعدة وذو الحجة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط أيضا عن ابن عمر مرفوعا مثله . وأخرج الخطيب عن ابن عباس مرفوعا مثله أيضا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عمر بن الخطاب موقوفا مثله . وأخرج الشافعى فى الأم وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر موقوفا مثله . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس وعطاء والضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عمر فى قوله (الحج أشهر معلومات) قال شوال وذو القعدة وعشر ليل من ذى الحجة . وأخرجوا إلا الحاكم عن ابن مسعود مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس من طرق مثله . وأخرج ابن المنذر والدارقطنى والطبرانى والبيهقى عن عبد الله بن الزبير مثله أيضا . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن ومحمد وإبراهيم مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمر فى قوله (فمن فرض فيهن الحج) قال : من أهل فيهن بحج . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن ابن مسعود قال الفرض : الإحرام . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الزبير قال : الإهلال . وأخرج عنه ابن المنذر والدارقطنى والبيهقى قال : فرض الحج الإحرام . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : الفرض الإهلال . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج الشافعى فى الأم وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج من أجل قول الله تعالى (الحج أشهر معلومات) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقى عنه نحوه . وأخرج الشافعى فى الأم وابن أبى شيبة وابن مردويه والبيهقى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج » . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله « (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) قال : الرفث : التعريض للنساء بالجماع ، والفسوق : المعاصى كلها ، والجدال : جدال الرجل صاحبه » . وأخرج ابن مردويه والأصبهاني فى الترغيب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فلا رفث : لاجماع ، ولا فسوق : المعاصى والكذب » . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس فى الآية قال : الرفث الجماع ، والفسوق : المعاصى ، والجدال : المراء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر قال : الرفث : غشيان النساء ، والفسوق : السباب ، والجدال : المراء . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى عنه نحوه . وروى نحو ما تقدم عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة وأخرج عبد بن حميد والبخارى وأبو داود والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا

يتزودون ويقولون نحن متوكلون ثم يقدمون فيسألون الناس ، فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : كان ناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة يقولون نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فنزلت الآية . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا إذا آخر ، فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق . وأخرج الطبراني عن ابن الزبير قال : كان الناس يتوكل بعضهم على بعض في الزاد فأمرهم الله أن يتزودوا . وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ما تقدم عن الصحابة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ويقولون أيام ذكر الله ، فنزلت (ليس عليكم جناح) الآية . وقد أخرج نحوه عنه البخاري وغيره . وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة التميمي قال : قلت لابن عمر : إنا أناس نكرى فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وتأتون المعرف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رموسكم ؟ قلت بلى ، فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه الآية وقال : أنتم حجاج . وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن الزبير أنه قرأها كما قرأها ابن عباس . وأخرج ابن أبي داود في المصاحف أن ابن مسعود قرأها كذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إنما سمي عرفات لأن جبريل كان يقول لإبراهيم عليه السلام حين رأى المناسك عرفت . وأخرج مثله ابن أبي حاتم عن ابن عمر . وأخرج مثله عبد الرزاق وابن جرير عن علي . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عمر أنه سئل عن المشعر الحرام فسكت ، حتى إذا هبطت أيدي الرواحل بالمزدلفة قال : هذا المشعر الحرام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أنه قال : المشعر الحرام : المزدلفة كلها . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عنه قال : هو الجبل وما حوله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه قال : ما بين الجبلين الذي يجمع مشعر . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن ابن الزبير في قوله (واذكروه كما هداكم) قال : ليس هذا بعام ، هذا لأهل البلد كانوا يفيضون من جمع ويفيض سائر الناس من عرفات ، فأبى الله لهم ذلك ، فأنزل (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) . وأخرج عبد بن حميد عن سفيان في قوله (وإن كنتم من قبله) قال : من قبل القرآن . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) قال لمن الجاهلين .

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا

قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣).

قيل الخطاب في قوله (ثم أفيضوا) للحمس من قريش لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة ، وهى من الحرم ، فأمرُوا بذلك - وعلى هذا تكون ثم لعطف جملة على جملة لا للترتيب - وقيل الخطاب لجميع الأمة ، والمراد بالناس إبراهيم : أى ثم أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم ، فيحتمل أن يكون أمرا لهم بالإفاضة من عرفة ، ويحتمل أن يكون إفاضة أخرى وهى التى من المزدلفة ، وعلى هذا تكون ثم على بابها أى للترتيب . وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبرى ، وإنما أمرُوا بالاستغفار لأنهم فى مساقط الرحمة ، ومواطن القبول ، ومظنات الإجابة - وقيل إن المعنى استغفروا للذى كان مخالفا لسنة إبراهيم ، وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة . والمراد بالمناسك أعمال الحج ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم «خذوا عني مناسككم» أى فإذا فرغتم من أعمال الحج فاذكروا الله ؛ وقيل المراد بالمناسك الذبائح ، وإنما قال سبحانه (كذا كرم آباءكم) لأن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة فيذكرون مفاخر آباءهم ومناقب أسلافهم ، فأمرهم الله بذكره مكان ذلك الذكر ، ويجعلونه ذكرا مثل ذكرهم لآبائهم أو أشد من ذكرهم لآبائهم . قال الزجاج : إن قوله (أو أشد) فى موضع خفض عطف على ذكرهم ، والمعنى أو كأشد ذكرا ؛ ويجوز أن يكون فى موضع نصب : أى اذكروه أشد ذكرا . وقال فى الكشف : إنه عطف على ما أضيف إليه الذكر فى قوله (كذا كرم) كما تقول كذا كرم قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكرا . قوله (فمن الناس من يقول) الآية ، لما أرشد سبحانه عباده إلى ذكره ، وكان الدعاء نوعا من أنواع الذكر جعل من يدعوه منقسما إلى قسمين : أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت إلى حظ الآخرة ، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعا ؛ ومفعول الفعل ، أعنى قوله (آتنا) محذوف : أى ما نريد أو ما نطلب ، والواو فى قوله (وما له) واو الحال ، والجملة بعدها حالية . والخلاق : النصيب : أى وما لهذا الداعى فى الآخرة من نصيب ، لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها ولا يطلب سواها . وفى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا والذم لمن جعلها غاية رغبته ومعظم مقصوده . وقد اختلف فى تفسير الحسنتين المذكورتين فى الآية ، فقيل هما ما يطلبه الصالحون فى الدنيا من العافية وما لا بد منه من الرزق ، وما يطلبونه فى الآخرة من نعيم الجنة والرضا ؛ وقيل المراد بحسنة الدنيا : الزوجة الحسنة ، وحسنة الآخرة : الخور العين ؛ وقيل حسنة الدنيا : العلم والعبادة ؛ وقيل غير ذلك . قال القرطبي : والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة . قال : وهذا هو الصحيح ، فإن اللفظ يقتضى هذا كله ، فإن حسنة نكرة فى سياق الدعاء فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل ، وحسنة الآخرة : الجنة بإجماع انتهى . قوله (وقنا) أصله أو قنا حذف الواو كما حذف فى بقى لأنها بين ياء وكسرة مثل يعد ، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : حذف فرقابين اللزوم والمتعدى وقوله (أولئك) إشارة إلى الفريق الثانى (لهم نصيب من) جنس (ما كسبوا) من

الأعمال : أى من ثوابها ، ومن جملة أعمالهم الدعاء ، فما أعطاهم الله بسببه من الخير فهو مما كسبوا ؛ وقيل إن معنى قوله (مما كسبوا) التعليل : أى من أجل ما كسبوا ، وهو بعيد ؛ وقيل إن قوله (أولئك) إشارة إلى الفريقين جميعا : أى للأولين نصيب من الدنيا ولا نصيب لهم فى الآخرة ، وللآخرين نصيب مما كسبوا فى الدنيا وفى الآخرة ؛ وسريع من سرع يسرع كعظم يعظم سرعا وسرعة ، والحساب مصدر كالحاسبة ، وأصله العدد ، يقال : حسب يحسب حسابا ، وحسابة وحسابا وحسبا . والمراد هنا المحسوب ، سمي حسابا تسمية للمفعول بالمصدر ؛ والمعنى : أن حسابه لعباده فى يوم القيامة سريع مجيئه ، فبادروا ذلك بأعمال الخير ، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الحلائق على كثرة عددهم ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن فيحاسبهم فى حالة واحدة كما قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) . قوله (فى أيام معدودات) قال القرطبي : لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام منى وهى أيام التشريق ، وهى أيام رمى الجمار . وقال الثعلبي : قال إبراهيم : الأيام المعدودات أيام العشر ، والأيام المعلومات أيام النحر . وكذا روى عن مكى والمهدوى . قال القرطبي : ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر بن عبد البر وغيره . وروى الطحاوى عن أبى يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر ، قال : لقوله تعالى - وذكروا الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام - وحكى الكرخى عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة : يوم الأضحى ، ويومان بعده . قال الكيا الطبرى : فعلى قول أبى يوسف ومحمد لا فرق بين المعلومات والمعدودات ، لأن المعدودات المذكورة فى القرآن أيام التشريق بلا خلاف . وروى عن مالك أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام ، يوم النحر ، وثلاثة أيام بعده ، فيوم النحر معلوم غير معدود ، واليومان بعده معلومان معدودان ، واليوم الرابع معدود لا معلوم ، وهو مروي عن ابن عمر . وقال ابن زيد : الأيام المعلومات : عشر ذى الحجة ، وأيام التشريق . والمخاطب بهذا الخطاب المذكور فى الآية ، أعنى قوله تعالى (واذكروا الله فى أيام معدودات) هو الحاج وغيره كما ذهب إليه الجمهور ؛ وقيل هو خاص بالحاج . وقد اختلف أهل العلم فى وقته ، فقيل من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق ؛ وقيل من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر ، وبه قال أبو حنيفة ؛ وقيل من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق ، وبه قال مالك والشافعى . قوله (فمن تعجل) الآية ، اليومان هما يوم ثانى النحر ويوم ثالثه . وقال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعي : من روى فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج ، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج ؛ فعنى الآية كل ذلك مباح ، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتأكيذا ، لأن من العرب من كان يذم التعجل ، ومنهم من كان يذم التأخر ، فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل ذلك . وقال على وابن مسعود : معنى الآية : من تعجل فقد غفر له ، ومن تأخر فقد غفر له ، والآية قد دلت على أن التعجل والتأخر مباحان . وقوله (لمن اتقى) معناه أن التخيير ورفع الإثم ثابت لمن اتقى ، لأن صاحب التقوى يتحرز عن كل ما يريبه ، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم . قال الأخفش : التقدير ذلك لمن اتقى ؛ وقيل : لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي ؛ وقيل : لمن اتقى قتل الصيد ؛ وقيل معناه : السلامة لمن اتقى ؛ وقيل هو متعلق بالذكر : أى الذكر لمن اتقى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت « كانت قریش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الخمس . وكانت سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتى عرفات ثم يقف بها

ثم يفيض منها ، فذلك قوله تعالى (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : إذا كان يوم عرفة هبط
إله إلى سماء الدنيا في الملائكة ، فيقول لهم : عبادي آمنوا بوعدي ، وصدّقوا برسلي ماجزأوهم ؟ فيقال أن تغفر لهم ،
فذلك قوله (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) . وقد وردت أحاديث كثيرة
في المغفرة لأهل عرفة ، ونزول الرحمة عليهم ، وإجابة دعائهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله تعالى
(فإذا قضيتُم مناسككم) قال : حجكم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (فإذا قضيتُم مناسككم)
قال : إهراق الدماء (فاذكروا الله كذا كرم آباءكم) قال : تفاخر العرب بينها بفعال آبائها يوم النحر حين
يفرغون ، فأمروا بذكر الله مكان ذلك . وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : كان المشركون يجلسون
في الحج فيذكرون أيام آبائهم وما بعدون من أنسابهم يومهم أجمع ، فأنزل الله على رسوله (فاذكروا الله كذا كرم
آباءكم أو أشدّ ذكرا) . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج ابن جرير وابن
المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة وعكرمة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن ابن
عباس في قوله (كذا كرم آباءكم) يقول : كما يذكر الأبناء الآباء . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن
عباس أيضا أنه قيل له في قوله (كذا كرم آباءكم) إن الرجل ليأتى عليه اليوم وما يذكر أباه ، فقال : إنه ليس
بذاك ، ولكن يقول : تغضب لله إذا عصي أشدّ من غضبك إذا ذكر والدك بسوء . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن
عباس قال : كان قوم من الأعراب يميثون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث و عام خصب و عام ولاد
حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا ، فأنزل الله فيهم (فمن الناس من يقول ربنا آتتنا في الدنيا وما له في الآخرة
من خلاق) ويحيى بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون (ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب
النار) فأنزل الله فيهم (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) . وأخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير
قال : كان الناس في الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا فقال أحدهم : اللهم ارزقني إبلا ، وقال الآخر :
اللهم ارزقني غنما ، فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير عن أنس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة فيدعون : اللهم
اسقنا المطر ، وأعطنا على عدونا الظفر ، وردّنا صالحين إلى صالحين ، فنزلت الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن
عطاء في قوله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا) قال : مما عملوا من الخير . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله
(سريع الحساب) قال : سريع الإحصاء . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن عليّ قال :
الأيام المعلومات ثلاثة أيام : يوم الأضحى ، ويومان بعده ، اذبح في أيها شئت ، وأفضلها أولها . وأخرج
الفريابي وابن أبي الدنيا وابن المنذر عن ابن عمر أنها أيام التشريق الثلاثة . وفي لفظ : هذه الأيام الثلاثة بعد يوم
النحر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب والضياء في المختارة عن ابن
عباس قال : الأيام المعلومات أيام العشر ، والأيام المعلومات أيام التشريق . وأخرج الطبراني عن ابن الزبير قال
في قوله (واذكروا الله في أيام معلودات) قال : هنّ أيام التشريق ، يذكر فيهنّ بتسييح وتهليل وتكبير وتحميد .
وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأيام المعلومات أربعة أيام : يوم النحر ، والثلاثة أيام بعده . وأخرج
ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه كان يكبر تلك الأيام بمخى ويقول التكبير واجب ، ويتأول هذه الآية (واذكروا الله
في أيام معلودات) . وأخرج ابن جرير والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه كان يكبر يوم النحر ويتأول هذه الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (واذكروا الله في أيام معدودات) قال : التكبير أيام التشريق ، يقول في دبر كل صلاة : الله أكبر الله أكبر الله أكبر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثا ثلاثا وراء الصلوات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وأخرج المروزي عن الزهري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكبر أيام التشريق كلها . وأخرج مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى حين ارتفع النهار شيئا ، فكبر وكبر الناس بتكبيره - ثم خرج الثانية في يومه ذلك بعد ارتفاع النهار ، فكبر وكبر الناس بتكبيره حتى بلغ تكبيرهم البيت ؛ ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس ، فكبر وكبر الناس بتكبيره . وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرمي الجمار ويكبر مع كل حصاة . وقد روى نحو ذلك من حديث عائشة عند الحاكم وصححه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فن تعجل في يومين فلا إثم عليه) قال : في تعجيله (ومن تأخر فلا إثم عليه) قال : في تأخيره . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : نفر في يومين لمن اتقى . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه قال : من غابت له الشمس في اليوم الذي قال الله فيه (فن تعجل في يومين) وهو بمنى فلا ينفرن حتى يرمي الجمار من الغد وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لمن اتقى) قال : لمن اتقى الصيد وهو محرم . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأهل السنن والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول وهو واقف بعرفة ، وأتاه الناس من أهل مكة فقالوا : يا رسول الله كيف الحج ؟ قال : الحج عرفات ، فن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام (فن تعجل في يومين فلا إثم عليه) قال : مغفورا له (ومن تأخر فلا إثم عليه) قال مغفورا له . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (لمن اتقى) قال : لمن اتقى في حجه . قال قتادة وذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول : من اتقى في حجه غفر له ماتقدم من ذنبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية في قوله (فلا إثم عليه لمن اتقى) قال : ذهب إثمك كله إن اتقى فيما بقي من عمره .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧).

لما ذكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله (فن الناس من يقول) عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبتغون الكفر . وسبب النزول الأخنس بن شريق كما يأتي بيانه . قال ابن عطية : ما ثبت قط أن الأخنس أسلم - وقيل إنها نزلت في قوم من المنافقين ؛ وقيل إنها نزلت في كل من أضمر كفرا أو نفاقا أو كذبا ، وأظهر بلسانه خلافه . ومعنى قوله (يعجبك) واضح . ومعنى قوله (ويشهد الله على ما في قلبه) أنه يحلف على ذلك فيقول : يشهد الله على ما في قلبي من محبتك أو من الإسلام ، أو يقول : الله يعلم أني أقول حقا ، وأنى صادق

في قولك لك : وقرأ ابن محيصن (ويشهد الله) يفتح حرف المضارعة ورفع الإسم الشريف على أنه فاعل ؛ والمعنى : ويعلم الله منه خلاف ما قال ، ومثله قوله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقراءة الجماعة أبلغ في الذم . وقرأ ابن عباس (والله يشهد على منافى قلبه) وقرأ أنى وابن مسعود « ويستشهد الله على منافى قلبه » . وقوله (في الحياة الدنيا) متعلق بالقول ، أو ببيعك ؛ فعلى الأول القول صادر في الحياة ، وعلى الثاني الإعجاب صادر فيها . والألد : الشديد الخصومة . يقال رجل ألد ، وامرأة لداء ، ولدته ألدة : إذا جادلتها فغلبتها ، ومنه قول الشاعر :

وألد ذى جنف على كأنما تغلى عداوة صدره في مرجل

والخصام مصدر خاصم ، قاله الخليل ؛ وقيل جمع خصم ، قاله الزجاج ككلب وكلاب ، وصعب وصعاب وضخم وضخام . والمعنى : أنه أشد المخاصمين خصومة ، لكثرة جداله وقوة مراجعته ، وإضافة الألد إلى الخصام بمعنى في : أى ألد في الخصام ، أو جعل الخصام ألد على المبالغة . وقوله (وإذا تولى) أى أدبر وذهب عنك يا محمد ؛ وقيل إنه بمعنى ضلّ وغضب ؛ وقيل إنه بمعنى الولاية : أى إذا كان واليا فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض . والسعى المذكور يحتمل أن يكون المراد به السعى بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض ، كقطع الطريق وحرب المسلمين ، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد ، وإن لم يكن فيه سعى بالقدمين ، كالتيدير على المسلمين بما يضرهم ، وأعمال الخيل عليهم ؛ وكل عمل يعمل به الإنسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعى ، وهذا هو الظاهر من هذه الآية . وقوله (وسهلك) عطف على قوله (ليفسد) وفي قراءة أنى « وليهلك » . وقرأ قتادة بالرفع . وروى عن ابن كثير (ويهلك) بفتح الياء وضم الكاف ورفع الحرف والنسل ، وهى قراءة الحسن وابن محيصن . والمراد بالحرث : الزرع والنسل : الأولاد ؛ وقيل الحرث : النساء . قال الزجاج : وذلك لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال ، وفيه هلاك الخلق ؛ وقيل معناه : أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل . وأصل الحرث في اللغة : الشق ، ومنه المحراث لما يشق به الأرض ، والحرث : كسب المال وجمعه . وأصل النسل في اللغة : الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر ، ومنه أيضا - إلى ربهم ينسلون - وهم من كل حذب ينسلون - ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها . وقوله (والله لا يحب الفساد) يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين ، وما فيه فساد الدنيا . والعزة : القوة والغلبة ، من عزه يعزه : إذا غلبه ، ومنه - وعزتي في الخطاب - ؛ وقيل العزة هنا : الحمية ، ومنه قول الشاعر :

أخذته عزة من جهله فتولى مغضبا فعل الضجر

وقيل العزة هنا : المنعة وشدة النفس . ومعنى (أخذته العزة بالإثم) حملته العزة على الإثم ، من قولك أخذته بكذا : إذا حملته عليه وألزمته إياه ؛ وقيل أخذته العزة بما يؤثمه : أى ارتكب الكفر للعزة ، ومنه - بل الذين كفروا في عزة وشقاق - وقيل الباء في قوله (بالإثم) بمعنى اللام : أى أخذته العزة والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذى في قلبه ، وهو النفاق ؛ وقيل الباء بمعنى مع : أى أخذته العزة مع الإثم . وقوله (فحسبه جهنم) أى كافيه معاقبة وجزاء ، كما تقول للرجل : كفأك ما حل بك ، وأنت تستعظم عليه ما حل به . والمهاد جمع المهد ، وهو الموضع المهيأ للنوم ، ومنه مهد الصبي ؛ وسميت جهنم مهادا ، لأنها مستقر الكفار ؛ وقيل المعنى : أنها بدل لهم من المهاد كقوله - فبشرهم بعذاب أليم - وقول الشاعر : • تحية بينهم ضرب وجيع • ويشرى بمعنى يبيع : أى يبيع نفسه في

مرضاة الله كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومثله قوله تعالى - وشروه بثمن بخس - وأصله الاستبدال ومنه قوله - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - ، ومنه قول الشاعر :

وشريت بردا ليتنى من بعد برد كنت هامه

ومنه قول الآخر : يعطى بها ثمننا فيمنعها ويقول صاحبه ألا تشرى

والمرضاة : الرضا ، تقول : رضى يرضى ، رضا ومرضاة . ووجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه ، فكان ذلك رأفة بهم ولطفًا لهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أضيفت السرية التي فيها عاصم ومرثد قال رجال من المنافقين : يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا ، لاهم فعملوا في أهلهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم ؟ فأنزل الله (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) أى ما يظهر من الإسلام بلسانه (ويشهد الله على ما في قلبه) أنه مخالف لما يقوله بلسانه (وهو ألدّ الخصام) أى ذو جدال إذا كلمك وراجعك (وإذا تولى) خرج من عندك (سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) أى لا يحب عمله ولا يرضى به (ومن الناس من يشرى نفسه) الذين يشرون أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله والقيام بحقه ، حتى هلكوا على ذلك : يعنى هذه السرية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدى في قوله (ومن الناس من يعجبك) الآية ، قال : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة أقبل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وقال جئت أريد الإسلام ويعلم الله أنى لصادق ، فأعجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منه ، فذلك قوله (ويشهد الله على ما في قلبه) . ثم خرج من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرّ بزرع لقوم من المسلمين وحر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحمر ، فأنزل الله (وإذا تولى سعى في الأرض) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وهو ألدّ الخصام) قال هو شديد الخصومة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله (وإذا تولى سعى في الأرض) قال عمل في الأرض (ويهلك الحرث) قال نبات الأرض (والنسل) نسل كل شيء من الحيوان الناس والدواب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضا أنه سئل عن قوله (وإذا تولى سعى في الأرض) قال : يلى في الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم ، فيحبس الله بذلك القطر من السماء ، فهلك بحبس القطر الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . ثم قرأ مجاهد - ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس - الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (ويهلك الحرث والنسل) قال : الحرث الزرع ، والنسل : نسل كل دابة . وأخرج ابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال « إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه : اتق الله ، فيقول عليك بنفسك أنت تأمرنى » . وأخرج ابن المنذر والبيهقي في الشعب عن سفيان قال : قال رجل لمالك بن مغول : اتق الله ، فسقط فوضع خده على الأرض تواضعا لله . وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (ولبئس المهادر) قال : لبئس المنزل . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : لبئس ما شهدوا لأنفسهم . وأخرج ابن مردويه عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت لي قريش : يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ، والله لا يكون ذلك أبدا ، فقلت لهم : رأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عني ؟ قالوا نعم ، فدفعت إليهم مالى فخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم فقال : ربيع البيع صهيب مرتين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه . وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي في الدلائل عن صهيب نحوه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس قال : نزلت في خروج صهيب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال هم المهاجرون والأنصار .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) .

لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف : مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين ، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة . وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم ، والمنافق مؤمن بلسانه وإن كان غير مؤمن بقلبه . والسلم بفتح السين وكسرها قال الكسائي : ومعناها واحد ، وكذا عند البصريين ، وهما جميعا يقعان للإسلام والمسالمة . وقال أبو عمرو بن العلاء : إنه بالفتح للمسالمة ، وبالكسر للإسلام . وأنكر المبرد هذه التفرقة . وقال الجوهري : السلم بفتح السين : الصلح ، وتكسر ويذكر وبوئث ، وأصله من الاستسلام والانقياد . ورجع الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام ، ومنه قول الشاعر الكندي :

دعوت عشيرتي للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرين

أى إلى الإسلام . وقرأ الأعمش « السلم » بفتح السين واللام . وقد حكى البصريون في سلم وسلم وسلم أنها بمعنى واحد « وكافة » حال من السلم أو من ضمير المؤمنين ، فعناه على الأول : لا يخرج منكم أحد ، وعلى الثانى : لا يخرج من أنواع السلم شيء بل ادخلوا فيها جميعا : أى فى خصال الإسلام ، وهو مشتق من قولهم كففت : أى منعت ، أى لا يمتنع منكم أحد من الدخول فى الإسلام ، والكف : المنع ، والمراد به هنا الجميع (ادخلوا فى السلم كافة) أى جميعا . وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تسلكوا الطريق التى يدعوكم إلية الشيطان ، وقد تقدم الكلام على خطوات . قوله (زلتم) أى تنحيتم عن طريق الاستقامة ، وأصل الزل فى القدم ، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك ، يقال زل زلا وزللا وزلولا : أى دحضت قدمه . وقرئ (زلتم) بكسر اللام وهما لغتان ، والمعنى : فإن ضللتُم وعرجتُم عن الحق (من بعد ما جاءتكم البينات) أى الحجج الواضحة والبراهين الصحيحة ، أن الدخول فى الإسلام هو الحق (فاعلموا أن الله عزيز) غالب لا يعجزه الانتقام منكم (حكيم) لا ينتقم إلا بحق . قوله (هل ينظرون) أى ينتظرون ، يقال نظرتُه وانتظرته بمعنى ، والمراد هل ينتظر التاركون للدخول فى السلم ، والظلل جمع ظلة وهى ما يظلك ، وقرأ قتادة ويزيد بن القعقاع « فى ظلال » وقرأ يزيد أيضا (والملائكة) بالجر عطفا على الغمام أو على ظلل . قال الأخفش (والملائكة) بالخفض بمعنى : وفى الملائكة قال : والرفع أجود . وقال الزجاج : التقدير فى ظلل من الغمام ومن الملائكة . والمعنى : هل ينتظرون إلا أن يأتىهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب فى ظلل من الغمام والملائكة . قال الأخفش : وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان

راجعاً إلى الجزاء ، فسمى الجزاء إتيانا كما سمي التخويف والتعذيب في قصة ثمود إتيانا ، فقال - فأتى الله بنيانهم من القواعد - وقال في قصة النضير - فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا - وإنما احتمل الإتيان هذا ، لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء ؛ فعني الآية : هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم وقيل إن المعنى : يأتيهم أمر الله وحكمه ؛ وقيل إن قوله (في ظل) بمعنى بظل ؛ وقيل المعنى : يأتيهم بيأسه في ظل . والغمام : السحاب الرقيق الأبيض ، سمي بذلك لأنه يغم : أى يستر . ووجه إتيان العذاب في الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد مافى مجئ الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع ، لأن الغمام مظنة الرحمة لامظنة العذاب . وقوله (وقضى الأمر) عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار ، وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان ، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة : أى وفرغ من الأمر الذى هو إهلاكهم . وقرأ ما ذنب جبل « وقضاء الأمر » بالمصدر عطفا على الملائكة . وقرأ يحيى بن عمر « وقضى الأمور » بالجمع . وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائى (ترجع الأمور) على بناء الفعل للفاعل ، وقرأ الباقر على البناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) قال : يعنى مؤمنى أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم ، يقول : ادخلوا في شرائع دين محمد ولا تدعوا منها شيئا ، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها . وأخرج ابن جرير عن عكرمة : أن هذه الآية نزلت في ثعلبة وعبد الله بن سلام وابن يامين وأسد وأسيد ابني كعب وسعيد بن عمرو وقيس بن زيد كلهم من يهود قالوا : يا رسول الله يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسبت فيه ، وإن التوراة كتاب الله فلنقم بها الليل ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : السلم الطاعة لله ، وكافة يقول : جميعا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : السلم : الإسلام ، والزلل : ترك الإسلام . وأخرج ابن جرير عن السدى قال (فان زلتم من بعد ما جاءكم البينات) قال : فإن ظلمتم من بعد ما جاءكم محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله في ظل من الغمام من العرش إلى الكرسي » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر في هذه الآية قال : يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور والظلمة والماء ، فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب . وأخرج أبو يعلى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال : يأتى الله يوم القيامة في ظل من السحاب قد قطعت طاقات . وأخرج ابن جرير والديلمى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن من الغمام طاقات يأتى الله فيها محفوفات بالملائكة » وذلك قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة (في ظل من الغمام) قال : طاقات والملائكة حوله . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : يأتيهم الله في ظل من الغمام ، وتأتيهم الملائكة عند الموت . وأخرج عن عكرمة في قوله (وقضى الأمر) يقول : قامت الساعة .

سَلِّ بْنِ إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣).

المأمور بالسؤال ابنى إسرائيل هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين ، وهو سؤال تقرير وتوبيخ . و (كم) في محل نصب بالفعل المذكور بعدها على أنها مفعول بآتى ، ويجوز أن ينتصب بفعل مقدر دل عليه المذكور : أى كم آتينا آتيناهم ، وقدّر متأخرا لأن لها صدر الكلام ، وهى إما استفهامية للتقرير أو خبرية للتكثير . و (من آية) في موضع نصب على التمييز ، وهى البراهين التى جاء بها أنبياءهم فى أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم - وقيل المراد بذلك الآيات التى جاء بها موسى ، وهى التسع . والمراد بالنعمة هنا ما جاءهم من الآيات . وقال ابن جرير الطبرى : النعمة هنا الإسلام ، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على عبد من عباده كائنا من كان ، فوقع منه التبديل لها ، وعدم القيام بشكرها - ولا ينافى ذلك كون السياق فى بنى إسرائيل ، أو كونهم السبب فى النزول لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفى قوله (فإن الله شديد العقاب) من الترهيب والتخويف مالا يقادر قدره . قوله (زين) مبنى للمجهول ، والمزين : هو الشيطان أو الأنفس المحبولة على حب العاجلة . والمراد بالذين كفروا رؤساء قريش أو كل كافر . وقرأ مجاهد وحيد بن قيس « زين » على البناء للمعلوم . قال النحاس : وهى قراءة شاذة لأنه لم يتقدم للفاعل ذكر . وقرأ ابن أبى عبة « زينت » وإنما خص الذين كفروا بالذكر مع كون الدنيا مزية للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا ، لأن الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة ، والمسلم لم يفتن به ، بل أقبل على الآخرة . قوله (ويسخرون من الذين آمنوا) هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى والحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا لكونهم فقراء لا حظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر وأساطين الضلال ، وذلك لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذى يكون من ناله سعيدا رابحا ، ومن حرمه شقيا خاسرا . وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة ، وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها . وحكى الأخفش أنه يقال : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، والاسم السخرية والسخرى . ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين ردّ الله عليهم بقوله (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) والمراد بالفوقية هنا : العلو فى الدرجة ، لأنهم فى الجنة والكفار فى النار - ويحتمل أن يراد بالفوق المكان ،

لأن الجنة في السماء ، والنار في أسفل سافلين ؛ أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام وسقوط الكفر وقتل أهله ، وأسره وتشريدهم ، وضرب الجزية عليهم ؛ ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة . قوله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ويوسع عليهم ، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب : أى بغير تقدير ؛ ويحتمل أن المعنى : أن الله يوسع على بعض عباده في الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجاً لهم ، وليس في التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضى عنه ؛ ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال سبحانه - ويرزقه من حيث لا يحتسب - . قوله (كان الناس أمة واحدة) أى كانوا على دين واحد فاختلفوا (فبعث الله النبيين) ويدل على هذا المحذوف : أعنى قوله فاختلفوا قراءة ابن مسعود فإنه قال - كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين - . واختلف في الناس المذكورين في هذه الآية من هم ؟ فقيل هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم ؛ وقيل آدم وحده ، وسمى ناساً لأنه أصل النسل ؛ وقيل آدم وحواء ؛ وقيل المراد القرون الأولى التي كانت بين آدم ونوح ؛ وقيل المراد نوح ومن في سفينته ؛ وقيل معنى الآية كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث الله النبيين ؛ وقيل المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة في خلوتهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق ، لولا أن الله من عليهم بإرسال الرسل . والأمة مأخوذة من قولهم أمت الشيء : أى قصده ، أى مقصدهم واحد غير مختلف . قوله (فبعث الله النبيين) قيل جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر . وقوله (مبشرين ومنذرين) بالنصب على الحال . قوله (وأنزل معهم الكتاب) أى الجنس . وقال ابن جرير الطبري : إن الألف واللام للعهد والمراد التوراة . وقوله (لينحكم) مسند إلى الكتاب في قول الجمهور ، وهو مجاز مثل قوله تعالى - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - وقيل إن المعنى لينحكم كل نبي بكتابه ؛ وقيل لينحكم الله ؛ والضمير في قوله (فيه) الأولى راجع إلى ما في قوله (فيما اختلفوا فيه) والضمير في قوله (وما اختلف فيه) يحتمل أن يعود إلى الكتاب ، ويحتمل أن يعود إلى المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قاله الزجاج ؛ ويحتمل أن يعود إلى الحق . وقوله (إلا الذين أوتوه) أى أوتوا الكتاب ، أو أوتوا الحق أو أوتوا النبي : أى أعطوا علمه . وقوله (بغيا بينهم) منتصب على أنه مفعول به : أى لم يختلفوا إلا للبغي : أى الحسد والحرص على الدنيا ، وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم ، والقبیح الذي وقعوا فيه ، لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الخلاف . وقوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) أى فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحق ، وذلك بما بينه لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم وقيل معناه فهدى الله أمة محمد للتصديق ، بجميع الكتب بخلاف من قبلهم ، فإن بعضهم كذب كتاب بعض ؛ وقيل إن الله هداهم إلى الحق من القبلة ؛ وقيل هداهم ليوم الجمعة ؛ وقيل هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبت اليهود وجعلته النصراني ربا ؛ وقيل المراد بالحق الإسلام . وقال الفراء : إن في الآية قلباً ، وتقديره : فهدى الله الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه . واختاره ابن جرير وضعفه ابن عطية . وقوله (بإذنه) . قال الزجاج : معناه بعلمه . قال النحاس : وهذا غلط ، والمعنى بأمره .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (سل بني إسرائيل) قال : هم اليهود (كم آتيناهم من آية بينة) ما ذكر الله في القرآن وما لم يذكر (ومن يبدل نعمة الله) قال : يكفرها : وأخرج ابن أبي حاتم عن

أبي العالية قال : آتاهم الله آيات بينات : عصى موسى ، ويده ، وأقطعهم البحر ، وأغرق عدوهم وهم ينظرون ، وظل من الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى (ومن يبدل نعمة الله) يقول من يكفر بنعمة الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) قال : الكفار يبتغون الدنيا ويطلبونها (ويسخرون من الذين آمنوا) في طلبهم الآخرة . قال ابن جريج : لا أحسبه إلا عن عكرمة . قال : قالوا لو كان محمد نبيا لاتبعه ساداتنا وأشرافنا ، والله ما اتبعه إلا أهل الحاجة مثل ابن مسعود وأصحابه . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ويسخرون من الذين آمنوا) يقولون : ما هؤلاء على شيء استهزاء وسخرى (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) هنا كم التفاضل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : فوقهم في الجنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال سألت ابن عباس عن هذه الآية (والله يرزق من يشاء بغير حساب) قال : تفسيرها ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لا يحاسب الرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان الناس أمة واحدة قال على الإسلام كلهم . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عنه قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين . قال : وكذلك في قراءة عبد الله - كان الناس أمة واحدة فاختلفوا - . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال : كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم ، ففطهم الله على الإسلام وأقروا له بالعبودية ، وكانوا أمة واحدة مسلمين ، ثم اختلفوا من بعد آدم . وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد كان الناس أمة واحدة قال : آدم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين) وإن الله إنما بعث الرسل وأنزل الكتب بعد الاختلاف وما اختلف الذين أوتوه : يعنى بنى إسرائيل أوتوا الكتاب والعلم بغيا بينهم ، يقول : بغيا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) قال : كفارا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة في قوله (فهدى الله الذين آمنوا) قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، وأول الناس دخولا يبدأ بهم ، أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغدا لليهود ، وبعد غد للنصارى » وهو في الصحيح بدون ذكر الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) قال : اختلفوا في يوم الجمعة ، فأخذ اليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة - واختلفوا في القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق ، واليهود بيت المقدس ، وهدى أمة محمد للقبلة ، واختلفوا في الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا في الصيام ، فمنهم من يصوم النهار ، ومنهم من يصوم من بعد الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا في إبراهيم ، فقالت اليهود كان يهوديا ، وقالت النصارى كان نصرانيا وجعله الله حنيفا مسلما ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا في عيسى ، فكذبت به اليهود ، وقالوا لأمة بهتانا عظيما ، وجعلته النصارى إلهًا وولدا ، وجعله الله روحه وكلمته ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ
الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) .

« أم » هنا منقطعة بمعنى بل . وحكى بعض اللغويين أنها قد نجيء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام ، فعلى هذا
معنى الاستفهام هنا التقرير والإنكار : أى أحسبتم دخولكم الجنة واقعا ، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان
قبلكم ، فتصبروا كما صبروا ، ذكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم ، تثبيتا
للمؤمنين وتقوية لقلوبهم ، ومثل هذه الآية قوله تعالى - أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا
منكم - وقوله تعالى - ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون - . وقوله (مستهم) بيان لقوله
(مثل الذين خلوا) . و (البأساء والضراء) قد تقدم تفسيرهما ، والزلزلة : شدة التحريك يكون في الأشخاص
وفى الأحوال ، يقال : زلزل الله الأرض زلزلة وزلزالا بالكسر ، فزلزلت : إذا تحركت واضطربت ؛ فعنى
زلزلوا : خوفوا وأزعجوا إزعاجا شديدا . وقال الزجاج : أصل الزلزلة : نقل الشيء من مكانه ، فإذا قلت :
زلزلته فعناه كررت زلله من مكانه . وقوله (حتى يقول) أى استمر ذلك إلى غاية هى قول الرسول ومن معه
(متى نصر الله) والرسول هنا قيل هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل هو شعيب ؛ وقيل هو كل رسول بعث
إلى أمته . وقرأ مجاهد والأعرج ونافع وابن محيصن بالرفع فى قوله (حتى يقول) وقرأ غيرهم بالنصب فالرفع على أنه
حكاية لحال ماضية ، والنصب بإضمار أن على أنه غاية لما قبله . وقرأ الأعمش (وزلزلوا ويقول الرسول) بالواو
بدل حتى ، ومعنى ذلك أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر واستبطاء
حصوله واستطالة تأخره ، فبشرهم الله سبحانه بقوله (ألا إن نصر الله قريب) . وقالت طائفة فى الكلام تقديم
وتأخير ، والتقدير : حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله ، ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ألا إن نصر
الله قريب ، ولا ملجئ لهذا التكلف ، لأن قول الرسول ومن معه (متى نصر الله) ليس فيه إلا استعجال النصر
من الله سبحانه ، وليس فيه مازعموه من الشك والارتباب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف :

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أن هذه الآية نزلت فى يوم الأحزاب ، أصاب
النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ وأصحابه بلاء وحصر . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال :
أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها ، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم
فقال (مستهم البأساء والضراء) فالبأساء : الفتن ، والضراء : السقم ، وزلزلوا بالفتن وأذى الناس إياهم .
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى فى قوله (ولما يأتكم مثل الذين خلوا) قال : أصابهم هذا يوم
الأحزاب حتى قال قائلهم - ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا - ولعله يعنى بقوله حتى قال قائلهم : يعنى قائل
المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى - إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب
الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم
مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا - :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا
وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦).

السائلون هنا : هم المؤمنون سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ماهو ؟ فأجيبوا ببيان المصرف الذي يصرفون فيه
تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه وصادف مصرفه ؛ وقيل إنه قد
تضمن قوله (ما أنفقتم من خير) بيان ما ينفقونه وهو كل خير ؛ وقيل إنهم إنما سألوا عن وجوه البر التي ينفقون
فيها ، وهو خلاف الظاهر . وقد تقدم الكلام في الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وقوله (كتب) أى
فرض ، وقد تقدم بيان معناه . بين سبحانه أن هذا : أى فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به . والمراد بالقتال
قتال الكفار . والكره بالضم : المشقة ، وبالفتح : ما أكرهت عليه ، ويجوز الضم في معنى الفتح فيكونان لغتين ،
يقال : كرهت الشيء كرها وكراها وكراهية وأكرهته عليه إكراها ، وإنما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج
المال ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتعرض لذهاب النفس ؛ وفي التعبير بالمصدر وهو قوله (كره) مبالغة ؛
ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما في قولهم الدرهم ضرب الأمير . وقوله (وعسى أن تكرهوا شيئا) قيل عسى
هنا بمعنى قد ، وروى ذلك عن الأضمر . وقال أبو عبيدة : عسى من الله إيجاب ، والمعنى : عسى أن تكرهوا
الجهاد لما فيه من المشقة وهو خير لكم ، فرما تغلبون وتظفرون وتغنمون وتوَجرون ، ومن مات مات شهيدا ،
وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم ، فرما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم ، ويقصدكم إلى عقر دياركم
فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم مع ما يفوتكم في ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة (والله يعلم)
ما فيه صلاحكم وفلاحكم (وأنتم لا تعلمون) .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (يسألونك ماذا ينفقون) قال : يوم نزلت هذه الآية
لم تكن زكاة ، وهى النفقة ينفقها الرجل على أهله ، والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة ؛ وأخرج ابن جرير وابن
المنذر عن ابن جريج قال : سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين يضعون أموالهم ؟ فنزلت
(يسألونك ماذا ينفقون) الآية ، فذلك النفقة في التطوع والزكاة سواء ذلك كله . وأخرج ابن المنذر أن عمرو بن
البحموح سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت . وأخرج ابن
أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (كتب عليكم القتال) قال : إن الله أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم
والمؤمنين بمكة بالتوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يكفوا أيديهم عن القتال ، فلما هاجر إلى المدينة نزلت
سائر الفرائض وأذن لهم في القتال ، فنزلت (كتب عليكم القتال) يعنى فرض عليكم وأذن لهم بعد ما نهاهم عنه (وهو
كره لكم) يعنى القتال وهو مشقة عليكم (وعسى أن تكرهوا شيئا) يعنى الجهاد قتال المشركين وهو خير لكم ،
ويجعل الله عاقبته فتحا وغنيمة وشهادة (وعسى أن تحبوا شيئا) يعنى القعود عن الجهاد (وهو شر لكم) فيجعل الله
عاقبته شرا ، فلا تصيبوا ظفرا ولا غنيمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال :

قلت لعطاء ما يقول في قوله (كتب عليكم القتال) أوجب الغزو على الناس من أجلها ؟ قال لا ، كتب على أولئك حينئذ . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن شهاب في الآية قال : الجهاد مكتوب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد إن استعين به أعان ، وإن استغيث به أغاث ، وإن استنفر نفر ، وإن استغنى عنه قعد ، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (وهو كره لكم) قال : نسخها هذه الآية - وقالوا سمعنا وأطعنا - . وأخرجه ابن جرير موصولا عن عكرمة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق علي قال : عسى من الله واجب . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه : وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحوه أيضا . وقد ورد في فضل الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨) .

قوله (قتال فيه) هو بدل اشتمال ، قاله سيويه . ووجهه أن السؤال عن الشهر لم يكن إلا باعتبار ما وقع فيه من القتال . قال الزجاج : المعنى يسألونك عن القتال في الشهر الحرام ، وأنشد سيويه قول الشاعر

فما كان قيس هللكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

فقوله هللكه بدل اشتمال من قيس ، وقال الفراء : هو مخفوض يعني قوله (قتال فيه) على نية عن وقال أبو عبيدة : هو مخفوض على الجوار . قال النحاس : لا يجوز أن يعرب الشيء على الجوار في كتاب الله ولا في شيء من الكلام ، وإنما وقع في شيء شاذ ، وهو قولهم : هذا جحر ضب خرب . وتابع النحاس ابن عطية في تخطئة أبي عبيدة . قال النحاس : ولا يجوز إضمار عن ، والقول فيه أنه بدل . وقرأ ابن مسعود وعكرمة « يسألونك عن الشهر الحرام وعن قتال فيه » . وقرأ الأعرج « قتال فيه » بالرفع . قال النحاس : وهو غامض في العربية ، والمعنى : يسألونك عن الشهر الحرام جائز قتال فيه . وقوله (قل قتال فيه كبير) مبتدأ وخبر : أي القتال فيه أمر كبير مستنكر ، والشهر الحرام : المراد به الجنس . وقد كانت العرب لاتسفل فيه دما ولا تغير على عدو ، والأشهر الحرم هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ومحرم ، ورجب ، ثلاثة سرد وواحد فرد . وقوله (وصد عن سبيل الله) مبتدأ . وقوله (وكفر به) معطوف على صد . وقوله (والمسجد الحرام) عطف على سبيل الله . وقوله (وإخراج أهله منه) معطوف أيضا على صد . وقوله (أكبر عند الله) خبر صد وما عطف عليه : أي الصد عن سبيل الله ، والكفر به والصد عن المسجد الحرام ، وإخراج أهل الحرم منه (أكبر عند الله) أي أعظم إثما وأشد ذنبا من القتال في

الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره، والضمير في قوله (وكفر به) يعود إلى الله - وقيل يعود إلى الحج . وقال الفراء : إن قوله (وصد) عطف على كبير ، والمسجد عطف على الضمير في قوله (وكفر به) فيكون الكلام متنسقا متصلا غير منفصل . قال ابن عطية : وذلك خطأ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله (وكفر به) أى بالله عطف أيضا على كبير ، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر بالله ، وهذا بين فساد . ومعنى الآية على القول الأول الذى ذهب إليه الجمهور : أنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام ، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن الكفر بالله ، ومن الصد عن المسجد الحرام ، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرما عند الله . والسبب يشهد لهذا المعنى ، ويفيد أنه المراد كما سيأتى بيانه ، فإن السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التى بعثها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالفتنة هنا الكفر : أى كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التى بعثها النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بالفتنة : الإخراج لأهل الحرم منه ؛ وقيل المراد بالفتنة هنا فتنهم عن دينهم حتى يهلكوا : أى فتنة المستضعفين من المؤمنين أو نفس الفتنة التى الكفار عليها . وهذا أرجح من الوجهين الأولين ، لأن الكفر والإخراج قد سبق ذكرهما وأنها مع الصد أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . وقوله (ولا يزالون) ابتداء كلام يتضمن الإخبار من الله عز وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم حتى يردوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وتهايم منكم ، والتقيد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك وقدرتهم عليه ، ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار والدخول فيما يريدونه من ردكم عن دينهم الذى هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم) إلى آخر الآية والردة : الرجوع عن الإسلام إلى الكفر ، والتقيد بقوله (فيمت وهو كافر) يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر . وحبط : معناه بطل وفسد ، ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشى في بطونها من كثرة أكلها للكلأ فتنتفخ أجوافها ، وربما تموت من ذلك ؛ وفي هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام . ومعنى قوله (في الدنيا والآخرة) أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا ، فلا يأخذ شيئا مما يستحقه المسلمون ، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام ، ولا ينال شيئا من ثواب الآخرة الذى يوجب الإسلام ويستحقه أهله . وقد اختلف أهل العلم في الردة هل تحبط العمل بمجرد ما أم لا تحبط إلا بالموت على الكفر ، والواجب حمل ما أطلقت الآيات في غير هذا الموضع على ما في هذه الآية من التقيد . وقد تقدم الكلام في معنى الخلود . قوله (وهاجروا) الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع ، وترك الأول لإيثار الثاني ، والهجر ضد الوصل ، والهاجر : التقاطع والمراد بها هنا الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . والمجاهدة : استخراج الجهد ، جهد مجاهدة وجهادا ، والجهاد والتجاهد : بذل الوسع . وقوله (يرجون) معناه يطمعون ، وإنما قال : يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التى وصفهم بها ، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ، ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ . والرجاء الأمل ، يقال : رجوت فلانا أرجو رجاء ورجاوة . وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما في قوله تعالى - مالكم لا ترجون لله وقارا - أى لا تخافون عظمة الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه بسند صحيح عن جندب بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث ، فلما ذهب لينطلق بكى شوقا وصباة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فجلس فبعث مكانه عبد الله بن جحش

وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال : لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك ، فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعا وطاعة الله ولرسوله ، فخيرهم الخبر ، وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلا ن ومضى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله (يسألونك عن الشهر الحرام) الآية ، فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزرا فليس لهم أجر ، فأنزل الله (إن الذين آمنوا والذين هاجروا) إلى آخر الآية . وأخرج البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية هو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : إن المشركين صلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وردّوه عن المسجد الحرام في شهر حرام ، ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل ، فعاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القتال في شهر حرام . فقال الله (قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) من القتال فيه ، وأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية ، فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب ، وإن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى ، وكانت أول رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه ، وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك ، فنزلت الآية . وأخرج ابن إسحاق عنه : أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمي . وقد ورد من طرق كثيرة في تعيين السبب مثل ما تقدّم . وأخرج ابن أبي داود عن عطاء بن ميسرة قال : أحلّ القتال في الشهر الحرام في براءة في قوله - فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة - . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري أنه سئل عن هذه الآية فقال : هذا شيء منسوخ ، ولا بأس بالقتال في الشهر الحرام . وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر (والفتنة أكبر من القتل) قال : الشرك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد (ولا يزالون يقاتلونكم) قال : كفار قريش وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله (أولئك يرجون رحمة الله) قال : هؤلاء خيار هذه الأمة جعلهم الله أهل رجاء ، إنه من رجا طلب ، ومن خاف هرب . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ لِإِتْمَاعِهِمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) .

السائلون في قوله (يسألونك عن الخمر) هم المؤمنون كما سيأتي بيانه عند ذكر سبب نزول الآية ، والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة ، وكل شيء غطي شيئا فقد خمره ، ومنه «خمروا أنفسكم» وسمى خمرًا

لأنه يخمر العقل : أى يغطيه ويستره ، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر بفتح الميم ، لأنه يغطى ماتحته ويستره ، يقال منه أخرث الأرض : كثر خمرها . قال الشاعر :

ألا يازيد والضحاك سيرا فقد جاوزتما خمر الطريق

أى جاوزتما الوهد ؛ وقيل إنما سميت الخمر خمر لأنها تركت حتى أدركت ، كما يقال قد اختمر العجين : أى بلغ إدراكه ، وخمر الرأى : أى ترك حتى تبين فيه الوجه ؛ وقيل إنما سميت الخمر خمر لأنها تخالط العقل من الحامرة وهى المخالطة . وهذه المعانى الثلاثة متقاربة موجودة فى الخمر لأنها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته : أى سترته ، والخمر : ماء العنب الذى غلا واشتد وقذف بالزبد ، وما خمر العقل من غيره فهو فى حكمه كما ذهب إليه الجمهور . وقال أبو حنيفة والثورى وابن أبى ليلى وابن عكرمة وجماعة من فقهاء الكوفة : ما سكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال : أى مادون المسكر فيه . وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ ، والخلاف فى ذلك مشهور . وقد أطلت الكلام على الخمر فى شرحى للمتنقى فليرجع إليه . والميسر مأخوذ من اليسر ، وهو وجوب الشئ لصاحبه ، يقال يسر لى كذا : إذا وجب فهو يسر يسرا وميسرا ، والياسر اللاعب بالقداح . وقد يسر يسر . قال الشاعر :

فأعنيهم وایسر كما یسروا به وإذا هم نزلوا بضنك فانزل

وقال الأزهري : الميسر : الجزور التى كانوا يتقامرون عليه ، سمي ميسرا ، لأنه يجزأ أجزاء ، فكأنه موضع التجزئة ، وكل شئ جزأته فقد يسرته ، والياسر : الجازر . قال : وهذا الأصل فى الياسر ، ثم يقال للضاربين بالقداح والمتقامين على الجزور : ياسرون ، لأنهم جازرون ، إذ كانوا سببا لذلك . وقال فى الصحاح : ويسر القوم الجزور : إذا اجتزروها واقتسموا أعضائها ؛ ثم قال : ويقال يسر القوم : إذا قاموا ، ورجل ميسر وياسر بمعنى ، والجمع أيسار . قال النابغة :

إني أتمم أيسارى وأمنحهم مشى الأيادى وأكسوا الحفنة الأدما

والمراد بالميسر فى الآية قمار العرب بالأزلام . قال جماعة من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم : كل شئ فيه قمار من نرد أو شطرنج أو غيرهما فهو الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوذ والكعاب إلا ما يبيع من الرهان فى الخيل والقرعة فى إفراز الحقوق . وقال مالك : الميسر ميسران : ميسر اللهو ، وميسر القمار ، فن ميسر اللهو : النرد والشطرنج والملاهى كلها ، وميسر القمار : ما يتخاطر الناس عليه ، وكل ما قورم به فهو ميسر ، وسيأتى البحث مطولا فى هذا فى سورة المائدة عند قوله - إنما الخمر والميسر - . قوله (قل فيهما إثم كبير) يعنى الخمر والميسر ، فإثم الخمر : أى إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها فيصدر عنه ما يصدر عن فساد العقل من المخاصمة والمشاتمة ، وقول الفحش والزور ، وتعطيل الصلوات ، وسائر ما يجب عليه . وأما إثم الميسر : أى إثم تعاطيه ، فما ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال فى غير طائل ، والعداوة وإحياش الصدور . وأما منافع الخمر فربح التجارة فيها ؛ وقيل ما يصدر عنها من الطرب والنشاط وقوة القلب وثبات الجنان وإصلاح المعدة وقوة الباءة وقد أشار شعراء العرب إلى شئ من ذلك قال :

وإذا شربت فلنسى رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإننى ربّ الشويبة والبعير
وقال آخر : ونشربها فتركنا ملوكا وأسدا ماينهننا اللقاء

وقال من أشار إلى مافيا من المفاسد والمصالح :

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحلما
فلا والله أشربها صحيحا ولا أشقى بها أبدا سقيما
ولا أعطى بها ثمنا حياتى ولا أدعو لها أبدا نديما

ومنافع الميسر : مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب ولا كد ، وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح . وسهام الميسر أحد عشر ، منها سبعة لها فروض على عدد مافيا من الحظوظ . الأول الفذ بفتح الفاء بعدها معجمة ، وفيه علامة واحدة وله نصيب وعليه نصيب . الثانى التوأم بفتح المثناة الفوقية وسكون الواو وفتح الحمزة ، وفيه علامتان ، وله وعليه نصيبان . الثالث الرقيب ، وفيه ثلاث علامات ، وله وعليه ثلاثة أنصباء . الرابع المجلس بمهملتين ، الأولى مكسورة واللام ساكنة ، وفيه أربع علامات ، وله وعليه أربعة أنصباء . الخامس النافر بالنون والفاء والمهمل ، ويقال : النافس بالسین المهمل مكان الراء ، وفيه خمس علامات ، وله وعليه خمسة أنصباء . السادس المسبل بضم الميم وسكون المهمل وفتح الباء الموحدة وفيه ست علامات ، وله وعليه ستة أنصباء . السابع المعلى بضم الميم وفتح المهمل وتشديد اللام المفتوحة وفيه سبع علامات ، وله وعليه سبعة أنصباء وهو أكثر السهام حظا ، وأعلها قدرا ، فجملة ذلك ثمانية وعشرون فردا . والجزور تجعل ثمانية وعشرين جزءا ، هكذا قال الأصمعى ، وبقي من السهام أربعة أغفالا لفروضها ، وهى : المنيع بفتح الميم وكسر النون وسكون الياء التحتية وبعدها مهمل ، والسفيح بفتح المهمل وكسر الفاء وسكون الياء التحتية بعدها مهمل ، والوغد بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهمل والضعف بالمعجمة بعدها مهمل ثم فاء ، وإنما أدخلوا هذه الأربعة التى لفروضها بين ذوات الفروض لتكثر السهام على الذى يجعلها ويضرب بها فلا يجد إلى الميل مع أحد سيلا . وقد كان الحجيل للسهام يلتحف بثوب ويحشو على ركبته ويخرج رأسه من الثوب ، ثم يدخل يده فى الرقبة بكسر المهمل وبعدها باء موحدة وبعدها الألف باء موحدة أيضا ، وهى الخريطة التى يجعل فيها السهام ، فيخرج منها باسم كل رجل سهم ، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه ، ومن خرج له سهم لا فرض له لم يأخذ شيئا وغرم قيمة الجزور ، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء . وقد قال ابن عطية : إن الأصمعى أخطأ فى قوله إن الجزور تقسم على ثمانية وعشرين جزءا ، وقال : إنما تقسم على عشرة أجزاء . قوله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) أخبر سبحانه بأن الخمر والميسر وإن كان فيهما نفع فالإثم الذى يلحق متعاطيها أكثر من هذا النفع ، لأنه لاخير يساوى فساد العقل الحاصل بالخمر ، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتى عليه الحصر ، وكذلك لاخير فى الميسر يساوى مافيا من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر ، واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم . وقرأ حمزة والكسائى « كثير » بالمثلثة . وقرأ الباقر بالباء الموحدة . وقرأ أبى « وإثمهما أقرب من نفعهما » . قوله (قل العفو) قرأه الجمهور بالنصب . وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع . واختلف فيه عن ابن كثير ، وبالرفع قرأه الحسن وقتادة قال النحاس : إن جعلت ذا بمعنى الذى كان الاختيار الرفع على معنى الذى يتفقون هو العفو ، وإن جعلت ماوذا

شيئا واحدا كان الاختيار النصب على معنى : قل ينفقون العفو ، والعفو : ماسهل وتيسر ولم يشق على القلب ؛ والمعنى : أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم ؛ وقيل : هو ما فضل عن نفقة العيال . وقال جمهور العلماء : هو نفقات التطوع ؛ وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة ؛ وقيل هي محكمة ، وفي المال حق سوى الزكاة . قوله (كذلك بين الله لكم الآيات) أى فى أمر النفقة . وقوله (فى الدنيا والآخرة) متعلق بقوله (تتفكرون) أى تفكرون فى أمرهما ، فتحبسون من أموالكم ما تصلحون به معاش دنياكم ، وتنفقون الباقي فى الوجوه المقرّبة إلى الآخرة ؛ وقيل فى الكلام تقديم وتأخير : أى كذلك بين الله لكم الآيات فى الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فى الدنيا وزوالها وفى الآخرة وبقائها ، فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة ؛ وقيل يجوز أن يكون إشارة إلى قوله (وإثمهما أكبر من نفعهما) أى لتفكروا فى أمر الدنيا والآخرة ، وليس هذا بجيد . قوله (ويسألونك عن اليتامى) هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى - ولا تقربوا مال اليتيم - وقوله - إن الذين يأكلون أموال اليتامى - وقد كان ضاق على الأولياء الأمر كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، فنزلت هذه الآية . والمراد بالإصلاح هنا مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم ، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم . وفى ذلك دليل على جواز التصرف فى أموال الأيتام من الأولياء والأوصياء بالبيع والمضاربة والإجارة ونحو ذلك . قوله (وإن تخالطوهم فلاخوانكم) اختلف فى تفسير المخالطة لهم ، فقال أبو عبيدة ، مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشقّ على كافله أن يفرد طعامه عنه ولا يجد بدا من خلطه بعياله ، فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري فيجعله مع نفقة أهله ، وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان ، فدلّت هذه الآية على الرخصة ، وهى ناسخة لما قبلها ؛ وقيل المراد بالمخالطة : المعاشرة للأيتام ؛ وقيل المراد بها : المصاهرة لهم . والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل تشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية . وقوله (فلاخوانكم) خبر لمبتدأ محذوف : أى فهم إخوانكم فى الدين . وفى قوله (والله يعلم المفسد من المصلح) تحذير للأولياء : أى لا يفتنى على الله من ذلك شيء فهو يجازى كل أحد بعمله من أصلح فلنفسه ، ومن أفسد فعلى نفسه . وقوله (لأعتكم) أى ولو شاء لجعل ذلك شاقا عليكم ومتعبا لكم وأوقعكم فيما فيه الحرج والمشقة ، وقيل العنت هنا : معناه الهلاك . قاله أبو عبيدة ، وأصل العنت المشقة . وقال ابن الأنبارى : أصل العنت التشديد ثم نقل إلى معنى الهلاك . وقوله (عزيز) أى لا يمتنع عليه شيء ، لأنه غالب لا يغالب (حكيم) يتصرف فى ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته ، وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم .

وقد أخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والضياء فى المختارة عن عمر أنه قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فإنها تذهب بالمال والعقل ، فنزلت (يسألونك عن الخمر والميسر) يعنى هذه الآية ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت التى فى سورة النساء - يأيا الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى - فكان ينادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ - فهل أنتم منتهون - قال عمر : انتهينا انتهينا . وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : كنا نشرب الخمر فأنزلت (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية ، فقلنا نشرب منها ما ينفعنا ، فنزلت فى المائدة - إنما الخمر والميسر - الآية فقالوا : اللهم انتهينا . وأخرج أبو عبيد والبخارى فى الأدب المفرد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال الميسر

القمار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس مثله قال : كان الرجل في الجاهلية يخاطر عن أهله وماله ، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله . وقوله (قل فيهما إثم كبير) يعني ما ينقص من الدين عند شربها (ومنافع للناس) يقول : فيما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوا (وإثمها أكبر من نفعهما) يقول : ما يذهب من الدين فالإثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها وفرحها إذا شربوها ، فأنزل الله بعد ذلك - لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى - الآية ، فكانوا لا يشربونها عند الصلاة ، فإذا صلوا العشاء شربوها ، ثم إن ناسا من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضا ، وتكلموا بما لم يرض الله من القول فأنزل الله - إنما الخمر والميسر والأنصاب - الآية فحرّم الخمر ونهى عنها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : منافعها قبل التحريم ، وإثمها بعد ما حرّمها . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عنه أن نفرا من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : إنا لاندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا ، فما تنفق منها ؟ فأنزل الله (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به ، ولا ما يأكل حتى يتصدق عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : العفو هو مالا يتبين في أموالكم ، وكان هذا قبل أن تفرض الصدقة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال (العفو) ما يفضل عن أهلك وفي لفظ قال : الفضل عن العيال . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (قل العفو) قال : لم تفرض فيه فريضة معلومة ثم قال - خذ العفو وأمر بالمعروف - ثم نزلت في الفرائض بعد ذلك مسماة . وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وأبدأ بمن تعول » . وثبت نحوه في الصحيح مرفوعا من حديث حكيم بن حزام . وفي الباب أحاديث كثيرة وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لعلمكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) قال : يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها . وأخرج أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عنه قال : لما أنزل الله - ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن - وإن الذين يأكلون أموال اليتامى - الآية ، انطلق من كان عنده يتيم يعزل طعامه عن طعامه ، وشرابه عن شرابه ، فجعل يفصل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله (ويسألونك عن اليتامى) الآية . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وقد روى نحوه ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإن تخالطوهم) قال : المخالطة أن يشرب من لبنك وتشرب من لبنه ، ويأكل من قصعتك وتأكل من قصعته ، ويأكل من ثمرتك وتأكل من ثمرته (والله يعلم المفسد من المصلح) قال : يعلم من يتعمد أكل مال اليتيم ، ومن يتخرج منه ولا يألو عن إصلاحه (ولو شاء الله لأعتكم) يقول : لو شاء ما أحلّ لكم ما أعتكم مما لاتعمدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (لأعتكم) يقول : لأخرجكم وضيق عليكم ، ولكنه وسع ويسر . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (ولو شاء الله لأعتكم) قال : ولو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقا .

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ

وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١).

قوله (ولا تنكحوا) قرأه الجمهور بفتح التاء ، وقرى في الشواذ بضمها ؛ قيل والمعنى كأن المتزوج لها أنكحها من نفسها . وفي هذه الآية النهى عن نكاح المشركات ، فقيل المراد بالمشركات الوثنيات ؛ وقيل إنها تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون . وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله . وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية ، فقالت طائفة : إن الله حرم نكاح المشركات فيها والكتابيات من الجملة ، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم . وهذا محكى عن ابن عباس ومالك وسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن عمر والأوزاعي . وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة ، وأنه يحرم نكاح الكتابيات والمشركات ، وهذا أحد قولى الشافعى ، وبه قال جماعة من أهل العلم . ويحاج عن قولهم أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول منازل وسورة المائدة من آخر منازل . والقول الأول هو الراجح . وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن وطاوس وعكرمة والشعبي والضحاك كما حكاه النحاس والقرطبي . وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين ، وزاد عمر بن الخطاب وقال : لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك . وقال بعض أهل العلم : إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى - ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير ربكم - . وقال - لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين - وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم ، فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا . قوله (ولأمة مؤمنة) أى ولرقيقة مؤمنة ، وقيل المراد بالأمة : الحرة لأن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه والأول أولى لماسيأتى لأنه الظاهر من اللفظ ولأنه أبلغ ، فإن تفضيل الأمة الرقيقة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالأولى . وقوله (ولو أعجبتكم) أى ولو أعجبتكم المشركة من جهة كونها ذات جمال أومال أو شرف ، وهذه الجملة حالية . قوله (ولا تنكحوا المشركين) أى لا تزوجوهم بالمؤمنات (حتى يؤمنوا) قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يبطأ المؤمنة بوجه لما فى ذلك من الغضاضة على الإسلام ، وأجمع القراء على ضم التاء من تنكحوا . وقوله (ولعبد) الكلام فيه كالكلام فى قوله (ولأمة) والترجيح كالترجيح . قوله (أولئك) إشارة إلى المشركين والمشركات (يدعون إلى النار) أى إلى الأعمال الموجبة للنار ، فكان فى مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه (والله يدعو إلى الجنة) أى إلى الأعمال الموجبة للجنة ، وقيل المراد أن أولياء الله هم المؤمنون يدعون إلى الجنة . وقوله (بإذنه) أى بأمره ، قاله الزجاج ؛ وقيل بتيسيره وتوفيقه ، قاله صاحب الكشاف .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر عن مقاتل بن حيان قال : نزلت هذه الآية فى أبى مرثد الغنوى استأذن لنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى عناق أن يتزوجها ، وكانت ذات حظ من جمال وهى مشركة وأبو مرثد يومئذ مسلم ، فقال : يا رسول الله إنها تعجبنى ، فأنزل الله (ولا تنكحوا المشركات) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (ولا تنكحوا المشركات) قال : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب ، فقال - والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب - . وقد روى هذا المعنى عنه من طرق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن سعيد بن جبير في قوله (ولا تنكحوا المشركات) يعني أهل الأوثان . وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن مجاهد نحوه ، وكذلك أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج عبد بن حميد عن النخعي نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب ، وتأول (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) . وأخرج البخاري عنه قال : حرم الله نكاح المشركات على المسلمين ، ولا أعرف شيئا من الإشراف أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله . وأخرج الواحدى وابن عساكر من طريق السدي عن أنى مالك عن ابن عباس في قوله تعالى (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) قال نزلت في عبد الله بن رواحة ، وكانت له أمة سوداء وأنه غضب عليها فلطمها ، ثم إنه فرغ فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره خبرها ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما هي يا عبد الله ؟ قال : تصوم وتصلى وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال : يا عبد الله هذه مؤمنة ، فقال عبد الله : فوالذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا نكح أمة ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، وينكحوهم رغبة في أحسابهم ، فأنزل الله فيهم (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله (ولأمة مؤمنة) قال : بلغنا أنها كانت أمة لحذيفة سوداء ، فأعتقها وتزوجها حذيفة . وأخرج ابن جرير عن أبي جعفر محمد بن علي قال النكاح يولى في كتاب الله ، ثم قرأ (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) .

قوله (المحيض) هو الحيض ، وهو مصدر ، يقال حاضت المرأة حيضا ومحیضا فهي حائض وحائضة ، كذا قال الفراء وأشد . كحائضة تبنى بها غير طاهرة . ونساء حيض وحوائض ، والحيضة بالكسر : المرة الواحدة وقيل الاسم ؛ وقيل المحيض عبارة عن الزمان والمكان ، وهو مجاز فيهما . وقال ابن جرير الطبري : المحيض اسم الحيض ، ومثله قول ربيعة : إليك أشكو شدة المعيش . أى العيش ، وأصل هذه الكلمة من السيلان والانفجار يقال حاض السيل وفاض ، وحاضت الشجرة : أى سالت رطوبتها ، ومنه الحيض : أى الحوض ، لأن الماء يحوض إليه : أى ينسبل . وقوله (قل هو أذى) أى قل هو شيء يتأذى به : أى برائحته ، والأذى كناية عن القنبر ويطلق على القول المكروه ومنه قوله تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى - . ومنه قوله تعالى - ودع أذاهم - وقوله (فاعتزلوا النساء في المحيض) أى فاجتنبوهن في زمان الحيض إن حمل المحيض على المصدر أوفى محل الحيض إن حمل على الاسم . والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملامسة فإن ذلك جائز ، بل يجوز

الاستمتاع منها بما عدا الفرج أو بما دون الإزار على خلاف في ذلك ؛ وأما يروى عن ابن عباس وعبيدة السلماني أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت فليس ذلك بشيء ، ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض وهو معلوم من ضرورة الدين . قوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن) قرأنا نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه بسكون الطاء وضم الهاء . وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر « يطهرن » بتشديد الطاء وفتحها وفتح الهاء وتشديدها . وفي مصحف أبي وابن مسعود « ويتطهرن » والظاهر انقطاع الحيض ، والتطهر : الاغتسال . وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم ، فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء . وقال محمد بن كعب القرظي ويحيى بن بكير : إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لاماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل . وقال مجاهد وعكرمة : إن انقطاع الدم يحلها لزوجها ، ولكن تتوضأ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل ، وإن كان نقطاعه قبل العشر لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة . وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد . والأولى أن يقال : إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان : إحداهما انقطاع الدم ، والأخرى التطهر منه ، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى ، فيجب المصير إليها . وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتبرة . قوله تعالى بعد ذلك (فإذا تطهرن) فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر ، لا مجرد انقطاع الدم . وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين ، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة ، كذلك يجب الجمع بين القراءتين . قوله (فأتوهن من حيث أمركم الله) أي فجامعوهن ، وكفى عنه بالإتيان . والمراد أنهم يجامعونهن في المأوى الذي أباحه الله ، وهو القبل قبل و (من حيث) بمعنى في حيث ، كما في قوله تعالى - إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة - أي في يوم الجمعة ، وقوله - ماذا خلقوا من الأرض - أي في الأرض ؛ وقيل إن المعنى من الوجه الذي أذن الله لكم فيه : أي من غير صوم وإحرام واعتكاف ؛ وقيل إن المعنى من قبل الطهر ، لأن قبل الحيض ؛ وقيل من قبل الحلال ، لأن قبل الزنا . قوله (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) قيل المراد التوابون من الذنوب ، والمتطهرون من الجنابة والأحداث ، وقيل التوابون من إتيان النساء في أدبارهن ؛ وقيل من إتيانهن في الحيض ، والأول أظهر . قوله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة ، إذ هو مزدرع الذرية ، كما أن الحرث مزدرع النبات . فقد شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البنور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه ، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى ، أعني قوله (فأتوهن من حيث أمركم الله) . وقوله (أنى شئتم) أي من أى جهة شئتم من خلف وقدام وباركة ومستلقية ومضطجعة ، إذا كان في موضع الحرث ، وأنشد ثعلب :

إنما الأرحام أرضو . ن لنا محرثات فعلىنا الزرع فيها . وعلى الله النبات

وإنما عبر سبحانه بقوله (أنى) لكونها أعم في اللغة من كيف وأين ومتى . وأما سيبويه ففسرها هنا بكيف ؛ وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية ، وأن إتيان الزوجة في دبرها حرام . وروى عن سعيد بن المسيب ونافع وابن عمرو ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك بن الماجشون أنه يجوز ذلك ، حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال : وحكى ذلك عن مالك في كتاب له يسمى « كتاب السر » وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب ، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر ، ووقع هذا

القول في العتبية . وذكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من روايات كثيرة في كتاب « جماع النسوان وأحكام القرآن » وقال الطحاوي : روى أصبغ بن الفرغ عن عبد الرحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحداً اقتدى به في ديني شك في أنه حلال : يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ (نساؤكم حرث لكم) ثم قال : فأى شيء أبين من هذا . وقد روى الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك . وفي أسانيدنا ضعف . وقد روى الطحاوي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول : ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تحليله ولا تحريمه شيء ، والقياس أنه حلال . وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب . قال ابن الصباغ : كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كتب ابن عبد الحكم على الشافعي في ذلك ، فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه . قوله (وقدموا لأنفسكم) أي خيراً كما في قوله تعالى - وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله - وقيل ابتغاء الولد ؛ وقيل التزويج بالعفاف ، وقيل غير ذلك . وقوله (واتقوا الله) فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات . وفي قوله (واعلموا أنكم ملاقوه) مبالغة في التحذير . وفي قوله (وبشر المؤمنين) تأنيس لمن يفعل الخير ويحنتب الشر :

وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس « أن اليهود كانوا إذ حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك ، فأنزل الله (ويسألونك عن المحيض) الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعوها في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح » وأخرج النسائي والبخاري عن جابر قال : إن اليهود قالوا : من أتى المرأة في دبرها كان ولده أحول فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن ذلك وعن إتيان الحائض ، فنزلت . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال الأذى : الدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (فاعتزلوا النساء) يقول : اعتزلوا نكاح فروجهن . وفي قوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن) قال : من الدم . وأخرج عبد الرزاق وعبد حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : حتى ينقطع الدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (فإذا تطهرن) قال : بالماء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه أيضاً . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وعطاء أنهما قالوا إذا رأت الطهر فلا بأس أن تستطيب بالماء ويأتيها قبل أن تغتسل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فأتوهن من حيث أمركم الله) قال : يعني أن يأتيها طاهراً غير حائض . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فأتوهن من حيث أمركم الله) قال من حيث أمركم أن تعتزلوهن . وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس قال : من حيث نهاكم أن تأتوهن وهن حيض : يعني من قبل الفرج . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن الحنفية قال (فأتوهن من حيث أمركم الله) من قبل التزويج . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عطاء في قوله (يحب التوابين) قال : من الذنوب (ويحب المتطهرين) قال : بالماء . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال : التوبة من الذنوب والتطهير من الشرك . وأخرج البخاري وأهل السنن وغيرهم عن جابر قال : كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول ، فنزلت (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) إن شاء محتبة وإن شاء غير محتبة ، غير ذلك أن في صيام واحد . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن مرة الهمداني

نحوه . وقد روى هذا عن جماعة من السلف وصرحوا أنه السبب ، ومن الراوين لذلك عبد الله بن عمر عند ابن عساکر ، وأم سلمة عند عبد الرزاق وعبد بن حميد والبيهقي في الشعب . وأخرجه أيضا عنها ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وعبد بن حميد والترمذي وحسنه « أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض نساء الأنصار عن التحية ، فتلا عليها الآية وقال : صامما واحدا » والصمام : السيل . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والنسائي والضياء في المختارة وغيرهم عن ابن عباس قال : جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله هلكت قال : وما أهلكك ؟ قال : حوت رحلى الليلة فلم يردّ عليه شيئا ، فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية (نساؤكم حرث لكم) يقول : أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة . وأخرج أحمد عن ابن عباس مرفوعا أن هذه الآية نزلت في أناس من الأنصار أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأوه فقال : انتها على كل حال إذا كان في الفرج . وأخرج الدارمي وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في هذه عنه قال ابن عمر : والله يغفر له أوهم ، إنما كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود وهم أهل الكتاب كانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، وكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بفعلهم ، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحا ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار . فذهب يفعل بها ذلك فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك والا فاجتنبني ، فسرى أمرهما ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله الآية (نساؤكم حرث لكم) يقول مقبلات ومدبرات بعد أن يكون في الفرج وإن كان من قبل دبرها في قبلها زاد الطبراني : قال ابن عباس ، قال ابن عمر : في دبرها فأوهم ، والله يغفر له ، وإنما كان هذا الحديث على هذا . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد والدارمي والبيهقي عن ابن مسعود أنه قال : محاش النساء عليكم حرام . وأخرج الشافعي في الأم وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجه وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت « أن سائلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إتيان النساء في أدبارهن » ، فقال : حلال أولا بأس ، فلما ولى دعاه فقال : كيف قلت ؟ أمن دبرها في قبلها فنعم ، أم من دبرها في دبرها فلا ، إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن » . وأخرج ابن عدى والدارقطني عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان عن ابن عباس ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في الدبر » . وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى » . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ملعون من أتى امرأته في دبرها » . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائي والبيهقي عنه قال : إتيان الرجال والنساء في أدبارهن كفر . وقد رواه ابن عدى عن أبي هريرة مرفوعا قال ابن كثير : والموقوف أصح . وقد ورد النهي عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعا وعند النسائي عنه موقوفا وهو أصح . وعند ابن عدى في الكامل عن ابن مسعود مرفوعا وعند ابن عدى أيضا عن عقبة بن عامر مرفوعا ، وعند أحمد عن طلق بن يزيد وأبي يزيد بن طلق مرفوعا ، وعند ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه عن علي بن طلق مرفوعا وقد ثبت نحوه ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين مرفوعا وموقوفا وأخرج البخاري وغيره عن نافع قال : قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم) فقال ابن عمر : أتندري فيم أنزلت هذه الآية ؟ قلت

لا ، قال نزلت في إتيان النساء في أدبارهن . وأخرج البخاري عن ابن عمر أنه قال (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال في الدبر . وقد روى هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة . وفي رواية عند الدارقطني أنه قال له نافع : من دبرها في قبلها ؟ فقال لا : إلا في دبرها . وأخرج بن راهويه وأبو يعلى وابن جرير والطحاوي وابن مردويه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري ، أن رجلاً أصاب امرأته في دبرها ، فأنكر الناس عليه ذلك ، فنزلت الآية . وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن علي قال : كتب عند محمد بن كعب القرظي فجاءه رجل فقال : ماتقول في إتيان المرأة في دبرها ؟ فقال : هذا شيخ من قريش فسله ، يعني عبد الله بن علي بن السائب : فقال : قلر ولو كان حلالا . وقد روى القول بحل ذلك عن محمد بن المنكدر عند ابن جرير وعن بن أبي مليكة عند ابن جرير أيضا ، وعن مالك ابن نسر عند ابن جرير والخطيب وغيرهما ، وعن الشافعي عند الطحاوي والحاكم والخطيب . وقد قدمنا مثل هذا ، وليس في أقوال هؤلاء حجة ألينة : ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم ، فإنهم لم يأتوا بدليل يدل على الجواز ، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه . وقد فسرنا لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كائنا من كان ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلاً أتى امرأته في دبرها ، فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك ، ومن زعم ذلك فقد أخطأ ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام ، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله ، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا ، وتارة بتحريمه . وقد روى عن ابن عباس أنه فسر هذه الآية بغير ما تقدم ، فقال معناه إن شئتم فاعزلوا وإن شئتم فلا تعزلوا . روى ذلك عنه ابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والضياء في المختارة . وروى نحو ذلك عن ابن عمر . أخرجه ابن أبي شيبه وعن سعد بن المسيب ، أخرجه ابن أبي شيبه وابن جرير :

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُوَاقِحُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاقِحُكُمْ إِيْمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) .

العرضة : النصب ، قاله الجوهري . يقال جعلت فلانا عرضة لكذا : أي نصبته : وقيل العرضة من الشدة والقوة ، ومنه قولهم للمرأة عرضة للنكاح : إذا صلحت له وقويت عليه ، ولفلان عرضة : أي قوة ، ومنه قول كعب بن زهير :

من كل نضاجة الدفري إذا عرقت
عرضتها طامس الأعلام مجهول
ومثله قول أوس بن حجر :

وأدماء مثل العجل يوماعرضتها
لرحلى وفيها هزة وتقاذف

ويطلق العرضة على الهمة ، ومنه قول الشاعر :

• هم الأنصار عرضتها اللقاء •

أي همتها ، ويقال فلان عرضة للناس لايزالون يقعون فيه - فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري أن العرضة النصب كالقبضة والغرفة يكون ذلك اسما لما تعرضه دون الشيء : أي تجعله حاجزا له ومانعا منه : أي لا تجعلوا الله حاجزا ومانعا لما حلفتم عليه ، وذلك لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم أو إحسان إلى الغير أو إصلاح

بين الناس بأن لا يفعل ذلك ، ثم يمتنع من فعله معللا لذلك الامتناع بأنه قد حلف أن لا يفعله ، وهذا المعنى هو الذى ذكره الجمهور فى تفسير الآية ، ينههم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم : أى حاجزا لما حلفوا عليه وما نعا منه ، وسمى المحلوف عليه يمينا لتأبسه باليمين ، وعلى هذا يكون قوله (أن تبروا) عطف ببيان لأيمانكم : أى لا تجعلوا الله مانعا للأيمان التى هى بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس ، ويتعلق قوله (لأيمانكم) بقوله (لا تجعلوا) أى لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعا وحاجزا ، ويجوز أن يتعلق بعرضة : أى لا تجعلوه شيئا معرضا بينكم وبين البر وما بعده وعلى المعنى الثانى ، وهو أن العرضة : الشدة والقوة يكون معنى الآية : لا تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم ، وعدة فى الامتناع من الخير ، ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث ، وهو تفسير العرضة بالهمة - وأما على المعنى الرابع ، وهو من قولهم فلان لا يزال عرضة للناس : أى يقعون فيه ، فيكون معنى الآية عليه : ولا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم ، فتبتذلونه بكثرة الحلف به ، ومنه - واحفظوا أيمانكم - وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال - ولا تطع كل حلاف مهين - . وقد كانت العرب تباح بقله الأيمان حتى قال قائلهم :

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن ندرت منه الألية برت

وعلى هذا فيكون قوله (أن تبروا) علة للنهى أى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن من يكثر الحلف بالله يحترئ على الحنث ويفجر فى يمينه . وقد قيل فى تفسير الآية أقوال هى راجعة إلى هذه الوجوه التى ذكرناها ، فمن ذلك قول الزجاج معنى الآية أن يكون الرجل إذا طلب منه الفعل الذى فيه خير اعتل بالله : فقال على يمين وهو لم يحلف ؛ وقيل معناها : لا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح ؛ وقيل معناها إذا حلفتم على أن لا تصلوا أرحامكم ولا تتصدقوا ولا تصلحوا وعلى أشباه ذلك من أبواب البر فكفروا عن اليمين . وقد قيل إن قوله (أن تبروا) مبتدأ خبره محذوف أى البر والتقوى ، والإصلاح أولى . قاله الزجاج وقيل إنه منصوب : أى لا تمنعكم اليمين بالله البر والتقوى والإصلاح وروى ذلك عن الزجاج أيضا ؛ وقيل معناها أن لا تبروا ، فحذف لا ، كقوله - يبين الله لكم أن تصلوا - أى لا تصلوا . قاله ابن جرير الطبرى ؛ وقيل هو فى موضع جر على قول الخليل والكسائى ، والتقدير فى (أن تبروا) . وقوله (سميع) أى لأقوال العباد (عايم) بما يصدر منهم . واللغو : مصدر لغا يلغو لغوا ، ولغى يلغى لغيا : إذا أتى بما لا يحتاج إليه فى الكلام أو بما لا خير فيه وهو الساقط الذى لا يعتد به ، فاللغو من اليمين : هو الساقط الذى لا يعتد به ، ومنه اللغو فى الدية ، وهو الساقط الذى لا يعتد به من أولاد الإبل ، قال جرير :

ويذهب بينها المرى لغوا كما ألغيت فى الدية الحوار

وقال آخر : ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورفث التكلم

أى لا يتكلمن بالساقط والرفث ، ومعنى الآية : لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم ، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم : أى اقترفته بالقصد إليه : وهى اليمين المعقودة ، ومثله قوله تعالى - ولكن يواخذكم بما عقدتم الأيمان - ومثله قول الشاعر :

ولست بماخوذ بلغو يقوله إذا لم تعد عاقدات العزائم

وقد اختلف أهل العلم فى تفسير اللغو ، فذهب ابن عباس وعائشة وجمهور العلماء أيضا : أنه قول الرجل لا والله وبلى والله فى حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ، ولا يريد لها . قال المروزي : هذا معنى لغو اليمين الذى

اتفق عليه عامة العلماء . وقال أبو هريرة وجماعة من السلف : هو أن يحلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو ما ظنه ، وإلى هذا ذهب الحنفية والزيدية ، وبه قال مالك في الموطأ . وروى عن ابن عباس أنه قال لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان ، وبه قال طاوس ومكحول . وروى عن مالك ، وقيل إن اللغو هو يمين المعصية ، قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله بن الزبير وأخوه عروة كالذي يقسم ليشرب الخمر أو ليقطعن الرحم ، وقيل لغو اليمين : هو دعاء الرجل على نفسه كأن يقول : أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله ، هو يهودى ، هو مشرك . قاله زيد بن أسلم . وقال مجاهد : لغو اليمين أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما والله لأبيعك بكذا ، ويقول الآخر : والله لأشتريه بكذا . وقال الضحاك : لغو اليمين هي المكفرة : أى إذا كفرت سقطت وصارت لغوا . والراجح القول الأول لمطابقته للمعنى اللغوى ، ولدلالة الأدلة عليه كما سيأتى . وقوله (والله غفور حلیم) أى حيث لم يؤخذكم بما تقولونه بألستكم من دون عمد وقصد . وأخذكم بما تعدته قلوبكم وتكلمت به ألسنتكم ، وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في سننه عن ابن عباس في قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) يقول : لا تجعلنى عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير : وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عنه : هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قرابته أو لا يتصدق ويكون بين رجلين مغاضبة فيحلف لا يصلح بينهما ويقول قد حلفت ، قال : يكفر عن يمينه : وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : جاء رجل إلى عائشة فقال : إني نذرت إن كلمت فلانا فإن كل مملوك لى عتيق ، وكل مال لى ستر للبيت ، فقالت : لا تجعل مملوكيك عتقاء ولا تجعل مالك سترا للبيت فإن الله يقول (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) فكفر عن يمينك وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبى بكر في شأن مسطح : رواه ابن جرير عن ابن جريج ، والقصة مشهورة : وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » . وثبت أيضا في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يميني » . وأخرج ابن ماجه وابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبره أن يبحث فيها ويرجع عن يمينه » . وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم » . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن عمر مرفوعا مثله . وأخرج النسائى وابن ماجه عن مالك الجشمى قال : قلت يا رسول الله يأتينى ابن عمى فأحلف أن لا أعطيه ولا أصله ، فقال : كفر عن يمينك . وأخرج مالك في الموطأ وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وغيرهم عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية (لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم) فى قول الرجل لا والله وبلى والله وكلا والله . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والبيهقى من طريق عطاء بن أبى رباح أنه سئل عن اللغو فى اليمين فقال : قالت عائشة إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « هو كلام الرجل فى بيته كلاً والله وبلى والله » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عائشة أنها قالت فى تفسيره الآية : إن اللغو هو القوم يتدارون فى الأمر يقول هذا لا والله ويقول هذا كلاً والله ، يتدارون فى الأمر لا تعتد عليه قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت : هو اللغو فى المزاح والهزل ، وهو قول الرجل لا والله وبلى والله ، فذلك لا كفارة فيه ،

ولأنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله . وأخرج ابن جرير عن الحسن : قال « مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوم ينتضلون ومع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل من أصحابه ، فرمى رجل من القوم ، فقال أصبت والله وأخطأت والله ، فقال الذي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم : حنث الرجل يا رسول الله ، فقال : كلا ، أيمان الرماة لغولا كفارة فيها ولا عقوبة . وقد روى أبو الشيخ عن عائشة وابن عباس وابن عمر وابن عمرو أن اللغو لا والله وبلى والله . أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال لغو اليمين حلف الإنسان على الشيء يظن أنه الذي حلف عليه فإذا هو غير ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن عائشة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أنها أن يحلف الرجل على تحريم ما أحل الله له . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : هو الرجل يحلف على المعصية وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن النخعي : هو أن يحلف الرجل على الشيء ثم ينسى . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله (والله غفور) يعني إذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها (حلیم) إذ لم يجعل فيها الكفارة :

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٦٢)
وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٦٧) .

قوله (يؤلون) أى يحلفون : والمصدر إيلاء وألية وألوة ، وقرأ ابن عباس « الذين آلوا » يقال آلى يؤلى إيلاء ويأتلى بالتاء اثلاء : أى حلف ، ومنه - ولا يأتلى أولوا الفضل منكم - ، ومنه : قليل الألياء حافظ ليمينه . البيت . وقد اختلف أهل العلم في الإيلاء ، فقال الجمهور : إن الإيلاء هو أن يحلف أن لا يبطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر ، فإن حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن موليا وكانت عندهم يمينا محضا ، وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور . وقال الثوري والكوفيون : الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعدا ، وهو قول عطاء . وروى عن ابن عباس أنه لا يكون موليا حتى يحلف أن لا يمسه أبدا . وقالت طائفة : إذا حلف أن لا يقرب امرأته يوما أو أقل أو أكثر ثم لم يبطأ أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء . وبه قال ابن مسعود والنخعي وابن أبي ليلى والحكم وحامد بن أبي سليمان وقتادة وإسحاق . قال ابن المنذر : وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم . قوله (من نسائهم) يشمل الحرائر والإماء إذا كن زوجات ، وكذلك يدخل تحت قوله (للذين يؤلون) للعبد إذا حلف من زوجته ، وبه قال الشافعي وأحمد وأبو ثور قالوا وإيلأوه كالحرة . وقال مالك والزهري وعطاء وأبو حنيفة وإسحاق : إن أجله شهران . وقال الشعبي : إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة . والتربص : التأني والتأخر ، قال الشاعر :
تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو بموت حليلها
وقت الله سبحانه بهذه المدة دفعا للضرار عن الزوجة . وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة والسنتين وأكثر من ذلك يقصدون بذلك ضرار النساء . وقد قيل إن الأربعة الأشهر هي التي لا تطبق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها . قوله (فان فاءوا) أى رجعوا ومنه - حتى تفيء إلى أمر الله - أى ترجع ، ومنه قيل للظل بعد الزوال في لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب ، يقال فاء يفيء فيئة وفيوءا ، ولأنه لسريع الفيئة : أى الرجعة ، ومنه قول الشاعر :

فقات ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان مالىس قاضيا

قال ابن المنذر : وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن النوى الجماع لمن لا عذر له ، فإن كان له عذر مرض أو سجن فهي امرأته ، فإذا زال العذر فأبى الوطء فرّق بينهما إن كانت المدة قد انقضت ، قاله مالك ، وقالت طائفة إذا أشهد على فيثته بقلبه في حال العذر أجزأه . وبه قال الحسن وعكرمة والنخعي والأوزاعي وأحمد بن حنبل . وقد أوجب الجمهور على المولى إذا فاء بجماع امرأته الكفارة . وقال الحسن والنخعي : لا كفارة عليه . قوله (وإن عزموا الطلاق) العزم : العقد على الشيء ، ويقال عزم يعزم عزمًا وعزيمة وعزمانا ، واعتزم اعتزامًا ، فمعنى عزموا الطلاق : عقدوا عليه قلوبهم . والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر نكاحًا فهي طالق وطالقة أيضا ويجوز طلقت بضم اللام ، مثل عظم يعظم ، وأنكره الأخفش . والطلاق حل عقد النكاح ، وفي ذلك دليل على أنها لا تطلق بمضى أربعة أشهر كما قال مالك ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة ، وأيضًا فإنه قال (سميع) ، وسميع يقتضى مسموعا بعد المضى . وقال أبو حنيفة (سميع) لإيلائه (عليم) بعزمه الذى دل عليه مضى أربعة أشهر . واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم وتكلفوا بما يدل عليه اللفظ ، ولا دليل آخر ، ومعناها ظاهر واضح ، وهو أن الله جعل الأجل لمن يولى : أى يحلف من امرأته أربعة أشهر . ثم قال مخبر العباد بحكم هذا المولى بعد هذه المدة (فإن فاءوا) رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح (فإن الله غفور رحيم) أى لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم ويرحمهم (وإن عزموا الطلاق) أى وقع العزم منهم عليه والتقصده (فإن الله سميع) لذلك منهم (عليم) به ، فهذا معنى الآية الذى لا شك فيه ولا شبهة ، فمن حلف أن لا يوطأ امرأته ولم يقيد بمدة أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله أربعة أشهر ، فإذا مضت فهو بالخيار إما رجوع إلى نكاح امرأته ، وكانت زوجته بعد مضى المدة كما كانت زوجته قبلها ، أو طلقها وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء ، وأما إذا وقت بدون أربعة أشهر فإن أراد أن يبرّ في يمينه اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضى المدة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين آلى من نسائه شهرا فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر ، وإن أراد أن يوطأ امرأته قبل مضى تلك المدة التى هى دون أربعة أشهر حنث في يمينه ولزمته الكفارة ، وكان ممثلا لما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « من حلف على شيء فرأى غيره خيرا منه فليأت الذى هو خير منه وليكفر عن يمينه » .

وقد أخرج الشافعى وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى في سننه عن ابن عباس قال : الإيلاء أن يحلف أنه لا يجامعها أبدا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في سننه عنه في قوله (للذين يؤولون من نسائهم) قال : هو الرجل يحلف لامرأته بالله لا ينكحها فتربص أربعة أشهر فإن هو نكحها كفر عن يمينه ، فإن مضت أربعة أشهر قبل أن ينكحها خيره السلطان إما أن ينهى وإما أن يعزم فيطلق كما قال الله سبحانه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والطبرانى والبيهقى عنه قال : كان إيلاء الجاهلية السنة والسنين وأكثر من ذلك ، فوقت الله لهم أربعة أشهر فإن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء . وأخرج عبد بن حميد عن علي قال : الإيلاء إيلاءان : إيلاء في الغضب ، وإيلاء في الرضا . فأما الإيلاء في الغضب : فإذا مضت أربعة أشهر فقد بان من منه ، وأما ما كان في الرضا فلا يؤاخذ به . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لا إيلاء إلا بغضب . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه قرأ « فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم » . وأخرج عبد بن حميد عن علي قال : النوى : الجماع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله. وأخرج ابن المنذر عن علي قال: النوى الرضا. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود مثله. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن، قال: النوى الإشهاد وأخرج عبد الرزاق عنه قال: النوى الجماع، فإن كان له عذر أجزأه أن ينوى بلسانه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حال بينه وبينها مرض أو سفر أو حبس أو شيء يعذر به فأشهادته في. والسلف في النوى أقوال مختلفة، فينبغي الرجوع إلى معنى النوى لغة، وقد بيناه. وأخرج ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال في الإيلاء: إذا مضت أربعة أشهر لاشيء عليه حتى يوقف فيطلق أو يمسك. وأخرج الشافعي وابن جرير والبيهقي عن عثمان بن عفان نحوه. وأخرج مالك والشافعي وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن علي نحوه. وأخرج البخاري وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه أيضا. وأخرج ابن جرير والبيهقي عن عائشة نحوه. وأخرج ابن جرير والدارقطني والبيهقي من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال: سألت اثني عشر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يولي من امرأته فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فتوقف فإن فاء وإلا طلق. وأخرج البيهقي عن ثابت بن عبيدة مولى زيد بن ثابت عن اثني عشر رجلا من الصحابة نحوه. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن مسعود وابن عمر وابن عباس قالوا: الإيلاء نطق باثنة إذا مرت أربعة أشهر، قبل أن ينوى فهي أملاك بنفسها، وللصحابة والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة، والمتعين الرجوع إلى مافي الآية الكريمة، وهو ما عرفناك فاشدد عليه يدك. وأخرج عبد الرزاق عن عمر قال: إيلاء العبد شهران. وأخرج مالك عن ابن شهاب قال: إيلاء العبد نحو إيلاء الحر.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨).

قوله (والمطلقات) يدخل تحت عموم المطلق قبل الدخول، ثم خصص بقوله تعالى - فاما لكم عليهن من عدة تعتدونها - فوجب بناء العام على الخاص، وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى - وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن - وكذلك خرجت الآية بقوله تعالى - فعدتهن ثلاثة أشهر - والتربص: الانتظار، قيل هو خبر في معنى الأمر: أي ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه، وزاده تأكيد وقوعه خبرا للمبتدأ. قال ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو خبر عن حكم الشرع، فإن وجدت ملاحظة لا تربص فليس ذلك من الشرع، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره. والقروء جمع قراء. وروى عن نافع أنه قرأ «قرو» بتشديد الواو. وقرأ الجمهور بالهمز. وقرأ الحسن بفتح القاف وسيكون الراء والتنوين. قال الأصمعي: الواحد قرء بضم القاف. وقال أبو زيد بالفتح: وكلاهما قال أقرأت المرأة: حاضت، وأقرأت: ظهرت. وقال الأخفش: أقرأت المرأة: إذا صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت قرأت بلا ألف. وقال أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمى الحيض قرءا، ومنهم من يسمى الطهر قرءا، ومنهم

من يجمعهما جميعا فيسمى الحيض مع الطهر قرءا ، وينبغى أن يعلم أن القرء في الأصل : الوقت ؛ يقال : هبت الرياح لقرئها ولقارئها : أى لوقتها ، ومثله قول الشاعر :

كرهت العقر عقربى شليل إذا هبت لقارئها الرياح

فيقال للحيض قرء ، وللطهر قرء ، لأن كل واحد منهما له وقت معلوم . وقد أطلقت العرب تارة على الأطهار ، وتارة على الحيض ، فمن إطلاقه على الأطهار قول الأعشى :

أفى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزم عزائك

مورثة مالا وفى الحى رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائك

أى أطهارهن ، ومن إطلاقه على الحيض قول الشاعر :

يارب ذى حنق على قارض له قرو كقرو الحائض

يعنى أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض . وقال قوم : هو مأخوذ من قرى الماء فى الخوض وهو جمعه ومنه القرآن لاجتماع المعانى فيه . قال عمرو بن كلثوم :

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرا جنينا

أى لم تجمعه فى بطنها . والحاصل أن القروء فى لغة العرب مشترك بين الحيض والطهر ، ولأجل هذا الاشتراك ، اختلف أهل العلم فى تعيين ماهو المراد بالقروء المذكورة فى الآية ، فقال أهل الكوفة : هى الحيض وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدى وأحمد بن حنبل . وقال أهل الحجاز هى الأطهار ، وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان والشافعى ، واعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت ، فصار معنى الآية عند الجميع ، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات فهى على هذا مفسرة فى العدد مجملة فى المعلوم ، فوجب طلب البيان للمعلوم من غيرها فأهل القول الأول استدلوا على أن المراد فى هذه الآية الحيض بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «دعى الصلاة أيام أقرائك» وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لا بالطهر . واستدل أهل القول الثانى بقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر . ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر « مره فليراجعها ثم لمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » وذلك لأن زمن الطهر هو الذى تطلق فيه النساء . قال أبو بكر بن عبد الرحمن : ما أدركنا أحدا من فقهاءنا إلا يقول بأن الأقراء هى الأطهار ، فإذا طلق الرجل فى طهر لم يبطأ فيه اعتدت بما بقى منه ولو ساعة ولو لحظة ، ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة ، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة انتهى . وعندى أن لاجحة فى بعض ما احتج به أهل القولين جميعا . أما قول الأولين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « دعى الصلاة أيام أقرائك » فغاية ما فى هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أطلق الأقراء على الحيض ، ولا نزاع فى جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك فإنه يطلق تارة على هذا ، وتارة على هذا وإنما النزاع فى الأقراء المذكورة فى هذه الآية وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الأمة « وعدتها حيضتان » فهو حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والدارقطنى والحاكم وصححه من حديث عائشة مرفوعا . وأخرجه ابن ماجه والبيهقى من حديث ابن عمر مرفوعا أيضا ، ودلالته على ما قاله الأولون قوية . وأما قولهم إن المقصود من

العدة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لا بالطهر . فيجاب عنه بأنه إنما يتم لو لم يكن في هذه العدة شيء من الحيض على فرض تفسير الأقراء بالأطهار ، وليس كذلك بل هي مشتملة على الحيض كما هي مشتملة على الأطهار وأما استدلال أهل القول الثاني بقوله تعالى - فطلقوهن لعدتهن - فيجاب عنه بأن التنازع في اللام في قوله - لعدتهن - يصير ذلك محتملا ، ولا تقوم الحجة بمحتمل . وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر « مره فليراجعها » الحديث فهو في الصحيح ، ودلالته قوية على ما ذهبوا إليه ، ويمكن أن يقال إنها تنقضي العدة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض ، ولا مانع من ذلك فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه ، وبذلك يجمع بين الأدلة ، ويرتفع الخلاف ، ويندفع النزاع . وقد استشكل الزخشرى تمييز الثلاثة بقوله قروء وهي جمع كثرة دون أقراء التي هي من جموع القلة . وأجاب بأنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لا يشتركا في الجمعية . قوله (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) قيل المراد به الحيض ؛ وقيل الحمل ؛ وقيل كلاهما ، ووجه النهي عن الكتمان ما فيه في بعض الأحوال من الإضرار بالزوج وإذهاب حقه ؛ فإذا قالت المرأة حضت وهي لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع ؛ وإذا قالت لم تحض وهي قد حاضت ألزمت من النفقة ما لم يلزمه فاضرت به ، وكذلك الحمل ربما تكتمه التقطع حقه من الارتجاع ، وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة ، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج . وقد اختلفت الأقوال في المدة التي تصدق فيها المرأة إذا ادعت انقضاء عدتها . وقوله (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) فيه وعيد شديد للكاتبات ، وبيان أن من كتبت ذلك ممن لم تستحق اسم الإيمان . والبعولة جمع بعل وهو الزوج ، سمي بعلالعلوة على الزوجة لأنهم يطلقونه على الرب ، ومنه قوله تعالى - أتدعون بعلا - أي ربا ؛ ويقال بعول وبعولة كما يقال في جمع الذكر ذكور وذكورة ، وهذه التاء لتأنيث الجمع وهو شاذ لا يقاس عليه بل يعتبر فيه السماع ؛ والبعولة أيضا تكون مصدرا من بعل الرجل يبعل ، مثل منع بمنع : أي صار بعلا . وقوله (أحق بردهن) أي برجعتهن ، وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها فيكون في حكم التخصيص لعموم قوله (والمطلقات يتر بصلن بأنفسهن) لأنه يعم المثلثات وغيرهن . وقوله (في ذلك) يعني في مدة التبرص ، فإن انقضت مدة التبرص فهي أحق بنفسها ، ولا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولي وشهود ومهر جديد ، ولا خلاف في ذلك ؛ والرجعة تكون باللفظ وتكون بالوطء ، ولا يلزم المراجع شيء من أحكام النكاح بلا خلاف . وقوله (إن أرادوا إصلاحا) أي بالمراجعة : أي إصلاح حاله معها وحالها منه ، فإن قصد الإضرار بها فهي محرمة لقوله تعالى (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) قيل وإذا قصد بالرجعة الضرار فهي صحيحة وإن ارتكب بذلك محرما وظلم نفسه ، وعلى هذا فيكون الشرط المذكور في الآية للحث للأزواج على قصد الإصلاح والزجر لهم عن قصد الضرار ، وليس المراد به جعل قصد الإصلاح شرطا لصحة الرجعة . قوله (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن ، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم ، وهي كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه لأزواجهن من طاعة وتزوين وتحبب ونحو ذلك . قوله (وللرجال عليهن درجة) أي منزلة ليست لهن وهو قيامه عليها في الإنفاق ، وكونه من أهل الجهاد والعقل والقوة ، وله من الميراث أكثر مما لها ، وكونه يجب عليها امتثال أمره والوقوف عند رضاه ولو لم يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت أن حواء خلقت من ضلع آدم .

وقد أخرج أبو داود وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت

على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن للسملقة عدة، فأنزل الله حين طلقت العدة للطلاق فقال (والمطلقات يتربصن) الآية. وأخرج أبو داود والنسائي وابن المنذر عن ابن عباس (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) ثم قال - واللائي يثنى من الحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر - ففسخ وقال - ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها - . وأخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والبيهقي من طرق عن عائشة أنها قالت : الأقراء الأطهار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عمر وزيد بن ثابت مثله . وأخرج المذكورون عن عمرو بن دينار قال الأقراء : الحيض عن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج البيهقي وابن جرير عن ابن عباس في قوله (ثلاثة قروء) قال : ثلاث حيض . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) قال : كانت المرأة تكتم حملها حتى يجعله لرجل آخر فنهاهن الله عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر في الآية قال : الحمل والحيض وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) يقول : إذا طلق الرجل امرأته تطليقة أو تطليقتين وهي حامل فهو أحق برجعها ما لم تضع حملها ، وهو قوله (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد في قوله (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك) قال : في العدة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله ، وزاد ما لم يطلقها ثلاثا . وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله (ولهن مثل الذي عليهن) قال : إذا أظعن الله وأظعن أزواجهن فعليه أن يحسن صحبتها ، ويكف عنها أذاه ، وينفق عليها من سعته . وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا ، أما حقكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن » وصححه الترمذي . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري « أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما حق المرأة على الزوج ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولا تهجر إلا في البيت » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (وللرجال عليهن درجة) قال : فضل ما فضله الله به عليها من الجهاد وفضل ميراثه على ميراثها وكل ما فضل به عليها . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك في الآية قال : يطلقها وليس لها من الأمر شيء . . وأخرج ابن زيد بن أسلم قال : الإمارة .

الطَّلُقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأَلْثَمَ لَهُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠).

المراد بالطلاق المذكور هو الرجعي بدليل ما تقدم في الآية الأولى : أى الطلاق الذى ثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان : أى الطلقة الأولى والثانية ، إذ لا رجعة بعد الثالثة ، وإنما قال سبحانه (مرتان) ولم يقل طلقان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة ، لا طلقان دفعة واحدة ، كذا قال جماعة من المفسرين ، ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين ، إما إيقاع الثالثة التى بها تبين الزوجة ، أو الإمساك لها واستدامة نكاحها ، وعدم إيقاع الثالثة عليها قال سبحانه (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أى فإمساك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقين بمعروف : أى بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة (أو تسريح بإحسان) أى بإيقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرارها ، وقيل المراد (فإمساك بمعروف) أى برجعة بعد الطلقة الثانية (أو تسريح بإحسان) أى بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضى عدتها . والأول أظهر . وقوله (الطلاق) مبتدأ بتقدير مضاف : أى عدد الطلاق الذى ثبت فيه الرجعة مرتان . وقد اختلف أهل العلم فى إرسال الثلاث دفعة واحدة هل يقع ثلاثا أو واحدة فقط فذهب إلى الأول الجمهور ، وذهب إلى الثانى من عداهم وهو الحق . وقد قررته فى مؤلفاتى تقريراً بالغاً ، وأفردته برسالة مستقلة . قوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) الخطاب للأزواج : أى لا يحل للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه إلى نساءهم من المهر شيئا على وجه المضاربة لهن ، وتنكير « شيئا » للتحقير : أى شيئا نذرا فضلا عن الكثير ، وخص ما دفعوه إليهن بعدم حل الأخذ منه مع كونه لا يحل للأزواج أن يأخذوا شيئا من أموالهن التى يملكنها من غير المهر لكون ذلك هو الذى تتعلق به نفس الزوج ، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو فى ملكها ، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحل له كان ما عداه منوعا منه بالأولى . وقيل الخطاب فى قوله (ولا يحل لكم) للأئمة والحكام ليطابق قوله (فإن خفتم) فإن الخطاب فيه للأئمة والحكام ، وعلى هذا يكون إسناد الأخذ إليهم لكونهم الأمرين بذلك . والأول أولى لقوله (مما آتيتموهن) فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جدا ، لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم . وقيل إن الثانى أولى لثلاث شواهد : الأولى (إلا أن يخافا) أى لا يجوز لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا (أن لا يقيما حدود الله) أى عدم إقامة حدود الله التى حدتها للزوجين ، وأوجب عليهما الوفاء بها من حسن العشرة والطاعة ، فإن خافا ذلك (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى لا جناح على الرجل فى الأخذ ، وعلى المرأة فى الإعطاء بأن تفتدى نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج فيطلقها لأجله ، وهذا هو الخلع وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج ، وأنه يحل له الأخذ مع ذلك الخوف وهو الذى صرح به القرآن . وحكى ابن المنذر عن بعض أهل العلم أنه لا يحل له ما أخذ ولا يجبر على رده ، وهذا فى غاية السقوط . وقرأ حمزة « إلا أن يخافا » على البناء للمجهول ، والفاعل محذوف ، وهو الأئمة والحكام واختاره أبو عبيد قال لقوله (فإن خفتم) فجعل الخوف لغير الزوجين . وقد احتج بذلك من جعل الخلع إلى السلطان ، وهو سعيد بن جبير والحسن وابن سيرين . وقد ضعف النحاس اختيار أبي عبيد المذكور . وقوله (فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله) أى إذا خاف الأئمة والحكام ، أو المتوسطون بين الزوجين وإن لم يكونوا أئمة وحكاما علم إقامة حدود الله من الزوجين ، وهى ما أوجبه عليهما كما سلف . وقد حكى عن بكر بن عبد الله المدنى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فى سورة النساء - وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه

شيئا أناخذونه بهتانا وإثما مينا - وهو قول خارج عن الإجماع ولا تنافي بين الاثنين . وقد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على مادفعه إليها من المهر وما يتبعه ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا ؟ وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين ، وبهذا قال مالك والشافعي وأبو ثور ، وروى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين وقال طاوس وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحاق : إنه لا يجوز ، وسيأتي ما ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله تعالى (تلك حدود الله) أى أحكام النكاح والفراق المذكورة هى حدود الله التى أمرتم بامتثالها ، فلا تعتدوها بالمخالفة لها فتستحقوا ما ذكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم . قوله تعالى (فإن طلقها) أى الطلقة الثالثة التى ذكرها سبحانه بقوله (أو تسريح بإحسان) أى فإن وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث (فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) أى حتى تزوج بزواج آخر . وقد أخذ بظاهر الآية سعيد ابن المسيب ومن وافقه قالوا يكفى مجرد العقد لأنه المراد بقوله (حتى تنكح زوجا غيره) وذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أنه لا بدّ مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها ، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه ، وفى الآية دليل على أنه لا بد من أن يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصودا لذاته لانكاحا غير مقصود لذاته ، بل حيلة للتحليل ، وذريعة إلى ردها إلى الزوج الأول ، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة فى ذمه وذمّ فاعله ، وأنه التيسر المستعار الذى لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك . قوله (فإن طلقها) أى الزوج الثانى (فلا جناح عليهما) أى الزوج الأول والمرأة (أن يتراجعا) أى يرجع كل واحد منهما لصاحبه . قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الحرّ إذا طلق زوجته ثلاثا ثم انقضت عدتها ونكحت زوجا ودخل بها ثم فارقتها وانقضت عدتها ثم نكحها الزوج الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات . قوله (إن ظنا أن يقيا حدود الله) أى حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر . وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلموا أو أحدهما عدم الإقامة لحدود الله ، أو ترددا أو أحدهما ولم يحصل لهما الظن ، فلا يجوز الدخول فى هذا النكاح لأنه مظنة للمعصية لله والوقوع فيما حرّمه على الزوجين . وقوله (وتلك حدود الله) إشارة إلى الأحكام المذكورة كما سلف ، وخص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم وغيره ، ووجوب التبليغ لكل فرد ، لأنهم المستفوعون بالبيان المذكور .

وقد أخرج مالك والشافعي وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقى فى سننه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها كان ذلك له وإن طلقها ألف مرة فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا مادنا وقت انقضاء عدتها ارتجعها ، ثم طلقها ، ثم قال : والله لا آويك إلى ولا تحلين أبدا ، فأنزل الله (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فاستقبل الناس الطلاق جديدا من يومئذ من كان منهم طلق ومن لم يطلق . وأخرج نحوه الترمذى وابن مردويه والحاكم وصححه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . وأخرج البخارى عنها : أنها أتتها امرأة فسألها عن شيء من الطلاق ، قالت : فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت (الطلاق مرتان) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وعبد حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبي رزين الأسدى قال : قال رجل يا رسول الله أرأيت قول الله الطلاق مرتان ، فأين الثالثة ؟ قال : التسريح بإحسان الثالثة ، وأخرج نحوه ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال : قال الله للثالثة (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب قال : التسريح فى كتاب الله الطلاق ،

وأخرج البيهقي من طريق السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (الطلاق مرتان) قالوا: وهو الميقات الذي تكون فيه الرجعة، فإذا طلق واحدة أو اثنتين، فإذا لم يمسك ويراجع بمعروف، وإما أن يسكت عنها حتى تنقضي عدتها فتكون أحق بنفسها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية نحوه. وأخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يأكل من مال امرأته الذي نحلها وغيره لا يرى أن عليه جناحا، فأنزل الله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شيء من أموالهن إلا بحقها، ثم قال (إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله) وقال - فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا - . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) قال: إلا أن يكون النشوز وسوء الخلق من قبلها، فتدعوك إلى أن تفتدي منك فلا جناح عليك فيما افتدت به. وأخرج مالك والشافعي وأحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي من طريق عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن حبيبة بنت سهل الأنصاري «أنها كانت تحب ثابت بن قيس، وأن رسول الله خرج إلى الصبح فوجدها عند بابه في الغلس فقال: من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا ولا ثابت؛ فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذه حبيبة بنت سهل، فذكرت ما شاء الله أن تذكر، فقالت حبيبة يارسول الله كل ما أعطاني عنده، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خذ منها، فأخذ منها وجلست في أهلها» وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس وفي حبيبة، وكانت اشتكته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فدعاه فذكر ذلك له، فقال: ويطيب لي ذلك، قال: نعم، قال ثابت: قد فعلت، فنزلت (ولا يحل لكم أن تأخذوا) الآية» وأخرج عبد الرزاق وأبو داود وابن جرير والبيهقي من طريق عمرة عن عائشة نحوه. وأخرج البخاري والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أن جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس «أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يارسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولادين، ولكن لأطيقه بغضا وأكره الكفر في الإسلام، قال: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال: أقبل الحديقة وطلقها تطليقة». ولفظ ابن ماجه «فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ منها حديقته ولا يزاد». وأخرج البيهقي من طريق عطاء قال: «أتت امرأة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت: إني أبغض زوجي وأحب فراقه، قال: أتردين عليه حديقته التي أصدقك؟ قالت نعم وزيادة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أما الزيادة من مالك فلا». وأخرج البيهقي عن أبي الزبير أن ثابت بن قيس فذكر القصة، وفيه «أما الزيادة فلا» وأخرج ابن مردويه بإسناد جيد عن ابن عباس، وفيه «أنه أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثابتا أن يأخذ ماساق ولا يزاد». وأخرج البيهقي عن أبي سعيد وذكر القصة، وفيها «فردت عليه حديقته وزادت». وأخرج ابن جرير عن عمر أنه قال في بعض المختلعات «اخلعها ولو من قرطها». وفي لفظ أخرجه عبد الرزاق عنه أنه قال للزوج «خذ ولو عقاصها». قال البخاري: أجاز عثمان الخلع دون عقاصها. وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن عطاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كره أن يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاه. وقد ورد في ذم المختلعات أحاديث منها عن ثوبان عند أحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة» وقال:

المختلعات من المنافقات » : ومنها عن ابن عباس عند ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا تسأل المرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ربح الجنة ، وإن ربحها ليجد مسيرة أربعين عاما » . ومنها عن أبي هريرة عند أحمد والنسائي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « المختلعات والمنزعات من المنافقات » ومنها عن عقبة عند ابن جرير مرفوعا مثل حديث أبي هريرة .

وقد اختلف أهل العلم في عدة المختلعة ، والراجح أنها تعتد بحیضة لما أخرجه أبو داود والترمذی وحسنه والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتد بحیضة » ولما أخرجه الترمذی عن الربيع بنت معوذ بن عفراء « أنها اختلعت على عهد رسول الله ، فأمرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تعتد بحیضة ، أو أمرت أن تعتد بحیضة » . قال الترمذی : الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحیضة . وأخرج النسائي وابن ماجه عنها أنها قالت : اختلعت من زوجي ، فجنث عثمان فسألته ماذا على من العدة ؟ فقال : لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين حتى تحيضی حیضة ، قالت : إنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مريم المغالية ، وكانت تحب ثابت بن قيس فاختلعت منه . وأخرج النسائي عن الربيع بنت معوذ « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر امرأة ثابت بن قيس أن تربص حیضة واحدة فتلحق بأهلها » ولم يرد ما يعارض هذا من المرفوع ، بل ورد عن جماعة من الصحابة والتابعين أن عدة المختلعة كعدة الطلاق ، وبه قال الجمهور . قال الترمذی : وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، واستدلوا على ذلك بأن المختلعة من جملة المطلقات ، فهي داخلة تحت عموم القرآن . والحق ما ذكرناه ، لأن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخص عموم القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (فإن طلقها فلا تحل له) يقول : فإن طلقها ثلاثا فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره . وأخرج ابن المنذر عن علي بن حمزة . وأخرج عبد بن حمزة عن قتادة نحوه . وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذی والنسائي وابن ماجه والبيهقي عن عائشة قالت « جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : إني كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاق ، فزوجني عبد الرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هدبة الثوب ، فتبسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك » . وقد روى نحوه هذا عنها من طرق . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير والبيهقي عن عمر مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقي عن أنس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي هريرة مرفوعا نحوه ، ولم يسم هؤلاء الثلاثة الصحابة صاحبة القصة . وأخرج أحمد والنسائي عن ابن عباس « أن العمیصاء أو الرمیصاء أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي آخره » فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ليس ذلك لك حتى يذوق عسيلتك رجل غيره » . وقد ثبت لعن المحلل في أحاديث منها عن ابن مسعود عند أحمد والترمذی وصححه والنسائي والبيهقي في سننه قال « لعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم المحلل والمحلل له » ومنها عن علي عند أحمد وأبي داود والترمذی وابن ماجه والبيهقي مرفوعا مثل حديث ابن مسعود ، ومنها عن جابر مرفوعا عند الترمذی مثله ، ومنها عن ابن عباس مرفوعا عند ابن ماجه مثله ، ومنها عن عقبة بن عامر عند ابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي مرفوعا مثله ، ومنها عن أبي هريرة مرفوعا عند أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي مثله . وفي الباب أحاديث في ذم التحليل وفاعله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) يقول : إذا تزوجت بعد الأول فدخل بها الآخر فلا حرج على الأول أن يتزوجها إذا طلقها الآخر أو مات عنها فقد حلت له . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله (أن يقيا حدود الله) قال : أمر الله وطاعته .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ
هُزُوءًا وَآذِكُرُوا اللَّهَ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) .

البلوغ إلى الشيء : معناه الحقيقي الوصول إليه ، ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة إلا مجازا للعلاقة مع قرينة كما هنا ، فإنه لا يصح إرادة المعنى الحقيقي ، لأن المرأة إذا قد بلغت آخر جزء من مدة العدة وجاوزته إلى الجزء الذي هو الأجل للانقضاء فقد خرجت من العدة ، ولم يبق للزوج عليها سبيل . قال القرطبي في تفسيره : إن معنى (بلغن) هنا قاربين بإجماع العلماء . قال : ولأن المعنى يضطر إلى ذلك ، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك والإمساك بمعروف : هو القيام بحقوق الزوجية : أي إذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدة فلا تضاروهن بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية واستدامتها ، بل اختاروا أحد أمرين : إما الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار أو التسريح بإحسان : أي تركها حتى تنقضي عدتها من غير مراجعة ضرار ، ولا تمسكوهن ضرارا كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدتها ، ثم مراجعتها لأعن حاجة ولا لمحبة ، ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار (ضرارا) لقصد الاعتداء منكم عليهن والظلم لهن (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه . قال الزجاج : يعني عرض نفسه للعذاب ، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) أي لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزؤ ، فإنها جد كلها ، فمن هزل فيها فقد لزمته - نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل ، فإنه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج ويقول كنت لاعبا . قال القرطبي ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلا أن الطلاق يلزمه . قوله (واذكروا نعمت الله عليكم) أي النعمة التي صرتم فيها بالإسلام وشرائعه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء ، وظلمات بعضها فوق بعض والكتاب : هو القرآن . والحكمة قال المفسرون : هي السنة التي سنّها لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يعظكم به) أي يخوفكم بما أنزل عليكم ، وأفرد الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولهما في النعمة دخولا أوليا ، تنبيها على خطرهما وعظم شأنهما .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ، فيفعل بها ذلك يضارها ويعطلها ، فأنزل الله (وإذا طلقتم النساء) الآية . وأخرج نحوه مالك وابن جرير وابن المنذر عن ثور بن يزيد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن الحسن في قوله (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) قال : هو الرجل يطلق امرأته فإذا أرادت أن تنقضي عدتها أشهد على رجعتها ، يريد أن يطول عليها . وأخرج ابن ماجه وابن جرير والبيهقي عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم « ما بال أقوام يلعبون بحدود الله يقول : قد طلقته ، قد راجعتك ، قد طلقته ، قد راجعتك ، ليس هذا طلاق المسلمين ، طلقوا المرأة في قبل عدتها . » وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عباد بن الصامت قال : كان الرجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول للرجل : زوجتك ابنتي ، ثم يقول كنت لاعبا ، ويقول : قد أعتقت ، ويقول : كنت لاعبا ، فأنزل الله سبحانه (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق ، والنكاح ، والعناق » وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : كان الرجل يطلق ثم يقول : لعبت وبعثت ثم يقول لعبت فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من طلق أو أعتق فقال لعبت فليس قواه بشيء يقع عليه فيلزمه . » وأخرج ابن مردويه أيضا عن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فأنزله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطلاق . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن مرفوعا نحو حديث عباد . وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث جد هن جد وهزلن جد : النكاح ، والطلاق ، والراجعة » .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) .

الخطاب في هذه الآية بقوله (وإذا طلقتم) وبقوله (فلا تعضلوهن) إما أن يكون للأزواج ، ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن لحمية الجاهلية ، كما يقع كثيرا من الخلفاء والسلاطين غير على من كن تحتم من النساء أن يصرن تحت غيرهم ، لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم إلا من عصمه الله منهم بالورع والتواضع ؛ وإما أن يكون الخطاب للأولياء ، ويكون معنى إسناد الطلاق إليهم أنهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين هن . وبلوغ الأجل المذكور هنا المراد به المعنى الحقيقي : أى نهايته لا كما سبق في الآية الأولى . والعضل : الحبس . وحكى الخليل دجاجة معضلة قد احتبس بيضا ؛ وقيل العضل : التضيق والمنع ، وهو راجع إلى معنى الحبس ، يقال أردت أمرا فعضلته عنه : أى منعتني وضيقته على ، وأعضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الخيل . وقال الأزهري : أصل العضل من قولهم عضلت الناقة : إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه ، وعضلت الدجاجة : نشب بيضا ، وكل مشكل عند العرب معضل ، ومنه قول الشافعي رحمه الله :

إذا العضلات تصدّين لي كشت خفاء لها بالنظر

ويقال أعضل الأمر : إذا اشتد ، وداء عضال : أى شديد عسير البرء أعياء الأطباء ، وعضل فلان آيمه : أى منعها يعضلها بالضم والكسر لغتان . قوله (أن ينكحن) أى من أن ينكحن فحلها الجرح عند الخليل ، والنصب

عند سيويه والفراء ؛ وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب في قوله (فلا تعضلوهن) . وقوله (أزواجهن) إن أريد به المطلقون لهن فهو مجاز باعتبار ما كان ، وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه فهو مجاز باعتبار ما سيكون . وقوله (ذلك) إشارة إلى مافصل من الأحكام ، وإنما أفرد مع كون المذكور قبله جمعا حلا على معنى الجمع بتأويله بالفريق ونحوه . وقوله (ذلكم) محمول على لفظ الجمع ، خالف سبحانه ما بين الإشارتين افتنانا . وقوله (أزكى) أى أنمى وأنفع (وأطهر) من الأدناس (والله يعلم) ما لكم فيه الصلاح (وأنتم لا تعلمون) ذلك .

وقد أخرج البخارى وأهل السنن وغيرهم عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت فأتانى ابن عم فأنكحتها إياه ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهورها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقلت له : يا لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقها ثم جئت نخطبها ، والله لا ترجع إليك أبدا ؛ وكان رجلا لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل الله (وإذا طلقتم النساء) الآية ، قال : ففى نزول هذه الآية ، فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه : وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتتقاضى عدتها ثم يبدو له تزويجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك ، فمنعها وليها من ذلك ، فهى الله أن يمنعوها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدى قال : نزلت هذه الآية فى جابر بن عبد الله الأنصارى ، كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة وانقضت عدتها ، فأراد مراجعتها فأبى جابر ، فقال : طلقت بنت عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية ، وكانت المرأة تريد زوجها ، فأنزل الله (وإذا طلقتم النساء) . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل (إذا تراضوا بينهم بالمعروف) يعنى بمهر وبينه ونكاح موثف . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنكحوا الأيامى ، فقال رجل : يا رسول الله ما العلائق بينهم ؟ قال : ماتراضى عليه أهلهن » . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) قال : الله يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولي .

وَالْوَلِدَتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَلِدَةٌ بَوْلَئِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) .

لما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ، ذكر الرضاع ، لأن الزوجين قد يفرقان وبينهما ولد ، ولهذا قيل إن هذا خاص بالمطلقات ؛ وقيل هو عام . وقوله (يرضعن) قيل هو خبر فى معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه ؛ وقيل هو خبر على بابه ليس هو فى معنى الأمر على حسب ما سلف فى قوله - يربصن - وقوله (كاملين) تأكيد

للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقى لا تقريبى . وقوله (لمن أراد أن يتم الرضاعة) أى ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وفيه دليل على أن إرضاع الحولين ليس حتماً ، بل هو التمام ، ويجوز الاقتصار على مادونه . وقرأ مجاهد وابن عيصن « لمن أراد أن يتم » بفتح التاء ورفع الرضاعة على إسناد الفعل إليها . وقرأ أبو حنيفة وابن أبي عمير والجارود ابن أبي سبرة بكسر الراء من الرضاعة وهى لغة . وروى عن مجاهد أنه قرأ الرضعة ، وقرأ ابن عباس « لمن أراد أن يكمل الرضاعة » . قال النحاس : لا يعرف البصريون الرضاعة إلا بفتح الراء . وحكى الكوفيون جواز الكسر . والآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها ، وقد حمل ذلك على ما إذا لم يقبل الرضيع غيرها . قوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن) أى على الأب الذى يولد له ، وآثر هذا اللفظ دون قوله : وعلى الوالد للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات ، ولهذا ينسبون إليهم دونهن كآهنن إنما ولدن لهم فقط ، ذكر معناه فى الكشاف ، والمراد بالرزق هنا : الطعام الكافى المتعارف به بين الناس ، والمراد بالكسوة : ما يتعارفون به أيضا ، وفى ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للأمهات المرضعات . وهذا فى المطلقات ، وأما غير المطلقات فنفقتهن وكسوتهن واجبة على الأزواج من غير إرضاعهن لأولادهن . وقوله (لا تكلف نفس إلا وسعها) هو تقييد لقوله (بالمعروف) أى هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته لا ما يشق عليه ويعجز عنه ؛ وقيل المراد لا تكلف المرأة الصبر على التقدير فى الأجرة ، ولا يكاف الزوج ما هو إسراف ؛ بل يراعى القصد . قوله (لاتضار) قرأ أبو عمرو وابن كثير وجماعة ورواه أبان عن عاصم بالرفع على الخبر ؛ وقرأ نافع وابن عامر وحمة والكسائى وعاصم فى المشهور عنه « تضار » بفتح الراء المشددة على النهى ، وأصله لاتضارر أو لاتضارر على البناء للفاعل أو المفعول : أى لاتضارر الأب بسبب الولد بأن تطلب منه ما لا يقدر عليه من الرزق والكسوة ، أو بأن تفرط فى حفظ الولد والقيام بما يحتاج إليه ؛ أو لاتضارر من زوجها بأن يقصر عليها فى شيء مما يجب عليه أو ينتزع ولدها منها بلا سبب ، وهكذا قراءة الرفع تحتل الوجهين ؛ وقرأ عمر ابن الخطاب « لاتضارر » على الأصل بفتح الراء الأولى ؛ وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « لاتضار » بإسكان الراء وتخفيفها ، وروى عنه الاسكان والتشديد ؛ وقرأ الحسن وابن عباس « لاتضارر » بكسر الراء الأولى ؛ ويجوز أن تكون الباء فى قوله بولده صلة لقوله تضار على أنه بمعنى تضر : أى لاتضر والدته بولدها فتسبب له بيتة أو تقصر فى غذائه ؛ وأضيف الولد تارة إلى الأب وتارة إلى الأم ، لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب إليه مع ما فى ذلك من الاستعطاف ، وهذه الجملة تفصيل للجملة التى قبلها وتقرير لها : أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه فلا تضاره بسبب ولده . قوله (وعلى الوارث) هو معطوف على قوله (وعلى المولود له) وما بينهما تفسير للمعروف ، أو تعليل له معترض بين المعطوف والمعطوف عليه . واختلف أهل العلم فى معنى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) فقيل هو وارث الصبي : أى إذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبي المولود لإرضاعه كما كان يلزم أباه ذلك ، قاله عمر بن الخطاب وقتادة والسدى والحسن ومجاهد وعطاء وأحمد وإسحاق وأبو حنيفة وابن أبى ليلى على خلاف بينهم ، هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيبا من الميراث ، أو على الذكور فقط ، أو على كل ذى رحم له وإن لم يكن وارثا منه ؛ وقيل المراد بالوارث وارث الأب تجب عليه نفقة المرضعة وكسوتها بالمعروف ، قاله الضحاك . وقال مالك فى تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك ، ولكنه قال : إنها منسوخة ، وإنها لاتلزم الرجل نفقة أخ ولا ذى قرابة ولا ذى رحم منه ؛ وشرطه الضحاك بأن لا يكون للصبي مال ، فإن كان له مال أخذت أجرة رضاعه من ماله . وقيل المراد بالوارث المذكور فى الآية هو الصبي نفسه : أى عليه من ماله

لإرضاع نفسه إذا مات أبوه وورث من ماله ، قاله قبيصة بن ذؤيب وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز .
وروى عن الشافعي ؛ وقيل هو الباقي من والدي المولود بعد موت الآخر منهما ، فإذا مات الأب كان على الأم
كفاية الطفل إذا لم يكن له مال ، قاله سفيان الثوري ؛ وقيل إن معنى قوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) أي
وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع والخدمة والتربية . وقيل إن معنى
قوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) أنه يحرم عليه الإضرار بالأم كما يحرم على الأب ، وبه قالت طائفة من أهل
العلم ، قالوا : وهذا هو الأصل ، فمن ادعى أنه يرجع فيه العطف إلى جميع ما تقدم فعليه الدليل . قال القرطبي :
وهو الصحيح ، إذ لو أراد الجميع الذي هو الرضاع والإنفاق وعدم الضرر يقال : وعلى الوارث مثل هؤلاء ،
فدل على أنه معطوف على المنع من المضاربة ، وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضي عبد الوهاب .
قال ابن عطية وقال مالك وجميع أصحابه والشعبي والزهري والضحاك وجماعة من العلماء : المراد بقوله مثل ذلك
أن لا تضار . وأما الرزق والكسوة فلا يجب شيء منه . وحكى ابن القاسم عن مالك مثل ما قدمنا عنه في تفسير هذه
الآية ودعوى النسخ . ولا يخفى عليك ضعف ما ذهب إليه هذه الطائفة ، فإن ما خصصوا به معنى قوله (وعلى
الوارث مثل ذلك) من ذلك المعنى : أي عدم الإضرار بالمرضعة قد أفاده قوله (لا تضار والدة بولدها) لصديق
ذلك على كل مضاربة ترد عليها من المولود له أو غيره . وأما قول القرطبي : لو أراد الجميع لقال مثل هؤلاء ، فلا
يخفى ما فيه من الضعف البين ، فإن اسم الإشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل المذكور أو نحوه . وأما
ما ذهب إليه أهل القول الأول من أن المراد بالوارث وارث الصبي ، فيقال عليه إن لم يكن وارثا حقيقة مع وجود
الصبي حيا ، بل هو وارث مجازا باعتبار ما يتول إليه . وأما ما ذهب إليه أهل القول الثاني فهو وإن كان فيه حمل
الوارث على معناه الحقيقي ، لكن في إيجاب النفقة عليه مع غنى الصبي ما فيه ، ولهذا قيده القائل به بأن يكون الصبي
فقيرا ، ووجه الاختلاف في تفسير الوارث ما تقدم من ذكر الوالدات والمولود له والولد ، فاحتمل أن يضاف
الوارث إلى كل منهم . قوله (فإن أراد فضالا) الضمير للوالدين . والفصال : الفطام عن الرضاع : أي التفريق
بين الصبي والثدي ، ومنه سمي الفصيل لأنه مفصول عن أمه . وقوله (عن تراض منهما) أي صادرا عن تراض
من الأبوين إذا كان الفصال قبل الحولين (فلا جناح عليهما) في ذلك الفصال . سبحانه لما بين أن مدة الرضاع
حولين كاملين قيد ذلك بقوله (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبي قبل
الحولين كان ذلك جائزا له ، وهنا اعتبر سبحانه تراض الأبوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الأمرين بأن
يقال إن الإرادة المذكورة في قوله (لمن أراد أن يتم الرضاعة) لا بد أن تكون منهما ، أو يقال : إن تلك الإرادة
إذا لم يكن الأبوان للصبي حين بأن كان الموجود أحدهما ، أو كانت المرضعة للصبي ظئرا غير أمه . والتشاور :
استخراج الرأي يقال شرت العسل : استخرجته ، وشرت الدابة : أجريتها لاستخراج جريها ، فلا بد لأحد الأبوين
إذا أراد فصال الرضيع أن يراضى الآخر ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك . قوله (وإن أردتم أن
تسترضعوا أولادكم) قال الزجاج : التقدير أن تسترضعوا لأولادكم غير الوالدة . وعن سيبويه أنه حذف اللام
لأنه يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الأول محذوف ، والمعنى : أن تسترضعوا المراضع أولادكم (إذا
سلمتم ما آتيتن) بالمد أي أعطيتم ، وهي قراءة الجماعة إلا ابن كثير ، فإنه قرأ بالقصر : أي فعلتم ، ومنه
قول زهير :

وما كان من خير أتوه فلانما توارثه آباء آبائهم قبل

والمعنى أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم إلى وقت إرادة الاسترضاع ، قاله سفيان الثوري ومجاهد . وقال قتادة والزهرى : إن معنى الآية : إذا سلمتم ما آتيتن من إرادة الاسترضاع أى سلم كل واحد من الأبوين ورضى وكان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر ، وعلى هذا فيكون قوله (سلمتم) عاما للرجال والنساء تغليبا وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط ، وقيل المعنى : إذا سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها ، فيكون المعنى إذا سلمتم ما أردتم ابتاءه : أى إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف : أى بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لمن أوحط بعض ما هو لمن ذلك ، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بأمر الصبي والتفريط في شأنه .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله (والوالدات يرضعن أولادهن) قال : المطلقات (حولين) قال : سنتين (لاتضار والدته بولدها) يقول : لا تأتى أن ترضعه ضرارا لتشق على أبيه (ولا مولود له بولده) يقول : ولا يضار الوالد بولده فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها بذلك (وعلى الوارث) قال : يعنى الولي من كان (مثل ذلك) قال : النفقة بالمعروف وكفالاته ورضاعه إن لم يكن للمولود مال ، وأن لاتضار أمه (فإن أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور) قال : غير مسيئين في ظلم أنفسهما ولا إلى صبيهما فلا جناح عليهما (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم) قال : خيفة الضيعة على الصبي (فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف) قال : حساب ما أرضع به الصبي . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في تفسير هذه الآية أنه قال : المراد بقوله (والوالدات يرضعن أولادهن) هى فى الرجل يطلق امرأته وله منها ولد . وقال فى قوله (إذا سلمتم ما آتيتن) قال : ما أعطيتكم الظئر من فضل على أجرها ، وأخرج أبو داود فى ناسخه عن زيد بن أسلم فى قوله (والوالدات يرضعن أولادهن) قال : إنها المرأة تطلق أو يموت عنها زوجها . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى التى تضع لسته أشهر أنها ترضع حولين كاملين ، وإذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا لتنام ثلاثين شهرا ، وإذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا ، ثم تلا - وحمله وفصاله ثلاثون شهرا - وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) قال : على قنبر الميسرة وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله (لاتضار والدته بولدها ولا مولود له بولده) ليس لها أن تلقى ولدها عليه ولا يجرد من يرضعه ، وليس له أن يضارها فينزعه منها ولدها وهى تحب أن ترضعه (وعلى الوارث) قال : هو ولي الميت . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء وإبراهيم والشعبي فى قوله (وعلى الوارث) قال : هو وارث الصبي ينفق عليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه ، وزاد : إذا كان المولود لأمال له مثل الذى على والده من أجر الرضاع . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد عن ابن سيرين نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب فى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) قال : هو الصبي . وأخرج وكيع عن عبد الله بن مغفل نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وعلى الوارث مثل ذلك) قال : لا يضار . وأخرج ابن جرير عن الضحاك (فإن أرادا فصلا) قال : الفطام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد . قال : التشاور فيما دون الحولين ليس لها أن تفضمه إلا أن يرضى ، وليس له أن يفضمه إلا أن ترضى . وأخرجوا أيضا عن عطاء فى قوله تعالى (وإن

أردتم أن تسترضعوا أولادكم) قال : أمه أو غيرها (فلا جناح عليكم إذا سلمتم) قال : إذا سلمت لها أجرها (ما آتيتن) ما أعطيتن .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (٢٣٤) .

لما ذكر سبحانه عدّة الطلاق واتصل بذكرها ذكر الإرضاع عقب ذلك بذكر عدّة الوفاة ، لثلاثتهم أن عدّة الوفاة مثل عدّة الطلاق . قال الزجاج : ومعنى الآية والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا : أى ولهم زوجات فالزوجات يتربصن . وقال أبو على الفارسي : تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم ، وهو كقولك السمن منوان بدرهم : أى منه . وحكى المهدوى عن سيويه أن المعنى : وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون ؛ وقيل التقدير : وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن ، ذكره صاحب الكشاف ، وفيه أن قوله (ويذرون أزواجا) لا يلائم ذلك التقدير ، لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة . وقال بعض النحاة من الكوفيين : إن الخبر عن الذين متروك ، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتربصن . ووجه الحكمة في جعل العدّة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذي يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر ، والأنثى لأربعة ، فزاد الله سبحانه على ذلك عشرة ، لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلا ولا تتأخر عن هذا الأجل . وظاهر هذه الآية العموم ، وأن كل من مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدّة ، ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى - وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ - وإلى هذا ذهب الجمهور . وروى عن بعض الصحابة وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتدّ بآخر الأجلين جمعا بين العام والخاص وإعمالا لهما ، والحق ما قاله الجمهور . والجمع بين العام والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة ولا قواعد الشرع ، ولا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بيان أن حكمه مغاير لحكم العام ومخالف له . وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه أذن لسبعة الأسلمية أن تزوّج بعد الوضع والتربص الثاني والتصبر عن النكاح . وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة والكبيرة والحرّة والأمة وذات الحيض والآيسة ، وأن عدتهنّ جميعا للوفاة أربعة أشهر وعشر ، وقيل إن عدّة الأمة نصف عدّة الحرّة شهران وخمسة أيام . قال ابن العربي إجماعا لإلزامي حكى عن الأصم فإنه سوى بين الحرّة والأمة وقال الباجي : ولا نعلم في ذلك خلافا إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال عدتها عدّة الحرّة ، وليس بالثابت عنه ، ووجه ما ذهب إليه الأصمّ وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم ، ووجه ما ذهب إليه من عداها قياس عدّة الوفاة على الحد فإنه ينصف للأمة بقوله سبحانه - فعليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب - . وقد تقدم حديث « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » وهو صالح للاحتجاج به ، وليس المراد منه إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرّة ، وعدتها على النصف من عدتها ، ولكنه لما لم يمكن أن يقال طلاقها تطليقة ونصف وعدتها حيضة ونصف لكون ذلك لا يعقل كانت عدتها وطلاقها ذلك القدر المذكور في الحديث جبرا للكسر ، ولكن ها هنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور ، وهو أن الحكمة في جعل عدّة الوفاة أربعة أشهر

وعشرا هو ما قد منا من معرفة خلوتها من الحمل ، ولا يعرف إلا بتلك المدة ، ولا فرق بين الحرة والأمة في مثل ذلك ، بخلاف كون عدتها في غير الوفاة حيضتين ، فإن ذلك يعرف به خلو الرحم ، ويؤيد عدم الفرق ما سياتى في عدة أم الولد . واختلف أهل العلم في عدة أم الولد لموت سيدها . فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين والزهرى وعمر بن عبد العزيز والأوزاعى وإسحاق وابن راهويه وأحمد بن حنبل في رواية عنه : أنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم « عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر » . أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه ، وضعفه أحمد وأبو عبيد . وقال الدارقطنى : الصواب أنه موقوف . وقال طاوس وقتادة : عدتها شهران وخمس ليل . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح : تعتد بثلاث حيض ، وهو قول على وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعى . وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه : عدتها حيضة وغير الحائض شهر ، وبه يقول ابن عمر والشعبى ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور . قوله (فإذا بلغن أجلهن) المراد بالبلوغ هنا : انقضاء العدة (فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب (بالمعروف) الذى لا يخالف شرعا ولا عادة مستحسنة . وقد استدلل بذلك على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة . وقد ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا » وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيحين وغيرهما النهى عن الكحل لمن هى فى عدة الوفاة ، والإحداد : ترك الزينة من الطيب ، ولبس الثياب الجيدة والحلى وغير ذلك ، ولا خلاف فى وجوب ذلك فى عدة الوفاة ، ولا خلاف فى عدم وجوبه فى عدة الرجعية ، واختلفوا فى عدة البائنة على قولين ، ومحل ذلك كتب الفروع .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (والذين يتوفون منكم) قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله . ثم أنزل الله (والذين يتوفون منكم الآية) فهذه عدة المتوفى عنها إلا أن تكون حاملا ، فعدتها أن تضع ما فى بطنها . وقال فى ميراثها - ولهن الربع مما تركتم - فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة (فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم) يقول : إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها ، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تزين وتتصنع وتعرض للزواج ، فذلك المعروف . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى العالية قال : ضمت هذه الأيام العشر إلى الأربعة أشهر ، لأن فى العشر ينفخ فيه الروح . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله (فإذا بلغن أجلهن) يقول : إذا انقضت عدتها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى قوله (فلا جناح عليكم) يعنى أولياءها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم عن ابن عباس أنه كره للمتوفى عنها زوجها الطيب والزينة وأخرج مالك وعبد الرزاق وأهل السنن وصححه الترمذى والحاكم عن الفريضة بنت مالك بن سنان وهى أخت أبى سعيد الخدرى أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسأل أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدره ، وأن زوجها خرج فى طلب أعبد لها أبقوا حتى إذا تطرف القدوم لحقهم فقتلوه ، قالت : فسألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أرجع إلى أهلى فإن زوجى لم يتركنى فى منزل بملكه ولا نفقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعم ، فانصرفت حتى إذا كنت فى الحجرة أو فى المسجد فدعانى أو أمر بى فدعيت ، فقال : كيف قلت ؟ قالت :

فرددت إليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ، فقال : امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله . قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى فسألني عن ذلك فأخبرته ، فاتبعه وقضى به :

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٠) .

الجناح : الإثم ، أي لا إثم عليكم ، والتعريض ضد التصريح ، وهو من عرض الشيء : أي جانبه كأنه يحوم به حول الشيء ولا يظهره ، وقيل هو من قولك : عرضت الرجل : أي أهديت له . ومنه أن ركبا من المسلمين عرضوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا : أي أهدوا لهما ، فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاما يفهم معناه . وقال في الكشف : الفرق بين الكناية والتعريض ، أن الكناية أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له . والتعريض أن يذكر شيئا يدل به على شيء لم يذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا : وحسبك بالتسليم مني تقاضيا . وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريد أن يتهى . والخطبة بالكسر : ما يفعله الطالب من الطلب ، والاستلطاف بالقول والفعل ، يقال : خطبها بخطبها خطبة وخطبا . وأما الخطبة بضم الخاء فهي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطبا . وقوله (أ كننتم) معناه سترتم وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة . والإكنان : التستر والإخفاء : يقال أكننته وكنتته بمعنى واحد . ومنه بيض مكنون ، ودر مكنون . ومنه أيضا أكنن البيت صاحبه : أي ستره . وقوله (علم الله أنكم ستذكرونهن) أي علم الله أنكم لاتصبرون عن النطق لهن برغبتكم فيهن ، فرخص لكم في التعريض دون التصريح . وقال في الكشف : إن فيه طرفا من التوبيخ كقوله - علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم - . وقوله (ولكن لاتواعدوهن سرا) معناه : على سرا ، فحذف الحرف لأن الفعل لا يتعدى إلى المفعولين . وقد اختلف العلماء في معنى السر ف قيل : معناه نكاحا : أي لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجيني بل يعرض تعريضا . وقد ذهب إلى أن معنى الآية هذا جمهور العلماء ، وقيل السر : الزنا ، أي لا يكن منكم . واعدة على الزنا في العدة ثم التزويج بعدها . قاله جابر بن زيد وأبو مجلز والحسن وقتادة والضحاك والنخعي واختاره ابن جرير الطبري ، ومنه قول الخطيئة :

ويحرم سرا جارهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع

وقيل السر : الجماع ، أي لاتصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيبا لهن في النكاح ، وإلى هذا ذهب الشافعي في معنى الآية ، ومنه قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن السر أمثالي

ومثله قول الأعشى :

فلن تطلبوا سرا للغنى ولن تسلموها لأزهادهم

أراد : تطلبون نكاحها لكثرة مالها ، ولن تسلموها لقلة مالها ، والاستلراك بقوله (لكن) من مقدّر محذوف دل عليه (ستذكرونهن) أي فاذكروهن (ولكن لاتواعدهن سراً) . قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رث من ذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز . وقال أيضا : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها وللأب في ابنته البكر والسيد في أمته . قوله (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) قيل هو استثناء منقطع بمعنى لكن ، والقول المعروف : هو ما أبيح من التعريض . ومنع صاحب الكشف أن يكون منقطعاً وقال : هو مستثنى من قوله (لاتواعدهن) أي لاتواعدهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكورة فجعله على هذا استثناء مفرغاً ، ووجه منع كونه منقطعاً أنه يؤدي إلى جعل التعريض موعوداً وليس كذلك ، لأن التعريض طريق المواعدة ، لا أنه الموعود في نفسه . قوله (ولا تعزموا عقدة النكاح) قد تقدّم الكلام في معنى العزم ، يقال عزم الشيء ، وعزم عليه ، والمعنى هنا : لاتعزموا على عقدة النكاح ثم حذف على . قال سيويه : والحذف في هذه الآية لا يقاس عليه . وقال النحاس : يجوز أن يكون المعنى ولا تعقدوا عقدة النكاح ، لأن معنى تعزموا وتعقدوا واحد ؛ وقيل إن العزم على الفعل يتقدّمه فيكون في هذا النهي مبالغة ، لأنه إذا نهى عن المتقدم على الشيء ، كان النهي عن ذلك الشيء بالأولى . قوله (حتى يبلغ الكتاب أجله) يريد حتى تنقضي العدة ، والكتاب هنا هو الحد والقلبر الذي رسم من المدة ، سماه كتاباً لكونه محدوداً ومفروضاً كقوله تعالى - إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً - وهذا الحكم أعني تحريم عقد النكاح في العدة مجمع عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) قال : التعريض أن تقول : إني أريد الزواج ، وإني لأحب المرأة من أمرها وأمرها ، وإن من شأنى النساء ، ولوددت أن الله يسر لي امرأة صالحة . وأخرج ابن جرير عنه أنه يقول لها : إن رأيت أن لاتسبّقيني بنفسك ، ولوددت أن الله قد هباً بيني وبينك ، ونحو هذا من الكلام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : يقول إني فيك لراغب ، ولوددت أني تزوجتك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله (أو أكنتم) قال : أسررت . وأخرج عبد الرزاق عن الضحاك مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله (علم الله أنكم ستذكرونهن) قال : بالخطبة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد قال : ذكره إياها في نفسه وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولكن لاتواعدهن سراً) قال : يقول لها إني عاشق ، وعاهديني أن لاتزوجي غيري ونحو هذا (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) وهو قوله : إن رأيت أن لاتسبّقيني بنفسك . وأخرج ابن جرير عنه في السر أنه الزنا ، كان الرجل يدخل من أجل الزنا وهو يعرض بالنكاح وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه في قوله (إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) قال : يقول إنك لجميلة ، وإنك إلى خير ، وإن النساء من حاجتي . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (ولا تعزموا عقدة النكاح) قال : لاتنكحوا (حتى يبلغ الكتاب أجله) قال : حتى تنقضي العدة .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً
وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧).

المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه ، فرفعه رفع لذلك : أى لا تبعة عليكم بالمهر ونحوه إن طلقتم النساء على الصنعة المذكورة ، و« ما » فى قوله (ما لم تمسوهن) هى مصلرية ظرفية بتقدير المضاف : أى مدة عدم مسيسكم . ونقل أبو البقاء أنها شرطية من باب اعتراض الشرط على الشرط ليكون الثانى قيذا للأول كما فى قوله : إن تأتني إن تحسن إلى أكرمك : أى إن تأتني محسنا إلى ، والمعنى : إن طلقتموهن غير ماسين لهن . وقيل : إنها موصولة : أى إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن ، وهكذا اختلفوا فى قوله (أو تفرضوا) فقليل أو بمعنى إلا : أى إلا أن تفرضوا ؛ وقيل بمعنى حتى : أى حتى تفرضوا ، وقيل بمعنى الواو : أى وتفرضوا . ولست أرى لهذا التطويل وجها ، ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس ، فإن الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين ما لم يقع أحد الأمرين : أى مدة انتفاء ذلك الأحد ، ولا ينتفى الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معا ، فإن وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل ، وإن وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس ، وكل واحد منها جناح : أى المسمى أو نصفه أو مهر المثل . واعلم أن المطلقات أربع : مطلقة مدخول بها مفروض لها ، وهى التى تقدم ذكرها قبل هذه الآية ، وفيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئا ، وأن عدتهن ثلاثة قروء . ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها ، وهى المذكورة هنا فلا مهر لها ، بل المتعة ، وبين فى سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدة عليها . ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها ، وهى المذكورة بقوله سبحانه هنا (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة) ، ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها ، وهى المذكورة فى قوله تعالى « فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن » والمراد بقوله (ما لم تمسوهن) ما لم تجمعهن ، وقرأ ابن مسعود « من قبل أن تجمعهن » أخرجه عنه ابن جرير ، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم « ما لم تمسوهن » وقرأه حمزة والكسائي « تماسوهن » من المفاعلة ، والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر . قوله (ومتعهن) أى أعطوهن شيئا يكون متاعا لهن ، وظاهر الأمر الوجوب ، وبه قال على وابن عمر والحسن البصرى وسعيد بن جبيرة وأبو قلابة والزهرى وقتادة والضحاك ومن أدلة الوجوب قوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا - وقال مالك وأبو عبيد والقاضى شريح وغيرهم : إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى (حقا على المحسنين) ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين ، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافى الوجوب بل هو تأكيد له كما فى قوله فى الآية الأخرى (حقا على المتقين) أى أن الوفاء بذلك والقيام به شأن أهل التقوى ، وكل مسلم يجب عليه أن يتق الله سبحانه ، وقد وقع الخلاف أيضا هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض أم ليست بمشروعة إلاها فقط ؟ فقليل إنها مشروعة لكل مطلقة ، وإليه ذهب ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبيرة وأبو العالية والحسن البصرى والشافعى فى أحد قرليه وأحمد وإسحاق ، ولكنهم اختلفوا هل هى واجبة فى غير المطلقة قبل البناء والفرض أم مندوبة فقط ، واستدلوا بقوله تعالى - وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين - وبقوله

تعالى - يأياها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحا جميلا - والآية الأولى عامة لكل مطلقة ، والثانية في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد كن مفروضا لمن مدخولا بهن . وقال سعيد بن المسيب : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضا لها لقوله تعالى - يأياها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن - قال : هذه الآية التي في الأحزاب نسخت التي في البقرة . وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء والتسمية ، لأن المدخول بها تستحق جميع المسمى أو مهر المثل ، وغير المدخولة التي قد فرض لها زوجها فريضة : أي سمي لها مهرا وطلقها قبل الدخول تستحق نصف المسمى ، ومن القائلين بهذا ابن عمر ومجاهد . وقد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول والفرض لا تستحق إلا المتعة إذا كانت حرة . وأما إذا كانت أمة فذهب الجمهور إلى أن لها المتعة ، وقال الأوزاعي والثوري : لا متعة لها لأنها تكون لسيدها ، وهو لا يستحق مالا في مقابل تأذي مملوكته ، لأن الله سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول والفرض ، لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك . وقد اختلفوا في المتعة المشروعة هل هي مقدرة بقدر أم لا ؟ فقال مالك والشافعي في الجديد : لا أحد لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة . وقال أبو حنيفة : إنه إذا تنازع الزوجان في قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها ، ولا ينقص من خمسة دراهم ، لأن أقل المهر عشرة دراهم . وللسلف فيها أقوال سيأتى ذكرها إن شاء الله . وقوله (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) يدل على أن الاعتبار في ذلك بحال الزوج ، فالمتعة من الغنى فوق المتعة من الفقير . وقرأ الجمهور على الموسع بسكون الواو وكسر السين ، وهو الذي اتسعت حاله . وقرأ أبو حنيفة بفتح الواو وتشديد السين وفتحها . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر قدره بسكون الدال فيهما . وقرأ ابن عامر وحزرة والكسائي وعاصم في رواية حفص بفتح الدال فيهما . قال الأخفش وغيره : هما لغتان فصيحتان ، وهكذا يقرأ في قوله تعالى - فسالت أودية بقدرها - . وقوله - وما قدروا الله حق قدره - والمقدر المقل ، ومتاعا مصدر مؤكد لقوله (وتمتعوهن) والمعروف ما عرف في الشرع والعادة الموافقة له . وقوله (حقا) وصف لقوله (متاعا) أو مصدر لفعل محذوف : أي حق ذلك حقا ، يقال : حققت عليه القضاء وأحققت : أي أوجبت . قوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) الآية ، فيه دليل على أن المتعة لا تجب لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء والفرض التي تستحق المتعة . وقوله (فنصف ما فرضتم) أي فالواجب عليكم نصف ما سميتم هن من المهر وهذا مجمع عليه . وقرأ الجمهور (فنصف) بالرفع . وقرأ من عدا الجمهور بالنصب : أي فادفعوا نصف ما فرضتم وقرئ أيضا بضم النون وكسرها وهما لغتان . وقد وقع الاتفاق أيضا على أن المرأة التي لم يدخل بها زوجها ومات وقد فرض لها مهرا تستحقه كاملا بالموت ، ولها الميراث وعليها العدة . واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول وتستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحقه بالدخول أم لا ؟ فذهب إلى الأول مالك والشافعي في القديم والكوفيون والخلفاء الراشدون وجمهور أهل العلم ، وتجب عندهم أيضا العدة . وقال الشافعي في الجديد : لا يجب إلا نصف المهر ، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع ولا تجب عنده العدة ، وإليه ذهب جماعة من السلف قوله (إلا أن يعفون) أي المطلقات ، ومعناه : يتركن ويصفحن ، ووزنه يفعلن ، وهو استثناء مفرغ من أعم العام ، وقيل منقطع ، ومعناه : يتركن النصف الذي يجب لمن على الأزواج : ولم تسقط النون مع إن ، لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع والنصب والجزم لكون النون ضميرا وليست بعلامة لإعراب كما في المذكر في قولك : الرجال يعفون ، وهذا عليه جمهور المفسرين . وروى عن محمد بن كعب القرظي أنه قال

(إلا أن يعفون) يعنى الرجال وهو ضعيف لفظا . ومعنى قوله (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) معطوف على محل قوله «إلا أن يعفون» لأن الأول مبنى وهذا معرب ؛ قيل هو الزوج ، وبه قال جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع وابن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبو مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان وهو الحديد من قولى الشافعي ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن شبرمة والأوزاعي ورجحه ابن جرير . وفى هذا القول قوة وضعف ؛ أما قوته فلكون الذى بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج ، لأنه هو الذى إليه رفعه بالطلاق ؛ وأما ضعفه فلكون العفومنه غير معقول ، وما قالوا به من أن المراد بعفوه أن يعطيها المهر كاملا غير ظاهر . لأن العفو لا يطلق على الزيادة . وقيل المراد بقوله (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) هو الولي ، وبه قال النخعي وعلقمة والحسن وطارس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربيعة والزهرى والأسود بن يزيد والشعبي وقتادة ومالك والشافعي فى قوله القديم ، وفيه قوة وضعف ؛ أما قوته فلكون معنى العفوفيه معقولا ؛ وأما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده ، ومما يزيد هذا القول ضعفا أنه ليس للولي أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه . وقد حكى القرطبي الإجماع على أن الولي لا يملك شيئا من مالها ، والمهر مالها . فالراجح ما قاله الأولون لوجهين : الأول أن الزوج هو الذى بيده عقدة النكاح حقيقة . الثانى أن عفوه يكال المهر هو صادر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولي ، وتسمية الزيادة عفوا وإن كان خلاف الظاهر ، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملا عند العقد كان العفو معقولا ، لأنه تركه لها ولم يسترجع النصف منه ، ولا يحتاج فى هذا إلى أن يقال إنه من باب المشاكلة كما فى الكشاف ، لأنه عفو حقيقى : أى ترك لما يستحق المطالبة به ، إلا أن يقال إنه مشاكلة ، أو يطيب فى توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج . قوله (وأن تعفو أقرب للتقوى) قيل هو خطاب للرجال والنساء تغليبا ؛ وقرأه الجمهور بالناء الفوقية ؛ وقرأ أبو نهيك والشعبي بالياء التحتية ، فيكون الخطاب مع الرجال . وفى هذا دليل على مارجحناه من أن الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج ، لأن عفو الولي عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى ، بل أقرب إلى الظلم والجور . قوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) قرأه الجمهور بضم الواو ؛ وقرأ يحيى بن يعمر بكسرها وقرأ على ومجاهد وأبو خيرة وابن أبي عبيدة «ولا تناسوا» والمعنى : أن الزوجين لا ينسيان الفضل من كل واحد منهما على الآخر ، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف ويتفضل الرجل عليها بكال المهر ، وهو إرشاد للرجال والنساء من الأزواج إلى ترك التقصى على بعضهم بعضا ، والمساعدة فيما يستغفره أحدهما على الآخر للوصلة التى قد وقعت سهما من إفشاء البعض إلى البعض ، وهى وصلة لا يشبهها وصلة ، فن رعاية حقها ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح . وقوله (إن الله بما تعملون بصير) فيه من رغب المحسن وترهيب غيره مالا يتخفى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (مالم تمسوهن أو تفضواهن فريضة) قال : المس : النكاح ، والفريضة : الصداق (تمسوهن) قال : هو على الرجل يتزوج المرأة ولم يسم لها صداقا ، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، فأمره الله أن يمتعها على قدر عسره ويسره ، فإن كان موسرا متعها بخادم ، وإن كان معسرا متعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال : متعة الطلاق : أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : أدنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهما . وروى القرطبي فى تفسيره عن الحسن بن على أنه

متع بعشرين ألفا ورقاق من غسل . وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم . وأخرج الدارقطني عن الحسن بن علي أنه متع بعشرة آلاف . وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه كان يتمتع بالخدام والنفقة أو بالكسوة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (من قبل أن تمسوهن) قال المس : الجماع ، فلها نصف صداقها ، وليس لها أكثر من ذلك إلا أن يعفون . وهي المرأة الثيب والبكر يزوجها غير أبيها فجعل الله العفو لمن إن شئ عفون بتركهن ، وإن شئ أخذن نصف الصداق (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) وهو أبو الجارية البكر جعل العفو إليه ليس لها معه أمر إذا طلقت ما كانت في حجره . وأخرج الشافعي وسعيد بن منصور والبيهقي عن ابن عباس قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق ، لأن الله يقول (فإن طلقتموهن) الآية . وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال : لها نصف الصداق وإن جلس بين رجلها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي بسند حسن عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال والذي بيده عقدة النكاح الزوج وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عنه قال : هو أبوها وأخوها ومن لا تنكح إلا بإذنه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) قال : في هذا أو غيره . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه البيهقي أن قوما أتوا ابن مسعود فقالوا : إن رجلا تزوج منا امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يجمعها إليه حتى مات فقال : أرى أن أجعل لها صداقا كصداق نساها لاوكس ولا شطط ، ولها الميراث وعليها العدة أربعة أشهر وعشر ، فسمع بذلك ناس من أشجع منهم مغفل بن سنان ، فقالوا : نشهد أنك قضيت مثل الذي قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في امرأة منا يقال لها يروع بنت واشق . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عن علي أنه قال في المتوفى عنها زوجها ولم يفرض لها صداقا : لها الميراث وعليها العدة ولا صداق لها . وقال : لا يقبل قول أعرابي من أشجع على كتاب الله . وأخرج الشافعي والبيهقي عن ابن عباس قال في المرأة التي يموت عنها زوجها وقد فرض لها صداقا : لها الصداق والميراث . وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي عن عمر بن الخطاب أنه قضى في المرأة يتزوجها الرجل : أنه إذا أرخيت الستور فقد وجب الصداق . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن عمر وعلى قال : إذا أرخى سترا وأغلق بابا فلها الصداق كاملا وعليها العدة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عن زرارة بن أوفى قال : قضى الخلفاء الراشدون أنه من أغلق بابا أو أرخى سترا فقد وجب الصداق والعدة . وأخرج مالك والبيهقي عن زيد بن ثابت نحوه . وأخرج البيهقي عن محمد بن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من كشف امرأة فنظر إلى عورتها فقد وجب الصداق .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا

أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) .

المحافظة على الشيء : المداومة والمواظبة عليه ، والوسطى : تأنيث الأوسط ، وأوسط الشيء ووسطه : خياره . ومنه قوله تعالى - وكذلك جعلناكم أمة وسطا - ، ومنه قول بعض العرب : يمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

يا اوسط الناس طرا في مفاخرهم وأكرم الناس أما برة وأبا

ووسط فلان القوم بسطهم : أى صار فى وسطهم : وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها فى عموم الصلوات
تشريفا لها . وقرأ أبو جعفر (والصلاة الوسطى) بالنصب على الإغراء ؛ وكذلك قرأ الحلوانى ؛ وقرأ قالون عن نافع
الوصطى بالصلاة لمحاوره الطاء وهما لغتان : كالسراط والصراط . وقد اختلف أهل العلم فى تعيينها على ثمانية عشر قولاً
أوردتها فى شرحى للمنتقى ، وذكرت ما تمسكت به كل طائفة ، وأرجح الأقوال وأصحها ما ذهب إليه الجمهور
من أنها العصر ، لما ثبت عند البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث على قال : كنا نراها الفجر حتى سمعت
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، لا الله قبورهم
وأجوافهم ناراً » . وأخرج مسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعاً مثله . وأخذه أيضاً
ابن جرير وابن المنذر والطبرانى من حديث ابن عباس مرفوعاً . وأخرجه البزار بإسناد صحيح من حديث جابر
مرفوعاً وأخرجه أيضاً البزار بإسناد صحيح من حديث حذيفة مرفوعاً . وأخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف من حديث
أم سلمة مرفوعاً . وورد فى تعيين أنها العصر من غير ذكر يوم الأحزاب أحاديث مرفوعة إلى النبى صلى الله عليه
وآله وسلم : منها عن ابن عمر عند ابن منده ، ومنها عن سمرة عند أحمد وابن جرير والطبرانى ، ومنها عنه أيضاً عند
ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه ابن جرير والطبرانى والبيهقى ، وعن أبى هريرة عند ابن جرير
والبيهقى والطحاوى . وأخرجه عنه أيضاً ابن سعيد والبزار وابن جرير والطبرانى ، وعن ابن عباس عند البزار
بأسانيد صحيحة ، وعن أبى مالك الأشعرى عند ابن جرير والطبرانى ، فهذه أحاديث مرفوعة إلى النبى صلى الله
عليه وآله وسلم مصرحة بأنها العصر . وقد روى عن الصحابة فى تعيين أنها العصر آثار كثيرة ، وفى الثابت عن النبى
صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يحتاج معه إلى غيره . وأما ما روى عن على وابن عباس أنهما قالوا : إنها صلاة الصبح
كما أخرجه مالك فى الموطأ عنهما ، وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس ، وكذلك أخرجه عنه عبد الرزاق وابن
أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وكذلك أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر ، وكذلك أخرجه ابن
جرير عن جابر ، وكذلك أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، وكل ذلك من أقوالهم وليس فيها شيء من المرفوع
إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا تقوم بمثل ذلك حجة لاسيما إذا عارض ما قد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم ثبوتاً يمكن أن يدعى فيه التواتر ، وإذا لم تقوم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعدهم من التابعين وتابعهم
بالأولى ، وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبى حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس أنه قال : صلاة الوسطى
المغرب ، وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة : أنها الظهر أو غيرها من الصلوات ، ولكن المحتاج
إلى إمعان نظر وفكر ما ورد مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم مما فيه دلالة على أنها الظهر ، كما أخرجه ابن
جرير عن زيد بن ثابت مرفوعاً : « إن الصلاة الوسطى صلاة الظهر » . ولا يصح رفعه لى المروى عن زيد بن ثابت
ذلك من قوله ، واستدل على ذلك بأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى بالهاجرة ، وكانت أثقل الصلاة على
أصحابه ؛ وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وهكذا
الاعتبار بما روى عن ابن عمر من قوله إنها الظهر . وكذلك ما روى عن عائشة وأبى سعيد الخدرى وغيرهم ، فلا
حجة فى قول أحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأما ما رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما أن
حنيفة قالت لأبى رافع مولاها وقد أمرته أن يكتب لها مصحفاً : إذا أتيت على هذه الآية (حافظوا على الصلوات
والصلاة الوسطى) فتعال حتى أمليها عليك ، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب (حافظوا على الصلوات والصلوة

الوسطى وصلاة العصر). وأخرجه أيضا عنها مالك وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في سننه وزادوا : وقالت أشهد أني سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج مالك وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي يونس مولى عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفا وقالت : إذا بلغت هذه الآية فأذني (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) قال : فلما بلغت أذنتها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) قالت عائشة : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أم سلمة أنها أمرت من يكتب لها مصحفا ، وقالت له كما قالت حفصة وعائشة . فغاية ما في هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث رضى الله عنهن أنهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر أو غيرها ، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على صلاة الوسطى أنها غيرها ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه ، وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ثبوته لا يدفع أنها العصر كما قدمنا بيانه . فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلتها أمهات المؤمنين الثلاث بإثبات قوله « وصلاة العصر » معارضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال : كان في مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر) . وأخرج وكيع عن حميدة قالت : قرأت في مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) . وأخرج ابن أبي داود عن قبيصة بن ذؤيب مثله . وأخرج سعيد بن منصور وأبو عبيد عن زياد بن أبي مريم أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب وقالت : إذا بلغت (حافظوا على الصلوات) فلا تكتبوها حتى تؤذنوني ، فلما أخبروها أنهم قد بلغوها قالت : اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر . وأخرج ابن جرير والطحاوي والبيهقي عن عمرو بن رافع : قال كان مكتوبا في مصحف حفصة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر) . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه كان يقرأها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابن جرير والطحاوي عن ابن عباس أنه كان يقرأها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) . وأخرج المحاملي عن السائب بن يزيد أنه تلاها كذلك فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة ونقل القراءة ، ويبقى ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التعيين صافيا عن شوب كدر المعارضة . على أنه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة وعائشة وأم سلمة . فأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي عن البراء بن عازب قال نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله ثم نسخها الله ، فأنزل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فقبل له : هي إذن صلاة العصر ؟ قال : قد حدثتكم كيف نزلت وكيف نسخها الله ، والله أعلم . وأخرج البيهقي عنه من وجه آخر نحوه . وإذا تقرر لك هذا وعرفت ما سقناه تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر . وأما حجج بقية الأقوال فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به ، لأنه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك شيء ، وبعض القائلين عول على أمر لا يعول عليه فقال : إنها صلاة كذا ، لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات وبعدها كذا من الصلوات ، وهذا الرأي المحض والتخمين البحت لا ينبغي أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فكيف مع وجود ما هو في أعلا درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وبالله العجب من قوم لم يكتبوا بتقصيرهم في علم السنة وإعراضهم

عن خير العلوم وأنفعها ، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله والتجربى على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى ، فجاءوا بما يضحك منه تارة ويبكى منه أخرى . قوله (وقوموا لله قانتين) القنوت قيل هو الطاعة : أى قومه والله فى صلاتكم طائعين ، قاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير والضحاك والشافعى . وقيل هو الخشوع ، قاله ابن عمر ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

قانتا لله يدعو ربسه وعلى عمد من الناس اعتزل

وقيل هو الدعاء ، وبه قال ابن عباس . وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان . وقال قوم : إن القنوت طول القيام ؛ وقيل معناه ساكتين قاله السدى ، ويدل عليه حديث زيد ابن أرقم فى الصحيحين وغيرهما قال : كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الحاجة فى الصلاة حتى نزلت هذه الآية (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت ؛ وقيل أصل القنوت فى اللغة الدوام على الشيء ، فكل معنى يناسب الدوام يصح إطلاق القنوت عليه . وقد ذكر أهل العلم أن القنوت ثلاثة عشر معنى وقد ذكرنا ذلك فى شرح المنتقى ، والمتعين هاهنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور . قوله (فإن خفتم فرجالا أو ركباناً) الخوف هو الفزع ، والرجال جمع رجل أو راجل ، من قولهم رجل الإنسان يرجل راجلا : إذا عدم المركوب ومشى على قدميه فهو رجل ورجل . يقول أهل الحجاز : مشى آفلان إلى بيت الله حافيا رجلا . حكاه ابن جرير الطبرى وغيره . لما ذكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات ، ذكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الرجل وحال الركوب ، وأبان لهم أن هذه العبادة لازمة فى كل الأحوال بحسب الإمكان . وقد اختلف أهل العلم فى حد الخوف المبيح لذلك والبحث مستوفى فى كتب الفروع . قوله (فإذا أمنتم) أى إذا زال خوفكم فارجعوا إلى ما أمرتم به من إتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها وأركانها وهو قوله (فاذكروا الله كما علمكم) وقيل معنى الآية : خرجم من دار السفر إلى دار الإقامة وهو خلاف معنى الآية . وقوله (كما علمكم) أى مثل ما علمكم من الشرائع (ما لم تكونوا تعلمون) والكاف صفة لمصدر مخذوف : أى ذكرنا كائنات تعليمه إياكم ، أو مثل تعليمه إياكم .

وقد أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا ، وشبك بين أصابعه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن الصلاة الوسطى ؟ فقال : هى فىن فحافظوا عليهن . وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت أنه سأل رجل عن الصلاة الوسطى فقال : حافظ على الصلوات تدر كها . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن الربيع بن خيثم أن سائلا سأل عن الصلاة الوسطى ، قال : حافظ عليهن فإنك إن فعلت أصبتها ، إنما هى واحدة منهن . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال : سئل شريح عن الصلاة الوسطى ، فقال : حافظوا عليها تصييوها . وقد قدمنا ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم فى تعيينها . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وقوموا لله قانتين) مثل ما قدمنا عن زيد بن أرقم . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد ابن حميد عن محمد بن كعب نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقوموا لله قانتين) قال مصلين . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : كل أهل دين يقومون فيها عاصين ، قوموا أنتم مطيعين . وأخرج

ابن أبي شيبه عن الضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (وقوموا لله قانتين) قال : من القنوت الركوع والخشوع ، وطول الركوع : يعني طول القيام وغض البصر وخفض الجناح والرهبة لله . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن في الصلاة لشغلا » وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » . وقد اختلفت الأحاديث في القنوت المصطلح عليه ، هل هو قبل الركوع أو بعده ، وهل هو في جميع الصلوات أو بعضها ، وهل هو مختص بالنوازل أم لا ؟ والراجح اختصاصه بالنوازل : وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى فليرجع إليه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (فإن خفتم فرجالا أو ركباناً) قال : يصلي الراكب على دابته ، والراجل على رجله (فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) يعني كما علمكم أن يصلي الراكب على دابته ، والراجل على رجله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : إذا كانت المسابقة فليوم برأسه حيث كان وجهه فذلك قوله (فرجالا أو ركباناً) . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال (فإن خفتم فرجالا أو ركباناً) قال : ركعة ركعة . وأخرج وكيع وابن جرير عن مجاهد (فإذا أمنتم) قال : خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ
فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)
وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

هذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف . وقد اختلف السلف ومن تبعهم من المفسرين في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ؟ فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر والعشر كما تقدم ، وأن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لمن من الميراث . وحكى ابن جرير عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لانسخ فيها ، وأن العدة أربعة أشهر وعشر ، ثم جعل الله لمن وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة ، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت . وقد حكى ابن عطية والقاضي عياض أن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشر . وقد أخرج عن مجاهد ما أخرجه ابن جرير عنه البخاري في صحيحه . وقوله (وصية) قرأنا نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي بالرفع على أن ذلك مبتدأ لخبر محذوف يقدر مقدما : أي عليهم وصية ؛ وقيل إن الخبر قوله (لأزواجهن) وقيل إنه خبر مبتدأ محذوف : أي وصية الذين يتوفون وصية أو حكم الذين يتوفون وصية . وقرأ أبو عمرو وحمة وابن عامر بالنصب على تقدير فعل محذوف : أي فليوصوا وصية ، أو أوصى الله وصية ، أو كتب الله عليهم وصية . وقوله (متاعا) منصوب بوصية أو بفعل محذوف : أي متعوهن متاعا ، أو جعل الله لمن ذلك متاعا ، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال . والمتاع هنا : نفقة السنة . وقوله (غير إخراج) صفة لقوله (متاعا) وقال الأنخفش : إنه مصدر كأنه قال لا إخراجا ؛ وقيل إنه حال : أي متعوهن غير مخرجات ؛ وقيل منصوب بنزع الخافض : أي من غير إخراج ، والمعنى : أنه يجب على الذين يتوفون أن

يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن يمتنع بعدهم حولاً كاملاً بالنفقة والسكنى من تركهم ولا يخرج من مساكنهم . وقوله (فإن خرج) يعني باختيار من قبل الحول (فلا جناح عليكم) أى لا حرج على الولي والحاكم وغيرهما (فيما فعلن في أنفسهن) من التعرض للخطاب والتزين لهم . وقوله (من معروف) أى بما هو معروف في الشرع غير منكر . وفيه دليل على أن النساء كنّ مخيرات في سكنى الحول وليس ذلك بحتم عليهن ؛ وقيل المعنى لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن وهو ضعيف ، لأن متعلق الجناح هو مذكور في الآية بقوله (فيما فعلن) وقوله (وللمطلقات متاع) قد اختلف المفسرون في هذه الآية ، فقيل هي المتعة ، وأنها واجبة لكل مطلقة ؛ وقيل إن هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتي قد جومعن ، لأنه قد تقدم قبل هذه الآية ذكر المتعة اللواتي لم يدخل بهن الأزواج . وقد قدّمنا الكلام على هذه المتعة والخلاف في كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء والفرض أو عامة للمطلقات ؛ وقيل إن هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة وهي متعة المطلقة قبل البناء والفرض ، وغير الواجبة وهي متعة سائر المطلقات فإنها مستحبة فقط ؛ وقيل المراد بالمتعة هنا النفقة .

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو لم تدعها ؟ قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنها في الدار سنة ، فنسختها آية الموارث فجعل لها الربع والثلث مما ترك الزوج . وأخرج ابن جرير نحوه عن عطاء . وأخرج نحوه أيضاً أبو داود والنسائي عن ابن عباس من وجه آخر . وأخرج الشافعي وعبد الرزاق عن جابر بن عبد الله قال : ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة حسبها الميراث . وأخرج أبو داود في ناسخه والنسائي عن عكرمة قال : نسختها - والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً - . وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أيضاً عن قتادة نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف) قال : النكاح الحلال الطيب . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزل قوله - متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين - قال رجل : إن أحسنت فعلت ، وإن لم أرد ذلك لم أفعل ، فأنزل الله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : نسخت هذه الآية بقوله - وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم - . وأخرج أيضاً عن عتاب بن خصيف في قوله (وللمطلقات متاع) قال : كان ذلك قبل الفرائض . وأخرج مالك وعبد الرزاق والشافعي وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن ابن عمر قال : لكل مطلقة متعة إلا التي تطلقها ولم تدخل بها وقد فرض لها ، كني بالنصف متاعاً . وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : لكل مؤمنة طلقت حرّة أو أمة متعة ؛ وقرأ (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) . وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لزوجها : متعها ، قال : لأجد ما أمتعها ، قال : فإنه لا بد من المتاع ، متعها ولو نصف صاع من تمر . وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية في الآية ، قال : لكل مطلقة متعة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) .

الاستفهام هنا للتقرير ، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر. والمعنى عند سيبويه : تنبه إلى أمر الذين خرجوا ، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل . وحاصله أن الرؤية هنا التي بمعنى الإدراك مضمنة معنى التنبيه ، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء : أى ألم ينته علمك إليهم ؛ أو معنى الوصول : أى ألم يصل علمك إليهم ؛ ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية : أى ألم تنظر إلى الذين خرجوا . جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوخ والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد ، أو المبصرة لكل مبصر ، لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونوها وأشهروا أمرها ، والخطاب هنا لكل من يصلح له . والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجيب ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوى في إدراكه الشاهد والغائب . وقوله (وهم ألوف) في محل نصب على الحال من ضمير خرجوا ، وألوف من جموع الكثرة ، فدل على أنها ألوف كثيرة . وقوله (حذر الموت) مفعول له . وقوله (فقال لهم الله موتوا) هو أمر تكوين عبارة عن إرادته بموتهم دفعة ، أو تمثيل لإماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا فأطاعوا . قوله (ثم أحياهم) هو معطوف على مقدر يقتضيه المقام : أى قال الله لهم موتوا فماتوا ثم أحياهم ، أو على قال لما كان عبارة عن الإماتة وقوله (إن الله لذو فضل على الناس) التنكير في قوله فضل للتعظيم : أى لذو فضل عظيم على الناس جميعا ، أما هؤلاء الذين خرجوا فلكونه أحياهم ليعتبروا ، وأما المخاطبون فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء ، قوله (وقاتلوا في سبيل الله) هو معطوف على مقدر كأنه قيل اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا ، هذا إذا كان الخطاب بقوله (وقاتلوا) راجعا إلى المخاطبين بقوله (ألم تر إلى الذين خرجوا) كما قاله جمهور المفسرين ؛ وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد ؛ وقيل إن الخطاب للذين أحيوا من بنى إسرائيل فيكون عطفا على قوله (موتوا) وفي الكلام محذوف تقديره وقال لهم قاتلوا . وقال ابن جرير : لا وجه لقول من قال : إن الأمر بالقتال للذين أحيوا . وقوله (من ذا الذى يقرض الله) لما أمر سبحانه بالقتال والجهاد أمر بالإنفاق في ذلك ، و« من » استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء ، و« ذا » خبره ، و« الذى » وصلته وصف له أو بدل منه ، وإقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذى يستحق به فاعله الثواب ، وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء ، يقال : أقرض فلان فلانا : أى أعطاه ما يتجازه . قال الشاعر :

* وإذا جوزيت قرضا فاجزه *

وقال الزجاج : القرض في اللغة : البلاء الحسن والبلاء السيئ .

قال أمية :

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسنا أو سيئا ومدينا مثل مادانا

وقال آخر :

فجازى القروض بأمثالها فبالخير خيرا وبالشر شرا

وقال الكسائي القرض : ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ ، وأصل الكلمة القطع ، ومنه المقرض واستدعاء

القرض في الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه . والله هو الغنى الحميد : شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء . وقوله (حسنا) أى طيبة به نفسه من دون من ولا أذى . وقوله (فيضاعفه) قرأ عاصم وغيره بالالف ونصب الفاء . وقرأ نافع وأبو عمرو وحمة والكسائي بإثبات الألف ورفع الفاء ، وقرأ ابن عامر ويعقوب « فيضعفه » بإسقاط الألف مع تشديد العين ونصب الفاء . وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بالتشديد ورفع الفاء . فمن نصب فعلى أنه جواب الاستفهام ، ومن رفع فعلى تقدير مبتدأ : أى هو يضاعفه . وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف على أقوال . وقيل لا يعلمه إلا الله وحده . وقوله (والله يقبض ويبسط) هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط ، والقبض : التقير ، والبسط : التوسيع ، وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبدل بالقبض ، ولهذا قال (وإليه ترجعون) أى هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه ، وإذا أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن إليكم ، وإن بخلتم عاقبكم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس في قوله (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) قال كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا : نأتى أرضا ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فماتوا ، فر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه : أن القرية التي خرجوا منها داوردان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم هذه القصة مطولة عن أبي مالك وفيها أنهم بضعة وثلاثون ألفا . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز : أن ديارهم هي أذرعات . وأخرج أيضا عن أبي صالح قال : كانوا تسعة آلاف . وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على أنحاء ، ولا يأتى الاستكثار من طرقها بفائدة . وقد ورد في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن الفرار من الطاعون ، وعن دخول الأرض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال : « لما نزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله إن الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربى حائطي ، وله فيه ستمائة نخلة » . وقد أخرج هذه القصة عبد الرزاق وابن جرير من طريق زيد بن أسلم زاد الطبراني عن أبيه عن عمر بن الخطاب وابن مردويه عن أبي هريرة وابن إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (أضعافا كثيرة) قال : هذا التضعيف لا يعلم أحد ما هو . وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي قال : بلغني عن أبي هريرة حديث أنه قال « إن الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة » فحججت ذلك العام ولم أكن أريد أن أحج إلا لألقاه في هذا الحديث ، فلقيت أبا هريرة فقلت له ، فقال : ليس هذا ، قلت : ولم يحفظ هذا الحديث الذي حدثك إنما ، قلت « إن الله يعطي العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة » ثم قال أبو هريرة : أوليس تجدون هذا في كتاب الله ؟ (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فالكثيرة عند الله أكثر من ألفي ألف وألفي ألف ، والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : « لما نزلت - مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل - إلى آخره ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وآله وسلم : رب زد أمتي فنزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قال : رب زد أمتي

فزلت - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - . وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال « لما نزلت - من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها - قال : رب زد أمتي ، فزلت (من ذا الذي يقرض الله) قال : رب زد أمتي ، فزلت - مثل الذين ينفقون أموالهم - قال : رب زد أمتي ، فزلت - إنما يوفى الصابرون - » وفي الباب أحاديث هذه أحسنها وستأتي عند تفسير قوله تعالى - كمثل حبة أنبتت سبع سنابل - فأبجها . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (والله يقبض ويبسط) قال : يقبض الصدقة ، ويبسط : قال يخلف (وإليه ترجعون) قال : من التراب وإلى التراب تعودون . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : : علم الله أن فيمن يقاتل في سبيل الله من لا يجد قوة وفيمن لا يقاتل في سبيل الله من يجد غنى ، فندب هؤلاء إلى القرض فقال (من ذا الذي يقرض الله) قال : يبسط عليك وأنت تقبل عن الخروج لا تريده ، ويقبض عن هذا وهو يطيب نفسا بالخروج ويخف له ، فقوة مما يبدك يكن لك الحظ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آتِئْتُمْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيرِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا بِاللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ

الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٠١) تِلْكَ آيَةُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٠٢) .

قوله (ألم تر إلى الملائكة) الكلام فيه كاللحلام في قوله - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم - وقد قدمناه ، والملائكة الأشراف من الناس كأنهم ملئوا شرفاً . وقال الزجاج : سمو بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه منهم ، وهو اسم جمع كالقوم والرهط . ذكر الله سبحانه في التحريض على القتال قصة أخرى جرت في بني إسرائيل بعد القصة المتقدمة وقوله (من بعد موسى) من ابتدائية وعاملها مقدر : أي كائنين من بعد موسى : أي بعد وفاته . وقوله (لنبي لهم) قيل هو شمويل بن يار بن علقمة ويعرف بابن العجوز ، ويقال فيه شمعون ، وهو من ولد يعقوب ؛ وقيل من نسل هارون ؛ وقيل هو يوشع بن نون ، وهذا ضعيف جداً لأن يوشع هو فتي موسى ، ولم يوجد داود إلا بعد ذلك بدهر طويل ؛ وقيل اسمه إسماعيل . وقوله (ابعث لنا ملكاً) أي أميراً نرجع إليه ونعمل على رأيه . وقوله (نقاتل) يالنون والجزم على جواب الأمر ، وبه قرأ الجمهور . وقرأ الضمحاك وابن أبي عبيدة بالياء ورفع الفعل على أنه صفة للملك . وقرأ بالنون ورفع على أنه حال أو كلام مستأنف . وقوله (هل عسيتم) بالفتح للسين وبالكسر لغتان ، وبالثانية قرأ نافع ، وبالأولى قرأ الباقون . قال في الكشاف : وقراءة الكسر ضعيفة . وقال أبو حاتم : ليس للكسر وجه انتهى . وقال أبو علي : وجه الكسر قول العرب : هو عس بذلك ، مثل حر وشج ، وقد جاء فعل وفعل في نحو نقم ونقم ، فكذلك عسيت وعسيت ، وكذا قال مكى . وقد قرأ بالكسر أيضاً الحسن وطلحة فلا وجه لتضعيف ذلك ، وهو من أفعال المقاربة : أي هل قاربتم أن لا تقاتلوا ، وإدخال حرف الاستفهام على فعل المقاربة لتقرير ما هو متوقع عنده والإشعار بأنه كائن ، وفصل بين عسى وخبرها بالشرط للدلالة على الاعتناء به . قال الزجاج : أن لا تقاتلوا في موضع نصب : أي هل عسيتم مقاتلة . قال الأخفش : «أن» في قوله (ومالنا ألا نقاتل) زائدة . وقال الفراء : هو محمول على المعنى : أي وما منعنا كما تقول مالك ألا تصلي ؛ وقيل المعنى : وأي شيء لنا في أن لا نقاتل . قال النحاس : وهذا أجودها . وقوله (وقد أخرجنا) تعليل والجملة حالية ، وإفراد الأولاد بالذكر لأنهم الذين وقع عليهم السبي ، أو لأنهم بمكان فوق مكان سائر القرابة (فلما كتب) أي فرض ، أخبر سبحانه أنهم تولوا لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم . واختلف في عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه ، وهم الذين اكتفوا بالغرفة . وقوله (وقال لهم نبيهم) شروع في تفصيل ماجرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال . وطالوت : اسم أعجمي ، وكان سقاء ؛ وقيل دباغا ؛ وقيل مكاريبا ، ولم يكن من سبط النبوة وهم بنو لاوى ، ولا من سبط الملك وهم بنو يهوذا ، فلذلك (قالوا أنى يكون له الملك علينا) أي كيف ذلك ، ولم يكن من بيت الملك ، ولا هو ممن أوتي سعة من المال حتى نتبعه لشرفه أو لماله ، وهذه الجملة أعني قوله (ونحن أحق) حالية وكذلك الجملة المعطوفة عليها . وقوله (اصطفاه عليكم) أي اختاره واختار الله هو الحجة القاطعة . ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء : بأن الله زاده بسطة في العلم ، الذي هو ملاك الإنسان ورأس الفضائل وأعظم وجوه الترجيح ، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر في الحروب ونحوها . فكان قويا في دينه وبدنه ، وذلك هو المعبر ، لأشرف النسب . فإن فضائل النفس مقدمة عليه (والله يوئى ملكه من يشاء) فالملك ملكه ، والعبيد عبيده ، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم ولا أمره إليكم . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله (والله يوئى ملكه من)

(يشاء) من قول نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل هو من قول نبهم وهو الظاهر . وقوله (واسع) أى واسع الفضل ، يوسع على من يشاء من عباده (عليم) بمن يستحق الملك ويصلح له . والتابوت فعلوت من التوب وهو الرجوع لأنهم يرجعون إليه : أى علامة ملكه إتيان التابوت الذى أخذ منهم : أى رجوعه إليكم وهو صندوق التوراة . والسكينة فعيلة مأخوذة من السكون والوقار والطمأنينة : أى فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت . قال ابن عطية : الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتتقوى . وقد اختلف في السكينة على أقوال سيأتى بيان بعضها ، وكذلك اختلف في البقية ؛ فقيل : هى عصا موسى ورضاض الألواح ؛ وقيل غير ذلك . قيل والمراد بآل موسى وهارون هما أنفسهما : أى مما ترك هارون وموسى ، ولفظ آل مقحمة لتفخيم شأنهما ؛ وقيل المراد الأنبياء من بنى يعقوب لأنهما من ذرية يعقوب ، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما . وفصل معناه : خرج بهم ، فصات الشيء فانفصل أى قطعت فانقطع ، وأصله متعد ، يقال فصل نفسه ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل ؛ وقيل إن فصل يستعمل لازما ومتعديا ، يقال : فصل عن البلد فصولا ، وفصل نفسه فصلا . والابتلاء : الاختبار . والنهر : قيل هو بين الأردن وفلسطين ، وقرأه الجمهور بنهر بفتح الهاء . وقرأ أحمد ومجاهد والأعرج بسكون الهاء . والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم ، فن أطاع في ذلك الماء أطاع فيما عداه ، ومن عصى في هذا وغلبته نفسه فهو بالعصيان في سائر الشدائد أخرى ، ورخص لهم في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال ، وفيه أن الغرفة تكف سورة العطش عند الصابرين على شطف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية . فالمراد بقوله (فن شرب منه) أى كرع ولم يقتصر على الغرفة ، «ومن» ابتدائية . ومعنى قوله (فليس منى) أى ليس من أصحابى من قولهم : فلان منى فلان كأنه بعضه لا اختلاطهما وطول صحبتها ، وهذا مهيج في كلام العرب معروف ، ومنه قول الشاعر :

إذا حاولت فى أسد فجورا فإنى لست منك ولست منى

وقوله (ومن لم يطعمه) يقال طعمت الشيء : أى ذقته ، وأطعمته الماء : أى أذقته ، وفيه دليل على أن الماء يقال له طعام ، والاغتراف : الأخذ من الشيء باليد أو بآلة ، والغرف مثل الاغتراف ، والغرفة المرة الواحدة . وقد قرئ بفتح الغين وضمها ، فالفتح للمرة ، والضم اسم للشيء المغترف ؛ وقيل بالفتح الغرفة بالكف الواحدة ، وبالضم الغرفة بالكفين ؛ وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، ومنه قول الشاعر :

لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح

قوله (إلا قليلا) سيأتى بيان عددهم ، وقرئ «إلا قليل» ولا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى : أى لم يعطه إلا قليل ، وهو تعسف . قوله (فلما جاوزه) أى جاوز النهر طالوت (والذين آمنوا معه) وهم القليل الذين أطاعوه ، ولكنهم اختلفوا في قوة اليقين ، فبعضهم قال (لا طاقة لنا) و (قال الذين يظنون) أى يتيقنون (أنهم ملاقوا الله) والفئة : الجماعة ، والقطعة منهم من فأوت رأسه بالسيف : أى قطعت . وقوله (برزوا) أى صاروا في البراز وهو المتسع من الأرض . وجالوت أمير العمالقة . قالوا : أى جميع من معه من المؤمنين ، والإفراغ يفيد معنى الكثرة . وقوله (وثبت أقدامنا) هذا عبارة عن القوة وعدم الفشل ، يقال : ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له ولم يزل عنه ، وثبت قدمه في الحرب إذا كان الغلب له والبصر معه .

قوله (وانصرنا على القوم الكافرين) هم جالوت وجنوده. ووضع الظاهر موضع المضمهر إظهارا لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم وهي كفرهم ، وذكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام ، لكون الثاني هو غاية الأول . قوله (فهزموهم بإذن الله) الهزم : الكسر : ومنه سقاء منهزم : أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف ؛ ومنه ما قيل فى زمزم إنها هزمة جبريل : أى هزمها برجله فخرج الماء ، والهزم : ما يكسر من يابس الخطب ؛ وتقدير الكلام فأنزل الله عليهم النصر (فهزموهم بإذن الله) أى بأمره وإرادته . قوله (وقتل داود جالوت) هو داود بن إيشا بكسر الهمزة ثم تحتية ساكنة بعدها معجمة ؛ ويقال داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة والملك بعد أن كان راعيا ، وكان أصغر إخوته ، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت فقتله . والمراد بالحكمة هنا النبوة ؛ وقيل هى تعليمه صنعة الدروع ومنطق الطير ؛ وقيل هى إعطاؤه السلسلة التى كانوا يتحاضرون إليها . قوله (وعلمه مما يشاء) قيل إن المضارع هنا موضوع موضع الماضى ، وفاعل هذا الفعل هو الله تعالى ؛ وقيل داود وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته وتعلقت به إرادته ؛ وقد قيل إن من ذلك ما قدمنا من تعليمه صنعة الدروع وما بعده . قوله (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض) قرأه الجماعة « ولولا دفع الله » وقرأ نافع « دفاع » وهما مصدران لدفع ، كذا قال سيويه . وقال أبو حاتم : دفع ودفع واحد مثل : طرقت نعلى وطارقت . واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور وأنكر قراءة دفاع ، قال : لأن الله عز وجل لا يغال به أحد قال مكى : يوهم أبو عبيدة أن هذا من باب المفاعلة وليس به ، وعلى القراءتين فالمصدر مضاف إلى الفاعل : أى (ولولا دفع الله الناس) وبعضهم بدل من الناس وهم الذين يباشرون أسباب الشر والفساد ببعض آخر منهم ، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويردونهم عنه (لفسدت الأرض) لتغلب أهل الفساد عليها وإحداثهم للشرور التى تهلك الحرث والنسل وتنكسر فضل للتعظيم . وآيات الله : هى ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة . والمراد (بالحق) هنا الخبر الصحيح الذى لا ريب فيه عند أهل الكتاب والمطلعين على أخبار العالم . وقوله (إنك لمن المرسلين) إخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه وتثبيتا لحنانه وتشيدا لأمره .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل) قال هذا حين رفعت النبوة واستخرج أهل الإيمان ، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم وأبنائهم (فلما كتب عليهم القتال) وذلك حين أتاهم التابوت ، قال : وكان من إسرائيل سبطان : سبط نبوة ، وسبط خلافة ، فلا تكون الخلافة إلا فى سبط الخلافة ، ولا تكون النبوة إلا فى سبط النبوة ؛ (فقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه) وليس من أحد السبطين لا من سبط النبوة ولا من سبط الخلافة (قال إن الله اصطفاه عليكم) فأبوا أن يسلموا له الرياسة حتى قال لهم : (إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية) وكان موسى حين أتى الألواح تكسرت ورفع منها وجمع ما بقى فجعله فى التابوت ، وكانت العمالقة قد سبت ذلك التابوت ، والعمالقة فرقة من عاد كانوا بأريحاء ، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت ؛ فلما رأوا ذلك قالوا نعم فسلموا له وملكوه ، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالا قدموا التابوت بين أيديهم ويقولون : إن آدم نزل بذلك التابوت وبالركن وبعضى موسى من الجنة . وبلغنى أن التابوت وعصى موسى فى بحيرة طبرية ، وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة . وقد ورد هذا المعنى مختصرا ومطولا عن جماعة من السلف فلا يأتى التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتد بها . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس (وزاده بسطة) يقول : فضيلة (فى العلم والجسم)

يقول : كان عظيمًا جسيما يفضل بني إسرائيل بعنقه . وأخرج أيضا عن وهب بن منبه (وزاده بسطة في العلم) قال : العلم بالحرب . وأخرج ابن المنذر عنه : أنه سئل أنبيا كان طالوت ؟ قال : لا ، لم يأت به وحى وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه : أنه سئل عن تابوت موسى ماسعته ؟ قال : نحو من ثلاثة أذرع في ذراعين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : السكينة الرحمة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : السكينة الطمأنينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : السكينة دابة قدر الهرة لها عينان لها شعاع ، وكان إذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت إليهم فيهزم الجيش من الرعب . وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن علي قال : السكينة ربيع نخجوج ولها رأسان . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن علي قال : السكينة لها وجه كوجه الإنسان ، ثم هي بعد ربيع هفاقة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال : السكينة من الله كهيفة الريح ، لها وجه كوجه الهرة وجناحان وذنب مثل ذنب الهرة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال (فيه سكينة من ربكم) قال : طست من ذهب من الجنة كان يغسل بها قلوب الأنبياء ألقى الألواح فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه قال : هي روح من الله لا تتكلم ، إذا اختلفوا في شيء تكلم فأخبرهم ببيان ما يريدون . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : هي شيء تسكن إليه قلوبهم . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال فيه سكينة ، أي وقار .

وأقول : هذه التفسيرات المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقماهم الله ، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم والتشكيك عليهم ، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيوانا وتارة جمادا وتارة شيئا لا يعقل ، كقول مجاهد : كهيفة الريح لها وجه كوجه الهرة ، وجناحان وذنب مثل ذنب الهرة . وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب ، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفسيرات المتناقضة مرويا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا رأيا رآه قائله ، فهم أجل قدرا من التفسير بالرأى وبما لا مجال للاجتهاد فيه . إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة وهو معروف ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة ، فقد جعل الله عنها سعة ولو ثبت لنا في السكينة تفسير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لوجب علينا المصير إليه والقول به ، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها نزلت عن بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما في صحيح مسلم عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط ، فتغشته سمحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها : فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة نزلت للقرآن . وليس في هذا إلا أن هذه التي سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سكينة سمحابة دارت على ذلك القارئ فآله أعلم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وبقيّة مما ترك آل موسى) قال : عصاه ورضاض الألواح . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : كان في التابوت عصي موسى وعصى هارون ، وثياب موسى وثياب هارون ، ولوحان من التوراة والمن ، وكلمة الفرج « لا إله إلا الله الحليم الكريم وسبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله (تحمله الملائكة) قال : أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعت في بيت طالوت فأصبح في داره . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (إن في ذلك لآية) قال : علامة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (إن الله مبتليكم بنهر) يقول :

بالعطش ، فلما انتهى إلى النهر وهو نهر الأردن كرع فيه عامة الناس فشربوا منه ، فلم يزد من شرب منه إلا عطشا ، وأجزأ من اغترف غرفة بيده وانقطع الظمأ عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير (فشربوا منه إلا قليلا منهم) قال : القليل ثلثائة وبضعة عشر عدة أهل بدر . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن البراء قال : كنا أصحاب محمد نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلثائة . وقد أخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه يوم بدر « أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت » . وأخرج ابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا ثلثائة ألف وثلثائة آلاف وثلثائة وثلاثة عشر ، فشربوا منه كلهم إلا ثلثائة وثلثائة عشر رجلا عدة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ، فردّهم طالوت ومضى ثلثائة وثلثائة عشر . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (الذين يظنون) قال : الذين يستيقنون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان طالوت أميرا على الجيش ، فبعث أبو داود مع داود بشيء إلى إخوته ، فقال داود لطالوت : ماذا لي ، وأقبل جالوت فقال : لك ثلث ملكي وأنكحك ابنتي ، فأخذ مخلاة فجعل فيها ثلاث مروات ، ثم سقى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم أدخل يده فقال : بسم الله إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فخرج على إبراهيم فجعله في مرحمته ، فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة وثلثين بيضة عن رأسه وقتلت ما وراءه ثلاثين ألفا . وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس والله أعلم . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) قال : يدفع الله بمن يصلي عن لا يصلي ، وبمن يحج عن لا يحج ، وبمن يزكي عن لا يزكي . وأخرج ابن عدى وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر (ولولا دفع الله الناس) الآية وفي إسناده يحيى بن سعيد العطار الحمصي وهو ضعيف جدا .

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) .

قوله (تلك الرسل) قيل هو إشارة إلى جميع الرسل فتكون الألف واللام للاستغراق - وقيل هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة ؛ وقيل إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر ، فكان الأكثر مزايا فاضلا والآخر مفضولا . وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الأخرى وهي قوله تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً - . وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ « لا تفضلوني على الأنبياء »

وفي لفظ آخر « لا تفضلوا بين الأنبياء » وفي لفظ « لا تخيروا بين الأنبياء » فقال قوم : إن هذا القول منه صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل أن يوحى إليه بالفضل ، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل ؛ وقيل إنه قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك على سبيل التواضع كما قال « لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى » تواضعا مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله « أنا سيد ولد آدم » ؛ وقيل إنما نهى عن ذلك قطعا للجدال والخصام في الأنبياء ، فيكون مخصوصا بمثل ذلك لا إذا كان صدور ذلك مأمونا ؛ وقيل إن النهي إنما هو من جهة النبوة فقط ، لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، ولا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات ؛ وقيل إن المراد النهي عن التفضيل لمجرد الأهواء والعصبية . وفي جميع هذه الأقوال ضعف . وعندى أنه لا تعارض بين القرآن والسنة ، فإن القرآن دلّ على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض ، وذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض ، فإن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عاينها منها خافية وليست بمعلومة عند البشر ، فقد يجهل اتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلا عن مزايا غيره ، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلا وهذا مفضولا ، لا قبل العلم ببعضها أو بأقلها ، فإن ذلك تفضيل بالجهل وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له وهو ممنوع منه ، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن في الإخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء ، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك ؟ وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه ، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض ، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه ، فمن تعرض للجمع بينهما زاعما أنهما متعارضان فقد غلط غلطا بينا . قوله (منهم من كلم الله) وهو موسى ونبينا سلام الله عليهما . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في آدم « إنه نبي مكلم » . وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر . قوله (ورفع بعضهم درجات) هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء ويحتمل أن يراد به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله ، ويحتمل أن يراد به إدريس لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكانا عليا ؛ وقيل إنهم أولوا العزم ؛ وقيل إبراهيم ، ولا يخف أنك أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع ، فلا يجوز لنا التعرض للبيان له إلا ببرهان من الله سبحانه أو من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ولم يرد ما يرشد إلى ذلك ، فالتعرض لبيان هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي ، وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة إلى التفضيل بين الأنبياء وقد نهينا عنه ؛ وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأطالوا في ذلك ، واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات ومزايا الكمال وخصال الفضل ، وهم بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين وارتكبوا نهيين ، وهما تفسير القرآن بالرأي ، والدخول في ذرائع التفضيل بين الأنبياء ، وإن لم يكن ذلك تفضيلا صريحا فهو ذريعة إليه بلا شك ولا شبهة ، لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهى عنه ، وقد أغنى الله نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك بما لا يحتاج معه إلى غيره من الفضائل والفواضل ، فأياك أن تتقرب إليه صلى الله عليه وآله وسلم بالدخول في أبواب نهاك عن دخولها فتعصيه وتسيء وأنت تظن أنك مطيع محسن . قوله (وآتيناه عيسى ابن مريم البينات) أي الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من إحياء الأموات وإبراء المرضى وغير ذلك . قوله (وأيدناه بروح القدس) هو جبريل ، وقد تقدم الكلام على هذا . قوله (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم) أي من بعد الرسل ؛ وقيل من بعد موسى وعيسى ومحمد ، لأن الثاني مذكور صريحا ، والأول

والثالث وقعت الإشارة إليهما بقوله (منهم من كلم الله) أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا ، ففعل المشبهة محذوف على القاعدة (ولكن اختلفوا) استثناء من الجملة الشرطية : أى ولكن الاقتتال ناشئ عن اختلافهم اختلافا عظيما حتى صاروا مللا مختلفة (منهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله) عدم قتالهم بعد هذا الاختلاف (ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) لاراد لحكمه ، ولا مبدل لقضائه ، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى (فضلنا بعضهم على بعض) قال : اتخذ الله إبراهيم خليلا ، وكلم موسى تكليما ، وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وهو عبد الله وكلمته وروحه ، وآتى داود زبورا وآتى سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن مجاهد في قوله (منهم من كلم الله) قال : كلم الله موسى ، وأرسل محمدا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس كافة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي في قوله (ورفع بعضهم درجات) قال : محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم) يقول : من بعد موسى وعيسى . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية إذ أقبل على فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاوية : «أتحب عليا؟» قال : نعم قال : إنها ستكون بينكم فتنة هنية ، قال معاوية فما بعد ذلك يا رسول الله؟ قال : عفو الله ورضوانه ، قال : رضينا بقضاء الله ، فعند ذلك نزلت هذه الآية (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) قال السيوطي : وسنده واه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤).

ظاهر الأمر في قوله (أنفقوا) الوجوب ، وقد حمله جماعة على صدقة الفرض لذلك ، ولما في آخر الآية من الوعيد الشديد ؛ وقيل إن هذه الآية تجمع زكاة الفرض والتطوع . قال ابن عطية : وهذا صحيح ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يرجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله . قال القرطبي : وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرة واجبا ، ومرة ندبا بحسب تعيين الجهاد وعدم تعيينه . قوله (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) أى أنفقوا مادمت قادرين (من قبل أن يأتي) مالا يمكنكم الإنفاق فيه وهو (يوم لا بيع فيه) أى لا يتبايع الناس فيه . والخلة : خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . أخبر سبحانه أنه لا خلة في يوم القيامة نافعة ولا شفاعة مؤثرة إلا لمن أذن الله له . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لا بيع ولا خلة ولا شفاعة ، من غير تنوين : وقرأ الباكون برفعها منونة ، وهما لغتان مشهورتان للعرب ، ووجهان معروفان عند النحاة ، فمن الأول قول حسان :

ألا طعان ألا فرسان عادية ألا بحشوكم حول التناير

ومن الثاني قول الراعي :

وما ضمرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جمل

ويجوز في غير القرآن التغاير برفع البعض ونصب البعض كما هو مقرر في علم الإعراب . قوله (والكافرون

هم الظالمون) فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه ، ومن جملة من يدخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعا يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الأمر بالإنفاق .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) قال : من الزكاة والتطوع . وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال : يقال نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن ، ونسخ شهر رمضان كل صوم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : قد علم الله أن ناسا يتخاللون في الدنيا ويشفع بعضهم لبعض ؛ فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عطاء قال : الحمد لله الذي قال (والكافرون هم الظالمون) ولم يقل والظالمون هم الكافرون .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) .

قوله (لا إله إلا هو) أى لا معبود بحق إلا هو ، وهذه الجملة خبر المبتدأ . والحي : الباقي ؛ وقيل الذى لا يزول ولا يحول ؛ وقيل المصترف للأموال والمقدّر للأشياء . قال الطبرى عن قوم إنه يقال : حى كما وصف نفسه ، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه ، وهو خبر ثان أو مبتدأ خبره محذوف . والقيوم : القائم على كل نفس بما كسبت ؛ وقيل القائم بذاته المقيم لغيره ؛ وقيل القائم بتدبير الخلق وحفظه ؛ وقيل هو الذى لا ينام ؛ وقيل الذى لا بديل له . وأصل قيوم قيوم اجتمعت الباء والواو وسبقتا حداثتهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء . وقرأ ابن مسعود وعلقمة والنخعي والأعمش « الحى القيوم » بالالف ، وروى ذلك عن عمر ، ولا خلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء ، وأثبت علة . والسنة : النعاس في قول الجمهور ، والنعاس : ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين ، فإذا صار في القلب صار نوما . وفرق المفصل بين السنة والنعاس والنوم فقال : السنة من الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب انتهى . والذى ينبغى التعويل عليه في الفرق بين السنة والنوم أن السنة لا يفقد معها العقل ، بخلاف النوم فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل ، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر ؛ والمراد أنه لا يعتريه سبحانه شيء منها ، وقدّم السنة على النوم ، لكونها تتقدمه في الوجود . قال الرازى في تفسيره : إن السنة ما تتقدم النوم ، فإذا كانت عبارة عن مقدّمة النوم ، فإذا قيل لا تأخذه سنة دلّ على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى ، فكان ذكر النوم تكرارا ، قلنا : تقدير الآية لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم ، والله أعلم بمراده انتهى . وأقول : إن هذه الأولوية التى ذكرها غير مسلمة ، فإن النوم قد يرد ابتداء من دون ما ذكر من النعاس . وإذا ورد على القلب والعين دفعة واحدة فإنه يقال له نوم ، ولا يقال له سنة ، فلا يستلزم نفي السنة نفي النوم . وقد ورد عن العرب نفيهما جميعا ، ومنه قول زهير :

ولا سنة طوال الدهر تأخذه ولا ينام وما في أمره فند

فلم يكتف بنفى السنة ، وأيضاً فإن الإنسان يقلدر على أن يدفع عن نفسه السنة ، ولا يقلدر على أن يدفع عن نفسه النوم ، فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السنة ؛ فلو وقع الاقتصار فى النظم القرآنى على نفى السنة لم يفد ذلك نفى النوم ، وهكذا لو وقع الاقتصار على نفى النوم لم يفد نفى السنة ، فكلم من ذى سنة غير نائم ؛ وكرر حرف النفى للتنصيص على شمول النفى لكل واحد منهما . قوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) فى هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقلدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعته أو غيرها والتبريع والتوبيخ له مالا مزيد عليه ، وفيه من الدفع فى صدور عباد القبور والصدف فى وجوههم والفت فى أعضادهم مالا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، والذى يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى - ولا يشفعون إلا لمن ارتضى - وقوله تعالى - وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى - وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن - بدرجات كثيرة . وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة فى دواوين الإسلام صفة الشفاعة ، ولمن هى ، ومن يقوم بها . قوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) الضميران لما فى السموات والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم ، وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر عنهم ، أو عن الدنيا والآخرة وما فيهما . قوله (ولا يحيطون بشئ من علمه) قد تقدم معنى الإحاطة ، والعلم هنا بمعنى المعلوم : أى لا يحيطون بشئ من معلوماته . قوله (وسع كرسيه) الكرسي الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك . وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة ، وأخطئوا فى ذلك خطأ بينا ، وغلطوا غلطا فاحشا . وقال بعض السلف : إن الكرسي هنا عبارة عن العلم . قالوا : ومنه قيل للعلماء الكراسى ، ومنه الكراسة التى يجمع فيها العلم ، ومنه قول الشاعر :

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجح هذا القول ابن جرير الطبرى ؛ وقيل كرسيه : قدرته التى يمسك بها السموات والأرض ، كما يقال اجعل لهذا الحائط كرسياً : أى ما يعنده ؛ وقيل إن الكرسي هو العرش ؛ وقيل هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له ؛ وقيل هو عبارة عن الملك . والحق القول الأول ، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات ؛ والمراد بكونه وسع السموات والأرض أنها صارت فيه وأنه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطاً واسعاً . وقوله (ولا يؤوده حفظهما) معناه لا يثقله ثقاله أدنى الشئ ، بمعنى أثقلنى وتحملت منه مشقة . وقال الزجاج : يجوز أن يكون الضمير فى قوله (يؤوده) لله سبحانه ، ويجوز أن يكون للكرسي لأنه من أمر الله (والعلی) يراد به علو القدرة والمنزلة . وحكى الطبرى عن قوم أنهم قالوا : هو العلى عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . قال ابن عطية : وهذه أقوال جهلة مجسمين ، وكان الواجب أن لا تحكى انتهى . والخلاف فى إثبات الجهة معروف فى السلف والخلف ، والنزاع فيه كائن بينهم ، والأدلة من الكتاب والسنة معروفة ، ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع ولا ينظر فى أدلته ولا يلتفت إليها ، والكتاب والسنة هما المعيار الذى يعرف به الحق من الباطل ، ويتبين به الصحيح من الفاسد - ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض - ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب كما فى قوله - إن فرعون علا فى الأرض - وقال الشاعر :

فلما علونا وأستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

والعظيم بمعنى عظم شأنه وخطره . قال فى الكشف : إن الحملة الأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه . والثانية بيان لكونه مالكا لما يدبره . والحملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه . والحملة الرابعة بيان

لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى : والجملة الخامسة بيان لسعة علمه ونعلقه بالمعلومات كلها ، أو لجلاله وعظم قدره :

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في قوله (الحى) أى حى لا يموت (والقيوم) القائم الذى لا بديل له : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن مجاهد في قوله (القيوم) قال : القائم على كل شىء . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : القيوم الذى لازوال له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس في قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) قال : السنة النعاس ، والنوم هو النوم . وأخرجوا إلا البيهقى عن السدى قال : السنة ريح النوم الذى تأخذه في الوجه فينعس الإنسان . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (يعلم ما بين أيديهم) قال : ماضى من الدنيا (وما خلفهم) من الآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (ما بين أيديهم) ما قدموا من أعمالهم (وما خلفهم) ما أضاعوا من أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (وسع كرسیه) قال : علمه ، ألا ترى إلى قوله (ولا يؤوده حفظهما) . وأخرج الدارقطنى في الصفات والخطيب في تاريخه عنه قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله (وسع كرسیه) قال : كرسیه موضع قدمه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » . وأخرجه الحاكم وصححه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى عن أبي موسى الأشعرى مثله موقوفا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كنّ في سعته : يعنى الكرسى إلا بمنزلة الحلقة في المفازة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقى عن أبي ذر الغفارى : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الكرسي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والذى نفسى بيده ما السموات السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » . وأخرج عبد بن حميد والبخاري وأبو يعلى وابن جرير وأبو الشيخ والطبراني والضياء المقدسى في المختارة عن عمر قال « أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة ، فعظم الرب سبحانه وقال : إن كرسیه وسع السموات والأرض ، وإن له أطيطا كأطيط الرجل الحديد من ثقله » وفي إسناد عبد الله ابن خليفة وليس بالمشهور . وفي سماعه من عمر بن الخطاب ، ومنهم من يرويه عن عمر موقوفا . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا : أنه موضع القدمين . وفي إسناد الحاكم بن ظهير الفزارى الكوفى وهو متروك . وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة وغيرهم في وصف الكرسي آثار لا حاجة في بسطها . وقد روى أبو داود في كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثا في صفته ، وكذلك أورد ابن مردويه عن بريدة وجابر وغيرهما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يؤوده حفظهما) قال : لا يثقل عليه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (ولا يؤوده) قال : ولا يكثره . وأخرج ابن جرير عنه قال : العظيم الذى قد كمل في عظمته .

واعلم أنه قد ورد في فضل هذه الآية أحاديث . فأخرج أحمد ومسلم واللفظ له عن أبي بن كعب « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله أى آية من كتاب الله أعظم ؟ قال : آية الكرسي ، قال : ليهنك العلم أبا المنذر » : وأخرج النسائى وأبو يعلى وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة والطبراني والحاكم وصححه عن أبي بن كعب : أنه كان له جرن فيه تمر ، فكان يتعاهده ، فوجده ينقص ، فحرصه ذات ليلة فإذا هو بداية شبه الغلام المحتلم ، قال :

فسلمت فرد السلام ، فقلت : ما أنت ، جنى أم إنسى ؟ قال : جنى ، قلت : ناولنى يدك ، فناولنى فإذا يده يد كلب وشعره شعر كلب ، فقلت : هكذا خلق الجنى ؟ قال : لقد علمت الجنى أن ما فيهم من هو أشد منى ، قلت : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك ، فقال له أد : فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال : هذه الآية آية الكرسي التى فى سورة البقرة « من قالها حين يمسى أجير منا حتى يصبح ، ومن قالها حين يصبح أجير منا حتى يمسى » - فلما أصبح أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال : صدق الحديث . وأخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى وأبو نعيم فى المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكرى « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم فى صفة المهاجرين ، فسأله إنسان أى آية فى القرآن أعظم ؟ فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) حتى انقضت الآية . وأخرج أحمد من حديث أنس مرفوعا نحوه . وأخرج الخطيب البغدادي فى تاريخه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج الداريمى عن أنفع بن عبد الله الكلاعى نحوه . وأخرج البخارى فى صحيحه من حديث أبي هريرة قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو وذكر قصة ، وفى آخرها أنه قال له : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : ما هى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - فأخبر أبو هريرة بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذلك شيطان كذا . وأخرج نحوه ذلك أحمد عن أبي أيوب . وأخرج الطبرانى والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « أعظم آية فى كتاب الله - الله لا إله إلا هو الحى القيوم » . وأخرج نحوه أحمد والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن أنس مرفوعا . وأخرج نحوه أيضا أحمد والطبرانى من حديث أبي أمامة مرفوعا . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقى فى الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « سورة البقرة فيها آية سيدة أى القرآن لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا أخرج منه ، آية الكرسي » . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعا « لكل شىء سنام ، وسنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة أى القرآن ، آية الكرسي » ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير . وقد تكلم فيه شعبة وضعفه ، وكذا ضعفه أحمد ويحيى بن معين وغير واحد ، وتركه ابن مهدي ، وكذبه السعدى . وأخرج أبو داود والترمذى وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى هاتين الآيتين - الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، والم - الله لا إله إلا هو - إن فيهما اسم الله الأعظم . وقد وردت أحاديث فى فضلها غير هذه ، وورد أيضا فى فضل قراءتها دبر الصلوات وفى غير ذلك ، وورد أيضا فى فضلها مع مشاركة غيرها لها أحاديث ، وورد عن السلف فى ذلك شىء كثير :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠١) اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا
يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧)

قد اختلف أهل العلم في قوله (لا إكراه في الدين) على أقوال : الأول أنها منسوخة لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلهم ولم يرخص منهم إلا بالإسلام ، والناسخ لها قوله تعالى - يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجتلوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين - وقال - ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون - ، وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين . القول الثاني أنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، وإلى هذا ذهب الشعبي والحسن وقتادة والضحاك . القول الثالث أن هذه الآية في الأنصار خاصة ، وسيأتي بيان ما ورد في ذلك . القول الرابع أن معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف إنه مكره فلا إكراه في الدين - القول الخامس أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام . وقال ابن كثير في تفسيره : أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين وضح جلي دلائله وبراهينه لا تحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورا ، وهذا يصلح أن يكون قولا سادسا . وقال في الكشف في تفسيره هذه الآية : أي لم يجبر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ، ولكن على التمكين والاختيار ، ونحوه قوله - ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين - أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ، ولكن لم يفعل ، وبني الأمر على الاختيار ، وهذا يصلح أن يكون قولا سابعاً . والذي ينبغي اعتباره ويتعين الوقوف عنده : أنها في السبب الذي نزلت لأجله محكمة غير منسوخة ، وهو أن المرأة من الأنصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت يهود بنى نضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لاندع أبناءنا فنزلت ، أخرجه أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في السنن والضياء في المختارة عن ابن عباس . وقد وردت هذه القصة من وجوه ، حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الأنصار قالوا إنما جعلناهم على دينهم : أي دين اليهود ، ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا ، وأن الله جاء بالإسلام فلنكرههم ؛ فلما نزلت خير الأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكرههم على الإسلام . وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية . وأما أهل الحرب فالآية وإن كانت تعمهم ، لأن النكرة في سياق النفي وتعريف الدين يفيدان ذلك ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات في إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام . قوله (قد تبين الرشد من الغي) الرشد هنا الإيمان ، والغى الكفر : أي قد تميز أحدهما من الآخر . وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله . والطاغوت فعلوت من طغى يطغى ويطغو : إذا جاوز الحد . قال سيبويه : هو اسم مذكر مفرد : أي اسم جنس يشمل القليل والكثير ؛ وقال أبو علي الفارسي : إنه مصدر كرهوت وجبوت بوصف به الواحد والجمع ، وقلبت لامه إلى موضع العين وعينه إلى موضع اللام كجذب وجذب ، ثم قلب الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها ، فقلبت طاغوت ، واختار هذا القول النحاس ؛ وقيل أصل الطاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق ، كما قيل لآل من اللؤلؤ . وقال المبرد : هو جمع . قال ابن عطية : وذلك مردود . قال الجوهري : والطاغوت : الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال ، وقد يكون واحدا . قال الله تعالى - يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به - وقد

يكون جمعا . قال الله تعالى - أولياؤهم الطاغوت - والجمع الطواغيت : أى فمن يكفر بالشیطان أو الأصنام أو أهل الكهانة ورووس الضلالة أو بالجميع (ويؤمن بالله) عز وجل بعد ما تميز له الرشد من الغي فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق : أى المحكم . والوثق فعلى من الوثاقة وجمعها وثق مثل الفضلى والفضل . وقد اختلف المفسرون فى تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة ؛ فقليل المراد بالعروة الإيمان ، وقيل الإسلام ، وقيل لا إله إلا الله ، ولا مانع من الحمل على الجميع . والانقسام : الانكسار من غير بينونة . قال الجوهري : فصم الشيء كسره من غير أن يبين . وأما القسم بالقاف فهو الكسر مع البينونة ، وفسر صاحب الكشف الانقسام بالانقطاع . قوله (الله ولى الذين آمنوا) الولى فعيل بمعنى فاعل ، وهو الناصر . وقوله (يخرجهم) تفسير للولاية ، أو حال من الضمير فى ولى ، وهذا يدل على أن المراد بقوله « الذين آمنوا » الذين أرادوا الإيمان ، لأن من قد وقع منه الإيمان قد خرج من الظلمات إلى النور إلا أن يراد بالإخراج إخراجهم من الشبه التى تعرض للمؤمنين فلا يحتاج إلى تقدير الإرادة ، والمراد بالنور فى قوله (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) ما جاء به أنبياء الله من الدعوة إلى الدين ، فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم عنه إلى ظلمة الكفر : أى قررهم أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن إجابة الداعى إلى الله من الأنبياء . وقيل المراد بالذين كفروا هنا : الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين ورووس الضلال من النور الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التى وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن سعيد بن جبیر نحو ما تقدم عن ابن عباس من ذكر سبب نزول قوله تعالى (لا إكراه فى الدين) وزاد أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم خير الأبناء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي نحوه أيضا ، وقال : فلحق بهم : أى بنى النضير من لم يسلم وبقى من أسلم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان ناس من الأنصار مسترضعين فى بنى قريظة فثبتوا على دينهم ، فلما جاء الإسلام أراد أهلهم أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (لا إكراه فى الدين) قال : نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلا مسلما ، فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أستكرهما فإنهما قد آبيا إلا النصرانية ؟ فنزلت . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عبيدة نحوه . وكذلك أخرج أبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود فى ناسخه وابن جرير عن قتادة قال : كانت العرب ليس لها دين ، فأكرهوا على الدين بالسيف . قال : ولا تكرهوا اليهود ولا النصراني والمجوس إذا أعطوا الجزية . وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه . وأخرج البخارى عن أسلم : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسامى تسلمى ، فلبت ، فقال : اللهم اشهد ، ثم تلا (لا إكراه فى الدين) وروى عنه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم أنه قال لزبقي الرومى غلامه : لو أسأمت استعنت بك على أمانة المسلمين فأبى ، فقال (لا إكراه فى الدين) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سليمان بن موسى فى قوله (لا إكراه فى الدين) قال نسختها - جاهد الكفار والمنافقين - . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال : الطاغوت الشيطان . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الطاغوت الكاهن وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : الطاغوت الساحر . وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس قال : الطاغوت

ما يعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : العروة الوثقى لا إله إلا الله : وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك : أنها القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : أنها الإيمان . وعن سفيان : أنها كلمة الإخلاص . وقد ثبت في الصحيحين تفسير العروة الوثقى في غير هذه الآية بالاسلام مرفوعا في تعبيره صلى الله عليه وآله وسلم لرؤيا عبد الله بن سلام . وأخرج ابن عساکر عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقتلوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر فانهما جبل الله الممدود ، فن تمسك بهما فقد تمسك بعروة الله الوثقى التى لا انفصام لها » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : إذا وحد الله وآمن بالقدر فهى العروة الوثقى . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاذ أنه مثل عن قوله (لا انفصام لها) قال : لا انقطاع لها دون دخول الجنة . وأخرج ابن المنذر والطبرانى عن ابن عباس في قوله (الله ولى الذين آمنوا) الآية ، قال : هم قوم كانوا كفروا بعبسى فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) الآية ، قال : هم قوم آمنوا بعبسى فلما بعث محمد كفروا به . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الظلمات الكفر . والنور : الإيمان . وأخرج أبو الشيخ عن السدى مثله .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ أَلَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) .

في هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت ، وهمة الاستفهام لإنكار النفى والتقرير المنفى : أى ألم ينته علمك أو نظرك إلى هذا الذى صدرت منه هذه الحاجة . قال القراء : ألم تر بمعنى هل رأيت : أى هل رأيت الذى حاج إبراهيم وهو النمرود بن كوس بن كنعان بن سلم بن نوح ؛ وقيل إنه النمرود بن فالخ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام . وقوله (أن آتاه الله الملك) أى لأن آتاه الله ، أو من أجل أن آتاه الله على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو ، فحاج لذلك ؛ أو على أنه وضع الحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر ، كما يقال : عاديتنى لأننى أحسنت إليك ، أو وقت أن آتاه الله الملك . وقوله (إذ قال إبراهيم) هو ظرف لحاج ؛ وقيل بدل من قوله (أن آتاه الله الملك) على الوجه الأخير وهو بعيد . وقوله (ربى الذى يحيى ويميت) بفتح ياء ربى ، وقرئ بحذفها . قوله (أنا أحيى) قرأ جمهور القراء أنا أحيى بطرح الألف التى بعد النون من أنا فى الوصل وأثبتها نافع وابن أبى أويس كما فى قول الشاعر :

أنا شيخ العشيرة فاعرفونى حميدا قد تدرت السناما

أراد إبراهيم عليه السلام أن الله هو الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء ، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة ، فكان هذا جوابا أحق لا يصح نصبه فى مقابلة حجة إبراهيم ، لأنه أراد غير ما أراده الكافر ، فلو قال له : ربه الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد فهل تقدر على ذلك ؟ لبهت الذى كفر بادئ بدء وفى أول وهلة ، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسا لخناقه ، وإرسالا لعنان المناظرة فقال (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لكون هذه الحجة لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرجه مكابرة ومشغبة . قوله (فبهت الذى كفر) بهت الرجل وبهت وبهت :

إذا انقطع وسكت متعيرا . قال ابن جرير : وحكى عن بعض العرب في هذا المعنى بهت بفتح الباء والهاء . قال ابن جنى : قرأ أبو حيوة فبهت بفتح الباء وضم الهاء ، وهي لغة في بهت بكسر الهاء ؛ قال : وقرأ ابن السميع فبهت بفتح الباء والهاء على معنى فبهت إبراهيم الذي كفر ، فالذى في موضع نصب ؛ قال : وقد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة في بهت . وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة « فبهت » بكسر الهاء ، قال : والأكثر بالفتح في الهاء . قال ابن عطية : وقد تأول قوم في قراءة من قرأ فبهت بفتحهما أنه بمعنى سب وقذف ، وأن النمرود هو الذي سب حين انقطع ولم يكن له حيلة انتهى . وقال سبحانه (فبهت الذي كفر) ولم يقل فبهت الذي حاج ، إشعارا بأن تلك الحاجة كفر . وقوله (والله لا يهدي القوم الظالمين) تذييل مقرر لمضمون الجملة التي قبله .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن الذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود بن كنعان . وأخرجه ابن جرير عن مجاهد وقتادة والربيع والسدي . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن زيد بن أسلم : أن أول جبار كان في الأرض نمرود ، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار مع من يمتار ، فإذا مر به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت ؛ حتى مر به إبراهيم ، فقال : من ربك ؟ قال : الذي يحيي ويميت ، قال : أنا أحيي وأميت ، قال : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، فردّه بغير طعام . فرجع إبراهيم إلى أهله فرّ على كتيب من رمل أصفر فقال : ألا آخذ من هذا فأتي به أهلي ، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم ، فأخذ منه فأتى أهله فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحتة فإذا هي بأجود طعام رآه آخذ ، فصنعت له منه فقرّبه إليه ، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام ، فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذي جئت به ، فعرف أن الله رزقه فحمد الله . ثم بعث الله إلى الجبار ملكا أن آمن وأتركك على ملكك . قال : فهل ربّ غيري ؟ فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : فاجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه بلبا من البعوض وطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها ، فبعثها الله عليهم فأكلت شحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام ، والمملك كما هو لا يصيبه من ذلك شيء ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره ففكت أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه ، وكان جبارا أربعمئة سنة ، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذي كان بنى صرحا إلى السماء فأبى الله بنيانه من القواعد . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية ، قال : هو نمرود بن كنعان يزعمون أنه أول من ملك في الأرض أتى برجلين قتل أحدهما وترك الآخر ، فقال (أنا أحيي وأميت) . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (والله لا يهدي القوم الظالمين) قال : إلى الإيمان .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا
فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ
لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً
لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) .

قوله (أو كالذي) أو للعطف حملا على المعنى ، والتقدير : هل رأيت كالذي حاج أو كالذي مرّ على قرية ، قاله الكسائي والفراء . وقال المبرد : إن المعنى : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ، ألم تر من هو كالذي مرّ على قرية فحذف قوله من هو . وقد اختار جماعة أن الكاف زائدة ، واختار آخرون أنها اسمية . والمشهور أن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب منحصر لها ؛ وقيل المراد بالقرية أهلها . وقوله (خاوية على عروشها) أي ساقطة على عروشها ، أي سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليه ، قاله السدي واختاره ابن جرير ؛ وقيل معناه خالية من الناس والبيوت قائمة ؛ وأصل الخواء الخلو ، يقال خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدود وخويا وخويا : أقفرت ، والخوان أيضا : الجوع لخلو البطن عن الغذاء . والظاهر القول الأول بدلالة قوله (على عروشها) من خوى البيت إذا سقط ، أو من خوت الأرض إذا تهدمت ، وهذه الجملة حالية : أي من حال كونها كذلك . وقوله (أني يحيى هذه الله) أي متى يحيى أو كيف يحيى ، وهو استبعاد لإحيائها وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المبينة لحالة الأحياء ، وتقديم المفعول لكون الاستبعاد ناشئا من جهته لا من جهة الفاعل . فلما قال المارّ هذه المقالة مستبعدا لإحياء القرية المذكورة بالعمارة لها والسكون فيها ضرب الله له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : كان هذا القول شكا في قدرة الله على الإحياء ، فلذلك ضرب له المثل في نفسه . قال ابن عطية : ليس يدخل شك في قدرة الله سبحانه على إحياء قرية يجلب العمارة إليها ، وإنما يتصور الشك إذا كان سؤاله عن إحياء موتاه . وقوله (مائة عام) منصوب على الظرفية . والعام : السنة أصله مصدر كالعوم سمي به هذا القدر من الزمان . وقوله (بعثه) معناه أحياه . قوله (قال كم لبثت) هو استئناف كأن سائلا سأله ماذا قال له بعد بعثه . واختلف في فاعل قال ؛ فقيل هو الله عز وجل ؛ وقيل ناداه بذلك ملك من السماء ؛ قيل هو جبريل ؛ وقيل غيره ؛ وقيل إنه نبي من الأنبياء ؛ قيل رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند أن أماته الله وعمر إلى عند بعثه . والأول أولى لقوله فيما بعد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة إلا عاصما (كم لبثت) بإدغام التاء في التاء لتمازيهما في المخرج . وقرأ غيرهم بالإظهار وهو أحسن لبعث مخرج التاء من مخرج التاء . و«كم» في موضع نصب على الظرفية ، وإنما قال (يوما أو بعض يوم) بناء على ما عنده وفي ظنه فلا يكون كاذبا ، ومثله قول أصحاب الكهف - قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم - ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم في قصة ذي اليمين «لم تقصروا ولم أنس» وهذا مما يؤيد قول من قال : إن الصدق ما طبق الاعتقاد ، والكذب ما خالفه . وقوله (قال بل لبثت مائة عام) هو استئناف أيضا كما سلف : أي ما لبثت يوما أو بعض يوم بل لبثت مائة عام . وقوله (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) أمره سبحانه أن ينظر إلى هذا الأثر العظيم من آثار القدرة ، وهو عدم تغير طعامه وشرابه مع طول تلك المدة . وقرأ ابن مسعود «وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه» وقرأ طلحة بن مصرف «وانظر لطعامك وشرابك لمائة سنة» . وروى عن طلحة أيضا أنه قرأ «لم يسن» بإدغام التاء في السين وحذف الهاء . وقرأ الجمهور بإثبات الهاء في الوصل ، والتسنه مأخوذ من السنة : أي لم تغيره السنون ، وأصلها سنة أو سنة من سنه النخلة وتسنت : إذا أتت عليها السنون ، ونخلة سنا : أي تحمل سنة ولا تحمل أخرى ، وأسنت عند بني فلان : أقمت عندهم ، وأصله يتسنا سقطت الألف للجزم والهاء للسكت وقيل هو من أسن الماء : إذا تغير ، وكان يجب على هذا أن يقال يتأسن من قوله - حمأ مسنون - قاله أبو عمرو الشيباني . وقال الزجاج : ليس كذلك ، لأن قوله - مسنون - ليس معناه متغير ، وإنما معناه مصبوب على سنه الأرض . وقوله (وانظر إلى حمارك) اختلف المفسرون في معناه ؛ فذهب الأكثر إلى أن معناه انظر إليه كيف

تفرقت أجزاؤه ، ونخرت عظامه ثم أحياه الله وعاد كما كان . وقال الضحاك ووهب بن منبه : انظر إلى حمارك قائما في مربطه لم يصبه شيء بعد أن مضت عليه مائة عام ، ويؤيد القول الأول قوله تعالى (وانظر إلى العظام كيف ينشرها) ويؤيد القول الثاني مناسبتة لقوله (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وإنما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه بعد إخباره أنه لبث مائة عام ، مع أن عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح أن يكون دليلا على تلك المدة الطويلة ، بل على ما قاله من لبث يوما أو بعض يوم لزيادة استعظام ذلك الذي أماته الله تلك المدة ، فإنه إذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظن أنه لم يلبث إلا يوما أو بعض يوم زادت الحيرة وقويت عليه الشبهة ، فإذا نظر إلى حماره عظاما نخرة تقرر لديه أن ذلك صنع من تأتي قدرته بما لا تحيط به العقول ، فإن الطعام والشراب سريع التغير . وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير ، والحمار يعيش المدة الطويلة . وقد صار كذلك - فتبارك الله أحسن الخالقين - . قوله (ولنجعلك آية للناس) قال الفراء : إنه أدخل الواو في قوله (ولنجعلك) دلالة على أنها شرط لفعل بعدها ، معناه : ولنجعلك آية للناس ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك . وإن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة . قال الأعمش : موضع كونه آية هو أنه جاء شبابا على حاله يوم مات ، فوجد الأبناء والحفدة شيوخا . قوله « وانظر إلى العظام كيف ينشرها » قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي والباقون بالراء . وروى أبان عن عاصم « ننشرها » بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الشين والراء . وقد أخرج الحاكم وصححه عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قرأ « كيف ننشرها » بالزاي . فعنى القراءة بالزاي نرفعها ، ومنه النشر : وهو المرتفع من الأرض : أي يرفع بعضها إلى بعض . وأما معنى القراءة بالراء المهمة فواضحة من أنشر الله الموتى : أي أحياهم وقوله (ثم نكسوها لحما) أي نسترها به كما نستر الجسد باللباس فاستعار اللباس لذلك ، كما استعاره النابغة للإسلام فقال : الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قوله (فلما تبين له) أي ما تقدم ذكره من الآيات التي أراه الله سبحانه وأمره بالنظر إليها والتفكر فيها (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) لا يستعصى عليه شيء من الأشياء . قال ابن جرير : المعنى في قوله (فلما تبين له) أي لما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا في قدرة الله عنده قبل عيانه (قال أعلم) وقال أبو علي الفارسي معناه : أعلم أن هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته . وقرأ حمزة والكسائي (قال أعلم) على لفظ الأمر خطابا لنفسه على طريق التجريد .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن علي في قوله « (أو كالذي مر على قرية) قال : خرج عزيز نبي الله من مدينته وهو شاب ، فرآه على قرية خربة وهي خاوية على عروشها ، فقال (أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه) فأول ما خلق الله عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض ، ثم كسيت لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فقبل له (كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام) فأتى مدينته . وقد ترك جارا له إسكافا شابا فجاء وهو شيخ كبير . وقد ورد عن جماعة من السلف أن الذي أماته الله عزيز ، منهم ابن عباس عند ابن جرير وابن عساكر ، ومنهم عبد الله بن سلام عند الخطيب وابن عساكر ، ومنهم عكرمة وقتادة وسليمان وبريدة والضحاك والسدي عند ابن جرير ، ورود عن جماعة آخرين أن الذي أماته الله هو نبي اسمه أرميا ، فمنهم عبد الله بن عبيد بن عمير عند عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، ومنهم وهب ابن منبه عند عبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ . وأخرج ابن إسحاق عنه أيضا أنه الخضر . وأخرج ابن أبي حاتم عن رجل من أهل الشام أنه حز قيل . وروى ابن كثير عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل . والمشهور القول الأول

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (خاوية) قال : خراب . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال (خاوية) ليس فيها أحد . وأخرج أيضا عن الضحاك قال (على عروشها) سقوفها . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : ساقطة على سقوفها . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال (لبثت يوما) ثم التفت فرأى الشمس فقال (أو بعض يوم) . وأخرج عنه أيضا قال : كان طعامه الذي معه سلة من تين ، وشرابه زق من عصير . وأخرج أيضا عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لم يتسنه) قال : لم يتغير . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير قال (لم يتسنه) لم يثن . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (ولنجعلك آية للناس) مثل ماتقدم عن الأعمش ، وكذلك أخرج مثله أيضا عن عكرمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (كيف ننشزها) قال : نخرجها . وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال : نحياها .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ ؟ قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قوله (وإذ) ظرف منصوب بفعل محذوف : أى اذكر وقت قول إبراهيم ، وإنما كان الأمر بالذكر موجهًا إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة ، لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى ، وهكذا يقال في سائر المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف . وقوله (رب) أثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء . وقوله (أرني) قال الأخفش : لم يرد رؤية القاب ، وإنما أراد رؤية العين وكذا قال غيره ، ولا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا ، لأن مقصود إبراهيم أن يشاهد الإحياء لتحصل له الطمأنينة والهمزة الداخلة على الفعل لقصد تعديته إلى المفعول الثاني وهو الجملة : أعنى قواه (كيف تحي الموتى) وكيف في محل نصب على التشبيه بالظرف أو بالحال والعامل فيها الفعل الذى بعدها . وقوله (أو لم تؤمن) عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء حتى تسألنى إراءته (قال بلى) علمت وآمنت بأنك قادر على ذلك ، ولكن سألت ليطمئن قلبي باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان . وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكا في إحياء الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ليس الخبر كالمعاينة » . وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك في قدرة الله . واستدلوا بما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيحين وغيرهما من قوله « نحن أحق بالشك من إبراهيم » وبما روى عن ابن عباس أنه قال « ما فى القرآن عندي آية أرجى منها » . أخرجه عنه عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، ورجع هذا ابن جرير بعد حكايته له . قال ابن عطية : وهو عندي مردود ، يعنى قول هذه الطائفة ، ثم قال : وأما قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فعناه : أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك ، فإبراهيم أحرى أن لا يشك . فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم . وأما قول ابن عباس : هى أرجى آية ، فمن حيث أن فيها الإدلال على الله وسؤال الإحياء في الدنيا ، وليست مظنة ذلك . ويجوز أن نقول هى أرجى آية لقوله (أو لم تؤمن) أى أن الإيمان كاف لا يحتاج

معه إلى تنقيح وبحث ، قال : فالشك يبعد على من ثبت قدمه في الإيمان فقط ، فكيف بمرتبة النبوة والخلقة ؟ والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعا ، وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الألفاظ للآية لم تعط شكاً ، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول نحو قولك : كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا ، ومتى قلت : كيف ثوبك ؟ وكيف زيد ؟ فلإنما السؤال عن حال من أحواله . وقد تكون كيف خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ؟ وهي في هذه الآية استفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر ، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح ، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح ، مثال ذلك أن يقول مدع : أنا أرفع هذا الجبل ، فيقول المكذب له : أرني كيف ترفعه . فهذه طريقة مجاز في العبارة ومعناها تسليم جدل ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه . فلما كان في عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له (أو لم تؤمن قال بلى) فأكمل الأمر وتخلص من كل شيء ، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة . قال القرطبي : هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث . وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه وأوليائه ليس للشيطان عليهم سبيل : فقال - إن عبادي ليس لك عليهم سلطان - . وقال اللعين - إلا عبادك منهم المخلصين - وإذا لم يكن له عليهم سلطة فكيف يشككهم ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، واتصال الأعصاب والجوارد بعد تمزيقها فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فقوله (أرني كيف) طلب مشاهدة الكيفية . قال الماوردي : وليست الألف في قوله (أو لم تؤمن) ألف الاستفهام ، وإنما هي ألف إيجاب وتقرير كما قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

والواو واو الحال ، وه تؤمن ، : معناه إيماناً مطلقاً دخل فيه فضل إحياء الموتى ، والطمأنينة : اعتدال وسكون . وقال ابن جرير : معنى (ليطمئن قلبي) ليوقن . قوله (فخذ أربعة من الطير) الفاء جواب شرط محذوف : أي إن أردت ذلك فخذ ، والطير : اسم جمع لطائر كركب لراكب ، أوجع أو مصدر ، وخص الطير بذلك ؛ قيل لأنه أقرب أنواع الحيوان إلى الإنسان ؛ وقيل إن الطير همته الطيران في السماء ، والخليل كانت همته العلو ؛ وقيل غير ذلك من الأسباب الموجبة لتخصيص الطير . وكل هذه لا تثنى ولا تغنى من جوع وليست إلا خواطر أفهام وبواد أذهان لا ينبغي أن تجعل وجوها لكلام الله ، وعلا لما يرد في كلامه ، وهكذا قيل ماوجه تخصيص هذا العدد فإن الطمأنينة تحصل بإحياء واحد ؟ فقيل إن الخليل إنما سأل واحداً على عدد العبودية ، فأعطى أربعاً على قدر الربوبية ؛ وقيل إن الطيور الأربعة إشارة إلى الأركان الأربعة التي منها تتركب أركان الحيوان ونحو ذلك من الهذيان . قوله (فصرهن إليك) قرئ بضم الصاد وكسرها : أي اضممهن إليك وأملهن واجمعهن ؛ يقال رجل أصور : إذا كان مائل العنق ؛ ويقال صار الشيء يصوره : أماله . قال الشاعر :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم القراق إلى جيراننا صصور

وقيل معناه قطعهن ، يقال صار الشيء يصوره : أي قطعه ، ومنه قول توبة بن الحمير :

فأدنت لي الأسباب حتى بلغها بنهضي وقد كان اجتماعي بصورها

أي بقطعها ، وعلى هذا يكون قوله (إليك) متعلقاً بقوله (خذ) . وقوله (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً)

فيه الأمر بالتجزئة ، لأن جعل كل جزء على جبل تستلزم تقديماً بالتجزئة . قال الزجاج : المعنى ثم اجعل على كل جبل من كل واحد منهم جزءاً ، والجزء النصيب . وقوله (يأتينك) في محل جزم على أنه جواب الأمر ، ولكنه بني لأجل نون الجمع المؤنث . وقوله (سعيًا) المراد به الإسراع في الطيران أو المشي .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : إن إبراهيم مرّ برجل ميت زعموا أنه حبشي على ساحل البحر ، فرأى دواب البحر تخرج فتأكل منه ، وسباع الأرض تأتبه فتأكل منه ، والطير يقع عليه فيأكل منه ، فقال إبراهيم عند ذلك : ربّ ، هذه دواب البحر تأكل من هذا ، وسباع الأرض والطير ، ثم تمت هذه فتبلى ثم تحيى ، فأرني كيف يحيى الموتى (قال أولم تؤمن) يا إبراهيم أني أحيى الموتى ؟ (قال بلى) يا ربّ (ولكن ليطمئن قلبي) يقول : لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أجبتني فقال الله : خذ أربعة من الطير واصنع ماصنع ، والطير الذي أخذ : وز ، ورأل ، وديك ، وطاوس ، وأحد نصفين مختلفين : ثم أتى أربعة أجبل ، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين وهو قوله (ثم اجعل على كل جبل منهم جزءاً) ثم تنحى ورعوسها تحت قدميه فدعا باسم الله الأعظم ، فرجع كل نصف إلى نصفه ، وكل ريش إلى طائره ، ثم أقبلت تطير بغير رعوس إلى قدميه تريد رعوسها بأعناقها ، فرفع قدميه فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه فعادت كما كانت . وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج أيضاً عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (ولكن ليطمئن قلبي) يقول : أعلم أنك تحيى إذا دعوتك ، وتعطيني إذا سألتك . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فخذ أربعة من الطير) قال : الغرنوق ، والطاوس ، والديك ، والحمامة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ، قال الأربعة من الطير : الديك ، والطاوس . والغراب ، والحمام . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقي عن ابن عباس (فصرهن) قال : قطعهن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال هي بالنبطية : شققهن . وأخرج عنه أنه قال (فصرهن) أو ثققهن . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : وضعهن على سبعة أجبل ، وأخذ الرعوس بيده فجعل ينظر إلى القطرة تلي القطرة والريشة تلي الريشة حتى صرن أحياء ليس هن رعوس ، فجئن إلى رعوسهن فدخلن فيها .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عَلِيمٌ (٢١١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢١٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢١٤)

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥).

قوله (كمثل حبة) لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله (مثل الذين ينفقون) لاختلافهما فلا بد من تقدير محذوف إما في الأول : أى مثل نفقة الذين ينفقون ، أوفى الثانى : أى كمثل زارع حبة ، والمراد بالسابع السنابل هى التى تخرج فى ساق واحد يتشعب منه سبع شعب فى كل شعبة سنبله ، والحبة اسم لكل ما يزدريه ابن آدم ، ومنه قول المتلمس :

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله فى القرية السوس

قيل المراد بالسنابل هنا سنابل الدخن ، فهو الذى يكون فى السنبله منه هذا العدد . وقال القرطبي : إن سنبل الدخن يحسب فى السنبله منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدنا . قال ابن عطية : وقد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة ، وأما فى سائر الحبوب فأكثر ، ولكن المثال وقع بهذا القدر . وقال الطبرى : إن قوله (فى كل سنبله مائة حبة) معناه إن وجد ذلك وإلا فعلى أن يفرضه . قوله (والله يضاعف لمن يشاء) يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد ، فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء وهذا هو الأرجح لما سيأتى . وقد ورد القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها ، واقتضت هذه الآية بأن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف فيبنى العام على الخاص ، وهذا بناء على أن سبيل الله هو الجهاد فقط ، وأما إذا كان المراد به وجوه الخير فيخص هذا التضعيف إلى سبعمائة بثواب النفقات وتكون العشرة الأمثال فيما عدا ذلك . قوله (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الإنفاق الذى تقدم ، أى هو إنفاق الذين ينفقون ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى . والمن هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتفريع بها ، وقيل المن : التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه ، والمن من الكبائر كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره أنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكهم ولم يعذب عذاب عظيم : والأذى : السب والتناول والتشكى . قال فى الكشف : ومعنى « ثم » إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى ، وإن تركهما خير من نفس الإنفاق ، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله - ثم استقاموا - انتهى . وقدم المن على الأذى لكثرة وقوعه ووسط كلمة (لا) للدلالة على شمول النفي . وقوله (عند ربهم) فيه تأكيد وتشريف . وقوله (ولا خوف عليهم) ظاهره نفي الخوف عنهم فى الدارين لما تفيدته النكرة الواقعة فى سياق النفي من الشمول ، وكذلك (ولا هم يحزنون) يفيد دوام انتفاء الحزن عنهم . قوله (قول معروف ومغفرة) قبل الخبر محذوف : أى أولى وأمثل ، ذكره النحاس . قال : ويجوز أن يكون خبراً عن مبتدأ محذوف : أى الذى أمرتم به قول معروف . وقوله (ومغفرة) مبتدأ أيضاً وخبره قوله (خير من صدقة) وقيل إن قوله « خير » خبر عن قوله « قول معروف » وعن قوله « ومغفرة » وجاز الابتداء بالزكريتين لأن الأولى تخصصت بالوصف ، والثانية بالعطف ؛ والمعنى : أن القول المعروف من المستول للسائل وهو التأنيس والترجىة بما عند الله ، والرد الجميل خير من الصدقة التى يتبعها أذى . وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وآله وسلم « الكلمة الطيبة صدقة » ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق « وما أحسن ما قاله ابن دريد :

لا تدخلك ضجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسئولاً
لا تخبين بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً

والمراد بالمغفرة السر للخلعة ، وسوء حالة المحتاج ، والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكثر صدر المسئول ؛ وقيل المراد : أن العفو من جهة السائل ، لأنه إذا رده ردا جميلا عذره ؛ وقيل المراد : فعل يؤدي إلى المغفرة خير من صدقة : أي غفران الله خير من صدقتكم . وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المن والأذى للصدقة . قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) الإبطال للصدقات : إذهاب أثرها وإفساد منفعتها : أي لا تبطلوها بالمن والأذى أو بأحدهما . قوله (كالذي) أي إبطالا كإبطال الذي على أنه نعت لمصدر مخوف ، ويجوز أن يكون حالا : أي لا تبطلوا مشابهن للذي ينفق ماله رثاء الناس ، وانتصاب رثاء على أنه علة لقوله (ينفق) أي لأجل الرياء أو حال أي ينفق مراثيا لا يقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة ، بل يفعل ذلك رياء للناس استجلابا لشأنهم عليه ومدحهم له ؛ قيل والمراد به المنافق بدليل قوله (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) . قوله (فمثل كمثل صفوان) الصفوان الحجر الكبير الأملس . وقال الأخفش : صفوان جمع صفوانة . وقال الكسائي : صفوان واحد وجمعه صني وأصني ، وأنكره المبرد . وقال النحاس : يجوز أن يكون جمعا ويجوز أن يكون واحدا وهو أولى لقوله (عليه تراب فأصابه وابل) والوابل المطر الشديد ، مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضا منبثة طيبة ، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلدا : أي أجرد نقيا من التراب الذي كان عليه ، فكذلك هذا المرائي فإن نفقته لا تنفعه كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذي عليه تراب قوله (لا يقبلون على شيء مما كسبوا) أي لا ينتفعون بما فعلوه رياء ولا يجدون له ثوابا ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : ماذا يكون حالهم حينئذ ؟ فقيل : لا يقبلون الخ ، والضميران للموصول : أي كالذي باعتبار المعنى كما في قوله تعالى - وخضتم كالذي خاضوا - أي الجنس أو الجمع أو الفريق . قوله (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم) قيل إن قوله (ابتغاء مرضات الله) مفعول له ، وتثبيتا معطوف عليه ، وهو أيضا مفعول له : أي الإنفاق لأجل الابتغاء . والتثبيت كذا قال مكى في المشكل . قال ابن عطية : وهو مردود لا يصح في تثبيتا أنه مفعول من أجله ، لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت . قال : وابتغاء نصب على المصدر في موضع الحال ، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله ، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو تثبيتا عليه ، وابتغاء معناه طلب ، ومرضات مصدر رضى يرضى ، وتثبيتا معناه : أنهم يتثبتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الإيمان وسائر العبادات رياضة لها وتديريا وتمريئا ، أو يكون التثبيت بمعنى التصديق : أي تصديقا للإسلام ناشئا من جهة أنفسهم . وقد اختلف السلف في معنى هذا الحرف ، فقال الحسن ومجاهد : معناه أنهم يتثبتون أن يضعوا صدقاتهم ؛ وقيل معناه تصديقا وبقينا ، روى ذلك عن ابن عباس ؛ وقيل معناه احتسابا من أنفسهم ، قاله قتادة ؛ وقيل معناه أن أنفسهم لها بصائر فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتا . قاله الشعبي والسدي وابن زيد وأبو صالح وهذا أرجح مما قبله . يقال ثبت فلانا في هذا الأمر أثبتته تثبيتا : أي صححت عزمه قوله (كمثل جنة بربوة أصابها وابل) الجنة : البستان ، وهي أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها ، مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارها . والربوة : المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا ، وهي مثلثة الرأس ، وبها قرئ ؛ وإنما خص الربوة لأن نباتها يكون أحسن من غيره ، مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب للطاقة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له قال الطبري : وهي رياض الحزن التي تستشكر الغرب من ذكرها ، واعترضه ابن عطية فقال إن رياض الحزن

منسوبة إلى نجد ، لأنها خير من رياض تهامة ، ونبات نجد أعطر ، ونسيمه أبرد وأرق ، ونجد يقال لها حزن ، وليست هذه المذكورة هنا من ذلك ، ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد . وقال الخليل الربوة : أرض مرتفعة طيبة . والوايل : المطر الشديد كما تقدم ، يقال ، : وبلت السماء تبل ، والأرض موبولة . قال الأخفش : ومنه قوله تعالى - أخذا ويلا - أى شديدا ، وضرب وييل ، وعذاب وييل (فآتت أكلها) بضم الهزرة : الثمر الذى يؤكل كقوله تعالى - تؤتى أكلها كل حين - وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص كسرج الفرس وباب الدار قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أكلها بضم الهزرة وسكون الكاف تخفيفا . وقرأ عاصم وابن عامر وحزة والكسائي بتحريك الكاف بالضم . وقوله (ضعفين) أى مثلى ما كانت تثمر بسبب الوايل . فالمراد بالضعف المثل ؛ وقيل أربعة أمثال ، ونصبه على الحال من أكلها : أى مضاعفا . قوله (فإن لم يصبها وابل فطل) أى فإن الطل يكفيها : وهو المطر الضعيف المستدق القطر . قال المبرد وغيره : وتقديره فطل يكفيها . وقال الزجاج : تقديره فالذى يصيبها طل والمراد أن الطل ينوب مناب الوايل فى إخراج الثمرة ضعفين . وقال قوم : الطل الندى . وفى الصحاح الطل : أضعف المطر ، والجمع أطلال . قال الماوردى : وزرع الطل أضعف من زرع المطر . والمعنى : أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت متفاوتة ، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة ، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل ، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها ، فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة فى أجورهم . وقوله (والله بما تعلمون بصير) . قرأ الزهرى بالتاء التحتية . وقرأ الجمهور بالفوقية ، وفى هذا ترغيب لهم فى الإخلاص مع ترهيب من الرياء ونحوه ، فهو وعد ووعد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم فى قوله (كمثل حبة أنبت سبع سنابل) عن الربيع قال : كان من « بايع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الهجرة ورابط معه بالمدينة ولم يذهب وجهها إلا بإذنه كانت له الحسنة بسبعمائة ضعف ، ومن بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها » . وأخرج مسلم وأحمد والنسائي والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقاة مخطومة فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن خزيمة بن فاتك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف » . وأخرجه البخارى فى تاريخه من حديث أنس . وأخرجه أحمد من حديث أبي عبيدة وزاد « ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا فالحسنة بعشر أمثالها » . وأخرج نحوه النسائي فى الصوم . وأخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم من حديث عمران بن حصين وعلى وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبى أمامة وعبد الله ابن عمرو وجابر كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم ، ثم تلا هذه الآية - والله يضاعف لمن يشاء - » . وأخرجه أيضا ابن ماجه من حديث الحسن بن على . وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، يقول الله إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به » . وأخرجه أيضا مسلم . وأخرج الطبرانى من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف » وقد

تقدم ذكر طرف من أحاديث التضعيف للحسنات عند قوله تعالى - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة - . وقد وردت الأحاديث الصحيحة في أجر من جهز غازيا . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الصلاة والصوم والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف » . وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف » . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال في تفسير قوله تعالى (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) إن أقواما يبعثون الرجل منهم في سبيل الله أو ينفق على الرجل أو يعطيه النفقة ثم يمن عليه ويؤذيه : يعني أن هذا سبب النزول . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وقد وردت الأحاديث الصحيحة في النهي عن المن والأذى وفي فضل الإنفاق في سبيل الله وعلى الأقارب وفي وجوه الخير ، ولا حاجة إلى التطويل بذكرها فهي معروفة في مواطنها . وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « مامن صدقة أحب إلى الله من قول الحق » ، ألم تسمع قول الله تعالى (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله (قول معروف) قال : رد جميل ، تقول : يرحمك الله ، يرزقك الله ، ولا تنهره ولا تغلظ له القول . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال « لا يدخل الجنة منان وذلك في كتاب الله (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (صفوان) يقول : الحجر (فتركه صليدا) يقول : ليس عليه شيء . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الوابل المطر . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : الوابل المطر الشديد ، قال : وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة (لا يقدر على شيء مما كسبوا) يومئذ كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شيء أنى مما كان . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (فتركه صليدا) قال : يابس جاثيا لا يثبت شيئا . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) قال : هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي في قوله (وثبتنا من أنفسهم) قال : تصديقا وقينا . وأخرج ابن جرير عن أبي صالح نحوه . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير قال : يثبتون أين يضعون أموالهم . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : كان الرجل إذا هم بصدقة ثبت فإن كان لله أمضاه ، وإن خالطه شيء من الرياء أمسك . وأخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله (تثبتنا) قال : النية . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : الربوة النثر من الأرض . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : الربوة الأرض المستوية المرتفعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : هي المكان المرتفع الذي لا تجرى فيه الأنهار . وأخرج ابن جرير عنه في قوله تعالى (فطل) قال : الندى . أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك قال : الطل الرذاذ من المطر : يعني اللين منه . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن يقول : ليس لخيره خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال كان ، إن أصابها وابل وإن أصابها طل

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) .

الود : الحب للشيء مع تمنيه ، والهمزة الداخلة على الفعل لإنكار الوقوع ، والجنة تطلق على الشجر الملتف وعلى الأرض التي فيها الشجر . والأول أولى هنا لقوله (تجري من تحتها الأنهار) بإرجاع الضمير إلى الشجر من دون حاجة إلى مضاف محذوف وأما على الوجه الثاني فلا بد من تقديره أى من تحت أشجارها وهكذا قوله (فاحترقت) لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول ، وأما على الثاني فيحتاج إلى تقديره : أى فاحترقت أشجارها ، وخص النخيل والأعناب بالذكر مع قوله (له فيها من كل الثمرات) لكونهما أكرم الشجر ، وهذه الحمل صفات للجنة ، والواو في قوله (وأصابه الكبر) قيل عاطفة على قوله (تكون) ماض على مستقبل ؛ وقيل على قوله (يود) وقيل إنه محمول على المعنى إذ تكون في معنى كانت وقيل إنها واو الحال أى وقد أصابه الكبر وهذا أرجح . وكبر السن هو مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب . وقوله (وله ذرية ضعفاء) حال من الضمير في أصابه : أى والحال أن له ذرية ضعفاء ، فإن من جمع بين كبر السن وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة . والإعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض إلى السماء كالعمود ، وهي التي يقال لها الزوبعة ، قاله الزجاج . قال الجوهري : الزوبعة رئيس من رؤساء الجن ، ومنه سمي الإعصار زوبعة ، ويقال أم زوبعة : وهي ريح يثير الغبار ويرتفع إلى السماء كأنه عمود ؛ وقيل هي ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق . وقوله (فاحترقت) عطف على قوله (فأصابها) وهذه الآية تمثيل من يعمل خيرا ويضم إليه ما يحبطه فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن ولا يغنى من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة .

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : قال عمر يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت (أيود أحدكم أن تكون له جنة) ؟ قالوا : الله أعلم ، قال : قولوا نعلم أولانعلم ، فقال ابن عباس في نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل ، قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غنى يعمل لطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل في المعاصي حتى أغرق عمله . وأخرج ابن جرير عن عمر قال : هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله (إعصار فيه نار) قال : ريح فيها سموم شديدة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتٍ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَنُكْفَرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

قوله (من طيبات ما كسبتم) أى من جيد ما كسبتم ومختاره ، كذا قال الجمهور . وقال جماعة : إن معنى الطيبات هنا الحلال ، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعا ، لأن جيد الكسب ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع ، وإن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالا كان أو حراما ، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية . وقوله (ومما أخرجنا لكم من الأرض) أى ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض ، وحذف للدلالة ما قبله عليه ، وهى النباتات والمعادن والركاز . قوله (ولا تيمموا الخبيث) أى لا تقصدوا المال الرديء ، وقرأه الجمهور بفتح حرف المضارعة وتخفيف الياء ، وقرأ ابن كثير بتشديدها . وقرأ ابن مسعود « ولا تأموا » وهى لغة . وقرأ أبو مسلم بن خباب بضم الفوقية وكسر الميم . وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ « تثموا » بهمزة بعد المضمومة وفى الآية الأمر بإتفاق الطيب والنهي عن إتفاق الخبيث . وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن الآية فى الصدقة المفروضة ، وذهب آخرون إلى أنها تعم صدقة الفرض والتطوع ، وهو الظاهر ، وسياق من الأدلة ما يؤيد هذا ، وتقديم الظرف فى قوله (منه تنفقون) يفيد التخصيص أى لا تنقصوا الخبيث بالإتفاق ، والجملة فى محل نصب على الحال : أى لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإتفاق به قاصرين له عليه . قوله (ولستم بأخذه) أى والحال أنكم لا تأخذونه فى معاملتكم فى وقت من الأوقات هكذا بين معناه الجمهور ، وقيل معناه : ولستم بأخذه لو وجدتموه فى السوق يباع . وقوله (إلا أن تغمضوا فيه) هو من أغمض الرجل فى أمر كذا : إذا تساهل ورضى ببعض حقه وتجاوز وغض بصره عنه ، ومنه قول الشاعر :

إلى كم وكم أشياء منك تريدنى أغمض عنها لست عنها بذى عى

وقرأ الزهرى بفتح التاء وكسر الميم مخففا . وروى عنه أنه قرأ بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشددة وكذلك قرأ قتادة ، والمعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين : إلا أن تهضموا سوماها من البائع منكم ، وعلى الثانية : إلا أن تأخذوا بنقصان . قال ابن عطية : وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز أو على تغميض العين ، لأن أغمض بمنزلة غمض ، وعلى أنها بمعنى حتى : أى حتى تأتوا غامضا من التأويل ، والنظر فى أخذ ذلك . قوله (الشيطان يعدكم الفقر) قد تقدم معنى الشيطان واشتقاقه . ويعدكم معناه يخوفكم الفقر : أى بالفقر لئلا تنفقوا ، فهذه الآية متصلة بما قبلها . وقرئ « الفقر » بضم الفاء وهى لغة . قال الجوهري : والفقر لغة فى الفقر ، مثل الضعف ، والضعف . والفحشاء الخصلة الفحشاء ، وهى المعاصى والإتفاق فيها والبخل عن الإتفاق فى الطاعات . قال فى الكشف : والفاحش عند العرب البخيل انتهى . ومنه قول طرفة بن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ولكن العرب وإن أطلقت على البخيل فذلك لا ينافى إطلاقهم له على غيره من المعاصى ، وقد وقع كثيرا فى كلامهم . وقوله (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) الوعد فى كلام العرب : إذا أطلق فهو فى الخير ، وإذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر . ومنه قوله تعالى - النار وعدا الله الذين كفروا - ومنه أيضا ما فى هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر ، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة ، والفضل . والمغفرة : السر على عبادته فى الدنيا والآخرة لذنوبهم وكفارتها ، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم فى أرزاقهم وينعم عليهم فى الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل . قوله (يوثى الحكمة) هى العلم ، وقيل الفهم وقيل الإصابة فى القول ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً أو بدلاً ؛ وقيل إنها النبوة ؛ وقيل العقل ؛ وقيل الحشية ؛ وقيل الورع وأصل الحكمة ما يمنع من السفه ، وهو كل قبيح . والمعنى : أن من أعطاه الله الحكمة فقد أعطاه خيراً كثيراً : أى عظيماً

قدره جليلا خطره. وقرأ الزهري ويعقوب «ومن يؤتي الحكمة» على البناء للفاعل وقرأ الجمهور على البناء للمفعول والألباب : العقول ، واحدا لب ، وقد تقدم الكلام فيه : قوله (وما أنفقتم من نفقة) ماشرطية ويجوز أن تكون موصولة ، والعائد محذوف : أي الذي أنفقتموه ، وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة وغير مقبولة وكل نذر مقبول أو غير مقبول : وقوله (فإن الله يعلمه) فيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول ، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك . ووجد الضمير مع كون مرجعه شيئين ، هما النفقة والنذر ، لأن التقدير : وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها ، أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر ، قاله النحاس ؛ وقيل إن ما كان العطف فيه بكلمة «أو» كما في قولك : زيد أو عمرو ، فإنه يقال أكرمته ولا يقال أكرمتهما ، والأولى أن يقال إن العطف بأو يجوز فيه الأمران توحيد الضمير كما في هذه الآية ، وفي قوله تعالى - وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفصوا إليها - . وقوله - ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا - ، وتثنيته كما في قوله تعالى (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) ومن الأول في العطف بالواو قول امرئ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجته من جنوب وشمال

ومنه قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

ومنه - والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها - وقيل إنه إذا وجد الضمير بعد ذكر شيئين أو أشياء فهو بتأويل المذكور : أي فإن الله يعلم المذكور ، وبه جزم ابن عطية ورجحه القرطبي وذكر معناه كثير من النحاة في مؤلفاتهم. قوله (وما للظالمين من أنصار) أي ما الظالمين أنفسهم بما وقعوا فيه من الإثم لخالفه ما أمر الله به من الإنفاق في وجوه الخير من أنصار ينصرونهم يمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيد السياق : أي ما الظالمين بأي مظلمة كانت من أنصار . قوله (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) قرئ بفتح النون وكسر العين وبكسرهما وبكسر النون وسكون العين وبكسر النون وإخفاء حركة العين . وقد حكى النحويون في «نعم» أربع لغات ، وهي هذه التي قرئ بها ، وفي هذا نوع تفصيل لما أجمل في الشرطية المتقدمة : أي إن تظهروا الصدقات فنعم شيئا إظهارها ، وإن تخفوها وتصيبوها مصارفها من الفقراء فالإخفاء خير لكم . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع لا في صدقة الفرض فلا فضيلة للإخفاء فيها بل قد قيل إن الإظهار فيها أفضل ، وقالت طائفة : إن الإخفاء أفضل في الفرض والتطوع . قوله (ويكفر عنكم من سيئاتكم) قرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وقتادة وابن إسحاق نكفر بالنون والرفع . وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء والرفع . وقرأ الأعمش ونافع وحزمة والكسائي بالنون والجزم وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم . وقرأ الحسين بن علي الجعفي بالنون ونصب الراء . فمن قرأ بالرفع فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جوابا بعد الفاء ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف . ومن قرأ بالجزم فهو معطوف على الفاء وما بعدها . ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير أن . قال سيبويه : والرفع هاهنا الوجه الجيد ، وأجاز الجزم بتأويل وإن تخفوها يكن الإخفاء خيرا لكم ويكفر ، وبمثل قول سيبويه قال الخليل . ومن في قوله (من سيئاتكم) للتبعيض : أي شيئا من سيئاتكم . وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة ، وذلك على رأى الأخفش . قال ابن عطية : وذلك منهم خطأ .

وقد أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم)

قال : من الذهب والفضة (ومما أخرجنا لكم من الأرض) يعني من الحب والتمر وكل شيء عليه زكاة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) قال : من التجارة (ومما أخرجنا لكم من الأرض) قال : من الثمار . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب في قوله (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) قال : نزلت فينا معشر الأنصار ، كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته ، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنوفيه الشيص والحشف والقنو قد انكسر فيعلقه ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال : لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض وحياء ، قال : فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أن الرجل كان يكون له الحائطان فينظر إلى أردثهما تمرًا فيتصدق به ويخلط به الحشف فنزلت الآية ، فعاب الله ذلك عليهم ونهاهم عنه . وأخرج عبد بن حميد عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدقة الفطر فجاء رجل بتمر رديء ، فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يخرج النخل أن لا يجيز . فأنزل الله تعالى الآية هذه . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والدارقطني والحاكم والبيهقي في سننه عن سهل بن حنيف قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصدقة ، فجاء رجل بكبائس من هذا السخل : يعني الشيص فوضعه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : من جاء بهذا ؟ وكان كل من جاء بشيء نسب إليه ، فنزلت (ولا تيمموا الخبيث) الآية . ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن لونين من التمر أن يوجد في الصدقة ، الجعور ولون الخبيث . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون ، فأنزل الله (يا أيها آمنوا) الآية . وأخرج ابن جرير عن عبيدة السلماني قال : سألت على ابن أبي طالب عن قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا) الآية ، فقال : نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة ، كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية ، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يؤتى الحكمة من يشاء) قال : المعرفة بالقرآن ناصه ومنسوخه ، محكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه وأمثاله . وأخرج ابن مردويه عنه : أنها القرآن يعني تفسيره . وأخرج ابن المنذر عنه أنها النبوة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : إنها الفقه في القرآن . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء (يؤتى الحكمة) قال قراءة القرآن والفكرة فيه . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : هي الكتاب والفهم به . وأخرج أيضا عن النخعي نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : هي الكتاب يؤتى لإصابته من يشاء . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : هي الإصابة في القول . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هي الحشية لله . وأخرج أيضا عن مطر الوراق مثله . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبيرة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فإن الله يعلمه) قال : يحصيه . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نذر الطاعة والمعصية في الصحيح وغيره ما هو معروف كقوله صلى الله

عليه وآله وسلم « لا نذر في معصية الله » وقوله « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » وقوله « النذر ما ابتغى به وجه الله » وثبت عنه في كفارة النذر ما هو معروف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) الآية ، قال : فجعل السر في التطوع يفضل علانيتها سبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا . وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن تبدوا الصدقات) الآية ، قال : كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة ، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات إليها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (إن تبدوا الصدقات) الآية ، قال : هذا منسوخ . وقوله - وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم - قال : منسوخ ، نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة - إنما الصدقات للفقراء - وقد ورد في فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدْيُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ
أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) .

قوله (ليس عليك هدايتهم) أى ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهديين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه (ولكن الله يهدي من يشاء) هداية توصله إلى المطلوب ، وهذه الجملة معترضة وفيها الالتفات ، وسيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله ، والمراد بقوله (من خير) كل ما يصدق عليه اسم الخير كائنا ما كان ، وهو متعلق بمحذوف : أى أى شيء تنفقون كائنا من خير ، ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله سبحانه : أى لا ابتغاء وجه الله . وقوله (يوف إليكم) أى أجره وثوابه على الوجه الذى تقدم ذكره من التضعيف . قوله (للفقراء) متعلق بقوله (وما تنفقوا من خير) أو بمحذوف : أى اجعلوا ذلك للفقراء أو خير مبتدأ محذوف : أى إنفاقكم للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله بالغزو أو الجهاد ؛ وقيل منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف (الذين لا يستطيعون ضربا في الأرض) للتكسب بالتجارة والزراعة ، ونحو ذلك بسبب ضعفهم ، قيل هم فقراء الصفة ؛ وقيل كل من يتصف بالفقر وما ذكر معه . ثم ذكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحنو عليهم والشفقة بهم ، وهو كونهم متعفين عن المسئلة وإظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء . والتعفف تفعل وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء : إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه ، وفى « يحسبهم » لغتان : فتح السين ، وكسرهما . قال أبو على الفارسي : والفتح أقيس ، لأن العين من الماضى مكسورة ، فبابها أن تأتى في المضارع مفتوحة . فالقراءة بالكسر على هذا حسنة وإن كانت شاذة . و « من » في قوله « من التعفف » لا ابتداء الغاية ؛ وقيل لبيان

الجنس . قوله (تعرفهم بسيماهم) أى برثاثة ثيابهم وضعف أبدانهم وكل ما يشعر بالفقر والحاجة . والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للمخاطبة ، والسيما مقصورة : العلامة ، وقد تمد . والإلحاف : الإلحاح فى المسئلة ، وهو مشتق من اللحاف ، سمي بذلك لاشتماله على وجوه الطلب فى المسئلة كاشتمال اللحاف على التغطية . ومعنى قوله (لا يسألون الناس إلحافا) أنهم لا يسألونهم ألبة ، لا سؤال إلحاح ، ولا سؤال غير إلحاح . وبه قال الطبرى والزجاج ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ووجهه أن التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم ، ومجرد السؤال ينافيها ، وقيل المراد أنهم إذا سألوا سألوا بتلطف ولا يلحفون فى سؤالهم ، وهذا وإن كان هو الظاهر من توجه النبي إلى القيد دون المقيد ، لكن صفة التعفف تنافيه ، وأيضا كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال ألبة . وقوله (بالليل والنهار) يفيد زيادة رغبتهم فى الإنفاق وشدة حرصهم عليه حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلا ولا نهارا ، ويفعلونه سرا وجهرا عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين ، ويظهر لديهم فاقة المفتاقين فى جميع الأزمنة على جميع الأحوال . ودخول الفاء فى خبر الموصول أغنى قوله (فلهم أجرهم) للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها ، وقيل هى للعطف والخبر للموصول محذوف : أى ومنهم الذين ينفقون .

وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه والضياء فى المختارة عن ابن عباس ، قال : كانوا يكرهون أن يرخصوا لأنسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية (ليس عليك هدام) إلى قوله (وأنتم لا تظلمون) فرخص لهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء عنه قال إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد ابن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن الحنفية نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان أناس من الأنصار لهم نسب وقربة من قريظة والنضير ، وكان يتقون أن لا يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا ، فنزلت (ليس عليك هدام) الآية . وأخرج ابن المنذر عن عمرو الهلالى قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنتصدق على فقراء أهل الكتاب ؟ فأنزل الله (ليس عليك هدام) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال فى قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) قال : إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله . وأخرج ابن المنذر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) قال : هم أصحاب الصفة . وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمروا بالصدقة عليهم . وأخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله (الذين أحصروا فى سبيل الله) قال : حصروا أنفسهم فى سبيل الله للغزو فلا يستطيعون تجارة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : هم قوم أصابهم الجراحات فى سبيل الله فصاروا زمنى ، فجعل لهم فى أموال المسلمين حقا . وأخرج ابن أبى حاتم عن رجاء بن حيوة فى قوله (لا يستطيعون ضربا فى الأرض) قال : لا يستطيعون تجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله (يحسبهم الجاهل أغنياء) قال : دل الله المؤمنين عليهم وجعل نفقاتهم لهم ، وأمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم ورضى عنهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (تعرفهم بسيماهم) قال : التخشع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع أن معناه تعرف فى وجوههم الجهد من الحاجة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (تعرفهم بسيماهم) قال : رثاثة

ثيابهم ، وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف ، واقرعوا إن شئتم : لا يسألون الناس إلحافاً » وقد ورد في تحريم المسئلة أحاديث كثيرة إلا لدى سلطان أوفى أمر لا يجد منه بداً . وأخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي والطبراني وأبو الشيخ عن يزيد بن عبد الله بن غريب المليكي عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أنزلت هذه الآية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) في أصحاب الخيل » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي نحوه قال : فيمن لا يربطها خيلاء ولا رياء ولا سمعة . وأخرج ابن جرير عن أبي الدرداء نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حنش الصنعاني أنه سمع ابن عباس يقول في هذه الآية : هم الذين يعلقون الخيل في سبيل الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر من طريق عبد الوهاب ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : نزلت في علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهما ، وبالنهار درهما ، ودرهما سرّاً ، ودرهما علانية . وعبد الوهاب ضعيف ولكن قد رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في هذه الآية قال : هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم في غير سرف ولا إملاق ولا تبذير ولا فساد . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : نزلت في عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرُّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرُّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرُّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرُّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) .

الربا في اللغة : الزيادة مطلقاً ، يقال ربا الشيء يربو : إذا زاد ، وفي الشرع يطلق على شيئين ، على ربا الفضل ، وربي النسبة حسبما هو مفصل في كتب الفروع ، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه : أتقضى أم تربى ؟ فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه وأخر له الأجل إلى حين . وهذا حرام بالاتفاق ، وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة في أوله . وقد كتبوه في المصحف بالواو . قال في الكشف : على لغة من يفهم (١) كما كتبت الصلاة والزكاة ، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع انتهى . قلت : وهذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشي عليه ، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاحح في مثلها إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذي كان في أصل الكلمة ونحوه كما هو مقرر في مباحث الخط من علم الصرف ،

(١) والمراد بالتفخيم هنا الفتح ، وضده الترقيق بالألف وهو الإمالة ، وبهما قرئ . انتهى من هامش الأصل .

وعلى كل حال فرسم الكلمة وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى ، فما كان في النطق ألفا كالصلاة والزكاة ونحوهما كان الأولى في رسمه أن يكون كذلك ، وكون أصل هذا الألف واوا أو ياء لا يمتنع على من يعرف علم الصرف ، وهذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذي يدل بها عليه كيف هو في نطق من ينطق به لاتفهم أن أصل الكلمة كذا مما لا يجري به النطق ، فاعرف هذا ولا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم في هذه النقوش ويلزمون به أنفسهم ويعيبون من خالفه ، فإن ذلك من المشاححة في الأمور الاصطلاحية التي لا تلزم أحدا أن يتقيد بها ، فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يلفظ به اللفظ عند قراءتها ، فإنه الأمر المطلوب من وضعها والتواضع عليها ، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التي يتلفظ بها المتلفظ مما لا يجري في لفظه الآن ، فلا تغتر بما يروى عن سيويه ونحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو ، لأنه يقول في تثنيته ربوان . وقال الكوفيون : يكتب بالياء ، وتثنيته ربيان . قال الزجاج : ما رأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع ، لا يكفهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التثنية وهم يقرءون - وما آتيت من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو - وليس المراد بقوله هنا (الذين يأكلون الربا) اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله ، بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه ، وإنما خص الأكل لزيادة التشنيع على فاعله ، ولكونه هو الغرض الأهم فإن أخذ الربا إنما أخذه للأكل قوله (لا يقومون) أي يوم القيامة ، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة) . أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، وبهذا فسر جمهور المفسرين قالوا : إنه يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند أهل المحشر ، وقيل إن المراد تشبيهه من يحرص في تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون ، لأن الحرص والطمع والرغبة في الجمع قد استغزته حتى صار شبيهاً في حركته بالمجنون ، كما يقال لمن يسرع في مشيه ويضطرب في حركاته : إنه قد جن ، ومنه قول الأعشى في ناقته :

وتصبح من غب السرى وكأنها ألم بها من طائف الجن أولق

فجعلها بسرعة مشياً ونشاطها كالمجنون . قوله (إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) أي إلا قياماً كقيام الذي يتخبطه ، والخبط : الضرب بغير استواء كخبط العشواء وهو المصروع . والمس : المجنون ، والأمس : المجنون ، وكذلك الأولق وهو متعلق بقوله (يقومون) أي لا يقومون من المس الذي بهم (إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان) أو متعلق بيقوم . وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن الصرع لا يكون من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطباع ، وقال : إن الآية خارجة على ما كانت العرب ترعنه من أن الشيطان يصرع الإنسان ، وليس بصحيح ، وإن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس . وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن يتخبطه الشيطان ، كما أخرجه النسائي وغيره . قوله (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم (إنما البيع مثل الربا) أي أنهم جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً ، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة يجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً ، أي إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله ، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربا) أي أن الله أحل البيع وحرم نوعاً من أنواعه ، وهو البيع المشتمل على الربا . والبيع مصدر باع يبيع : أي دفع عوضاً وأخذ معوضاً ، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب . قوله (فمن جاءه موعظة من ربه) أي من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر والنواهي ، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا (فأنهى) أي فامثل النهي الذي جاءه وانزجر عن المنهى عنه وهو معطوف : أي قوله (فأنهى) على قوله (جاءه) . وقوله (من ربه)

متعلق بقوله (جاءه) أو بمحذوف وقع صفة لموعظة : أى كاثثة من (من ربه فله ماسلف) أى ماتقدم منه من الربا لا يؤخذ به ، لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا . وقوله (فأمره إلى الله) قيل الضمير عائد إلى الربا : أى وأمر الربا إلى الله في تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم ؛ وقيل الضمير عائد إلى ماسلف : أى أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التبعة فيه ؛ وقيل الضمير يرجع إلى الربى : أى أمر من عامل بالربا إلى الله في تثبته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية (ومن عاد) إلى أكل الربا والمعاملة به (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) والإشارة إلى من عاد ، وجمع أصحاب باعتبار معنى من ؛ وقيل إن معنى من عاد : هو أن يعود إلى القول بـ (إنما البيع مثل الربا) وأنه يكفر بذلك فيستحق الخلود ؛ وعلى التقدير الأول يكون الخلود مستعاراً على معنى المبالغة ، كما تقول العرب ملك خالد : أى طويل البقاء ، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار . قوله (يمحى الله الربا) أى يذهب بركته في الدنيا وإن كان كثيراً فلا يبقى بيد صاحبه ؛ وقيل يمحى بركته في الآخرة . قوله (ويربى الصدقات) أى يزيد في المال الذى أخرجت صدقته ؛ وقيل يبارك في ثواب الصدقة ويضاعفه ويزيد في أجر المتصدق ، ولا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعاً . قوله (والله لا يحب كل كفار أثيم) أى لا يرضى ، لأن الحب مختص بالتوابين ، وفيه تشديد وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر ، ووصفه بأثيم للمبالغة ؛ وقيل لإزالة الاشتراك ، إذ قد يقع على الزراع ، ويحتمل أن المراد بقوله (كل كفار) من صدرت منه خصلة توجب الكفر ، ووجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا : إنما البيع مثل الربا كفار . وقد تقدم تفسير قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إلى آخر الآية .

وقد أخرج أبو يعلى من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال : يعرفون يوم القيامة بذلك لا يستطيعون القيام إلا كما يقوم المتخبط المنخفق (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) وكذبوا على الله (وأحل الله البيع وحرم الربا) ومن عاد فأكل الربا (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً ينفق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عنه أيضاً في قوله (لا يقومون) قال : ذلك حين يبعث من قبره . وأخرج الأصبهاني في ترغيبه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يأتي آكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجرشفتيه ، ثم قرأ (لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) » وقد وردت أحاديث كثيرة في تعظيم ذنب الربا ، منها من حديث عبد الله بن مسعود عند الحاكم وصححه والبيهقي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الربا ثلاثة وسبعون باباً ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » ومن حديث أبي هريرة مرفوعاً عند ابن ماجه والبيهقي بلفظ « سبعون باباً » وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد الله بن سلام وكعب وابن عباس وأنس . وأخرج ابن جرير عن الربيع في الآية قال : يبعثون يوم القيامة وبهم خبل من الشيطان وهى في بعض القراءات : « لا يقومون يوم القيامة » . يعنى قراءة ابن مسعود المتقدم ذكرها . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد فقرأهن على الناس ، ثم حرم التجارة في الحمر » وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه خطب فقال : إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا ، وإنه قد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبينه لنا فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنه قال : آخر آية أنزلها على رسوله آية الربا . وأخرج البيهقي

في الدلائل عن عمر مثله . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الربا الذي نهى الله عنه قال : كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول : لك كذا وكذا وتؤخر عني فيؤخر عنه . وأخرج أيضا عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه أيضا وزاد في قوله (فمن جاءه موعظة من ربه) قال : يعني البيان الذي في القرآن في تحريم الربا فأنهى عنه (فله ماسلف) يعني فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم (وأمره إلى الله) يعني بعد التحريم وبعد تركه إن شاء عظمه منه وإن شاء لم يفعل (ومن عاد) يعني في الربا بعد التحريم فاستحله بقولهم (إنما البيع مثل الربا - فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعني لا يموتون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله (يمحى الله الربا) قال : ينقص الربا (ويربي الصدقات) قال : يزيد فيها ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعا « من نصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » . وأخرج البزار وابن جرير وابن حبان والطبراني من حديث عائشة نحوه . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا . وفي حديث عائشة وابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بعد أن ساق الحديث (يمحى الله الربا ويربي الصدقات) . وأخرج الطبراني عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد » وهذه الأحاديث تبين معنى الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) .

قوله (اتقوا الله) أي قوا أنفسكم من عقابه واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا ، وظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضا . قوله (إن كنتم مؤمنين) قيل هو شرط مجازي على جهة المبالغة ؛ وقيل إن « إن » في هذه الآية بمعنى إذ . قال ابن عطية : وهو مردود لا يعرف في اللغة ، والظاهر أن المعنى : إن كنتم مؤمنين على الحقيقة ، فإن ذلك يستلزم امثال أوامر الله ونواهيه . قوله (فإن لم تفعلوا) يعني ما أمرتم به من الاتقاء وترك ما بقي من الربا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أي فأعلموا بها ، من أذن بالشئ إذا علم به ؛ قيل هو من الإذن بالشئ وهو الاستماع لأنه من طرق العلم . وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمة « فأذنوا » على معنى فأعلموا غيركم أنكم على حربهم . وقد دلت هذه على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر ، ولا خلاف في ذلك ، وتنكير الحرب للتعظيم ، وزادها تعظيما نسبتها إلى اسم الله الأعظم وإلى رسوله الذي هو أشرف خلقه . قوله (فإن تبتم) أي من الربا (فلكم رؤوس أموالكم) تأخونها (لا تظلمون) غرماءكم بأخذ الزيادة (ولا تظلمون) أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ، والجملة حالية أو استثنائية . وفي هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة خلال لمن أخذها من الأثمة ونحوهم ممن ينوب عنهم .

قوله (وإن كان ذو عسرة) لما حكم سبحانه لأهل الربا برعوس أموالهم عند الواجدين للمال حكم في ذوى العسرة بالنظرة إلى يسار ، والعسرة : ضيق الحال من جهة عدم المال ، ومنه جيش العسرة . والنظرة : التأخير ، والميسرة مصدر بمعنى اليسر ، وارتفع « ذو » بكان التامة التي بمعنى وجد ، وهذا قول سيوييه وأبي علي الفارسي وغيرهما . وأنشد سيوييه :

فدى لبني ذهل بن شيان يافى إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

وفي مصحف أبي « وإن كان ذا عسرة » على معنى : وإن كان المطلوب ذا عسرة . وقرأ الأعمش « وإن كان معسرا » . قال أبو عمرو الداني عن أحمد بن موسى وكذلك في مصحف أبي بن كعب . وروى المعتمر بن حجاج الوراق قال في مصحف عثمان (وإن كان ذا عسرة) قال النحاس ومكي والنقاش : وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا ، وعلى من قرأ « ذو » فهي عامة في جميع من عليه دين ، وإليه ذهب الجمهور . وقرأ الجماعة (فنظرة) بكسر الظاء . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن بسكونها وهي لغة تميم . وقرأ نافع وحده (ميسرة) بضم السين والجمهور بفتحها ، وهي اليسار . قوله (وأن تصدقوا) بحذف إحدى التاءين ، وقرأ بتشديد الصاد : أى وأن تصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراء خير لكم ، وفيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برعوس أموالهم على من أعسر وجعل ذلك خيرا من إنظاره ، قاله السدي وابن زيد والضحاك . قال الطبري : وقال آخرون : معنى الآية وأن تصدقوا على الغنى والفقير خير لكم . والصحيح الأول ، وليس في الآية مدخل للغنى . قوله (إن كنتم تعلمون) جوابه محذوف : أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به . قوله (واتقوا يوما) هو يوم القيامة وتنكيره للتحويل وهو منصوب على أنه مفعول به لا ظرف . وقوله (ترجعون فيه إلى الله) وصف له . وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم ، وذهب قوم إلى أن هذا اليوم المذكور هو يوم الموت . وذهب الجمهور إلى أنه يوم القيامة كما تقدم . وقوله (إلى الله) فيه مضاف محذوف تقديره إلى حكم الله (ثم توفى كل نفس) من النفوس المكلفة (ما كسبت) أى جزاء ما عملت من خير أو شر ، وجملة (وهم لا يظلمون) حالية ، وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الأفراد أنسب بحال الكسب ، وهذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا) قال : نزلت في العباس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا إلى ناس من ثقيف ، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : كانت ثقيف قد صالحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن مالهم من ربا على الناس ، وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع ؛ فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، وكانت بنو عمرو ابن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة ، وكان بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية ، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام ، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد ، فكتب عتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا) فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عتاب وقال : إن رضوا وإلا فأذنهم بحرب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فأذنوا بحرب) قال : من كان مقبلا على الربا لا ينزع منه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه . وأخرجوا أيضا عنه في قوله (فأذنوا بحرب) قال : استبقنوا بحرب . وأخرج أهل السنن وغيرهم عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم فقال : « ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع ، لكم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وأول ربا موضوع ربا العباس » وأخرج ابن منده عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في ربيعة بن عمرو وأصحابه (وإن تبتم فلکم رموس أموالکم) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإن كان ذو عسرة) قال : نزلت في الربا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن شريح نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك في الآية قال : وكذلك كل دين على مسلم . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر نحوه . وقد وردت أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما في الترييب لمن له دين على معسر أن ينظره . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت من القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي وعطية العوفي مثله . وأخرج ابن الأنباري عن أبي صالح وسعيد بن جبیر مثله أيضا وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت ، وكان بين نزولها وبين موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إحدى وعثمانون يوما . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبیر أنه عاش النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزولها تسع ليال ثم مات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ نَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) .

هذا شروع في بيان حال المدانة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا : أي إذا دأب بعضكم بعضا وعامله

بذلك ، وذكر الدين بعد ذكر ما يغنى عنه من المدائنة لقصد التأكيد مثل قوله - ولا طائر يطير بجناحيه - وقيل إنه ذكر ليرجع إليه الضمير من قوله (فاكتبوه) ولو قال : فاكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما في قوله (إذا تداينتم بدين) ، والدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا ، والآخر في الذمة نسيئة ، فإن العيز عند العرب ما كان حاضرا ، والدين ما كان غائبا ، قال الشاعر :

وعدتنا / بدرهمينا طلاء وسواء معجلا غير دين

وقال الآخر : إذا ما أوقدوا نارا وخطبا فذاك الموت نقدا غير دين

وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله (إلى أجل مسمى) وقد استدل به على أن الأجل المجهول لا يجوز وخصوصا أجل السلم . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم إلى أجل معلوم » وقد قال بذلك الجمهور ، واشتروطوا توقيته بالأيام أو الأشهر أو السنين ، قالوا : ولا يجوز إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع القافلة أو نحو ذلك وجوزوه مالك . قوله (فاكتبوه) أى الدين بأجله لأنه أذفع للنزاع وأقطع للخلاف . قوله (وليكتب بينكم كاتب) هو بيان لكيفية الكتابة للمأمور بها ، وظاهر الأمر الوجوب ، وبه قال عطاء والشعبي وغيرهما ، فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك ، ولم يوجد كاتب سواء ؛ وقيل الأمر للندب . وقوله (بالعدل) متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل : أى يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ولا يميل إلى أحد الجانبين ، وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه ولا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر ، بل يتحرى الحق بينهم والمعدلة فيهم . قوله (ولا ياب كاتب) النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم : أى لا يمتنع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التداين كما علمه الله : أى على الطريقة التى علمه الله من الكتابة ، أو كما علمه الله بقوله (بالعدل) . قوله (وليلل الذى عليه الحق) الإملال والإملاء لغتان : الأولى لغة أهل الحجاز وبني أسد والثانية لغة بني تميم ، فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى ، وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى - فهى تملى عليه بكرة وأصيلا - (والذى عليه الحق) هو من عليه الدين ، أمره الله تعالى بالإملاء ، لأن الشهادة إنما تكون على إقراره بثبوت الدين في ذمته ، وأمره الله بالتقوى فيما يمليه على الكاتب ، بالغ في ذلك بالجمع بين الاسم والوصف في قوله (وليتق الله ربه) ونهاه عن البخس وهو النقص ؛ وقيل إنه نهى للكاتب . والأول أولى لأن من عليه الحق هو الذى يتوقع منه النقص ، ولو كان نهيا للكاتب لم يقتصر في نهيه على النقص ، لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص . والسفيه هو الذى لا رأى له في حسن التصرف فلا يحسن الأخذ ولا الإعطاء ، شبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج ، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة ، وعلى ضعف البدن أخرى ، فمن الأول قول الشاعر :

نخاف أن تسفه أحلامنا ونجهل الدهر مع الجاهل

ومن الثانى قول ذى الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفها أعاليها مرّ الرياح النواسم

أى استضعفها واستلانها بحركتها ، وبالجملة فالسفيه هو المبذر لما لجهله بالصرف أو لتلاعبه بالمال عبثا مع كونه لا يجهل الصواب . والضعيف : هو الشيخ الكبير ، أو الصبي . قال أهل اللغة : الضعف بضم الضاد في البدن ، وبفتحة في الرأى . والذى لا يستطيع أن يمل هو الأخرس أو العيى الذى لا يقدر على التعبير كما ينبغي ؛ وقيل إن الضعيف هو المذهول العقل الناقص الفطنة عاجز عن الإملاء ، والذى لا يستطيع أن يمل هو الصغير . قوله

(فليملل وليه بالعدل) الضمير عائد إلى الذي عليه الحق فيملل عن السفية وليه المنصوب عنه بعد حججه عن التصرف في ماله . ويمل عن الصبي وصيه أو وليه ، وكذلك يمل عن العاجز الذي لا يستطيع الإملال لضعف وليه لأنه في حكم الصبي أو المنصوب عنه من الإمام أو القاضي ، ويمل عن الذي لا يستطيع وكيله إذا كان صحيح العقل وعرضت له آفة في لسانه أو لم تعرض ، ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير كما ينبغي . وقال الطبري : إن الضمير في قوله (وليه) يعود إلى الحق ، وهو ضعيف جدا . قال القرطبي في تفسيره : وتصرف السفية المحجور عليه دون وليه فاسد إجماعا مفسوخ أبدا لا يوجب حكما ولا يؤثر شيئا ، فإن تصرف سفية ولا حجر عليه ففيه خلاف انتهى . قوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) الاستشهاد : طلب الشهادة ، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أى باعتبار ما يثول إليه أمرهما من الشهادة ، و (من رجالكم) متعلق بقوله (واستشهدوا) أو بمحذوف هو صفة لشهيدين : أى كائنين من رجالكم : أى من المسلمين فيخرج الكفار ، ولا وجه لخروج العبيد من هذه الآية . فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين ، وبه قال شريح وثمان البتي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور . وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي وجمهور العلماء : لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق . وقال الشعبي والنخعي : يصح في الشيء اليسير دون الكثير . واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة والعبيد لا يملكون شيئا تجرى فيه المعاملة . ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وأيضا العبد تصح منه المداينة وسائر المعاملات إذا أذن له مالكه بذلك . وقد اختلف الناس هل الإشهاد واجب أو مندوب ، فقال أبو موسى الأشعري وابن عمر والضحاك وعطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي الظاهري وابنه : إنه واجب ، ورجحه ابن جرير الطبري ؛ وذهب الشعبي والحسن ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه إلى أنه مندوب ، وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الإشهاد على البيع . واستدل الموجبون بقوله تعالى (وأشهدوا إذا تباعتم) ولا فرق بين هذا الأمر وبين قوله (واستشهدوا) فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد في البيع أن يقولوا بوجوبه في المداينة . قوله (فإن لم يكونا) أى الشهيذان (رجلين فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون . وقوله (لمن ترضون من الشهداء) متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان : أى كائنون ممن ترضون حال كونهم من الشهداء . والمراد ممن ترضون دينهم وعدالتهم ، وفيه أن المرأتين في الشهادة برجل ، وأنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهن إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة . واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعى كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعى ؟ فذهب مالك والشافعي إلى أنه يجوز ذلك ، لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل في هذه الآية . وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك ، وهذا يرجع إلى الخلاف في الحكم بشاهد مع يمين المدعى ، والحق أنه جائز لورود الدليل عليه ، وهو زيادة لم تخالف ما في الكتاب العزيز فيتعين قبولها . وقد أوضحنا ذلك في شرحنا للمنتقى وغيره من مؤلفاتنا ، ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس في هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشاهد واليمين ، ولم يدفعوا هذا إلا بتأعده مبنية على شفا جرف هار هي قولهم : إن الزيادة على النص نسخ ، وهذه دعوى باطلة ، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءنا بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها ، وأيضا كان يلزمهم أن لا يحكموا بنكول المطلوب ولا يمين الرد على الطالب . وقد حكموا بهما ، والجواب الجواب . قوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) قال أبو عبيد : معنى تضل تنسى ، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر الجزء . وقرأ حمزة « إن تضل » بكسر الهمزة . وقوله (فتذكر) جوابه على

هذه القراءة ، وعلى قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تفضل ، ومن رفعه فعلى الاستئناف . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فذكر بتخفيف الذال والكاف ، ومعناه : تريدها ذكرا . وقراءة الجماعة بالتشديد : أى تنبيهها إذا غفلت ونسيت ، وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد في النساء : أى فليشهد رجل وتشهد امرأتان عوضا عن الرجل الآخر لأجل تذكير إحداهما للآخرى إذا ضلت ، وعلى هذا فيكون في الكلام حذف وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضا عن الرجل الواحد ، فقيل وجهه أن تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، والعلة في الحقيقة هي التذكير ، ولكن الضلال لما كان سببا له نزل منزلته ، وأبهم الفاعل في تفضل وتذكر ، لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان ؛ فالمعنى : إن ضلت هذه ذكرتها هذه ، وإن ضلت هذه ذكرتها هذه لأعلى التعيين : أى إن ضلت إحدى المرأتين ذكرتها المرأة الأخرى ، وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال . وقد يكون الوجه في الإيهام أن ذلك يعنى الضلال والتذكير يقع بينهما متناوبا حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر ، فذكرت كل واحدة منهما صاحبها . وقال سفيان بن عيينة : معنى قوله (فتذكر إحداهما الأخرى) تصيرها ذكرا ، يعنى أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد . وروى نحوه عن أنس بن مالك ، ولا شك أن هذا باطل لا يدل عليه شرع ولا لغة ولا عقل . قوله (ولا ياب الشهداء إذا مدعوا) أى لأداء الشهادة التي قد تحملوها من قبل ؛ وقيل إذا مدعوا لتحمل الشهادة ، وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم ، وحملها الحسن على المعنيين . وظاهر هذا النهي أن الامتناع من أداء الشهادة حرام . قوله (ولا تساموا أن تكتبوه) معنى تساموا : تملوا . قال الأخفش : يقال ستمت أسام سامة وسثاما ، ومنه قول الشاعر :

ستمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبا لك يسام

أى لا تملوا أن تكتبوه : أى الدين الذي تدينتم به ؛ وقيل الحق ؛ وقيل الشاهد ؛ وقيل الكتاب ، ناهم الله سبحانه عن ذلك لأنهم ربما ملوا من كثرة المدابنة أن يكتبوا ، ثم بالغ في ذلك فقال (صغيرا أو كبيرا) أى حال كون ذلك المكتوب صغيرا أو كبيرا : أى لا تملوا في حال من الأحوال سواء كان الدين كثيرا أو قليلا ؛ وقيل إنه كنى بالسامة عن الكسل . والأول أولى . وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لدفع ما عساه أن يقال إن هذا مال صغير : أى قليل لا احتياج إلى كتبه ، والإشارة في قوله (ذلكم) إلى المكتوب المذكور في ضمير قوله (أن تكتبوه) (وأقسط) معناه أعدل : أى أصح وأحفظ (وأقوم للشهادة) أى أعون على إقامة الشهادة وأثبت لها وهو مبنى من أقام ، وكذلك أقسط مبنى من فعله : أى أقسط . وقد صرح سيبويه بأنه قياسى : أى بنى أفعل التفضيل . ومعنى قوله (وأدنى أن لا تترتابوا) أقرب لنى الريب في معاملتكم : أى الشك ، ولذلك أن الكتاب الذى يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائنا ما كان . قوله (إلا أن تكون تجارة حاضرة تدبرونها بينكم) أن في موضع نصب على الاستثناء قاله الأخفش ، وكان تامة : أى إلا أن تقع أو توجد تجارة ، والاستثناء منقطع : أى لكن وقت تبائعكم وتجارتم حاضرة بحضور البدلين (تدبرونها بينكم) تتعاطونها يدا بيد ، فالإدارة : التعاطى والتقابض ، فالمراد التبائع التاجر يدا بيد فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته . وقرئ بنصب تجارة على أن كان ناقصة : أى إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة . قوله (وأشهدوا إذا تبائعتم) قيل معناه : وأشهدوا إذا تبائعتم هذا التبائع المذكور هذا وهو التجارة الحاضرة على أن الأشهاد فيها يكفى ؛ وقيل معناه : إذا تبائعتم أى تبائع كان حاضرا أو كائنا ، لأن ذلك أدفع للمادة الخلاف وأقطع لمنشأ الشجار . وقد تقدم قريبا ذكر الخلاف في كون هذا الإشهاد واجبا أو مندوبا . قوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل أن يكون مبدءا للفاعل أو للمفعول ؛ فعلى الأول معناه :

لا يضار كاتب ولا شهيد من طلب ذلك منهما ، إما بعدم الاجابة ، أو بالتحريف والتبديل والزيادة والنقصان في كتابته ؛ ويدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبي إسحاق « ولا يضار » بكسر الراء الأولى ؛ وعلى الثاني لا يضار كاتب ولا شهيد بأن يدعى إلى ذلك وهما مشغولان بمهم لهما ويضيق عليهما في الاجابة ويؤذيا إن حصل منهما التراخي ، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد ، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود « ولا يضار » بفتح الراء الأولى ، وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعا . وقد تقدم في تفسير قوله تعالى (لا تضار والدة بولدها) ما إذا راجعته زادك بصيرة إن شاء الله . قوله (وإن فعلوا) أى ما نهيتهم عنه من المضارة (فإنه) أى فعلكم هذا (فسوق بكم) أى خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم (واتقوا الله) فى فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (ويعلمكم الله) ما تحتاجون إليه من العلم ، وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه ، ومنه قوله تعالى - إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا - . قوله (وإن كنتم على سفر) لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة والإشهاد لحفظ الأموال ودفع الريب ، عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب ونص على حالة السفر فإنها من جملة أحوال العذر ، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر ، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة : أى فإن كنتم مسافرين (ولم تجدوا كتابا) فى سفركم (فرهان مقبوضة) قال أهل العلم : الرهن فى السفر ثابت ينص التنزيل ، وفى الحضر بفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما ثبت فى الصحيحين « أنه صلى الله عليه وآله وسلم رهن درعاه من يهودى » . وقرأ الجمهور « كتابا » أى رجلا يكتب لكم . وقرأ ابن عباس وأبى ومجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية « كتابا » قال ابن الأنبارى : فسرهم مجاهد فقال : معناه فإن لم تجدوا مدادا : يعنى فى الأسفار . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « فرهن » بضم الراء والهاء . وروى عنهما تخفيف الهاء جمع رهان ، قاله الفراء والزجاج وابن جرير الطبرى . وقرأ عاصم بن أبى النجود « فرهن » بفتح الراء وإسكان الهاء . وقراءة الجمهور « رهان » . قال الزجاج : يقال فى الرهن رهنه وأرهنت ، وكذا قال ابن الأعرابى والأخفش . وقال أبو على الفارسى : يقال أرهنت فى المعاملات ، وأما فى القرض والبيع فرهنت : وقال ثعلب : الرواة كلهم فى قول الشاعر :

فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنتهم مالكا

على أرهنتهم على أنه يجوز رهنه وأرهنته إلا الأصمعى فإنه رواه وأرهنتهم على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماض وشبه بقوله قمت وأصلك وجهه . وقال ابن السكيت : أرهنت فيهما بمعنى أسلفت ، والمرتهن الذى يأخذ الرهن ، والشئ مرهون ورهين ، ورهنت فلانا على كذا مراهنه خاطرته . وقد ذهب الجمهور إلى اعتبار القبض كما صرح به القرآن ، وذهب مالك إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب والقبول من دون قبض . قوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته) أى إن كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق لحسن ظنه به وأمانته لديه واستغنى بأمانته عن الارتهان (فليؤد الذى أؤتمن) وهو المديون (أمانته) أى الدين الذى عليه ، والأمانة مصدر سمي به الذى فى الذمة وأضافها إلى الذى عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة ، وقرئ « ائتمن » بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بإدغام الياء فى التاء وهو خطأ ، لأن المتقلبة من الهمزة لاتدغم لأنها فى حكمها (وليتق الله ربه) فى أن لا يكتن من الحق شيئا . قوله (ولا تكتنوا الشهادة) نهى للشهود أن يكتنوا ما حملوه من الشهادة ، وهو فى حكم التفسير لقوله (ولا يضار كاتب) أى لا يضار بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدمين . قوله (ومن يكتنها فإنه آثم قلبه) خص القلب بالذكر لأن الكتم من أفعاله ، ولكونه رئيس الأعضاء ، وهو المضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد كله ، وارتفاع القلب على أنه فاعل أو مبتدأ وآثم خبره على ما تقرر

في علم النحو ؛ ويجوز أن يكون قلبه بدلا من آثم بدل البعض من الكل ، ويجوز أن يكون أيضا بدلا من الضمير الذي في آثم الراجع إلى من ، وقرئ « قلبه » بالنصب كما في قوله - إلا من سفه نفسه -

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) قال : نزلت في السلم في كيل معلوم إلى أجل معلوم . وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وغيرهم عنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله ، وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية . قال : أمر بالشهادة عند المدائنة لكيلا يدخل في ذلك جحود ولا نسيان ، فمن لم يشهد على ذلك فقد عصي (ولا يأب الشهداء) يعني من احتيج إليه من المسلمين ليشهد على شهادة أو كانت عنده شهادة ، فلا يحل له أن يأبى إذا مدعى ، ثم قال بعد هذا (ولا يضار كاتب ولا شهيد) والضرار أن يقول الرجل للرجل وهو عنه غنى إن الله قد أمرك أن لاتأبى إذا دعيت ، فيضارّه بذلك وهو مكثف بغيره ، فنهاه الله عن ذلك . وقال (وإن فعلوا فإنه فسوق بكم) يعني معصية . قال : ومن الكبائر كتمان الشهادة ، لأن الله تعالى يقول (ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (ولا يأب كاتب) قال : واجب على الكاتب أن يكتب . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كانت الكتابة عزيزة فنسخها (ولا يضار كاتب ولا شهيد) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد . قال (فإن كان الذي عليه الحق سفيا) قال : هو الجاهل (أو ضعيفا) قال : هو الأحمق . وأخرج ابن جرير عن الضحاك والسدي في قوله (سفيا) قال : هو الصبي الصغير . وأخرج ابن جرير من طريق عطية العوفي عن ابن عباس (فليمل وليه) قال صاحب الدين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن قال : ولي اليتيم . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال ولي السفه أو الضعيف . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد في قوله (من رجالكم) قال : من الأحرار . وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله (ممن ترضون من الشهداء) قال : عدول . وأخرج الشافعي والبيهقي عن مجاهد قال : عدلان حران مسلمان . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (أن تفضل إحداهما) يقول أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة (فتذكر إحداها الأخرى) يعني تذكرها التي حبطت شهادتها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يأب الشهداء) قال : إذا كانت عندهم شهادة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع قال : كان الرجل يطوف في القوم الكثير يدعوهم يشهدون فلا يتبعه أحد منهم ، فأنزل الله (ولا يأب الشهداء) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر عن عائشة في قوله (أقسط عند الله) قالت : أعدل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قال : يأتي الرجل الرجلين فيدعوهما إلى الكتابة والشهادة فيقولان إنا على حاجة ، فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا فليس له أن يضارهما . وأخرج ابن جرير عن طاوس (لا يضار كاتب) ، فيكتب ما لم يمل عليه (ولا شهيد) فيشهد بما لم يستشهد . وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله (وإن كنتم على سفر) الآية ، قال : من كان على سفر فبايع بيعا إلى أجل فلم يجد كاتبا فرخص له في الرهان المقبوضة ، وليس له إن وجد كاتبا أن يرتن . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لا يكون الرهن إلا في السفر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لا يكون الرهن إلا مقبوضا . وأخرج البخاري في تاريخه وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) حتى بلغ

(فإن آمن بعضكم بعضاً) قال : هذه نسخت ما قبلها . وأقول : رضى الله عن هذا الصحاحى الجليل ، ليس هذا من باب النسخ ، فهذا مقيد بالاثمان وما قبله ثابت محكم لم ينسخ وهو مع عدم الاثمان ، وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله (آثم قلبه) قال : فاجر قلبه . وأخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن ابن شهاب قال : آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) .

قوله (لله ما فى السموات وما فى الأرض) قد تقدم تفسيره . قوله (وإن تبدوا ما فى أنفسكم) إلى آخر الآية ، ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم أو أظهرته من الأمور التى يحاسب عليها ، فيغفر لمن يشاء منهم ما يغفره منها ، ويعذب من يشاء منهم بما أسر أو أظهر منها ، هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية . وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية على أقوال : الأول أنها وإن كانت عامة ، فهى مخصوصة بكتمان الشهادة ، وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة أو لم يظهر . وقد روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والشعبى ومجاهد ، وهو مردود بما فى الآية من عموم اللفظ ، ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهى عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به . والقول الثانى أن ما فى الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التى هى بين الشك واليقين ، قاله مجاهد ، وهو أيضاً تخصيص بلا مخصص . والقول الثالث أنها محكمة عامة ، ولكن العذاب على ما فى النفس يختص بالكفار والمنافقين . حكاه الطبرى عن قوم ، وهو أيضاً تخصيص بلا مخصص ، فإن قوله (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) لا يختص ببعض معين إلا بدليل . والقول الرابع أن هذه الآية منسوخة ، قاله ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبى وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة ، وهو مروي عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين ، وهذا هو الحق لما سياتى من التصريح بنسخها ، ولما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها » . قوله (يحاسبكم به الله) قدم الجار والمجرور على الفاعل لإظهار العناية به ، وقدم الإبداء على الإخفاء ، لأن الأصل فى الأمور التى يحاسب عليها هو الأعمال البادية ، وأما تقديم الإخفاء فى قوله سبحانه - قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله - فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخفية والبادية على السوية ، وقدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه ، وجملة قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) مستأنفة : أى فهو يغفر وهى متضمنة لتفصيل ما أجمل فى قوله (يحاسبكم به الله) وهذا على قراءة ابن عامر وعاصم . وأما على قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمرو وحزرة والكسائى يجزم الراء والباء ، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها ، وهو جواب الشرط : أعنى قوله (يحاسبكم به الله) . وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو العالية وعاصم الجحدري بنصب الراء والباء فى قوله (فيغفر - ويعذب) على إضمار أن عطفاً على المعنى . وقرأ طلحة بن مصرف يغفر بغير فاء على البدل ، وبه قرأ الجعفى وخلاد .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم) الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم جثوا على الركب ، فقالوا : يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله عليك

هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) الآية ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) إلى آخرها . وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعا نحوه ، وزاد فأنزل الله (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال : قد فعلت (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال : قد فعلت (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال : قد فعلت (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) الآية ، قال : قد فعلت . وقد رويت هذه القصة عن ابن عباس من طرق . وأخرج البخاري والبيهقي عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسبه ابن عمر (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) قال : نسخها الآية التي بعدها . وأخرج عبد بن حميد والترمذي عن علي نحوه وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير عن عائشة نحوه أيضا . وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : نزلت في كتمان الشهادة فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة . وعلى كل حال فبعد هذه الأحاديث المصرحة بالنسخ والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها ، ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين والسنن الأربع من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » . وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت : كل عبد هم بسوء ومعصية وحدث نفسه به حاسبه الله في الدنيا يخاف ويحزن ويشد همهم لا يناله من ذلك شيء كما هم بالسوء ولم يعمل منه بشيء . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عنها نحوه ، والأحاديث المتقدمة المصرحة بالنسخ تدفعه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله يقول يوم القيامة : إن كتابي لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها ، فأما ما أسررتهم في أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم فأغفر لمن شئت وأعذب من شئت ، وهو مدفوع بما تقدم .

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتِبَ
وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) .

قوله (بما أنزل إليه من ربه) أي بجميع ما أنزل الله (والمؤمنون) عطف على الرسول ، وقوله (كل) أي من
الرسول والمؤمنين (آمن بالله) ويجوز أن يكون قوله (والمؤمنون) مبتدأ . وقوله (كل) مبتدأ ثان . وقوله (آمن
بالله) خبر المبتدأ الثاني ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول ، وأفرد الضمير في قوله (آمن بالله) مع رجوعه إلى كل
المؤمنين ، لما أن المراد بيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك في قوله تعالى - وكل أتوه

داخرين - . قال الزجاج لما ذكر الله سبحانه في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة ، وبين أحكام الحج ، وحكم الحيض ، والطلاق والإيلاء ، وأقاصيص الأنبياء ، وبين حكم الربا ، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله (لله مافي السموات ومافي الأرض) ثم ذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك فقال (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أي صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها ، وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ؛ وقيل سبب نزولها الآية التي قبلها . وقد تقدم بيان ذلك . قوله (وملائكته) أي من حيث كونهم عباده المكرمين المتوسطين بينه وبين أنبيائه في إنزال كتبه ، وقوله (وكتبه) لأنها المشتملة على الشرائع التي تعبد بها عباده . وقوله (ورسله) لأنهم المبلغون لعباده ما نزل إليهم . وقرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وكتبه بالجمع . وقرعوا في التحريم وكتابه . وقرأ ابن عباس هنا وكتابه وكذلك قرأ حمزة والكسائي ، وروى عنه أنه قال : الكتاب أكثر من الكتب . وبينه صاحب الكشف فقال : لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء ، وأما الجمع فلا يدخل تحته إلا مافيه الجنسية من المجموع انتهى . ومن أراد تحقيق المقام فليرجع إلى شرح التلخيص المطول عند قول صاحب التلخيص « واستغراق المفرد أشمل » . وقرأ الجمهور ورسله بضم السين . وقرأ أبو عمرو بتخفيف السين . وقرأ الجمهور « لانفرق » بالنون . والمعنى : يقولون : لانفرق . وقرأ سعيد بن جبير ويحيى بن يعمر وأبو زرعة وابن عمر وابن جرير ويعقوب « لايفرق » بالياء التحتية . وقوله (بين أحد) ولم يقل بين آحاد ، لأن الأحد يتناول الواحد ، والجمع كما في قوله تعالى - فما منكم من أحد عنه حاجزين - فوصفه بقوله - حاجزين - لكونه في معنى الجمع ، وهذه الجملة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال وأن تكون خبراً آخر لقوله (كل) . وقوله (من رسله) أظهر في محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم ، أو الإشعار بعلّة عدم التفريق بينهم . وقوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) هو معطوف على قوله (آمن) وهو وإن كان للمفرد وهذا للجماعة فهو جائز نظراً إلى جانب المعنى : أي أدركناه بأسماعنا وفهمناه وأطعنا مافيه ؛ وقيل معنى سمعنا : أجبنا دعوتك . قوله (غفرانك) مصدر منصوب بفعل مقدر : أي اغفر غفرانك . قاله الزجاج وغيره ، وقد تم السمع والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل إليه . قوله (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) التكليف هو الأمر بما فيه مشقة وكلفة ، والوسع : الطاقة ، والوسع : ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه (وإن تبدوا مافي أنفسكم) الآية لكشف كربة المسلمين ، ودفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس وهي كقوله سبحانه - يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - . قوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فيه ترغيب وترهيب : أي لها ثواب ما كسبت من الخير ، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر ، وتقدم لها وعليها على الفعلين ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها ، وعليها لا على غيرها ، وهذا مبنى على أن كسب للخير فقط ، واكتسب للشر فقط ، كما قاله صاحب الكشف وغيره ؛ وقيل كل واحد من الفعلين يصدق على الأمرين ، وإنما كرّر الفعل وخالف بين التصريفين تحسناً للنظم كما في قوله تعالى - فهل الكافرين أمهلهم رويدا - . قوله (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) أي لاتؤاخذنا بلأثم ما يصدر منا من هذين الأمرين . وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين وغيرهم قائلين إن الخطأ والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما ، فما معنى الدعاء بذلك ، فإنه من تحصيل الحاصل . وأجيب عن ذلك بأن المراد طلب المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان والخطأ من التفريط وعدم المبالاة ، لamen نفس النسيان والخطأ فإنه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان »

وسياتى مخرجه ، وقيل إنه يجوز للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته ؛ وقيل إنه وإن ثبت شرعا أنه لا مؤاخذه بهما ، فلا امتناع في المؤاخذه بهما عقلا ؛ وقيل لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدا ، وإنما يصدر عنهم خطأ أو نسيانا ، فكأنه وصفهم بالدعاء بذلك إيدانا بنزاهة ساحتهم عما يؤخذون به ، كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤخذ به ، فما منهم سبب مؤاخذه إلا الخطأ والنسيان . قال القرطبي : وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع ، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع ولا يلزم منه شيء ، أو يلزم أحكام ذلك كله ؟ اختلف فيه ، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع ، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات والديانات والصلوات المفروضات ، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر ، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيا في رمضان أو حنث ساهيا ، وما كان مثله مما يقع خطأ ونسيانا ، ويعرف ذلك في الفروع انتهى . قوله (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) عطف على الحملة التي قبله ، وتكرير النداء للإيدان بمزيد التضرع واللجأ إلى الله سبحانه . والإصر : العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه : أى يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله . والمراد به هنا التكليف الشاق ، والأمر الغليظ الصعب ؛ وقيل الإصر : شدة العمل وما غلظ على بني إسرائيل من قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة ، ومنه قول النابغة :
يامانع الضيم أن تغشى سراهم والحامل الإصر عنهم بعد ما غرقوا

وقيل الإصر : المسخ قردة وخنازير ؛ وقيل العهد ، ومنه قوله تعالى - وأخذتم على ذلكم إصري - وهذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذي كان على من قبلنا ، لا إلى معنى الإصر في لغة العرب ، فإنه ما تقدم ذكره بلا نزاع ، والإصر : الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها ، يقال أصر يأصر إصرا : حبس ، والإصر بكسر الهمزة من ذلك . قال الجوهري : والموضع مأصر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر . ومعنى الآية أنهم طلبوا من الله سبحانه أن لا يحملهم من ثقل التكليف ما حمل الأمم قبلهم . وقوله (كما حملته) صفة مصدر محذوف : أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا ، أو صفة لإصرا : أى إصرا مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا . قوله (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) هو أيضا عطف على ما قبله ، وتكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا . والمعنى : لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق ؛ وقيل هو عبارة عن إنزال العقوبات ، كأنه قال : لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكليف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا ؛ وقيل المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكليف . قال في الكشف : وهذا تقرير لقوله (ولا تحمل علينا إصرا) . قوله (واعف عنا) أى عن ذنوبنا ، يقال عفوت عن ذنبه : إذا تركته ولم تعاقبه عليه (واغفر لنا) أى استر على ذنوبنا ، والغفر : الستر (وارحنا) أى تفضل برحمة منك علينا (أنت مولانا) أى ولينا وناصرنا ، وخرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون ؛ وقيل معناه : أنت سيدنا ونحن عبيدك (فانصرنا على القوم الكافرين) فإن من حق المولى أن ينصر عبيده ، والمراد عامة الكفرة ، وفيه إشارة إلى إعلاء كلمة الله في الجهاد في سبيله . وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذه أعنى قوله (إن تبدوا ما في أنفسكم) الخ ، أنه ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات قد فعلت ، فكان ذلك دليلا على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشيء من الخطأ والنسيان ولا حمل عليهم شيئا من الإصر الذي حملة على من قبلهم ، ولا حملهم ما لا طاقة لهم به ، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم ، ونصرهم على القوم الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان (لا نفرق بين أحد من رسله) لانكفر بما جاءت به الرسل ، ولا

نفرق بين أحد منهم ، ولا نكذب به (وقالوا سمعنا) للقرآن الذى جاء من الله (وأطعنا) ، أقرّوا الله أن يطيعوه فى أمره ونهيه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (غفرانك ربنا) قال : قد غفرت لكم (وإليك المصير) قال : إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن حكيم بن جابر قال : لما نزلت (آمن الرسول) الآية ، قال جبريل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه ، فقال (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) حتى ختم السورة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) قال : هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم فقال - ما جعل عليكم فى الدين من حرج - . وقال - يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - . وقال - فاتقوا الله ما استطعتم - وأخرج ابن أبي حاتم عنه فى قوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) قال : من العمل . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (إلا وسعها) قال : إلا طاقتها . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك نحوه . وقد أخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن حبان فى صحيحه والطبرانى والدارقطنى والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى ذر مرفوعا ، والطبرانى من حديث ثوبان ومن حديث ابن عمر ومن حديث عقبة بن عامر . وأخرجه البيهقى أيضا من حديثه . وأخرجه ابن عدى فى الكامل وأبو نعيم من حديث أبى بكرة . وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث أمّ الدرداء . وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من حديث الحسن مرسلا ، وأخرجه عبد بن حميد من حديث الشعبي مرسلا . وفى أسانيد هذه الأحاديث مقال ولكنها يقوى بعضها بعضا فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره . وقد تقدم حديث « إن الله قال قد فعلت » وهو فى الصحيحين وهم يشهد لهذه الأحاديث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (إصرا) قال : عهدا . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج أيضا عن عطاء بن أبى رباح فى قوله (ولا تحمل علينا إصرا) قال : لاتمسخنا قردة وخنزير . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية أن الإصر : الذنب الذى ليس فيه توبة ولا كفارة . وأخرج ابن أبي حاتم عن الفضيل فى الآية قال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا أذنب قيل له توبتك أن تقتل نفسك فيقتل نفسه ، فوضعت الأصار عن هذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : لما نزلت هذه الآيات (ربنا لاتؤاخذنا) الخ ، كلما قالها جبريل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال النبي آمين رب العالمين . وأخرج أبو عبيد عن ميسرة أن جبريل لقن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاتمة البقرة آمين . وأخرج أبو عبيد وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال : آمين . وأخرج أبو عبيد عن جبير بن نفير أنه كان يقول : آمين آمين . وأخرج عبد بن حميد عن أبى ذر قال : هى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك فى هذه الآية قال : سأله النبي الله ربه فأعطاه إياها ، فكانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة . وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » . وأخرج أبو عبيد والدارمى والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » . وأخرج أحمد والنسائى والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب بسند صحيح عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول « أعطيت هذه

الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي». وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي ذر مرفوعا نحوه .
وأخرج أبو عبيد وأحمد ومحمد بن نصر عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « اقرعوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة (آمن الرسول) إلى خاتمتها ، فإن الله اصطفى بها محمدا » وإسناده حسن .
وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتهى إلى سدره المنتهى وأعطى ثلاثا ، أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئا المقححات .
وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش ، فتعلموهما وعلموهما نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء » .
وأخرج الدنيلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اثنان هما قرآن وهما يشفيان ، وهما مما يجبهما الله الآيتان من آخر البقرة » . وأخرج الطبراني بسند جيد عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بآلني عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » . وأخرج ابن عدي عن ابن مسعود الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بآلني سنة ، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ آخر سورة البقرة أو آية الكرسي ضحك وقال : إنهما من كنز تحت العرش .
وأخرج ابن مردويه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش » . وأخرج مسلم والنسائي واللفظ له عن ابن عباس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فرفع جبريل بصره فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته . فهذه ثلاثة عشر حديثا في فضل هاتين الآيتين مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد روى في فضلهما من غير المرفوع عن عمر وعلى وابن مسعود وأبي مسعود وكعب الأحبار والحسن وأبي قلابة ، وفي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يغني عن غيره .

سورة آل عمران

هي مدنية ، قال القرطبي بالإجماع ، ومما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث وعشرين آية نزل في وفد نجران ، وكان قلوبهم في سنة تسع من الهجرة . وقد أخرج البيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة آل عمران بالمدينة . وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما هو مشترك بينها وبين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلها ، وكذلك تقدم ما ورد في السبع الطوال . وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تغيب الشمس » . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب عن عمر بن الخطاب قال : من قرأ البقرة وآل عمران والنساء كتب عند الله من الحكماء . وأخرج الديلمي ومحمد بن نصر والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود : من قرأ آل عمران فهو غني . وأخرج الدارمي وعبد بن حميد والبيهقي عنه قال : نعم كنز الصلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل . وأخرج سعيد بن منصور عن أبي عطف قال : اسم آل عمران في التوراة طيبة . وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير قال : قرأ رجل البقرة وآل عمران ، فقال كعب : قد قرأ الورتين إن فيهما الاسم الذي إذا دعي به أجاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

قرأ الحسن وعمر بن عبيد وعاصم بن أبي النجود وأبو جعفر الرواسي (الم الله) بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على (الم) كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد نحو واحد اثنان ثلاثة أربعة مع وصلهم . قال الأخفش : ويجوز (الم الله) بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ ولا تقوله العرب لثقله . وقد ذكر سيبويه في الكتاب أن فواتح السور التي لم تكن موازنة لمفرد طريق التلظظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف ، سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر في باب الوقف ، فحق هذه

الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله الحسن ومن معه في قراءتهم المحكية سابقا . وأما فتح الميم على القراءة المشهورة فوجهه ماروى عن سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين . وقال الكسائي : حروف التهجى إذا لقيتها ألف وصل ، فحذفت الألف وحركت الميم بحركة الألف ، وكذا قال الفراء . وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فلا محل لها من الإعراب ، وإن جعلت أسماء للسورة فحملها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدره قبلها ، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما ، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة . وقوله (الله لا إله إلا هو) مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة : أى هو المستحق للعبودية . والحي القيوم : خبران آخران للاسم الشريف أو خبران لمبتدأ محذوف : أى هو الحي القيوم ، وقيل إنهما صفتان للمبتدأ الأول أو بدلان منه أو من الخبر ، وقد تقدم تفسير الحي والقيوم . وقرأ جماعة من الصحابة القيام عمر وأبي ابن كعب وابن مسعود . قوله (نزل عليك الكتاب) أى القرآن وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهى إما جملة مستأنفة أو خبر آخر للمبتدأ الأول . قوله (بالحق) أى بالصدق - وقيل بالحجة الغالبة وهو فى محل نصب على الحال . وقوله (مصدقا) حال آخر من الكتاب مؤكدة ، لأنه لا يكون إلا مصدقا ، فلا تكون الحال منتقلة أصلا ، وبهذا قال الجمهور ، وجوز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصدق لنفسه ولغيره . وقوله (لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة ، وهو متعلق بقوله : مصدقا ، واللام للتقوية . قوله (وأنزل التوراة والإنجيل) هذه الجملة فى حكم البيان لقوله : لما بين يديه . وإنما قال هنا أنزل وفيما تقدم نزل : لأن القرآن نزل منجما ، والكتابان نزلا دفعة واحدة ، ولم يذكر فى الكتابين من أنزلا عليه ، وذكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن القصد هنا ليس إلا إلى ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه . وقوله (من قبل) أى أنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل الكتاب . وقوله (هدى للناس) إما حال من الكتابين أو علة للإنزال . والمراد بالناس أهل الكتابين ، أو ما هو أعم ، لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع . قال ابن فورك : هدى للناس المتقين ، كما قال فى البقرة هدى للمتقين ، قوله (وأنزل الفرقان) أى الفارق بين الحق والباطل وهو القرآن ، وكرر ذكره تشريفا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل ، وذكر التنزيل أولا والإنزال ثانيا لكونه جامعا بين الوصفين ، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة ثم نزل منها إلى النبی صلى الله عليه وآله وسلم مفرقا منجما على حسب الحوادث كما سبق . وقيل أراد بالفرقان جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله ؛ وقيل أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة ، وقوله (إن الذين كفروا بآيات الله) أى بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة وغيرها ، أو بما فى الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها ، وفيه بيان الأمر الذى استحقوا به الكفر (لهم) بسبب هذا الكفر (عذاب شديد) أى عظيم (والله عزيز) لا يغالبه مغالب (ذوانتقام) عظيم ، والنقمة السطوة ، يقال انتقم منه : إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه . قوله (إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء) هذه الجملة استثنائية لبيان سعة علمه وإحاطته بالمعلومات وعبر عن معلوماته بما فى الأرض والسماء مع كونها أوسع من ذلك ، لتقصير عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته ، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه وكفر من كفر . قوله (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) أصل اشتقاق الصورة من صاره إلى كذا أى أماله إليه ، فالصورة ماثلة إلى شبه وهيئة ، وأصل الرحم من الرحمة لأنه مما يتراحم به ، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه ، وأن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود ، وهو تصوير عباده فى أرحام

أمهاتهم من نطف آبائهم كيف يشاء من حسن وقبيح وأسود وأبيض وطويل وقصير . وكيف معمول يشاء والحملة حالية .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن جعفر بن محمد بن الزبير قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد نجران ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب وعبد المسيح والسيد ، وهو الأيهم ، ثم ذكروا القصة في الكلام الذي دار بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن الله أنزل في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع ، فذكر وفد نجران ومخاصمتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في عيسى عليه السلام ، وأن الله أنزل (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (مصدقا لما بين يديه) قال : لما قبله من كتاب أو رسول . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه ، وقال في قوله (وأنزل الفرقان) هو القرآن فرق بين الحق والباطل ، فأحل فيه حلاله وحرم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحد فيه حدوده ، وفرص فيه فرائضه : وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله (وأنزل الفرقان) أى الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره ، وفي قوله (إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) أى إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ومعرفته بما جاء منه فيها . وفي قوله (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) أى قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم في عيسى إذ جعلوه ربا وإله ، وعندهم من علمه غير ذلك غرة بالله وكفرا به (هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء) قد كان عيسى ممن صور في الأرحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بنى آدم ، فكيف يكون إلهها وقد كان بذلك المنزل . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود في قوله (يصوركم في الأرحام كيف يشاء) قال : ذكورا وإناثا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة في قوله (يصوركم في الأرحام كيف يشاء) قال : إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوما ، ثم تكون علقة أربعين يوما ، ثم تكون مضغة أربعين يوما ، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكا يصورها ، فيأتى الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط منه المضغة ، ثم يعجنه بها ثم يصور كما يؤمر فيقول : أذكر أم أنثى ، أشقى أم سعيد ، وما رزقه ، وما عمره ، وما أثره وما مصائبه ؟ فيقول الله ويكتب الملك ، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (يصوركم في الأرحام كيف يشاء) قال : من ذكر وأنثى ، وأحر وأسود ، وتام الخلق وغير تام الخلق .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا
أُولُوا الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ

أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) .

الكتاب هو القرآن ، فاللام للعهد ، وقدم الظرف وهو عليك لما يفيد من الاختصاص . وقوله (منه آيات محكمات) الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبراً مقدّماً ، والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأً تقديره من الكتاب آيات بينات على نحو ما تقدّم في قوله - ومن الناس من يقول - وإنما كان أولى ، لأن المقصود انقسام الكتاب إلى القسمين المذكورين لا مجرد الإخبار عنهما بأنهما من الكتاب ، والجملة حالية في محل نصب أو مستأنفة لا محل لها . وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال : ف قيل إن المحكم ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ؛ ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبي وسفيان الثوري ، قالوا : وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور ؛ وقيل المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً فإذا ردت إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً ؛ وقيل إن المحكم ناسخ وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه ، والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به . روى هذا عن ابن عباس ؛ وقيل المحكم : الناسخ ، والمتشابه : المنسوخ ، روى عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك ؛ وقيل المحكم : الذي ليس فيه تحريف ولا تحريف عما وضع له ، والمتشابه : ما فيه تحريف وتحويل وتأويل قاله مجاهد وابن إسحاق . قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال ؛ وقيل المحكم : ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره ، والمتشابه : ما يرجع فيه إلى غيره . قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات ، قال القرطبي ما قاله النحاس بين ما اختاره ابن عطية وهو الجارى على وضع اللسان ، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم ، والإحكام : الإتيان ، ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردّد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتيان تركيبها ، ومتى اختلف أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . وقال ابن خويزمنداد للمتشابه وجوه ما اختلف فيه العلماء أي الآيتين نسخت الأخرى ، كما في الحامل المتوفى عنها زوجها ، فإن من الصحابة من قال : إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر والعشر ، ومنهم من قال بالعكس . وكاختلافهم في الوصية للوارث ، وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن يقدم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه ، وكتعارض الأخبار ، وتعارض الأقيسة ، هذا معنى كلامه .

والأولى أن يقال : إن المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره ؛ والمتشابه ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالاته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره . وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذي قدّمناه ليس كما ينبغي ، وذلك لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته ، وعرفوا المتشابه بما يقابلها . وبيان ذلك أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه ، ولا شك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكره ، فإن مجرد الخفاء أو عدم الظهور أو الاحتمال أو التردّد يوجب التشابه ؛ وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال ، والمتشابه بما فيه احتمال ، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها ؛ وهكذا أهل القول الثالث فلأنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها ؛ وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث ، والأمر أوسع مما قالوه جميعاً ؛ وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التحريف والتحريف ، وجعلوا التشابه مقابله ، وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه من دون تحريف وتحريف كفواتح السور

المقطعة ؛ وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه ، والمتشابه بما لا يقوم بها ، وأن هذا هو بعض أوصافهما ؛ وصاحب القول السابع وهو ابن خويزمنداد عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكما ، وإلى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابهة ، فأهل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم . قوله (هن أم الكتاب) أى أصله الذى يعتمد عليه ، ويرد ما خالفه إليه . وهذه الجملة صفة لما قبلها . قوله (وأخر متشابهات) وصف لمخدوف مقدر : أى وآيات أخر متشابهات وهى جمع أخرى ، وإنما لم ينصرف لأنه عدل بها عن الآخر ، لأن أصلها أن يكون كذلك . وقال أبو عبيد : لم ينصرف لأن واحدا لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة ، وأنكر ذلك المبرد . وقال الكسائى : لم تنصرف لأنها صفة ، وأنكره أيضا المبرد . وقال سيويه : لا يجوز أن يكون أخر معدولة عن الألف واللام لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة ، ألا ترى أن سحر معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة . قوله (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) الزيغ : الميل : ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار ؛ ويقال زاغ يزىغ زيفا : إذا ترك القصد ، ومنه قوله تعالى - فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق . وسبب النزول نصارى نجران كما تقدم ، وسيأتى . قوله (فيتبعون ماتشابه منه) أى يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ، ويجعلونه دليلا على ما هم فيه من البدعة الماثلة عن الحق ، كما تجده فى كل طائفة من طوائف البدعة ، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبا شديدا ، ويوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة فى شيء . قوله (ابتغاء الفتنة) أى طلبا منهم لفتنة الناس فى دينهم والتبليس عليهم وإفساد ذات بينهم (وابتغاء تأويله) أى طلبا لتأويله على الوجه الذى يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة . قال الزجاج : معنى ابتغائهم تأويله : أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم ، فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) أى يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب - يقول الذين نسوه - أى تركوه - قد جاءت رسل ربنا بالحق - أى قد رأينا تأويل ما أنبأنا به الرسل . قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) التأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا : أى تفسيرها ، ويكون بمعنى ما يثول الأمر إليه ، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يثول إليه : أى صار ، وأولته تأويلا : أى صيرته ، وهذه الجملة حالية : أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله ، والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله . وقد اختلف أهل العلم فى قوله (والراشخون فى العلم) هل هو كلام مقطوع عما قبله أو معطوف على ما قبله ؟ فتكون الواو للجمع ، فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله ، وأن الكلام تم عند قوله (إلا الله) هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبى الشعثاء وأبى نهبك وغيرهم ، وهو مذهب الكسائى والفراء والأخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير الطبرى عن مالك واختاره ، وحكاه الخطائى عن ابن مسعود وأبى بن كعب قال : وإنما روى عن مجاهد أنه نسق الراشخين على ما قبله ، وزعم أنهم يعلمونه ، قال : واحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراشخون فى العلم يعلمونه قائلين (آمنا به) وزعم أن موضع (يقولون) نصب على الحال وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ، لأن العرب لا تضم الفعل والمفعول معا ، ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل ، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالا ، ولو جاز ذلك لحاز أن يقال عبد الله راكبا ، يعنى أقبل عبد الله راكبا ، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس ، فكان يصلح حالا كقول الشاعر : أنشدني أبو عمرو . قال : أنشدنا أبو العباس ثعلب :

أرسلت فيها رجلا لكالكما يقصر يمشى ويطول باركا

فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده . وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئا عن الخلق وينسبه لنفسه فيكون له في ذلك شريك ، ألا ترى قوله عز وجل - قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله - ، وقوله - لا يجليها لوقتها إلا هو - ، وقوله - كل شيء هالك إلا وجهه - فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره ، وكذلك قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) ولو كانت الواو في قوله (والراسخون) للنسق لم يكن لقوله (كل من عند ربنا) فائدة انتهى . قال القرطبي : ما حكاها الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره . فقد روى عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل ، وأنهم داخلون في علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به . وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم ، و (يقولون) على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخون كما قال :

الريح ييكى شجوه والبرق يلعب في الغمامه

وهذا البيت يحتمل المعنيين ، فيجوز أن يكون والبرق مبتدأ والخبر يلعب على التأويل الأول فيكون مقطوعا مما قبله ، ويجوز أن يكون معطوفا على الريح ، ويلعب في موضع الحال على التأويل الثاني أى لامعا انتهى . ولا يخفك أن مقاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله (يقولون آمنا به) حالا من أن العرب لا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل إلى آخر كلامه لا يتم إلا على فرض أنه لافعل هنا ، وليس الأمر كذلك ، فالفعل مذكور ، وهو قوله (وما يعلم تأويله) ولكنه جاء الحال من المعطوف ، وهو قوله (والراسخون) دون المعطوف عليه ، وهو قوله (إلا الله) وذلك جائز في اللغة العربية . وقد جاء مثله في الكتاب العزيز . ومنه قوله تعالى - للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم - إلى قوله - والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا - الآية ، وكقوله - وجاء ربك والملك صفا صفا - أى وجاءت الملائكة صفا صفا ، ولكن هاهنا مانع آخر من جعل ذلك حالا ، وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح ، فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال لافى هذه الحالة الخاصة ، فاقضى هذا أن جعل قوله (يقولون آمنا به) حالا غير صحيح ، فتعين المصير إلى الاستثناف والجزم بأن قوله (والراسخون في العلم) مبتدأ خبره (يقولون) ، ومن جملة ما استدلل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم ، فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك ؟ ويحاج عن هذا بأن تركهم لطلب علم مالم يأذن الله به ، ولا جعل خلقه إلى علمه سبيلا هو من رسوخهم ، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه وأن الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ ، وناهيك بهذا من رسوخ . وأصل الرسوخ في لغة العرب : الثبوت في الشيء ، وكل ثابت راسخ ، وأصله في الأجرام أن ترسخ الخليل أو الشجر في الأرض ، ومنه قول الشاعر :

لقد رسخت في الصدر منى مودة لليلي أبت آياتها أن تغيرا

فهؤلاء ثبتوا في أمثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه ، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه . ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يثول أمره إليه ، ومنه قوله - هذا تأويل رؤياي - ، وقوله - هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله - أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ، لأن حقائق الأمور وكنها لا يعلمها إلا الله عز وجل ، ويكون قوله (والراسخون في العلم) مبتدأ ، و (يقولون آمنا به) خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله - نبشنا بتأويله - أى بتفسيره فالوقف على (والراسخون في العلم) لأنهم

يعلمون ويفهمون ماخطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه ، وعلى هذا فيكون (يقولون آمنا به) حالا منهم ، ورجح ابن فورك أن الراشدين يعلمون تأويله ، وأطنب في ذلك ، وهكذا جماعة من محققى المفسرين رجحوا ذلك . قال القرطبي : قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وهو الصحيح فإن تسميتهم راشدين تقضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب ، وفى أى شيء هو رسوخهم إذ لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ، لكن المتشابه يتنوع ؛ فنه مالا يعلم البتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ؛ فن قال من العلماء الخذاق بأن الراشدين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع . وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال مافيه من تأويل غير مستقيم انتهى .

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع فى مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم فى تحقيق معنى المحكم والمتشابه . وقد قدّمنا لك ما هو الصواب فى تحقيقهما ، ونزيدك ها هنا إيضاحا وبيانا ، فنقول : إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذى قدّمناه فواتح السور ، فإنها غير متضحة المعنى ، ولا ظاهرة الدلالة ، لا بالنسبة إلى أنفسها لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب ، ويعرف عرف الشرع ما معنى الم ، المر ، حم ، طس ، طسم ونحوها ، لأنه لا يجد بيانها فى شيء من كلام العرب ولا من كلام الشرع ، فهى غير متضحة المعنى ، لا باعتبارها نفسها ، ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها ، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم ، والألفاظ الغريبة التى لا يوجد فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع ما يوضحها ، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما فى قوله - إن الله عنده علم الساعة - إلى الآخر الآية ، ونحو ذلك وهكذا ما كانت دلالة غير ظاهرة لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره كورود الشيء محتملا لأمرين احتمالا لا يرجع أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشيء فى نفسه ، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة ، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضا كلياً بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لا باعتبار نفسه ولا باعتبار أمر آخر يرجحه . وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفاً فى لغة العرب أو فى عرف الشرع أو باعتبار غيره وذلك كالأمور المجملة التى ورد بيانها فى موضع آخر من الكتاب العزيز أو فى السنة المطهرة أو الأمور التى تعارضت دلالتها ، ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها فى موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب ، فاشدد يدك على هذا فإنك تنجوبه من مضايق ومزالق وقعت للناس فى هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمى ما دل لما ذهب إليه محكما وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابها : سيما أهل علم الكلام ، ومن أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم .

واعلم أنه قلورد فى الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم ولكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية بل بمعنى آخر ، ومن ذلك قوله تعالى - كتاب أحكمت آياته - وقوله - تلك آيات الكتاب الحكيم - والمراد بالمحكم بهذا المعنى أنه صحيح الألفاظ قويم المعانى فائق فى البلاغة والفصاحة على كل كلام وورد أيضا ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر ومنه قوله تعالى - كتابا متشابها - والمراد بالمتشابه بهذا المعنى أنه يشبه بعضه بعضا فى الصحة والفصاحة والحسن والبلاغة . وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه فى القرآن فوائده : منها أنه يكون فى الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة ، وذلك يوجب

مزيد الثواب للمستخرجين للحق وهم الأئمة المجتهدون ، وقد ذكر الزمخشري والرازي وغيرهما وجوها هذا أحسنها وبقيتها لا تستحق الذكر ها هنا . قوله (كل من عند ربنا) فيه ضمير مقدر عائد على قسمي المحكم والمتشابه : أى كله ، أو المخدوف غير ضمير : أى كل واحد منهما وهذا من تمام المقول المذكور قبله . وقوله (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أى العقول الخالصة : وهم الراسخون في العلم ، الواقفون عند متشابهه ، العاملون بمحكمه العاملون بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية . وقوله (ربنا لاترغ) الخ من تمام ما يقوله الراسخون : أى يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، ويقولون (ربنا لاترغ قلوبنا) قال ابن كيسان : سألوأ ألا يزيغوا فزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى - فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه (وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) قالوا (ربنا لاترغ قلوبنا) باتباع المتشابه (بعد إذ هديتنا) إلى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات والظرف وهو قوله « بعد » منتصب بقوله : لاترغ . قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) أى كائنة من عندك ، ومن لا ابتداء الغاية ولدن بفتح اللام وضم الدال وسكون التون . وفيه لغات أخر هذه أفصحها وهو ظرف مكان وقد يضاف إلى الزمان ، وتكثير رحمة للتعظيم أى رحمة عظيمة واسعة وقوله (إنك أنت الوهاب) تعليل للسؤال أو لإعطاء المستول . وقوله (ربنا إنك جامع الناس) أى باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم (ليوم) هو يوم القيامة أى لحساب يوم أو لجزاء يوم على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . قوله (لاريب فيه) أى في وقوعه ووقوع مافيه من الحساب والجزاء ، وقد تقدم تفسير الريب ، وجملة قوله (إن الله لا يخلف الميعاد) للتعليل لمضمون ما قبلها : أى أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه وخلقه يخالف الألوهية كما أنها تنافيه وتباينه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحطوده وفرائضه وما نؤمن به ونعمل به والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره ، وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال في قوله (منه آيات محكمات) قال : الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات - قل تعالوا - والآيات بعدها . وفي رواية عنه أخرجه ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (آيات محكمات) قال : من هنا - قل تعالوا - إلى ثلاث آيات ، ومن هنا - وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه - إلى ثلاث آيات بعدها . وأقول : رحم الله ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه . فإن تعيين ثلاث آيات أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء ، فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريبا من أن المحكمات ناسخه وحلاله الخ ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : المحكمات : الحلال والحرام ، وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قدمنا في أول هذا البحث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (فأما الذين في قلوبهم زيغ) يعني أهل الشك ، فيحملون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ، ويلبسون فلبس الله عليهم (وما يعلم تأويله إلا الله) قال : تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود (زيغ) قال : شك . وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هو الذي أنزل عليك الكتاب) إلى قوله (فأما الذين في قلوبهم زيغ) إلى قوله (أولوا الألباب) قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى فاحذروهم » . وفي لفظ « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذي ساءم الله فاحذروهم » هذا لفظ البخاري ولفظ ابن جرير وغيره « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه والذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فلا

تجالسوهم» وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) قال : هم الخوارج . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن على سبعة أحرف : زاجر ، وأمر ، وحلال وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ؛ فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه ، وأفعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتهم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، وأعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا » وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفا . وأخرج الطبراني عن عمر بن أبي سلمة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعبد الله بن مسعود فذكر نحوه . وأخرج البخاري في التاريخ عن علي مرفوعا بإسناد ضعيف نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي داود في المصاحف عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو يعلى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف والمرء في القرآن كفر ، ما عرفتم فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » وإسناده صحيح . وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة مرفوعا ، وفيه « واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن طاوس قال : كان ابن عباس يقرأها (وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون في العلم آمنا به) وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش قال في قراءة عبد الله : وإن حقيقة تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي الشعثاء وأبي نهيك قال : إنكم تصلون هذه الآية وهي مقطوعة (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) فأنهى علمهم إلى قولهم الذي قالوا . وأخرج ابن جرير عن عروة . قال : الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله ، ولكنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن عمر بن عبد العزيز نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن أبي قال : كتاب الله ما استبان فاعمل به ، وما اشتبه عليك فآمن به وكله إلى عالمه . وأخرج أيضا عن ابن مسعود قال : إن للقرآن منارا كمنار الطريق ، فما عرفتم فتمسكوا به وما اشتبه عليكم فذكروه . وأخرج أيضا عن معاذ نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : تفسير القرآن على أربعة وجوه : تفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام ، وتفسير تعرفه العرب بلغتها ، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله ، من ادعى علمه فهو كذاب . وأخرج ابن جرير عنه قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أنا ممن يعلم تأويله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفي عنه في قوله (يقولون آمنا به) نوؤمن بالمحكم وندين به ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به وهو من عند الله كله . وأخرج الدارمي في مسنده ونصر المقدسي في الحجة عن سليمان بن يسار : أن رجلا يقال له ضبيع قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن . فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله ضبيع ، فقال : وأنا عبد الله عمر ، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمی رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي . وأخرج الدارمي أيضا من وجه آخر ، وفيه : أنه ضربه ثلاث مرات يتركه في كل مرة حتى يبرأ ، ثم يضربه . وأخرج أصل القصة ابن عساكر في تاريخه عن أنس . وأخرج الدارمي وابن عساكر : أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا ضبيعا ، وقد أخرج هذه القصة جماعة . وأخرج ابن جرير

وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة ووائل بن الأسقع وأبي الدرداء « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الراغبين في العلم ؟ فقال : من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراغبين في العلم » وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن يزيد الأزدي عن أنس مرفوعاً نحوه : وأخرج أبو داود والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الجدل في القرآن كفر » . وأخرج نصر المقدسي في الحجة عن ابن عمر قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و من وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن ، فخرج محمرة وجنتاه كأنما يقطران دما فقال : يا قوم لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضل من كان قبلكم بجدلهم ، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً ، فما كان من محكمه فاعملوا به وما كان من متشابهه فآمنوا به » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أم سلمة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ثم قرأ (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عنها مرفوعاً نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة مرفوعاً نحوه . وقد ورد نحوه من طرق أخر . وأخرج ابن النجار في تاريخه في قوله (ربنا إنك جامع الناس ليوم) الآية . عن جعفر بن محمد الخلدي قال : روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه رده الله عليه ، ويقول بعد قراءتها : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين مالي إنك على كل شيء قدير » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ تَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ رَأَى الْإِنِّ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) .

المرد بالذين كفروا جنس الكفرة - وقيل وفد نجران ، وقيل قريظة ؛ وقيل النصير ؛ وقيل مشركو العرب . وقرأ السلمي « لن يغني » بالتحية ، وقرأ الحسن بكون الياء الآخرة تخفيفاً . قوله (من الله شيئاً) أى من عذابه شيئاً من الإغناء ؛ وقيل إن كلمة من بمعنى عند : أى لا تغني عند الله شيئاً قاله أبو عبيد ؛ وقيل هى بمعنى بدل . والمعنى بدل رحمة الله وهو بعيد . قوله (وأولئك هم وقود النار) الوقود : اسم للحطب وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة : أى هم حطب جهنم الذى تسعر به ، وهم مبتدأ ، ووقود خبره والجملة خبر أولئك ، أوهم ضمير فصل ، وعلى التقديرين فالجملة مستأنفة مقررة لقوله (لن تغني عنهم أموالهم) الآية . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف (وقود) بضم الواو وهو مصدر ، وكذلك الوقود بفتح الواو في قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسماً للحطب كما تقدم فلا يحتاج إلى تقدير ، ويحتمل أن يكون مصدراً ، لأنه من المصادر التى تأتى على وزن الفعول فتححتاج إلى تقدير :

أى هم أهل وقود النار . قوله (كذاب آل فرعون) الدأب : الاجتهاد ، يقال دأب الرجل فى عمله يدأب دأباً ودعوباً : إذا جد واجتهد ، والدائبان الليل والنهار ، والدأب : العادة والشأن ، ومنه قول امرئ القيس
كذابك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمراد هنا كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم ، واختلفوا فى الكاف ، فقليل هى فى موضع رفع تقديره دأبهم كذاب آل فرعون مع موسى . وقال الفراء : إن المعنى كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا ، لأن كفروا داخلة فى الصلة ؛ وقيل هى متعلقة بأخذهم الله : أى أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون ؛ وقيل هى متعلقة بلم تغنى : أى لم تغن عنهم غناء ، كما لم تغن عن آل فرعون ؛ وقيل إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود ، ويكون التشبيه فى نفس الإحراق . قالوا : ويؤيده قوله تعالى - أدخلوا آل فرعون أشد العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا - ، والقول الأول هو الذى قاله جمهور المحققين ، ومنهم الأزهري . قوله (والذين من قبلهم) أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة : أى وكذاب الذين من قبلهم . قوله (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله) يحتمل أن يريد الآيات المتلوة ، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ، ويصح إرادة الجميع . والجملة بيان وتفسير لدأبهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد : أى دأب هؤلاء كذاب أولئك قد كذبوا الخ . وقوله (بذنوبهم) أى بسائر ذنوبهم التى من جملتها تكذيبهم . قوله (قل للذين كفروا) قيل هم اليهود ؛ وقيل هم مشركو مكة ، وسأبقى بيان سبب نزول الآية . وقوله (ستغلبون) قرئ بالفوقية والتحتية ، وكذلك (تحشرون) . وقد صدق الله وعده بقتل بنى قريظة ، وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على سائر اليهود ، والله الحمد . قوله (وبئس المهاد) يحتمل أن يكون من تمام القول الذى أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم ، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلاً وتفظيهاً . قوله (قد كان لكم آية) أى علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم ، وهذه الجملة جواب قسم محذوف ، وهى من تمام القول المأثور به لتقرير مضمون ما قبله ولم يقل كانت لأن التأنيث غير حقيقى . وقال الفراء : إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه وبين الاسم بقوله (لكم) . والمراد بالفتنين المسلمون والمشركون لما اتقوا يوم بدر : قوله (فئة تقاتل فى سبيل الله) قراءة الجمهور برفع فئة . وقرأ الحسن ومجاهد « فئة » و « كافرة » بالخفض ، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أى إحداها فئة . وقوله (تقاتل) فى محل رفع على الصفة ، والجر على البدل من قوله (فتين) . وقوله (وأخرى) أى وفئة أخرى كافرة . وقرأ ابن أبى عبة بالنصب فيهما . قال ثعلب : هو على الحال : أى التقتا مختلفتين ، مؤمنة وكافرة . وقال الزجاج : النصب بتقدير أعنى ؛ وسميت الجماعة من الناس فئة لأنه يفاء إليها : أى يرجع فى وقت الشدة . وقال الزجاج الفئة : الفرقة مأخوذ من فأوت رأسه بالسيف : إذا قطعه ، ولا خلاف أن المراد بالفتين هما المقتلتان فى يوم بدر ، وإنما وقع الخلاف فى مخاطب بهذا الخطاب ؛ فقليل المخاطب بها المؤمنون ؛ وقيل اليهود . وفائدة الخطاب للمؤمنين تشييت نفوسهم وتشجيعها ، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين . قوله (ترونهم مثليهم) قال أبو على الفارسي : الروية فى هذه الآية رؤية العين ، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد ، ويدل عليه قوله (رأى العين) والمراد أنه يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين أو مثلى عدد المسلمين ، وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية ، وقرأ نافع بالفوقية . وقوله (مثليهم) منتصب على الحال . وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم المؤمنون ،

والمفعول هم الكفار . والضمير في مثلهم يحتمل أن يكون للمشركين : أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العدد ، وفيه بعد أن يكثر الله المشركين في أعين المؤمنين وقد أخبرنا أنه قللهم في أعين المؤمنين فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم في العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم فقلل الله المشركين في أعين المسلمين فأراهم إياهم مثلى عدتهم لتقوى أنفسهم . وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار ، ويحتمل أن يكون الضمير في مثلهم للمسلمين : أى ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلى ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم وقد قال من ذهب إلى التفسير الأول : أعنى أن فاعل الرؤية المشركون ، وأنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم أنه لا يناقض هذا ما في سورة الأنفال من قوله تعالى - ويقللهم في أعينهم - بل قللوا أولا في أعينهم ليلاقوهم ويحترثوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا . قوله (رأى العين) مصدر مؤكد لقوله (ترونهم) أى رؤية ظاهرة مكشوفة لالبس فيها (والله يؤيد بنصره من يشاء) أى يقوى من يشاء أن يقويه ، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية (إن في ذلك) أى في رؤية القليل كثيرا (لعبرة) فعلة من العبور كالحلوسة من الجلوس . والمرد الاتعاظ ، والتذكير للتعظيم : أى عبرة عظيمة ، وموعظة جسيمة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كذاب آل فرعون) قال : كصنيع آل فرعون . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال كفعل . وأخرج مثله أبو الشيخ عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : كسنتهم . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع قال : يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا ، قالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا كانوا غمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله (قل للذين كفروا استغلبون) إلى قوله (أولى الأبصار) » . وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عاصم بن عمر بن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : قال فنحاص اليهودى وذكر نحوه . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (قد كان لكم آية) عبرة وتفكر . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (قد كان لكم آية في فتيين التقنا فته تقاتل في سبيل الله) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببدر (وأخرى كافرة) فئة قريش الكفار . وأخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت في أهل بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله (قد كان لكم آية) يقول : قد كان لكم في هؤلاء عبرة ومتفكر أيدهم الله ونصرهم على عدوهم يوم بدر كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا ، وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال : هذا يوم بدر نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فرأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال أنزلت في التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وكان المشركون مثلهم ستمائة وستة وخمسين فأيد الله المؤمنين .

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَوْ نَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتِّينَ وَالْمُتَفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) .

قوله (زين للناس) الخ : كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار ، والمزين قيل هو الله سبحانه ، وبه قال عمر كما حكاه عنه البخاري وغيره ، ويؤيد قوله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم - . وقيل المزين هو الشيطان ، وبه قال الحسن ، حكاه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه . وقرأ الضحاك « زين » على البناء للفاعل . وقرأه الجمهور على البناء للمفعول . والمراد بالناس : الجنس . والشهوات جمع شهوة ، وهي نزوع النفس إلى ما تريده . والمراد هنا المشتيات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مرغوبا فيها أو تحقيرا لها لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطباع البهيمية ، ووجه تزيين الله سبحانه لها ابتلاء عباده كما صرح به في الآية الأخرى . وقوله (من النساء والبنين) في محل الحال : أي زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء والبنين الخ . وبدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس إليهن لأنهن حباثل الشيطان ، وخص البنين دون البنات لعدم الاطراد في محبتهم . والقناطير جمع قنطار وهو اسم للكثير من المال . قال الزجاج : القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه : تقول العرب قنطرت الشيء : إذا أحكمته ، ومنه سميت القنطرة لإحكامها . وقد اختلف في تقديره على أقوال للسلف ستأتي إن شاء الله . واختلفوا في معنى القنطرة ، فقال ابن جرير الطبري : معناها المضغفة ، وقال القناطير : ثلاثة ، والقنطرة تسعة . وقال الفراء : القناطير جمع القنطار ، والقنطرة جمع الجمع ، فتكون تسع قناطير وقيل القنطرة المضروبة ، وقيل المكملة كما يقال بدرة مبدرة ، وألوف مؤلفة ، وبه قال مكي وحكاه الهروي . وقال ابن كيسان : لا تكون القنطرة أقل من سبع قناطير . وقوله (من الذهب والفضة) بيان للقناطير ، أوحال (والخيل لسومة) قبل هي المرعية في المروج والمسارح ، يقال سامت الدابة والشاة : إذا سرحت ، وقيل هي المعدة للجهاد وقيل هي الحسان ، وقيل المعلمة من السومة ، وهي العلامة : أي التي يجعل عليها علامة لتمييز عن غيرها . وقال ابن فارس في المجمل المسومة : المرسله وعليها ركبائها . وقال ابن كيسان : البلق . والأنعام هي الإبل والبقر والغنم ، فإذا قلت نعم فهي الإبل خاصة قاله الفراء وابن كيسان ، ومنه قول حسان :

وكانت لايزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

والحرث : اسم لكل ما يحرث ، وهو مصدر سمي به المحرث ، يقول حرث الرجل حرثا : إذا أثار الأرض فيقع على الأرض والزرع . قال ابن الأعرابي الحرث : التفتيش . قوله (ذلك متاع الحياة الدنيا) أي ذلك المذكور ما يتمتع به ثم يذهب ولا يبقى ، وفيه ترهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة . والمآب : المرجع أب يثوب إياها : إذا رجع ، ومنه قول امرئ القيس :

لقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

قوله (قل أوتبئكم بخير من ذلكم) أي هل أخبركم بما هو خير لكم من تلك المستلذات وإيهام الخير للتفخيم ، ثم

بينه بقوله (للذين اتقوا عند ربهم جنات) وعند في محل نصب على الحال من جنات وهي مبتدأ ، وخبرها للذين اتقوا ، ويجوز أن تتعلق اللام بخير . وجنات خبر مبتدأ مقدر : أي هو جنات ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون بذلك . وقد تقدم تفسير قوله (تجري من تحتها الأنهار) وما بعده . قوله (الذين يقولون) بدل من قوله (للذين اتقوا) أو خبر مبتدأ محذوف : أي هم الذين ، أو منصوب على المدح ، والصابرين وما بعده نعت للموصول على تقدير كونه بدلا ، أو منصوبا على المدح وعلى تقدير كونه خبرا يكون الصابرين وما بعده منصوبة على المدح وقد تقدم تفسير الصبر والصدق والقنوت . قوله (والمستغفرين بالأسحار) هم السائلون للمغفرة بالأسحار ؛ وقيل المصلون . والأسحار جمع سحر بفتح الحاء وسكونها . قال الزجاج : هو من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر ، وخص الأسحار لأنها من أوقات الإجابة

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ، لما نزلت (زين للناس حب الشهوات) قال : الآن يارب حين زينتها لنا ، فنزلت (قل أوئيبكم) . وأخرجه ابن المنذر عنه بلفظ خير انتهى إلى قوله (قل أوئيبكم بخير) فبكى وقال : بعد ماذا بعد ماذا بعد مازينتها . وأخرج أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « القنطار اثنا عشر ألف أوقية » . رواه أحمد من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد عن عاصم عن أبي صالح عنه . ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الصمد به . وقد رواه ابن جرير موقوفا على أبي هريرة . قال ابن كثير : وهذا أصح . وأخرج الحاكم وصححه عن أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القناطير المقنطرة فقال : « القنطار ألف أوقية » . ورواه ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه مرفوعا بلفظ ألف دينار . وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية » . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من قول معاذ بن جبل ، وأخرجه ابن جرير من قول ابن عمر ، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي من قول أبي هريرة ، وأخرجه ابن جرير والبيهقي من قول ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : القنطار مائة مسك جلد الثور ذهبا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه قال : القنطار سبعون ألفا ، وأخرجه عبد بن حميد عن مجاهد . وأخرج أيضا عن سعيد بن المسيب قال القنطار ثمانون ألفا . وأخرج أيضا عن أبي صالح قال : القنطار مائة رطل . وأخرجه أيضا عن قتادة وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر قال : القنطار خمسة عشر ألف مثقال ، والمثقال أربعة وعشرون قيراطا وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : هو المال الكثير من الذهب والفضة . وأخرجه أيضا عن الربيع . وأخرج عن السدي أن المقنطرة المضروبة . وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس (الخليل المسومة) قال : الرابعة . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مجاهد . وأخرج ابن جرير عنه قال : هي الرابعة والمطهمة الحسان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : هي المطهمة الحسان . وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : تسويمها حسنها . وأخرج ابن أبي حاتم قال (الخليل المسومة) الغرة والتحجيل . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله الصابرين قال : قوم صبروا على طاعة الله وصبروا عن محارمه ، والصادقون قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم وصدقوا في السر والعلانية ، والقانتون هم المطيعون والمستغفرون بالأسحار أهل الصلاة . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة قال : هم الذين يشهدون صلاة الصبح . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة . وأخرج ابن جرير وأحمد في الزهد عن سعيد الحريري قال : : بلغنا أن داود عليه

السلام سأل جبريل فقال : يا جبريل أى الليل أفضل ؟ قال : يا داود ما أدري إلا أن العرش يهتز في السحر . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول هل من سائل فأعطيه ، هل من داع فأستجيب له هل من مستغفر فأغفر له ؟ » .

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) .

قوله (شهادة الله) أى بين وأعلم . قال الزجاج : الشاهد هو الذى يعلم الشيء ويبينه ، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين ؛ وقال أبو عبيدة : شهد الله بمعنى قضى : أى أعلم . قال ابن عطية وهذا مردود من جهات ، وقيل إنها شبهت دلالاته على وحدانيته بأفعاله ووحيه بشهادة الشاهد في كونها مبنية . وقوله أنه بفتح الهمزة . قال المبرد : أى بأنه ثم حذفت الباء كما في أمرتك الخير : أى بالخير . وقرأ ابن عباس « إنه » بكسر الهمزة بتضمين شهد معنى قال . وقرأ أبو المهلب « شهداء لله » بالنصب على أنه حال من الصابرين وما بعده ، أو على المدح (والملائكة) عطف على الاسم الشريف ، وشهادتهم إقرارهم بأنه لا إله إلا الله . وقوله (وأولوا العلم) معطوف أيضا على ما قبله وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم وما يقع من البيان للناس على ألسنتهم ، وعلى هذا لا بد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله وشهادة الملائكة وأولى العلم . وقد اختلف في أولى العلم هؤلاء من هم ؟ فقيل هم الأنبياء ؛ وقيل المهاجرون والأنصار ، قاله ابن كيسان ؛ وقيل مؤمنو أهل الكتاب ، قاله مقاتل ؛ وقيل المؤمنون كلهم ، قاله السدى والكلبى ، وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص . وفي ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة ، ومنقبة نبيلة لقربهم باسمه واسم ملائكته ، والمراد بأولى العلم هنا علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به إلى معرفتهما ، إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذى اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة . وقوله (قائما بالقسط) أى العدل : أى قائما بالعدل في جميع أموره أو مقيما له ، وانتصاب قائما على الحال من الاسم الشريف . قال في الكشاف : إنها حال مؤكدة كقوله - وهو الحق مصدقا - وجاز إفراده سبحانه بذلك دون ما هو معطوف عليه من الملائكة وأولى العلم لعدم اللبس ؛ وقيل إنه منصوب على المدح ؛ وقيل إنه صفة لقوله (إله) أى لا إله إلا الله قائما بالقسط إله هو حال من قوله (إلا هو) والعامل فيه معنى الجملة . وقال الفراء : هو منصوب على القطع لأن أصله الألف واللام ، فلما قطعت نصب كقوله - وله الدين وا صبا - ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود القائم بالقسط . وقوله (لا إله إلا هو) تكرير لقصد التأكيد ؛ وقيل إن قوله (أنه لا إله إلا هو) كالدعوى ، والأخيرة كالحكم . وقال جعفر الصادق الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم . وقوله (العزيز الحكيم) مرتفعان على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية . قوله (إن الدين عند الله الإسلام) . قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة

مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، وقرئ بفتح أن . قال الكسائي : أنصبهما جميعا يعنى قوله (شهد الله أنه) وقوله (إن الدين عند الله الاسلام) بمعنى شهد الله أنه كذا وأن الدين عند الله الاسلام . قال ابن كيسان : إن الثانية بدل من الأولى . وقد ذهب الجمهور إلى أن الاسلام هنا بمعنى الإيمان وإن كانا في الأصل متغايرين كما في حديث جبريل الذى بين فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم معنى الاسلام ومعنى الإيمان ، وصدقه جبريل ، وهو في الصحيحين وغيرهما ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة . قوله (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغى بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول في دين الاسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم . قال الأخفش : وفي الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم . والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو خلافهم في كون نبينا صلى الله عليه وآله وسلم نبيا أم لا ؟ وقيل اختلافهم في نبوة عيسى ؛ وقيل اختلافهم في ذات بينهم حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء . قوله (ومن يكفر بآيات الله) أى بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الاسلام (فإن الله سريع الحساب) فيجازيه ويعاقبه على كفره بآياته ، والإظهار في قوله فإن الله مع كونه مقام الإضرار للتحويل عليهم والتهديد لهم . قوله (فإن حاجوك) أى جادلوك بالشبه الباطلة والأقوال المحرقة ، (فقل أسلمت وجهى لله) أى أخلصت ذاتى لله ، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان وأجمعها للحواس ؛ وقيل الوجه هنا بمعنى القصد . وقوله (ومن اتبعن) عطف على فاعل أسلمت وجاز للفصل وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب الباء في اتبعن على الأصل وحذفها الآخرون اتباعا لرسم المصحف ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع والمراد بالأميين هنا مشركو العرب . وقوله (أسلمتم) استفهام تقريرى يتضمن الأمر : أى أسلموا ، كذا قاله ابن جرير وغيره . وقال الزجاج (أسلمتم) تهديد ، والمعنى : أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الاسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا ؟ تبكيتم لهم وتصغروا لشأنهم في الإنصاف وقبول الحق . وقوله (فقد اهتدوا) أى ظفروا بالهداية التى هى الحظ الأكبر ، وفازوا بخير الدنيا والآخرة (وإن تولوا) أى أعرضوا عن قبول الحجة ولم يعملوا بموجبها (فإنما عليك البلاغ) أى فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك ، ولست عليهم بمسيطر فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، والبلاغ مصدر . وقوله (والله بصير بالعباد) فيه وعد ووعد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (قائما بالقسط) قال : بالعدل . وأخرج أيضا عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (إن الدين عند الله الاسلام) قال : الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذى شرع لنفسه وبعث به رسله ودلّ عليه أوليائه لا يقبل غيره . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لم يبعث الله رسولا إلا بالاسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أو صنمان فأنزل الله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآية ، فأصبحت الأصنام كلها قد خرت سجدا للكعبة . وأخرج ابن السني في عمل اليوم والليلة وأبو منصور الشحامى في الأربعين عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) إلى قوله (بغير حساب) هن معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب ،

يقلن يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك ؟ قال الله : إني خلقت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مأواه على ما كان منه ، وإلا أسكنته حظيرة القدس ، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة كل يوم سبعين نظرة وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وإلا أعدته من كل عدو ونصرته منه . وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعا نحوه ، وفيه « لا يتلوكن عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه ، وأسكنته جنة الفردوس ، ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة ، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة » . وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن السني عن الزبير بن العوام قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فقال : وأنا على ذلك من الشاهدين » ولفظ الطبراني « وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت العزيز الحكيم » . وأخرج ابن عدي والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه والخطيب في تاريخه وابن النجار عن غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تجارة فزلت قريبا من الأعمش ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقال : وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي وديعة عند الله ، قالها مرارا ، فقلت : لقد سمع فيها شيئا فسألته فقال : حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوا الكتاب) قال : بنو إسرائيل . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (بغيا بينهم) يقول : بغيا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (فإن حاجوك) قال : إن حاجك اليهود والنصارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وقل للذين أوتوا الكتاب) قال : اليهود والنصارى (والأمين) قال : هم الذين لا يكتبون .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) .

قوله (بآيات الله) ظاهره عدم الفرق بين آية وآية (ويقتلون النبيين بغير حق) يعنى اليهود قتلوا الأنبياء (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) أى بالعدل ، وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . قال المبرد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون فدعواهم إلى الله فقتلواهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمرهم

بالإسلام فقتلوهم . ففهم نزلت الآية . وقوله (فبشرهم بعذاب أليم) خبر (إن الذين كفروا) الخ ، ودخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ، وذهب بعض أهل النحو إلى أن الخبر قوله (أولئك الذين حبطت أعمالهم) وقالوا إن البناء لا تدخل في خبر إن وإن تضمن اسمها معنى الشرط ، لأنه قد نسخ بدخول إن عليه ، ومنهم سيويوه والأخفش وذهب غيرهما إلى أن ما يتضمنه المبتدأ من معنى الشرط لا ينسخ بدخول إن عليه ، ومثل المكسورة المفتوحة ، ومنه قوله تعالى - واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة - . وقوله (حبطت أعمالهم) قد تقدم تفسير الإحباط ، ومعنى كونها حبطت في الدنيا والآخرة أنه لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا ، حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات ، بل عوملوا معاملة أهل السيئات فلعنوا وحل بهم الخزي والصغار ولهم في الآخرة عذاب النار . قوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) فيه تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكل من تصح منه الرؤية من حال هؤلاء وهم أحبار اليهود . والكتاب : التوراة ، وتنكير النصيب للتعظيم : أى نصيبا عظيما كما يفيد مقام المبالغة ، ومن قال : إن التنكير للتحقير فلم يصب فلم ينتفعوا بذلك ، وذلك بأنهم يدعون إلى كتاب الله الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة (ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم) والحال أنهم معرضون عن الإجابة إلى مادعوا إليه مع علمهم به واعترافهم بوجوب الإجابة إليه ، و (ذلك) إشارة إلى مامر من التولى والإعراض بسبب (أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) وهى مقدار عبادتهم العجل . وقد تقدم تفسير ذلك (وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) من الأكاذيب التى من جملتها هذا القول . قوله (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) هو رد عليهم وإبطال لما غرهم من الأكاذيب : أى فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم الجزاء الذى لا يرتاب مرتاب فى وقوعه ، فإنهم يقومون لاحالة ويعجزون عن دفعه بالحيل والأكاذيب (ووفيت كل نفس ما كسبت) أى جزاء ما كسبت على حذف المضاف (وهم لا يظلمون) بزيادة ولا نقص . والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس . قال الكسائى : اللام فى قوله (ليوم) بمعنى فى وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . وقال ابن جرير الطبرى المعنى لما يحدث فى يوم .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح « قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبيا ، أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (الذين يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقيسط من الناس) إلى قوله (وما لهم من ناصرين) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يأبأ عبيدة قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل وسبعون رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر ، فقتلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله . » وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث عيسى يحيى بن زكريا فى اثنى عشر رجلا من الحواريين يعلمون الناس ، فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضى لها كل يوم حاجة ، فقالت لها أمها : إذا سألك عن حاجة فقولى حاجتى أن تقتل يحيى بن زكريا ، فقال : سلى غير هذا ، فقالت : لا أسألك غير هذا فلما أبت أمر به فذبح فى طست ، فبلرت قطرة من دمه فلم تزل تغلى حتى بعث الله بختصر ، فدلّت عجوز عليه ، فألقى فى نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم : فقتل فى يوم واحد من ضرب واحد وسن واحد سبعين ألفا فسكن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن معقل بن أبى مسكين فى الآية قال : كان الوحى يأتى بنى إسرائيل فيذكرون قومهم ولم يكن يأتهم كتاب ، فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلون

فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : الذين يأمرون بالقسط من الناس : ولاية العدل . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : على أي دين أتيت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه ، قال : فإن إبراهيم كان يهوديا قال لهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله) الآية . » . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (نصيبا) قال : حظا (من الكتاب) قال : التوراة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله (قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) قال : يعنون الأيام التي خلق الله فيها آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (ووفيت كل نفس) يعني توفي كل نفس برّ أو فاجر (ما كسبت) ما عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) يعني من أعمالهم .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) .

قوله (قل اللهم) . قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا الله ، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو « يا » جعلوا بدله هذه الميم المشددة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من حرفين وهما الياء والألف ؛ والضممة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد . وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل في اللهم يا الله أمنا بخير ، فحذف وخلط الكلمتان ؛ والضممة التي في الهاء هي الضمة التي كانت في أمنا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطأ العظيم ، والقول في هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الكوفيون وقد يدخل حرف النداء على اللهم ، وأنشدوا في ذلك قول الراجز :
 وغفرت أو عذبت يا للهما •
 وقول الآخر : وما عليك أن تقول كلما سبحت أو هللت يا للهما
 وقول الآخر : إني إذا ما حدثت ألما أقول يا للهم يا للهما

قالوا : ولو كان الميم عوضا من حرف النداء لما اجتمعتا . قال الزجاج : وهذا شاذ لا يعرف قائله . قال النضر بن شميل : من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه . قوله (مالك الملك) أي مالك جنس الملك على الإطلاق ، ومالك منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ، أي يامالك الملك ، ولا يجوز عنده أن يكون وصفا لقوله (اللهم) لأن الميم عنده تمنع الوصفية . وقال محمد بن يزيد المبرد وإبراهيم بن السري الزجاج : إنه صفة لاسم الله تعالى ، وكذلك قوله تعالى - قل اللهم فاطر السموات والأرض - . قال أبو علي الفارسي : وهو مذهب المبرد ، وما قاله سيبويه أصوب وأبين ، وذلك لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت والأصوات لا توصف نحو غاق وما أشبهه . قال الزجاج : والمعنى مالك

العباد وماملوكوا ؛ وقيل المعنى مالك الدنيا والآخرة ؛ وقيل الملك هنا : النبوة ؛ وقيل الغلبة ؛ وقيل المال والعبيد .
والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص (توئى الملك من تشاء) أى من تشاء إيتاءه إياه (وتنزع
الملك من تشاء) نزع منه . والمراد بما يوئيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام . قوله (وتنزع
من تشاء) أى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ، يقال عزّ : إذا غلب ، ومنه - وعزنى فى الخطاب - . وقوله (وتذل
من تشاء) أى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ، يقال ذلّ يذلّ ذلاً : إذا غلب وقهر . قوله (بيدك الخير) تقديم
الخبر للتخصيص : أى بيدك الخير لا بيد غيرك ، وذكر الخير دون الشرّ ، لأن الخير بفضل محض بخلاف الشرّ
فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه ؛ وقيل لأن كل شرّ من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير فأفعاله
كلها خير ، وقيل إنه حذف كما حذف فى قوله - سراييل تقيكم الحرّ - وأصله بيدك الخير والشرّ ؛ وقيل خص
الخير لأن المقام مقام دعاء . قوله (إنك على كل شىء قدير) تعليل لما سبق وتحقيق له . قوله (تولج الليل فى النهار
وتولج النهار فى الليل) أى تدخل مانقص من أحدهما فى الآخر ؛ وقيل المعنى تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما
ولوجا فى الآخر . قوله (وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) قيل المراد إخراج الحيوان وهو حى من
النفطة وهى ميتة ، وإخراج النفطة وهى ميتة من الحيوان وهو حى ؛ وقيل المراد إخراج الطائر وهو حى من البيضة
وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية ؛ وقيل المراد إخراج المؤمن من الكافر والكافر من
المؤمن . قوله (بغير حساب) أى بغير تضيق ولا تقير كما تقول فلان يعطى بغير حساب ، والباء متعلقة بمحذوف
وقع حالا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وآله
وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزلت الآية . وأخرج الطبرانى وابن أبي حاتم عن ابن عباس
قال : اسم الله الأعظم (قل اللهم مالك الملك) إلى قوله (بغير حساب) . وأخرج ابن أبي الدنيا والطبرانى عن
معاذ « أنه شكّا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ديناً عليه ، فعلمه أن يتلو هذه الآية ، ثم يقول : رحمن الدنيا
والآخرة ورحيمهما ، تعطى من تشاء منهما وتمنع من تشاء ، ارحمنى رحمة تغننى بها عن رحمة من سواك ، اللهم
أغننى من الفقر واقض عني الدين » . وأخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم لمعاذ « ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك » فذكره ،
وإسناده جيد وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - بعض فضائل هذه الآية . وأخرج ابن
أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (توئى الملك من تشاء) قال : النبوة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر
وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله (تولج الليل فى النهار) الآية ، قال : تأخذ الصيف من الشتاء ،
وتأخذ الشتاء من الصيف (وتخرج الحى من الميت) تخرج الرجل الحى من النفطة الميتة (وتخرج الميت من الحى)
تخرج النفطة الميتة من الرجل الحى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (تولج الليل
فى النهار) قال : مانقص من النهار تجعله فى الليل وما نقص من الليل تجعله فى النهار . وأخرج ابن جرير وابن
أبي حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه أيضاً .
وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (تخرج الحى من الميت) قال : تخرج النفطة الميتة من الحى ثم
تخرج من النفطة بشراً حياً . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج
ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة (تخرج الحى من الميت) قال : هى البيضة تخرج من

الحى وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحى . وأخرج ابن جرير عنه قال : النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبل ، والسنبل من الحبة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . والمؤمن عبد حى الفؤاد ، والكافر عبد ميت الفؤاد . وأخرج شعيب بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن سلمان الفارسي نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا نحوه . وأخرجه أيضا عنه ، أو عن ابن مسعود مرفوعا . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبيد الله بن عبد الله « أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : من هذه ؟ قيل : خالدة بنت الأسود ، قال : سبحان الذى يخرج الحى من الميت » وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافرا . وأخرج ابن سعد عن عائشة مثله .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْيَةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخَفُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلِمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) .

قوله (لا يتخذ) فيه النهى للمؤمنين عن موالاته الكفار لسبب من الأسباب ، ومثله قوله تعالى - لا تتخذوا بطانة من دونكم - الآية ، وقوله - ومن يتولهم منكم فإنه منهم - ، وقوله - لا تجد قوما يؤمنون بالله - الآية ، وقوله لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - ، وقوله - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء - . وقوله (من دون المؤمنين) فى محل الحال : أى متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً أو اشتراكاً ، والإشارة بقوله (ومن يفعل ذلك) إلى الاتحاد المدلول عليه بقوله (لا يتخذ) ومعنى قوله (فليس من الله فى شىء) أى من ولايته فى شىء من الأشياء ، بل هو منسلخ عنه بكل حال . قوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة) على صيغة الخطاب بطريق الالتفات : أى إلا أن تخافوا منهم أمراً يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال . وتقاة مصدر واقع موقع المفعول ، وأصلها وقية على وزن فعلة قلبت الواو تاء والياء ألفاً ، وقرأ رجاء وقتادة تقية . وفى ذلك دليل على جواز الموالاته لهم مع الخوف منهم ، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً . وخالف فى ذلك قوم من السلف ، فقالوا : لا تقية بعد أن أعز الله الاسلام . قوله (ويحذركم الله نفسه) أى ذاته المقدسة ، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائر فى المشاكلة كقوله - تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وفى غيرها . وذهب بعض المتأخرين . إلى منع ذلك إلا مشاكلة . وقال الزجاج : معناه ويحذركم الله إياه ، ثم استغنوا عن ذلك بهذا وصار المستعمل . قال : وأما قوله - تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - فعناه تعلم ما عندى وما فى حقيقى ولا أعلم ما عندك ولا ما فى حقيقتك . وقال بعض أهل العلم : معناه ويحذركم الله عقابه مثل - واسأل القرية - فجعلت النفس فى موضع الإضمار ، وفى هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاته أعدائه . قوله (قل إن تخفوا ما فى صدوركم) الآية

فيه أن كل ما يضره العبد ويخفيه أو يظهره ويبيديه فهو معلوم لله سبحانه ، لا يخفى عليه منه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة (ويعلم ما في السموات وما في الأرض) مما هو أعم من الأمور التي يخفونها أو يبدونها ، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك . قوله (يوم تجدد) منصوب بقوله - ويحذركم الله نفسه - وقيل بمحذوف : أي اذكر ، (محضرا) حال ، وقوله (وما عملت من سوء) معطوف على ما لأولى : أي وتجد ما عملت من سوء محضرا تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . فحذف محضرا للدلالة الأول عليه ، وهذا إذا كان « تجدد » من وجدان الضالة ، وأما إذا كان من وجد بمعنى علم كان محضرا هو المفعول الثاني ، ويجوز أن يكون قوله (وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) جملة مستأنفة ، ويكون « ما » في ما عملت مبتدأ ويود خبره . والأمد : الغاية ، وجمعه آماد : أي تود لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا ، وقيل إن قوله (يوم تجدد) منصوب بقوله (تود) والضمير في قوله (وبينه) لليوم ، وفيه بعد ، وكرر قوله (ويحذركم الله نفسه) للتأكيد وللإستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم ، وفي قوله (والله رءوف بالعباد) دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم . وما أحسن ما يحكى عن بعض العرب أنه قيل له : إنك تموت وتبعث وترجع إلى الله فقال : أتهددونني بمن لم أر الخير قط إلا منه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب ابن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم (لا يتخذ المؤمنون الكافرين) إلى قوله (والله على كل شيء قدير) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طريق عنه قال : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين ، وذلك قوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) فقد برئ الله منه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة) قال : التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به ، وهو معصية الله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره ، إنما التقية باللسان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عنه في الآية قال : التقية التكلم باللسان والقلب مطمئن بالإيمان ، ولا يبسط يده فيقتل ولا إلى إثم فإنه لا عذر له . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال : التقية باللسان ، وليس بالعمل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة (إلا أن تتقوا منهم تقاة) قال إلا أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك . وأخرج عبد بن حميد والبخاري عن الحسن قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة . وحكى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال : إنا نبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلغهم ، ويدل على جواز التقية . قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم - ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قول (قل إن تخفوا) الآية قال : أخبرهم أنه يعلم ما أسروا وما أعلنوا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله محضرا ، يقول موفرا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : يسر أحدكم أن لا يلقى عمله ذلك أبدا ، يكون ذلك منه . وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها . وأخرجنا أيضا عن السدي (أمدا

بعيدا) قال : مكانا بعيدا . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أمدا قال : أجلا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (ويحذركم الله نفسه والله روءف بالعباد) قال : من رأفته بهم حذرهم نفسه .
قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤) .

الحب والمحبة ميل النفس إلى الشيء . يقال : أحبه فهو محب ، وحبه يحبه بالكسر ، فهو محبوب . قال الجوهري : وهذا شاذ ، لأنه لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر . قال ابن الدهان : في حب لغتان حب وأحب ، وأصل حب في هذا الباب حب كطرق ، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته . قال الأزهري : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران . وقرأ أبو رجاء العطاردي « فاتبعوني » بفتح الباء . وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من يغفر في اللام . قال النحاس : لا يجوز الخليل وسيبويه إدغام الراء في اللام ، وأبو عمرو أجل من أن يغلط في هذا ، ولعله كان يخفى الحركة كما يفعل في أشياء كثيرة . (قوله قل أطيعوا الله والرسول) حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أي في جميع الأوامر والنواهي . قوله (فإن تولوا) يحتمل أن يكون من تمام مقول القول ، فيكون مضارعا حذفت فيه إحدى التاءين : أي تتولوا ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضيا . وقوله (فإن الله لا يحب الكافرين) نفي المحبة كناية عن البغض والسخط . ووجه الإظهار في قوله (فإن الله) مع كون المقام مقام إضمار اقصد التعظيم أو التعميم . قوله (إن الله اصطفى آدم الخ) لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضى هو الإسلام ، وأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم هو الرسول الذي لا يصح لأحد أن يحب الله إلا باتباعه ، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغي عليه والحسد له ، شرع في تقرير رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين أنه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة . والاصطفاء الاختيار . قال الزجاج : اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم ؛ وقيل إن الكلام على تقدير مضاف : أي اصطفى دين آدم الخ ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين ، وتخصيص آدم بالذكر لأنه أبو البشر ، وكذلك نوح فإنه آدم الثاني ؛ وأما آل إبراهيم فلكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم مع كثرة الأنبياء منهم . وأما آل عمران فهم وإن كانوا من آل إبراهيم ، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه . وقيل المراد بآل إبراهيم إبراهيم ، نفسه وبآل عمران عمران نفسه . قوله (ذرية بعضها من بعض) نصب ذرية على البدلية مما قبله قاله الزجاج ، أو على الحالية قاله الأخفش ، وقد تقدم تفسير الذرية ، وبعضها من بعض في محل نصب على صفة الذرية ، ومعناه متناسلة متشعبة أو متناصرة متعاضدة في الدين .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن من طرق قال : قال أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والله يا محمد إنا لنحب ربنا ، فأنزل الله (قل إن كنتم تحبون الله) الآية . وأخرج الحكيم الترمذي عن يحيى بن كثير نحوه . وأخرج أيضا ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير

عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله (قل إن كنتم تحبون الله) أى إن كان هذا من قولكم في عيسى حبا لله وتعظيما له (فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) أى مابضى من كفركم (والله غفور رحيم) . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء في قوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) قال : على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس . وأخرجه أيضا الحكيم الترمذى وأبو نعيم والديلمى وابن عساكر عنه . أخرج ابن عساكر مثله عن عائشة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الشريك أخفى من ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وأدناه أن يحب على شئ من الجور ويبغض على شئ من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض في الله » قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وآل إبراهيم وآل عمران) قال : هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ذرية بعضها من بعض) قال في النية والعمل والإخلاص والتوحيد .

إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٠) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٢١) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنْثَىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) .

قوله (إذ قالت) قال أبو عمرو : « إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : إنه متعلق بمحذوف تقديره اذكر إذ قالت . وقال الزجاج : هو متعلق بقوله (اصطفى) وقيل متعلق بقوله (سميع عليم) وامرأة عمران اسمها حنة بالحاء المهملة والنون ، بنت فاقود بن قبيل أم مريم ، فهي جدة عيسى . وعمران هو ابن ماثان جد عيسى . قوله (رب) أى نذرت لك ما في بطنى (تقديم الجار والمجرور لكمال العناية ، وهذا النذر كان جائزا في شريعتهم . ومعنى (لك) أى لعبادتك . ومحرا منصوب على الحال : أى عتيقا خالصا لله خادما للكنيسة . والمراد هنا الحرية التى هى ضد العبودية . وقيل المراد بالحرر هنا الخالص لله سبحانه الذى لا يشوبه شئ من أمر الدنيا . ورجع هذا بأنه لا خلاف أن عمران وامرأته حران . قوله (فتقبل منى) التقبل أخذ الشئ على وجه الرضا : أى تقبل منى نذرى بما في بطنى . قوله (فلما وضعتها) التأنيت باعتبار ما علم من المقام أن الذى في بطنها أنثى ، أو لكونه أنثى في علم الله ، أو بتأويل ما في بطنها بالنفس أو النسيئة أو نحو ذلك . قوله (قالت رب) أى وضعتها أنثى (إنما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى ، فكأنها تحسرت وتحزنت لما فاتها من ذلك الذى كانت ترجوه وتقدره ، وأنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه . قوله (والله أعلم بما وضعت) قرأ أبو بكر وابن عامر بضم التاء فيكون من جملة كلامها ويكون متصلا بما قبله ، وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتزويه له أن ينحى عليه شئ . وقرأ الجمهور

وضعت ، فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر واتحزن ، مع أن هذه الأثني التي وضعها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين ، ويختصها بمالم يختص به أحدا . وقرأ ابن عباس « بما وضعت » بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها : أي إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام وتتضافر عندها العقول . قوله (وليس الذكر كالأنثى) أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وضعت ، فإن غاية ما أرادت من كونه ذكرا أن يكون نذرا خادما للكنيسة ، وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم . وهذه الحملة اعتراضية مبينة لما في الحملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته ، واللام في الذكر والأنثى للعهد ، هذا على قراءة الجمهور وعلى قراءة ابن عباس وأما على قراءة أبي بكر وابن عامر فيكون قوله (وليس الذكر كالأنثى) من جملة كلامها ومن تمام تحسرهما وتحزنها : أي ليس الذكر الذي أردت أن يكون خادما ويصلح للنذر كالأنثى التي لا تصلح لذلك ، وكأنها أهدرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدت . قوله (وإني سميتها مريم) عطف على (إني وضعتها أنثى) ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه ، وأن يكون فعلها مطابقا لمعنى اسمها ، فإن معنى مريم خادمة الرب بلغتهم ، فهي وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات . قوله (وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) عطف على قوله (إني سميتها مريم) ، والرجيم المطرود ، وأصله المرمى بالحجارة ، طلبت الإعادة لها ولولدها من الشيطان وأعوانه . قوله (فتقبلها ربها بقبول حسن) أي رضى بها في النذر ، وسلك بها مسلك السعداء . وقال قوم : معنى التقبل التكفل والتربية والقيام بشأنها ، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق والباء زائدة ، والأصل تقبلا ، وكذلك قوله (وأنبأها نباتا حسنا) وأصله إنبأها نباتا فحذف الحرف الزائد ، وقيل هو مصدر لفعل محذوف : أي فنبئت نباتا حسنا . والمعنى أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ؛ قيل إنها كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام ؛ وقيل هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها قوله (وكفلها زكريا) أي ضمها إليه . وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها . وقرأ الكوفيون (وكفلها) بالتشديد : أي جعله الله كافلا لها وملزما بمصالحها ، وفي معناه ما في مصحف أبي وأكفلها . وقرأ الباقر بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا ، ومعناه ما تقدم من كونه ضمها إليه وضمن القيام بها . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبي عبد الله المزني وكفلها بكسر الفاء . قال الأنخض : لم أسمع كفل . وقرأ مجاهد « فتقبلها » بإسكان اللام على المسألة والطلب ، ونصب ربها على أنه منادى مضاف . وقرأ أيضا « وأنبأها » بإسكان التاء « وكفلها » بتشديد الفاء المكسورة وإسكان اللام ونصب « زكريا » مع المد . وقرأ حفص وحزمة والكسائي « زكريا » بغير مد ، ومدّه الباقر . وقال القراء : أهل الحجاز يمدون زكريا ويقصرونه . قال الأنخض : فيه لغات المد والقصر ، وزكري بتشديد الياء وهو ممتنع على جميع التمادير للعجمة والتعريف مع ألف التانيث . قوله (كلما دخل عليها زكريا المحراب) قدّم الظرف للاهتمام به ، وكلمة كل ظرف ، والزمان محذوف ، وما مصدرية أو نكرة موصوفة والعامل في ذلك قوله (وجد) أي كل زمان دخوله عليها وجد عندها رزقا : أي نوعا من أنواع الرزق . والمحراب في اللغة : أكرم موضع في المجلس قاله القرطبي ، وهو منصوب على التوسع ؛ قيل إن زكريا جعل لها محرابا : لا يرتقى إليه إلا بسلم ، وكان يطلق عليها حتى كبرت ، وكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، فقال (يا مريم أنى لك هذا) أي من أين يجيء لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا (قالت هو من عند الله) فليس ذلك بعجيب ولا مستنكر ، وجملة قوله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) تعليلية لما قبلها ، وهو من تمام كلامها ، ومن قال إنه من كلام زكريا فتكون الحملة مستأنفة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إني نذرت لك ما في بطني محررا) قال : كانت نذرت أن تجعله في الكنيسة يتعبد بها ، وكانت ترجو أن يكون ذكرا . وأخرج ابن المنذر عنه قال : نذرت أن تجعله محررا للعبادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (محررا) قال : خادما للبيعة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : محررا خالصا لا يخالطه شيء من أمر الدنيا وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من مواد يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ، ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) » وللحديث ألفاظ عن أبي هريرة هذا أحدها ، وروى من حديث غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كفلهما زكريا فدخل عليها المحراب فوجد عندها عنباً في مكث في غير حينه ، فقال : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، قال : إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولدا (هنالك دعا زكريا ربه) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم ، فتشاح عليها أحبارهم فافتروا فيها بسهامهم أبهم يكفلها ، وكان زكريا زوج أختها فكفلها ، وكانت عنده وحضنها . وأخرج البيهقي في سننه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وكفلها زكريا) قال : جعلها معه في محرابه .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٢٨)
فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٣٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَآذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ (٣١) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٣٢) يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَآرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٣٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَى أُولَئِكَ الْآيَاتُ الْكُبْرَى فَهُمْ يَنْتَظِرُونَ (٣٤) وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٣٥) .

قوله (هنالك) ظرف يستعمل للزمان والمكان ، وأصله للمكان ؛ وقيل إنه للزمان خاصة ، وهناك للمكان ، وقيل يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر ، واللام للدلالة على البعد ، والكاف للخطاب . والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم ، أو في ذلك الزمان أن يهب الله له ذرية طيبة ، والذي بعثه على ذلك

ما رآه من ولادة حنة لمريم وقد كانت عاقرا ، فحصل له رجاء الولد وإن كان كبيرا وامرأته عاقرا أو بعثه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء في الصيف والصيف في الشتاء عند مريم لأن من أوجد ذلك في غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر ، وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سبقت في غصون قصة مريم لما بينهما من الارتباط والذرية النسل يكون للواحد ويكون للجمع ، ويدل على أنها هنا للواحد قوله - فهب لي من لدنك وليا - ولم يقل أولياء ، وتأنيث طيبة لكون لفظ الذرية مؤنثا . قوله (فنادته الملائكة) قرأ حمزة والكسائي «فناداه» ، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود . وقرأ الباقر «فنادته الملائكة» ؛ قيل المراد هنا جبريل ، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية ، ومنه - الذين قال لهم الناس - ؛ وقيل ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع والمعنى الحقيقي مقدم فلا يصر إلى المجاز إلا القرينة . قوله (وهو قائم) جملة حالية ، و (يصلي في المحراب) صفة لقوله (قائم) أو خبر ثان لقوله (وهو) . قوله (أن الله يبشرك) قرئ بفتح أن ، والتقدير بأن الله ، وقرئ بكسرها على تقدير القول . وقرأ أهل المدينة يبشرك بالتشديد . وقرأ حمزة بالتخفيف . وقرأ حميد بن قيس المكي بكسر الشين وضم حرف المضارعة . قال الأخفش : هي ثلاث لغات بمعنى واحد ، والقراءة الأولى هي التي وردت كثيرا في القرآن ، ومنه - فبشر عبادي - فبشرهم بمغفرة - فبشرناها بإسحاق - قالوا بشركناك بالحق - وهي قراءة الجمهور . والثانية لغة أهل تهامة ، وبها قرأ أيضا عبد الله بن مسعود . والثالثة من أبشر يبشر بإشارا . ويحيى ممتنع إما لكونه أعجميا أو لكون فيه وزن الفعل كيعمر مع العلمية . قال القرطبي حاكيا عن النقاش : كان اسمه في الكتاب الأول حنا انتهى . والذي رأيناه في مواضع من الإنجيل أنه يوحنا ؛ قيل سمى بذلك لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة ؛ وقيل لأن الله أحياه به الناس بالهدى . والمراد هنا التبشير بولادته : أي يبشرك بولادة يحيى . وقوله (مصدقا بكلمة من الله) أي بعيسى عليه السلام ، وسمى كلمة الله لأنه كان بقوله سبحانه كن ؛ وقيل سمى كلمة الله ، لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله . وقال أبو عبيد : معنى (بكلمة من الله) بكتاب من الله ، قال : والعرب تقول أنشدني كلمته : أي قصيدته ، كما روى أن الحويدة ذكر لحسان فقال : لعن الله كلمته ، يعني قصيدته انتهى . ويحيى أول من آمن بعيسى وصدق ، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين ، وقيل بستة أشهر . والسيد : الذي يسود قومه قال الزجاج : السيد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير . والحصور أصله من الحصر وهو الحبس ، يقال : حصرتني الشيء وأحصرتني : إذا حبسني ، ومنه قول الشاعر :

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغول

والحصور : الذي لا يأتي النساء كأنه يحجم عنهن كما يقال رجل حصور وحصير : إذا حبس رفته ولم يخرج ، فيحيى عليه السلام كان حصورا عن إتيان النساء : أي محصورا لا يأتين كغيره من الرجال ، إما لعدم القدرة على ذلك ، أو لكونه يكف عنهن منعا لنفسه عن الشهوة مع القدرة . وقد رجح الثاني بأن المقام مقام مدح ، وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه ، لا على ما كان من أصل الخلقة وفي نفس الجبلة . وقوله (من الصالحين) أي ناشئا من الصالحين ، لكونه من نسل الأنبياء ، أو كائنا من جملة الصالحين ، كما في قوله - وإنه في الآخرة لمن الصالحين - . قال الزجاج : الصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه ، وإلى الناس حقوقهم . قوله (قال رب أنى يكون لي غلام) ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة ، وذلك لمزيد التضرع والجد في طلب الجواب عن سؤاله ؛ وقيل إنه أراد بالرب جبريل : أي ياسيدي ؛ قيل وفي معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من

غيرها ؟ وقيل معناه بأي سبب استوجب هذا ، وأنا وامرأتى على هذه الحال ؟ . والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما ؛ لأنه كان يوم التبشير كبيرا ؛ قيل فى تسعين ؛ سنة وقيل ابن عشرين ومائة سنة ، وكانت امرأته فى ثمان وتسعين سنة ، ولذلك قال (ولقد بلغنى الكبير) أى والحال ذلك ، جعل الكبير كالمطالب له لكونه طليعة من طلائع الموت فأسند الفعل إليه . والعاقرة : التى لاتلد ، أى ذات عقر على النسب ولو كان على الفعل لقال عقيرة ، أى بها عقر يمنعها من الولد ، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى فى مريم استعظاما لقدرة الله سبحانه على المحض الاستبعاد ، وقيل إنه قد مر بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة ؛ وقيل عشرون سنة فكان الاستبعاد من هذه الحيثية . قوله (كذلك الله يفعل ما يشاء) أى يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو إيجاد الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقرة ، والكاف فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف ، والإشارة إلى مصدر يفعل أو الكاف فى محل رفع على أنها خبر : أى على هذا الشأن العجيب شأن الله ، ويكون قوله (يفعل ما يشاء) بيانا له ، أو الكاف فى محل نصب على الحال : أى يفعل الله الفعل كائنا مثل ذلك . قوله (قال رب اجعل لى آية) أى علامة أعرف بها صحة الحبل فألتقى هذه النعمة بالشكر (قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) أى علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الأذكار ، ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكرا على ما أنعم به عليه ؛ وقيل بأن ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين . والرمز فى اللغة : الإيماء بالشفيتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين ، وأصله الحركة وهو استثناء منقطع ، لكون الرمز من غير جنس الكلام ؛ وقيل هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الافهام من لفظ أو إشارة أو كتابة وهو بعيد . والصواب الأول ، وبه قال الأخفش والكسائى . قوله (وسبح) أى سبحة (بالعشى) وهو جمع عشية ؛ وقيل هو واحد وهو من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ؛ وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل وهو ضعيف جدا (والإبكار) من طلوع الفجر إلى وقت الضحى ؛ وقيل المراد بالتسبيح الصلاة . قوله (إذ قالت الملائكة يامريم) الظرف متعلق بمحذوف كالظرف الأول (إن الله اصطفاك اختاراك) وطهرتك (من الكفر أو من الأدناس على عمومها) واصطفاك على نساء العالمين (قيل هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول ، فالأول هو حيث قبلها بقبول حسن ، والآخر لولادة عيسى . والمراد بالعالمين هنا قيل نساء عالم زمانها وهو الحق ؛ وقيل نساء جميع العالم إلى يوم القيامة ، واختاره الزجاج ؛ وقيل الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول والمراد بهما جميعا واحدا . قوله (يامريم اقنتى لربك) أى أطبى القيام فى الصلاة أو أديميه وقد تقدم الكلام على معانى القنوت ، وقد تم السجود على الركوع لكونه أفضل أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو مجرد الجمع بلا ترتيب . وقوله (واركعى مع الراكعين) ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم فيدل على مشروعية صلاة الجماعة ؛ وقيل المعنى أنها تفعل مثل فعلهم وإن لم تصل معهم ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما سبق من الأمور التى أخبره الله بها . والوحى فى اللغة : الإعلام فى خفاء ، يقال وحى وأوحى بمعنى . قال ابن فارس : الوحى الإشارة والكتابة والرسالة وكل ما ألقته إلى غيرك حتى تعلمه . قوله (وما كنت لديهم) أى تحضرهم يعنى المتنازعين فى تربية مريم ، وإنما نرى حضوره عندهم مع كونه معلوما لأنهم أنكروا الوحى ، فلو كان ذلك الإنكار صحيحا لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة والحضور ، وهم لا يدعون ذلك فثبت كونه وحيا مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا ممن يلبس أهلها . والأقلام جمع قلم ، من قلمه إذا قطعه : أى أقلامهم التى

يكتبون بها ؛ وقيل قداحهم (أيهم يكفل مريم) أي يحضنها : أي يلقون أقلامهم ليعلموا أيهم يكفلها ، وذلك عند اختصاصهم في كفالتها ، فقال زكريا هو أحق بها لكون خالتها عنده وهي أشيع أخت حنة أم مريم ، وقال بنو إسرائيل : نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا ، فاقترعوا وجعلوا أقلامهم في الماء الجاري على أن من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها ، فجرت أقلامهم ووقف قلم زكريا ، وقد استدل بهذا من أثبت القرعة ، والخلاف في ذلك معروف ، وقد ثبتت أحاديث صحيحة في اعتبارها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما رأى زكريا ذلك ، يعني فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف عند مريم قال : إن الذي أتى بهذا مريم في غير زمانه قادر أن يرزقني ولدا ، فذلك حين دعا ربه . وأخرج ابن عساكر عن الحسن نحوه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي (ذرية طيبة) يقول : مباركة . وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي حماد قال : في قراءة ابن مسعود : فناداه جبريل وهو قائم يصلي في المحراب ، وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال (فنادته الملائكة) أي جبريل . وأخرج ابن المنذر عن السدي قال : المحراب المصلي . وقد أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « اتقوا هذه المذايح » يعني المحاريب . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن موسى الجهنمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لاتزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كذاب النصارى » وقد روت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان . وأخرجوا عن ابن عباس قال (مصدقا بكلمة من الله) قال : عيسى ابن مريم هو الكلمة . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه قال ، كان يحيى وعيسى ابني الحالة ، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه بعيسى سجوده في بطن أمه ، وهو أول من صدق بعيسى . وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وسيدا) قال : حلما تقيا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : السيد الكريم على الله . وأخرج ابن جرير عن ابن المسيب قال : السيد الفقيه العالم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وسيدا وحصورا) قال : السيد الحليم ، والحصور الذي لا يأتي النساء . وأخرج أحمد في الزهد عن سعيد بن جبير في الحصور مثله . وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الحصور الذي لا ينزل الماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان ذكره مثل هدبة الثوب » وأخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا وهو أقوى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : اسم أم يحيى أشيع . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (اجعل لي آية) قال : بالحمل به . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام) قال : إنما عوقب بذلك لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه فأخذ عليه بلسانه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إلا رمزا) قال : الرمز بالشفيتين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : الرمز الإشارة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وسبح بالعشي والإبكار) قال : العشي ميل الشمس إلى أن تغيب ، والإبكار أول الفجر . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله عليه

وآله وسلم يقول « خير نساءها مريم بنت عمران ، وخير نساءها خديجة بنت خويلد » . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون » وأخرج ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج نحوه أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم من حديثه مرفوعا ، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام » وفي المعنى أحاديث كثيرة وكأها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها ، لانساء جميع العالم . ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أربع نسوة سادات نساء عالمهن : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وأفضلهن عالما فاطمة » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (يا مريم اقنتي لربك) قال : أطيلي الركود يعني القيام . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير (اقنتي لربك) قال : أخلصي . وأخرج عن قتادة قال : أطيعي ربك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) قال : إن مريم لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي فاقرعوا بأقلامهم أيهم يكفلها . قال الله لمحمد (وما كنت لديهم) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ألقوا أقلامهم في الماء فذهبت مع الحرية وصعد قلم زكريا فكفلها زكريا . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جريج أن الأقلام هي التي يكتبون بها التوراة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عطاء أنها القداح .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

قوله (إذ قالت) بدل من قوله « إذ قالت » المذكور قبله وما بينهما اعتراض ، وقبل بدل من « إذ يختصمون » وقيل منصوب بفعل مقدر ؛ وقيل بقوله (يختصمون) وقيل بقوله (وما كنت لديهم) .

والمسيح اختلف فيه مماذا أخذ ؟ فقيل من المسح : لأنه مسح الأرض : أى ذهب فيها فلم يستكن بكن ؛ وقيل إنه كان لايمسح ذا عاهة إلا برىء ، فسمى مسيحا ، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل ؛ وقيل لأنه كان يمسح بالدهن الذى كانت الأنبياء تمسح به ؛ وقيل لأنه كان ممسوح الأخصيين ؛ وقيل لأن الجمال مسحه ؛ وقيل لأنه مسح بالتطهير من الذنوب ، وهو على هذه الأربعة الأقوال فعيل بمعنى مفعول . وقال أبو الهيثم : المسيح ضد المسيح بالخاء المعجمة : وقال ابن الأعرابي : المسيح الصديق . وقال أبو عبيد : أصله بالعبرانية مشيخا بالمعجمتين فعرب كما عرب موسى بموسى . وأما الدجال فسمى مسيحا لأنه ممسوح إحدى العينين ؛ وقيل لأنه يمسح الأرض أى يطوف بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس . وقوله (عيسى) عطف بيان أو بدل وهو اسم أعجمي ؛ وقيل هو عربى مشتق من عاسه يعوسه إذا ساسه . قال فى الكشف : هو معرب من أيشوع انتهى . والذى رأيناه فى الإنجيل فى مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة ، وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب معها تنبيها على أنه يولد من غير أب فنسب إلى أمه . والوجيه ذو الوجاهة : وهى القوة والمنعة ، ووجاهته فى الدنيا النبوة ، وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة ، وهو منتصب على الحال من كلمة ، وإن كانت نكرة فهى موصوفة ، وكذلك قوله (ومن المقرين) فى محل نصب على الحال . قال الأخفش : هو معطوف على وجيها . والمهد : مضجع الصبي فى رضاعه ، ومهدت الأمر : هيأته ووطأته . والكهل هو من كان بين سن الشباب والشيخوخة : أى يكلم الناس حال كونه رضيعا فى المهد وحال كونه كهلا بالوحى والرسالة ، قاله الزجاج . وقال الأخفش والفراء : إن كهلا معطوف على وجيها . قال الأخفش (ومن الصالحين) عطف على وجيها : أى هو من العباد الصالحين . قوله (أنى يكون لى ولد) أى كيف يكون على طريقة الاستبعاد العادى (ولم يمسنى بشر) جملة حالية : أى والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب (قال كذلك الله يخلق ما يشاء) هو من كلام الله سبحانه . وأصل القضاء الأحكام ، وقد تقدم ، وهو هنا الإرادة : أى إذا أراد أمرا من الأمور (فإنما يقول له كن فيكون) من غير عمل ولا مزاوله ، وهو تمثيل لكمال قدرته . قوله (ويعلمه الكتاب) قيل هو معطوف على (يبشر) : أى إن الله يبشر وإن الله يعلمه ؛ وقيل على (يخلق) : أى وكذلك يعلمه الله ، أو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبا . والكتاب الكتابة . والحكمة العلم ؛ وقيل تهذيب الأخلاق ، وانتصاب رسولا على تقدير ويجعله رسولا ، أو ويكلمهم رسولا ، أو وأرسلت رسولا ؛ وقيل هو معطوف على قوله (وجيها) فيكون حالا لأن فيه معنى النطق : أى وناطقا ، قال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو فى قوله : ورسولا مقحمة ، والرسول حالا . وقوله (أنى قد جئتمكم) معمول لرسول لأن فيه معنى النطق كما مر ؛ وقيل أصله بأنى قد جئتمكم فحذف الجار ؛ وقيل منصوب بمضمر أى تقول أنى قد جئتمكم ؛ وقيل معطوف على الأحوال السابقة . وقوله (بآية) فى محل نصب على الحال : أى متلبسا بعلامة كائنة (من ربكم) . وقوله (إنى أخلق) أى أصور وأقدر (لكم من الطين كهية الطير) وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى ، وهى (أنى قد جئتمكم) أو بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف : أى هى أنى ، وقرئ بكسر الهمزة على الاستثناء . وقرأ الأعرج وأبو جعفر كهية الطير بالتشديد ، والكاف فى قوله (كهية الطير) نعت مصدر محذوف : أى أخلق لكم خلقا أو شيئا مثل هيئة الطير . وقوله (فأنفخ فيه) أى فى ذلك الخلق ، أو ذلك الشيء فالضمير راجع إلى الكاف فى قوله كهية الطير ؛ وقيل الضمير راجع إلى الطير : أى الواحد منه ؛ وقيل إلى

الطين ، وقرىء : فيكون طائرا وطيرا ، مثل تاجرو تاجر ؛ وقيل إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة ، فإن له ثديا وأسنانا وأذنا ويبيض ويظهر ؛ وقيل إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة ، ولكونه يطير بغير ريش ، ويلد كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير ، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنما يرى في ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة ، وهو يضحك كما يضحك الإنسان ؛ وقيل إن سؤالهم له كان على وجه التعنت ؛ قيل كان يطير ما دام الناس ينظرونه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا لئتميز فعل الله من فعل غيره وقوله (بإذن الله) فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك ، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام ؛ قيل كانت تسوية الطين والنفخ من عيسى ، والخلق من الله عز وجل . قوله (وأبرىء الأكمه) الأكمه : الذى يولد أعمى ، كذا قال أبو عبيدة . وقال ابن فارس : الأكمه العمى يولد به الإنسان وقد يعرض ، يقال كمه يكمه كمها : إذا عمى ، وكهت عينه : إذا أعميتها ؛ وقيل الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ؛ وقيل هو المسوح العين : والبرص معروف وهو بياض يظهر فى الجلد . وقد كان عيسى عليه السلام يرى من أمراض عدة كما اشتمل عليه الإنجيل ، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر لأنهما لا يبرآن فى الغالب بالمدواة ، وكذلك إحياء الموتى قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك . قوله (وأنبئكم بما تأكلون) أى أخبركم بالذى تأكلونه وبالذى تدّخرونه . قوله (ومصدقا) عطف على قوله (ورسولا) وقيل المعنى وجئتكم مصدقا . قوله (ولأحل) أى ولأجل أن أحل : أى جئتكم بآية من ربكم وجئتكم لأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم من الأطعمة فى التوراة كالشحوم وكل ذى ظفر ، وقيل إنما أحل لهم ما حرّمته عليهم الأخبار ولم تحرّمه التوراة . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون بعض بمعنى كل ، وأنشد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قال القرطبي : وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ، لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل ، ولأن عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرّمته عليهم التوراة ، فإنه لم يحلل القتل ولا السرقة ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرمات الثابتة فى الإنجيل مع كونها ثابتة فى التوراة وهى كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين ، ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة كقول الشاعر :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

أى بعض الشر أهون من كله . قوله (بآية من ربكم) هى قوله (إن الله ربى وربكم) وإنما كان ذلك آية ، لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك ، فجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته . ويحتمل أن تكون هذه الآية هى الآية المتقدمة فتكون تكريرا لقوله (أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين) الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (بكلمة) قال : عيسى هو الكلمة من الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المهد : مضجع الصبى فى رضاعه . وقد ثبت فى الصحيح أنه لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى . وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى ، فجاءته أمه فدعته فقال : أجيها أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تراه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعة فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأنت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال الراعى ، قالوا : بنى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين . وكانت امرأة من بنى إسرائيل ترضع ابنا لها ، ففرّ بها رجل

راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديها يمضه ، ثم مرّ بأمة تجرجر ويلعب بها فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اللهم اجعلني مثلها ، فقالت : لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون لها زنيت ، وتقول حسبي الله ونعم الوكيل . ويقولون سرقت ، وتقول حسبي الله . وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لم يتكلم في المهدي إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (ويكلم الناس في المهدي وكهلا) قال : يكلمهم صغيرا وكبيرا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الكهل هو من في سن الكهولة . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الكهل الحليم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ويعلمه الكتاب) قال : الخط بالقلم . وأخرج ابن جرير عن ابن جرير نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إنما خلق عيسى طائرا واحدا وهو الخفاش . وأخرج ابن جريج وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : الأكمة الذي يولد أعمى . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الأكمة الأعمى المسحوق العينين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الأكمة الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . وأخرجوا عن عكرمة قالوا : الأكمة الأعمش . وأخرج أحمد في الزهد عن خالد الحذاء قال : كان عيسى ابن مريم إذا سرح رسله يحيون الموتى يقول لهم قولوا كذا ، فإذا وجدتم قشعريرة ودمعة فادعوا عند ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وأنبتكم بما تأكلون) قال : بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر قال : (أنبتكم بما تأكلون) من المائدة (وما تدخرون) منها ، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا ، فأكلوا وادخروا وخانوا ، فجعلوا قردة وخنازير . وأخرج ابن جرير عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى ، وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس ، وقال لبي إسرائيل : إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم وأضع عنكم من الآصار . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في الآية : قال كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى ، وكان قد حرّم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب ، فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرّم عليهم الشعثوم فأحلّت لهم فيما جاء به عيسى ، وفي أشياء من السمك ، وفي أشياء من الطير ، وفي أشياء أخر حرّمها عليهم وشدد عليهم فيها ، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وجئتكم بآية من ربكم) قال : ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكْرُؤًا مِمَّنْ مَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَتُوفِّيهِمْ أَجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨).

قوله (فلما أحس) أى علم ووجد : قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة معنى أحس عرف ، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة ، والاحساس : العلم بالشيء . قال الله تعالى - هل تحس منهم من أحد - . والمراد بالاحساس هنا الإدراك القوى الجارى مجرى المشاهدة . وبالكفر إصرارهم عليه ؛ وقيل سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله . وعلى هذا فعنى الآية : فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التى هى كفر قال من أنصارى إلى الله . الأنصار جمع نصير . وقوله (إلى الله) متعلق بمحذوف وقع حالا : أى متوجها إلى الله أو ملتجئا إليه أو ذاهبا إليه وقيل إلى بمعنى مع كقوله تعالى - ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم - وقيل المعنى : من أنصارى فى السبيل إلى الله ؛ وقيل المعنى : من يضم نصرته إلى نصره الله . والحواريون جمع حوارى ، وحوارى الرجل : صفوته وخلاصته ، وهو مأخوذ من الحور وهو البياض عند أهل اللغة ، حورت الثياب بيضتها والحوارى من الطعام : ماحور : أى بيضا ، والحوارى أيضا الناصر ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » وهو فى البخارى وغيره . وقد اختلف فى سبب تسميتهم بذلك ، فقيل لبياض ثيابهم ؛ وقيل لخلوص نياتهم ؛ وقيل لأنهم خاصة الأنبياء ، وكانوا اثني عشر رجلا ، ومعنى أنصار الله : أنصار دينه ورسله . وقوله (آمنا بالله) استئناف جار مجرى العلة لما قبله ، فإن الإيمان يبعث على النصره . قوله (واشهد بأننا مسلمون) أى اشهد لنا يوم القيامة بأننا مخلصون لإيماننا منقادون لما تريد منا . ومعنى (بما أنزلت) ما أنزله الله سبحانه فى كتبه . والرسول عيسى : وحذف المتعلق مشعر بالتعميم : أى اتبعناه فى كل ما أتى به فاكتبنا مع الشاهدين لك بالوحدانية ورسولك بالرسالة . أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأمرهم ، وقيل مع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (ومكروا) أى الذين أحس عيسى منهم الكفر ، وهم كفار بنى إسرائيل . ومكر الله استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون . قاله الفراء وغيره . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء كقوله تعالى - الله يستهزئ بهم - وهو خادعهم - وأصل المكر فى اللغة : الاغتيال والخدع : حكاه ابن فارس ، وعلى هذا فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة ؛ وقيل مكر الله هنا إلقاء شبه عيسى على غيره ، ورفع عيسى إليه (والله خير الماكرين) أى أقواهم مكرًا وأنفذهم كيدا وأقواهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب قوله (إذ قال الله يا عيسى) العامل فى إذ : مكروا ، أو قوله (خير الماكرين) أو فعل مضمرة تقديره وقع ذلك . وقال الفراء : إن فى الكلام تقدما وتأخيرا تقديره إني رافلك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . وقال أبو زيد : متوفيك قابضك . وقال فى الكشاف : مستوفى أجلك ، ومعناه : إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخر أجلك إلى أجل كتبه لك ، ومميتك حتف أنفك لاقتلا بأيديهم . وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر ، لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة ، كما رجحه كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير الطبرى ، ووجه ذلك أنه قد صح فى الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزوله وقلته الدجال ؛

وقيل إن الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء ، وفيه ضعف ؛ وقيل المراد بالوفاة هنا النوم ومثله - وهو الذى يتوفاكم بالليل - أى ينيكم ، وبه قال كثيرون . قوله (ومطهرك من الذين كفروا) أى من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم . قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) أى الذين اتبعوا ماجئت به وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا فى الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله لها ، ومنهم المسلمون فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو ، فلم يفرطوا فى وصفه كما فرطت اليهود ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى . وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم . وقيل المراد بالآية أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم ، فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة ؛ وقيل هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين ، وقيل هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح ، وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار أو لكل طوائف الكفار لا ينافى كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين كما تفيد الآيات الكثيرة ، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل "ل" ، قاهرة لها مستعلية عليها . وقد أفردت هذه الآية بمؤلف سميت [وبل الغمامة فى تفسير - وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة -] فن رام استيفاء ما فى المقام فليرجع إلى ذلك . والفوقية هنا هى أعم من أن تكون بالسيف أو بالحجة . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويحكم بين العباد بالشريعة المحمدية ، ويكون المسلمون أنصاره وأتباعه إذ ذاك ، فلا يبعد أن يكون فى هذه الآية إشارة إلى هذه الحالة . قوله (ثم إلى مرجعكم) أى رجوعكم ، وتقديم الظرف للقصر (فأحكم بينكم) يومئذ (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمور الدين . وقوله (فأما الذين كفروا) إلى قوله (والله لا يحب الظالمين) تفسير للحكم . قوله (فى الدنيا والآخرة) متعلق بقوله : فأعذبهم ، أما تعذيبهم فى الدنيا فبالقتل والسبي والجزية والصغار ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار . قوله (فنوفهم أجورهم) أى نعطيهم إياها كاملة موفرة ، قرى بالتحتية وبالنون . وقوله (لا يحب الظالمين) كناية عن بغضهم ، وهى جملة تذييلية مقررة لما قبلها . قوله (ذلك) إشارة إلى ماسلف من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره مابعده ، و (من الآيات) حال أو خبر بعد خبر . والحكيم المشتمل على الحكم أو المحكم الذى لا خلل فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج فى قوله (فلما أحس عيسى منهم الكفر) قال : كفروا وأرادوا قتله ، فذلك حين استنصر قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم كانوا صيادين . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : الحواريون قصارون مرتبهم عيسى فأمنوا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أصفياء الأنبياء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة قال : الحواري الوزير . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قال : الحواري الناصر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) قال : مع محمد وأمه أنهم شهدوا له أنه قد بلغ ، وشهدوا للرسول أنهم قد بلغوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه قال (مع الشاهدين) مع أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : إن بنى إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت ، فقال عيسى لأصحابه : من يأخذ

صورتى فيقتل وله الجنة ، فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إني متوفيك) يقول : مميتك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : متوفيك من الأرض . وأخرج الآخرون عنه قال : وفاة المنام . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : هذا من المقدم والمؤخر : أى رافعتك إلى متوفيك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مطر الوراق قال : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب قال : توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه ، وأخرج ابن عساكر عنه قال : أماته ثلاثة أيام ثم بعثه ورفع . وأخرج الحاكم عنه قال : توفى الله عيسى سبع ساعات . وأخرج ابن سعد وأحمد في الزهد والحاكم عن سعيد بن المسيب قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . وأخرج ابن عساكر عن وهب مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) قال : طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) قال : هم أدل الإسلام الذين اتبعوه على فطرتهم وملتهم وسنتهم . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن النعمان ابن بشير سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لاتزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يبالون بغير خالفهم حتى يأتى أمر الله » قال النعمان : من قال إني أقول على رسول الله ما لم يقل فإن تصديق ذلك في كتاب الله ، قال الله (وجاعل الذين اتبعوك) الآية . وأخرج ابن عساكر عن معاوية مرفوعا نحوه ثم قرأ معاوية الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة ، وليس بلفظه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود في شرق ولا غرب ، هم في البلدان كلها مستذلون .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) .

تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقا من غير أب كآدم ، ولا يقدح في التشبيه اشتغال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له : كما أنه لا أب له ، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجبا وأغرب أسلوبا . وقواه (خلقه من تراب) جملة مفسرة لما أبهم في المثل : أى أن آدم لم يكن له أب ولا أم ، بل خلقه الله من تراب . وفي ذلك دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب وأم . قوله (ثم قال له كن فيكون) أى كن بشرا فكان بشرا . وقواه (فيكون) حكاية حال ماضية ، وقد تقدم تفسير هذا . وقواه (الحق من ربك) قال الفراء : هو مرفوع بإضمار هو . وقال أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره قواه (من ربك) وقيل هو فاعل فعل محذوف : أى جاءك الحق من ربك . قوله (فلا

تكن من الممتريين (الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس : أى لا يمكن أحد منكم ممتريا ، أو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ويكون النهى له لزيادة التثبيت لأنه لا يكون منه شك في ذلك . قوله (فن حاجك فيه) هذا وإن كان عاما فالمراد به الخاص ، وهم النصارى الذين وفدوا إليه صلى الله عليه وآله وسلم من نجران كما سيأتى بيانه ، ويمكن أن يقال هو على عمومته وإن كان السبب خاصا ، فيدل على جواز المباهلة منه صلى الله عليه وآله وسلم لكل من حاجه في عيسى عليه السلام ، وأمه أسوته ، وضمير فيه لعيسى ، والمراد بمجئ العلم هنا مجئ سببه ، وهو الآيات البينات ، والحاجة : المحاصمة والمجادلة . وقوله (تعالوا) أى هلموا وأقبلوا ، وأصله الطالب لإقبال الذوات ، ويستعمل في رأى إذا كان المخاطب حاضرا كما تقول لمن هو حاضر عندك : تعال ننظر في هذا الأمر . قوله (ندع أبناءنا) الخ اكتفى بذكر البنين عن البنات ، إما لدخولهن في النساء ، أو لكونهم الذين يحضرون . مواقف الخصام دونهن ، ومعنى الآية : ليدع كل منا ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة . وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه صلى الله عليه وآله وسلم أراد بالأبناء الحسين كما سيأتى . قوله (نبتهل) أصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره ، يقال بهله الله : أى لعنه ، والبهل اللعن . قال أبو عبيد والكسائي : نبتهل نلتعن ، ويطلق على الاجتهاد في الهلاك ، ومنه قول لبيد :

في كهول سادة من قومه نظر الدهر إليهم فابتهل

أى فاجتهد في هلاكهم . قال في الكشف : ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا . قوله (فتجعل لعنة الله على الكاذبين) عطف على نبتهل مبين لمعناه . قوله (إن هذا) أى الذى قصه الله على رسوله من نبأ عيسى (هو القصص الحق) القصص التابع ، يقال : فلان يقص أثر فلان : أى يتبعه ، فأطلق على الكلام الذى يتبع بعضه بعضا ، وضمير الفصل للحصر ، ودخول اللام عليه لزيادة تأكيد ويحوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره ، وزيادة من في قوله (من إله) لتأكيد العموم ، وهو رد على من قال بالتثليث من النصارى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة : أن العاقب والسيد أتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يلاعنها ، فقال أحدهما لصاحبه : لانا لنعنه ، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لانفلح أبدا نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فقالوا له : نعطيك ما سألت ، فابعث معا رجلا أمينا ، فقال : قم يا أبا عبيدة ، فلما قام قال : هذا أمين هذه الأمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس : أن رهطا من أهل نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان فيهم السيد والعاقب ، فقالوا : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ قال : من هو ؟ قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله ، قالوا : فهل رأيت مثل عيسى وأنبئت به ، ثم خرجوا من عنده ، فجاء جبريل فقال : قل لهم إذا أتوك (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) إلى آخر الآية . وقد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من التابعين . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال : قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم العاقب والسيد ، فدعاهما إلى الإسلام ، فقالا : أسلمنا يا محمد ، فقال : كذبتا إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام ، قالا فهات . قال : حب الصليب ، وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير قال جابر : فدعاهما إلى الملاعة فواعداه على الغد ، فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه وأقرأ له ، فقال : والذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر الوادى عليهما نارا . قال جابر : فيهم نزلت (تعالوا ندع أبناءنا) الآية . قال جابر (أنفسنا وأنفسكم) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى ، وأبناءنا الحسن والحسين ، ونساءنا فاطمة . ورواه أيضا الحاكم من وجه آخر

عن جابر وصححه ، وفيه أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : هل لك أن نلاعنك ؟ وأخرج مسلم والترمذى وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن سعد بن أبي وقاص : قال لما نزلت هذه الآية (قل تعالوا) دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال : اللهم هؤلاء أهلى . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه (تعالوا ندع أبناءنا) الآية ، قال : فجاء بأبى بكر ووالده ، وبعمرو ووالده ، وبعثمان ووالده ، وبعلى ووالده . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس (ثم نبتهل) نجهد . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : هذا الإخلاص يشير بأصبعه التى تلى الإبهام ، وهذا الدعاء ، فرفع يديه حذو منكبيه ، وهذا الابتهال فرفع يديه مدياً .

قُلْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) .

قيل الخطاب لأهل نجران بدليل ماتقدم قبل هذه الآية ؛ وقيل لليهود المدينة ؛ وقيل للصارى جميعا ، وهو ظاهر النظم القرآنى ، ولا وجه لتخصيصه بالبعض ، لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . والسواء : العدل . قال الفراء : يقال فى المعنى العدل سوى وسواء ، فإذا فتحت السين مددت ، وإذا ضمنت أو كسرت قصرت . قال زهير :

أروى خطة لاضيم فيها يروى نبتهل فيها السواء

وفى قراءة ابن مسعود « إلى كلمة عدل بيننا وبينكم » فالمعنى : أقبلوا إلى مادعيتكم إليه ، وهى الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق ، وقد فسرهما بقوله (أن لا نعبد إلا الله) وهو فى موضع خفض على البدل من كلمة ، أو رفع على إضمار مبتدأ : أى هى أن لا نعبد ، ويجوز أن تكون أن مفسرة لاموضع للجملة التى دخلت عليها ، وفى قوله (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا) تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير ، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم ، وإزراء على من قلده الرجال فى دين الله فحلل ما حللوه له ، وحرم ما حرموه عليه ، فإن من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا ، ومنه - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله - وقد جوز الكسائى والفراء الجزم فى - ولا نشرك - ولا يتخذ على التوهم . قوله (فإن تولوا) أى أعرضوا عما دعوا إليه (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أى منقادون لأحكامه مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين القويم .

وقد أخرج البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس قال : حدثنى أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأه فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، إلى قوله : بأنا مسلمون » . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكفار (تعالوا إلى كلمة) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا يهود المدينة إلى مافى هذه الآية فأبوا عليه ، فجاهدوهم حتى أقرؤا بالجزية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء . وأخرج ابن جرير عن

الربيع نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (إلى كلمة سواء) قال : عدل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا) قال لا يطيع بعضنا بعضا في معصية الله ؛ ويقال : إن تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة وإن لم يصلوا لهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا) قال : سجود بعضهم لبعض .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) .

لمادعت كل واحدة من طائفتي اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم رد الله سبحانه ذلك عليهم وأبان بأن الملة اليهودية والملة النصرانية إنما كانتا من بعده . قال الزجاج : هذه الآية أيين حجة على اليهود والنصارى أن التوراة والإنجيل نزلا من بعده ، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان واسم الإسلام في كل كتاب انتهى ، وفيه نظر ، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة وذكر شريعة موسى والاحتجاج بها على اليهود ، وكذلك الزبور فيه في مواضع ذكر شريعة موسى ، وفي أوائله التبشير بعيسى ، ثم في التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدمة ، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة . وقد اختلف في قدر المدة التي بين إبراهيم وموسى والمدة التي بين موسى وعيسى . قال القرطبي : يقال كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألف سنة . وكذا في الكشاف . قوله (أفلا تعقلون) أي تفكرون في دحوض حججكم وبطلان قولكم . قوله (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) الأصل في ها أنتم أنتم أبدات الهمزة الأولى هاء ، لأنها أختها كذا قال أبو عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قنبل (هانتم) وقيل الهاء للتنبيه دخلت على الحملة التي بعدها : أي ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاججتم وفي هؤلاء لغتان المد والقصر . والمراد بما لهم به علم هو ما كان في التوراة وإن خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل ، والذي لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذي كان فيه . وفي الآية دليل على منع الجدل بالباطل ، بل ورد الترغيب في ترك الجدل من الحق كما في حديث « من ترك المراء ولو محقا فأنا ضمينه على الله يبيت في ربض الجنة » . وقد ورد تسويق الجدل بالتي هي أحسن لقوة تعالى - وجادلهم بالتي هي أحسن - ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - ونحو ذلك ، فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسبة لا بالخاشنة . قوله (والله يعلم) أي كل شيء فيدخل في ذلك ما حاججوا به . وقد تقدم تفسير الحنيف . قوله (إن أولى الناس) أي أحقهم به وأخصهم للذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه (وهذا النبي) يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، أفردته بالذكر تعظيما له وتشريفا ، وأوآيته صلى الله عليه وآله وسلم

بإبراهيم من جهة كونه من ذريته ، ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة المحمدية (والذين آمنوا) من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فنزل فيهم (يا أهل الكتاب لما تحتاجون) الآية . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) يقول فيما شهدتم ورأيتم وعايهتم (فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم) يقول فيما لم تشهدوا ولم تروا ولم تعينوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : أما الذي لهم به علم فما حرم عليهم وما أمروا به ، وأما الذي ليس لهم به علم فشأن إبراهيم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : يعذر من حاج بعلم ولا يعذر من حاج بالجهل . وأخرج ابن جرير عنه عن الشعبي في قوله (ما كان إبراهيم) قال : أكذبهم الله وأدحض حججهم . وأخرج أيضا عن الربيع مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن طريق شهر بن حوشب حدثني ابن غنم أنه لما خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى النجاشي ، فذكر قصتهم معه وما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص إنهم يشتمون عيسى ، وهي قصة مشهورة ، ثم قال : فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالمدينة (إن أولى الناس بإبراهيم) الآية . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن وليي منهم أبي خليل ربي ثم قرأ (إن أولى الناس) الآية » . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « يامعشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون ، فكونوا أنتم سبيل ذلك ، فانظروا أن لا يلقي الناس يحملون الأعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فأصد عنكم بوجهي ثم قرأ عليهم (إن أولى الناس بإبراهيم) الآية » وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى ومن بقي .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَدْبِسُونَ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا
إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَى اللَّهُ هَدًى اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) .

الطائفة من أهل الكتاب هم يهود بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم وسيأتي وقيل هم جميع أهل الكتاب، فتكون من لبيان الجنس. وقوله (وما يضلون إلا أنفسهم) جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين في الإيمان، فلا يعود وبال من أراد فتنهم إلا عليه. والمراد بآيات الله ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وأنتم تشهدون) ما في كتبكم من ذلك، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرّون بنبوّتهم، أو المراد كنتم كل الآيات عنادا وأنتم تعلمون أنها حق. ولبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمدونه من التحريف (وأنتم تعلمون) جملة حالية. قوله (وقالت طائفة من أهل الكتاب) هم رؤسائهم وأشرفهم، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. ووجه النهار: أوّله، وسمى وجهها لأنه أحسنه قال:

وتضىء في وجه النهار منيرة كجمانة البحرى سل نظامها

وهو منصوب على الظرف، أمرهم بذلك لإدخال الشك على المؤمنين، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم واعتراه الشك وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين ومكن أقدامهم، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله، ولا تحركهم ريح المعاندين. قوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض: أى قال ذلك الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقا صحيحا إلا لمن تبع دينكم من أهل الملة التي أنتم عليها، وأما غيرهم ممن قد أسلم فأظهروا لهم ذلك خداعا (وجه النهار واكفروا آخره) ليفتنوا، ويكون قوله (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) على هذا متعلقا بمحذوف: أى فعلتم ذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم: يعنى أن ما بكم من الحسد والبغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاءكم إلى أن قلتم ما قلتم: وقوله (أو يحاجوكم) معطوف على أن يؤتى: أى لا تؤمنوا إيمانا صحيحا وتقرّوا بما في صدوركم إقرارا صادقا لغير من تبع دينكم، فعلتم ذلك ودبرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق. وقوله (إن الهدى هدى الله) جملة اعتراضية. وقال الأخفش: المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم، فذهب إلى أنه معطوف؛ وقيل المراد لا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره إلا لمن تبع دينكم: أى لمن دخل في الإسلام وكان من أهل دينكم قبل إسلامه، لأن إسلام من كان منهم هو الذى قتلهم غيظا وأماهم حسرة وأسفا، ويكون قوله (أن يؤتى) على هذا متعلقا بمحذوف كالأول؛ وقيل إن قوله (أن يؤتى) متعلق بقوله (لا تؤمنوا) أى لا تظهروا إيمانكم (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) أى أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا لأتباع دينكم؛ وقيل المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، بالمدّ على الاستفهام تأكيداً للإنكار الذى قاله أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه، فتكون على هذا أن وما بعدها في محل رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره تصدقون بذلك، ويجوز أن تكون في محل نصب على إضمار فعل تقديره تقرّون أن يؤتى، وقد قرأ «أن يؤتى» بالمدّ ابن كثير وابن محيصن وحيد. وقال الخليل: أن في موضع خفض والخافض محذوف. وقال ابن جريج: المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى؛ وقيل المعنى: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا من تبع دينكم، لئلا يكون ذلك سببا لإيمان غيرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله (إلا لمن تبع دينكم) ثم قال الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل إن الهدى هدى الله) أى إن البيان الحق بيان الله بين أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على تقدير لا كقوله تعالى - يبين الله لكم أن تضلوا - أى لئلا تضلوا، و «أو» في قوله (أو يحاجوكم) بمعنى حتى، وكذلك قال الكسائي، وهى عند الأخفش عاطفة كما

تقدم . وقيل إن هدى الله بدل من الهدى ، وأن يوثق خبر إن على معنى قل إن هدى الله أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم . وقد قيل إن هذه الآية أعظم آى هذه السورة إشكالا وذلك صحيح . وقرأ الحسن يوثق بكسر التاء الفوقية . وقرأ سعيد ابن جبير إن يوثق بكسر الهمزة على أنها النافية . وقوله (يختص بروحته من يشاء) قيل هى النبوة ؛ وقيل أعم منها ، وهو رد عايتهم ودفع لما قالوه ودبروه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سفيان قال : كل شيء فى آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو فى النصارى ، ويدفع هذا أن كثيرا من خطابات أهل الكتاب المذكورة فى هذه السورة لا يصح حملها على النصارى . ألبتة ، ومن ذلك هذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها ، فإن الطائفة التى ودت إضلال المسلمين وكذلك الطائفة القائلة (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) هى من اليهود خاصة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) قال : تشهدون أن نعت نبي الله محمد فى كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل النبى الأسمى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله . وأخرج أيضا عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج (وأنتم تشهدون) على أن الدين عند الله الإسلام ليس لله دين غيره . وأخرج عن الربيع فى قوله (لم تلبسون الحق بالباطل) يقول : لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره الإسلام (وتكتمون الحق) يقول : تكتمون شأن محمد وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن الصيف وعدى بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا فؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فیرجعون من دينهم ، فأنزل الله فيهم (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) إلى قوله (والله واسع عليم) وقد روى نحوه هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة من طريق أبى ظبيان عن ابن عباس فى قوله (وقالت طائفة) الآية ، قال : كانوا يكونون معهم أول النهار ويجالسونهم ويكلمونهم ، فإذا أمسوا حضرت الصلاة كفروا به وتركوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) قال : هذا قول بعضهم لبعض . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج أيضا عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم) حسدا من يهود أن تكون النبوة فى غيرهم ، وإرادة أن يتابعوا على دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك وسعيد بن جبير (أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم) قال أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (إن الهدى هدى الله أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم) يا أمة محمد (أو يحاجوكم عند ربكم) يقول اليهود : فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن والسلوى ، فإن الذى أعطيتكم أفضل فقولوا (قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (قل إن الهدى هدى الله أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم) يقول لما أنزل الله كتابا مثل كتابكم وبعث نبيا كنبيكم حسدتموه على ذلك (قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء) . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج (قل إن الهدى هدى الله أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم) يقول : هذا الأمر الذى أنعم الله عليه (أن يوثق أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) قال : قال بعضهم لبعض لا تخبروهم بما بين الله لكم فى كتابه (ليحاجوكم) قال :

ليخاصموكم (به عند ربكم) فتكون لهم حجة عليكم (قل إن الفضل بيد الله) قال : الإسلام (يختص برحمته من يشاء) قال القرآن والإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (يختص برحمته من يشاء) قال : النبوة . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : رحمته الإسلام يختص بها من يشاء .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧).

هذا شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان خيانتهم في الدين ، والجار والمجرور في قوله (ومن أهل الكتاب) في محل رفع على الابتداء على مامر في قوله - ومن الناس من يقول - وقد تقدم تفسير القنطار . وقوله (تأمنه) هذه قراءة الجمهور . وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلي « تيمنه » بكسر التاء الفوقية على لغة بكر وتميم ، ومثله قراءة من قرأ « نستعين » بكسر النون . وقرأ نافع والكسائي (يؤده) بكسر الهاء في الدرج . قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر على إسكان الهاء . قال النحاس : إسكان الهاء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين ، وبعضهم لا يجيزه ألبتة ويرى أنه غلط من قرأ به ، ويوهم أن الجزم يقع على الهاء وأبو عمرو أجل من أن يجوز عليه شيء من هذا والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء . وقال الفراء : مذهب بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها ، فيقولون ضربته ضربا شديدا كما يسكنون ميم أنتم وقمتم ، وأنشد :

لما رأى أن لادعه ولا شيع مال إلى أرضاه حقف فاضطجع

وقرأ أبو المنذر سلام والزهرى « يؤده » بضم الهاء بغير واو . وقرأ قتادة وحمزة ومجاهد « يؤد هو » بواو في الإدراج ، ومعنى الآية : أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدى أمانته وإن كانت كثيرة ، وفيهم الخائن الذي لا يؤدى أمانته وإن كانت حقيرة ، ومن كان أمينا في الكثير فهو في القليل أمين بالأولى ، ومن كان خائنا في القليل فهو في الكثير خائن بالأولى . وقوله (إلا ما دمت عليه قائما) استثناء مفرغ ، أى لا يؤده إليك في حال من الأحوال إلا مادمت عليه قائما مطالبا له مضيقا عليه متقاضيا لردّه ، والإشارة بقوله ذلك إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله (لا يؤده) . والأمينون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب : أى ليس علينا في ظلمهم حرج لخالفهم لنا في ديننا ، وادعوا لعنهم الله أن ذلك في كتابهم ، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى) أى بلى عليهم سبيل لكذبهم واستحلالهم أموال العرب ، فقوله (بلى) لإثبات لما نفوه من السبيل . قال الزجاج : تم الكلام بقوله (بلى) ثم قال (من أوفى بعهده واتقى) وهذه جملة مستأنفة : أى من أوفى بعهده واتقى فليس من الكاذبين . أو فإن الله يحبه ، والضمير في قوله (بعهده) راجع إلى من ، أو إلى الله تعالى ، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى من ، أى فإن الله يحبه . قوله (إن الذين يشترون بعهد الله) أى يستبدلون كما تقدم

تحقيقه غير مرة . وعهد الله هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والإيمان هي التي كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به وينصرونه ، وسيأتي بيان سبب نزول الآية (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفة (لا خلاق لهم فى الآخرة) أى لا نصيب (ولا يكلمهم الله) بشىء أصلاً كما يفيد حذف المتعلق من التعميم ، أو لا يكلمهم بما يسرهم (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) نظر رحمة ، بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم كما يفيد قوله (ولهم عذاب أليم) .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك) قال : هذا من النصارى (ومنهم من إن تأمنه بدينار) قال : هذا من اليهود (إلا مادمت عليه قائماً) قال : إلا ما طلبته واتبعته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) قال : قالت اليهود : ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل . وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة فى قوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كذب أعداء الله ، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن صعصعة أنه سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا فى ذلك من بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب (ليس علينا فى الأميين سبيل) إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفوسهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (بلى من أوفى بعهد واتقى) يقول : اتقى الشرك (فإن الله يحب المتقين) يقول الذين يتقون الشرك . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لى الله وهو عليه غضبان . فقال الأشعث بن قيس : فى والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدّمته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ألك بينة ؟ قلت لا ، قال لليهودى : احلف ، فقلت : يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالى ، فأنزل الله (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) إلى آخر الآية » . وقد روى : أن سبب نزول الآية أن رجلاً كان يحلف بالسوق : لقد أعطى بسلعته مالم يعط بها . أخرجه البخارى وغيره . وروى أن سبب نزولها مخاصمة كانت بين الأشعث وامرئ القيس ورجل من حضرموت . أخرجه النسائى وغيره .

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) .

أى طائفة من اليهود يلوون ، أى يحرفون ويعدلون به عن القصد ، وأصل اللى : الميل ، يقول لوى برأسه : إذا أماله . وقرئ « يلوون » بالتشديد ، و « يلون » بقلب الواو همزة ، ثم تخفيفها بالحذف ، والضمير فى قوله (لتحسبوه) يعود إلى ما دل عليه (يلوون) وهو المحرف الذى جاءوا به . قوله (وما هو من الكتاب) جملة حالية ، وكذلك قوله (وما هو من عند الله) وكذلك قوله (وهم يعلمون) أى أنهم كاذبون مفترون .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وإن منهم لفريقاً يلوون)

السنهم) قال : هم اليهود ، كانوا يزيدون في الكتاب ما لم ينزل الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : يحرفونه .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)
وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

أى ما كان ينبغي ولا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة . وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى عليه السلام ما لم يصح عنه ، ولا ينبغي أن يقواه . والحكم : الفهم والعلم . قوله (ولكن كونوا) أى ولكن يقول النبي كونوا ربانيين ، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة كما يقال لعظيم اللحية لحيانى ، ولعظيم الجملة جماني ، ولخليط الرقة رقبانى - قيل الرباني الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره ، فكأنه يقتدى بالرب سبحانه في تيسير الأمور . وقال المبرد : الربانيون أرباب العلم ، واحدهم ربانى ، من قوله ربه يربه فهو ربان : إذا دبره وأصلحه ، والياء للنسب ، فعنى الربانى : العالم بدين الرب القوى التمسك بطاعة الله ؛ وقيل العالم الحكيم . قوله (بما كنتم تعلمون) أى بسبب كونكم عالمين : أى كونوا ربانيين بهذا السبب . فإن حصول العلم للإنسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التى هى التعليم للعلم ، وقوة التمسك بطاعة الله . وقرأ ابن عباس وأهل الكوفة « بما كنتم تعلمون » بالتشديد . وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد . قال : لأنها لجمع المعنيين . قال مكى : التشديد أبلغ لأن العالم قد يكون عالما غير معلم ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط . واختار القراءة الثانية أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها تدرسون بالتخفيف دون التشديد انتهى . والحاصل أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الربانى على أمرزائد على العلم والتعليم ، وهو أن يكون مع ذلك مخلصا أو حكيما أو حلما حتى تظهر السببية ؛ ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الربانى على العالم الذى يعلم الناس ، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب كونكم علماء وبسبب كونكم تدرسون العلم . وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه . قوله (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) بالنصب عطفا على « ثم يقول » « ولا » مزيدة لتأكيد النفي : أى ليس له أن يأمر بعبادة نفسه ، ولا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا بل ينتهى عنه ، ويجوز عطفه على أن يؤتىه ، أى ما كان لبشر أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ؛ وبالنصب قرأ ابن عامر وعاصم وحمة ، وقرأ الباقر بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول : أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود ولن يأمركم . والهمز في قوله (يأمركم) لإنكار مانئى عن البشر . وقوله (بعد إذ أنتم مسلمون) استدلل به من قال إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسلمين في أن يسجدوا له .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني ، فأنزل الله في ذلك (ما كان لبشر) الآية . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : بلغني أن رجلا قال : يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، فأنزل الله (ما كان لبشر) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ربانين) قال : فقهاء علماء . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : حكماء علماء حلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : علماء فقهاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : حكماء علماء . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي رزين في قوله (وبما كنتم تدرسون) قال : مذاكرة الفقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ولا يأمركم أن تتخذوا) قال : ولا يأمرهم النبي .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

قد اختلف في تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) فقال سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والحسن والسدي إنه أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا بالإيمان ، ويأمر بعضهم بعضا بذلك فهذا معنى النصرة له والإيمان به ، وهو ظاهر الآية ، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره وقال الكسائي : يجوز أن يكون معنى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) بمعنى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » وقيل في الكلام حذف . والمعنى : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعاملن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا ، ودل على هذا الحذف قوله (وأخذتم على ذلكم إصري) و « ما » في قوله (لما آتيناكم) بمعنى الذي . قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم) فقال « ما » بمعنى الذي . قال النحاس : التقدير في قول الخليل الذي آتيتكموه ثم حذفت الهاء لطول الاسم ، واللام لام الابتداء ، وبهذا قال الأخفش ، وتكون ما في محل رفع على الابتداء ، وخبرها من كتاب وحكمة . وقوله (ثم جاءكم) وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد محذوف أي مصدق به . وقال المبرد والزجاج والكسائي : « ما » شرطية دخلت عليها لام التحقيق ، كما تدخل على إن ، « ولتؤمنن به » جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف كما تقول : أخذت ميثاقلك لتفعلن كذا ، وهو ساد مسد الجزاء . وقال الكسائي : إن الجزاء قوله (فمن تولى) . وقال في الكشف : إن اللام في قوله (لما آتيناكم) لام التوطئة واللام في قوله (لتؤمنن) جواب القسم ، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ، ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط جميعا ، وأن تكون موصولة بمعنى الذي آتيتكموه لتؤمنن به انتهى وقرأ حمزة « لما آتيتكم » بكسر اللام وما بمعنى الذي . وهي متعلقة بأخذ . وقرأ أهل المدينة « آتيناكم » على التعظيم . وقرأ الباقون « آتيتكم » على التوحيد ، وقيل إن « ما » في قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرية . ومعناه : لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم لحق رسول مصدق لما معكم ، واللام لام التعليل : أي لأجل ذلك أخذ

الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به . قوله (أقررتم) هو من الإقرار . والإصر في اللغة : الثقل ، سمي العهد إصر لما فيه من التشديد ، والمعنى : وأخذتم على ذلك عهدي . قوله (قالوا أقررنا) جملة استثنائية كأنه قيل : ماذا قالوا عند ذلك ؟ فقيل قالوا أقررنا ، وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك . قوله (قال فاشهدوا) أى قال الله سبحانه فاشهدوا : أى ليشهد بعضهم على بعض (وأنا معكم من الشاهدين) أى وأنا على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين . قوله (فمن تولى) أى أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) أى الخارجون عن الطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرءون (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب وحكمة) ونحن نقرأ ميثاق النبيين ، فقال ابن عباس : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاوس في الآية ، قال (أخذ الله ميثاق النبيين) أن يصدق بعضهم بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين) قال : هي خطأ من الكتاب ، وهي في قراءة ابن مسعود « ميثاق الذين أوتوا الكتاب » وأخرج ابن جرير عن علي قال : لم يبعث الله نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عنه في قوله (إصرى) قال : عهدي . وأخرج ابن جرير عن علي في قوله (قال فاشهدوا) يقول : فاشهدوا على أممكم بذلك (وأنا معكم من الشاهدين) عليكم وعليهم (فمن تولى) عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم (فأولئك هم الفاسقون) هم العاصون في الكفر .

أَفْغِيرَ دِينَ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) .

قوله (أفغير) عطف على مقدر : أى أتولون فتبغون غير دين الله ، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار . وقرأ أبو عمرو وحده (ييغون) بالتحية و« ترجعون » بالفوقية ، قال : لأن الأول خاص والثاني عام ، ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى . وقرأ حفص بالتحية في الموضعين . وقرأ الباقر بالفوقية فيهما وانتصب طوعا وكرها على الحال ، أى طائعين ومكرهين . والطوع : الانقياد والاتباع بسهولة ، والكره : مافيه مشقة وهو من أسلم مخافة القتل وإسلامه استسلام منه . قوله (آمنا) إخبار منه صلى الله عليه وآله وسلم عن نفسه وعن أمته (لا نفرق بين أحد منهم) كما فرقت اليهود والنصارى فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقد تقدم تفسير هذه الآية (ونحن له

مسلمون) أى متقادون مخلصون . قوله (دينا) مفعول للفعل : أى يبتغ دينا حال كونه غير الإسلام ، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل ، ودينا إما تمييز أو حال إذا أول بالمشتق ، أو بدل من غير . قوله (وهو فى الآخرة من الخاسرين) إما فى محل نصب على الحال أو جملة مستأنفة : أى من الواقعين فى الحشران يوم القيامة .

وقد أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى قواه (وله أسلم من فى السموات والأرض) قال : أما من فى السموات فالملائكة ، وأما من فى الأرض فمن ولد على الإسلام ، وأما كرها فمن أتى به من سبابا الأثم فى السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنة وهم كارهون . وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية « الملائكة أطاعوه فى السماء ، والأنصار ، وعبد القيس أطاعوه فى الأرض » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال فى الآية (أسلم من فى السموات والأرض) حين أخذ عليهم الميثاق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله (وله أسلم) قال : المعرفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : أما المؤمن فأسلم طائعا فتنفعه ذلك وقبل منه ، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه ذلك ولم يقبل منه - فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا - . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقروا فى أذنه - أغير دين الله تبغون - » . وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن يونس بن عبيد قال : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ فى أذنها (أغير دين الله تبغون) الآية إلا ذلت بإذن الله عز وجل . وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة فتقول : يارب أنا الصلاة ، فيقول إنك على خير ، وتجىء الصدقة فتقول : يارب أنا الصدقة ، فيقول إنك على خير ، وتجىء الصيام فتقول : أنا الصيام ، فيقول إنك على خير ، ثم تجىء الأعمال كل ذلك يقول الله إنك على خير ، ثم تجىء الإسلام فتقول : يارب أنت السلام وأنا الإسلام ، فيقول : إنك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطى ، قال الله تعالى فى كتابه (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) » .

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ أَرْضٍ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) .

قوله (كيف يهذى الله قوما) هذا الاستفهام معناه الجحد : أى لا يهذى الله ، ونظيره قواه تعالى - كيف يكون للمشركين عهد عند الله - أى لا عهد لهم ، ومثله قول الشاعر :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء

أى لانوم لى . ومعنى الآية : لا يهدى الله قوما إلى الحق كفروا بعد إيمانهم ، وبعد ما شهدوا أن الرسول حق ، وبعد ما جاءتهم البينات من كتاب الله سبحانه ومعجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقوله (والله لا يهدى القوم الظالمين) جملة حالية : أى كيف يهدى المرتدين ، والحال أنه لا يهدى من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم ، ومنهم الباقيون على الكفر ، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر ، لأن المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنادا وتمردا . قوله (أولئك) إشارة إلى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التى بعده . وقد تقدم تفسير اللعن . وقوله (ولا هم ينظرون) معناه : يؤخرون ويمهلون . ثم استثنى التائبين : فقال (إلا الذين تابوا من بعد ذلك) : أى من بعد الارتداد (وأصلحوا) بالاسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة . وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصا ، ولا خلاف فى ذلك فيما أحفظ . قوله (ثم ازدادوا كفرا) . قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته (ثم ازدادوا كفرا) بإقامتهم على كفرهم ؛ وقيل ازدادوا كفرا بالذنوب التى اكتسبوها ، ورجحه ابن جرير الطبرى وجعلها فى اليهود خاصة . وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى (فلن تقبل توبتهم) مع كون التوبة مقبولة كما فى الآية الأولى ، وكما فى قوله تعالى - وهو الذى يقبل التوبة عن عباده - وغير ذلك ، فقيل المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس : وهذا قول حسن كما قال تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وبه قال الحسن وقاتادة وعطاء ومنه الحديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ؛ وقيل : المعنى لمن تقبل توبتهم التى كانوا عليها قبل أن يكفروا ، لأن الكفر أحبط ؛ وقيل لمن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر ، والأولى أن يحمل عدم قبولهم التوبة فى هذه الآية على من مات كافرا غير تائب فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة ، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية ، وهى قوله (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار) فى حكم البيان لها . قوله (ملء الأرض ذهابا) الملء بالكسر مقدارا ما يملأ الشيء ، والملء بالفتح مصدر ملأت الشيء ، وذهبا تمييز ، قاله الفراء وغيره . وقال الكسائي نصب على إضمار من ذهب . كقوله - أو عدل ذلك صياما - أى من صيام . وقرأ الأعمش « ذهب » بالرفع على أنه بدل من ملء ، والواو فى قوله (ولو افتدى به) قيل هى مقحمة زائدة ، والمعنى لو افتدى به ؛ وقيل فيه حمل على الغنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهابا ؛ وقيل هو عطف على مقدر : أى لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهابا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب : أى بمثله .

وقد أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم ندم فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل لى من توبة ؟ فنزلت (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) إلى قوله (غفور رحيم) فأرسل إليه قومه فأسلم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه ، وقال : هو الحارث بن سويد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدى نحوه ، وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس نحوه أيضا . وقد روى عن جماعة نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) . قال : هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمدا ثم كفروا به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وذكر نحو ما تقدم عنه . وأخرج البزار عن ابن عباس : أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا) قال السيوطي : هذا خطأ من البزار . وأخرج ابن جرير عن الحسن في الآية قال : اليهود والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هم اليهود كفروا بالإنجيل وعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في الآية قال : إنما نزلت في اليهود والنصارى كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا بذنوب أذنبوها ، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم ، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم ، ولكنهم على الضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (ثم ازدادوا كفرا) قال : هموا على كفرهم . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (ثم ازدادوا كفرا) قال : ماتوا وهم كفار (لن تقبل توبتهم) قال : إذا تاب عند موته لم تقبل توبته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (لن تقبل توبتهم) قال : تابوا من الذنوب ولم يتوبوا من الأصل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (وماتوا وهم كفار) قال : هو كل كافر . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « يجاء بالكافريوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به فيقول نعم ، فيقال له لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك ، فذلك قوله تعالى (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار الآية) .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) .

هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار . قوله (لن تنالوا البر) يقال : نالني من فلان معروف ينالني : أي وصل إلي ، والنوال : العطاء من قولك نولته تنويلا أعطيته . والبر : العمل الصالح وقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدي : هو الجنة ، فعني الآية : لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة : أي تصلوا إلى ذلك وتبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون : أي حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها ، و(من) تبعية ، ويؤيده قراءة ابن مسعود « حتى تنفقوا بعض ما تحبون » وقيل بانية (وما) موصولة أو موصوفة ، والمراد النفقة في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات ؛ وقيل المراد الزكاة المفروضة . وقوله (من شيء) بيان لقوله (ماتنفقوا) أي ماتنفقوا من أي شيء سواء كان طيبا أو خبيثا (فإن الله به عليم) وما شرطية جازمة . وقوله (فإن الله به عليم) تعليل لجواب الشرط واقع موقعه .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس « أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إن أحب أموالي إلى بيرحاء ، وإنها صدقة » الحديث . وقد روى بالفاظ . وأخرج عبد بن حميد والبزار عن ابن عمر قال : حضرتني هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئا أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية فقلت : هي حرة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها فأنكحتها نافعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء ، فدعا بها عمر فقال : إن الله يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فأعتقها عمر وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم : إنها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة يفرس

له يقال لها سبل لم يكن له مال أحب إليه منها ، فقال : هي صدقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله تعالى (لن تنالوا البر) قال : الجنة . وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون والسدي مثله . وأخرج ابن المنذر عن مسروق مثله .

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتَّبِعُوا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَمَنْ أَفْقَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأَلْئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٥) .

قوله (كل الطعام) أى المطعوم ، والحل مصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ، وهو الحلال وإسرائيل هو يعقوب كما تقدم تحقيقه . ومعنى الآية : أن كل المطعومات كانت حلالا لبني يعقوب ، لم يحرم عليهم شيء منها إلا ما حرم إسرائيل على نفسه . وسيأتى بيان ما هو الذى حرمه على نفسه ، وهذا الاستثناء متصل من اسم كان . وقوله (من قبل أن تنزل التوراة) متعلق بقوله (كان حلالا) أى أن كل المطعومات كانت حلالا (من قبل أن تنزل التوراة) أى كان ماعدا المستثنى حلالا لهم (من قبل أن تنزل التوراة) مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم ، وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم وبغيهم كما فى قوله - فظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم - الآية . وقوله - وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلى قوله - ذلك جزيناكم ببغيهم - وقالوا إنها محرمة على من قبلهم من الأنبياء ، يريدون بذلك تكذيب ما قصه الله على نبيينا صلى الله عليه وآله وسلم فى كتابه العزيز ، ثم أمره الله سبحانه بأن يحاجهم بكتابهم ويجعل بينه وبينهم حكما ما أنزله الله عليهم لا ما أنزله عليه فقال (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) حتى تعلموا صدق ما قصه الله فى القرآن من أنه لم يحرم على بنى إسرائيل شيء من قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه . وفى هذا من الإنصاف المخصوص بما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، ثم قال (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك) أى من بعد إحصار التوراة وتلاوتها (فأولئك هم الظالمون) أى المفرطون فى الظلم المتبالغون فيه فإنه لا أظلم ممن حوكم إلى كتابه وما يعتقده شرعا صحيحا ، ثم جادل من بعد ذلك مفتريا على الله الكذب ؛ ثم لما كان ما يفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلا مدفوعا ، وكان ما قصه الله سبحانه فى القرآن وصدفته التوراة صحيحا صادقا ، وكان ثبوت هذا الصديق بالبرهان الذى لا يستطيع الخصم دفعه ، أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينادى بصدق الله بعد أن سجل عليهم الكذب ، فقال (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم) أى ملة الإسلام التى أنا عليها ، وقد تقدم بيان معنى الحنيف ، وكأنه قال لهم إذا تبين لكم صدقى وصدق ما جئت به فادخلوا فى دينى ، فإن من جملة ما أنزله الله على - ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه - .

وقد أخرج الترمذى وحسنه عن ابن عباس « أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : فأخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئا يلائمه إلا تحريم الإبل والبانها فلذلك

حرمها ، قالوا صدقت » وذكر الحديث . وأخرجه أيضا أحمد والنسائي . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في الآية قال : العرق أجده عرق النساء ، فكان يبيت له زق يعني صياح ، فجعل الله عليه إن شفاه أن لا يأكل لحما فيه عرق ، فحرمته اليهود . وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس من قوله ما أخرجه الترمذي سابقا عنه مرفوعا . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : الذي حرّم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبدة والكليتان والشحم إلا ما كان على الظهر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم نزلت التوراة بتحريم الذي حرّم إسرائيل ، فقال الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) وكذبوا ليس في التوراة .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) .

هذا شروع في بيان شيء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل ، وذلك أنهم قالوا : إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة فرد الله ذلك عليهم بقوله (إن أول بيت وضع للناس) الآية ، فقوله (وضع) صفة لبيت وخبر إن قوله (للذي ببكة) فنبه تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره ، وقد اختلف في الباني له في الابتداء ، فقيل الملائكة ، وقيل آدم ، وقيل إبراهيم ويجمع بين ذلك بأول من بناه الملائكة ثم جدد آدم ، ثم إبراهيم . وبكة علم للبلد الحرام وكذا مكة وهما لغتان ؛ وقيل إن بكة اسم لموضع البيت ، ومكة اسم للبلد الحرام ؛ وقيل بكة للمسجد ، ومكة للحرم كله ؛ قيل سميت بكة لازدحام الناس في الطواف ، يقال بك القوم : ازدحموا ؛ وقيل البك : دق العنق ، سميت بذلك لأنها كانت تدق أعناق الجبابرة . وأما تسميتها بمكة ، فقيل سميت بذلك لقلة ما بها ؛ وقيل لأنها تملك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة ، ومنه مككت العظم : إذا أخرجت ما فيه ، وملك الفصيل ضرع أمه ، وامتكه : إذا امتصه ؛ وقيل سميت بذلك لأنها تملك من ظلم فيها : أي تهلكه . قوله (مبارك) حال من الضمير في وضع ، أو من متعلق الظرف لأن التقدير للذي استقر ببكة مبارك والبركة : كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه أو يقصده ، أي الثواب المتضاعف . والآيات البيّنات الواضحات : منها الصفا والمروة ، ومنها أثر القدم في الصخرة الصماء ، ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب في اليمن ، وإن كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، وإذا عم البيت كان الخصب في جميع البلدان ، ومنها انحراف الطيور عن أن تمر على هوائه في جميع الأزمان ، ومنها هلاك من يقصده من الجبابرة وغير ذلك . وقوله (مقام إبراهيم) بدل من آيات قاله محمد بن يزيد المبرد . وقال في الكشف : إنه عطف بيان . وقال الأخفش : إنه مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير منها مقام إبراهيم ؛ وقيل هو خبر مبتدأ محذوف أي هي مقام إبراهيم وقد استشكل صاحب الكشف بيان الآيات وهي جمع بالمقام وهو فرد . وأجاب بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه أو بآيته مشتمل على آيات . قال : ويجوز أن يراد فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم وأمن من دخله ، لأن الاثنين نوع من الجمع . قوله (ومن دخله كان آمنا) جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم وهو أن من دخله كان آمنا ، وبه استدلل من قال : إن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود فإنه لا يقيم عليه الحد حتى يخرج

منه ، وهو قول أبي حنيفة ومن تابعه ، وخالفه الجمهور فقالوا : تقام عليه الحدود في الحرم . وقد قال جماعة : إن الآية خبر في معنى الأمر : أي ومن دخله فأمنوه كقوله - لا رفث ولا فسوق ولا جدال - أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا . قواه (والله على الناس حج البيت) اللام في قوله (لله) هي التي يقال لها لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف (على) فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل لفلان على كذا ، فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه وتعظيماً لحرمة ، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الدليل كالصبي والعبد . وقوله (من استطاع إليه سبيلاً) في محل جر على أنه بدل بعض من الناس . وبه قال أكثر النحويين . وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بحج . والتقدير : أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ؛ وقيل إن من حرف شرط ، والخزاء مخذوف : أي من استطاع إليه سبيلاً فعليه الحج . وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي ؟ فقيل الزاد والراحلة ، وإليه ذهب جماعة من الصحابة وحكاها الترمذي عن أكثر أهل العلم وهو الحق . قال مالك : إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج وإن لم يكن له زاد وراحلة إذا كان يقدر على التكسب ، وبه قال عبد الله بن الزبير والشعبي وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شاباً قوياً صحيحاً وليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضى حجه ، ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة دخولا أولياً أن تكون الطريق إلى الحج آمنة ، بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله الذي لا يجد زادا غيره ، أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة ، لأن الله سبحانه يقول (من استطاع إليه سبيلاً) وهذا الخائف على نفسه أو ماله لم يستطع إليه سبيلاً بلا شك ولا شبهة . وقد اختلف أهل العلم إذا كان في الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يحجف بزاد الحاج ؛ فقال الشافعي : لا يعطى حبة ، ويسقط عنه فرض الحج ووافقه جماعة وخالفه آخرون . والظاهر أن من تمكن من الزاد والراحلة وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها ولو بمصانعة بعض الظلمة لدفع شيء من المال يتمكن منه الحاج ولا ينقص من زاده ولا يحجف به ، فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه لأنه قد استطاع السبيل بدفع شيء من المال ، ولكنه يكون هذا المال المدفوع في الطريق من جملة ما توقف عليه الاستطاعة ، فلو وجد الرجل زادا وراحلة ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس في الطريق لم يجب عليه الحج لأنه لم يستطع إليه سبيلاً وهذا لا بد منه ، ولا ينافي تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة فإنه قد تعذر المرور في طريق الحج لمن وجد الزاد والراحلة إلا بذلك القدر الذي يأخذه المكاسون ، ولعل وجه قول الشافعي إنه سقط الحج أن أخذ هذا المكس منكر فلا يجب على الحاج أن يدخل في منكر ، وأنه بذلك غير مستطيع . ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب ، فلو كان زماً بحيث لا يقدر على المشي ولا على الركوب فهذا وإن وجد الزاد والراحلة فهو لم يستطع السبيل . قوله (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) قيل إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه ؛ وقيل المعنى : ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجباً ، وقيل إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وفي قوله (فإن الله غني عن العالمين) من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه وبعده من الله سبحانه ما يتعاضده سامعه ويرجف له قلبه ، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم ، وهو تعالى شأنه وتقدس سلطانه غني لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله (إن أول بيت) الآية ، قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذر قال : « قلت

يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، قال « خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة ، وكان إذ كان حرشه على الماء زبدة بيضاء ، وكانت الأرض تحته كأنها حشفة فدحيت الأرض من تحته » . وأخرج نحوه ابن المنذر عن أبي هريرة . وأخرج ابن المنذر والأزرقي عن ابن جريج قال : بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ، ولأنه في الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت (إن أول بيت) الآية إلى قوله (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) وليس ذلك في بيت المقدس (ومن دخله كان آمنا) وليس ذلك في بيت المقدس (والله على الناس حج البيت) وليس ذلك في بيت المقدس . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله ابن الزبير قال : إنما سميت بكة لأن الناس يتباكون إليها من كل جانب حجاجا . وروى سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي عن عباد : إنما سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها : أى يزدهون . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حبان في قوله (مباركا) قال : جعل فيه الخير والبركة (وهدي للعالمين) يعنى بالهدى قبلتهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس (فيه آيات بينات) فمنهم مقام إبراهيم والمشرع . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله (فيه آيات بينات) قال : مقام إبراهيم (ومن دخله كان آمنا) والله على الناس حج البيت) . وأخرج الأزرقي عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ومن دخله كان آمنا) قال : كان هذا في الجاهلية ، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يطلب ، فأما في الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله ، من سرق فيه قطع ، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد ، ومن قتل فيه قتل . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والأزرقي عن عمر بن الخطاب قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن دخله كان آمنا) قال : من عاذ بالبيت أهاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه . وقد روى عنه هذا المعنى من طرق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أعرض له . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : لو وجدت قاتل أبي في الحرم ما هجته . وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي الربيع العدوي قال : قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم الغد من يوم الفتح فقال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحمل لأمري يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعصدها شجرة ، فإن أحد ترخص اقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي ساعة من نهار ثم عادت حرمها اليوم كحرمها أمس » . وأخرج الدارقطني والحاكم وصححه عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن قوله (من استطاع إليه سبيلا) فقيل : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة » . وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر مرفوعا : أنه قام رجل فقال : ما السبيل ؟ فقال : الزاد والراحلة . وأخرج الدارقطني والبيهقي في سننهما من طريق الحسن عن أمه عن عائشة قالت : « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما السبيل إلى الحج ؟ قال : الزاد والراحلة » . وأخرج الدارقطني في سننه عن ابن مسعود مرفوعا مثله . وأخرج الدارقطني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا مثله . وأخرج الدارقطني عن جابر مرفوعا مثله . وقد روى هذا الحديث من طرق أقل أحواله أن يكون حسنا لغيره فلا يضره ما وقع من الكلام على بعض طرقه كما هو

معروف . وأخرج الدارقطني عن علي مرفوعا في الآية : « أنه سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : نجد ظهر بعير » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عمر بن الخطاب في قوله (من استطاع إليه سبيلا) قال : الزاد والراحلة وأخرج ابن عباس مثله . وأخرجه عنه مرفوعا ابن ماجه والطبراني وابن مردويه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عنه قال : السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يمحف به . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عنه قال (سبيلا) من وجد إليه سعة ولم يحل بينه وبينه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير قال : الاستطاعة القوة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن النخعي قال : إن المحرم للمرأة من السبيل الذي قال الله . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم النهي للمرأة أن تسافر بغير ذي محرم . واختلفت الأحاديث في قدر المدة ؛ ففي لفظ ثلاثة ، أيام وفي لفظ يوم وليلة ، وفي لفظ بريد .

وقد وردت أحاديث في تشديد الوعيد على من ملك زادا وراحلة ولم يحج . فأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج بيت الله فلا عليه بأن يموت يهوديا أو نصرانيا » وذلك بأن الله يقول (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) . وفي إسناده هلال الخراساني أبو هاشم . قال البخاري : منكر الحديث . وقيل مجهول . وقال ابن عدي : هذا الحديث ليس بمحفوظ وفي إسناده أيضا الحارث الأعور وفيه ضعف . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا » . وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعا مرسلًا مثله . وأخرج سعيد بن منصور . قال السيوطي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن أبعث رجلا إلى هذه الأمصار فليظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين . وأخرج الإسماعيلي عنه يقول « من أطاق الحج ولم يحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا » قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا إسناده صحيح . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عنه نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر « من مات وهو موبر ولم يحج جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر » . وأخرج سعيد بن منصور عنه « من وجد إلى الحج سبيلا سنة ثم سنة ثم سنة ثم مات ولم يحج لم يصل عليه ولا يلحقه مات يهوديا أو نصرانيا » . وأخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : لو ترك الناس الحج لقاتلهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن كفر فإن الله غني) قال : من زعم أنه ليس بفرض عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال : من كفر بالحج فلم يرجعه برا ولا تركه مأثما . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عكرمة قال : لما نزلت (ومن يتبع غير الإسلام ديناً) قالت اليهود : فنحن مسلمون ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله فرض على المسلمين حج البيت ، فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا ، قال الله (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك قال « لما نزلت آية الحج (والله على الناس حج البيت) الآية ، جمع رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم أهل الملل مشركى العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال : إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت فلم يقبله إلا المسلمون ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لانؤمن به ولا نصلى إليه ولا نستقبله ، فأنزل الله (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) « وأخرج عبد بن حميد والبيهقى في سننه عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي داود نفع قال : «قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والله على الناس حج البيت) الآية فقام رجل من هذيل فقال : يا رسول الله من تركه كفر ؟ فقال : من تركه لا يخاف عقوبته ، ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك . » وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح في الآية قال : من كفر بالبيت . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقى في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قول الله (ومن كفر) قال : من كفر بالله واليوم الآخر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله من قوله . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك ، فقرأ (إن أول بيت وضع للناس) إلى قوله (سيلا) ثم قال : (ومن كفر) بهذه الآيات . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود في الآية قال (ومن كفر) فلم يؤمن به : فهو الكافر .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) .

قوله (قل يا أهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى ، والاستفهام في قوله (لم تكفرون) للإنكار والتوبيخ . وقوله (والله شهيد على ما تعملون) جملة حالية مؤكدة للتوبيخ والإنكار ، وهكذا المجيء بصيغة المبالغة في شهيد يفيد مزيد التشديد والتهويل ، والاستفهام في قوله (لم تصدون) يفيد ما أفاده الاستفهام الأول . وقرأ الحسن (تصدون) من أصد ، وهما لغتان : مثل صد اللحم وأصد : إذا تغير وأنتن ، وسيل الله دينه الذى ارتضاه لعباده ، وهو دين الإسلام ، والعوج : الميل والزيغ ، يقال عوج بالكسر إذا كان فى الدين والقول والعمل ، وبالفتح فى الأجسام كالحداد ونحوه ، روى ذلك عن أبي عبيدة وغيره ، ومحل قوله (يبعونها عوجا) النصب على الحال . والمعنى : تطلبون لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة بإيهامكم على الناس بأنها كذلك تثقيفا لتحريفكم وتقويما لدعاويكم

الباطلة . وقوله (وأنتم شهداء) جملة حالية : أى كيف تطلبون ذلك بجملة الإسلام والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذى لا يقبل غيره كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزلة على أنبيائكم : قيل إن فى التوراة أن دين الله الذى لا يقبل غيره الإسلام ، وأن فيه نعت محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل المراد (وأنتم شهداء) أى عقلاء ؛ وقيل المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم ، فكيف تأتون بالباطل الذى يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم ؟ ثم توعدهم سبحانه بقوله (وما الله بغافل عما تعملون) ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذرا لهم عن طاعة اليهود والنصارى مبينا لهم أن تلك الطاعة تفضى إلى أن يردونهم بعد إيمانهم كافرين ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية ، والاستفهام فى قوله (وكيف تكفرون) للإنكار : أى من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه ويقطع أثره ، وهو تلاوة آيات الله عليكم وكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهركم ؟ ومحل قوله (وأنتم) وما بعده النصب على الحال . ثم أرشدكم إلى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذى هو الإسلام ، وفى وصف الصراط الاستقامة رداً على ما ادعوه من العوج . قال الزجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه ، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ، لأن آثاره وعلامته والقرآن الذى أوتيته فينا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا وإن لم نشاهده انتهى . ومعنى الاعتصام بالله التمسك بدينه وطاعته ، وقيل بالقرآن ، يقال اعتصم به واستعصم وتمسك واستمسك : إذا امتنع به من غيره ، وعصمه الطعام : منع الجوع منه . قوله (اتقوا الله حق تقاته) أى التقوى التى تحق له ، وهى أن لا يترك العبد شيئا مما يلزمه فعله ولا يفعل شيئا مما يلزمه تركه ويبدل فى ذلك جهده ومستطاعه . قال القرطبي : ذكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم ذلك ، فأنزل الله - فاتقوا الله ما استطعتم - فنسخت هذه الآية . روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد . قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذا . وقيل إن قوله (اتقوا الله حق تقاته) مبين بقوله (فاتقوا الله ما استطعتم) والمعنى : اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم . قال : وهذا أصوب ، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى . قوله (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى لا تكونن على حال سوى حال الإسلام فلا استثناء مفرغ ، ومحل الجملة : أغنى قوله (وأنتم مسلمون) النصب على الحال ، وقد تقدم فى البقرة تفسير مثل هذه الآية . قوله (واعتصموا بحبل الله جميعا) الحبل لفظ مشترك ، وأصله فى اللغة السبب الذى يتوصل به إلى البغية ، وهو إما تمثيل أو استعارة . أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن ، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف فى الدين ، ثم أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام ، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا ، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخوانا وكانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالإسلام . ومعنى قوله (أصبحتم) صرتم ، وليس المراد به معناه الأصيل : وهو الدخول فى وقت الصباح ، وشفا كل شيء حرفة وكذلك شفيره ، وأشنى على الشيء : أشرف عليه ، وهو تمثيل للحالة التى كانوا عليها فى الجاهلية . وقوله (كذلك) إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده : أى مثل ذلك البيان البليغ يبين الله لكم . وقوله (لعلمكم تهتدون) إرشاد لهم إلى الثبات على الهدى والازدياد منه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس ، وكان شيخا قد عسى فى الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم على نفر من

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاضه مارأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملائني قبلة بهذه البلاد ، والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتي شابا معه من يهود فقال اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم يوم بعث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار وكان يوم بعث يوما اقتتل فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئت والله رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعا وقالوا : قد فعلنا ، السلاح السلاح موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة ، فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من علومهم لهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس وما صنع (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون) إلى قوله (وما الله بغافل عما تعملون) وأنزل في أوس بن قيطي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) إلى قوله (وأولئك لهم عذاب عظيم) وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطولة من طرق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (لم تصدون عن سبيل الله) قال : كانوا إذا سألهم أحد تجدون محمدا ؟ قالوا لا ، قال : فصلوا الناس عنه وبغوا محمدا عوجا هلاكا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : لم تصدون عن الإسلام وعن نبي الله من آمن بالله وأنتم شهداء فيما تقرعون من كتاب الله أن محمدا رسول الله ، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به يحسدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (ومن يعتصم بالله) قال : يؤمن به . وأخرجوا عن أبي العالية قال : الاعتصام الثقة بالله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (اتقوا الله حق تقاته) قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . وقد رواه الحاكم وصححه وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا بدون قوله : ويشكر فلا يكفر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : حق تقاته أن يطاع فلا يعصى فلن تستطيعوا ، فأنزل الله بعد ذلك - فاتقوا الله ما استطعتم - وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (حق تقاته) قال : لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا يأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني ، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن مسعود في قوله (واعتصموا بحبل الله) قال : حبل الله القرآن . وقد وردت أحاديث أن كتاب الله

هو جبل الله الممدود . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : واعتصبوا بجبل الله بالإخلاص لله وحده . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : بطاعته . وأخرج أيضا عن قتادة قال : بعهدده وأمره . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : بالإسلام . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (إذ كنتم أعداء) قال : ما كان بين الأوس والخزرج في شأن عائشة . وأخرج ابن إسحاق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة ، حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (وكنتم على شفا حفرة من النار) يقول : كنتم على طرف النار ، من مات منكم وقع في النار ، فبعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم واستنقذكم به من تلك الحفرة .

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا
الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) .

قوله (ولتكن) قرأه الجمهور بإسكان اللام ، وقرأ بكسر اللام على الأصل ؛ ومن في قوله (منكم) للتبويض وقيل لبيان الجنس . ورجع الأول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمر به معروف وينهى عنه منكرا . قال القرطبي : الأول أصح فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عيّنهم الله سبحانه بقوله - الذين إن مكناهم في الأرض - الآية . وقرأ ابن الزبير (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم) قال أبو بكر بن الأنباري : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بالفاظ القرآن . وقد روى أن عثمان قرأها كذلك ولكن لم يكتبها في مصحفه فدل على أنها ليست بقرآن . وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها . وقوله (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) من باب عطف الخاص على العام ، لإظهارا لشرفهما ، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه ، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة : أي يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم : أي كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك ، والإشارة في قوله (وأولئك) ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها (هم المفلحون) أي المختصون بالفلاح ، وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد . قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا) هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين ؛ وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة ؛ وقيل الحرورية ، والظاهر

الأول . والبيانات الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة لعدم الاختلاف . قيل وهذا النهى عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية ؛ وأما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز ، وما زال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوادث ، وفيه نظر فإنه مازال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجودا وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب ، فالمسائل الشرعية المساوية الاقدام في انتسابها إلى الشرع . وقوله (يوم تبيض وجوه) منتصب بفعل مضمر : أى اذكر ؛ وقيل بما يدل عليه قوله (لهم عذاب عظيم) فإن تقديره استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه ، أى يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة . ويقال إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسنة فاستبشروا ببيض وجهه ، وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئة فحزن واسود وجهه والتكثير في وجوه للتكثير : أى وجوه كثيرة . وقرأ يحيى بن وثاب تبيض وتسود بكسر التاءين . وقرأ الزهري تبيض وتسود . قوله (أكفرتم) أى فيقال لهم أكفرتم ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال ، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب ؛ قيل هم أهل الكتاب ؛ وقيل المرتدون ؛ وقيل المنافقون ؛ وقيل المبتدعون . قوله (فى رحمة الله) أى فى جنته ودار كرامته ، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة ، بل لابد من الرحمة ، ومنه حديث « لن يدخل أحد الجنة بعمله » وهو فى الصحيح . وقوله (هم فيها خالدون) جملة استثنائية جواب سؤال مقرر . وتلك إشارة إلى ماتقدم من تعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين . وقوله (نلتوها عليكم بالحق) جملة حالية ، وبالحق متعلق بمحذوف : أى متلبسة بالحق وهو العدل . وقوله (وما الله يريد ظلما للعالمين) جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها ، وفى توجه النى إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فردا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم . والمراد بما فى السموات وما فى الأرض مخلوقاته سبحانه : : أى له ذلك يتصرف فيه كيف يشاء وعلى ما يريد ، وعبر بما تغلبا غير العقلاء على العقلاء لكثرتهم أول تنزيل العقلاء منزلة غيرهم . قال المهدوى : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما فى السموات وما فى الأرض فى قبضته ؛ وقيل هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره : وقوله (وإلى الله ترجع الأمور) أى لا إلى غيره لاشركة ولا استقلال .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) قال : الخير اتباع القرآن وسنتي » . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كل آية ذكرها الله فى القرآن فى الأمر بالمعروف فهو الإسلام والنهى عن المنكر فهو عبادة الأوثان والشيطان انتهى . وهو تخصيص بغير مخصص ، فليس فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع ما يدل على ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال (يدعون إلى الخير) أى الإسلام (ويأمرون بالمعروف) بطاعة ربهم (وينهون عن المنكر) عن معصية ربهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وهم الرواة انتهى . ولا أدري ما وجه هذا التخصيص ، فالخطاب فى هذه الآية كالخطاب بسائر الأمور التى شرعها الله لعباده وكلفهم بها . وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت

النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة . وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية مرفوعاً نحوه ، وزاد « كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » . وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً نحوه أيضاً ، وزاد « كلها في النار إلا ملة واحدة ، فقليل له : ما الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك مرفوعاً نحوه ، وفيه « فواحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار ، قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : الجماعة » وأخرجه أحمد من حديث أنس ، وفيه « قيل يا رسول الله من تلك الفرقة ؟ قال : الجماعة » . وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الأمر بالكون في الجماعة والنهي عن الفرقة . وأخرج ابن أبي حاتم والخطيب عن ابن عباس في قوله (يوم تبيض وجوه) قال : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدع والضلالة . وأخرجه الخطيب والديلمي عن ابن عمر مرفوعاً وأخرجه أيضاً مرفوعاً أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب في الآية قال : صاروا فرقتين يوم القيامة ، يقال لمن أسود وجهه أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة ، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنته وقد روى غير ذلك .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آتَى أَمْرٌ أَنِ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَى وَإِنْ يُقْتَلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) .

قوله (كنتم خير أمة) هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم ، وكان قيل هي التامة : أي وجدتم وخلقتم خير أمة ، ومثله ما أنشده سيبويه :
 • وجيران لنا كانوا كرام •
 ومنه قوله تعالى - كيف نكلم من كان في المهد صبياً - وقوله - واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم - . وقال الأخفش : يريد أهل أمة : أي خير أهل دين ، وأنشد :
 حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأمن ذو أمة وهو طائع

وقيل معناه : كنتم في اللوح المحفوظ ؛ وقيل : كنتم منذ آمنتم . وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق ، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم وإن كانت متفاضلة في ذات بينها . كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم . قوله (أخرجت للناس) أي أظهرت لهم . وقوله (تأمرون بالمعروف) الخ كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به ، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك ، ولهذا قال مجاهد إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية ، وهذا يقتضي أن يكون تأمرون وما بعده في محل نصب على الحال أي كنتم خير أمة حال كونكم آمرين ناهين مؤمنين بالله وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه ورسوله وما شرعه

لعباده ، فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور . قوله (ولو آمن أهل الكتاب) أى اليهود إيماناً كلياً بالإيمان بالمسلمين بالله ورسوله وكتبه (لكان خيراً لهم) ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل قالوا : نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله (منهم المؤمنون) وهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم ، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل من قبله (وأكثرهم الفاسقون) أى الخارجون عن طريق الحق المتمردون فى باطلهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما جاء به فيكون هذا التفصيل على هذا كلاماً مستأنفاً جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل : هل منهم من آمن فاستحق ما وعده الله . قوله (لن يضروكم إلا أذى) أى لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر إلا بنوع الأذى ، وهو الكذب والتحريف والبهت ولا يقدرُونَ على الضرر الذى هو الضرر فى الحقيقة بالحرب والنهب ونحوهما ، فالاستثناء مفرغ ، وهذا وعد من الله لرسوله وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم ؛ وقيل الاستثناء منقطع . والمعنى : لن يضروكم ألبتة لكن يؤذونكم ، ثم بين سبحانه مانعاً من الضرر بقوله (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) أى ينهزمون ولا يقدرُونَ على مقاومتكم فضلاً عن أن يضروكم . وقوله (ثم لا ينصرون) عطف على الجملة الشرطية : أى ثم لا يوجد لهم نصر ولا يثبت لهم غلب فى حال من الأحوال ، بل شأنهم الخذلان ماداموا . وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقاً فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية ، فهى من معجزات النبوة . قوله (ضربت عليهم الذلة) قد تقدم فى البقرة معنى هذا التركيب . والمعنى : صارت الذلة محيطاً بهم فى كل حال وعلى كل تقدير فى أى مكان وجدوا (إلا بجبل من الله) أى إلا أن يعتصموا بجبل من الله ، قاله الفراء : أى بذمة الله أو بكتابه (وجبل من الناس) أى بذمة من الناس وهم المسلمون ؛ وقيل المراد بالناس النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وباءوا) أى رجعوا (بغضب من الله) وقيل احتملوا ، وأصل معناه فى اللغة اللزوم والاستحقاق : أى لزمهم غضب من الله هم مستحقون له . ومعنى ضرب المسكنة : إحاطتها بهم من جميع الجوانب ، وهكذا حال اليهود فإنهم تحت الفقر المدقع والمسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم . والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب ، أى وقع عليهم ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، والإشارة بقوله ذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده . ومعنى الآية : أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة والبؤس والغضب منه لكونهم كفروا بآياته وقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم واعتدائهم .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله (كنتم خير أمة) قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى فى الآية قال : قال عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال أنتم فكنا كلنا ، ولكن قال كنتم فى خاصة أصحاب محمد ومن صنعهم مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس وفى لفظ عنه أنه قال يكون لأولنا ولا يكون لآخرنا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ، ثم قال : يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل . وأخرج البخارى وغيره عن أبي هريرة فى الآية قال : خير الناس للناس يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن معاوية بن حيدة أنه سمع النبي صلى الله

عليه وآله وسلم يقول في الآية : إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها . وروى من حديث معاذ وأبي سعيد نحوه . وقد وردت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب ، وهذا من فوائد كونها خير الأمم . وأخرج ابن جرير عن الحسن (لن يضروكم إلا أذى) قال : تسمعون منهم كذبا على الله يدعونكم إلى الضلالة . وأخرج أيضا عن ابن جريج قال : إشارتهم في عزيز وعيسى والصليب . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن وقتادة (ضربت عليهم الذلة) قالوا : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وروى ابن المنذر عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) قال : بعهد من الله وعهد من الناس .

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ نُكَفِّرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) .

قوله (ليسوا سواء) أى أهل الكتاب غير مستويين بل مختلفين ، والجملة مستأنفة سبقت لبيان التفاوت بين
بين أهل الكتاب . وقوله (أمة قائمة) هو استئناف أيضا يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة
قائمة إلى قوله (من الصالحين) قال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذو أمة ، أى ذو طريقة حسنة وأنشد :
• وهل يأتمن ذو أمة وهو طائع • وقيل في الكلام حذف ، والتقدير : من أهل الكتاب أمة قائمة
وأخرى غير قائمة ، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى ، كقول أبي ذؤيب :

عصيت إليها القلب إني لأمرها مطيع فما أدرى أرشد طلابها ؟

أراد أرشد أم غي . قال الفراء : أمة رفع بسواء ، والتقدير : ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات
الله وأمة كافرة . قال النحاس : وهذا القول خطأ من جهات : أحدها أنه يرفع أمة بسواء فلا يعود على اسم ليس
شيء ، ويرفع بما ليس جاريا على الفعل ، ويضمّر ما لا يحتاج إليه لأنه قد تقدّم ذكر الكافرة ، فليس لإضمار هذا
وجه . وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم أكلوني البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس : وهذا غلط ، لأنه
قد تقدّم ذكرهم ، وأكلوني البراغيث لم يتقدم لهم ذكر انتهى .

وعندى أن ما قاله الفراء قوى قويم ، وحاصله أن معنى الآية : لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة
أخرى شأنها كذا ، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير مالا حاجة إليه كما قال النحاس ، فإن تقدّم ذكر
الكافرة لا يفيد مفاد تقدير ذكرها هنا ، وأما قوله إنه لا يعود على اسم ليس شيء ، فيردّه أن تقدير العائد شائع

مشتهر عند أهل الفن ، وأما قوله ويرفع بما ليس جاريا على الفعل فغير مسلم . والقائمة : المستقيمة العادلة ، من قولهم : أقمت العود فقام : أى استقام . وقوله (يتلون) فى محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال (وآناء الليل) ساعاته ، وهو منصوب على الظرفية . وقوله (وهم يسجدون) ظاهره أن التلاوة كائنة منهم فى حال السجود ، ولا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه الأمة الموصوفة فى الآية هم من قد أسلم من أهل الكتاب ، لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهى عن قراءة القرآن فى السجود ، فلا بد من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله (وهم يسجدون) وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج ، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة ، لما فيه من الخضوع والتذلل . وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله فى صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة ؛ وقيل المراد بها الصلاة بين العشاءين ؛ وقيل صلاة الليل مطلقا . وقوله (يؤمنون بالله) صفة أخرى لأمة : أى يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، ورأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقوله (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) صفتان أيضا لأمة : أى أن هذا من شأنهم وصفهم . وظاهره يفيد أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على العموم ؛ وقيل المراد بالأمر بالمعروف هنا أمرهم باتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبالنهي عن المنكر نهيمهم عن مخالفته . وقوله (ويسارعون فى الخيرات) من جملة الصفات أيضا : أى يبادرون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها . وقوله (وأولئك من الصالحين) أى من جملتهم ؛ وقيل من بمعنى مع : أى مع الصالحين وهم الصحابة رضى الله عنهم ، والظاهر أن المراد كل صالح ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات . قوله (وما تفعلوا من خير) أى خير كان (فلن تكفروه) أى لن تعدوا ثوابه ، وعداه إلى المفعولين وهو لا يتعدى إلا إلى واحد لأنه ضمنه معنى الحرمان ، كأنه قيل فلن تحرموه كما قاله صاحب الكشاف . قرأ الأعمش وابن وثاب وحفص وحمزة والكسائي وخلف بالياء التحتية فى الفعلين ، وهى قراءة ابن عباس واختارها أبو عبيد . وقرأ الباقر بالثناة من فوق فيهما ، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا . والمراد بالمتقين كل من ثبتت له صفة التقوى ؛ وقيل المراد من تقدم ذكره ، وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة ، ووضع الظاهر موضع المضمرة مدحا لهم ورفعاً من شأنهم . وقوله (إن الذين كفروا) قيل هم بنو قريظة والنضير . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم فى هذه الآية . والظاهر أن المراد بذلك كل من كفر بما يجب الإيمان به . ومعنى (لن تغنى) لن تدفع ، وخص الأولاد لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبه . وقوله (مثل ما ينفقون) بيان لعدم إغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها . والصر : البرد الشديد ، أصله من الصرير الذى هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديد . وقال الزجاج : صوت لهب النار التى فى تلك الريح . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقتة أو أهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته . وعلى هذا فلا بد من تقدير فى جانب المشبه به فيقال : كمثل زرع أصابته ريح فيها صر ، أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم (وما ظلمهم الله) أى المنفقين من الكافرين (ولكن أنفسهم يظلمون) بالكفر المانع من قبول النفقة التى أنفقوها ، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص ، لأن الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم فى المعرفة والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد ، ومن

أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدّقوا ورغبوا في الإسلام ، قالت أخبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله (ليسوا سواء) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (أمة قائمة) يقول : مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم قال (أمة قائمة) عادلة . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (آناء الليل) قال : جوف الليل . وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : ساعات الليل . وأخرج عبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (ليسوا سواء) قال : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد (يتلون آيات الله آناء الليل) قال : صلاة العتمة هم يصلونها ، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها . وأخرج أحمد والنسائي والبخاري وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني . قال السيوطي بسند حسن عن ابن مسعود قال « أخر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة العشاء ليلة ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » ولفظ ابن جرير والطبراني فقال : إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب . قال وأنزلت هذه الآية (ليس سواء) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن منصور قال : بلغني أنها نزلت هذه الآية (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) فيما بين المغرب والعشاء وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة (فلن تكفروه) قال : لن يضل عنكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن (فلن تكفروه) قال : لن تظلموه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية يقول (مثل ما ينفقون) أي المشركون ، ولا يتقبل منهم كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون فأصابه ريح فيها صر فأهلكته فكذلك أنفقوا فأهلكهم شركهم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (فيها صر) قال : برد شديد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآئِنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تَصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) .

البطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل : خاصته الذين يستبطنون أمره ، وأصله البطن الذي هو خلاف الظهر ، وبطن فلان بفلان يبطن بطونا وبطانة : إذا كان خاصا به ، ومنه قول الشاعر :

وهم خلصائي كلهم وبطانتي وهم عيتي من دون كل قريب .

قوله (من دونكم) أي من سواكم قاله الفراء : أي من دون المسلمين وهم الكفار : أي بطانة كائنة من

دونكم ، ويجوز أن يتعلق بقوله (لا تتخذوا) . وقوله (لا يألونكم خبالا) في محل نصب صفة لبطانة ، يقال لا ألوك جهدا : أى لا أقصر . قال امرؤ القيس :

وما المرء مادامت حشاشة نفسه بمذكر أطراف الخطوب ولا آل

والمراد لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم ، وإنما عدت إلى مفعولين لكونه مضمنا معنى المنع : أى لا يمنعونكم خبالا ، والخبال والجليل : الفساد في الأفعال والأبدان والعقول . قال أوس :

أبنى لبني لستم بيد إلا يد مخبولة العضد

أى فاسدة العضد . قوله (ودوا ما عنتم) مامصدرية : أى ودوا عنتكم ، والعنت المشقة وشدة الضرر ، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهي . قوله (قد بدت البغضاء) هى شدة البغض كالضراء لشدة الضرر . والأفواه جمع فم . والمعنى : أنها قد ظهرت البغضاء في كلامهم لأنهم لما خامرهم من شدة البغض والحسد أظهرت ألسنتهم ما في صدورهم ، فتركوا التقية وصرحوا بالكذب . أما اليهود فالأمر في ذلك واضح . وأما المنافقون فكان يظهر من فلتات ألسنتهم ما يكشف عن خبث طويتهم . وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم (وما تخفى صدورهم أكبر) لأن فلتات اللسان أقل مما نجته الصدور ، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلة جدا . ثم إنه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان . قوله (ها أنتم أولاء) جملة مصدرة بحرف التنبيه : أى أنتم أولاء الحاطثون في مواليتهم ، ثم بين خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية . فقال (تحبونهم ولا يحبونكم) ، وقيل إن قوله (تحبونهم) خبر ثان لقوله أنتم ؛ وقيل إن أولاء موصول وتحبونهم صلته أى تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمان أو لما بينكم وبينهم من القرابة (ولا يحبونكم) لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد . قوله (وتؤمنون بالكتاب كله) أى يجنس الكتاب جميعا ، وعمل الجملة نصب على الحال : أى لا يحبونكم والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التي من جملتها كتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم . وفيه توبيخ لهم شديد ، لأن من بيده الحق أحق بالصلافة والشدة ممن هو على الباطل (وإذا لقوكم قالوا آمنا) نفاقا وتقية (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) تأسفا وتحسرا ، حيث عجزوا عن الانتقام منكم ، والعرب تصف المغتاض والنادم بعض الأنامل والبنان ، ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم ، فقال (قل موتوا بغيظكم) وهو يتضمن استمرار غيظهم ماداموا في الحياة حتى يأتيهم الموت وهم عليه ، ثم قال (إن الله عليم بذات الصدور) فهو يعلم ما في صدوركم وصدورهم ، والمراد بذات الصدور : الخواطر القائمة بها ، وهو كلام داخل تحت قوله (قل) فهو من جملة المقول . قوله (إن تمسكم حسنة تسوهم) هذه الجملة مستأنفة لبيان تنهاى عداوتهم ، وحسنة وسيئة يعمان كل ما يحسن وما يسوء . وعبر بالمس في الحسنة وبالإصابة في السيئة ، للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة ، ولا يفرحون إلا بإصابة السيئة ؛ وقيل إن المس مستعار لمعنى الإصابة . ومعنى الآية : أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة (وإن تصبروا) على عداوتهم أو على التكالييف الشاقة (وتتقوا) مواليتهم ، أو ما حرّمه الله عليكم (لا يضركم كيدهم شيئا) ، يقال ضارّه يضوره ويضيره ضيرا وضيورا : بمعنى ضره يضره ، وبه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو . وقرأ الكوفيون وابن عامر لا يضركم بضم الراء وتشديد هاء من ضرّ يضر ، فهو على القراءة الأولى مجزوم على أنه جواب الشرط ، وعلى القراءة الثانية مرفوع على تقدير إضمار الفاء كما في قول الشاعر : * من يفعل الحسنات الله يشكرها * . قاله الكسائي والفرّاء ؛ وقال سيبويه : إنه مرفوع على نية التقديم : أى لا يضركم أن تصبروا . وحكى أبو زيد عن المفضل عن عاصم « لا يضركم » بفتح الراء ، وشيئا صفة مصدر محذوف .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مبايعتهم لخوف الفتنة عليهم منهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : هم المنافقون . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : هم الخوارج . قال السيوطي وسنده جيد . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وتؤمنون بالكتاب كله) أي بكتابكم وبكتابتهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل (إن تمسكم حسنة) يعني النصر على العدو والرزق والخير (تسوهم وإن تصبكم سيئة) يعني القتل والهزيمة والجهد .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) .

العامل في « إذ » فعل محذوف : أي واذكر إذ غدت من منزل أهلك : أي من المنزل الذي فيه أهلك . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية نزلت في غزوة أحد . وقال الحسن : في يوم بدر . وقال مجاهد ومقاتل والكلبي : في غزوة الخندق . قوله (تبوي) أي تتخذ لهم مقاعد للقتال ، وأصل التبوء اتخاذ المنزل ، يقال بوأته منزلا : إذا أسكته إياه ، والفعل في محل نصب على الحال . ومعنى الآية : واذكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال : أي أما كن يقعدون فيها ، وعبر عن الخروج بالغدو الذي هو الخروج غدوة مع كونه صلى الله عليه وآله وسلم خرج بعد صلاة الجمعة كما سيأتي ، لأنه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما كما يقال ، أضحى وإن لم يكن في وقت الضحى . قوله (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) هو بدل من إذ غدت ، أو متعلق بقوله تبوي ، أو بقوله سميع عليم ، والطائفتان بنو سلمة من الخرج ، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحي العسكر يوم أحد ، والفشل الجبن ، والهم من الطائفتين كان بعد الخروج ، لما رجع عبد الله ابن أبي بن معمر من المنافقين فحفظ الله قلوب المؤمنين فلم يرجعوا ، وذلك قوله (والله وليهما) . قوله (ولقد

نصركم الله بيدر) جملة مستأنفة سبقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر . وبيدر اسم للماء كان في موضع الوقعة ؛ وقيل هو اسم الموضع نفسه ، وسيأتي سياق قصة بدر في الأنفال إن شاء الله . وأذلة جمع قلة ، ومعناه : أنهم كانوا بسبب قلتهم أذلة ، وهو جمع ذليل استعير للقلة ، إذ لم يكونوا في أنفسهم أذلة ، بل كانوا أعزة . والنصر : العون . وقد شرح أهل التواريخ والسير غزوة بدر وأحد بآتم شرح فلا حاجة لنا في سياق ذلك هاهنا . قوله (إذ تقول) متعلق بقوله (نصركم) والهمزة في قوله (ألن يكفيكم) للإنكار منه صلى الله عليه وآله وسلم عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة ، ومعنى الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر ؛ والإمداد في الأصل : إعطاء الشيء حالا بعد حال ، والمجىء بـ لن لتأكيد النفي ، وأصل الفور : القصد إلى الشيء والأخذ فيه بجد ، وهو من قولهم فارت القدر تفور فوراً وفوراً . إذا غلت ، والفور : الغليان ، وفار غضبه : إذا جاش وفعله من فوره أى قبل أن يسكن ، والفوارة ما يفور من القدر ، استعير للسرعة : أى إن يأتوكم من ساعته هذه يمددكم ربكم بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك . قوله (مسومين) بفتح الواو اسم مفعول ، وهى قراءة ابن عامر وحزة والكسائي ونافع : أى معلمين بعلامات . وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم (مسومين) بكسر الواو اسم فاعل : أى معلمين أنفسهم بعلامة . ورجح ابن جرير هذه القراءة ، والتسويم إظهار سبب الشيء . قال كثير من المفسرين (مسومين) أى مرسلين خيلهم في الغارة ؛ وقيل إن الملائكة اعتمدت بعمائم بيض ؛ وقيل حمر ؛ وقيل خضر ؛ وقيل صفر ، فهذه هى العلامة التى علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج ؛ وقيل كانوا على خيل بلق ؛ وقيل غير ذلك . قوله (وما جعله الله إلا بشرى لكم) كلام مبتدأ غير داخل في مقول القول ، والضمير في قوله (جعله) للإمداد المدلول عليه بالفعل ، أو للتسويم ، أو للإنزال ، ورجح الأول الزجاج وصاحب الكشاف . وقوله (إلا بشرى) استثناء مفرغ من أعم العام ، والبشرى اسم من البشارة : أى إلا لتبشروا بأنكم تنصرون ولتطمئن قلوبكم به : أى بالإمداد ، واللام لام كى ، جعل الله ذلك الإمداد بشرى بالنصر وطمأنينة للقلوب ، وفي قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ (وما النصر إلا من عند الله) لا من عند غيره ، فلا تنفع كثرة المقاتلة ووجود العدة . قوله (ليقطع طرفاً من الذين كفروا) متعلق بقوله (ولقد نصركم الله بيدر) وقيل متعلق بقوله (وما النصر إلا من عند الله) وقيل متعلق بقوله (يمددكم) والطرف الطائفة ، والمعنى : نصركم الله بيدر ليقطع طائفة من الكفار ، وهم الذين قتلوا يوم بدر ؛ أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة أو يمددكم ليقطع . ومعنى يكتبهم يحزنهم ، والمكبوت المحزون . وقال بعض أهل اللغة : معناه يكيدهم : أى يصيبهم بالحزن والغيظ في أكبادهم ، وهو غير صحيح ، فإن معنى كبت أحزن وأغاظ وأذل ، ومعنى كبد أصاب الكبد فينقلبوا خائنين) أى غير ظافرين بمطلبهم . قوله (ليس لك من الأمر شيء) جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه : أى أن الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك أو الهزيمة أو التوبة إن أسلموا أو العذاب ، فقوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) عطف على قوله أو يكتبهم ، وقال الفراء : إن أو بمعنى إلا أن ، بمعنى ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم فتفرح بذلك أو يعذبهم فتشقى بهم . قوله (والله ما فى السموات وما فى الأرض) كلام مستأنف لبيان سعة ملكه (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (ويعذب من يشاء) أن يعذبه يفعل فى ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد . لا يستل عما يفعل وهم يسألون . وفى قوله (والله غفور رحيم) إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه ، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة ، وما أوقع هذا التذييل الجليل وأحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل . وقد أخرج ابن إسحاق والبيهقى في الدلائل عن ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن يحيى بن حبان

والحصين بن عبد الرحمن بن أسعد بن معاذ قالوا : كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومحقق به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر ، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته . وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك ، ومعاتبه من عاتب منهم ، يقول الله لنبيه (وإذ غدت من أهلك) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس (وإذ غلوت من أهلك) الآية قال : يوم أحد . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (تبوء المؤمنون) قال : توطن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أن الآية في يوم الأحزاب . وقد ورد في كتب السير والتاريخ كيفية الاختلاف في المشورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم أحد ، فمن قائل نخرج إليهم ، ومن قائل نبق في المدينة ، فخرج وكان من جملة المشيرين عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، كان رأيه البقاء في المدينة والمقاتلة فيها ، ثم لما خولف في رأيته انخزل بمن معه من المنافقين وهم قتل الثالث من القوم الذين خرج بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر قال : فينا نزلت في بني حارثة وبني سلمة (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) وما يسرني أنهما لم تنزل لقوله (والله وليهما) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (إذ همت طائفتان) قال : ذلك يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم بنو حارثة وبنو سلمة . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (ولقد نصركم الله ببدر) إلى (ثلاثة آلاف من الملائكة منزليين) في قصة بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (وأنتم أذلة) يقول : وأنتم قليل وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المخاري يمدّ المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) إلى قوله (مسومين) قال : فبلغت كرزاً فلم يمدّ المشركين ، ولم يمدّ المسلمين بالخمسة . وأخرج ابن جرير عن الشعبي لما كان يوم بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم ذكر نحوه إلا أنه قال (ويأتوكم من فورهم هذا) يعني كرزاً وأصحابه (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) فبلغ كرزاً وأصحابه الهزيمة ، فلم يمدّهم ولم ينزل الخمسة وأمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال أمدوا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف وذلك يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله (بلى إن تصبروا وتتقوا) الآية ، قال : هذا يوم أحد فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدّوا يوم أحد ولو أمدوا لم ينهزموا يومئذ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ويأتوكم من فورهم هذا) يقول : من سفرهم هذا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة من فورهم قال : من وجههم . وأخرج ابن جرير عن الحسن والربيع وقتادة والسدي مثله ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد من فورهم قال : من غضبهم . وأخرج عن أبي صالح مولى أم هانئ مثله . وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (مسومين) قال : معلمين ، وكانت سبب الملائكة يوم بدر عمائم سوداء ، ويوم أحد عمائم حمراء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير : أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها ، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفراء . وأخرج ابن إسحاق والطبراني عن ابن عباس قال : كانت سبب الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء ، قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراء ، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا

يكونون عددا ومددا لا يضربون . وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ليقطع طرفا من الذين كفروا) قال قطع : الله يوم بدر طرفا من الكفار ، وقتل صناديدهم ورءوسهم وقادتهم في الشر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في قوله (ليقطع طرفا) قال : هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : ذكر الله قتلى المشركين بأحد ، وكانوا ثمانية عشر رجلا فقال (ليقطع طرفا من الذين كفروا) ثم ذكر الله الشهداء فقال - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا - . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله (أو يكتبهم) قال : يحزنهم . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع مثله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كسرت ربايته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية . وقد روى هذا المعنى في روايات كثيرة . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية ، فزلت هذه الآية : ليس لك من الأمر شيء » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما أيضا من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد ، أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، يجر بذلك . وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : اللهم العن فلانا وفلانا لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) وفي لفظ : اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصبة عصت الله ورسوله ، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله (ليس لك من الأمر شيء) الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَعْضٌ مِّنْ بَعْضٍ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)
وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)
سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ لَنُوبٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا) قيل هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر ، وقيل هو اعتراض بين أثناء قصة أحد . وقوله (أضعافا مضاعفة) ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال ، ولكنه جيء به

باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا ، فإنهم كانوا يربون إلى أجل ، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدارا يتراضون عليه ، ثم يزيدون في أجل الدين ، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذوا الربى أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء ؛ وأضعافا حال ، ومضاعفة نعت له ، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام ، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ . قوله (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار في معاملاتهم . قال كثير من المفسرين : وفيه أنه يكفر من استحل الربا ؛ وقيل معناه : اتقوا الربا الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار وإنما خص الربا في هذه الآية لأنه الذي توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله . وقوله (وأطيعوا الله والرسول) حذف المتعلق مشعر بالتعميم : أي في كل أمر ونهي (لعلكم ترحمون) أي راجين الرحمة من الله عز وجل . وقوله (وسارعوا) عطف على أطيعوا ، وقرأ نافع وابن عامر (سارعوا) بغير واو ، وكذلك في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام ، وقرأ الباقر بالواو . قال أبو علي : كلا الأمرين سائغ مستقيم ، والمسارة : المبادرة ، وفي الآية حذف ، أي سارعوا إلى ما يوجب المغفرة من الطاعات . وقوله (عرضها السموات والأرض) أي عرضها كعرض السموات والأرض ، ومثله الآية الأخرى - عرضها كعرض السماء والأرض - وقد اختلف في معنى ذلك ؛ فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ، ونبه بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض ، وقيل إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة ، وذلك أنها ما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى ، حسن التعبير عنها بعرض السموات والأرض مبالغة لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده ، ولم يقصد بذلك التحديد . والسراء : اليسر ، والضراء : العسر . وقد تقدم تفسيرهما - وقيل السراء : الرخاء ، والضراء : الشدة ، وهو مثل الأول ؛ وقيل السراء في الحياة ، والضراء بعد الموت . قوله (والكاذمين الغيظ) يقال كظم غيظه : أي سكت عليه ولم يظهره ، ومنه كظمت السقاء : أي ملأته . والكظامة : ما يسد به مجرى الماء ، وكظم البعير جرتة : إذا ردّها في جوفه ، وهو عطف على الموصول الذي قبله . قوله (والعافين عن الناس) أي التاركين عقوبة من أذنب إليهم واستحق المؤاخظة ، وذلك من أجل ضروب الخير . وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا . وقال الزجاج وغيره : المراد بهم المماليك . واللام في المحسنين يجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء وغيرهم ، ويجوز أن تكون للعهد فيختص بهؤلاء . والأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السياق فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان : أي إحسان كان . قوله (والذين إذا فعلوا فاحشة) هذا مبتدأ وخبره (أولئك) وقيل معطوف على المتقين . والأول أولى ، وهؤلاء هم صنف دون الصنف الأول ملحقين بهم وهم التوابون ، وسيأتي ذكر سبب نزولها ، والفاحشة وصف لموصوف محذوف : أي فعلة فاحشة وهي تطلق على كل معصية . وقد كثر اختصاصها بالزنا . وقوله (أو ظلموا أنفسهم) أي باقتراف ذنب من الذنوب ؛ وقيل أو بمعنى الواو . والمراد ما ذكر ، وقيل الفاحشة الكبيرة ، وظلم النفس الصغيرة ؛ وقيل غير ذلك . قوله (ذكروا الله) أي بالسنتهم أو أخطروه في قلوبهم أو ذكروا وعده ووعيده (فاستغفروا لذنوبهم) أي طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه ، وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة ، وفي الاستفهام بقوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله) من الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره : أي لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه وتنشيط للمذنبين أن يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل ، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه . وقوله (ولم يصروا)

على ما فعلوا) عطف على فاستغفروا : أى لم يقيموا على قبيح فعلهم . وقد تقدم تفسير الإصرار . والمراد به هنا العزم على معاودة الذنب وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه . وقوله (وهم يعلمون) جملة حالية : أى لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه . قوله (أولئك جزاؤهم) الإشارة إلى المذكورين بقوله (والذين إذا فعلوا فاحشة) . وقوله (جزاؤهم) بدل اشتغال من اسم الإشارة . وقوله (مغفرة) خبر (ومن ربهم) متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة : أى كائنة من ربهم . وقوله (ونعم أجر العاملين) المخصوص بالمدح محذوف : أى أجرهم ، أو ذلك المذكور . وقد تقدم تفسير الجنات وكيفية جرى الأنهار من تحتها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : قال كانوا يتبايعون إلى الأجل ، فإذا جاء الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء قال : كانت ثقيف تدين بنى المغيرة لإفى الجاهلية وذكر نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاوية بن قرّة قال : كان الناس يتأولون هذه الآية (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) اتقوا لا أعذبكم بذنوبكم في النار التي أعددتها للكافرين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح قال : قال المسلمون : يارسول الله أبنا إسرائيل كانوا أكرم على الله منا ؟ كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه اجدع أنفك اجدع أذنك افعل كذا وكذا ، فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت (وسارعوا) الآية . وأخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك في تفسير (وسارعوا) قال : التكبير الأولى . وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس في قوله (عرضها السموات والأرض) مثل ما ذكرناه سابقا عن الجمهور . وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق كريب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (الذين ينفقون في السراء والضراء) يقول : في اليسر والعسر (والكاظمين الغيظ) يقول : كاظمين على الغيظ . وقد وردت أحاديث كثيرة . في ثواب من كظم الغيظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن النخعي في الآية قال : الظلم من الفاحشة والفاحشة من الظلم وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبراني وابن أبي الدنيا وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال : إن في كتاب الله لايتين ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما فاستغفر الله إلا غفر له (والذين إذا فعلوا فاحشة) الآية . وقوله - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه - الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن ثابت البناني قال : بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى (والذين إذا فعلوا فاحشة) الآية . وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاء بن خالد قال : بلغني أنه لما نزل قوله تعالى (ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا) صاح إبليس بجنوده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل برّ وبحر ، فقالوا : مالك يا سيدنا ؟ قال : آية نزلت في كتاب الله لا يضرّ بعدها أحدا من بني آدم ذنب ، قالوا : وما هي ؟ فأخبرهم ، قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق ، فرضى منهم بذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والحميدي وعبد بن حميد وأهل السنن الأربع وحسنه النسائي وابن حبان والدارقطني في الأفراد والبخاري وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن السني والبيهقي في الشعب والضياء في المختارة عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « مامن رجل يذنب ذنبا ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيتطهر ثم يصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك إلا غفر الله له ، ثم قرأ هذه الآية (والذين إذا فعلوا فاحشة) الآية » . وأخرج البيهقي في الشعب عن الحسن مرفوعا نحوه ، ولكنه قال : ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما أصرَّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (ولم يصرّوا) فيسكتون ولا يستغفرون . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل (ونعم أجر العاملين) قال : أجر العاملين بطاعة الله الجنة .

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧)
هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُذَوِلُّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ
تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا
لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ
قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) .

قوله (قد خلت من قبلكم سنن) هذا رجوع إلى وصف باقي القصة . والمراد بالسنن ما سنده الله في الأمم من وقائعه : أي قد خلت من قبل زمانكم وقائع منها الله في الأمم المكذبة ، وأصل السنن جمع سنة : وهي الطريقة المستقيمة ومنه قول الهذلي :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

والسنة : الإمام المتبع الموثم به ، ومنه قول لييد :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمام

والسنة الأمة ، والسنن الأمم ، قاله المفضل الضبي . وقال الزجاج : المعنى في الآية أهل سنن فحذف المضاف ، والفاء في قوله (فسيروا) سببية ؛ وقيل شرطية : أى إن شككتهم فسيروا . والعاقبة : آخر الأمر . والمعنى سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ثم انقضوا فلم يبق من دنياهم التي آثروها أثر . هذا قول أكثر المفسرين . والمطلوب من هذا السير المأمور به هو حصول المعرفة بذلك ، فإن حصلت بدونه فقد حصل المقصود ، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها ، والإشارة بقوله (هذا) إلى قوله (قد خلت) وقال الحسن إلى القرآن (بيان للناس) أى تبين لهم ، وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون ، أو للجنس : أى للمكذبين وغيرهم . وفيه حث على النظر في سوء عاقبة المكذبين وما انتهى إليه أمرهم . قوله (وهدي وموعظة) أى هذا النظر مع كونه بيانا فيه هدى وموعظة للمتقين من المؤمنين ، فعطف الهدى والموعظة على البيان يدل على التغاير ولو باعتبار المتعلق ، وبيانه أن اللام في الناس إن كانت للعهد فالبيان للمكذبين والهدى والموعظة للمؤمنين ، وإن كانت للجنس فالبيان لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم والهدى والموعظة للمتقين وحدهم . قوله (ولا تنهوا ولا تحزنوا) عزاهم وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحهم على قتال عدوهم ونهاهم عن العجز والفسل ، ثم بين لهم أنهم الأعوان على عدوهم بالنصر والظفر ، وهى جملة حالية : أى والحال أنكم الأعوان عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الواقعة . وقد صدق الله وعده فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وقعة أحد ظفر بعدوه في جميع وقعاته ؛ وقيل المعنى : وأنتم الأعوان عليهم بما أصبتم منهم في يوم بدر فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم . وقوله (إن كنتم مؤمنين) متعلق بقوله (ولا تنهوا) وما بعده ، أو بقوله (وأنتم الأعوان) أى إن كنتم مؤمنين فلا تنهوا ولا تحزنوا ، أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعوان . والقرح بالضم والفتح : الجرح وهما لغتان فيه ، قاله الكسائي والأخفش . وقال الفراء : هو بالفتح الجرح ، وبالضم ألمه . وقرأ محمد بن السمين « قرح » بفتح القاف والراء على المصدر . والمعنى في الآية : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم يوم بدر ، فلا تنهوا لما أصابكم في هذا اليوم ، فإنهم لم ينهوا لما أصابهم في ذلك اليوم ، وأنتم أولى بالصبر منهم ؛ وقيل إن المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين في هذا اليوم ، فإن المسلمين انتصروا عليهم في الابتداء فأصابوا منهم جماعة ، ثم انتصر الكفار عليهم فأصابوا منهم . والأول أولى ، لأن ما أصابه المسلمون من الكفار في هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه . وقوله (وتلك الأيام) أى الكائنة بين الأمم في حروبها والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة في زمن النبوة ؛ تارة تغلب هذه الطائفة ، وتارة تغلب الأخرى كما وقع لكم أيها المسلمون في يوم بدر وأحد ، وهو معنى قوله (نداولها بين الناس) فقوله (تلك) مبتدأ ، والأيام صفة ، والخبر نداولها ، وأصل المداولة المعاورة : داولته بينهم عاورته . والدولة : الكرة ، ويجوز أن تكون الأيام خبرا ونداولها حالا ، والأول أولى . وقوله (وليعلم الله) معطوف على علة مقدرة كأنه قال : نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم ، أو يكون المعلل محذوفا : أى ليعلم الله الذين اتقوا ، فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل : أى فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالما ، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علما يقع عليه الجزاء كما علمه علما أزليا (ويتخذ منكم شهداء) أى يكرمهم بالشهادة . والشهداء جمع شهيد ، سمي بذلك لكونه مشهودا له بالجنة ، أو جمع شاهد لكونه كالشاهد للجنة ، ومن للتبويض وهم شهداء أحد . وقوله (والله لا يحب الظالمين) جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله . وقوله (وليحصى

الله الذين آمنوا) من جملة العلل معطوف على ما قبله . والتمحيص : الاختبار ؛ وقيل النطهير على حذف مضاف : أى ليحص ذنوب الذين آمنوا ، قاله الفراء ؛ وقيل : يمحص يخلص ، قاله الخليل والزجاج : أى ليخلص المؤمنين من ذنوبهم . وقوله (ويمحق الكافرين) أى يستأصلهم بالهلاك ، وأصل التمحيق محو الآثار ، والمحق نقصها . قوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز ، وأم هى المنقطعة ، والهمزة للإنكار : أى بل أحسبتم ، والواو فى قوله (ولما يعلم الله) واو الحال . والجملة حالية ، وفيه تمثيل كالأول ، أو علم يقع عليه الجزاء . وقوله (وليعلم الصابرين) منصوب بإضمار أن كما قال الخليل وغيره على أن الواو للجمع . وقال الزجاج : الواو بمعنى حتى ، وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر « ويعلم الصابرين » بالجزم عطفا على (ولما يعلم) وقرئ بالرفع على القطع ؛ وقيل إن قوله (ولما يعلم) كناية عن نفي المعلوم ، وهو الجهاد . والمعنى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر : أى الجمع بينهما ، ومعنى (لما) معنى « لم » عند الجمهور ، وفرق سيويه بينهما فجعل لم لنفي الماضى ، ولما لنفي الماضى والمتوقع . قوله (ولقد كنتم تمنون الموت) هو خطاب لمن كان يتمنى القتال والشهادة فى سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر ، فإنهم كانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال ، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج ، ولم يصبر منهم إلا نفر يسير مثل أنس بن النضر عم أنس بن مالك . وقوله (من قبل أن تلقوه) أى القتال أو الشهادة التى هى سبب الموت . وقرأ الأعمش « من قبل أن تلاقوه » وقد ورد النهى عن تمنى الموت فلا بد من حمله هنا على الشهادة . قال القرطبي : وتمنى الموت من المسلمين يرجع إلى تمنى الشهادة المبينة على الثبات والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم لأنه معصية وكفر ، ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل . قوله (فقد رأيتموه) أى القتال أو ما هو سبب للموت ، ومحل قوله (وأنتم تنظرون) النصب على الحال ، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة : أى قد رأيتموه معانين له حين قتل من قتل منكم . قال الأخفش : إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله - ولا طائر يطير بجناحيه - وقيل معناه بصراء ليس فى أعينكم علل ؛ وقيل معناه وأنتم تنظرون إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) . سبب نزول هذه ما سيأتى من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب فى يوم أحد صاح الشيطان قائلا : قد قتل محمد ، ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل : قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم ، وقال آخر : لو كان رسولا ما قتل ، فرد الله عليهم ذلك وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل وسيخلو كما خلوا ، فجملته قوله (قد خلت من قبله الرسل) صفة لرسول . والقصر قصر أفراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين : الرسالة ، وكونه لا يهلك ؛ فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك ؛ وقيل هو قصر قلب . وقرأ ابن عباس « قد خلت من قبل رسل » ثم أنكر الله عليهم بقوله (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) أى كيف ترتدون وتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم وإن قتلوا بموت أو قتل ؛ وقيل الإنكار لجعلهم خلوا الرسل قبله سببا لانقلابهم بموته أو قتله ، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل لكونه مجوزا عند مخاطبين . قوله (ومن ينقلب على عقبيه) أى بإدباره عن القتال أو بارتداده عن الإسلام (فلن يضر الله شيئا) من الضرر وإنما يضر نفسه (وسيجزى الله الشاكرين) أى الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا ، لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام ، ومن أمثل ما أمر به فقد شكر النعمة التى أنعم الله بها عليه . قوله (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) هذا كلام مستأنف

يتضمن الحث عه الجهاد والاعلام بأن الموت لابد منه . ومعنى (بإذن الله) بقضاء الله وقدره ؛ وقيل إن هذه الحملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبين لهم أن الموت بالقتل أو بغيره منوط بإذن الله ، وإسناده إلى النفس مع كونها غير مختارة له للإيدان بأنه لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله . وقوله (كتابا) مصدر مؤكدا لما قبله ، لأن معناه كتب الله الموت كتابا . والمؤجل : الموقت الذى لا يتقدم على أجله ولا يتأخر . قوله (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الدنيا) كالغنيمة ونحوها ، واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا ، وإن كان السبب خاصا (نوته منها) أى من ثوابها على حذف المضاف (ومن يرد) بعمله (ثواب الآخرة) وهو الجنة نوته من ثوابها ، ونضاعف له الحسنات أضعافا كثيرة (وسنجزى الشاكرين) بامثال ما أمرناهم به كالقتال ، ونهينهم عنه كالفرار وقبول الإرجاف . وقوله (وكأين) قال الخليل وسيبويه : هى أى دخلت عليها كاف التشبيه وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى كم ، وصورت فى المصحف نونا ، لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغير معناها ، ثم كثر استعمالها فتصرفت فيها العرب بالقلب والحذف فصار فيها أربع لغات قرىء بها : أحدها كائن مثل كاعن ، وبها قرأ ابن كثير ، ومثله قول الشاعر :

وكائن بالأباطح من صديق تراه لو أصبت هو المصابا

وقال آخر : وكائن رددنا عنكم من مدجج بجى أمام الركب يردى مقنعا

وقال زهير : وكائن ترى من معجب لك شخصه زيادته أو نقصه فى التكلم

وكأين بالتشديد مثل كعين ، وبه قرأ الباقون وهو الأصل . والثالثة كأين مثل كعين مخففا . والرابعة كئىن بياء بعدها همزة مكسورة ، ووقف أبو عمرو بغير نون فقال كأى لأنه تنوين ، ووقف الباقون بالنون . والمعنى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب قتل على البناء للمجهول وهى قراءة ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون فى « قتل » ضمير يعود إلى النبى ، وحينئذ يكون قوله (معه ربيون) جملة حالية كما يقال : قتل الأمير معه جيش : أى ومعه جيش ، والوجه الثانى أن يكون القتل واقعا على ربيون ، فلا يكون فى قتل ضمير ، والمعنى : قتل بعض أصحابه وهم الربيون . وقرأ الكوفيون وابن عامر « قاتل » وهى قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد وقال : إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخل فيه ، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل ، فقاتل أعم وأمدح ، ويرجح هذه القراءة الأخرى . والوجه الثانى من القراءة الأولى قول الحسن : ما قتل نبى فى حرب قط ، وكذا قال سعيد بن جبير والربيون بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرأ على بضمها وابن عباس بفتحها ، وواحده ربى بالفتح منسوب إلى الرب والربى بضم الراء وكسرها منسوب إلى الربة بكسر الراء وضمها وهى الجماعة ، ولهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة ؛ وقيل هم الأتباع ؛ وقيل هم العلماء . قال الخليل : الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نسبوا إلى التآله والعبادة ومعرفة الربوبية . وقال الزجاج : الربيون بالضم الجماعات . قوله (فما وهنوا) عطف على قاتل أو قتل . والوهن : انكسار الجدة بالخوف . وقرأ الحسن « وهنوا » بكسر الهاء وضمها . قال أبو زيد : لغتان وهن الشئ نهين وهنا : ضعف : أى ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قتل منهم « وما ضعفوا » أى عن عدوهم (وما استكانوا -) لما أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذلة والخضوع وقرئ « وما وهنوا وما ضعفوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى الكسائى ضعفوا بفتح العين ، وفى هذا توخيخ لمن انهزم يوم أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل . قوله (وما كان

قولهم) أى قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول ، وقولهم منصوب على أنه خبر كان . وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم . وقوله (إلا أن قالوا) استثناء مفرغ : أى ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون أو قتل نبيهم (إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) قيل هي الصغائر . وقوله (وإسرافنا في أمرنا) قيل هي الكبائر ، والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبا من صغيرة أو كبيرة . والإسراف مافيه مجاوزة للحد ، فهو من عطف الخاص على العام ، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضموا لأنفسهم (وثبت أقدامنا) في مواطن القتال (فأتاهم الله) بسبب ذلك (ثواب الدنيا) من النصر والغنيمة والعزة ونحوها (وحسن ثواب الآخرة) من إضافة الصفة إلى الموصوف : أى ثواب الآخرة الحسن ، وهو نعيم الجنة ، جعلنا الله من أهلها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (قد خلت من قبلكم سنن) قال : تداول من الكفار والمؤمنين في الخير والشر . وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير قال : أول ما نزل من آل عمران (هذا بيان للناس) ثم أنزل بقيتها يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله (هذا بيان) يعنى القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس قال : أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم لا يعلون علينا » فأنزل الله (ولا تهنوا ولا تحزنوا) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الشعب يوم أحد ، فسألوا ما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما فعل فلان ، فنعى بعضهم لبعض وتحدثوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل ، فكانوا في هم وحزن ، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل . وكانوا على أحد مجنبتى المشركين ، وهم أسفل من الشعب ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرحوا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم لا قوة لنا إلا بك ، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء نفر فلا تهلكهم » وثاب نفر من المشركين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل ، فذلك قوله (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك (وأنتم الأعلون) قال : وأنتم الغالبون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (إن يمسسكم قرح) قال : جراح وقتل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) قال : إن يقتل منكم يوم أحد فقد قتل منهم يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وتلك الأيام نداؤها بين الناس) قال : كان يوم أحد بيوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله (وتلك الأيام) الآية ، قال : أدال المشركين على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد ، وبلغني أن المشركين قاتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين ألفا عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين ، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلا . وأخرج ابن جريج وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (ويتخذ منكم شهداء) قال : إن المسلمين كانوا يسألون ربهم : اللهم ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونباليك فيه خيرا ، ونلتمس فيه الشهادة ، فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق العوفي عنه أن الذين آمنوا (قال : يبتليهم) ويمحق الكافرين) قال : ينقصهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق العوفي عنه أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد ، أو ليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلي فيه خيرا ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق فأشهدهم

الله أحدا ، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم . فقال الله (ولقد كنتم تمنون الموت) الآية . وأخرج ابن المنذر عن كليب قال : خطبنا عمر بن الخطاب ، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول إنها أحدية ، ثم قال : تفرقنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد ، فصعدت الجبل فسمعت يهوديا يقول : قتل محمد ، فقلت : لا أسمع أحدا يقول قتل محمد إلا ضربت عنقه ، فنظرت فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس يتراجعون إليه ، فزلت هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نادى مناد يوم أحد ألا إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول ، فأنزل الله (وما محمد إلا رسول) . وأخرج أيضا عن مجاهد نحوه . وأخرج أيضا عن عليّ في قوله (وسيجزى الله الشاكرين) قال : الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه ، فكان عليّ يقول : كان أبو بكر أمير الشاكرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم عنه أنه كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله يقول (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلنّ على ما قتل عليه حتى أموت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله (ربيون) قال : ألوف . وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال : الربة الواحدة ألف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ربيون) قال : جموع . وأخرج ابن جرير عنه قال : علماء كثير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (وما استكانوا) قال : تخشعوا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (وإسرافنا في أمرنا) قال : خطايانا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَلَمَ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثْبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) .

١٤٩ أمر الله سبحانه بالاعتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار ، وهم مشركو العرب ؛ وقيل اليهود والنصارى ؛ وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دين آبائكم . وقوله (يردوكم على أعقابكم) أي يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر (فتقلبوا خاسرين) أي ترجعوا مغبونين . وقوله (بل الله مولاكم) لإضراب عن مفهوم الحملة الأولى : أي إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم

لاغيره ؛ وقرىء « بل الله » بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله . قوله (سنلقى) قرأ السخيتاني بالياء التحتية ، وقرأ الباكون بالنون . وقرأ ابن عامر والكسائي (الرعب) بضم العين . وقرأ الباكون بالنسكون وهما لغتان ، يقال رعبته رعبا ورعبا فهو مرعوب ، ويجوز أن يكون مصدرا ، والرعب بالضم الاسم ، وأصله الملاء ، يقال سيل راعب : أى يملأ الوادى ، ورعبت الحوض ملأته ، فالمعنى : سنملأ قلوب الكافرين رعبا : أى خوفا وفزعاً ، والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام ، ومجازا فى غيرها كهذه الآية ، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا أن لا يكونوا استأصلوا المسلمين ، وقالوا : بثنا صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به (بما أشركوا بالله) متعلق بقوله (سنلقى) وما مصدرية : أى بسبب إشرائهم (ما لم ينزل به سلطانا) أى ما لم ينزل الله يجعله شريكا له حجة وبيانا وبرهانا ، والننى يتوجه إلى المقيد والمقيد : أى لا حجة ولا إنزال ، والمعنى : أن الإشرار بالله لم يثبت فى شئ من الملل . والمثوى المكان الذى يقام فيه ، يقال ثوى يثوى ثواء . قوله (ولقد صدقكم الله وعده) نزلت لما قال بعض المسلمين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ، وذلك أنه كان الظفر لهم فى الابتداء ، حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده ؛ فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مركزهم طلبا للغنيمة كان ذلك سبب الهزيمة . والحس : الاستئصال بالقتل ، قاله أبو عبيد . يقال جراد محسوس : إذا قتله البرد ، وسنة محسوس : أى جدبة تأكل كل شئ . قيل وأصله من الحس الذى هو الإدراك بالحاسة ، فعنى حسه : أذهب حسه بالقتل ، وتحسونهم : تقتلونهم وتستأصلونهم ، قال الشاعر :

حسنهم بالسيف حسا فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبددوا

وقال جرير : تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار فى الأجم الحصيد

(بإذنه) أى بعلمه أو بقضائه (حتى إذا فشلتم) أى جبنتم وضعفتم ، قيل جواب حتى محذوف تقديره امتحنتم وقال الفراء : جواب حتى قوله (وتنازعتم) والواو مقحمة زائدة كقوله - فلما أسلما وتله للجبين - وقال أبو على يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم ؛ وقيل فيه تقديم وتأخير : أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم ؛ وقيل إن الجواب عصيتم ، والواو مقحمة . وقد جوز الأخفش مثله فى قوله تعالى - حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم - ؛ وقيل حتى بمعنى إلى ، وحينئذ لا جواب لها ، والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم نلحق الغنائم ، وقال بعضهم ثبت فى مكاننا كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ومعنى قوله (من بعد ما أراكم ما تحبون) ما وقع لهم من النصر فى الابتداء فى يوم أحد . كما تقدم (منكم من يريد الدنيا) يعنى الغنيمة (ومنكم من يريد الآخرة) أى الأجر بالبقاء فى مراكزهم امثال الأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ثم صرفكم عنهم ليتليكم) أى ردكم الله عنهم بالانهزام بعد أن استوليتهم عليهم ليمتحنكم (ولقد عفا عنكم) لما علم من ندمكم فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، والخطاب لجميع المنهزمين وقيل للرماة فقط . قوله (إذ تصعدون) متعلق بقوله (صرفكم) أو بقوله (ولقد عفا عنكم) أو بقوله (ليتليكم) وقرأ الجمهور بضم التاء وكسر العين ، وقرأ أبو رجاء العطاردى وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين . وقرأ ابن محيصن وقنبل « تصعدون » بالتحية . قال أبو حاتم : أصعدت إذا مضيت حياى وجهك ، وصعدت إذا ارتقيت فى جبل ، فالإصعاد السير فى مستوى الأرض وبطون الأودية ، والصعود الارتفاع على الجبال والسطوح والسلام والدرج ، فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ، فيصح المعنى على القراءتين . وقال القتيبي : أصعد إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه ، ومنه قول الشاعر :

ألا أيها ذا السائل أين أصعدت فان لها من بطن يثرب موعدا

وقال الفراء : الإصعاد الابتداء في السفر ، والانحدار الرجوع منه ، يقال : أصعدنا من بغداد إلى مكة وإلى خراسان وأشباه ذلك : إذا خرجنا إليها وأخذنا في السفر ، وانحدرنا إذا رجعنا . وقال المفضل : صعد وأصعد بمعنى واحد . ومعنى (تلون) تعرجون وتقيمون : أي لا يلتفت بعضكم إلى بعض هربا ، فإن المعرج إلى الشيء يأوى إليه عنقه أو عنق دابته (على أحد) أي على أحد من معكم ؛ وقيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقرأ الحسن « تلون » بواو واحدة ، وقرأ عاصم في رواية عنه بضم التاء وهي لغة . قوله (والرسول يدعوكم في أخراكم) أي في الطائفة المتأخرة منكم ، يقال جاء فلان في آخر الناس ، وآخرة الناس ، وأخرى الناس ، وأخريات الناس . وكان دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أي عباد الله ارجعوا » . قوله (فأثابكم) عطف على صرفكم : أي فجازاكم الله نغما حين صرفكم عنه بسبب غم أدقتموه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعصيانكم ، أو نغما موصولا بغم بسبب ذلك الإرجاف والجرح والقتل وظفر المشركين ، والغم في الأصل التغطية ، غميت الشيء غطيته ، ويوم غم ، وليلة غمة : إذا كانا مظلمين : ومنه غم الهلال ؛ وقيل الغم الأول الهزيمة ، والثاني إشراف أنى هزيمة وخالد بن الوليد عليهم في الجبل . قوله (لكيلا تحزنوا) اللام متعلقة بقوله (فأثابكم) أي هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنime ولا ما أصابكم من الهزيمة ، تمرينا لكم على المصائب وتدريباً لاحتمال الشدائد . وقال المفضل : معنى (لكيلا تحزنوا) لكي تحزنوا ، ولا زائدة كقوله تعالى - مامنعك أن لا تسجد - أي أن تسجد ، وقوله - لئلا يعلم أهل الكتاب - أي ليعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا) قال : لا تنتصحووا اليهود والنصارى على دينكم ولا تصدقوهم بشيء في دينكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي يقول : إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يردكم كفارا . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب) نحو ما قدّمناه في سبب نزول الآية . وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة في قوله (ولقد صدقكم الله وعده) قال : كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وكان قد فعل فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركوا مصافهم وتركوا الرماة عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم ، وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة . وقصة أحد مستوفاة في السير والتواريخ فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن عوف في قوله (إذ تحسونهم) . قال : الحسن القتلى . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه . قال : الفشل الجبن . وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب في قوله (من بعد ما أراكم ماتحبون) قال : الغنائم وهزيمة القوم . وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله (ولقد عفا عنكم) قال : يقول الله قد عفوت عنكم أن لا أكون استأصلتكم . وأخرج أيضا عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (إذ تصعدون) قال : أصعدوا في أحد فرارا والرسول يدعوهم في أخراهم : « إلى عباد الله ارجعوا إلى عباد الله ارجعوا » . وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف (فأثابكم نغما بغم) قال : الغم الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قتل محمد ، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (نغما بغم) قال : فرّة بعد الفرّة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمدا قد قتل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : الغم الأول الجراح والقتل ، والغم الآخر حين سمعوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٠٤) إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠٥) .

الأمنة والأمن سواء ، وقيل الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه ، وهى منصوبة بأنزل . ونعاسا بدل منها أو عطف بيان أو مفعول له ؛ وأما ما قيل من أن أمنة حال من نعاسا مقدّمة عليه أو حال من المخاطبين أو مفعول له فبعيد . وقرأ ابن محيصن « أمنة » بسكون الميم . قوله (يغشى) قرئ بالتحقيق على أن الضمير للنعاس وبالفوقية على أن الضمير لأمنة ، والطائفة تطلق على الواحد والجماعة ، والطائفة الأولى هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبا للأجر ، والطائفة الأخرى هم معتب بن قشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعا في الغنيمة وجعلوا يناشدون على الحضور ، ويقولون الأقاويل . ومعنى (أهتمهم أنفسهم) حملهم على الهم ، أهنى الأمر أقلقنى ، والواو فى قوله (وطائفة) للحال ، وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال ، وقيل : إن معنى (أهتمهم أنفسهم) صارت همهم لا هم لم غيرها (يظنون بالله غير الحق) هذه الحملة فى محل نصب على الحال : أى ، يظنون بالله غير الحق الذى يجب أن يظن به ، وظن الجاهلية بدل منه . وهو الظن المختص بملة الجاهلية ، أو ظن أهل الجاهلية ، وهو ظنهم أن أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باطل ، وأنه لا ينصر ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق . وقوله (يقولون) بدل من « يظنون » : أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هل لنا من الأمر من شىء) أى هل لنا من أمر الله نصيب ، وهذا الاستفهام معناه الجحد : أى ما لنا شىء من الأمر . وهو النصير والاستظهار على العدو ؛ وقيل هو الخروج : أى إنما خرجنا مكرهين ، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله (قل إن الأمر كله لله) وليس لكم ولا لعدوكم منه شىء ، فالنصر بيده والظفر منه . وقوله (يخفون فى أنفسهم) أى يضمرون فى أنفسهم النفاق ولا يبذلون لك ذلك ، بل يسألونك سؤال المسترشدين . وقوله (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) استئناف كأنه قيل : ما هو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم ؟ فقيل : يقولون فيما بينهم أو فى أنفسهم (لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) أى ماقتل من قتل منا فى هذه المعركة ، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أى لو كنتم قاعدين فى بيوتكم لم يكن بدّ من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التى صرعوا فيها ، فإن قضاء الله لا يرد . وقوله (وليبتلى الله ما فى صدوركم) علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علة له أخرى مطوية للايدان بكثرتها ، كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمّة (وليبتلى) الخ ؛ وقيل إنه معطوف على علة مطوية لبرز ، والمعنى : ليمتحن ما فى صدوركم

من الإخلاص ، وليرحس ما في قلوبكم من وساوس الشيطان . قوله (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) أى انهزموا يوم أحد : وقيل المعنى : إن الذين تولوا المشركين يوم أحد (إنما استزلمهم الشيطان) استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التى منها مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولقد عفا الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أمنهم الله يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن . وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أن أبا طلحة قال : غشنا ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سبى يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه ، فذلك قوله (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا) الآية . وأخرج الترمذى وصححه وابن جرير وأبو الشيخ والبيهقى فى الدلائل عن الزبير بن العوام قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم من أحد إلا وهو يميل تحت جحفته من النعاس ؛ وتلا هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : إن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبى ، وكان سيد المنافقين : قتل اليوم بنو الخزرج ، فقال : وهل لنا من الأمر شيء ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع فى قوله (ظن الجاهلية) قال : ظن أهل الشرك . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : معتب هو الذى قال يوم أحد : لو كان لنا من الأمر شيء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أن الذى قال ذلك عبد الله بن أبى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن عوف فى قوله (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) قال : هم ثلاثة ، واحد من المهاجرين ، واثنان من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى عثمان ورافع بن المعلى وخارجة بن زيد . وقد روى فى تعيين « من » فى الآية روايات كثيرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

رُسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) .

قوله (لا تكونوا كالذين كفروا) هم المنافقون الذين قالوا : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . قوله (وقالوا لإخوانهم) في النفاق أو في النسب : أى قالوا لأجلهم (إذا ضربوا في الأرض) إذا ساروا فيها للتجارة أو نحوها ؛ قيل إن إذهابنا المفيدة لمعنى الاستقبال بمعنى إذا المفيدة لمعنى المضى ؛ وقيل هى على معناها ، والمراد هنا حكاية الحال الماضية . وقال الزجاج : إذا هنا تنوب عن ماضى من الزمان وما يستقبل (لو كانوا غزى) جمع غاز كراكم وركع ، وغائب وغيب ، قال الشاعر • قل للقوافل والغزى إذا غزوا • (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) اللام متعلقة بقوله (قالوا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم . والمراد أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة ، أو متعلقة بقوله (لا تكونوا) أى لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك ليجعله الله حسرة في قلوبهم فقط دون قلوبكم ؛ وقيل المعنى لا تأنتموا إليهم ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم ؛ وقيل المراد حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الحزى والندامة (والله يحيى ويميت) فيه رد على قولهم ، أى ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء ويحكم ما يريد ، فيحيى من يريد ويميت من يريد من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر في ذلك ، واللام في قوله (ولئن قتلتم) موطن . وقوله (لمغفرة) جواب القسم ساد مسد جواب الشرط ، والمعنى : أن السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت ولئن وقع ذلك بأمر الله سبحانه (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، أو خير مما يجمعون أيها المسلمون من الدنيا ومنافعها على قراءة من قرأ بالفوقية . والمقصود في الآية بيان مزية القتل أو الموت في سبيل الله وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة والرحمة . قوله (ولئن تم أو قتلتم) على أى وجه حسب تعلق الإرادة الإلهية (إلى الله تحشرون) هو جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة ساد مسد جواب الشرط كما تقدم في الجملة الأولى : أى إلى الرب الواسع المغفرة تحشرون لا إلى غيره كما يفيد تقديم الظرف على الفعل مع ما في تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف والقهر . « وما » في قوله (فما رحمة من الله) مزيدة للتأكيد ، قاله سيبويه وغيره ؛ وقال ابن كيسان : إنها نكرة في موضع جر بالياء ، ورحمة بدل منها ، والأول أولى بقواعد العربية ومثله قوله تعالى - فما نقضهم ميثاقهم - والجار والمجرور متعلق بقوله (لنت لهم) وقد تم عليه لإفادة القصر ، وتنوين رحمة للتعظيم ؛ والمعنى : أن لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه ؛ وقيل إن ما استفهامية ، والمعنى : فبأى رحمة من الله لنت لهم ، وفيه معنى التعجيب وهو بعيد ، ولو كان كذلك لحذف الألف من ما ؛ وقيل فبم رحمة من الله . والفظ : الغليظ الجافى . وقال الراغب : الفظ هو الكريه الخلق ، وأصله فظظ كحذر . وغلظ القلب قساوته وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير . والانفضاض التفرق ، يقال فضضتهم فانفضوا : أى فرقهم فتفرقوا والمعنى : لو كنت فظا غليظ القلب لاتفرق بهم لتفرقوا من حولك هيبة لك واحتشاما منك بسبب ما كان من توليهم ، وإذا كان الأمر كما ذكر (فاعف عنهم) فيما يتعلق بك من الحقوق (واستغفر لهم) الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه (وشاورهم في الأمر) أى الذى يرد عليك : أى أمر كان مما يشاور في مثله ، أو في أمر الحرب خاصة كما يفيد السياق لما في ذلك من تطيب خواطرهم واستجلاب مودتهم ، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحد بعدك . والمراد هنا المشاورة في غير الأمور التى يرد الشرع بها . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول

العرب : شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها ؛ وقيل من قولهم : شرت العسل إذا أخذته من موضعه . قال ابن خوزمنداد : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها . وحكى القرطبي عن ابن عطية أنه لا خلاف في وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين . قوله (فإذا عزمت فتوكل على الله) أي إذا عزمت عقب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك فتوكل على الله في فعل ذلك : أي اعتمد عليه وفوض إليه ؛ وقيل إن المعنى : فإذا عزمت على أمر أن تمضي فيه فتوكل على الله لا على المشاورة . والعزم في الأصل قصد الإمضاء : أي فإذا قصدت إمضاء أمر فتوكل على الله . وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد « فإذا عزمت » بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى : أي فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل على الله . وقوله (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) جملة مستأنفة لتأكيد التوكل والحث عليه . والخذلان : ترك العون : أي وإن يترك الله عونكم (فمن ذا الذي ينصركم من بعده) وهذا الاستفهام إنكارى . والضمير في قوله (من بعده) راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله (وإن يخذلكم) أو إلى الله ، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه وأن من نصره الله لا غالب له ، ومن خذله لا ناصر له ، فوض أموره إليه وتوكل عليه ولم يشغل غيره ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لإفادة قصره عليه . قوله (وما كان لنبي أن يغفل) أي ما صح له ذلك لتنافي الغلول والنبوة . قال أبو عبيد : الغلول من المغنم خاصة ، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد ، ومما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة أغل يغفل ، ومن الحقد غل يغفل بالكسر ، ومن الغلول غل يغفل بالضم ؛ يقال غل المغنم غلولا : أي خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه ؛ فغنى الآية على القراءة بالبناء للفاعل : ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم فيأخذ لنفسه من غير اطلاع أصحابه . وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول . ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول : ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه : أي يخونه في الغنيمة ، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى للناس عن الغلول في المغنم ؛ وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حراما ، لأن خيانة الأنبياء أشد ذنبا وأعظم وزرا (ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة) أي يأت به حاملا له على ظهره كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيفضحه بين الخلائق ، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه ويعاقب عليه . قوله (ثم توفي كل نفس ما كسبت) أي تعطى جزاء ما كسبت وافيا من خير وشر ، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا أو شرا ، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا لكون السياق فيه . قوله (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله) الاستفهام للإنكار : أي ليس من اتبع رضوان الله في أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهي كمن باء : أي رجع بسخط عظيم كائن من الله بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه . ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه ومن باء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول . ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال (هم درجات عند الله) أي متفاوتون في الدرجات ؛ والمعنى : هم ذوو درجات ، أو لهم درجات ، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من باء بسخط من الله ، فإن الأولين في أرفع الدرجات . والآخرين في أسفلها . قوله (لقد من الله على المؤمنين) جواب قسم محذوف ، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته . ومعنى (من أنفسهم) أنه عربى مثلهم ؛ وقيل بشر مثلهم ، ووجه المنة على الأول : أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه ولا يحتاجون إلى ترجمان

ومعناها على الثاني : أنهم يأنسون به بجماع البشرية ، ولو كان ملكا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية ، وقرئ (من أنفسهم) بفتح الفاء : أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم ، وبنو هاشم أفضل قریش ، وقریش أفضل العرب ، والعرب أفضل من غيرهم ، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه ، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول ، وأما على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص ، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص ، لأن بنى هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الأصل وكرم النجار ، ورفاعة المحتد . ويدل على الوجه الأول قوله تعالى - هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم - وقوله - وإنه لذكر لك ولقومك - . قوله (يتلو عليهم آياته) هذه مئة ثانية أى يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع (ويزكيهم) أى يطهرهم من نجاسة الكفر وهذه الحملة معطوفة على الحملة الأولى ، وهما في محل نصب على الحال ، أوصفة لرسول ، وهكذا قوله (ويعلمهم الكتاب) ، والمراد بالكتاب هنا القرآن . والحكمة : السنة . وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك (وإن كانوا من قبل) أى من قبل محمد ، أو من قبل بعثته (لى ضلال مبين) أى واضح لا ريب فيه ، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة ، وبين النافية ، فهى تدخل في خبر المخففة لا النافية ، واسمها ضمير الشأن ، أى وإن الشأن والحديث ؛ وقيل إنها النافية ، واللام بمعنى إلا : أى وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين ، وبه قال الكوفيون والحملة على التقديرين في محل نصب على الحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى (وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض) الآية ، قال : هذا قول عبد الله بن أبي سلول والمنافقين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن مجاهد في قوله (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) قال : يحزنهم قولهم ولا ينفعهم شيئا . وأخرجوا عن قتادة في قوله (فبما رحمة من الله) يقول : فبرحمة من الله (لنت لهم) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (لا تفضوا من حولك) قال : لا تصرفوا عنك . وأخرج ابن عدى والبيهقي في الشعب ، قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس : قال لما نزلت (وشاورهم في الأمر) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن الله جعلها رحمة لأمتي ، فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ، ومن تركها لم يعدم غيا » . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس (وشاورهم في الأمر) . قال : أبو بكر وعمر . وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العزم ، فقال : مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم » . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (وما كان لنبى أن يغفل) في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذها فنزلت . وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس (وما كان لنبى أن يغفل) قال : ما كان لنبى أن يتهمه أصحابه . وقد ورد في تحريم الغلول أحاديث كثيرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس (هم درجات عند الله) يقول : بأعمالهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة في قوله (لقد من الله على المؤمنين) الآية ، قالت : هذه للعرب خاصة .

أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَأَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ يَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) .

قوله (أو لما أصابتكم مصيبة) الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : الغلبة والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد (قد أصبتم مثلها) يوم بدر ، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون . وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلى القتلى من المسلمين يوم أحد ؛ والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا ؟ وقد وعدنا بالنصر . وقوله (أنى هذا) أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله ، ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم . وقوله (قل هو من عند أنفسكم) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب : أى هذا الذى سألتهم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من لزوم المكان الذى عينه لهم ، وعدم مفارقتهم له على كل حال - وقيل إن المراد بقوله (هو من عند أنفسكم) خروجهم من المدينة . ويردّه أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك ؛ وقيل هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل ، و (يوم التقى الجمعان) يوم أحد : أى ما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة (فبإذن الله) فبعلمه ، وقيل بقضائه وقدره ؛ وقيل بتخليته بينكم وبينهم ، والفاء دخلت فى جواب الموصول لكونه يشبه الشرط كما قال سيبويه . وقوله (وليعلم المؤمنين) عطف على قوله (فبإذن الله) عطف سبب على سبب . وقوله (وليعلم الذين نافقوا) عطف على ما قبله ، قيل أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم وإلى المنافقين واحدا . والمراد بالعلم هنا التمييز والإظهار ، لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك ؛ والمراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أبى وأصحابه . قوله (وقيل لهم) هو معطوف على قوله (نافقوا) أى ليعلم الله الذين نافقوا والذين قيل لهم ؛ وقيل هو كلام مبتدأ : أى قيل لعبد الله بن أبى وأصحابه (تعالوا قاتلوا فى سبيل الله) إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر (أو ادفعوا) عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فأبوا جميع ذلك وقالوا : لو نعلم أنه سيكون قتالا لاتبعناكم وقاتلنا معكم ، ولكنه لا قتال هنالك ؛ وقيل المعنى : لو كنا نقدر على القتال ونحسنه لاتبعناكم ولكننا لا نقدر على ذلك ولا نحسنه . وعبر عن نفي القدر على القتال بنفى العلم به لكونها مستلزمة له ، وفيه بعد لا ملجئ إليه ، وقيل معناه : لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال ، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لعدم القدرة منا ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم والخروج من المدينة ، وهذا أيضا فيه بعد دون بعد ما قبله ؛ وقيل معنى الدفع هنا تكثير سواد المسلمين ؛ وقيل معناه رباطوا ، والقاتل للمنافقين هذه المقالة التى حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى والد جابر بن عبد الله . قوله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) أى هم فى هذا

اليوم الذى انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون ، لأنهم قد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك ؛ وقيل المعنى أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان . قوله (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدم بها : أى أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، وذكر الأفواه للتأكيد ، مثل قوله - يطير بجناحيه - . قوله (الذين قالوا لإخوانهم) الخ : أى هم الذين قالوا لإخوانهم على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون بدلا من واو يكتُمون ، أو منصوبا على الذم ، أو وصف للذين نافقوا . وقد تقدم معنى (قالوا لإخوانهم) أى قالوا لهم ذلك ، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال (لو أطاعونا) بترك الخروج من المدينة ماقتلوا ، فردّ الله ذلك عليهم بقوله (قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) والدرء : الدفع ، أى لا ينفع الحذر من القدر ، فإن المقتول يقتل بأجله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (أو لما أصابتكم مصيبة) الآية . يقول : إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثلى ما أصابوا منكم يوم أحد ، وقد بين هذا عكرمة . فأخرج ابن جرير عنه قال : قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن فى الآية قال : لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا من أين هذا ؟ ما كان للكفار أن يقتلوا منا ، فلما رأى الله ما قالوا من ذلك ، قال الله : هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر . فردّهم الله بذلك وعجل لهم عقوبة ذلك فى الدنيا ليسلموا منها فى الآخرة ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى شبة والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن مردويه عن علىّ قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عدتهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فذكر ذلك لهم ، فقالوا : يا رسول الله عشائرتنا وإخواننا لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم ، فليس فى ذلك ما نكره ، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر . وهذا الحديث فى سنن الترمذى والنسائى هو من طريق أبى داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علىّ : قال الترمذى بعد إخراجهم : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة . وروى أبو أسامة عن هشام نحوه . وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرسلا وإسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن عون ح قال سنيد وهو حسين ، وحدثنى حجاج عن جرير عن محمد عن عبيدة عن علىّ فذكره . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق أبى بكر بن أبى شبة ، حدثنا قراد بن نوح ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا سماك الحنفى أبو زميل حدثنى ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون وفرّ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنه ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله عزّ وجل (أو لما أصابتكم مصيبة) الآية . وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد بن نوح به ، ولكن بأطول منه ، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق مانزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله : ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يشخن فى الأرض » وماروى من بكائه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأبو بكر ندما على أخذ الفداء ، ولو كان أخذ ذلك

بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه ، ولا حصل ما حصل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من الندم والحزن ، ولا صوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى عمر رضى الله عنه ، حيث أشار بقتل الأسرى وقال مامعناه : لو نزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر ، والجميع في كتب الحديث والسير . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (قلم أنى هذا) ونحن مسلمون نقاتل غضبا لله وهؤلاء مشركون . فقال (قل هو من عند أنفسكم) عقوبة لكم بمعصيتكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال لا تتبعوهم . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (أوادفعوا) قال : كثروا بأنفسكم وإن لم تقاتلوا . وأخرج أيضا عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عون الأنصارى في قوله (أوادفعوا) قال : رابطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب وغيره قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أحد في ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة انخزل عنهم عبد الله بن أبي بلث الناس وقال أطاعهم وعصاني ، والله ماندرى على ما نقتل أنفسنا ههنا ؟ فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بنى سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند محضرهم عدوهم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولا نرى أن يكون قتال . وأخرجه ابن إسحاق قال : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم ابن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا فذكره ، وزاد أنهم لما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) قال : لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) .

لما بين الله سبحانه أن ماجرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا لتمييز المؤمنين من المنافق ، والكاذب من الصادق ، بين ههنا أن من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة ، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون ، لا مما يخاف ويحذر كما قالوا من حكى الله عنهم (لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا) وقالوا (لو أطاعونا ما قتلوا) فهذه

الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل أحد ، وقرئ بالياء التحتية : أى لا يحسن حاسب .

وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية من هم ؟ فقليل في شهداء أحد ، وقيل في شهداء بدر ، وقيل في شهداء بثرمة . وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ومعنى الآية عند الجمهور : أنهم أحياء حياة محقة . ثم اختلفوا ؛ فمنهم من يقول أنها ترد إليهم أرواحهم في قبورهم فيتنعمون . وقال مجاهد : يرزقون من ثمر الجنة : أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية ، والمعنى : أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم في الجنة ، والصحيح الأول ، ولا موجب للمصير إلى المجاز . وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر ، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون وقوله (الذين قتلوا) هو المفعول الأول . والحاسب هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو كل أحد كما سبق ؛ وقيل يجوز أن يكون الموصول هو فاعل الفعل ، والمفعول الأول محذوف : أى لا تحسن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا وهذا تكلف لا حاجة إليه ، ومعنى النظم القرآن في غاية الوضوح والجلال . وقوله (بل أحياء) خبر مبتدأ محذوف أى بل هم أحياء . وقرئ بالنصب على تقدير الفعل : أى بل أحسبهم أحياء . وقوله (عند ربهم) إما خبر ثان ، أو صفة لأحياء ، أو في محل نصب على الحال ؛ وقيل في الكلام حذف والتقدير : عند كرامة ربهم . قال سيويه : هذه عندية الكرامة لا عندية القرب . وقوله (يرزقون) يحتمل في إعرابه الوجوه التي ذكرناها في قوله (عند ربهم) والمراد بالرزق هنا هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب إليه الجمهور كما سلف ، وعند من عدا الجمهور المراد به الثناء الجميل ، ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى وحملها على مجازات بعيدة ، لا لسبب يقتضي ذلك . وقوله (فرحين) حال من الضمير في يرزقون ، وبما آتاهم الله من فضله متعلق به . وقرأ ابن السميع « فرحين » وهما لغتان كالفره والفاره ، والخير والحاذر . والمراد (بما آتاهم الله) ماساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة ، وما صاروا فيه من الحياة ، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه . (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم) من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك . فالمراد باللاحق هنا أنهم لم يلحقوا بهم في القتل والشهادة ، بل سيلحقون بهم من بعد . وقيل المراد لم يلحقوا بهم في الفضل وإن كانوا أهل فضل في الجملة ، والواو في (ويستبشرون) عاطفة على (يرزقون) ويستبشرون ؛ وقيل المراد بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم ، لأنهم لما عاينوا ثواب الله وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا وهذا أقوى ، لأن معناه أوسع وفائدته أكثر ، واللفظ يحتمله بل هو الظاهر ، وبه قال الزجاج وابن فورك . وقوله (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) بدل من الذين : أى يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم ولا حزن ، وأن هي الخفة من الثقل ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وكرر قوله (يستبشرون) لتأكيد الأول ، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به وبنعمة الله وفضله . والنعمة : ما ينعم الله به على عباده . والفضل : ما يفضل به عليهم ، وقيل النعمة : الثواب ، والفضل الزائد ؛ وقيل النعمة الجنة ، والفضل داخل في النعمة ذكر بعدها لتأكيدا ؛ وقيل إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم ، والاستبشار الثاني بحال أنفسهم . قوله (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) قرأ الكسائي بكسر الهمزة من أن ، وقرأ الباقون بفتحها فعلى القراءة الأولى هو مستأنف اعتراض . وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود والله لا يضيع أجر المؤمنين . وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخل في جملة ما يستبشرون به . وقوله (الذين استجابوا) صفة للمؤمنين ، أو بدل منهم ، أو من الذين لم

يلحقوا بهم ، أو هو مبتدأ خبره (للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) بحملته ، أو منصوب على المدح وقد تقدم تفسير القرع . قوله (الذين قال لهم الناس) المراد بالناس هنا نعيم بن مسعود كما سيأتى بيانه ، وبجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم ؛ وقيل المراد بالناس ركب عبد القيس الذين مروا بأبي سفيان ؛ وقيل هم المنافقون . والمراد بقوله (إن الناس قد جمعوا لكم) أبو سفيان وأصحابه ، والضمير في قوله (فزادهم) راجع إلى القول المدلول عليه ، يقال أو إلى القول ، وهو (إن الناس قد جمعوا لكم فآخشوهم) أو إلى القائل ؛ والمعنى : أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا إليه ، بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة وبقينا . وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص . قوله (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) حسب مصدر حسبه : أى كفاه وهو بمعنى الفاعل : أى محسب بمعنى كافى . قال فى الكشف : والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية انتهى . والوكيل هو من توكل إليه الأمور ، أى نعم الموكل إليه أمرنا ، أو الكافى ، أو الكافل والمخصوص بالمدح محذوف : أى نعم الوكيل الله سبحانه . قوله (فانقلبوا) هو معطوف على محذوف : أى فخرجوا إليهم فانقلبوا بنعمة هو متعلق بمحذوف وقع حالا . والتنوين للتعظيم : أى رجعوا متلبسين (بنعمة) عظيمة وهى السلامة من عدوهم وعافية (وفضل) أى أجر تفضل الله به عليهم ؛ وقيل ربح فى التجارة ؛ وقيل النعمة خاصة بمنافع الدنيا ، والفضل بمنافع الآخرة ، وقد تقدم تفسيرهما قريبا بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا فى الدار الآخرة ، والكلام هنا مع الأحياء . قوله (لم يمسسهم سوء) فى محل نصب على الحال : أى سالمين عن سوء لم يصيبهم قتل ولا جرح ولا ما يخافونه (واتبعوا رضوان الله) فى ما يأتون ويذرون ، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة (والله ذو فضل عظيم) لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه ، ومن تفضله عليهم تثبيتهم وخروجهم للقاء عدوهم وإرشادهم إلى أن يقولوا هذه المقالة التى هى جالبة لكل خير ودافعة لكل شر . قوله (إنما ذلكم) أى الميثبط لكم أيها المؤمنون (الشيطان) هو خبر اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة والخبر قوله (يخوف أوليائه) ؛ فعلى الأول يكون قوله (يخوف أوليائه) جملة مستأنفة أو حالية ، والظاهر أن المراد هنا الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتشيط ؛ وقيل المراد به نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة ؛ وقيل أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم ؛ والمعنى أن الشيطان يخوف المؤمنين أوليائه وهم الكافرون ؛ وقيل إن قوله (أوليائه) منصوب بنزع الخافض أى يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه ، قاله الفراء والزجاج وأبو على الفارسي . ورده ابن الأنبارى بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر . وعلى قول الفراء ومن معه يكون مفعول يخوف محذوفا : أى يخوفكم . وعلى الأول يكون المفعول الأول محذوفا والثانى مذكورا ، ويجوز أن يكون المراد أن الشيطان يخوف أوليائه وهم القاعدون من المنافقين فلا حذف . قوله (فلا تخافوهم) أى أوليائه الذين يخوفكم بهم الشيطان ، أو فلا تخافوا الناس المذكورين فى قوله (إن الناس قد جمعوا لكم) نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء ويفشلوا عن الخروج ، وأمرهم بأن يخافوه سبحانه فقال (وخافون) فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه لأنى الحقيق بالخوف منى ، والمراقبة لأمرى ونهى لكون الخير والشر بيدي وقيدته بقوله (إن كنتم مؤمنين) لأن الإيمان يقتضى ذلك .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله) فى حمزة وأصحابه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبي الضحى أنها نزلت فى قتلى أحد وحمزة منهم .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا » ، وفي لفظ « قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتركوا عن الحرب » ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات (ولا تحسبن الذين قتلوا) الآية وما بعدها » وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله : أن أباه سأل الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه ، فنزلت هذه الآية وهو من قتلى أحد . وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أنس : أن سبب نزول هذه الآية قتلى بئر معونة . وعلى كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد ، وقد ثبت في أحاديث كثيرة في الصحيح وغيره أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ، وثبت في فضل الشهداء ما يطول تعداده ويكثر إيراده مما هو معروف في كتب الحديث . وأخرج النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمدا قتلتم ولا الكواعب أردقم بثس ما صنعتهم ارجعوا ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد ، أو بئر أبي عتبة ، شك سفيان ، فقال المشركون : يرجع من قابل ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت تعد غزوة ، فأنزل الله سبحانه (الذين استجابوا لله والرسول) الآية . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة في قوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول) الآية ، أنها قالت لعروة بن الزبير : يا بن أخي كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر ، لما أصاب نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، فقال : من يرجع في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر والزبير . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحمراء الأسد ، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وقالوا : رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم ، فبلغه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج في أصحابه يطلبهم ، فثنى ذلك أبو سفيان وأصحابه ، ومر ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان ، بلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه لنستأصلهم ؛ فلما مر الركب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحمراء الأسد أخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون معه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله في ذلك (الذين استجابوا لله والرسول) الآيات . وأخرج موسى بن عقبة في مغازيه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استنفر المسلمين لموعدة أبي سفيان بدرا . فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس فمشوا في الناس يخوفونهم ، وقالوا : إنا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل يرجون أن يواقعوكم . والروايات في هذا الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : القرع الجراحات . وأخرج ابن جرير عن السدي أن أبا سفيان وأصحابه لقوا أعرابيا فجعلوا له جعلاً على أن يخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم ، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فقال هو والصحابه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفي الأعرابي (الذين قال لهم الناس) الآية . وأخرج ابن مردويه عن أبي رافع أن هذا الأعرابي من خزاعة .

وقد ورد في فضل هذه الكلمة أعني (حسبنا الله ونعم الوكيل) أحاديث منها ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » قال ابن كثير بعد إخراجها : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « حسبي الله ونعم الوكيل ، أمان كل خائف » . وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن عائشة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء وقال حسبي الله ونعم الوكيل » . وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين أتى في النار ، وقالها محمد حين قالوا (إن الناس قد جمعوا لكم) . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك أنه حدثهم « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قضى بين رجلين ، فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ردوا على الرجل ، فقال : ما قلت ؟ قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » . وأخرج أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ ؟ ثم أمر الصحابة أن يقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وهو حديث جيد . وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرا مرت ، وكان في أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فربح مالا فقسمه بين أصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : الفضل ما أصابوا من التجارة والأجر . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : أما النعمة فهي العافية ، وأما الفضل فالتجارة ، والسوء : القتل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (لم يمسه) قال : لم يؤذهم أحد (واتبعوا رضوان الله) قال : أطاعوا الله ورسوله . وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عنه في قوله (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) قال : يقول الشيطان يخوف بأوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك قال : يعظم أولياءه في أعينكم . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثل قول ابن عباس . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن : إنما كان ذلك تخويف الشيطان ولا يخاف الشيطان إلا ولي الشيطان .

وَلَا يُخْزِنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيُنْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا

فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرٌ (١٨٠).

قوله (ولا يحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي ، وقرأ ابن محيصن بضم الياء والزاي ، وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الزاي ، وهما لغتان ، يقال : حزنتي الأمر وأحزنتي ، والأولى أفصح . وقرأ طلحة (يسرعون) قيل هم قوم ارتدوا ، فاغتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك ، فسلاه الله سبحانه ونهاه عن الحزن ، وعلل ذلك بأنهم لن يضرروا الله شيئا ، وإنما ضرروا أنفسهم بأن لاحظ لهم في الآخرة ولهم عذاب عظيم ؛ وقيل هم كفار قريش وقيل هم المنافقون ؛ وقيل هو عام في جميع الكفار . قال القشيري ، والحزن على كفر الكافر طاعة ، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يفرط في الحزن ، فنهى عن ذلك كما قال الله تعالى - فلا تذهب نفسك عليهم حسرات - . فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا - وعدى السارعون بنى دون إلى للدلالة على أنهم مستقرون فيه مديمون للملازمة ، ومثله يسارعون في الخيرات . وقوله (إنهم لن يضرروا الله شيئا) تعليل للنهي ؛ والمعنى : أن كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئا ؛ وقيل المراد لن يضرروا أوليائه ، ويحتمل أن يراد لن يضرروا دينه الذي شرعه لعباده ، وشيئا منصوب على المصدرية : أى شيئا من الضرر ؛ وقيل منصوب بنزع الخافض : أى بشيء . والخط : النصيب . قال أبو زيد : يقال رجل حظيظ إذا كان ذا حظ من الرزق ؛ والمعنى أن الله يريد أن لا يجعل لهم نصيبا في الجنة أو نصيبا من الثواب ، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها (ولهم عذاب عظيم) بسبب مسارعهم في الكفر فكان ضرر كفرهم عائدا عليهم جالبا لهم عدم الحظ في الآخرة ومصيرهم في العذاب العظيم . قوله (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان) أى استبدلوا الكفر بالإيمان ، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة (لن يضرروا الله شيئا) معناه كالأول وهو للتأكيد لما تقدمه ؛ وقيل إن الأول خاص بالمنافقين ، والثاني يعم جميع الكفار ، والأول أولى . قوله (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرا لأنفسهم) قرأ ابن عامر وعاصم وغيرهما (يحسبن) بالياء التحتية وقرأ حمزة بالفوقية ، والمعنى على الأولى : لا يحسبن الكافرون أنما نملي لهم بطول العمر ورغد العيش أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد (خير لأنفسهم) فليس الأمر كذلك بل إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين . وعلى القراءة الثانية : لا تحسبن يا محمد أن الإملاء للذين كفروا بما ذكر خير لأنفسهم ، بل هو شر واقع عليهم ونازل بهم ، وهو أن الإملاء الذي نمليه لهم ليزدادوا إثما . فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل ، وأنما نملي ومابعده ساد مسد مفعولى الحسبان عند سيوييه أوساد مسد أحدهما ، والآخر محذوف عند الأخفش . وأما على القراءة الثانية فقال الزجاج : إن الموصول هو المفعول الأول ، وأنما ومابعدها بدل من الموصول ساد مسد المفعولين ، ولا يصح أن يكون أنما ومابعده هو المفعول الثاني ، لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو الأول في المعنى . وقال أبو علي الفارسي : لو صح هذا لكان خيرا بالنصب لأنه يصير بدلا من الذين كفروا ، فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيرا . وقال الكسائي والقراء : إنه يقدر تكرير الفعل كأنه قال : ولا تحسبن الذين كفروا ولا تحسبن أنما نملي لهم فسدت مسد المفعولين . وقال في الكشاف : فإن قلت كيف صح مجيء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين ، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد ؟ قلت صح ذلك من حيث أن التعويل على البدل والمبدل منه في حكم المنحى ، ألا تراك تقول جعلت متاعك بعضه فوق

بعض مع امتناع سكوتك على متاعك انتهى . وقرأ يحيى بن وثاب (إنما نملى) بكسر إن فيهما وهى قراءة ضعيفة باعتبار العربية . وقوله (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) جملة مستأنفة مبينة لوجه الاملاء للكافرين . وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما تقول المعزلة ، لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار ويجعل عيشهم رغدا ليزدادوا إثما . قال أبو حاتم : سمعت الأنخفش يذكر كسر (إنما نملى) الأولى وفتح الثانية ، ويحتج بذلك لأهل القدر لأنه منهم ويجعله على هذا التقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم ليزدادوا إثما إنما نملى لهم خير لأنفسهم . وقال فى الكشف : إن ازدياد الإثم علة ، وما كل علة بعرض ألا تترك تقول : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر وليس شىء يعرض لك وإنما هى علل وأسباب . قواه (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه) كلام مستأنف ، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار والمنافقين : أى ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق (حتى يميز الخبيث من الطيب) وقيل الخطاب للمؤمنين والمنافقين : أى ما كان الله لينذركم على الحال التى أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض ؛ وقيل الخطاب للمشركين . والمراد بالمؤمنين من فى الأصلاب والأرحام : أى ما كان الله لينذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم ، وقيل الخطاب للمؤمنين : أى ما كان الله لينذركم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم ، وعلى هذا الوجه ، والوجه الثانى يكون فى الكلام التفات . وقرئ (يميز) بالتشديد للمخفف ، من ماز الشىء يميزه ميزا إذا فرق بين شيئين ، فإن كانت أشياء قيل ميزه تمييزا (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) حتى تميزوا بين الطيب والخبيث فإنه المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول من رسله يجتبيه فيطلعهم على شىء من غيبه فيميز بينكم كما وقع من نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من تعيين كثير من المنافقين ، فإن ذلك كان بتعليم الله له ، لا بكونه يعلم الغيب ؛ وقيل المعنى : وما كان الله ليطلعكم على الغيب فى من يستحق النبوة ، حتى يكون الوحي باختياركم (ولكن الله يجتبي) أى يختار (من رسله من يشاء) . قوله (فآمنوا بالله ورسوله) أى افعلوا الإيمان المطلوب منكم ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه (وإن تؤمنوا) بما ذكر (وتنفقوا فلكم) عوضا عن ذلك (أجر عظيم) لا يعرف قدره ولا يبلغ كنهه . قوله (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هون خيرا لهم) الموصول فى محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، والمفعول الأول محذوف : أى لا يحسبن الباخلون البخل خيرا لهم . قاله الخليل وسيبويه والقراء . قالوا : وإنما حذف الدلالة ببخلون عليه ، ومن ذلك قول الشاعر :
إذا نهى السفية جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف
أى جرى إلى السفه ، فالسفيه دل على السفه . وأما على قراءة من قرأ بالفوقية فالفعل مسند إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمفعول الأول محذوف : أى لا تحسبن يا محمد بخل الذين يبخلون خيرا لهم . قال الزجاج : هو مثل - واسأل القرية - والضمير المذكور هو ضمير الفصل . قال المبرد : والسين فى قوله (سيطوقون ما بخلوا به) سين الوعيد ، وهذه الجملة مبينة لمعنى قوله (بل هو شر لهم) قيل ومعنى التطويق هنا أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقا من نار فى أعناقهم ؛ وقيل معناه أنه سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة وليس من التطويق ؛ وقيل المعنى : أنهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق ، يقال طوق فلان عمله طوق الحمامة : أى ألزم جزاء عمله ؛ وقيل إن ما لم تؤد زكاته من المال يمثل له شجاعا أقرع حتى يطوق به فى عنقه كما ورد ذلك مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال القرطبي : والبخل فى اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب ، فأما من منع مالا يجب عليه فليس ببخل . قوله (والله ميراث السموات والأرض) أى له وحده لا غيره كما يفيد التقديم . والمعنى : أن له ما فيهما مما

يتوارثه أهلها فإياهم يبخلون بذلك ولا ينفقونه وهو الله سبحانه لا لهم وإنما كان عندهم عارية مستردة، ومثل هذه الآية قوله تعالى - إنا نحن نرث الأرض ومن عليها - وقوله - وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه - . والميراث في الأصل هو ما يخرج من مالك إلى آخر ولم يكن مملوكا لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث ، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان) قال : هم المنافقون وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ما من نفس برّة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة إن كان برا فقد قال الله - وما عند الله خير للأبرار - وإن كان فاجرا فقد قال (ولا يحسبن الذين كفروا) الآية . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي الدرداء نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن أبي برزة أيضا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : قالوا إن كان محمد صادقا فليخبرنا بمن يؤمن به منا ومن يكفر ، فأنزل الله (ما كان الله ليند المؤمنين) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : يميز بينهم في الجهاد والهجرة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (وما كان الله ليطالعكم على الغيب) قال : ولا يطلع على الغيب إلا رسول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (ولكن الله يجتبي) قال : يختص . وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك قال يستخلص . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يحسبن الذين يبخلون) قال : هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : هم يهود . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : بخلوا أن ينفقوها في سبيل الله لم يؤدوا زكاتها . وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بلهزمته : يعني بشدقه ، فيقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية » وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا
بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) .

قال أهل التفسير : لما أنزل الله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - قال قوم من اليهود هذه المقالة تمويها على ضعفائهم لأنهم يعتقدون ذلك ، لأنهم أهل الكتاب ، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان

محمد فهو فقير ليشككوا على إخوانهم في دين الاسلام . وقوله (سنكتب ما قالوا) سنكتبه في صحف الملائكة ، أو سنحفظه . أو سينجازيهم عليه . والمراد الوعيد لهم ، وأن ذلك لا يفوت على الله ، بل هو معد لهم ليوم الجزاء . وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جوابا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع ؟ فقال : قال لهم (سنكتب ما قالوا) . وقرأ الأعمش وحزرة « سيكتب » بالمشناة التحتية مبنى للمفعول . وقرأ برفع اللام من « قتلهم » ويقول بالياء المشناة تحت . قوله (وقتلهم الأنبياء) عطف على ما قالوا : أى ونكتب قتلهم الأنبياء : أى قتل أسلافهم للأنبياء ، وإنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به ، جعل ذلك القول قرينا لقتل الأنبياء تنبيها على أنه من العظم والشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء . قوله (ونقول) معطوف على (سنكتب) أى ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذى نقوله لهم في النار ، أو عند الموت ، أو عند الحساب . والحريق : اسم للنار المتهبة وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة . وقرأ ابن مسعود « ويقال ذوقوا » والإشارة بقوله (ذلك) إلى العذاب المذكور قبله ، وأشار إلى القريب بالصيغة التى يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته في الفضاة وذكر الأيدى لكونها المباشرة لغالب المعاصى . وقوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) معطوف على (ما قدمت أيديكم) ووجه أنه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب وجازاهم على فعلهم فلم يكن ذلك ظلما ، أو بمعنى : أنه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وليس بظالم لمن عذبه بذنبه وقيل إن وجهه أن نفي الظلم مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسيء ، ورد بأن ترك التعذيب مع وجود سببه ، ليس بظلم عقلا ولا شرعا ؛ وقيل إن جملة قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى والأمر أن الله ليس بظلام للعبيد ، والتعبير بذلك عن نفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان تنزهه عن ذلك ، ونفي ظلام المشعر بالكثرة يفيد ثبوت أصل الظلم . وأجيب عن ذلك بأن الذى توعده بأن يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما فنفاه على حدّ عظمه لو كان ثابتا . قوله (الذين قالوا) هو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين قالوا وقيل نعت للعبيد وقيل منصوب على الذم ؛ وقيل هو في محل جر بدل من (لقد سمع الله قول الذين قالوا) وهو ضعيف ، لأن البدل هو المقصود دون المبدل منه ، وليس الأمر كذلك هنا ، والقائلون هؤلاء هم جماعة من اليهود كما سيأتى ، وهذا المقول وهو أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتهم بالقربان هو من جملة دعاويهم الباطلة . وقد كان دأب بنى إسرائيل أنهم كانوا يقربون القربان ، فيقوم النبي فيدعو فتزل نار من السماء فتحرقه ، ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلا على صدق دعوى النبوة ، ولهذا رد الله عليهم فقال (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم) من القربان (فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) كيحيى بن زكريا وشعيا وسائر من قتلوا من الأنبياء . والقربان : ما يتقرب به إلى الله من نسكة وصدقة وعمل صالح ، وهو فعلان من القرية ؛ ثم سلى الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا) بمثل ما جئت به من البينات . والزبر جمع زبور : وهو الكتاب ، وقد تقدم تفسيره (والكتاب المنير) الواضح الجلى المضىء ، يقال نار الشيء وأنار ونوره واستناره بمعنى .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأجبارهم . فقال أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة ، فقال فنحاص :

والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجهه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص فقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقا لأبي بكر (لقد سمع الله قول الذين قالوا) الآية ، ونزل في أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا - الآية . وقد أخرج هذه القصة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ، وأخرجها ابن جرير عن السدي بأخصر من ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، والضياء في المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود محمدا صلى الله عليه وآله وسلم حين أنزل الله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) فقالوا : يا محمد أفقير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة : أن القائل لهذه المقالة حي بن أخطب وأنها نزلت فيه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن العلاء بن بدر أنه سئل عن قوله (وقتلهم الأنبياء بغير حق) وهم لم يدركوا ذلك ، قال : بموالاتهم من قتل الأنبياء . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحالك في قوله (الذين قالوا إن الله عهد إلينا) قال : هم اليهود . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) قال : يتصدق الرجل منا ، فإذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء فأكلته . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (الذين قالوا إن الله عهد إلينا) قال : كذبوا على الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (بالبينات) قال : الحلال والحرام (والزبر) قال : كتب الأنبياء (والكتاب المنير) قال : هو القرآن .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) .

قوله (ذائقة) من الذوق ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

من لم يمت غبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها

وهذه الآية تتضمن الوعد والوعيد للمصدق والمكذب بعد إخباره عن الباخلين القائلين (إن الله فقير ونحن أغنياء) . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وابن أبي إسحاق (ذائقة الموت) بالتنوين ونصب الموت . وقرأ الجمهور بالإضافة . قوله (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) أجر المؤمن : الثواب ، وأجر الكافر : العقاب : أى أن توفية الأجور وتكميلها إنما تكون في ذلك اليوم ، وما يقع من الأجور في الدنيا أو في البرزخ فلانما هو بعض الأجور والزحزحة : التنحية ، والإبعاد : تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ، قاله في الكشف وقد سبق الكلام عليه : أى فمن بعد عن النار يومئذ ونحى فقد فاز : أى ظفر بما يريد ونجا مما يخاف ، وهذا هو الفوز الحقيقي الذى لا فوز يقاربه ، فإن كل فوز وإن كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشئ بالنسبة إليها اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة ، ولا عيش إلا عيشها ، ولا نعيم إلا نعيمها ، فاغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا وارض عنا رضا لا يخط بعده ، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة . والمتاع : ما يتمتع به الانسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى كذا قال أكثر المفسرين الغرور : الشيطان يغر الناس بالأمانى الباطلة والمواعيد الكاذبة ، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على من يريده ، وله ظاهر محبوب وباطن مكروه . قوله (لتبلون في أموالكم وأنفسكم) هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأُمَّته تسلياً لهم عما سيلقونه من الكفرة والفسقة ليوطنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره . والابتلاء الامتحان والاختبار ، والمعنى : لمتحنن ولتختبرن في أموالكم بالمصائب والإنفاقات الواجبة وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال . والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض ، وفقد الأحباب ، والقتل في سبيل الله . وهذه الحملة جواب قسم محذوف دلت عليه اللام الموطئة (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهم اليهود والنصارى (ومن الذين أشركوا) وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب (أذى كثيراً) من الطعن في دينكم وأعراضكم ، والإشارة بقوله (فإن ذلك) إلى الصبر والتقوى المدلول عليهما بالفعلين . وعزم الأمور : معزوماتها ، أى مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله التى أوجب عليهم القيام بها ، يقال عزم الأمر : أى شدة وأصلحه . قوله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، أو اليهود فقط على الخلاف في ذلك . والظاهر أن المراد بأهل الكتاب كل من آتاه الله علم شئ من الكتاب : أى كتاب كان كما يفيد التعريف الجنسى في الكتاب . قال الحسن وقتادة : إن الآية عامة لكل عالم ، وكذا قال محمد بن كعب ، ويدل على ذلك قول أبي هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشئ ، ثم تلا هذه الآية ، والضمير في قوله (لتبيننه) راجع إلى الكتاب ؛ وقيل راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يتقدم له ذكر ، لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته للناس ولا يكتموها (فنبذوه وراء ظهورهم) . وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل المدينة « ليبيننه » بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمشناة الفوقية . وقرأ ابن عباس (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه) ويشكل على هذه القراءة قوله (فنبذوه) فلا بد من أن يكون فاعله الناس . وفي قراءة ابن مسعود « لتبينونه » والنبد : الطرح وقد تقدم في البقرة . وقوله (وراء ظهورهم) مبالغة في النبد والطرح ، وقد تقدم أيضاً معنى قوله (واشتروا به ثمناً قليلاً) والضمير عائد إلى الكتاب

الذى أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانہ . وقوله (ثمنا قليلا) أى حقيرا يسيرا من حطام الدنيا وأغراضها ، قوله (فبئس ما يشترون) مانكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ، ويشترون صفة ، والمخصوص بالذم محذوف : أى بئس شيئا يشترونه بذلك الثمن . قوله (لا تحسبن الذين يفرحون) قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له . وقوله (بما أتوا) أى بما فعلوا . وقد اختلف في سبب نزول الآية كما سيأتى ، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ماتضمنته عملا بعموم اللفظ ، وهو المعتبر دون خصوص السبب ، فمن فرح بما فعل وأحب أن يحمده الناس بمالم يفعل فلا تحسبته بمفازة من العذاب . وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو « لا يحسبن » بإياء التحتية : أى لا يحسبن الفارحون فرحهم منجيا لهم من العذاب ، فالمفعول الأول محذوف وهو فرحهم ، والمفعول الثانى بمفازة من العذاب . وقوله (فلا تحسبنهم) تأكيد للفعل الأول على القراءتين ، والمفازة : المنجاة ، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا : أى ليسوا بفائزين ، سمي موضع الخوف مفازة على جهة التفاؤل قاله الأصمعى . وقيل لأنها موضع تفويض ومظنة هلاك ، تقول العرب : فوز الرجل إذا مات . قال ثعلب : حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعى فقال أخطأ . قال لى أبو المكارم : إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز . وقال ابن الأعرابي : بل لأنه مستسلم لما أصابه . وقيل المعنى : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ، لأن الفوز التباعده عن المكروه . وقرأ مروان بن الحكم والأعمش وإبراهيم النخعي « أتوا » بالمد : أى يفرحون بما أعطوا . وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم « أتوا » بالقصر .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن حبان وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرءوا إن شئتم (فمن زخرح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) » . وأخرج ابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الزهرى فى قوله (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) قال : هو كعب بن الأشرف ، وكان يخرص المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فى شعره . وأخرج ابن المنذر من طريق الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج فى الآية قال : يعنى اليهود والنصارى ، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم - عزيز ابن الله - ، ومن النصارى قولهم - المسيح ابن الله - (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) قال : من القوة مما عزم الله عليه وأمركم به . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) قال : فنحاص وأشيع وأشباههما من الأخبار . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) قال : كان الله أمرهم أن يتبعوا النبى الأسمى . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : فى التوراة والإنجيل أن الإسلام دين الله الذى افترضه على عباده ، وأن محمدا رسول الله يجلدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل فنبذوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة فى الآية قال : هم اليهود (لتبيننه للناس) قال : محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن السدى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى الآية قال : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم ، فمن علم علما فليعلمه الناس ، وإياكم وكتبان العلم ، فإن كتمان العلم هلكة . وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : لولا الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه . وأخرج البخارى ومسلم

وغيرهما : أن مروان قال لبوابه اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ، إنما أنزلت في أهل الكتاب ، ثم تلا (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أو توا الكتاب) الآية ، قال ابن عباس : سألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء فكتبوه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه . وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري : أن رجلا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغزو وتحلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت . وقد روى أنها نزلت في فنحاص وأشيع وأشباههما . وروى أنها نزلت في اليهود . وأخرج مالك وابن سعد والطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن ثابت أن ثابت بن قيس قال : يا رسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال : لم ؟ قال : قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل وأجدين أحب الحمد ، ونهانا عن الخيلاء وأجدين أحب الجمال ، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا رجل جهير الصوت ، فقال : يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله (بمغازة) قال بمغاة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ
فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)
رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) .

قوله (إن في خلق السموات) هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها . والمراد ذات السموات والأرض وصفاتهما (واختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما ، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر ، وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر وتفاوتهما طولا وقصرا وحرا وبردا وغير ذلك (لآيات) أي دلالات واضحة وبراهين بيينة تدل على الخالق سبحانه . وقد تقدم تفسير بعض ما هنا في سورة البقرة . والمراد بأولى الأبواب : أهل العقول الصحيحة الخالصة عن شوائب النقص ، فإن مجرد التفكير فيما قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل ويوصله إلى الإيمان الذي لا تزلله الشبه ولا تدفعه التشكيكات . قوله (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) الموصول نعت لأولى الأبواب . وقيل هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح . والمراد بالذكر هنا ذكره سبحانه في هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها . وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر

هنا عبارة عن الصلاة : أى لا يضيعونها فى حال من الأحوال فيصلونها قياما مع عدم العذر ، وعودا وعلى جنوبهم مع العذر . قوله (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) معطوف على قوله (يذكرون) وقيل إنه معطوف على الحال ، أعنى (قياما وعودا) وقيل إنه منقطع عن الأول ، والمعنى : أنهم يتفكرون فى بديع صنعهما وإتقانها مع عظم أجرامها فإن هذا الفكر إذا كان صادقا أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه . قوله (ربنا ما خلقت هذا باطلا) هو على تقدير القول : أى يقولون ما خلقت هذا عبثا ولهوا ، بل خلقته دليلا على حكمتك وقدرتك . والباطل : الزائل الذاهب ، ومنه قول لبيد :
 • الأكل شئ ما خلا الله باطل •
 وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف : أى خلقا باطلا ؛ وقيل منصوب بنزع الخافض ؛ وقيل هو مفعول ثان ، وخلق بمعنى جعل ، أو منصوب على الحال ، والإشارة بقوله (هذا) إلى السموات والأرض ، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق . قوله (سبحانه) أى تنزيها لك عما لا يليق بك من الأمور التى من جملتها أن يكون خالقك لهذه المخلوقات باطلا . وقوله (فقنا عذاب النار) الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله . وقوله (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه ، وبيان للسبب الذى لأجله دعاه عباده بأن يقيم عذاب النار ، وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه ، أى أذله وأهان . وقال المفضل : معنى أخزيته أهلكته ، وأنشد
 أخزى الإله بنى الصليب عزيزة واللابسين ملابس الرهبان

وقيل معناه : فضحته وأبعدته ، يقال أخزاه الله : أبعدته ومقته ، والاسم الخزى . قال ابن السكيت : خزى يخزى خزيا : إذا وقع فى بلية . قوله (ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان) المنادى عند أكثر المفسرين هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل هو القرآن ، وأوقع السماع على المنادى مع كون المسموع هو النداء لأنه قد وصف المنادى بما يسمع ، وهو قوله (ينادى للإيمان أن آمنوا) . وقال أبو على الفارسى : إن « ينادى » هو المفعول الثانى وذكر ينادى مع أنه قد فهم من قوله (مناديا) لقصد التأكيد والتضخيم لشأن هذا المنادى به ، واللام فى قوله (للإيمان) بمعنى إلى ؛ وقيل إن ينادى يتعدى باللام ويأبى ، يقال ينادى لكذا وينادى إلى كذا ، وقيل اللام لليلة : أى لأجل الإيمان . قوله (أن آمنوا) هى إما تفسيرية أو مصدرية وأصلها بأن آمنوا فحذف حرف الجر . قوله (فآمنا) أى امتثلنا ما يأمر به هذا المنادى من الإيمان فآمنا ، وتكرير النداء فى قوله (ربنا) لإظهار التضرع والخضوع ؛ قيل المراد بالذنوب هنا الكبائر وبالسيئات الصغائر . والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين ، والآخر بالآخر ، بل يكون المعنى فى الذنوب والسيئات واحدا ، والتكرير للمبالغة والتأكيد ، كما أن معنى الغفر والكفر الستر . والأبرار جمع بار أو بر ، وأصله من الاتساع ، فكأن البار متسع فى طاعة الله ومتسعة له رحمته ، قيل هم الأنبياء ، ومعنى اللفظ أوسع من ذلك . قوله (ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك) هذا دعاء آخر والنكتة فى تكرير النداء ما تقدم والموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذى وعد الله به أهل طاعته ، فى الكلام حذف وهو لفظ الألسن كقوله - واسأل القرية - وقيل المحذوف التصديق : أى ما وعدتنا على تصديق رسلك ؛ وقيل ما وعدتنا منزلا على رسلك ، أو محمولا على رسلك والأول أولى . وصدور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة ، إما لقصد التعجيل أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العباد ، وفى قولهم (إنك لا تخلف الميعاد) دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد ، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما ذكرنا . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنت قريش اليهود فقالوا ما جاءكم به موسى من الآيات ؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى

فيكم؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فدعا ربه ، فنزلت (إن في خلق السموات والأرض) الآية . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : بت عند خالتي ميمونة فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، والطبراني والحاكم في الكنى ، والبغوي في معجم الصحابة عن صفوان بن المعطل قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فذكر نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني من طريق جوبير عن الضحاك عن ابن مسعود في قوله (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) الآية ، قال : إنما هذه في الصلاة إذا لم يستطع قائماً فقاعداً ، وإن لم يستطع قاعداً فعلى جنبه . وقد ثبت في البخاري من حديث عمران بن حصين قال : « كانت بي بواسير ، فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة فقال : صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » . وثبت فيه عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال : من صلى قائماً فهو أفضل ، ومن صلى قاعداً فله نصف أجر القائم ، ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هذه حالاتك كلها يا بن آدم ، اذكر الله وأنت قائم ، فإن لم تستطع فاذكره جالساً فإن لم تستطع جالساً فاذكره وأنت على جنبك ، يسر من الله وتخفيف .

وأقول هذا التقييد الذي ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له لامن الآية ولا من غيرها ، فإنه لم يرد في شيء من الكتاب والسنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام ، ولا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود ، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة كما سبق عن ابن مسعود . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن حبان في صحيحه وابن مردويه عن عائشة مرفوعاً : ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها . وأخرج ابن أبي الدنيا في التفكر عن سفيان رفعه « من قرأ آخر سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ويله فعد أصابعه عشراً » . قيل للأوزاعي : ما غاية التفكر فيهن؟ قال : يقرؤهن وهوي عقلهن . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في استحباب التفكر مطلقاً . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس في قوله (من تدخل النار فقد أخزيته) قال : من تخلد . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن المسيب في الآية قال : هذه خاصة بمن لا يخرج منها . وأخرج ابن جرير والحاكم عن عمرو بن دينار قال : قدم علينا جابر بن عبد الله في عمرة ، فأنهيت إليه أنا وعطاء فقلت : - وما هم بخارجين من النار - قال : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنهم الكفار ، قلت لجابر : فقله (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) قال : وما أخزاه حين أحرقه بالنار ، وإن دون ذلك خزيًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (منادياً ينادي للإيمان) قال : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : هو القرآن ، ليس كل أحد سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك) قال : يستنجزون موعد الله على رسله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا تخزنا يوم القيامة) قال : لا تفضحنا .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَلَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) .

قوله (فاستجاب) الاستجابة بمعنى الإجابة ؛ وقيل الإجابة عامة ، والاستجابة خاصة بإعطاء المسئول ، وهذا الفعل يتعدى بنفسه وباللام ، يقال استجابه ، واستجاب له ، والفاء للعطف ؛ وقيل على مقدر : أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب لهم ؛ وقيل على قوله (ويتفكرون) وإنما ذكر سبحانه الاستجابة وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه ، إذ من أجبت دعوته فقد رفعت درجته . قوله (أنى لا أضيع عمل عامل منكم) أى بآنى ، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول ، وقرأ أبى بثبوت الباء وهى للسببية : أى فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم . والمراد بالإضاعة ترك الإثابة . قوله (من ذكر أو أنثى) من بيانه ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم . قوله (بعضكم من بعض) أى رجالكم مثل نسائكم في الطاعة ونساؤكم مثل رجالكم فيها ، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشبيهما من أصل واحد . قوله (فالذين هاجروا) الآية ، هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل في قوله (أنى لا أضيع عمل عامل) أى فالذين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وأخرجوا من ديارهم) في طاعة الله عز وجل (وقاتلوا) أعداء الله (وقتلوا) في سبيل الله ، وقرأ ابن كثير وابن عامر « وقتلوا » على التثنية وقرأ الأعمش وحزرة والكسائى « وقتلوا وقتلوا » وهو مثل قول الشاعر : * تصابى وأمسى علاه الكبر * أى قد علاه الكبر ، وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب كما قال به الجمهور . والمراد هنا : أنهم قاتلوا وقتل بعضهم ، كما قال امرؤ القيس : * فإن تقتلونا نقتلكم * .

وترأ عمر بن عبد العزيز « وقتلوا وقتلوا » : ومعنى قوله (وأودوا في سبيلى) أى بسببه والسبيل : الدين الحق . والمراد هنا : ما نالهم من الأذى من المشركين بسبب إيمانهم بالله وعملهم بما شرعه الله لعباده . وقوله (لا كفرون) جواب قسم محذوف . وقوله (ثوابا من عند الله) مصدر مؤكد عند البصريين ، لأن معنى قوله (لأدخلنهم جنات) لأثيبهم ثوابا : أى إثابة أو تثويبا كائنا من عند الله . وقال الكسائى : إنه منتصب على الحال . وقال الفراء : على التفسير (والله عنده حسن الثواب) أى حسن الجزاء ، وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب : إذا رجع .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد الزقاق والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : يارسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله (فاستجاب لهم) إلى آخر الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال « ما من عبد يقول يارب يارب ثلاث مرات إلا نظر الله إليه » فذكر للحسن فقال : أما تقرأ القرآن ؟ (ربنا إنا سمعنا مناديا) إلى قوله (فاستجاب لهم ربهم) . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية (فاستجاب لهم ربهم) إلى آخرها . وقد ورد في فضل الهجرة أحاديث كثيرة .

لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠).

قوله (لا يغرنك) خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . والمراد تشييته على ما هو عليه كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) أو خطاب لكل أحد ، وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين ؛ والمعنى : لا يغرنك ما هم فيه من تقلبهم في البلاد بالأسفار للتجارة التي يتوسعون بها في معاشهم ، فهو متاع قليل يتمتعون به في هذه الدار ثم مصيرهم إلى جهنم ، فقوله (متاع) خبر مبتدأ محذوف : أى هو متاع قليل لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه (وماوهم) أى ماياوون إليه . والتقلب في البلاد : الاضطراب في الأسفار إلى الأمكنة ، ومثله قوله تعالى - فلا يغرنك تقلبهم في البلاد - والمتاع ما يعجل الانتفاع به ، وسماه قليلا لأنه فان ، وكل فان وإن كان كثيرا فهو قليل . وقوله (وبئس المهاد) مامهلوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم ، أو مامهد الله لهم من النار ، فالخصوص بالذم محذوف : وهو هذا المقدّر . قوله (لكن الذين اتقوا ربهم) هو استدراك مما تقدمه ، لأن معناه معنى التنى كأنه قال : ليس لهم في تقلبهم في البلاد كثير انتفاع (لكن الذين اتقوا) لهم الانتفاع الكثير والخلد الدائم . وقرأ يزيد بن القعقاع لكن بتشديد النون . قوله (نزلا) مصدر مؤكد عند البصريين كما تقدم في «ثوابا» وعند الكسائي والفراء مثل ما قالوا في ثوابا ، والنزل ما يهبط للنزول ، والجمع أنزال ، قال الهروي (نزلا من عند الله) أى ثوابا من عند الله (وما عند الله) مما أجده لمن أطاعه (خير للأبرار) مما يحصل للكفار من الربح في الأسفار فإنه متاع قليل عن قريب يزول . قوله (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) هذه الجملة سبقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين ، وليسوا كسائرهم في فضائحهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتى ، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله وبما أنزل الله على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم (خاشعين لله لا يشترون) أى يستبدلون (بآيات الله ثمنا قليلا) بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم بل يحكون كتب الله سبحانه كما هي ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة (لهم أجرهم) الذي وعد الله سبحانه به بقوله - أولئك يؤتون أجرهم مرتين - وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم . وقوله (عند ربهم) في محل نصب على الحال . قوله (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) الخ . هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه (إن في خلق السموات) ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التي جمعت خير الدنيا والآخرة ، فحضر على الصبر على الطاعات والشهوات ، والصبر : الحبس ، وقد تقدم تحقيق معناه . والمصابرة مصابرة الأعداء ، قاله الجمهور : أى غالبوهم في الصبر على الشدائد الحرب ، وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشد منه وأشق . وقيل المعنى صابروا على الصلوات ؛ وقيل

صابروا الأنفس عن شهواتها ؛ وقيل صابروا الوعد الذي وعدتم ولا تيأسوا ، والقول الأول هو المعنى العربى ، ومنه قول عنزة :

فلم أر حيا صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح
أى صابروا العدو فى الحرب . قوله (ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم
وهذا قول جمهور المفسرين . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة ، ولم يكن
فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غزو يربط فيه ، وسيأتى ذكر من خرج عنه هذا ، والرباط اللغوى
هو الأول ، ولا ينافيه تسميته صلى الله عليه وآله وسلم لغيره رباطا كما سيأتى . ويمكن إطلاق الرباط على المعنى
الأول ، وعلى انتظار الصلاة . قال الخليل : الرباط ملازمة الثغور ومواظبة الصلاة هكذا قال ، وهو من أئمة
اللغة . وحكى ابن فارس عن الشيبانى أنه قال : يقال ماء مترابط دائم لا يبرح ، وهو يقتضى تعذية الرباط إلى غير
ارتباط الخيل فى الثغور . قوله (واتقوا الله) فلا تخالفوا ما شرعه لكم (لعلكم تفلحون) أى تكونون من جملة
الفائزين بكل مطلوب ، وهم المفلحون .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله (لا يغرنك تقلب الذين كفروا) تقلب ليلهم ونهارهم
وما يجرى عليهم من النعم ، قال ابن عباس وبش المهاد : أى بثس المنزل . وأخرج ابن جرير وابن
أبى حاتم عن السدى فى قوله (تقلبهم فى البلاد) قال ضربهم فى البلاد . وأخرج عبد ابن حميد والبخارى فى الأدب
المفرد وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله (وما عند الله خير للأبرار) قال إنما سماهم الله أبرارا لأنهم بروا الآباء
والأبناء ، كما أن لوالدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حقا . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا ، والأول أصح
قاله السيوطى . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (خير للأبرار) لمن يطيع الله . وأخرج النسائى والبزار وابن المنذر
وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أنس قال : لما مات النجاشى قال صلى الله عليه وآله وسلم : صلوا عليه قالوا
يا رسول الله نصلى على عبد حبشى ؟ فأنزل الله (وإن من أهل الكتاب) الآية . وأخرج ابن جرير عن جابر مرفوعا
أن المنافقين قالوا : انظروا إلى هذا يعنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم يصلى على علج نصرانى ، فنزلت . وأخرج
الحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير أنها نزلت فى النجاشى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال :
هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا
قبل محمد والذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن المنذر والحاكم
وصححه والبيهقى فى الشعب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ما قدمنا ذكره . وأخرج ابن مردويه عنه عن أبى هريرة
قال : أما إنه لم يكن فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم غزو يربطون فيه ، ولكنها نزلت فى قوم يعمر
المساجد يصلون الصلوات فى مواقيتها ثم يذكرون الله فيها . وقد ثبت فى الصحيح وغيره من قول النبى صلى الله
عليه وآله وسلم « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة
الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » . وأخرج ابن
جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : اصبروا على دينكم وصابروا ، الوعد الذى
وعدتكم ورابطوا عدوى وعدوكم . وقد روى من تفاسير السلف غير هذا فى سر الصبر على نوع من أنواع
الطاعات والمصابرة على نوع آخر ، ولا تقوم بذلك حجة ، فالواجب الرجوع إلى المدلول اللغوى وقد قدمناه .
وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل الرباط وفيها التصريح بأنه الرباط فى سبيل الله ، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن

عهد الرحمن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ندب إلى الرباط في سبيل الله وهو الجهاد فيحمل مافي الآية عليه ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه سمي حراسة جيش المسلمين رباطا ، فأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عن أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أجر المرباط فقال : من رباط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى .

وقد ورد في فضل هذه العشر الآيات التي في آخر هذه السورة مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما أخرجه ابن السني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة » . وفي إسناده مظاهر بن أسلم ، وهو ضعيف . وقد تقدم من حديث ابن عباس في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ . وكذلك تقدم في غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج الدارمي عن عثمان بن عفان قال : « من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة » .

سورة النساء

هي مدنية كلها . قال القرطبي : إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحنظلي ، وهي قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) على ماسيأتي إن شاء الله ، قال النقاش : وقيل نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة ، وعلى ما تقدم عن بعض أهل العلم أن قوله تعالى (يا أيها الناس) حيث وقع ، فإنه مكى يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكيا ، وبه قال علقمة وغيره . وقال النحاس : هذه الآية مكية . قال القرطبي : والصحيح الأول ، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يعني قد بنى بها . ولا خلاف بين العلماء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما بنى بعائشة بالمدينة ، ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لاشك فيها . قال : وأما من قال (يا أيها الناس) مكى حيث وقع فليس بصحيح ، فإن البقرة مدنية وفيها (يا أيها الناس) في موضعين . وقد أخرج ابن الضريس في فضائله والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة النساء بالمدينة ، وفي إسناده العوفي وهو ضعيف ، وكذا أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد ابن ثابت ، وأخرجه ابن المنذر عن قتادة .

وقد ورد في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال : إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية ، و (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية ، و (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية (ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم) الآية . ثم قال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه ، وقد اختلف في ذلك . وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن ابن مسعود قال : خمس آيات من النساء هن أحب إلى من الدنيا جميعا (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية (وإن تك حسنة يضاعفها) الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية (من يعمل سوءا أو يظلم نفسه)

الآية (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم) الآية . ورواه ابن جرير . ثم روى من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس قال : ثمان آيات نزلت في سورة النساء من خير هذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، وذكر ما ذكره ابن مسعود ، وزاد (يريد الله ليبن لكم) الآية (والله يريد أن يتوب عليكم) الآية (يريد الله أن يخفف عنكم) الآية . وأخرج أحمد وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من أخذ السبع فهو حبر » . وأخرج البيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال والمئين كل سورة بلغت مائة فصاعدا » ، والمثاني كل سورة دون المئين وفوق المفضل . وأخرج أبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : « وجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة شيئا فلما أصبح قيل : يا رسول الله إن أثر الوجع عليك لين ، قال : أما إني على ماترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال » . وأخرج أحمد عن حذيفة قال : « قمت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات » . وأخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بالسبع الطوال في ركعة واحدة » . وأخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قال : « سلوني عن سورة النساء فلاني قرأت القرآن وأنا صغير قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عنه قال : « من قرأ سورة النساء فعلم ما يحجب مما لا يحجب علم الفرائض » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) .

المراد بالناس الموجودون عند الخطاب من بني آدم ، ويدخل من سيوجد بدليل خارجي وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون ، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الإناث في قوله (اتقوا ربكم) لاختصاص ذلك بجمع المذكر . والمراد بالنفس الواحدة هنا آدم . وقرأ ابن أبي عبيدة واحد بغير هاء على مراعاة المعنى ، فالتأنيث باعتبار اللفظ ، والتذكير باعتبار المعنى . قوله (وخلق منها زوجها) قيل هو معطوف على مقدر يدل عليه الكلام : أي خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا ، وخلق منها زوجها ، وقيل على خلقكم ،

فيكون الفعل الثاني داخلا مع الأول في حيز الصلة . والمعنى وخلق من تلك النفس التي هي عبارة عن آدم زوجها وهي حواء . وقد تقدم في البقرة معنى التقوى والرب والزوج والبت ، والضمير في قوله (منها) راجع إلى آدم وحواء المعبر عنهما بالنفس والزوج . وقوله (كثيرا) وصف مؤكدا لما تفيد صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة وقيل هو نعت لمصدر مخدوف : أي بئس كثيرا . وقوله (ونساء) أي كثيرة ، وترك التصريح به استغناء بالوصف الأول . قوله (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية ، وأصله تتساءلون تخفيفا لاجتماع المثلين . وقرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بإدغام التاء في السين ؛ والمعنى : يسأل بعضكم بعضا بالله والرحم ، فإنهم كانوا يقرنون بينهما في السؤال والمناشدة ، فيقولون : أسألك بالله والرحم ، وأنشدك الله والرحم ، وقرأ النخعي وقتادة والأعمش وحزمة (والأرحام) بالجر . وقرأ الباقون بالنصب وقد اختلف أئمة النحو في توجيه قراءة الجر ، فأما البصريون فقالوا : هي لحن لا تجوز القراءة بها . وأما الكوفيون فقالوا هي قراءة قبيحة . قال سيويه في توجيه هذا القبح : إن المضممر المحرور بمنزلة التنوين ، والتنوين لا يعطف عليه . وقال الزجاج وجماعة : بقبح عطف الاسم الظاهر على المضممر في الخفض إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى - فخشفنا به وبداره الأرض - وجوز سيويه ذلك في ضرورة الشعر ، وأنشد :

فاليوم قربت تهجونا وتمدحنا فاذهب فما بك والأيام من عجب

ومثله قول الآخر :

تعلق في مثل الموارى سيوفنا وماينها والكعب بهو تقانف
بعطف الكعب على الضمير في بينها . وحكى أبو على الفارسي أن المبرد قال : لو صليت خلف إمام يقرأ (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) بالجر ، لأخذت نعلي ومضيت . وقد رد الإمام أبو نصر القشيري ما قاله القادحون في قراءة الجر فقال : ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تواترا ، ولا يخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التي رووها بها ، ولكن ينبغي أن يحتج للجواز بورود ذلك في أشعار العرب كما تقدم ، وكما في قول بعضهم :

• وجسبك والضحاك سيف مهند •

وقول الآخر : وقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعدا فيها ولا الأرض مقعدا
وقول الآخر : ما إن بها والأمور من تلف •
وقول الآخر : أكر على الكنية لست أدري أحتنى كان فيها أم سواها
فسواها في موضع جر عطفًا على الضمير في فيها ، ومنه قوله تعالى - وجعلنا لكم فيها معاش ومن لسم له برازقين - . وأما قراءة النصب فعناها واضح جلي لأنه عطف الرحم على الاسم الشريف : أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فإنها مما أمر الله به أن يوصل ؛ وقيل إنه عطف على محل الجار والمجرور في قوله (به) كقولك مررت بزيد وعمرا : أي اتقوا الله الذي تساءلون به وتتساءلون بالأرحام . والأول أولى . وقرأ عبد الله ابن يزيد والأرحام بالرفع على الابتداء والخبر مقدر : أي والأرحام صلوها أو والأرحام أهل أن توصل ؛ وقيل إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به ، ومنه قول الشاعر :

إن قوما منهم عمير وأشبا • عمير ومنهم السفاح
يلحدون باللقاء إذا قا ل أخ النجدة السلاح السلاح

والأرحام : اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره ، لاختلاف في هذا بين أهل الشرع ولا بين أهل اللغة . وقد خصص أبو حنيفة وبعض الزيدية الرحم بالمحرم في منع الرجوع في الهبة مع موافقتهم على أن معناها أعم ، ولا وجه لهذا التخصيص . قال القرطبي : اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة انتهى . وقد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة . والرقيب : المراقب وهي صيغة مبالغة ، يقال رقبت أرقب رقبة ورقبانا : إذا انتظرت . قوله (وآتوا اليتامى أموالهم) خطاب للأولياء والأوصياء . والإيتاء : الإعطاء . واليتيم : من لا أب له . وقد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم . وقد تقدم تفسير معناه في البقرة مستوفى ، وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم ، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ مجازا باعتبار ما كانوا عليه ، ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقي ، وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة لدفعها جميعها وهذه الآية مقيدة بالآية الأخرى وهي قوله تعالى (فإن آتستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) فلا يكون مجرد ارتفاع اليتيم بالبلوغ مسوغا لدفع أموالهم إليهم حتى يؤنس منهم الرشدا . قوله (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويعوضونه بالردئ من أموالهم ولا يرون بذلك بأسا ، وقيل المعنى : لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم وقيل المراد لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله . والأول أولى ، فإن تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذه مكانه وكذلك استبداله ، ومنه قوله تعالى - ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل - وقوله - أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير - . وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما في قوله - وبدلناهم بجناتهم جنتين - وأخرى بالعكس كما في قولك بدلت الحلقة بالخاتم : إذا أذبتها وجعلتها خاتما ، نص عليه الأزهري . قوله (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهى عنه في هذه الآية هو الخلط فيكون الفعل مضمنا معنى الضم : أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى - وإن تخالطوهم فلاخوانكم - وقيل إن إلى بمعنى مع كقوله تعالى - من أنصاري إلى الله - . والأول أولى . والحبوب : الإثم يقال حاب الرجل يحوب حوبا : إذا أثم ، وأصله الزجر للإيل ، فسمى الإثم حوبا لأنه يزجر عنه . والحبوبة : الحاجة . والحبوب أيضا : الوحشة ، وفيه ثلاث لغات : ضم الحاء وهي قراءة الجمهور . وفتح الحاء وهي قراءة الحسن ، قال الأخفش : وهي لغة تميم . والثالثة الحاب . وقرأ أبي بن كعب حابا على المصدر كقال قالا . والتحوب التحزن ، ومنه قول طفيل :

فدوقوا كما ذقنا عداه يحجر من الغيظ في أكبادنا والتحوب

قوله (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا) وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه وليا لها ويريد أن يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها : أي يعدل فيه ويعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج ، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن ، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتي ، فهو نهى يخص هذه الصورة . وقال جماعة من السلف : إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ماشاء ، فقصرهم بهذه الآية على أربع ، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا ألا يقسطوا في اليتامى فكذلك يخافون ألا يقسطوا في النساء ، لأنهم كانوا يتخرجون في اليتامى ولا يتخرجون في النساء والخوف من الأضداد ، فإن المخوف قد يكون معلوما ، وقد يكون مظنونا ، ولهذا اختلف الأئمة في معناه في الآية ، فقال أبو عبيدة (خفتم)

بمعنى أيقنتم . وقال آخرون (خفتم) بمعنى ظننتم . قال ابن عطية : وهو الذى اختاره الخذاق وأنه على بابه من الظن لا من اليقين ؛ والمعنى : من غلب على ظنه التقصير فى العدل للتيمة فليبركها وينكح غيرها . وقرأ النخعي وابن وثاب (تقسطوا) بفتح التاء من قسط : إذا جار ، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة لا ، كأنه قال : وإن خفتم أن تقسطوا . وحكى الزجاج أن أقسط يستعمل استعمال قسط ، والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل ، وقسط بمعنى جار ، و « ما » فى قوله (ما طاب) موصولة ، وجاء بما مكان من لأنهما قد يتعاقبان فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما فى قوله - والساء وما بناها - فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على أربع - . وقال البصريون : إن « ما » تقع للنعوت كما تقع لما لا يعقل ، يقال ما عندك ، فيقال ظريف وكريم ، فالمعنى : فانكحوا الطيب من النساء : أى الحلال ، وما حرّمه الله فليس بطيب ؛ وقيل إن « ما » هنا مديّة : أى مادمت مستحسنين للنكاح ، وضعفه ابن عطية . وقال الفراء : إن « ما » هاهنا مصدرية . قال للنحاس : وهذا بعيد جدا . وقرأ ابن أبي عملة (فانكحوا من طاب) . وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور فى الآية لا مفهوم له ، وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط فى اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة ، و « من » فى قوله (من النساء) إما بيانية أو تبعية ، لأن المراد غير اليتامى . قوله (مثنى وثلاث ورباع) فى محل نصب على البدل من « ما » كما قاله أبو على الفارسي ؛ وقيل على الحال ، وهذه الألفاظ لا تنصرف للعدل والوصفية كما هو مبين فى علم النحو والأصل : انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا .

وقد استدل بالآية على تحريم مازاد على الأربع ، وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة ، وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد ، كما يقال للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم ، أو هذا المال الذى فى البذرة درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . وهذا مسلم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته أو عين مكانه ، أما لو كان مطلقا كما يقال اقتسموا الدراهم ، ويراد به ما كسبوه فليس المعنى هكذا . والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول . على أن من قال لقوم يقتسمون مالا معيناً كثيرا اقتسموه مثنى وثلاث ورباع ، فقسّموا بعضه بينهم درهمين درهمين ، وبعضه ثلاثة ثلاثة ، وبعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربى ، ومعاوم أنه إذا قال القائل جاءنى القوم مثنى وهم مائة ألف ، كان المعنى أنهم جاءوه اثنتين اثنتين ، وهكذا جاء فى القوم ثلاث ورباع ، والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد كما فى قوله تعالى - اقتلوا المشركين - أقيموا الصلاة - آتوا الزكاة - ونحوها ، فقوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) معناه لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا ، هذا ما تقتضيه لغة العرب . فالآية تدل على خلاف ما استدلوا بها عليه ، ويؤيد هذا قوله تعالى فى آخر الآية (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) فإنه وإن كان خطابا للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد . فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن .

وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة ، فكأنه قال : انكحوا مجموع هذا العدد المذكور ، فهذا جهل بالمعنى العربى ، ولو قال : انكحوا اثنتين وثلاثا وأربعا كان هذا القول له وجه وأما مع المحىء بصيغة العدل فلا ، وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو ، لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره ، وذلك ليس بمراد من النظم القرآنى . وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب ثلث ورباع بنير ألف . قوله (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فانكحوا واحدة كما يدل على ذلك قوله (فانكحوا ما طاب) وقيل التقدير فالزموا أو فاختروا واحدة . والأول أولى ؛ والمعنى : فإن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجات فى القسم ونحوه فانكحوا واحدة ، وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك . وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف . قال

الكسائي : أى فواحدة تقنع ، وقيل التقدير : فواحدة فيها كفاية ، ويجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدأ محذوف : أى فالقنع واحدة . قوله (أو ماملكت أيمانكم) معطوف على واحدة : أى فانكحوا واحدة أو انكحوا ماملكت أيمانكم من السرارى وإن كثر عددهن كما يفيد الموصول . والمراد نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح ، وفيه دليل على أنه لاحق للمملوكات فى القسم كما يدل على ذلك جعله قسما لواحدة فى الأمن من عدم العدل ، وإسناد الملك إلى اليمين ، لكونها المباشرة لقبض الأموال وإقباضها ولسائر الأمور التى تنسب إلى الشخص فى الغالب ، ومنه :

إذا ماراية نصبت لحجد تلقاها عرابة باليمين

قوله (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى ذلك أقرب إلى ألا تعولوا : أى تجوروا ، من عال الرجل يعول : إذا مال وجار ، ومنه قولهم عال السهم عن الهدف : مال عنه ، وعال الميزان إذا مال ، ومنه : قالوا اتبعنا رسول الله واطرحوا قول الرسول وعالوا فى الموازين ومنه قول أبى طالب :

بميزان صدق لا يغفل شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

ومنه أيضا : فنحن ثلاثة وثلاث ذود لقد عال الزمان على عيال

والمعنى : إن خفتم عدم العدل بين الزوجات ، فهذه التى أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور ، ويقال عال الرجل يعيل : إذا افتقر وصار عالة ، ومنه قوله تعالى - وإن خفتم عيلة - ، ومنه قول الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغنى متى يعيل

وقال الشافعى (ألا تعولوا) ألا تكثر عيالكم . قال الثعلبي : وما قال هذا غيره ، وإنما يقال أعال يعيل : إذا كثر عياله . وذكر ابن العربى أن عال تأتى لسبعة معان : الأول عال مال . الثانى زاد . الثالث جار . الرابع افتقر الخامس أثقل . السادس قام بمؤونة العيال ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « وابدأ بمن تعول » . السابع عال غلب ، ومنه عيل صبرى ، قال ويقال أعال الرجل : كثر عياله . وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح ، ويحجب عن إنكار الثعلبي لما قاله الشافعى ، وكذلك إنكار ابن العربى لذلك ، بأنه قد سبق الشافعى إلى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما والإمام الشافعى بما لا وجه له فى العربية . وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطنى فى سننه . وقد حكاه القرطبى عن الكسائى وأبى عمر الدورى وابن الأعرابى ، وقال أبو حاتم : كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا ولعله لغة . وقال الثعلبي : قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب : سألت أبا عمر الدورى عن هذا وكان إماما فى اللغة غير مدافع ، فقال : هى لغة حمير ، وأنشد :

وإن الموت يأخذ كل حى بلا شك وإن أمشى وعالا

أى وإن كثرت ماشيته وعياله . وقرأ طلحة بن مصرف (أن لاتعيلوا) قال ابن عطية : وقدح الزجاج فى تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السرارى ، وفى ذلك تكثير العيال ، فكيف يكون أقرب إلى أن لا يكثروا ، وهذا القدح غير صحيح ، لأن السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع ، وإنما العيال الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وقد حكى ابن الأعرابى أن العرب تقول : عال الرجل إذا كثر عياله ، وكفى بهذا .

وقد ورد عال لمعان غير السبعة التى ذكرها ابن العربى ، منها عال : اشتد وتفاقم ، حكاه الجوهري ، وعال الرجل فى الأرض : إذا ضرب فيها ، حكاه الهروى ، وعال : إذا أعجز ، حكاه الأحرار ، فهذه ثلاثة معان غير

السبعة ، والرابع عال كثر عياله ، فجمة معاني عال أحد عشر معنى . قوله (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) الخطاب للأزواج ، وقيل للأولياء . والصدقات بضم الدال جمع صدقة كثرة ، قال الأنخفش : وبنو تميم يقولون صدقة والجمع صدقات ، وإن شئت فتحت وإن شئت أسكنت . والنحلة بكسر النون وضمها لغتان ، وأصلها العطاء نحت فلانا : أعطيته ، وعلى هذا فهي منصوبة على المصدرية ، لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء ؛ وقيل النحلة التدين فمعى نحلة تدينا ، قاله الزجاج ، وعلى هذا فهي منصوبة على المفعول له . وقال قتادة : النحلة الفريضة . وعلى هذا فهي منصوبة على الحال ؛ وقيل النحلة طيبة النفس ، قال أبو عبيد : ولا تكون النحلة إلا عن طيبة نفس . ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج : أعطوا النساء اللاتي نكحتموهن مهورهن التي لمن عليكم عطية أوديانه منكم أو فريضة عليكم أو طيبة من أنفسكم . ومعناها على كون الخطاب للأولياء : أعطوا النساء من قراباتكم التي قبضن مهورهن من أزواجهن تلك المهور . وقد كان الولي يأخذ مهر قريبته في الجاهلية ولا يعطيها شيئا ، حكى ذلك عن أبي صالح والكلبي . والأول أولى لأن الضمائر من أول السياق للأزواج . وفي الآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء ، وهو مجمع عليه كما قال القرطبي ، قال : وأجمع العلماء أنه لا حد لكثيره ، واختلفوا في قليله . وقرأ قتادة « صدقاتهن » بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ النخعي وابن وثاب بضمهما . وقرأ الجمهور بفتح الصاد وضم الدال . قوله (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) الضمير في منه راجع إلى الصداق الذي هو واحد الصدقات أو إلى المذكور وهو الصدقات ، أو هو بمنزلة اسم الإشارة ، كأنه قال من ذلك ، ونفسا تمييز . وقال أصحاب سيويه : منصوب بإضمار فعل لا تمييز : أي أعنى نفسا . والأول أولى ، وبه قال الجمهور . والمعنى : فإن طبن : أي النساء لكم أيها الأزواج أو الأولياء عن شيء من المهر (فكلوه هنيئا مريئا) وفي قوله (طبن) دليل على أن المعتبر في تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التي لا يتحقق معها طيبة النفس ، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج ولا للولي وإن كانت قد تلفظت بالهبة أو النذر أو نحوها . وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للتمليك بمجرد ما لتقصان عقولهن وضعف إدراكهن وسرعة انخداعهن وانجذابهن إلى ما يراود منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب . وقوله (هنيئا مريئا) منصوبان على أنهما صفتان لمصدر محذوف : أي أكلا هنيئا مريئا أو قائمان مقام المصدر ، أو على الحال ، يقال : هناء الطعام الشراب يهنيه ومراه وأمرأه من الهنيء والمرىء ، والفعل هنا ومراه : أي أتى من غير مشقة ولا غيظ ؛ وقيل هو الطيب الذي لا تنغيص فيه ؛ وقيل الحمود العاقبة الطيب الهضم ؛ وقيل مالا يثم فيه ، والمقصود هنا أنه حلال لهم خالص عن الشوائب ، وخص الأكل لأنه معظم ما يراود بالمال وإن كان سائر الانتفاعات به جائزة كالأكل .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (خلقكم من نفس واحدة) قال : آدم (وخلق منها زوجها) قال : حواء من قصيرى آدم : أي قصيرى أضلاعه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر قال : خلقت حواء من خلف آدم الأيسر وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : من ضلع الخلف وهو من أسفل الاضلاع . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (واتقوا الله الذي تساءلون به) قال : تعاطون به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع قال : تعاقدون وتعاهدون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : يقول أسألك بالله والرحم . وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اتقوا الله

الذى تساءلون به واتقوا الأرحام وصلوها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد (إن الله كان عليكم رقيبا) قال : حفيظا . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : إن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ اليتيم طلب ماله ففنه عمه ، فخاصمه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت (وآتوا اليتامى أموالهم) يعنى الأوصياء ، يقول : أعطوا اليتامى أموالهم (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) يقول : لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تنفروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذى قد رلك (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) قال : مع أموالكم تخلطونها فتأكلونها جميعا (إنه كان حوبا) إثمًا . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار يأخذونه الأكبر ، فنصيبه من الميراث طيب وهذا الذى يأخذ خبيث . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال مع أموالكم وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية فى أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم ، وجعل ولي اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله ، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله - يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم - قال : فخالطوهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أن عروة سأل عائشة عن قول الله عز وجل (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) قالت : يابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى مالها ويعجبه مالها وجهالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطىها مثل ما يعطىها غيره ، فنها عن أن ينكحوهن " إلا أن يقسطوا لهن " ويلغوا بهن " أعلى سنهن " فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن " ، وأن الناس قد استفتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذه الآية ، فأنزل الله (ويستفتونك فى النساء) قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى (وترغبون أن تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال ، فنها أن ينكحوا من رغبوا فى ماله وجهاله من باقى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن " إذا كن قليلات المال والجمال . وأخرج البخارى عن عائشة : أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق فكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شيء ، فنزلت (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العذق وفى ماله . وقد روى هذا المعنى من طرق . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى الآية قال : كان الرجل يتزوج بمال اليتيم ماشاء الله تعالى ، فهى الله عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) قال : كان الرجل يتزوج ماشاء فقال : كما تخافون ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فيهن " فقصرهم على الأربع . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرة من النساء الأيامى ، وكانوا يعظمون شأن اليتيم ، فتفقدها من دينهم شأن اليتامى وتركوا ما كانوا ينكحون فى الجاهلية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : كما خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فى النساء إذا جمعتموهن " عندكم . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق محمد بن أبى موسى الأشعرى عنه قال : فإن خفتم الزنا فانكحوهن ، يقول : كما خفتم فى أموال اليتامى ألا تقسطوا فيها فكذلك فخافوا على أنفسكم ما لم تنكحوا وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبى مالك (ما طاب لكم) قال : ما أحل لكم

وأخرج ابن جرير عن الحسن وسعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عائشة نحوه . وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن ماجه والنحاس في ناسخه والدارقطني والبيهقي عن ابن عمر « أن غيلان ابن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشرين سنة ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اختر منهن » وفي لفظ « أمسك منهن » أربعة وفارق سائرهن » هذا الحديث أخرجه هؤلاء المذكورين من طرق عن إسماعيل بن علي وغندر وزيد ابن زريع وسعيد بن أبي عروبة وسفيان الثوري وعيسى بن يونس وعبد الرحمن بن محمد المحاربي والفضل بن موسى وغيرهم من الحفاظ عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه فذكره . وقد علل البخاري هذا الحديث فحكى عنه الترمذي أنه قال : هذا حديث غير محفوظ . والصحيح ما روى عن شعيب وغيره عن الزهري حدثت عن محمد بن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة ، فذكره ، وأما حديث الزهري عن أبيه : أن رجلا من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر : لأرجن قبرك كما رجم قبر أبي رغال . وقد رواه معمر عن الزهري مرسلا ، وهكذا رواه مالك عن الزهري مرسلا . قال أبو زرعة : وهو أصح . ورواه عقيل عن الزهري بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبي سويد قال : أبو حاتم : وهذا وهم ، إنما هو الزهري عن عثمان بن أبي سويد . وقد ساهمه أحمد برجال الصحيح فقال : حدثنا إسماعيل ومحمد بن جعفر قالا : حدثنا معمر عن الزهري قال أبو جعفر في حديثه : أخبرنا ابن شهاب عن سالم عن أبيه أن غيلان فذكره وقد روى من غير طريق معمر والزهري ، فأخرجه البيهقي عن أيوب عن نافع وسالم عن ابن عمر أن غيلان فذكره . وأخرج أبو داود وابن ماجه في سننهما عن عمير الأسدي قال : أسلمت وعندى ثمان نسوة ، فذكرت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : اختر منهن أربعة . قال ابن كثير : إن إسناده حسن . وأخرج الشافعي في مسنده عن نوفل بن معاوية الديلي قال : أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أمسك أربعة وفارق الأخرى » . وأخرج ابن ماجه والنحاس في ناسخه عن قيس بن الحارث الأسدي قال « أسلمت وكان تحتى ثمان نسوة ، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته ، فقال : اختر منهن أربعة وخل سائرهن » ، ففعلت » وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقي . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن الحكم قال : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية يقول : إن خفت ألا تعدل في أربع فثلاث وإلا فثنتين وإلا فواحدة ، فإن خفت ألا تعدل في واحدة فما ملكت يمينك . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج أيضا عن الضحاك (فإن خفتم ألا تعدلوا) قال : في المجامعة والحب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي (أو ماملكت أيمانكم) قال : السرارى . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ذلك أدنى ألا تعولوا) قال : ألا تجوروا . قال ابن أبي حاتم قال أبي : هذا حديث خطأ ، والصحيح عن عائشة موقوف . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله (ألا تعولوا) قال ألا تميلوا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ألا تميلوا ، ثم قال : أما سمعت قول أبي طالب :

بميزان قسط لا ينجس شعيرة ووازن صدق وزنه غير عائل

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد : قال : ألا تميلوا . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي رزين وأبي مالك والضحاك مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية ، قال : ذلك أدنى

ألا يكثر من تعولوا . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة : قال : ألا تفتقروا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : كان الرجل إذا زوج أيمته أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله عن ذلك ونزلت (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (نحلة) قال : يعنى بالنحلة المهر . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة (نحلة) قالت : واجبة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قال : فريضة مسماة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير (فإن طبن لكم) قال : هي الأزواج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة (فإن طبن لكم عن شيء منه) قال : من الصداق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طريق علي عن ابن عباس (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا) يقول : إذا كان من غير ضرار ولا خديعة فهو هنيء مريء كما قال الله .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسِبُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) .

هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى . وقد تقدم الأمر بدفع أموالهم إليهم في قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم) فبين سبحانه هاهنا أن السفه وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه . وقد تقدم في البقرة معنى السفه لغة . واختلف أهل العلم في هؤلاء السفهاء من هم ؟ فقال سعيد بن جبير : هم اليتامى لا تؤتوهم أموالكم . قال النحاس وهذا من أحسن ما قيل في الآية . وقال مالك : هم الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم فيفسدوها وتبقوا بلا شيء . وقال مجاهد : هم النساء . قال النحاس وغيره : وهذا القول لا يصح إنما تقول العرب سفاهة أو سفهات . واختلفوا في وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين وهي للسفهاء ، فقيل أضافها إليهم لأنها بأيديهم وهم الناظرون فيها كقوله - فسلموا على أنفسكم - ، وقواه - فاقتلوا أنفسكم - أي ليسلم بعضكم على بعض ، وليقتل بعضكم بعضا ؛ وقيل أضافها إليهم لأنها من جنس أموالهم ، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق في الأصل ؛ وقيل المراد أموال المخاطبين حقيقة ، وبه قال أبو موسى الأشعري وابن عباس والحسن وقتادة . والمراد النهي عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها كالنساء والصبيان ، ومن هو ضعيف الإدراك لا يهتدى إلى وجوه النفع التي تصلح المال ، ولا يتجنب وجوه الضرر التي تهلكه وتذهب به . قوله (التي جعل الله لكم قياما) المفعول الأول محذوف ، والتقدير التي جعلها الله لكم ، و« قيا » قراءة أهل المدينة وأبي عامر ، وقرأ غيرهم « قياما » وقرأ عبد الله بن عمر « قواما » والقيام والقوام : ما يقيمك ، يقال فلان قيام أهله وقوام بيته وهو الذي يقيم شأنه : أي يصلحه ، ولما انكسرت القاف في قوام أبدلوا الواو ياء . قال الكسائي والفراء : قيا وقواما بمعنى قياما ، وهو منصوب على المصدر : أي لا تؤتوا السفهاء أموالكم التي تصلح بها أموركم فتقومون بها قياما وقال الأخفش : المعنى قائمة بأمركم فذهب

إلى أنها جمع . وقال البصريون قبا جمع قيمة كديمة وديم : أى جعلها الله قيمة للأشياء . وخطأ أبو على الفارسي هذا القول وقال : هى مصدر كقيام وقوام . والمعنى . أنها صلاح للحال وثبات له ، فأما على قول من قال إن المراد أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الإضافة ، فالمعنى واضح . وأما على قول من قال إنها أموال اليتامى فالمعنى أنها من جنس ما تقوم به معاشكم ويصلح به حالكم من الأموال . وقرأ الحسن والنخعي « اللاتى جعل » قال الفراء : الأكثر فى كلام العرب النساء اللواتى والأموال التى ، وكذلك غير الأموال ، ذكره النحاس . قوله (وارزقوهم فيها واكسوهم) أى اجعلوا لهم فيها رزقا أو افرضوا لهم . وهذا فيمن تلزم نفقته وكسوته من الزوجات والأولاد ونحوهم . وأما على قول من قال إن الأموال هى أموال اليتامى ، فالمعنى اتجروا فيها حتى . تربحوا وتنفقوهم من الأرباح ، أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقا ينفقونه على أنفسهم ويكتسبون به . وقد استدل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء ، وبه قال الجمهور . وقال أبو حنيفة لا يحجر على من بلغ عاقلا ، واستدل بها أيضا على وجوب نفقة القرابة ، والخلاف فى ذلك معروف فى موطنه . قوله (وقولوا لهم قولا معروفا) قيل ادعوا لهم : بارك الله فيكم ، وحاطكم ، وصنع لكم ، وقيل معناه : عدوهم وعدا حسنا قولوا لهم : إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم ؛ ويقول الأب لابنه : مالى سيصير إليك ، وأنت إن شاء الله صاحبه ونحو ذلك . والظاهر من الآية ما يصدق عليه مسمى القول الجميل ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل والأولاد أو مع الأيتام المكفولين . وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها صح عنه « خيركم خيركم أهله ، وأنا خيركم لأهلى » . قوله (وابتلوا اليتامى) الابتلاء : الاختبار . وقد تقدم تحقيقه . وقد اختلفوا فى معنى الاختبار ، فقيل هو أن يتأمل الوصى أخلاق يتيمة ليعلم بنجابتها وحسن تصرفه فيدفع إليه ماله إذا بلغ النكاح وأنس منه الرشد ؛ وقيل معنى الاختبار : أن يدفع إليه شيئا من ماله ويأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله ؛ وقيل معنى الاختبار : أن يرد النظر إليه فى نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره ، وإن كانت جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها . والمراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى - وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم - ومن علامات البلوغ الإنبات ، وبلوغ خمس عشرة سنة . وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضي سبع عشرة سنة ، وهذه العلامات تعم الذكر والأنثى ، وتختص الأنثى بالحبل والحيض . قوله (فإن آنستم) أى أبصرتم ورأيتم ، ومنه قوله - آنس من جانب الطور نارا - . قال الأزهري : تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحدا ، معناه : تبصر ؛ وقيل هو هنا بمعنى وجد وعلم : أى فإن وجدتم وعلمتم منهم رشدا . وقراءة الجمهور « رشدا » بضم الراء وسكون الشين . وقرأ ابن مسعود والسلمي وعيسى الثقفى بفتح الراء والشين ، قيل هما لغتان ؛ وقيل هو بالضم مصدر رشد وبالفتح مصدر رشد .

واختلف أهل العلم فى معنى الرشد هاهنا ، فقيل الصلاح فى العقل والدين ؛ وقيل فى العقل خاصة . قال سعيد بن جبير والشعبي : إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشدته وإن كان شيخا . قال الضحاك : وإن بلغ مائة سنة . وجمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر . وقال أبو حنيفة ، لا يحجر على الحر البالغ وإن كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرا ، وبه قال النخعي وزفر . وظاهر النظم القرآنى أنها لا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هى بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية بإيناس الرشد ، فلا بد من مجموع الأمرين فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ وإن كانوا معروفين بالرشد ، ولا بعد البلوغ إلا بعد إيناس الرشد منهم . والمراد بالرشد نوعه وهو المتعلق بحسن التصرف فى أمواله وعدم التبذير بها ووضعها فى مواضعها . قوله (ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) الإسراف فى اللغة : الإفراط ومجاوزة الحد . وقال

التضر بن شميل : السرف التبذير ، والبدار المبادرة و (أن يكبروا) في موضع نصب بقوله (بدارا) أى لا تأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف وأكل مبادرة لكبرهم ، أولا تأكلوا لأجل السرف ولأجل المبادرة أولا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم وتقولوا ننفق أموال اليتامى فيما نشهى قبل أن يبلغوا فينتزعوها من أيدينا . قوله (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى ، فأمر الغنى بالاستعفاف وتوفير مال الصبي عليه وعدم تناوله منه ، وسوغ للفقير أن يأكل بالمعروف .

واختلف أهل العلم في الأكل بالمعروف ما هو ؟ فقال قوم : هو القرض إذا احتاج إليه ويقضى متى أيسر الله عليه ، وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة السلماني وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية والأوزاعي وقال النخعي وعطاء والحسن وقتادة : لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف ، وبه قال جمهور الفقهاء . وهذا بالنظم القرآنى ألصق فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض . والمراد بالمعروف المتعارف به بين الناس ، فلا يترفع بأموال اليتامى ويبالغ في التمتع بالمأكل والمشروب والملبوس ، ولا يدع نفسه عن سدّ الفاقة وسرّ العورة . والخطاب في هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم كالأب والجدّ ووصيهما . وقال بعض أهل العلم : المراد بالآية اليتيم إن كان غنيا وسع عليه وعفّ من ماله ، وإن كان فقيرا كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له ، وهذا القول في غاية السقوط . قوله (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى إذا حصل مقتضى الدفع فدفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم أنهم قد قبضوها منكم لتدفع عنكم التهم وتأمّنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم وقيل إن الإشهاد المشروع هو ما أنفق عليه الأولياء قبل رشدهم ؛ وقيل هو على ردّ ما استقرضه إلى أموالهم وظاهر النظم القرآنى مشروعية الإشهاد على ما دفع إليهم من أموالهم وهو يعمّ الإنفاق قبل الرشد ، والدفع للجميع إليهم بعد الرشد (وكفى بالله حسيبا) أى حاسبا لأعمالكم شاهدا عليكم في كل شيء تعملونه ، ومن جملة ذلك معاملتكم لليتامى في أموالهم ، وفيه وعيد عظيم ، والباء زائدة ، أى كفى الله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا توتوا السفهاء أموالكم) يقول لا تعتمد إلى مالك وماخولك الله وجعله لك معيشة ، فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تضطر إلى مافى أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤونتهم . قال : وقوله (قواما) يعنى قوامكم من معاشكم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه من طريق العوفى في الآية يقول : لا تسلط السفهاء من ولدك على مالك وأمره أن يرزقه منه ويكسوه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال هم بنوك والنساء . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن النساء السفهاء إلا التى أطاعت قيمها » وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : هم الخدم ، وهم شياطين الإنس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال : هم النساء والصبيان . وأخرج ابن جرير عن حضرمي : أن رجلا عمد فدفع ماله إلى امرأته فوضعتة في غير الحق ، فقال الله (ولا توتوا السفهاء أموالكم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : هم اليتامى والنساء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : هو مال اليتيم يكون عندك ، يقول لا توتّه إياه وأنفق عليه حتى يبلغ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وارزقوهم) يقول : أنفقوا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد (وقولوا لهم قولا معروفا) قال : أمروا أن يقولوا لهم قولا معروفا في البرّ والصلة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج (وقولوا لهم قولا معروفا) قال : عدة تعدونهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (وابتلوا اليتامى) يعنى اختبروا اليتامى

عند الحلم (فإن أنتم) عرفتم (منهم رشدا) في حالهم والإصلاح في أموالهم (فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا) يعني تأكل مال اليتيم ببادرة قبل أن يبلغ فتحول بينه وبين ماله . وأخرج البخاري وغيره عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية في ولي اليتيم (ومن كان غنيا فليستعفف) ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف (بقدر قيامه عليه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس (ومن كان غنيا فليستعفف) قال بغناه (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال : يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم وأخرج ابن جرير عنه قال : هو القرض . وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن ابن عباس قال : إن كان فقيرا أخذ من فضل اللبن وأخذ من فضل القوت ولا يجاوزه ، وما يستر عورته من الثياب ، فإن أيسر قضاءه وإن أعسر فهو في حل . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه من طرق عن عمر بن الخطاب قال : إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعفت ، وإن احتجت أخذت منه بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم عن ابن عمر « أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ليس لي مال ولي يتيم فقال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متائل مالا ومن غير أن تقي مالك بماله » . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال : نسختها (إن الذين يأكلون أموال اليتامى) الآية .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) .

لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة . وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال ، ولم يقل للرجال والنساء نصيب ، للإيدان بأصالتهم في هذا الحكم ، ودفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء ، وفي ذكر القرابة بيان لعل الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من دون تخصيص . وقوله (مما قل منه أو أكثر) بدل من قوله (مما ترك) بإعادة الجار ، والضمير في قوله (منه) راجع إلى المبدل منه . وقوله (نصيبا) منتصب على الحال أو على المصدرية أو على الاختصاص ، وسيأتي ذكر السبب في نزول هذه الآية إن شاء الله ، وقد أجمل الله سبحانه في هذه المواضع قدر النصيب المفروض ، ثم أنزل قوله (يوصيكم الله في أولادكم) فبين ميراث كل فرد . قوله (وإذا حضر القسمة أولوا القربى) المراد بالقرابة هنا غير الوارثين ، وكذا اليتامى والمساكين ، شرع الله سبحانه أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق ، فيرضخ لهم المتقاسمون شيئا منها . وقد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة وأن الأمر للندب . وذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى - يوصيكم الله في أولادكم - والأول أرجح ، لأن المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس

هو من جملة الميراث حتى يقال إنها منسوخة بآيه الموارث ، إلا أن يقولوا إن أولى القربى المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه . وقالت طائفة : إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة وهو معنى الأمر الحقيقي فلا يصار إلى النذب إلا لقريظة ، والضمير في قوله (منه) راجع إلى المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة ؛ وقيل راجع إلى ماترك . والقول المعروف : هو القول الحميل الذي ليس فيه من بما صار إليهم من الرضخ ولا أذى . قوله (وليخش الذين لو تركوا) هم الأوصياء كما ذهب إليه طائفة من المفسرين ، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين في حجورهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم ؛ وقالت طائفة : المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس وإن لم يكونوا في حجورهم ؛ وقال آخرون : إن المراد بهم من يحضر الميت عند موته ، أمروا بتقوى الله ، وبأن يقولوا للمحتضر قولاً سديداً من إرشادهم إلى التخلص عن حقوق الله وحقوق بني آدم ، وإلى الوصية بالقرب المقرية إلى الله سبحانه ، وإلى ترك التبذير بماله وإحرام وراثته كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم فقراء عالة يتكفون الناس ؛ وقال ابن عطية : الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته مالا يصلح للآخر ، وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن يندب إلى الوصية ، ويحمل على أن يقدم لنفسه ، وإذا ترك ورثة ضعفاء مفلسين حسن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط ، فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين . قال القرطبي : وهذا التفصيل صحيح . قوله (لو تركوا) صلة الموصول ، والفاء في قوله (فليتقوا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ؛ والمعنى : وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً ، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم ، ثم أمرهم بتقوى الله ، والقول السديد للمحتضرين ، أو لأولادهم من بعدهم على ما سبق . قوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى) استئناف يتضمن النهي عن ظلم الأيتام من الأولياء والأوصياء وانتصاب قوله (ظلماً) على المصدرية : أى أكل ظلم ، أو على الحالية : أى ظالمين لهم . وقوله (إنما يأكلون في بطونهم نارا) أى ما يكون سبباً للنار ، تعبيراً بالمسبب عن السبب ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية . وقوله (وسيصلون) قراءة عاصم وابن عامر بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وقرأ أبو حيوة بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى . وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلها ، والصلى هو التسخن بقرب النار أو مباشرتها ، ومنه قول الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم إلا ه وإني لحرها اليوم صالى

والسعر : الجمر المشتعل .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار حتى يدركوا ، فأت رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابناً صغيراً ، فجاء ابنا عمه وهما عصبتا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ ميراثه كله ، فجاءت امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية ، فأرسل إليهما رسول الله فقال : لا تحركا من الميراث شيئاً ، فإنه قد أنزل على شئء احترت فيه إن للذكر والأنثى نصيباً ، ثم نزل بعد ذلك (ويستفتونك في النساء) ، ثم نزل (يوصيكم الله في أولادكم) فدعا بالميراث ، فأعطى المرأة الثمن ، وقسم ما بقى للذكر مثل حظ الأنثيين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : نزلت في أم كلثوم ابنة أم كحلة أو أم كحة وثعلبة بن أوس وسويد وهم من الأنصار ، كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها ، فقالت : يا رسول الله توفي زوجي وتركني وابنته فلم نورث من ماله ، فقال عم ولدها : يا رسول الله لا يركب فرساً ولا ينكح عدواً ويكسب عليها ولا يكتسب ، فنزلت . وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى (وإذا حضر القسمة) قال : هي محكمة وليست بمنسوخة . وأخرج ابن أبي

شبية وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن خطاب بن عبد الله في هذه الآية قال : قضى بها أبو موسى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شبية عن الحسن والزهري قالا : هي محكمة ما طابت به أنفسهم . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس قال يرضخ لهم فإن كان في ماله تقصير اعتذر إليهم فهو قولاً معروفاً . وأخرج ابن المنذر عن عائشة أنها لم تنسخ . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن أبي حاتم أن هذه الآية منسوخة بآية الميراث . وأخرج أبو داود في ناسخه وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن المسيب قال : هي منسوخة . وأخرج ابن جرير عن سعيد ابن جبير قال : إن كانوا كباراً يرضخوا ، وإن كانوا صغاراً اعتذروا إليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه في قوله (وليخش الذين لو تركوا) قال : هذا في الرجل يحضر الرجل عند موته فيسمعه يوصي وصية تضر بورثته ، فأمر الله الذي يسمعه أن يتق الله ويوفقه ويسدده للصواب ، وينظر لورثته كما يجب أن يصنع لورثته إذا خشي عليهم الضيعة . وقد روى نحو هذا من طرق . وأخرج ابن أبي شبية وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم عن أبي برزة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا ، فقيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : ألم تر أن الله يقول (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا) » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الخدري قال : حدثنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ليلة أسرى به قال : « نظرت فإذا بقوم لهم مشافر كشافر الإبل ، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخرا من نار فيقذف في أحدهم حتى يخرج من أسافلهم ولهم جوار وصراخ ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) » وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : هذه الآية لأهل الشرك حين كانوا لا يورثونهم ويأكلون أموالهم .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَّةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ

أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ نُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤).

هذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية ، وقد استدلل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وهذه الآية ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الأحكام وأم من أمهات الآيات لاشتمالها على ما يهيم من علم الفرائض ، وقد كان هذا العلم من أجل علوم الصحابة وأكثر مناظراتهم فيه ، وسيأتى بعد كمال تفسير ما اشتمل عليه كلام الله من الفرائض ذكر بعض فضائل هذا العلم إن شاء الله . قوله (يوصيكم الله في أولادكم) أى في بيان ميراثهم . وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الأولاد أم لا ، فقالت الشافعية : إنهم يدخلون مجازا لا حقيقة ، وقالت الحنفية : إنه يتناولهم لفظ الأولاد حقيقة إذا لم يوجد أولاد الصلب ، ولا خلاف أن بنى البنين كالبنين في الميراث مع عدمهم ، وإنما هذا الخلاف في دلالة لفظ الأولاد على أولادهم مع عدمهم ، ويدخل في لفظ الأولاد من كان منهم كافرا ، ويخرج بالسنة ، وكذلك يدخل القاتل عمدا ، ويخرج أيضا بالسنة والإجماع ، ويدخل فيه الخنثى . قال القرطبي : وأجمع العلماء أنه يورث من حيث يبول ، فإن بال منهما ، فن حيث سبق ، فإن خرج البول منهما من غير سبق أحدهما فله نصف نصيب الذكر ونصف نصيب الأنثى ، وقيل يعطى أقل النصيبين ، وهو نصيب الأنثى ، قاله يحيى بن آدم ، وهو قول الشافعى . وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من الموارثة بالحلف والهجرة والمعاقدة ، وقد أجمع العلماء على أنه إذا كان مع الأولاد من له فرض مسمى أعطيه ، وكان ما بقى من المال للذكر مثل حظ الأنثيين ، للحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما بلفظ « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر » إلا إذا كان ساقطا معهم كالأخوة لأم . وقوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) جملة مستأنفة لبيان الوصية في الأولاد ، فلا بد من تقدير ضمير يرجع إليهم : ويوصيكم الله في أولادكم للذكر منهم مثل حظ الأنثيين . والمراد حال اجتماع الذكور والإناث ، وأما حال الانفراد فللذكر جميع الميراث وللأنثى النصف وللأثنين فصاعدا الثلثان . قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) أى فإن كن الأولاد ، والتأنيث باعتبار الخبر ، أو البنات ، أو المولودات نساء ليس معهن ذكر فوق اثنتين : أى زائدات على اثنتين على أن فوق صفة لنساء أو يكون خبرا ثانيا لكان (فلهن ثلثا ما ترك) الميت المدلول عليه بقرينة المقام . وظاهر النظم القرآنى أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعدا ، ولم يسم للاثنتين فريضة ، ولهذا اختلف أهل العلم في فريضتهما فذهب الجمهور إلى أن لهما إذا انفردتا عن البنين الثلثين ، وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف ، احتج الجمهور بالقياس على الأختين فإن الله سبحانه قال في شأنهما - فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان - فألحقوا البنيتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين كما ألحقوا الأخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين ، وقيل في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين ، وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث

كان للإبنتين إذا انفردتا الثلثان ، هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش والمبرد . قال النحاس : وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط ، لأن الاختلاف في البنيتين إذا انفردتا عن البنين ، وأيضا للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين وابنا فللبنتين النصف ، فهذا دليل على أن هذا فرضهما ، ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة إذا انفردت النصف بقوله تعالى (وإن كانت واحدة فلها النصف) كان فرض البنيتين إذا انفردتا فوق فرض الواحدة ، وأوجب القياس على الأختين الاقتصار للبنيتين على الثلثين . وقيل إن فوق زائدة ، والمعنى : وإن كنّ نساء اثنتين كقوله تعالى - فاضربوا فوق الأعناق - أى الأعناق ، ورد هذا النحاس وابن عطية فقالا : هو خطأ ، لأن الظروف وجميع الأسماء لا تجوز في كلام العرب أن تراد لغير معنى . قال ابن عطية : ولأن قوله - فوق الأعناق - هو الفصيح ، وليست فوق زائدة ، بل هي محكمة المعنى ، لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ ، كما قال دريد بن الصمة : اخفض عن الدماغ ، وارفع عن العظم ، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال انتهى . وأيضا لو كان لفظ فوق زائدا كما قالوا لقال فلهما ثلثا ماترك ولم يقل فلهن ثلثا ماترك ، وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبي شبة وأحمد وأبوداود والترمذى وابن ماجه وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقى في سننه عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال ، فقال : يقضى الله في ذلك ، فنزلت آية الميراث (يوصيكم الله في أولادكم) الآية ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمهما فقال : أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك ، أخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال الترمذى : ولا يعرف إلا من حديثه . قوله (وإن كانت واحدة فلها النصف) قرأ نافع وأهل المدينة « واحدة » بالرفع على أن كان تامة بمعنى : فإن وجدت واحدة أو حدثت واحدة . وقرأ الباقون بالنصب قال النحاس وهذه قراءة حسنة : أى وإن كانت المتروكة أو المولودة واحدة . قوله (ولأبويه لكل واحد منهما السدس) أى لأبوى الميت ، وهو كناية عن غير مذكور ، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه و (لكل واحد منهما السدس) بدل من قوله (ولأبويه) بتكرير العامل للتأكيد والتفصيل . وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة « السدس » بسكون الدال ، وكذلك قرأ الثلث والرابع إلى العشر بالسكون ، وهى لغة بني تميم وربيعة ، وقرأ الجمهور بالتحريك ضما ، وهى لغة أهل الحجاز وبني أسد في جميعها . والمراد بالأبوين الأب والأم والثنية على لفظ الأب للتغليب .

وقد اختلف العلماء في الجدة ، هل هو بمنزلة الأب فتسقط به الأخوة أم لا ؟ فذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب ، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته ، واختلفوا في ذلك بعد وفاته فقال بقول أبي بكر ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبو الدراء وأبو هريرة وعطاء وطاوس والحسن وقتادة وأبو حنيفة وأبو ثور وإسحاق ، واحتجوا بمثل قوله تعالى - ملة أبيكم إبراهيم - وقوله - يابنى آدم - وقواه صلى الله عليه وآله وسلم « ارموا يابنى إسماعيل » . وذهب على بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن مسعود إلى توريث الجدة مع الإخوة لأبوين أولأب ، ولا ينقص معهم من الثلث ، ولا ينقص مع ذوى الفروض من السدس في قول زيد ومالك والأوزاعي وأبي يوسف ومحمد والشافعى . وقيل يشرك بين الجدة والإخوة إلى السدس ، ولا ينقصه من السدس شيئا مع ذوى الفروض وغيرهم ، وهو قول ابن أبي ليلي وطائفة . وذهب الجمهور إلى أن الجدة يسقط بنى الإخوة ، وروى الشعبي عن على أنه أجرى بنى الإخوة في القاسمة مجرى الإخوة . وأجمع العلماء على أن

الجد لا يرث مع الأب شيئا ، وأجمع العلماء على أن للجددة السدس إذا لم يكن للميت أم ، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم ، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدة أم الأم .

واختلفوا في توريث الجدة وابنها حتى ، فروى عن زيد بن ثابت وعثمان وعلى أنها لا ترث وابنها حتى ، وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وأبو ثور وأصحاب الرأي . وروى عن عمرو بن مسعود وأبي موسى أنها ترث معه وروى أيضا عن علي وعثمان ، وبه قال شريح وجابر بن زيد وعبيد الله بن الحسن وشريك وأحمد وإسحاق وابن المنذر . قوله (إن كان له ولد) الولد يقع على الذكر والأنثى ، لكنه إذا كان الموجود الذكر من الأولاد وحده أومع الأنثى منهم فليس للجد إلا السدس ، وإن كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض وهو عصبية فيما عدا السدس وأولاد ابن الميت كأولاد الميت . قوله (فإن لم يكن له ولد) أى ولاد ابن لما تقدم من الإجماع (وورثه أبواه) منفردين عن سائر الورثة كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة إلا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين ، أما لو كان معهما أحد الزوجين فليس للأم إلا ثلث الباقي بعد الموجود من الزوجين . وروى عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين ، وهو يستلزم تفضيل الأم على الأب في مسئلة زوج وأبوين مع الاتفاق على أنه أفضل منها عند انفردهما عن أحد الزوجين . قوله (فإن كان له إخوة فلأمه السدس) إطلاق الإخوة يدل على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما .

وقد أجمع أهل العلم على أن الإثنين من الإخوة يقومون مقام الثلاثة فصاعدا في حجب الأم إلى السدس إلا ما يروى عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد في عدم الحجب . وأجمعوا أيضا على أن الأختين فصاعدا كالأخوين في حجب الأم . قوله (من بعد وصية يوصى بها أو دين) قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم « يوصى » بفتح الصاد . وقرأ الباقر بكسرها ، واختار الكسر أبو عبيد وأبو حاتم لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا . قال الأنخفش : وتصديق ذلك قوله (يوصين وتوصون) .

واختلف في وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدما عليها بالإجماع ، فقليل المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما . وقيل لما كانت الوصية أقل لزوما من الدين قدمت اهتماما بها ؛ وقيل قدمت لكثرة وقوعها فصارت كالأمر اللازم لكل ميت ؛ وقيل قدمت لكونها حظ المساكين والفقراء ، وآخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان ؛ وقيل لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت ، بخلاف الدين فإنه ثابت مؤدى ذكر أولم يذكر ؛ وقيل قدمت لكونها تشبه الميراث في كونها مأخوذة من غير عوض ، فرمما يشق على الورثة إخراجها ، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة بأدائه ، وهذه الوصية مقيدة بقوله تعالى (غير مضار) كما سيأتى إن شاء الله . قوله (آبائكم وأبنائكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) قيل خبر قوله (آبائكم وأبنائكم) مقدر أى هم المقسوم عليهم وقيل إن الخبر قوله (لا تدرون) وما بعده (وأقرب) خبر قوله (أيهم) و (نفعا) تمييز : أى لا تدرون أيهم قريب لكم نفعه في الدعاء لكم والصدقة عنكم كما في الحديث الصحيح « أو ولد صالح يدعوه » . وقال ابن عباس والحسن : قد يكون الابن أفضل فيشفع في أبيه . وقال بعض المفسرين : إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سأل الله أن يرفع إليه أباه ، وإذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سأل الله أن يرفع ابنه إليه ؛ وقيل المراد النفع في الدنيا والآخرة ، قاله ابن زيد ؛ وقيل المعنى : إنكم لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم ، أمن أوصى منهم فعرضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعا ، أو من ترك الوصية ووفر عليكم عرض الدنيا ؟ وقوى هذا صاحب الكشاف ، قال : لأن الحملة اعتراضية ، ومن حق

الاعتراض أن يؤكد ما عترض بينه ، ويناسبه قوله (فريضة من الله) نصب على المصدر المؤكد ، إذ معنى (يوصيكم) يفرض عليكم . وقال مكى وغيره : هي حال مؤكدة ، والعامل يوصيكم . والأول أولى (إن الله كان عليا) بقسمة المواريث (حكيا) حكم بقسمتها وبينها لأهلها . وقال الزجاج (عليا) بالأشياء قبل خلقها (حكيا) فيما يقدره ويمضيه منها . قوله (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد) الخطاب هنا للرجال . والمراد بالولد ولد الصلب أو ولد الولد لما قدمنا من الإجماع (فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن) ، وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم في أن للزوج مع عدم الولد النصف ومع وجوده وإن سفل الربع . وقوله (من بعد وصية) الخ الكلام فيه كما تقدم . قوله (ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن) هذا النصيب مع الولد والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات ويشترك فيه الأكثر من واحدة لا خلاف في ذلك ، والكلام في الوصية والدين كما تقدم . قوله (وإن كان رجل يورث كلالة) المراد بالرجل الميت و (يورث) على البناء للمفعول من ورث لأن أورث وهو خبر كان و (كلالة) حال من ضمير (يورث) أى يورث حال كونه ذا كلالة ، أو على أن الخبر كلالة ويورث صفة لرجل : أى إن كان رجل يورث ذا كلالة ليس له ولد ولا والد ، وقرئ (يورث) مخففا ومشددا فيكون كلالة مفعولا أو حالا ، والمفعول محذوف : أى يورث ، وأريد حال كونه ذا كلالة ، أو يكون مفعولا له : أى لأجل الكلالة . والكلالة مصدر من تكلمه النسب : أى أحاط به ، وبه سمي الإكليل لإحاطته بالرأس : وهو الميت الذى لا ولد له ولا والد ، هذا قول أبى بكر الصديق وعمر وعلى وجمهور أهل العلم ؛ وبه قال صاحب كتاب العين وأبى منصور اللغوى وابن عرفة والقتيبى وأبو عبيد وابن الأنبارى . وقد قيل إنه إجماع . قال ابن كثير : وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة ، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور الخلف والسلف بل جميعهم . وقد حكى الإجماع غير واحد ، وورد فيه حديث مرفوع انتهى . وروى أبو حاتم والأثرم عن أبى عبيدة أنه قال : الكلالة كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ فهو عند العرب كلالة . قال أبو عمر ابن عبد البر : ذكر أبى عبيدة الأخ هنا مع الأب والابن فى شرط الكلالة غلط لا وجه له ، ولم يذكره فى شرط الكلالة غيره ، وما يروى عن أبى بكر وعمر من أن الكلالة من لا ولد له خاصة فقد رجعا عنه . وقال ابن زيد : الكلالة : الحى والميت جميعا ، وإنما سموا القرابة كلالة لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم ، بخلاف الابن والأب فإنهما طرفان له ، فإذا ذهب تكلمه النسب ؛ وقيل إن الكلالة مأخوذة من الكلال وهو الإعياء فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد وإعياء . وقال ابن الأعرابى : إن الكلالة بنو العم الأبعد . وبالجملة فنقرأ (يورث كلالة) بكسر الراء مشددة وهو بعض الكوفيين أو مخففة ، وهو الحسن وأيوب جعل الكلالة القرابة ومن قرأ (يورث) بفتح الراء وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلالة الميت ، واحتمل أن يكون القرابة . وقد روى عن على وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس والشعبى أن الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة . قال الطبرى : الصواب أن الكلالة هم الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده ، لصحة خبر جابر « فقلت : يا رسول الله إنما يرثني كلالة أفأوصى بمالى كله ؟ قال لا » انتهى . وروى عن عطاء أنه قال : الكلالة المال . قال ابن العربى وهذا قول ضعيف لا وجه له . وقال صاحب الكشف : إن الكلالة تنطلق على ثلاثة : على من لم يخلف ولدا ولا ولدا ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين ، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد انتهى . قوله (أو امرأة) معطوف على رجل مقيد بما قيد به : أى أو امرأة تورث كلالة . قوله (وله أخ أو أخت) قرأ سعد بن أبى وقاص من أم ، وسيأتى ذكر من أخرج ذلك عنه . قال القرطبى : أجمع العلماء أن الإخوة هاهنا هم الإخوة لأم قال :

ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم أو للأب ليس ميراثهم هكذا ، فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في قوله تعالى (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) هم الإخوة لأبوين أو لأب ، وأفراد الضمير في قوله (وله أخ أو أخت) لأن المراد كل واحد منهما كما جرت بذلك عادة العرب إذا ذكروا اسمين مستويين في الحكم فإنهم قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفردا كما في قوله تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة - وقوله - يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - . وقد يذكرونه مثني كما في قوله - إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما - . وقد قدمنا في هذا كلاما أطول من المذكور هنا . قوله (فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) الإشارة بقوله « من ذلك » إلى قوله (وله أخ أو أخت) أى أكثر من الأخ المفرد أو الأخت المفردة بواحد ، وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعدا ، ذكرين أو أنثيين أو ذكرا وأنثى . وقد استدلل بذلك على أن الذكر كالأنثى من الإخوة لأم ، لأن الله شرك بينهم في الثلث ، ولم يذكر فضل الذكر على الأنثى كما ذكره في البنين والإخوة لأبوين أو لأب . قال القرطبي : وهذا إجماع . ودلت الآية على أن الإخوة لأم إذا استكملتم بهم المسئلة كانوا أقدم من الإخوة لأبوين أو لأب ، وذلك في المسئلة المسماة بالحمارية ، وهى إذا تركت الميتة زوجا وأما وأخوين لأم وإخوة لأبوين ، فإن للزوج النصف وللأم السدس وللأخوين لأم الثلث ولا شيء للإخوة لأبوين . ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذى يرث عنده الإخوة من الأم وهو كون الميت كلاله ، ويؤيد هذا حديث « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فلاولى رجل ذكر » وهو فى الصحيحين وغيرهما وقد قررنا دلالة الآية والحديث على ذلك فى الرسالة التى سميناها « المباحث الدرية فى المسئلة الحمارية » . وفى هذه المسئلة خلاف بين الصحابة فمن بعدهم معروف . قوله (من بعد وصية يوصى بها أو دين) الكلام فيه كما تقدم . قوله (غير مضار) أى يوصى حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الضرار ، كأن يقر بشيء ليس عليه أو يوصى بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة . أو يوصى لوارث مطلقا أو لغيره بزيادة على الثلث ولم تجزه الورثة ، وهذا القيد أعنى قوله (غير مضار) راجع إلى الوصية والدين المذكورين فهو قيد لهما ، فما صدر من الإقرارات بالديون أو الوصايا المنهى عنها له ، أو التى لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء ، لا الثلث ولا دونه . قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز انتهى . وهذا القيد أعنى عدم الضرار هو قيد لجميع ما تقدم من الوصية والدين . قال أبو السعود فى تفسيره : وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم . قوله (وصية من الله) نصب على المصدر : أى يوصيكم بذلك وصية من الله كقوله - فريضة من الله - قال ابن عطية : ويصح أن يعمل فيها مضار . والمعنى : أن يقع الضرر بها أو بسببها فأوقع عليها تجوزا ، فتكون وصية على هذا مفعولا بها ، لأن الأسم الفاعل قد اعتمد على ذى الحال أول كونه منفيا معنى ، وقرأ الحسن (وصية من الله) بالجر على إضافة اسم الفاعل إليها كقوله ياسارق اليلة أهل الدار . وفى كون هذه الوصية من الله سبحانه دليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة . الفرائض ، وأن كل وصية من عباده تخالفها فهى مسبوقه بوصية الله ، وذلك كالوصايا المتضمنة لتفضيل بعض الورثة على بعض أو المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه ، والإشارة بقوله (تلك) إلى الأحكام المتقدمة وسماها حدودا لكونها لا تجوز مجاوزتها ولا يحل تعديلها (ومن يطع الله ورسوله) فى قسمة الموارث وغيرها من الأحكام الشرعية كما يفيد عموم اللفظ (ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار) وهكذا قوله (ومن يعص الله ورسوله) قرأ نافع وابن عامر (ندخله) بالنون . وقرأ الباقون بالياء التحتية . قوله (وله عذاب مهين) أى وله بعد إدخاله النار عذاب لا يعرف كنهه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر قال : عادنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : ماتأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله ؟ فنزلت . وقد قدّمنا أن سبب النزول سؤال امرأة سعد بن الربيع . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ولا الضعفاء من الغلمان ، لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال . فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها أم كحة وترك خمس جوار ، فأخذ الورثة ماله ، فشكت ذلك أم كحة إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله هذه الآية (فإن كنّ نساء فوق اثنتين) ثم قال فى أم كحة (ولهنّ الربع مما تركتم) . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود قال : كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقا فاتبعناه وجدناه سهلا ، وأنه سئل عن امرأة وأبوين فقال للمرأة الربع ، وللأم ثلث ما بقى ، وما بقى فللأب . وأخرج عبد الرزاق والبيهقى عن زيد بن ثابت نحوه . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لا يرثان الأم عن الثلث . قال الله (فإن كان له إخوة) والأخوان ليسا بلسان قومك إخوة ، فقال عثمان : لا أستطيع أن أرد ما كان قبلى ومضى فى الأمصار وتوارث به الناس . وأخرج الحاكم والبيهقى فى سننه عن زيد بن ثابت أنه قال : إن العرب تسمى الأخوين إخوة . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن الجارود والدارقطنى والبيهقى فى سننه عن على قال : إنكم تقرءون هذه الآية (من بعد وصية يوصى بها أودين) وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالدين قبل الوصية ، وأن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) يقول : أطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة ، لأن الله سبحانه شفع المؤمنين بعضهم فى بعض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (أقرب لكم نفعا) قال : فى الدنيا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والدارمى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص أنه كان يقرأ (وله أخ وأخت من أم) . وأخرج البيهقى عن الشعبي قال : ماورث أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم الإخوة من الأم مع الجدة شيئا قط . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال : قضى عمر أن ميراث الإخوة لأم بينهم للذكر مثل الأنثى ، قال : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول الله ، ولهذا الآية التى قال الله (فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس قال : الإضرار فى الوصية من الكبائر ، ثم قرأ (غير مضار) . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عنه مرفوعا . وفى إسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصى . قال أبو القاسم بن عساكر : ويعرف بمفتى المساكين ، وروى عنه غير واحد من الأئمة ، قال فيه أبو حاتم الرازى : هو شيخ . قال وعلى ابن المدنى : هو مجهول لأعرفه . قال ابن جرير : والصحيح الموقوف انتهى . ورجال إسناده هذا الموقوف رجال الصحيح ، فإن النسائى رواه فى سننه عن على بن حجر عن على بن مسهر عن داود بن أبى هند عن عكرمة عنه . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه واللفظ له والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (تلك حدود الله) إلى قوله (عذاب مهين) وفى إسناده

شهر بن حوشب ، وفيه مقال معروف . وأخرج ابن ماجه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة » . وأخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة مرفوعا . وأخرجه ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور عن سليمان بن موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكر نحوه . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص « أن النبي صلى الله عليه وآله قال : قال له وسلم أتاه يعود في مرضه فقال : إن لي مالا كثيرا وليس يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بالثلثين ؟ فقال لا ، قال فالشطر ؟ قال لا ، قال فالثلث ؟ قال الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس » . وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل قال : إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم : يعني الوصية . وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : وددت أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « الثلث كثير » . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : ذكر عند عمر الثلث في الوصية فقال : الثلث وسط لا بخس ولا شطط . وأخرج ابن أبي شيبة عن علي قال : لأن أوصي بالخمسة أحب إليّ من أن أوصي بالربع ، ولأن أوصي بالربع أحب إليّ من أن أوصي بالثلث ، ومن أوصي بالثلث لم يترك .

[فائدة] ورد في الترغيب في تعلم الفرائض وتعليمها ما أخرجه الحاكم والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تعلموا الفرائض وعلّموه الناس ، فإنّ امرؤ مقبوض ، وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يقضى بها » . وأخرجاه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تعلموا الفرائض وعلّموه ، فإنه نصف العلم ، وإنه ينسى ، وهو أول ما ينزع من أمتي » . وقد روى عن عمر وابن مسعود وأنس آثار في الترغيب في الفرائض ، وكذلك روى عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفُحْشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَالَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) .

لما ذكر سبحانه في هذه السورة الإحسان إلى النساء وإيصال صدقاتهن إليهن وميراثهن مع الرجال ، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف (واللاتي) جمع التي بحسب المعنى

دون اللفظ ، وفيه لغات : اللاتي بإثبات التاء والياء ، واللوات بحذف الياء وإبقاء الكسرة لتدل عليها ، واللاتي بالهمزة والياء ، واللوات بكسر الهمزة وحذف الياء ، ويقال في جمع الجمع اللواتي واللواتي واللوات واللوات . والفاحشة : الفعلة القبيحة ، وهي مصدر كالعافية والعاقبة ، وقرأ ابن مسعود (بالفاحشة) . والمراد بها هنا الزنا خاصة ، وإتيانها فعلها ومباشرتها . والمراد بقوله (من نسائكم) المسلمات ، وكذا (منكم) المراد به المسلمون . قوله (فأمسكوهن في البيوت) كان هذا في أول الإسلام ثم نسخ بقوله تعالى - الزانية والزاني فاجلدوا - ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المذكور وكذلك الأذى باقيا مع الجلد ، لأنه لا تعارض بينهما بل الجمع ممكن . قوله (أويجعل الله هن سبيلا) هو ما في حديث عبادة الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « خذوا عني قد جعل الله هن سبيلا » ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » الحديث . قوله (واللذان يأتياها منكم) اللذان تثنية الذي ، وكان القياس أن يقال اللذان كرحيان : قال سيويه : حذفت الياء ليفرق بين الأسماء الممكنة وبين الأسماء المبهمة . وقال أبو علي : حذفت الياء تخفيفا . وقرأ ابن كثير (اللذان) بتشديد النون وهي لغة قريش ، وفيه لغة أخرى وهي (اللذان) بحذف النون . وقرأ الباقر بتخفيف النون . قال سيويه : المعنى وفيما يتلى عليكم اللذان يأتياها : أي الفاحشة منكم ، ودخلت الفاء في الجواب لأن في الكلام معنى الشرط . والمراد باللذان هنا الزاني والزانية تغليبا ؛ وقيل الآية الأولى في النساء خاصة محصنات وغير محصنات ، والثانية في الرجال خاصة وجاء بلفظ التثنية لبيان صنف الرجال من أحصن ومن لم يحصن فعقوبة النساء الحبس وعقوبة الرجال الأذى واختار هذا النحاس ورواه عن ابن عباس ورواه القرطبي عن مجاهد وغيره واستحسنه . وقال السدي وقتادة وغيرهما الآية الأولى في النساء المحصنات ويدخل معهن الرجال المحصنون ، والآية الثانية في الرجل والمرأة البكرين ، ورجحه الطبري وضعفه النحاس وقال : تغليب المؤنث على المذكر بعيد . وقال ابن عطية : إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه ؛ وقيل كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل فخصت المرأة بالذكر في الإمساك ثم جمعا في الإيذاء قال قتادة : كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعا . واختلف المفسرون في تفسير الأذى ، فقيل التوبيخ والتعير ؛ وقيل السب والحقاء من دون تعير ؛ وقيل النيل باللسان والضرب بالنعال ، وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ كالحبس ؛ وقيل ليس بمنسوخ كما تقدم في الحبس . قوله (فإن تابا) أي من الفاحشة (وأصلحا) العمل فيما بعد (فأعرضوا عنهما) أي اتركوهما وكفوا عنهما الأذى ، وهذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدم من الخلاف . قوله (إنما التوبة على الله) استئناف لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق كما ينبيء عنه قوله (توابا رحما) بل إنما تقبل من البعض دون البعض كما بينه النظم القرآني ها هنا ، فقوله (إنما التوبة) مبتدأ خبره قوله (للذين يعملون السوء بجهالة) . وقوله (على الله) متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا عند من يجوز تقديم الحال التي هي ظرف على عاملها المعنوي ؛ وقيل المعنى : إنما التوبة على فضل الله ورحمته بعباده ؛ وقيل المعنى : إنما التوبة واجبة على الله ، وهذا على مذهب المعتزلة لأنهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جملتها قبول توبة التائبين ؛ وقيل على هنا بمعنى عند ؛ وقيل بمعنى من .

وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون - وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافا للمعتزلة ؛ وقيل إن قوله (على الله) هو الخبر . وقوله (للذين يعملون) متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا . والسوء هنا : العمل السيئ . وقوله (بجهالة) متعلق بمحذوف وقع صفة أو حالا : أي يعملونها متصفين بالجهالة أو جاهلين . وقد حكى القرطبي عن قتادة أنه قال :

أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن كل معصية فهي بجهالة عمدا كانت أو جهلا . وحكى عن الضحاك ومجاهد أن الجهالة هنا العمد وقال عكرمة : أمور الدنيا كلها جهالة ، ومنه قوله تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - وقال الزجاج : معناه بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ؛ وقيل معناه : أنهم لا يعلمون كنه العقوبة ، ذكره ابن فورك وضعفه ابن عطية . قوله (ثم يتوبون من قريب) معناه قبل أن يحضرهم الموت كما يدل عليه قوله (حتى إذا حضر أحدهم الموت) وبه قال أبو مجلز والضحاك وعكرمة وغيرهم ، والمراد قبل المعاينة للملائكة وغلبة المرء على نفسه ، و« من » في قوله (من قريب) للتبعض : أى يتوبون بعض زمان قريب ، وهو ما عدا وقت حضور الموت ؛ وقيل معناه قبل المرض ، وهو ضعيف ، بل باطل لما قدمنا ، ولما أخرجه أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وقيل معناه : يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار . قوله (فأولئك يتوب الله عليهم) هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم بعد بيانه أن التوبة لهم مقصورة عليهم . وقوله (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب قوله (حتى إذا حضر أحدهم الموت) حتى حرف ابتداء ، والجملة المذكورة بعدها غاية لما قبلها ، وحضور الموت حضور علاماته وبلوغ المريض إلى حالة السياق ومصيره مغلوبا على نفسه مشغولا بخروجها من بدنه ، وهو وقت الغرغرة المذكورة في الحديث السابق ، وهى بلوغ روحه حلقومه ، قاله الهروى . وقوله (قال إني تبت الآن) أى وقت حضور الموت . قوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) معطوف على الموصول في قوله (للذين يعملون السيئات) أى ليست التوبة لأولئك ولا للذين يموتون وهم كفار مع أنه لا توبة لهم رأسا ، وإنما ذكروا مبالغة في بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت ، وأن وجودها كعدمها .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى عن ابن عباس في قوله (واللاقى يأتين الفاحشة) قال كانت المرأة إذا فجرت حبست في البيوت ، فإن ماتت ماتت وإن عاشت عاشت ، حتى نزلت الآية في سورة النور - الزانية والزانى فاجلدوا - فجعل الله لهن سبيلا . فمن عمل شيئا جلد وأرسل ، وقد روى هذا عنه من وجوه وأخرج أبو داود في سننه عنه والبيهقى في قوله (واللاقى يأتين الفاحشة من نسائكم) إلى قوله (سبيلا) ثم جمعها جميعا ، فقال (واللذان يأتيانها منكم فأذوهما) ثم نسخ ذلك بآية الجلد ، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين ، أخرجه أبو داود والبيهقى عن مجاهد وأخرجه عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، وأخرجه البيهقى في سننه عن الحسن ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، وأخرجه ابن جرير عن السدى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في سننه عن ابن عباس في قوله (واللذان يأتيانها منكم) قال : كان الرجل إذا زنا أودى بالتعير وضرب بالنعال ، فأنزل الله بعد هذه الآية - الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة - فإن كانا محصنين رجما في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (واللذان يأتيانها منكم) قال : الرجلان الفاعلان . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير (واللذان يأتيانها منكم) يعنى البكرين . وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : الرجل والمرأة وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله - إنما التوبة على الله - الآية قال : هذه للمؤمنين وفى قوله (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) قال : هذه لأهل النفاق (ولا الذين يموتون وهم كفار) قال : هذه لأهل الشرك . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال : اجتمع

أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فرأوا أن كل شيء عصى به فهو جهالة عمدا كان أو غيره. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي العالية أن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة . وأخرج ابن جرير من طريق الكلبي عن أبي عن صالح عن ابن عباس في قوله (إنما التوبة على الله) الآية ، قال : من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء (ثم يتوبون من قريب) قال : في الحياة والصحة وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : القريب ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في الشعب عن الضحاك قال : كل شيء قبل الموت فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت فليس له ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : القريب : مالم يغرغر . وقد وردت أحاديث كثيرة في قبول توبة العبد مالم يغرغر ، ذكرها ابن كثير في تفسيره ، ومنها الحديث الذي قدّمنا ذكره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِخْدِيَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذْنَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

هذا متصل بما تقدم من ذكر الزوجات والمقصود نفي الظلم عنهن ، والخطاب للأولياء ، ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها ، وهو ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجها وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت . وفي لفظ لأبي داود عنه في هذه الآية : كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى يموت أو ترد إليه صداقها . وفي لفظ لابن جرير وابن أبي حاتم عنه : فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها . وقد روى هذا السبب بالفاظ ، فعنى قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) أي لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم وتحبسونهن لأنفسكم (ولا) يحل لكم أن (تعضلوهن) عن أن يتزوجن غيركم لتأخذوا ميراثهن إذا متن ، أوليدفعن إليكم صداقهن إذا أذنتم لهن بالنكاح . قال الزهري وأبو مجلز : كان من عاداتهم إذا مات الرجل وله زوجة ألى ابنه من غيرها أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت فيرثها ، فنزلت الآية . وقيل الخطاب لأزواج النساء إذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعا في إرثهن ، أو يفتدين ببعض مهورهن واختاره ابن عطية . قال : ودليل ذلك قوله (إلا أن يأتين بفاحشة)

إذا أنت بفاحشة فليس للولي حبسها حتى تذهب بمالها إجماعاً من الأمة ، وإنما ذلك للزوج . قال الحسن : إذا زنت البكر فإنها تجلد مائة وتنفي وترد إلى زوجها مأخذت منه . وقال أبو قلابة : إذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتى تفتدى منه . وقال السدي : إذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن . وقال قوم : الفاحشة البذاء باللسان ، وسوء العشرة قولاً وفعلاً . وقال مالك وجماعة من أهل العلم : للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ممتلكات . هذا كله على أن الخطاب في قوله (ولا تعضلوهن) للأزواج ، وقد عرفت مما قدمنا في سبب النزول أن الخطاب في قوله (ولا تعضلوهن) لمن خوطب بقوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) فيكون المعنى : ولا يحل لكم أن تمنعنهم من الزواج (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أي ما آتاهن من ترثونه (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) جاز لكم حبسهن عن الأزواج ، ولا يخفى ما في هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تزوج وتستعف من الزنا ، وكما أن جعل قوله (ولا تعضلوهن) خطاباً للأولياء فيه هذا التعسف ، كذلك جعل قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) خطاباً للأزواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته لسبب نزول الآية "أي ذكرناه ، والأولى أن يقال إن الخطاب في قوله (لا يحل لكم) للمسلمين : أي لا يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرها كما كانت تفعله الجاهلية ، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم : أي تحبسوهن عندكم مع عدم رغوبكم فيهن ، بل لقد صد أن تذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم ، وفي عقدتكم مع كراهتكم لهن (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) جاز لكم مخالفتن ببعض ما آتيتموهن . قوله (مبينة) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وحزرة والكسائي بكسر الباء . وقرأ الباقر بفتحها . وقرأ ابن عباس (مبينة) بكسر الباء وسكون الباء من أبان الشيء فهو مبين . قوله (وعاشروهن بالمعروف) أي بما هو معروف في هذه الشريعة وبين أهلها من حسن المعاشرة ، وهو خطاب للأزواج أو لما هو أعم ، وذلك يختلف باختلاف الأزواج في الغنى والفقر والرعاية والوضاعة (فإن كرهتموهن) لسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة ولا نشوز (فعسى) أن يثول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة وتبليها بالحبة ، فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصحبة وحصول الأولاد ، فيكون الجزاء على هذا مخدوماً مدلولاً عليه بعلته : أي فإن كرهتموهن فاصبروا (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) . قوله (وآتيتم إحداهن قطاراً) قد تقدم بيانه في آل عمران والمراد به هنا المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئاً . قيل هي محكمة ؛ وقيل هي منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة - ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافوا ألا يقبوا حدود الله - والأولى أن الكل محكم والمراد هنا غير المختلعة لا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاه شيئاً . قوله (أن تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) الاستفهام الإنكار والتقرير . والجملة مقررلة للجملة الأولى المشتملة على النهي . وقوله (وكيف تأخذونه) إنكار بعد إنكار مشتمل على العلة التي تقتضي منع الأخذ : وهي الإفضاء . قال الهروي : وهو إذا كانا في لحاف واحد جامع أو لم يجامع ، وقال الفراء : الإفضاء أن يخلو الرجل والمرأة وإن لم يجامعا . وقال ابن عباس ومجاهد والسدي : الإفضاء في هذه الآية : الجماع ، وأصل الإفضاء في اللغة المخالطة ، يقال للشيء المختلط فضاء ، ويقال القوم فوضى وفضاء : أي مختلطون لا أمير عليهم . قوله (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) معطوف على الجملة التي قبله : أي والحال أن قد أفضى بعضكم إلى بعض ، وقد أخذن منكم ميثاقاً غليظاً وهو عقد النكاح ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله » وقيل هو قوله تعالى - فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان - وقيل هو الأولاد . قوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم إذا ماتوا ، وهو شروع في بيان من

يحرم نكاحه من النساء ومن لا يحرم . ثم بين سبحانه وجه النهي عنه فقال (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سيلا) هذه الصفات الثلاث تدل على أنه من أشد المحرمات وأقبحها ، وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت . قال ثعلب : سألت ابن الأعرابي عن نكاح المقت فقال : هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ، ويقال لهذا الضيزم ، وأصل المقت البغض ، من مقتته بمقتته مقتا فهو ممقوت ومقيت . قوله (إلا ما قد سلف) هو استثناء منقطع أى لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه ؛ وقيل إلا بمعنى بعد : أى بعد ما سلف ؛ وقيل المعنى ولا ما سلف ؛ وقيل هو استثناء متصل من قوله (ما نكح آبائكم) يفيد المبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعلق بالمحال : يعنى إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوا ، فلا يحل لكم غيره . قوله (وساء سيلا) هى جارية مجرى بثس في الذم والعمل ، والمخصوص بالذم مخذوف : أى ساء سيلا سليل ذلك النكاح ؛ وقيل إنها جارية مجرى سائر الأفعال ، وفيها ضمير يعود إلى ما قبلها .

وقد أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته ، وقد كان لهم ذلك في الجاهلية ، فأنزل الله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في كيشة بنت معمر بن معن بن عاصم من الأوس كانت عند أبي قيس بن الأسلت ، فتوفى عنها فجنى عليها ابنه ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت لا أنا ورثت زوجي ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن اليلمانى في قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن) قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية ، والأخرى في أمر الإسلام . قال ابن المبارك (أن ترثوا النساء كرها) في الجاهلية ، ولا تعضلوهن في الإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (ولا تعضلوهن) قال : لاتضر بامرأتك لتفتدى منك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد (ولا تعضلوهن) يعنى أن ينكحن أزواجهن كالعضل في سورة البقرة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كان العضل في قريش بمكة : ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لاتوافق فيفارقه على أن لاتزوج إلا بإذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها ، وقد قدمنا عن ابن عباس في بيان السبب ما عرفت . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال : البغض والنشوز ، فإذا فعلت ذلك فقد حل له منها الفدية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن الضحاك نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال الفاحشة هنا الزنا . وأخرج ابن جرير عن أبي قلابة وابن سيرين نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى في قوله (وعاشروهن بالمعروف) قال : خالطوهن . قال ابن جرير : صحفه بعض الرواة وإنما هو خالقوهن . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال حقها عليك الصحبة الحسنة والكسوة والرزق المعروف . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل (وعاشروهن بالمعروف) يعنى صحبتن بالمعروف (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا) فيطلقها فتزوج من بعده رجلا فيجعل الله له منها ولدا ويجعل الله في تزويجها خيرا كثيرا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الخير الكثير أن يعطف عليها فترزق ولدها ويجعل الله في ولدها خيرا كثيرا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه ماقال مقاتل . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإن أردتم استبدال زوج) الآية ، قال : إن كرهت امرأتك وأعجبك غيرها فطلقت هذه وتزوجت تلك فأعط هذه مهرها وإن كان قنطارا . وأخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى . قال السيوطى بسند

جيد : أن عمر نهى الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمئة درهم ، فاعترضت له امرأة من قريش فقالت : أما سمعت ما أنزل الله يقول (وآتيتكم إحداهن قنطارا) فقال : اللهم غفرا كل الناس أوفقه من عمر ، فركب المنبر فقال : يا أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمئة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل . قال ابن كثير : إسناده جيد قوى ، وقد رويت هذه القصة بالفاظ مختلفة ، هذا أحدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الإفضاء هو الجماع ، ولكن الله يكتى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال : الغليظ : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه وقال : وقد كان ذلك يؤخذ عند عقد النكاح : الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن أبي مليكة أن ابن عمر كان إذا نكح قال : أنكحتك على ما أمر الله به ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس بن مالك نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة ومجاهد في قوله (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال : أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو قول الرجل ملكت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كلمة النكاح التي تستحل بها فروجهن . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه في قوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) أنها نزلت لما أراد ابن أبي قيس بن الأسلت أن يتزوج امرأة أبيه بعد موته . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك (إلا ما كان في الجاهلية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن البراء قال : أقيت خالي ومعه الراية قلت : أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده ، فأمرني أن أضرب عنقه وأخذ ماله .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا
مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ
الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا
عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨).

قوله (حرمت عليكم أمهاتكم) أى نكاحهن ، وقد بين الله سبحانه في هذه الآية ما يحل وما يحرم من النساء
فحرم سبعا من النسب ، وستا من الرضاع والصهر ، وألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبين
المرأة وخالتها ، ووقع عليه الإجماع . فالسبع المحرمات من النسب الأمهات والبنات والأخوات والعمتات والخاللات
وبنات الأخ وبنات الأخت . والمحرمات بالصهر والرضاع : الأمهات من الرضاغة والأخوات من الرضاغة وأمهات
النساء والربائب وحلائل الأبناء والجمع بين الأختين ، فهو لاء ست ، والسابعة منكوحات الآباء ، والثامنة الجمع
بين المرأة وعمتها . قال الطحاوى : وكل هذا من المحكم المتفق عليه ، وغير جائز نكاح واحدة منهن بالإجماع إلا
أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن ، فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة ،
ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم . وقال بعض السلف : الأم والربيبة سواء لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول
بالأخرى . قالوا : ومعنى قوله (وأمهات نسائكم) أى اللاتي دخلتم بهن ، وزعموا أن قيد الدخول راجع إلى
الأمهات والربائب جميعا ، رواه خلاص عن علي بن أبي طالب . وروى عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت
وابن الزبير ومجاهد ، قال القرطبي : ورواية خلاص عن علي لا تقوم بها حجة ، ولا تصح روايته عند أهل
الحديث ، والصحيح عنه مثل قول الجماعة . وقد أجيب عن قولهم إن قيد الدخول راجع إلى الأمهات والربائب
بأن ذلك لا يجوز من جهة الإعراب ، ويؤيده أن الخبرين إذا اختلفا في العامل لم يكن نعتهما واحدا ، فلا يجوز عند
النحويين مررت بنسائك وهويت نساء زيد الظاريفات ، على أن يكون الظاريفات نعتا للجميع ، فكذلك في الآية
لا يجوز أن يكون اللاتي دخلتم بهن نعتا لهما جميعا ، لأن الخبرين مختلفان . قال ابن المنذر : والصحيح قول الجمهور
لدخول جميع أمهات النساء في قوله (وأمهات نسائكم) . ومما يدل على ما ذهب إليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق
وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم قال « إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنة أولم يدخل ، وإذا
تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها ، فإن شاء تزوج الابنة » قال ابن كثير في تفسيره مستدلا للجمهور : وقد روى في
ذلك خبر غير أن في إسناده نظرا ، فذكر هذا الحديث ثم قال ، وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه ، فإن إجماع
الحجة على صحة القول به يغني عن الاستشهاد على صحته بغيره ، قال في الكشف : وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات
النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى انتهى . ودعوى الإجماع مدفوعة بخلاف من تقدم .

واعلم أنه يدخل في لفظ الأمهات أمهاتهن وجداتهن وأم الأب وجدته وإن علون ، لأن كلهن أمهات لمن ولده من ولدته وإن سفل . ويدخل في لفظ البنات بنات الأولاد وإن سفلن ، والأخوات تصدق على الأخت لأبوين أو لأحدهما ، والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك في أصلية أو أحدهما . وقد تكون العمة من جهة الأم وهي أخت أب الأم . والحالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصلية أو في أحدهما ، وقد تكون الحالة من جهة الأب وهي أخت أم أبيك ، وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة ومباشرة وإن بعدت ، وكذلك بنت الأخت . قوله (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم) هذا مطلق مقيد بما ورد في السنة من كون الرضاع في الحولين إلا في مثل قصة إرضاع سالم مولى أبي حذيفة ، وظاهر النظم القرآني أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع لغة وشرعا ، ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات في أحاديث صحيحة ، والبحث عن تقرير ذلك وتحقيقه يطول ، وقد استوفيتاه في مضافاتنا وقررنا ما هو الحق في كثير من مباحث الرضاع . قوله (وأخواتكم من الرضاعة) الأخت من الرضاع هي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة والأخوات ، والأخت من الأم هي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر . قوله (وأمهات نسائكم) قد تقدم الكلام على اعتبار الدخول وعلمه . والمحرمات بالمصاهرة أربع : أم المرأة وابنتها وزوجة الأب وزوجة الابن . قوله (وربائبكم) الربيبة بنت امرأة الرجل من غيره ؛ سميت بذلك لأنه يربيه في حجره فهي مربوبة فعيلة بمعنى مفعولة . قال القرطبي : واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم وإن لم تكن الربيبة في حجره ، وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر ، فقالوا : لا تحرم الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج ، فلو كانت في بلد آخر وفارق الأم فله أن يتزوج بها ، وقد روى ذلك عن علي . قال ابن المنذر والطحاوي : لم يثبت ذلك عن علي لأن راويه إبراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي ، وإبراهيم هذا لا يعرف . وقال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا عن علي : وهذا إسناد قوى ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم . والحجور جمع حجر . والمراد أنهن في حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن كما هو الغالب . وقيل المراد بالحجور البيوت : أي في بيوتكم ، حكاه الأثرم عن أبي عبيدة . قوله (فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) أي في نكاح الربائب ، وهو تصريح بما دل عليه مفهوم ما قبله .

وقد اختلف أهل العلم في معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب : فروى عن ابن عباس أنه قال : الدخول الجماع وهو قول طاوس وعمر بن دينار وغيرهما . وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث والزيدي : إن الزوج إذا لمس الأم لشهوة حرمت عليه ابنتها وهو أحد قولي الشافعي . قال ابن جرير الطبري : وفي إجماع الجميع أن خلوة الرجل بامرأته لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها لشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع انتهى . وهكذا حكى الإجماع القرطبي فقال : وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها . واختلفوا في النظر ، فقال مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها وابنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة ، وكذا قال الثوري ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبي ليلى : لا تحرم بالنظر حتى يلمس ، وهو قول الشافعي . والذي ينبغي التعويل عليه في مثل هذا الخلاف هو النظر في معنى الدخول شرعا أولغة ، فإن كان خاصا بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما ، وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك . وأما الربيبة في ملك اليمين فقد

روى عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك . وقال ابن عباس : أحلتها آية وحرمتها آية ولم أكن لأفعله . وقال ابن عبد البر : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين لأن الله حرم ذلك في النكاح قال (وأمهات نسائكم وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم) وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روى عن عمر وابن عباس ، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم انتهى . قوله (وحلائل أبنائكم) الحلائل : جمع حليلة وهي الزوجة ؛ سميت بذلك لأنها تحل مع الزوج حيث حل فهي فعيلة بمعنى فاعلة . وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال فهي حليلة بمعنى محللة . وقيل لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه . وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء أو لم يكن ، لقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) وقوله (وحلائل أبنائكم) .

واختلف الفقهاء في العقد إذا كان فاسدا هل يقتضى التحريم أم لا ؟ كما هو مبين في كتب الفروع . قال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده . وأجمع العلماء على أن عقد الشراء على الحارية لا يحرمها على أبيه وابنه ، فإذا اشترى جارية فلمس أو قبل حرمت على أبيه وابنه لا أعلمهم يختلفون فيه ، فوجب تحريم ذلك تسليما لهم . ولما اختلفوا في تحريمها بالنظر دون اللمس لم يحز ذلك لاختلافهم قال : ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلاف ما قلناه . قوله (الذين من أصلابكم) وصف للأبناء : أى دون من تبنيتم من أولاد غيركم كما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، ومنه قوله تعالى - فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا - ومنه قوله تعالى - وما جعل أدعياءكم أبناءكم - ومنه - ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وأما زوجة الابن من الرضاع فقد ذهب الجمهور إلى أنها تحرم على أبيه ، وقد قيل إنه إجماع مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب . ووجهه ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ولا خلاف أن أولاد الأولاد وإن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب في تحريم نكاح نسائهم على آبائهم . وقد اختلف أهل العلم في وطء الزنا هل يقتضى التحريم أم لا ؟ فقال أكثر أهل العلم : إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك ، وكذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنا بأمرها أو بابنتها ، وحسبه أن يقام عليه الحد ، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأمر من زنى بها وبابنتها . وقالت طائفة من أهل العلم : إن الزنا يقتضى التحريم . حكى ذلك عن عمران بن حصين والشعبي وعطاء والحسن وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي ، وحكى ذلك عن مالك ، والصحيح عنه كقول الجمهور . احتج الجمهور بقوله تعالى (وأمهات نسائكم) وبقوله (وحلائل أبنائكم) والموطوءة بالزنا لا يصدق عليها أنها من نسائهم ولا من حلائل أبنائهم .

وقد أخرج الدارقطني عن عائشة قالت « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوجها أو ابنتها ، فقال : لا يحرم الحرام الحلال » . واحتج المحرمون بما روى في قصة جريج الثابتة في الصحيح أنه قال : يا غلام من أبوك ؟ فقال : فلان الراعى ، فنسب الابن نفسه إلى أبيه من الزنا ، وهذا احتجاج ساقط ، واحتجوا أيضا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وابنتها ولم يفصل بين الحلال والحرام » . ويجاب عنه بأن هذا مطلق مقيد بما ورد من الأدلة الدالة على أن الحرام لا يحرم الحلال .

واختلفوا في اللواط هل يقتضى التحريم أم لا ؟ فقال الله رى : إذا لاط بالصبي حرمت عليه أمه ، وهو قول أحمد بن حنبل قال : إذا تلوط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته . وقال الأوزاعي : إذا لاط بغلام

وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها لأنها بنت من قد دخل به . ولا يخفى ما في قول هؤلاء من الضعف والسقوط النازل عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضى التحريم بدرجات لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم . قوله (وأن تجمعوا بين الأختين) أى وحرّم عليكم أن تجمعوا بين الأختين فهو في محل رفع عطفا على المحرمات السابقة ، وهو يشمل الجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين . وقيل إن الآية خاصة بالجمع في النكاح لا في ملك اليمين ، وأما في الوطء بالملك فلا حق بالنكاح ، وقد أجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد نكاح .

واختلفوا في الأختين بملك اليمين ، فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما في الوطء بالملك ، وأجمعوا على أنه يجوز الجمع بينهما في الملك فقط . وقد توقف بعض السلف في الجمع بين الأختين في الوطء بالملك ، وسيأتى بيان ذلك . واختلفوا في جواز عقد النكاح على أخت الجارية التي توطأ بالملك . فقال الأوزاعي : إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها . وقال الشافعي : ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت . وقد ذهبت الظاهرية إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما يجوز الجمع بينهما في الملك . قال ابن عبد البر بعد أن ذكر ما روى عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين في الوطء بالملك : وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ، ولكنهم اختلف عليهم ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءها من المشرق ولا بالشام ولا المغرب إلا من شذّ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس . وقد ترك من تعمد ذلك . وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما لا يحل ذلك في النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله (حرّم عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) إلى آخر الآية ، أن النكاح بملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء ، فكذلك يجب أن يكون قياسا ونظرا الجمع بين الأختين وأمّهات النساء والرّبائب ، وكذا هو عند جمهورهم ، وهى الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها ، والله المحمود انتهى .

وأقول : ها هنا إشكال ، وهو أنه قد تقرّر أن النكاح يقال على العقد فقط ، وعلى الوطء فقط ، والخلاف في كون أحدهما حقيقة والآخر مجازا ، أو كونهما حقيقتين معروف ، فإن حملنا هذا التحريم المذكور في هذه الآية وهى قوله (حرّم عليكم أمهاتكم) إلى آخرها ، على أن المراد تحريم العقد عليهن لم يكن في قوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين) دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين في الوطء بالملك ، وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله (حرّم عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) إلى آخره ، يستوى فيه الحرائر والإماء والعقد ، والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف ، وهو الجمع بين الأختين في الوطء بملك اليمين مثل محل الإجماع ، ومجرد القياس في مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض ، وإن حملنا التحريم المذكور في الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك للإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية إلى آخرها ، فلم يبق إلا حمل التحريم في الآية على تحريم عقد النكاح ، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين في الوطء بالملك إلى دليل ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور ، فالحق لا يعرف بالرجال ، فإن جاء به خالصا عن شوب الكدر فيها ونعمت ، وإلا كان الأصل الحل ، ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جمعا أعنى العقد والوطء ، لأنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع ، أو من باب الجمع بين معنيي المشترك ، وفيه الخلاف المعروف في الأصول فتدبر هذا .

وقد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل بطأ مملوكته بالملك ثم أراد أن يبطأ أختها بالملك ، فقال عليّ وابن عمر والحسن البصري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق : لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع أو عتق أو بأن يتزوجها . قال ابن المنذر : وفيه قول ثان لقتادة ، وهو أنه ينوى تحريم الأولى على

نفسه وأن لا يقربها ، ثم يمسك عنهما حتى تستبرئ المحرمة ثم يغشى الثانية . وفيه قول ثالث ، وهو أنه لا يقرب واحدة منهما ، هكذا قال الحكم وحماد . وروى معنى ذلك عن النخعي . وقال مالك : إذا كان عنده أختان بملك فله أن يطأ أيتهما شاء ، والكف عن الأخرى موكل إلى أمانته ، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله من إخراج عن الملك أو تزويج أو بيع أو عتق أو كتابة أو إعدام طويل ، فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما ولم يجوز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى ولم يوكل ذلك إلى أمانته لأنه منهم . قال القرطبي : وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضي عدة المطلقة . واختلفوا إذا طلقها طلاقاً لا يملك رجعتها ؛ فقالت طائفة : ليس له أن ينكح أختها ولا رابعة حتى تنقضي عدة التي طلق . روى ذلك عن علي بن زيد بن ثابت ومجاهد وعطاء والنخعي والثوري وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأي . وقالت طائفة : له أن ينكح أختها وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع وطلق واحدة منهن طلاقاً بائناً . روى ذلك عن سعيد بن المسيب والحسن والقاسم وعروة بن الزبير وابن أبي ليلى والشافعي وأبي ثور وأبي عبيد . قال ابن المنذر : ولا أحسبه إلا قول مالك . وهو أيضاً إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت وعطاء . قوله (إلا ما قد سلف) يحتمل أن يكون معناه معنى ما تقدم من قوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) ويحتمل معنى آخر ، وهو جواز ما سلف وأنه إذا جرى الجمع في الجاهلية كان النكاح صحيحاً ، وإذا جرى في الإسلام خير بين الأختين . والصواب الاحتمال الأول . قوله (والمحصنات من النساء) عطف على المحرمات المذكورات . وأصل التحصن التمتع ، ومنه قوله تعالى - لتحصنكم من بأسكم - أي لتمنعكم ، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . والحصان بفتح الحاء : المرأة العفيفة لمنعها نفسها ، ومنه قول حسان :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

والمصدر الحصانة بفتح الحاء . والمراد بالمحصنات هنا ذوات الأزواج . وقد ورد الإحصان في القرآن لمعان ، هذا أحدهما . والثاني يراد به الحرية ، ومنه قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) وقوله - والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم - . والثالث يراد به العفيفة ومنه قوله تعالى (محصنات غير مسافحات) ، (محصنين غير مسافحين) . والرابع المسلمة ، ومنه قوله تعالى (فإذا أحصن) .

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية ، أعنى قوله (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح) فقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأبو قلابة ومكحول والزهري : المراد بالمحصنات هنا : المسييات ذوات الأزواج خاصة ، أي هن محرمات عليكم إلا ما ملكت أيما نكح بالسبي من أرض الحرب ، فإن تلك حلال وإن كان لها زوج ، وهو قول الشافعي : أي أن السباء يقطع العصمة ، وبه قال ابن وهب وابن عبد الحكم وروياه عن مالك ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور . واختلفوا في استبرائها بماذا يكون ؟ كما هو مذكور في كتب الفروع . وقالت طائفة : المحصنات في هذه الآية العفاف ، وبه قال أبو العالية وعبيدة السلماني وطاوس وسعيد ابن جبير وعطاء ، ورواه عبيدة عن عمر . ومعنى الآية عندهم : كل النساء حرام إلا ما ملكت أيما نكح : أي تملكون عصمتهم بالنكاح وتلكون الرقبة بالشراء . وحكى ابن جرير الطبري أن رجلاً قال لسعيد بن جبير : أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئاً ؟ فقال : كان ابن عباس لا يعلمها . وروى ابن جرير أيضاً عن مجاهد أنه قال : لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل انتهى . ومعنى الآية والله أعلم واضح لا ستره به : أي وحرمت عليكم المحصنات من النساء : أي المزوجات أعم من أن يكن مسلمات أو كافرات إلا

ما ملكت أيمانكم منهن ، أما بسبي فلانها تحل ولو كانت ذات زوج ، أو بشراء فلانها تحل ولو كانت مزوجة ، وينفسخ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذي زوجها ، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية إن شاء الله ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقد قرئ « المحصنات » بفتح الصاد وكسرها ، فالفتح على أن الأزواج أحصنوهن ؛ والكسر على أنهن أحصن فزوجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن . قوله (كتاب الله عليكم) منصوب على المصدرية : أي كتب الله ذلك عليكم كتابا . وقال الزجاج والكوفيون : إنه منصوب على الإغراء : أي الزموا كتاب الله ، أو عليكم كتاب الله ، واعترضه أبو علي الفارسي بأن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب وهذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال : إنه منصوب بعلينكم المذكور في الآية ، وروى عن عبيدة السلماني أنه قال : إن قوله (كتاب الله عليكم) إشارة إلى قوله تعالى (مثني وثلاث ورباع) وهو بعيد بل هو إشارة إلى التحريم المذكور في قوله (حرمت عليكم) إلى آخر الآية . قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأحل على البناء للمجهول ، وقرأ الباقر على البناء للمعلوم عطفا على الفعل المقدّر في قوله (كتاب الله عليكم) وقيل على قوله (حرمت عليكم) ولا يقدح في ذلك اختلاف الفعلين ، وفيه دلالة على أنه يحل لهم نكاح ماسوي المذكورات ، وهذا عام مخصوص بما صرح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها . وقد أبعد من قال : إن تحريم الجمع بين المذكورات مأخوذ من الآية هذه لأنه حرّم الجمع بين الأختين ، فيكون مافي معناه في حكمه ، وهو الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ، وكذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرة كما سيأتي ، فإنه يخص هذا العموم . قوله (أن تبتغوا بأموالكم) في محل نصب على العلة : أي حرّم عليكم ما حرّم وأحل لكم ما أحل لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتي أحلهن الله لكم ولا تبتغوا بها الحرام فتذهب حال كونكم (محصنين) أي متعافين عن الزنا (غير مسافحين) أي غير زانين . والسفاح : الزنا وهو مأخوذ من سفح الماء : أي صبه وسيلانه ، فكأنه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح ، لأعلى وجه السفاح ؛ وقيل إن قوله (أن تبتغوا بأموالكم) بدل من « ما » في قوله (ما وراء ذلكم) أي وأحل لكم الابتغاء بأموالكم . والأول أولى ، وأراد سبحانه بالأموال المذكورة ما يدفعونه في مهور الحرائر وأثمان الإماء . قوله (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) « ما » موصولة فيها معنى الشرط ، والفاء في قوله (فآتوهن) لتضمن الموصول معنى الشرط ، والعائد محذوف : أي فآتوهن أجورهن عليه .

وقد اختلف أهل العلم في معنى الآية : فقال الحسن ومجاهد وغيرهما : المعنى فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن . وقال الجمهور : إن المراد بهذه الآية نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام ، ويؤيد ذلك قراءة أبي بن كعب وابن عباس وسعيد بن جبير (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن) ثم نهى عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما صرح ذلك من حديث علي قال : نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، وهو في الصحيحين وغيرهما ، وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوم فتح مكة « يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء ، والله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » . وفي لفظ لمسلم أن ذلك كان في حجة الوداع ، فهذا هو الناسخ . وقال سعيد بن جبير : نسخها آيات الميراث إذ المتعة لا ميراث فيها . وقالت عائشة والقاسم بن محمد :

تحريمها ونسخها في القرآن، وذلك قوله تعالى - والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين - وليست المنكوحة بالمتعة من أزواجهم ولا مما ملكت أيمانهم، فإن من شأن الزوجة أن ترث وتورث، وليست المستمتع بها كذلك. وقد روى عن ابن عباس أنه قال يجوز المتعة وأنها باقية لم تنسخ. وروى عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ. وقد قال يجوزها جماعة من الروافض ولا اعتبار بأقوالهم. وقد أتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسألة وتقوية ما قاله المجوزون لها، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه.

وقد طولنا البحث ودفعنا الشبه الباطلة التي تمسك بها المجوزون لها في شرحنا للمتنى فليرجع إليه. قوله (فريضة) منتصب على المصدرية المؤكدة أو على الحال: أي مفروضة. قوله (ولاجتراح عليكم فيما تراضيتكم به من بعد الفريضة) أي من زيادة أو نقصان في المهر فإن ذلك سائغ عند التراضي، هذا عند من قال بأن الآية في النكاح الشرعي، وأما عند الجمهور القائلين بأنها في المتعة، فالمعنى التراضي في زيادة مدة المتعة أو نقصانها أو في زيادة مادفعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها أو نقصانها. قوله (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) الطول: الغنى والسعة، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وجمهور أهل العلم. ومعنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنى وسعة في ماله يقلدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات فلينكح من فتياتكم المؤمنات، يقال طال بطول طولا في الافصال والقدرة، وفلان ذو طول: أي ذو قدرة في ماله. والطول بالضم: ضد القصر. وقال قتادة والنخعي وعطاء والثوري: إن الطول الصبر. ومعنى الآية عندهم أن من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوجها إذا لم يملك نفسه وخاف أن يبغى بها، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة. وقال أبو حنيفة وهو مروي عن مالك: إن الطول المرأة الحرة فمن كان تحت حرة لم يحل له أن ينكح الأمة، ومن لم يكن تحت حرة جاز له أن يتزوج أمة ولو كان غنيا، وبه قال أبو يوسف، واختاره ابن جرير واحتج له. والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية، ولا يخلو ما عده عن تكلف، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقلدر على أن يتزوج بالحرة لعدم وجود ما يحتاج إليه في نكاحها من مهر وغيره. وقد استدلل بقوله (من فتياتكم المؤمنات) على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وبه قال أهل الحجاز وجوزة أهل العراق، ودخلت الفاء في قوله (فما ملكت أيمانكم) لتضمن المبتدأ معنى الشرط. وقوله (من فتياتكم المؤمنات) في محل نصب على الحال، فقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحر أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرية. والشرط الثاني ما سيذكره الله سبحانه آخر الآية من قوله (ذلك لمن خشى العنت منكم) فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على نفسه العنت. والمراد هنا الأمة المملوكة للغير، وأما أمة الإنسان نفسه فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها، وهي تحت ملكه لتعارض الحقوق واختلافها. والفتيات جمع فتاة، والعرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة. وفي الحديث الصحيح «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي»، ولكن ليقول فتاى وفتاى، قوله (والله أعلم بإيمانكم) فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران: أي كلكم بنو آدم وأكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة، وربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر. وبالجملة اعتراضية. وقوله (بعضكم من بعض) مبتدأ وخبر ومعناه: أنهم متصلون في الأنساب لأنهم جميعا بنو آدم، أو متصلون في الدين لأنهم جميعا أهل ملة واحدة وكتابهم واحد ونبيهم واحد. والمراد بهذا توطئة نفوس العرب، لأنهم كانوا يستهجنون أولاد الإماء ويستصغرونهم ويغضون

منهم (فانكحوهن بإذن أهلهن) أى بإذن المالكين لمن ، لأن منافعهن لم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هي له . قوله (وآتوهن أجورهن بالمعروف) أى أدوا إليهن مهورهن بما هو بالمعروف في الشرع ، وقد استدلل بهذا من قال : إن الأمة أحق بمهرها من سيدها ، وإليه ذهب مالك ، وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد ، وإنما أضافها إليهن ، لأن التادية إليهن تادية إلى سيدهن لكونهن ماله . قوله (محصنات) أى عفائف . وقرأ الكسائي محصنات بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله (والمحصنات من النساء) وقرأ الباقر بالفتح في جميع القرآن . قوله (غير مسافحات) أى غير معلنات بالزنا . والأخذان : الأخلاء ، والخلدن والخلدن المخادن : أى المصاحب . وقيل ذات الخلدن : هى التى تزنى سرًا ، فهو مقابل للمسافحة ، وهى التى تجاهر بالزنا ، وقيل المسافحة ، المبذولة ، وذات الخلدن ، التى تزنى بواحد . وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا ولا تعيب اتخاذ الأخدان ، ثم رفع الإسلام جميع ذلك ، قال الله - ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن - . قوله (فإذا أحصن) قرأ عاصم وحزرة والكسائي بفتح الهمزة . وقرأ الباقر بضمها ، والمراد بالإحصان هنا الإسلام . روى ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأنس والأسود بن يزيد ووزر بن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء وإبراهيم النخعي والشعبي والسدي وروى عن عمر بن الخطاب بإسناد منقطع وهو الذى نص عليه الشافعي ، وبه قال الجمهور . وقال ابن عباس وأبو الدرداء ومجاهد وعكرمة وطاوس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم : إنه التزويج . وروى عن الشافعي فعلى القول الأول لاحد على الأمة الكافرة . وعلى القول الثانى لاحد على الأمة التى لم تزوج . وقال القاسم وسالم : إحصانها إسلامها وعفافها . وقال ابن جرير : إن معنى القراءتين مختلف ، فمن قرأ أحصن بضم الهمزة فعناه التزويج ومن قرأ بفتح الهمزة فعناه الإسلام . وقال قوم : إن الإحصان المذكور فى الآية هو الزوج ، ولكن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن تزوج بالسنة ، وبه قال الزهرى . قال ابن عبد البر : ظاهر قول الله عز وجل يقتضى أنه لاحد على الأمة وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج ، ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن ، وكان ذلك زيادة بيان . قال القرطبي : ظهر المسلم حى لا يستباح إلا بيقين ، ولا يقين مع الاختلاف لولا ما جاء فى صحيح السنة من الجلد . قال ابن كثير فى تفسيره : والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان هنا التزويج ، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه (ومن لم يستطع منكم طولا) إلى قوله (فإذا أحصن فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فالسياق كله فى الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله (فإذا أحصن) أى تزوجن كما فسرده ابن عباس ومن تبعه ، قال : وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ، لأنهم يقولون إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة مزوجة أو بكرا ، مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لاحد على غير المحصنة من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، ثم ذكر أن منهم من أجاب وهم الجمهور بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم ، ومنهم من عمل على مفهوم الآية ، وقال : إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها وإنما تضرب تأديبا . قال : وهو المحكى عن ابن عباس وإليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبو عبيد وداود الظاهري فى رواية عنه ، فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم ، وأجابوا عن مثل حديث أبي هريرة وزيد بن خالد فى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الأمة : إذا زنت ولم تحصن ، قال : إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضعير . بأن المراد بالجلد هنا التأديب وهو تعسف ، وأيضا قد ثبت فى الصحيحين من حديث أنى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يترب عليها . ثم إن زنت فليجلدها الحد » الحديث . ولمسلم من حديث على

قال « يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زنت فأمرني أن أجلدها » الحديث . وأما ما أخرجه سعيد بن منصور وابن خزيمة والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ليس على الأمة حد حتى تحصن بزواج ، فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب » فقد قال ابن خزيمة والبيهقي : إن رفعه خطأ ، والصواب وقفه قوله (فإن أتيت بفاحشة) الفاحشة هنا الزنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أي الحرائر الأبيكار ، لأن الثيب عليها الرجم وهو لا يتبعض ؛ وقيل المراد بالمحصنات هنا المزوجات ، لأن عليهن الجلد والرجم ، والرجم لا يتبعض ، فصار عليهن نصف ما عليهن من الجلد . والمراد بالعذاب هنا الجلد ، وإنما نقص حد الإماء عن حد الحرائر لأنهن أضعف ؛ وقيل لأنهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر ؛ وقيل لأن العقوبة تجب على قدر النعمة كما في قوله تعالى - يضاعف لها العذاب ضعفين - ولم يذكر الله سبحانه في هذه الآية العبيد وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس ، وكما يكون على الإماء والعبيد نصف الحد في الزنا ، كذلك يكون عليهم نصف الحد في القذف والشرب ، والإشارة بقوله (ذلك لمن خشى العنت منكم) إلى نكاح الإماء . والعنت : الوقوع في الإثم ، وأصله في اللغة انكسار العظم بعد الجبر ، ثم استعير لكل مشقة (وأن تصبروا) عن نكاح الإماء (خير لكم) من نكاحهن : أي صبركم خير لكم لأن نكاحهن يفضي إلى إرقاق الولد والغضب من النفس . قوله (يريد الله ليبين لكم) اللام هنا هي لام كي التي تعاقب « أن » . قال الفراء : العرب تعاقب بين لام كي وأن ، فتأتي باللام التي على معنى كي في موضع أن في أردت وأمرت ، فيقولون أردت أن تفعل وأردت لتفعل ، ومنه - يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم - وأمرت لأعدل بينكم - وأمرنا لنسلم لرب العالمين - ومنه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

وحكى الزجاج هذا القول وقال : لو كانت اللام بمعنى أن لدخلت عليها لام أخرى كما تقول : جئت كي تكرمني ، ثم تقول : جئت لكي تكرمني ، وأنشد :

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال ، أو لتأكيد إرادة التبيين ، ومفعول بين محذوف : أي ليبين لكم ما خفي عليكم من الخير ؛ وقيل مفعول يريد محذوف : أي يريد الله هذا ليبين لكم ، وبه قال البصريون وهو مروي عن سيويه ؛ وقيل اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن ، وهي وما بعدها مفعول للفعل المتقدم ، وهو مثل قول الفراء السابق ، وقال بعض البصريين : إن قوله (يريد) مؤول بالمصدر مرفوع بالابتداء مثل : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . ومعنى الآية : يريد الله ليبين لكم مصالح دينكم وما يحل لكم وما يحرم عليكم (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) أي طرقهم ، وهم الأنبياء وأتباعهم لتقتدوا بهم (ويتوب عليكم) أي ويريد أن يتوب عليكم فتوبوا إليه وتلاقوا ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم (والله يريد أن يتوب عليكم) هذا تأكيد لما قد فهم من قوله (ويتوب عليكم) المتقدم ؛ وقيل الأول معناه الإرشاد إلى الطاعات : والثاني فعل أسبابها ؛ وقيل إن الثاني لبيان كمال منفعة إرادته سبحانه وكمال ضرر ما يريده الذين يتبعون الشهوات ، وليس المراد به مجرد إرادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد ؛ قيل هذه الإرادة منه سبحانه في جميع أحكام الشرع ؛ وقيل في نكاح الأمة فقط .

واختلف في تعيين المتبعين للشهوات ، فقيل هم الزناة ، وقيل اليهود والنصارى ، وقيل اليهود خاصة ،

وقيل هم المجوس لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب . والأول أولى . والميل : العدول عن طريق الاستواء . والمراد بالشهوات هنا ما حرّمه الشرع دون ما أحله ، ووصف الميل بالعظم بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة نادرا . قوله (والله يريد أن يخفف عنكم) بما مرّ من الترخيص لكم ، أو بكل ما فيه تخفيف عليكم (وخلق الإنسان ضعيفا) عاجزا غير قادر على ملك نفسه ودفعها عن شهواتها وفاء بحق التكليف فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف ، فلهذا أراد الله سبحانه التخفيف عنه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : حرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ، ثم قرأ (حرمت عليكم أمهاتكم) إلى قوله (وبنات الأخ) هذا من النسب ، وباقي الآية من الصهر ، والسابعة (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى عن عمران بن حصين في قوله (وأمّهات نسائكم) قال : هى مبهمه . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : هى مبهمه إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحلّ له أمها . وأخرج هؤلاء إلا البيهقى عن على في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها ، أو ماتت قبل أن يدخل بها هل تحلّ له أمها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة . وأخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول : إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها ، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال في قوله (وأمّهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم) أريد بهما الدخول جميعا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال : الربيبة والأم سواء لا بأس بهما إذا لم يدخل بالمرأة . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم بسند صحيح عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندي امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لى فوجدت عليها ، فلقيني على بن أبي طالب فقال : مالك ؟ فقلت : توفيت المرأة ، فقال على : لها ابنة ؟ قلت : نعم وهى بالطائف ، قال : كانت فى حجرك ؟ قلت لا : قال : فانكحها ، قلت : فأين قول الله (وربائبكم اللاتي فى حجوركم) ؟ قال : لأنها لم تكن فى حجرك .

وقد قدّمنا قول من قال : إنه إسناد ثابت على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : الدخول الجماع . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء قال : كنا نتحدث أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة فى ذلك ، فأنزل الله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ونزلت - وما جعل أدعياءكم وأبناءكم - ونزلت - ما كان محمد أباً أحد من رجالكم - . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وأن تجمعوا بين الأختين) قال يعنى فى النكاح . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال : ذلك فى الحرائر ، فأما المماليك فلا بأس . وأخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقى فى سننه عن عثمان بن عفان : أن رجلا سأله عن الأختين فى ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ قال : أحلتها آية وحرمتها آية ، وما كنت لأصنع ذلك ، فخرج من عنده ، فلقى رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم أراه على بن أبي طالب ، فسأله عن ذلك فقال : لو كان لى من الأمر شيء ثم وجدت أحدا فعل ذلك لجعلته نكالا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقى عن على : أنه سئل عن رجل له أمتان أختان ، وطئ إحداهما وأراد أن يطأ الأخرى ، فقال : لا حتى يخرجها من ملكه ، وقيل فإن زوجها عبده ؟ قال : لا حتى يخرجها من ملكه . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبرانى عن ابن

معسود : أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين الأمتين فكرمه ، فقيل يقول الله (إلا ما ملكت أيمانكم) فقال : وبغيرك أيضا مما ملكت يمينك . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي من طريق أبي صالح عن علي بن أبي طالب قال في الأختين المملوكتين : أحلتها آية وحرمتها آية ولا أمر ولا أنهى ، ولا أحل ولا أحرم ، ولا أفعل أنا وأهل بيتي . وأخرج أحمد عن قيس قال : قلت لابن عباس : أيقع الرجل على المرأة وابنتها مملوكتين له ؟ فقال : أحلتها آية وحرمتها آية ، ولم أكن لأفعله . وأخرج عبد الرزاق والبيهقي عنه في الأختين من ملك اليمين : أحلتها آية وحرمتها آية . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبيهقي عن ابن عمر قال : إذا كان للرجل جاريتان أختان فغشى إحداهما فلا يقرب الأخرى حتى يخرج التي غشى من ملكه . وأخرج البيهقي عن مقاتل ابن سليمان قال : إنما قال الله في نساء الآباء (إلا ما قد سلف) لأن العرب كانوا ينكحون نساء الآباء ، ثم حرم النسب والصهر فلم يقل إلا ما قد سلف ، لأن العرب كانت لاتنكح النسب والصهر . وقال في الأختين (إلا ما قد سلف) لأنهم كانوا يجمعون بينهما فجرم جمعهما جميعا إلا ما قد سلف قبل التحريم (إن الله كان غفورا رحيما) لما كان من جماع الأختين قبل التحريم . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث يوم حنين جيشا إلى أوطاس ، فلقوا عدوا فقاتلوهم ، فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله في ذلك (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) يقول : إلا ما أفاء الله عليكم . وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية . وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد ابن جبير مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس في قوله (والمحصنات من النساء) قال : كل ذات زوج إتيانها زنا إلا ماسيت . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة والطبراني عن علي وابن مسعود في قوله (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) قال : على المشركات إذا سبين حلت له . وقال ابن مسعود : المشركات والمسلمات . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببيعها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (والمحصنات من النساء) قال : ذوات الأزواج . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أنس بن مالك مثله . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (والمحصنات) قال : العفيفة العاقلة من مسلمة أو من أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه في الآية قال : لا يحل له أن يتزوج فوق الأربع ، فما زاد فهو عليه حرام كأمه وأخته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية في قوله (والمحصنات من النساء) قال : يقول انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ثم حرّم ما حرّم من النسب والصهر ، ثم قال (والمحصنات من النساء) فرجع إلى أول السورة فقال : هن حرام أيضا ، إلا لمن نكح بصدّاق وسنة وشهود . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير عن عبيدة قال : أحلّ الله لك أربعا في أول السورة ، وحرّم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ما ملكت يمينك . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الإحصان إحصانان : إحصان نكاح ، وإحصان عفاف » فمن قرأها والمحصنات بكسر الصاد فهن العفاف ، ومن قرأها والمحصنات بالفتح فهن المتزوجات . قال ابن أبي حاتم : قال أبي هذا حديث منكر . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وأحلّ لكم ما وراء ذلكم) قال : ما وراء هذا النسب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال :

مادون الأربع . وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : ما وراء ذات القرابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) قال : ما ملكت أيما نكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (محصنين غير مسافحين) قال غير زانين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فآتوهن أجورهن) يقول : إذا تزوج الرجل منكم المرأة ثم نكحها مرة واحدة فقد وجب صداقها كله والاستمتاع هو النكاح ، وهو قوله - وآتوا النساء صدقاتهن - . وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : كانت المتعة في أول الاسلام ، وكانوا يقرعون هذه الآية (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) الآية ، فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج بقلدر ما يرى أنه يفرغ من حاجته ليحفظ متاعه ويصلح شأنه . حتى نزلت هذه الآية (حرمت عليكم أمهاتكم) فنسخت الأولى فحرمت المتعة وتصديقها من القرآن - إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيما نكم - وما سوى هذا الفرج فهو حرام .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه أن ابن عباس قرأ (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي بن كعب أنه قرأها كذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد : أن هذه الآية في نكاح المتعة ، وكذلك أخرج ابن جرير عن السدي والأحاديث في تحليل المتعة ثم تحريمها ، وهل كان نسخها مرة أو مرتين ؟ مذكورة في كتب الحديث . وقد أخرج ابن جرير في تهذيبه وابن المنذر والطبراني والبيهقي عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ماذا صنعت ذهبت الركاب بفتياك وقالت فيها الشعراء قال : وما قالوا ؟ قلت : قالوا :

أقول للشيخ لما طال مجلسه بإصاح هل لك في فتيا ابن عباس

هل لك في رخصة الأعطاف آنسة تكون مثواك حتى مصدر الناس

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا والله ما بهذا أفقيت ولا هذا أردت ولا أحلتها إلا للمضطرو في لفظ ولا أحلت منها إلا ما أحل الله من الميتة والدم ولحم الخنزير . وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن رجلا كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن تترك أحدهم العسرة ، فقال الله (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به) قال : الراضى أن يوفي لها صداقها ثم يخيرها . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : إن وضعت لك منه شيئا فهو سائغ وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس (ومن لم يستطع منكم طولا) يقول : من لم يكن له سعة (أن ينكح المحصنات) يقول الحرائر (فما ملكت أيما نكم من فتيا نكم المؤمنات) فلينكح من إماء المؤمنين (محصنات غير مسافحات) يعني عفاف غير زواني في سر ولا علانية (ولا متخذات أخدان) يعني أخلاء (فإذا أحصن) ثم إذا تزوجت حرام ثم زنت (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) قال : من الجلد (ذلك لمن خشي العنت منكم) هو الزنا ، فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أمة إلا أن لا يقلد على حرة وهو يخشى العنت (وأن تصبروا) عن نكاح الإماء (فهو خير لكم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد (ومن لم يستطع منكم طولا) يعني من لا يجد منكم غنى (أن ينكح المحصنات) يعني الحرائر فلينكح الأمة المؤمنة (وأن تصبروا) عن نكاح الإماء (خير لكم) وهو حلال . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عنه قال مما وسع الله به على هذه الأمة نكاح الأمة النصرانية واليهودية وإن كان موسرا . وأخرج

عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عنه قال : لا يصلح نكاح إماء أهل الكتاب ، لأن الله يقول (من فتياتكم المؤمنات) . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن تنكح الأمة على الحرّة والحرّة على الأمة ، ومن وجد طولاً لحرّة فلا ينكح أمة » . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن عباس قال : لا يتزوج الحرّ من الإماء إلا واحدة وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) يقول : أنتم إخوة بعضكم من بعض . وأخرج ابن المنذر عن السدي (فانكحوهن بإذن أهلهن) قال بإذن مواليهن (وأتوهن أجورهن) قال : مهورهن . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : المسافحات المعلنات بالزنا ، والمتخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال : كان أهل الجاهلية يحرّمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفى ، فأنزل الله - ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن - . وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فإذا أحصن) قال : إحصانها إسلامها . وقال عليّ : اجلدوهن . قال ابن أبي حاتم حديث منكر وقال ابن كثير في إسناده ضعيف ومبهم لم يسم ، ومثله لا تقوم به حجة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس قال : حدّ العبد يفترى على الحرّ أربعون . وأخرج ابن جرير عنه قال : العنت الزنا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قال : الزنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (يريد الله أن يخفف عنكم) يقول : في نكاح الأمة وفي كل شيء فيه يسر . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (يريد الله أن يخفف عنكم) قال : رخص لكم في نكاح الإماء (وخلق الإنسان ضعيفا) قال : لو لم يرخص له فيها . وأخرج ابن جرير والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء هنّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : أولهنّ (يريد الله ليين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) ، والثانية (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) ، والثالثة (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا) ، والرابعة (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) ، والخامسة (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية ، والسادسة (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله) الآية ، والسابعة (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية ، والثامنة (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله) للذين عملوا من الذنوب (غفورا رحيا) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) .

الباطل : ما ليس بحق ، ووجوه ذلك كثيرة ، ومن الباطل البيوعات التي نهى عنها الشرع . والتجارة في اللغة عبارة عن المعارضة ، وهذا الاستثناء منقطع : أى لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم ، أو لكن

كون تجارة عن تراض منكم حلالا لكم . وقوله (عن تراض) صفة لتجارة : أى كائنة عن تراض ، وإنما نص الله سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات لكونها أكثرها وأغلبها ، وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز ، ومنه قوله تعالى - هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم - . وقوله - يرجون تجارة لن تبور - .

واختلف العلماء فى التراضى ، فقالت طائفة : تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع ؛ أو بأن يقول أحدهما لصاحبه : اختر كما فى الحديث الصحيح « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو يقول أحدهما لصاحبه : اختر » . وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ، وبه قال الشافعى والثورى والأوزاعى والليث وابن عينة وإسحاق وغيرهم . وقال مالك وأبو حنيفة : تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة فيرتفع بذلك الخيار وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته . وقد قرئ تجارة بالرفع على أن كان تامة ، وتجارة بالنصب على أنها ناقصة . قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضا إلا بسبب أثبتته الشرع ، أو لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصى أو المراد النهى عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى . ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب فى غزاة ذات السلاسل ، فقرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم احتجاجه وهو فى مسند أحمد وسنن أبى داود وغيرهما . قوله (ومن يفعل ذلك) أى القتل خاصة أو أكل أموال الناس ظلما والقتل عدوانا وظلما ؛ وقيل هو إشارة إلى كل ما نهى عنه فى هذه السورة وقال ابن جرير : إنه عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد وهو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد إلا من قوله (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم) فإنه لا وعيد بعده إلا قوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) والعنوان : تجاوز الحد . والظلم : وضع الشيء فى غير موضعه ؛ وقيل إن معنى العدوان والظلم واحد ، وتكريره لقصد التأكيد كما فى قول الشاعر :

* وألنى قولها كذبا ومينا * . وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص وقتل المرتد وسائر الحدود الشرعية وكذلك قتل الخطأ . قوله (فسوف نصليه) جواب الشرط : أى ندخله نارا عظيمة (وكان ذلك) أى لإصلاؤه النار (على الله يسيرا) لأنه لا يعجزه بشيء . وقرئ « نصليه » بفتح النون ، روى ذلك عن الأعمش والنخعى ، وهو على هذه القراءة منقول من صلى ، ومنه شاة مصلية . قوله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) أى إن تجتنبوا كبائر الذنوب التى نهاكم الله عنها (نكفر عنكم سيئاتكم) أى ذنوبكم التى هى صفائر ، وحمل السيئات على الصفائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها ، وجعل اجتنابها شرطا لتكفير السيئات .

وقد اختلف أهل الأصول فى تحقيق معنى الكبائر ثم فى عددها ، فأما فى تحقيقها فقل إن الذنوب كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها ، كما يقال : الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر ، والقبلة المحرمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقد روى نحو هذا عن الأسفرائنى والجوينى والقشيرى وغيرهم قالوا والمراد بالكبائر التى يكون اجتنابها سببا لتكفير السيئات هى الشرك ، واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ (إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه) وعلى قراءة الجمع ، فالمراد أجناس الكفر ، واستدلوا على ما قالوه بقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قالوا : فهذه الآية مقيدة لقوله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) وقال ابن عباس : الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وقال ابن مسعود : الكبائر ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية . وقال سعيد بن جبير : كل ذنب نسبته الله إلى النار

فهو كبيرة . وقال جماعة من أهل الأصول : الكبائر كل ذنب رتب الله عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه . وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره . وأما الاختلاف في عددها فقيل : إنها سبع ، وقيل سبعون ، وقيل سبعمائة ، وقيل غير منحصرة ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، وسيأتي ما ورد في ذلك إن شاء الله . قوله (وندخلكم مدخلا) أى مكان دخول وهو الجنة (كريما) أى حسنا مرضيا ، وقد قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر والكوفيون (مدخلا) بضم الميم . وقرأ أهل المدينة بفتح الميم ، وكلاهما اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني ، قال السيوطي بسند صحيح عن ابن مسعود في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن في الآية قال : كان الرجل يتخرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية ، فنسخ ذلك الآية التي في النور - ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم - الآية . وأخرج ابن ماجه وابن المنذر عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنما البيع عن تراض » وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح وعكرمة في قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) قالوا : نهاهم عن قتل بعضهم بعضا . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدي (ولا تقتلوا أنفسكم) قال : أهل دينكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) يعنى متعمدا اعتداء بغير حق (وكان ذلك على الله يسيرا) يقول : كان عذابه على الله هينا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أرأيت قوله تعالى (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا) في كل ذلك أم في قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) ؟ قال : بل في قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) . وأخرج عبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : هان ما سألكم ربكم (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، وقد ذكرت الطرفة : يعنى النظرة . وأخرج ابن جرير عنه قال : كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : كل ما وعد الله عليه النار كبيرة . وأخرج ابن جرير والبيهقي في الشعب عنه قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ما قدّمنا عنه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس : أنه سئل عن الكبائر أسبع هي ؟ قال : هي إلى السبعين أقرب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : أن رجلا سأله كم الكبائر أسبع هي ؟ قال : هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار . وأخرج البيهقي في الشعب عنه كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة ، وليس بكبيرة ما تاب عنه العبد . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكره قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » . وأخرج

البخارى وغيره عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين وقتل النفس «شك شعبة» واليمين الغموس». وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»، قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبّ أباه الرجل فيسبّ أباه ويسبّ أمه فيسبّ أمه». والأحاديث في تعداد الكبائر وتعيينها كثيرة جدا، فمن رام الوقوف على ماورد في ذلك، فعليه بكتاب الزواجر في الكبائر، فإنه قد جمع فأوعى.

واعلم أنه لا بد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائي وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة وأبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلس على المنبر ثم قال «والذى نفسى بيده مامن عبد يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدى الزكاة ويحْتَنِبُ الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى إنها لتصفق»، ثم تلا: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم». وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسترني أن لى بها الدنيا وما فيها، ولقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها: قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية، وقوله (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية، وقوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية، وقوله (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك) الآية، وقوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٢) وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٢٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٢٤).

قوله (ولا تاتمنوا) التمنى نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضى، وفيه النهى عن أن يتمنى الإنسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التى قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته وحكمته البالغة، وفيه أيضا نوع من الحسد المنهى عنه إذا صحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.

وقد اختلف العلماء فى الغبطة هل تجوز أم لا؟ وهى أن يتمنى أن يكون به حال مثل حال صاحبه من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، واستدلوا بالحديث الصحيح «لا حسد

إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » وقد بوب عليه البخارى « باب الاغتباط في العلم والحكم » وعموم لفظ الآية يقتضى تحريم تمنى ماوقع به التفضيل سواء كان مصحوبا بما يصير به من جنس الحسد أم لا ، وماورد في السنة من جواز ذلك في أمور معينة يكون مخصصا لهذا العموم ، وسيأتى ذكر سبب نزول الآية ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقوله (للرجال نصيب) الخ ، فيه تخصيص بعد التعميم ورجوع إلى ما يتضمنه سبب نزول الآية من أن أم سلمة قالت : يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغرى ولا نقاتل فنستشهد ، وإنما لنا نصف الميراث فنزلت . أخرجه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقى ، وقد روى نحو هذا السبب من طرق بألفاظ مختلفة . والمعنى في الآية : أن الله جعل لكل من الفريقين نصيبا على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته ، وعبر عن ذلك المجعول لكل فريق من قريبي النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه . قال قتادة للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب والعقاب وللنساء كذلك . وقال ابن عباس : المراد بذلك الميراث والاكتساب على هذا القول بمعنى ما ذكرنا . قوله (واسألوا الله من فضله) عطف على قوله (ولا تمنوا) وتوسيط التعليل بقوله (للرجال نصيب) الخ . بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير ما تضمنه النهى ، وهذا الأمر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه من فضله كما قاله جماعة من أهل العلم . قوله (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون) أى جعلنا لكل إنسان ورثة موالى يلون ميراثه ، فلكل مفعول ثان قدّم على الفعل لتأكيد الشمول ، وهذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها : أى ليتبع كل أحد ما قسم الله له من الميراث ، ولا يتمنّ ما فضل الله به غيره عليه . وقد قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله بعدها (والذين عاقدت أيمانكم) وقيل العكس كما روى ذلك ابن جرير . وذهب الجمهور إلى أن الناسخ لقوله (والذين عاقدت أيمانكم) قوله تعالى - وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض - والموالى جمع مولى ، وهو يطلق على المعتق والمعتق والناصر وابن العم والجار قيل والمراد هنا العصبية : أى ولكل جعلنا عصبية يرثون ما أبقت الفرائض . قوله (والذين عاقدت أيمانكم) المراد بهم موالى الموالاة : كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل : أى يحالفة فيستحق من ميراثه نصيبا ، ثم ثبت في صدر الإسلام بهذه الآية ، ثم نسخ بقوله وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض - وقراءة الجمهور « عاقدت » وروى عن حمزة أنه قرأ « عقدت » بتشديد القاف ، على التكثير : أى والذين عقدت لهم أيمانكم الحلف ، أو عقدت عهودهم أيمانكم ، والتقدير على قراءة الجمهور : والذين عاقدتهم أيمانكم فاتوهم نصيبهم : أى ما جعلتموه لهم بعقد الحلف . قوله (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) هذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان العلة التى استحق بها الرجال الزيادة ، كأنه قيل كيف استحق الرجال ما استحقوا مما لم تشاركهم فيه النساء ، فقال (الرجال قوامون) الخ ، والمراد أنهم يقومون بالذّب عنهم كما تقوم الحكام والأمراء بالذّب عن الرعاية ، وهم أيضا يقومون بما يحتجن إليه من النفقة والكسوة والمسكن وجاء بصيغة المبالغة في قوله (قوامون) ليدلّ على أصالتهم في هذا الأمر ، والباء في قوله (بما فضل الله) للسببية والضمير في قوله (بعضهم على بعض) للرجال والنساء : أى إنما استحقوا هذه المزية لتفضيل الله للرجال على النساء بما فضلهم به من كون فيهم الخلفاء والسلاطين والحكام والأمراء والغزاة وغير ذلك من الأمور . قوله (وبما أنفقوا) أى وبسبب ما أنفقوا من أموالهم ، وما مصدرية أو موصولة ، وكذلك هي في قوله (بما فضل الله) ومن تبعيضية ، والمراد ما أنفقوه في الإنفاق على النساء ، وبما دفعوه في مهورهنّ من أموالهم ، وكذلك ما ينفقونه في الجهاد وما يلزمهم في العقل .

وقد استدلل جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته وكسوتها ، وبه قال مالك والشافعي وغيرهما . قوله (فالصالحات) أى من النساء (قانتات) أى مطيعات لله قائمات بما يجب عليهن من حقوق الله وحقوق أزواجهن (حافظات للغيب) أى لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن من حفظ نفوسهن وحفظ أموالهم ، « وما » فى قوله (بما حفظ الله) مصدرية : أى بحفظ الله . والمعنى : أنهن حافظات لغيب أزواجهن بحفظ الله لهن ومعونته وتسديده ، أو حافظات له بما استحفظهن من أداء الأمانة إلى أزواجهن على الوجه الذى أمر الله به ، أو حافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الأزواج فى شأنهن من حسن العشرة ، ويجوز أن تكون « ما » موصولة والعائد محذوف . وقرأ أبو جعفر (بما حفظ الله) بنصب الاسم الشريف . والمعنى بما حفظن الله : أى حفظن أمره ، أو حفظن دينه ، فحذف الضمير الراجع إليهن للعلم به ، و « ما » على هذه القراءة مصدرية ، أو موصولة ، كالقراءة الأولى : أى بحفظهن الله ، أو بالذى حفظن الله به . قوله (واللاتى تخافون نشوزهن) هذا خطاب للأزواج ، قيل الخوف هنا على بابه ، وهو حالة تحدث فى القلب عند حدوث أمر مكروه ، أو عند ظن حدوثه ؛ وقيل المراد بالخوف هنا العلم . والنشوز : العصيان . وقد تقدم بيان أصل معناه فى اللغة . قال ابن فارس : يقال نشزت المرأة : استعصت على بعلها ، ونشز بعلها عليها : إذا ضربها وجفاها (فعظوهن أى ذكروهن بما أوجبه الله عليهن من الطاعة وحسن العشرة ، ورغبوهن ورهبوهن) (واهجروهن فى المضاجع) يقال هجره : أى تباعد منه . والمضاجع : جمع مضجع ، وهو محل الاضطجاع : أى تباعدوا عن مضاجعتهم ولا تدخلوهن تحت ما يجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب ؛ وقيل هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع ؛ وقيل هو كناية عن ترك جماعها ؛ وقيل لا تبين معه فى البيت الذى يضطجع فيه (واضربوهن) أى ضربا غير مبرح . وظاهر النظم القرآنى أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز ؛ وقيل إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ ، فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر ، وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب (فإن أطعنكم) كما يجب وترك النشوز (فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تتعرضوا لهن بشيء مما يكرهن لا بقول ولا بفعل ، وقيل المعنى : لا تكلفوهن الحب لئلا لا يدخلن تحت اختيارهن (إن الله كان عليا كبيرا) إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب : أى وإن كنتم تقدرعون عليهن فاذكروا قدرة الله عليكم فإنها فوق كل قدرة ، والله بالمرصاد لكم . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) يقول : لا يتمنى الرجل فيقول : ليت أن لى مال فلان وأهله ، فهى الله سبحانه عن ذلك ، ولكن يسأل الله من فضله (للرجال نصيب مما اكتسبوا) يعنى مما ترك الوالدان والأقربون للذكر مثل حظ الأنثيين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : أن سبب نزول الآية أن النساء قلن : لو جعل أنصباؤنا فى الميراث كأنصباء الرجال ؟ وقال الرجال : إنا لندرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث . وقد تقدم ذكر سبب النزول . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (واسألوا الله من فضله) قال : ليس بعرض الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير (واسألوا الله من فضله) قال العبادة ليس من أمر الدنيا . وأخرج الترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل » . قال الترمذى : كذا رواه حماد بن واقد وليس بالحافظ ، ورواه أبو نعيم عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح وكذا رواه ابن جرير وابن مردويه ، ورواه أيضا ابن مردويه من حديث ابن عباس . وأخرج البخارى وأبو داود

والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس (ولكل جعلنا موالى) قال : ورثة (والذين عاقدت أيمانكم) قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرون الأنصارى دون ذوى رحمهم للأخوة التى آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ، فلما نزلت (واكل جعلنا موالى) نسخت ، ثم قال (والذين عاقدت أيمانكم فاتوهم نصيبهم) من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصى له . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه (ولكل جعلنا موالى) قال : عصبه (والذين عاقدت أيمانكم) قال : كان الرجلان أيهما مات ورثه الآخر ، فأنزل الله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) يقول : إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت وهو المعروف . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل يقول : ترثنى وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل حلف كان فى الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة ولا عقد ولا حلف فى الإسلام - فنسختها هذه الآية « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عنه فى الآية قال : كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر ، فنسخ ذلك فى الأنفال وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » . وأخرج عبيد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن : أن رجلا من الأنصار لطم امرأته فجاءت تاتمس القصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهما القصاص ، فنزل « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل القرآن (الرجال قوامون على النساء) الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أردنا أمرا وأراد الله غيره » . وأخرج ابن مردويه عن علي بن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (الرجال قوامون على النساء) يعنى أمراء عليهن أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهلها حافظة لماله (بما فضل الله) فضله عليها بنفقته وسعيه (فالصالحات قانتات) قال : مطيعات (حافظات للغيب) يعنى إذا كن كذا فأحسنوا إليهن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (حافظات للغيب) قال : حافظات للغيب بما استودعهن الله من حقه وحافظات لغيب أزواجهن . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال (حافظات للغيب) للأزواج : وأخرج ابن جرير عن السدى قال : تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي فى سننه عن ابن عباس (واللاتى تخافون نشوزهن) قال : تلك المرأة تنشر وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره ، فأمره الله أن يعظها ويذكرها بالله ويعظم حقه عليها ، فإن قبلت وإلا هجرها فى المضجع ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها ، وذلك عليها تشديد ، فإن رجعت وإلا ضربها ضربا غير مبرح ولا يكسر لها عظما ولا يجرح بها جرحا (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) يقول : إذا أطاعتك فلا تتجنى عليها العلل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (واهجروهن فى المضاجع) قال : لا يجامعها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عنه قال يهجرها بلسانه ويغلظ لها بالقول ولا يدع الجماع . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء : أنه سأل ابن عباس عن الضرب غير المبرح ، فقال : بالسواك ونحوه . وقد أخرج الترمذى وصححه والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص : أنه شهد خطبة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيها أنه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ألا واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنما هن عوار عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا

غير مبرح (فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سيلا) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أ يضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ؟ ثم يجامعها في آخر اليوم » .

وإن خفتُم شقاقَ بَيْنِهِمَا فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٢٥) .

قد تقدم معنى الشقاق في البقرة ، وأصله أن كل واحد منهم يأخذ شقا غير شق صاحبه : أى ناحية غير ناحيته وأضيف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى « بل مكر الليل والنهار » وقوله :
 • ياسارق الليلة أهل الدار • والخطاب للأمرء والحكام ، والضمير في قوله (بينهما) للزوجين لأنه قد تقدم ذكر مايدل عليهما ، وهو ذكر الرجال والنساء (فابعثوا) إلى الزوجين (حكما) يحكم بينهما ممن يصلح لذلك عقلا ودينا وإصفا
 وإنما نص الله سبحانه على أن الحكمين يكونان من أهل الزوجين لأنهما أقعد بمعرفة أحوالهما ، وإذا لم يوجد من أهل الزوجين من يصلح للحكم بينهما كان الحكمان من غيرهم ، وهذا إذا أشكل أمرهما ولم يتبين من هو المسيء منهما ؛ فأما إذا عرف المسيء فإنه يؤخذ لصاحبه الحق منه ، وعلى الحكمين أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما ، فإن قلنا على ذلك عملا عليه ، وإن أعياهما إصلاح حالهما ورأيا التفريق بينهما بجاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم في البلد ولا توكيل بالفرقة من الزوجين . وبه قال مالك والأوزاعي وإسحاق ، وهو مروى عن عثمان وعلى وابن عباس والشعبي والنخعي والشافعي ، وحكاه ابن كثير عن الجمهور ، قالوا : لأن الله قال (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان . وقال الكوفيون وعطاء وابن زيد والحسن وهو أحد قولي الشافعي : إن التفريق هو إلى الإمام أو الحاكم في البلد لا إليهما ، مالم يوكلهما الزوجان أو يأمرهما الإمام والحاكم ، لأنهما رسولان شاهدان فليس إليهما التفريق ، ويرشد إلى هذا قوله (إن يريدَا) أى الحكمان (إصلاحا) بين الزوجين (يوفق الله بينهما) لاقتصاره على ذكر الإصلاح دون التفريق . ومعنى (إن يريدَا) إصلاحا يوفق الله بينهما) أى يوقع الموافقة بين الزوجين حتى يعودا إلى الألفة وحسن العشرة . ومعنى الإرادة : خلوص نيتهما لصلاح الحال بين الزوجين ، وقيل إن الضمير في قوله (يوفق الله بينهما) للحكمين كما في قوله (إن يريدَا إصلاحا) أى يوفق بين الحكمين في اتحاد كلمتهما وحصول مقصودهما ؛ وقيل كلا الضميرين للزوجين : أى إن يريدَا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق ، وإذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (وإن خفتُم شقاقَ بينهما) قال : هذا الرجل والمرأة إذا تفسد الذي بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسيء ، فإن كان الرجل هو المسيء حجبا امرأته عنه وقسروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما بجائز ، فإن رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ذلك ثم مات أحدهما فإن الذي رضى يرث الذى كره ولا يرث الكاره الراضى (إن يريدَا إصلاحا) قال : هما الحكمان (يوفق الله بينهما) وكذلك كل مصلح يوفقه للحق والصواب . وأخرج الشافعي في الأم وعبد الرزاق في المصنف وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن

أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عبيدة السلماني في هذه الآية قال : جاء رجل وامرأة إلى عليٍّ ومعهما فئام من الناس فأمرهم عليٌّ فبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، ثم قال للحكمين : تدريان ما عليكما ؟ عليكما إن رأيكما أن تجمعا أن تجمعا ، وإن رأيكما أن تفرقا أن تفرقا ، قالت المرأة : رضيت بكتاب الله بما عليٍّ فيه ولي ، وقال الرجل : أما الفرقة فلا ، فقال : كذبت والله حتى تقرّ مثل الذي أقرت به . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين ، فقيل لنا : إن رأيكما أن تجمعا جمعتما ، وإن رأيكما أن تفرقا فرقتما ، والذي بعثهما عثمان . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن الحسن قال : إنما يبعث الحكمان ليصلحا ويشهدا على الظالم بظلمه ، فأما الفرقة فليست بأيديهما . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج البيهقي عن عليٍّ قال : إذا حكم أحد الحكمين ولم يحكم الآخر فليس حكمه بشيء حتى يجتمعا .

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا (٣٦) .

قد تقدم بيان معنى العبادة . وشيئا إما مفعول به : أي لا تشركوا به شيئا من الأشياء من غير فرق بين حيٍّ وميت وجماد وحيوان ، وإما مصدر : أي لا تشركوا به شيئا من الاشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر والواضح والخفي . وقوله (إحسانا) مصدر لفعل محذوف : أي أحسنوا بالوالدين إحسانا . وقرأ ابن أبي عبيدة بالرفع ، وقد دل ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به على عظم حقهما ، ومثله « أن اشكر لي ولوالديك » فأمر سبحانه بأن يشكر معه . قوله (وبذي القربى) أي صاحب القرابة ، وهو من يصح إطلاق اسم القربى عليه وإن كان بعيدا . (واليتام والمساكين) قد تقدم تفسيرهم ؛ والمعنى وأحسنوا بذى القربى إلى آخر ما هو : مذكور في هذه الآية (والجار ذى القربى) أي القريب جواره ؛ وقيل هو من له مع الجوار في الدار قرب في النسب (والجار الجنب) الجانِب وهو مقابل للجار ذى القربى ، والمراد من يصدق عليه مسمى الجوار مع كون داره بعيدة ، وفي ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم سواء كانت الديار متقاربة أو متباعدة ، وعلى أن الجوار حرمة مرعية مأمور بها . وفيه ردٌّ من على يظن أن الجار مختص بالملاصق دون من بينه وبينه حائل ، أو مختص بالقريب دون البعيد ؛ وقيل إن المراد بالجار الجنب هنا هو الغريب ؛ وقيل هو الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبين الجوار له . وقرأ الأعمش والمفضل (والجار الجنب) بفتح الجيم وسكون النون : أي ذى الجنب ، وهو الناحية ، وأنشد الأَخفش :
• الناس جنب والامير جنب • وقيل المراد بالجار ذى القربى : المسلم ، وبالجار الجنب : اليهودي والنصراني .

وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي يصدق عليه مسمى الجوار ويثبت لصاحبه الحق ، فروى عن الأوزاعي والحسن أنه إلى حدٍّ أربعين دارا من كل ناحية ، وروى عن الزهري نحوه ؛ وقيل من سمع إقامة الصلاة ؛ وقيل إذا جمعتما محلة ؛ وقيل من سمع النداء . والأولى أن يرجع في معنى الجار إلى الشرع ، فإن وجد فيه ما يقتضي بيانه وأنه يكون جارا إلى حد كذا من الدور ، أو من مسافة الأرض ، كان العمل عليه متعينا وإن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو عرفا . ولم يأت في الشرع ما يفيد أن الجار هو الذي بينه وبين جاره مقدار كذا ، ولا ورد في لغة العرب أيضا

ما يفيد ذلك ، بل المراد بالجار في اللغة : المجاور ، ويطلق على معان . قال في القاموس . والجار المجاور ، والذي أجرته من أن يظلم ، والمجير ، والمستجير ، والشريك في التجارة ، وزوج المرأة وهي جارته ، وفرج المرأة ، وما قرب من المنازل ، والاست كالحارة ، والقاسم والحليف ، والناصر انتهى . قال القرطبي في تفسيره : وروى « أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني نزلت محلة قوم ، وإن أقربهم إلى جوارا أشد هم لي أذى فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر وعمر وعلياً يصيحبون على أبواب المساجد : ألا إن أربعين داراً جار ، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » انتهى . ولو ثبت هذا لكان مغنياً عن غيره ، ولكنه رواه كما ترى من غير عزوله إلى أحد كتب الحديث المعروفة ، وهو وإن كان إماماً في علم الرواية ، فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند مذکور ولا نقل عن كتاب مشهور ، ولا سيما وهو يذكر الواهيات كثيراً كما يفعل في تذكرته ، وقد ورد في القرآن ما يدل على أن المساكنة في مدينة مجاورة ، قال الله تعالى « لن لم ينته المنافقون » إلى قوله « ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » فجعل اجتماعهم في المدينة جواراً . وأما الأعراف في مسمى الجوار فهي تختلف باختلاف أهلها ، ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة واصطلاحات متواضعة . قوله (والصاحب بالجنب) قيل هو الرفيق في السفر ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد والضحاك . وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي ليلى : هو الزوجة . وقال ابن جريج : هو الذي يصحبك ويلزمك رجاء نفعك . ولا يبعد أن تناول الآية جميع ما في هذه الأقوال مع زيادة عليها . وهو كل من صدق عليه أنه صاحب بالجنب : أي يجنبك كمن يقف بجنبك في تحميل علم أو تعلم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك . قوله (وابن السبيل) قال مجاهد : هو الذي يجتاز بك ماراً ، والسبيل الطريق ، فنسب المسافر إليه لمروره عليه ولزومه إياه ، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر فإن على المقيم أن يحسن إليه ؛ وقيل هو المنقطع به ؛ وقيل هو الضيف . قوله (وما ملكت أيمانكم) أي وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم إحساناً ، وهم العبيد والإماء ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يطعمون مما يطعم مالكمهم ويلبسون مما يلبس . والمختال ذو الخيلاء وهو الكبر والفيه : أي لا يحب من كان متكبراً تأثها على الناس مفتخراً عليهم . والفخر : المدح للنفس والتطاول وتعاليه المناقب ، وخص هاتين الصفتين لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة مما ندب الله إليه في هذه الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (والجار ذي القربى) يعني الذي بينك وبينه قرابة (والجار الجنب) يعني الذي ليس بينك وبينه قرابة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن نواف البكال قال : الجار ذي القربى : المسلم ، والجار الجنب : اليهودي والنصراني . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (والصاحب بالجنب) قال الرفيق في السفر . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة ومجاهد مثله . وأخرج الحكيم والترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم (والصاحب بالجنب) قال : هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر وامرأتك التي تضاجعك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي قال : هو المرأة . وأخرج هؤلاء والطبراني عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وما ملكت أيمانكم) قال : مما خولك الله فأحسن صحبته : كل هذا أوصى الله به . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نحوه وقد ورد مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في برّ الوالدين وفي صلة القرابة ، وفي الإحسان إلى اليتامى ، وفي الإحسان إلى الجار ، وفي القيام بما يحتاجه الممالك أحاديث كثيرة

قد اشتملت عليها كتب السنة لاحاجة بنا إلى بسطها هنا ، وهكذا ورد في ذم الكبر والاختيال والفخر ما هو معروف .
 الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا
 لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٢٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
 بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٢٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٢٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
 أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ
 لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) .

قوله (الذين يبخلون) هم في محل نصب بدلا من قوله (من كان مختالا) أو على الذم ، أوفى محل رفع على
 الابتداء والخبر مقدّر : أى لم كذا وكذا من العذاب ، ويجوز أن يكون مرفوعا بدلا من الضمير المستتر في قوله
 (مختالا فخورا) ويجوز أن يكون منصوبا على تقدير أعنى ، أو مرفوعا على الخبر والمبتدأ مقدّر : أى هم الذين
 يبخلون ، والحماة في محل نصب على البدل . والبخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله ،
 وهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذى هو أشدّ خصال الشر ما هو أقبح منه وأدل
 على سقوط نفس فاعله ، وبلوغه في الرذالة إلى غايتها ، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم وكتمهم لما أنعم الله به عليهم
 من فضله (يأمرؤن الناس بالبخل) كأنهم يجحدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا ومضاضة ، فلا كثر في
 عبادته من أمثالكم ، هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها في مواضعه ، فما بالكم بخلتم
 بأموال غيركم ؟ مع أنه لا يلحقكم في ذلك ضرر ، وهل هذا إلا غاية اللوم ونهاية الحقد والرقاعة وقبح الطباع وسوء
 الاختيار . وقد تقدم اختلاف القراءات في البخل . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية اليهود فلمنهم جمعوا بين الاختيال
 والفخر والبخل بالمال وكتبان ما أنزل الله في التوراة ؛ وقيل المراد بها المنافقون ، ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك
 وأكثر شمولاً وأعمّ فائدة . قوله (والذين ينفقون أموالهم رياء الناس) عطف على قوله (الذين يبخلون) ووجه ذلك
 أن الأولين قد فرطوا بالبخل وبأمر الناس به وبكتّم ما آتاهم الله من فضله ، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير
 مواضعها لمجرد الرياء والسمعة كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم ، ويتناول على غيره بذلك ويشمخ بأنفه
 عليه ، مع ماضم إلى هذا الإنفاق الذى يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله وباليوم الآخر . قوله (ومن يكن
 الشيطان له قرينا) في الكلام إضمار ، والتقدير ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان (ومن يكن
 الشيطان له قرينا فساء قرينا) والقرين المقارن ، وهو الصاحب والتحليل . والمعنى : من قبل من الشيطان في الدنيا
 فقد قازنه فيها ، أو فهو قرينه في النار فساء الشيطان قرينا (وماذا عليهم) أى على هذه الطوائف (لو آمنوا بالله
 واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) ابتغاء لوجهه وامتنالا لأمره : أى وماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك

قوله (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) المثقال مفعول من الثقل كالمقدار من القدر ، وهو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف : أى لا يظلم شيئا مثقال ذرة . والذرة واحدة الذر . وهى النمل الصغار ؛ وقيل رأس النملة ؛ وقيل الذرة الخردلة ؛ وقيل كل جزء من أجزاء الهباء الذى يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة أو غيرها ذرة . والأول هو المعنى اللغوى الذى يجب حمل القرآن عليه . والمراد من الكلام أن الله لا يظلم كثيرا ولا قليلا : أى لا يبخسهم من ثواب أعمالهم ولا يزيد فى عقاب ذنوبهم وزن ذرة فضلا عما فوقها . قوله (وإن تك حسنة يضاعفها) قرأ أهل الحجاز « حسنة » بالرفع . وقرأ من عداهم بالنصب ؛ والمعنى على القراءة الأولى : إن توجد حسنة ، على أن « كان » هى التامة لا الناقصة ؛ وعلى القراءة الثانية : إن تك فعلته حسنة يضاعفها ؛ وقيل إن التقدير : إن تك مثقال الذرة حسنة ، وأنث ضمير المثقال لكونه مضافا إلى المؤنث والأول أولى . وقرأ الحسن (نضاعفها) بالنون ، وقرأ الباقر بالباء ، وهى الأرجح لقوله (ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقد تقدم الكلام فى المضاعفة والمراد مضاعفة ثواب الحسنة قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) كيف منصوبة بفعل مضمر كما هو رأى سيويه ، أو محلها رفع على الابتداء كما هو رأى غيره ، والإشارة بقوله (هؤلاء) إلى الكفار ، وقيل إلى كفار قريش خاصة . والمعنى : فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ وهذا الاستفهام معناه التوبيخ والتفريع (يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) قرأ نافع وابن عامر (تسوى) بفتح التاء وتشديد السين ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء وتخفيف السين ، وقرأ الباقر بضم التاء وتخفيف السين . والمعنى على القراءة الأولى والثانية : أن الأرض هى التى تسوى بهم : أى أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها ؛ وقيل الباء فى قوله (بهم) بمعنى على : أى تسوى عليهم الأرض . وعلى القراءة الثالثة الفعل مبنى للمفعول : أى لو سوى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لا يبعثوا . قوله (ولا يكتُمون الله حديثا) عطف على (يودّ) أى يومئذ يودّ الذين كفروا ويومئذ لا يكتُمون الله حديثا ولا يقلدرون على ذلك . قال الزجاج : قال بعضهم (لا يكتُمون الله حديثا) مستأنف لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقلدرون على كتمانهم . وقال بعضهم : هو معطوف . والمعنى : يودّون أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتُموا الله حديثا لأنه ظهر كذبهم .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان كردم بن يزيد حليف كعب بن الأشرف وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحرى بن عمرو وحى بن أخطب ورفاعة بن زيد بن الثابت يأتون رجلا من الأنصار ينصحبونهم فيقولون : لاتنفقوا أموالكم فلما نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فلانكم لاتلدرون ما يكون ؟ فأنزل الله فيهم (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) إلى قوله (وكان الله بهم عليما) . وقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنها نزلت فى اليهود . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد . وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبيرة . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) قال : رأس نملة حمراء . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة فى قوله (وإن تك حسنة) وزن ذرة زادت على سيئاته (يضاعفها) فأما المشرك فيخفف به عنه العذاب ولا يخرج من النار أبدا . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرأ على قلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم إني أحب أن أسمع من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال : حسبك الآن فإذا تنرفغان . وأخرجه الحاكم وصححه من حديث عمرو بن حريث .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (لو تسوى بهم الأرض) يعني : أن تسوى الأرض بالجبال والأرض عليهم وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية : يقول ودّوا لو انخرقت بهم الأرض فساخوا فيها . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يكتُمون الله حديثا) قال : بجوارحهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا (٤٣) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا) جعل الخطاب خاصا بالمؤمنين لأنهم كانوا يقربون الصلاة حال السكر ، وأما الكفار فهم لا يقربونها سكارى ولا غير سكارى . قوله (لا تقربوا) قال أهل اللغة : إذا قيل لا تقرب بفتح الراء معناه لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه : لا تدن منه . والمراد هنا : النهي عن التلبس بالصلاة وغشيانها . وبه قال جماعة من المفسرين ، وإليه ذهب أبو حنيفة . وقال آخرون المراد مواضع الصلاة ، وبه قال الشافعي . وعلى هذا فلا بد من تقدير مضاف ، ويقوى هذا قوله (ولا جنبا إلا عابري سبيل) وقالت طائفة : المراد الصلاة ومواضعها معا ، لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة ، ولا يصلون إلا مجتمعين ، فكانا متلازمين . قوله (وأنتم سكارى) الجملة في محل نصب على الحال ، وسكارى جمع سكران ، مثل كسالى جمع كسلان . وقرأ النخعي «سكرى» بفتح السين ، وهو تكسير سكران . وقرأ الأعمش «سكرى» كحبل صفة مفردة . وقد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا سكر الخمر ، إلا الضحاك فإنه قال : المراد سكر النوم . وسيأتي بيان سبب نزول الآية ، وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال . قوله (حتى تعلموا ما تقولون) هذا غاية النهي عن قربان الصلاة في حال السكر : أي حتى يزول عنكم أثر السكر وتعلموا ما تقولونه ، فإن السكران لا يعلم ما يقوله وقد تمسك بهذا من قال : إن طلاق السكران لا يقع ، لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد . وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة ، وهو قول الليث بن سعد وإسحاق وأبي ثور والمزني . واختاره الطحاوي وقال : أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز ، والسكران معتوه كالموسوس . وأجازت طائفة وقوع طلاقه وهو محكي عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين ، وهو قول أبي حنيفة والثوري والأوزاعي . واختلف قول الشافعي في ذلك . وقال مالك : يلزمه الطلاق والقود في الجراح والقتل ولا يلزمه النكاح والبيع . قوله (ولا جنبا) عطف على محل الجملة الحالية ، وهي قوله (وأنتم سكارى) والجنب لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع لأنه ملحق بالمصدر كالبعد والقرب . قال الفراء : يقال جنب الرجل وأجنب من الجنابة ، وقيل يجمع الجنب في لغة على أجناب ، مثل عتق وأعناق ، وطنب وأطناب . وقوله (إلا عابري سبيل) استثناء مفرغ ، أي لا تقربوها في حال من الأحوال إلا في حال عبور السبيل . والمراد به هنا السفر ، ويكون محل هذا الاستثناء المفرغ النصب على الحال من ضمير لا تقربوا بعد تقييده بالحال الثانية ، وهي قوله (ولا جنبا) لا بالحال الأولى ، وهي قوله (وأنتم سكارى) فيصير المعنى :

لا تقربوا الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال السفر ، فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم ، وهذا قول عليّ وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحكم وغيرهم ، قالوا : لا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد الاغتسال إلا المسافر فإنه يتيمم ، لأن الماء قد يعدم في السفر لافي الحضر ، فإن الغالب أنه لا يعدم . وقال ابن مسعود وعكرمة والنخعي وعمرو بن دينار ومالك والشافعي : عابر السبيل هو المجتاز في المسجد ، وهو مروي عن ابن عباس ، فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة : وهي المساجد في حال الجنابة إلا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب إلى جانب ، وفي القول الأول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقي ، وضعف من جهة ما في حمل عابر السبيل على المسافر ، وإن معناه : أنه يقرب الصلاة عند عدم الماء بالتيمم ، فإن هذا الحكم يكون في الحاضر إذا عدم الماء ، كما يكون في المسافر وفي القول الثاني قوة من جهة عدم التكلف في معنى قوله (إلا عابري سبيل) وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها ، وبالجملة فالحال الأولى ، أعني قوله (وأنتم سكارى) تقوى بقاء الصلاة على معناها الحقيقي من دون تقدير مضاف ، وكذلك ما سيأتي من سبب نزول الآية يقوى ذلك . وقوله (إلا عابري سبيل) يقوى تقدير المضاف : أي لا تقربوا مواضع الصلاة . ويمكن أن يقال : إن بعض قيود النهي أعني « لا تقربوا » وهو قوله (وأنتم سكارى) يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقي وبعض قيود النهي وهو قوله (إلا عابري سبيل) يدل على أن المراد مواضع الصلاة ، ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه ، ويكون ذلك بمنزلة نهين مقيد كل واحد منهما بقيد ، وهما لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى ، ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم في المسجد من جانب إلى جانب ، وغاية ما يقال في هذا أنه من الجمع بين الحقيقة والحجاز وهو جائز بتأويل مشهور . وقال ابن جرير بعد حكايته للقولين : والأولى قول من قال (ولا جنباً إلا عابري سبيل) إلا مجتازي طريق فيه ، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء ، وهو جنب في قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجملوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) فكان معلوماً بذلك : أي أن قوله (ولا جنباً إلا عابري سبيل) حتى تغتسلوا) لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر) معنى مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل . قال : والعابر السبيل المجتاز مرّاً وقطعاً ، يقال منه : عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبراً وعبوراً ، ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ؛ ومنه قيل للناقة القوية : هي عبر أسفار لقوتها على قطع الأسفار . قال ابن كثير : وهذا الذي نصره يعني ابن جرير هو قول الجمهور ، وهو الظاهر من الآية انتهى . قوله (حتى تغتسلوا) غاية للنهي عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة . والمعنى : لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا إلا حال عبوركم السبيل . قوله (وإن كنتم مرضى) المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ ، وهو على ضربين كثير ويسير . والمراد هنا : أن يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء ، أو كان ضعيفاً في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء . وروى عن الحسن أنه يتطهر وإن مات ، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . وقوله - ولا تقتلوا أنفسكم - وقوله - يريد الله بكم اليسر - قوله (أو على سفر) فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر ، والخلاف مبسوط في كتب الفقه ، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر ، وقال قوم : لا بد من ذلك . وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر . واختلفوا

في الحاضر ، فذهب مالك وأصحابه وأبو حنيفة ومحمد إلى أنه يجوز في الحضر والسفر . وقال الشافعي : لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف . قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط) هو المكان المنخفض والمجى منه كناية عن الحدث ، والجمع الغيطان والأغواط ، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تسترا عن أعين الناس ، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطا توسعا ، ويدخل في الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء . قوله (أولا مستم النساء) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر « لا مستم » وقرأ حمزة والكسائي « لمستم » قيل المراد بها بما في القراءتين الجماع ؛ وقيل المراد به مطلق المباشرة ؛ وقيل إنه يجمع الأمرين جميعا . وقال محمد بن يزيد المبرد : الأولى في اللغة أن يكون « لا مستم » بمعنى قبلتم ونحوه ، و« لمستم » بمعنى غشيتم .

واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال ، فقالت فرقة : الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع ، قالوا : والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجرد الماء . وقد روى هذا عن عمرو بن الخطاب وابن مسعود . قال ابن عبد البر : لم يقل بقولهما في هذه المسئلة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي ، وحالة الآثار انتهى . وأيضا الأحاديث الصحيحة تدفعه وتبطله كحديث عمار وعمران بن حصين وأبي ذر في تيمم الجنب . وقالت طائفة : هو الجماع كما في قوله - ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن - ، وقوله - وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن - وهو مروي عن علي وأبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة ومقاتل بن حبان وأبي حنيفة . وقال مالك : الملامس بالجماع يتيمم ، واللامس باليد يتيمم إذا التذ ، فإن لمسها بغير شهوة فلا وضوء ، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال الشافعي : إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد أو غيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة والإفلا . وحكاه القرطبي عن ابن مسعود وابن عمر والزهرى وربيعة . وقال الأوزاعي : إذا كان اللبس باليد نقض الطهر ، وإن كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى - فلمسوه بأيديهم - وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المذكورة في الآية هي ما ذهبت إليه ، وليس الأمر كذلك . فقد اختلفت الصحابة ومن بعدهم في معنى الملامسة المذكورة في الآية ، وعلى فرض أنها ظاهرة في الجماع ، فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة والكسائي بلفظ « أولمستم » وهي محتملة بلا شك ولا شبهة ، ومع الاحتمال فلا تقوم الحجة بالمحتمل . وهذا الحكم تعم به البلوى ويثبت به التكليف العام ، فلا يحل إثباته بمحتمل قد وقع النزاع في مفهومه . وإذا عرفت هذا فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب ولم يجرد الماء ، فكان الجنب داخلا في الآية بهذا الدليل ، وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفي في ذلك . وأما وجوب الوضوء أو التيمم على من لمس المرأة بيده أو بشيء من بدنه فلا يصح القول به استدلالا بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال . وأما ما استدلوا به من أنه صلى الله عليه وآله وسلم أتاه رجل فقال : يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها ؟ وليس يأتي الرجل من امرأته شيئا إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها فأنزل الله أقم الصلاة طر في النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين - . أخرجه أحمد والترمذي والنسائي من حديث معاذ ، قالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها ، ولا يخفك أنه لا دلالة بهذا الحديث على محل النزاع ، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما أمره بالوضوء ليأتي بالصلاة التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية ، إذ لا صلاة إلا بوضوء . وأيضا فالحديث منقطع لأنه من رواية ابن أبي ليلى عن معاذ ولم يلقه ، وإذا عرفت هذا فالأصل البراءة عن هذا الحكم ، فلا يثبت إلا بدليل خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة . وأيضا قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ ثم يقبل ، ثم يصلي ولا يتوضأ » . وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة ، رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجه

وما قيل من أنه من رواية حبيب بن أبي ثابت عن عروة عن عائشة ولم يسمع من عروة فقد رواه أحمد في مسنده من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، ورواه ابن جرير من حديث ليث عن عطاء عن عائشة ، ورواه أحمد أيضا وأبو داود والنسائي من حديث أبي روق الهمداني عن إبراهيم التيمي عن عائشة ورواه أيضا ابن جرير من حديث أم سلمة ، ورواه أيضا من حديث زينب السهمية . ولفظ حديث أم سلمة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ولا يفطر ولا يتحدث وضوءا » . ولفظ حديث زينب السهمية : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ » . ورواه أحمد عن زينب السهمية عن عائشة : قوله (فلم تجلدوا ماء) هذا القيد إن كان راجعا إلى جميع ما تقدم مما هو مذکور بعد الشرط ، وهو المرض والسفر والحجى من الغائط وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض والسفر بمجردهما لا يسوّغان التيمم ، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء ، ولا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء ، ولكنه يشكّل على هذا أن الصحيح كالمرضى إذا لم يجد الماء تيمم ، وكذلك المقيم كالسافر إذا لم يجد الماء تيمم ، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر ؛ فقل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء ، وكذلك المسافر عدم الماء في حقه غالب ، وإن كان راجعا إلى الصورتين الأخيرتين : أعنى قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال ، وهو أن من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم ، وإن كان واجدا للماء قادرا على استعماله وقد قيل إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبرا في الأولين لندرة وقوعه فيهما . وأنت خير بأن هذا كلام ساقط وتوجيه بارد . وقال مالك ومن تابعه : ذكر الله المرض والسفر في شرط التيمم اعتبارا بالأغلب في من لم يجد الماء بخلاف الحاضر ، فإن الغالب وجوده ، فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه انتهى . والظاهر أن المرض بمجرد مسوّغ للتيمم ، وإن كان الماء موجودا إذا كان يتضرر باستعماله في الحال أو في المال ، ولا تعتبر خشية التلف فالله سبحانه يقول - يريد الله بكم اليسر - ويقول - وما جعل عليكم في الدين من حرج - ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول « الدين يسر » ويقول « يسروا ولا تعسروا » وقال « قتلوه قتلهم الله » ويقول « أمرت بالشرعة السمحة » فإذا قلنا : إن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع كان وجه التنصيص على المرض هو أنه يجوز له التيمم والماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضره ، فيكون اعتبار ذلك القيد في حقه إذا كان استعماله لا يضره ، فإن في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب ، لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف . وأما وجه التنصيص على المسافر فلا شك أن الضرب في الأرض مظنة لإعواز الماء في بعض البقاع دون بعض . قوله (فتيمموا) التيمم لغة : القصد ، يقال : تيممت الشيء : قصدته ، وتيممت الصعيد : تعمّدته ، وتيممته بسهمى ورحى : قصدته دون من سواه ، وأنشد الخليل :
تيممته الرمح شزرا ثم قلت له هذى البسالة لا لعب الزحاليق

وقال امرؤ القيس :

تيممها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عالى

وقال : تيممت العين التي عند ضارج نوى عليها الظل عرمضا ظامى

قال ابن السكيت : قوله (فتيمموا) أى اقصدوا ، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب . وقال ابن الأنبارى في قولهم قد تيمم الرجل : معناه قد مسح التراب على وجهه ، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوى بالمعنى الشرعى ، فإن العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين ، وإنما هو معنى شرعى

فقط ، وظاهر الأمر الوجوب ، وهو مجمع على ذلك . والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وتفصيل التيمم وصفاته مبينة في السنة المطهرة ومقالات أهل العلم مدونة في كتب الفقه ، قوله (صعيدا) الصعيد : وجه الأرض سواء كان عليه تراب أو لم يكن ، قاله الخليل وابن الأعرابي والزجاج . قال الزجاج : لأعلم فيه خلافا بين أهل اللغة ، قال الله تعالى - وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا - أى أرضا غليظة لاتنبت شيئا ، وقال تعالى - فتصبح صعيدا زلقا - وقال ذو الرمة :

كأنه بالضحي يرى الصعيد به ونابه في عظام الرأس خرطوم

وإنما سمي صعيدا لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض ، وجمع الصعيد صعيدات .

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به ، فقال مالك وأبو حنيفة والثوري والطبري : إنه يجزئ بوجه الأرض كله ترابا كان أو رملا أو حجارة ، وحملوا قوله (طيبا) على الطاهر الذي ليس بنجس . وقال الشافعي وأحمد وأصحابهما : إنه لا يجزئ التيمم إلا بالتراب فقط ، واستدلوا بقوله تعالى (صعيدا زلقا) أى ترابا أملس طيبا ، وكذلك استدلوا بقوله (طيبا) قالوا : والطيب التراب الذي ينبت . وقد تنوزع في معنى الطيب ، فقيل الطاهر كما تقدم ، وقيل المنبت كما هنا ، وقيل الحلال . والمحتمل لا تقوم به حجة وأو لم يوجد في الشيء الذي يتيمم به إلا ما في الكتاب العزيز ، لكان الحق ما قاله الأولون ، لكن ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فضلنا الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء » وفي لفظ « وجعل ترابها لنا طهورا » فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور في الآية ، أو مخصص لعمومه ، أو مقيد لإطلاقه ، ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل : تيمم بالصعيد : أى أخذ من غباره انتهى ، والحجر الصلد لا غبار له . قوله (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) هذا المسح مطلق يتناول المسح بضربة أو ضربتين ، ويتناول المسح إلى المرفقين أو إلى الرسغين ، وقد بينته السنة بيانا شافيا ، وقد جمعنا بين ما ورد في المسح بضربة وبضربتين وما ورد في المسح إلى الرسغ وإلى المرفقين في شرحنا للمتقى وغيره من مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره . قوله (إن الله كان عفوا غفورا) أى عفا عنكم وغفر لكم تقصيركم ورحمكم بالترخيص لكم والتوسعة عليكم .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والضياء في المختارة عن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما ، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : أن الذي صلى بهم عبد الرحمن . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في الآية قال : نزلت في أبي بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد ، صنع لهم على طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا ، ثم صلى بهم المغرب فقرا - قل يا أيها الكافرون - حتى ختمها فقال : ليس لي دين وليس لكم دين ، فنزلت . وأخرج عبد ابن حميد وأبو داود والنسائي والبيهقي في سننه عن ابن عباس في هذه الآية قال : نسخها - إنما الخمر والميسر - الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : لم يعن بها الخمر إنما عني بها سكر النوم . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس (وأنتم سكارى) قال : النعاس . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن علي . قوله (ولا جنبا إلا عابري سبيل) قال : نزلت في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلي . وفي لفظ قال : لا يقرب الصلاة إلا أن يكون

مسافرا تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيتيمم ويصلي حتى يجد الماء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس في الآية يقول : لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إذا وجدتم الماء ، فإن لم تجدوا الماء فقد أحلت أن تمسحوا بالأرض . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لا يمر الجنب ولا الحائض في المسجد ، إنما أنزلت (ولا جنباً إلا عابري سبيل) للمسافر يتيمم ثم يصلي . وأخرج الدارقطني والطبراني وأبو نعيم في المعرفة ، وابن مردويه والبيهقي في سننه والضياء في المختارة عن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأصابتنى جنابة في ليلة باردة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرحلة ، فكرهت أن أرحل ناقة وأنا جنب ، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض ، فأمرت رجلاً من الأنصار فرحلتها ، ثم رضفت أحجاراً فأفخنت بها ماء فاغتسلت ، ثم لحقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، فقال : يا أسلع ، مالي أرى راحلتك تغيرت ؟ قلت : يا رسول الله لم أرحلها ، رحلتها رجل من الأنصار ، قال : ولم ؟ قلت : إني أصابتنى جنابة فخشيت القر على نفسي ، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجاراً فأفخنت بها ماء فاغتسلت ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا) إلى قوله (ولا جنباً إلا عابري سبيل) . وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني والبيهقي من وجه آخر عن أسلع قال « كنت أخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأرحل له ، فقال لي ذات ليلة : يا أسلع قم فارحل لي ، قلت : يا رسول الله أصابتنى جنابة ، فسكت عني ساعة حتى جاء جبريل بآية الصعيد ، فقال : قم يا أسلع فتيمم » الحديث . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس (لا تقربوا الصلاة) قال : المساجد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق عطاء الخراساني عنه (ولا جنباً إلا عابري سبيل) قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل ، قال : تمر به مرأوا ولا تجلس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبد الرزاق والبيهقي في سننه عنه أنه كان يرخص للجنب أن يمر في المسجد ولا يجلس فيه ، ثم قرأ قوله (ولا جنباً إلا عابري سبيل) . وأخرج البيهقي عن أنس نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي عن جابر قال : كان أحدنا يمر في المسجد وهو جنب مجتازاً . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وإن كنتم مرضى) قال : نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ولم يكن له خادم فيناوله ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (وإن كنتم مرضى) قال : هو الرجل المجذور أو به الجراح أو القرع يجنب فيخاف إن اغتسل أن يموت فيتيمم . وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال : نال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جراح ففشت فيهم ، ثم ابتلوا بالجنابة ، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت (وإن كنتم مرضى) الآية . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي من طرق عن ابن مسعود في قوله (أو لأمستم النساء) قال : اللمس مادون الجماع والقبلة منه ، وفيه الوضوء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة ، ويقول هي اللباس . وأخرج الدارقطني والبيهقي والحاكم عن عمر قال : إن القبلة من اللمس فتوضأ منها . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي قال : اللمس هو الجماع ولكن الله كفى عنه . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبيرة قال : كنا في حجرة ابن عباس ومعنا عطاء بن أبي رباح ونفر من الموالي وعبيد بن عمير ونفر من العرب فتذاكرنا للباس ، فقلت أنا وعطاء والموالي : اللمس باليد ، وقال

عبيد بن عمير والعرب : هو الجماع ، فدخلت على ابن عباس فأخبرته فقال : غلبت الموالي وأصابته العرب ، ثم قال : إن اللبس والمس والمباشرة إلى الجماع ماهو ، ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : إن أطيّب الصعيد أرض الحرث .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٩) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٥٠) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٥١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٥٢) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٥٣) قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ) كلام مستأنف ، والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين ، والنصيب : الحظ ، والمراد اليهود أوتوا نصيبا من التوراة . وقوله (يَشْتَرُونَ) جملة حالية ، والمراد بالاشتراء الاستبدال ، وقد تقدم تحقيق معناه . والمعنى : أن اليهود استبدلوا الضلالة ، وهي البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ) عطف على قوله (يَشْتَرُونَ) مشارك له في بيان سوء صنيعهم وضعف اختيارهم : أى لم يكفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى ، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتهم وجحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذى هو سبيل الحق (والله أعلم بأعدائكم) أيها المؤمنون وما يريدونه بكم من الإضلال ، والجملة اعتراضية (وكفى بالله وليا) لكم (وكفى بالله نصيرا) ينصركم في مواطن الحرب ، فاكفوا بولايته ونصره ولا تتولوا غيره ولا تستنصروه ، والباء في قوله (بالله) في الموضعين زائدة . قوله (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) قال الزجاج : إن جعلت متعلقة بما قبل فلا يوقف على قوله (نصيرا) وإن جعلت منقطعة ، فيجوز الوقف على « نصيرا » والتقدير : من الذين هادوا قوم يحرفون ، ثم حذف ، وهذا مذهب سيويه ، ومثله قول الشاعر :

لو قلت ما في قومها لم أئتم بفضلها في حسب وميسم

قالوا : المعنى : لو قلت ما في قومها أحد بفضلها ، ثم حذف . وقال القراء : المحذوف لفظ من : أى من

الذين هادوا من يحرفون الكلم كقوله - وما منا إلا له مقام معلوم - أى من له ، ومنه قول ذى الرمة :

• فظلوا ومنهم حممه سابق له • أى من حممه ، وأنكره المبرد والزجاج ، لأن حذف الموصول كحذف بعض

الكلمة ، وقيل إن قوله (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) بيان لقوله (الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ) . والتحريف : الإمالة

والإزالة : أى يميلونه ويزيلونه عن مواضعه ويجعلون مكانه غيره ؛ أو المراد أنهم يتأولونه على غير تأويله وذمهم الله عز وجل بذلك ، لأنهم يفعلونه عنادا وبغيا ، وتأثيرا لغرض الدنيا . قوله (ويقولون سمعنا وعصينا) أى سمعنا قولك وعصينا أمرك (واسمع غير مسمع) أى اسمع حال كونك غير مسمع . وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى : اسمع لاسمعت ، ويحتمل أن يكون المعنى : اسمع غير مسمع مكروها ، أو اسمع غير مسمع جوابا . وقد تقدم الكلام فى راعنا . ومعنى : (ليا بالسنتهم) أنهم يلوونها عن الحق : أى يميلونها إلى ما فى قلوبهم ، وأصل اللى : القتل ، وهو منتصب على المصدر ، ويجوز أن يكون مفعولا لأجله . قوله (وطعنا فى الدين) معطوف على ليا : أى يطعنون فى الدين بقولهم : لو كان نبيا لعلم أنا نسبه ، فأطلع الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك (ولو أنهم قالوا سمعنا) قولك (وأطعنا) أمرك (واسمع) مانقول (وانظرونا) أى لو قالوا هذا مكان قولهم راعنا (لكان خيرا لهم) مما قالوه (وأقوم) أى أعدل وأولى من قولهم الأول وهو قولهم (سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا) لما فى هذا من المخالفة وسوء الأدب ، واحتمال الذم فى راعنا (ولكن) لم يسلكوا المسلك الحسن ويأتوا بما هو خير لهم وأقوم ، ولهذا (لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) أى إلا إيمانا قليلا ، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض وبعض الرسل دون بعض . قوله (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) ذكر سبحانه أولا أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، وهنا ذكر أنهم أوتوا الكتاب . والمراد أنهم أوتوا نصيبا منه ، لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه ، بل حرقوا وبدلوا . وقوله (مصدقا) منتصب على الحال . والطمس : استئصال أثر الشيء ، ومنه - وإذا النجوم طمست - يقال نطمس بكسر الميم وضمتها لغتان فى المستقبل ويقال طمس الأثر أى محاه كله ، ومنه - ربنا اطمس على أموالهم - أى أهلكها ويقال هو مطموس البصر ، ومنه - ولو نشاء لطمسنا على أعينهم - أى أعينناهم .

واختلف العلماء فى المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة ؟ فيجعل الوجه كالقفا ، فيذهب بالأنف والقم والحاجب والعين ؛ أو ذلك عبارة عن الضلالة فى قلوبهم وسلبيهم التوفيق ؟ فذهب إلى الأول طائفة ، وذهب إلى الآخر آخرون ، وعلى الأول فالمراد بقوله (فردها على أدبارها) نجعلها قفا : أى نذهب بآثار الوجه ونخطيطه حتى يصير على هيئة القفا ؛ وقيل إنه بعد الطمس يردّها إلى موضع القفا ، والقفا إلى مواضعها ، وهذا هو الصق بالمعنى الذى يفيد قوله (فردها على أدبارها) . فإن قيل : كيف جاز أن يهدّهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم ؟ فقول : إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الياقين . وقال المبرد : الوعيد باق منتظر وقال : لا بدّ من طمس فى اليهود ، ونسخ قبل يوم القيامة . قوله : (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) الضمير عائد إلى أصحاب الوجوه ، قيل المراد باللعن هنا المسخ لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت ، وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قرودة وخنازير ؛ وقيل المراد نفس اللعنة وهم ملعونون بكل لسان . والمراد وقوع أحد الأمرين : إما الطمس ، أو اللعن . وقد وقع اللعن ، ولكنه يقوى الأول تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت . قوله (وكان أمر الله مفعولا) أى كائنا موجودا لا محالة ، أو يراد بالأمر المأمور . والمعنى أنه متى أرادته كان ، كقوله - إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون - . قوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، ولا يختص بكفار أهل الحرب ، لأن اليهود قالوا عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالوا ثالث ثلاثة . ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التى تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته ؛ وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . قال ابن جرير : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه مالم تكن كبيرته شركا بالله عز وجل . وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون

لمن اقتضته مشيئته تفضيلاً منه ورحمة وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة ، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة . وقد تقدم قوله تعالى - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن الثابت من عظماء اليهود ، وإذا كلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لوى لسانه وقال : أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك ، ثم طعن في الإسلام وعابه ، فأنزل الله فيه (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (يحرفون الكلم عن مواضعه) يعني : يحرفون حدود الله في التوراة وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (يحرفون الكلم عن مواضعه) قال : تبديل اليهود التوراة (ويقولون سمعنا وعصينا) قالوا : سمعنا ما تقول ولا نطيعك (واسمع غير مسمع) قال : غير مقبول ما تقول (ليا بالسنتهم) قال : خلافاً يلوون به ألسنتهم (واسمع وانظرنا) قال : أفهمنا لاتعجل علينا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس في قوله (واسمع غير مسمع) قال : يقولون اسمع لاسمعت . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : كلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رؤساء من أحبار اليهود : منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسد ، فقال لهم : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتمكم به الحق . فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وأنزل الله فيهم (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (من قبل أن نطمس وجوهاً) قال : طمسها أن تعمى (فردّها على أدبارها) يقول : نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم فيمشون القهقري ، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (من قبل أن نطمس وجوهاً) يقول : عن صراط الحق (فردّها على أدبارها) قال : في الضلالة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام ، قال : وما دينه ؟ قال : يصلي ويوحّد الله ، قال : استوهب منه دينه فإن أبي فابتعه منه ، فطلب الرجل منه ذلك فأبى عليه ، فأبى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ، فقال : وجدته شحيحاً على دينه ، فنزلت (إن الله لا يغفر إن يشرك به) الآية . وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى وابن المنذر وابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال : كنا نتمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وقال : إني أدّخرت دعوتي وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : لما نزلت - يا عبادة الذين أسرفوا على أنفسهم - الآية قام رجل فقال : والشرك يا نبي الله ؟ فكره ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية . وأخرج ابن المنذر عن أبي مجلز أن سبّواً هذا الرجل هو سبب نزول (إن الله لا يغفر أن يشرك به) . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال في هذه الآية : إن الله حرّم المغفرة على من مات وهو كافر ، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة . وأخرج الترمذي وحسنه عن علي قال : أحب آية إلى في القرآن (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)

أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا
نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ
الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَخْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)
فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥).

قوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) تعجيب من حالهم . وقد اتفق المفسرون على أن المراد اليهود . واختلفوا
في المعنى الذي زكوا به أنفسهم ، فقال الحسن وقتادة : هو قولهم - نحن أبناء الله وأحباؤه - وقولهم - لن يدخل
الجنة إلا من كان هودا أو نصارى - وقال الضحاك : هو قولهم لا ذنوب لنا ونحن كالأطفال ؛ وقيل قولهم : إن
آباءهم يشفعون لهم ؛ وقيل ثناء بعضهم على بعض . ومعنى التزكية : التطهير والتنزيه ، فلا يبعد صدقها على جميع
هذه التفاسير وعلى غيرها ، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو يبطل من اليهود وغيرهم ، ويدخل في هذا
التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية كمحيي الدين وعز الدين ونحوهما . قوله (بل الله يزكى من يشاء) أى ذلك إليه
سبحانه فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده ومن لا يستحقها ، فليدع العباد تزكية أنفسهم ويفوضوا أمر ذلك
إلى الله سبحانه ، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس وطلب العلو والترفع والتفاخر ،
ومثل هذه الآية قوله تعالى - فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى - . قوله (ولا تظلمون) أى هؤلاء المزكون لأنفسهم
(فتيلا) وهو الخيط الذى فى نواة التمر ، وقيل القشرة التى حول النواة ؛ وقيل هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفيك من
الوسخ إذا فتلتهما ، فهو فتيل بمعنى مفتول ، والمراد هنا : الكناية عن الشيء الحقير ، ومثله - ولا يظلمون نقيرا -
وهو النكتة التى فى ظهر النواة . والمعنى : أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا
الذنب ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون ، ويجوز أن يعود الضمير إلى (من يشاء) أى لا يظلم هؤلاء الذين
يزكيهم الله فتيلا مما يستحقونه من الثواب ، ثم عجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تزكيتهم لأنفسهم فقال
(انظر كيف يفترون على الله الكذب) فى قولهم ذلك : والافتراء : الاختلاق ، ومنه افترى فلان على فلان : أى
رماه بما ليس فيه ، وفريت الشيء : قطعته ، وفى قوله (وكفى به إثما مبينا) من تعظيم الذنب وتهويله مالا يخفى .
قوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول وهم اليهود .

واختلف المفسرون فى معنى الجبْت : فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالية ، الجبْت : الساحر بلسان الحبشة
والطاغوت : الكاهن ، وروى عن عمر بن الخطاب أن الجبْت : السحر ، والطاغوت الشيطان . وروى عن ابن
مسعود أن الجبْت والطاغوت هما كعب بن الأشرف . وقال قتادة : الجبْت : الشيطان ، والطاغوت : الكاهن ،
وروى عن مالك أن الطاغوت : ما عبد من دون الله ، والجبْت : الشيطان ؛ وقيل هما كل معبود من دون الله
أو مطاع فى معصية الله . وأصل الجبْت الجبس ، وهو الذى لا سير فيه ، فأبدلت التاء من السين قاله قطرب ؛ وقيل
الجبْت : إبليس ، والطاغوت : أو لياؤه . قوله (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)

أى يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدي من الذين آمنوا بمحمد سبيلا : أى أقوم ديننا ، وأرشد طريقنا . وقوله (أولئك) إشارة إلى القائلين (الذين لعنهم الله) أى طردهم وأبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله ويخطئه . قوله (أم لم نصيب من الملك) أم منقطعة ، والاستفهام للإنكار ، يعنى ليس لم نصيب من الملك (فإذن لا يوتون الناس نقيرا) والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف : أى إن جعل لم نصيب من الملك فإذن لا يعطون الناس نقيرا منه لشدة بخلهم وقوة حسدهم ؛ وقيل المعنى : بل لم نصيب من الملك على أن معنى أم الإضراب عن الأول والاستئناف للثاني ؛ وقيل هى عاطفة على محذوف ، والتقدير : أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته ، أم لم نصيب من الملك ، فإذن لا يوتون الناس نقيرا ؟ والتقدير : النقرة فى ظهر النواة ؛ وقيل ما نقر الرجل بأصبعه كما ينقر الأرض . والتقدير أيضا : خشبة تنقر وينفذ فيها . وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن التقير كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما . والتقدير : الأصل ، يقال فلان كريم التقير : أى كريم الأصل . والمراد هنا : المعنى الأول ، والمقصود به المبالغة فى الحفارة كالقطمير والفتيل . وإذن هنا ملغاة غير عاملة للدخول فاء العطف عليها ، ولو نصب لجاز . قال سيبويه : إذن فى عوامل الأفعال بمنزلة أظن فى عوامل الأسماء التى تلغى إذا لم يكن الكلام معتمدا عليها ، فإن كانت فى أول الكلام وكان الذى بعدها مستقبلا نصبت . قوله (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أم منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر : أى بل يحسدون الناس يعنى اليهود يحسدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقط ، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والنصر وقهر الأعداء . قوله (فقد آتينا آل إبراهيم) هذا إلزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه : أى ليس ما آتينا محمدا وأصحابه من فضلنا يبدع حتى يحسدكم اليهود على ذلك ، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم ، وهم أسلاف محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقد تقدم تفسير الكتاب والحكمة ، والملك العظيم ؛ قيل هو ملك سليمان ، واختاره ابن جرير (فمنهم) أى اليهود (من آمن به) أى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم (ومنهم من صد عنه) أى أعرض عنه ؛ وقيل الضمير فى به راجع إلى ما ذكر من حديث آل إبراهيم ؛ وقيل الضمير راجع إلى إبراهيم . والمعنى : فن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ومنهم من صد عنه ؛ وقيل الضمير يرجع إلى الكتاب ، والأول أولى (وكفى بجهنم سعيرا) أى نارا مسعرة .

وقد أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال : إن اليهود قالوا : إن آباءنا قد توفوا وهم لنا قرابة عند الله وسيشفعون لنا ويزكونا ، فقال الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب وكذبوا ، قال الله : إني لا أظهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له ، ثم أنزل الله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أن التزكية قولهم - نحن أبناء الله وأحباؤه - وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا يظلمون فتىلا) قال : الفتيل : ما خرج من بين الأصبعين . وفى لفظ آخر عنه : هو أن تدلك بين أصبعيك فما خرج منهما فهو ذلك . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : التقير : النقرة تكون فى النواة التى نبتت منها النخلة . والفتيل : الذى يكون على شق النواة . والقطمير : القشر الذى يكون على النواة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : قال الفتيل الذى فى الشق الذى فى بطن النواة . وأخرج الطبرانى والبيهقى فى الدلائل عنه قال : قدم حنبل بن أخطب وكعب بن الأشرف مكة على قريش

فخالفوهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقالوا لهم : أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد ، قالوا : ما أنتم وما محمد ؟ قالوا : ننحر الكوماء ونسقى اللبن على الماء ، ونفك العناة ونسقى الحجيج ونصل الأرحام ، قالوا : فما محمد ؟ قالوا : صنبر : أى فرد ضعيف ، قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار ؛ فقالوا : لا بل أنتم خير منه وأهدى سبيلا ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة مرسلا . وقد روى عن ابن عباس وعن عكرمة بلفظ آخر . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير عن السدي عن أبي مالك . وأخرج نحوه أيضا البيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عكرمة قال : الجبت والطاغوت صمان . وأخرج القرياني وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر في تفسير الجبت والطاغوت ما قد مناه عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت حيي بن أخطب ، والطاغوت : كعب بن الأشرف . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت : الأصنام ، والطاغوت : الذى يكون بين يدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت : اسم الشيطان بالحبشية ، والطاغوت : كهان العرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (أم لم نصيب من الملك) قال : فليس لهم نصيب ، ولو كان لهم نصيب لم يؤمنوا الناس نقيرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : التقير : النقطة التى في ظهر النواة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس قال : قال أهل الكتاب : زعم محمد أنه أوتى ما أوتى في تواضع وله تسع نسوة وليس له همة إلا النكاح ، فأى ملك أفضل من هذا ؟ فأنزل الله هذه الآية (أم يحسدون الناس) إلى قوله (ملكا عظيما) يعنى ملك سليمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الناس في هذا الموضع النبي خاصة . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : هم هذا الحي من العرب .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) .

قوله : (بآياتنا) الظاهر عدم تخصيص بعض الآيات دون بعض ، و (سوف) كلمة تذكّر للتهديد قاله سيوييه . وينوب عنها السين . وقد تقدم معنى نصلي في أول السورة . والمراد : سوف ندخلهم نارا عظيمة . وقرأ حميد بن قيس (نصليهم) بفتح النون . قوله (كلما نضجت جلودهم) يقال : نضج الشيء نضجا ونضاجا ، ونضج اللحم وفلان نضج الرأي : أى محكمه . والمعنى : أنها كلما احترقت جلودهم بدّلهم الله جلودا غيرها : أى أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق ، فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص ، لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذى لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق ، وقيل المراد بالجلود : السراويل التى ذكرها في قوله - سراويلهم من قطران - ولا موجب لترك المعنى الحقيقى هاهنا ، وإن جاز إطلاق الجلود على السراويل مجازا كما في قول الشاعر :

كسا اللوم تبا خضرة في جلودها فويل لقيم من سرايلها الخضر

وقيل المعنى : أعدنا الجلد الأول جديدا ، ويأى ذلك معنى التبديل . قوله (لينوقوا العذاب) أى ليحصل لهم الذوق الكامل بذلك التبديل ؛ وقيل معناه : ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع ، ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين . وقد تقدم تفسير الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار . قوله (لهم فيها أزواج مطهرة) أى من الأدناس التى تكون فى نساء الدنيا . والظل الظليل الكثيف الذى لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك ؛ وقيل هو مجموع ظل الأشجار والقصور ؛ وقيل الظل الظليل : هو الدائم الذى لا يزول ، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة كما يقال : ليل أليل .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر فى قوله (كلما نضجت جلودهم) قال : إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلودا بيضاء أمثال القراطيس . وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى عنه بسند ضعيف قال : قرئ عند عمر (كلما نضجت جلودهم) الآية ، فقال معاذ : عندى تفسيرها تبدل فى ساعة مائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن مردويه أن القائل كعب وأنه قال تبدل فى الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله (ظلا ظليلا) قال : هو ظل العرش الذى لا يزول .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ
إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) .

هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع ، لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس فى جميع الأمانات ، وقد روى عن على وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين ، والأول أظهر ، وورودها على سبب كما سأتى لا ينافى ما فيها من العموم ، فلا اعتبار بعموم اللفظ لاختصاص السبب كما تقرر فى الأصول ؛ وتدخل الولاية فى هذا الخطاب دخولا أوليا ، فيجب عليهم تأدية مالىديهم من الأمانات ورد الظلمات وتحريم العدل فى أحكامهم ، ويدخل غيرهم من الناس فى الخطاب ، فيجب عليهم رد مالىديهم من الأمانات والتحريم فى الشهادات والأخبار . ومن قال بعموم هذا الخطاب : البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبى ابن كعب ، واختاره جمهور المفسرين ، ومنهم ابن جرير ، وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها : الأبرار منهم والفجار ، كما قال ابن المنذر . والأمانات جمع أمانة ، وهى مصدر بمعنى المفعول . قوله (وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل) أى وإن الله يأمركم إذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل . والعدل : هو فصل الحكومة على ما فى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا الحكم بالرأى المجرد ، فإن ذلك ليس من الحق فى شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، فلا بأس باجتهاد الرأى من الحاكم الذى يعلم بحكم الله سبحانه ، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص ، وأما الحاكم الذى لا يدرك بحكم الله ورسوله ولا بما هو أقرب إليهما فهو لا يدرك ما هو العدل ، لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله . قوله (نعم) ما موصوفة أو موصولة ، وقد قدما البحث فى مثل ذلك .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ، فنزل جبريل عليه السلام برد المفتاح ، فدعا النبى صلى الله عليه وآله وسلم عثمان بن طلحة

ورده إليه ، وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن ابن جريج : أن هذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة لما قبض منه صلى الله عليه وآله وسلم مفتاح الكعبة فدعاه ودفعه إليه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة عن علي قال : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، وأن يؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا . وأخرج أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أد الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تحن من خانك » وقد ثبت في الصحيح أن من خان إذا اؤتمن ففيه خصلة من خصال النفاق .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) .

لما أمر سبحانه القضاة والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق ، أمر الناس بطاعتهم هاهنا ، وطاعة الله عز وجل هي امثال أوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هي فيما أمر به ونهى عنه . وأولى الأمر : هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية ، والمراد طاعتهم فيما يأمرهم به وينهون عنه مالم تكن معصية ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : إن أولى الأمر : هم أهل القرآن والعلم ، وبه قال مالك والضحاك . وروى عن مجاهد أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال ابن كيسان هم أهل العقل والرأى ، والراجح القول الأول : قوله (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) المنازعة المجاذبة ، والنزع : الجذب ، كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها ، والمراد الاختلاف والمجادلة ، وظاهر قوله (في شئ) يتناول أمور الدين والدنيا ، ولكنه لما قال (فردوه إلى الله والرسول) تبين به أن الشئ المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا ، والرد إلى الله : هو الرد إلى كتابه العزيز ، والرد إلى الرسول : هو الرد إلى سنته المطهرة بعد موته ، وأما في حياته فالرد إليه سؤاله ، هذا معنى الرد إليهما ؛ وقيل معنى الرد أن يقولوا : الله أعلم ، وهو قول ساقط وتفسير بارد ، وليس الرد في هذه الآية إلا الرد المذكور في قوله تعالى - ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم - قوله (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فيه دليل على أن هذا الرد متحتم على المتنازعين ، وإنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى الرد المأمور به (خير) لكم (وأحسن تأويلا) أى مرجعا ، من الأول آل يؤول إلى كذا : أى صار إليه ؛ والمعنى : أن ذلك الرد خير لكم وأحسن مرجعا ترجعون إليه . ويجوز أن يكون المعنى أن الرد أحسن تأويلا من تأويلكم الذي صرتم إليه عند التنازع .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس في قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) قال : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سرية ، وقصته معروفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عطاء في الآية قال : طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة (وأولى الأمر) قال : أولى الفقه والعلم . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة . قال (وأولى الأمر منكم) هم الأمراء ، وفي لفظهم أمراء السرايا . وأخرج

ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله في قوله (وأولى الأمر منكم) قال : أهل العلم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي العالية نحوه أيضا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) قال : إلى كتاب الله وسنة رسوله . ثم قرأ (ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ميمون بن مهران في الآية قال : الرد إلى الله الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسوله مادام حيا ، فإذا قبض فإلى سنته . وأخرج ابن جرير عن قتادة والسدي مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (ذلك خير وأحسن تأويلا) يقول : ذلك أحسن ثوابا وخير عاقبة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وأحسن تأويلا) قال : وأحسن جزاء . وقد وردت أحاديث كثيرة في طاعة الأئمة ثابتة في الصحيحين وغيرهما مقيدة بأن يكون ذلك في المعروف ، وأنه لا طاعة في معصية الله .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

قوله (ألم تر إلى الذين يزعمون) فيه تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله ، وهو القرآن ، وما أنزل على من قبله من الأنبياء ، فجاءوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى ويبطلها من أصلها ويوضح أنهم ليسوا على شئ من ذلك أصلا ، وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به ، وسيأتي بيان سبب نزول الآية ، وبه يتضح معناها . وقد تقدم تفسير الطاغوت والاختلاف في معناه . قوله (ويريد الشيطان) معطوف على قوله (يريدون) والحملتان مسوقتان لبيان محل التعجب ، كأنه قيل ماذا يفعلون ؟ فقيل يريدون كذا ، ويريد الشيطان كذا . وقوله (ضللا) مصدر للفعل المذكور بحذف الزوائد كقوله - والله أنبتكم من الأرض نباتا - أو مصدر

لفعل محذوف دلّ عليه الفعل المذكور ، والتقدير : ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالا . والصدود : اسم للمصدر ، وهو الصدّ عند الخليل ، وعند الكوفيين أنهما مصدران : أى يعرضون عنك إعراضا . قوله (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم) بيان لعاقبة أمرهم وما صار إليه حالهم : أى كيف يكون حالهم (إذا أصابتهم مصيبة) أى وقت إصابتهم ، فإنهم يعجزون عند ذلك ولا يقبلون على الدفع . والمراد (بما قدّمت أيديهم) ما فعلوه من المعاصي التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت (ثم جاءوك) يعتذرون عن فعلهم ، وهو عطف على ((أصابتهم)) وقوله (يحلفون) حال : أى جاءوك حال كونهم حالفين (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) أى ما أردنا بتحاكنا إلى غيرك إلا الإحسان لا الإساءة ، والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك . وقال ابن كيسان : معناه ما أردنا إلا عدلا وحقا مثل قوله - وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى - فكذبهم الله بقوله (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) من النفاق والعداوة للحق . قال الزجاج : معناه قد علم الله أنهم منافقون (فأعرض عنهم) أى عن عقابهم ، وقيل عن قبول اعتذارهم (وعظهم) أى خوفهم من النفاق (وقل لهم في أنفسهم) أى في حق أنفسهم ، وقيل معناه : قل لهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم (قولا بليغا) أى بالغا في وعظهم إلى المقصود موثرا فيهم ، وذلك بأن توعدهم بسفك دمائهم وسبي نسائهم وسلب أموالهم (وما أرسلنا من رسول) « من » زائدة للتوكيد (إلا ليطاع) فيما أمر به ونهى عنه (بإذن الله) بعلمه ، وقيل بتوفيقه (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك (جاءوك) متوسلين إليك منتصلين عن جنائياتهم ومخالفتهم (فاستغفروا الله) لذنوبهم وتضرعوا إليك حتى قمت شفيعا لهم فاستغفرت لهم ، وإنما قال (واستغفر لهم الرسول) على طريقة الالتفات لقصد التفضيم لشأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (لوجدوا الله توأبا رحما) أى كثير التوبة عليهم والرحمة لهم . قوله (فلا وربك) . قال ابن جرير : قوله (فلا) ردّ على ما تقدم ذكره ، تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، ثم استأنف القسم بقوله (وربك لا يؤمنون) وقيل إنه قدّم « لا » على القسم اهتماما بالنفي ، وإظهارا لقوته ثم كرره بعد القسم تأكيدا ؛ وقيل لامزينة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفي ، والتقدير : فوربك لا يؤمنون كما في قوله - فلا أقسم بمواقع النجوم - (حتى يحكموك) أى يجعلوك حكما بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحدا غيرك ؛ وقيل معناه يتحاكمون إليك ، ولا ملجئ لذلك (فيما شجر بينهم) أى اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه ، ومنه قول طرفة :

وهم الحكماء أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر الشجر

أى المختلف ، ومنه تشاجر الرماح : أى اختلافها (ثم لا يجلدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) قيل هو معطوف على مقدّر ينساق إليه الكلام : أى فتقضى بينهم ثم لا يجلدوا . والحرج : الضيق ؛ وقيل الشك ، ومنه قيل للشجر الملتف حرج وحرجة ، وجمعها حراج ؛ وقيل الحرج : الإثم ، أى لا يجلدون في أنفسهم إنما يأنكروا ما قضيت (ويسلموا تسليما) أى يتقادوا لأمرك وقضائك انقيادا لا يخالفونه في شيء . قال الزجاج (تسليما) مصدر مؤكد : أى ويسلمون لحكمك تسليما لا يدخلون على أنفسهم شكًا ولا شبهة فيه . والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم كما يؤيد ذلك قوله (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) فلا يختص بالمقصودين بقوله (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) وهذا في حياته صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما بعد موته فتحكم الكتاب والسنة ، وتحكم الحاكم بما فيهما من الأئمة والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأى المجرد مع وجود الدليل في الكتاب والسنة أو في أحدهما ، وكان يعقل ما يردّ عليه من حجج الكتاب والسنة ، بأن يكون عالما باللغة العربية وما يتعلق بها من نحو وتصريف ومعاني وبيان

عارفا بما يحتاج إليه من علم الأصول ، بصيرا بالسنة المطهرة ، مميزا بين الصحيح وما يلحق به ، والضعيف وما يلحق به ، منصفاً غير متعصب لمذهب من المذاهب ولا لنحلة من النحل ، ورعا لا يحيف ولا يميل في حكمه ، فن كان هكذا فهو قائم في مقام النبوة مترجم عنها حاكم بأحكامها . وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له الأفئدة ، فإنه أولاً أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون ، فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحى عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) فضم إلى التحكيم أمرا آخر ، هو عدم وجود حرج : أى حرج في صدورهم ، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان وانتلاج قلب وطيب نفس ، ثم لم يكتف بهذا كله ، بل ضم إليه قوله (ويسلموا) أى يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال (تسليما) فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه ، تسليما لا يخالطه رد ولا تشوبه مخالفة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني بسند قال السيوطي : صحيح عن ابن عباس ، قال كان برزة الأسلمي كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين يزعمون) الآية وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : كان الجلاس بن الصامت قبل توبته ومعقب بن قشير ورافع بن زيد كانوا يدعون الإسلام ، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فدعاهم إلى الكهان حكام الجاهلية ، فنزلت الآية المذكورة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) قال : الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له كعب بن الأشرف ، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم قالوا : بل نحاكمكم إلى كعب ، فنزلت الآية . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله ، وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن عبد الله بن الزبير : أن الزبير خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شراج من الحرّة ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل . فقال الأنصاري سرح الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، واستوعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصاري ، فلما أحفظ رسول الله الأنصاري . استوعى للزبير حقه في صريح الحكم ، فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن عن الأسود : أن سبب نزول الآية أنه اختصم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلان فقضى بينهما ، فقال المقضى عليه : ردنا إلى عمر ، فردهما ، فقتل عمر الذي قال ردنا ، ونزلت الآية ، فأهدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم دم المقتول وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن مكحول فذكر نحوه ، وبين أن الذي قتله عمر كان منافقا ، وهما مرسلان ، والقصة غريبة ، وابن لهيعة فيه ضعف .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِنْ

لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠).

(لو) حرف امتناع ، وأن مصدرية ، أو تفسيرية ، لأن (كتبنا) في معنى أمرنا . والمعنى : أن الله سبحانه لو كتب القتل والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلا القليل منهم ، أو لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم ، والضمير في قوله (فعلوه) راجع إلى المكتوب الذي دلّ عليه كتبنا ، أو إلى القتل والخروج المدلول عليهما بالفعلين ، وتوحيد الضمير في مثل هذا قد قدّمنا وجهه . قوله (إلا قليل) قرأه الجمهور بالرفع على البدل . وقرأ عبد الله بن عامر وعيسى بن عمر (إلا قليلا) بالنصب على الاستثناء ، وكذا هو في مصاحف أهل الشام ، والرفع أجود عند النحاة . قوله (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) من اتباع الشرع والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لكان) ذلك (خيلا لهم) في الدنيا والآخرة ، (وأشدّ تثبيتا) لأقدامهم على الحق فلا يضطربون في أمر دينهم (وإذن) أي وقت فعلهم لما يوعظون به (لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما) لا عوج فيه ليصلوا إلى الخير الذي يناله من امتثل ما أمر به وانقاد لمن يدعوه إلى الحق . قوله (ومن يطع الله والرسول) كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول ، والإشارة بقوله (فأولئك) إلى المطيعين كما تفيد من (مع الذين أنعم الله عليهم) بدخول الجنة ، والوصول إلى ما أعدّ الله لهم . والصدق المبالغ في الصدق كما تفيد الصيغة ، وقيل هم فضلاء أتباع الأنبياء . والشهداء : من ثبتت لهم الشهادة ، والصالحين : أهل الأعمال الصالحة . والرفيق مأخوذ من الرفق ، وهو لين الجانب ، والمراد به المصاحب لارتفاقك بصحبته ، ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض ، وهو منتصب على التمييز أو الحال كما قال الأخفش .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) هم يهود كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي نحوه . وقد روى من طرق أن جماعة من الصحابة قالوا : لما نزلت الآية لو فعل ربنا لفعلنا . أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن . وأخرجه ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير . وأخرجه أيضا عن شريح بن عبيد . وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، والضياء المقدسي في صفة الجنة ، وحسنه عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله : إنك لأحب إليّ من نفسي ، وإنك لأحب إليّ من ولدي ، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإنني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يردّ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزل جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنْ مِنْكُمْ

لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا) هذا خطاب لخلص المؤمنين ، وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله ، والحذر والحذر لغتان كالمثل والمثل . قال الفراء : أكثر الكلام الحذر ، والحذر مسموع أيضا ، يقال خذ حذرك أي احذر ؛ وقيل معنى الآية الأمر لهم بأخذ السلاح حذرا ، لأن به الحذر . قوله (فانفروا) نفر ينفر بكسر الفاء نفيرا ، ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفورا . والمعنى : انهضوا لقتال العدو . أو النفير اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من النفار والنفور ، وهو الفزع ، ومنه قوله تعالى - ولوا على أديبارهم نفورا - أي نافرين . قوله (ثبات) جمع ثبة : أي جماعة ، والمعنى : انفروا جماعات متفرقات . قوله (أو انفروا جميعا) أي مجتمعين جيشا واحدا ، ومعنى الآية : الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين ليكون ذلك أشد على عدوهم وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده أو نحو ذلك ؛ وقيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) وبقوله - إن لا تنفروا يعذبكم - والصحيح أن الآيتين جميعا محكمتان : إحداها في الوقت الذي يحتاج فيه إلى نفور الجميع ، والأخرى عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض . قوله (وإن منكم لمن ليبطئن) التبطئة والإبطاء التأخر ، والمراد : المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم . والمعنى : أن من دخلائكم وجنسكم ومن أظهر إيمانه لكم نفاقا من يبطن المؤمنين ويشبطهم ، واللام في قوله (لمن) لام توكيد ، وفي قوله (ليبطئن) لام جواب القسم ، و«من» في موضع نصب وصلتها الجملة . وقرأ مجاهد والنخعي والكلبي (ليبطئن) بالتخفيف (فإن أصابتكم مصيبة) من قتل أو هزيمة أو ذهاب مال . قال هذا المنافق قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم حتى يصيبني ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل من) غنيمة أو فتح (ليقولن) هذا المنافق قول نادم حاسد (ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) . قوله (كأن لم يكن بينكم وبينه مودة) جملة معترضة بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله ، وهو (ياليتني) وقيل إن في الكلام تقديم وتأخير - وقيل المعنى : ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : أي كأن لم يعاقدكم على الجهاد ؛ وقيل هو في موضع نصب على الحال . وقرأ الحسن (ليقولن) بضم اللام على معنى من . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم (كأن لم تكن) بالتاء على اللفظ المودة . قوله (فأفوز) بالنصب على

جواب التمني . وقرأ الحسن (فافوز) بالرفع . قوله (فليقاتل في سبيل الله) هذا أمر للمؤمنين وقد تم الظرف على الفاعل للاهتمام به ، و (الذين يشرون) معناه يبيعون وهم المؤمنون ، والفاء في قوله (فليقاتل) جواب الشرط بمقدّر أى إن لم يقاتل هؤلاء المذكورون سابقا الموصوفون بأن منهم لمن ليطن ، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم البائعون للحياة الدنيا بالآخرة ، ثم وعد المقاتلين في سبيل الله بأنه سيؤتيهم أجرا عظيما لا يقادر قدره ، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور ، وإن غلب وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا والغنيمة ، وظاهر هذا يقتضى التسوية بين من قتل شهيدا أو انقلب غانما ، وربما يقال إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم ، ولا يلزم أن يكون أجرهما مستويا ، فإن كون الشيء عظيما هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيما بالنسبة إلى ما هو دونه وحقيقا بالنسبة إلى ما هو فوقه . قوله (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) خطاب للمؤمنين بالأمورين بالقتال على طريق الالتفات . قوله (والمستضعفين) مجرور عطفًا على الاسم الشريف أى مالكم لا تقاتلون في سبيل الله وسبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر وتريحوهم مما هم فيه من الجهد . ويجوز أن يكون منصوبا على الاختصاص : أى وأخص المستضعفين فإنهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل الله ، واختار الأول الزجاج والأزهري . وقال محمد بن يزيد : أختار أن يكون المعنى وفي المستضعفين فيكون عطفًا على السبيل ، والمراد بالمستضعفين هنا من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال الكفار ، وهم الذين كان يدعو لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول : « اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين » كما في الصحيح . ولا يبعد أن يقال : إن لفظ الآية أوسع ، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فإنه يشعر باختصاص ذلك : بالمستضعفين الكائنين في مكة لأنه قد أجمع المفسرون . على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة . وقوله (من الرجال والنساء والولدان) بيان للمستضعفين . قوله (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله) هذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا غيره (والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) أى سبيل الشيطان أو الكهان أو الأصنام ، وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) أى مكروه ومكر من اتبعه من الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فأنفروا ثبات) قال : عصبا ، يعنى سرايا متفرقين (أو انفروا جميعا) يعنى كلكم . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عنه قال في سورة النساء (خذوا حذركم فأنفروا ثبات أو انفروا جميعا) نسخها . وما كان المؤمنون لينفروا كافة . . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (ثبات) أى فرقا قليلا . وأخرج عن قتادة في قوله (أو انفروا جميعا) أى إذا نفر نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فليس لأحد أن يتخلف عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وإن منكم منكم لمن ليطن) إلى قوله (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) ما بين ذلك في المنافقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في الآية قال : هو فيما بلغنا عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير (فليقاتل) يعنى يقاتل المشركين (في سبيل الله) في طاعة الله (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل) يعنى يقتله العدو (أو يغلب) يعنى يغلب العدو من المشركين (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) يعنى جزاء وافرا في الجنة ، فجعل القاتل والمقتول من المسلمين في جهاد المشركين شريكين في الأجر . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (في سبيل الله والمستضعفين) قال : وفي المستضعفين . وأخرج ابن جرير عن الزهري قال : وسبيل المستضعفين

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه من طريق العوفي قال : المستضعفون أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها . وأخرج البخاري عنه قال « أنا وأمي من المستضعفين » . وأخرج ابن جرير عنه قال : القرية الظالم أهلها مكة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) . قال مجاهد : كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة فكنت أذكر قول ابن عباس فأحمل عليه فيذهب عني .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُنْذِرْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) .

قوله (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية ، قيل هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال في مكة بعد أن تسرعوا إليه . فلما كتب عليهم بالمدينة تشبطوا عن القتال من غير شك في الدين بل خوفا من الموت وفرا من هول القتال ؛ وقيل إنها نزلت في اليهود ؛ وقيل في المنافقين أسلموا قبل فرض القتال ، فلما فرض كرهوه ، وهذا أشبه بالسياق لقوله (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) وقوله (وإن تصيبهم حسنة) الآية ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة . قوله (كخشية الله) صفة مصدر محذوف : أي خشية كخشية الله ، أو حال : أي تخشونهم مشبهين أهل خشية الله ، والمصدر مضاف إلى المفعول : أي كخشيتهم الله . وقوله (أو أشد خشية) معطوف على كخشية الله في محل جر ، أو معطوف على الجار والمجرور جميعا فيكون في محل الحال كاللصاحبة عليه أو للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها . قوله (وقالوا) عطف على ما يدل عليه قوله (إذا فريق منهم) أي فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا) أي هلا أخرتنا ، يريدون المهلة إلى وقت آخر قريب من الوقت الذي فرض عليهم فيه القتال ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال (قل متاع الدنيا قليل) سريع الفناء لا يدوم لصاحبه ، وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل (لمن اتقى) منكم ورجب في الثواب الدائم (ولا تظلمون فتيلًا) أي شيئا حقيرا يسيرا ، وقد تقدم تفسير القليل قريبا ، وإذا كنتم توفرون أجوركم ولا تنقصون شيئا منها ، فكيف ترغبون عن ذلك وتشتغلون بمتاع

الدنيا مع قلته وانقطاعه : وقوله (أينما تكونوا يدرككم الموت) كلام مبتدأ ، وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت ، وبيان لفساد ما خالطه من الجبن وخامره من الخشية ، فإن الموت إذا كان كائنا لا محالة . فمن لم يمت بالسيف مات بغيره . والبروج جمع برج : وهو البناء المرتفع ، والمشيدة : المرفعة من شاد القصر : إذا رفعه وطلاه بالشيد وهو الحص ، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه .

وقد اختلف في هذه البروج ما هي ؟ ف قيل الحصون التي في الأرض وقيل هي القصور ، قال الزجاج : والقنبي : ومعنى مشيدة مطولة ؛ وقيل معناه مطاية بالشيد وهو الحص ؛ وقيل المراد بالبروج بروج في سماء الدنيا مبنية حكاه مكى عن مالك ، وقال : ألا ترى إلى قوله « والسماء ذات البروج - جعل في السماء بروجاً - ولقد جعلنا في السماء بروجاً » وقيل إن المراد بالبروج المشيدة هنا قصور من حديد . وقرأ طلحة بن سليمان (يدرككم الموت) بالرفع على تقدير الفاء كما في قوله . وقال رائد هم أرسوا نزاولها . قوله (وإن تصبهم حسنة) هذا وما بعده مختص بالمنافقين : أى إن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى ، وإن تصبهم بلية ونقمة نسبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فرد الله ذلك عليهم بقوله (قل كل من عند الله) ليس كما تزعمون ، ثم نسبهم إلى الجهل وعدم الفهم فقال (فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) أى ما بالهم هكذا . قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله) هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس ، أو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعريضاً لأتمته : أى ما أصابك من خصب ورخاء وصحة وسلامة فمن الله بفضلته ورحمته ، وما أصابك من جهد وبلاء وشدة فمن نفسك بذنب أتيت فعوقبت عليه ؛ وقيل إن هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثاً : أى فيقولون ما أصابك من حسنة فمن الله ؛ وقيل إن ألف الاستفهام مضمرة : أى أفمن نفسك ، ومثله قوله تعالى « وتلك نعمة تمنها على » والمعنى أو تلك نعمة ومثله قوله « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي » أى أهذا ربي ومنه قول أبي خراش الهذلي :

رموني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أى أهم هم ، وهذا خلاف الظاهر ، وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية كقوله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » ، وقوله « أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » . وقد يظن أن قوله (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) مناف لقوله (قل كل من عند الله) ولقوله « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله » ، وقوله « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » وقوله « وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » وليس الأمر كذلك ، فالجمع ممكن كما هو مقرر في مواضعه . قوله (وأرسلناك للناس رسولا) فيه البيان لعموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم إلى الجميع كما يفيد التأكيد بالمصدر والعموم في الناس ، ومثله قرله « وما أرسلناك إلا كافة للناس » ، وقوله « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » (وكفى بالله شهيداً) على ذلك . قوله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فيه أن طاعة الرسول طاعة لله ، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه ، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به ، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه (ومن تولى) أى أعرض (فما أرسلناك عليهم حفيظاً) أى حافظاً لأعمالهم ، إنما عليك البلاغ ، وقد نسخ هذا بآية السيف (ويقولون طاعة) بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى أمرنا طاعة ، أو شأننا طاعة . وقرأ الحسن والحدرى ونصر بن عاصم بالنصب على المصدر : أى نطيع طاعة وهذه في المنافقين في قول أكثر المفسرين : أى يقولون إذا كانوا عندك طاعة (وإذا برزوا من عندك) أى خرجوا من عندك (بيت طائفة منهم) أى زورت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذى تقول

لهم أنت وتأمرهم به ، أو غير الذي تقول لك هي من الطاعة لك ؛ وقيل معناه : غيروا وبدلوا وحرّفوا قولك فيما عهدت إليهم ، والتبديت : التبديل ، ومنه قول الشاعر :

أتوني فلم أرض ما يبتسوا وكانوا أتوني بأمر نكر

يقال بيت الرجل الأمر : إذا دبره ليلا ، ومنه قوله تعالى « إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » (والله يكتب ما يبيتون) أي يثبت في صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه . وقال الزجاج : المعنى ينزله عليك في الكتاب . قوله (فأعرض عنهم) أي دعهم وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم ؛ وقيل معناه : لا تخبر بأسمائهم ؛ وقيل معناه : لا تعاقبهم . ثم أمره بالتوكل عليه والثقة به في النصر على عدوه قيل وهذا منسوخ بآية السيف

وقد أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس : أن عبد الرحمن ابن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة ؟ فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوّل الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في تفسير الآية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : أنها نزلت في اليهود . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق) الآية ، قال : نهى الله هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (إلى أجل قريب) قال : هو الموت . وأخرج نحوه عن ابن جريج . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة (في بروج مشيدة) قال : في قصور محصنة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هي قصور في السماء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله (وإن تصبهم حسنة) يقول : نعمة (وإن تصبهم سيئة) قال : مصيبة (قل كل من عند الله) قال : النعم والمصائب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (وإن تصبهم حسنة) قال : هذه في السراء والضراء ، وفي قوله (ما أصابك من حسنة) قال : هذه في الحسنات والسيئات وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (قل كل من عند الله) يقول : الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها ، وفي قوله (وما أصابك من سيئة) قال : ما أصابه يوم أجد أن شج وجهه وكسرت ربايعته . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عنه في قوله (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) قال : هذا يوم أحد يقول : ما كانت من نكبة فبذنبك وأنا قدّرت ذلك . وأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد أن ابن عباس كان يقرأ (وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبها عليك) قال مجاهد : وكذلك قراءة أبي وابن مسعود . وأخرج نحوه قول مجاهد هذا ابن الأنباري في المصاحف . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (ويقولون طاعة) قال : هم أناس كانوا يقولون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آمنّا بالله ورسوله ليأمنوا على دماءهم وأموالهم (فإذا برزوا) من عند رسول الله (بيت طائفة منهم) يقول : خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعابهم الله . وأخرج ابن جرير عنه قال غير أولئك ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٢).

الهمزة في قوله (أفلا يتدبرون) للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر : أى أيعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه يقال تدبرت الشيء : تفكرت في عاقبته وتأملته ، ثم استعمل في كل تأمل ، والتدبير : أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته ، ودلت هذه الآية ، وقوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه . والمعنى : أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه موثقاً غير مختلف ، صحيح المعانى ، قوى المباني ، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) أى تفاوتاً وتناقضاً ، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات والسور ، لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع ، وهذا شأن كلام البشر لاسيما إذا طال وتعرض قائله للإخبار بالغيب ، فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر . قوله (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) يقال أذاع الشيء وأذاع به : إذا أفشاه وأظهره ، وهؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئاً من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم ، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم أفشوه وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك . قوله (ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم) وهم أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم أو هم الولاة عليهم (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم . والمعنى : أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذى يذيعها أو يكون أولى الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك ، لأنهم يعلمون ما ينبغى أن يفشى وما ينبغى أن يكتم . والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء : إذا استخرجته . والنبط : الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها ؛ وقيل إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة . قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) أى لولا ما تفضل الله به عليكم من إرسال رسوله وإنزال كتابه لاتبعتم الشيطان فبقيتكم على كفركم إلا قليلاً منكم ، أو إلا اتباعاً قليلاً منكم ؛ وقيل المعنى : أذاعوا به إلا قليلاً منهم فإنه لم يذع ولم يفش ، قاله الكسائى والأخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم وابن جرير ؛ وقيل المعنى لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلاً منهم ، قاله الزجاج وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) يقول : إن قول الله لا يختلف وهو حق ليس فيه باطل ، وإن قول الناس يختلف . وأخرج عبد ابن حميد ومسلم وابن أبي حاتم من طريق ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم نساءه دخلت المسجد ، فوجدت الناس ينكتون بالحصى ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءه ، فقممت على باب المسجد فتناديت بأعلى صوتي : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية ، قال هذا في الإخبار إذا غزت

سرية من المسلمين أخبر الناس عنها ، فقالوا : أصاب المسلمون من عدوهم كذا وكذا ، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا ، فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو يخبرهم به . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك (وإذا جاءهم) قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن جرير عن أبي معاذ مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان) قال : فانقطع الكلام . وقوله (إلا قليلا) فهو في أول الآية يخبر عن المنافقين : قال (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلا) يعنى بالقليل المؤمنين .

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) .

الفاء في قوله (فقاتل) قيل هي متعلقة بقوله (ومن يقاتل في سبيل الله) الخ : أى من أجل هذا فقاتل ؛ وقيل متعلقة بقوله (ومالككم لاتقاتلون في سبيل الله) فقاتل ؛ وقيل هي جواب شرط محذوف يدل عليه السياق تقديره : إذا كان الأمر ما ذكر من عدم طاعة المنافقين فقاتل ، أو إذا أفردوك وتركوك فقاتل . قال الزجاج : أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد وإن قاتل وحده ، لأنه قد ضمن له النصر . قال ابن عطية : هذا ظاهر اللفظ ، إلا أنه لم يبيح في خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة ، فالمعنى والله أعلم : أنه خطاب له في اللفظ ، وفي المعنى له ولأئمة : أى أنت يا محمد وكل واحد من أمتك يقال له (فقاتل في سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) أى لاتكلف غير نفسك ولا تلزم فعل غيرك ، وهو استئناف مقرر لما قبله ، لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرة للقتال وحده ، وقرئ (لاتكلف) بالجزم على النهى ، وقرئ بالنون . قوله (وحرّض المؤمنين) أى حضهم على القتال والجهاد ، يقال حرّضت فلانا على كذا : إذا أمرته به ، وحرّض فلان على الأمر وأكبّ عليه وواظب عليه بمعنى واحد . قوله (عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا) فيه إطماع للمؤمنين بكفّ بأس الذين كفروا عنهم والاطماع من الله عز وجل واجب ، فهو وعد منه سبحانه ، ووعد كائن لا محالة (والله أشد بأسا) أى أشد صولة وأعظم سلطانا (وأشد تنكيلا) أى عقوبة ، يقال نكلت بالرجل تنكيلا من النكال وهو العذاب . والمنكل الشيء الذى ينكل بالإنسان (من يشفع شفاعا حسنة يكن له نصيب منها) أصل الشفاعا والشفعة ونحوهما من الشفع وهو الزوج ، ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا ، ومنه ناقة شفوع : إذا جمعت بين محليين في حلبة واحدة وناقة شفيع : إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها . والشفع : ضم واحد إلى واحد . والشفعة : ضم ملك الشريك إلى ملكك ، فالشفاعة : ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع واتصال منفعة إلى المشفوع له . والشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة . والشفاعة السيئة في المعاصي ، فمن شفّع في الخير لينفع فله نصيب منها : أى من أجرها ، ومن شفّع في الشر كمن يسعى بالنميمة والغيبة كان له كفل منها ، أى

نصيب من وزرها . والكفل : الوزر والإثم ، واشتقاقه من الكساء الذى يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط ؛ يقال اكتفلت البعير : إذا أدركت على سنامه كساء وركبت عليه ، لأنه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيبا منه ويستعمل فى النصيب من الخير والشر . ومن استعماله فى الخير قوله تعالى « يوتكم كفلين من رحمته » (وكان الله على كل شىء مقبلا) أى مقتدرا ، قاله الكسائى . وقال الفراء : المقيت الذى يعطى كل إنسان قوته ، يقال قته أقوته قوتا ، وأقته أقيته إقاة فأنما قاتت ومقيت ، وحكى الكسائى أقات يقيت . وقال أبو عبيدة : المقيت الحافظ . قال النحاس : وقول أبي عبيدة أولى لأنه مشتق من القوت ، والقوت معناه : مقدار ما يحفظ الإنسان . وقال ابن فارس فى المجمل : المقيت المقتدر . والمقيت : الحافظ والشاهد . وأما قول الشاعر :

ألى الفضل أم على إذا حو سبت إلى على الحساب مقيت

فقال ابن جرير الطبرى إنه من غير هذا المعنى . قوله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) التحية تفعله من حييت ، والأصل تحية مثل ترضية وتسمية فأدغموا الياء فى الياء وأصلها الدعاء بالحياة . والتحية : السلام ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، ومثله قوله تعالى « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » وإلى هذا ذهب جماعة المفسرين ، وروى عن مالك أن المراد بالتحية هنا تسميت العاطس . وقال أصحاب أبي حنيفة ، التحية هنا الهدية لقوله (أوردوها) ولا يمكن رد السلام بعينه ، وهذا فاسد لا ينبغي الالتفات إليه . والمراد بقوله (فحيوا بأحسن منها) أن يزيد فى الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية ، فإذا قال المبتدئ : السلام عليكم ، قال المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا زاد المبتدئ لفظا زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظا أو ألفاظا نحو : وبركاته ومرضاته وتحياته .

قال القرطبي : أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغوب فيها ، وردة فريضة لقوله (فحيوا بأحسن منها أوردوها) واختلفوا إذا رد واحد من جماعة هل يجزئ أولا ؟ فذهب مالك والشافعى إلى الإجزاء ، وذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزئ عن غيره ، ويرد عليهم حديث على عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم » أخرجه أبو داود ، وفى إسناده سعيد بن خالد الخزاعى المدنى وليس به بأس ، وقد ضعفه بعضهم . وقد حسن الحديث ابن عبد البر . ومعنى قوله (أو ردوها) الاختصار على مثل اللفظ الذى جاء به المبتدئ ، فإذا قال السلام عليكم ، قال المجيب : وعليكم السلام . وقد ورد فى السنة المطهرة فى تعيين من يبتدئ بالسلام ومن يستحق التحية ومن لا يستحقها ما يغنى عن البسط ها هنا قوله (إن الله كان على كل شىء حسيبا) يحاسبكم على كل شىء ؛ وقيل معناه حفيظا ؛ وقيل كافيا من قولهم أحسبني كذا : أى كفاني ، ومثله « حسبك الله » . قوله (الله لا إله إلا هو) مبتدأ وخبر ، واللام فى قوله (ليجمعنكم) جواب قسم محذوف : أى والله ليجمعنكم الله بالحشر إلى يوم القيامة : أى إلى حساب يوم القيامة ؛ وقيل إلى بمعنى فى ؛ وقيل إنها زائدة . والمعنى : ليجمعنكم يوم القيامة ، و (يوم القيامة) يوم القيام من القبور (لاريب فيه) أى فى يوم القيامة ، أوفى الجمع : أى جمعا لاريب فيه (ومن أصدق من الله حديثا) إنكار لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه . وقرأ حمزة والكسائى ومن « أزدق » بالزاي . وقرأ الباقون بالصاد ، والصاد الأصل . وقد تبدل زايًا لقرب مخرجها منها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سنان فى قوله (وحرّض المؤمنين) قال : عظمهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (من يشفع شفاعة حسنة) الآية ، قال :

شفاعة الناس بعضهم لبعض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (يكن له نصيب منها) قال : حظ منها . وقوله (كفل منها) قال : الكفل هو الإثم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السلي قال : الكفل الحظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (وكان الله على كل شيء مقبلاً) قال : حفيظاً . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن رواحة : أنه سأله رجل عن قول الله (وكان الله على كل شيء مقبلاً) قال : يقبى كل إنسان بقدر عمله . وفي إسناده رجل مجهول . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (مقبلاً) قال : شهيداً . وأخرج ابن جرير عنه (مقبلاً) قال : شهيداً حسبياً حفيظاً . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (مقبلاً) قال : قادراً . وأخرج ابن جرير عن السدي قال : المقبى القدير . وأخرج أيضاً عن ابن زيد مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : المقبى الرزاق . وأخرج ابن أبي شيبة والبخارى في الأدب المفرد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول (وإذا حييتم بتحية) الآية . وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند حسن عن سلمان الفارسي قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك ورحمة الله ، ثم أتى آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال : وعليك ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك ، فقال له الرجل : يا نبي الله ، بأي أنت وأمي أذاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي ؟ فقال : إنك لم تدع لنا شيئاً ، قال الله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فرددناها عليك » وأخرج البخارى في الأدب المفرد عن أبي هريرة « أن رجلاً مرّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مجلس فقال : سلام عليكم ، فقال : عشر حسنات ، فرّ رجل آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال : عشرون حسنة ، فرّ رجل آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : ثلاثون حسنة » . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر مرفوعاً نحوه . وأخرج البيهقي عن سهل بن حنيف مرفوعاً نحوه أيضاً . وأخرج أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه أيضاً ، وزاد بعد كل مرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ردّ عليه ، ثم قال : عشر إلى آخره . وأخرج أبو داود والبيهقي عن معاذ بن أنس الجهني مرفوعاً نحوه ، وزاد بعد قوله وبركاته : ومغفرته ، فقال : أربعون ، يعني حسنة .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا^(٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا^(٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقْتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (١٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١١).

الاستفهام في قوله (مالككم) للإنكار ، واسم الاستفهام مبتدأ وما بعده خبره . والمعنى : أى شئ كائن لكم (في المنافقين) أى في أمرهم وشأنهم حال كونكم (فتتين) في ذلك . وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شئ يوجب اختلافهم في شأن المنافقين . وقد اختلف النحويون في انتصاب فتتين ، فقال الأخفش والبصريون على الحال كقولك : مالك قائما . وقال الكوفيون انتصابه على أنه خبر لكان ، وهى مضمرة ، والتقدير : فما لكم في المنافقين كنتم فتتين . وسبب نزول الآية ما سيأتى وبه يتضح المعنى . وقوله (والله أركسهم) معناه ردهم إلى الكفر (بما كسبوا) وحكى الفراء والنضر بن شميل والكسائى أركسهم وركسهم : أى ردهم إلى الكفر ونكسهم ، فالركس والنكس : قلب الشئ على رأسه ، أورد أوله إلى آخره ، والمنكوس المركوس ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبى (والله ركسهم) ومنه قول عبد الله بن رواحة :

اركسوا في فئة مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن

والباء في قوله (بما كسبوه) سببية : أى أركسهم بسبب كسبهم ، وهو لحوقهم بدار الكفر ، والاستفهام في قوله (أتريدون أن تهتدوا من أضلّ الله) للتفريع والتوبيخ ، وفيه دليل على أن من أضله الله لاتنفع فيه هداية البشر - إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء - . قوله (ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا) أى طريقا إلى الهداية . قوله (ودّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين وإيضاح أنهم يودّون أن يكفر المؤمنون كما كفروا ويتمنوا ذلك عنادا وغلوا في الكفر وتماديا في الضلال ، فالكاف في قوله (كما) نعت مصدر محذوف : أى كفرا مثل كفرهم ، أو حال كما روى عن سيبويه . قوله (فتكونون سواء) عطف على قوله (تكفرون) داخل في حكمه : أى ودّوا كفركم ككفرهم ، وودّوا مساواتكم لهم . قوله (فلا تتخذوا منهم أولياء) جواب شرط محذوف : أى إذا كان حالهم ما ذكر فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة (فإن تولوا) عن ذلك (فخذوهم) إذا قدرتم عليهم (واقتلوهم حيث وجدتموهم) في الحل والحرم (ولا تتخذوا منهم ولّيا) توالونه (ولانصيرا) تستنصرون به . قوله (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) هو مستثنى من قوله (فخذوهم واقتلوهم) أى إلا الذين يتصلون ويدخلون في قوم بينكم وبينهم ميثاق بالحوار والحلف فلا تقتلوهم لما بينهم وبين من بينكم وبينهم عهد وميثاق فإن العهد يشملهم ، هذا أصح ما قيل في معنى الآية وقيل الاتصال هنا هو اتصال النسب . والمعنى : إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق قاله أبو عبيدة ،

وقد أنكر ذلك أهل العلم عليه لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع ، فقد كان بين المسلمين وبين المشركين أنساب ولم يمنع ذلك من القتال . وقد اختلف في هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق ، فقليل هم قريش كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق (والذين يصلون) إلى قريش هم بنو مدلج ؛ وقيل نزلت في هلال بن عويمر وسراقة بن جعشم وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم عهد ؛ وقيل خزاعة ؛ وقيل بنو بكر بن زيد . قوله (أو جاءوكم حصرت صدورهم) عطف على قوله (يصلون) داخل في حكم الاستثناء : أى إلا الذين يصلون والذين جاءوكم ، ويجوز أن يكون عطفا على صفة قوم : أى إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق والذين يصلون إلى قوم جاءوكم حصرت صدورهم : أى ضاقت صدورهم عن القتال فأمسكوا عنه ، والحصر الضيق والانقباض . قال الفراء : وهو أى حصرت صدورهم حال من المضمر المرفوع في جاءوكم كما تقول : جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله . وقال الزجاج : هو خبر بعد خبر ، أى جاءوكم ، ثم أخبر فقال (حصرت صدورهم) فعلى هذا يكون حصرت بدلا من جاءوكم ؛ وقيل حصرت في موضع خفض على النعت لقوم ؛ وقيل التقدير : أو جاءوكم رجال أو قوم حصرت صدورهم . وقرأ الحسن (أو جاءوكم حصرة صدورهم) نصبا على الحال . وقرأ حصرات وحاصرات ، وقال محمد بن يزيد المبرد : حصرت صدورهم هو دعاء عليهم كما تقول لعن الله الكافر ، وضعفه بعض المفسرين ؛ وقيل أو بمعنى الواو . وقوله (أن يقاتلوهم أو يقاتلوا قومهم) هو متعلق بقوله (حصرت صدورهم) أى حصرت صدورهم عن قتالكم والقتال معكم لقومهم ، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين وكرهوا ذلك (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) ابتلاء منه لكم واختبارا كما قال سبحانه - ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم - أو تمحيصا لكم أو عقوبة بذنوبكم ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، واللام في قوله (فلقاتلوكم) جواب لو على تكرير الجواب : أى لو شاء الله لسلطهم ولقاتلوكم ، والفاء للتعقيب (فإن اعتزلوكم) ولم يتعرضوا لقتالكم (وألقوا إليكم السلم) أى استسلموا لكم وانقادوا (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا ، فلا يحل لكم قتلهم ولا أسرهم ولا نهب أموالهم ، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك ويحرّمه (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) فيظهرون لكم الإسلام ويظهرون لقومهم الكفر ليأمنوا من كلا الطائفتين ، وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليأمنوا عنده وعند قومهم وقيل هم في قوم من أهل مكة ، وقيل في نعيم بن مسعود فإنه كان يأمن المسلمين والمشركين : وقيل في قوم من المنافقين ؛ وقيل في أسد وغطفان (كلما ردوا إلى الفتنة) أى دعاهم قومهم إليها وطلبوا منهم قتال المسلمين (أركسوا فيها) أى قلبوا فيها فرجعوا إلى قومهم وقاتلوا المسلمين ، ومعنى الارتكاس الانتكاس (فإن لم يعتزلوكم) يعنى هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم (ويلقوا إليكم السلم) أى يستسلمون لكم ويدخلون في عهدكم وصلحكم وينسلخون عن قومهم (ويكفوا أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم) أى حيث وجدتموهم وتمكتم منهم (وأولئك هم) الموصوفون بتلك الصفات (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى حجة واضحة تسلطون بها عليهم وتقهرونهم بها بسبب ما في قلوبهم من المرض وما في صدورهم من الدغل ، وارتكاسهم في الفتنة بأيسر عمل وأقل سعى .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم فرقتين فرقة تقول نقتلهم

وفرقه تقول لا ، فأنزل الله (فما لكم في المنافقين فئتين) الآية كلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة . هذا أصح ما روى في سبب نزول الآية ، وقد رويت أسباب غير ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (والله أركسهم) يقول : أوقعهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : رداهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) قال : نزلت في هلال بن عويمر وسراقة بن مالك المدلجي ، وفي بني خزيمه بن عامر ابن عبد مناف . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عنه في قوله (إلا الذين يصلون) الآية ، قال : نسخها براءة - فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي (حصرت صدورهم) يقول : ضاقت صدورهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع (وألقوا إليكم السلم) قال : الصلح . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (فان اعتزلوكم) الآية ، قال : نسخها - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . وأخرج ابن جرير عن الحسن وعكرمة في هذه الآية قال : نسخها براءة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (ستجدون آخرين) الآية ، قال : ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسلمون رياء ، ثم يزجعون إلى قومهم فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا ، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصالحوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنهم ناس كانوا بتهامة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنها نزلت في نعيم ابن مسعود .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) .

قوله (وما كان لمؤمن) هذا النفي هو بمعنى النهي المقتضى للتحريم كقوله - وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله - ولو كان هذا النفي على معناه لكان خبراً وهو يستلزم صدقه ، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمناً قط ؛ وقيل المعنى ما كان له ذلك في عهد الله ؛ وقيل ما كان له ذلك فيما سلف كما ليس له الآن ذلك بوجه ، ثم استثنى منه استثناء منقطعاً فقال : إلا خطأ ، أى ما كان له أن يقتله البتة ، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا ، هذا قول سيبويه والزجاج ؛ وقيل هو استثناء متصل ؛ والمعنى : وما ثبت ولا وجد ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ إذ هو مغلوب حينئذ ؛ وقيل المعنى : ولا خطأ . قال النحاس : ولا يعرف ذلك في كلام العرب ، ولا يصح في المعنى لأن الخطأ لا يحظر ؛ وقيل إن المعنى : ما ينبغي أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده ، فيكون قوله خطأ منتصباً بأنه مفعول له ،

ويجوز أن ينتصب على الحال ، والتقدير : لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف : أى إلقاء خطأ ، ووجه الخطأ كثيرة ويضبطها عدم القصد ، والخطأ الاسم من أخطأ خطأ إذا لم يتعمد . قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) أى فعلية تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن قتل الخطأ ، وعبر بالرقبة عن جميع الذات .

واختلف العلماء في تفسير الرقبة المؤمنة ، فقليل هي التي صلت وعقلت الإيمان فلا تجزئ الصغيرة ، وبه قال ابن عباس والحسن والشعبي والنخعي وقتادة وغيرهم . وقال عطاء بن أبى رباح : إنها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين . وقال جماعة منهم مالك والشافعي : يجزئ كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات ، ولا يجزئ في قول جمهور العلماء أعمى ولا مقعد ولا أشل ، ويجزئ عند أكثر الأعرج والأعور . قال مالك : إلا أن يكون عرجا شديدا . ولا يجزئ عند أكثرهم المجنون ، وفي المقام تفاصيل طويلة مذكورة في علم الفروع ، قوله (ودية مسلمة إلى أهله) الدية : ما تعطى عوضا عن دم المقتول إلى ورثته ، والمسلمة : المدفوعة المؤداة ، والأهل المراد بهم الورثة وأجناس الدية وتفاصيلها قد بينتها السنة المطهرة . قوله (إلا أن يصدقوا) أى إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية ، سمي العفو عنها صدقة ترغيبا فيه . وقرأ أبى : إلا يتصدقوا ، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله (فدية مسلمة) أى فعلية دية مسلمة إلا أن يقع العفو من الورثة عنها . قوله (فإن كان من قوم عدو لكم) أى فإن كان المقتول من قوم عدو لكم وهم الكفار الحرييون ، وهذه مسألة المؤمن الذي يقتله المسلمون في بلاد الكفار الذين كان منهم ، ثم أسلم ولم يهاجر وهم يظنون أنه لم يسلم وأنه باق على دين قومه فلا دية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة . واختلفوا في وجه سقوط الدية ، فقليل وجهه أن أولياء القاتل كفار لاحق لهم في الدية ؛ وقيل وجهه أن هذا الذي آمن ولم يهاجر حرمة قليلة لقول الله تعالى - والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء - وقال بعض أهل العلم إن دية واجبة لبيت المال . قوله (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى مؤقت أو مؤبد . وقرأ الحسن (وهو مؤمن فدية مسلمة إلى أهله) أى فعلى قاتله دية مؤداة إلى أهله من أهل الإسلام وهم ورثته (وتحرير رقبة مؤمنة) كما تقدم (فمن لم يجد) أى الرقبة ولا اتسع ماله لشراؤها (فصيام شهرين متتابعين) أى فعلية صيام شهرين متتابعين ، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إفطار في نهار ، فلو أفطر استأنف ، هذا قول الجمهور ، وأما الإفطار لعذر شرعى كالحيض ونحوه فلا يوجب الاستئناف . واختلف في الإفطار لعرض المرض . قوله (توبة من الله) منصوب على أنه مفعول له : أى شرع ذلك لكم توبة ، أى قبولا لتوبتكم ، أو منصوب على المصدرية : أى تاب عليكم توبة ، وقيل منصوب على الحال : أى حال كونه ذاتوبة كائنة من الله . (قوله ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) لما بين سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمدا .

وقد اختلف العلماء في معنى العمد ؛ فقال عطاء والنخعي وغيرهما : هو القتل بحديدة كالسيف والخنجر وسمان الرمح ونحو ذلك من المحدد ، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها . وقال الجمهور : إنه كل قتل من قاتل قاصدا للفعل بحديدة أو بحجر أو بعصى أو بغير ذلك ، وقيده بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله في العادة . وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ . واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها . وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين : عمد ، وخطأ ولا ثالث لهما . واستدلوا بأنه ليس في القرآن إلا القسمان . ويحاجب عن ذلك بأن اقتصار القرآن على القسمين لا ينفى ثبوت قسم ثالث بالسنة وقد ثبت ذلك في السنة . وقد جاءت هذه الآية بتخليط عقوبة القاتل عمدا ، فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزاء

له : أى يستحقها بسبب هذا الذنب ، وبين كونه خالدا فيها ، وبين غضب الله عليه ولعنته له وإعداده له عذابا عظيما . وليس وراء هذا التشديد تشديد ، ولا مثل هذا الوعيد وعيد . وانتصاب خالدا على الحال . وقوله (وغضب الله عليه) معطوف على مقدّر ، يدل عليه السياق : أى جعل جزاءه جهنم أو حكم عليه أو جازاه وغضب عليه وأعدّ له .

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له ؟ فروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : اختلف فيها علماء أهل الكوفة ، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأله عنها فقال : نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) وهى آخر ما نزل وما نسخها شيء ، وقد روى النسائي عنه نحو هذا . وروى النسائي عن زيد بن ثابت نحوه ، ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبو سلمة وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك ابن مزاحم ، نقله ابن أبى حاتم عنهم . وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة ، واستدلوا بمثل قوله تعالى - إن الحسنات يذهبن السيئات وقوله - وهو الذى يقبل التوبة عن عباده - . وقوله - ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - ، قالوا أيضا : والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان ، فيكون معناه : فجزاؤه جهنم إلا من تاب ، لاسيما وقد اتحد السبب وهو القتل ، والموجب وهو التوعد بالعقاب . واستدلوا أيضا بالحديث المذكور فى الصحيحين عن عبادة بن الصامت أنه صلى الله عليه وآله وسلم « قال بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ثم قال : فمن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه » وبحديث أبى هريرة الذى أخرجه مسلم فى صحيحه وغيره فى الذى قتل مائة نفس ، وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه والشافعى إلى أن القاتل عمدا داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب . وقد أوضحت فى شرحى على المنتقى متمسك كل فريق .

والحق أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص ، بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه ، وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدّها تمحوه التوبة إلى الله ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول فى باب التوبة ، فكيف بما دونه من المعاصى التى من جملتها القتل عمدا ، لكن لا بدّ فى توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجبا أو تسليم الدية إن لم يكن القصاص واجبا وكان القاتل غنيا متمكنا من تسليمها أو بعضها . وأما مجرد التوبة من القاتل عمدا وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف ولا تسليم نفس فنحن لانقطع بقبولها . والله أرحم الراحمين ، هو الذى يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) يقول : ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذى عهد إليه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله (وما كان لمؤمن) الآية ، قال : إن عياش بن أبى ربيعة قتل رجلا مؤمنا كان يعذبه هو وأبو جهل وهو أخوه لأمه فى اتباع النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعياش يحسب أن ذلك الرجل كافر . وأوضح من هذا السياق ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال : كان الحارث بن يزيد من بنى عامر بن لوئى يعذب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل ، ثم خرج مهاجرا إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم : يعنى الحارث ، فلقيه عياش بالحرّة فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ، فنزلت (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) الآية ، فقرأها النبى صلى الله عليه وآله وسلم عليه ثم قال : له : قم فحرّر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدى بأطول من هذا . وقد روى من طرق غير هذه . وأخرج ابن جرير عن

ابن زيد قال : نزلت في رجل قتل أبو الدرداء كان في سرية ، فعذل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له ، فوجد رجلا من القوم في غم فحمل عليه بالسيف فقال لا إله إلا الله فضربه . وأخرج ابن منده وأبو نعيم نحو ذلك ولكن فيه أن الذي قتل المتعوذ بكلمة الشهادة هو بكر بن حارثة الجهني . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) قال يعني بالمؤمنة من قد عقل الإيمان وصلى ، وكل رقبة في القرآن لم تسم مؤمنة ، فإنه يجوز المولود فما فوقه ممن ليس به زمانة ، وفي قوله (ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) قال : عليه الدية مسلمة إلا أن يتصدق بها عليه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : في حرف أبي « فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي » . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والبيهقي عن أبي هريرة « أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجارية سوداء فقال : يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة ، فقال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء بأصبعها ، فقال لها : فمن أنا ؟ فأشارت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى السماء : أي أنت رسول الله ، فقال : أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد روى من طرق وهو في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي . وقد وردت أحاديث في تقدير الدية ، وفي الفرق بين دية الخطأ ودية شبه العمد ، ودية المسلم ودية الكافر ، وهي معروفة فلا حاجة لنا في ذكرها في هذا الموضع . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله (ودية مسلمة إلى أهله) قال : هذا المسلم الذي ورثته مسلمون (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن) قال : هذا الرجل المسلم وقومه مشركون وليس بينهم وبين رسول الله عقد (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) قال : هذا الرجل المسلم وقومه مشركون وبينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقد فيقتل ميراثه للمسلمين وتكون ديته لقومه لأنهم يعقلون عنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن) يقول : فإن كان في أهل الحرب وهو مؤمن فقتله خطأ فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة ، أو صيام شهرين متتابعين ولا دية عليه ، وفي قوله (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) يقول : إذا كان كافرا في ذمتكم فقتل فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن طريق عطاء بن السائب عن أبي عياض قال : كان الرجل ينجى فيسلم ، ثم يأتي قومه وهم مشركون فيقيم فيهم فتغزوهم جيوش النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقتل الرجل فيمن يقتل ، فأُنزل الله هذه الآية (وإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) وليست له دية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن طريق عطاء بن السائب عن أبي يحيى عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (توبة من الله) يعني تجاوزا من الله لهذه الأمة حيث جعل في قتل الخطأ الكفارة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة : أن رجلا من الأنصار قتل أخا مقيس بن صبابه ، فأعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدية فقبلها ، ثم وثب على قاتل أخيه ، وفيه نزلت الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه ، وفيه أن مقيس بن صبابه لحق بمكة بعد ذلك وارتد عن الإسلام . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) بعد التي في سورة الفرقان بثمان سنين وهي قوله - والذين لا يدعون مع الله إلها آخر - إلى قوله - غفورا رحما - . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن زيد بن ثابت أن قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) نزلت بعد قوله - والذين لا يدعون مع الله إلها آخر - بستة أشهر . وأخرج ابن المنذر عنه قال : نزلت

هذه الآية التي في النساء بعد قوله - ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - بأربعة أشهر ، والآثار عن الصحابة في هذا كثيرة جداً ، والحق ما عرفناك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) .

هذا متصل بذكر الجهاد والقتال ، والضرب : السير في الأرض ، تقول العرب ضربت في الأرض : إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيرها ، وتقول ضربت الأرض بدون في : إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يخرج رجلان يضربان الغائط . قوله (فتبينوا) من التبين وهو التأمل ، وهي قراءة الجماعة إلا حمزة فإنه قرأ « فتثبتوا » من التثبت . واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم قالا : لأن من أمر بالتبين فقد أمر بالتثبت ، وإنما خص السفر بالأمر بالتبين ، مع أن التبين والتثبت في أمر القتل واجبان حضرا وسفرا بلا خلاف ، لأن الحادثة التي هي سبب نزول الآية كانت في السفر كما سيأتي . قوله (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام) وقرئ السلام ، ومعناها واحد . واختار أبو عبيدة السلام . وخالفه أهل النظر فقالوا ، السلام هنا أشبه لأنه بمعنى الانقياد والتسليم . والمراد هنا : لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم واستسلم لست مؤمنا ، فالسلام والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام ، وقيل هما بمعنى الإسلام : أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم الإسلام : أي كلمته وهي الشهادة لست مؤمنا ، وقيل هما بمعنى التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام : أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم فقال السلام عليكم : لست مؤمنا . والمراد نهى المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه ، ويقولوا إنه إنما جاء بذلك تعودا وتقية . ، وقرأ أبو جعفر (لست مؤمنا) من أمته : إذا أجرته فهو مؤمن .

وقد استدلل بهذه الآية على أن من قتل كافرا بعد أن قال لا إله إلا الله قتل به ، لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه وماله وأهله ، وإنما سقط القتل عمن وقع منه ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم تأولوا ، وظنوا أن من قالها خوفا من السلاح لا يكون مسلما ولا يصير بها دمه معصوما وأنه لا بد من أن يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف ، وفي حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الانقياد بأن يقول أنا مسلم أو أنا على دينكم ، لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام والانقياد ، وهو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام من قول أو فعل ، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم ، فالقولان الآخران في معنى الآية داخلان تحت القول الأول . قوله (تبتغون عرض الحياة الدنيا) الجملة في محل نصب على الحال : أي لا تقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة ، على أن يكون النهي راجعا إلى القيد والمقيد لا إلى القيد فقط ، وسمى متاع الدنيا عرضا لأنه عارض زائل غير ثابت . قال أبو عبيدة : يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء ، وأما العرض بسكون الراء فهو ما سوى الدنانير والدراهم ، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح ، وليس كل عرض بالفتح عرضا بالسكون . وفي كتاب العين : العرض ما نيل من الدنيا ، ومنه قوله تعالى - تريدون عرض الدنيا - وجمعه عروض . وفي المجمل لابن فارس : والعرض ما يعترض للإنسان من مرض ونحوه ، وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قل أو أكثر ، والعرض من الأثاث ما كان غير نقد . قوله (فعند الله مغانم كثيرة) هو تعليل للنهي : أي عند الله مما هو حلال لكم من دون ارتكاب محظور مغانم كثيرة تغنمونها وتستغنون

بها عن قتل من قد استسلم وانقاد ، واغتنام ماله (كذلك كنتم من قبل) أى كنتم كفارا ، فحققت دماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة ، أو كذلك كنتم من قبل ، تخفون إيمانكم عن قومكم خوفا على أنفسكم حتى من الله دون الله عليكم بإعزاز دينه فأظهرتم الإيمان وأعلنتم به ، وكرر الأمر بالتبين للتأكيد عليهم لكونه واجبا لافسحة فيه ولا رخصة .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : لحق ناس من المسلمين رجلا معه غنيمة له فقال السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) الآية . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى في سننه عن ابن عباس قال : مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يسوق غنما له فسلم عليهم فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعود منا ، فعدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله) وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى عن عبد الله بن أبى حذرر الأسلمى قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحرث بن ربيع ومسلم بن جثامة بن قيس الليثى ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له معه متبع ووطب من لبن ، فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة لشيء كان بينه وبينه فقتله وأخذ بغيره ومتيعه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) الآية . وفي لفظ عند ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من حديث أبى حذرر هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمحلم : أقتلته بعد ما قال آمنت بالله ؟ فنزل القرآن . وأخرج ابن جرير من حديث ابن عمر أن محملا جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليستغفر له ، فقال : لا غفر الله لك ، فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه ، فامضت به ساعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا ذلك له ، فقال : إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ، ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه في جبل وألقوا عليه الحجارة ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم) الآية . وأخرج البزار والدارقطنى في الأفراد والطبرانى والضياء في المختارة عن ابن عباس أن سبب نزول الآية : أن المقداد بن الأسود قتل رجلا بعد ما قال لا إله إلا الله . وفي سبب النزول روايات كثيرة ، وهذا الذى ذكرناه أحسنها . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (كذلك كنتم من قبل) قال : تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعى بإيمانه : يعنى الذين قتلوه بعد أن ألقى إليهم السلام وفى لفظ تكتمون إيمانكم من المشركين (فن الله عليكم) فأظهر الإسلام فأعلنتم إيمانكم (فتبينوا) قال : وعيد من الله ثان . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (كذلك كنتم من قبل) قال : كنتم كفارا حتى من الله عليكم بالإسلام وهذاكم له .

لَا يَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِ الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا

وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٥) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٦) .

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر ، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوماً ، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا وتبكيك القاعدین ليأنفوا . قوله (غير أولى الضرر) قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو بالرفع على أنه وصف للقاعدین كما قال الأخفش ، لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير . وقرأ أبو حيوة بكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين . وقرأ أهل الحرمين بفتح الراء على الاستثناء من القاعدین أو من المؤمنين : أى إلا أولى الضرر فإنهم يستوون مع المجاهدين . ويجوز أن يكون متصباً على الحال من القاعدین : أى لا يستوى القاعدون الأصحاء في حال صحتهم ، وجازت الحال منهم ، لأن لفظهم لفظ المعرفة . قال العلماء : أهل الضرر هم أهل الأعذار لأنها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد ، وظاهر النظم القرآنى أن صاحب العذر يعطى مثل أجر المجاهد - وقيل يعطى أجره من غير تضعيف فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة . قال القرطبي : والأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح في ذلك « إن بالمدينة رجلاً ما قطعتم وادياً ولا سرتماً مسيراً إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر » . قال : وفي هذا المعنى ما ورد في الخبر « إذا مرض العبد قال الله تعالى اكتبوا لعبدى ما كان يعمل في الصحة إلى أن يبرأ أو أقبضه إلى » . قوله (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة) هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم الاستواء إجمالاً ، والمراد هنا غير أولى الضرر حملاً للمطلق على المقيد ، وقال هنا (درجة) ، وقال فيما بعد (درجات) فقال قوم : التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وبيان وتأکید . وقال آخرون فضل الله المجاهدين على القاعدین من أولى الضرر بدرجة واحدة وفضل الله المجاهدين على القاعدین من غير أولى الضرر بدرجات ، قاله ابن جريج والسدى وغيرهما ؛ وقيل إن معنى درجة علواً : أى أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح ، ودرجة منتصبة على التمييز أو المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل : أى فضل الله تفضيله أو على نزع الخافض أو على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة . قوله (وكلا) مفعول أول لقوله (وعد الله) قدّم عليه لإفادته القصر : أى كل واحد من المجاهدين والقاعدین وعده الله الحسنی : أى المثوبة وهى الجنة . قوله (أجرا) هو منتصب على التمييز ؛ وقيل على المصدرية لأن فضل بمعنى أجر فالتقدير آجرهم أجراً ؛ وقيل مفعول ثان لفضل لتضمنه معنى الإعطاء ؛ وقيل منصوب بنزع الخافض ؛ وقيل على الحال من درجات مقدّم عليها ، وأما انتصاب درجات ومغفرة ورحمة : فهى بدل من أجراً ؛ وقيل إن مغفرة ورحمة ناصبهما أفعال مقدّرة : أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة .

وقد أخرج البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُملى عليه « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وهو يملئها على فقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ؟ ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفخذه على فخذي (غير أولى الضرر) . وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث البراء . وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه من حديث خارجه بن زيد بن ثابت عن أبيه . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر والبيهقى

في سننه عن ابن عباس قال (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) عن بدر والخارجون إلى بدر : وأخرجه عنه أيضا عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر . وأخرج عبد بن حميد والطبراني والبيهقي عنه قال : نزلت في قوم كانت تشغلهم أمراض وأوجاع ، فأنزل الله عذرهم من السماء . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم ، ولقد رأيته في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) قال : على أهل الضرر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (وكلا وعد الله الحسنى) قال : الجنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : كان يقال الإسلام درجة ، والهجرة درجة في الإسلام ، والجهاد في الهجرة درجة ، والقتل في الجهاد درجة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن محيريز في قوله (درجات) قال : الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمهر سبعين سنة . وأخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف عن أبي مجلز . وأخرج البخاري والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُلْثِكَ مَاؤِيهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُلْثِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) .

قوله (توفاهم) يحتمل أن يكون فعلا ماضيا وحذفت منه علامة التأنيث ، لأن تأنيث الملائكة غير حقيقي ؛ ويحتمل أن يكون مستقبلا ، والأصل تتوفاهم ، فحذفت إحدى التائين . وحكى ابن فورك عن الحسن أن المعنى تحشرهم إلى النار - وقيل تقبض أرواحهم وهو الأظهر . والمراد بالملائكة ملائكة الموت لقوله تعالى - قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم - . وقوله (ظالمى أنفسهم) حال : أى في حال ظلمهم أنفسهم ، وقول الملائكة (فيم كنتم) سؤال توبيخ : أى في شيء كنتم من أمور دينكم ؟ وقيل المعنى أكنتم في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم كنتم مشركين ؛ وقيل إن معنى السؤال التفرع لهم بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين . وقولهم (كنا مستضعفين في الأرض) يعنى مكة ، لأن سبب النزول من أسلم بها ولم يهاجر كما سيأتى ، ثم أوقفهم الملائكة على دينهم وألزمهم الحجة وقطعت معذرتهم فقالوا (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) قيل المراد بهذه الأرض المدينة ، والأولى العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، فيراد بالأرض كل بقعة من بقاع الأرض تصلح

للهجرة إليها ، ويراد بالأرض الأولى كل أرض ينبغي الهجرة منها . قوله (مأواهم جهنم) هذه الجملة خبر لأولئك والجملة خبر إن في قوله (إن الذين توفاهم الملائكة) ودخول الفاء لتضمن اسم إن معنى الشرط (وساءت) أى جهنم (مصيرا) أى مكانا يصيرون إليه . قوله (إلا المستضعفين) هو استثناء من الضمير فى مأواهم ؛ وقيل استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين فى الموصول وضميره . وقوله (من الرجال والنساء والولدان) متعلق بمحذوف ، أى كائنين منهم ، والمراد بالمستضعفين من الرجال الزمنى ونحوهم ، والولدان كعباش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ؛ وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة فى أمر الهجرة ، وإيهام أنها تجب أو استطاعها غير المكلف ، فكيف من كان مكلفا ؛ وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك . قوله (لا يستطيعون حيلة) صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان ، أو حال من الضمير فى المستضعفين ، وقيل الحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص : أى لا يجدون حيلة ولا طريقا إلى ذلك ، وقيل السبيل : سبيل المدينة (فأولئك) إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر (عسى الله أن يعفو عنهم) وجيء بكلمة الإطماع لتأكيد أمر الهجرة ، حتى يظن أن : كها ممن لا تجب عليه يكون ذنبا يجب طلب العفو عنه . قوله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) هذه الجملة متضمنة للترغيب فى الهجرة والتشيط إليها . وقوله (فى سبيل الله) فيه دليل على أن الهجرة لابد أن تكون بقصد صحيح ونية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا ، ومنه الحديث الصحيح «فن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وقد اختلف فى معنى قوله سبحانه (يجد فى الأرض مراغما) فقال ابن عباس وجماعة من التابعين ومن بعدهم : المراغم المتحول والمذهب . وقال مجاهد : المراغم المتزحزح . وقال ابن زيد : المراغم المهاجر ، وبه قال أبو عبيدة . قال النحاس : فهذه الأقوال متفقة المعانى ، فالمرغم : المذهب والمتحول ، وهو الموضع الذى يراغم فيه ، وهو مشتق من الرغام وهو التراب ، ورغم أنف فلان : أى لصق بالتراب ، وراغمت فلانا : هجرته وعاديته ولم أبال أن رغم أنفه : وقيل إنما سمي مهاجرا ومراغما ، لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم ، فسبى خروجه مراغما ، وسمى مسيره إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هجرة . والحاصل فى معنى الآية أن المهاجر يجد فى الأرض مكانا يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجروهم : أى على ذلم وهوانهم . قوله (وسعة) أى فى البلاد ؛ وقيل فى الرزق ، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك . قوله (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) قرئ يدركه بالجزم على أنه معطوف على فعل الشرط ، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وبالنصب على إضمار أن . والمعنى أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه ، وهو المكان الذى قصد الهجرة إليه أو الأمر الذى قصد الهجرة له (فقد وقع أجره على الله) أى ثبت ذلك عنده ثبوتا لا يتخلف (وكان الله غفورا) أى كثير المغفرة (رحما) أى كثير الرحمة . وقد استدل بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك أو بدار يعمل فيها بمعاصي الله جهارا إذا كان قادرا على الهجرة ولم يكن من المستضعفين لما فى هذه الآية الكريمة من العموم وإن كان السبب خاصا كما تقدم . وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان : وقد ورد فى الهجرة أحاديث ، وورد ما يدل على أنه لا هجرة بعد الفتح : وقد أوضحنا ما هو الحق فى شرحنا على المنتقى فليرجع إليه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : كان قوم

من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم وقتل البعض فقال المسلمون : قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها فاستغفروا لهم ، فنزلت بهم هذه الآية (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) قال : فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية ، وأنه لا عذر لهم ، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم هذه الآية - ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى في الله - إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ، فنزلت فيهم - ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم - فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقتل من قتل . وقد أخرج البخاري وغيره عنه مقتضراً على أوله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (إن الذين توفاهم الملائكة) إلى قوله (وساءت مضيراً) قال : نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن ربيعة بن الأسود وقيس بن الوليد ابن المغيرة وأبي العاص بن منبه بن الحجاج وعلى بن أمية بن خلف ، قال : لما أخرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نحلة ، خرجوا معهم بشباب كارهين كانوا قد أسلموا واجتمعوا ببدر على غير موعد ، فقتلوا ببدر كفاراً ورجعوا عن الإسلام وهم هؤلاء الذين سميناهم . وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق . وقد روى نحوه هذا من طرق . وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) فقال : كنت أنا وأمى من المستضعفين أنا من الولدان وأمى من النساء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (لا يستطيعون حيلة) قال : قوة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (لا يستطيعون حيلة) قال : نهوضاً إلى المدينة (ولا يهتدون سبيلاً) قال : طريقاً إلى المدينة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (مراغماً كثيراً وسعة) قال : المراغمة التحول من أرض إلى أرض . والسعة : الرزق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (مراغماً) قال : متزحزحاً عما يكره . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله (وسعة) قال : ورخاء . وأخرج أيضاً عن مالك قال : سعة البلاد . وأخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني قال السيوطي بسند رجاله ثقات عن ابن عباس قال : خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً فقال لقومه احملوني فأخرجوني من أرض الشرك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فزل الوحي (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه نحوه . وأخرج ابن سعد : وأحمد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عتيك قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله ، وأين المجاهدون في سبيل الله ؟ فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله ، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله : يعني بحتف أنفه على فراشه ، والله إنها لكلمة ماسمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن قتل قعصاء فقد استوجب الجنة » . وأخرج أبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة » . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)

قوله (وإذا ضربتم) قد تقدم تفسير الضرب في الأرض قريبا . قوله (فليس عليكم جناح) فيه دليل على أن القصر ليس بواجب ، وإليه ذهب الجمهور . وذهب الأقلون إلى أنه واجب . ومنهم عمر ابن عبد العزيز والكوفيون والقاضي إسماعيل وحامد بن أبي سليمان ، وهما مروي عن مالك . واستدلوا بحديث عائشة الثابت في الصحيح « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيدت في الحضر وأقرت في السفر » ولا يقدح في ذلك مخالفتها لما روت ، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومثله حديث يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد أمن الناس ، فقال لي عمر : عجبت مما عجبت منه ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » أخرجه أحمد ومسلم وأهل السنن . وظاهر قوله « فاقبلوا صدقته » أن القصر واجب . قوله (إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا) ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز في السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين لامع الأمن ، ولكنه قد تقرر بالسنة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قصر مع الأمن كما عرفت ، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب ، والقصر مع الأمن ثابت بالسنة ، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه صلى الله عليه وآله وسلم من القصر مع الأمن . وقد قيل إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب ، لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف في الأسفار ، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر ما قال كما تقدم . وفي قراءة أبي (أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا) بسقوط (إن خفتكم) والمعنى على هذه القراءة : كراهة أن يفتنكم الذين كفروا . وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر للخائف من العدو ، فمن كان آمنا فلا قصر له . وذهب آخرون إلى أن قوله (إن خفتكم) ليس متصلا بما قبله وأن الكلام تمّ عند قوله (من الصلاة) ثم افتتح فقال (إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا) فأقم لهم يا محمد صلاة الخوف . وقوله (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) معترض ، ذكر معنى هذا الجرجاني والمهدوي وغيرهما . ورده القشيري والقاضي أبو بكر بن العربي . وقد حكى القرطبي عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجاني ومن معه ، ومما يرد هذا ويدفعه الواو في قوله (وإذا كنت فيهم) وقد تكلف بعض المفسرين فقال : إن الواو زائدة وإن الجواب للشرط المذكور ، أعني قوله (إن خفتكم) هو قوله

(فلتقم طائفة) وذهب قوم إلى أن ذكر الخوف منسوخ بالسنة ، وهي حديث عمر الذي قدّمنا ذكره ، وما ورد في معناه . قوله (أن يفتنكم الذين كفروا) قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل ، وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون أفتنت الرجل ، وفرق الخليل وسيبويه بينهما فقالا فتنته : جعلت فيه فتنة مثل كحلته ، وأفتنته : جعلته مفتنا ، وزعم الأصمعي أنه لا يعرف أفتنته . والمراد بالفتنة القتال والتعرض بما يكره . قوله (عدوا) أي أعداء . قوله (وإذا كنت فيهم فأقمتم لهم الصلاة) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولمن بعده من أهل الأمر حكمه كما هو معروف في الأصول ، ومثله قوله تعالى - خذ من أموالهم صدقة - ونحوه ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، وشذ أبو يوسف وإسماعيل بن علية فقالا : لاتصلي صلاة الخوف بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن هذا الخطاب خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قالوا : ولا يلحق غيره به لماله صلى الله عليه وآله وسلم من المزية العظمى ، وهذا مدفوع فقد أمرنا الله باتباع رسوله والتأسي به ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم « صلوا كما رأيتموني أصلي » والصحابة رضي الله عنهم أعرف بمعاني القرآن ، وقد صلوا بعد موته في غير مرة كما ذلك معروف . ومعنى (أقمت لهم الصلاة) أردت الإقامة ، كقوله - وإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم - ، وقوله - وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله - قوله (فلتقم طائفة منهم معك) يعني بعد أن تجعلهم طائفتين ، طائفة تقف بإزاء العدو ، وطائفة تقوم منهم معك في الصلاة (وليأخذوا أسلحتهم) أي الطائفة التي تصلي معه ؛ وقيل الضمير راجع إلى الطائفة التي بإزاء العدو ، والأول أظهر ، لأن الطائفة القائمة بإزاء العدو لا بد أن تكون قائمة بأسلحتها ، وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان في الصلاة ، لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة فأمره الله بأن يكون آخذا لسلاحه : أي غير واضح له . وليس المراد الأخذ باليد ، بل المراد أن يكونوا حاملين لسلاحهم ليتناولوه من قرب إذا احتاجوا إليه ، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من إمكان فرصته فيهم . وقد قال بإرجاع الضمير من قوله (وليأخذوا أسلحتهم) إلى الطائفة القائمة بإزاء العدو ابن عباس قال لأن المصلية لا تحارب ، وقال غيره : إن الضمير راجع إلى المصلية ، وجوز الزجاج والنحاس أن يكون ذلك أمرا للطائفتين جميعا لأنه أربب للعدو . وقد أوجب أخذ السلاح في هذه الصلاة أهل الظاهر حملا للأمر على الوجوب . وذهب أبو حنيفة إلى أن المصلين لا يحملون السلاح وأن ذلك يبطل الصلاة ، وهو مدفوع بما في هذه الآية وبما في الأحاديث الصحيحة . قوله (فإذا سجدوا) أي القائمون في الصلاة (فليكونوا) أي الطائفة القائمة بإزاء العدو (من ورائكم) أي من وراء المصلين . ويحتمل أن يكون المعنى : فإذا سجد المصلون معه : أي أتموا الركعة تعبيرا بالسجود عن جميع الركعة أو عن جميع الصلاة (فليكونوا من ورائكم) أي فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة (ولتأت طائفة أخرى) وهي القائمة في مقابلة العدو التي لم تصل (فليصلوا معك) على الصفة التي كانت عليها الطائفة الأولى (وليأخذوا) أي هذه الطائفة الأخرى (حذرهم وأسلحتهم) زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح . قيل وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شغل شاغل ، وأما في المرة الأولى فربما يظنونهم قائمين للحرب ؛ وقيل لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت ، لأنه آخر الصلاة ، والسلاح ما يدفع به المرء عن نفسه في الحرب ، ولم يبين في الآية الكريمة كم تصلي كل طائفة من الطائفتين ؟ وقد وردت صلاة الخوف في السنة المطهرة على أنحاء مختلفة وصفات متعددة ، وكلها صحيحة مجزئة من فعل واحدة منها . فقد فعل ما أمر به ، ومن ذهب من العلماء إلى اختيار صفة دون غيرها فقد أبعد عن الصواب وقد

أوضحنا هذا في شرحنا للمتن ، وفي سائر مؤلفاتنا . قوله (ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) هذه الجملة متضمنة لليلة التي لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح : أي ودّوا غفلتكم عن أخذ السلاح وعن الحذر ليصلوا إلى مقصودهم وينالوا فرصتهم ، فيشدّون عليكم شدة واحدة ، والأمتعة ما يتمتع به في الحرب ، ومنه الزاد والراحلة . قوله (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) رخص لهم سبحانه في وضع السلاح إذا نالهم أذى من المطر وفي حال المرض ، لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح ، ثم أمرهم بأخذ الحذر لئلا يأتيهم العدو على غرة وهم غافلون .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي حنظلة قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر ، فقال ركعتان قلت : فأين قوله تعالى (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) ونحن آمنون ؟ قال : سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه سأل ابن عمر : أرأيت قصر الصلاة في السفر ؟ إنا لانجد لها في كتاب الله ، إنما نجد ذكر صلاة الخوف ، فقال ابن عمر يا بن أخي إن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ولا تعلم شيئا ، فإنما نفعل كما رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ، وقصر الصلاة في السفر سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وفي الصحيحين وغيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعي قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر بمضى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين . وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وصححه والنسائي عن ابن عباس قال : صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين مكة والمدينة ونحن آمنون لانخاف شيئا ركعتين . وأخرج ابن جرير عن عليّ قال : سألت قوم من التجار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم انقطع الوحي ، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فصلّى الظهر ، فقال المشركون : قد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها في أثرها ، فأنزل الله بين الصلاتين (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم) إلى قوله (إن الله أعدّ للكافرين عذابا مهينا) فنزلت صلاة الخوف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والدارقطني والحاكم وصححه عن أبي عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلّى بنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، فنزل جبريل بهذه الآيات (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) ثم ذكر صفة الصلاة التي صلّوها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم . والأحاديث في صفة صلاة الخوف كثيرة ، وهي مستوفاة في مواطنها ، فلا نطول بذكرها ها هنا . وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس في قوله (إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى) قال : نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان جريحا .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ
إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) .

(قضيتكم) بمعنى فرغتم من صلاة الخوف ، وهو أحد معاني القضاء ، ومثله - فإذا قضيتكم مناسكتكم - فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض - . قوله (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فى جميع الأحوال حتى فى حال القتال . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو أثر صلاة الخوف : أى إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله فى هذه الأحوال ؛ وقيل معنى قوله (فإذا قضيتكم الصلاة) إذا صليتم فصلوا قياما وقعودا أو على جنوبكم حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال ، فهى مثل قوله - فإن خفتم فرجالا أو ركبانا - . قوله (فإذا اطمأننتم) أى أمنتكم وسكنت قلوبكم ، والطمأنينة : سكون النفس من الخوف (فأقيموا الصلاة) أى فاتوا بالصلاة التى دخل وقتها على الصفة المشروعة من الأذكار والأركان ولا تفعلوا ما أمكن ، فإن ذلك إنما هو فى حال الخوف ؛ وقيل المعنى فى الآية أنهم يقضون ماضيه فى حال المسابقة ، لأنها حالة قلق وانزعاج وتقصير فى الأذكار والأركان وهو مروي عن الشافعى ، والأول أرجح (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى محدودا معيناً ، يقال وقته فهو موقت ووقته فهو موقت . والمعنى : إن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم فى أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتى بها فى غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعى من نوم أو سهو أو نحوهما . قوله (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) أى لاتضعفوا فى طلبهم وأظهروا القوة والجلد . قوله (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) تعليل للنهى المذكور قبله : أى ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصا بكم ، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال ومرارة الحرب ، ومع ذلك فلکم عليهم مزية لاتوجد فيهم ، وهى أنكم ترجون من الله من الأجر وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم وجحودهم ، فأنتم أحق بالصبر منهم وأولى بعدم الضعف منهم ، فإن أنفسكم قوية ، لأنها ترى الموت مغنياً ، وهم يرونه مغرماً . ونظير هذه الآية قوله تعالى - إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله - وقيل إن الرجاء هنا بمعنى الخوف ، لأن من رجا شيئاً فهو غير قاطع بحصوله ، فلا يخلو من خوف ما يرجو . وقال الفراء والزجاج : لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفي كقوله تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقارا - أى لاتخافون له عظمة . وقرأ عبد الرحمن الأعرج (أن تكونوا) بفتح الهمزة : أى لأن تكونوا . وقرأ منصور بن المعتمر تيلمون بكسر التاء ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) قال : بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلاية وعلى كل حال . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أنه بلغه أن قوما يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فقال : إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلى قائماً صلى قاعداً . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد (فإذا اطمأننتم) قال : إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة (فأقيموا الصلاة) قال : أتموها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه أيضاً . وأخرج ابن

أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يعني مفروضا . وأخرج ابن جرير عنه قال : الموقوت الواجب . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (ولا تهنوا) قال : ولا تضعفوا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (تألمون) قال : توجعون (وترجون من الله ما لا يرجون) قال : ترجون الخير

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) .

قوله (بما أراك الله) إما بوحى أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى الله به ، وليس المراد هنا رؤية العين لأن الحكم لا يرى ، بل المراد بما عرفه الله به وأرشده إليه . قوله (ولا تكن للخائنين) أى لأجل الخائنين خصما : أى محاصما عنهم مجادلا للمحقين بسببهم . وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق . قوله (واستغفر الله) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار . قال ابن جرير : إن المعنى استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين : وسيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله الآية ، وبه يتضح المراد . وقيل المعنى : واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمحاصمين بالباطل . قوله (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أى لا تحتاجج عن الذين يخونون أنفسهم ، والمجادلة مأخوذة من الجدل وهو القتل ؛ وقيل مأخوذة من الجدالة وهى وجه الأرض لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يلتقى صاحبه عليها ، وسمى ذلك خيانة لأنفسهم ، لأن ضرر معصيتهم راجع إليهم . والخوان : كثير الخيانة ، والأثم : كثير الإثم ، وعدم المحبة كناية عن البغض . قوله (يستخفون من الناس) أى يستترون منهم كقوله - ومن هو مستخف بالليل - أى مستتر ؛ وقيل معناه : يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله : أى لا يستترون منه أولا يستحيون منه والحال أنه معهم فى جميع أحوالهم عالم بما هم فيه فكيف يستخفون منه (إذ يبيتون) أى يديرون رأى بينهم ، وسماه تبييتا ، لأن الغالب أن تكون إدارة الرأى بالليل (مالا يرضى من القول) أى من الرأى الذى أداروه بينهم ، وسماه قولاً لأنه لا يحصل إلا بعد المناقولة بينهم . قوله (ها أنتم هؤلاء) يعنى القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق كما سيأتى ، والجملة مبتدأ وخبر . قال الزجاج (أولاء) بمعنى الذين و (جادلتم) بمعنى حاججتم (فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) الاستفهام للإنكار والتوبيخ : أى فمن يخاصم ويجادل الله عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم ؟ (أم من يكون عليهم وكيلا) أى مجادلا ومحاصما ؛ والوكيل فى الأصل : القائم بتدبير الأمور . والمعنى : من ذاك يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه .

وقد أخرج الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن قتادة بن النعمان قال

كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلا منافقا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ينخله بعض العرب ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال: أوكلما قال للرجال قصيدة أصموا فقالوا ابن أبيرق قالها

قال: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة: أي حولة من الشام من الدرملك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فلأنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعه بن رافع جملا من الدرملك، فجعله في مشربة، وفي المشربة سلاح له درعان وسيفاهما وما يصلحهما، فعدى عليه من تحت الليل فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمى رفاعه فقال: يا ابن أخي تعلم أن قد عدى علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا نارا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلا مناله صلاح وإسلام، فلما سمع ذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق وقال: أنا أسرق؟ فوالله ليخالطنكم هذا السيف أولتين هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أتيت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمى: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعه بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا، وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سأنظر في ذلك؛ فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموا في ذلك واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؛ قال قتادة: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، فأتاني عمى رفاعه فقال لي: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: الله المستعان فلم نلبث أن نزل القرآن (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) بنى أبيرق (واستغفر الله) أي مما قلت لقتادة (إن الله كان غفورا رحيما) ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) إلى قوله (ثم يستغفر الله يحد الله غفورا رحيما) أي لو استغفروا الله لغفر لهم (ومن يكسب إثما) إلى قوله (فقد احتمل بهتاننا وإثما ميننا) قولهم للبيد (ولولا فضل الله عليك ورحمته همت طائفة منهم أن يضلوك) يعنى أسير بن عروة، فلما نزل القرآن أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلاح فردده إلى رفاعه؛ قال قتادة: فلما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخا قد غشى في الجاهلية: أي كبير، وكنت أرى لإسلامه مدخولا فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحا، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بيت سعد فأنزله الله - ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين قوله ماتولى - إلى قوله

(ضللا لا بعيدا) فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر فأخذت رحله فوضعت على رأسها ثم خرجت فرمت به في الأبطح ، ثم قالت : أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحراني . ورواه يونس بن بكير وغير واحد عن محمد بن إسحاق عن عاصم ابن عمر بن قتادة مرسل لا يذكر فيه عن أبيه عن جدّه . ورواه بن أبي حاتم عن هاشم بن القاسم الحراني عن محمد ابن سلمة به ببعضه . ورواه ابن المنذر في تفسيره قال : حدثنا محمد بن إسماعيل : يعني الصانع ، حدثنا أحمد بن أبي شعيب الحراني ، حدثنا محمد بن سلمة فذكره بطوله . ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في تفسيره عن محمد بن العباس ابن أيوب والحسن بن يعقوب كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني عن محمد بن سلمة به ، ثم قال في آخره : قال محمد بن سلمة : سمع مني هذا الحديث يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإسحاق بن أبي إسرائيل . وقد رواه الحاكم في المستدرک عن أبي العباس الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن محمد ابن إسحاق بمعناه أتم منه ، ثم قال : هذا صحيح على شرط مسلم . وقد أخرجه ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : غدا بشير فذكره مختصرا ، وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطوّلة عن جماعة من التابعين .

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) .

هذا من تمام القصة السابقة ، والمراد بالسوء : القبيح الذي يسوء به (أو يظلم نفسه) بفعل معصية من المعاصي أو ذنب من الذنوب التي لا تعدى إلى غيره (ثم يستغفر الله) يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب (يجد الله غفورا) لذنبه (رحيم) به ، وفيه ترغيب لمن وقع منه السرقة من بني أبيرق أن يتوب إلى الله ويستغفره ، وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به . وقال الضحاك : إن هذه الآية نزلت في شأن وحشي . قاتل حمزة ، أشرك بالله وقتل حمزة ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : هل لي من توبة ؟ فنزلت . وعلى كل حال فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي لكل عبد من عباد الله أذنب ذنبا ثم استغفر الله سبحانه . قوله (ومن يكسب إثما) من الآثام بذنب يذنبه (فإنما يكسبه على نفسه) أي عاقبته عائدة عليه ، والكسب ما يجرّ به الإنسان إلى نفسه نفعا أو يدفع به ضررا ، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسبا ، قاله القرطبي (ومن يكسب خطيئة أو إثما) قيل هما بمعنى واحد كرر للتأكيد . وقال الطبري : إن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد ، والإثم لا يكون إلا عن عمد ، وقيل الخطيئة الصغيرة ، والإثم : الكبيرة . قوله (ثم يرم به بريئا) توحيد الضمير لكون العطف بأو ، أو لتغليب الإثم على الخطيئة ، وقيل إنه يرجع إلى الكسب . قوله (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل

الذى يحمل ، ومثله - وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم - . واليهتان مأخوذ من البهت : وهو الكذب على البرىء بما ينبت له ويتحير منه ، يقال بهته بهتا وبهتاناً : إذا قال عليه ما لم يقل ، ويقال بهت الرجل بالكسر : إذا دهش وتحير وبهت بالضم ، ومنه - فبهت الذى كفر - ، والإثم المبين : الواضح . قوله (ولولا فضل الله عليك ورحمته) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد بهذا الفضل والرحمة لرسول الله أنه نبه على الحق فى قصة بنى أبيرق . وقيل المراد بهما النبوة والعصمة (لهما طائفة منهم) أى من الجماعة الذين عضدوا بنى أبيرق كما تقدم (أن يضلوك) عن الحق (وما يضلون إلا أنفسهم) لأن وبال ذلك عائد عليهم (وما يضرؤنك من شيء) لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس ، ولأنك عملت بالظاهر ولا ضرر عليك فى الحكم به قبل نزول الوحي ، والجار والمجرور فى محل نصب على المصدرية : أى وما يضرؤنك شيئاً من الضرر . قوله (وأنزل الله عليك الكتاب) قيل هذا ابتداء كلام ، وقيل الواو للحال : أى وما يضرؤنك من شيء حال إنزال الله عليك الكتاب والحكمة ، أو مع إنزال الله ذلك عليك . قوله (وعلمك ما لم تكن تعلم) معطوف على أنزل : أى علمك بالوحي ما لم تكن تعلم من قبل (وكان فضل الله عليك عظيماً) إذ لا فضل أعظم من النبوة ونزول الوحي .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية . قال : أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ثم استغفر الله يجد الله غفوراً رحماً ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفر له (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحماً . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (وعلمك ما لم تكن تعلم) قال : علمه الله بيان الدنيا والآخرة بين حلاله وحرامه ليحتج بذلك على خلقه . وأخرج أيضاً عن الضحاك قال : علمه الخير والشر ، وقد ورد فى قبول الاستغفار ، وأنه يمحو الذنب أحاديث كثيرة ملوثة فى كتب السنة .

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) .

النجوى : السر بين الاثنين أو الجماعة ، تقول ناجيت فلاناً مناجاة ونجاء وهم ينتجون ويتناجون ، ونجوت فلاناً أنجوه نجوى : أى ناجيته ، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه : أى خلصته وأفرده . والنجوة من الأرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله ، فالنجوى : المسارة مصدر . وقد تسمى به الجماعة كما يقال قوم عدل ، قال الله تعالى - وإذ هم نجوى - فعلى الأول يكون الاستثناء منقطعاً : أى لكن من أمر بصدقة ، أو متصلاً على تقدير إلا نجوى من أمر بصدقة ، وعلى الثانى يكون الاستثناء متصلاً فى موضع خفض على البدل من كثير : أى لا خير فى كثير إلا فىمن أمر بصدقة . وقد قال جماعة من المفسرين : إن النجوى كلام الجماعة المنفردة أو الاثنين سواء كان

ذلك سرّاً أو جهراً ، وبه قال الزجاج . قوله (بصدقة) الظاهر أنها صدقة التطوع ، وقيل إنها صدقة القرض : والمعروف صدقة التطوع ، والأول أولى . والمعروف لفظ عام يشمل جميع أنواع البر . وقال مقاتل : المعروف هنا القرض . والأول أولى ، ومنه قول الخطيب :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ومنه حديث « كل معروف صدقة » ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » ، وقيل المعروف إغاثة الملهوف . والإصلاح بين الناس عام في الدماء والأعراض والأموال ، وفي كل شيء يقع التداعي فيه . قوله (ومن يفعل ذلك) إشارة إلى الأمور المذكورة ، جعل مجرد الأمر بها خيراً ، ثم رغب في فعلها بقوله (ومن يفعل ذلك) لأن فعلها أقرب إلى الله من مجرد الأمر بها ، إذ خيرية الأمر بها إنما هي لكونه وسيلة إلى فعلها . قوله (ابتغاء مرضات الله) علة للفعل ، لأن من فعلها لغير ذلك فهو غير مستحق لهذا المدح والجزاء ، بل قد يكون غير ناج من الوزر ، والأعمال بالنيات (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) المشاققة : المعادة والمخالفة . وتبين الهدى ظهوره ، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاققة (ويتبع غير سبيل المؤمنين) أى غير طريقهم وهو ما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه (نوله ما تولى) أى نجعله والياً لما توالاه من الضلال (ونصله جهنم) قرأ عاصم وحزمة وأبو عمرو (نوله ونصله) بسكون الهاء في الموضعين . وقرأ الباقر بكسرهما وهما لغتان ، وقرئ ونصله بفتح النون من صلاه ، وقد تقدّم بيان ذلك . وقد استدلت جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الإجماع لقوله (ويتبع غير سبيل المؤمنين) ولا حجة في ذلك عندى ، لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا هو الخروج من دين الإسلام إلى غيره كما يفيد اللفظ ويشهد به السبب ، فلا تصدق على عالم من علماء هذه الملة الإسلامية اجتهد في بعض مسائل دين الإسلام فأدّاه اجتهاده إلى مخالفة من بعصره من المجتهدين ، فإنه إنما رام السلوك في سبيل المؤمنين ، وهو الدين القويم والملة الخفيفة ولم يتبع غير سبيلهم .

وقد أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أمّ حبيبة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كلام ابن آدم كله عليه لاله إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكراً لله عزّ وجلّ » . قال سفيان الثوري هذا في كتاب الله (لاخير في كثير من نجواهم) الآية ، وقوله - يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً - ، وقوله - والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر - . وقد وردت أحاديث صحيحة في الصمت والتحذير من آفات اللسان والترغيب في حفظه ، وفي الحث على الإصلاح بين الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان في قوله (ومن يفعل ذلك) تصدق أو أقرض أو أصلح بين الناس . وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أنس قال « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله أنزل على القرآن يا أعرابي (لاخير في كثير من نجواهم) إلى قوله (فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) يا أعرابي الأجر العظيم الجنة ، قال الأعرابي : الحمد لله الذى هدانا للإسلام » . وأخرج الترمذي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً ، ويد الله على الجماعة ، فمن شدّ شدّ في النار » . وأخرجه الترمذي والبيهقي أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مُرَنِّهَهُمْ فَلْيُبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرَنِّهَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمْنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) .

قوله (إن الله لا يغفر أن يشرك به) قد تقدم تفسير هذه الآية وتكريرها بلفظها للتأكيد ؛ وقيل كررت هنا لأجل قصة بني أبيرق ؛ وقيل إنها نزلت هنا لسبب غير قصة بني أبيرق . وهو ما رواه الثعلبي والقرطبي في تفسيريهما على الضحاك : أن شيخا من الأعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا إلا أنني لم أشرك بالله شيئا مذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصي جرأة على الله ولا مكابرة له ، وإني لنادم وتائب ومستغفر فما حالى عند الله ؟ فأنزل الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية (ومن يشرك بالله فقد ضل) عن الحق (ضللا بعيدا) لأن الشرك أعظم أنواع الضلال وأبعدها من الصواب (إن يدعون من دونه إلا إنثا) أى ما يدعون من دون الله إلا أصناما لها أسماء مؤنثة كالكالات والعزى ومناة ؛ وقيل المراد بالإناث الموات التي لا روح لها كالخشب والحجر ؛ وقيل المراد بالإناث الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله . وقرئ « وثنا » بضم الواو والثاء جمع وثن ، روى هذه القراءة ابن الأنبارى عن عائشة . وقرأ ابن عباس « إلا أثنا » جمع وثن أيضا ، وأصله وثن فأبدلت الواو همزة ، وقرأ الحسن إلا أثنا بضم الهمزة والنون بعدها مثلثة ، جمع أنيث كغدير وغدر . وحكى الطبرى أنه جمع إناث كثمار وثمر . وحكى هذه القراءة أبو عمرو الداني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : وقرأ بها ابن عباس والحسن وأبو حية . وعلى جميع هذه القراءات فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين والإزراء عليهم والتضعيف لعقولهم ، لكونهم عبدوا من دون الله نوعا ضعيفا (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) أى وما يدعون من دون الله إلا شيطانا مريدا وهو إبليس لعنه الله ، لأنهم إذا أطاعوه فيما سألهم فقد عبدوه . وقد تقدم اشتقاق لفظ الشيطان . والمريد : المتمرد العاتى ، من مرد : إذا عتا . قال الأزهري : المريد الخارج عن الطاعة . وقد مرد الرجل مرودا : إذا عتا وخرج عن الطاعة ، فهو مارد ومريد ومتمرّد . وقال ابن عرفة : هو الذى ظهر شره ، يقال شجرة مرداء : إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها ، ومنه قيل للرجل أمرد : أى ظاهر مكان الشعر من عارضيه . قوله (لعنه الله) أصل اللعن الطرد والإبعاد . وقد تقدم وهو في العرف إبعاد مقترن بسخط . قوله (وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) معطوف على قوله (لعنه الله)

والجملتان صفة لشیطان : أى شیطانا مریدا جامعا بین لعنة الله له و بین هذا القول الشنيع . والنصيب المفروض : هو المقطوع المقدّر : أى لأجعلنّ قطعة مقدّرة من عباد الله تحت غوايتى وفى جانب إضلالى حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به . قوله (ولأضلّهم) اللام جواب قسم محذوف : والإضلال : الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية ، وهكذا اللام فى قوله (ولأمنّهم ولأمرّهم) والمراد بالأمانى التى يمنّهم بها الشيطان : هى الأمانى الباطلة الناشئة عن تسويله ووسوسته . قوله (ولأمرّهم فليبتكن آذان الأنعام) أى ولأمرّهم ببتك آذان الأنعام : أى تقطيعها فليبتكنها بموجب أمرى . والبتك : القطع ، ومنه سيف باتك ، يقال بتكه وبتكه مخففا ومشدّدا ، ومنه قول زهير : طارت وفى كفه من ريشها بتك * أى قطع . وقد فعل الكفار ذلك امثالاً لأمر الشيطان واتباعاً لرسمه ، فشقوا آذان البحائر والسوائب كما ذلك معروف . قوله (ولأمرّهم فليغيّرنّ خلق الله) أى ولأمرّهم بتغيير خلق الله فليغيّرنه بموجب أمرى لهم . واختلف العلماء فى هذا التغيير ما هو ؟ فقالت طائفة : هو الخصاء وفقء الأعين وقطع الآذان : وقال آخرون : إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له ، فغيّر الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة ، وبه قال الزجاج ؛ وقيل المراد بهذا التغيير تغيير الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً أو بدلياً .

وقد رخص طائفة من العلماء فى خصاء البهائم إذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن أو غيره ، وكره ذلك آخرون ، وأما خصاء بنى آدم فحرام ، وقد كره قوم شراء الخصى . قال القرطبي : ولم يختلفوا أن خصاء بنى آدم لا يحل ولا يجوز وأنه مثله وتغيير خلق الله وكذلك قطع سائر أعضائهم فى غير حدّ ولا قود ، قاله أبو عمر ابن عبد البر (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله) باتباعه وامثال ما يأمر به من دون اتباع لما أمر الله به ولا امثال له (فقد خسر خسرانا مبيناً) أى واضحا ظاهراً (يعدمهم) المواعيد الباطلة (ويمنيهم) الأمانى العاطلة (وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً) أى وما يعدمهم الشيطان بما يوقعه فى خواطرهم من الوسوس الفارغة (إلا غروراً) يغرّهم به ويظهر لهم فيه النفع وهو ضرر محض ، وانتصاب غروراً على أنه نعت لمصدر محذوف : أى وعدا غروراً أو على أنه مفعول ثان أو مصدر على غير لفظه . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه وله باطن مكروه ؛ وهذه الحملة اعتراضية . قوله (أولئك) إشارة إلى أولياء الشيطان وهذا مبتدأ وخبره الحملة وهى قوله (مأواهم جهنم) . قوله (محيصاً) أى معدلاً ، من حاص يحيص ؛ وقيل ملجأ ومخلصاً ؛ والمحيص اسم مكان ، وقيل مصدر . قوله (والذين آمنوا) الخ ، جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترناً بالوعيد المتقدم للكافرين : قوله (وعد الله حقاً) قال فى الكشف مصدران : الأوّل مؤكّد لنفسه ، والثانى مؤكّد لغيره ، ووجهه أن الأوّل مؤكّد لمضمون الحملة الاسمية ومضمونها وعد ، والثانى مؤكّد لغيره : أى حق ذلك حقاً . قوله (ومن أصدق من الله قيلاً) هذه الحملة مؤكدة لما قبلها ، والقيل مصدر قال كالقول : أى لا أجد أصدق قولاً من الله عز وجل ؛ وقيل إن قيلاً اسم لامصدر ، وإنه منتصب على التمييز .

وقد أخرج الترمذى من حديث علىّ أنه قال : ما فى القرآن آية أحبّ إلىّ من هذه الآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قال الترمذى : حسن غريب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مالك فى قوله (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) قال : اللات والعزّة ومناة كلها موثقة . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن المنذر وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب فى الآية قال مع كل صنم جنيّه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) قال : موتى . وأخرج مثله عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن . وأخرج مثله أيضاً عبد بن حميد

وابن جرير عن قتادة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : كان لكل حي من أحياء العرب صم يعبدونها يسمونها أنثى بنى فلان ، فأنزل الله (إن يدعون من دونه إلا إناثا) وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك قال المشركون : إن الملائكة بنات الله ، وإنما نعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : اتخذوهن أزبأبا وصوروهن صور الجوارى فحلوا وقلدوا ، وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذى نعبدن : يعنون الملائكة . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله (وقال لأتخذن من عبادك) الخ ، قال : هذا إبليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (فليستكن آذان الأنعام) قال التبتك فى البحيرة والسائبة يبتكون آذانها لطواغيتهم . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أنس أنه كره الإخصاء وقال فيه نزلت (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقى عن ابن عمر قال : نهى الله رسول صلى الله عليه وآله وسلم عن خصاء البهائم والحيل . وأخرج ابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن صبر الروح وإخصاء البهائم ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) قال : دين الله . وأخرج ابن جرير عن الضحاك مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : الوشم .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦) .

قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء من أمانى فى الموضعين ، واسم ليس محذوف : أى ليس دخول الجنة أو الفضل أو القرب من الله بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتى ، وقيل ضمير يعود إلى وعد الله ، وهو بعيد ، ومن أمانى أهل الكتاب قولهم - لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى - وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه - وقولهم - لن تمسنا النار إلا أياما معدودة - . قوله (من يعمل سوءا يجز به) قيل المراد بالسوء الشرك ، وظاهر الآية أعم من ذلك ، فكل من عمل سوءا : أى سوء كان فهو مجزى به من غيره فرق بين المسلم والكافر . وفى هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد ، وقد كان لها فى صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ، قال : لما نزلت (من يعمل سوءا يجز به) بلغت من المسلمين مبلغا شديدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قاربوا وسددوا ، فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها . قوله (ولا يجد له) قرأه الجماعة بالجزم

عظما على الجزاء ، وروى ابن بكار عن ابن عامر (ولا يجحد) بالرفع استئنافا : أى ليس لمن يعمل السوء من دون الله وليا يواليه ولا نصيرا ينصره (ومن يعمل من الصالحات) أى بعضها حال كونه (من ذكر أو أنثى) وحال كونه مؤمنا ، والحال الأولى لبيان من يعمل . والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان فى كل عمل صالح (فأولئك) إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان (يدخلون الجنة) قرأ أبو عمرو وابن كثير (يدخلون) بضم حرف المضارعة على البناء للمجهول . وقرأ الباقر بفتحها على البناء للمعلوم (ولا يظلمون تقيرا) أى لا ينقصون شيئا حقيرا ، وقد تقدم تفسير التقير (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله) أى أخلص نفسه له حال كونه محسنا : أى عاملا للحسنات (واتبع ملة إبراهيم) أى دينه حال كون المتبع (حنيفا) أى مائلا عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، وهو الإسلام (واتخذ الله إبراهيم خليلا) أى جعله صفوة له وخصه بكراماته ، قال ثعلب : إنما سمي الخليل خليلا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خليلا إلا ملائته ، وأنشد قول بشار :

قد تخللت مسلك الروح منى وبه سمي الخليل خليلا

وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم ؛ وقيل هو بمعنى المفعول كالحييب بمعنى المحبوب ، وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوبا لله ومحبا له ؛ وقيل الخليل من الاختصاص ، فالله سبحانه اختص إبراهيم برسائته فى ذلك الوقت واختاره لها ، واختار هذا النحاس . وقال الزجاج : معنى الخليل الذى ليس فى محبته خلل (والله ما فى السموات وما فى الأرض) فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلا لطاعته لا لحاجته ولا للتكبر به والاعتضاد بمخالته (وكان الله بكل شئ محيطا) هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التى قبلها : أى أحاط علمه بكل شئ - لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قالت العرب : لا نبعث ولا نجاسب ، وقالت اليهود والنصارى - لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى - وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة - فأنزل الله (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق قال : احتج المسلمون وأهل الكتاب ، فقال المسلمون : نحن أهلى منكم ، وقال أهل الكتاب : نحن أهلى منكم ، فنزلت فقلج عليهم المسلمون بهذه الآية (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مسروق قال : تفاخر النصارى وأهل الإسلام ، فقال هؤلاء نحن أفضل منكم ، وقال هؤلاء نحن أفضل منكم فنزلت . وقد ورد معنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة ومطولة . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن المنذر عن أبى بكر الصديق أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له لما نزلت هذه الآية : أما أنت وأصحابك يا أبا بكر فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة وأبى سعيد أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى ألهم بهمه إلا كفر الله به من سيئاته » . وقد ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن ابن عمر لقيه فسأله عن هذه الآية (ومن يعمل من الصالحات) قال : الفرائض . وأخرج الحاكم وصححه عن جندب أنه سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول قبل أن يتوفى « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . وأخرج الحاكم أيضا وصححه عن ابن عباس قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والروية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمُّ
النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١١٧) .

سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغيره ، فأمر الله نبيه
صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم (الله يفتيكم) أى يبين لكم حكم ما سألتهم عنه ، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت
به السورة من أمر النساء ، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها ، فسألوا ، فقيل لهم (الله يفتيكم) . قوله
(وما يتلى عليكم) معطوف على قوله (الله يفتيكم) والمعنى : والقرآن الذى يتلى عليكم يفتيكم فيهن . والمتلوة في
الكتاب في معنى اليتامى قوله تعالى - وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى - ويجوز أن يكون قوله « وما يتلى » معطوفا على
الضمير في قوله (يفتيكم) الراجع إلى المبتدأ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالمفعول والجار والمجرور
ويجوز أن يكون مبتدأ وفي الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ ، وقد قيل في إعرابه غير ما ذكرنا ، ولم
نذكره لضعفه . وقوله (في يتامى النساء) على الوجه الأول والثاني صلة لقوله (يتلى) وعلى الوجه الثالث بدل
من قوله (فيهن) . (اللاتي لا توتونهن ما كتب لهن) أى ما فرض لهن من الميراث وغيره (وترغبون) معطوف على
قوله (لا توتونهن) عطف جملة مثبتة على جملة منفية . وقيل حال من فاعل (توتونهن) . وقوله (أن تنكحوهن)
يحتمل أن يكون التقدير في أن تنكحوهن : أى ترغبون في أن تنكحوهن . بلماهن ، ويحتمل أن يكون التقدير
وترغبون عن أن تنكحوهن لعدم جمالهن . قوله (والمستضعفين من الولدان) معطوف على يتامى النساء : أى
وما يتلى عليكم في يتامى النساء وفي المستضعفين من الولدان ، وهو قوله تعالى - يوصيكم الله في أولادكم - وقد كان
أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا من كان مستضعفا من الولدان كما سلف ، وإنما يورثون الرجال القاطنين بالقتال
وسائر الأمور . قوله (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) معطوف على قوله (في يتامى النساء) كالمستضعفين أى وما
يتلى عليكم في يتامى النساء وفي المستضعفين وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط : أى العدل ، ويجوز أن يكون في مجل
نصب : أى ويأمركم أن تقوموا (وما تفعلوا من خير) في حقوق المذكورين (فإن الله كان به عليما) يجازيكم
بحسب فعلكم من خير وشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (ويستفتونك في النساء) الآية ،
قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر ولا يورثون المرأة ، فلما كان الإسلام قال : (ويستفتونك
في النساء قل الله يفتيكم فيهن) وما يتلى عليكم في الكتاب (في أول السورة في الفرائض . وأخرج عبد بن حميد
وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئا ، كانوا يقولون
لا يغزون ولا يغنمون خيرا ففرض الله لهن الميراث حقا واجبا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبیر
نحوه بأطول منه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن إبراهيم في الآية قال : كانوا إذا كانت الجارية يتيمة دميمة
لم يعطوها ميراثها وحبسوها من التزويج حتى تموت فيرثونها ، فأنزل الله هذا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما
عن عائشة في قوله (ويستفتونك في النساء) إلى قوله (وترغبون أن تنكحوهن) قالت : هو الرجل تكون عنده
اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العلق ، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلًا فتشركه

في ماله بما شركته فيعضلها ، فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن وابن سيرين في هذه الآية قال أحدهما : ترغبون فيهن ، وقال الآخر : ترغبون عنهن .

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَالِحَا بَيْنَهُمَا صَلَاحًا وَالصُّلَحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) .

امرأة مرفوعة بفعل مقدّر يفسره ما بعده : أى وإن خافت امرأة ، وخافت بمعنى : توقعت ما تخاف من زوجها وقيل معناه تيقنت وهو خطأ . قال الزجاج : المعنى (وإن امرأة خافت من بعلها) دوام النشوز . قال النحاس : الفرق بين النشوز والإعراض : أن النشوز التباعد ، والإعراض أن لا يكلمها ولا يأنس بها ، وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أى نشوز أو أى إعراض ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى سببها ، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأى نوع من أنواعه ، إما بإسقاط النوبة أو بعضها أو بعض النفقة أو بعض المهر . قوله (أن يصالحا) هكذا قرأ الجمهور ، وقرأ الكوفيون « أن يصلحا » وقراءة الجمهور أولى لأن قاعدة العرب أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعدا قيل تصالح الرجلان أو القوم ، لا أصلح . وقوله (صلحا) منصوب على أنه اسم مصدر أو على أنه مصدر محذوف الزوائد ، أو منصوب بفعل محذوف : أى فيصلح حالهما صلحا ؛ وقيل هو منصوب على المفعولية . وقوله (بينهما) ظرف للفعل أو فى محل نصب على الحال . قوله (والصلح خير) لفظ عام يقتضى أن الصلح الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق أو خير من الفرقة أو من الخصومة ، وهذه جملة اعتراضية . قوله (وأخضرت الأنفس الشح) إخبار منه سبحانه بأن الشح فى كل واحد منهما بل فى كل الأنفس الإنسانية كائن وأنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال وأن ذلك بحكم الجبلة والطبيعة فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحوها ، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج فلا تترك له شيئا منها . وشح الأنفس : بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من الوجوه ، ومنه - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - . قوله (وإن تحسنوا وتتقوا) أى تحسنوا عشرة النساء وتتقوا مالا يجوز من النشوز والإعراض (فإن الله كان بما تعملون خبيراً) فيجازيكم يا معشر الأزواج بما تستحقونه . قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) أخبر سبحانه بنى استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذى لا ميل فيه ألبتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه ، وزيادة هذه فى المحبة ونقصان هذه ، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية ، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك » ولما كانوا لا يستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل ، لأن ترك ذلك وتجنب الجور كل الجور فى وسعهم وداخل تحت طاقتهم فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كل الميل حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التى ليست ذات زوج ولا

مطلقة تشبيها بالشئ الذى هو معلق غير مستقر على شئ ، وفى قراءة أبى «فتذروها كالمسجونة» قوله (وإن تصلحوا) أى ما أفسدتم من الأمور التى تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهما (وتتقوا) كل الميل الذى نهىم عنه (فإن الله كان عفورا رحيمًا) لا يؤاخذكم بما فرط منكم . قوله (وإن يتفرقا) أى لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه (يغفر الله كلا) منهما : أى يجعله مستغنيا عن الآخر بأن يهبىء للرجل امرأة توافقه وتقر بها عينه ، وللمرأة رجلا تغتبط بصحبته ويرزقهما (من سعته) رزقا يغنيهما به عن الحاجة (وكان الله واسعا حكيما) واسع الفضل صادرة أفعاله على جهة الإحكام والإتقان .

وقد أخرج الترمذى وحسنه وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يا رسول الله لا تطلقنى وأجعل يومى لعائشة ، ففعل ونزلت هذه الآية (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) الآية ، قال ابن عباس : فما اصطلحا عليه من شئ فهو جائز . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه والبيهقى عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المذكورة . وأخرج البخارى وغيره عنها فى الآية قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبه والبيهقى عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج ، فكره منها أمرا ، إما كبيرا أو غيره ، فأراد طلاقها فقالت : لا تطلقنى واقسم لى ما بدا لك فاصطلحا ، وجرت السنة بذلك ونزل القرآن (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا) الآية . وأخرج أبو داود الطيالسى وابن أبى شيبه وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن على أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو رجل عنده امرأتان ، فتكون إحداهما قد عجزت أو تكون دميمة فيريد فراقها ، فتصالحه على أن يكون عندها ليلة ، وعند الأخرى ليلالى ولا يفارقها ، فما طابت به نفسها فلا بأس به ، فإن رجعت سوى بينهما . وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحوه هذا ، وثبت فى الصحيحين من حديث عائشة قالت : « لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم لها بيوم سودة » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (وأحضرت الأنفس الشح) قال : هو اهوى الشئ يحرص عليه ، وفى قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) قال : فى الحب والجماع ، وفى قوله (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) قال : لاهى أئمة ولا ذات زوج . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن المنذر عن عائشة قالت : « كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » وإسناده صحيح . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد ابن حميد وأهل السنن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » . قال الترمذى : إنما أسنده همام . ورواه هشام الدستوائى عن قتادة قال : كان يقال ، ولا يعرف هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) قال : الجماع . وأخرج ابن أبى شيبه عن الحسن قال : الحب .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا

حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) .

قوله (ولله ما في السموات وما في الأرض) هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته (ولقد وصينا الذين أو توا الكتاب من قبلكم) أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب، واللام في الكتاب للجنس (ولياكم) عطف على الموصول (أن اتقوا الله) أي أمرناهم وأمرناكم بالتقوى وهو في موضع نصب بقوله (وصينا) أو منصوب بنزع الخافض . قال الأخفش : أي بأن اتقوا الله ، ويجوز أن تكون أن مفسرة ، لأن التوصية في معنى القول . قوله (وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض) معطوف على قوله (أن اتقوا) أي وصيناكم وإياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم إن تكفروا ، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه وينظروا في ذلك ويعلموا أنه غنى عن خلقه (إن يشأ يذهبكم) أي يفتنكم (ويأت بآخرين) أي يقوم آخرون غيركم ، وهو كقوله تعالى - وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم - (من كان يريد ثواب الدنيا) وهو من يطلب بعمله شيئاً من أمور الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة دون الأجر (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فما باله يقتصر على أدنى الثوابين وأحقر الأجرين ، وهلا طلب بعمله ما عند الله سبحانه ، وهو ثواب الدنيا والآخرة فيحرزهما جميعاً ويفوز بهما وظاهر الآية العموم . وقال ابن جرير الطبري : إنها خاصة بالمشركون والمنافقين (وكان الله سميعاً بصيراً) يسمع ما يقولونه ويصير ما يفعلونه .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وكان الله غنياً) عن خلقه (حميداً) قال : مستحمداً إليهم . وأخرج أيضاً عن علي مثله . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (وكفى بالله وكيلاً) قال : حفيظاً . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه في قوله (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) قال قادر والله ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ما شاء ويأتي بآخرين من بعدهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) .

قوله (قوامين) صيغة مبالغة : أي ليتكرر منكم القيام بالقسط ، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم وهو الاقرار بما عليكم من الحقوق ، وأما شهادته على والديه فبأن يشهد عليهما بحق للغير ، وكذلك الشهادة على الأقربين وذكر الأبوين لوجوب برهما وكونهما أحب الخلق إليه ، ثم ذكر الأقربين ، لأنهم مظنة المودة والتعصب ،

فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبي من الناس أخرى أن يشهدوا عليه . وقد قيل إن معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه وهو بعيد . وقوله (شهداء لله) خبر بعد خبر لكان ، أو حال ولم ينصرف لأن فيه ألف التانيث . وقال ابن عطية : الحال فيه ضعيفة في المعنى لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط . وقوله (لله) أي لمرضاته وثوابه . وقوله (ولو على أنفسكم) متعلق بشهداء ، هذا المعنى الظاهر من الآية ؛ وقيل معنى (شهداء لله) بالوحدانية فيتعلق قوله (ولو على أنفسكم) بقوامين ، والأول أولى . قوله (إن يكن غنيا أو فقيرا) اسم كان مقدر : أي إن يكن المشهود عليه غنيا فلا يراعى لأجل غناه استجلابا لنفعه أو استدفاعا لضرره فيترك الشهادة عليه ، أو فقيرا فلا يراعى لأجل فقره رحمة له وإشفاقا عليه فيترك الشهادة عليه ، وإنما قال (فالله أولى بهما) ولم يقل به مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد ، لأن المعنى فالله أولى بكل واحد منهما . وقال الأخفش : تكون أو بمعنى الواو ؛ وقيل إنه يجوز ذلك مع تقدم ذكرهما كما في قوله - وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس - . وقد تقدم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا . وقرأ أبي « فالله أولى بهم » . وقرأ ابن مسعود « إن يكن غني أو فقير » على أن كان تامة (فلا تتبعوا الهوى) نهاهم عن اتباع الهوى . وقوله (أن تعدلوا) في موضع نصب ، وهو إما من العدل كأنه قال : فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس ؛ أو من العدول كأنه قال : فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق ، أو كراهة أن تعدلوا عن الحق . قوله (وإن تلووا) من اللّي ، يقال لويت فلانا حقه : إذا دفعته عنه . والمراد ليّ الشهادة ميلا إلى المشهود عليه . وقرأ ابن عامر والكوفيون (١) « وإن تلووا » من الولاية : أي وإن تلووا الشهادة وتركوا ما يجب عليكم من تأديتها على وجه الحق . وقد قيل إن هذه القراءة تفيد معنيين : الولاية ، والإعراض . والقراءة الأولى تفيد معنى واحدا وهو الإعراض . وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط ولحن ، لأنه لا معنى للولاية ها هنا . قال النحاس وغيره : وليس يلزم هذا ، ولكن يكون تلووا بمعنى تلووا ، وذلك أن أصله تلووا فاستثقلت الضمة على الواو بعدها واو أخرى فألقت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين . وذكر الزجاج نحوه . قوله (أو تعرضوا) أي عن تأدية الشهادة من الأصل (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أي بما تعملون من اللّي والإعراض أو من كل عمل ، وفي هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة كما تجب عليه وقد روى أن هذه الآية تعم القاضي والشهود ، أما الشهود فظاهر ، وأما القاضي فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين أو يلوى عن الكلام معه ؛ وقيل هي خاصة بالشهود . قوله (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) أي اثبتوا على إيمانكم ودوموا عليه ، والخطاب هنا للمؤمنين جميعا (والكتاب الذي نزل على رسوله) هو القرآن ، واللام للعهد (والكتاب الذي أنزل من قبل) هو كل كتاب ، واللام للجنس . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر نزل وأنزل بالضم . وقرأ الباقر بالفتح فيهما . وقيل إن الآية نزلت في المنافقين . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا في الظاهر أخلصوا الله . وقيل نزلت في المشركين ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله وهما ضعيفان . قوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر) أي بشيء من ذلك (فقد ضل) عن القصد (ضللا بعيدا) وذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذي أنزل عليه ، وذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة فناسبه ذكر الرسل جملة ، وتقديم الملائكة على الرسل لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) الآية ، قال ، أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم لا يحابون غنيا

لغناه ولا يرحمون مسكيناً لمسكنته ، وفي قوله (فلا تتبعوا الهوى) فتذروا الحق فتجوروا (وإن تلووا) يعني بالسنتكم بالشهادة (أو تعرضوا) عنها . وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عنه في معنى الآية قال : الرجلان يجلسان عند القاضي فيكون لى القاضي وإعراضه لأحد الرجلين على الآخر . وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة كانت البقرة أول سورة نزلت ثم أُرْدِفها سورة النساء ، قال : فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضى حين يوسر ، فنزلت (كونوا قوامين بالقسط) الآية . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً (وإن تلووا أو تعرضوا) يقول : تلوى لسانك بغير الحق وهى اللجلجة فلا تقيم الشهادة على وجهها . والإعراض : الترك . وأخرج الثعلبي عن ابن عباس « أن عبد الله بن سلام وأسدأ وأسيدا ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلاما ابن أخت عبد الله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله ، فقالوا : لا نفعل ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله) الآية » . وينبغي النظر في صحة هذا ، فالثعلبي رحمه الله ليس من رجال الرواية ولا يفرق بين الصحيح والموضوع . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في هذه الآية قال : يعنى بذلك أهل الكتاب ، كان الله قد أخذ ميثاقهم في التوراة والإنجيل ، وأقرأوا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بعث الله رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد والقرآن وذكرهم الذى أخذ عليهم من الميثاق ، فمنهم من صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم واتبعه ، ومنهم من كفر .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) .

أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التى آمنت ثم كفرت ثم آمنت ثم كفرت ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله أنه لم يكن الله سبحانه ليغفر لهم ذنوبهم ولا ليهديهم سبيلا يتوصلون به إلى الحق ويسلكونه إلى الخير لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله ويؤمنوا إيماناً صحيحاً فإن هذا الاضطراب منهم تارة يدعون أنهم مؤمنون وتارة يمرقون من الإيمان

ويرجعون إلى ما هو دأبهم وشأنهم من الكفر المستمر والنجس الدائم يدلّ أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين ليست لهم نية صحيحة ولا قصد خالص . قيل المراد بهؤلاء اليهود فإنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعزير ، ثم آمنوا بعزير ، ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل آمنوا بموسى ، ثم كفروا به بعبادتهم العجل ، ثم آمنوا به عند عوده إليهم ، ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالآية أنهم ازدادوا كفرا واستمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم وإلا فالكافر إذا آمن وأخلص إيمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة ، والإسلام يجب ما قبله ، ولكن لما كان هذا مستبعدا منهم جدا كان غفران ذنوبهم وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعدا . قوله (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) إطلاق البشارة على ما هو شرّ خالص لهم تهكم بهم وقدمت تحقيقه . وقوله (الذين يتخذون الكافرين أولياء) وصف للمنافقين أو منصوب على الذم : أى يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم ويمالئونهم على ضلالهم . وقوله (من دون المؤمنين) فى محل نصب على الحال : أى يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين (أبيتغون عندهم العزة) هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة معترضة . قوله (فإن العزة لله جميعا) هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه ، وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما فى قوله - والله العزة لرسوله وللمؤمنين - والعزة : الغلبة ، يقال عزّه يعزّه عزّا : إذا غلبه (وقد نزل عليكم فى الكتاب) الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق ، لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمثل ما أنزله الله ؛ وقيل إنه خطاب للمنافقين فقط كما يفيد التشديد والتوبيخ . وقرأ عاصم ويعقوب « نزل » بفتح النون والزاي وتشديدها ، وفاعله ضمير راجع إلى اسم الله تعالى فى قوله (فإن العزة لله جميعا) . وقرأ حميد بتخفيف الزاي مفتوحة مع فتح النون ، وقرأ الباقون بضم النون مع كسر الزاي مشددة على البناء للمجهول . وقوله (أن إذا سمعتم آيات الله) فى محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل . وفى محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل ، وفى محل رفع على أنه مفعول مالم يسم فاعله على القراءة الثالثة . وأن هى المخففة من الثقيلة ، والتقدير أنه إذا سمعتم آيات الله . والكتاب : هو القرآن . وقوله (يكفر بها ويستزأ بها) حالان : أى إذا سمعتم الكفر والاستزأ بآيات الله فأوقع السماع على الآيات . والمراد سماع الكفر والاستزأ . وقوله (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى أنزل عليكم فى الكتاب أنكم عند هذا السماع للكفر والاستزأ بآيات الله لا تقعدوا معهم ماداموا كذلك حتى يخوضوا فى حديث غير حديث الكفر والاستزأ بها . والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى - وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره - وقد كان جماعة من الداخلين فى الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخرتهم بالقرآن واستزأهم به فهوا عن ذلك .

وفى هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذى هو الاعتبار دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستزأ للأدلة الشرعية ، كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة ولم يبق فى أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا ، وقال فلان من أتباعه بكذا ، وإذا سمعوا من يستدلّ على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوى سخرؤا منه ولم يرفعوا إلى ما قاله رأسا ولا بالوا به بالة وظنوا أنه قد جاء بأمر فطيع وخطب شنيع وخالف مذهب إمامهم الذى نزلوه منزلة معلم الشرائع ، بل بالغوا فى ذلك حتى جعلوا رأيه القائل ، واجتهاده الذى هو عن منهج الحق مائل ، مقدما على الله وعلى كتابه وعلى رسوله ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم ،

فإنهم قد صرّحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم كما أوضحنا ذلك في رسالتنا المسماة [بالقول المفيد في حكم التقليد] وفي مؤلفنا المسمى [بأدب الطلب ومنهى الأرب] اللهم انفعنا بما علمتنا واجعلنا من المقتدين بالكتاب والسنة وباعديتنا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار ، يا مجيب السائلين .

قوله (إنكم إذا مثلهم) تعليل للنهي : أي إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم في الكفر . قيل وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل : * وكل قرين بالمقارن يقتدى * وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبي فإنه قال : هي منسوخة بقوله تعالى - وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء - وهو مردود فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها . قوله (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) هذا تعليل لكونهم مثلهم في الكفر ، قيل وهم القاعدون والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجهًا إلى المنافقين . قوله (الذين يتربصون بكم) أي ينتظرون بكم ما يتجدد ويحدث لكم من خير أو شر ، والموصول في محل نصب على أنه صفة للمنافقين أو بدل منهم فقط دون الكافرين لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم ، (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) هذه الجملة والجملة التي بعدها حكاية لتربصهم : أي إن حصل لكم فتح من الله بالنصر على من يخالفكم من الكفار (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) في الانتصاف بظاهر الإسلام والتزام أحكامه والمظاهرة والتسويد وتكثير العدد (وإن كان للكافرين نصيب) من الغلب لكم والظفر بكم (قالوا) للكافرين (ألم نستحوذ عليكم) أي ألم نقهركم ونغلبكم ونتمكن منكم ولكن أبقينا عليكم . وقيل المعنى : لأنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم ؟ والأول أولى ، فإن معنى الاستحواذ : الغلب ، يقال استحوذ على كذا : أي غلب عليه ، ومنه قوله تعالى - استحوذ عليهم الشيطان - ولا يصح أن يقال : ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون ، ولكن المعنى : ألم نغلبكم يا معشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين (ونمنعكم من المؤمنين) بتخديلتهم وتشيطتهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم ؛ والمراد أنهم يميلون مع من له الغلب والظفر من الطائفتين ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة ، وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله ، وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام من التظاهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى ، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة ، ويلقى من لاحظ له من الدنيا بالشدة والغلظة وسوء الخلق ويزدرى به ويكافحه بكل مكروه ، فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها . قوله (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق والبغض للحق وأهله ، ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر وإن حقنوا في الدنيا دماءهم وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقا (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) ، هذا في يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل النصر والغلب ، أو في الدنيا إن كان المراد به الحجة . قال ابن عطية . قال جميع أهل التأويل : إن المراد بذلك يوم القيامة . قال ابن العربي : وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه ، وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعني قوله (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) وذلك يسقط فائدته ، إذ يكون تكرارا هذا معنى كلامه ؛ وقيل المعنى : إن الله لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين يحو به دولتهم ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم كما يفعله الحديث الثابت في الصحيح «وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا» وقيل إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا

على المؤمنين ماداموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهي عن المنكر كما قال تعالى - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم - قال ابن العربي : وهذا نفيس جدا ؛ وقيل إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا ، فإن وجد فبخلاف الشرع . هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية ، وهي صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (إن الذين آمنوا ثم كفروا) الآية ، قال : هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت ، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه في الآية قال : هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة ثم كفروا ، ثم ذكر النصارى فقال : (ثم آمنوا ثم كفروا) يقول : آمنوا بالإنجيل ثم كفروا ، (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ثم ازدادوا كفرا) قال : تموا على كفرهم حتى ماتوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم في المجلس بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم جميعا ، فذكروا ذلك لإبراهيم النخعي ، فقال : صدق أبو وائل ، أو ليس ذلك في كتاب الله ؟ - فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره - . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : أنزل في سورة الأنعام - حتى يخوضوا في حديث غيره - ثم نزل التشديد في سورة النساء (إنكم إذا مثلهم) . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير أن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والكافرين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤا بالقرآن في جهنم جميعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (الذين يتربصون بكم) قال : هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين (فإن كان لكم فتح من الله) إن أصاب المسلمين من عدوهم غنيمة قال المنافقون (ألم نكن) قد كنا (معكم) فأعطونا من الغنيمة مثل ما تأخذون (وإن كان للكافرين نصيب) يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكفار (ألم نستحوذ عليكم) ألم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه ، قد كنا نبطهم عنكم . وأخرج ابن جرير عن السدي (ألم نستحوذ عليكم) قال : تغلب عليكم . وأخرج عبد الرزاق والفريري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب والحاكم وصححه عن علي أنه قيل له : أرأيت هذه الآية (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ، فقال : ادنه ادنه ، ثم قال (فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : في الآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي مالك نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن السدي (سبيلا) قال : حجة

إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا

بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) .

قوله (إن المنافقين يخادعون الله) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم ، وقد تقدم معنى الخدع في البقرة ، وخادعهم الله هي أنهم يفعلون فعل الخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، ومعنى كون الله خادعهم : أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه ، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا ، فعصم به أموالهم ودماءهم ، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة ، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار . قال في الكشف . والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه . والكسالى بضم الكاف جمع كسلان ، وقرئ بفتحها ، والمراد أنهم يصلون وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا . والرياء إظهار الحميل ليراه الناس ، لا لاتباع أمر الله ، وقد تقدم بيانه ، والمرأة المفاعلة : قوله (ولا يذكرون الله إلا قليلا) معطوف على يراءون : أى لا يذكرونه سبحانه إلا ذكرا قليلا أو لا يصلون إلا صلاة قليلة ، ووصف الذكر بالقلة لعدم الإخلاص ، أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلا في نفسه ، لأن الذى يفعل الطاعة لقصد الرياء ، إنما يفعلها في الحجام ولا يفعلها خاليا كالمخلص . قوله (مذبذبين بين ذلك) المذبذب المتردد بين أمرين ، والمذبذبة الاضطراب ، يقال ذبذبه فتذبذب ، ومنه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

قال ابن جني : المذبذب القلق الذى لا يثبت على حال ، فهو لاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين لاخلصين الإيمان ولا مصرحين بالكفر . قال في الكشف : وحقيقة المذبذب الذى يذب عن كلا الجانبين : أى يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد ، كما يقال : فلان يرمى به الرجوان ، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب ؛ كأن المعنى : كلما مال إلى جانب ذب عنه انتهى . وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح الذالين . وقرأ ابن عباس بكسر الذال الثانية ، وفي حرف أبي «متذبذبين» وقرأ الحسن بفتح الميم والذالين ، وانتصاب مذبذبين إما على الحال أو على الذم ، والإشارة بقوله بين ذلك إلى الإيمان والكفر . قوله (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أى لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ، ومحل الجملة : النصب على الحال ، أو على البدل من مذبذبين أو على التفسير له (ومن يضل الله) أى يخذله ويسلبه التوفيق (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا يوصله إلى الحق . قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين (أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا) الاستفهام للتقريع والتوبيخ : أى أتريدون أن تجعلوا الله عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالات الكافرين (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) قرأ الكوفيون الدرك بسكون الراء ، وقرأ غيرهم بتحريكها . قال أبو علي : هما لغتان والجمع أدراك ؛ وقيل جمع المحرك أدراك مثل جمل وأجمال ، وجمع الساكن أدرك مثل فلس وأفلس . قال النحاس : والتحريك أفصح . والدرك : الطبقة . والنار دركات سبع ، فالمنافق في الدرك الأسفل منها ، وهى الهاوية ، لغلط كفره وكثرة غوائله ، وأعلى الدرجات جهنم ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا ، أعادنا الله من عذابها (ولن تجد لهم نصيرا) يخلصهم من ذلك الدرك

والخطاب لكل من يصلح له أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (إلا الذين تابوا) استثناء من المنافقين : أى إلا الذين تابوا عن النفاق (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم (وأخلصوا دينهم لله) أى جعلوه خالصا له غير مشوب بطاعة غيره . والاعتصام بالله : التمسك به والثوق بوعده ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الذين تابوا واتصفوا بالصفات السابقة . قوله (مع المؤمنين) قال القراء : أى من المؤمنين يعنى الذين لم يصدر منهم نفاق أصلا . قال القتيبي : حاد عن كلامهم غضبا عليهم فقال (فأولئك مع المؤمنين) ولم يقل هم المؤمنون انتهى . والظاهر أن معنى مع معتبر هنا : أى فأولئك مصاحبون للمؤمنين فى أحكام الدنيا والآخرة . ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم فقال (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) وحذفت الياء من يؤت فى الخط كما حذفت فى اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ، ومثله - يؤم يدع الداع - و- سندع الزبانية - ويوم يناد المناد - ونحوها فإن الحذف فى الجميع لالتقاء الساكنين . قوله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه فى التعذيب إلا مجرد المجازاة للعصاة . والمعنى : أى منفعة له فى عذابكم إن شكرتم وآمنتم ، فإن ذلك لا يزيد فى ملكه كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه (وكان الله شاكرا عليما) أى يشكر عباده على طاعته فيثيبهم عليها ويتقبلها منهم . والشكر فى اللغة : الظهور ، يقال دابة شكور : إذا ظهر من سمها فوق ما تعطى من العلف .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى قوله (إن المنافقين يخادعون الله) الآية ، قال : يلتقى على مؤمن ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى إذا انتهوا إلى الصراط طغى نور المنافقين ومضى المؤمنون بنورهم فتلك خديعة الله إياهم . وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه أيضا ، ولا أدري من أين جاء لهم هذا التفسير ، فإن مثله لا ينقل إلا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج فى الآية قال : نزلت فى عبد الله بن أبى وأبى عامر بن النعمان . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق ، وأنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (مذبذبين بين ذلك) قال : هم المنافقون (لا إلى هؤلاء) يقول : لا إلى أصحاب محمد (ولا إلى هؤلاء) اليهود ، وثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إن مثل المنافق مثل الشاة الغائرة بين الغنمين تغير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة فلا تدرى أيهما تتبع ؟» . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله (أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا) قال : إن الله السلطان على خلقه ولكنه يقول عذرا مبينا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفرىابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال «كل سلطان فى القرآن فهو حجة» والله سبحانه أعلم .

وأخرج ابن أبى شبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قال : فى توايت من حديد مقفلة عليهم ، وفى لفظ مبهم عليهم : أى مغلقة لا يهتدى لمكان فتحها . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن مسعود نحوه أيضا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم) الآية ، قال : إن الله لا يعذب شاكرا ولا مؤمنا .

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنَّ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا (١٤٩) .

نفي الحب كناية عن البغض ، وقراءة الجمهور (إلا من ظلم) على البناء للمجهول . وقرأ زيد بن أسلم وابن أبي إسحاق والضحاك وابن عباس وابن جبير وعطاء بن السائب (إلا من ظلم) على البناء للمعلوم ، وهو على القراءة الأولى استثناء متصل بتقدير مضاف محذوف : أي إلا جهر من ظلم ؛ وقيل إنه على القراءة الأولى أيضا منقطع : أي لكن من ظلم فله أن يقول ظلمني فلان .

واختلف أهل العلم في كيفية الجهر بالسوء الذي يجوز لمن ظلم ، فقيل هو أن يدعو على من ظلمه ؛ وقيل لا بأس أن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول : فلان ظلمني أو هو ظالم أو نحو ذلك ؛ وقيل معناه : إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر أو نحوه فهو مباح له ، والآية على هذا في الإكراه ، وكذا قال قطرب ، قال : ويجوز أن يكون على البدل كأنه قال لا يحب الله إلا من ظلم : أي لا يحب الظالم بل يحب المظلوم . والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذي هو من السوء في جانب من ظلمه ، ويؤيده الحديث الثابت في الصحيح بلفظ « لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته » ، وأما على القراءة الثانية فالاستثناء منقطع : أي إلا من ظلم في فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ له . وقال قوم : معنى الكلام لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول ، لكن من ظلم فإنه يجهر بالسوء ظلما وعدوانا وهو ظالم في ذلك ، وهذا شأن كثير من الظلمة فإنهم مع ظلمهم يستطيعون بالسنتهم على من ظلموه وينالون من عرضه . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى إلا من ظلم فقال سوءا ، فإنه ينبغي أن يأخذوا على يديه ويكون استثناء ليس من الأول (وكان الله سميعا علما) هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه ويعلم به ، ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجهر بالسوء ندب إلى ما هو الأولى والأفضل فقال (إن تبدوا خيرا أو تحفوه أو تغفوا عن سوء) تصابون به (فإن الله كان عفوا) عن عبادته (قديرا) على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم فاقتدوا به سبحانه فإنه يعفو مع القدرة :

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) قال : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوما فإنه رخص له أن يدعو على من ظلمه وإن يصبر فهو خير له . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في الآية قال : نزلت في رجل ضاف رجلا بفلاة من الأرض فلم يصفه ، ثم ذكر أنه لم يصفه لم يزد على ذلك . وأخرج ابن المنذر عن إسماعيل (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال : كان الضحاك بن مزاحم يقول هذا على التقديم والتأخير ، يقول الله . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم إلا من ظلم ، وكان يقرؤها كذلك ، ثم قال (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) أي على كل حال هكذا قال ، وهو قريب من التحريف لمعنى الآية . وقد أخرج ابن أبي شيبة والترمذي عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » . وروى نحوه أبو داود عنها من وجه آخر . وقد أخرج أبو داود من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « المتسابان ما قالاه ، فعلى البادى منهما ما لم يعتد المظلوم » .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ

الْكُفْرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) .

لما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، لأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة ، والكفر بذلك كفر بالله ، وينبغي حمل قوله (إن الذين يكفرون بالله ورسله) على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعا ، فإن أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله ، لكنهم لما كفروا ببعض كان ذلك كفر بالله وبجميع الرسل . ومعنى (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله ، فكان ذلك تفريقا بين الله وبين رسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد ، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أى يتخذوا بين الإيمان والكفر دينا متوسطا بينهما ، فالإشارة بقوله (ذلك) إلى قوله نؤمن ونكفر (أولئك هم الكافرون) أى الكاملون في الكفر . وقوله (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة : أى حق ذلك حقا ، أو هو صفة لمصدر الكافرين : أى كفرا حقا . قوله (ولم يفرقوا بين أحد منهم) بأن يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ودخول بين على أحد لكونه عاما في المفرد مذكرا وموثنا ومثناها وجمعهما . وقد تقدم تحقيقه ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية ، قال (أولئك) أعداء الله اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن ومحمد ، اتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام ، وهو دين الله الذى بعث به رسله . وأخرج ابن جرير عن السدى وابن جريج نحوه .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْأَبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ

مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٠٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٠٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٠٩) .

قوله (يسألك أهل الكتاب) هم اليهود سألوه صلى الله عليه وآله وسلم أن يرقى إلى السماء وهم يرونه ، فينزل
عليهم كتابا مكتوبا فيما يدعيه يدل على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى التوراة تعنتا منهم ، أبعدهم الله ، فأخبره
الله عز وجل بأنهم قد سألو موسى سوألا أكبر من هذا السؤال ، فقالوا (أرنا الله جهرة) أى عيانا ، وقد تقدم
معناه فى البقرة ، وجهرة نعت لمصدر محذوف : أى رؤية جهرة . وقوله (فقد سألو) جواب شرط مقدر : أى إن
استكبرت هذا السؤال منهم لك فقد سألو موسى أكبر من ذلك قوله (فأخذتهم الصاعقة) هى النار التى
نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم ، والباء فى قوله (بظلمهم) للسببية : أى بسبب ظلمهم فى سوألهم الباطل لامتناع
الرؤية عيانا فى هذه الحالة ، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة ، فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة . ومن
استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطا بينا ؛ ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذى نشأ منهم
بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات ، بل ضموا إليه ما هو أقبح منه وهو عبادة العجل . وفى الكلام حذف
والتقدير : فأحييناهم فاتخذوا العجل . والبيانات : البراهين والدلائل ، والمعجزات من اليد والعصا وخلق البحر
وغيرها (ففعلونا عن ذلك) أى عما كان منهم من التعنت وعبادة العجل (وآتيناه موسى سلطانا مبينا) أى حجة بينة
وهى الآيات التى جاء بها ، وسميت سلطانا ، لأن من جاء بها قهر خصمه ، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن
يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم ، فإنه من جملة السلطان الذى قهرهم به (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) أى
بسبب ميثاقهم ليعطوه ، لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع الله عليهم الطور فقبلوها ؛ وقيل إن
المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذ منهم ، وهو العمل بما فى التوراة وقد تقدم رفع الجبل فى البقرة ، وكذلك
تفسير دخولهم الباب سجدا (وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت) فتأخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان ، وقد تقدم
تفسير ذلك ، وقرئ لا تعدوا وتعدوا بفتح العين وتشديد الدال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) مؤكدا وهو العهد
الذى أخذه عليهم فى التوراة ؛ وقيل إله عهد مؤكدا باليمين ، فسمى غليظا لذلك . قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) ما
مزيدة للتوكيد ، أو نكرة ، ونقضهم بدل منها ، والباء متعلقة بمحذوف ، والتقدير : فبنقضهم ميثاقهم لعناهم . وقال
الكسائى : هو متعلق بما قبله والمعنى : فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله (فبما نقضهم ميثاقهم) قال : ففسر ظلمهم
الذى أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء وما بعده . وأنكر ذلك ابن جرير الطبرى
وغيره ، لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى ، والذين قتلوا الأنبياء ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد
موسى بزمان ، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برمتهم بالبهتان قال المهدوى وغيره : وهذا لا يلزم لأنه يجوز أن
ينخر عنهم ، والمراد آبائهم ، وقال الزجاج : المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرمانا عليهم طيبات أحلت لهم ، لأن هذه
القصة ممتدة إلى قوله (فبظلم من الذين هادوا حرمانا) ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبى صلى الله
عليه وآله وسلم ؛ وقيل المعنى : فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم ؛ وقيل المعنى : فبنقضهم

لا يؤمنون إلا قليلا ، والفاء في قوله (فلا يؤمنون) مقحمة . قوله (وكفرهم بآيات الله) معطوف على ما قبله ، وكذا قوله (وقتلهم) ، والمراد بآيات الله كتبهم التي حرّفوها ، والمراد بالأنبياء الذين قتلوهم يحيى وزكرياء . وغلف جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف : أى قلوبنا في أعطية فلا نفقه ما تقول : وقيل إن غلف جمع غلاف ، والمعنى : أن قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم وهو كفولهم - قلوبنا في أكنة - وغرضهم بهذا ردّ حجة الرسل . قوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) هذه الجملة اعتراضية : أى ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفا بحسب مقصدهم الذى يريدونه ، بل بحسب الطبع من الله عليها . والطبع : الختم ، وقد تقدم إيضاح معناه في البقرة ، وقوله (فلا يؤمنون إلا قليلا) أى هي مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا ، أو إلا قليلا منهم كعبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم ، وقوله (وبكفرهم) معطوف على قولهم وإعادة الجار لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفرا بعد كفر ؛ وقيل إن المراد بهذا الكفر كفرهم بالمسيح ، فحذف للدلالة ما بعده عليه . قوله (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) هو رميها بيوسف النجار ، وكان من الصالحين . والبهتان : الكذب المفرط الذى يتعجب منه . قوله (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) معطوف على ما قبله ، وهو من جملة جنائياتهم وذنوبهم لأنهم كذبوا بأنهم قتلوه وافتخروا بقتله وذكروه بالرسالة استهزاء ، لأنهم ينكرونها ولا يعترفون بأنه نبي ، وما أدعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته وإيضاح حقيقته الانجيل ، وما فيه هو من تحريف النصارى : أبعدهم الله ، فقد كذبوا وصدق الله القائل في كتابه العزيز (وما قتلوه وما صلبوه) والجملة حالية : أى قالوا ذلك والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه (ولكن شبه لهم) أى ألقى شبهه على غيره ؛ وقيل لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذين قتلوه وهم شاكون فيه (وإن الذين اختلفوا فيه) أى في شأن عيسى ، فقال بعضهم قتلناه ، وقال من عاين رفعه إلى السماء ما قتلناه ؛ وقيل إن الاختلاف بينهم ، هو أن النسطورية من النصارى قالوا : صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وقالت الملكانية : وقع القتل والصلب على المسيح بكامله ناسوته ولاهوته ، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له ، ولهذا قال الله (وإن الذين اختلفوا فيه لى شك منه) أى في تردّد لا يخرج إلى حيز الصحة ، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم ، بل هم متردّدون مرتابون في شكهم يعمهون ، وفي جهلهم يتحIRON ، و (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) من زائدة لتوكيد نفي العلم ، والاستثناء منقطع : أى لكنهم يتبعون الظن ؛ وقيل هو بدل بما قبله . والأول أولى . لا يقال إن اتباع الظن ينافي الشك الذى أخبر الله عنهم بأنهم فيه ، لأن المراد هنا بالشك التردد كما قدمنا ، والظن نوع منه ، وليس المراد به هنا ترجيح أحد الجانبين . قوله (وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا على أنه صفة مصدر محذوف ، أو متيقنين على أنه حال ، وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى ؛ وقيل إنه يعود إلى الظن ، والمعنى : ما قتلوا ظنهم يقينا كقولك قتلته علما إذا علمته علما تاما . قال أبو عبيدة : ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقينا لقال وما قتلوه فقط ؛ وقيل المعنى : وما قتلوا الذى شبه لهم ؛ وقيل المعنى : بل رفعه الله إليه يقينا ، وهو خطأ ، لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها . وأجاز ابن الأنبارى نصب يقينا بفعل مضمر هو جواب قسم ، ويكون (بل رفعه الله إليه) كلاما مستأنفا ولا وجه لهذه الأقوال ، والضمائر قبل قتلوه وبعده لعيسى ، وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة . قوله (بل رفعه الله إليه) ردّ عليهم وإثبات لما هو الصحيح ، وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام في آل عمران . قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) المراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، والمعنى : وما من أهل الكتاب أحد إلا والله

ليؤمنن به قبل موته ، والضمير في به راجع إلى عيسى ، والضمير في موته راجع إلى ما ذلّ عليه الكلام ، وهو لفظ أحد المقدّر أو الكتابي المدلول عليه بأهل الكتاب ، وفيه دليل على أنه لا يموت يهودي أو نصراني إلا وقد آمن بالمسيح ؛ وقيل كلا الضميرين لعيسى ، والمعنى : أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره ؛ وقيل الضمير الأول لله ؛ وقيل إلى محمد ، وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير ، وقال به جماعة من السلف وهو الظاهر ، والمراد الإيمان به عند نزوله في آخر الزمان كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة (ويوم القيامة يكون) عيسى على أهل الكتاب (شهيدا) يشهد على اليهود بالكذب له ، وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا هو ابن الله .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : إن موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك ، فأنزل الله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) إلى (وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : إن اليهود والنصارى قالوا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : لن نباليك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله ، فأنزل الله (يسألك أهل الكتاب) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (أرنا الله جهرة) قال : إنهم إذا رأوه فقد رأوه ، وإنما قالوا جهرة أرنا الله قال : هو مقدم ومؤخر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (ورفعنا فوقهم الطور) قال : جبل كانوا في أصله فرفعه الله فجعله فوقهم كأنه ظلة ، فقال : لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به ، فقالوا نأخذه فأمسكه الله عنهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) قال : رموها بالزنا . وأخرج سعيد بن منصور والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين ، فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يلقي عليه شبيه فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال أنا ، فقال : أنت ذاك فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء ؛ قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، فهو لاء يعقوبية ؛ وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهو لاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله وهو لاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ، فأنزل الله عليه - فأمنت طائفة من بني إسرائيل - يعني الطائفة التي آمنت في زمن عيسى - وكفرت طائفة - يعني التي كفرت في زمن عيسى - فأيدنا الذين آمنوا - في زمن عيسى بإظهار محمد دينهم على دين الكافرين . قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عن ابن أبي حاتم قال : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وصدق ابن كثير ، فهو لاء كلهم من رجال الصحيح . وأخرجه النسائي من حديث أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه . وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بألفاظ مختلفة ، وساقها عبد بن حميد وابن جرير عن وهب ابن منبه على صفة قريبة مما في الإنجيل ، وكذلك ساقها ابن المنذر عنه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس

في قوله (وما قتلوه يقيناً) قال : لم يقتلوا ظنهم يقيناً . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جوير والسدي مثله أيضاً . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : خروج عيسى ابن مريم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عنه في الآية قال : قبل موت عيسى . وأخرج عنه أيضاً قال : قبل موت اليهودي . وأخرج ابن جرير عنه قال : إنه سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عنه قال « ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى » قيل لابن عباس أرأيت إن خر من فوق بيت ؟ قال يتكلم به في الهواء ؛ فقيل أرأيت إن ضرب عتق أحدهم ؟ قال : يتلجلج بها لسانه . وقد روى نحو هذا عنه من طرق ، وقال به جماعة من التابعين ، وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد قبل موت عيسى كما روى عن ابن عباس قبل هذا ، وقيدته كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض . وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك في مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد في المنتظر والدجال والمسيح .

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذِهِمُ الرُّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٦)

الباء في قوله (فبظلم) للسببية ، والتنكير والتنوين للتعظيم : أي فبسبب ظلم عظيم حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، لا بسبب شيء آخر كما زعموا أنها كانت محرّمة على من قبلهم . وقال الزجاج : هذا بدل من قوله (فيما نقضهم) . والطيبات المذكورة هي مانصه الله سبحانه - وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر - الآية (وبصدّهم) أنفسهم وغيرهم (عن سبيل الله) وهو اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتحريفهم وقتلهم الأنبياء وما صدر منهم من الذنوب المعروفة . وقوله (كثيرا) مفعول للفعل المذكور : أي بصدّهم ناسا كثيرا ، أو صفة مصدر محذوف : أي صدّا كثيرا (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أي معاملتهم فيما بينهم بالربا وأكلهم له وهو محرّم عليهم (وأكلهم أموال الناس بالباطل) كالرشوة والسحت الذي كانوا يأخذونه . قوله (لكن الراسخون في العلم منهم)

استدراك من قوله (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أو - من الذين هادوا - وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا : إن هذه الأشياء كانت حراما في الأصل وأنت تحلها ، فنزل (لكن الراسخون) والراسخ : هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه ، والرسوخ : الثبوت . وقد تقدم الكلام عليه في آل عمران . والمراد عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ونحوهما . والراسخون مبتدأ ، ويؤمنون خبره ، والمؤمنون معطوف على الراسخون . والمراد بالمؤمنين إما من آمن من أهل الكتاب أو من المهاجرين والأنصار أو من الجميع . قوله (والمقيمون الصلاة) قرأ الحسن ومالك بن دينار وجماعة (والمقيمون الصلاة) على العطف على ما قبله ، وكذا هو في مصحف ابن مسعود ، واختلف في وجه نصبه على قراءة الجمهور على أقوال : الأول قول سيبويه أنه نصب على المدح : أي وأعني المقيمون . قال سيبويه : هذا باب ما ينتصب على التعظيم ، ومن ذلك (والمقيمون الصلاة) وأنشد :

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نميأ أطاعت أمر غاويها

الطاعنين ولما يطعنوا أحدا والقائلون لمن دار نخليها

وأنشد : لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك والطيبون معاهد الأزر

قال النحاس : وهذا أصح ما قيل في المقيمون . وقال الكسائي والخليل : هو معطوف على قوله (بما أنزل إليك) قال الأخفش : وهذا بعيد لأن المعنى يكون هكذا : ويؤمنون بالمقيمون . ووجهه محمد بن يزيد المبرد بأن المقيمون هنا هم الملائكة ، فيكون المعنى : يؤمنون بما أنزل إليك وبما أنزل من قبلك وبالملائكة واختار هذا . وحكى أن النصب على المدح بعيد ، لأن المدح إنما يأتي بعد تمام الخبر ، وخبر الراسخون هو قوله (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) وقيل إن المقيمون معطوف على الضمير في قوله (منهم) وفيه أنه عطف على مضمربدون إعادة الخافض وحكى عن عائشة أنها سئلت عن المقيمون في هذه الآية وعن قوله تعالى - إن هذان لساحران - وعن قوله - والصابثون - في المائدة ؟ فقالت : يا ابن أخي الكتاب أخطئوا . أخرجه عنها أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر . وقال أبان بن عثمان كان الكاتب يملئ عليه فيكتب فكتب (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون) ثم قال ما أكتب ؟ فقليل له أكتب (والمقيمون الصلاة) فن ثم وقع هذا . أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر . قال القشيري : وهذا باطل لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة فلا يضمن بهم ذلك . ويحاج عن القشيري بأنه قد روى عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من المصحف وأتى به إليه قال : أرى فيه شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنها . أخرجه عنه ابن أبي داود من طرق . وقد رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير ، ورجح قول الخليل والكسائي ابن جرير الطبري والقفال ، وعلى قول سيبويه تكون الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر على قول من قال : إن خبر الراسخون هو قوله (أولئك سنؤتيهم) أو بين المعطوف والمعطوف عليه إن جعلنا خبر الراسخون هو يؤمنون ، وجعلنا قوله (والمؤمنون الزكاة) عطفا على المؤمنين لا على قول سيبويه أن المؤمنون الزكاة مرفوع على الابتداء أو على تقدير مبتدأ محذوف : أي هم المؤمنون الزكاة . قوله (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) هم مؤمنو أهل الكتاب وصفوا أولا بالرسوخ في العلم ثم بالإيمان بكتب الله وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ وقيل المراد بهم المؤمنون من المهاجرين والأنصار كما سلف وأنهم جامعون بين هذه الأوصاف ، والإشارة بقوله (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) إلى الراسخون وما عطف عليه . قوله (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) هذا متصل بقوله (يسألك أهل الكتاب)

والمعنى : أن أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم كأمر من تقدمه من الأنبياء فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل ، والوحي إعلام في خفاء ، يقال وحي إليه بالكلام وحيًا ، وأوحي يوحى إيجاء ، وخص نوحا لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع ، وقيل غير ذلك ، والكاف في قوله (كما) نعت مصدر محذوف : أى إيجاء مثل إيجائنا إلى نوح ، أو حال : أى أوحينا إليك هذا الإيجاء حال كونه مشبها بإيجائنا إلى نوح . قوله (وأوحينا إلى إبراهيم) معطوف على (أوحينا إلى نوح) (وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب كما تقدم (وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان) خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريفا لهم كقوله - وملائكته ورسله وجبريل - ، وقدم عيسى على أيوب ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه ، ردًا على اليهود الذى كفروا به ، وأيضا فالواو ليست إلا لمطلق الجمع . قوله (وآتيناه داود زبوراً) معطوف على أوحينا . والزبور : كتاب داود . قال القرطبي : وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام ، وإنما هي حكم ومواعظ انتهى . قلت : هو مائة وخمسون زمورا . والمزمور : فصل يشتمل على كلام (١) لداود يستغيث بالله من خصومه ويدعو الله عليهم ويستنصره ، وتارة يأتي بمواعظ ، وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة ، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئا من الآلات التي لها نغمات حسنة ، كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات . والزبر : الكتابة . والزبور بمعنى المزمور : أى المكتوب . كالرسول والحلوب والركوب . وقرأ حمزة (زهورا) بضم الزاى ، جمع زبر كفلس وفلوس . والزبر بمعنى المزمور ، والأصل في الكلمة التوثيق يقال بئر مزبورة : أى مطوية بالحجارة ، والكتاب سمي زبوراً لقوة الوثيقة به . قوله (ورسلاً) منصوب بفعل مضمر يدل عليه (أوحينا) أى وأرسلنا رسلاً (قد قصصناهم عليك من قبل) وقيل هو منصوب بفعل دل عليه (قصصناهم) أى وقصصنا رسلاً ، ومثله ما أنشده سيويوه :

أصبحت لأحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدى وأخشى الرياح والمطرا

أى وأخشى الذئب . وقرأ أبى (رسل) بالرفع على تقدير ، ومنهم رسل . ومعنى (من قبل) أنه قصصهم عليه من قبل هذه السورة ، أو من قبل هذا اليوم . قيل إنه لما قص الله في كتابه بعض أسماء أنبيائه ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود : ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى ، فنزل (وكلم الله موسى تكليماً) وقراءة الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله هو الذي كلم موسى . وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذي كلم الله سبحانه و(تكليماً) مصدر مؤكد . وفائدة التأكيد دفع توهم كون التكليم مجازاً ، كما قال الفراء إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق ، وقيل ما لم يؤكد بالمصدر ، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام . قال النحاس : وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً . قوله (رسلاً مبشرين ومنذرين) بدل من رسلاً الأول ، أو منصوب بفعل مقدّر : أى وأرسلنا ، أو على الحال بأن يكون رسلاً موطئاً لما بعده ، أو على المدح : أى مبشرين لأهل الطاعات ومنذرين لأهل المعاصي . قوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) أى معذرة يعتذرون بها كما في قوله تعالى - ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا لذهب بديننا فنتبع آياتك - وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبها على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة . ومعنى قوله (بعد الرسل) بعد إرسال الرسل (وكان الله عزيزاً) لا يغالبه مغالب (حكماً) في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل .

(١) كيف يستقيم هذا الزبور الذى هو المزامير كلام الله اه مصححه.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد (وبصدتم عن سبيل الله كثيرا) قال : أنفسهم وغيرهم عن الحق . وأخرج ابن إسحاق في الدلائل عن ابن عباس في قوله (لكن الراسخون في العلم منهم) قال : نزلت في عبد الله بن سلام وأسيد بن شعبة وثعلبة بن شعبة حين فارقوا اليهود وأسلموا . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عنه أن بعض اليهود قال : يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله (إنا أوحينا إليك) الآية . وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن حبان في صحيحه والحاكم وابن عساكر عن أبي ذر قال : « قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . قلت : كم الرسل منهم ؟ قال : ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفيرة . وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعا إلا أنه قال : والرسل ثلثمائة وخمسة عشر » وأخرج أبو يعلى والحاكم بسند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثم كان عيسى ، ثم كنت أنا بعده » . وأخرج الحاكم عن أنس بسند ضعيف نحوه . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ؛ ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » .

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) .

قوله (لكن الله يشهد) الاسم الشريف مبتدأ والفعل خبره ، ومع تشديد النون هو منصوب على أنه اسم لكن والاستدراك من مخوف مقدّر كأنهم قالوا : ما نشهد لك يا محمد بهذا : أي الوحي والنبوة ، فنزل (لكن الله يشهد) . وقوله (والملائكة يشهدون) جملة معطوفة على الجملة الأولى أو جملة حالية ، وكذلك قوله (أنزله بعلمه) جملة حالية : أي متلبسا بعلمه الذي لا يعلمه غيره من كونك أهلا لما اصطفاك الله له من النبوة وأنزله عليك من القرآن (وكفى بالله شهيدا) أي كفى الله شاهدا والباء زائدة ، وشهادة الله سبحانه هي ما يصنعه من المعجزات الدالة على

صحة النبوة ، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بصدق ما أخبر به من هذا وغيره (إن الذين كفروا) بكل ما يجب الإيمان به ، أو بهذا الأمر الخاص ، وهو ما في هذا المقام (وصدوا عن سبيل الله) وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبقولهم ما نجد صفته في كتابنا وإنما النبوة في ولد هرون وداود ، وبقولهم إن شرع موسى لا ينسخ (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق بما فعلوا ، لأنهم مع كفرهم منموا غيرهم عن الحق (إن الذين كفروا) بمحمد (وظلموا) غيرهم بصددهم عن السبيل أو ظلموا محمدا بكتائبهم نبوته أو ظلموا أنفسهم بكفرهم ، ويجوز الحمل على جميع هذه المعاني (لم يكن الله ليغفر لهم) إذا استمروا على كفرهم وماتوا كافرين (ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم) لكونهم اقترفوا ما يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم وفرط شقاؤهم وجحدوا الواضح وعاندوا البين (خالدين فيها أبدا) أى يدخلهم جهنم خالدين فيها ، وهى حال مقدرة . وقوله (أبدا) منصوب على الظرفية ، وهو لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل (وكان ذلك) أى تخليدهم في جهنم أو ترك المغفرة لهم والهداية مع الخلود في جهنم (على الله يسيرا) لأنه سبحانه لا يصعب عليه شيء - إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون - (فآمنوا خيرا لكم) اختلف أئمة النحو في انتصاب خيرا على ماذا ؟ فقال سيبويه والخليل بفعل مقدر : أى واقصدوا أو أتوا خيرا لكم ، وقال الفراء : هو نعت لمصدر محذوف : أى فآمنوا إيمانا خيرا لكم ، وذهب أبو عبيدة والكسائى إلى أنه خبر لكان مقدرة : أى فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم ، وأقوى هذه الأقوال الثالث ، ثم الأول ، ثم الثانى على ضعف فيه (وإن تكفروا) أى وإن تستمروا على كفركم (فإن لله ما فى السموات والأرض) من مخلوقاته ، وأنتم من جملتهم ، ومن كان خالقا لكم ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم ، فى هذه الحملة وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان وإمطة السر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول والإذعان . لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم - ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله - قوله (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم) الغلو : هو التجاوز فى الحد ومنه غلا السعر يغلو غلاء ، وغلا الرجل فى الأمر غلوا ، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرع الشباب فجاوزت لداتها . والمراد بالآية : النهى لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى ، فمن الإفراط غلو النصارى فى عيسى حتى جعلوه ربا ، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة ، وما أحسن قول الشاعر :

ولا تغل فى شيء من الأمور اقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذم

(ولاتقولوا على الله إلا الحق) وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله ، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) المسيح مبتدأ وعيسى بدل منه ، وابن مريم صفة لعيسى ، ورسول الله الخبر ، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان والحملة تعليل للنهى ، وقد تقدم الكلام على المسيح فى آل عمران . قوله (وكلمته) عطف على رسول الله ، و (ألقاها إلى مريم) حال ، أى كونه بقوله كن فكان بشرا من غير أب ، وقيل (كلمته) بشارة الله مريم ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله - إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه - وقيل الكلمة هاهنا بمعنى الآية ، ومنه - وصدقت بكلمات ربها - ، وقوله - ما نفدت كلمات الله - . قوله (وروح منه) أى أرسل جبريل فنفخ فى درع مريم فحملت بإذن الله ، وهذه الإضافة للتفصيل ، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى ؛ وقيل قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحا ويضاف إلى الله فيقال هذا روح من الله : أى من خلقه ، كما يقال فى النعمة إنها من الله وقيل (روح منه) أى من خلقه كما قال تعالى - وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه - : أى من خلقه

وقيل (روح منه) أى رحمة منه ، وقيل (روح منه) أى برهان منه ، وكان عيسى برهانا وحجة على قومه . وقوله (منه) متعلق بمحذوف وقع صفة لروح ، أى كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الأمر لجبريل بالنفخ (فآمنوا بالله ورسله) أى بأنه سبحانه إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه ، ولا تكذبوهم ولا تغلوا فيهم ، فتجعلوا بعضهم آلهة . قوله (ولا تقولوا ثلاثة) ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدأ محذوف قال الزجاج : أى لا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، وقال الفراء وأبو عبيد : أى لا تقولوا هم ثلاثة كقوله - سيقولون ثلاثة - وقال أبو على الفارسي : لا تقولوا هو ثالث ثلاثة ، فحذف المبتدأ والمضاف ، والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث ، ويعنون بالثلاثة الثلاثة الأقانيم فيجعلونه سبحانه جوهرًا واحدًا وله ثلاثة أقانيم ، ويعنون بالأقانيم أقنوم الوجود ، وأقنوم الحياة ، وأقنوم العلم ، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس ، فيعنون بالأب الوجود وبالروح الحياة وبابن المسيح . وقيل المراد بالآلهة الثلاثة : الله سبحانه وتعالى ، ومريم ، والمسيح . وقد اختلط النصارى في هذا اختباطًا طويلا .

ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطلق عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير في عيسى : فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان ، وتارة يوصف بأنه ابن الله ، وتارة يوصف بأنه ابن الرب ، وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين . والحق ما أخبرنا الله به في القرآن ، وما خالفه في التوراة أو الإنجيل أو الزبور فهو من تحريف المحرفين وتلاعب المتلاعبين . ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام .

وحاصل ما فيها جميعا أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه ، وذكر ما جرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم ، فاختلفت ألفاظهم ، واتفقت معانيها ، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والنضبط ، وذكر ما قاله عيسى وما قيل له ، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء ، ولا أنزل على عيسى من عنده كتابا ، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها ، وهكذا الزبور فإنه من أوّله إلى آخره من كلام داود عليه السلام . وكلام الله أصدق ، وكتابه أحق ، وقد أخبرنا أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، وأن الزبور كتابه آتاه (١) داود وأنزله عليه . قوله (انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عن التثليث ، وانتصاب «خيرا» هنا فيه الوجوه الثلاثة التي تقدمت في قوله (فآمنوا خيرا لكم) . (إنما الله إله واحد) لا شريك له صاحبة ولا ولد (سبحانه أن يكون له ولد) أى أسبحة تسبيحا عن أن يكون له ولد (له ما في السموات وما في الأرض) وما جعلتموه له شريكا أو ولدا هو من جملة ذلك ، والمملوك المخلوق لا يكون شريكا ولا ولدا (وكفى بالله وكبيلا) نكل الخلق أمورهم إليه ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : دخل جماعة من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم : «إني والله أعلم أنكم تعلمون أني رسول الله ، قالوا مانعنا ذلك . فأنزل الله (لكن الله يشهد) الآية» وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن أبي موسى أن النجاشي قال بلعفر : ما يقول صاحبك في ابن مريم ؟ قال : يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته ، أخرجه من البيت العذراء لم يقربها بشر ، فتناول عودا من الأرض فرفعه فقال : يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه . وأخرجه البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود بأطول من هذا .

(١) من هذا تفهم أن ما تقدم له محكي عن عقيدة غيره ، اهـ مصححه .

وأخرج البخاري عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنه أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) .

أصل يستنكف نكف وباقي الحروف زائدة، يقال نكفت من الشيء واستنكفت منه وأنكفته : أى نزهته عما يستنكف منه . قال الزجاج : استنكف أى أنف ، مأخوذ من نكفت الدمع : إذا نحيت بأصبعك عن خديك ، وقيل هو من النكف وهو العيب ، يقال : ما عليه فى هذا الأمر نكف ولا وكف : أى عيب . ومعنى الأول : لن يأنف عن العبودية ولن يتنزه عنها . ومعنى الثانى : لن يعيب العبودية ولن ينقطع عنها . (ولا الملائكة المقربون) عطف على المسيح : أى ولن يستنكف الملائكة المقربون عن أن يكونوا عبادا لله .

وقد استدلل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء ، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغنى من جوع وادعى أن الذوق قاض بذلك ، ونعم الذوق العربى إذا خالطه محبة المذهب وشابه شوائب الحمود كان هكذا ، وكل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال لا يأنف من هذه المقالة إمام ولا مأموم أولا كبير ولا صغير أو لا جليل ولا حقير ، ثم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأنًا من المعطوف عليه ، وعلى كل حال فما أردأ الاشتغال بهذه المسألة وما أقل فائدتها وما أبعداها عن أن تكون مركزا من المراكز الشرعية الدينية وجسرا من الجسور (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أى يأنف تكبرا ويعد نفسه كبيرا عن العبادة (فسيحشرهم إليه جميعا) المستنكف وغيره ، فيجازى كلا بعمله . وترك ذكر غير المستنكف هنا للدلالة أول الكلام عليه ، ولكون الحشر لكلا الطائفتين (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم) من غير أن يفوتهم منها شيء (وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) بسبب استنكافهم واستكبارهم (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) يوالىهم (ولا نصيرا) ينصرهم . قوله (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله ، وما نصبه لهم من المعجزات . والبرهان : ما يبرهن به على المطلوب (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) وهو القرآن ، وسماه نورا لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) أى بالله ، وقيل بالنور المذكور (فسيدخلهم فى رحمة منه) يرحمهم بها (وفضل) يتفضل به عليهم (ويهديهم إليه) أى إلى امثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه أو إليه سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه وتفضله (صراطا مستقيما) أى طريقا يسلكونه إليه مستقيما لا عوج فيه ، وهو التمسك بدين الإسلام وترك غيره من الأديان ، قال أبو على الفارسي : الهاء فى قوله (إليه) راجعة إلى

ما تقدم من اسم الله ؛ وقيل راجعة إلى القرآن ؛ وقيل إلى الفضل ؛ وقيل إلى الرحمة والفضل لأنهما بمعنى الثواب وانتصاب صراطا على أنه مفعول ثان للفعل المذكور ؛ وقيل على الحال .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (لن يستنكف المسيح) لن يستكبر . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والإسماعيلي في معجمه بسند ضعيف عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (فيوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله) قال : أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا . وقد ساقه ابن كثير في تفسيره فقال : وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود فذكره وقال : هذا إسناد لا يثبت ، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفا فهو جيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (قد جاءكم برهان) أي بينة (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) قال : هذا القرآن . وأخرج أيضا عن مجاهد قال : برهان حجة . وأخرج أيضا عن ابن جريج في قوله (واعتصموا به) قال : القرآن .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُو هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) .

قد تقدم الكلام في الكلالة في أول هذه السورة ، وسيأتي ذكر المستفتي المقصود بقوله (يستفتونك) . قوله (إن امرؤ هلك) أي إن هلك امرؤ هلك كما تقدم في قوله - وإن امرأة خافت - . وقوله (ليس له ولد) إما صفة لامرؤ أو حال ، ولا وجه للمنع من كونه حالا ، والولد يطلق على الذكر والأنثى ، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الوالد معتبر في الكلالة اتكالا على ظهور ذلك ؛ قيل والمراد بالولد هنا الابن ، وهو أحد معني المشترك ، لأن البنت لا تسقط الأخت . وقوله (وله أخت) عطف على قوله « ليس له ولد » . والمراد بالأخت هنا هي الأخت لأبوين أو لأب لا لأُم ، فإن فرضها السدس كما ذكر سابقا . وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن الأخوات لأبوين أو لأب عصبة للبنات وإن لم يكن معهم أخ . وذهب ابن عباس إلى أن الأخوات لا يعصبن البنات ، وإليه ذهب داود الظاهري وطائفة وقالوا : إنه لا ميراث للأخت لأبوين أو لأب مع البنت ، واحتجوا بظاهر هذه الآية ، فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر والأنثى قيدا في ميراث الأخت ، وهذا استدلال صحيح لو لم يرد في السنة ما يدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت ، وهو ما ثبت في الصحيح أن معاذا قضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بنت وأخت فجعل للبنت النصف وللأخت النصف . وثبت في الصحيح أيضا « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قضى في بنت وبنت ابن وأخت فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقي » فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت . قوله (وهو يرثها) أي المرء يرثها : أي يرث الأخت (إن لم يكن لها ولد) ذكر إن كان المراد بإرثها لها حيازته لجميع ما تركته ، وإن كان المراد ثبوت ميراثها لها في الحمله أعم من أن يكون كلا أو بعضا صح تفسير الولد بما يتناول الذكر والأنثى ، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ كما يسقطه الولد

الذكر لأن المراد بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا . وأما سقوطه مع الأب فقد تبين بالسنة كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلاولى رجل ذكر » والأب أولى من الأخ (فإن كانتا اثنتين) أى فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين ، والعطف على الشرطية السابقة والتأنيث والتثنية ، وكذلك الجمع في قوله (وإن كانوا إخوة) باعتبار الخبر (فلهما الثلثان مما ترك) المرء إن لم يكن له ولد كما سلف وما فوق الاثنتين من الأخوات يكون لهن الثلثان بالأولى (وإن كانوا) أى من يرث بالأخوة (إخوة رجالا ونساء) أى مختلطين ذكورا وإناثا (فللذكر) منهم (مثل حظ الأنثيين) تعصيا (يبين الله لكم أن تضلوا) أى يبين لكم حكم الكلالة وسائر الأحكام كراهة أن تضلوا ، هكذا حكاه القرطبي عن البصريين . وقال الكسائى : المعنى لثلاث تضلوا ، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين (والله بكل شيء) من الأشياء التى هذه الأحكام المذكورة منها (عليم) أى كثير العلم .

وقد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا مريض لا أعقل ، فتوضأ ثم صب علىّ فعقلت ، فقلت إنه لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض » وأخرجه عنه ابن سعد وابن أبى حاتم بلفظ أنزلت فى (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) وأخرج ابن راهويه وابن مردويه عن عمر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف تورث الكلالة : فأنزل الله (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) الآية . وأخرج مالك ومسلم وابن جرير والبيهقى عن عمر قال : ما سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء أكثر مما سألته فى الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : ما تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والبيهقى عن البراء بن عازب قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن الكلالة ؟ فقال : تكفيك آية الصيف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر قال : ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عهد إلينا فيهنّ عهدا ننهى إليه : الجدة ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء بن عازب قال : آخر سورة نزلت كاملة براءة ، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن سيرين قال : كان عمر بن الخطاب إذا قرأ (يبين الله لكم أن تضلوا) قال : اللهم من بينت له الكلالة فلم تبين لى .

وقد أوضحنا الكلام خلافا واستدلالا وترجيحا فى شأن الكلالة فى أوائل هذه السورة فلا نعيده .

وإلى هنا انتهى الجزء الأول من التفسير المبارك : المسمى « فتح القدير » الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه الراجى من ربه سبحانه أن يعينه على تمامه ، وينفع به من شاء من عباده ، ويجعله ذخيرة له عند وفوده إلى دار الآخرة « محمد بن على بن محمد الشوكانى » غفر الله لهما .

وكان الانتهاء إلى هذا الموضع فى يوم العيد الأكبر ، يوم النحر المبارك من سنة أربع وعشرين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية ، حامدا لله ومصليا ومسلما على رسوله وحبيه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه . ١ هـ .

الحمد له : كل سماعا ، والحمد لله فى شهر القعدة من عام سنة ١٢٣٢

بمحى بن على الشوكانى

فهرس

الجزء الأول من فتح القدير

صحيفة	صحيفة
سورة البقرة	٣ ترجمة المفسر
٢٧ فضل سورة البقرة	٤ نسبه ومولده
٢٩ الكلام في الحروف المقطعة واختيار المؤلف فيها	نشأته وطلبه للعلم
٣٣ هل تختلف حقيقة الهدى ؟	٥ مشايخه الذين أخذ عنهم العلم سماعاً وقراءة
من هم المتقون ؟	٦ بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم
٣٤ ما هو الغيب ؟	مذهبه وعقيدته
فضل المؤمنين بالغيب	٧ ذكر مؤلفاته
٣٦ ما هو الرزق	٩ مراجعه
٣٨ رقية تذهب الهم	١١ خطبة الكتاب
٣٩ معنى الختم على القلوب وعلى السمع والغشاوة	١٤ سورة الفاتحة
على الأبصار	وتمحيص الكلام في مكة الفاتحة ومدنيتها
٤١ ما هو مرض القلوب	١٥ أسماء الفاتحة
٤٤ هل في الإنس شياطين	فضلها
معنى عمه القلوب ؟	١٧ هل البسملة آية من كل سورة أم لا ؟
٤٦ بيان مثل المنافقين ؟	١٨ فضل البسملة
٤٨ ما هو الرعد ، وما هو البرق ؟	١٩ الكلام على الحمد والمدح والشكر
٤٩ بيان مثل آخر للمنافقين	٢٠ فضل الحمد
من أين ينزل المطر ؟	٢١ مبلغ رحمة ربنا
٥٣ ما الحق في وجه إعجاز القرآن ؟	٢٢ ما هي العبادة ؟
من أي شيء الحجارة وقود النار ؟	٢٣ ما هو الصراط المستقيم ؟
كم سنة أوقد على النار وما لونها الآن ؟	٢٤ من هم المنعم عليهم والمفضوب عليهم والفضالون ؟
٥٥ شيء من وصف الجنة وأهلها ونعيمها	٢٥ هل لفظ آمين مشروع بعد قراءة الفاتحة وما
٥٦ ما حقيقة الحياء وما المراد منه في حق ربنا عز وجل	فضله ؟

صحيفة	صحيفة
٧١ ما الكلمات التي تلقاها سيدنا آدم من ربه فتاب بها عليه ؟	٥٧ الفسق لغة وشرعا
٧٢ استنكار الكلام في التناسب بين آي القرآن	الكلام في الفاسق هل هو مؤمن أو كافر ؟
٧٧ ما الحق في حكم الصلاة جماعة ؟ هل ذلك فرض أم سنة ؟	٥٨ ما الذي أمر الله به أن يوصل ، وما الفساد في الأرض ؟
تقريع من يأمر بالخير ولا يأتيه	٥٩ كم يموت الإنسان وكم يحيا ؟
٧٩ ما هو الخشوع ؟	٦٠ هل الأصل في الأشياء الإباحة ؟
رجوع إلى الكلام فيمن يأمر ولا يأتمر	ما الدليل على حرمة أكل الطين ؟
٨٠ هل الصبر والصلاة معونتان يستعان بهما ؟	هل من المشكلات قوله تعالى ثم استوى إلى السماء أم لا ؟
٨١ ما المراد من العالمين الذين فضل بنو إسرائيل عليهم ؟	أيهما خلق أولا : الأرض أم السماء ؟
٨٣ ما السبب في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل واستحيائه لبناتهم ؟	ما المراد من عدد الأرضين ؟
٨٤ في أي يوم نجى الله سيدنا موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه ؟	٦٢ الكلام على قوله تعالى للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة وجوابهم
٨٧ ما الحق في رؤية ربنا في الجنة أ تكون أم لا تكون ؟	٦٤ ما الذي عرض على الملائكة ، الأسماء أم المسميات ؟
ما هو المن والسلوى اللذان من بهما على بني إسرائيل ؟	وأيهما فاز في هذا الامتحان هم أم سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ؟
٨٩ ما القرية التي أمروا أن يدخلوها ؟ وما الباب الذي أمروا أن يدخلوا منه ؟	٦٦ هل كان يجوز السجود لغير الله في بعض الشرائع المتقدمة ؟
ما معنى السجود المأمور به عند دخولهم الباب ؟	هل كان السجود لسيدنا آدم بوضع الجبهة في الأرض ؟
كيف كان تبديلهم ؟ ما قيل لهم ؟	من أي النوعين إبليس : من الجن أم من الملائكة ؟
٩٤ لم سميت اليهود يهودا والنصارى نصارى ؟	٦٨ ما هي الشجرة التي نهى سيدنا آدم عن الأكل منها ؟
٩٥ ماذا جرى لليهود لما لم يقبلوا التوراة وبه قبلوها ؟	هل كلام إبليس لسيدنا آدم كان مشافهة ؟
٩٦ بماذا نجا من المسخ من نجا منهم ؟	٦٩ هل كان سيدنا آدم نبيا ؟
٩٩ قصة البقرة التي أمروا بذبحها ؟	كم المرسلون عليهم الصلاة والسلام ؟
١٠٥ مصادر لم تنطق العرب بأفعالها	كم الأنبياء ؟
١١١ أقسام القلوب	مدة إقامة سيدنا آدم بالجنة
١١٢ كفر اليهود برسول الله لما جاء وكانوا يستنصرون به قبل بعثته	٧٠ كيف دخل إبليس الجنة ؟

صحيفة

صحيفة

- ١١٧ أسئلة اليهود وأجوبتها
١١٩ بحث في السحر
١٢٠ الحق أن الله أنزل السحر ابتلاء للخلق
هل للسحر تأثير ؟
تبرئة سيدنا سليمان من السحر
١٢٢ قصة الملكين مع الزهرة
١٢٣ تنفير بالغ من تعلم السحر
١٢٥ الكلام في النسخ
١٣١ ما المراد بالسعى في خراب المساجد ؟
معنى - فأينما تولوا فثم وجه الله -
١٣٥ كلمات أليمة مع متبع هواه
١٣٧ ما المراد بالكلمات التي ابتلى الله بهن خليله ؟
١٣٨ معنى العهد الذي لا ينال الظالمين
١٤١ جمع حسن بين حرمة مكة من مبداء الخلق
وتحريم إبراهيم لها
١٤٣ هل أمر سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم أن يرمى
إبليس عند الجمرات الثلاث
هل أرى سيدنا جبريل سيدنا إبراهيم المناسك ؟
١٥٤ دندنة حول أهل الأهواء ومبلغ ضررهم
١٥٥ كيف صرفت القبلة من بيت المقدس إلى
الكعبة ، وبعد كم شهر من دخول النبي المدينة
كان ذلك ؟
١٨٠ هل كان المكلف في ابتداء الإسلام مخيراً بين
الضوم والفدية ثم نسخت الفدية ؟
مقدار الفدية
١٨٢ هل نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء
الدنيا في رمضان جملة ، ثم نزل إلى الأرض
مفرقاً ؟
١٨٣ هل يقال رمضان بدون لفظ شهر ؟
إتزال كتب سماوية غير القرآن في رمضان
- ١٨٤ الجمع بين نزول القرآن في رمضان وفي ليلة
مباركة ، وفي ليلة القدر
الدعاء وشيء من آدابه
١٨٦ كيف كان الصيام في أول الإسلام ، وبماذا
نسخ ؟
١٨٨ هل حكم الحاكم يحل الحرام ؟
١٩٠ كيف كان الجهاد أول ما أذن فيه ؟
١٩١ ما هي الفتنة التي دونها القتل ؟
١٩٢ إلى أي غاية ينتهي الأمر بالقتال ؟
ما هو الاعتداء في القتال ؟
١٩٣ هل نسخ القتال في الأشهر الحرم ؟
هل يجوز لمن اعتدى عليه أن ينتقم بنفسه ؟
رد المصنف على ابن عباس
١٩٤ تفسير بديع جدا لسيدنا أبي أيوب الأنصاري
لقوله تعالى - ولا تاقموا بأيديكم إلى التهلكة - .
ما هو إتمام الحج والعمرة ؟
١٩٥ هل العمرة فرض أو سنة ؟
ما الإحصار في الحج ؟ وماذا يفعل المحصر ؟
١٩٦ ماذا يفعل من حلق رأسه لضرر وهو محرم ؟
وفي أي مكان يفعل ما يفعل ؟
١٩٧ ماذا يفعل المتمتع ؟
٢٠٠ ما هي أشهر الحج ؟
٢٠١ بماذا يلزم الحج ؟
هل تسمية الجبل بعرفات تعلل
٢٠٣ لم سمى عرفات عرفات ؟
٢٠٤ ما هما حسنتا الدنيا والآخرة ؟
٢٠٧ ما هي الأيام المعدودات ؟
٢٠٧ زمن الذكر في الأيام المعدودات
٢١٠ معنى - هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل
من الغمام والملائكة -

صحيفة

- ٢١٩ هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم
الكلام على الخمر والميسر
٢٢٣ زواج المشتركة والكتاتبة
٢٢٥ الكلام على الحيض وشيء من أحكامه
٢٢٩ معنى - ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم -
٢٣٠ اليمين اللغو ما هي ؟
٢٣٢ الكلام في الإيلاء
٢٣٤ الكلام على المطلقات وعدتهن
٢٣٨ هل يجوز أن تفتدى المرأة بما ل لتطلق ؟
٢٣٩ هل يجوز الزواج للتحليل ؟
٢٤٠ النهي الشديد عن طلب المرأة الطلاق بلا سبب
٢٤٢ النهي عن مضارة المرأة في المعاشرة
٢٤٣ النهي عن منع المرأة أن تزوج مطلقها
٢٤٤ شيء من أحكام الرضاعة
٢٤٨ عدة المتوفى عنها زوجها
٢٥٠ الكلام في خطبة النساء
٢٥١ شيء من أحكام المطلقات
٢٥٥ ما هي الصلاة الوسطى ؟
٢٦٠ الذين أماتهم الله لما خرجوا من بيوتهم حذر الموت
٢٦١ إلى أي حد يضاعف الله الحسنات
٢٦٣ الكلام على طألت وجنوده
٢٦٥ هل تتفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
٢٦٩ نهى المفسر عن التفسير بالرأى
٢٧١ هل نسخت الزكاة كل صدقة ونسخ رمضان كل صوم ؟
٢٧١ تفسير آية الكرسي
٢٧٤ تفسير - لا إكراه في الدين -
٢٧٧ الحاجة التي بين سيدنا إبراهيم والنمرود
٢٧٨ قصة الذي قال - أنى يحيى هذه الله بعد موتها - ؟

صحيفة

- ٢٨١ الكلام على طلب الخليل أن يريه الله كيف يحيى الموتى وإجابة طلبه
٢٨٣ إنفاق الأموال ، وآدابه ، وما يبطل ثوابه ، وإلى أي حد يضاعف ذلك الثواب ؟
٢٩٤ أبحاث آية الربا
٢٩٩ الدين وما يتعلق به
٣٠٥ هل نسخت آية - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها - آية - لله ما في السموات وما في الأرض - الخ
٣٠٦ هل استجاب الله الدعوات التي في آخر السورة ؟
٣٠٩ فضل الآيتين اللتين في آخر السورة وهو جليل و جليل
٣١١ سورة آل عمران
فضل سورة آل عمران
٣١٤ الكلام على المحكم والمتشابه من كلام ربنا عز وجل
٣٢٢ ما هي شهوات الدنيا التي زينت للناس ، وما الذي هو خير من هذه الشهوات ؟
٣٢٦ فضل آية - شهد الله - الخ ، و - إن الدين عند الله الإسلام - وآية : - قل اللهم -
٣٢٨ إلى أي حد بلغ قتل بنى إسرائيل أنبياءهم ؟
٣٢٩ تفسير آية « قل اللهم مالك الملك » وما بعدها
٣٣٢ هل تجوز موالاة الكفار تقية ، وما معنى هذه التقية ؟
٣٣٦ اختصاص السيدة مريم وابنها بحفظهما عند الولادة من مس الشيطان
٣٤١ لم سمي المسيح مسيحاً ؟
٣٤٤ تفسير قوله تعالى - إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك - الآية
٣٤٦ آية المباهلة وحديثها
٣٧٩ هل أمدّ أهل بدر بملائكة أم لا ؟

صحيفة

- ٣٨٠ ماذا كان يفعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يدعو لأحد أو عليه ؟
 ٣٨١ معنى - لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة -
 ما معنى أن الجنة عرضها السموات والأرض
 ٣٨٢ اثم إبليس وجنوده على إضلال بني آدم
 ٣٨٦ هل قتل نبي في حرب ومن هم الربيون ؟
 ٣٩٣ قدر الاستشارة في الإسلام
 ٣٩٧ لماذا فعل الله بالمسلمين ما فعل يوم أحد ؟
 ٣٩٨ ما فعل المنافقون يوم أحد ؟
 ٣٩٩ ما هو الحق في حياة الشهداء الحقيقية هي أم مجازية ؟
 ٣٩٩ ما هو المراد بالرزق المنسوب للشهداء ؟
 ٤٠١ بعض ما ورد في فضل الشهداء
 ٤٠٥ ما جزاء من أوتي ما لا فلم يؤد زكاته
 ٤٠٧ حادثة الصديق مع اليهودي
 ٤٠٨ هل موضع سوط المؤمن في الجنة خير من الدنيا وما فيها ؟
 ٤٠٩ هل أخذ الله الميثاق على العلماء أن يبينوا ما أوحى الله ؟
 ٤١٠ ما المراد بالذكر في قول الله - يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم -
 ٤١٥ فضل الرباط في سبيل الله
 ٤١٦ فضل الآيات العشرة من آخر سورة آل عمران
 ٤١٦ سورة النساء
 فضل سورة النساء
 ٤١٨ الكلام على قراءة - والأرحام - بالجر وإنكار المؤلف تواترها
 ٤٢٣ هل تجب صلة الرحم ويحرم قطعها ؟
 ٤١٩ الكلام بسعة على قوله تعالى - وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى - الآية

صحيفة

- ٤٢٥ من هم السفهاء الذين لا يعطون المال ؟
 ٤٢٦ ما هو الرشد الذي به تدفع أموال اليتامى إليهم ؟
 ٤٢٧ ما هو الأكل بالمعروف من مال اليتيم لوليه ؟
 ٤٢٧ الوصية على اليتامى
 ٤٣٠ عذاب من يأكلون أموال اليتامى ظلماً
 ٤٣١ الكلام بسعة على التركات
 ٤٣٦ ما جزاء الخيف في الوصية ؟
 ما جزاء من قطع ميراث وارثه ؟
 هل للوصية حد لا تتجاوزه ؟
 ٤٣٧ فضل تعلم علم الفرائض
 ٤٣٨ هل التوبة فرض على كل مؤمن باتفاق الأمة ، وما هي التي تقبل ؟
 ٤٤٣ رجوع سيدنا عمر عن تحديد مهر النساء لاعتراض امرأة عليه
 ٤٤٤ بحث مستفيض في المحرمات من النساء
 ٤٤٩ هل كانت المتعة جائزة أولاً ؟ ثم نسخت .
 الكلام على زواج الإماء
 ٤٥٥ حد الإماء إذا زنين
 ٤٥٧ بحث في كبائر الذنوب ما هي وما عددها ؟
 ٤٥٩ الحسد والغبطة
 ٤٦٠ بم جعل الله الرجال قوامين على النساء ؟
 ٤٦١ ما يفعل الرجل مع امرأته المستعصية عليه .
 ٤٦٢ بم نسخ التحالف الذي كان يورث به في صدر الإسلام ؟
 ٤٦٣ الحكماء بين الزوجين وأحكامهما
 ٤٦٤ على من أمر الله أن تحسن ؟
 ٤٦٧ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود أن يقرأ عليه
 ٤٧٠ ما معنى ملامسة النساء ؟
 ٤٧١ رد المفسر على ابن السكيت وابن الأنباري في تفسير لفظ التيمم لغة

صحيفة

- ٤٧٢ بم يكون التيمم ؟
- ٤٧٥ هل يدخل جميع طوائف الكفار تحت قوله تعالى - إن الله لا يغفر أن يشرك به -
- ٤٧٧ ما هو الفتل والتغير والقطمير ؟
- ٤٨٠ كيف يكون الحاكم بين الناس ؟
- ٤٨٤ سبب نزول قوله تعالى - فلا وربك لا يؤمنون - الآية ، ومع ذلك قصة غريبة
- ٤٨٥ سبب نزول قوله تعالى - ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم - الآية
- ٤٩٣ الكلام على السلام وردّه
- ٤٩٧ الكلام على القتل خطئه وعمده
- ٥٠٢ حديث محمد بن جثامة قاتل عامر بن الأصبط بعد أن سلم سلام الإسلام
- ٥٠٥ جزاء من أسلم بمكة ولم يهاجر من غير المستضعفين
- ٥٠٧ الكلام على صلاة الخوف
- ٥١٠ تحريض المؤمنين على طلب الكفار وردّ أيّ عذر منهم إن وهنوا في ذلك
- ٥١١ بيان أن الحكم بين الناس بما أنزل الله هو العدل الدليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق
- ٥١٢ بيان أحوال المنافقين وذمّ ما كانوا عليه
- ٥١٣ التريغيب في تعجيل التوبة عقب الذنب
- ٥١٣ بيان أن من اكتسب سوءا فعليه عقابه ، ومن كسب خيرا فله أجره
- ٥١٥ دم النجوى إلا في أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ابتغاء وجه الله ، والأجر لفاعل ذلك

صحيفة

- ٥١٥ الترهيب من مخالفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والوعيد على ذلك
- ٥١٦ تفويض غفران جميع الذنوب صغيرها وكبيرها إلى مشيئة الله تعالى ما عدا الشرك
- تسفيه عقول عبدة الأصنام ووعيد من اتبع الشيطان ، لعنه الله
- التريغيب في الأعمال الصالحة ووعد الله الأجر العظيم عليها
- ٥١٧ آراء العلماء في خصاء الحيوان آدميا وغيره
- ٥١٨ بيان أن العاقبة المحمودة ليست بالأمانى ، وإنما هي بالأعمال الصالحة
- ٥١٨ مدح دين الإسلام ، والكلام على معنى الخلعة ، وبيان أن كل ما في السموات وما في الأرض مملوك لله تعالى
- ٥٢٠ الإيصاء بأمر اليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان
- ٥٢١ جواز المصالحة بين الرجل وزوجه عند خوف النشوز والتوصية بالنساء
- ٥٢٢ التوصية بتقوى الله سبحانه والتهيب من الكفر
- ٥٢٣ التريغيب فيما عند الله من الجزاء على العمل إذا كان خالصا لوجهه
- ٥٢٣ الأمر بالعدل في جميع الأمور من غير محاباة . الأمر بالإيمان بالله وملائكته ورسوله وكتبه واليوم الآخر
- ٥٢٥ ذكر معائب المنافقين والتهكم بهم وإيعادهم الوعيد الشديد
- ٥٣٠ النهي عن الغيبة والنميمة وجميع الإيذاء إلا متظلما أو مستفتيا أو مكرها ونحو ذلك والتريغيب في العفو

صحيفة

- ٥٣٢ اختراع أهل الكتاب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنزال كتاب من السماء ، وتسليّة رسول الله بذكر ما فعلت يهود مع موسى عليه السلام ، إلى آخر ما قصه الله من شأنهم معه صلى الله عليه وآله وسلم
- ٥٣٤ بيان أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه ما قتل وما صلب ولكن رفع إلى السماء وهو الآن حيّ ، وأنه لا يموت يهوديّ ولا نصرانيّ إلا آمن به قبل موته
- ٥٣٦ بيان أن المعاصي تنقص الرزق والدليل عليه .

صحيفة

- ٥٣٦ الكلام على - والمقيمين الصلاة - وما جاء فيه ، والردّ على المنكرين لبعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه مثل من تقدم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
- ٥٣٩ شهادة الله والملائكة بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- ٥٤٢ نهى النصاري عن الغلو في المسيح وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وأن الله سبحانه منزّه عن الوالد والولد ، والدليل على ذلك بشارة المؤمنين ووعيد الكافرين
- ٥٤٣ الكلام في الكلالة وامتنان الله سبحانه علينا بالبيان
- ٥٤٥ أنموذج من خط المؤلف رحمه الله من النسخة المطبوع عليها هذا التفسير



فتح القدير

أَحْكَامُ بَيْنَ فَنَى الرِّوَايَةِ وَالْدِّرَايَةِ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَأَلَّفَ

الإمام الشُّوكَانِي

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الصَّنَعَانِي

أَلُوذِي صَنَعَاءَ سَنَةِ ١١٧٣ هـ وَالتَّوَفَّى بِهَا سَنَةَ ١٢٥٠ هـ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

المجلد الخامس

من إصدارات

مُؤَسَّسَةُ النُّشُورِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ وَالْإِقْوَامِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ

الْمَلَكَةُ الْمَرْيَةُ السُّعُودِيَّةُ

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ لـ

وِزَارَةِ الشُّؤْنِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْأَوْقَافِ وَالْدِّعْوَةِ وَالْإِسْتِثْنَاءِ

الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

قَامَتْ بِالْإِشْرَافِ عَلَى الطَّبَاعَةِ

دَارُ النُّوَادِرِ

شَرِكَةُ دَارِ النُّوَادِرِ الْكُوَيْتِيَّةِ - ذ.م.م. - الْكُوَيْتُ

الكويت - حولي - ص . ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الجاثية (١)

هي سبع وثلاثون آية وقيل ست وثلاثون

وهي مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، وروى عن ابن عباس وقتادة أنها قالوا : إلا آية منها ، وهي قوله (للذين آمنوا) إلى (أيام الله) فلما نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب كما سيأتي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا

(١) تنبيه : جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع ، مع تعرضه للقراءات السبع ، وأثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثماني .

هَزُؤًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥).

قوله (حم) قد تقدم الكلام في هذه الفاتحة وفي إعرابها في فاتحة سورة غافر وما بعدها ، فإن جعل اسما للسورة فمحل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ ، وإن جعل حروفا مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، وقوله (تنزيل الكتاب) على الوجه الأول خبر ثان ، وعلى الوجه الثاني خبر المبتدأ ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره (من الله العزيز الحكيم) ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة فقال (إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين) أي فيها نفسها فإنها من فنون الآيات أو في خلقها . قال الزجاج : ويدل على أن المعنى في خلق السموات والأرض قوله (وفي خلقكم) أي في خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة . قال مقاتل : من تراب ثم من نقطة إلى أن يصير إنسانا (وما يبت من دابة آيات) أي وفي خلق ما يبت من دابة ، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر وخبره الظرف قبله ، وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة والكسائي «آيات» بالنصب عطفًا على اسم إن ، والخبر قوله (وفي خلقكم) كأنه قيل : وإن في خلقكم وما يبت من دابة آيات ، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى . وقرأ الجمهور أيضا (آيات لقوم يعقلون) بالرفع وقرأ حمزة والكسائي بنصبها مع اتفاقهم على الجر في اختلاف ، أما جر اختلاف فهو على تقدير حرف الجر : أي (و) في (اختلاف الليل والنهار) آيات ، فن رفع آيات فعلى أنها مبتدأ ، وخبرها : في اختلاف ، وأما النصب فهو من باب العطف : معمولي عاملين مختلفين . قال القراء : الرفع على الاستئناف بعد إن ، تقول العرب : إن لي عليك مالا وعلى أخيك مال ، يصبون الثاني ويرفعونه وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل . والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين وحجج المجوزين له وجوابات المانعين له مقرر في علم النحو مبسوط في مطولاته . ومعنى (ما يبت من دابة) ما يفرقه وينشره (واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما أو تفاوتهما في الطول والقصر ، وقوله (وما أنزل الله من السماء من رزق) معطوف على اختلاف ، والرزق المطر ، لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ، وإحياء الأرض : إخراج نباتها ، و (موتها) خلوها عن النبات (و) معنى (تصريف الرياح) أنها تهب تارة من جهة ، وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة وتارة ضارة (تلك آيات الله نتلوها عليك) أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه ، ومحل : نتلوها عليك النصب على الحال ، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة ، وآيات الله بيان له أو بدل منه ، وقوله (بالحق) حال من فاعل نتلو ، أو من مفعوله : أي محقين ، أو ملتبسة

بالحق ، ويجوز أن تكون الباء للسببية ، فتعلق بنفس الفعل (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أى بعد حديث الله وبعد آياته ، وقيل إن المقصود : فبأى حديث بعد آيات الله وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات فيكون من باب : أعجبنى زيد وكرمه ، وقيل المراد بعد حديث الله ، وهو القرآن كما فى قوله - الله نزل أحسن الحديث - وهو المراد بالآيات ، والعطف لمجرد التغاير العنوانى . قرأ الجمهور « تؤمنون » بالفوقية ، وقرأ حمزة والكسائى بالتحنية . والمعنى : يؤمنون بأى حديث ، وإنما قدّم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام (ويل لكل أفاك أثيم) أى لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجهه ، والويل وادى جهنم . ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى فقال (يسمع آيات الله تتلى عليه) وقيل إن يسمع فى محل نصب على الحال ، وقيل استئناف ، والأوّل أولى ، وقوله (تتلى عليه) فى محل نصب على الحال (ثم يصّر) على كفره ويقم على ما كان عليه حال كونه (مستكبرا) أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد للحق ، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة ، وهو أن ينحنى عليها صاراً أذنيه . قال مقاتل : إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتخذها هزوا ، وجملة (كأن لم يسمعها) فى محل نصب على الحال أو مستأنفة ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف (فبشره بعذاب أليم) هذا من باب التهكم : أى فبشره على إصراره واستكباره وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم (وإذا علم من آياتنا شيئا) قرأ الجمهور : علم بفتح العين وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل . وقرأ قتادة ومطر الوراق على البناء للمفعول . والمعنى : أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله (اتخذها) أى الآيات (هزوا) وقيل الضمير فى اتخذها عائد إلى شيئا ، لأنه عبارة عن الآيات ، والأوّل أولى . والإشارة بقوله (أولئك) إلى كل أفاك متصف بتلك الصفات (لهم عذاب مهين) بسبب ما فعلوا من الإصرار والاستكبار عن سماع آيات الله واتخاذها هزوا ، والعذاب المهين هو المشتل على الإذلال والقضيحة (من وراءهم جهنم) أى من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحق جهنم ، فإنها من قد أمهم لأنهم متوجهون إليها ، وعبر بالوراء عن القدام ، كقوله (من وراءهم جهنم) وقول الشاعر :
أليس ورأى إن تراخت منيتى •
وقيل جعلها باعتبار إغراضهم عنها كأنها خلفهم (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا) أى لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع (ولا ما اتحلوا من دون الله أولياء) معطوف على ما كسبوا : أى ولا يغنى عنهم ما اتحلوا من دون الله أولياء من الأصنام ، و« ما » فى الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا فى الجملة الثانية للتأكيد (ولهم عذاب عظيم) فى جهنم التى هى من وراءهم (هذا هدى) جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر يعنى هذا القرآن هدى للمهتدين به (والذين كفروا بآيات ربهم) القرآنية (لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشدّ العذاب . قرأ الجمهور « أليم » بالجرّ صفة للرجز . وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب (الله الذى سخر لكم البحر) أى جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه (لتجرى الفلك فيه بأمره) أى بإذنه وإقداره لكم (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة تارة ، والغوص للدرّ ، والمعالجة للصيد وغير ذلك (ولعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا النعم التى تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) أى سخر لعباده جميع ما خلقه فى سماواته وأرضه مما تتعلق به مصالحهم وتقوم به معاشهم ، ومما سخره لهم من مخلوقات السموات : الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، وانتصاب جميعا على الحال من ما فى السموات وما فى الأرض أو تأكيد له ، وقوله : منه يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لجميعا : أى كائنة منه ، ويجوز أن يتعلق بسخر ، ويجوز أن يكون حالا من ما فى السموات ، أو خبرا لمبتدأ محذوف . والمعنى : أن كل ذلك رحمة منه

لعباده (إن في ذلك) المذكور من التسخير (لآيات لقوم يتفكرون) وخص المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكير إلى الاستدلال بها على التوحيد (قل للذين آمنوا يغفروا) أي قل لهم اغفروا يغفروا (للذين لا يرجون أيام الله) وقيل هو على حذف اللام ، والتقدير : قل لهم ليغفروا . والمعنى : قل لهم يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه : أي لا يتوقعونها ، ومعنى الرجاء هنا الخوف ، وقيل هو على معناه الحقيقي . والمعنى : لا يرجون ثوابه في الأوقات التي وقفها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى . والآيات يعبر بها عن الوقائع كما تقدم في تفسير قوله - وذكرهم بأيام الله - قال مقاتل : لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به فلا يخافون عقابه . وقيل المعنى : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه ، وقيل لا يخافون البعث . قيل والآية منسوخة بآية السيف (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي « لنجزى » بالنون : أي لنجزى نحن . وقرأ باقي السبعة بالتحية مبنيًا للفاعل : أي ليجزى الله . وقرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم بالتحية مبنيًا للمفعول مع نصب قوما ، فقيل النائب عن الفاعل مصدر الفعل أي ليجزى الجزاء قوما ، وقيل إن النائب الجار والمجرور كما في قوله الشاعر :

ولو ولدت فقيرة جروك لبس بذلك الجرو الكلابا

قد أجاز ذلك الأخفش والكوفيون ، ومنعه البصريون ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه . وقيل المعنى : ليجزى الكفار بما عملوا من السيئات كأنه قال : لا تكافؤهم أنتم لنكافئهم نحن ، والأول أولى . ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركون وأعمالهم فقال (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) والمعنى : أن عمل كل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لا يتجاوز به إلى غيره وفيه ترغيب وتهديد (ثم إلى ربكم ترجعون) فيجازى كلا بعمله إن كان خيرا فخير ، وإن كان شرا فشر .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله (جميعا منه) قال : منه النور والشمس والقمر . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : كل شيء هو من الله . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن طاووس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري . ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير ، فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس فسأله مم خلق الخلق ؟ فقال : من الماء والنور والظلمة والرياح والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس (وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا منه) فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية قال : كان نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عن المشركين إذا آذوه ، وكانوا يستهزئون به ويكذبونه ، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة ، فكان هذا من المنسوخ

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَخِيتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتُمْ بَارِئُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦).

قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب والحكم والنبوة) المراد بالكتاب التوراة وبالحكم الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم ، وبالنبوة من بعثه الله من الأنبياء فيهم (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات التى أحلها الله لهم ، ومن ذلك المن والسلوى (وفضلناهم على العالمين) من أهل زمانهم حيث آتيناهم مالم نوت من عداهم من فلق البحر ونحوه ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة الدخان (وآتيناهم بينات من الأمر) أى شرائع واضحة فى الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات ، وقيل العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم وشواهد نبوته ، وتعيين مهاجرة (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) أى فما وقع الاختلاف بينهم فى ذلك الأمر إلا بعد مجئ العلم إليهم ببيانه وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوت ، وقيل المراد بالعلم يوشع بن نون ، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم ، وقيل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فاختلفوا فيها حسدا وبغيا ، وقيل (بغيا) من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته (ثم جعلناك على شريعة من الأمر) الشريعة فى اللغة المذهب . والملة والمنهاج ويقال : لمشرة الماء وهى مورد شاربيه شريعة ، ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين ، والجمع شرائع : أى جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق (فاتبعها) فاعمل بأحكامها فى أمتك (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) توحيد الله وشرائعه

لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم (إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً) أى لا يدفعون عنك شيئاً مما أراد الله بك إن اتبعت أهواءهم (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) أى أنصار ينصر بعضهم بعضاً قال ابن زيد : إن المنافقين أولياء اليهود (والله ولي المتقين) أى ناصرهم ، والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي ، والاشارة بقوله (هذا) إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة ، وهو مبتدأ وخبره (بصائر للناس) أى براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين ، جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب وقرئ « هذه بصائر » : أى هذه الآيات ، لأن القرآن بمعناها كما قال الشاعر :
 • سائل بني أسد ما هذه الصوت • لأن الصوت بمعنى الصيحة (وهدى) أى رشد وطريق يؤدي إلى الجنة لمن عمل به (ورحمة) من الله في الآخرة (لقوم يوقنون) أى من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشبه (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) أم هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان ، والاجترح الاكتساب ومنه الجوارح ، وقد تقدم في المائدة ، والجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين والحسنين ، وهو معنى قوله (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى نسوى بينهم مع اجتراحهم السيئات ، وبين أهل الحسنات (سواء بحياهم ومماتهم) في دار الدنيا وفي الآخرة ، كلا لا يستوون ، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة . وقيل المراد إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة . قرأ الجمهور « سواء » بالرفع على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ بحياهم ومماتهم والمعنى : إنكار حسابهم أن يحياهم ومماتهم سواء . وقرأ حمزة والكسائي وحفص « سواء » بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله (كالذين آمنوا) أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيد ، وقال معناه : نجعلهم سواء ، وقرأ الأعشى وعيسى بن عمر « مماتهم » بالنصب على معنى سواء في حياهم ومماتهم ، فلما سقط الخافض انتصب ، أو على البذل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال (ساء ما يحكمون) أى ساء حكمهم هذا الذي حكموا به (وخلق الله السموات والأرض بالحق) أى بالحق المقتضى للعدل بين العباد ، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل ، أو من المفعول ، أو الباء للسببية ، وقوله (ولتجزى كل نفس بما كسبت) يجوز أن يكون على الحق ، لأن كلا منهما سبب ، فعطف السبب على السبب ، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف ، والتقدير : خلق الله السموات والأرض ليدل بهما على قدرته ولتجزى ، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة (وهم لا يظلمون) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب . ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال (أفأريت من اتخذ إلهه هواه) قال الحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركبته ، وقال عكرمة : يعبد ما يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً وهواه اتخذته إلهاً . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر (وأضله الله على علم) أى على علم قد علمه ، وقيل المعنى : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه وقال مقاتل : على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر . قال الزجاج : على سوء في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، ومحل على علم النصب على الحال من الفاعل أو المفعول (وختم على سمعه وقلبه) أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى (وجعل على بصره غشاوة) أى غطاء حتى لا يبصر الرشـد . قرأ الجمهور « غشاوة » بالألف مع كسر الغين . وقرأ حمزة والكسائي « غشوة » بغير أنف مع فتح الغين ، ومنه قول الشاعر :

لئن كنت ألبستني غشوة لقد كنت أصغيتك الود حينا

وقرأ ابن مسعود والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة . وقرأ الحسن وعكرمة بضمها وهي لغة عكل (فمن يهديه من بعد الله) أي من بعد إضلال الله له (أفلا تذكرون) تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال . ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا) أي ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها (نموت ونحيا) أي يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة ، وقيل نموت نحن ونحيا فيها أولادنا ، وقيل نكون نطقاً ميتة ثم نصير أحياء ، وقيل في الآية تقديم وتأخير : أي نحيا ونموت وكذا قرأ ابن مسعود ، وعلى كل تقدير فرادهم بهذه المقالة إنكار البعث وتكذيب الآخرة (وما يهلكنا إلا الدهر) أي إلا مرور الأيام والليالي قال مجاهد : يعنى السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ، والمعنى واحد . وقال قطرب : المعنى وما يهلكنا إلا الموت . وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله (وما لهم بذلك من علم) أي ما قالوا هذه المقالة إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة . ثم بين كون ذلك صادراً منهم لاعتناء علم فقال (إن هم إلا يظنون) أي ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن فما يتكلمون إلا به ، ولا يستدلون إلا إليه (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أي إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى والدلالة على البعث (ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) أنا نبعث بعد الموت : أي ما كان لهم حجة ولا متمسك إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء ، وإنما سماه حجة تهكما بهم . قرأ الجمهور بنصب حجتهم على أنه خبر كان ، واسمها (إلا أن قالوا) وقرأ زيد بن علي وعمر بن عبيد وعبيد بن عمرو برفع حجتهم على أنها اسم كان ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد عليهم فقال (قل الله يحييكم) أي في الدنيا (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) بالبعث والنشور (لا ريب فيه) أي في جمعكم ، لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) بذلك ، فلهذا حصل معهم الشك في البعث ، وجاعوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت ، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (ثم جعلناك على شريعة من الأمر) يقول : على هدى من أمر دينه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (سواء محياهم ومماتهم) قال : المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (أفأريت من اتخذ إلهه هواه) قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان (وأضلله الله على علم) يقول : أضله في سابق علمه . وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عنه قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر ، فإذا وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر ، فأنزل الله (أفأريت من اتخذ إلهه هواه) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله في كتابه (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) قال الله : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ بِخَسِرِ الْمُبْطِلُونَ (٢٧)

وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذْ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْدَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَةَ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَاللَّهُ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) .

لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون وما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك فقال (والله ملك السموات والأرض) أى هو المتصرف فيهما وحده لا يشاركه أحد من عباده . ثم توعده أهل الباطل فقال (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) أى المكذبون الكافرون المتعلقون بالباطل يظهر في ذلك اليوم خسارهم لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في يوم هو يخسر ، ويومئذ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه ، فيكون التقدير : ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة ، فيكون بدلا توكيدا ، والأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك : أى والله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولا ليخسر (وترى كل أمة جاثية) الخطاب لكل من يصلح له ، ، أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والأمة الملة ، ومعنى جاثية : مستوفزة ، والمستوفز : الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبته وأطراف أنامله ، وذلك عند الحساب . وقيل معنى جاثية : مجتمعة قال الفراء : المعنى وترى أهل كل ذى دين مجتمعين . وقال عكرمة : متميزة عن غيرها . وقال مؤرج : معناه بلغة قريش : خاضعة . وقال الحسن : باركة على الركب والجلو الجلوس على الركب ، تقول جثا يجثو ويجثى جثوا وجثيا : إذا جلس على ركبته ، والأول أولى . ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب . وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء فى لغة العرب ، ومنه قول طرفة يصف قبرين :

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفائح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسول وغيرهم من أهل الشرك . وقال يحيى بن سلام : هو خاص بالكفار ، والأول أولى . ويؤيده قوله (كل أمة تدعى إلى كتابها) ولقوله فيما سياتى - فأما الذين آمنوا - ، ومعنى إلى كتابها : إلى الكتاب المنزل عليها ، وقيل إلى صحيفة أعمالها ، وقيل

إلى حسابها ، وقيل اللوح المحفوظ ، والأول أولى . قرأ الجمهور « كل أمة » بالرفع على الابتداء ، وخبره : ندعى ،
 وقرأ يعقوب الحضرمي بالنصب على البدل من كل أمة (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى يقال لهم اليوم تجزون
 ما كنتم تعملون من خير وشر (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) هذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة
 وقيل هو من قول الله سبحانه : أى يشهد عليكم ، وهو استعارة ، يقال نطق الكتاب بكذا : أى بين ، وقيل
 إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، وحمل ينطق بالنصب
 على الحال ، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة ، وجمله (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) تعليل للنطق بالحق
 أى تأمر الملائكة بنسخ أعمالكم : أى بكتبتها وتثبيتها عليكم ، قال الواحدى : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ
 من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه
 قالوا : لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل . وقيل المعنى : تأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون . وقيل إن الملائكة
 تكتب كل يوم ما يعمل به العبد ، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات وتركوا المباحات . وقيل
 إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط
 منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) أى الجنة ، وهذا
 تفصيل لحال الفريقين ، فال مؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة (ذلك) أى الإدخال فى رحمته (هو الفوز المبين) أى
 الظاهر الواضح (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم) أى فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ ، لأن
 الرسل قد أتتهم وتلى عليهم آيات الله ، فكذبوها ولم يعملوا بها (فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) أى تكبرتم عن
 قبولها وعن الإيمان بها ، وكنتم من أهل الإجمام ، وهى الآثام ، والاجترام الاكتساب ، يقال فلان جريمة أهله : إذا
 كان كاسبهم ، فالجرم من كسب الآثام بفعل المعاصى (وإذا قيل إن وعد الله حق) أى وعده بالبعث والحساب
 أو بجميع ما وعده من الأمور المستقبلية واقع لا محالة (والساعة) أى القيامة (لارىب فيها) أى فى وقوعها . قرأ
 الجمهور « والساعة » بالرفع على الابتداء ، أو العطف على موضع اسم إن ، وقرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن
 (قلم ما ندرى ما الساعة) أى أى شىء هى ؟ (إن نظن إلا ظنا) أى نخدس خدسا وننوههم توها . قال المبرد :
 تقديره : إن نحن إلا نظن ظنا ، وقيل التقدير : إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا ، وقيل إن نظن مضمن معنى نعتقد :
 أى ما نعتقد إلا ظنا لاعلما ، وقيل إن ظنا له صفة مقدرة : أى إلا ظنا بينا ، وقيل إن الظن يكون بمعنى العلم
 والشك ، فكأنهم قالوا : مالنا اعتقاد إلا الشك (وما نحن بمستيقنين) أى لم يكن لنا يقين بذلك ، ولم يكن معنا
 إلا مجرد الظن أن الساعة آتية (وبدا لهم سيئات ما عملوا) أى ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التى هى عليها
 (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار (وقيل اليوم ننساكم كما
 نسيتم لقاء يومكم هذا) أى نترككم فى النار كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعا ، لأنه أضاف
 إلى الشىء ما هو واقع فيه (وما أواكم النار) أى مسكنكم ومستقركم الذين تأوون إليه (وما لكم من ناصرين)
 ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) أى ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم
 القرآن هزوا ولعبا (وغرتكم الحياة الدنيا) أى خدعتكم بزخارفها وأباطيلها ، فظنتم أنه لا دار غيرها ولا يعث
 ولا نشور (فالיום لا يخرجون منها) أى من النار . قرأ الجمهور « يخرجون » بضم الياء وفتح الراء مبني للمفعول
 وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وضم الراء مبني للفاعل ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم (ولا هم
 يستعتبون) أى لا يسترضون ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله ، لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة

(فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) لا يستحق الحمد سواه . قرأ الجمهور « رب » في المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف . وقرأ مجاهد وحيد وابن محيصن بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ : أي هو رب السموات الخ (وله الكبرياء في السموات والأرض) أي الجلال والعظمة والسلطان ، وخص السموات والأرض لظهور ذلك فيهما (وهو العزيز الحكيم) أي العزيز في سلطانه . فلا يغالبه مغالب ، الحكيم في كل أفعاله وأقواله وجميع أفضيته .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عبد الله ابن باباه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كَأَنِّي أَرَاكُمْ بِالْكُومِ دُونَ جَهَنَّمَ جَائِينَ ، ثُمَّ قَرَأَ سُفْيَانُ (وَيَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً) » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله (وترى كل أمة جائية) قال : كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) قال : هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) قال : هم الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه بمعناه مطولا ، فقام رجل فقال : يا ابن عباس ، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة ، فقال ابن عباس إنكم لستم قوما عربا (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب . وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال : إن لله ملائكة ينزلون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحوه ما روى عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فلنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب وأخرج نحوه الحاكم عنه وصححه . وأخرج الطبراني عنه أيضا في الآية قال : إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام في رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجلدون ما رفع الحفظة موافقا لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) قال : نترككم . وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار »

تفسير سورة الأحقاف

هي أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس وثلاثون

وهي مكية . قال القرطبي : في قول جميعهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : نزلت سورة حم الأحقاف بمكة . وأخرج ابن الضريس والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة الأحقاف وأقرأها آخر فخالف قراءته ، فقلت من أقرأكها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : والله لقد أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير ذا ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت يا رسول الله ألم تقرئني كذا وكذا ؟ قال بلى ، وقال الآخر : ألم تقرئني كذا وكذا ؟ قال

بلى ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : ليقرا كل واحد منكما ما سمع ، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتَوَنَّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) .

قوله (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) قد تقدم الكلام على هذا في سورة غافر وما بعدها مستوفى وذكرنا وجه الإعراب وبيان ما هو الحق من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما) من المخلوقات بأسرها (إلا بالحق) هو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى إلا خلقا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه المشيئة الإلهية ، وقوله (وأجل مسمى) معطوف على الحق : أى إلا بالحق ، وبأجل مسمى على تقدير مضاف محذوف : أى وبتقدير أجل مسمى ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهى فيه السموات والأرض وما بينهما وتبدل الأرض غير الأرض والسموات . وقيل المراد بالأجل المسمى هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات ، والأوّل أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلا وعبثا لغير شيء ، بل خلقه للثواب والعقاب (والذين كفروا عما أُنذروا معرضون) أى عما أُنذروا وخوفوا به فى القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له ، والجملة فى محل نصب على الحال : أى والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به ، و « ما » فى قوله (ما أُنذروا) يجوز أن تكون الموصولة ، ويجوز أن تكون المصدرية (قل أَرَأَيْتُمْ ما تدعون من دون الله) أى أخبروني ما تعبدون من دون الله من الأصنام (أروني ماذا خلقوا من الأرض) أى أى شيء خلقوا منها ، وقوله « أروني » يحتمل أن يكون

تأكيداً لقوله رأيتم : أى أخبروني أرونى والمفعول الثانى لأرأيتم ماذا خلقوا ، ويحتمل أن لا يكون تأكيداً ، بل يكون هذا من باب التنازع ، لأن رأيتم يطلب مفعولاً ثانياً ، وأرونى كذلك (أم لم شرك فى السموات) أم هذه هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، والمعنى : بل ألهم شركة مع الله فيها ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع (اثتوني بكتاب من قبل هذا) هذا تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك ، والإشارة بقوله هذا إلى القرآن ، فإنه قد صرح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن الساعة حق لا ريب فيها ، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب ، أو حجة تنافى هذه الحجة (أو أثارة من علم) . قال فى الصحاح : أو أثارة من علم بقية منه ، وكذا الأثرة بالتحريك . قال ابن قتيبة : أى بقية من علم الأولين . وقال الفراء والمبرد : يعنى ما يؤثر عن كتب الأولين . قال الواحدى : وهو معنى قول المفسرين . قال عطاء : أو شئء تأثرونه عن نبي كان قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال مقاتل : أو رواية من علم عن الأنبياء . وقال الزجاج : أو أثارة : أى علامة ، والأثارة مصدر كالسباحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهى الرواية : يقال أثرت الحديث أثره أثرة وأثارة وأثراً : إذا ذكرته عن غيرك . قرأ الجمهور « أثارة » على المصدر كالسباحة والغواية . وقرأ ابن عباس وزيد ابن على وعكرمة والسلمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف . وقرأ الكسائى « أثرة » بضم الهمزة وسكون الثاء (إن كنتم صادقين) فى دعواكم التى تدعونها ، وهى قولكم إن لله شريكاً ولم تأتوا بشئء من ذلك فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى والنقل على خلافه (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) أى لأحد أضل منه ولا أجهل فإنه دعا من لا يسمع ، فكيف يطمع فى الإجابة فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضرر ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضل الضالين ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقوله (إلى يوم القيامة) غاية لعدم الاستجابة (وهم عن دعائهم غافلون) الضمير الأول للأصنام ، والثانى لعابديها ، والمعنى : والأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك ، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع فى الضميرين باعتبار معنى من ، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) أى إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً وقد قيل إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم . وقيل المراد أنها تكذبهم وتعادىهم بلسان الحال لا بلسان المقال . وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فلأنهم يتبرءون من عبدهم يوم القيامة كما فى قوله تعالى - تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون - (وكانوا يعبادتهم كافرين) أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين : أى جاحدين مكذبين وقيل الضمير فى كانوا للعابدين كما فى قوله - والله ربنا ما كنا مشركين - ، والأول أولى (وإذا تتلى عليهم آياتنا) أى آيات القرآن حال كونها (بينات) واضحات المعانى ظاهرات الدلالات (قال الذين كفروا للحق) أى لأجله وفى شأنه ، وهو عبارة عن الآيات (لما جاءهم) أى وقت أن جاءهم (هذا سحر مبين) أى ظاهر السحرية (أم يقولون افتراه) أم هى المنقطعة : أى بل يقولون افتراه والاستفهام للإنكار والتعجب من صنيعهم ، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم : إن رسول الله افتري ما جاء به ، وفى ذلك من التوبيخ والتقريع مالا يخفى . ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) أى قل إن افتريته على سبيل الفرض والتقدير : كما تدعون ، فلا تقدرؤن على أن تردوا عني عقاب الله ، فكيف افتري على الله لأجلكم وأنتم لا تقدرؤن على دفع عقابه عني (هو أعلم بما تفيضون فيه) أى تخوضون فيه من التكذيب والإفاضة فى الشئء الخوض فيه والاندفاع فيه ، يقال أفاضوا فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، وأفاض البعير : إذا دفع جرتة من كرشه ،

والمعنى : الله أعلم بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب له والقول بأنه سحر وكهانة (كفى به شهيداً بيني وبينكم) فإنه يشهد لي بأن القرآن من عنده وأنا قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والاحود ، وفي هذا وعيد شديد (وهو الغفور الرحيم) لمن تاب وآمن وصدق بالقرآن وعمل بما فيه : أي كثير المغفرة والرحمة بليغهما (قل ما كنت بدعا من الرسل) البدع من كل شيء المبدأ : أي ما أنا بأول رسول ، قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل . قيل البدع بمعنى البديع كالخف والخفيف ، والبديع ما لم ير له مثل ، من الابتداع وهو الاختراع ، وشيء بدع بالكسر : أي مبتدع ، وفلان بدع في هذا الأمر : أي بديع كذا قال الأخفش ، وأنشد قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعترى رجالاً غدت من بعد موسى وأسعدا

وقرأ عكرمة وأبو حيوه وابن أبي عبة « بدعا » بفتح الدال على تقدير حذف المضاف : أي ما كنت ذا بدع ، وقرأ مجاهد بفتح الباء وكسر الدال على الوصف (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) أي ما يفعل بي فيما يستقبل من الزمان هل أبقى في مكة أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون ؟ وهذا إنما هو في الدنيا . وأما في الآخرة فقد علم أنه وأمه في الجنة وأن الكافرين في النار . وقيل إن المعنى : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة ، وإنما لما نزلت فرح المشركون وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا ، وأنه لأفضل له علينا ؟ فنزل قوله تعالى - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - والأول أولى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) قرأ الجمهور « يوحى » مبنياً للمفعول : أي ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع من عندي شيئاً ، والمعنى : قصر أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم على الوحي لا قصر اتباعه على الوحي (وما أنا إلا نذير مبين) أي أنذركم عقاب الله وأخوفكم عذابه على وجه الايضاح .

وقد أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس (أو إثارة من علم) قال : الخط . قال سفيان : لأعلم إلا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يعني أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن صادف مثل خطه علم » ومعنى هذا ثابت في الصحيح ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة . ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط ، وأين السند الصحيح إلى ذلك النبي ، أو إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا الخط هو على صورة كذا ، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أو إثارة من علم) قال : حسن الخط . وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم من طريق الشعبي عن ابن عباس (أو إثارة من علم) قال : خط كان يخطه العرب في الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (أو إثارة من علم) يقول : بينة من الأمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في قوله (قل ما كنت بدعا من الرسل) يقول : لست بأول الرسل (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) فأنزل الله بعد هذا - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - وقوله - ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات - الآية ، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً . وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضاً أن هذه الآية منسوخة بقوله - ليغفر لك الله - وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أمّ العلاء قالت « لما مات عثمان بن مظعون قلت : رحمك الله أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وما يدريك أن الله أكرمك ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم ، قالت أمّ العلاء : فوالله لأزكي بعهده أحداً » .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

قوله (قل أرايتم) أى أخبروني (إن كان من عند الله) يعنى ما يوحى إليه من القرآن ، وقيل المراد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : إن كان مرسلًا من عند غير الله ، وقوله (وكفرتكم به) فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، وكذلك قوله (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) والمعنى : أخبروني إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل الله فى التوراة على مثله : أى القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى وإن اختلفت الألفاظ . وقال الجرجاني : مثل صلة ، والمعنى : وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدى (فآمن) الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله وهذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد الله بن سلام كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ، وفى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع ، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة وصدقه ، واختار هذا ابن جرير ، وسيأتى فى آخر البحث ما يرجح به أنه عبد الله بن سلام وأن هذه الآية مدنية لامكية . وروى عن مسروق أن المراد بالرجل موسى عليه السلام ، وقوله (واستكبرتم) معطوف على شهد : أى آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان ، ومن فقد هداية الله له ضل .

وقد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو ؟ فقال الزجاج : مخوف تقديره أتؤمنون ، وقيل قوله (فآمن) واستكبرتم) وقيل مخوف تقديره : فقد ظلمتم لدلالة (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) عليه ، وقيل تقديره : فمن

أضلّ منكم ، كما في قوله - أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضلّ - - الآية . وقال أبو علي الفارسي تقديره أتأمنون عقوبة الله ، وقيل التقدير : ألستم ظالمين . ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) أى لأجلهم ، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أى لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيرا ما سبقونا إليه لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكربة ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء (وإذ لم يهتدوا به) أى بالقرآن ، وقيل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل بالإيمان (فسيقولون هذا إفك قديم) فجاوزوا نبي خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم كما قالوا أساطير الأولين ، والعامل في إذ مقدر : أى ظهر عنادهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه « فسيقولون » لتضاد الزمانين : أعنى المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضا ، وقيل إن العامل فيه فعل مقدر من جنس المذكور : أى لم يهتدوا به ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون (ومن قبله كتاب موسى) قرأ الجمهور بكسر الميم من « من » على أنها حرف جر ، وهى مع مجوورها خبر مقدم ، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو هى مستأنفة ، والكلام مسوق لرد قولهم (هذا إفك قديم) فإن كونه قد تقدم القرآن كتاب موسى ، وهو التوراة وتوافقا في أصول الشرائع يدل على أنه حق وأنه من عند الله ، ويقتضى بطلان قولهم . وقرئ بفتح ميم من على أنها موصولة ونصب كتاب : أى وآتينا من قبله كتاب موسى ، ورويت هذه القراءة عن الكلبي (إماما ورحمة) أى يقتدى به في الدين ورحمة من الله لمن آمن به ، وهما منتصبان على الحال . قاله الزجاج وغيره . وقال الأنخفش على القطع ، وقال أبو عبيدة : أى جعلناه إماما ورحمة (وهذا كتاب مصدق) يعنى القرآن فانه مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ولغيره من كتب الله ، وقيل مصدق للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وانتصاب (لسانا عربيا) على الحال الموطئة وصاحبها الضمير في مصدق العائد إلى كتاب ، وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدق ، والأول أولى ، وقيل هو على حذف مضاف : أى ذا لسان عربى ، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لينذر الذين ظلموا) قرأ الجمهور « لينذر » بالتحنية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب : أى لينذر الكتاب الذين ظلموا ، وقيل الضمير راجع إلى الله ، وقيل إلى الرسول ، والأول أولى . وقرأ نافع وابن عامر والبرزى بالفوقية على أن فاعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقوله (وبشرى للمحسنين) في محل نصب عطفا على محل لينذر . وقال الزجاج : الأجود أن يكون في محل رفع : أى وهو بشرى ، وقيل على المصدرية لفعل محذوف : أى وتبشر بشرى ، وقوله « للمحسنين » متعلق ببشرى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة السجدة (فلا خوف عليهم) الفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط (ولا هم يحزنون) المعنى : أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم ، ولا يحزنون من فوات محبوب وأن ذلك مستمر دائم (أولئك أصحاب الجنة) أى أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم (خالدين فيها) وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نبي الخوف والحزن على الدوام والاستقرار في الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه ولا تتشوف إلى ما عداه (جزاء بما كانوا يعملون) أى يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات لله وترك معاصيه (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) قرأ الجمهور « حسنا » بضم الحاء وسكون السين . وقرأ على والسلمى بفتحهما . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إحسانا » وقد تقدم في سورة العنكبوت (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) من غير اختلاف بين القراء وتقدم في سورة الأنعام وسورة

بني إسرائيل - وبالوالدين إحسانا - ففعل هذا هو وجه اختلاف القراء في هذه الآية ، وعلى جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية : أي وصيناه أن يحسن إليهما حسنا ، أو إحسانا ، وقيل على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى ألزمتنا ، وقيل على أنه مفعول له (حملته أمه كرها ووضعته كرها) قرأ الجمهور « كرها » في الموضعين بضم الكاف . وقرأ أبو عمرو وأهل الحجاز بفتحهما . قال الكسائي : وهما لغتان بمعنى واحد . قال أبو حاتم : الكره بالفتح لا يحسن لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبو عبيد قراءة الفتح قال : لأن لفظ الكره في القرآن كله بالفتح إلا التي في سورة البقرة - كتب عليكم القتال وهو كره لكم - وقيل إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره . وإنما ذكر سبحانه حمل الأم ووضعها تأكيداً لوجوب الإحسان إليها الذي وصى الله به ، والمعنى : أنها حملته ذات كره ووضعته ذات كره . ثم بين سبحانه مدة حملته وفصاله فقال (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أي مدتهما هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع : أي يفطم عنه ، وقد استدلت بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن مدة الرضاع سنتان : أي مدة الرضاع الكامل كما في قوله - حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة - فذكر سبحانه في هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع . وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم أكد من حق الأب لأنها حملته ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك . قرأ الجمهور « وفصاله » بالالف ، وقرأ الحسن ويعقوب وقتادة والحدادي « وفصله » بفتح الفاء وسكون الصاد بغير ألف ، والفصل والفصال بمعنى : كالقطم والقطام والقطف والقطاف (حتى إذا بلغ أشده) أي بلغ استحكام قوته وعقله ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ولا بد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها : أي عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده ، قيل بلغ عمره ثمانى عشرة سنة ، وقيل الأشد الحلم قاله الشعبي وابن زيد . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين ، والأول أولى لقوله (وبلغ أربعين سنة) فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيء وراء بلوغ الأشد . قال المفسرون : لم يبعث الله نبيا قط إلا بعد أربعين سنة (قال رب أوزعني) أي ألهمني . قال الجوهرى : استوزعت الله فأوزعني : أي استلهمته فألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي) أي ألهمني شكر ما أنعمت به على من الهداية ، وعلى والدي من التحنن على منهما حين ربياني صغيرا . وقيل أنعمت على بالصحة والعافية ، وعلى والدي بالغنى والثروة ، والأولى عدم تقييد النعمة عليه وعلى أبويه بنعمة مخصوصة (وأن أعمل صالحا ترضاه) أي وألهمني أن أعمل عملا صالحا ترضاه مني (وأصلح لي في ذرتي) أي اجعل ذرتي صالحين راسخين في الصلاح متمكنين منه . وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ، وقد روى أنها نزلت في أبي بكر كما سيأتى في آخر البحث (إني تبت إليك) من ذنوبي (وإني من المسلمين) أي المستسلمين لك المتقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الإنسان المذكور ، والجمع لأنه يراد به الجنس وهو مبتدأ ، وخبره (الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) من أعمال الخير في الدنيا ، والمراد بالأحسن الحسن كقوله - واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم - وقيل إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن وليس بأحسن (ونتجاوز عن سيئاتهم) فلا نعاقبهم عليها . قرأ الجمهور « يتقبل ويتجاوز » على بناء الفعلين للمفعول . وقرأ حمزة والكسائي بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز الغفران ، وأصله من جرت الشيء : إذا لم تقف عليه ، ومعنى (في أصحاب الجنة) أنهم كائنون في عدادهم منتظمون في سلكهم ، فالجار والمجرور في محل النصب على الحال كقولك : أكرمني الأمير في أصحابه : أي كائنا في جملتهم ، وقيل إن في بمعنى مع : أي مع أصحاب الجنة ، وقيل إنها خبر مبتدأ محذوف : أي هم في أصحاب الجنة (وعد الصدق الذي كانوا

يوعدون) وعد الصديق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله (أولئك الذين نتقبل عنهم) الخ في معنى الوعد بالتقبل والتجاوز ، ويجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف . أى وعدهم الله وعد الصديق الذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا .

وقد أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعى قال : « انطلق النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يحط الله تعالى عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال : أييتم فوالله لأنا الحاشر ، وأنا العاقب ، وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا رجل من خلقه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أى رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا ، والله ما نعلم فىنا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أهلك ولا من جدك ، قال : فإنى أشهد بالله أنه النبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة ، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا وابن سلام ، فأنزل الله - قل أرايتم إن كان من عند الله - إلى قوله - لا يهدى القوم الظالمين » وصححه السيوطى . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت - وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله - . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فى آيات من كتاب الله نزلت فى - وشهد شاهد من بنى إسرائيل - ونزل فى - قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب - . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (وشهد شاهد من بنى إسرائيل) قال . عبد الله بن سلام ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن ، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) . وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبى شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله : يقال لها زينة ، وكان عمر يضربها على الإسلام ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيرا ما سبقتنا إليه زينة ، فأنزل الله فى شأنها (وقال الذين كفروا) الآية . وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة ، يقولون لو كان خيرا ما جعلهم الله أول الناس فيه » . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل قوله (ووصينا الإنسان بوالديه) الآية إلى قوله (وعد الصديق الذى كانوا يوعدون) فى أبى بكر الصديق . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال : إني لصاحب المرأة التى أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك . فقلت لعمر : لم تظلم ؟ قال كيف ؟ قلت اقرأ - وحمله وفصاله ثلاثون شهرا - والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين - كم الحول ؟ قال سنة ، قلت : كم السنة ؟ قال اثنا عشر شهرا ، قلت : فأربعة وعشرون شهرا حولان كاملان ، ويؤخر الله من الحمل ما شاء ويقدم ما شاء ، فاستراح عمر إلى قولى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لسته أشهر فحولان كاملان ، لأن الله يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني) الآية ، فاستجاب الله له فأسلم والداه جميعا وإخوته وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضا - فأما من أعطى واتقى - إلى آخر السورة .

وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أَفْ لَكُمْ أَتَعِدْنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِنُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)
وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه ذكر من قال لهما قولا يدل على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان فقال (والذي قال لوالديه أف لكما) الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولهذا أخبر عنه بالجمع ، وأف كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه . قرأ نافع وحفص « أف » بكسر الفاء مع التنوين . وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقر بكسر من غير تنوين وهي لغات ، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة بني إسرائيل ، واللام في قوله « لكما » لبيان التأنيف : أي التأنيف لكما كما في قوله - هيت لك - قرأ الجمهور (أتعداني) بنونين مخففتين ، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة وأسكنها الباقر . وقرأ أبو حيو والمغيرة وهشام بإدغام إحدى النونين في الأخرى ، ورويت هذه القراءة عن نافع . وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى ، كأنهم قرءوا من توالي مثلين مكسورين . وقرأ الجمهور (أن أخرج) بضم الهمزة وفتح الراء مبني للمفعول . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء مبني للفاعل . والمعنى : أتعداني أن أبعث بعد الموت ، وجملة (وقد خلت القرون من قبلي) في محل نصب على الحال : أي والحال أن قد مضت القرون من قبلي فماتوا ولم يبعث منهم أحد ، وهكذا جملة (وهما يستغيثان الله) في محل نصب على الحال : أي والحال أنهما يستغيثان الله له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان ، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء : يقال استغاث الله واستغاث به . وقال الرازي : معناه يستغيثان بالله من كفره ، فلما حذف الجار وصل الفعل ، وقيل الاستغاثة الدعاء فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : يقال أجاب الله دعاءه وغواثه ، وقوله (ويلك) هو بتقدير القول : أي يقولان له ويلك ، وليس المراد به الدعاء عليه ، بل الخث له على الإيمان ، ولهذا قال له (آمين إن وعد الله حق) أي آمين بالبعث إن وعد الله حق لا خلف فيه (فيقول) عند ذلك مكذبا لما قالاه (ما هذا إلا أساطير الأولين) أي ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا

أحاديث الأولين وأباطيلهم التي سطورونها في الكتب . قرأ الجمهور : إن وعد الله بكسر إن على الاستثناف أو التعليل وقرأ عمر بن فايد والأعرج بفتحها على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء . أي آمن بأن وعد الله بالبعث حق (أولئك الذين حق عليهم القول) أي أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حق عليهم القول : أي وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس - لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين - كما يفيد قوله (في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) ، وجملة (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لما قبله ، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن ابن أبي بكر وأنه الذي قال لو ألدته ما قال ، فإنه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وسيأتي بيان سبب النزول في آخر البحث إن شاء الله (ولكل درجات مما عملوا) أي لكل فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلا ، ودرجات أهل الجنة تذهب علوا (وليوفيهم أعمالهم) أي جزاء أعمالهم . قرأ الجمهور « لنوفيهم » بالنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء التحتية : واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار الثانية أبو حاتم (وهم لا يظلمون) أي لا يزداد مسيء ولا ينقص محسن ، بل يوفي كل فريق ما يستحقه من خير وشر ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) الظرف متعلق بمحذوف : أي اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار ويقربون منها ، وقيل معنى يعرضون يعذبون من قولهم : عرضه على السيف ، وقيل في الكلام قلب . والمعنى : تعرض النار عليهم (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) أي يقال لهم ذلك ، قيل وهذا المقدر هو الناصب للظرف ، والأول أولى قرأ الجمهور : « أذهبتم » بهمزة واحدة ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهمزتين مخففتين ، ومعنى الاستفهام : التقرير والتوبيخ . قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بالاستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين . قال الكلبي : المراد بالطيبات اللذات وما كانوا فيه من المعاش (واستمتعتم بها) أي بالطيبات ، والمعنى : أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التي في معاصي الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيبا منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب (فاليوم تجزون عذاب الهون) أي العذاب الذي فيه ذل لكم وخزي عليكم . قال مجاهد وقتادة : الهون الهوان بلغة قريش (بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق) أي بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده (وبما كنتم تفسقون) أي تخرجون عن طاعة الله وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب في عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصي الله سبحانه وتعالى ، وهذا شأن الكفرة فانهم قد جمعوا بينهما .

وقد أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا ، فقال خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه (والذي قال لو ألدته أف لكما) فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد قال : لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذي قال الله فيه (والذي قال لو ألدته أف لكما) الآية ، فباغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذي نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه ، فمروان من لعنه الله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : هذا ابن أبي بكر . وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدي ، ولا يصح هذا كما قد منا .

وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ
 آلِهَتِنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلُغُكُمْ
 مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ
 قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ
 شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَكِنَتَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)
 وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ
 سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ
 وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) .

قوله (واذكر أخا عاد) أي واذكر يا محمد لقومك أخاعاد ، وهو هود بن عبد الله بن رباح كان أخاهم
 في النسب ، لافي الدين ، وقوله (إذ أنذر قومه) بدل اشتمال منه : أي وقت إنذاره إياهم (بالأحقاف) وهي ديار عاد
 جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستطيل الموعج قاله الخليل وغيره وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم ، والمعنى
 أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا ويخافوا ، وقيل أمره بأن يتذكر في نفسه قصتهم مع هود ليقتدي
 به ويهون عليه تكذيب قومه . قال عطاء : الأحقاف رمال بلاد الشحر . وقال مقاتل : هي باليمن في حضرموت
 وقال ابن زيد : هي رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا (وقد خلت النذر من بين يديه
 ومن خلفه) أي وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده كذا قال الفراء وغيره . وفي قراءة ابن مسعود « من بين يديه
 ومن بعده » والجملة في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود وبين قوله لقومه (إني
 أخاف عليكم) والأول أولى . والمعنى : أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون
 نحو إنذاره ، ثم رجع إلى كلام هود لقومه ، فقال حاكيا عنه (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقيل إن جعل
 تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام وأوفق بالمعنى (قالوا أجئتنا لنأفكنا عن آلِهتنا) أي لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل
 لتزياننا ، وقيل لتمنعنا والمعنى متقارب ، ومنه قول عروة بن أذينة :

إن تلك عن حسن الصنعة مأفو كما في آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صرفوا عن ذلك (فأتنا بما تعدنا) من العذاب العظيم (إن كنت

من الصادقين) في وعدك لنا به (قال إنما العلم عند الله) أى إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندى (وأبلغكم ما أرسلت به) إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، فأما العلم بوقت مجيئ العذاب فما أوحاه إلى (ولكنى أراكم قوما تجهلون) حيث بقيتم مصرين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم على ما ليس من وظائف الرسل (فلما رأوه عارضا) الضمير يرجع إلى « ما » فى قوله « بما تعدنا » . وقال المبرد والزجاج : الضمير فى « رأوه » يعود إلى غير المذكور وبينه قوله (عارضا) فالضمير يعود إلى السحاب : أى فلما رأوا السحاب عارضا ، فعارضا نصب على التكرير : يعنى التفسير ، وسمى السحاب عارضا لأنه يبدو فى عرض السماء . قال الجوهري : العارض السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله - هذا عارض ممطرنا - وانتصاب عارضا على الحال أو التمييز (مستقبل أوديتهم) أى متوجها نحو أوديتهم . قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم : يقال له المعتب ، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا ، و (قالوا هذا عارض ممطرنا) أى غيم فيه مطر ، وقوله (مستقبل أوديتهم) صفة لعارض لأن إضافته لفظية لا معنوية ، فصح وصف النكرة به ، وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود ، فقال (بل هو ما استعجلتم به) يعنى من العذاب حيث قالوا - فائتنا بما تعدنا - وقوله (ريح) بدل من ما ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وجملة (فيها عذاب أليم) صفة لريح ، والريح التى عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه (تدمر كل شئ بأمر ربها) هذه الجملة صفة ثانية لريح : أى تهلك كل شئ مرت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير : الإهلاك ، وكذا الدمار ، وقرئ « يدمر » بالتحية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ورفع كل على الفاعلية من دمر دمارا ، ومعنى (بأمر ربها) أن ذلك بقضائه وقدره (فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم) أى لا ترى أنت يا محمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم . قرأ الجمهور « لا ترى » بالفوقية على الخطاب ، ونصب مساكنهم . وقرأ حمزة وعاصم بالتحية مضمومة مبني للمفعول ورفع مساكنهم . قال سيبويه : معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية . قال الكسائى والزجاج : معناها لا يرى شئ إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى كما تقول : ما قام إلا هند ، والمعنى : ما قام أحد إلا هند ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم (كذلك نجزي القوم المحرمين) أى مثل ذلك الجزاء نجزي هؤلاء ، وقد مر بيان هذه القصة فى سورة الأعراف (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) قال المبرد : ما فى قوله فيما بمنزلة الذى وإن بمنزلة ما : يعنى النافية ، وتقديره : ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان ، وقيل « إن » زائدة وتقديره : ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه ، وبه قال قال القتيبي ، ومثله قول الشاعر :
فما إن طبن جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

والأول أولى لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش وأمثالهم (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) أى إنهم أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التى بها تدرك الأدلة ، ولهذا قال (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ) أى فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد وصحة الوعد والوعيد ، وقد قدمنا من الكلام على وجه إفراد السمع وجمع البصر ما يغنى عن الإعادة ، و « من » فى (من شئ) زائدة ، والتقدير : فما أغنى عنهم شئ من الاغناء ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع (إذ كانوا يحملون بآيات الله) الظرف متعلق بأغنى ، وفيها معنى التعليل : أى لأنهم كانوا يحملون (وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا (فائتنا بما تعدنا) . (ولقد أهلكنا ما حولكم

(من القرى) الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوها مما كان مجاورا لبلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم (وصرّفتنا الآيات لعلهم يرجعون) أى بينا الحجج ونوعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا . ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى فهلا نصرهم آلهتهم التى تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا - هؤلاء شفعاؤنا عند الله - ومنعهم من الهلاك الواقع بهم ، قال الكسائى : القربان كل ما يتقرّب به إلى الله من طاعة ونسيكة والجمع قربانين كالرهبان والرهائين ، وأحد مفعولى اتخذوا ضمير راجع إلى الموصول ، والثانى آلهة ، وقربانا حال ، ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا ، وآلهة بدلا منه لفساد المعنى ، وقيل يصح ذلك ولا يفسد المعنى ، ورجحه ابن عطية وأبو البقاء وأبو حيان ، وأنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه (بل ضلوا عنهم) أى غابوا عن نصرهم ولم يحضروا عند الحاجة إليهم ، وقيل بل هلكوا ، وقيل الضمير فى ضلوا راجع إلى الكفار : أى تركوا الأصنام وتبرعوا منها ، والأوّل أولى ، والإشارة بقوله (وذلك) إلى ضلال آلهتهم . والمعنى وذلك الضلال والضيايع أثر (إفكهم) الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقرّبهم إلى الله . قرأ الجمهور « إفكهم » بكسر الهمزة وسكون الفاء مصدر أفك يافك إفكا : أى كذبهم . وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل : أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد . وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء : أى صيرهم آفكين . قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعم ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالمد وكسر الفاء بمعنى صارفهم (وما كانوا يفترون) معطوف على إفكهم : أى وأثر افتراءهم أو أثر الذى كانوا يفترونه . والمعنى : وذلك إفكهم : أى كذبهم الذى كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى الله وتشفع لهم (وما كانوا يفترون) أى يكذبون أنها آلهة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأحقاف جبل بالشام . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عنه فى قوله (هذا عارض ممطرنا) قال : هو السحاب . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم ، وكان إذا رأى غما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغم فرحوا أن يكون فيه المطر . وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية ، قال : « يا عائشة : وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب ، فقالوا - هذا عارض ممطرنا - » . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرا وخيرا مافيا وخيرا ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ مافيا وشرّ ما أرسلت به ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه ، فسألته فقال : لا أدرى ، لعله كما قال قوم عاد - هذا عارض ممطرنا - » . وأخرج ابن أبي الدنيا فى كتاب السحاب وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله (فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم) قالوا غيم فيه مطر ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من رجاىهم ومواسيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرملى ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما لهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم فى البحر ، فقهو قوله (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمى هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم

عنه في قوله (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) يقول : لم نمكنكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال : عاد مكنا في الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأطول أعمارا .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَقَوْمُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْيِيَ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) .

لما بين سبحانه أن في الإنس من آمن ، وفيهم من كفر بين أيضا أن في الجن كذلك ، فقال (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) العامل في الظرف مقدر : أي واذكر إذ صرفنا . أي وجهنا إليك نفرا من الجن وبعثناهم إليك ، وقوله (يستمعون القرآن) في محل نصب صفة ثانية لنفرا أو حال لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى (فلما حضروه) أي حضروا القرآن عند تلاوته ، وقيل حضروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأول أولى (قالوا أنصتوا) أي قال بعضهم لبعض اسكتوا ، أمروا بعضهم بعضا بذلك لأجل أن يسمعوا (فلما قضى) قرأ الجمهور « قضى » مبنيا للمفعول : أي فرغ من تلاوته . وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير ولاحق بن حميد وأبو مجلز على البناء للفاعل : أي فرغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تلاوته ، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير في « حضروه » للقرآن ، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولوا إلى قومهم منذرين) أي انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ومخدرين لهم ، وانتصاب : منذرين على الحال المقدرة أي مقدرين الإنذار ، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتي في آخر البحث بيان ذلك (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) يعنون القرآن ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فوصلوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا (مصدقا لما بين يديه) أي لما قبله من الكتب المنزلة (يهدي إلى الحق) أي إلى الدين الحق (وإلى طريق مستقيم) أي إلى طريق الله القويم . قال مقاتل : لم يبعث الله نبيا إلى الجن والإنس قبل محمد صلى الله عليه .

وآله وسلم (يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به) يعنون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أو القرآن (بغفر لكم من ذنوبكم) أي بعضها ، وهو ما عدا حق العباد ، وقيل إن من هنا لا ابتداء الغاية . والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهي إلى غفران ترك ما هو الأول ، وقيل هي زائدة (ويجركم من عذاب أليم) وهو عذاب النار ، وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهي . وقال الحسن : ليس لمؤمن الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة . والأول أولى ، وبه قال مالك والشافعي وابن أبي ليلى . وعلى القول الأول ، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم : كونوا ترابا ، كما يقال للبهائم والثاني أرجح . وقد قال الله سبحانه في مخاطبة الجن والإنس - ولئن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان - فامتن سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، ولا ينافي هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إيجازهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل ، ومما يؤيد هذا أيضا ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة ، وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال لا إله إلا الله الجنة ، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة .

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم أم لا ، وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما في قوله - وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى - . وقال - وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق - وقال سبحانه في إبراهيم الخليل - وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب - ، فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته ، وأما قوله تعالى في سورة الأنعام - يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم - فقول المراد من مجموع الجنسين وصدق على أحدهما ، وهم الإنس : كقوله - يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان - أي من أحدهما (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أي لا يفوت الله ولا يسبقه ولا يقدر على الهرب منه ، لأنه وإن هرب كل مهرب فهو في الأرض لاسبيل له إلى الخروج منها ، وفي هذا تهيب شديد (وليس له من دونه أولياء أي أنصار يمنعون من عذاب الله ، بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى من لا يجب داعي الله ، وأخبر أنهم (في ضلال مبين) أي ظاهر واضح . ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث ، فقال (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض) الروية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر : أي ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداء (ولم يعي بخلقهن) أي لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال عي بالأمروعي : إذا لم يهتد لوجهه ، ومنه قول الشاعر :

حيوا بأمرهم كما عيت ببيضها الحمامه

قرأ الجمهور « ولم يعي » بسكون العين وفتح الباء مضارع عي . وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الباء (بقادر على أن يحيي الموتى) . قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد ، كما في قوله - وكفى بالله شهيدا - . قال الكسائي والفراء والزجاج : العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام ، فتقول ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور في محل رفع على أنهما خبر لأن ، وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر والأعرج والحدري وابن أبي إسحاق ويعقوب وزيد بن علي « يقلبر » على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال : لأن دخول الباء في خبر أن قبيح (بلى إنه على كل شيء قدير) لا يعجزه شيء (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) الظرف متعلق بقول مقدر : أي يقال ذلك اليوم للذين كفروا (أليس هذا بالحق) وهذه الجملة هي المحكية

بالقول ، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفي الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدل عليه (قالوا بلى وربنا) اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكذبوا هذا الاعتراف بالقسم ، لأن المشاهدة هي حق اليقين الذي لا يمكن جحده ولا إنكاره (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم بهذا في الدنيا وإنكاركم له ، وفي هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتمكيم عظيم . لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) والفاء جواب شرط محذوف : أى إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجع في الكافرين فاصبر كما صبر أولوا العزم : أى أرباب الثبات والحزم فلذلك منهم . قال مجاهد : أولوا العزم من الرسل خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : هم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم . وقال السدي : هم ستة إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب وليس منهم يونس . وقال الشعبي والكلبي : هم الذين أمروا بالقتال ، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة ، وقيل هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط . واختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم - أولئك الذين هداهم الله فبهدهم اقتده - وقيل إن الرسل كلهم أولوا عزم ، وقيل هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بني إسرائيل . وقال الحسن : هم أربعة : إبراهيم وموسى وداود وعيسى (ولا تستعجل لهم) أى لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار . لما أمره سبحانه بالصبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال (كأنهم يوم يرون ما يوعدون) من العذاب (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم . قرأ الجمهور (بلاغ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هذا الذي وعظهم به بلاغ ، أو تلك الساعة بلاغ ، أو هذا القرآن بلاغ ، أو هو مبتدأ ، والخبر لهم الواقع بعد قوله (ولا تستعجل) أى لهم بلاغ ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وزيد بن عليّ بلاغا بالنصب على المصدر : أى بلغ بلاغا ، وقرأ أبو مجلز « بلغ » بصيغة الأمر . وقرئ « بلغ » بصيغة الماضي (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) قرأ الجمهور « فهل يهلك » على البناء للمفعول . وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل ، والمعنى : أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون في معاصي الله . قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك . قيل وهذه الآية أقوى آية في الرجاء . قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون . وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن منيع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن مسعود قال : هبطوا ، يعنى الجن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ القرآن يبطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا أنصتوا ، قالوا صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن) إلى قوله (ضلال مبين) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن الزبير (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) قال : بنخلة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى العشاء الآخرة - كأدوا يكونون عليه لبدا - . وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن) الآية . قال كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسلا إلى قومهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم عنه

نحوه وقال : أتوه ببطن نخلة . وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه أيضا قال : صرفت الجحش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين وكانوا أشرف الجحش بنصيبين . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من أذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجحش ليلة استمعوا القرآن ؟ قال : آذنته بهم شجرة . وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذي عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منكم أحدا ليلة الجحش ؟ قال : ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة ، فقلنا اغتيل استطير ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فأخبرناه فقال : إنه أثنى داعي الجحش فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الجحش . وقد روى نحو هذا من طرق . والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه صلى الله عليه وآله وسلم مع الجحش حضر إحداهما ابن مسعود ولم يحضر في الأخرى . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجحش بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرة بعد مرة وأخذوا عنه الشرائع . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال (أولوا العزم من الرسل) النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وأخرج ابن مردويه عنه قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : بلغني أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر . وأخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة قالت : ظل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صائما ثم طوى ، ثم ظل صائما ثم طوى ، ثم ظل صائما قال : يا عائشة إن الدين لا ينبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض متى إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال (اصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا بالله .

تفسير سورة محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا . وهي تسع وثلاثون آية ، وقيل ثمان وثلاثون

وهي مدنية . قال الماوردي : في قول الجميع ؛ إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا عليه ، فنزل قوله تعالى (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك) وقال الثعلبي : إنها مكية . وحكاها ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير وهو غلط من القول ، فالسورة مدنية كما لا يخفى . وقد أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : نزلت سورة القتال بالمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه قال : نزلت سورة محمد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا . وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ بهم في المغرب - الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبُطْلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْاَعْمَالُ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)

قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) هم كفار قريش كفروا بالله وصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله ، وهو دين الإسلام بنبيهم عن الدخول فيه ، كذا قال مجاهد والسدي . وقال الضحاك : معنى عن سبيل الله : عن بيت الله بمنع قاصديه . وقيل هم أهل الكتاب والموصول مبتدأ وخبره (أضل أعمالهم) أى أبطلها وجعلها ضائعة . قال الضحاك : معنى أضل أعمالهم أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وجعل الدائرة عليهم في كفرهم . وقيل أبطل ما عملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق ، من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف ، وهذه وإن كانت باطلة من أصلها ، لكن المعنى أنه سبحانه حكم ببطلانها . ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وامنوا بما نزل على محمد) ظاهر هذا العموم فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ولا يمنع من ذلك خصوص سبيلها ؛ فقد قيل إنها نزلت في الأنصار ، وقيل في ناس من قريش ، وقيل في مؤمنى أهل الكتاب ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وخص سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالذكر مع اندراج

تحت مطلق الإيمان المذكور قبله تنبيها على شرفه وعلو مكانه وجملة (وهو : الحق من ربهم) معترضة بين المبتدأ ، وهو قوله (والذين آمنوا) ، وبين خبره وهو قوله (كفر عنهم سيئاتهم) ومعنى كونه الحق أنه الناسخ لما قبله ، وقوله (من ربهم) في محل نصب على الحال ، ومعنى كفر عنهم سيئاتهم : أى السيئات التى عملوها فيما مضى فإنه غفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح (وأصلح بهم) أى شأنيهم وحالهم . قال مجاهد : شأنهم ، وقال قتادة : حالهم ، وقيل أمرهم ، والمعاني متقاربة . قال المبرد : البال الحال هاهنا . قيل والمعنى : أنه عصمهم عن المعاصي فى حياتهم وأرشدهم إلى أعمال الخير ، وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال ، ونحو ذلك ، وقال النقاش : إن المعنى أصلح نياتهم ، ومنه قول الشاعر :

فإن تقبلى بالود أقبل بمثله وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

والإشارة بقوله (ذلك) إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ووعد به المؤمنين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده ، وقيل إنه خبر مبتدأ محذوف : أى الأمر ذلك (ب) سبب (أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) فالباطل الشرك ، والحق التوحيد والإيمان ، والمعنى : أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بهم بسبب اتباعهم للحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أى مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم : أى أحوال الفريقين البخارية مجرى الأمثال فى الغرابة . قال الزجاج : كذلك يضرب بين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال الكافرين : يعنى أن من كان كافرا أضلّ الله عمله ، ومن كان مؤمنا كفر الله سيئاته (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) لما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار ، والمراد بالذين كفروا المشركين ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب ، وانتصاب ضرب على أنه مصدر لفعل محذوف . قال الزجاج : أى فاضربوا الرقاب ضربا ، وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها ، وقيل هو منصوب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولهم : يانفس صبرا ، وقيل التقدير : اقصدوا ضرب الرقاب . وقيل إنما خصّ ضرب الرقاب لأن فى التعبير عنه من الغلظة والشدة ما ليس فى نفس القتل ، وهى حزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوه وأحسن أعضائه (حتى إذا أنجتموهم) أى بالغنم فى قتلهم وأكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لالبيان غاية القتل ، وهو مأخوذ من الشيء الثخين : أى الغليظ ، وقد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال (فشدوا الوثاق) الوثاق بالفتح ويعمىء بالكسر : اسم الشيء الذى يوثق به كالرباط . قال الجوهري : وأوثقه فى الوثاق : أى شدّه ، قال : والوثاق بكسر الواو لغة فيه . قرأ الجمهور « فشدوا » بضم الشين ، وقرأ السلمي بكسرها . وإنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق لثلاث ينفلتوا ، والمعنى : إذا بالغنم فى قتلهم فأسروهم وأحيطوهم بالوثاق (فلما منا بعد ولما فداء) أى فلما أن تمنوا عليهم بعد الأسر منا ، أو تفدوا فداء ، والمن : الإطلاق بغير عوض ، والفداء : ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدم . قرأ الجمهور « فداء » بالمد . وقرأ ابن كثير « فدى » بالقصر ، وإنما قدّم المن على الفداء ، لأنه من مكارم الأخلاق ، ولهذا كانت العرب تفتخر به ، كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق جل المغارم

تم ذكر سبحانه الغاية لذلك فقال (حتى تضع الحرب أوزارها) أوزار الحرب التى لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع ، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز ، والمعنى : أن المسلمين مخبرون بين ثلاث الأمور

إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار : قال مجاهد : المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام وبه قال الحسن والكلبي . قال الكسائي : حتى يسلم الخلق . قال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقيل المعنى : حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو المواجهة . وروى عن الحسن وعطاء أنهما قالوا : في الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أئتموهم فشدوا الوثاق . وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ، فقيل إنها منسوخة في أهل الأوثان وأنه لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم ، والناسخ لها قوله - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - وقوله - فإذا أئتموهم فشدوا الوثاق - في الحرب فشد بهم من خلفهم - وقوله - وقاتلوا المشركين كافة - وبهذا قال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وكثير من الكوفيين : قالوا : والمائدة آخر ما نزل ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة . وقيل إن هذه الآية ناسخة لقوله - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - روى ذلك عن عطاء وغيره . وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة والإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المن والفداء . وبه قال مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبو عبيد وغيرهم . وهذا هو الراجح لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك . وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض - فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) محل ذلك الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي الأمر ذلك ، وقيل في محل نصب على المفعولية بتقدير فعل : أي افعلوا ذلك ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه ما تقدم : أي ذلك حكم الكفار ، ومعنى لو يشاء الله لانتصر منهم : أي قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب (ولكن) أمرهم بحربهم (ليلو بعضهم ببعض) أي ليختبر بعضهم ببعض فيعلم المجاهدين في سبيله والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ويعذب الكفار بأيديهم (والذين قتلوا في سبيل الله) قرأ الجمهور قاتلوا مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وحفص « قتلوا » مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا . وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وأبو حيو « قتلوا » على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى والرابعة : أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع ، وعلى القراءة الثانية والثالثة : أن المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد . ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال (سيهديهم) أي سيهديهم الله سبحانه إلى الرشدين في الدنيا ويعطيهم الثواب في الآخرة (ويصلح بهم) أي حالهم وشأنهم وأمرهم . قال أبو العالية : قد ترد الهداية ، والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المقضية إليها ، وقال ابن زياد : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) أي بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرقوا إلى منازلهم . قال الواحدي : هذا قول عامة المفسرين . وقال الحسن : وصف الله لهم الجنة في الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفاتها . وقيل فيه حذف : أي عرفوا طرقها ومساكنها وبيوتها . وقيل هذا التغريف بدليل يدلهم عليها ، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله ، كذا قال مقاتل . وقيل معنى عرفها لهم طيبها بأنواع الملاذ ، مأخوذ من العرف ، وهو الرائحة ، ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) أي إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار ويفتح لكم ، ومثله قوله - ولينصرن الله من ينصره - . قال قطرب : إن تنصروا نبي الله ينصركم (ويثبت أقدامكم) أي عند القتال وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الحرب ، وقيل على الإسلام ، وقيل على الصراط (والذين كفروا فتعسا لهم) الموصول في محل رفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف

تعميره فتعسوا بدليل مابعده ، ودخلت الفاء تشبيها للمبتدأ بالشرط ، وانتصاب تعسا على المصدر للفعل المقدر خبرا . قال الفراء : مثل سقيا لهم ورعيا ، وأصل التعس الانحطاط والعتار . قال ابن السكيت : التعس أن يجر على وجهه ، والنكس أن يجر على رأسه ، قال : والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهري : وأصله الكب وهو ضد الانتعاش ، ومنه قول مجمع بن هلال :

تقول وقد أفودتها من حليلها تعست كما أتعتني يا مجمع

قال المبرد : أى فكروها لهم ، وقال ابن جريج : بعدا لهم ، وقال السدي : خزيا لهم . وقال ابن زيد : شقاء لهم . وقال الحسن : شتاما لهم . وقال ثعلب : هلاكا لهم ، وقال الضحاك : خيبة لهم : وقيل قبحا لهم ، حكاه النقاش . وقال الضحاك : رغما لهم . وقال ثعلب أيضا : شرا لهم . وقال أبو العالية : شقوة لهم . واللام فى لهم للبيان كما فى قوله - هيت لك - وقوله (وأضل أعمالهم) معطوف على ما قبله داخل معه فى خبرية الموصول ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم مما ذكره الله من التعس والإضلال : أى الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر (بأنهم كرهوا ما أنزل الله) على رسوله من القرآن ، أو ما أنزل على رسوله من كتبه لاشتغالها على ما فى القرآن من التوحيد والبعث (فأحبط) الله (أعمالهم) بذلك السبب ، والمراد بالأعمال ما كانوا يعملوا من أعمال الخير فى الصورة وإن كانت باطلة من الأصل ، لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه . ثم خوف سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض) أى ألم يسيروا فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية . ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال (دمر الله عليهم) والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والتدمير الإهلاك : أى أهلكهم واستأصلهم ، يقال دمره ودمر عليه بمعنى . ثم توعد مشركى مكة فقال (وللکافرين أمثالا) أى لهؤلاء الكافرين أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة . قال الزجاج وابن جرير : الضمير فى أمثالها يرجع إلى عاقبة الذين من قبلهم ، وإنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدد الأمم الملعونة ، وقيل أمثال العقوبة ، وقيل الهلكة ، وقيل التدمير والأول أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر من أن الكافرين أمثالها (بأن الله مولى الذين آمنوا) أى بسبب أن الله ناصرهم (وأن الكافرين لا مولى لهم) أى لا ناصر يدفع عنهم . وقرأ ابن مسعود « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » قال قتادة : نزلت يوم أحد (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) قد تقدم تفسير الآية فى غير موضع ، وتقدم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات ، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) أى يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عن العاقبة لاهون بما هم فيه (والنار مثوى لهم) أى مقام يقيمون به ، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه ، والجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة .

وقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) قال : هم أهل مكة قریش نزلت فيهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : هم أهل المدينة الأنصار (وأصلح بهم) قال : أمرهم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (أضل أعمالهم) قال : كانت لهم أعمال فاضلة لا يقبل الله مع الكفر عملا . وأخرج النحاس عنه أيضا فى قوله (فلما منا بعد وإما فداء) قال : فجعل الله النبى والمؤمنين بالخيار فى الأسار ، إن شاءوا قتلوه ، وإن شاءوا استعبدوهم ،

وإن شاعوا فادوهم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا في الآية قال : هذا منسوخ نسخها : فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين - . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله ، فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا إنما قال الله (حتى إذا أمنتهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء) . وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر وابن مردويه عن ليث قال : قلت لمجاهد : بلغني أن ابن عباس قال : لا يحل قتل الأسارى ، لأن الله قال (فإما منا بعد وإما فداء) فقال مجاهد : لا تعبأ بهذا شيئا أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلهم ينكر هذا ، ويقول هذه منسوخة إنما كانت في الهدنة التي كانت بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين المشركين ، فأما اليوم فلا ، يقول الله - اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - ويقول - فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب - فإن كان من مشركي العرب لم يقبل شيء منهم إلا الإسلام ، فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاعوا قتلوهم وإن شاعوا استحيوهم وإن شاعوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم ، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا . ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفاني . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا وحكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وتوضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » . وأخرج ابن سعد وأحمد والنسائي والبخاري والطبراني وابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حديث قال : « لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس (وللكافرين أمثالها) قال : لكفار قومك يا محمد مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف .

وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٢) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) .

خوف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشد منهم فقال (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم) قد قدمنا أن كآين مركبة من الكاف وأى ، وأنها بمعنى كم الخبرية : أى وكم من قرية ، وأنشد الأنخفش قول الوليد :

وكأين رأينا من ملوك وسوقة ومفتاح قيد للأسير المكبل

ومعنى الآية : وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها أهلكناهم (فلا ناصر لهم) فبالأولى من هو أضعف منهم وهم قريش الذين هم أهل قرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي مكة ، فالكلام على حذف المضاف كما في قوله - وأسأل القرية - قال مقاتل : أى أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسولهم . ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن وحال الكافر فقال (أفمن كان على بينة من ربه) والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، ومن مبتدأ ، والخبر (كمن زين له سوء عمله) وأفرد في هذا باعتبار لفظ من ، وجمع في قوله (واتبعوا أهواءهم) باعتبار معناها ، والمعنى : أنه لا يستوى من كان على يقين من ربه ولا يكون كمن زين له سوء عمله ، وهو عبادة الأوثان والإشراك بالله والعمل بمحاصي الله ، واتبعوا أهواءهم في عبادتها ، وانهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك فضلا عن حجة نيرة . ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق في مرجعها ومآلها فقال (مثل الجنة التي وعد المتقون) والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان ما فيها ، ومعنى مثل الجنة وصفها العجيب الشأن ، وهو مبتدأ وخبره محذوف . قال النضر بن شميل : تقديره ما يسمعون ، وقدره سيوييه فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، قال : والمثل هو الوصف ومعناه وصف الجنة ، وجملة (فيها أنهار من ماء غير آسن) الخ مفسرة للمثل . وقيل إن مثل زائدة ، وقيل إن مثل الجنة مبتدأ ، والخبر فيها أنهار ، وقيل خبره كمن هو خالد ، والآسن المتغير ، يقال أسن الماء يأسن أسونا : إذا تغيرت رائحته ، ومثله الإجن ، ومنه قول زهير :

قد أترك القرن مصفرا أنامله يمين في الرمح ميد المالح الأسن

قرأ الجمهور « آسن » بالمد . وقرأ حميد وابن كثير بالقصر ، وهما لغتان كحاذر وحذر . وقال الأنخفش : إن المملود يراد به الاستقبال ، والمقصود يراد به الحال (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا ، لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى لذيدة لهم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون ، يقال شراب لذ ولذيد وفيه لذة بمعنى ، ومثل هذه الآية قوله - بيضاء لذة للشاربين - قرأ الجمهور « لذة » بالجر صفة لخمير ، وقرئ بالنصب على أنه مصدر ، أو مفعول له . وقرئ بالرفع صفة لأنهار (وأنهار من عسل مصفى) أى مصفى مما يخالطه من الشمع والقذى والعكر والكدر (ولهم فيها من كل الثمرات) أى لأهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات : أى من كل صنف من أصنافها ، و« من » زائدة للتوكيد (ومغفرة من ربهم) لذنوبهم ، وتنكير مغفرة للتعظيم : أى ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم (كمن هو خالد في النار) هو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالدا فيها كمن هو خالد في النار أو خبر لقوله مثل الجنة كما تقدم : وزجج الأول الفراء فقال : أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار . وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار ، فقوله « كمن » بدل من قوله « أفمن زين له سوء عمله » وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التي فيها الخمر والأنهار كمثل النار التي فيها الخمر والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة في النعيم كمثل أهل النار في العذاب الأليم .

وقوله (وسقوا ماء حميا) عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية لكنه راعى في الأولى لفظ من ، وفي الثانية معناها ، والحميم الماء الحار الشديد الغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم ، وهو معنى قوله (فقطع أمعاءهم) لفرط حرارته . والأمعاء جمع معى ، وهى مافى البطن من الحوايا (ومنهم من يستمع إليك) أى من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام من يستمع إليك وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظ من ، وجمع فى قوله (حتى إذا خرجوا من عندك) باعتبار معناها ، والمعنى : أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومواطن خطبه التى يملئها على المسلمين حتى إذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) وهم علماء الصحابة ، وقيل عبد الله بن عباس ، وقيل عبد الله بن مسعود ، وقيل أبو الدرداء ، والأول أولى : أى سألوا أهل العلم فقالوا لهم (ماذا قال أنفا) أى ماذا قال النبى الساعى على طريقة الاستهزاء ، والمعنى : أنا لم نلتفت إلى قوله ، وأنفا يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات ، ومنه أمر أنف : أى مستأنف ، وروضة أنف : أى لم يرعها أحد ، وانتصابه على الظرفية : أى وقتا موثقا ، أو حال من الضمير فى قال . قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء : إذا ابتدأته ، وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، مستعار من الجارحة ، ومنه قول الشاعر :

ويحرم سر جارهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاص

والإشارة بقوله (أوأئك) إلى المذكورين من المنافقين (الذين طبع الله على قلوبهم) فلم يؤمنوا ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير (واتبعوا أهواءهم) فى الكفر والعناد . ثم ذكر حال أضدادهم فقال (والذين اهتدوا زادهم هدى) أى والذين اهتدوا إلى طريق الخير ، فأمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق ، وقيل زادهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل زادهم القرآن . وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى وقيل زادهم نزول الناسخ هدى ، وعلى كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيمانا وعلما وبصيرة فى الدين (وآتاهم تقواهم) أى ألهمهم إياها وأعانهم عليها . والتقوى قال الربيع : هى الحشية . وقال السدى : هى ثواب الآخرة . وقال مقاتل : هى التوفيق للعمل الذى يرضاه ، وقيل العمل بالناسخ وترك المنسوخ ، وقيل ترك الرخص والأخذ بالعزائم (فهل ينظرون إلا الساعة) أى القيامة (أن تأتيهم بغتة) أى فجأة ، وفى هذا وعيد للكفار شديد ، وقوله (أن تأتيهم بغتة) بدل من الساعة بدل اشتمال . وقرأ أبو جعفر الرواسى « إن تأتيهم » بإن الشرطية (فقد جاء أشراطها) أى أماراتها وعلاماتها وكانوا قد قرعوا فى كتبهم أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم آخر الأنبياء ، فبعثته من أشراطها ، قاله الحسن والضحاك . والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها . وقيل المراد بأشراطها هنا : أسبابها التى هى دون معظمها . وقيل أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان ، كذا قال الحسن . وقال الكلبي : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللثام ، ومنه قول أبى زيد الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشرط أوله تبدو

(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ذكرهم مبتدأ وخبره فأنى لهم : أى أنى لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة كقوله - يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى - وإذا جاءتهم اعتراض بين المبتدأ والخبر (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أى إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصى الله فاعلم أنه لا إله غيره ولا رب سواه ، والمعنى : أثبت على ذلك واستمر عليه ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد كان عالما بأنه لا إله إلا الله قبل هذا ، وقيل ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا . وقيل المعنى : فاذكر أنه لا إله إلا الله ، فعبّر عن الذكر

بالعلم (واستغفر لذنبك) أى استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك ، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى . وقيل الخطاب له ، والمراد الأمة ، ويأتى هذا قوله (وللمؤمنين والمؤمنات) فإن المراد به استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم (والله يعلم متقلبكم) فى أعمالكم (ومثواكم) فى الدار الآخرة ، وقيل متقلبكم فى أعمالكم نهارا ومثواكم فى ليلكم نياما . وقيل متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم فى الأرض : أى مقامكم فيها . قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا ، ومثواكم فى القبور .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج ، فأعنى الأعداء من عتا على الله فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول الجاهلية » فأنزل الله (وكأين من قرية) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (أنهار من ماء غير آسن) قال : غير متغير . وأخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « فى الجنة بخر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الحمر ثم تشقق الأنهار منها » . وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده والبيهقى عن كعب قال : نهر النيل نهر العسل فى الجنة ، ونهر دجلة نهر اللبن فى الجنة ، ونهر القرات نهر الحمر فى الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا) قال : كنت فىمن يسأل . وأخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال : أنا منهم . وفى هذا منقبة لابن عباس بجليلة لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ ، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مات وهو فى سن البلوغ ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ووصف الله سبحانه للمسئولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه ومزيد فقهه فى كتاب الله وسنة رسوله ، مع كون أتباعه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس : ماذا قال آنفا ؟ فيقول كذا وكذا ، وكان ابن عباس أصغر القوم ، فأنزل الله الآية ، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم وأخرج ابن أبى شيبه وابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال : هو عبد الله بن مسعود . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : هو عبد الله بن مسعود . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) قال : لما أنزل القرآن آمنوا به ، فكان هدى ، فلما تبين الناس من المنسوخ زادهم هدى . وأخرج ابن المنذر عنه (فقد جاء أشراطها) قال : أول الساعات ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالوسطى والسبابة » ومثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد . وفى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراف الساعة وبيان ما قد وقع منها وما لم يكن قد وقع ، وهى تأتى فى مصنف مستقل فلا نطيل بدكرها . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والديلمى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الاستغفار » ثم قرأ (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى

في الشعب عن أبي هريرة في قوله (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » . وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن سرجس قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأكلت معه من طعام ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله ، قال : ولك ، فقلت : أنتستغفر لك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : نعم ولكم وقرأ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) » وقد ورد أحاديث في استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه ولأئمة وترغيبه في الاستغفار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (والله يعلم متقلبكم) في الدنيا (ومثواكم) في الآخرة .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَذْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ (٣١) .

سأل المؤمنون ربهم عز وجل أن ينزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار حرصاً منهم على الجهاد ونيل ما أعد الله للمجاهدين من جزيل الثواب ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أي هلا نزلت (فإذا أنزلت سورة محكمة) أي غير منسوخة (وذكر فيها القتال) أي فرض الجهاد قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين ، وفي قراءة ابن مسعود « فإذا أنزلت سورة محدثة » أي محدثة النزول . قرأ الجمهور « فإذا أنزلت » وذكر على بناء الفعلين للمفعول . وقرأ زيد بن علي وابن عمير « نزلت » وذكر على بناء الفعلين للفاعل ونصب القتال (رأيت الذين

في قلوبهم مرض (أى شك ، وهم المنافقون) ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت (أى ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجنبهم عن القتال وميلهم إلى الكفار . قال ابن قتيبة والزرجاني : يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون إليك نظرا شديدا كما ينظر الشخص بصره عند الموت (فأولى لهم) قال الجوهري : وقولهم أولى لك تهديد ووعد ، وكذا قال مقاتل والكلبي وقتادة . قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد أولى لك أى وليك وقاربك ما تكره ، وأنشد قول الشاعر :

فعادى بين هاذيتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل فى أولى أحسن مما قاله الأصمعي . وقال المبرد : يقال لمن هم بالغضب ثم أفلت أولى لك : أى قاربت الغضب . وقال الجرجاني : هو مأخوذ من الويل : أى فويل لهم ، وكذا قال في الكشف . قال قتادة أيضا : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وقوله (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف : أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم . قال الخليل وسيبويه : إن التقدير طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما . وقيل إن طاعة خير أولى ، وقيل إن طاعة صفة لسورة ، وقيل إن لهم خبر مقدم وطاعة مبتدأ مؤخر ، والأول أولى (فإذا عزم الأمر) عزم الأمر جد الأمر : أى جد القتال ووجب وفرض ، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا ، وجواب إذا قيل هو « فلو صدقوا الله » وقيل محذوف تقديره كرهوه . قال المفسرون معناه إذا جد الأمر ولزم فرض القتال خالفوا وتخلفوا (فلو صدقوا الله) في إظهار الإيمان والطاعة (لكان خيرا لهم) من المعصية والمخالفة (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) هذا خطاب للذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتقريع . قال الكلبي : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم . وقال كعب (أن تفسدوا في الأرض) أى بقتل بعضكم بعضا ، وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء وتقطعوا أرحامكم . وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة ، وقيل أعرضتم عن القتال وفارقم أحكامه . قرأ الجمهور « توليتم » مبنيًا للفاعل ، وقرأ علي بن أبي طالب بضم التاء والواو وكسر اللام مبنيًا للمفعول ، وبها قرأ ابن أبي إسحاق وورش عن يعقوب ، ومعناها فهل عسيتم إن ولي عليكم ولادة جائرين أن تخرجوا عليهم في الفتنة وتخابروهم وتقطعوا أرحامكم بالبغي والظلم والقتل . وقرأ الجمهور (وتقطعوا) بالتشديد على التكثير ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه وسلام وعيسى ويعقوب بالتخفيف من القطع يقال : عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهري وغيره ، وخبر عسيتم هو أن تفسدوا ، والجملة الشرطية بينهما اعتراض ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المخاطبين بما تقدم وهو مبتدأ وخبره (الذين لعنهم الله) : أى أبعدهم من رحمته وطردهم عنها (فأصمهم) عن استماع الحق (وأعمى أبصارهم) عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث وحقية سائر مآدعهم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والاستفهام في قوله (أفلا يتدبرون القرآن) للإنكار ، والمعنى : أفلا يفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه (أم على قلوب أقفالها) أم هي المنقطعة : أى بل أعلى قلوب أقفالها فهم لا يفهمون ولا يعقلون . قال مقاتل : يعنى الطبع على القلوب والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك ، لأن الله سبحانه قد طبع عليها ، والمراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين . قرأ الجمهور « أقفالها » بالجمع ، وقرأ « إقفالها » بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال (إن الذين ارتدوا

على أدبارهم) أى رجعوا كفارا كما كانوا . قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما عرفوا نعتهم عندهم ، وبه قال ابن جرير . وقال الضحاك والسدي : هم المنافقون قعدوا عن القتال ، وهذا أولى لأن السياق في المنافقين (من بعد ما تبين لهم الهدى) بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة (الشيطان سول لهم) أى زين لهم خطاياهم وسهل لهم الوقوع فيها ، وهذه الجملة خبر إن ، ومعنى (وأملى لهم) أن الشيطان مدّ لهم فى الأمل ووعدهم طول العمر ، وقيل إن الذى أملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة . قرأ الجمهور (أملى) مبنيًا للفاعل ، وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة على البناء للمفعول . قيل وعلى هذه القراءة يكون الفاعل هو الله أو الشيطان كالقراءة الأولى ، وقد اختار القول بأن الفاعل الله الفراء والمفضل ، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم ذكره قريباً ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من ارتدادهم ، وهو مبتدأ وخبره (بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله) أى بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ، وهم المشركون (سنطيعكم فى بعض الأمر) وهذا البعض هو عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومخالفة ما جاء به . وقيل المعنى : إن المنافقين قالوا لليهود : سنطيعكم فى بعض الأمر ، وقيل إن القائلين اليهود والذين كرهوا ما أنزل الله المنافقون ، وقيل إن الإشارة بقوله « ذلك » إلى الإملاء ، وقيل إلى التسويل ، والأول أولى . ويؤيد كون القائلين المنافقين والكارهين اليهود قوله تعالى - ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً وإن قوتلم لتنصرنكم - ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السرّ بينهم . قال الله سبحانه (والله يعلم أسرارهم) قرأ الجمهور بفتح الهمزة جمع سرّ ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الكوفيون وحمة والكسائي وحفص عن عاصم وابن وثاب والأعمش بكسر الهمزة على المصدر : أى إخفاءهم (فكيف إذا توفهم الملائكة) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وكيف فى محل رفع على أنها خبر مقدّم ، والتقدير : فكيف علمه بأسرارهم إذا توفهم الملائكة ، أو فى محل نصب بفعل محذوف : أى فكيف يصنعون ، أو خبر لكان مقدّرة : أى فكيف يكونون ، والظرف معمول للمقدّر ، قرأ الجمهور « توفهم » وقرأ الأعمش « توفاهم » وجملة (يضربون وجوههم وأدبارهم) فى محل نصب على الحال من فاعل توفهم أو من مفعوله : أى ضاربين وجوههم وضاربين أدبارهم ، وفى الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى : أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا ، وهو تصوير لتوفهم على أقبح حال وأشنع . وقيل ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل ذلك يوم القيامة ، والأول أولى . والإشارة بقوله (ذلك) إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة ، وهو مبتدأ وخبره (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) أى بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي ، وقيل كما أنهم ما فى التوراة من نعت نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، والأول أولى لما فى الصيغة من العموم (وكرهوا رضوانه) أى كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة (فأحبط) الله (أعمالهم) بهذا السبب ، والمراد بأعمالهم الأعمال التى صورتها صورة الطاعة وإلا فلا عمل لكافر ، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض) يعنى المنافقين المذكورين سابقا ، وأم هى المنقطعة : أى بل أحسب المنافقون (أن لن يخرج الله أضغانهم) الإخراج بمعنى الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما يضمّر من المكروه ، واختلف فى معناه ، فقيل هو الغش ، وقيل الحسد ، وقيل الحقد . قال الجوهري : الضغن والضغينة الحقد ، وقال قطرب : هو فى الآية العداوة ، وأن هى المحققة من الثقلة واسمها ضمير شأن مقدّر (ولو نشاء لأريناكمهم) أى لأعلمناكمهم وعرفناكمهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية ، تقول العرب : سأريك ما أصنع : أى سأعلمك

(فلعرفهم بسيماهم) أى بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها . قال الزجاج : المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة ، وهى السيماء فلعرفهم بتلك العلامة ، والقاء لترتيب المعرفة على الإراءة ، وما بعدها معطوف على جواب لو وكررت فى المعطوف للتأكيد ، وأما اللام فى قوله (ولتعرفهم فى لحن القول) فهى جواب قسم مخوف . قال المنسرون : لحن القول فحواه . ومقصده ومغزاه وما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لايتكلم منافق عنده إلا عرفه . قال أبو زيد : لحن له اللحن : إذا قلت له قولاً يفقهه عنك ويخفى على غيره ، ومنه قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الكلام ما كان لحناً

أى أحسنه ما كان تعريضاً يفهمه المخاطب ولا يفهمه غيره لفطنته وذكائه ، وأصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض (والله يعلم أعمالكم) لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيد شديد (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) أى لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاق ما كلف به . قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالتحية فيها كلها ، ومعنى (ونبلو أخباركم) نظهرها ونكشفها امتحاناً لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به ، ومن عصى ، ومن لم يمتثل . وقرأ الجمهور « ونبلو » بنصب الواو عطفاً على قوله « حتى نعلم » وروى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عما قبله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم بحق الرحمن ، فقال له ، قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أترضى أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى . قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اقرعوا إن شئتم (فهل عسيتم) الآية إلى قوله (أم على قلوب أقفالها) » والأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جداً . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) قال : هم أهل النفاق . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى قوله (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) قال : أعمالهم خبثهم والحسد الذى فى قلوبهم ، ثم دل الله تعالى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدرى فى قوله (ولتعرفهم فى لحن القول) قال : يبغضهم على بن أبى طالب .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٢٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٢٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَهْمَلَكُمْ (٢٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا

يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٢٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَصْغَانَكُمْ (٢٧) هَآنَتْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٢٨).

قوله (إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله) المراد بهؤلاء هم المنافقون ، وقيل أهل الكتاب ، وقيل هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، ومعنى صدّهم عن سبيل الله : منعهم للناس عن الإسلام واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (و) معنى (شاقو الرسول) عادوه وخالفوه (من بعد ما تبين لهم الهدى) أى علموا أنه صلى الله عليه وآله وسلم نبي من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة والحجج القاطعة (لن يضرّوا الله شيئا) تركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر وما ضرّوا إلا أنفسهم (وسيجبط أعمالهم) أى يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير وإن كانت باطلة من الأصل لأن الكفر مانع ، وقيل المراد بالأعمال المكائد التى نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التى كانوا ييغونها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله فقال (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب الله وسنة رسوله ، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر فقال (ولا تبطلوا أعمالكم) قال الحسن : أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى . وقال الزهرى : بالكبائر . وقال الكلبي وابن جريج : بالرياء والسمعة . وقال مقاتل : بالمن . والظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال كائنا ما كان من غير تخصيص بنوع معين . ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال (إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) فقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا ، وظاهر الآية العموم وإن كان السبب خاصا . ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف فقال (فلا تنهوا) أى تضعفوا عن القتال ، والوهن الضعف (وتدعوا إلى السلم) أى ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم ، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف . قال الزجاج : منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي «وتدعوا» بتشديد الدال من ادعى القوم وتداعوا . قال قتادة : معنى الآية : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبها .

واختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ؟ فقيل إنها محكمة ، وإنها ناسخة لقوله - وإن جنحوا للسلم فاجنح لها - وقيل منسوخة بهذه الآية . ولا يخفّاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص ، وجملة (وأنتم الأعلون) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهى : أى وأنتم الغالبون بالسيف والحجة . قال الكلبي : أى آخر الأمر لكم وإن غلبوكم فى بعض الأوقات ، وكذا جملة قوله (والله معكم) فى محل نصب على الحال : أى معكم بالنصر

والمعونة عليهم (ولن يترككم أعمالكم) أى لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم ، يقال وتره يتره وترا : إذا نقصه حقه وأصله من وترت الرجل : إذا قتلت له قريبا أو نهبت له مالا ، ويقال فلان مأثور : إذا قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه . قال الجوهري : أى لن ينقصكم فى أعمالكم كما تقول دخلت البيت وأنت تريد فى البيت . قال الفقهاء : هو مشتق من الوتر وهو الدخول ، وقيل مشتق من الوتر وهو الفرد ، فكأن المعنى : ولن يفردكم بغير ثواب (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) أى باطل وغرور لأصل لشيء منها ولا ثبات له ولا اعتداد به (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) أى إن تؤمنوا بالله وتتقوا الكفر والمعاصي يؤتكم جزاء ذلك فى الآخرة ، والأجر الثواب على الطاعة (ولا يسألكم أموالكم) أى لا يأمركم بإخراجها جميعها فى الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها وهو الزكاة . وقيل المعنى : لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها . وقيل لا يسألكم أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة كما فى قوله - ما أسألكم عليه من أجر - والأول أولى (إن يسألكموها) أى أموالكم كلها (فيحفظكم) قال المفسرون : يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها ، يقال أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى واحد ، وألحف المستقصى فى السؤال ، والإحفاء الاستقصاء فى الكلام ، ومنه إحفاء الشارب : أى استئصاله ، وجواب الشرط قوله (تبخلوا) أى إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها وتمتنعوا من الامتثال (ويخرج أضغانكم) معطوف على جواب الشرط ، ولهذا قرأ الجمهور «يخرج» بالخزم ، وروى عن أبى عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف ، وروى عنه أنه قرأ بفتح الياء وضم الراء ورفع أضغانكم ، وروى عن يعقوب الحضرمي أنه قرأ بالنون ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحيد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء . وعلى قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا . والأضغان : الأحقاد ، والمعنى : أنها تظهر عند ذلك . قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد وفى طريق الخير (فمنكم من يبخل) بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق فى سبيل الله ، وإذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال . ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه) أى بمنعها الأجر والثواب ببخله ، وبخل يتعدى بعل تارة وبعن أخرى . وقيل إن أصله أن يتعدى بعل ولا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك (والله الغنى) المطلق المنزه عن الحاجة إلى أموالكم (وأنتم الفقراء) إلى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة ، وجملة (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) معطوفة على الشرطية المتقدمة وهى وإن تؤمنوا ، والمعنى : وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى التولى عن الإيمان والتقوى . قال عكرمة : هم فارس والروم . وقال الحسن : هم العجم . وقال شريح ابن عبيد : هم أهل اليمن ، وقيل الأنصار ، وقيل الملائكة ، وقيل التابعون . وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس . قال ابن جرير : والمعنى (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله .

وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ولفظ عبد بن حميد : فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى

صلى الله عليه وآله وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا قد هلك ، حتى نزلت هذه الآية - إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - فلما نزلت كففتنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئا رجونا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (يترككم) قال : يظلمكم . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه قال : لما نزلت (وإن تتوالوا يستبدل قوما غيركم) قالوا من هؤلاء وسلمان إلى جانب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : هم الفرس هذا وقومه . وفى إسناده مسلم بن خالد الزنجى وقد تفرد به ، وفيه مقال معروف . وأخرجه عنه عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (وإن تتوالوا يستبدل قوما غيركم) فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس » وفى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه .

تفسير سورة الفتح

هى تسع وعشرون آية ، وهى مدنية

قال القرطبي : بالإجماع . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الفتح بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالوا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديدية من أولها إلى آخرها وهذا لا ينافى الإجماع على كونها مدنية ، لأن المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها . وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب : هاكت أم عمر نزلت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك ، فقال عمر : فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فانشبت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت على سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) » وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) الآية إلى قوله (فوزا عظيما) مرجعه من الحديدية وهم مخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحروا الهدى بالحديدية فقال « لقد أنزلت على آية هى أحب إلى من الدنيا جميعها »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)
وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ
دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ
جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) يختلف في تعيين هذا الفتح ، فقال الأكثر : هو صلح الحديبية ، والصلح
قد يسمى فتحا . قال القراء : والفتح قد يكون صلحا ، ومعنى الفتح في اللغة : فتح المنغلق ، والصلح الذي كان مع
المشركين بالحديبية كان مسلوذا متعذرا حتى فتحه الله . قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن
المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، فتمكن الإسلام في قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير
وكثر بهم سواد الإسلام . قال الشعبي : لقد أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديبية مالم يصب
في غزوة ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى
محله ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال قوم : إنه فتح مكة .
وقال آخرون : إنه فتح خيبر . والأول أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت في شأن
الحديبية . وقيل هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح ، وقيل هو ما فتح له من النبوة والدعوة إلى الإسلام ، وقيل
فتح الروم ، وقيل المراد بالفتح في هذه الآية الحكم والقضاء ، كما في قوله - افتح بيننا وبين قومنا بالحق - فكأنه
قال : إنا قضينا لك قضاء مبينا : أى ظاهرا واضحا مكشوفاً (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) اللام
متعلقة بفتحنا ، وهى لام العلة . قال ابن الأنبارى : سألت أبا العباس : يعنى المبرد عن اللام في قوله (ليغفر لك
الله) فقال : هى لام كى معناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح ، فلما
انضم إلى المغفرة شئء حادث واقع حسن معنى كى ، وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة . وقال صاحب
الكشاف : إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة
وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين
عز الدارين ، وأعراض العاجل والآجل . وهذا كلام غير جيد ، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح ،
فكيف يصح أن تكون معللة . وقال الرازى في توجيه التعليل : إن المراد بقوله (ليغفر لك الله) التعريف بالمغفرة

تقديره : إنا فتحنا لك لعرف أنك مغفور لك معصوم . وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة . وقال أبو حاتم : هي لام القسم وهو خطأ ، فإن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها .

واختلف في معنى قوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ف قيل ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة ، وما تأخر بعدها قاله مجاهد وسفيان الثوري وابن جرير والواحدى وغيرهم . وقال عطاء : ما تقدم من ذنبك : يعنى ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر من ذنوب أمتك . وما أبعد هذا عن معنى القرآن . وقيل ما تقدم من ذنب أبويك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده ، وهذا كالذى قبله . وقيل ما تقدم من ذنب يوم بدر ، ما تأخر من ذنب يوم حنين ، وهذا كالقولين الأولين في البعد . وقيل لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرنا ، لك ، وقيل غير ذلك مما لا وجه له ، والأول أولى . ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى ، وسمى ذنبا في حقه لجلالة قدره وإن لم يكن ذنبا في حق غيره (ويتم نعمته عليك) باظهار دينك على الدين كله ، وقيل بالجنة ، وقيل بالنبوة والحكمة ، وقيل بفتح مكة والطائف وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى : ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الإسلام ، ومعنى يهديك يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه (وينصرك الله نصرا عزيزا) أى غالبا منيعا لا يتبعه ذل (هو الذى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) أى السكون والطمأنينة بما يسره لهم من الفتح لثلاث تزعج نفوسهم لما يرد عليهم (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضما إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل . قال الكلبي : كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم (والله جنود السموات والأرض) يعنى الملائكة والإنس والجن والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ويحوط بعضهم ببعض (وكان الله عليا) كثير العلم بليغ (حكما) فى أفعاله وأقواله (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار) هذه اللام متعاقبة بمحذوف يدل عليه ما قبله تقديره يتلى بتلك الجنود من يشاء ، فيقبل الخير من أهله والشر ممن قضى له به ليدخل ويعذب ، وقيل متعلقة بقوله (إنا فتحنا) كأنه قال : إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل ويعذب ، وقيل متعاقبة بينصرك : أى نصرك الله بالمؤمنين ليدخل ويعذب ، وقيل متعلقة بيزدادوا : أى يزدادوا ليدخل ويعذب ، والأول أولى (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى يسترها ولا يظهرها ولا يعذبهم بها ، وقد تم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى (وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله وفى حكمه فوزا عظيما : أى ظفرا بكل مطلوب ونجاة من كل غم وجلبا لكل نفع ودفع لكل ضرر ، وقوله (عند الله) متعلق بمحذوف على أنه حال من فوزا ، لأنه صفة فى الأصل ، فلما قدم صار حالا : أى كائنا عند الله ، والجملة معترضة بين جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين والمشركين . ثم لما فرغ مما وعد به صالحى عباده ذكر ما يستحقه غيرهم فقال (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين) وهو معطوف على يدخل : أى يعذبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام وقهر المخالفين له وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر ، وفى الآخرة بعذاب جهنم . وفى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشد منهم عذابا وأحق منهم بما وعدهم الله به . ثم وصف الفريقين ، فقال (الظانين بالله ظن السوء) وهو ظنهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يغلب وأن كلمة الكفر تلو كلمة الإسلام

ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله - بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا - (عليهم دائرة السوء) أى ما يظنونه ويربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم ، والمعنى : أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم . قال الخليل وسيبويه : السوء هنا الفساد . قرأ الجمهور « السوء » بفتح السين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمها (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم (والله جنود السموات والأرض) من الملائكة والانس والجن والشياطين (وكان الله علما حكما) كرر هذه الآية لقصد التأكيد ، وقيل المراد بالجنود هنا جنود العذاب كما يفيد التعبير بالعزة هنا مكان العلم هنالك .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصارى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم ، إذ الناس يوجفون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ، فقال رجل : إى رسول الله أو فتح هو ؟ قال : إى الذى نفس محمد بيده إنه لفتح ، فقسمت خبير على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية عشر سهما وكان الجيش ألفا وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد والبخارى فى تاريخه وأبو داود والنسائى وابن جرير والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) وأخرج البخارى وغيره عن أنس فى قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) قال : الحديبية . وأخرج البخارى وغيره عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) قال : فتح مكة » وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبه قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : أفلا أكون عبدا شكورا » وفى الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله « (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) قال : السكينة هى الرحمة وفى قوله (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) قال : إن الله بعث نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة ، فلما صدقوا بها زادهم الصيام ، فلما صدقوا به زادهم الزكاة ، فلما صدقوا بها زادهم الحج ، فلما صدقوا به زادهم الجهاد . ثم أكمل لهم دينهم فقال - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً - . قال ابن عباس : فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقته وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) قال : تصديقا مع تصديقهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : لما أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال : « لقد أنزلت على آية هى أحب إلى مما على الأرض ثم قرأها عليهم . فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه (ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) حتى بلغ (فوزا عظيما) »

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَنُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

قوله (إنا أرسلناك شاهداً) أى على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم (ومبشراً) بالجنة للمطيعين (ونذيراً) لأهل المعصية (لتؤمنوا بالله ورسوله) قرأ الجمهور «لتؤمنوا» بالفوقية . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتيّة ، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته ، وعلى القراءة الثانية المراد المبشرين والمنذرين ، وانتصاب شاهداً ومبشراً ونذيراً على الحال المقدرة (وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) الخلاف بين القراء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى «لتؤمنوا» كما سلف ، ومعنى تعزروه : تعظموه وتفخموه ؛ قاله الحسن والكلبي ، والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . وقال عكرمة : تقاتلون معه بالسيف ، ومعنى توقروه : تعظموه . وقال السدي : تسودوه ، قيل والضميران فى الفعلين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهنا وقف تام ، ثم ابتدئ وتسبحوه : أى تسبحوا الله عز وجل (بكراً وأصيلاً) أى غدوة وعشية ، وقيل الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة لله عز وجل ، فيكون معنى تعزروه وتوقروه : تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء ، وقيل تنصروا دينه وتجاهدوا مع رسوله . وفى التسييح وجهان ، أحدهما التنزيه له سبحانه من كل قبيح ، والثانى الصلاة (إن الذين يبايعونك) يعنى بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش (إنما يبايعون الله) أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم هى بيعة له كما قال - ومن يطع الرسول فقد أطاع الله - وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، وجملة (يد الله فوق أيديهم) مستألفة لتقرير ما قبلها على طريق العجيب ،

في محل نصب على الحال ، والمعنى : أن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت . وقال الكلابي : المعنى إن نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة . وقيل يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء . وقال ابن كيسان : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أي فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه ، لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أي ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه في البيعة لرسوله . قرأ الجمهور « عليه » بكسر الهمزة وقرأ حفص والزهرى بضمها (فسيؤتيه أجرا عظيما) وهو الجنة . قرأ الجمهور « فسيؤتيه » بالتحية وقرأ نافع وقرأ كثير وابن عامر بالنون ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم واختار القراءة الثانية الفراء (سيقول لك المخلفون من الأعراب) هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية . قال مجاهد وغيره : يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقيل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه ، والمخلف المتروك (شغلنا أموالنا وأهلونا) أي منعنا عن الخروج معك مالنا من الأموال والنساء والذراري وليس لنا من يقوم بهم ويحلفنا عليهم (فاستغفر لنا) ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب ، ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء ، وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله سبحانه بقوله (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) وهذا هو صنيع المنافقين والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم ويجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عنهم فقال (قل فمن يملك لكم من الله شيئا) أي فمن يمنعكم مما أراد الله بكم من خير وشر ، ثم بين ذلك فقال (إن أراد بكم ضرا) أي إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل . قرأ الجمهور « ضرا » بفتح الضاد وهو مصدر ضرته ضرا . وقرأ حمزة والكسائي بضمها وهو اسم ما يضر ، وقيل هما لغتان (أو أراد بكم نفعا) أي نصرا وغنيمة ، وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدفع عنه الضر وي جلب لهم النفع ، ثم أضرب سبحانه عن ذلك وقال (بل كان الله بما تعملون خبيرا) أي إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كلن الله خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا) وهذه الجملة مفسرة لقوله (بل كان الله بما تعملون خبيرا) لما فيها من الإبهام : أي بل ظننتم أن العدو يستأصل المؤمنين بالمرء فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ، فلأجل ذلك تخلفتم لما ذكرتم من المعاذير الباطلة (وزين ذلك في قلوبكم) أي وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فقبلتموه . قرأ الجمهور « وزين » مبني للمفعول ، وفري مبني للفاعل (وظننتم ظن سوء) أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظن الأول ، والتكرير للتأكيد والتوبيخ ، والمراد به ما هو أعم من الأول ، فيدخل الظن الأول تحته دخولا أوليا (وكنتم قوما بورا) أي هلكن قال الزجاج : هالكين عند الله ، وكذا قال مجاهد : قال الجوهري : البور الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه . قال أبو عبيد (قوما بورا) هلكن ، وهو جمع بائر ، مثل حائل وحول ، وقد بار فلان : أي هلك ، وأبأه الله أهلكه (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيرا) هذا الكلام مستأنف من جهة الله سبحانه غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله : أي ومن لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون ، فجزاؤهم ما أعدّه الله لهم من عذاب السعير (والله ملك السموات والأرض) يتصرف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، وإنما

تعبدكم بما تعبدكم ليشب من أحسن ويعاقب من أساء ، ولهذا قال (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (ويعذب من يشاء) أن يعذبه - لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - (وكان الله غفورا رحيما) أى كثير المغفرة والرحمة بليغها يخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغامر لتأخذوها) المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا ، والظرف متعلق بقوله « سيقول » والمعنى : سيقولون عند انطلاقتكم أيها المسلمون (إلى مغامر) يعنى مغامر خير (لتأخذوها) لتحوزوها (ذرونا نتبعكم) أى اتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر . وأصل القصة أنه لما انصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المسلمين من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر ، وخص بغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال الله سبحانه (يريدون أن يبدلوا كلام الله) أى يغيروا كلام الله ، والمراد بهذا الكلام الذى أرادوا أن يبدلوه هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر . وقال مقاتل : يعنى أمر الله لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم . وقال ابن زيد : هو قوله تعالى - فإذا استأذنتك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا - واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة ، ورجحه ابن جرير وغيره . قرأ الجمهور « كلام الله » وقرأ حمزة والكسائي « كلم الله » قال الجوهري : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة مثل نبقة ونبق . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يمنعهم من الخروج معه فقال (قل لن تتبعونا) هذا النفي هو فى معنى النهى ، والمعنى : لا تتبعونا (كذلك قال الله من قبل) أى من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب (فسيقولون) يعنى المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله « لن تتبعونا » (بل تحسدونا) أى بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لثلاث نشارككم فى الغنيمة ، وليس ذلك بقول الله كما تزعمون . ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) أى لا يعلمون إلا علما قليلا ، وهو علمهم بأمر الدنيا ، وقيل لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا ، وهو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وتعزروه) يعنى الإجلال (وتوقروه) يعنى التعظيم ، يعنى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والضياء فى المختارة عنه فى قوله (وتعزروه) قال : تضربوا بين يديه بالسيف . وأخرج ابن عدى وابن مردويه والخطيب وابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله قال « لما أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (وتعزروه) قال لأصحابه : ماذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : لتعزروه » . وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فتمنع مما تمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا ولنا الجنة ، فمن وفى وفى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . وفى الصحيحين من حديث جابر « أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة » وفيهما عنه أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، وفى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، فقال له : إن جابرا قال كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله : وهم هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُوَفِّكُمُ اللَّهُ أَخْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبُرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤).

قوله (قل للمخلفين من الأعراب) هم المذكورون سابقا (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) قال عطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي ليلى وعطاء الخراساني : هم فارس . وقال كعب والحسن : هم الروم . وروى عن الحسن أيضا أنه قال : هم فارس والروم . وقال سعيد بن جبير : هم هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين . وقال الزهري ومقاتل : هم بنو حنيفة أهل البصرة أصحاب مسيامة . وحكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين (تقاتلونهم أو يسلمون) أى يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام لثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية . قال الزجاج : التقدير أو هم يسلمون ، وفي قراءة أنى «أويس لموا» أى حتى يسلموا (فإن تطيعوا يوئىكم الله أجرا حسنا) وهو الغنمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (وإن تتولوا) أى تعرضوا (كما توليت من قبل) وذلك عام الحديبية (يعذبكم عذابا أليما) بالقتل والأسر والقهر فى الدنيا وبالعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم (ليس على الأعشى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم . قال مقاتل : عذر الله أهل الزمالة الذين تحلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية ، والحرج : الإثم (ومن يطع الله ورسوله) فيما أمراه به ونهياه عنه (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار) قرأ الجمهور «يدخله» بالتحية ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون (ومن يتول يعذبه عذابا أليما) أى ومن يعرض عن الطاعة يعذبه الله

عذابا شديداً الألم . ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم وشهدوا ببيعة الرضوان ، فقال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أى رضى الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهى بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية ، والعامل فى - تحت - إما يبايعونك ، أو محذوف على أنه حال من المفعول ، وهذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت بالحديبية وقيل سدره ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفرّوا . وروى أنه بايعهم على الموت ، وقد تقدّم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا ، والقصة مبسطة فى كتب الحديث والسير (فعلم ما فى قلوبهم) معطوف على يبايعونك . قال الفراء : أى علم ما فى قلوبهم من الصدق والوفاء . وقال قتادة وابن جريج : من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على الموت (فأنزل السكينة عليهم) معطوف على رضى ، والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس كما تقدّم ، وقيل الصبر (وأثابهم فتحا قريبا) هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية . قاله قتادة وابن أبى ليلى وغيرهما ، وقيل فتح مكة ، والأول أولى (ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وأثابكم مغانم كثيرة ، أو وآثاكم ، وهى غنائم خيبر ، والالتفات لتشريفهم بالخطاب (وكان الله عزيزا حكيما) أى غالبا مصدرا أفعاله وأقواله على أسلوب الحكمة (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدر وقوعها فيها (فعجل لكم هذه) أى غنائم خيبر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل صلح الحديبية (وكفّ أيدي الناس عنكم) أى وكفّ أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح ، وقيل كفّ أيدي أهل خيبر وأنصارهم عن قتالكم وقذف فى قلوبهم الرعب . وقال قتادة : كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحديبية وخيبر ، ورجح هذا ابن جرير ، قال : لأن كفّ أيدي الناس بالحديبية مذكور فى قوله - وهو الذى كفّ أيديهم عنكم - وقيل كفّ أيدي الناس عنكم : يعنى عينة بن حصن الفزارى ، وعوف بن مالك النضرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم (ولتكون آية للمؤمنين) اللام يجوز أن تتعلق بفعل محذوف يقدر بعده : أى فعل ما فعل من التعجيل والكفّ لتكون آية ، أو على علة محذوفة تقديرها وعد فعجل وكفّ لتتفعلا بذلك ولتكون آية . وقيل إن الواو مزيدة واللام لتعليل ما قبله : أى وكفّ لتكون ، والمعنى : ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جميع ما يعدكم به (ويهديكم صراطا مستقيما) أى يزيدكم بتلك الآية هدى ، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحق (وأخرى لم تقدروا عليها) معطوف على هذه : أى فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى لم تقدروا عليها ، وهى الفتوح التى فتحها الله على المسلمين من بعد كفارس والروم ونحوها ، كذا قال الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى . وقال الضحاك وابن زيد وابن أبى إسحاق : هى خيبر وعدّها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها . وقال قتادة : فتح مكة . وقال عكرمة : حنين ، والأول أولى (قد أحاط الله بها) صفة ثانية لأخرى . قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى ، أنه أعدّها لهم وجعلها كالشئ الذى قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت منه شئ ، فهم وإن لم يقدرُوا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم ، وقيل معنى أحاط : علم أنها ستكون لهم (وكان الله على كل شئ قديرا) لا يعجزه شئ ، ولا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) قال قتادة يعنى كفار قريش بالحديبية ، وقيل أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ، والأول أولى (ثم لا يجدون وليا) يوالىهم على قتالكم (ولا نصيرا) ينصرهم عليكم (سنة الله التى قد خلت من قبل) أى طريقته وعادته التى قد مضت فى الأمم من نصر أوليائه على أعدائه ، وانتصاب سنة على المصدرية بفعل محذوف : أى بين الله سنة الله ،

أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى لن تجد لها تغييرا ، بل هى مستمرة ثابتة (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) أى كف أيدي المشركين عن المسلمين وأيدي المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصدّون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهى المراد ببطن مكة . وقيل إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخذهم المسلمون ثم تركوهم . وفى رواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء الله (وكان الله بما تعملون بصيرا) لا يخفى عليه من ذلك شيء .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (أولى بأس شديد) يقول : فارس . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنهم الأكراد . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : فارس والروم . وأخرج الفريابي وابن مردويه عنه قال : هوازن وبني حنيفة . وأخرج الطبرانى . قال السيوطى بسند حسن عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنى لواضع القلم على أذنى إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : « كيف لى وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج) الآية » . قال هذا فى الجهاد ، وليس عليهم من جهاد إذا لم يطبقوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : « بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس هنيئا لابن عفان يطوف بالبيت ونحن هاهنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لومكت كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » . وأخرج ابن أبى شيبه فى المصنف عن نافع قال : بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التى ببيع تحتها فأمر بها فقطعت . وأخرج البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة ، قيل على أى شيء كنتم تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . وأخرج مسلم من حديثه مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (فأنزل السكينة عليهم) قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه (فعجل لكم هذه) يعنى الفتح . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (فعجل لكم هذه) يعنى خير (وكف أيدي الناس عنكم) يعنى أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ويستحل بكم وأنتم حرم (ولتكون آية للمؤمنين) قال سنة لمن بعدكم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عنه أيضا فى قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) قال : هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم ، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا (وأخرى لم تقدروا عليها) قال : هى خير . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرة رسول الله ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وفى صحيح مسلم وغيره : أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة ابن الأكوع يوم الحديبية . وأخرج أحمد والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل فى سبب نزول الآية

« أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح فثاروا في وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ الله بأسماعهم . ولفظ الحاكم بأبصارهم ، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل جنتم في عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أماناً ؟ فقالوا لا ، فخلى سبيلهم فنزلت هذه الآية . »

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) .

قواه (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام) يعنى كفار مكة ، ومعنى صدّهم عن المسجد الحرام أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم (والهدى معكوفاً) قرأ الجمهور بنصب « الهدى » عطفاً على الضمير المنصوب في صدّوكم ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على المسجد ، ولا بدّ من تقدير مضاف : أى عن نحر الهدى ، وقرئ بالرفع على تقدير وصدّ الهدى . وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى وسكون الدال ، وروى عن أبي عمرو وعاصم بكسر الدال وتشديد الياء : وانتصاب معكوفاً على الحال من الهدى : أى محبوساً . قال الجوهري عكفه : أى حبسه ووقفه ، ومنه (والهدى معكوفاً) ومنه الاعتكاف في المسجد وهو الاحتباس . وقال أبو عمرو بن العلاء : معكوفاً مجموعاً ، وقوله (أن يبلغ محله) أى عن أن يبلغ محله ، أو هو مفعول لأجله ،

والمعنى : صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله ، أو هو بدل من الهدى بدل اشتغال ، ومحله منحره ، وهو حيث يحل
 نحره من الحرم ، وكان الهدى سبعين بدنة ، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذى وصلوا إليه وهو
 الحديبية محلا للنحر . وللعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم
 تعلموهم) يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ومعنى : لم تعلموهم لم تعرفوهم ، وقيل لم تعلموا أنهم مؤمنون (أن
 تطئوهم) يجوز أن يكون بدلا من رجال ونساء ، ولكنه غلب الذكور ، وأن يكون بدلا من مفعول تعلموهم ،
 والمعنى أن تطئوهم بالقتل والإيقاع بهم ، يقال وطئت القوم : أى أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كسبوا مكة وأخذوها
 عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار ، وعند ذلك لا يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة
 وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله (فتصيبكم منهم) أى من جهتهم (معرة) أى مشقة بما يلزمهم فى قتلهم من كفارة
 وعيب ، وأصل المعرة : العيب مأخوذة من العرّ ، وهو الحرب ، وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين
 قد قتلوا أهل دينهم . قال الزجاج : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرة : أى إثم ،
 وكذا قال الجوهري ربه قال ابن زيد . وقال الكلبي ومقاتل وغيرهما : المعرة كفارة قتل الخطأ كما فى قوله - فإن
 كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة - وقال ابن إسحاق : المعرة غرم الدية . وقال قطرب : المعرة
 الشدة ، وقيل الغم ، و (بغير علم) متعلق بأن تطئوهم : أى غير عالين ، وجواب لولا محذوف والتقدير :
 لأذن الله لكم أو لما كف أيديكم عنهم ، واللام فى (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) متعلقة بما يدل عليه الجواب المقدر
 أى ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشاء من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات
 الذين كانوا فى مكة ، فيتم لهم أجورهم باخراجهم من بين ظهرائى الكفار ويفك أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم
 من العذاب . وقيل اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر ، وتقديره : أو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ، والأول
 أولى . وقيل إن من يشاء عباده ممن رغب فى الإسلام من المشركين (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما)
 التزيل : التميز : أى لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا ، وقيل التزيل : التفرق : أى
 لو تفرق هؤلاء من هؤلاء ، وقيل لو زال المؤمنون من بين أظهرهم ، والمعانى متقاربة ، والعذاب الأليم هو القتل
 والأسر والقهر ، والظرف فى قوله (إذ جعل الذين كفروا) منصوب بفعل مقدر : أى اذكر وقت جعل الذين
 كفروا (فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) وقيل متعلق بعذبنا ، والحمية : الأنفة ، يقال فلان ذو حمية : أى ذو أنفة
 وغضب : أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ، وحمية الجاهلية بدل من الحمية . قال مقاتل
 ابن سليمان ومقاتل بن حيان ، قال أهل مكة : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا فى منازلنا ، فتحدث العرب
 أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفسنا ، واللوات والعزى لا يدخلونها علينا ، فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت
 قلوبهم . وقال الزهرى . حميتهم أنفسهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة . قرأ الجمهور « لو تزيلوا »
 وقرأ ابن أبى عتبة وأبو حيوه وابن عون « لو تزيلوا » والتزاييل التباين (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين)
 أى أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية ، وقيل ثبتهم
 على الرضى والتسليم (وألزمهم كلمة التقوى) وهى « لا إله إلا الله » كذا قال الجمهور ، وزاد بعضهم « محمد
 رسول الله » وزاد بعضهم « وحده لا شريك له » . وقال الزهرى هى « بسم الله الرحمن الرحيم » وذلك أن الكفار لم
 يقرؤا بها ، وامتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت
 ذلك فى كتب الحديث والسير ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها ، والأول أولى ، لأن كلمة التوحيد

هي التي يتقرب بها الشريك بالله ، وقيل كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد والثبات عليه (وكانوا أحق بها وأهلها) أي وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار والمستأهلين لها دونهم ، لأن الله سبحانه أهلهم لدينه وصحبه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه الآية ، وقيل إن الرؤيا كانت بالحديبية . وقوله بالحق صفة لمصدر محذوف : أي صدقا ملتبسا بالحق ، وجواب القسم المحذوف المداول عليه باللام الموطئة هو قوله (لتدخلن المسجد الحرام) أي في العام القابل ، وقوله (إن شاء الله) تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما في قوله - ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله - قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون . وقيل كان الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحديبية ، فوقع الاستثناء لهذا المعنى قاله الحسن بن الفضل . وقيل معنى إن شاء الله : كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ : يعنى إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك ، وانتصاب (آمنين) على الحال من فاعل لتدخلن ، وكذا (محلقين رءوسكم ومقصرين) أي آمنين من العدو ، ومحلقا بعضكم ومقصرنا بعضكم ، والحلق والتقصر خاص بالرجال ، والحلق أفضل من التقصر كما يدل على ذلك الحديث الصحيح في استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم للمحلقين في المرة الأولى والثانية ، والقائل يقول له وللمقصرين ، فقال في الثالثة وللمقصرين ، وقوله (لاتخافون) في محل نصب على الحال أو مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله « آمنين » (فعلم ما لم تعلموا) أي ما لم تعلموا من المصلحة في الصلح لما في دخولكم في عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين ، وهو معطوف على صدق : أي صدق رسوله الرؤيا ، فعلم ما لم تعلموا به (فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) أي فجعل من دون دخولكم مكة كما أرى رسوله فتحا قريبا . قال أكثر المفسرين : هو صلح الحديبية . وقال ابن زيد والضحاك : فتح خيبر . وقال الزهري : لافتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل في تلك السنتين في الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر ، فإن المسلمين كانوا في سنة ست ، وهي سنة الحديبية ألفا وأربعمائة وكانوا في سنة ثمان عشرة آلاف (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي إرسالا ملتبسا بالهدى (ودين الحق) وهو الإسلام (ليظهره على الدين كله) أي يعليه على كل الأديان كما يفيد تأكيد الجنس ، وقيل ليظهر رسوله ، والأول أولى . وقد كان ذلك بحمد الله ، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان وانقهر له كل أهل الملل (وكفى بالله شهيدا) الباء زائدة كما تقدم في غير موضع : أي كفى الله شهيدا على هذا الإظهار الذي وعد المسلمين به وعلى صحة نبوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم (محمد رسول الله) محمد مبتدأ ورسول الله خبره ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ورسول الله بدل منه ، وقيل محمد مبتدأ ورسول الله نعت له (والذين معه) معطوف على المبتدأ وما بعده الخبر ، والأول أولى ، والجملة مبنية لما هو من جملة المشهود به « والذين معه » قيل هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم (أشداء على الكفار) أي غلاظ عليهم كما يغلاظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد (رحماء بينهم) أي متوادون متعاطفون ، وهو جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولين واقفه الرحمة والرأفة . قرأ الجمهور برفع « أشداء » و« رحماء » على أنه خبر للموصول ، أو خبر لمحمد وما عطف عليه كما تقدم . وقرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح ، ويكون الخبر على هذه القراءة (تراهم ركعا سجدا) أي

شاهدتهم حال كونهم راكعين ساجدين وعلى قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف : أعنى قوله تراهم (ويبتغون فضلا من الله ورضوانا) أى يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم وهذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور أو فى محل نصب على الحال من ضمير تراهم ، وهكذا (سبأهم فى وجوههم من أثر السجود) السبأ العلامة ، وفيها لغتان المد والقصر : أى تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة وكثرة التعبد بالليل والنهار . وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفرا ، فجعل هذا هو السبأ . وقال الزهرى : مواضع السجود أشد وجوههم بياضا يوم القيامة . وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، وبالأول : أعنى كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود قال سعيد بن جبير ومالك . وقال ابن جرير : هو الوقار . وقال الحسن : إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل هو البهائم فى الوجه وظهور الأنوار عليه ، وبه قال سفيان الثورى : والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من هذه الصفات الجليلة ، وهو مبتدأ وخبره قوله (مثلهم فى التوراة) أى وصفهم الذى وصفوا به فى التوراة ووصفهم الذى وصفوا به (فى الإنجيل) وتكرير ذكر المثل لزيادة تقريره وللتنبية على غرابته وأنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة (كزرع أخرج شطأه) الخ كلام مستأنف : أى هم كزرع الخ ، وقيل هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهم لم يرد به ما تقدم من الأوصاف ، وقيل هو خبر لقوله (ومثلهم فى الإنجيل) أى ومثلهم فى الإنجيل كزرع قال القراء : فيه وجهان : إن شئت قلت ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل : يعنى كمثلهم فى القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ؛ وإن شئت قلت ذلك مثلهم فى التوراة ، ثم تبدئ ومثلهم فى الإنجيل كزرع . قرأ الجمهور « شطأه » بسكون الطاء ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتحها ، وقرأ أنس ونصر بن عاصم ويحيى بن وثاب شطأه كعصاه . وقرأه الجحدري وابن أبى إسحاق « شطه » بغير همزة ، وكلها لغات قال الأخفش والكسائى : شطأه : أى طرفه . قال القراء : شطأ الزرع فهو مشطى إذا خرج . قال الزجاج : (أخرج شطأه) : أى نباته . وقال قطرب : الشطأ سوى السنبل . وروى عن القراء أيضا أنه قال : هو السنبل . وقال الجوهري . شطأ الزرع والنبات والجمع أشطاء ، وقد أشطأ الزرع خرج شطؤه (فأزره) أى قواه وأعانه وشده ، قيل المعنى : إن الشطأ قوى الزرع ، وقيل إن الزرع قوى الشطأ ، ومما يدل على أن الشطأ خروج النبات . قول الشاعر :

أخرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

قرأ الجمهور « فأزره » بالمد . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحيد بن قيس بالقصر ، وعلى قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

بمحنية قد أزر الضال نبها بجر جيوش غامين ونخب

قال القراء : أزرت فلانا أزره أزا إذا قوته (فاستغلظ) أى صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا (فاستوى على سوقه) أى فاستقام على أعواده ، والسوق جمع ساق . وقرأ قبل سؤقه بالهمزة الساكنة (يعجب الزراع) أى يعجب هذا الزرع زارعه لقوته وحسن منظره ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم يكونون فى الابتداء قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزراع ، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه . قال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى الإنجيل أنه سيخرج من قوم يثبتون نبات الزرع يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر . ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وتقويته لهم فقال (ليعظ بهم الكفار) أى كثرتهم وقواهم ليكونوا غيظا للكافرين ،

واللام متعلقة بمجذوف : أى فعل ذلك ليغيبظ (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما)
أى وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التى
هى أكبر نعمة وأعظم منة .

وقد أخرج أحمد والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نحرنا يوم الحديبية سبعين بدنة ، فلما صدت عن
البيت حنت كما نحن إلى أولادها . وأخرج الحسن بن سفيان وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع
والبوردى والطبرانى وابن مردويه . قال السيوطى بسند جيد عن أبي جمعة حنيد بن سبع قال : « قابلت رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم أول النهار كافرا ، وقابلت معه آخر النهار مسلما ، وفيما نزلت (ولولا رجال مؤمنون
ونساء مؤمنات) وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتان » وفى رواية عند ابن أبي حاتم : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة .
وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) قال : حين
ردوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أن تطئوهم) بقتلكم إياهم (لو تزيلوا) يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين
لعذبهم الله عذابا أليما بقتلكم إياهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال : يوم صفين
اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية : يعنى الصلح الذى كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين
المشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ألسنا
على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلهم فى النار ؟ قال بلى . قال : فقيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع
ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولم يضيئني الله أبدا ، فرجع متغيظا ، فلم يصبر
حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال بلى ، قال : أليس قتلانا فى الجنة
وقتلهم فى النار ؟ قال بلى . قال : فقيم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولم يضيئه الله أبدا
فزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمر فأقرأه إياها ، قال : يا رسول الله أفتح
هو ؟ قال نعم . وأخرج الترمذى وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن جرير والدارقطنى فى الأفراد ، وابن
مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وألزمهم كلمة التقوى)
قال « لا إله إلا الله » وفى إسناده الحسن بن قزعة ، قال الترمذى بعد إخراجها : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه ،
وكذا قال أبو زرعة . وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفريانى
وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن علي بن
أبي طالب مثله من قوله . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه . وأخرج ابن المنذر
وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والدارقطنى
فى الأفراد عن المسور بن مخرمة ومروان نحوه وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك . وأخرج ابن مردويه عن ابن
عباس (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) قال : هو دخول محمد البيت والمؤمنين محلقين ومقصرين ،
وقد ورد فى الدعاء للمحلقين والمقصرين فى الصحيحين وغيرهما أحاديث منها ما قدما الإشارة إليه ، وهو فى
الصحيحين من حديث ابن عمر وفيهما من حديث أبي هريرة أيضا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله
(سيأمنهم فى وجوههم) قال : أما إنه ليس الذى يرونه ، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه . وأخرج محمد بن
نصر فى كتاب الصلاة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : هو

السمت الحسن . وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه . قال السيوطي بسند حسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (سيأهم في وجوههم من أثر السجود) قال : النور يوم القيامة . وأخرج البخاري في تاريخه وابن نصر عن ابن عباس في الآية قال : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس (ذلك مثلهم في التوراة) يعني نعمهم مكتوب في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس (كزرع أخرج شطأه) قال : نباته فروخه .

تفسير سورة الحجرات

هي ثمانى عشرة آية ، وهي مدنية

قال القرطبي : بالإجماع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله) قرأ الجمهور « تقدّموا » بضم المثناة الفوقية وتشديد الدال مكسورة . وفيه وجهان : أحدهما أنه متعدّ وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس

الفعل كقولهم هو يعطى ويمنع . والثاني أنه لازم نحو وجه وتوجه ، ويعضده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب « تقدموا » بفتح التاء والقاف والداال . قال الواحدى : قدم هاهنا بمعنى تقدم ، وهو لازم . قال أبو عبيدة : العرب تقول لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب : أى لا تعجل بالأمر دونه والنهي لأن المعنى : لا تقدموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدي الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدي الإنسان ، ومعنى الآية : لا تقطعوا أمرا دون الله ورسوله ولا تعجلوا به . وقيل المراد معنى بين يدي فلان بحضرته ، لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه (واتقوا الله) فى كل أموركم ، ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدي الله ورسوله دخولا أوليا . ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله (إن الله سميع) لكل مسموع (عليم) بكل معلوم (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت ، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ، لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير . ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللفظ ، والأول أولى . والمعنى لا ترفعوا أصواتكم إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوت النبى صلى الله عليه وآله وسلم . قال المفسرون : المراد من الآية تعظيم النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتوقيره وأن لا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض) أى لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضهم بعضا . قال الزجاج : أمرهم الله بتجليل نبيه وأن يغيضوا أصواتهم ويخاطبوه بالسكينة والوقار ، وقيل المراد بقوله (ولا تجهروا له بالقول) لا تقولوا يا محمد يا أحمد ، ولكن يابى الله ويا رسول الله توقيرا له ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف : أى جهرا مثل جهر بعضهم لبعض ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر فى القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فان ذلك كفر ، وإنما المراد أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع فى مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره . والحاصل أن النهى هنا وقع عن أمور : الأول عن التقدم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام . والثانى عن رفع الصوت البالغ إلى حد يكون فوق صوته سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره . والثالث ترك الجفاء فى مخاطبته ولزوم الأدب فى مجاورته ، لأن المقابلة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره . ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله (أن تحبط أعمالكم) قال الزجاج : أن تحبط أعمالكم التقدير لأن تحبط أعمالكم أى فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال ، وهذه العلة يصح أن تكون للنهى : أى نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط ، أو كراهة أن تحبط ، أو علة للنهى : أى لاتفعلوا الجهر فإنه يؤدى إلى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأول ، وجملة (وأنتم لاتشعرون) فى محل نصب على الحال ، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم . قال الزجاج : وليس المراد وأنتم لاتشعرون بوجوب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم . ثم رغب سبحانه فى امتثال ما أمر به ، فقال (إن الذين يغيضون أصواتهم عند رسول الله) أصل الغض النقص من كل شيء ، ومنه نقص الصوت (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) قال الفراء : أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده من رديئه ويسقط خبيثه . وبه قال مقاتل ومجاهد وقتادة . وقال الأخفش : اختصها للتقوى ، وقيل طهرها من كل قبيح ، وقيل وسعها وسرحها ، من محنت الأديم : إذا وسعته . وقال أبو عمرو : كل شيء جهده فقد محنته ، واللام فى التقوى متعلقة بمحذوف : أى صالحة للتقوى كقولك أنت صالح الكذا ، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب ، كقولك جئت لك لأداء الواجب : أى ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب (لهم مغفرة وأجر عظيم) أى أولئك لهم ، فهو خبر آخر لاسم الإشارة ، ويجوز أن يكون

مستأنفا لبيان ما أعد الله لهم في الآخرة (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) هم جفافة بني تميم كما سيأتي بيانه ، ووراء الحجرات خارجها وخلفها : والحجرات جمع حجرة ، كالأغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة ، وقيل الحجرات جمع حجرة ، والحجر جمع حجرة ، فهو جمع الجمع : والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة . قرأ الجمهور الحجرات بضم الحيم . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بفتحها تخفيفا ، وقرأ ابن أبي عبلة بإسكانها ، وهي لغات ، و« من » في من وراء لا ابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى (أكثرهم لا يعقلون) لغلبة الجهل عليهم وكثرة الخفاء في طباعهم (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) أي لو انتظروا خروجك ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم ، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والتجليل . وقيل إنهم جاءوا شفعاء في أسارى ، فأعتق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصفهم وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ، ذكر معناه مقاتل (والله غفور رحيم) كثير المغفرة والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) قرأ الجمهور « فتبينوا » من التبين ، وقرأ حمزة والكسائي « فتثبتوا » من التثبت ، والمراد من التبين التعرف والتفحص ، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة ، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر . قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما سيأتي بيانه إن شاء الله . وقوله (أن تصيبوا قوما بجهالة) مفعول له : أي كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ، لأنه لم يصدر عن علم ، والمعنى : ملتبسين بجهالة بحالهم (فتصبحوا على ما فعلتم) بهم من إصابتهم بالخطأ (نادمين) على ذلك مغتمين له مهتمين به . ثم وعظهم الله سبحانه فقال (واعلموا أن فيكم رسول الله) فلا تقولوا قولا باطلا ولا تتسرعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين ، وأن وما في حيزها سادة مسد مفعولي اعلموا ، وجملة (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) في محل نصب على الحال من ضمير فيكم أو مستأنفة ، والمعنى : لو يطيعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة ، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست بصواب لو قعتم في العنت ، وهو التعب والجهد . والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العدل بما يبلغه قبل النظر فيه (والكن الله حبيب إليكم الإيمان) أي جعله أحب الأشياء إليكم ، أو محبوبا لديكم فلا يقع منكم إلا ما يوافق ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع في الأخبار وعدم التثبت فيها ، قيل والمراد بهؤلاء من عدا الأولين لبيان براءتهم عن أوصاف الأولين ، والظاهر أنه تذكير لكل بما يقتضيه الإيمان وتوجهه محبته التي جعلها الله في قلوبهم (وزينه في قلوبكم) أي حسنه بتوفيقه حتى جروا على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أي جعل كل ما هو من جنس الفسوق ومن جنس العصيان مكروها عندكم . وأصل الفسق الخروج عن الطاعة ، والعصيان جنس ما يعصى الله به ، وقيل أراد بذلك الكذب خاصة ، والأول أولى (أو أئلكم هم الراشدون) أي الموصوفون بما ذكرهم الراشدون . والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب ، من الرشادة : وهي الصخرة (فضلا من الله ونعمة) أي لأجل فضله وإنعامه ، والمعنى : أنه حبيب إليكم ما بيب وكره ما كره لأجل فضله وإنعامه ، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك ، وقيل النصب بتقدير فعل : أي تبتغون فضلا ونعمة (والله عليم) بكل معلوم (حكيم) في كل ما يقضى به بين عباده ويقدره لهم .

وقد أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن الزبير قال : « قدم ركب من بني نعيم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافتك ، فماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) حتى انقضت الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه . وأخرج ابن مردويه عن عائشة في الآية قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت : كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام : يعني يوما أو يومين ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنها أيضا أن ناسا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا) الآية . وأخرج البزار وابن عدي والحاكم وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال : أنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) قلت : يا رسول الله : والله لا أكلمك إلا كأخي السرار ، وفي إسناده حصين بن عمر ، وهو ضعيف ، ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : لما نزلت (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله) قال أبو بكر : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى أتى الله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال « لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى قوله (وأنتم لا تشعرون) وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حبط عملي ، أنا من أهل النار وجلس في بيته حزينا ، ففقدته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا : فقدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه بذلك ، فقال لا ، بل هو من أهل الجنة ، فلما كان يوم القيامة قتل . وفي الباب أحاديث بمعناه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) الآية : قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة في قوله (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوي والطبراني وابن مردويه قال السيوطي : بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس « أنه أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد أخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين ، فقال ذاك الله ، فأنزل الله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال ابن منيع : لا أعلم روى الأقرع مسندا غير هذا . وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب في قوله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال : جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ذاك الله . وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي : بإسناد حسن عن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن بك نبيا فتحن أسعد الناس به ، وإن بك ملكا نعش يحنأه ، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه يا محمد يا محمد فأنزل الله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

بأذني وجعل يقول : لقد صدق الله قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك يا زيد . وفي الباب أحاديث . وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه قال السيوطي بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إلى يا رسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت ، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخط من الله ورسوله ، فدعا سراوات قومه فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان وقت لي وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخط ، فانطلقوا فنأتى رسول الله ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا هذا الحارث ؟ فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك . قال ولم ؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله ، قال : لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بته ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رأيته ، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خشيت أن تكون كانت سخط من الله ورسوله ، فنزل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) إلى قوله (حكيم) قال ابن كثير : هذا من أحسن ما روى في سبب نزول الآية . وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا

تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) .

قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) قرأ الجمهور « اقتتلوا » باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله - هذان خصمان اختصموا - والضمير في قوله « بينهما » عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ . وقرأ ابن أبي عبله « اقتتلنا » اعتبارا بلفظ طائفتان ، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير « اقتتلا » وتذكير الفعل في هذه القراءة باعتبار الفريقين أو الرهطين . والبغى : التعدى بغير حق والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والنقى : الرجوع . والمعنى : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الأخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيا وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحرروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخرى . ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتلتين فقال (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أى واعدلوا إن الله يحب العادلين ، ومحبه لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء . قال الحسن وقتادة والسدي (فأصلحوا بينهما) بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضى بما فيه لهما وعليهما (فإن بغت إحداهما) وطلبت ما ليس لها ولم ترجع إلى الصلح (فقاتلوا التي تبغى) حتى ترجع إلى طاعة الله والصلح الذي أمر الله به ، وجملة (إنما المؤمنون إخوة) مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم راجعون إلى أصل واحد وهو الإيمان . قال الزجاج : الدين يجمعهم ، فهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم فرجعوا بالاتفاق في الدين إلى أصل النسب لأنهم لآدم وحواء (فأصلحوا بين أخويكم) يعنى كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى . قرأ الجمهور « بين أخويكم » على التثنية ، وقرأ زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود والحسن وحامد بن سلمة وابن سيرين « إخوانكم » بالجمع ، وروى عن أبي عمرو ونصر بن عاصم وأبي العالية والجحدري ويعقوب أنهم قرءوا « بين إخوانكم » بالقوقية على الجمع أيضا . قال أبو علي الفارسي في توجيه قراءة الجمهور : أراد بالأخوين الطائفتين ، لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة . وقال أبو عبيدة : أى أصلحوا بين كل أخوين (واتقوا الله) في كل أموركم (لعلكم ترحمون) بسبب التقوى ، والترجى باعتبار مخاطبين : أى راجين أن ترجوا ، وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيا على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « قتال المسلم كفر » فإن المراد بهذا الحديث وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبع . قال ابن جرير : لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حق ، ولا أبطل باطل ولوجد أهل النفاق والفجور سببا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دماهم بأن يتحزبوا عليهم ، ولكف المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وآله وسلم « خذوا على أيدي سفهائكم » . قال ابن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، وعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عول

الصحابه ، وإليها لحا الأعيان من أهل الملة ، وإياها عى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « تقتل عمارا الفثه الباغية » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن الخوارج « يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) السخرية : الاستهزاء : وحكى أبو زيد : سخرت به وضحكت به وهزأت به : وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، كل ذلك يقال ، والاسم السخرية والسخرى ، وقرئ بهما في - ليتخذ بعضهم بعضا سخريا - ، ومعنى الآية : النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض ، وعلل هذا النهى بقوله (عسى أن يكونوا خيرا منهم) أى أن يكون المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم ، ولما كان لفظ قوم مختصا بالرجال ، لأنهم القوم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال (ولا نساء من نساء) أى ولا يسخر نساء من نساء (عسى أن يكن) المسخور بهن (خيرا منهن) يعنى خيرا من الساخرات منهن ، وقيل أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر (ولا تلمزوا أنفسكم) اللمز العيب ، وقد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله - ومنهم من يلمزك في الصدقات - قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان ، ومعنى (لا تلمزوا أنفسكم) لا يلمز بعضكم بعضا كما في قوله - ولا تقتلوا أنفسكم - وقوله - فسلموا على أنفسكم - قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : لا يطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضا (ولا تنابزوا بالألقاب) التنابز : التفاعل من النبز بالتسكين وهو المصدر ، والنبز بالتحريك اللقب ، والجمع أنباز ، والألقاب جمع لقب ، وهو اسم غير الذى سمي به الإنسان ، والمراد هنا لقب السوء ، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضا . قال الواحدي : قال المفسرون : هو أن يقول لأخيه المسلم يافاسق يامنافق ، أو يقول لمن أسلم يايهودى يا نصرانى ، قال عطاء : هو كل شئ أخرجت به أخاك من الإسلام ، كقولك يا كلب يا حمار يا خنزير . قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بكفره ، فيقال له يايهودى يا نصرانى فنزلت ، وبه قال قتادة وأبو العالية وعكرمة (بثس الاسم القسوق بعد الإيمان) أى بثس الاسم الذى يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان ، والاسم هنا بمعنى الذكر . قال ابن زيد : أى بثس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته . وقيل المعنى : أن من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبد فهو فاسق . قال القرطبي : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحذب ولم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوزته الأئمة واتفق على قوله أهل اللغة اه ، (ومن لم يتب) عما نهى الله عنه (فأولئك هم الظالمون) لارتكابهم ما نهى الله عنه وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) الظن هنا : هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتهم غيره بشئ من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، وأمر سبحانه باجتنباب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظن يظنه حتى يعلم وجهه ، لأن من الظن ما يجب اتباعه ، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظن ، كالقياس وخبر الواحد ودلالة العموم ، ولكن هذا الظن الذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به فارتفع عن الشك والتهمة . قال الزجاج : هو أن يظن بأهل الخير سوءا ، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظن بهم مثل الذى ظهر منهم . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : هو أن يظن بأخيه المسلم سوءا ، ولا بأس به ما لم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم . وحكى القرطبي عن أكثر العلماء : أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح ، وجملة (إن بعض الظن إثم) تعليل لما قبلها من الأمر باجتنباب كثير من الظن ، وهذا البعض هو ظن السوء بأهل

الخير ، والإثم هو ما يستحقه الظان من العقوبة . ومما يدل على تقييد هذا الظن بالمأمور باجتنابه بظن سوء قوله تعالى - وظننتم ظن سوء وكنتم قوما بورا - فلا يدخل في الظن المأمور باجتنابه شيء من الظن بالمأمور باتباعه في مسائل الدين ، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم ، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كيادا لله ين وشذوذا عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظن في كثير من الشريعة المطهرة بل في أكثرها . ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال (ولا تجسسوا) التجسس : البحث عما ينكم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس ومثالبهم . قرأ الجمهور « تجسسوا » بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا . وقرأ الحسن وأبور جاء وابن سيرين بالحاء . قال الأخفش : ليس يبعد أحدهما من الآخر ، لأن التجسس بالجيم : البحث عما ينكم عنك ، والتجسس بالحاء : طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل رجل جاسوس : إذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقيل إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره قاله ثعلب (ولا يغتب بعضكم بعضا) أى لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوءه ، والغيبة : أن تذكر الرجل بما يكرهه ، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، فقيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ فقال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » (أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه . ذكر معناه الزجاج . وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه ، وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية ، وتستكرهه الجبلية البشرية ، فضلا عن كونه محرما شرعا (فكرهتموه) قال الفراء : تقديره فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا . قال الرازى : الفاء في تقدير جواب كلام ، كأنه قال : لا يجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذن . وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره : عرض عليكم ذلك فكرهتموه (واتقوا الله) بترك ما أمركم باجتنابه (إن الله تواب رحيم) لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم « لو أتيت عبد الله ابن أبي ، فانطلق إليه وركب حمارا وانطلق المسلمون يشون وهى أرض سبخة ، فلما انطلق إليه قال : إليك عني ، فوالله لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجرید والأيدى والنعال ، فنزلت فيهم (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية . وقد روى نحو هذا من وجوه أخر . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عمر قال : ما وجدت في نفسى من شيء ما وجدت في نفسى من هذه الآية ، لاني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إن الله أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين إذا اقتتل طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم يحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يحجب فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوه حتى يفيثوا إلى أمر الله ويقرؤا بحكم الله . وأخرج ابن

جرير وابن مردويه عن ابن عباس (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية . قال : كان قتال بالنعال والعصى ، فأمرهم أن يصلحوا بينهما . وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة في هذه الآية : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة . وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (ولا تلمزوا أنفسكم) قال : لا يطعن بعضكم على بعض . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب ، وأهل السنن الأربع وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والشيрази في الألقاب ، والطبراني وابن السني في عمل يوم ليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة (ولا تنازروا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكرهه ، فنزلت (ولا تنازروا بالألقاب) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التناز بالألقاب : أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في الآية قال : إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول : يا يهودي يا نصراني يا مجوسي ، ويقول للرجل المسلم : يا فاسق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) قال : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إياكم والظن» فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (ولا تجسسوا) قال : نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمنين . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن زيد ابن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل هذا فلان تقطر لحيته خمر ، فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه . وقد وردت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عن عيوبهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (ولا يغتب بعضكم بعضا) الآية قال : حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرم الميتة . والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جدا معروفة في كتب الحديث .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ

لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)
 قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ
 هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

قوله (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) هما آدم وحواء ، والمقصود أنهم متساوون لاتصالحهم بنسب
 واحد وكونه يجمعهم أب واحد وأم واحدة ، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب ، وقيل المعنى : أن كل
 واحد منكم من أب وأم فالكل سواء (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعوب جمع شعب بفتح الشين ، وهو الحى
 العظيم : مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة ، وبنى تميم من مضر . قال الواحدى : هذا قول
 جماعة من المفسرين ، سموا شعبا لشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة ، والشعب من أسماء الأضداد : يقال
 شعبته : إذا جمعته ، وشعبته إذا فرقته ، ومنه سميت المنية شعوبا لأنها مفرقة ، فأما الشعب بالكسر فهو الطريق في
 الجبل . قال الجوهري : الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب . وقال مجاهد : الشعوب
 البعيد من النسب ، والقبائل دون ذلك . وقال قتادة : الشعوب النسب الأقرب . وقيل إن الشعوب عرب اليمن من
 قحطان ، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب . وحكى
 أبو عبيد أن الشعب أكثر من القبيلة ، ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة . ومما يؤيد ما قاله
 الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم كريم قد يعد ولا نجيب

قرأ الجمهور (لتعارفوا) بتخفيف التاء وأصله لتعارفوا فحذفت إحدى التاءين . وقرأ البرزى بتشديد ها على الإدغام .
 وقرأ الأعمش بتاءين واللام متعلقة بخلقناكم : أى خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا . وقرأ ابن عباس « لتعارفوا »
 مضارع عرف . والفائدة في التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره . والمقصود من هذا
 أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب ، وهذه
 القبيلة أكرم من هذه القبيلة ، وهذا البطن أشرف من هذا البطن . ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهى عن
 التفاخر فقال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن تلبس بها فهو المستحق
 لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل ، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب ، فإن ذلك لا يوجب
 كرمًا ولا يثبت شرفًا ولا يقتضى فضلا . قرأ الجمهور « إن أكرمكم » بكسر إن . وقرأ ابن عباس بفتحها : أى لأن
 أكرمكم (إن الله عليم) بكل معلوم ومن ذلك أعمالكم (خير) بما تسرون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك
 خافية . ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله
 العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال (قالت الأعراب آمنا) وهو بنو أسد أظهروا الإسلام
 في سنة مجدة يربلون الصدقة ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد عليهم فقال (قل لم تؤمنوا)

أى لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلص نية وطمأنينة (ولكن قولوا أسلمنا) أى استسلمنا خوف القتل والسبي أو للطمع فى الصدقة ، وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم ، ولهذا قال سبحانه (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى لم يكن ما أظهرتموه بالسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة ، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها ، أو فى محل نصب على الحال ، وفى «لما» معنى التوقع . قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبى ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن . وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى لم تصدقوا وإنما أسلمتم تعوذاً من القتل (وإن تطيعوا الله ورسوله) طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة ، وقلوب مصدقة غير منافقة (لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) يقال لا يلت من لته : إذا نقص ، ولاته يلبته ويلوته : إذا نقصه ، والمعنى : لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً . قرأ الجمهور «يلتكم» من لاته يلبته كباع يبيعه . وقرأ أبو عمرو «لا يالتكم» بالهمز من ألته يألته بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع ، واختار قراءة أبى عمرو أبو حاتم لقوله - وما ألتناهم من عملهم من شيء - وعليها قول الشاعر :

أبلغ بنى أسد غنى مغلفة جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور ، وعليها قول ربيعة بن العجاج :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتنى عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان (إن الله غفور) أى بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب (رحيم) بليغ الرحمة لهم . ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ولا دخل الإيمان فى قلوبهم بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم فقال (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) يعنى إيماناً صحيحاً خالصاً عن مواطأة القلب واللسان (ثم لم يرتابوا) أى أى لم يدخل قلوبهم شيء من الريب ولا خالطهم شك من الشكوك (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) أى فى طاعته وابتغاء مرضاته ، ويدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤديه كما أمر الله سبحانه ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الجامعين بين الأمور المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره قوله (هم الصادقون) أى الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان والدخول فى عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه ، وادعى أنه مؤمن ، ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، ولا وصل إليه معناه ، ولا عمل بأعمال أهله ، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم وسائر أهل النفاق . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما ادعوا أنهم مؤمنون فقال (قل أتعلمون الله بدينكم) التعليم هاهنا بمعنى الإعلام ، ولهذا دخلت الباء فى بدينكم : أى أنخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا (والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فكيف يخفى عليه بطلان ما تدعونه من الإيمان ، والجملة فى محل نصب على الحال من مفعول تعلمون (والله بكل شيء عليم) لا تخفى عليه من ذلك خافية ، وقد علم ما تبطنونه من الكفر وتظهرونه من الإسلام لخوف الضراء ورجاء النفع . ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المن عليه منهم بما يدعونه من الإسلام فقال (يؤمنون عليك أن أسلموا) أى يعدون إسلامهم منة عليك حيث قالوا جئناك بالأنفال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان (قل لا تمنوا على إسلامكم) أى لا تعدوه منة على ، فإن الإسلام هو المنة التى لا يطلب موليا ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ولهذا قال (بل الله يمتن عليكم أن هداكم للإيمان) أى أرشدكم إليه وأراكم طريقه

سواء وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه ، وانتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يمتنون معنى يعدّون ، أو بنزع الحافض : أى لأن أسلموا ، وهكذا قوله (أن هداكم للإيمان) فإنه يحتمل الوجهين (إن كنتم صادقين) فيما تدعونه ، والجواب محذوف يدلّ عليه ما قبله : أى إن كنتم صادقين فله المنة عليكم . قرأ الجمهور « أن هداكم » بفتح أن ، وقرأ عاصم بكسرها (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) أى ما غاب فيهما (والله بصير بما تعملون) لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . قرأ الجمهور « تعملون » على الخطاب ، وقرأ ابن كثير على الغيبة .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة . وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره ، فنزلت (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو داود في مراسيله وابن مردويه والبيهقي في سننه عن الزهري قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا : يا رسول الله ، أنزّوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) هي مكية ، وهى للعرب خاصة الموالى : أى قبيلة لهم ، وأى شعاب ، وقوله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فقال : أتقاكم للشرك . وأخرج البخارى وابن جرير عن ابن عباس قال : الشعوب القبائل العظام ، والقبائل البطون . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : الشعوب الجماع ، والقبائل الأفخاذ التى يتعارفون بها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا قال : القبائل الأفخاذ ، والشعوب الجمهور مثل مضر . وأخرج البخارى وغيره عن أبي هريرة قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أىّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا نعم ، قال : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » وقد وردت أحاديث فى الصحيح وغيره أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (قالت الأعراب آمنا) قال أعراب بنى أسد وخزيمة ، وفى قوله (ولكن قولوا أسلمنا) مخافة القتل والسبي . وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت فى بنى أسد . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى : أن ناسا من العرب قالوا : يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأنزل الله (يمتنون عليك أن أسلموا) . وأخرج النساء ، والبزار وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد .

تفسير سورة ق هي خمس وأربعون آية

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا آية ، وهي قوله (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) وهي أول المفصل على الصحيح ، وقيل من الحجرات . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة ق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد أخرج مسلم وغيره عن قطبة بن مالك قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الركعة الأولى ق والقرآن المجيد » . وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن أبي واقد الليثي قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في العيد بقاف واقتربت » وأخرج ابن أبي شيبة وأبوداود وابن ماجه والبيهقي عن أم هانئ ابنة حارثة قالت : ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا من في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس ، وهو في صحيح مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .

قوله (ق٣ والقرآن المجيد) الكلام في إعراب هذا كالللام الذي قدمنا في قوله - ص٣ والقرآن ذي الذكر - وفي قوله - حم٣ والكتاب المبين - واختلف في معنى ق٣ ، فقال الواحدى : قال المفسرون : هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد والسماء مقبية عليه ، وهو وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة . قال الفراء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في ق٣ لأنه اسم ، وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل : قلت لما قفى ، فقالت قاف ، أى أنا واقفة . وحكى الفراء والزجاج : أن قوما قالوا معنى ق٣ : قضى الأمر وقضى ما هو كائن ، كما قيل في حم٣ : حم٣ الأمر . وقيل هو اسم من أسماء الله أقسم به . وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن . وقال الشعبي : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الوراق معناه : قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما ، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه . والحق أنه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه كما حققنا ذلك في فاتحة سورة البقرة ، ومعنى المجيد : أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة . وقال الحسن : الكريم ، وقيل الرفيع القدر ، وقيل الكبير القدر ، وجواب القسم قال الكوفيون هو قوله (بل عجبوا) وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : ق٣ والقرآن المجيد لتبعثن ، يدل عليه (أئذا متنا وكنا ترابا) وقال ابن كيسان جوابه - ما يلفظ من قول - وقيل هو - قد علمنا ما تنقص الأرض منهم - بتقدير اللام : أى لقد علمنا ، وقيل هو محذوف وتقديره أنزلناه إليك لتندر ، كأنه قيل ق٣ والقرآن المجيد أنزلناه إليك لتندر به الناس . قرأ الجمهور قاف بالسكون . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم بكسر الفاء . وقرأ عيسى الثقفى بفتح القاء : وقرأ هارون ومحمد بن السميع بالضم (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال ، وأن في موضع نصب على تقدير : لأن جاءهم . والمعنى : بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يكتبوا بمجرد الشك والرد ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، وقيل هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا وقد تقدم تفسير هذا في سورة ص٣ . ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله (فقال الكافرون هذا شيء عجيب) وفيه زيادة تصريح وإيضاح . قال قتادة : عجبهم أن دعوا إلى إله واحد ، وقيل تعجبهم من البعث ، فيكون لفظ « هذا » إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله (أئذا متنا) الخ ، والأول أولى . قال الرازى : الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجئ المنذر ، ثم قالوا (أئذا متنا) وأيضا قد وجد هاهنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب ، وهو قولهم (ذلك رجع بعيد) فإنه استبعاد وهو كالتعجب ، فلو كان التعجب بقولهم (هذا شيء عجيب) عائدا إلى قولهم : أئذا لكان كال تكرار ، فإن قيل التكرار الصريح يلزم من قولك هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجئ المنذر ، فإن تعجبهم منه علم من قولهم : وعجبوا أن جاءهم ، فقوله (هذا شيء عجيب) يكون تكرارا ، فنقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير لأنه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجبا كقوله - أتعجبين من أمر الله - ويقال في العرف : لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب ، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم : لا معنى لتعجبكم ، فقالوا (هذا شيء عجيب) فكيف لا تعجب منه ، ويدل على ذلك قوله هاهنا (فقال الكافرون) بالفاء ، فإنها تدل على أنه مترتب على ما تقدم ، قرأ الجمهور « أئذا متنا » بالاستفهام . وقرأ ابن عامر في رواية عنه وأبو جعفر والأعمش والأعرج بهمزة واحدة ، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور ، وهمزة الاستفهام ممتدرة ، ويحتمل أن معناه الإخبار ، والعامل في الظرف مقدر : أى أبيضنا ، أو أنرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فجواب إذا محذوف : أى رجعنا ، وقيل ذلك رجع ، والمعنى : استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم ترابا . ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا (ذلك) أى البعث (رجع بعيد) أى بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان ،

يقال رجعته أرجعه رجعا ورجع هو يرجع رجوعا . ثم رد سبحانه ما قالوه فقال (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء من ذلك ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموقى في القبور لا يصعب عليه البعث ولا يستبعد منه ، وقال السدى : النقص هنا الموت ، يقول : قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى ، لأن من مات دفن ، فكان الأرض تنقص من الأموات ، وقيل المعنى : من يدخل في الإسلام من المشركين ، والأول أولى (وعندنا كتاب حفيظ) أى حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء ، وهو اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالكتاب هنا العلم والإحصاء ، والأول أولى . وقيل حفيظ بمعنى محفوظ : أى محفوظ من الشياطين ، أو محفوظ فيه كل شيء . ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه فقال (بل كذبوا بالحق) فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدم عنهم من الاستبعاد ، والمراد بالحق هنا القرآن . قال الماوردى في قول الجميع ، وقيل هو الإسلام ، وقيل محمد ، وقيل النبوة الثابتة بالمعجزات (لما جاءهم) أى وقت مجيئه إليهم من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ، قرأ الحمهور بفتح اللام وتشديد الميم . وقرأ الجحدري بكسر اللام وتخفيف الميم (فهم فى أمر مريع) أى مختلط مضطرب ، يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن : قاله الزجاج وغيره . وقال قتادة مختلف . وقال الحسن ملتبس ، والمعنى متقارب ، وقيل فاسد والمعانى متقاربة . ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس : أى فسدت ، ومرج الدين والأمر اختلط (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم) الاستفهام للتقريع والتوبيخ : أى كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم (كيف بنيناها) وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه (وزيناها) بما جعلنا فيها من المصايب (وما لها من فروج) أى فتوق وشقوق وصدوع ، وهو جمع فرج ، ومنه قول امرئ القيس : * يسد به فرجا من دبر * قال الكسائى ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق (والأرض مددناها) أى بسطناها (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الرعد (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى من كل صنف حسن وقد تقدم تفسير هذا في سورة الحج (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) هما علتان لما تقدم منتصبان بالفعل الأخير منها ، أو بمقدّر : أى فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير قاله الزجاج . وقال أبو حاتم : انتصبا على المصدرية أى جعلنا ذلك تبصرة وذكرى . والمنيب الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر فى بديع صنعه وعجائب مخلوقاته . وفى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة ، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه ، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه ، وهكذا قوله (ونزلنا من السماء ماء مباركا) أى نزلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم (فأنبتنا به جنات) أى أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة (وحب الحصيد) أى ما يقات ويحصد من الحبوب ، والمعنى : وحب الزرع الحصيد ، وخص الحب لأنه المقصود ، كذا قال البصريون . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه كسجد الجامع ، حكاه القراء . قال الضحاك : حب الحصيد البر والشعير ، وقيل كل حب يحصد ويدخر ويقات (والنخل باسقات لها طلع نضيد) هو معطوف على جنات : أى وأنبتنا به النخل ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها فى الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار ، وانتصاب باسقات على الحال ، وهى حال مقدرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة . قال مجاهد وعكرمة وقاتدة : الباسقات الطوال ، وقال سعيد بن جبير : مستويات . وقال الحسن وعكرمة والقراء : مواقير حوامل ، يقال للشاة إذا بسقت ولدت ، والأشهر فى لغة العرب الأول ، يقال بسقت النحلة بسوقا : إذا طالت ، ومنه قول الشاعر

لنا خمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام في السماء ذهبن طولا وفات ثمارها أيدي الجنات

وجمة (لها طلع نصيد) في محل نصب على الحال من النخل ، الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل ، يقال طلع الطلع طلوعا ، والنصيد المتراكب الذي نضد بعضه على بعض ، وذلك قبل أن ينفتح فهو نصيد في أكمامه فإذا خرج من أكمامه فليس بنصيد (رزقا للعباد) انتصابه على المصدرية : أي رزقناهم رزقا ، أو على العلة : أي أنبتنا هذه الأشياء للرزق (وأحيينا به بلدة ميتا) أي أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع ، وجمة (كذلك الخروج) مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة ، قرأ الجمهور « ميتا » على التخفيف ، وقرأ أبو جعفر وخالد بالثقل . ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس) هم قوم شعيب كما تقدم بيانه ، وقيل هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى ، وهم من قوم عيسى وقيل هم أصحاب الأخدود . والرس : إما موضع نسبوا إليه ، أو فعل ، وهو حفر البئر ، يقال رس : إذا حفر بئرا (وثمود وعاد وفرعون) أي فرعون وقومه (وإخوان لوط) جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره ، وقيل هم من قوم إبراهيم وكانوا من معارف لوط (وأصحاب الأيكة) تقدم الكلام على الأيكة واختلاف القراء فيها في سورة الشعراء مستوفى ، ونبيهم الذي بعثه الله إليهم شعيب (وقوم تبع) هو تبع الحميري الذي تقدم ذكره في قوله - أهم خيرا أم قوم تبع - واسمه سعد أبوكرب ، وقيل أسعد ؟ قال قتادة : ذم الله قوم تبع ، ولم يذمه (كل كذب الرسل) التنوين عوض عن المضاف إليه : أي كل واحد من هؤلاء كذب رسوله الذي أرسله الله إليه ، وكذب ما جاء به من الشرع ، واللام في الرسل تكون للعهد ، ويجوز أن تكون للجنس : أي كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل ، وإفراد الضمير في كذب باعتبار لفظ كل ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنه قيل له : لا تحزن ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك ، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء ، فإن قومهم كذبوهم ولم يصدقهم إلا القليل منهم (فحق وعيد) أي وجب عليهم وعيدى وحق عليهم كلمة العذاب ، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف والمسح والإهلاك بالأنواع التي أنزلها الله بهم من عذابه (أفعيينا بالخلق الأول) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم : أي أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولا ولم يكونوا شيئا ، فكيف نعجز عن بعثهم ، يقال عييت بالأمر : إذا عجزت عنه ولم أعرف وجهه . قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة . وقرأ ابن أبي عبة بتشديد الياء من غير إشباع . ثم ذكر أنهم في شك من البعث ، فقال (بل هم في لبس من خلق جديد) أي في شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف ، وهو بعث الأموات ، ومعنى الإضراب أنهم غير منكربين لقدرة الله على الخلق الأول (بل هم في لبس من خلق جديد) .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (ق) قال : هو اسم من أسماء الله . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا ، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له ق - السماء الدنيا مرفرفة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها ، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له قاف السماء الثانية مرفرفة عليه ، حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات ، قال : وذلك قوله - والبحر بمده من بعده سبعة أبحر - قال ابن كثير : لا يصح سنده عن

ابن عباس . وقال أيضا : وفيه انقطاع . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عنه أيضا قال : هو جبل وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك ذلك العرق الذي يلي تلك القرية فبزلزلها ويحركها ، فمن ثم يحرك القرية دون القرية . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضا (والقرآن المجيد) قال : الكريم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : القرآن المجيد ليس شيء أحسن منه ولا أفضل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) قال : أجسادهم وما يذهب منها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال : ما تأكل من لحومهم وعظامهم وأشعارهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : المريع الشيء المتغير . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن قطبة قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الصبح ق » ، فلما أتى على هذه الآية (والنخل باسقات) فجعلت أقول : ما يسوقها ؟ قال : طولها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله (والنخل باسقات) قال الطول . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (لها طلع نضيد) قال : متراكم بعضه على بعض . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (أفعيننا بالخلق الأول) يقول لم يعيننا الخلق الأول ، وفي قوله (بل هم في لبس من خلق جديد) في شك من البعث .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ خَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ نَخِشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) .

قوله (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) هذا كلام مبدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقيل آدم والوسوسة هي في الأصل الصوت الخفي ، والمراد بها هنا ما يختلج في سره وقلبه وضميره : أى نعلم ما يخفى ويكن في نفسه ، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى :
 * تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت * فاستعمل لما خفى من حديث النفس (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) هو حبل العاتق ، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان من عن يمين وشمال . وقال الحسن : الوريد الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب ، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان : أى نحن أقرب إليه من حبل وريده ، والإضافة بيانية : أى حبل هو الوريد . وقيل الحبل هو نفس الوريد ، فهو من باب مسجد الجامع . ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال (إذ يتلقى المتلقيان) الظرف منتصب بما في « أقرب » من معنى الفعل ، ويجوز أن يكون منصوبا بمقدر هو اذكر ، والمعنى : أنه أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ما يلفظ به وما يعمل به : أى يأخذان ذلك ويثبتانه ، والتلقى الأخذ : أى نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحنظة الموكلين به ، وإنما جعلنا ذلك إلزاما للحجة وتوكيدا للأمر . قال الحسن وقبادة ومجاهد : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . وقال مجاهد أيضا : وكل الله بالإنسان ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره (عن اليمين وعن الشمال قعيد) إنما قال قعيد ولم يقل قعيدان وهما اثنان ، لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، كذا قال سيبويه كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقول الفرزدق : * وأتى وكان وكنت غير عذور * أى وكان غير عذور وكنت غير عذور ، وقال الأخفش والقراء : إن لفظ قعيد يصلح للواحد والاثنين والجمع ولا يحتاج إلى تقدير في الأول . قال الجوهري وغيره من أئمة اللغة والنحو : فاعل وفعل مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، والقعيد المقاعد كالجليس بمعنى المجالس (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى ما يتكلم من كلام ، فيلفظه ويرميه من فيه إلأى لديه : أى لدى ذلك اللفظ رقيب : أى ملك يرقب قوله ويكتبه ، والرقيب : الحافظ المتبع لأمر الإنسان الذى يكتب ما يقوله من خير وشر ، فكاتب الخير هو ملك اليمين ، وكاتب الشر ملك الشمال . والعتيد : الحاضر المهيأ . قال الجوهري : العتيد الحاضر المهيأ ، يقال عتده تعتيذا وأعتده اعتدادا : أى أعده ، ومنه - وأعتدت لهن متكأ - والمراد هنا أنه معد للكتابة مهيئ لها (وجاءت سكرة الموت بالحق) لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت ، والمراد بسكرة الموت شدته وغمرته التى تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، ومعنى بالحق : أنه عند الموت يتضح له الحق ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد ، وقيل الحق هو الموت ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير : أى وجاءت سكرة الموت بالحق بالموت ، وكذا قرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود . والسكرة هي الحق ، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين ، وقيل الباء للملابسة كالتى في قوله - تبت بالدهن - أى ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الحال ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى الموت ، والحيد الميل : أى ذلك الموت الذى كنت تميل عنه وتفر منه ، يقال : حاد عن الشيء يحيد حيودا وحيدة وحيدودة : مال عنه وعدل ، ومنه قول طرفة :

أبو منذر رمت الوفاء فهبته وحدث كما حاد البعير عن الدحض

وقال الحسن : تمجيد تهرب (ونفخ في الصور) خبر عنه بالماضى لتحقيق وقوعه ، وهذه هى النفخة الآخرة للبعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ في الصور يوم الوعيد الذى أوعد الله به الكفار . قال مقاتل : يعنى بالوعيد العذاب فى الآخرة ، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعا تهويله (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها ومن يشهد لها أو عليها .

واختلف فى السائق والشهيد ، فقال الضحاك : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم : يعنى الأيدى والأرجل . وقال الحسن وقتادة : سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ابن مسلم : السائق قرينها من الشياطين ، سمي سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملكان . وقيل السائق الملك والشهيد العمل ، وقيل السائق كاتب السيئات ، والشهيد كاتب الحسنات ، ومحل الحملة النصب على الحال (لقد كنت فى غفلة من هذا) أى يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا ، والحملة فى محل نصب على الحال من نفس أو مستأنفة كأنه قيل ما يقال له . قال الضحاك : المراد بهذا المشركون لأنهم كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم . وقال ابن زيد : الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أى لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة . وقال أكثر المفسرين : المراد به جميع الخلق برّهم وفاجرهم ، واختار هذا ابن جرير . قرأ الجمهور بفتح التاء من « كنت » وفتح الكاف فى غطاءك وبصرك حملا على ما فى لفظ كل من التذكير . وقرأ الجحدري وطلحة بن مصرف بالكسر فى الجميع على أن المراد النفس (فكشفنا عنك غطاءك) الذى كان فى الدنيا : يعنى رفعنا الحجاب الذى كان بينك وبين أمور الآخرة ، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك (فبصرك اليوم حديد) أى نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك فى الدنيا . قال السدّنى : المراد بالغطاء أنه كان فى بطن أمه فولد ، وقيل إنه كان فى القبر فنشر ، والأول أولى . والبصر قيل هو بصر القلب وقيل بصر العين . وقال مجاهد : بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك وبه قال الضحاك (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) أى قال الملك الموكل به هذا ما عندى من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته ، كذا قال الحسن وقتادة والضحاك . وقال مجاهد : إن الملك يقول للرب سبحانه هذا الذى وكلتني به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وروى عنه أنه قال : إن قرينه من الشياطين ، يقول ذلك : أى هذا ما قد هيأته لك بإغوائى وإضلالى . وقال ابن زيد : إن المراد هنا قرينه من الإنس ، وعتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة ، وإن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف (ألقيا فى جهنم كل كفار عتيد) هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد . قال الزجاج : هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق والشاهد : كل كفار للنعم عتيد بجانب للإيمان (مناع للخير) لا يبذل خيرا (معتد) ظالم لا يقر بتوحيد الله (مريب) شاك فى الحق ، من قولهم أراب الرجل : إذا صار ذا ريب . وقيل هو خطاب للملكين من خزنة النار ، وقيل هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره . قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون : ارحلها وازجرها وأطلقها للواحد . قال القراء : العرب تقول للواحد قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان ، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر خليلي كما قال امرؤ القيس :

خليلي مرّا بى على أم جندب نقض لبانات القواد المعذب

وقوله : قفانك من فكري حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
 وقول الآخر : فإن ترجرائي يابن عفان أنزجر وإن تدعواني أحمر عرضا ممنعا
 قال المازني : قوله (ألقيا) يدل على ألقى ألقى . قال المبرد : هي تشية على التوكيد ، فناب ألقيا مناب ألقى ألقى .
 قال مجاهد وعكرمة : العنيد المعاند للحق ، وقيل المعرض عن الحق ، يقال عند يعند بالكسر عنودا : إذا خالف
 الحق (الذي جعل مع الله إله آخر) يجوز أن يكون بدلا من كل أو منصوبا على الذم ، أو بدلا من كفار ، أو
 مرفوعا بالابتداء أو الخبر (فألقياه في العذاب الشديد) تأكيد للأمر الأول أو بدل منه (قال قرينه ربنا ما أطغيته)
 هذه الجملة مستأنفة لبيان ما يقوله القرين ، والمراد بالقرين هنا الشيطان الذي قبض لهذا الكافر ، أنكر أن يكون
 أطغاه ، ثم قال (ولكن كان في ضلال بعيد) أي عن الحق فدعوته فاستجاب لي ، ولو كان من عبادك المخلصين
 لم أقدر عليه ، وقيل إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته وإن الكافر يقول : رب إنه أعجلني فيجيبه بهذا ،
 كذا قال مقاتل وسعيد بن جبير . والأول أولى ، وبه قال الجمهور (قال لا تختصموا لدي) هذه الجملة مستأنفة
 جواب سؤال مقدر كأنه قيل ، فإذا قال الله ؟ فقيل (قال لا تختصموا لدي) يعني الكافرين وقرناءهم ، نهاهم
 سبحانه عن الاختصاص في موقف الحساب ، وجملة (وقد قدمت إليكم بالوعيد) في محل نصب على الحال : أي
 والحال أن قد قدمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، والباء في بالوعيد مزيدة للتأكيد أو على تضمين
 قدم معنى تقدم (ما يدل القول لدي) أي لا خلف لوعدي ، بل هو كائن لا محالة ، وقد قضيت عليكم بالعذاب
 فلا تبدل له ، وقيل هذا القول هو قوله - من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها -
 وقيل هو قوله - لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال القراء وابن قتيبة : معنى الآية : أنه ما يكذب عندي
 بزيادة في القول ولا ينقص منه لعلمي بالغيب ، وهو قول الكلبي . واختاره الواحدى لأنه قال - لدي - ولم يقل
 وما تبدل قولي ، والأول أولى . وقيل إن مفعول قدمت إليكم هو ما يدل أي وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبسا
 بالوعيد ، وهذا بعيد جدا (وما أنا بظلام للعبيد) أي لا أعذبهم ظلما بغير جرم اجترموه ولا ذنب أذنبوه . ولما
 كان نفي الظلام لا يستلزم نفي مجرد الظلم قيل إنه هنا بمعنى الظالم كالثمار بمعنى التامر . وقيل إن صيغة المبالغة
 لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم . وقيل صيغة المبالغة لرعاية
 جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ، وقيل غير ذلك ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران
 وفي سورة الحج (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) قرأ الجمهور «نقول» بالنون . وقرأ
 نافع وأبو بكر بالياء . وقرأ الحسن أقول . وقرأ الأعمش «يقال» والعامل في الظرف «ما يدل القول لدي» أو محذوف
 أي اذكر أو أنذرهم ، وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل ، والأولى
 أنه على طريقة التحقيق ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع . قال الواحدى . قال المفسرون : أراها الله تصديق قوله
 - لأملأن جهنم - فلما امتلأت قال لها (هل امتلأت وتقول هل من مزيد) أي قد امتلأت ولم يبق في موضع
 لم يمتلئ ، وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان . وقيل إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة : أي إنها تطلب
 الزيادة على من قد صار فيها . وقيل : إن المعنى أنها طلبت أن يزداد في سعتها لتضايقها بأهلها ، والمزيد إما مصدر
 كالخيد أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى هل من زيادة ، والثاني بمعنى هل من شيء تزيدونه . ثم لما فرغ
 من بيان حال الكافرين شرع في بيان حال المؤمنين فقال (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) أي قربت للمتقين
 تقريبا غير بعيد أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف ، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويجوز أن يكون انتصاب - غير بعيد - على الحال . وقيل المعنى : أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب ، فصارت قريبة من قلوبهم ، والأول أولى . والإشارة بقوله (هذا ماتوعدون) إلى الجنة التي أزلت لهم على معنى : هذا الذي ترونه من فنون نعيمها ماتوعدون ، والجملة بتقدير القول : أي ويقال لهم هذا ماتوعدون . قرأ الجمهور « توعدون » بالفوقية . وقرأ ابن كثير بالتحتي (لكل أبواب حفيظ) هو بدل من للمتقين بإعادة الحافظ أو متعلق بقول محذوف هو حال : أي مقولا لهم لكل أبواب ، والأبواب الرجاء إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية ، وقيل هو المسبح ، وقيل هو الذاكر لله في الخلوة . قال الشعبي ومجاهد : هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها . وقال عبيد بن عمير هو الذي لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله فيه ، والحفيظ : هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها . وقال قتادة : هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، قاله مجاهد . وقيل هو الحافظ لأمر الله . وقال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله له بالقبول (من خشى الرحمن بالغيب) الموصول في محل جر بدلا أو بيانا لكل أبواب ، وقيل يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين ، وفيه نظر لأنه لا يتكرر البدل والمبدل منه واحد ، ويجوز أن يكون في محل رفع على الاستئناف والخبر ادخلوها بتقدير يقال لهم ادخلوها ، والخشية بالغيب أن يخاف الله ولم يكن رآه . وقال الضحاك والسدي : يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد . قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب ، وبالغيب متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر خشى (وجاء بقلب منيب) أي راجع إلى الله مخلص لطاعته ، وقيل المنيب المقبل على الطاعة ، وقيل السليم (ادخلوها) هو بتقدير القول : أي يقال لهم ادخلوها ، والجمع باعتبار معنى من : أي ادخلوا الجنة (بسلام) أي بسلامة من العذاب ، وقيل بسلام من الله وملائكته ، وقيل بسلامة من زوال النعم ، وهو متعلق بمحذوف هو حال : أي ملتبسين بسلام ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء ، وخبره (يوم الخلود) وسماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له ، بل هو دائم أبدا (لهم ما يشاءون فيها) أي في الجنة ما تشهون أنفسهم وتلد أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير (ولدينا مزيد) من النعم التي لم تخطر لهم على بال ولا مرت لهم في خيال .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل : هو أقرب إليه من جبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل ذابة ، وهو معهم أينما كانوا » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (من جبل الوريد) قال : عروق العنق . وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو نياط القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا ، في قوله (ما يلهظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان من خير أو شر وألقى سائره ، فذلك قوله - يحو الله ما يشاء ويثبت - . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : إنما يكتب الخير والشر ، لا يكتب يا غلام اسرج الفرس يا غلام اسقني الماء . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم » . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي وأبو نعيم والبيهقي في الشعب عن عمرو بن ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله عند لسان كل قائل ، فليقل الله عبد ولينظر ما يقول » . وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعا مثله . وأخرج عبد الرزاق والفرياني وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى ، وابن مردويه والبيهقي في البعث ،

وابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) قال : سائق يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة في الآية قال : السائق الملك ، والشهيد العمل . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : السائق من الملائكة ، والشهيد شاهد عليه من نفسه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (لقد كنت في غفلة من هذا) قال : هو الكافر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا (فكشفنا عنك غطاءك) قال : الحياة بعد الموت . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ، و (قال قرينه) قال شيطانه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (لا تختصموا لدي) قال : إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله حجتهم ورد عليهم قولهم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا . في قوله (وما أنا بظلام للعبيد) قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا . في قوله (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) قال : وهل في من مكان يزاد في . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط ، وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم في فضول الجنة » . وأخرجنا أيضا من حديث أبي هريرة نحوه ، وفي الباب أحاديث . وأخرج ابن جرير والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (لكل أبواب حفيظ) قال : حفظ ذنوبه حتى رجع عنها . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أنس ، في قوله (ولدينا مزيد) قال : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة . وأخرج البيهقي في الرؤية والديلمي عن علي في الآية قال : يتجلى لهم الرب عز وجل ، وفي الباب أحاديث .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦)
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى
 مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ
 فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُودِ (٤٠) وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ
 الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)
 يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٍ (٤٥) .

خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية (قبلهم) أي قبل قريش ومن وافقهم (من قرن) أي من أمة (هم أشد منهم بطشا) أي قوة كعاد وثمود وغيرهما (فنقّبوا في البلاد) أي ساروا وتقلبوا فيها وطاقوا بقاها

وأصله من النقب ، وهو الطريق . قال مجاهد : ضربوا وطافوا . وقال النضر بن سميل : دوروا . وقال المؤرج تباعدوا . والأول أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

وقد نقتب في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومثله قول الحارث بن حلزة :

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو العالية وأبو عمرو في رواية « نقبوا » بفتح القاف مخففة ، والنقب هو الخرق والطريق في الجبل وكذا المنقب والمنقبة ، كذا قال ابن السكيت ، وجمع النقب نقوب . وقرأ السلمي ويحيى بن يعمر بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد : أي طوفوا فيها وسيروا في جوانبها . وقرأ الباقر بفتح القاف مشددة على الماضي (هل من محيص) أي هل لهم من مهرب يهربون إليه ، أو مخلص يتخلصون به من العذاب . قال الزجاج : لم يروا محيصا من الموت ، والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصا وحيوصا ومحيصا ومحاصا : أي عدل وحاد ، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم ، وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت والعذاب مفرّا (إن في ذلك لذكرى) أي فيما ذكر من قصصهم تذكرة وموعظة (لمن كان له قلب) أي عقل . قال القراء : وهذا جائز في العربية ، تقول ما لك قلب وما قلبك معك : أي مالك عقل وما عقلك معك ، وقيل المراد القلب نفسه ، لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغي . وقيل لمن كان له حياة ونفس مميزة ، فعبّر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها ، ومنه قول امرئ القيس :

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنتك مهما تأمرى النفس تفعل

(أو ألقى السمع) أي استمع ما يقال له ، يقال ألقى سمعك إلى : أي استمع مني ، والمعنى : أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكى لما جرى على تلك الأمم . قرأ الجمهور « ألقى » مبنيًا للفاعل . وقرأ السلمي وطلحة والسدي على البناء للمفعول ورفع السمع (وهو شهيد) أي حاضر الفهم أو حاضر القلب لأن من لا يفهم في حكم الغائب وإن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه . قال الزجاج : أي وقلبه حاضر فيما يسمع . قال سفيان : أي لا يكون حاضرا وقلبه غائب . قال مجاهد وقتادة : هذه الآية في أهل الكتاب وكذا قال الحسن . وقال محمد بن كعب وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة (واقعد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف وغيرها (وما مسنا من لغوب) اللغوب : التعب والإعياء ، تقول لغب يلغب بالضم لغوبا . قال الواحدي : قال جماعة المفسرين إن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى بقوله (وما مسنا من لغوب) فاصبر على ما يقولون) هذه تسليّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمرهم بالصبر على ما يقوله المشركون : أي هوّن عليك ، ولا تحزن لقولهم وتلق ما يرد عليك منه بالصبر (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أي نزه الله عما لا يليق بجنابه العالی ملتبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر ، وقيل المراد صلاة الفجر وصلاة العصر ، وقيل الصلوات الخمس ، وقيل صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها ، والأول أولى (ومن الليل فسبحه) من للتبعية : أي سبّحه بعض الليل ، وقيل هي صلاة الليل ، وقيل ركعتا الفجر ، وقيل صلاة العشاء ، والأول أولى (وإدبار السجود) أي وسبّحه أعقاب الصلوات قرأ الجمهور « أدبار » بفتح الهمزة جمع دبر . وقرأ

نافع وابن كثير وحزمة بكسرها على المصدر ، من أدبر الشيء إدباراً : إذا ولى . وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم الركعتان قبل الفجر . وقد اتفق القراء السبعة في إدبار النجوم أنه بكسر الهمزة كما سيأتي (واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب) أى استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة : يوم ينادى المناد ، وهو إسرافيل أو جبريل ، وقيل استمع النداء أو الصوت أو الصيحة ، وهى صيحة القيامة : أعنى النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل ، وقيل إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى أهل المحشر ، ويقول : هلموا للحساب ، فالنداء على هذا فى المحشر . قال مقاتل : هو إسرافيل ينادى بالمحشر فيقول : يا أيها الناس هلموا للحساب (من مكان قريب) بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر . قال قتادة : كنا نحدث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس . قال الكلبي : وهى أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً . وقال كعب : بثمانية عشر ميلاً (يوم يسمعون الصيحة بالحق) هو بدل من يوم ينادى : يعنى صيحة البعث ، وبالحق متعلق بالصيحة (ذلك يوم الخروج) أى يوم الخروج من القبور . قال الكلبي : معنى بالحق بالبعث . وقال مقاتل : يعنى أنها كائنة حقاً (إنا نحن نحي ونميت) أى نحي فى الآخرة ونميت فى الدنيا لا يشاركنا فى ذلك مشارك ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث (وإلينا المصير) فنجازى كل عامل بعمله (يوم تشقى الأرض عنهم) قرأ الجمهور بإدغام التاء فى الشين . وقرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التائين تخفيفاً . وقرأ زيد بن عليّ : تشقى بإثبات التائين على الأصل ، وقرئ على البناء للمفعول ، وانتصاب (سراعاً) على أنه حال من الضمير فى عنهم ، والعامل فى الحال تشقى ، وقيل العامل فى الحال هو العامل فى يوم : أى مسرعين إلى المنادى الذى ناداهم (ذلك حشر) أى بعث وجمع (علينا يسير) هين . ثم عزى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال (نحن أعلم بما يقولون) يعنى من تكذيبك فيما جئت به ومن إنكار البعث والتوحيد (وما أنت عليهم بجبار) أى بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان ، والآية منسوخة بآية السيف (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى من يخاف وعيدى لعصائى بالعذاب ، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم ، ثم أمره الله سبحانه بعد ذلك بالقتال .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (وما مسنا من لغوب) قال : من نصب . وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) صلاة الصبح (وقبل الغروب) صلاة العصر . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : « بت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : يا ابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم وركعتان بعد المغرب إدبار السجود » . وأخرج مسدد فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن عليّ بن أبى طالب قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إدبار النجوم وإدبار السجود ، فقال : إدبار السجود ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم الركعتان قبل الغداة » . وأخرج محمد بن نصر فى الصلاة وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : إدبار السجود ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم ركعتان قبل الفجر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عليّ بن أبى طالب مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبى هريرة مثله . وأخرج البخارى وغيره عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها . وأخرج ابن جرير عنه (واستمع يوم ينادى المناد) قال : هى الصيحة . وأخرج الواسطى عنه أيضاً (من مكان قريب) قال : من صخرة بيت المقدس . وأخرج ابن أبى حاتم وابن

المنذر عنه أيضا (ذلك يوم الخروج) قال : يوم يخرجون إلى البعث من القبور . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : قالوا : يا رسول الله لو خوفنا ، فنزلت (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

تفسير سورة الذاريات

هي ستون آية ، وهي مكية . قال القرطبي في قول الجميع

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الذاريات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا (١) فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا (٢) فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَقِيعٌ (٦) وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩) قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٤) .

قوله (والذاريات ذروا) يقال ذرت الريح التراب تذروه ذروا ، وأذرت تذر به ذريا ، أقسم سبحانه بالرياح التي تذرى التراب ، وانتصار ذروا على المصدرية ، والعامل فيها اسم الفاعل والمفعول محذوف . قرأ أبو عمرو وحزرة بإدغام تاء الذاريات في ذال ذروا . وقرأ الباكون بدون إدغام . وقيل المقسم به مقدر وهو رب الذاريات وما بعدها ، والأول أولى (فالحملة وقرا) هي السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ، وانتصاب وقرا على أنه مفعول به كما يقال حمل فلان عدلا ثقيل . قرأ الجمهور « وقرا » بكسر الواو اسم ما يوقر : أى يحمل ، وقرئ بفتحها على أنه مصدر والعامل فيه اسم الفاعل ، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة (فالجاريات يسرا) هي السفن الجارية في البحر بالرياح جريا سهلا ، وانتصاب يسرا على المصدرية ، أو صفة لمصدر محذوف ، أو على الحال : أى جريا ذا يسر ، وقيل هي الرياح ، وقيل السحاب ، والأول أولى . واليسر : السهل في كل شيء .

(فالمقسمات أمرا) هي للملائكة التي تقسم الأمور . قال الفراء : تأتي بأمر مختلف : جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتي بالموت ، وقيل تأتي بأمر مختلف من الجذب والخصب والمطر والموت والحوادث . وقيل هي السحب التي يقسم الله بها أمر العباد ، وقيل إن المراد بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات الرياح ، فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب وتحمل السحاب وتجري في الهواء وتقسم الأمطار ، وهو ضعيف جداً . وانتصاب أمرا على المفعول به ، وقيل على الحال : أي مأمورة ، والأول أولى (إنما توعدون لصادق) هذا جواب القسم : أي إنما توعدون من الثواب والعقاب لكائن لا محالة . و « ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية . ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة ، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به (والسماء ذات الحبك) قرأ الجمهور « الحبك » بضم الحاء والباء ، وقرأ بضم الحاء وسكون الباء وبكسر الحاء وضم الباء . قال ابن عطية : هي لغات ، والمراد بالسماء هنا هي المعروفة ، وقيل المراد بها السحاب ، والأول أولى .

واختلف المفسرون في تفسير الحبك ، فقال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم : المعنى ذات الخلق المستوى الحسن . قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسن عمله فقد حبكته واحتبكته . وقال الحسن وسعيد بن جبير : ذات الزينة . وروى عن الحسن أيضا أنه قال : ذات النجوم . وقال الضحاك : ذات الطرائق ، وبه قال الفراء ، يقال لما تراه من الماء والرمل إذا أصابته الريح حبك . قال الفراء : الحبك بكسر : كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة والماء إذا مرت به الريح ، ويقال للدرع الحديد حبك ، ومنه قول الشاعر :

كأنما جللها الحواك طنفسة في وشيها حباك

أي طرق ، وقيل الحبك الشدة ، والمعنى : والسماء ذات الشدة ، والمحبوك الشديد الخلق من فرس أو غيره ، ومنه قول الشاعر :
قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوك ممر
وقول الآخر :
مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوك الكتد

قال الواحدي بعد حكاية القول الأول : هذا قول الأكثرين (إنكم لنى قول مختلف) هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك : أي إنكم يا أهل مكة لنى قول مختلف متناقض في محمد صلى الله عليه وآله وسلم . بعضكم يقول إنه شاعر . وبعضكم يقول إنه ساحر ، وبعضكم يقول إنه مجنون . ووجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء ، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة ، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه . على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا ، وذلك بأن يقال : إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سببا لمزيد حسنها واستواء خلقها وحصول الزينة فيها ومزيد القوة لها . وقيل إن المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر وبعضهم يشك فيه ، وقيل كونهم يقرّون أن الله خالقهم ويعبدون الأصنام (يوفك عنه من أفك) أي يصرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به ، أو عن الحق ، وهو البعث والتوحيد من صرف . وقيل يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق ، يقال أفكه يافكه إفكا : أي قلبه عن الشيء وصرفه عنه ، ومنه قوله تعالى - قالوا أجبنا لتأفكنا - وقال مجاهد : يوفن عنه من أفن ، والأفن فساد العقل ، وقيل يحرمه من حرم . وقال قطرب : يجده عن من جده . وقال اليزيدي : يدفع عنه من دفع (قتل الخراصون) هذا دعاء عليهم . وحكى الواحدي عن

المفسرين جميعا أن المعنى : لعن الكذابون . قال ابن الأنباري : والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن ، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال النراء : معنى قتل لعن . والخراصون الكذابون الذين يتخرون فيما لا يعلمون فيقولون : إن محمدا مجنون كذاب شاعر ساحر . قال الزجاج : الخراصون هم الكذابون ، والحرص : حذر ما على النخل من الرطب تمرا ، والخراص : الذي يحرصها ، وليس هو المراد هنا ، ثم قال (الذين هم في غمرة ساهون) أى فى غفلة وعمى جهالة عن أمور الآخرة ، ومعنى ساهون : لاهون غافلون ، والسهو : الغفلة عن الشيء وذهابه عن القلب ، وأصل الغمرة ماستر الشيء وغطاه ، ومنها غمرات الموت (يسألون أيا يوم الدين) أى يقولون متى يوم الجزاء تكذبا منهم واستهزاء . ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال (يوم هم على النار يفتنون) أى يحرقون ويعذبون ، يقال فتنت الذهب : إذا أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة الاختبار . قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل فتن . وانتصاب يوم بمضمر : أى الجزاء : يوم هم على النار ، ويجوز أن يكون بدلا من يوم الدين ، والفتح للبناء لكونه مضافا إلى الحملة ، وقيل هو منصوب بتقدير أعنى . وقرأ ابن أبي عبلة برفع « يوم » على البدل من يوم الدين ، وجملة (ذوقوا فتنتكم) هى بتقدير القول : أى يقال لهم ذوقوا عذابكم قاله ابن زيد . وقال مجاهد : حريقكم ، ورجح الأول الفراء ، وجملة (هذا الذى كنتم به تستعجلون) من جملة ما هو محكى بالقول : أى هذا ما كنتم تطلبون تعجيبه استهزاء منكم ، وقيل هى بدل من فتنتكم (إن المتقين فى جنات وعيون) لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة : أى هم فى بستانين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون (آخذين ما آتاهم ربهم) أى قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة ، وجملة (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) تعليل لما قبلها : أى لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين فى أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به وترك ما نهوا عنه . ثم بين إحسانهم الذى وصفهم به فقال (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) الهجوع : النوم بالليل دون النهار ، والمعنى : كانوا قليلا ما ينامون من الليل ، وما زائدة ، ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة : أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ، ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

والتهجاع : القليل من النوم ، ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب :

أمن ريحانة الداعى السميع - يهيجنى وأضحى هجوع

وقيل ما نافية : أى ما كانوا ينامون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير منه ، وهذا ضعيف جدا . وهذا قول من قال : إن المعنى كان عددهم قليلا . ثم ابتداء فقال (ما يهجعون) وبه قال ابن الأنباري وهو أضعف مما قبله . وقال قتادة فى تفسير هذه الآية : كانوا يصلون بين العشاءين ، وبه قال أبو العالية وابن وهب (وبالأشجار هم يستغفرون) أى يطلبون فى أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم . قال الحسن : مدوا الصلاة إلى الأشجار ، ثم أخذوا بالأشجار الاستغفار . وقال الكلبي ومقاتل ومجاهد : هم بالأشجار يصلون ، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة . وقال الضحاك : هى صلاة الفجر . ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أى يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل والمحروم تقربا إلى الله عز وجل . وقال محمد بن سيرين وقتادة : لحق هنا الزكاة المفروضة ، والأول أولى ، فيحمل على صدقة النفل وصلة الرحم وقرى الضيف ، لأن السورة بكية ، والزكاة لا تفرض إلا بالمدينة ، وسيأتى فى سورة سأل سائل - وفى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم - زيادة معلوم ، والسائل هو الذى يسأل الناس لفاقته .

واختلف في تفسير المحروم ، فقيل هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا فلا يتصدقون عليه ، وبه قال قتادة والزهرى . وقال الحسن ومحمد ابن الحنفية : هو الذى لا سهم له فى الغنيمة ولا يجرى عليه من النىء شىء . وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته . قال القرطبي : هو الذى أصابته الجائحة ، وقيل الذى لا يكتسب ، وقيل هو الذى لا يجد غنى يغنيه ، وقيل هو الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ، وقيل هو المملوك ، وقيل الكلب ، وقيل غير ذلك . قال الشعبي : لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم ، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ ، والذى ينبغى التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوى ، والمحروم فى اللغة الممنوع من الحرمان وهو المنع ، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل ، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته ، ومن حرم العطاء ، ومن حرم الصدقة لتعففه . ثم ذكر سبحانه مناصبه من الدلائل الدالة على توحيد الله وصدقه وعده ووعدته فقال (وفى الأرض آيات للموقنين) أى دلائل واضحة وعلامات ظاهرة من الجبال والبر والبحر والأشجار والأنهار والثمار ، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذبة لما جاءت به رسل الله ودعوتهم إليه ، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه فينتفعون به (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أى وفى أنفسكم آيات تدل على توحيد الله وصدق ما جاءت به الرسل ، فإنه خلقهم نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظمها إلى أن ينفخ فيه الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس ، ومعنى (أفلا تبصرون) أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرزاق المتفرد بالالوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأن وعده الحق ، وقوله الحق وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة تغتر به ، وقيل المراد بالأنفس الأرواح : أى وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات (وفى السماء رزقكم) أى سبب رزقكم ، وهو المطر فإنه سبب الأرزاق . قال سعيد ابن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج . وقيل المراد بالسماء السحاب : أى وفى السحاب رزقكم ، وقيل المراد بالسماء المطر ، وسماه سماء لأنه ينزل من جهتها ، ومنه قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى رب السماء رزقكم ، قال : ونظيره - وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها - وهو بعيد . وقال سفيان الثوري : أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل المعنى : وفى السماء تقدير رزقكم . قرأ الجمهور « رزقكم » بالافراد ، وقرأ يعقوب وابن محيصن ومجاهد « أرزاقكم » بالجمع (وما توعدون) من الجنة والنار ، قاله مجاهد . قال عطاء : من الثواب العقاب ، وقال الكلبي : من الخير والشر ، قال ابن سيرين : ما توعدون من أمر الساعة ، وبه قال الربيع . والأولى الحمل على ما هو أعم من هذه الأقوال ، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء ، والقضاء والقدر ينزل منها ، والجنة والنار فيها . ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال (فورب السماء والأرض إنه لحق) أى ما أخبركم به فى هذه الآيات . قال الزجاج : هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات . قال الكلبي : يعنى ما قص فى الكتاب . وقال مقاتل : يعنى من أمر الساعة . وقيل إن « ما » فى قوله (وما توعدون) مبتدأ وخبره فورب السماء والأرض إنه لحق ، فيكون الضمير لما . ثم قال سبحانه (مثل ما أنكم تنطقون) قرأ الجمهور بنصب « مثل » على تقدير : كمثل نطقكم ، وما زائدة ، كذا قال بعض الكوفيين إنه منصوب بنزع الخافض . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد : أى لحق حقا مثل نطقكم . وقال المازني : إن

« مثل » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح . وقال سيبويه : هو مبني لإضافته إلى غير متمكن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والأعمش « مثل » بالرفع على أنه صفة لحق ، لأن مثل نكرة وإن أضيفت فهي لا تتعرف بالإضافة كغيره . ورجح قول المازني أبو علي القارسي ، قال ومثله قول حميد :
• • • • • وويح لمن لم يدر ما هن ويحما • • • فبنى ويح مع ما ولم يلحقه التثنية ، ومعنى الآية تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق آدمي ووجوده ، وهذا كما تقول : إنه لحق كما أنك هاهنا ، وإنه لحق كما أنك تتكلم ، والمعنى : أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري والدارقطني في الأفراد والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله (والذاريات ذروا) قال : الرياح (فالحماملات وقرا) قال : السحاب (فالجاريات يسرا) قال : السفن (فالملقسات أمرا) قال : الملائكة . وأخرج البزار والدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه وابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله ورفعته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي إسناده أبو بكر بن سبرة وهو لين الحديث ، وسعيد بن سلام وليس من صحاب الحديث ، كذا قال البزار . قال ابن كثير : فهذا الحديث ضعيف رفعه وأقرب ما فيه أنه سوقوف على عمر . وأخرج الفريابي وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علي . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس (والسماء ذات الحبك) قال : حسنها واستواؤها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عنه في الآية قال : ذات البهاء والجمال وإن بنيانها كالبرد المسلسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : ذات الخلق الحسن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن منيع عن علي قال : هي السماء السابعة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يؤثك عنه من أفك) قال : يضل عنه من ضل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (قتل الخراصون) قال : لعن المرتابون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : هم الكهنة (الذين هم في غمرة ساهون) قال : في غفلة لاهون . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الغمرة الكفر والشك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : في ضلالتهم يتأدون ، وفي قوله (يوم هم على النار يفتنون) قال : يعذبون . وأخرج هؤلاء عنه أيضا في قوله (آخذين ما آتاهم ربهم) قال : القرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) قال : قبل أن تنزل القرائض يعملون . وأخرج هؤلاء أيضا والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) قال : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها . وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا في الآية يقول : قليلا ما كانوا ينامون . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس في الآية قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر (وبالأسمار هم يستغفرون) قال : يصلون . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (في أموالهم حق) قال : سوى الزكاة يصل بها رحما أو يقرى بها ضيفا أو يعين بها محروما . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : السائل الذي يسأل الناس ، والمحروم الذي ليس له سهم من فاء المسلمين . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس ، فأمر الله المؤمنين برفده . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية . قالت : هو المحارف الذي لا يكاد

يثيسر له مكعبه . وأخرج الترمذى والبيهقى في سننه عن فاطمة بنت قيس « أنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية قال : إن في المال حقا سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية - ليس البر أن تولوا وجوهكم - إلى قوله - وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في الشعب عن عبد الله بن الزبير في قوله (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) قال : سبيل الغائط والبول .

هَلْ آتَيْكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ
سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ
أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ
مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)
وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) .

قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرميين) ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك . وفي الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه إنما علمه بطريق الوحي . وقيل إن هل بمعنى قد كما في قوله - هل أتى على الإنسان حين من الدهر - والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم في سورة هود وسورة الحجر ، والمراد بكونهم مكرميين : أنهم مكرمون عند الله سبحانه لأنهم ملائكة جاءوا إليه في صورة بني آدم ، كما قال تعالى في وصفهم في آية أخرى - بل عباد مكرمون - وقيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مقاتل ومجاهد : أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقلم على رؤوسهم ، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف ، وأمرأته أن تخدمهم . وقال الكلبي : أكرمهم بالعجل (إذ دخلوا عليه) العامل في الظرف حديث : أي هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه ، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر ، أو العامل فيه المكرميين ، أو العامل فيه فعل مضمر : أي اذكر (فقالوا سلاما) أي سلم عليك سلاما (قال سلام) أي قال إبراهيم سلام . قرأ الجمهور بنصب « سلاما » الأول ورفع الثاني ، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا ، والمراد به التحية ، ويحتمل أن يكون المعنى : فقالوا كلاما حسنا لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ، فيكون على هذا مفعولا به . وأما الثاني فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر : أي عليكم سلام ، وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للدوام والثبات ، بخلاف الفعلية فإنها مجرد التجدد والحدوث ، ولهذا قال أهل المعاني : إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة . وقرئ بالرفع في الموضعين ، وقرئ بالنصب فيهما . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر السين ، وقرئ سلم فيهما (قوم

منكرون) ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي أنتم قوم منكرون . قيل إنه قال هذا في نفسه ولم يخاطبهم به ، لأن ذلك يخالف الإكرام . قيل إنه أنكرهم لكونهم ابتدءوا بالسلام ولم يكن ذلك معهودا عند قومه ، وقيل لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية ، وقيل لأنه رأى أنهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم ، وقيل غير ذلك (فراغ إلى أهله) قال الزجاج : أي عدل إلى أهله ، وقيل ذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، والمعنى متقارب وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات . يقال راغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا يريغ : أي يريد ويطلب ، وأراغ إلى كذا : مال إليه سرا واحدا (فجاء بعجل سمين) أي فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما في سورة هود - بعجل حينئذ - وفي الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة : أي فذبح عجلا فحنده فجاء به (فقربه إليهم) أي قرب العجل إليهم ووضعه بين أيديهم (فقال ألا تأكلون) الاستفهام للإنكار ، وذلك أنه لما قرب به إليهم لم يأكلوا منه . قال في الصحاح : العجل ولد البقر ، والعجول مثله والجمع العجاجيل والأثنى عجلة ، وقيل العجل في بعض اللغات الشاة (فأوجس منهم خيفة) أي أحس في نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا مما قرب به إليهم . وقيل معنى أوجس أضمر ، وإنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه ، ومن أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمنا منه ، فظن إبراهيم أنهم جاءوا للشر ولم يأتوا للخير . وقيل إنه وقع في قلبه أنهم ملائكة ، فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف (قالوا لا تخف) وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه (وبشروه بغلام عليم) أي بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال ، والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق . وقال مجاهد وحده : إنه إسماعيل ، وهو مردود بقوله - وبشرناه بإسحاق - وقد قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره (فأقبلت امرأته في صرة) لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان ، وإنما هو كقولك : أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي ، كذا قال الفراء وغيره . والصرة الصيحة والضجة ، وقيل الجماعة من الناس . قال الجوهري : الصرة : الضجة والضيحة ، والضرة : الجماعة ، والصرة الشدة من كرب أو غيره ، والمعنى : أنها أقبلت في صيحة ، أو في ضجة ، أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة ، ومن هذا قول امرئ القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه جراجرها في صرة لم تزيل

وقوله (في صرة) في محل نصب على الحال (فصكت وجهها) أي ضربت بيدها على وجهها كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب . قال مقاتل والكلبي : جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجبا ، ومعنى الصك : ضرب الشيء بالشيء العريض ، يقال صكه : أي ضربه (وقالت عجوز عقيم) أي كيف ألد وأنا عجوز عقيم ، استبعدت ذلك لكبر سنها ، ولكونها عقيما لا تلد (قالوا كذلك قال ربك) أي كما قلنا لك وأخبرناك قال : ربك فلا تشكى في ذلك ولا تعجبي منه ، فإن ما أراده الله كائن لا محالة ولم نقل ذلك من جهة أنفسنا ، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة ، وقد سبق بيان هذا مستوفى ، وجملة (إنه هو الحكيم العليم) تعليل لما قبلها : أي حكيم في أفعاله وأقواله ، عليم بكل شيء ، وجملة (قال فما خطبكم أيها المرسلون) مستأنفة جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فإذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة ، والخطب الشأن والقصة ، والمعنى : فما شأنكم وما قصتكم أيها المرسلون من جهة الله ، وما ذاك الأمر الذي لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يريدون قوم لوط (لرسل عليهم حجارة من طين) أي لترجمهم بحجارة من طين متحجر ، وانتصاب (مسومة) على الصفة لحجارة ، أو على الحال في الضمير المستكن في الجار والمجرور ، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار والمجرور ، ومعنى (مسومة) معلمة بعلامات تعرف بها ، قيل كانت

مخططة بسواد وبياض ، وقيل بسواد وحمرة ، وقيل معروفة بأنها حجارة العذاب ، وقيل مكتوب على كل حجر من جهلك بها ، وقوله (عند ربك) ظرف لمسومة : أى معلمة عنده (للمسرفين) المتأدين في الضلالة المجاوزين الحد في الفجور . وقال مقاتل : للمشركين ، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) هذا كلام من جهة الله سبحانه : أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أى غير أهل بيت . يقال بيت شريف ويراد به أهله ، قيل وهم أهل بيت لوط ، والإسلام : الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله - قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا - وقد أوضح الفرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين الإسلام والإيمان في الحديث في الصحيحين وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال « أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت وتصوم رمضان » وسئل عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره » فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصادق المصدوق ، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلفة متناقضة ، وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية ، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أى وتركنا في تلك القرى علامة ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب ، كل من يخاف عذاب الله ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم ، وهذه الآية هي آثار العذاب في تلك القرى ، فإنها ظاهرة بينة ، وقيل هي الحجارة التي رجموا بها ، وإنما خص الذين يخافون العذاب الأليم لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث والوعد والوعيد .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عباس في قوله (في صرة) قال : في صيحة (فصكت وجهها) قال : لطمت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) قال : لوط وابنتيه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال : كانوا ثلاثة عشر .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ
إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ

فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٦٠).

قوله (وفي موسى) معطوف على قوله فيها بإعادة الخافض ، والتقدير : وتركنا في قصة موسى آية أو معطوف على - وفي الأرض - والتقدير : وفي الأرض وفي موسى آيات ، قاله الفراء وابن عطية والزحشرى . قال أبو حيان : وهو بعيد جدا ينزه القرآن عن مثله ، ويجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدرا لدلالة - وتركنا عليه - قيل ويجوز أن يعطف على وتركنا على طريقة قول القائل : علفتها تبنا وماء باردا . والتقدير : وتركنا فيها آية ، وجعلنا في موسى آية . قال أبو حيان : ولا حاجة إلى إضمار ، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور وتركنا . والوجه الأول هو الأولى ، وماعداه متكلف متعسف لم تلجئ إليه حاجة ولا دعت إليه ضرورة (إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية : أى كائنة وقت أرسلناه ، أو بآية نفسها ، والأول أولى . والسلطان المبين الحجة الظاهرة الواضحة ، وهى العصي وما معها من الآيات (فتولى بركنه) التولى : الإعراض ، والركن : الجانب . قاله الأنخض . والمعنى : أعرض بجانبه كما فى قوله - أعرض ونأى بجانبه - قال الجوهري : ركن الشيء جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد : أى عز ومنعة . وقال ابن زيد ومجاهد وغيرهما : الركن جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ، ومنه قوله تعالى - أو آوى إلى ركن شديد - أى عشيرة ومنعة ، وقيل الركن : نفس القوة ، وبه قال قتادة وغيره ، ومنه قول عنزة :

فما أوهى مراس الحرب ركنى ولكن ما تقادم من زمانى

(وقال ساحر أو مجنون) أى قال فرعون : فى حق موسى هو ساحر أو مجنون فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا ، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه ، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر ولا يفعله من به جنون . وقيل إن أو بمعنى الواو ، لأنه قد قال ذلك جميعا ولم يتردد ، قاله المورج والفراء ، كقوله - ولا تطع منهم أثما أو كفورا - (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) أى طرحناهم فى البحر ، وجملة (وهو ملهم) فى محل نصب على الحال : أى آت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية وكفر بالله وطغى فى عصيانه (وفى عاد) أى وتركنا فى قصة عاد آية (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وهى التى لاخير فيها ولا بركة ، لا تلقي شجرا ولا

نحمل مطرا ، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب . ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال (ماتذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم) أي ماتذر من شيء مرت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا جعلته كالشيء الهالك الهالك البالي . قال الشاعر :

تركنتي حين كف الدهر من بصرى وإذا بقيت كعظم الرمة البالي
وقال قتادة : إنه الذي ديس من يابس النبات ، وقال السدي وأبو العالية : إنه التراب المدقوق ، وقال قطرب : إنه الرماد ، وأصل الكلمة من رمّ العظم : إذا بلى فهو رميم ، والرمة : العظام البالية (وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) أي وتركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك ، وهو ثلاثة أيام كما في قوله - تمتعوا في داركم ثلاثة أيام (فعتوا عن أمر ربهم) أي تكبروا عن امتثال أمر الله (فأخذتهم الصاعقة) وهي كل عذاب مهلك . قرأ الجمهور « الصاعقة » وقرأ عمر بن الخطاب وحيد وابن محيصن ومجاهد والكسائي « الصعقة » وقد مرّ الكلام على الصاعقة في البقرة ، وفي مواضع (وهم ينظرون) أي يرونها عيانا ، والجملة في محل نصب على الحال ، وقيل إن المعنى : ينتظرون ما وعده من العذاب ، والأول أولى (فما استطاعوا من قيام) أي لم يقدرُوا على القيام . قال قتادة : من نهوض : يعني لم ينهضوا من تلك الصرعة ، والمعنى : أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب ، ومثله قوله - فأصبحوا في دارهم جاثمين - (وما كانوا منتصرين) أي ممنعين من عذاب الله بغيرهم (وقوم نوح من قبل) أي من قبل هؤلاء المهلكين ، فإن زمانهم متقدم على زمن فرعون وعاد ثمود (إنهم كانوا قوما فاسقين) أي خارجين عن طاعة الله . قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بخفض « قوم » أي وفي قوم نوح آية ، وقرأ الباقر بالنصب : أي وأهلكنا قوم نوح ، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة ، أو على مفعول نبذناهم : أي نبذناهم ونبذنا قوم نوح ، أو يكون العامل فيه اذكر (والسماء بنيانها بأيد) أي بقوة وقدرة ، قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال ، والتقدير : وبنيان السماء بنيانها . وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها على الابتداء (وإنا لموسعون) الموسع ذو الوسع والسعة ، والمعنى : إنا لنوسع سعة بخلقها وخلق غيرها لانعجز عن ذلك ، وقيل لقادرون ، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة ، وقيل إنا لموسعون الرزق بالمطر . قال الجوهري : وأوسع الرجل : صار ذا سعة وغنى (والأرض فرشناها) قرأ الجمهور بنصب « الأرض » على الاشتغال . وقرأ أبو السماك وابن مقسم برفعها كما تقدم في قوله (والسماء بنيانها) ومعنى فرشناها : بسطناها كالفرش (فنعم الماهلون) أي نحن ، يقال مهدت الفراش : بسطته ووطأته ، وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها (ومن كل شيء خلقنا زوجين) أي صنفين ونوعين من ذكر وأنثى وبرّ وبحر وشمس وقمر وحلو ومرّ وسماء وأرض وليل ونهار ونور وظلمة وجنّ وإنس وخير وشرّ (لعلكم تذكرون) أي خلقنا ذلك هكذا لتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شيء وتستدلوا بذلك على توحيده وصدق وعده ووعيده (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) أي قل لهم يا محمد : ففروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصي ، وجملة (إني لكم منه نذير مبين) تعليل للأمر بالفرار ، وقيل معنى (ففروا إلى الله) اخرجوا من مكة . وقال الحسين بن الفضل : احترزوا من كل شيء غير الله ، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه . وقيل فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن ، وقيل فروا من الجهل إلى العلم ، ومعنى (إني لكم منه) أي من جهته منذر بين الإنذار (ولا يجعلوا مع الله لها آخر) نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله ، وجملة (إني لكم منه نذير مبين) تعليل للنهي (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) في هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة

وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم أرسلهم ، و (كذلك) في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي الأمر كذلك . ثم فسر ما أجمله بقوله (ما أتى) الخ ، أو في محل نصب نعتا لمصدر محذوف : أي أنذركم إنذارا كما إنذار من تقدمني من الرسل الذين أنذروا قومهم ، والأول أولى (أتواصوا به) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم : أي هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤوا عليه (بل هم قوم طاغون) لإضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان : أي لم يتواصوا بذلك ، بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الكفر . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالإعراض عنهم فقال (فتول عنهم) أي أعرض عنهم وكف عن جدالهم ودعائهم إلى الحق ، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته (فما أنت بمعلوم) عند الله بعد هذا لأنك قد أديت ما عليك ، وهذا منسوخ بآية السيف . ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتي هي أحسن فقال (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) قال الكلبي : المعنى عظم بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم . وقال مقاتل : عظم كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان في علم الله أنه يؤمن . وقيل ذكرهم بالعقوبة وأيام الله ، وخص المؤمنين بالتذكير لأنهم المستفعدون به ، وجملة (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) مستأنفة مقررة لما قبلها ، لأن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للتذكير وينشطهم للإجابة . قيل هذا خاص في من سبق في علم الله سبحانه أنه يعبد ، فهو عموم مراد به الخصوص . قال الواحدي : قال المنسرون : هذا خاص لأهل طاعته ، يعني من أهل من الفريقين . قال : وهذا قول الكلبي والضحاك واختيار الفراء وابن قتيبة . قال القشيري : والآية دخلها التخصيص بالقطع ، لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة ولا أرادها منهم ، وقد قال - ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس - ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة . فالآية محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون » . وقال مجاهد : إن المعنى : إلا ليعرفوني . قال الثعلبي : وهذا قول حسن ، لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده . وروى عن مجاهد أنه قال : المعنى إلا لأمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله - وما أمروا إلا ليعبدوا إله واحد لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون - واختار هذا الزجاج . وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ، فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء للمعصية . وقال الكلبي : المعنى إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة دون النعمة كما في قوله - وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين - وقال جماعة : إلا ليعرضوا لي ويتذللوا ، ومعنى العبادة في اللغة : الذل والخضوع والانقياد ، وكل مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته منتاد لما قدره عليه . خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا . ووجه تقديم الجن على الإنس هاهنا تقدم وجودهم (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده ، وأنه لا يريد منهم منفعة كما تريده السادة من عبيدهم ، بل هو الغني المطلق الرزاق المعطي . وقيل المعنى : ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم ، ولا يطعموا أحدا من خلقي ولا يطعموا أنفسهم ، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله ، فمن أطعم عيال الله فهو كمن أطعمه . وهذا كما ورد في قوله صلى الله عليه وآله وسلم « يقول الله عبيد استطعمتك فلم تطعمني » أي لم تطعم عبادي ، ومن في قوله (من رزق) زائدة لتأكيد العموم . ثم بين سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره ، فقال (إن الله هو الرزاق) لا رزاق سواه ولا معطي غيره ، فهو الذي يرزق مخلوقاته ويقوم بما يصلحهم

فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة (ذو القوة المتين) ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق ، أو لنو ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر . قرأ الجمهور « الرزاق » وقرأ ابن محيصن « الرزاق » وقرأ الجمهور « المتين » بالرفع ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش بالجر صفة للقوة ، والتذكير لكون تأنيثها غير حقيقى . قال القراء : كان حقه المتينة ، فذكرها لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم القتل ، يقال حبل متين : أى محكم القتل ، ومعنى المتين : الشديد القوة هنا (فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم) أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، فإن لهم ذنوباً : أى نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة . قال ابن الأعرابي : يقال يوم ذنوب : أى طويل الشر لا ينقضى ، وأصل الذنوب فى اللغة الدلو العظيمة ، ومن استعمال الذنوب فى النصيب من الشيء قول الشاعر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها ذنوب

وما فى الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير ، فهو تمثيل ، جعل الذنوب . مكان الحظ والنصيب قاله ابن قتيبة (فلا يستعجلون) أى لا يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب كما فى قولهم - اثنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين - (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) قيل هو يوم القيامة وقيل يوم بدر ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر فى قوله (فتولى بركنه) عن ابن عباس قال : بقومه . وأخرج القرطبي وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عنه فى قوله (الريح العقيم) قال : الشديدة التى لا تلقح شيئاً . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب ، وفى قوله (إلا جعلته كالريم) قال : كالشيء الهالك . وأخرج القرطبي وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : الريح العقيم النكباء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (والسماء بنيناها بأيد) قال : بقوة . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر عنه فى قوله (فتول عنهم فما أنت بملوم) قال : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم ، وعذر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فنسخها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) قال : ليقرؤا بالعبودية طوعاً أو كرها . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : على ما خلقتهم عليه من طاعنى ومعصيتى وشقوتى وسعادتى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه أيضاً فى قوله (المتين) يقول : الشديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله (ذنوباً) قال : دلوا .

تفسير سورة الطور

هى تسع وأربعون آية ، وقيل ثمان وأربعون

وهى مكية . قال القرطبي : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت الطور بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى المغرب بالطور . وأخرج البخارى وغيره عن أم سلمة « أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اضْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَكِيِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠).

قوله (والطور) قال الجوهري : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى . قال مجاهد والسدي : الطور بالسريانية الجبل ، والمراد به طور سيناء . قال مقاتل بن حيان : هما طوران : يقال لأحدهما طور سيناء ، وللآخر طور زيتا ، لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل هو جبل مدين ، وقيل إن الطور كل جبل ينبت ، وما لا ينبت فليس بطور ، أقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفا له وتكريما (وكتاب مسطور) المسطور : المكتوب ، والمراد بالكتاب القرآن ، وقيل هو اللوح المحفوظ ، وقيل جميع الكتب المنزلة ، وقيل ألواح موسى ، وقيل ماتكتبه الحفظة قاله القراء وغيره ، ومثله - ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا - وقوله - وإذا الصحف نشرت - (في رق منشور) متعلق بمسطور : أي مكتوب في رق . قرأ الجمهور « في رق » بفتح الراء ، وقرأ أبو السماك بكسرها . قال الجوهري : الرق بالفتح ما يكتب فيه ، وهو جلد رقيق ، ومنه قوله تعالى (في رق منشور) قال المبرد : الرق ما رق من الجلد ليكتب فيه ، والمنشور المبسوط . قال أبو عبيدة : وجمعه رقوق ، ومن هذا قول المتلمس :

فكأنما هي من تقادم عهدها رق اتبع كتابها مسطور

وأما الرق بالكسر فهو المملوك ، يقال عبد رق وعبد مرقوق (والبيت المعمور) في السماء السابعة . وقيل في سماء الدنيا ، وقيل هو الكعبة ، فعلى القولين الأولين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة ويعبد الله فيه . وعلى القول الثالث ، يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازا باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بني آدم (والسقف المرفوع) يعني السماء ، سماها سقفا لكونها كالسقف للأرض ، ومنه قوله - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - وقيل هو العرش (والبحر المسجور) أي الموقد ، من السجر : وهو إيقاد النار في التنور ، ومنه قوله - وإذا البحار سجرت - وقد روى أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا ، وقيل المسجور المملوء ، قيل إنه من أسماء الأضداد ، يقال بحر مسجور : أي مملوء ، وبحر مسجور : أي فارغ ، وقيل المسجور المسوك ، ومنه ساجور الكلب ، لأنه

ينسكه . وقال أبو العالية : المسجور الذي ذهب ماؤه ، وقيل المسجور المقجور ، ومنه - وإذا البحار فجرت -
وقال الربيع بن أنس : هو الذي يختلط فيه العذب بالمالح . والأول أولى ، وبه قال مجاهد والضحاك ومحمد بن
كعب والأنخض وغيرهم (إن عذاب ربك لواقع) هذا جواب القسم : أى كائن لاحالة لمن يستحقه (ماله من
دافع) يدفعه ويرده عن أهل النار ، وهذه الجملة خبر ثان لأن ، أو صفة لواقع ، ومن مزيدة للتأكيد . ووجه
تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية (يوم تمور السماء مورا) العامل
في الظرف لواقع : أى إنه لواقع في هذا اليوم ، ويجوز أن يكون العامل فيه دافع . والمور : الاضطراب والحركة .
قال أهل اللغة : مار الشيء يمور مورا : إذا تحرك وجاء وذهب قاله الأنخض وأبو عبيدة : وأنشدا بيت الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جاريتها مشى السحابة لاريث ولا عجل

وليس في البيت ما يدل على ما قاله إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة في البيت يطلق المور عليها لغة . وقال
الضحاك : يموج بعضها في بعض ، وقال مجاهد : تدور دورا ، وقيل تجرى جريا ، ومنه قول الشاعر :

وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ويطلق المور على الموج ، ومنه ناقة مواراة اليد : أى سريعة تموج في مشيا موجا ، ومعنى الآية أن العذاب
يقع بالعصاة ولا يدفعه عنهم دافع في هذا اليوم الذي تكون فيه السماء هكذا ، وهو يوم القيامة . وقيل إن السماء
هاهنا القلك ، وموره : اضطراب نظمه واختلاف سيره (وتسير الجبال سيرا) أى تزول عن أماكنها وتسير عن
مواضعها كسير السحاب وتكون هباء منبثا ، قيل ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتها وخروجها عن
المعهود ، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف (فويل يومئذ للمكذبين) ويل كلمة تقال للهالك ، واسم
واد في جهنم ، وإنما دخلت القاء لأن في الكلام معنى المجازاة : أى إذا وقع ما ذكر من مور السماء وسير الجبال
فويل لهم . ثم وصف المكذبين بقوله (الذين هم في خوض يلعبون) أى في تردد في الباطل واندفاع فيه يلهبون
لا يذكرون حسابا ولا يخافون عقابا . والمعنى : أنهم يخوضون في أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكذب
والاستهزاء ، وقيل يخوضون في أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) الدع الدفع
بعنف وجفوة : يقال دعته أدعه دعا : أى دفعته ، والمعنى : أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا . قال مقاتل :
تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم . قرأ الجمهور
بفتح الدال وتشديد العين . وقرأ على والسلمى وأبو رجاء وزيد بن علي وابن السميع بسكون الدال وتخفيف
العين مفتوحة : أى يدعون إلى النار من الدعاء . ويوم إما بدل من يوم تمور : أو متعلق بالقول المقدر في الجملة التي
بعد هذه ، وهى (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) أى يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا : أى هذه
النار التي تشاهدونها هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ، والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار . ثم وبخهم
سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم ، فقال (أفسح هذا) الذي ترون وتشاهدون كما كنتم تقولون لرسول الله المرسل
واكتبه المنزلة ، وقدّم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذي وقع الاستفهام عنه وتوجه التوبيخ إليه (أم أنتم لا تبصرون)
أى أم أنتم عمى عن هذا كما كنتم عميا عن الحق في الدنيا (اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا) أى إذا لم يمكنكم إنكارها
وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ولم يكن في أبصاركم خلل ، فالآن ادخلوها وقاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو
لاتصبروا وافعلوا ما شئتم ، فالأمران (سواء عليكم) في عدم النفع ، قيل أيضا تقول لهم الملائكة هذا القول ،
وسواء خبر مبتدأ محذوف : أى الأمران سواء ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف : أى سواء عليكم

الصبر وعلمه ، وجملة (إنما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء ، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حينما كان الصبر وعلمه سواء (إن المتقين في جنات ونعيم) لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة في غمهم وحسرتهم ، والتنوين (في جنات ونعيم) للتخيم (فاكهين بما آتاهم ربهم) يقال رجل فاكه : أى ذو فاكهة ، كما قيل لابن وثامر . والمعنى : أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة ، وقيل ذوو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد تقدم بيان معنى هذا . قرأ الجمهور « فاكهين » بالالف والنصب على الحال . وقرأ خالد « فاكهون » بالرفع على أنه خبر بعد خبر . وقرأ ابن عباس « فكهين » بغير ألف ، والفكه : طيب النفس كما تقدم في الدخان ، ويقال للأشر والبطر ، ولا يناسب التفسير به هنا (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) معطوف على آتاهم ، أو على خبر إن ، أو الجملة في محل نصب على الحال باضمار قد (كلوا واشربوا هنيئا) أى يقال لهم ذلك ، والهنيء : مالا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنتكم ما صرتم إليه هناء ، والمعنى : كلوا طعاما هنيئا واشربوا شرابا هنيئا ، وقد تقدم تفسير هنيئا في سورة النساء ، وقيل معنى هنيئا : أنكم لا تموتون (متكئين على سرر مصفوفة) انتصابه على الحال من فاعل كلوا ، أو من مفعول آتاهم ، أو من مفعول وقاهم ، أو من الضمير المستكن في الظرف ، أو من الضمير في فاكهين . قرأ الجمهور « على سرر » بضم الراء الأولى . وقرأ أبو السماك بفتحها ، والسرر جمع سرير . والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفا (وزوجناهم بحور عين) أى قرناهم بها . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت بامرأة ، وليس من كلام العرب زوجته بامرأة . قال وقول الله تعالى (وزوجناهم بحور عين) أى قرناهم بهن . وقال الفراء : زوجته بامرأة لغة أزد شنوعة ، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الدخان . قرأ الجمهور « بحور عين » من غير إضافة . وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس (والطور) قال : جبل . وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الطور جبل من جبال الجنة » وكثير ضعيف جدا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (في رق منشور) قال : في الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة » ، وفي الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة « ثم رفع إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل عليا عن البيت المعمور فقال : ذلك الضراح^١ بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو رفعه . قال : إن البيت المعمور لبحيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا ثم لا يعودون إليه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وضعف إسناده السيوطي

(١) الضراح : بالضم بيت في السماء ، وهو البيت المعمور اهـ صاحب المصاحف .

وأخرج ابن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم ومصححه ، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله (والسقف المرفوع) قال : السماء . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله (والبحر المسجور) قال : بحر في السماء تحت العرش . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس . وأخرج ابن المنذر عنه قال : المسجور المرسل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (يوم تمور السماء مورا) قال : تحرك ، وفي قوله (يوم يدعون) قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا : يوم يدعون (إلى نار جهنم دعا) قال : يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (كلوا واشربوا هنيئا) أي لا تموتون فيها ، فعندها قالوا - أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين -

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقِينَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ أَلْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤).

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص فقال (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) والموصول مبتدأ ، وخبره « ألحقنا بهم » ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدر : أي وأكرمنا الذين آمنوا ، ويكون ألحقنا مفسرا لهذا الفعل المقدر . قرأ الجمهور « واتبعتهم » بإسناد الفعل إلى الذرية . وقرأ أبو عمرو « أتبعناهم » بإسناد الفعل إلى المتكلم ، كقوله ألحقنا . وقرأ الجمهور « ذريتهم » بالإفراد . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بالجمع ، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ : وأتبعناهم ، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع ، والمشهور عنه كقراءة الجمهور . وقرأ الجمهور « ألحقنا بهم » بالإفراد . وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب على الجمع ، وجملة (واتبعتهم ذريتهم) معطوف على آمنوا أو معترضة ، وإيمان متعلق بالاتباع ، ومعنى هذه الآية : أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمنين إليه وإن كانوا

دونه في العمل لتقر عينه وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين ، فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من النورية وهم البالغون دون الصغار ، فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم فيدليل آخر غير هذه الآية . وقيل إن الذرية تطلق على الكبار والصغار كما هو المعنى اللغوي ، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذريتهم وكبارهم ، ويكون قوله : بإيمان في محل نصب على الحال : أي بإيمان من الآباء . وقيل إن الضمير في بهم راجع إلى الذرية المذكورة أولاً : أي ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم . وقيل المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار فقط ، وظاهر الآية العموم ، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك ، فلا اعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وما ألتناهم من عملهم من شيء) قرأ الجمهور بفتح اللام من «ألتنا» وقرأ ابن كثير بكسرها : أي وما نقصنا الآباء بلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئاً ، فضمير المفعول عائد إلى الذين آمنوا . وقيل المعنى : وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئاً لقصر أعمارهم ، والأول أولى ، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته وآلاته في سورة الحجرات . وقرأ ابن هرمز «ألتناهم» بالمد ، وهو لغة . قال في الصحاح : يقال ما آلته من عمله شيئاً أي ما نقصه (كل امرئ بما كسب رهين) رهين بمعنى مرهون ، والظاهر أنه عام ، وأن كل إنسان مرتين بعمله ، فإن قام به على الوجه الذي أمره الله به فكاهه وإلا أهلكه . وقيل هو بمعنى رهن ، والمعنى : كل امرئ بما كسب دائم ثابت . وقيل هذا خاص بالكفار لقوله - كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين - ثم ذكر سبحانه ما أمدهم به من الخير فقال (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أي زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوعة ، ولحم من أنواع اللحمان مما تشبهه أنفسهم ويستطيبنه (يتنازعون فيها كأساً) أي يتعاطون ويتناولون كأساً ، والكأس إناء الخمر ، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر أو غيره ، فإذا فرغ لم يسم كأساً (لا لغو فيها ولا تأثيم) قال الزجاج : لا يجري بينهم مايلغي ولا مافيه إثم كما يجري بين من يشرب الخمر في الدنيا ، والتأثيم تفعيل من الإثم ، والضمير في «فيها» راجع إلى الكأس ، وقيل لا لغو فيها : أي في الجنة ولا يجري فيها مافيه إثم والأول أولى . قال ابن قتيبة : لا تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا ، ولا يكون منهم ما يؤثمهم . وقال الضحاك : لا تأثيم : أي لا كذب . قرأ الجمهور «لا لغو فيها ولا تأثيم» بالرفع والتنوين فيهما . وقرأ ابن كثير وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين . قال قتادة : اللغو الباطل . وقال مقاتل بن حيان : لا فضول فيها . وقال سعيد بن المسيب : لا رفث فيها . وقال ابن زيد : لأسباب ولا تخاصم فيها . والجملة في محل نصب على الحال صفة لكأسا (ويطوف عليهم غلمان لهم) أي يطوف عليهم بالكأس والقواكه والطعام وغير ذلك مما يليك لهم ، وقيل أولادهم (كأنهم) في الحسن والبهاء (لؤلؤ مكنون) أي مستور مصون في الصدف لم تمسه الأيدي . قال الكسائي : كنت الشيء : سترته وصننته من الشمس ، وأكننته : جعلته في الكن ، ومنه كنت الجارية ، وأكننتها فهي مكنونة (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أي يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله ، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن والخوف والهم ، وما كانوا فيه من الكد والنكد بطلب المعاش وتحصيل ما لا بد منه من الرزق . وقيل يقول بعضهم لبعض : بم صرتم في هذه المنزلة الرفيعة ؟ وقيل إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور . والأول أولى للدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة ، وجملة (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل ؟ فقيل : قالوا إنا كنا قبل : أي قبل الآخرة ، وذلك في الدنيا في أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله ، أو كنا خائفين من عصيان الله (فن الله علينا) بالمغفرة والرحمة أو بالتوفيق لطاعته (ووقانا عذاب السموم) يعني عذاب جهنم ، والسموم من أسماء جهنم كذا قال الحسن ومقاتل . وقال الكلبي وأبو عبيدة : هو عذاب النار .

وقال الزجاج : سموم جهنم ما يوجد من حرّها . قال أبو عبيدة : السموم بالنهار ، وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل ، وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم في لفح البرد ، وفي لفح الشمس والحرّ أكثر ، ومنه قول الشاعر :

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه .

وقيل سميت الريح سموماً لأنها تدخل المسام (إنا كنا من قبل ندعوه) أي نوحده الله ونعبده : أو نسأله أن يمن علينا بالمغفرة والرحمة (أنه هو البرّ الرحيم) قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستثفاف ، وقرأ نافع والكسائي بفتحها : أي لأنه ، والبرّ كثير الإحسان ، وقيل اللطيف ، والرحيم كثير الرحمة لعبادة (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أي اثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير والباء متعلقة بمحذوف هو حال : أي ما أنت متلبساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوة بكاهن ولا مجنون ، وقيل متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام : أي ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، وقيل الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية ، والمعنى : انتفى عنك الكهانة والمجنون بسبب نعمة الله عليك كما تقول ما أنا بمعسر بحمد الله . وقيل الباء للقسم متوسطة بين اسم ما وخبرها ، والتقدير : ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون ، والكاهن هو الذي يؤمهم أنه يعلم الغيب من دون وحى : أي ليس ما تقوله كهانة ، فإنك إنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه . والمقصود من الآية ردّ ما كان يقوله المشركون : إنه كاهن أو مجنون (أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون) أم هي المنقطعة ، وقد تقدّم الخلاف هل هي مقدرة بيل والهمزة ، أو بيل وحدها . قال الخليل : هي هنا للاستفهام . قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى في كلامهم . قال النحاس : يريد سيبويه أن أم في كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث ، ونربص في محل رفع صفة لشاعر ، وريب المنون : صروف الدهر ، والمعنى : ننظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره ، أو يهلك كما هلك من قبله ، والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى المنية . قال الأخفش : المعنى نربص إلى ريب المنون ، فحذف حرف الجرّ ، كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد ، ومن هذا قول الشاعر :

نربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت خليلها
وقول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعي : المنون واحد لا جمع له . قال الفراء : يكون واحداً وجمعاً . وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له . ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم ، فقال (قل تربصوا فإني معكم من المتربصين) أي انتظروا موتي أو هلاكي ، فإني معكم من المتربصين لموتكم أو هلاككم . قرأ الجمهور نربص بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين . وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أي بل تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض ، فإن الكاهن هو المفرط في الفطنة والذكاء ، والمجنون : هو ذاهب العقل فضلاً عن أن يكون له فطنة وذكاء . قال الواحدي : قال المفسرون كانت عظماء قریش توصف بالأحلام والعقول فأزرا الله بحلومهم حين لم تشر لهم معرفة الحق من الباطل (أم هم قوم طاغون) أي بل أطغوا وجاوزوا الحدّ في العناد ، فقالوا ما قالوا ، وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام كما هو مدلول أم المنقطعة تدل على أن ماتعقبها أشنع مما تقدّمها ، وأكثر جرأة وعناداً (أم يقولون تقوله) أي اختلق القرآن من جهة نفسه وافعله ، والتقول لا يستعمل إلا في الكذب في الغالب ، وإن كان أصله تكلف القول ، ومنه اقتال عليه ، ويقال اقتال عليه : بمعنى تحكّم عليه ومنه قول الشاعر :

ومنزلة في دار صدق وغبطة وما اقتال في حكم علي طيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم (تقوله) وانتقل إلى ما هو أشد شناعة عليهم فقال (بل لا يؤمنون) أي سبب صدور هذه الأقوال المتناقضة عنهم كونهم كفارا لا يؤمنون بالله ولا يصدقون ما جاء به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم تحداهم سبحانه وألزمهم الحجة فقال (فليأتوا بحديث مثله) أي مثل القرآن في نظمه وحسن بيانه وبديع أسلوبه (إن كانوا صادقين) فيما زعموا من قولهم: إن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم تقوله وجاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربي، وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر.

وقد أخرج سعيد بن منصور وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي عن ابن عباس قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر به عينه. ثم قرأ (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم) الآية. وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعا. وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يارب قد عملت لى ولهم، فيؤمر بالحاقهم به، وقرأ ابن عباس (والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم) الآية. وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والذين آمنوا) الآية» وإسناده هكذا. قال عبد الله بن أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي بن أبي طالب قال «سألت خديجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هما في النار، فلما رأى الكراهة في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: يا رسول الله فولدي منك. قال: في الجنة، قال: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار، ثم قرأ (والذين آمنوا) الآية». وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول يارب من أين لى هذا، فيقول باستغفار ولدك لك» وإسناده صحيح. وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس (وما ألتناهم) قال: ما نقصناهم. وأخرج ابن أبي حاتم عنه (لا لغو فيها) يقول: باطل (ولا تأثيم) يقول كذب. وأخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدثان فيتكىء ذا ويتكىء ذا فيتحدثان بما كانوا في الدنيا، فيقول أحدهما: يا فلان تدري أى يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، ندعونا الله فغفر لنا». وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأثمة لأحرقت الأرض ومن عليها. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إنه هو البر) قال: الطيف. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عنه أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار النبوذة في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال قائل منهم احبسوه في وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والناطقة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك (أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (ريب المنون) قال: الموت.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٢٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٢٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَّبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ (٢٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِيَنَّ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ (٢٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٢٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٣٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٣١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٣٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٣٤) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٣٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٣٨) وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ (٣٩).

قوله (أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أم هذه هي المنقطة كما تقدم فيما قبلها ، وكما سيأتي فيما بعدها : أى بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة والصنعة العجيبة من غير خالق لهم . قال الزجاج : أى أخلقوا باطلا لغير شيء لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ، وجعل « من » بمعنى اللام . قال ابن كيسان : أم خلقوا عبثا وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون . وقيل المعنى : أم خلقوا من غير أب ولا أم ، فهم كالحماة لا يفهمون ولا تقوم عليهم حجة (أم هم الخالقون) أى بل يقولون هم الخالقون لأنفسهم فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم يقولون أن الله خالقهم ، وإذا أقروا لزمهم الحجة (أم خلقوا السموات والأرض) وهم لا يدعون ذلك فلزمهم الحجة ، ولهذا أضرَب عن هذا وقال (بل لا يوقنون) أى ليسوا على يقين من الأمر ، بل يخطون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده (أم عندهم خزائن ربك) أى خزائن أرزاق العباد ، وقيل : مفاتيح الرحمة . قال مقاتل : يقول أبائهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاءوا ؟ وكذا قال عكرمة : وقال الكلبي : خزائن المطر والرزق (أم هم المصيطرون) أى المسلطون الجبارون . قال في الصحاح : المسيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله ، وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر . وقال أبو عبيدة : سطرت على : اتخذتني خولا لك . قرأ الجمهور « المصيطرون » بالصاد الخالصة ، وقرأ ابن محيصن وحيد ومجاهد وقنبل وهشام بالسین الخالصة ، ورويت هذه القراءة عن حفص ، وقرأ خلاد بصاد مشمة زايا (أم لهم سلم يستمعون فيه) أى بل يقولون إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به ويستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم ويصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بطريق الوحي . وقوله « فيه » صفة لسلم ، وهى للظرفية على بابها ، وقيل هى بمعنى على : أى يستمعون عليه كقوله - ولأصلبنكم فى جذوع النخل - قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : المعنى : أنهم كجبريل الذى يأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالوحى ، وقيل هى فى محل نصب على الحال : أى صاعدين فيه (فليأت مستمعهم) إن ادعى ذلك (بسلطان مبین) أى بحجة واضحة ظاهرة (أم له

البنات ولكم البنون) أى بل أتقولون لله البنات والكم البنون ، سفة سبحانه أحلامهم ، وضلل عقولهم ووبخهم :
 أى أضيفون إلى الله البنات وهى أضعف الصنفين ، ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما ، وفيه إشعار بأن من
 كان هذا رأيه فهو بمحل سافل في الفهم والعقل ، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد . ثم رجع سبحانه
 إلى خطاب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (أم تسألهم أجرا) أى بل أتسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ
 الرسالة (فهم من مغرم مثقلون) أى من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون : أى مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل .
 قال قتادة : يقول : هل سألت هؤلاء القوم أجرا فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام (أم عندهم الغيب فهم يكتبون)
 أى بل أيدعون أن عندهم علم الغيب ، وهو ما في اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب . قال
 قتادة : هذا جواب لقولهم - نربص به ريب المنون - يقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا يموت
 قبلهم فهم يكتبون . قال ابن قتيبة : معنى يكتبون يحكمون بما يقولون (أم يريدون كيدا) أى مكرا برسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم فيهلكونه بذلك المكر (فالذين كفروا هم المكيدون) أى الممكور بهم المحزيون بكيدهم ،
 فضرر كيدهم يعود عليهم - ولا يحقق المكر السوء إلا بأهله - وقد قتلهم الله في يوم بدر وأذلهم في غير موطن ، ومكر
 سبحانه بهم - ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين - (أم لهم إله غير الله) أى بل أيدعون أن لهم إله غير الله
 يحفظهم ويرزقهم وينصرهم . ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال (سبحانه الله عما يشركون) أى عن
 شركهم به ، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له . ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم ، فقال (وإن يروا كسفا من
 السماء ساقطا يقولوا سحاب مراكوم) الكسف جمع كسفة : وهى القطعة من الشيء ، وانتصاب ساقطا على الحال ،
 أو على أنه المفعول الثانى ، والمراكوم : المجهول بعضه على بعض . والمعنى : أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا
 عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون هو سحاب مراكم بعضه على بعض ، وقد تقدم اختلاف القراء في
 كسفا . قال الأخفش : من قرأ كسفا ، يعنى بكسر الكاف وسكون السين جعله واحدا ، ومن قرأ كسفا ، يعنى
 بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعا . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتركهم ، فقال (غدرهم
 حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى اتركهم وخل عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم ، أو يوم قتلهم بدر ، أو
 يوم القيامة . قرأ الجمهور « يلاقوا » وقرأ أبو حيو « يلقوا » وقرأ الجمهور : يصعقون على البناء للفاعل : وقرأ ابن
 عامر وعاصم على البناء للمفعول ، والصعقة : الهلاك على ما تقدم بيانه (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا) هو بدل
 من يومهم : أى لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذى كادوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا (ولا
 هم ينصرون) أى ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع ، بل هو واقع بهم لا محالة (وإن للذين ظلموا عذابا
 دون ذلك) أى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذابا في الدنيا دون عذاب يوم القيامة : أى قبله ،
 وهو قتلهم يوم بدر . وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا ، وذهاب الأموال
 والأولاد . وقال مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين ، وقيل عذاب القبر ، وقيل المراد بالعذاب هو القحط ،
 وبالعذاب الذى يأتى بعده هو قتلهم يوم بدر (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعدّه
 لهم في الدنيا والآخرة (واصبر لحكم ربك) إلى أن يقع لهم العذاب الذى وعدناهم به (فلأنك بأعيننا) أى بمرأى ومنظر
 منا ، وفى حفظنا وحمايتنا فلا تبال بهم . قال الزجاج : أنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك فلا يصلون إليك (وسبح
 بحمد ربك حين تقوم) أى نزه ربك عما لا يليق به متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك . قال
 عطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحرص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده ،

أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع بن أنس : حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وفيه نظر لأن التكبير يكون بعد القيام لاحال القيام ، ويكون التسبيح بعد التكبير ، وهذا غير معنى الآية ، فالأول أولى . وقيل المعنى : صلّ الله حين تقوم من منامك ، وبه قال أبو الجوزاء وحسان بن عطية . وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وهي صلاة الفجر (ومن الليل فسبحه) أمره الله سبحانه أن يسبحه في بعض الليل . قال مقاتل : أي صلّ المغرب والعشاء ، وقيل : ركعتي الفجر (وإدبار النجوم) أي وقت إدبارها من آخر الليل ، وقيل صلاة الفجر ، واختاره ابن جرير ، وقيل هو التسبيح في إدبار الصلوات ، قرأ الجمهور « إدبار » بكسر الهمزة على أنه مصدر ، وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السميع ويعقوب والمنهال بن عمرو فتحها على الجمع : أي أعقاب النجوم وأدبارها : إذا غربت ، ودبر الأمر : آخره ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة « ق » .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أم هم المصيطرون) قال : المسلطون وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أم هم المنزلون . وأخرج عنه أيضا (عذابا دون ذلك) قال : عذاب القبر قبل يوم القيامة . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بآخرة إذا قام من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل : يا رسول الله : إنك لتقول قولاً ما كنت تقول فيه مضى ، قال : كفارة لما يكون في المجلس » . وأخرجه النسائي والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن رافع ابن خديج عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج الترمذي وابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » . قال الترمذي : حسن صحيح . وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وسبح بحمد ربك حين تقوم) قال : حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (ومن الليل فسبحه) قال : الركعتان قبل صلاة الصبح . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وإدبار النجوم) قال : ركعتي الفجر .

تفسير سورة النجم

هي إحدى وستون آية ، وقيل ثنتان وستون آية

وهي مكية جميعها في قول الجمهور . وروى عن ابن عباس وعكرمة أنها مكية إلا آية منها ، وهي قوله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) الآية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة النجم بمكة ، وأخرج أيضا عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسجد الناس كلهم ، إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيت بعد ذلك قتل كافرا ، وهو أمية بن خلف . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال :

أول سورة استعلن بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها والنجم . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ النجم ، فسجد بنا فأطال السجود » . وأخرج ابن مردويه عن عائشة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ النجم فلما بلغ السجدة سجد فيها » . وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والطبراني وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : قرأت النجم عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يسجد فيها . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسجد في النجم بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة تركها . وأخرج أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) .

(قوله والنجم إذا هوى) التعريف للجنس ، والمراد به جنس النجوم ، وبه قال جماعة من المفسرين ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

أحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين النساء

وقيل : المراد به الثريا ، وهو اسم غلب فيها ، تقول العرب النجم وتريد به الثريا ، وبه قال مجاهد وغيره . وقال السدي : النجم هنا هو الزهرة ، لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها ، وقيل النجم هنا النبات الذي لا ساق له

كما في قوله - والنجم والشجر يسجدان - قاله الأخفش . وقيل النجم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل النجم القرآن ، وسمى نجما لكونه نزل منجما مفترقا ، والعرب تسمى التفریق تنجما ، والمفترق : المنجم ، وبه قال مجاهد والقراء وغيرهما ، والأول أولى . قال الحسن : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقيل المراد بها النجوم التي ترجم بها الشياطين ، ومعنى هويه : سقوطه من علو ، يقال هوى النجم يهوى هويا : إذا سقط من علو إلى سفلى ، وقيل غروبه ، وقيل طلوعه ، والأول أولى ، وبه قال الأصمعي وغيره ، ومنه قول زهير :

تسبح بها الأباعر وهى تهوى هوى الدلو أسلمها الرشاء

ويقال هوى في السير : إذا مضى ؛ ومنه قول الشاعر :

بينما نحن بالبلاكت فالقاع سراعا والعيس تهوى هويا

خطرت خطرة على القلب من ذكراك وهنا فما استعطت مضيا

ومعنى الهوى على قول من فسر النجم بالقرآن : أنه نزل من أعلا إلى أسفل ، وأما على قول من قال إنه الشجر الذي لاساق له ، أو أنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا يظهر للهوى معنى صحيح ، والعامل في الظرف نزل القسم المقدّر ، وجواب القسم قوله (ما ضلّ صاحبكم وما غوى) أى ما ضلّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الحق والهدى ولا عدل عنه ، والغنى : ضدّ الرشد ، أى ما صار غاويا ، ولا تكلم بالباطل ، وفيل ما خاب فيما طلب ، والغنى : الخيبة ، ومنه قول الشاعر :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغنى لاثما

وفي قوله (صاحبكم) إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله ، والخطاب لقريش (وما ينطق عن الهوى) أى ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا غيره ، فعن علي بابها . وقال أبو عبيدة : إن عن بمعنى الباء : أى بالهوى . قال قتادة : أى ما ينطق بالقراءة عن هواه (إن هو إلا وحي يوحى) أى ما هو الذي ينطق به إلا وحي من الله يوحى إليه . وقوله (يوحى) صفة لوحى تفيد الاستمرار التجددى ، وتفيد نفي الحجاز : أى هو وحي حقيقة لا مجرد التسمية (علمه شديد القوى) القوى جمع قوة ، والمعنى : أنه علمه جبريل الذي ، هو شديد قواه هكذا قال أكثر المفسرين إن المراد جبريل . وقال الحسن : هو الله عز وجل ، والأول أولى وهو من باب إضانة الصفة إلى الموصوف (ذو مرة فاستوى) المرة : القوة والشدة في الخلق ، وقيل ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا تحل الصدقة لغنى » ، ولا لذى مرة سوى . وقيل ذو حصانة عقل ومتانة رأى . قال قطرب : العرب تقول لكل من هو جزل رأى حصيف العقل ذو مرة ، ومنه قول الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندي لكل مخاصم ميزانه

والتفسير للمرة بهذا أولى ، لأن القوة والشدة قد أفادها قوله (شديد القوى) قال الجوهري : المرة إحدى الطبائع الأربع ، والمرة : القوة وشدة العقل ، والفاء في قوله (فاستوى) للعطف على علمه ، يعنى جبريل : أى ارتفع وعاد إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، قاله سعيد بن المسيب وسعيد بن جبیر . وقيل معنى استوى قام في صورته التي خلقه الله عليها لأنه كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة آدميين ، وقيل : المعنى فاستوى القرآن في صدره صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الحسن : فاستوى يعنى الله عز وجل على العرش (وهو بالأفق الأعلى) هذه الجملة في محل نصب على الحال : أى فاستوى جبريل حال كونه

بالأفق الأعلى ، والمراد بالأفق الأعلى : جانب المشرق ، وهو فوق جانب المغرب ، وقيل المعنى : فاستوى عالياً ، والأفق : ناحية السماء ، وجمعه آفاق . قال قتادة ومجاهد : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس ، وقيل : هو يعني جبريل والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأفق الأعلى ليلة المعراج ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة (ثم دنا فتدلى) أى دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى : أى قرب من الأرض ، فتدلى فنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي ، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ثم تدلى فدنى ، قاله ابن الأنبارى وغيره . قال الزجاج : معنى دنا فتدلى واحد : أى قرب وزاد فى القرب كما تقول فدنا منى فلان وقرب ، ولو قلت : قرب منى ودنا جاز . قال الفراء : الفاء فى فتدلى بمعنى الواو ، والتقدير : ثم تدلى جبريل ودنا ، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أن تقدم أيهما شئت . قال الجمهور : والذى دنا فتدلى هو جبريل ، وقيل هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى : دنا منه أمره وحكمه ، والأول أولى . قيل ومن قال : إن الذى استوى هو جبريل ومحمد ، فالمعنى : دنا منى : ثم دنا محمد من ربه دنوا كرامة فتدلى : أى هوى للسجود ، وبه قال الضحاك (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين : أى قدر قوسين عربيين . والقاب والقيب ، والقاد والقيد : المقدار ، ذكر معناه فى الصحاح . قال الزجاج : أى فيما تقدرون أنتم ، والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا . وقيل أو بمعنى الواو : أى وأدنى ، وقيل بمعنى بل : أى بل أدنى . وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهمداني وأبو وائل شقيق بن سلمة (فكان قاب قوسين) قدر ذراعين ، والقوس : الذراع يقاس بها كل شيء ، وهى لغة بعض الحجازيين ، وقيل هى لغة أزد شنوءة . وقال الكسائى : فكان قاب قوسين أراد قوساً واحدة (فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى فأوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أوحى ، وفيه تضخيم للوحي الذى أوحى إليه ، والوحي : إلقاء الشيء بسرعة ، ومنه الوحا وهو السرعة ، والضمير فى عبده يرجع إلى الله كما فى قوله - ماترك على ظهرها من دابة - وقيل المعنى : فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى ، وبالأول قال الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . وقيل فأوحى الله إلى عبده محمد . قيل وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد ، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل أو إلى محمد ولم يبينه لنا ، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره . وقال سعيد بن جبير : الذى أوحى إليه هو - ألم نشرح لك صدرك - الخ ، و - ألم يحدك يتيماً فأوى - الخ . وقيل أوحى الله إليه إن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك . وقيل إن ما للعموم لا للإبهام ، والمراد كل ما أوحى به إليه ، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم (ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما رآه بصره ليلة المعراج ، يقال كذبه : إذا قال له الكذب ولم يصدقه . قال المبرد : معنى الآية أنه رأى شيئاً فصدق فيه . قرأ الجمهور « ما كذب » مخففاً ، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد ، « وما » فى « ما رأى » موصولة أو مصدرية فى محل نصب بكذب مخففاً ومشدداً (أفمارونه على ما يرى) . قرأ الجمهور « أفمارونه » بالألف من المماراة ، وهى المجادة والملاحاة ، وقرأ حمزة والكسائى « أفتمرونه » بفتح التاء وسكون الميم : أى أفتمجدونه ، واختار أبو عبيد القزعة الثانية . قال : لأنهم لم يماروه وإنما جحدوه ، يقال مزاه حقه : أى جحدته ، ومريته أنا : جحدته . قال ومنه قول الشاعر :

لأن هجوت أنا صدق ومكرمة لقد مريته أنا ما كان يهينها

أبى جحده : قال المبرد : يقال أمراه عن حقه وعلى حقه : إذا منعه منه ودفعه . وقيل على بمعنى عن . وقرأ ابن مسعود والشعبي ومجاهد والأعرج « أقمروته » بضم التاء من أمرت : أى أترهبونه وتشكون فيه . قال جماعة من المفسرين : المعنى على قراءة الجمهور أفتجادلونه ، وذلك أنهم جادلوه حين أسرى به فقالوا : صف لنا مسجد بيت المقدس ، أى أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه ، واللام في قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) هى الموطئة للقسم : أى والله لقد رآه نزلة أخرى ، والنزلة المرة من النزول ، فانتصابها على الظرفية أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال : أى رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى ، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف : أى رآه رؤية أخرى . قال جمهور المفسرين : المعنى أنه رأى محمد جبريل مرة أخرى ، وقيل رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده (عند سدره المنتهى) الظرف منتصب برآه ، والسدر هو شجر النبق ، وهذه السدره هى فى السماء السادسة كما فى الصحيح ، وروى أنها فى السماء السابعة . والمنتهى : مكان الانتهاء ، أو هو مصدر ميمى ، والمراد به الانتهاء نفسه ، قيل إليها ينتهى علم الخلائق ولا يعلم أحد منهم ما وراءها ، وقيل ينتهى إليها ما يعرج به من الأرض ، وقيل تنهى إليها أرواح الشهداء ، وقيل غير ذلك . وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه (عندها جنة المأوى) أى عند تلك السدره جنة تعرف بجنة المأوى ، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم ، وقيل إن أرواح المؤمنين تأوى إليها . قرأ الجمهور « جنة » برفع جنة على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدم . وقرأ على وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر بن حبيش ومحمد بن كعب ومجاهد وأبو سبرة الجهنى جنة فعلاً ماضياً من جن يجن : أى ضمه المبيت ، أو ستره إيواء الله له . قال الأخفش : أدركه كما تقول جنة الليل أى ستره وأدركه ، والجملة فى محل نصب على الحال (إذ يغشى السدره ما يغشى) العامل فى الظرف رآه أيضاً ، وهو ظرف زمان ، والذي قبله ظرف مكان ، والغشيان بمعنى التغطية والستر ، وبمعنى الإتيان يقال : فلان يغشاني كل حين : أى يأتيني ، وفى الإبهام فى قوله (ما يغشى) من التفخيم مالا يخفى ، وقيل يغشاها جراد من ذهب ، وقيل طوائف من الملائكة . وقال مجاهد : رفرف أخضر ، وقيل رفرف من طيور خضر ، وقيل غشها أمر الله ، والحجىء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً للصورة البديعة ، أو للدلالة على الاستمرار التجددى (مازاغ البصر) أى ما مال بصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما رآه (وما طغى) أى ما جاوز ما رأى ، وفى هذا وصف أدب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك المقام حيث لم يلتفت ، ولم يمل بصره ، ولم يمد به إلى غير ما رأى ، وقيل ما جاوز ما أمر به (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام مالا يحيط به الوصف ، قيل رأى رفرفاً سد الأفق ، وقيل رأى جبريل فى حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح ، كذا فى صحيح مسلم وغيره ، وقال الضحاك : رأى سدره المنتهى ، وقيل هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه وعوده ، ومن للتبعيض ومفعول رأى الكبرى ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً أى رأى شيئاً عظيماً من آيات ربه ، ويجوز أن تكون من زائدة (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) لما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين : موبخا لهم ومقرعاً (أفرايتم) أى أخبروني عن الآلهة التى تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها ، وهل أوحى إليكم شيئاً كما أوحى الله إلى محمد ، أم هى جمادات لا تعقل ولا تنفع . ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب وعظم اعتقادهم فيها . قال الواحدى وغيره : وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى ، فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العزى ، وهى تأنيث الأعز بمعنى العزيزة ، ومناة من منى الله الشيء إذا قدره . قرأ الجمهور (اللات) بتخفيف التاء ، فقيل هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما تقدم ،

وقيل أصله لات يليت ، فالتاء أصلية ، وقيل هي زائدة وأصله لوى يلوى لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها أو يلتوون عليها ويطوفون بها . واختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء أو بالهاء ؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء ووقف عليها الكسائي بالهاء ، واختار الزجاج والفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف فإنها تكتب بالتاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو الجوزاء وأبو صالح وحيد « اللات » بتشديد التاء ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير ، فقيل هو اسم رجل كان يلت السويق ويطعمه الحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل . قال مجاهد : كان رجلا في رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيسا ويطعم الحاج ، وكان يبطن نخلة ، فلما مات عبدوه . وقال الكلبي : كان رجلا من ثقيف له صرمة غم ، وقيل إنه عامر بن الظرب العدواني ، وكان هذا الصنم لثقيف ، وفيه يقول الشاعر :

لاتنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس ينتصر

قال في الصحاح : واللّات اسم صنم لثقيف ، وكان بالطائف وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء (والعزى) صنم قريش وبنى كنانة . قال مجاهد : هي شجرة كانت بغطفان ، وكانوا يعبدونها ، فبعث إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، وقيل كانت شيطانة تأتي ثلاث سمرة يبطن نخلة . وقال سعيد بن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه . وقال قتادة : هي بيت كان يبطن نخلة (ومناة) صنم بني هلال . وقال ابن هشام : صنم هذيل وخزاعة . وقال قتادة : كانت للأنصار . قرأ الجمهور « مناة » بألف من دون همزة ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد والسلمي بالمد والهمز . فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى بمعنى . أى صب ، لأن دماء النساء كانت تصب عندها يتقربون بذلك إليها . وأما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء ، وهو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء ، وقيل هما لغتان للعرب ، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير :

أزيد مناة توعد يابن نيم تأمل أين تاه بك الوعيد

ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي :

ألا هل أتى التيم بن عبد مناة على السر فيما بيننا ابن تميم

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعا لرسم المصحف ، ووقف ابن كثير وابن محيصن عليها بالهاء . قال في الصحاح : ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء ، وهي لغة . قوله (الثالثة الأخرى) هذا وصف لمناة ، وصفها بأنها ثالثة وبأنها أخرى ، والثالثة لاتكون إلا أخرى . قال أبو البقاء : فاله وصف بالأخرى للتأكيد ، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى ، والعرب إنما تصف به الثانية ، فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رموس الآي كقوله - مآرب أخرى - وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أفرأيت اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة . وقيل إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة . وقيل إن ذلك للتحثير والذم ، وإن المراد المتأخرة الوضيعة كما في قوله - قالت أخراهم لأولاهم - أى وضعواهم لرؤسائهم . ثم كرر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شعاء قالوها فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) أى كيف تجعلون الله ماتكرهون من الإناث وتجعلون لأنفسكم ماتحبون من الذكور ، قيل وذلك قولهم إن الملائكة بنات الله ، وقيل المراد كيف تجعلون اللات والعزى ومناة وهي إناث في زعمكم شركاء لله ، ومن شأنهم أن

بمحقروا الإناث . ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية والقسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائزة فقال (تلك إذا قسمة ضيزى) قرأ الجمهور « ضيزى » بياء ساكنة بغير همزة ، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة ، والمعنى : أنها قسمة خارجة عن الصواب جائزة عن العدل مائلة عن الحق . قال الأخفش : يقال ضاز في الحكم : أي جار ، وضازه حقه يضيئه ضيزا : أي نقصه ونحسه ، قال : وقد يهمز ، وأنشد :

فإن تناء عنا تنتقصك وإن تغب فحقت مضشوز وأنفك راعم

وقال الكسائي : ضاز يضيئ ضيزا ، وضاز يضوز ضوزا : إذا تعدى وظلم ونحس وانتقص ، ومنه قول الشاعر :

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

قال القراء : وبعض العرب يقول : ضيزى بالهمز ، وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع العرب همز ضيزى . قال البغوي : ليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت إنما تكون في الأسماء مثل ذكرى . قال المؤرج : كرهوا ضم الضاد في ضيزى وخافوا انقلاب الياء واوا وهي من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة كما قالوا في جمع أبيض بيض ، وكذا قال الزجاج . وقيل هي مصدر كذكرى ، فيكون المعنى : قسمة ذات جور وظلم . ثم رد سبحانه عليهم بقوله (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أي ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ماتدعون من كونها آلهة إلا أسماء محضة ، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها ، لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل ولا تفهم ولا تضر ولا تنفع ، فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلد الآخر فيها الأول ، وتبع في ذلك الأبناء الآباء . وفي هذا من التحقير لشأنها مالا يخفى كما تقول في تحقير رجل : ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة ، ومثل هذه الآية قوله تعالى - ماتعلون من دونه إلا أسماء سميتموها - يقال : سميت زيدا وسميته بزید ، فقوله سميتموها صفة لأصنام ، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام : أي جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء . وقيل إن قوله « هي » راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة ، والأول أولى (ما أنزل الله بها من سلطان) أي ما أنزل بها من حجة ولا برهان . قال مقاتل : لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة ، ثم أخبر عنهم بقوله (إن يتبعون إلا الظن) أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئا ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم وتحقيرا لشأنهم فقال (وما تهوى الأنفس) أي تميل إليه وتشبهه من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب الاتباع له . قرأ الجمهور « يتبعون » بالتحية على الغيبة ، وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السميغ بالقوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود وابن عباس وطلحة وابن وثاب (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أي البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة ، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يتبعون ، ويجوز أن يكون اعتراضا ، والأول أولى . والمعنى : كيف يتبعون ذلك والحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله على لسان رسوله الذي بعثه الله بين ظهرائهم وجعله من أنفسهم (أم للإنسان ما تمنى) أم هي المتقطعة المقصرة ببل والهمزة التي للإنكار ، فأضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم ، وعن اتباعهم هوى الأنفس وما تميل إليه ، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم . ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله (فله الآخرة والأولى) أي أن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عز وجل فليس لهم معه أمر من الأمور ، ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة وأطماعهم الفارغة . ثم أكد ذلك وزاد في إبطال ما يتمنونه فقال (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا) وكم هنا هي الخبرية

المفيدة للتكثير ومجملها الرفع على الابتداء والجملة بعدها خبرها ، ولما في كم من معنى التكثير جمع الضمير في شفاعتهم مع أفراد الملك ، والمعنى : التوبيخ لهم بما يتمنون ويطمعون فيه من شفاعاة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، فكيف بهذه الحمادات الفاقدة للعقل والفهم وهو معنى قوله (إلا من بعد أن يأذن الله) لهم بالشفاعة (لمن يشاء) أن يشفعوا له (ويرضى) بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد ، وليس للمشركين في ذلك حظ ولا يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاهما لكونهم ليسوا من المستحقين لها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (والنجم إذا هوى) قال : إذا انصب . وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو الثريا إذا تدلت . وأخرج عنه أيضا قال : أقسم الله أن ماضل محمد ولا غوى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (ذو مرة) قال : ذو خلق حسن . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله (وهو بالأفق الأعلى) - لقد رأى من آيات ربه الكبرى (قال : خلق جبريل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح » وأخرجه أحمد عنه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وهو بالأفق الأعلى) قال : مطلع الشمس . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود في قوله (فكان قاب قوسين أو أدنى) قال « رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبريل له ستمائة جناح » . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عنه في قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال « رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عليه حلقا رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض » . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ثم دنا فتدلى) قال : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم دنا فتدلى إلى ربه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه قال دنا ربه فتدلى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله (فكان قاب قوسين) قال : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين . وأخرج الطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : القاب القيد ، والقوسين الذراعين . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم اقترب من ربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر . وأخرج النسائي وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال : عبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج مسلم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) - ولقد رآه نزلة أخرى (قال : رأى محمد ربه بقلبه مرتين . وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : رأى محمد ربه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه بعينه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه قال : رأى محمد ربه مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده . وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن مردويه والبيهقي عنه أيضا قال : لقد رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ربه عز وجل . وأخرج النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أيضا قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ؟ وقد روي نحو هذا عنه من طرق . وأخرج

مسلم والترمذى وابن مردويه عن أبي ذر قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه ؟ » . وأخرج مسلم وابن مردويه عنه « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : رأيت نورا » . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربه بقلبه ولم يره ببصره . وأخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) قال جبريل . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود قال : « لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتهى إلى سدره المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ينتهى ما يعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها » (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال : فراش من ذهب . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال « الجنة فى السماء السابعة العليا ، والنار فى الأرض السابعة السفلى » . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان اللات رجلا يلت السوق للحاج . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنه أن العزى كانت بطن نخلة ، وأن اللات كانت بالطائف ، وأن مناة كانت بقديد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (ضيزى) قال : جائرة لاحق لها .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْأَلُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) .

قوله (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) أى أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من الدار الآخرة وهم الكفار يضمنون إلى كفرهم مقالة شعاء وجهالة جهلاء ، وهى أنهم يسمون الملائكة المزهين من كل نقص تسمية الأنثى ، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله فحطوهم إناثا وسموهم بنات (وما لهم به من

علم) هذه الجملة في محل نصب على الحال : أى يسمونهم هذه التسمية والحال أنهم غير عالمين بما يقولون ، فإنهم لم يعرفوهم ولا شاهدوهم ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التى يخبر الخبرون عنها ، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالة وجرأة . وقرئ « ما لهم بها » أى بالملائكة أو التسمية (إن يتبعون إلا الظن) أى ما يتبعون فى هذه المقالة إلا مجرد الظن والتوهم . ثم أخبر سبحانه عن الظن وحكمه فقال (وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) أى إن جنس الظن لا يغنى من الحق شيئاً من الإغناء ، والحق هنا العلم . وفيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم مقام العلم وأن الظان غير عالم . وهذا فى الأمور التى يحتاج فيها إلى العلم وهى المسائل العلمية ، لا فيما يكتفى فيه بالظن ، وهى المسائل العملية ، وقد قدّمنا تحقيق هذا . ولا بد من هذا التخصيص ، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد ونحو ذلك ظنية ، فالعمل بها عمل بالظن ، وقد وجب علينا العمل به فى مثل هذه الأمور ، فكانت أدلة وجوبه العمل به فيها مخصصة لهذا العموم ، وما ورد فى معناه من الذم لمن عمل بالظن والنهى عن اتباعه (فأعرض عن تولى عن ذكرنا) أى أعرض عن ذكرنا ، والمراد بالذكر هنا القرآن ، أو ذكر الآخرة ، أو ذكر الله على العموم ، وقيل المراد بالذكر هنا الإيمان ، والمعنى : اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به وليس عليك إلا البلاغ ، وهذا مذموم بخلاف السيف (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى لم يرد سواها ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها ، فإنه غير متأمل للخير ولا مستحق للاعتناء بشأنه . ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم فقال (ذلك مبلغهم من العلم) أى إن ذلك التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين . قال القراء : أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ، وقيل الإشارة بقوله « ذلك » إلى جعلهم للملائكة بنات الله وتسميتهم لهم تسمية الأنثى ، والأول أولى . والمراد بالعلم هنا مطلق الإدراك الذى يندرج تحته الظن الفاسد ، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم واتباعهم مجرد الظن ، وقيل معترضة بين المعلن والعلة وهى قوله (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق وأعرض عنه ولم يهتد إليه ، وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق وأقبل إليه وعمل به ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه فى دعوة من أصر على الضلالة وسبقت له الشقاوة ، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد . ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته وعظيم ملكه فقال (والله ما فى السموات وما فى الأرض) أى هو المالك لذلك والمتصرف فيه لا يشاركه فيه أحد ، واللام فى (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) متعلقة بما دل عليه الكلام ، كأنه قال هو مالك ذلك يضل من يشاء ويهتدى من يشاء ليجزى المسىء بإساءته والحسن بإحسانه . وقيل إن قوله - والله ما فى السموات وما فى الأرض - معترضة ، والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى ، وقيل هى لام العاقبة : أى وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم الحسن والمسىء أن يجزى الله كلا منهما بعمله . وقال مكى : إن اللام متعلقة بقوله - لا تغنى شفاعتهم - وهو بعيد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى . قرأ الجمهور « ليجزى » بالتحية . وقرأ زيد بن على بالنون ، ومعنى (بالحسنى) أى بالمشوبة الحسنى وهى الجنة أو بسبب أعمالهم الحسنى ، ثم وصف هؤلاء المحسنين فقال (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) فهذا الموصول فى محل نصب على أنه نعت للموصول الأول فى قوله - الذين أحسنوا - وقيل بدل منه ، وقيل بيان له ، وقيل منصوب على المدح بإضمار أعنى ، أو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هم الذين يجتنبون كبائر الإثم . قرأ الجمهور « كبائر » على الجمع . وقرأ حمزة والكسائى والأعشى ويحيى بن وثاب « كبير » على الأفراد ، والكبائر : كل ذنب توعد الله عليه بالنار ، أو ذم فاعله ذماً شديداً ، ولأهل العلم فى تحقيق الكبائر كلام

طويل . وكما اختلفوا في تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا في عددها ، والفواحش جمع فاحشة : وهي ما فحش من كبائر الذنوب كالزنا ونحوه . وقال مقاتل : كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش كل ذنب فيه الحد . وقيل الكبائر الشرك والفواحش الزنا ، وقد قدّمتنا في سورة النساء ما هو أبسط من هذا وأكثر فائدة ، والاستثناء بقوله (إلا اللّم) منقطع ، وأصل اللّم في اللغة ما قلّ وصغر ، ومنه : ألمّ بالمكان قلّ لبثه فيه وألمّ بالطعام قلّ أكله منه . قال المبرد : أصل اللّم أن تلمّ بالشئ من غير أن تركبه : يقال ألمّ بكذا إذا قاربته ولم يخالطه . قال الأزهري : العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو والقرب ، ومنه قول جرير :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زيارته إمام

وقول الآخر : متى تأتينا تلم بنا في ديارنا نجد خطبا جزلا ونارا تأججا

قال الزجاج : أصل اللّم والإلمام ما يعمل به الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ، يقال ألممت به : إذا زرتّه وانصرفت عنه ، ويقال ما فعلته إلا إلماما وإلماما : أى الحين بعد الحين ، ومنه إلمام الخيال . قال الأعشى :

ألمّ خيال من قبيلة بعد ما وهى حبلها من حبلنا فتصرّما

قال في الصحاح : ألمّ الرجل من ألم وهو صغائر الذنوب ، ويقال هو مقاربة المعصية من غير مواجهة ، وأنشد غيره :

بزئيب ألم قبل أن يرحل الركب وقلّ أن تملينا فما ملك القلب

وقد اختلفت أقوال أهل العلم في تفسير هذا اللّم المذكور في الآية ، فالجمهور على أنه صغائر الذنوب ، وقيل هو ما كان دون الزنا من القبلة والغمزة والنظرة ، وقيل هو الرجل يلم بذنوب ثم يتوب ، وبه قال مجاهد والحسن والزهرى وغيرهم ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأنى عبد لك لا ألما

اختار هذا القول الزجاج والنحاس ، وقيل هو ذنوب الجاهلية ، فإن الله لا يؤاخذ بها في الإسلام ، وقال نفطويه : هو أن يأتي بذنوب لم يكن له بعادة . قال : والعرب تقول : ما تأتينا إلا إلماما : أى في الحين بعد الحين . قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل ، لا إذا همّ ولم يفعل ، والراجح الأول ، وجملة (إن ربك واسع المغفرة) تعليل لما تضمنه الاستثناء : أى إن ذلك وإن خرج عن حكم الموائدة فليس يخاف عن كونه ذنبا يقتدر إلى مغفرة الله ويحتاج إلى رحمته ، وقيل إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه . ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) أى خلقكم منها في ضمن خلق أبيكم آدم وقيل المراد آدم فإنه خلقه من طين (وإذ أنتم أجنة) أى هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنة ، والأجنة جمع جنين وهو الولد مادام في البطن سمي بذلك لاجتنانه : أى استتاره ، ولهذا قال (في بطون أمهاتكم) فلا يسمى من خرج عن البطن جنينا ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها (فلا تزكوا أنفسكم) أى لا تمجدوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها ، فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع ، وجملة (هو أعلم بمن اتقى) مستأنفة مقررّة للنهي : أى هو أعلم بمن اتقى عقوبة الله وأخلص العمل له . قال الحسن : وقد علم سبحانه من كل نفس ماهى عاملة وماهى صانعة وإلى ماهى صائرة . ثم لما بين سبحانه جهالة المشركين على العموم خصّ بالذمّ بعضهم فقال : (أفرايت الذى تولى) أى تولى عن الخير وأعرض عن اتباع الحق (وأعطى قليلا وأكدى) أى أعطى عطاء

قليلا أو أعطى شيئا قليلا وقطع ذلك وأمسك عنه ، وأصل أكدي من الكدية وهي الصلابة ، يقال لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهاى له فيه حفر قد أكدي ، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتم ، ولئن طلب شيئا فلم يبلغ آخره ، ومنه قول الخطيب :

فأعطى قليلا ثم أكدي عطاؤه ومن يبذل المعروف في الناس يحمده

قال الكسائي وأبو زيد ويقال كديت أصابعه : إذا محلت من الحفر ، وكدت يده : إذا كدت فلم تعمل شيئا ، وكدت الأرض : إذا قل نباتها ، وأكديت الرجل عن الشيء رده ، وأكدي الرجل : إذا قل خيره . قال الفراء : معنى الآية : أمسك من العطية وقطع . وقال المبرد : منع منها شديدا . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على دينه ، فعيه بعض المشركين فترك ورجع إلى شركه . قال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ، ثم أمسك عنه فأعطى قليلا من لسانه من الخير ثم قطعه . وقال الضحاك : نزلت في النضر بن الحارث . وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في أبي جهل (أعنده علم الغيب فهو يرى) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب ، فهو يعلم ذلك (أم لم ينبا بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى) أى ألم يخبر ولم يحدث بما في صحف موسى : يعنى أسفاره ، وهى التوراة ، وبما في صحف إبراهيم الذى وفى : أى تم وأكمل ما أمر به . قال المفسرون : أى بلغ قومه ما أمر به وأداه إليهم ، وقيل بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه . ثم بين سبحانه ما فى صحفهما فقال (ألا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى ، ومعناه : لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، وأن هى المحفمة من الثقلة واسمها ضمير شأن مقدر وخبرها الجملة بعدها ومحل الجملة الجر على أنها بدل من صحف موسى وصحف إبراهيم ، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وقد مضى تفسير هذه الآية فى سورة الأنعام (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) عطف على قوله (ألا تزر) وهذا أيضا مما فى صحف موسى ، والمعنى : ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ولا ينفع أحدا عمل أحد ، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه - ألحقنا بهم ذرياتهم - ، وبمثل ما ورد فى شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ونحو ذلك ، ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام ، بل يخصه ، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم (وأن سعيه سوف يرى) أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة (ثم يجزاه) أى يجزى الإنسان سعيه ، يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله ، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان والمنصوب إلى سعيه ، وقيل إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله (الجزاء الأوفى) فيكون الضمير راجعا إلى متأخر عنه هو مفسر له ، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعا إلى الجزاء الذى هو مصدر يجزاه ، ويجعل الجزاء الأوفى تفسيراً للجزاء المدلول عليه بالفعل كما فى قوله - اعدلوا - هو أقرب - قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما (وأن إلى ربك المنتهى) أى المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره فيجازيهم بأعمالهم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) قال الكبائر ما سئى الله فيه النار ، والفواحش : ما كان فيه حد الدنيا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه بالله مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله كتب على ابن آدم حظه

من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله (إلا اللهم) قال : زنا العينين : النظر ، وزنا الشفتين : التقبيل ، وزنا اليدين : البطش ، وزنا الرجلين : المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللهم . وأخرج مسدد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله (إلا اللهم) قال : هي النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وأخرج سعيد بن منصور والترمذي وصححه والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال في قوله (إلا اللهم) هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأنى عبد لك لا ألما

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (إلا اللهم) يقول : إلا ما قد سلف . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله (إلا اللهم) قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، فذلك الإلمام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال : اللهم كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة يكفره الصلاة ، وهودون كل موجب فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وآخر عقوبته إلى الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « كذبت يهود ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلا أنه شق أو سعيد ، فأنزل الله عند ذلك (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) الآية كلها » . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لاتركوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله « وأعطى قليلا وأكدى » قال : قطع ، نزلت في العاص بن وائل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : أطاع قليلا ثم انقطع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والشيрази في الألقاب والديلمي قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتدرون ما قوله (وإبراهيم الذي وفى) قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : وفى عمل يومه بأربع ركعات كان يصلين وزعم أنها صلاة الضحى » وفي إسناده جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : سهام الإسلام ثلاثون سهما لم يتممها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال الله - وإبراهيم الذي وفى - . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يقول إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما فعل بآبائه حين رأى الرؤيا ، والذي فى صحف موسى ، - ألا تترى وأزرة وزر أخرى - إلى آخر الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى - فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون - إلى آخر الآية » وفي إسناده ابن لهيعة . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس . قال : لما نزلت - والنجم - فبلغ - وإبراهيم الذى وفى - قال : وفى - ألا تترى وأزرة وزر أخرى إلى قوله - من النذر

الأولى - . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه قال (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) فأنزل الله بعد ذلك - والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم - ، فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال ؛ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) استرجع واستكان . وأخرج الدارقطني في الأفراد والبلغوى في تفسيره عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وأن إلى ربك المنتهى) قال : لا فكرة في الرب .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّهُ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا لُولَى (٥٠) وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّيَهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتْ الْأَزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

قوله (وأنه هو أضحك وأبكى) أى هو الخالق لذلك والقاضى بسببه . قال الحسن والكلبي : أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار . وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر ، وقيل أضحك من شاء في الدنيا بأن سره وأبكى من شاء بأن غمه . وقال سهل بن عبد الله : أضحك المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط (وأنه هو أَمَاتَ وَأَحْيَا) أى قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره ، وقيل خلق نفس الموت والحياة كما في قوله - خلق الموت والحياة - وقيل أَمَاتَ الآباء وأَحْيَا الأبناء ، وقيل أَمَاتَ في الدنيا وأَحْيَا للبعث ، وقيل المراد بهما النوم واليقظة . وقال عطاء : أَمَاتَ بعدله وأَحْيَا بفضله ، وقيل أَمَاتَ الكافر وأَحْيَا المؤمن كما في قوله - أو من كان ميتا فأحييناه - (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) المراد بالزوجين الذكر والأنثى من كل حيوان ، ولا يدخل في ذلك آدم وحواء فإنهما لم يخلقا من النطفة : والنطفة الماء القليل ، ومعنى (إذا تمنى) إذ تصب في الرحم وتدفق فيه ، كذا قال الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح وغيرهم ، يقال منى الرجل وأمنى : أى صب المنى . وقال أبو عبيدة - إذا تمنى - إذا تقدر : يقال منيت الشئ : إذا قدرته ومنى له أى قدر له - ، ومنه قول الشاعر : * حتى تلاقى ما يمنى لك المانى * والمعنى : أنه يقدر منها الولد (وأن عليه النشأة الآخرة) أى إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده . قرأ الجمهور « النشأة » بالقصر بوزن الضربة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالمد بوزن الكفالة ، وهما على القراءتين مصدران (وأنه هو أغنى وأقنى) أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ومثله قوله - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر - وقوله يقبض ويبسط - قاله ابن

زيد ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد وقتادة والحسن : أغنى : مَوْل ، وأقنى : أخدم ، وقيل معنى أقنى : أعطى القنية ، وهى ما يتأثّل من الأموال . وقيل معنى أقنى أرضى بما أعطى : أى أغناه ، ثم رضاه بما أعطاه . قال الجوهري : قنى الرجل قنى ، مثل غنى غنى : أى أعطاه ما يقتنى ، وأقناه أرضاه ، والقنى الرضى . قال أبو زيد : تقول العرب من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى ، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى ، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى . قال الأخفش وابن كيسان : أقنى أفقر ، وهو يؤيد القول الأول (وأنه هو ربّ الشعري) هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدّها ، والمراد بها الشعري التى يقال لها العبور ، وهى أشدّ ضياء من الشعري التى يقال لها الغميصاء . وإنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعري مع كونه رباً لكلّ الأشياء للردّ على من كان يعبدّها ، وأول من عبدّها أبو كبشة ، وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن أبى كبشة تشبهاً له به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، ومن ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح : لقد أمرُ أمر ابن أبى كبشة (وأنه أهلك عاداً الأولى) وصف عاداً بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود . قال ابن زيد : قيل لها عاداً الأولى ، لأنهم أول أمة أهلكت بعد نوح . وقال ابن إسحاق : هما عادان ، فالأولى أهلكت بالصرصر ، والأخرى أهلكت بالصبيحة . وقيل عاد الأولى قوم هود وعاد الأخرى إرم . قرأ الجمهور « عاداً الأولى » بالتنوين والهمز ، وقرأ نافع وابن كثير وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام وإدغام التنوين فيها (وثموداً فما أبى) أى وأهلك ثموداً كما أهلك عاداً فما أبى أحداً من الفريقين ، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصبيحة ، وقد تقدّم الكلام على عاد وثمود فى غير موضع (وقوم نوح من قبل) أى وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى أظلم من عاد وثمود وأطغى منهم ، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية ، أو أظلم وأطغى من مشركى العرب ، وإنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على الله بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم ، كما فى قوله - فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً - (والموتفةكه أهوى) الالتفاف الانقلاب ، والموتفةكه مدائن قوم لوط ، وسميت الموتفةكه لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها ، تقول أفكته إذا قلبته ، ومعنى أهوى أسقط : أى أهواها نجبريل بعد أن رفعها . قال المبرد : جعلها تهوى (فغشاها ما غشى) أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها ، كما فى قوله - فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل - وفى هذه العبارة تهويل للأمر الذى غشاها به وتعظيم له ، وقيل إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة : أى فغشاها من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه (فبأى آلاء ربك تمارى) هذا خطاب للإنسان المكذب : أى فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمترى ، وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعريضاً لغيره ، وقيل لكل من يصلح له ، وإسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء : أى نعماً مع كون بعضها نقماً لانهما ، لأنها مشتملة على العبر والمواعظ ، ولكون فيها انتقام من العصاة ، وفى ذلك نصرة للأنبياء والصالحين . قرأ الجمهور « تمارى » من غير إدغام ، وقرأ يعقوب وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى (هذا نذير من النذر الأولى) أى هذا محمد رسول إلكم من الرسل المتقدمين قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم ، كذا قال ابن جريج ومحمد بن كعب وغيرهما . وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى ، وقيل هذا الذى أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم منازل بأولئك ، كذا قال أبو مالك . وقال أبو صالح : إن الإشارة بقوله « هذا » إلى ما فى صحف موسى وإبراهيم ، والأول أولى (أزفت الأزفة) أى قربت الساعة ودنت ، سهاها أزفة لقرب قيامها ، وقيل لدنوها من الناس ،

كلمة في قوله - اقتربت الساعة - أخبرهم بذلك ليستعدوا لها . قال في الصحاح : أزفت الآزفة : يعني القيامة وأزف الرجل عجل ، ومنه قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما نزل برحالتنا وكان قد

(ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه ، وقيل كاشفة بمعنى انكشاف ، والهاء فيها كالهاء في العاقبة والداهية ، وقيل كاشفة بمعنى كاشف ، والهاء للمبالغة كراوية ، والأول أولى . وكاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا ، والمعنى : أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير الله ، كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . ثم وبخهم سبحانه فقال (أفن هذا الحديث تعجبون) المراد بالحديث القرآن : أى كيف تعجبون منه تكذيبا (وتضحكون) منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب ولا موضع للاستهزاء (ولا تبكون) خوفا وانزعاجا لما فيه من الوعيد الشديد ، وجملة (وأنتم سامدون) في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها ، والسمود : الغفلة والسهو عن الشيء . وقال في الصحاح : سمد سمودا رفع رأسه تكبرا ، فهو سامد قال الشاعر : * سوامد الليل خفاف الأزواد * وقال ابن الأعرابي : السمود اللهو ، والسامد اللاهى ، يقال للقينة أسمدينا : أى ألهينا بالغناء ، وقال المبرد : سامدون خامدون . قال الشاعر :

رمى الحدثان نسوة آل عمرو بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

(فاسجدوا لله واعبدوا) لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية به وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجه أمر عباده المؤمنين بالسجود لله والعبادة له ، والفاء جواب شرط محذوف : أى إذا كان الأمر من الكفار كذلك ، فاسجدوا لله واعبدوا ، فإنه المستحق لذلك منكم ، وقد تقدم في فاتحة السورة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه الكفار ، فيكون المراد بها سجود التلاوة ، وقيل سجود الفرض . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وأنه هو أغنى وأقنى) قال : أعطى وأرضى . وأخرج ابن جرير عنه (وأنه هو رب الشعري) قال : هو الكوكب الذى يدعى الشعري . وأخرج الفاكهي عنه أيضا قال : نزلت هذه الآية في خزاعة ، وكانوا يعبدون الشعري ، وهو الكوكب الذى يتبع الجوزاء . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا في قوله (هذا نذير من النذر الأولى) قال : محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الآزفة من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية (أفن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون) فما ضحك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إلا أن يتبسم . ولفظ عبد بن حميد : فما روى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضاحكا ولا متبسما حتى ذهب من الدنيا . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (سامدون) قال : لاهون معرضون عنه . وأخرج الفريابي وأبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاحى والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عنه (وأنتم سامدون) قال : الغناء باليمانية ، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا . وأخرج الفريابي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا في قوله

(سامدون) قال : كانوا يمرّون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاخين ، ألم تر إلى البعير كيف يحطّر شامخا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال : خرج علي بن أبي طالب علينا وقد أقيمت الصلاة ونحن قيام ننتظره ليتقدّم فقال : ما لكم سامدون ، لا أنتم في صلاة ولا أنتم في جلوس تنتظرون .

تفسير سورة القمر

ويقال سورة اقتربت ، وهي خمس وخمسون آية

وهي مكية كلها في قول الجمهور . وقال مقاتل : هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله (أم يقولون نحن جميع منتصر) إلى قوله (والساعة أدهى وأمر) قال القرطبي : ولا يصح . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه . قال البيهقي : منكر . وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه « من قرأ اقتربت الساعة في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه ، وقد تقدم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)
حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ (٦) خُشْعًا
أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكُفْرُ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ
وَدُسِّرَ (١٣) نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ
مُدْكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدْكِرٍ (١٧)

قوله (اقتربت الساعة وانشق القمر) أى قربت ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقى بعد قيام النبوة المحمدية إلى ماضى من الدنيا قربية . ويمكن أن يقال إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قربية ، فكل آت قريب (وانشق القمر) أى وقد انشق القمر ، وكذا قرأ حذيفة بزيادة قد ، والمراد الانشقاق الواقع فى أيام النبوة معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف . قال الواحدى : وجماعة المفسرين على هذا إلا ماروى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال : المعنى سينشق القمر ، والعلماء كلهم على خلافه . قال : وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر ، لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة . قال ابن كيسان : فى الكلام تقديم وتأخير : أى انشق القمر واقتربت الساعة . وحكى القرطبي عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة . وقيل معنى وانشق القمر : وضع الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضع . وقيل انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه وطلوعه فى أثنائها كما يسمى الصبح فلما لا انفلاق الظلمة عنه . قال ابن كثير : قد كان الانشقاق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات . قال الزجاج : زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة ، والأمر بين فى اللفظ وإجماع أهل العلم ، لأن قوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) يدل على أن هذا كان فى الدنيا لا فى القيامة انتهى ، ولم يأت من خالف الجمهور وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد ، فقال : لأنه لو انشق فى زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس فى الآيات سواء . ويحجب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلا ولا شرعا ولا عادة ، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر ، وهذا بمجرد دفع الاستبعاد ، ويضرب به فى وجه قائله .

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشق ، ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبت فى الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذذ واستبعد من استبعد ، وسيأتى ذكر بعض ماورد فى ذلك إن شاء الله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) قال الواحدى : قال المفسرون : لما انشق القمر قال المشركون سحرنا محمد ، فقال الله (وإن يروا آية) يعنى انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها ، ويقولوا سحر قوى شديد يعلو كل سحر ، من قولهم استمر الشيء : إذا قوى واستحكم ، وقد قال بأن معنى مستمر : قوى شديد جماعة من أهل العلم . قال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل ، وهو شدة قتله ، وبه قال أبو العالية والضحاك ، واختاره النحاس ، ومنه قول لقيط :

حتى استمر على شر لا يزنه صدق العزيمة لا رثا ولا ضرعا

وقال القراء والكسائي وأبو عبيدة (سحر مستمر) أى ذاهب ، من قولهم مر الشيء واستمر إذا ذهب ، وبه قال قتادة ومجاهد وغيرهما ، واختاره النحاس . وقيل معنى مستمر : دائم مطرد ، ومنه قول الشاعر :

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر وليس على شيء قديم بمستمر

أى بدائم باق ، وقيل مستمر باطل ، روى هذا عن أبي عبيدة أيضا . وقيل يشبه بعضه بعضا ، وقيل قدم من

الأرض إلى السماء ، وقيل هو من المرارة : يقال مرّ الشيء صار مرّاً : أي مستبشع عندهم . وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان كما قررناه سابقاً . ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أي وكذبوا رسول الله ، وما عاينوا من قدرة الله ، واتبعوا أهواءهم وما زينه لهم الشيطان الرجيم ، وجملة (وكل أمر مستقر) مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب واتباع الأهواء : أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية ، فالخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر . قال القراء : يقول يستقر قرار تكذيبهم وقرار قول المصدقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب . قال الكلبي : المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فيظهر ، وما كان منه في الآخرة فسيعرف . قرأ الجمهور « مستقر » بكسر القاف ، وهو مرتفع على أنه خبر مبتدأ وهو كل . وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي بجر « مستقر » على أنه صفة لأمر ، وقرأ أشية بفتح القاف ، ورويت هذه القراءة عن نافع . قال أبو حاتم : ولا وجه لها ، وقيل لها وجه بتقدير مضاف محذوف : أي وكل أمر ذو استقرار ، أو زمان استقرار ، أو مكان استقرار ، على أنه مصدر ، أو ظرف زمان ، أو ظرف مكان (واقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر) أي واقد جاء كفار مكة ، أو الكفار على العموم من الأنبياء ، وهي أخبار الأمم المكذبة المقصودة علينا في القرآن . ما فيه مزدجر . أي ازدجار على أنه مصدر ميمي ، يقال زجرته : إذا نهيته عن السوء ووعظته ، ويجوز أن يكون اسم مكان ، والمعنى : جاءهم ما فيه موضع ازدجار : أي أنه في نفسه موضع لذلك ، وأصله مزجر ، وتاء الافتعال تقلب دالا مع الزاي والدال والذال كما تقرّر في موضعه ، وقرأ زيد بن علي « مزجر » بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي في الزاي ، ومن في قوله « من الأنبياء » للتبويض وهي وما دخلت عليه في محل نصب على الحال ، وارتفاع (حكمة بالغة) على أنها خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ما بدل كل من كل ، أو بدل اشتمال ، والمعنى : أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل ، وقرئ بالنصب على أنها حال من ما : أي حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة (فما تغن النذر) ما يجوز أن تكون استفهامية وأن تكون نافية : أي أي شيء تغني النذر أو لم تغن النذر شيئاً ، والقاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة ، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر ، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر . ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم فقال (فتولّ عنهم) أي أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار ، وهي منسوخة بآية السيف (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر : أي اذكر ، وإما بيجرجون المذكور بعده ، وإما بقوله (فما تغن) ، ويكون قوله (فتولّ عنهم) اعتراض ، أو بقوله - يقول الكافرون - أو بقوله - خشعاً - وسقطت الواو من يدع اتباعاً للفظ ، وقد وقعت في الرسم هكذا وحذفت الياء من الداع للتخفيف واكتفاء بالكسرة ، والداع هو إسرافيل ، والشيء النكر : الأمر القطيع الذي ينكرونه استعظاماً له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله . قرأ الجمهور بضم الكاف . وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفاً . وقرأ مجاهد وقتادة بكسر الكاف وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول (خشعاً أبصارهم) قرأ الجمهور « خشعاً » جمع خاشع ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو « خاشعاً » على الأفراد ، ومنه قول الشاعر :

وشباب حسن أوجههم من إنياد بن نزار بن معد

وقرأ ابن مسعود « خاشعة » قال القراء : الصفة إذا تقدمت على الجماعة جاز فيها التذكير والتأنيث والجمع : يعني جمع التفسير لا جمع السلامة ، لأنه يكون من الجمع بين فاعلين ، ومثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس :

وقوفا بها صهي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد

وانتصاب خشعا على الحال من فاعل يخرجون ، أو من الضمير في عنهم ، والخشوع في البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن الغر والذل يتبين فيها (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من القبور ، وواحد الأجداث جدث وهو القبر ، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر : أى منبث في الأقطار مختلط ببعضه ببعض (مهطعين إلى الداع) الإهطاع : الإسراع أى قال كونهم مسرعين إلى الداعى ، وهو إسرافيل ، ومنه قول الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

أى مسرعين إليه . وقال الضحاك : مقبلين . وقال قتادة : عامدين . وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة وغيره ، وجملة (يقول الكافرون هذا يوم عسر) فى محل نصب على الحال من ضمير مهطعين ، والرابط مقدر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فإذا يكون حينئذ . والعسر : الصعب الشديد ، وفى إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين . ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الأنباء المجملة فقال (كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذبوا نبيهم ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقوله (فكذبوا عبدنا) تفسير لما قبله من التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتأکید : أى فكذبوا عبدنا نوحا ، وقيل المعنى : كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل فإنه منهم . ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرد التكذيب فقال (وقالوا مجنون) أى نسبوا نوحا إلى الجنون ، وقوله (وازدجر) معطوف على قالوا : أى وزجر عن دعوى النبوة وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر ، والدال بدل من تاء الافتعال كما تقدم قريبا ، وقيل إنه معطوف على مجنون : أى وقالوا إنه ازدجر : أى ازدجرته الجن وذهبت بلبه ، والأول أولى . قال مجاهد : هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انهر وزجر بالسب وأنواع الأذى . قال الرازى : وهذا أصح ، لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذكر من تقدمه (فدعاه ربه أنى مغلوب فانتصر) أى دعا نوح ربه على قومه بأنى مغلوب من جهة قومي لتمردهم عن الطاعة وزجرهم لى عن تبليغ الرسالة ، فانتصر لى : أى انتقم لى منهم . طلب من ربه سبحانه النصر عليهم لما أيس من إجابتهم وعلم تمردهم وعتوهم وإصرارهم على ضلالتهم . قرأ الجمهور « أنى » بفتح الهمزة : أى بأنى . وقرأ ابن أبى إسحاق والأعمش بكسر الهمزة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول : أى فقال . ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) أى منصب أنصبا شديدا ، والهمر : الصب بكثرة ، يقال : همر الماء والدمع بهمرهمرا وهمورا : إذا كثر ، ومنه قول الشاعر :

أعني جودا بالدموع الهوامر على خير باد من معد وحاضر

ومنه قول امرئ القيس يصف عينا :

راح تمر به الصبا ثم انتحى فيه بشوئوب جنوب منهمر

فرا الجمهور « فتحنا » مخففا . وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد (وفجرنا الأرض عيونا) أى جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة ، والأصل فجرنا عيون الأرض . قرأ الجمهور « فجرنا » بالتشديد . وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة وعاصم فى رواية عنه بالتخفيف . قال عبيد بن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون (فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم : أى كائنا على حال قدرها الله وقضى بها . وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يرد أحدهما على الآخر ، بل كان ماء السماء وماء

الأرض على سواء . قال قتادة : قدر لهم إذ كفروا أن يغرقوا . وقرأ الجحدري « فالتقى المآآن » وقرأ الحسن « فالتقى المآوان » ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب ومحمد بن كعب (وحملناه على ذات ألواح ودسر) أي وحملنا نوحا على سفينة ذات ألواح ، وهي الأخشاب العريضة - ودسر - قال الزجاج : هي المسامير التي تشد بها الألواح واحدها دسار ، وكل شيء أدخل في شيء يشده فهو الدسر ، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب وابن زيد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : الدسر ظهر السفينة التي يضربها الموج ، سميت بذلك لأنها تدسر الماء : أي تدفعه ، والدسر الدفع . وقال الليث : الدسار خيط تشد به ألواح السفينة . قال في الصحاح : الدسار واحد الدسر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ، ويقال هي المسامير (تجري بأعيننا) أي بمنظر ومرأى منا وحفظ لها كما في قوله - واصنع الفلك بأعيننا - وقيل بأمرنا ، وقيل بوحينا ، وقيل بالأعين النابعة من الأرض ، وقيل بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها (جزاء لمن كان كفر) قال الفراء : فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثوابا لمن كفر به وجحد أمره وهو نوح عليه السلام ، فإنه كان لهم نعمة كفروها فانتصاب جزاء على العلة ، وقيل على المصدرية بفعل مقدر : أي جازيناهم جزاء . قرأ الجمهور « كفر » مبنيا للمفعول ، والمراد به نوح . وقيل هو الله سبحانه ، فإنهم كفروا به وجحدوا نعمته . وقرأ يزيد بن رومان وقاتدة ومجاهد وحيد وعيسى كفر بفتح الكاف والفاء مبنيا للفاعل : أي جزاء وعقابا لمن كفر بالله (ولقد تركناها آية) أي السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين ، وقيل المعنى : ولقد تركناها هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة وموعظة (فهل من مدكر) أصله مذنكر فأبدلت التاء دالا مهملة ، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما وأدغمت الدال في الذال ، والمعنى : هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها (فكيف كان عذابي ونذر) أي إنذارى . قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران ، والاستفهام للتحويل والتعجيب : أي كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف ، وقيل نذر جمع نذير ، ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، وقيل هيأناه للتذكر والاتعاظ (فهل من مدكر) أي متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره . وفي الآية الحث على درس القرآن والاستكثار من تلاوته والمسارة في تعلمه ومدكر أصله مذنكر كما تقدم قريبا . وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس « أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرسم آية فأرهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » . وروى عنه من طريق أخرى عندهم مسلم والترمذي وغيرهم وقال : فنزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر) وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اشهدوا » . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه قال : رأيت القمر منشقا شقتين مرتين : مرة بمكة قبل أن يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم : شقة على أبي قبيس ، وشقة على السويداء . وذكر أن هذا سبب نزول الآية . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم عنه أيضا قال : رأيت القمر وقد انشق ، وأبصرت الجبل بين فرجتي القمر . وله طرق عنه . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : انشق القمر في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وله طرق عنه . وأخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن ابن عمر في قوله (اقتربت الساعة وانشق القمر) قال : كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انشق فرقتين : فرقة من دون الجبل ، وفرقة خلفه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم اشهد . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وصححه وابن

مردويه وأبونعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم عن أبيه في قوله : (وانشق القمر) قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقال الناس : سحرنا محمد ، فقال رجل : إن كان سحرهم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبونعيم عن عبد الرحمن السلمي قال : « خطبنا حذيفة بن اليمان بالمداين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : اقتربت الساعة وانشق القمر ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، اليوم المصمار وغدا السباق » وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (مهيضين) قال ناظرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) قال كثير : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماء آن . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (على ذات ألواح ودسر) قال : الألواح ألواح السفينة ، والدسر : معاريضها التي تشد بها السفينة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا في قوله (ودسر) قال : المسامير . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : الدسر كلכל السفينة . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عنه أيضا في قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر) قال : لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله . وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعا مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس (فهل من مدكر) قال : هل من متذكر .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِيلُ النَّاسِ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ (٢٤) آهَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّخْتَصِرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ

أَنْذَرَهُمْ بِطُشْتَنَا فَبَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٢٦) وَلَقَدْ رَوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ (٢٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٢٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٢٩)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٤٠) .

قوله (كذبت عاد) هم قوم عاد (فكيف كان عذابي ونذر) أى فاسمعوا كيف كان عذابي لهم وإنذارى
إياهم ، ونذر مصدر بمعنى إنذار كما تقدم تحقيقه ، والاستفهام للتوبيخ والتعظيم (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا)
هذه الجملة مبنية لما أجمله سابقا من العذاب ، والصرصر شدة اليرد : أى ريح شديدة البرد ، وقيل الصرصر شدة
الصوت ، وقد تقدم بيانه فى سورة حم السجدة (فى يوم نحس مستمر) أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوه ،
وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم . قال الزجاج : قيل فى يوم الأربعاء فى آخر الشهر . قرأ الجمهور « فى يوم
نحس » بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو على تقدير مضاف
أى فى يوم عذاب نحس . وقرأ الحسن بنونين يوم على أن نحس صفة له . وقرأ هارون بكسر الحاء . قال الضحاك :
كان ذلك اليوم مرآ عليهم . وكذا حكى الكسائى عن قوم أنهم قالوا : هو من المرارة ، وقيل هو من المرة بمعنى القوة :
أى فى يوم قوى الشؤم مستحكه كالشئ المحكم القتل الذى لا يطاق نقضه ، والظاهر أنه من الاستمرار ، لامن
المرارة ولا من المرة : أى دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم ، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم ، وجماعة (تنزع
الناس) فى محل نصب على أنها صفة لريحا أو حال منها ، ويجوز أن يكون استثناء : أى تقلعهم من الأرض من
تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها . قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض فرمى بهم على رؤوسهم فتدق
أعناقهم وتبين رؤوسهم من أجسادهم ، وقيل تنزع الناس من البيوت ، وقيل من قبورهم لأنهم حفرها حفائر
ودخلوها (كأنهم أعجاز نخل منقعر) الأعجاز جمع عجز ، وهو مؤخر الشئ ، والمنقعر : المنقطع المنقطع من
أصله ، يقال قمرت النخلة : إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط . شبههم فى طول قاماتهم حين صرعتهم الريح
وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التى ليست لها رؤوس ، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولا ،
ثم كتبتهم على وجوههم وتذكير بمنقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهى مؤنثة اعتبارا باللفظ ويجوز تأنيثه اعتبارا
بالمعنى كما قال - أعجاز نخل خاوية - قال المبرد : كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا
أولى المعنى تأنيثا . وقيل إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث (فكيف كان عذابي ونذر) قد تقدم تفسيره قريبا ، وكذلك
قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ثم لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود فقال (كذبت
ثمود بالنذر) يجوز أن يكون جمع نذير : أى كذبت بالرسال المرسلين إليهم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى
الإنذار : أى كذبت بالإنذار الذى أنذروا به ، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيبا للرسال ، لأن من
كذب واحدا من الأنبياء فقد كذب سائرهم لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع (فقالوا أبشرا منا واحدا
نتبعه) الاستفهام للإنكار : أى كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه . قرأ
الجمهور بنصب « بشرا » على الاشتغال : أى أتبع بشرا واحدا . وقرأ أبو السماك والدانى وأبو الأشهب وابن
السميع بالرفع على الابتداء ، وواحدا صفته ، ونتبعه خبره . وروى عن أبى السماك أنه قرأ برفع « بشرا » ونصب
« واحدا » على الحال (إنا إذا لني ضلال) أى إنا إذا اتبعناه لني خطأ وذهب عن الحق (وسعر) أى عذاب

وعناء وشدة كذا قال الفراء وغيره . وقال أبو عبيدة : هو جمع سعير ، وهو لهب النار ، والسعر : الجنون يذهب كذا وكذا لما يلهب به من الحدة . وقال مجاهد : وسعر وبعد عن الحق . وقال السدي : في احتراق ، وقيل المراد به هنا الجنون ، من قولهم : ناقة مسعورة : أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ومنه قول الشاعر يصف ناقة :
تخال بها سمرا إذ السمر هزها ذميل وإيقاع من السير متعب

ثم كرروا الإنكار والاستبعاد فقالوا (أأنتي الذكر عليه من بيننا) أي كيف خص من بيننا بالوحي والنبوة ، وفيما من هو أحق بذلك منه ؟ ثم أضربوا عن الاستنكار وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا فقالوا (بل هو كذاب أشر) والأشر : المرح والنشاط ، أو البطر والتكبر ، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، ومنه قول الشاعر :
أشرم بلبس الخز لما لبستم ومن قبل لاتدرون من فتح القرى
قرأ الجمهور « أشر » كفرح . وقرأ أبو قلابة وأبو جعفر بفتح الشين وتشديد الراء على أنه أفعل تفضيل . ونقل الكسائي عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة . ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) والمراد بقوله غدا وقت نزول العذاب بهم في الدنيا ، أو في يوم القيامة جريا على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد ، كما في قولهم : إن مع اليوم غدا ، وكما في قول الخطيئة :
لاموت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتا في اليوم مات غدا
ومنه قول أبي الطماح :

ألا علاني قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوائح
وقبل غد يا لهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح

قرأ الجمهور « سيعلمون » بالتحية لإخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه ، وجملة (إنا مرسلوا الناقة) مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد : أي إنا نخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه (فتنة لهم) أي ابتلاء وامتحان ، وانتصاب فتنة على العلة (فارتقبهم) أي انتظر ما يصنعون (واصطبر) على ما يصيبك من الأذى منهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) أي بين ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، كما في قوله - لها شرب ولكم شرب يوم معلوم - وقال « نبئهم » بضمير العقلاء تغليبا (كل شرب محتضر) الشرب بكسر الشين الحظ من الماء . ومعنى محتضر : أنه يحضره من هو له ، فالناقة تحضره يوما وهم يحضرونه يوما . قال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم ، فيشربون ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون . قرأ الجمهور « قسمة » بكسر القاف بمعنى مقسوم ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها (فنادوا صاحبهم) أي نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها (فتعاطى فعقر) أي تناول الناقة بالعقر فعقرها ، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر . قال محمد بن إسحاق : كمن لها في أصل شجرة على طريقها ، فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها ، والتعاطى : تناول الشيء بتكلف (فكيف كان عذابي ونذر) قد تقدم تفسيره في هذه السورة . ثم بين ما أجمله من العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) قال عطاء : يريد صيحة جبريل ، وقد مضى بيان هذا في سورة هود وفي الأعراف (فكانوا كهشيم المحتظر) قرأ الجمهور بكسر الظاء ، والهشيم : حطام الشجر ويابس ، والمحتظر : صاحب الحظيرة ، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الريح ، يقال احتظر على غنمه : إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض . قال في الصحاح : والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة . وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية بفتح

الظاء : أى كهشيم الحظيرة ، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار ، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة ، ومعنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يابس فى الحظيرة وداسته الغم بعد سقوطه ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجة كدخان نار تشب بفرقد بال هشيم

وقال قتادة : هو العظام النخرة المحترقة . وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح . وقال سفيان الثورى : هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى . قال ابن زيد : العرب تسمى كل شئ كان رطبا فيبس هشيا ، ومنه قول الشاعر :

ترى جيف المطى بجانبيه كأن عظامها خشب الهشيم

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة . ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله كما كذبهم غيرهم فقال (كذبت قوم لوط بالنذر) وقد تقدم تفسير النذر قريبا . ثم بين سبحانه ما عذبهم به فقال (إنا أرسلنا عليهم حصبا) أى ريحا ترميهم بالحصباء ، وهى الحصى . قال أبو عبيدة والنضر بن شميل : الحاصب الحجارة فى الريح . قال فى الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربها بحاصب كنديف القطن مثور

(إلا آل لوط نجيناهم بسحر) يعنى لوطا ومن تبعه ، والسحر آخر الليل ، وقيل هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ، وانصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة ، ولو قصد معينا لامتنع . كذا قال الزجاج والأخفش وغيرهما ، وانتصاب (نعمة من عندنا) على العلة ، أو على المصدرية : أى إنعاما منا على لوط ومن تبعه (كذلك نجزي من شكر) أى مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا ولم يكفرها (ولقد أنذرهم بطشتنا) أى أنذر لوط وقومه بطشة الله بهم وهى عذابه الشديد وعقوبته البالغة (فتماروا بالنذر) أى شكوا فى الإنذار ولم يصدقوه ، وهو تفاعلوا من المربة ، وهى الشك (ولقد راودوه عن ضيفه) أى أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم ، يقال راودته عن كذا مراودة وروادا : أى أردته ، وراد الكلام يروده رودا : أى طلبه ، وقد تقدم تفسير المراودة مستوفى فى سورة هود (فطمسنا أعينهم) أى صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق كما تطمس الريح الأعلام بما تسقى عليها من التراب . وقيل أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا (فذوقوا عذابي ونذر) قد تقدم تفسيره فى هذه السورة (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى أتاهم صباحا عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم . قال مقاتل : استقر بهم العذاب بكرة ، وانصرف بكرة لكونه لم يردبها وقتا بعينه كما سبق فى بسحر (فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) قد تقدم تفسير هذا فى هذه السورة ، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الاشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) قال : باردة (فى يوم نحس) قال أيام شداد . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأربعاء يوم نحس مستمر « وأخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . وأخرجه ابن مردويه عن علي

مرفوعا وأخرجه ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا ، وفيه « قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : أغرق الله فيه فرعون وقومه ، وأهلك فيه عادا وثمودا » . وأخرج ابن مردويه والخطيب بسند . قال السيوطي : ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر » . وأخرج ابن المنذر عنه (كأنهم أعجاز نخل) قال : أصول النخل (منقعر) قال : منقطع . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال : أعجاز سواد النخل . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (وسعر) قال شفاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال (كهشيم المحتظر) قال : كحظائر من الشجر محترقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال : كالعظام المحترقة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال : كالحشيش تأكله الغنم .

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ (٤٢) أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) .

(النذر) يجوز أن يكون جمع نذير ، ويجوز أن يكون مصدر بمعنى الإنذار كما تقدم ، وهى الآيات التى أنذرهم بها موسى ، وهذا أولى لقوله (كذبوا بآياتنا كلها) فإنه بيان لذلك ، والمراد بها الآيات التسع التى تقدم ذكرها (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) أى أخذناهم بالعذاب أخذ غالب فى انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه شئ . ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال (أكفركم خير من أولئكم) والاستفهام للإنكار ، والمعنى النى : أى ليس كفاركم يا أهل مكة ، أو يامعشر العرب خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ، فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب وأنتم شر منهم . ثم أضرب سبحانه عن ذلك وانتقل إلى تبيكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبيكيت بالوجه الأول فقال (أم لكم براءة فى الزبر) والزبر هى الكتب المنزلة على الأنبياء ، والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله فى شئ من كتب الأنبياء . ثم أضرب عن هذا التبيكيت وانتقل إلى التبيكيت لهم بوجه آخر فقال (أم يقولون نحن جميع منتصر) أى جماعة لاتطاق لكثرة عدونا وقوتنا أو أمرنا مجتمع لا تغلب ، وأفرد منتصرا اعتبارا بلفظ جميع . قال الكلبي : المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله (سيهزم الجمع) أى جمع كفار مكة ، أو كفار العرب على العموم . قرأ الجمهور « سيهزم » بالتحية مبنيا للمفعول . وقرأ ورش عن يعقوب « سيهزم » بالنون وكسر الزاى ونصب الجمع . وقرأ أبو خيرة وابن أبى حيلة

بالتحتية مبنيًا للفاعل ، وقرئ بالفوقية مبنيًا للفاعل (ويولون الدبر) قرأ الجمهور «يولون» بالتحية ، وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب ، والمراد بالدبر الجنس ، وهو في معنى الإدبار ، وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار ، وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر ، فله الحمد (بل الساعة موعدهم) أي موعد عذابهم الآخرى ، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب ، وإنما هو مقدمة من مقدماته وطلیعة من طلائعه ، ولهذا قال (والساعة أدهى وأمر) أي وعذاب الساعة أعظم في الضرر وأفظع ، مأخوذ من الدهاء ، وهو النكر والفظاعة ، ومعنى أمر : أشد مرارة من عذاب الدنيا ، يقال دهاه أمر كذا : أي أصابه دهوا ودهيا (إن المجرمين في ضلال وسعر) أي في ذهاب عن الحق وبعد عنه ، وقد تقدم في هذه السورة تفسير وسعر فلا نعيده (يوم يسحبون في النار على وجوههم) والظرف منتصب بما قبله : أي كائنون في ضلال وسعر يوم يسحبون ، أو بقول مقدر بعده : أي يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مس سقر) أي قاسوا حرها وشدة عذابها ، وسقر علم بلهيم . وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بإدغام سين مس في سين سقر (إنا كل شيء خلقناه بقدر) قرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال . وقرأ أبو السماك بالرفع ، والمعنى : أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبسا بقدر قدره وقضاء قضاء سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر التقدير ، وقد قدمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أي لا مرة واحدة أو كلمة واحدة كلمح بالبصر في سرعته ، واللمح : النظر على العجلة والسرعة . وفي الصحاح لمح وألحه : إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة . قال الكلبي : وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر (واقداً أهلكنا أشياءكم) أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم ، وقيل أتباعكم وأعدائكم (فهل من مدكر) يتذكر ويتعظ بالمواعظ ويعلم أن ذلك حق ، فيخاف العقوبة وأن يحل به ما حل بالأمم السالفة (وكل شيء فعلوه في الزبر) أي جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقيل في كتب الحفظ (وكل صغير وكبير مستطر) أي كل شيء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره وجليله وحقيقه يقال : سطر يسطر سطرًا كتب ، وأسطر مثله . ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال (إن المتقين في جنات ونهر) أي في بساطين مختلفة وجنان متنوعة وأنهار متدفقة . قرأ الجمهور «ونهر» بفتح الهاء على الأفراد ، وهو جنس يشمل أنهار الجنة وقرأ مجاهد والأعرج وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان ، وقرأ أبو مجلز وأبو نهشل والأعرج وطلحة بن مصرف وقاتدة «نهر» بضم النون والهاء على الجمع (في مقعد صدق) أي في مجلس حق لا لغوف فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة (عند مليك مقتدر) أي قادر على ما يشاء لا يعجزه شيء ، وعند ها هنا كناية عن الكرامة وشرف المنزلة ، وقرأ عثمان البتي «في مقاعد صدق» .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (أكفاركم خير من أولئكم) يقول : ليس كفاركم خير من قوم نوح وقوم لوط . وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه في قوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر) قال : كان ذلك يوم بدر قالوا (نحن جميع منتصر) فنزلت هذه الآية . وفي البخاري وغيره عنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر «أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا ، فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يشب في البرع ويقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) بل الساعة موعدهم والبيعة أدهى وأمر» . وأخرج أحمد وعبد بن حميد

ومسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاضمون في القدر ، فنزلت (يوم يسحبون في النار على وجوههم) . وأخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (وكل صغير وكبير مستطر) قال : مسطور في الكتاب اهـ .

تفسير سورة الرحمن

هي ست وسبعون آية

دهي مكية : قال القرطبي : كلها في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر قال : قال ابن عباس إلا آية منها ، وهي قوله (يسأله من في السموات والأرض) الآية . وقال ابن مسعود ومقاتل هي مدنية كلها ، والأول أصح ، ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزل بمكة سورة الرحمن . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة الرحمن علم القرآن بمكة . وأخرج أحمد وابن مردويه . قال السيوطي : بسند حسن عن أسماء بنت أبي بكر قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ويؤيد القول الثاني ما أخرجه ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الرحمن بالمدينة ، ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة . وأخرج الترمذى وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه . فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : مالي أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن أيلة الجن » ، فكانوا أحسن مردوداً منكم كلما أتيت على قوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قالوا : لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » قال الترمذى بعد إخرجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . وحكى عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير . وقال البزار : لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه . وأخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه من حديث ابن عمر وصحح السيوطي إسناده . وقال البزار : لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . وأخرج البيهقي في الشعب عن علي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن الرحمن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا

لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فُكَيْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) .

قوله (الرحمن علم القرآن) ارتفاع الرحمن على أنه مبتدأ وما بعده من الأفعال أخبار له ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف : أى الله الرحمن . قال الزجاج : معنى (علم القرآن) يسره . قال الكلبي : علم القرآن محمدا وعلمه محمد أمته ، وقيل جعله علامة لما يعبد الناس به ، قيل نزلت هذه الآية جوابا لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر ، وقيل جوابا لقولهم : وما الرحمن ؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدم النعمة التي هي أجلها قدرا وأكثرها نفعا وأتمها فائدة وأعظمها عائدة ، وهي نعمة تعليم القرآن ، فإنها مدار سعادة الدارين ، وقطب رحي الخيرين ، وعماد الأمرين . ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال (خلق الإنسان) ثم امتن ثالثا بتعليمه البيان الذي يكون به التفاهم ويدور عليه التخاطب وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد ، لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر ولا إظهار ما يدور في الخلد إلا به قال قتادة والحسن : المراد بالإنسان آدم ، والمراد بالبيان أسماء كل شيء ، وقيل المراد به اللغات . وقال ابن كيسان : المراد بالإنسان هاهنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبالبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال ، وهو بعيد . وقال الضحاك : البيان الخير والشر . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه مما يضره ، وقيل البيان الكتابة بالقلم . والأولى حمل الإنسان على الجنس ، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به (الشمس والقمر بحسبان) أى يجريان بحساب ومنازل لا يعلوانها ، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين . قال قتادة وأبو مالك : يجريان بحسبان في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب ، لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا . وقال الضحاك : معنى بحسبان : بقدر . وقال مجاهد : بحسبان كحسبان الرحي : يعنى قطبهما الذي يدوران عليه . قال الأخفش : الحسبان جماعة الحساب ، مثل شهب وشهبان . وأما الحسبان بالضم فهو العذاب كما مضى في سورة الكهف (والنجم والشجر يسجدان) النجم مالا ساق له من النبات ، والشجر ماله ساق . قال الشاعر :

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه وتم به حيا تميم ووائل
وقال زهير : مكلل بأصول النجم تنسجه ريح الجنوب لصاحي ما به حبك

والمراد بسجودهما انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين . وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حين ينكسر النور . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما في قوله - يتميؤ ظلاله - وقال الحسن ومجاهد : المراد بالنجم نجم السماء وسجوده طلوعه ، وزجج هكذا ابن جرير . وقيل سجوده أفوله ، وسجود الشجر : تمكينها من الاجتناء لثمارها . قال النحاس : أصل السجود الاستسلام والانقياد لله ، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن ، وترك الرابط فيهما لظهوره كأنه قيل : الشمس واقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له (والسماء رفعها) قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال . وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء ، والمعنى : أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض (ووضع الميزان) المراد بالميزان العدل : أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به كذا قال مجاهد وقادة والسدي وغيرهم . قال الزجاج : المعنى أنه أمرنا بالعدل ، ويدل عليه قوله (ألا تطغوا في الميزان) أي لا تجاوزوا العدل . وقال الحسن والضحاك : المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف . وقيل الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وبه قال الحسين بن الفضل ، والأول أولى . ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم فقال (وأقيموا الوزن بالقسط) أي قوموا وزنكم بالعدل ، وقيل المعنى : أقيموا لسان الميزان بالعدل ، وقيل المعنى : أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال ، و« أن » في قوله « ألا تطغوا » مصدرية : أي لئلا تطغوا ، ولا نافية : أي وضع الميزان لئلا تطغوا ، وقيل هي مفسرة ، لأن في الوضع معنى القول ، والطغيان مجاوزة الحد ، فمن قال الميزان العدل ، قال طغيانه الجور ومن قال الميزان الآلة التي يوزن بها ، قال طغيانه البخس (ولا تخسروا الميزان) أي لا تنقصوه : أمر سبحانه أولاً بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة ، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس قرأ الجمهور « تخسروا » بضم التاء وكسر السين من أخسر ، وقرأ بلال بن أبي برزة وأبان بن عثمان وزيد بن علي بفتح التاء والسين من خسر ، وهما لغتان : يقال أخسرت الميزان وخسرته . ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال (والأرض وضعها للأنام) أي بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة ، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجن . قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة (فيها فاكهة) في محل نصب على أنها حال من الأرض مقدرة ، وقيل مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها ، والمراد بها كل ما يتفكه به من أنواع الثمار . ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال (والنخل ذات الأكمام) الأكمام جمع كم بالكسر ، وهو وعاء التمر . قال الجوهرى : وأكم بالكسر والكمامة وعاء الطاع وغطاء التنور ، والجمع كمام وأكمة وأكمام . قال الحسن : ذات الأكمام : أي ذات الليف ، فإن النخلة تكسب بالليف وكمامها ليفها ، وقال ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال (والحب ذو العصف والريحان) الحب هو جميع ما يقتات من الحبوب والعصف . قال السدي والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أول ما ينبت به . قال ابن كيسان : يبدو أولاً ورقاً ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكماماً ، ثم يحدث في الأكمام الحب . قال الفراء : والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال الصحاح . وقال الحسن : العصف التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع . وقيل هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله - كعصف مأكول - ، وقيل هو الزرع الكثير ، يقال قد أعصف الزرع ومكان معصف : أي كثير الزرع ، ومنه قول أبي قيس بن الأسات :

إذا جمادى منعت قطرها إن جناني عطن معصف

والريحان الورق في قول الأكثر . وقال الحسن وقتادة والضحاك وابن زيد : إنه الريحان الذي يشم . وقال سعيد بن جبير ، هو ما قام على ساق . وقال الكلبي : إن العصف هو الورق الذي لا يؤكل ، والريحان هو الحب المأكول . وقال الفراء أيضا : العصف المأكول من الزرع ، والريحان مالا يؤكل ، وقيل الريحان كل بقلة طيبة الريح . قال ابن الأعرابي : يقال شيء ريحاني وروحاني : أي له روح : وقال في الصحاح الريحان نبت معروف ، والريحان الرزق ، تقول : خرجت أبتغي ريحان الله . قال الفهر بن تواب :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسما درر

وقيل العصف رزق البهائم ، والريحان رزق الناس . قرأ الجمهور (والحب ذو العصف والريحان) برفع الثلاثة عطفا على فاكهة . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة بنصيبهما عطفا على الأرض أو على إضمار فعل : أي وخلق الحب ذا العصف والريحان . وقرأ حمزة والكسائي والريحان بالجر عطفا على العصف (غبأى آلاء ربكما تكذبان) الخطاب للجن والإنس ، لأن لفظ الأنعام يعمهما وغيرهما ، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل . وبهذا قال الجمهور من المفسرين : ويدل عليه قوله فيما سيأتي (سنفرغ لكم أيها الثقلان) ويدل على هذا ما قدمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأها على الجن والإنس ، وقيل الخطاب للإنس ، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدمنا في قوله - ألقيا في جهنم - والآلاء النعم . قال القرطبي : وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إلى مثل معي وعصي . وقال ابن زيد : إنها القدرة : أي فبأى قدرة ربكما تكذبان ، وبه قال الكلبي . وكرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريرا للنعمة وتأكيذا للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع . قال القتيبي : إن الله عدّد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقرّروهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك ، وهو يكفره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعزّزتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلا فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن في مثل هذا ، ومنه قول الشاعر :

لا تقتل رجلا إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك

قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيّد للحجة (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير ، وهو السماء والأرض وما فيهما ذكر خلق العالم الصغير ، والمراد بالإنسان هنا آدم . قال القرطبي : باتفاق من أهل التأويل ، ولا يبعد أن يراد الجنس لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم ، والصلصال الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة ، وقيل هو طين خلط برمل ، وقيل هو الطين المتين يقال : صلّ اللحم وأصل إذا أنتن ، وقد تقدّم بيانه في سورة الحجر ، والفخار الخزف الذي طبخ بالنار ، والمعنى : أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يسه الخزف (وخلق الجن من نار) يعني خلق أبا الجن أو جنس الجن من مارج من نار ، والمارج اللهب الصافي من النار ، وقيل الخالص منها ، وقيل لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهب ، وقال الليث : المارج الشعلة للصادعة ذات اللهب الشديد . قال المبرد : المارج النار المرسلة التي لا تمنع ، وقال أبو عبيدة : المارج خلط النار ، من مرج إذا اختلط واضطرب . قال الجوهري : مارج من نار نار لادخان لها خلق منها الجن (غبأى آلاء ربكما تكذبان) فإنه أنعم عليكم في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى (ربّ

المشرقين وربّ المغربين) قرأ الجمهور «ربّ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي هو ربّ المشرقين والمغربين ، وقيل مبتدأ وخبره - مرج البحرين - وما بينهما اعتراض ، والأول أولى ، والمراد بالمشرقين مشرقا الشتاء والصيف ، وبالمغربين مغرباهما (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفرادها (مرج البحرين يلتقيان) المرج التخلية والإرسال ، يقال : مرجت الدابة : إذا أرسلتها ، وأصله الإهمال كما تخرج الدابة في المرعى ، والمعنى : أنه أرسل كل واحد منهما ، يلتقيان : أي يتجاوران لافصل بينهما في مرأى العين ، ومع ذلك فلم يختلطا ، ولهذا قال (بينهما برزخ) أي حاجز يحجز بينهما (لايبغيان) أي لايبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به . قال الحسن وقتادة : هما بحر فارس والروم . وقال ابن جريج : هما البحر المالح والأنهار العذبة ، وقيل بحر المشرق والمغرب ، وقيل بحر اللؤلؤ والمرجان ، وقيل بحر السماء وبحر الأرض . قال سعيد بن جبير : يلتقيان في كل عام ، وقيل يلتقى طرفاهما . وقوله (يلتقيان) في محل نصب على الحال من البحرين ، وجملة (بينهما برزخ) يجوز أن تكون مستأنفة ، وأن تكون حالا (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) . قرأ الجمهور «يخرج» بفتح الياء وضم الراء مبنيًا للفاعل ، وقرأ نافع وأبو عمرو بضم الياء وفتح الراء مبنيًا للمفعول ، واللؤلؤ : الدرّ ، والمرجان : الخرز الأحمر المعروف . وقال الفراء : اللؤلؤ العظام ، والمرجان ماصغر . قال الواحدي : وهو قول جميع أهل اللغة . وقال مقاتل والسدي ومجاهد : اللؤلؤ صغاره ، والمرجان كبارها ، وقال (يخرج منهما) وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، كذا قال الزجاج وغيره . وقال أبو علي الفارسي : هو من باب حذف المضاف : أي من أحدهما كقوله - على رجل من القرينتين عظيم - . وقال الأخفش : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب ، وقيل هما بخران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان ، وقيل هما بحر السماء وبحر الأرض ، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خاجا منهما (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه ولا يقدر على إنكاره (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) المراد بالجوار : السفن الجارية في البحر ، والمنشآت : المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام وهي الجبال ، والعلم : الجبل الطويل . وقال قتادة : المنشآت المخلوقات للجري . وقال الأخفش : المنشآت المجريات ، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة الشورى . قرأ الجمهور «الجوار» بكسر الراء وحذف الياء لالتقاء الساكنين ، وقرأ ابن مسعود والحسن وأبو عمرو في رواية عنه برفع الراء تناسيا للحذف ، وقرأ يعقوب بإثبات الياء ، وقرأ الجمهور « المنشآت » بفتح الشين ، وقرأ حمزة وأبو بكر في رواية عنه بكسر الشين (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ولا إنكاره .

وقد أخرج القرطبي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (الشمس والقمر بحسبان) قال : بحساب ومنازل يرسلان . وأخرج القرطبي وابن أبي حاتم عنه (والأرض وضعها للأنام) قال : للناس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : للخلق . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كل شيء فيه روح . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (والنخل ذات الأكمام) قال : أوعية الطلع . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (والحب ذو العصف) قال : التبن (والريحان) قال خضرة الزرع . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال (العصف) ورق الزرع إذا يبس (والريحان)

ما أنبت الأرض من الریحان الذى يشم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال (العصف)
الزروع أول ما يخرج بقللا (والریحان) حين يستوى على سوقه ولم يسنبل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : كل
ریحان فى القرآن فهو رزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (فبأى آلاء ربكما تكذبان)
قال : يعنى بأى نعمة الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : يعنى الجن والإنس .
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (من مارج من نار) قال : من لهب النار . وأخرج ابن
جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : خالص النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد
وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ربّ المشرقین وربّ المغربین) قال : للشمس مطلع فى
الشتاء ، ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف ، ومغرب فى الصيف غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء .
وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : مشرق الفجر ومشرق الشفق ، ومغرب الشمس ومغرب الشفق .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (مرج البحرين يلتقيان) قال : أرسل البحرين
(بينهما برزخ) قال : حاجز (لا يبغيان) لا يختلطان . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : بحر السماء وبحر الأرض .
وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (بينهما برزخ لا يبغيان) قال : بينهما من البعد مالا يبغي كل واحد منهما على
صاحبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) قال :
إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فى البحر أفواهاها فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ . وأخرج عبد بن حميد
وابن جرير عن على بن أبى طالب قال : المرجان عظام اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : اللؤلؤ :
ما عظم منه ، والمرجان : اللؤلؤ الصغار . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر
والطبرانى عن ابن مسعود قال : المرجان الخرز الأحمر .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَىِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَىِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٣٢)
يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا
لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ (٣٣) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلَ مِنْ
نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرُونَ (٣٥) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٣٦) فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ
فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْمَعُ عَنْ ذُنُوبِهِ
إِنْسٌ وَلَا جَانٌ (٣٩) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ

بِالنُّصَى وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) .

قوله (كل من عليها فان) أى كل من على الأرض من الحيوانات هالك ، وغلب العقلاء على غيرهم فعبر عن الجميع بلفظ من . ، وقيل أراد من عليها من الجن والإنس (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقد تقدم في سورة البقرة بيان معنى هذا ، وقيل : معنى (يبقى وجه ربك) تبقى حجته التى يتقرب بها إليه ، والجلال : العظمة والكبرياء ، واستحقاق صفات المدح ، يقال جل الشيء : أى عظم ، وأجلته : أى أعظمته ، وهو اسم من جل . ومعنى ذو الإكرام : أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به ، وقيل إنه ذو الإكرام لأوليائه ، والخطاب فى قوله ربك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له . قرأ الجمهور « ذو الجلال » على أنه صفة لوجه ، وقرأ أبى وابن مسعود : ذى الجلال على أنه صفة لرب (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وجه النعمة فى فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب . وقال مقاتل : وجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام (يسأله من فى السموات والأرض) أى يسألونه جميعا لأنهم محتاجون إليه لا يستغنى عنه أحد منهم . قال أبو صالح : يسأله أهل السموات المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعا . وقال مقاتل : يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة وتسال لهم الملائكة أيضا الرزق والمغفرة ، وكذا قال ابن جريج . وقيل يسألونه الرحمة . قال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السماء ولا أهل الأرض . والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال أو لسان الحال ما يطلبونه من خيرى الدارين أو من خيرى إحداهما (كل يوم هو فى شأن) انتصاب كل بالاستقرار الذى تضمنه الخبر ، والتقدير : استقر سبحانه فى شأن كل وقت من الأوقات ، واليوم عبارة عن الوقت ، والشأن هو الأمر ، ومن جملة شئونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم وتباين أغراضهم . قال المفسرون : من شأنه أنه يحيى ويميت ، ويرزق ويفقر ، ويعز ويذل ، ويمرض ويشفى ، ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى . وقيل المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا ويوم الآخرة . قال ابن بحر : الدهر كله يومان : أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة . وقيل المراد كل يوم من أيام الدنيا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن اختلاف شئونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها ، ولا يتيسر لمكذب تكذيبها (سنفرخ لكم آية الثقلان) هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجن والإنس . قال الزجاج والكسائى وابن الأعرابى وأبو على الفارسي : إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل ، ولكن تأويله القصد : أى سنقصده لحسابكم . قال الواحدى حاكيا عن المفسرين : إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده ، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده : إذن أتفرغ لك أى أقصد قصدك ، وفراغ يحىء بمعنى قصد ، وأنشد ابن الأنبارى قول الشاعر :

الآن وقد فرغت إلى نعيم فهذا حين كنت له عذابا

يريد وقد قصدت ، وأنشد النحاس قول الشاعر : * فرغت إلى العبد المقيد فى الحجل * أى قصدت ، وقيل : إن الله سبحانه وعد على التقوى وأوعد على المعصية ، ثم قال : سنفرخ لكم مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه ، وبه قال الحسن ومقاتل وابن زيد ، ويكون الكلام على طريق التمثيل . قرأ الجمهور « سنفرخ » بالنون

وضمّ الراء ، وقرأ حمزة والكسائي بالتحتية مفتوحة مع ضمّ الراء : أى سيفرغ الله ، وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء . قال الكسائي : هى لغة تميم ، وقرأ عيسى الثقفى بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ الأعمش وإبراهيم بضمّ الباء وفتح الراء على البناء للمفعول ، وسمى الجحّ والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض ، وقيل سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا كما فى قوله - وأخرجت الأرض أثقالها - وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب ، وجمع فى قوله « لكم » ثم قال « أيه الثقلان » لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع . قرأ الجمهور « أيه الثقلان » بفتح الهاء ، وقرأ أهل الشام بضمها (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من حملها ما فى هذا التهديد من النعم ، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته ، ويزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الذى هو النعيم فى الحقيقة (يامعشر الجحّ والإنس) قدّم الجحّ هنا لكون خلق أبيهم متقدّما على خلق آدم ، ووجود جنسهم قبل جنس الإنس (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض ونواحيهما هربا من قضاء الله وقدره (فانفذوا) منها وخلصوا أنفسكم ، يقال نفذ الشيء من الشيء : إذا خلص منه كما يخلص السهم (لاتنفذون إلا بسلطان) أى لاتقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ولا قوة لكم على ذلك ولا قدرة ، والسلطان : القوة التى يتسلط بها صاحبها على الأمر ، والأمر بالنفوذ : أمر تعجيز . قال الضحّاك : بينما الناس فى أسواقهم إذ انفتحت السماء ونزلت الملائكة فهرب الجحّ والإنس فتحقق بهم الملائكة ، فذلك قوله - لاتنفذون إلا بسلطان - . قال ابن المبارك : إن ذلك يكون فى الآخرة . وقال الضحّاك أيضا : معنى الآية : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا . وقيل إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان : أى بيينة من الله . وقال قتادة : معناها لاتنفذوا إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل الباء بمعنى إلى : أى لاتنفذون إلا إلى سلطان (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ومن حملها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكفّ المسىء عن إساءته ، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة (يرسل عليكم شواظ من نار) قرأ الجمهور « يرسل » بالتحتية مبنيًا للمفعول ، وقرأ زيد بن على بالنون ونصب « شواظ » والشواظ : اللهب الذى لا دخان معه . وقال مجاهد : الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار . وقال الضحّاك : هو الدخان الذى يخرج من اللهب ليس بدخان الخطب . وقال الأخفش وأبو عمرو : هو النار والدخان جميعا . قرأ الجمهور : « شواظ » بضم الشين ، وقرأ ابن كثير بكسرها وهما لغتان ، وقرأ الجمهور (ونحاس) بالرفع عطفا على شواظ ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو بخفضه عطفا على نار ، وقرأ الجمهور « نحاس » بضمّ النون ، وقرأ مجاهد وعكرمة وحيد وأبو العالية بكسرها . وقرأ مسلم بن جندب والحسن « ونحاس » والنحاس : الصفر المذاب يصبّ على رءوسهم ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقال سعيد بن جبير : هو الدخان الذى لا لهب له ، وبه قال الخليل . وقال الضحّاك : هو دردى الزيت المغلى . وقال الكسائي هو النار التى لها ريح شديدة ، وقيل هو المهل (فلا تنتصران) أى لاتقدران على الامتناع من عذاب الله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من حملها هذا الوعيد الذى يكون به الانزجار عن الشرّ والرغوب فى الخير (فإذا انشقت السماء) أى انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة (فكانت وردة كالدهان) أى كوردة حمراء . قال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء ، وقيل فكانت كلون الفرس الورد ، وهو الأبيض الذى يضرب إلى الحمرة أو الصفرة . قال الفراء وأبو عبيدة : تصير السماء كالأديم لشدة حرّ النار . وقال الفراء أيضا : شبه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخليل ، وشبه الورد فى ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، والدهان جمع دهن ، وقيل المعنى

تصير السماء في حمرة الورد ، وجريان الدهن : أى تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدهن لذوبانها ، وقيل الدهان الجلد الأحمر . وقال الحسن كالدهان : أى كصيب الدهن ، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا . وقال زيد بن أسلم : إنها تصير كعصير الزيت . قال الزجاج : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر . قال الماوردي : وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الخواثل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) أى يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه ، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم ، والجمع بين هذه الآية وبين مثل قوله - فوريك لنسألهم أجمعين - أن ما هنا يكون في موقف والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة : وقيل إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم ، لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد ، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع ، ومثل هذه الآية قوله - ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون - قال أبو العالية : المعنى لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم . وقيل إن عدم السؤال هو عند البعث ، والسؤال هو في موقف الحساب (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد (يعرف المجرمون بسيماهم) هذه الحملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال . السما : العلامة . قال الحسن : سيماهم سواد الوجوه وزرقة الأعين ، كما في قوله - ونحشر المجرمين يومئذ زرقا - وقال - يوم تبيض وجوه وتسود وجوه - وقيل سيماهم ما يعلوهم من الحزن والكآبة (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) الجار والمجرور في محل رفع على أنه النائب ، والنواصي شعور مقدم الرؤوس ، والمعنى : أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي ، وتلقيهم الملائكة في النار . قال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بنواصيهم وتجرحهم على وجوههم ، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرحهم على رؤوسهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب وتضطرب لهوله الأحشاء (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) أى يقال لهم عند ذلك هذه جهنم التي تشاهدونها وتنظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون ، والحملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فإذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام . فقيل يقال لهم هذه جهنم تقرعهم وتوبيخهم (يطوفون بينها) أى بين جهنم فتحرقهم (وبين حميم آن) فتصب على وجوههم ، والحميم : الماء الحار ، والآن : الذي قد انتهى حره وبلغ غايته . كذا قال الفراء . قال الزجاج : أنى يأتى أنى فهو آن : إذا انتهى في النضج والحرارة ، ومنه قول النابغة الذبياني :

وتخضب لحية غدرت وخانت بأحر من نجيع الجوف آن

وقيل هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار ، فيغمسون فيه . قال قتادة : يطوفون مرة في الحميم ومرة بين الحميم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف وما يحصل به من الترغيب في الخير والترهيب عن الشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (ذو الللال والإكرام) قال : ذو الكبرياء والعظمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (يسأله من في السموات) قال : مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو في ذلك . وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده والبخاري وابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن منده وابن مردويه

وأبو نعيم وابن عساکر عن عبد الله بن منيب قال « تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (كل يوم هو في شأن) فقلنا : يا رسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » . وأخرج البخارى فى تاريخه وابن ماجه وابن أبى عاصم والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه وابن عساکر والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال « من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين » زاد البخارى « ويحبب داعيا » وقد رواه البخارى تعليقا ، وجعله من كلام أبى الدرداء . وأخرج البخارى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال : يغفر ذنبا ويفرج كربا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (سنفرغ لكم أیه الثقلان) قال : هذا وعيد من الله لعباده ، وليس بالله شغل ، وفى قوله (لاتنفذون إلا بسلطان) يقول : لاتخرجون من سلطانى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (يرسل عليكم شواظ من نار) قال : هب النار (ونحاس) قال : دخان النار . وأخرج ابن جرير عنه أيضا ونحاس : قال الصفر يعذبون به . وأخرج ابن أبى حاتم عنه (فكانت وردة) يقول حمراء (كالدهان) قال : هو الأديم الأحمر . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (فكانت وردة كالدهان) قال : مثل لون الفرس الورد . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) قال : لايسألهم هل عملتم كذا وكذا ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم لم عملتم كذا وكذا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث والنشور عنه أيضا فى قوله (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) قال : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ويجمع فيكسر كما يكسر الخطب فى التنوير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (وبين حمى آن) قال : هو الذى انتهى حره .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)
مُتَكِثِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)
هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا
جَنَّاتٌ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَيْنِ نَضَّاحَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فِكْهَةٌ

وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَكِيَيْنَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) .

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم : فقال : (ولما خاف مقام ربه جنتان) مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب ، كما في قوله - يوم يقوم الناس لرب العالمين - فالمقام مصدر بمعنى القيام ، وقيل المعنى خاف قيام ربه عليه ، وهو إشرافه على أحواله وإطلاعه على أفعاله وأقواله كما في قوله - أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت - قال مجاهد والنخعي : هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

واختلف في الجنتين ، فقال مقاتل : يعني جنة عدن وجنة النعيم ، وقيل إحداهما التي خلقت له والأخرى ورثها . وقيل إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه . وقيل إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقيل جنة للخائف الإنسي ، وجنة للخائف الجنى : وقيل جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية ، وقيل جنة للعقيدة التي يعتقدها ، وأخرى للعمل الذي يعمل به ، وقيل جنة بالعمل وجنة بالفضل ، وقيل جنة روحانية وجنة جسمانية ، وقيل جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته ، وقال الفراء : إنما هي جنة واحدة ، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي . قال النحاس : وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله ، فإن الله يقول (جنتان) ويصفهما بقوله فيهما فيهما الخ (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة ، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة (ذواتا أفنان) هذه صفة للجنتان ، وما بينهما اعتراض ، والأفنان الأغصان ، واحدها فن وهو الغصن المستقيم طولا ، وبهذا قال مجاهد وعكرمة وعطية وغيرهم . وقال الزجاج : الأفنان الألوان واحدها فن ، وهو الضرب من كل شيء ، وبه قال عطاء وسعيد بن جبير ، وجمع عطاء بين القولين ، فقال في كل غصن فنون من الفاكهة ، ومن إطلاق الفن على الغصن قول النابغة :

دعاء حمامة تدعو هديلا مفعجة على فن تغنى

وتقول الآخر : ماهاج شوقك من هدير حمامة تدعو على فن الغصون حماما

وقيل معنى (ذواتا أفنان) ذواتا فضل وسعة على ماسواهما ، قاله قتادة ، وقيل الأفنان : ظل الأغصان على الحيطان ، روى هذا عن مجاهد وعكرمة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار (فيهما عينان تجريان) هذا أيضا صفة أخرى لجنتان : أي في كل واحدة منهما عين جارية . قال الحسن : إحداهما السلسيل والأخرى التسنيم . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، قيل كل واحدة منهما مثل الدنيا أضغافا مضاعفة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذه النعمة

الكائنة في الجنة لأهل السعادة (فيهما من كل فاكهة زوجان) هذا صفة ثلاثة لجنات ، والزوجان الصنفان والنوعان ، والمعنى : أن في الجنة من كل نوع يتفكه به ضريين يستلذ بكل نوع من أنواعه ، قيل أحد الصنفين رطب والآخر يابس لا يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن في مجرد تعداد هذه النعم ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم ، وذلك نعمة عظيمة ومنة كبرى ، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) انتصاب متكئين على الحال من فاعل قوله (ولمن خاف) وإنما جمع حملا على معنى من ، وقيل عاملها محذوف ، والتقدير : يتمتعون متكئين . وقيل منصوب على المدح ، والفرش جمع فرش ، والبطائن : هي التي تحت الظهائر ، وهي جمع بطانة . قال الزجاج : هي ما يلي الأرض ، والإستبرق : ما غلظ من الديباج ، وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال : هذا بما قال الله فيه - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - قيل إنما اقتصر على ذكر البطائن ، لأنه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر . وقال الحسن : بطائنها من إستبرق وظهائرها من نور جامد . وقال الحسن : البطائن هي الظهائر ، وبه قال الفراء : وقال : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة ، لأن كل واحد منهما يكون وجهها ، والعرب تقول هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء لظاهرها الذي نراه ، وأنكر ابن قتيبة هذا ، وقال لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين (وجنى الجنة دان) مبتدأ وخبر ، والجنى : ما يجتنى من الثمار ، قيل إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها ، ومنه قول الشاعر :

هذا جنائ وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

قرأ الجمهور « فرش » بضمين وقرأ أبو حيو بضممة وسكون ، وقرأ الجمهور « جنى » بفتح الجيم ، وقرأ عيسى ابن عمر بكسرها ، وقرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكذب بشيء منها لما تشتمل عليه من القوائد العاجلة والآجلة (فيهن قاصرات الطرف) أي في الجنة المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال فيهن ، لأنه عنى الجنة وما أعد لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل فيهن : أي في الفرش التي بطائنها من إستبرق ، ومعنى (قاصرات الطرف) أنهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة الصافات (لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان) قال الفراء : الطمئ الافتضاض وهو النكاح بالتدمية ، يقال طمئ الحارية : إذا افترعها . قال الواحدي : قال المفسرون لم يطمئن ولم يغشهن ولم يجامعهن قبلهم أحد . قال مقاتل : لأنهن خلقن في الجنة ، والضمير في قبلهم يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف ، وقيل يعود إلى متكئين ، والجملة في محل رفع صفة لقاصرات ، لأن إضافتها لفظية ، وقيل الطمئ المس : أي لم يمسسهن قاله أبو عمرو . وقال المبرد : أي لم يذللهن ، والطمئ التذليل ، ومن استعمال الطمئ فيما ذكره الفراء قول القرزدي :

دفعن إلى لم يطمئن قبلهن وهن أصح من بيض النعام

قرأ الجمهور « يطمئن » بكسر الميم ، وقرأ الكسائي بضمها ، وقرأ الجحدري وطلحة بن مصرف بفتحها ، وفي هذه الآية بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه وعملوا بفرائضه وانتهوا عن مناهيه (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن في مجرد هذا الترغيب في هذه النعم جليلة ومنة عظيمة ،

لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة والفرار من الأعمال الطالحة فكيف بالوصول إلى هذه النعم والتشبع بها في جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال (كأنهن الياقوت والمرجان) هذا صفة لقاصرات ، أو حال منهن ، شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان ، والياقوت هو الحجر المعروف ، والمرجان قد قدّمنا الكلام فيه في هذه السورة على الخلاف في كونه صغار الدرّ ، أو الأحمر المعروف . قال الحسن : هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان ، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ ، لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت ، فكيف بهذه النعم الجليلة والمن الجزيلة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، والمعنى ماجزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، كذا قال ابن زيد وغيره . قال عكرمة : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ، وقال الصادق : هل جزاء من أحسن إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد . قال الرازي : في هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل : إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول : إحداهما قوله تعالى - فاذكروني أذكركم - وثانيها - وإن هدمت عدنا - وثالثها (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) . قال محمد بن الحنفية : هي للبرّ والفاجر : البرّ في الآخرة ، والفاجر في الدنيا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح والزجر عن العمل الذي لا يرضاه (ومن دونهما جنتان) أي ومن دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة ، ومعنى من دونهما : أي من أمامهما ومن قبلهما : أي هما أقرب منهما وأدنى إلى العرش ، وقيل الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى . قال ابن جريج : هي أربع جنت : جنتان منهما للسابقين المقربين - فيهما من كل فاكهة زوجان - وعينان تجريان ، وجنتان لأصحاب اليمين - فيهما فاكهة ونخل ورمان - و - فيهما عينان نضاختان : قال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقرّبين ، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإنها كلها حقّ ونعم لا يمكن جملتها . ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال (مدهامتان) وما بينهما اعتراض . قال أبو عبيدة والزجاج : من خضرتهما قد اسودتا من الزرّ ، وكل ماعلاه السواد ريبا فهو مدهم . قال مجاهد : مسودتان ، والدهمة في اللغة : السواد ، يقال فرس أدهم وبغير أدهم : إذا اشتدت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر (فيهما عينان نضاختان) النضخ فوران الماء من العين ، والمعنى : أن في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين . قال أهل اللغة : والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضخ بالخاء المهملة . قال الحسن ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر . وقال سعيد بن جبير : إنها تنضخ بأنواع الفواكه والماء (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإنها ليست بموضع للتكذيب ولا بمكان للجحد (فيهما فاكهة ونخل ورمان) هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا ، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه كما حكاه الزجاج والأزهري وغيرهما . وقيل إنما خصهما لكثرتيهما في أرض العرب ، وقيل خصهما لأن النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء . وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم ، ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة وقد خالفه صاحبا أبو يوسف ومحمد (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن من جملتها هذه النعم التي في جنات النعيم ، ومجرد الحكاية لما تأثر في نفوس السامعين وتجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين (فيهنّ خيرات حسان) قرأ الجمهور « خيرات »

بالتخفيف ، وقرأ قتادة وابن السميع وأبو رجاء العطاردي وبكر بن حبيب السهمي وابن مقسم والنهدي بالتشديد ؛ فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين ، يقال امرأة خيرة وأخرى شرّة ، أو جمع خيرة مخفف خيرة ، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد . قال الواحدي : قال المفسرون : الخيرات النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه . قيل وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع ، ولا وجه لهذا فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن قاصرات الطرف . كأنهن الياقوت والمرجان . وبين الصفتين بون بعيد (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن شيئاً منها كائناً ما كان لا يقبل التكذيب (حور مقصورات في الخيام) أي محبوسات ، ومنه القصر ، لأنه يحبس من فيه ، و الحور جمع حوراء وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها ، وقد تقدم بيان معنى الحوراء والخلاف فيه . وقيل معنى مقصورات : أنهن قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، وحكاها الواحدي عن المفسرين . والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة ومقاتل وغيرهما . قال في الصحاح : قصرت الشيء أقصره قصرًا حبسته ، والمعنى : أنهن خدّرن في الخيام ، . والخيام جمع خيمة ، وقيل جمع خيم ، والخيم جمع خيمة ، وهي أعواد تنصب وتظل بالثياب ، فتكون أبرد من الأخبية ، قيل الخيمة من خيام الجنة درة مجوفة فرسخ في فرسخ ، وارتفاع حور على البدلية من خيرات (لم يطمثنّ إنس قبلهم ولا جان) قد تقدم تفسيره في صفة الجنتين الأوليين (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإنها كلها نعم لا تكفر ومن لا تجحد (متكئين على رفرف خضر) انتصاب متكئين على الحال أو المدح كما سبق ، قال أبو عبيدة : الرفارف البسط ، وبه قال الحسن ومقاتل والضحاك وغيرهم . وقال ابن عينة : هي الزرابي . وقال ابن كيسان : هي المرافق . وروى عن أبي عبيدة أنه قال : هي حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضرة وقيل الفرش المرتفعة ، وقيل كل ثوب عريض . قال في الصحاح : والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس ، الواحدة ررفة . وقال الزجاج : قالوا الرفرف هنا رياض الجنة ، وقالوا الرفرف الوسائد ، وقالوا الرفرف المحابس هـ . ومن القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير ، واشتقاق الرفرف من رف يرف : إذا ارتفع ، ومنه ررفة الطائر ، وهي تحريك جناحيه في الهواء . قرأ الجمهور « رفرف » على الأفراد . وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدري « رفارف » على الجمع (وعبقري حسان) العبقري الزرابي ، والطنافس الموشية . قال أبو عبيدة : كل وشي من البسط عبقري ، وهو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي . قال الفراء : العبقري الطنافس الثمان ، وقيل الزرابي ، وقيل البسط ، وقيل الديباج . قال ابن الأنباري : الأصل فيه أن عبقري قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق . قال الخليل : العبقري عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء ، ومنه قول زهير :

تخيّل عليها جنة عبقريّة جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا

قال الجوهري : العبقري موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن . قال ليبد * كهول وشبان كجنة عبقري . ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا عبقري ، وهو واحد وجمع . قرأ الجمهور « عبقري » وقرأ عثمان بن عفان والحسن والجحدري « عباقرى » وقرئ « عباقر » وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد . وقال قطرب : ليس بمنسوب ، وهو مثل كرسى وكراسى وبختى وبختى . قرأ الجمهور « خضر » بضم الخاء وسكون الضاد ، وقرئ بضمهمما وهي لغة قليلة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإن كل واحد منها أجل من أن يتطرق إليه التكذيب ، وأعظم من أن يحده جاحد أو ينكره منكر ، وقد قدّمنا في أول هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) تبارك تفاعل من البركة . قال الرازي : وأصل التبارك من التبرّك ، وهو الدوام والثبات ، ومنه برك البعير وبركه الماء فإن الماء يكون دائماً ، والمعنى : دام اسمه وثبت

أو دام الخير عنده ، لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير ، أو يكون معناه علا وارتفع شأنه .
وقيل معناه : تنزيه الله سبحانه وتقديسه ، وإذا كان هذا التبارك منسوباً إلى اسمه عز وجل ، فما ظنك بذاته سبحانه ؟ وقيل الاسم بمعنى الصفة ، وقيل هو مقحم كما في قول الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليهما ومن يليك حولا كاملاً فقد اعتذر

وقد تقدم تفسير ذى الجلال والإكرام في هذه السورة . قرأ الجمهور « ذى الجلال » على أنه صفة للرب سبحانه . وقرأ ابن عامر « ذو الجلال » على أنه صفة لاسم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة . وأخرج ابن جرير عنه في الآية يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف : من ركب طاعة الله وترك معصيته . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أنها نزلت في أبي بكر . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب مثله . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في الآية قال : لمن خافه في الدنيا . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحاكم والترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . الثانية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق ، فقال الثالثة (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقال أبو الدرداء : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبي الدرداء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء في قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : قيل لأبي الدرداء : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق . وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبد الملك ، فقال : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال أبو هريرة : وإن زنى وإن سرق ؟ فقلت : إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « جنان الفردوس أربع جنات : جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة حليتهما وأبنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وفي قوله (ومن دونهما جنتان) قال : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي موسى في قوله « ولمن خاف مقام ربه جنتان » قال : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ذواتا أفنان) قال : ذواتا ألوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : فن غصونها بمس بعضها بعضاً . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضاً قال : الفن الغصن . وأخرج القرطبي وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) قال : أخبرتم بالبطائن ،

فكيف بالظواهر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل له بطائنها من إستبرق ، فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين - . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عنه في قوله (وجنى الجنة دان) قال : جناها ثمرها ، والداني : القريب منك يناله القائم والقاعد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عنه أيضا في قوله (فيهن قاصرات الطرف) يقول : عن غير أزواجهن (لم يطمثن) يقول : لم يدن منهن أو لم يدمهن . وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « في قوله (كأنهن الياقوت والمرجان) قال : تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من المرأة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوبا وينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك » . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السري والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى نحتها ، وذلك أن الله يقول : كأنهن الياقوت والمرجان ، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيت من ورائه » وقد رواه الترمذي موقوفا وقال هو أصح . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب وضعفه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « في قوله (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبغوي في تفسيره ، والديلمي في مسند الفردوس ، وابن النجار في تاريخه عن أنس مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا في الآية قال : « هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة » . وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله - هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - قال : هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة . وأخرج ابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي والبيهقي في الشعب وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنزل الله على هذه الآية في سورة الرحمن للكاfer والمسلم : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . وأخرجه ابن مردويه موقوفا على ابن عباس . وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (مدهامتان) قال : هما خضراوان . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : قد اسودتا من الخضرة من الرى من الماء . وأخرج القرطبي وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (مدهامتان) قال : خضراوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (نضاختان) قال : فائضتان . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ينضخان بالماء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (خيرات حسان) قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لا مراحات ولا طماحات ولا بخرات ولا دفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (حور) قال : بيض (مقصورات) قال : محبوسات (في الخيام) قال : في بيوت اللؤلؤ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن

أبي حاتم قال : الحور سود الخلق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الخيام در مجوف » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن » . وأخرج القرطبي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (متكئين على رفرف) قال : فضول المحابس والقرش والبسط . وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب قال : هي فضول المحابس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والبيهقي في البعث بن طرق عن ابن عباس (رفرف خضر) قال : المحابس (وعبقرى حسان) قال : الزرابي . وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال : الرفرف الرياض ، والعبقرى الزرابي .

تفسير سورة الواقعة

هي سبع وتسعون ، أو ست وتسعون آية

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وقال الكلبي : إنها مكية إلا أربع آيات منها ، وهي (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وقوله (ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين) . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الواقعة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « سورة الواقعة سورة الغنى ، فاقروها وعلموها أولادكم » . وأخرج الديلمي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى » ، وقد تقدم قوله صلى الله عليه وآله وسلم « شيتنى هود والواقعة » اهـ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِمَنْ لَوْقَعَتْهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مَتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وَلَدُنْ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفِيهَا مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) .

قوله (إذا وقعت الواقعة) الواقعة اسم للقيامة كالآزفة وغيرها ، وسميت واقعة لأنها كائنة لا محالة ، أو لقرب وقوعها ، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وانتصاب إذا بمضمر : أى اذكر وقت وقوع الواقعة ، أو بالنفي المفهوم من قوله (ليس لوقعتها كاذبة) أى لا يكون عند وقوعها تكذيب ، والكاذبة مصدر كالعاقبة : أى ليس لحجيتها وظهورها كذب أصلا ، وقيل إذا شرطية وجوابها مقدر : أى إذا وقعت كان كيت وكيت ، والجواب هذا هو العامل فيها ، وقيل إنها شرطية ، والعامل فيها الفعل الذى بعدها ، واختار هذا أبو حيان ، وقد سبقه إلى هذا مكى فقال : والعامل وقعت . قال المفسرون : والواقعة هنا هى النفخة الآخرة ، ومعنى الآية : أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا ، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة . قال الزجاج : ليس لوقعتها كاذبة : أى لا يردّها شيء ، وبه قال الحسن وقتادة . وقال الثوري : ليس لوقعتها أحد يكذب بها . وقال الكسائي : ليس لها تكذيب : أى لا ينبغي أن يكذب بها أحد (خافضة رافعة) قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ : أى هى خافضة رافعة . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى بنصبهما على الحال . قال عكرمة والسدى ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا ، ورفعت الصوت فأسمعت من نأى : أى أسمعت القريب والبعيد . وقال قتادة : خفضت أقواما فى عذاب الله ، ورفعت أقواما إلى طاعة الله . وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين ، والعرب تستعمل خفض والرفع فى المكان والمكانة والعز والإهانة ، ونسبة خفض والرفع إليها على طريق المجاز ، والخفض والرفع فى الحقيقة هو الله سبحانه (إذا رجّت الأرض رجاً) أى إذا حركت حركة شديدة ، يقال رجه يرجه رجاً إذا حركه ، والرجة الاضطراب ، وارتج البحر اضطرب . قال المفسرون : ترتج كما يرتج الصبي فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها . قال قتادة ومقاتل ومجاهد : معنى رجّت زلزلت ، والظرف متعلق بقوله « خافضة رافعة » أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبس الجبال ، لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض وينخفض ما هو مرتفع . وقيل إنه بدل من الظرف الأول ذكره الزجاج ، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رجّ الأرض ، وبس الجبال (بس الجبال بسا) البس : الفت ، يقال : بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتا ، ويقال بس السوق : إذا لته بالسمن أو بالزيت . قال مجاهد ومقاتل : المعنى أن الجبال فتت فتا . وقال السدى : كسرت كسرا . وقال الحسن : قلعت من أصلها . وقال مجاهد أيضا : بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت ، والمعنى : أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت . وقال أبو زيد : البس السوق ، والمعنى على هذا : سبقت الجبال سوقا . قال أبو عبيد : بس الإبل وأبسها لغتان : إذا زجرها . وقال عكرمة : المعنى هدّت هدّا (فكانت هباء منبثا) أى غبارا متفرقا منتشرا . قال مجاهد : الهباء الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار ، وقيل هو الرّيح الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، وقيل ماتطير من النار إذا اضطربت على

سورة الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً ، وقد تقدم بيانه في الفرقان عند تفسير قوله - فجعلناه هباء منثورا - قرأ الجمهور « منبثا » بالمثلثة . وقرأ مسروق والنخعي وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق : أى منقطعا ، من قولهم بته الله : أى قطعه . ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال (وكنتم أزواجا ثلاثة) والخطاب لجميع الناس أو الأمة الحاضرة ، والأزواج الأصناف ، والمعنى : وكنتم في ذلك اليوم أصنافا ثلاثة . ثم فسر سبحانه هذه الأصناف فقال (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) أى أصحاب اليمين ، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب الميمنة مبتدأ ، وخبره : ما أصحاب الميمنة : أى أى شيء هم في حالهم وصفتهم ، والاستفهام للتعظيم والتفخيم ، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرابط ، كما في قوله - الحاقة ما الحاقة - والقارعة ما القارعة - ولا يجوز مثل هذا إلا في مواضع التفخيم والتعظيم (و) الكلام في (أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) كاللزام في أصحاب الميمنة ، والمراد الذى يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم ، والمراد تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة والفضاعة ، كأنه قيل : فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة وحسن الحال ، وأصحاب المشأمة في نهاية الشقاوة وسوء الحال . وقال السدى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شماله . وقال زيد ابن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة . وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر ، والعرب تقول : اجعلنى في يمينك ولا تجعلنى في شمالك : أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين ، ومنه قول ابن الدميني :

أبنتى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال (والسابقون السابقون) والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم كما مر في القسمين الأولين ، كما تقول أنت أنت وزيد زيد ، والسابقون مبتدأ ، وخبره السابقون . وفيه تأويلان : أحدهما أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك . والثانى أن متعلق السابقين مختلف ، والتقدير : والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة . والأول أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم . قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كلامه . وقال محمد بن كعب : إنهم الأنبياء . وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقال مجاهد : هم الذين سبقوا إلى الجهاد ، وبه قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر . وقال الزجاج : المعنى والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله . قيل ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين هو أن يقترن به ما بعده ، وهو قوله (أولئك المقربون في جنات النعيم) فالإشارة هي إليهم : أى المقربون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته ، أو الذين قربت درجاتهم وأعليت مراتبهم عند الله . وقوله « فى جنات النعيم » متعلق بالمقربون : أى مقربون عند الله فى جنات النعيم . ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لأولئك ، وأن يكون حالا من الضمير فى المقربون : أى كائنين فيها . قرأ الجمهور « فى جنات » بالجمع ، وقرأ طلحة بن مصرف « فى جنة » بالإفراد ، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال : دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل ، وارتفاع (ثمة من الأولين) على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى

هم ثلة ، والثلة الجماعة التي لا يحصر عددها . قال الزجاج : معنى ثلة معنى فرقة ، من ثلث الشيء : إذا قطعته ، والمراد بالأولين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم (وقليل من الآخرين) أى من هذه الأمة ، وسموا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة من أجابهم . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا . قال الزجاج : الذين عابنوا جميع الأنبياء وصدّقوا بهم أكثر ممن عابن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، ثم قال : نصف أهل الجنة » لأن قوله « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم ، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة ، والمقابلة بين الثنتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة كما يقال : هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة ، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة . وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور . ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال (على سرر موضونة) قرأ الجمهور « سرر » بضم السين والراء الأولى ، وقرأ أبو السماك وزيد بن عليّ بفتح الراء ، وهى لغة كما تقدّم ، والموضونة المنسوجة ، والوضن : الذئب المضاعف . قال الواحدي : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب ، وقيل مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد ، وقيل إن الموضونة المصفوفة . وقال مجاهد : الموضونة المرمولة بالذهب ، وانتصاب (متكئين عليها) على الحال ، وكذا انتصاب (متقابلين) والمعنى : مستقرّين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض (يطوف عليهم ولدان مخلدون) الجملة في محل نصب على الحال من المقربين ، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعدّ الله لهم من النعيم ، والمعنى يلور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ولا يتغيرون ، بل شكلهم شكل الولدان دائما . قال مجاهد : المعنى لا يموتون . وقال الحسن والكلبي : لا يهرمون ولا يتغيرون . قال القراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط إنه لمخلد . وقال سعيد بن جبير : مخلدون مقرطون . قال القراء : ويقال لمخلدون مقرطون ، يقال خلد جاريتته : إذا حلاها بالخلة ، وهى القرطة . وقال عكرمة : مخلدون منعمون ، ومنه قول امرئ القيس :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل مستورون بالحلية ، وروى نحوه عن القراء ، ومنه قول الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن أقاوز الكثبان

وقيل لمخلدون ممنطقون ، قيل وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة ، وقيل هم أطفال المشركين ، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة ، والأكواب : هى الأقداح المستديرة الأفواه التى لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها في سورة الزحرف ، والأباريق : هى ذات العرى والحراطم ، واحدها أبريق ، وهو الذى يبرق لونه من صفائه (وكأس من معين) أى من خمر تجارية أو من ماء جار ، والمراد به هاهنا الخمر التجارية من العيون ، وقد تقدّم بيان معنى الكأس في سورة الصافات (لا يصدّعون عنها) أى لا تصدّع رءوسهم من شربها كما تصدّع من شرب خمر الدنيا . والصداع هو الداء المعروف الذى يلحق الإنسان

في رأسه ، وقيل معنى لا يصدعون لا يفرقون كما يفرق الشراب ، ويقوى هذا المعنى قراءة مجاهد « يصدعون » بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصل يتصدعون : أى يفرقون ، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم ، أو في محل نصب على الحال ، وجملة (ولا ينزفون) معطوفة على الجملة التى قبلها ، وقد تقدم اختلاف القراء في هذا الحرف في سورة الصافات ، وكذلك تقدم تفسيره : أى لا يسكرون فتذهب عقولهم ، من أنزف الشارب : إذا نقد عقله أو شرابه ، ومنه قول الشاعر :

لعمري لئن أنزفتم أو صحتم لبئس الندامى كنتم آل أبحرا

(وفاكهة مما يتخيرون) أى يختارونه ، يقال : تخيرت الشيء : إذا أخذت خيره . قرأ الجمهور « وفاكهة » بالجر (و) كذا (لحم) عطفا على أكواب : أى يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به . وقرأ زيد ابن على وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء ، والخبر مقدر : أى ولهم فاكهة ولحم ، ومعنى (مما يشتهون) مما يتمنونه وتشبهه أنفسهم (وهور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) قرأ الجمهور « حور عين » برفعهما عطفا على ولدان أو على تقدير مبتدأ : أى نساؤهم حور عين ، أو على تقدير خبر : أى ولهم حور عين ، وقرأ حمزة والكسائي : بجرهما عطفا على أكواب . قال الزجاج : وجائز أن يكون معطوفا على جنات : أى هم في جنات وفي حور على تقدير مضاف محذوف : أى وفي معاشر حور . قال القراء : في توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجر على الاتباع في اللفظ وإن اختلفا في المعنى ، لأن الحور لا يطاق بهن ، كما في قول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل ، ومن هذا قول الشاعر : * علقها تبنا وماء باردا * . وقول الآخر : * متقلدا سيفا ورمحا * . قال قطرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاق عليهم بالحور : ويكون لهم في ذلك لذة . وقرأ الأشهب العقيلي والنخعي وعيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل ، كأنه قيل : ويزوجون حورا عينا ، أو ويعطون ، ورجح أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور . ثم شبهن سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذى لم تمسه الأيدي ولا وقع عليه الغبار ، فهو أشد ما يكون صفاء ، وانتصاب جزاء في قوله (جزاء بما كانوا يعملون) على أنه مفعول له : أى يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم . ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لفعل محذوف : أى يجوزون جزاء ، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيرها (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيا) اللغو الباطل من الكلام ، والتأثير النسبة إلى الإثم . قال محمد بن كعب : لا يؤثم بعضهم بعضا ، وقال مجاهد : لا يسمعون شيئا ولا ماثما ، والمعنى : أنه لا يقول بعضهم لبعضهم أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم (إلا قليلا سلاما سلاما) القيل القول ، والاستثناء منقطع : أى لكن يقولون قليلا ، أو يسمعون قليلا ، وانتصاب سلاما سلاما على أنه بدل من قليلا ، أو صفة له ، أو هو مفعول به لقيلا : أى إلا أن يقولوا سلاما سلاما ، واختار هذا الزجاج ، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بقيلا : أى إلا قليلا سلموا سلاما سلاما ، والمعنى في الآية : أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض . قال عطاء : يحى بعضهم بعضا بالسلام ، وقيل إن الاستثناء متصل وهو بعيد ، لأن التحية ليست مما يندرج تحت اللغو والتأثير ، قرئ « سلام سلام » بالرفع . قال مكي : ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وإذا

وُفِعَتِ الْوَاقِعَةُ) قَالَ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ (لَيْسَ لَوْعَتُهَا كَاذِبَةٌ) قَالَ : لَيْسَ لَهَا مُرْدٌ يَرُدُّ (خَافِضَةُ رَافِعَةٌ) قَالَ : تُخَفِّضُ نَاسًا وَتَرْفَعُ آخَرِينَ . وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ (خَافِضَةُ رَافِعَةٌ) قَالَ : أَسْمَعْتُ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ . وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ (خَافِضَةُ رَافِعَةٌ) قَالَ : السَّاعَةُ خَفَضَتْ أَعْدَاءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ، وَرَفَعَتْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ (إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا) قَالَ : زَلَزَلَتْ (وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا) قَالَ : فَتَنَتْ (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا) قَالَ : شِعَاعُ الشَّمْسِ . وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا) قَالَ : الْهَبَاءُ الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ إِذَا أَضْرَمْتَ يَطِيرُ مِنْهَا الشَّرُّ ، فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا . وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ : الْهَبَاءُ مَا يَثُورُ مَعَ شِعَاعِ الشَّمْسِ ، وَابْنُ ثَابِتٍ تَفَرَّقَهُ . وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : الْهَبَاءُ الْمُنْبَثُ رَهْجُ الدُّوَابِّ ، وَالْهَبَاءُ الْمُنْثَرُ غِبَارُ الشَّمْسِ الَّذِي تَرَاهُ فِي شِعَاعِ الْكُوفَةِ . وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا) قَالَ : أَصْنَافًا . وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) قَالَ : هِيَ الَّتِي فِي سُورَةِ الْمَلَائِكَةِ - ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ - . وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوَاهِ (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) قَالَ : يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ سَبَقَ إِلَى مُوسَى ، وَمُؤْمِنُ آلِ يَاسِينَ سَبَقَ إِلَى عِيسَى ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَبَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . وَأَخْرَجَ ابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ أَيْضًا فِي الْآيَةِ قَالَ : نَزَلَتْ فِي حَزَقِيلَ مَوْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَحَبِيبِ النَّجَّارِ الَّذِي ذَكَرَ فِي يَسَّ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَابِقٌ أُمَّتُهُ ، وَعَلِيُّ أَفْضَلُهُمْ سَبَقًا . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ - وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ) فَقَبَضَ بِيَدَيْهِ قَبْضَتَيْنِ فَقَالَ : هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي ، وَهَذِهِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي » . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « أَتَدْرُونَ مَنْ السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبِلُوهُ ، وَإِذَا سُئِلُوا بِذُلُوا ، وَحَكَمُوا لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ » . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) شَقَّ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَنَزَلَتْ (ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثَلَاثُ الْجَنَّةِ ، بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَتَقَاسِمُونَهُمُ النِّصْفَ الثَّانِي » . وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرَ وَابْنَهُ فِي الْبَعْثِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (عَلَى سِرَرٍ مَوْضُونَةٍ) قَالَ : مَصْفُوفَةٍ . وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَهَنَادُ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ الْمُنْذِرَ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنَهُ فِي الْبَعْثِ عَنْهُ . قَالَ : مَرْمُوءَةٌ بِالذَّهَبِ . وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي الدُّنْيَا فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالْبَزَارَ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ وَابْنَهُ فِي الْبَعْثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيُخَرَّبُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشُوبًا » . وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالضَّيَّاءُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ طَيْرَ الْجَنَّةِ كَأَمْثَالِ الْبَخْتِ تَرعى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الطَّيْرَ لَنَاعِمَةٌ ، قَالَ : آ كُلْهَا أَنْعَمَ مِنْهَا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْ يَأْكُلُ مِنْهَا » وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ . وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ (كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) قَالَ : الَّذِي فِي الصَّدَفِ . وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُنْذِرَ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا) قَالَ : بِاطْلَا (وَلَا تَأْثِيمًا) قَالَ : كَلْبًا

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٢٩)

وَزَلَّ مَمْدُودٌ (٢٠) وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ (٢١) وَفِكْهَةٌ كَثِيرَةٌ (٢٢) لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مُنْوَعَةٌ (٢٣)
وَفُرْشٌ مَرْفُوعَةٌ (٢٤) إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْشَاءً (٢٥) فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٢٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٢٧)
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٢٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٢٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٣٠) وَأَصْحَابُ الشَّامِ
مَا أَصْحَابُ الشَّامِ (٣١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٣٢) وَزَلَّ مِنْ يَحْمُومٍ (٣٣) لَا بَارِدٍ وَلَا
كَرِيمٍ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٣٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٣٦)
وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٣٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٣٨)
قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٣٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ مَعْلُومَةٍ (٤٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا
الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٤١) لَا تَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٤٢) فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٤٣)
فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٤٤) فَشَرِبُوا شُرْبَ أَلْهِيمٍ (٤٥) هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦)

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين وما أعد لهم من النعيم المقيم ، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال
(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) قد قد منا وجه إعراب هذا الكلام ، وما في هذه الجملة الاستفهامية من التفعيم
والتعظيم ، وهي خبر مبتدأ ، وهو أصحاب اليمين ، وقوله (في سدر مخضود) خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف :
أى هم في سدر مخضود ، والسدر نوع من الشجر ، والمخضود الذى خضد شوكه : أى قطع فلا شوك فيه . قال
أمية بن أبى الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق في الجنان ظليلة فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود الموقر حملا (وطلح منضود) قال أكثر
المفسرين : إن الطلح في الآية هو شجر الموز . وقال جماعة : ليس هو شجر الموز ، ولكنه الطلح المعروف وهو
أعظم أشجار العرب . قال الفراء وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك . قال الزجاج : الطلح هو أم غيلان ، ولها
نور طيب ، فخطبوا ووعدوا ما يحبون ، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا .
قال : ويجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه . قال السدى : طلع الجنة يشبه طلع الدنيا : لكن له ثمر أحلى
من العسل ، والمنضود : المتراكب الذى قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة . قال مسروق : أشجار
الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيد ثمر كله ، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها (وظل ممدود) أى دائم باق
لا يزول ولا تنسخه الشمس . قال أبو عبيدة : والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع ممدود ، ومنه قوله - ألم تر
إلى ربك كيف مد الظل - والجنة كلها ظل لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعنى ظل العرش ، ومن استعمال
العرب للممدود في الدائم الذى لا ينقطع قول لبيد :

غلب العزاء وكان غير مغلب دهر طويل دائم ممدود

(وماء مسكوب) أى منصبٌ يجرى بالليل والنهار أينما شاءوا لا ينقطع عنهم ، فهو مسكوب يسكبهُ الله في مجاريه ، وأصل السكب الصب ، يقال سكبهُ سكباً : أى صبهُ (وفاكهة كثيرة) أى ألوان متنوعة متكررة (لا مقطوعة) في وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات (ولا ممنوعة) أى لا تمتنع على من أرادها في أى وقت على أى صفة ، بل هى معدة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل . قال ابن قتيبة : يعنى أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا (وفرش مرفوعة) أى مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرة . وقيل إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ، وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن والكمال (إنا أنشأناهن إنشاءً) أى خلقناهن خلقاً جديداً من غير توالد ، وقيل المراد نساء بنى آدم ، والمعنى : أن الله سبحانه أعادهن بعد الموت إلى حال الشباب ، والنساء وإن لم يتقدم لهن ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة عين النساء فرجع الضمير ظاهر (فجعلناهن أبكاراً) - لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان - (عرباً أتراباً) العرب جمع عروب ، وهى المتحبة إلى زوجها . قال المبرد : هى العاشقة لزوجها ، ومنه قول لبيد :

وفى الحباء عروب غير فاحشة ربا الروادف يعشى ضوءها البصرا

وقال زيد بن أسلم : هى الحسنة الكلام . قرأ الجمهور بضم العين والراء . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء وهما لغتان فى جمع فعول ، والأتراب : هن اللواتى على ميلاد واحد وسن واحد . وقال مجاهد : أتراباً أمثالا وأشكالا . وقال السدى : أتراباً فى الأخلاق لا تباغض بينهم ولا تحاسد . قوله (لأصحاب اليمين) متعلق بأنشأناهن أو جعلناهن أو بأتربا ، والمعنى : أن الله أنشأهن لأجلهم أو خلقهن لأجلهم أو هن مساويات لأصحاب اليمين فى السن ، أو هو خبر مبتدأ محذوف : أى هن لأصحاب اليمين (ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين) هذا راجع إلى قوله (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أى هم ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين ، وقد تقدم تفسير الثلثة عند ذكر السابقين ، والمعنى : أنهم جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأولين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، وجماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك : ثلثة من الأولين . يعنى من سابقى هذه الأمة ، وثلثة من الآخرين من هذه الأمة من آخرها . ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب الشمال وما أعدّه لهم فقال (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) الكلام فى إعراب هذا وما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين ، وقوله (فى سموم وحميم) إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف ، والسموم : حر النار ، والحميم : الماء الحار الشديد الحرارة ، وقد سبق بيان معناه . وقيل السموم : الريح الحارة التى تدخل فى مسام البدن (وظل من يحموم) يحموم يفعل من الأحم : وهو الأسود ، والعرب تقول أسود يحموم : إذا كان شديد السواد ، والمعنى : أنهم يفرعون إلى الظل فيجلسونه ظلاً من دخان جهنم شديد السواد . وقيل وهو مأخوذ من اللحم وهو الشحم المسود باحتراق النار . وقيل مأخوذ من اللحم وهو اللحم . قال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود ، ثم وصف هذا الظل بقوله (لا بارد ولا كريم) أى ليس كغيره من الظلال التى تكون باردة ، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم . قال سعيد بن المسيب : ولا كريم : أى ليس فيه حسن منظر وكل ما لاخير فيه فليس بكريم وقال الضحاك : ولا كريم ولا عذب . قال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعا لكل شئ نفث عنه وصفا تنوى

به الذم ، تقول : ما هو يسمين ولا بكريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة . ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب فقال (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) وهذه الجملة تعليل لما قبلها : أي إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين في الدنيا : أي منعمين بما لا يحل لهم ، والمترف المتنعم . وقال السدي : مشركين ، وقيل متكبرين ، والأول أولى (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) الحنث الذنب : أي يصرون على الذنب العظيم . قال الواحدي : قال أهل التفسير : غنى به الشرك : أي كانوا لا يتوبون عن الشرك . وبه قال الحسن والضحاك وابن زيد . وقال قتادة ومجاهد : هو الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه . وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ، (وكانوا يقولون أئذا مئتنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) الهمة في الموضعين للإنكار والاستبعاد ، وقد تقدم الكلام على هذا في الصافات ، وفي سورة الرعد ، والمعنى : أنهم أنكروا واستبعدوا أن يعيشوا بعد الموت ، وقد صاروا عظاما وترابا ، والمراد أنه صار لحمهم وجلودهم ترابا وصارت عظامهم نخرة بالية ، والعامل في الظرف ما يدل عليه مبعوثون ، لأن ما بعد الاستفهام لا يعنل فيما قبله : أي انبعث إذا متنا ؟ الخ (أو آباؤنا الأولون) معطوف على الضمير في لمبعوثون لوقوع الفصل بينهما بالهزة ، والمعنى : أن بعث آباؤهم الأولين أبعدهم موتهم ، وقرئ وآباؤنا . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويرد استبعادهم فقال (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون) أي قل لهم يا محمد إن الأولين من الأمم والآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث (إلى ميقات يوم معلوم) وهو يوم القيامة (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول ، وهو معطوف على « إن الأولين » ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين ، وهما الضلال عن الحق والتكذيب له (لا تكلون من شجر من زقوم) أي لا تكلون في الآخرة من شجر كرية المنظر كرية الطعم ، وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات ، ومن الأولى لا ابتداء الغاية ، والثانية بيانية ، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة ، والثانية بيانية ، وأن تكون الثانية مزيدة ، والأولى لا ابتداء (فمائلون منها البطون) أي مائلون من شجر الزقوم بطونكم لما يلحقكم من شدة الجوع (فشاربون عليه من الحميم) الضمير في عليه عائد إلى الزقوم ، والحميم الماء الذي قد بلغ حره إلى الغاية ، والمعنى : فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار ، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكر ويؤنث . ويجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله « لا تكلون » ، وقرئ « من شجرة » بالافراد (فشاربون شرب الحميم) قرأ الجمهور « شرب الحميم » بفتح الشين ، وقرأ نافع وعاصم وحمة بضمها ، وقرأ مجاهد وأبو عثمان النهدي بكسرها ، وهي لغات . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم السين وفتحها وكسرها . قال المبرد : الفتح على أصل المصدر والضم اسم المصدر ، والهميم : الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها ، وهذه الجملة بيان لما قبلها : أي لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء ، ومفرد الهم أهم ، والأنثى هياء . قال قيس بن الملوح :

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسي مكان شقايا

وقال الضحاك وابن عينة والأخفش وابن كيسان : الهم الأرض السهلة ذات الرمل ، والمعنى : أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ولا يظهر له فيها أثر . قال في الصحاح : الهيام بالضم : أشد العطش ، والهيام كالبخون من العشق ، والهيام : داء يأخذ الإبل بهم في الأرض لا ترعى ، يقال ناقة هياء ، والهيام أيضا : المفازة لا ماء بها ، والهيام بالفتح : الرمل الذي لا تماسك في اليد لينه ، والجمع هم مثل قذال وقذل ، والهيام

بالكسر الإبل العطاش (هذا نزلهم يوم الدين) قرأ الجمهور « نزلهم » بضمين ، وروى عن أبي عمرو وابن محيصن بضممة وسكون ، وقد تقدم أن النزل ما يعد للضيف ، ويكون أول ما يأكله ، ويوم الدين يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، والمعنى : أن ما ذكر من شجر الزقوم وشراب الحميم هو الذي يعد لهم ويأكلونه يوم القيامة ، وفي هذا تهكم بهم ، لأن النزل هو ما يعد للأضياف تكريماً لهم ، ومثل هذا قوله - فبشرهم بعذاب أليم - .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن أبي أمامة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومساثلهم ، أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها : قال : وما هي ؟ قال : السدر فإن لها شوكاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أليس الله يقول (في سدر مخضود ؟) يخضد الله شوكه ، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فلأنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام مامنها لون يشبه الآخر . وأخرج ابن أبي داود والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن عيينة بن عبد السلمى قال : « كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاء أعرابي فقال : يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها : يعني الطلح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود : يعني الخصى منها ، فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون آخر » وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (سدر مخضود) قال : خضده وقره من الحمل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن طرق عنه قال : المخضود الذي لاشوك فيه . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : المخضود الموقر الذي لاشوك فيه . وأخرج عبد الرزاق والفريري وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله (وطلح منضود) قال : هو الموز . وأخرج الفريري وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن طرق عن ابن عباس مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي هريرة مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأ « وطلح منضود » وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قيس بن عباد قال : قرأت على علي بن أبي طالب (وطلح منضود) فقال علي : ما بال الطلح ، أما تقرأ وطلح ؟ ثم قال : (وطلح نصيد) ، فقبل له : يا أمير المؤمنين أنحكها في المصحف ؟ قال : لا يهاج القرآن اليوم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (منضود) قال : بعضه على بعض . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا إن شئتم (وظل ممدود) » . وأخرج البخاري وغيره نحوه من حديث أنس . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما نحوه من حديث أبي سعيد . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وفرش مرفوعة) قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام . قال الترمذي بعد إخراجها هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهى ، ورشد بن ضعيف . وأخرج الفريري وهناد وعبد ابن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (إنا أنشأناهم إنشاء) قال : إن المنشئات التي كن في الدنيا عجائز عمشا رمصا . قال الترمذي : بعد إخراجها غريب ، وموسى يزيد ضعيفان . وأخرج الطيالسي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن قانع والبيهقي في البعث عن سلمة بن يزيد الجعفي سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وآله وسلم يقول في قوله (إنا أنشأناهم إنشاء) قال : الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : خلقيهن غير خلقيهن الأول . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (أبكارا) قال : عذارى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (عربا) قال : عواشق (أترابا) يقول : مستويات . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (عربا) قال : عواشق لأزواجهن وأزواجهن هن عاشقون (أترابا) قال : في سن واحد ثلاثا وثلاثين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الغروب الملقاة لزوجها . وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال : جميعهما من هذه الأمة . وأخرج أبو داود الطيالسي ومسدد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبي بكرة في قوله (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال : هما جميعا من هذه الأمة . وأخرج القريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن عدى وابن مردويه . قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عباس « في قوله (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هما جميعا من أمتي » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : الثلتان جميعا من هذه الأمة . وأخرج القريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (وظل من يحموم) قال : من دخان أسود ، وفي لفظ : من دخان جهنم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (شرب الهيم) قال : الإبل العطاش .

نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَحْمَةً لِلْمُقِيمِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

قوله (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة متبكيئا لهم وإلزاما للحجة : أي فهلا تصدقون بالبعث أو بالخلق . قال مقاتل : خلقناكم ولم تكونوا شيئا وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث ؟ (أفرايتم ماتمنون) أي ماتقذفون وتصبون في أرحام النساء من النطف ، ومعنى أفرايتم : أخبروني ، ومفعولها الأول ماتمنون ، والثاني الجملة الاستفهامية ، وهي (بأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) أي تقدرونه وتصورونه بشرا سويا

أم نحن المقدرون المصورون له ، وأم هي المتصلة ، وقيل هي المنقطعة ، والأول أولى . قرأ الجمهور « تمنون » بضم
 الفوقية من أمنى يبنى . وقرأ ابن عباس وأبو السماك ومحمد بن السميع والأشهب العقيلي بفتحها من منى يبنى ،
 وهما لغتان ، وقيل معناهما مختلف ، يقال أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومنى إذا أنزل عن احتلام ، وسمى المنى منيا
 لأنه يبنى : أى يراق (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) قرأ الجمهور « قدرنا » بالتشديد ، وقرأ مجاهد
 وحيد وابن محيصن وابن كثير بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال قدرت الشيء وقدرته : أى قسمناه عليكم ووقتناه
 لكل فرد من أفرادكم ، وقيل قضينا ، وقيل كتبنا ، والمعنى متقارب . قال مقاتل : فنكم من يموت كبيرا ومنكم
 من يموت صغيرا . وقال الضحاك : معناه أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء - وما نحن بمسبوقين -
 بمغلوبين ، بل قادرين (على أن نبدل أمثالكم) أى نأتى بخلق مثلكم . قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم
 لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا . قال ابن جرير : المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين
 من جنسكم وما نحن بمسبوقين فى آجالكم : أى لا يتقدم متأخر ولا يتأخر متقدم (وننشئكم فيما لا تعلمون) من
 الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم ، وقيل المعنى : ننشئكم فى البعث
 على غير صوركم فى الدنيا . وقال سعيد بن المسيب : فيما لا تعلمون : يعنى فى حواصل طيور سود تكون ببرهوت
 كأنها الخطاطيف . وبرهوت واد بالين . وقال مجاهد (فيما لا تعلمون) يعنى فى أى خلق شئنا ، ومن كان قادرا
 على هذا فهو قادر على البعث (ولقد علمتم النشأة الأولى) وهى ابتداء الخلق من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من
 مضغة ولم تكونوا قبل ذلك شيئا . وقال قتادة والضحاك : يعنى خلق آدم من تراب (فلو لا تذكرون) أى فهلا
 تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى . قرأ الجمهور « النشأة » بالقصر ، وقرأ
 مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو بالمد ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة العنكبوت (أفرايتم ما تحرثون) أى
 أخبروني ما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيه البذر (وأنتم تزرعونه) أى تبتئونه وتجعلونه زراعا فيكون فيه السنبل
 والحب (أم نحن الزارعون) أى المنبتون له الجاعلون له زراعا لأنهم . قال المبرد : يقال زرعه الله : أى أنماه ،
 فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث (لو نشاء جعلناه حطاما) أى لو نشاء لجعلنا ما تحرثون حطاما : أى متحطما
 متكسرا ، والحطام : الهشيم الذى لا ينتفع به ولا يحصل منه حب ولا شئ مما يطلب من الحرث (فظلمت تفكهون) أى
 صرتم تعجبون . قال القرأء : تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم فى زرعكم . قال فى الصحاح : وتفكه تعجب ،
 ويقال تندم . قال الحسن و قتادة وغيرهما : معنى الآية : تعجبون من ذهابها وتندمون مما حل بكم . وقال عكرمة :
 تلاومون وتندمون على ماسلف منكم من معصية الله . وقال أبو عمرو والكسائى : هو التلهف على مافات . قرأ
 الجمهور « فظلمت » بفتح الظاء مع لام واحدة . وقرأ أبو حيو وأبو بكر فى رواية عنه بكسر الظاء . وقرأ ابن
 عباس والحدادى « فظلمت » بلامين : أولاهما مكسورة على الأصل ، وروى عن الحدادى فتحها ، وهى لغة .
 وقرأ الجمهور « تفكهون » وقرأ أبو حزام العكلى « تفكنون » بالنون مكان الهاء : أى تندمون . قال ابن خالويه :
 تفكه تعجب ، وتفكن تندم . وفى الصحاح التفكن التندم (إنا لمغرمون) قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر ،
 وقرأ أبو بكر والمفضل وزر بن حبيش بهزتين على الاستفهام ، والجملة بتقدير القول : أى تقولون إنا لمغرمون :
 أى ملزمون غرما بما هلك من زرعنا ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض ، قاله الضحاك وابن كيسان . وقيل
 المعنى : إنا لمعذبون ، قاله قتادة وغيره . وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ، ومنه قول النمر بن تولب :

سلا عن تذكره تكثما وكان رهيئنا بها حفرما
يقال أغرم فلان بفلان : أى أولع . وقال مقاتل : مهلكون . قال النحاس : مأخوذ من الغرام ، وهو الهلاك
ومنه قول الشاعر :

ويوم التسارويوم الجبا ركان عليكم عذابا مقبيا
والظاهر من السياق المعنى الأول : أى إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه ومصيره حطاما ، ثم أضربوا عن قولهم هذا وانتقلوا فقالوا (بل نحن محرومون) أى حرمانا رزقنا بهلاك زرعنا ، والمحروم الممنوع من الرزق الذى لاحظ له فيه ، وهو المحارف (أفرايم الماء الذى تشربون) فتسكنون به ما يلحقكم من العطش وتدفعون به ما ينزل بكم من الظما . واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه ، لأنه أعظم فوائده وأجل منافعها (وأنتم أنزليتموه من المزن) أى السحاب . قال فى الصحاح : قال أبو زيد : المزنة السحابة البيضاء ، والجمع مزن والمزنة المطر . قال الشاعر :

ألم تر أن الله أنزل مزنة وعفر الطبا فى الكنائس تقمع
ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر :

فنحن كماء المزن مافى نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل
وقول الآخر : فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقاها
(أم نحن المنزلون) له بقدرتنا دون غيرنا ، فإذا عرفتم ذلك ، فكيف لاتقرن بالتوحيد وتصديقون بالبعث . ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال (لو نشاء جعلناه أجاجا) الأجاج الماء الشديد الملوحة الذى لا يمكن شربه ، وقال الحسن : هو الماء المر الذى لا ينتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما (فلو لا تشكرون) أى فهلا تشكرون نعمة الله الذى خلق لكم ماء عذبا تشربون منه وتنتفعون به (أفرايم النار التى تورون) أى أخبروني عنها ، ومعنى تورون : تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال أوريت النار إذا قدحتها (وأنتم أنشأتم شجرتها) التى يكون منها الزنود ، وهى المرخ والعفار ، تقول العرب : فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (أم نحن المنشئون) لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة (نحن جعلناها تذكرة) أى جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى . قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس فى الظلام ، وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن (ومتاعا للمقوين) أى منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهى الأرض القفر كالمسافرين وأهل البوادي النازلين فى الأراضى المقفرة ، يقال أرض قواء بالمد والقصر : أى مقفرة ، ومنه قول النابغة :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقال عثرة : خييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
وقول الآخر : ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيضاء سملق

ويقال أقوى إذا سافر : أى نزل القوى . وقال مجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والحبز والاصطلاء والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم ، يقال : أقوىيت منذ كذا وكذا : أى ما أكلت شيئا ، وبات فلان القوى : أى بات جائعا ، ومنه قول الشاعر :

وإني لأختار أقوى طاوى الحشا محافظة من أن يقال لئيم
وقال قطرب : المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ؛ يقال أقوى الرجل إذا لم يكن
معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأول ، وهو الظاهر
(فسبح باسم ربك العظيم) الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه ، وتنزيهه على ما قبلها مما عداه من النعم التي
أنعم بها على عباده وجحود المشركين لها وتكذيبهم بها .

وقد أخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الشعب وضعفه عن أبي هريرة . قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يقولن أحدكم زرعت ، ولكن يقول حرثت » . قال أبو هريرة : ألم
تسمعو الله يقول (أفأرى ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (تفكهنون)
قال : تعجبون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس . قال (المزن) السحاب . وأخرج
عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس (نحن جعلناها تذكرة)
قال : تذكرة للنار الكبرى (ومتاعا للمقوين) قال : للمسافرين .

فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ
كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)
فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ
وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)
فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)
فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَعِيمٍ (٩٤) إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ
رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

قوله (فلا أقسم) ذهب جمهور المفسرين إلى أن لا مزيدة للتوكيد ، والمعنى : فأقسم ، ويؤيد هذا قوله بعد
(وإنه لقسم) وقال جماعة من المفسرين : إنها للنفي ، وإن المنى بها محذوف ، وهو كلام الكفار الجاحدين . قال
الفراء : هي نفي ، والمعنى : ليس الأمر كما تقولون . ثم استأنف فقال أقسم ، وضعف هذا بأن حذف اسم لا
ونحوها غير جائز ، كما قال أبو حيان وغيره . وقيل إنها لام الابتداء ، والأصل فلا أقسم فأشعبت الفتحة فتولد
منها ألف ، كقول الشاعر : * أعوذ بالله من العقراب *

وقد قرأ هكذا « فلا أقسم » بدون ألف الحسن وحيد وعيسى بن عمر ، وعلى هذا القول ، وهذه القراءة بقدر

مبتدأ محذوف ، والتقدير : فلأنا أقسم بذلك . وقيل إن لا هنا بمعنى ألا التي للثنية ، وهو بعيد . وقيل لا هنا على ظاهرها ، وإنها لنفي القسم : أي فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك ، وهذا مدفوع بقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) مع تعيين المقسم به والمقسم عليه ، ومعنى قوله (بمواقع النجوم) حساقطها ، وهي مغاربها كذا قال قتادة وغيره . وقال عطاء بن أبي رباح : منازلها . وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة ، وقال الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون ، مطرنا بنوء كذا . وقيل المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوماً من اللوح المحفوظ ، وبه قال السدي وغيره ، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . قرأ الجمهور « مواقع » على الجمع ، وقرأ ابن مسعود والنخعي وحمة والكسائي وابن محبصن ^(١) وورش عن يعقوب بموقع على الأفراد . قال المبرد : موقع هاهنا مصدر ، فهو يصلح للواحد والجمع . ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتفخيمه فقال (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) هذه الجملة معترضة بين المقسم به والمقسم عليه ، وقوله (لو تعلمون) جملة معترضة بين جزأى الجملة المعترضة ، فهو اعتراض في اعتراض . قال الفراء والزجاج : هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن ، والضمير في إنه على القسم الذي يدل عليه أقسم ، والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون . ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال (إنه لقرآن كريم) أي كرمه الله وأعزه ورفع قدره على جميع الكتب ، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذباً ، وقيل إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور ، وقيل لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه . وحكى الواحدى عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم ، لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين . قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمده ، والقرآن كريم يحمده لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة (في كتاب مكنون) أي مستور مصون ، وقيل محفوظ عن الباطل ، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة ، وقيل هو كتاب . وقال عكرمة : هو التوراة والإنجيل فهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه ، وقال السدي : هو الزبور . وقال مجاهد وقاتادة : هو المصحف الذي في أيدينا (لا يمسه إلا المطهرون) قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون : أي لا يمسه الكتاب المكنون إلا المطهرون ، وهم الملائكة ، وقيل هم الملائكة والرسل من بنى آدم ، ومعنى لا يمسه المس الحقيقي ، وقيل معناه : لا ينزل به إلا المطهرون ، وقيل معناه : لا يقرؤه ، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن ، فقليل - لا يمسه إلا المطهرون - من الأحداث والأنجاس . كذا قال قتادة وغيره : وقال الكلبي : المطهرون من الشرك . وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا . وقال محمد بن الفضل وغيره : معنى لا يمسه : لا يقرؤه إلا المطهرون : أي إلا الموحدون . وقال الفراء : لا يجد نفعه وبركته إلا المطهرون : أي المؤمنون . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق . وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مس المصحف ، وبه قال عليّ وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهرى والنخعي والحكم ومجاهد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي . وروى عن ابن عباس والشعبي وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمحدث مسه ، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمنتقى فليرجع إليه . قرأ الجمهور « المطهرون » بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول . وقرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل : أي المطهرون أنفسهم . وقرأ نافع وابن عمرو في رواية عنهما ، عيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة ، اسم مفعول من أظهر ، وقرأ الحسن وزيد بن عليّ وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء وكسر الهاء وأصله

(١) هكذا بالأصل ، ومرواه ورواه جمع .

المتطهرون (تنزيل من رب العالمين) قرأ الجمهور بالرفع ، وقرئ بالنصب ، فالرفع على أنه صفة أخرى لقران ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والنصب على الحال (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة ، والمدهن والمدهان المنافق . كذا قال الزجاج وغيره . وقال عطاء وغيره : هو الكذاب . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مدهنون كافرون ، كما في قوله - ودوا لو تدهن فيدهنون - وقال الضحاك : مدهنون معرضون ، وقال مجاهد : مماثلون للكفار على الكفر ، وقال أبو كيسان : المدهن الذي لا يعتل حق الله عليه ويدفعه بالعلل . والأول أولى لأن أصل المدهن الذي ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن في سهولته . قال المورج : المدهن المنافق الذي يلين جانبه ليخفى كفره ، والإدهان والمدهانة : التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللين ، وأن يسر خلاف ما يظهر ، وقال في الكشف مدهنون : أي متهاونون به كمن يدهن في الأمر : أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به انتهى . قال الراغب : والإدهان في الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة ، وترك الجذ : كما جعل التقرير ، وهو نزع القراء عبارة عن ذلك ، ويؤيد ما ذكره قول أبي قيس بن الأسلت :

الحزم والقوة خير من الإدهان والمعهم والهاع

(وتعملون رزقكم أنكم تكذبون) في الكلام مضاف محذوف ، كما حكاه الواحدي عن المفسرين : أي تعملون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله فتضعون التكذيب موضع الشكر . وقال الهيثم : إن أزدشنوءة يقولون مارزق فلان : أي ماشكر ، وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر . ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيرا بالسبب عن المسبب ، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقامهم الله ، وأنزل عليهم المطر : سقيننا بنوء كذا ، ومطرنا بنوء كذا قال الأزهري : معنى الآية وتعملون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرزاق . وقرأ علي وابن عباس « وتعملون شكركم » وقرأ الجمهور « أنكم تكذبون » بالتشديد من التكذيب ، وقرأ علي وعاصم في رواية عنه بالتخفيف من الكذب (قالوا إذا بلغت الحلقوم) أي فهلا إذا بلغت الروح أو النفس الحلقوم عند الموت ، ولم يتقدم لها ذكر ، لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة ، ومنه قول حاتم طي :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفقى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

(وأنتم حينئذ تنظرون) إلى ما هو فيه ذلك الذي بلغت نفسه أو روحه الحلقوم . قال الزجاج : وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه ، والمعنى أنهم في تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه ، ولا يستطيعون شيئا ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه (ونحن أقرب إليه منكم) أي بالعلم والقدرة والرؤية ، وقيل أراد ورسلا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم (ولكن لا تبصرون) أي لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من جبل الوريد ، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه (فلو لا إن كنتم غير مدينين ترجعونها) يقال دان السلطان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم . قال الفراء : دنته ملكته ، وأنشد للحطيئة :

لقد دنت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين

أي ملكت ، ويقال دانه : إذا أذله واستعبدته ، وقيل معنى مدينين محاسبين ، وقيل مجزيين ، ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العلوا ن دناهم كما دانوا

والمعنى الأول الصق بمعنى الآية : أي فهلا إن كنتم غير مدينين ومملوكين ترجعونها : أي النفس التي قد

بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه (إن كنتم صادقين) ولن ترجعوها فبطل زعمكم إنكم غير مربوبين ولا مملوكين ، والعامل في قوله إذا بلغت هو قوله ترجعونها ، ولولا الثانية تأكيد للأولى قال القراء : وربما أعادت العرب الحرفين ومعناها واحد . ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال (فأما إن كان من المقربين) أى السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدم تفصيل أحوالهم (فروح وريحان وجنة ونعيم) قرأ الجمهور « روح » بفتح الراء ، ومعناه الراحة من الدنيا والاستراحة من أحوالها . وقال الحسن : الروح الرحمة . وقال مجاهد : الروح الفرح وقرأ ابن عباس وعائشة والحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجاحد « فروح » بضم الراء ، ورويت هذه القراءة عن يعقوب ، قيل ومعنى هذه القراءة الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، والريحان : الرزق في الجنة ، قاله مجاهد وسعيد ابن جبير ومقاتل . قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير ، يقال خرجت أطلب ريحان الله : أى رزقه ، ومنه قول الفرزدق ابن تولى :

سلام الإله وريحانه ورحمته وساء درر

وقال قتادة : إنه الجنة . وقال الضحاك : هو الرحمة . وقال الحسن : هو الريحان المعروف الذى يشم . قال قتادة والربيع بن خيثم : هذا عند الموت ، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث ، وكذا قال أبو الجوزاء وأبو العالية ، ومعنى وجنة نعيم أنها ذات نعم ، وارتفاع روح وما بعده على الابتداء ، والخبر محذوف : أى فله روح (وأما إن كان) ذلك المتوفى (من أصحاب اليمين) وقد تقدم ذكرهم وتفصيل أحوالهم وما أعدّه الله لهم من الجزاء (فسلام لك من أصحاب اليمين) أى لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة فلا تهم بهم فإنه يسلمون من عذاب الله ، وقيل المعنى : سلام لك منهم : أى أنت سلم من الاغتمام بهم ، وقيل المعنى : لأنهم يدعون لك ويسلمون عليك ، وقيل إنه صلى الله عليه وآله وسلم يحيى بالسلام إكراما ، وقيل هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض ، وقيل المعنى : سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، (وأما إن كان من المكذبين الضالين) أى المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى ، وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم ، وتفصيل أحوالهم (فنزل من حميم) أى فله نزل يعدّ لنزوله من حميم ، وهو الماء الذى قد تناهت حرارته ، وذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه (وتصلية جحيم) يقال أصلاه النار وصلاه : أى إذا جعله في النار ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أو إلى المكان . قال المبرد : وجواب الشرط في هذه الثلاثة المواضع محذوف والتقدير : مهما يكن من شيء فروح الخ . وقال الأخفش : إن الفاء في المواضع الثلاثة هي جواب أما وجواب حرف الشرط . قرأ الجمهور « وتصلية » بالرفع عطفا على فنزل . وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفا على حميم : أى فنزل من حميم ومن تصلية جحيم (إن هذا هو حق اليقين) الإشارة إلى ما ذكر في هذه السورة ، أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرقين لحوحق اليقين : أى محض اليقين وخالصه ، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه . قال المبرد : هو كقولك حين اليقين ومحض اليقين ، هذا عند الكوفيين وجوزوا ذلك لاختلاف اللفظ ، وأما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفا ، والتقدير : حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين ، والفاء في (فسبح باسم ربك العظيم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها : أى نزهه عما لا يليق بشأنه ، والباء متعلقة بمحذوف : أى فسبح ملتبسا باسم ربك للتبرك به . وقيل المعنى : فصل بذكر ربك ، وقيل الباء زائدة ، والاسم بمعنى الذات . وقيل هي للتعدي لأن سبح يتعدى بنفسه نارة ويتعدى بالحرف أخرى ، والأول أولى .

وقد أخرج النسائي وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم فرّق في السنين ، وفي لفظ : ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ، ثم قرأ (فلا أقسم بمواقع النجوم) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه (فلا أقسم بمواقع النجوم) قال القرآن (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) قال : القرآن . وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : نجوم القرآن حين ينزل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضاً (لا يمسه إلا المطهرون) قال : الكتاب المنزل في السماء لا يمسه إلا الملائكة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أنس (لا يمسه إلا المطهرون) قال : الملائكة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن علقمة قال : أتينا سلمان الفارسي فخرج علينا من كنيف ، فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا ، قال : إنما قال الله (في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) وهو الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة ، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال في كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن حزم : لا تمس القرآن إلا على طهر . وأخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر . وأخرجه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال : قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا يمسه القرآن إلا طاهر » وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص ، وفي أسانيدنا نظر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمسه المصحف إلا متوضئاً . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة ، فتوارى عنا ثم خرج إلينا ، فقلنا : لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلوني ، فإني لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يمسه القرآن إلا طاهر » وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده : أن لا يمسه القرآن إلا طاهر » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أنتم مدهنون) قال : مكذبون . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال « مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى يبلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) » وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني ، ومن حديث أبي سعيد الخدري ، وفي الباب أحاديث . وأخرج أحمد وابن منيع وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والضياء في المختارة عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : شكركم ، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا . وأخرج ابن عساکر في تاريخه عن عائشة قالت : ما فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن إلا آيات يسيرة قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : شكركم . وأخرج ابن مردويه عن علي « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (وتجعلون شكركم) » وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وتجعلون شكركم » قال : يعني الأنواء وما مطر

قوم إلا أصبح بعضهم كافرا كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .
وأخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي أنه قرأ « وتجعلون شكركم » وقال : سمعت رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم يقرأها كذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (غير مدينين) قال :
غير محاسبين . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن خيثم (فأما إن كان
من المقربين) الآية قال : هذا له عند الموت (وجنة نعيم) تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث (وأما إن كان من المكذبين الضالين
فنزول من حميم) قال : هذا عند الموت (وتصلية جحيم) قال : تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث . وأخرج ابن جرير
وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فروح) قال : رائحة (وريحان) قال : استراحة . وأخرج ابن جرير عنه
قال : يعنى بالريحان المستريح من الدنيا (وجنة نعيم) يقول : منفرة ورحمة . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : الريحان
الرزق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا في قوله (فسلام لك من أصحاب اليمين) قال : تأتيه الملائكة بالسلام
من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (إن هذا هو حق اليقين) قال :
ما قصصنا عليك في هذه السورة . وأخرج عنه أيضا (فسبح باسم ربك العظيم) قال : فصل لربك . وأخرج
سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن جبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر
الجهني قال « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فسبح باسم ربك العظيم) قال : اجعلوها
في ركوعكم ، فلما نزلت - سبح اسم ربك الأعلى - قال : اجعلوها في سجودكم » .

تفسير سورة الحديد

هي تسع وعشرون آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن
عباس قال : نزلت سورة الحديد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبراني وابن مردويه
قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « نزلت سورة الحديد يوم
الثلاثاء ، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم عن الحجامة يوم الثلاثاء . وأخرج الديلمي عن جابر مرفوعا « لا تحتجموا يوم الثلاثاء ، فإن سورة الحديد
أنزلت على يوم الثلاثاء » . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن العرياض
ابن سارية « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرتد وقال : إن فيهن آية أفضل من
ألف آية » . وفي إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال معروف . وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال : كان
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يذكر العرياض بن سارية ، فهو مرسل . وأخرج ابن الضريس عن يحيى
ابن أبي كثير قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأ المسبحات ، وكان يقول : إن فيهن
آية أفضل من ألف آية » قال يحيى : فزادها الآية التي في آخر الحشر . وقال ابن كثير في تفسيره : والآية انشار
إليها والله أعلم هي قوله (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) الآية . والمسبحات المذكورة هي : الحديد
والحشر ، والصافات ، والجمعة ، والتغابن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٦).

قوله (سبح لله ما في السموات والأرض) أي نزهه ومجده . قال المقاتلان : يعني كل شيء من ذي روح
وغيره ، وقد تقدم الكلام في تسبيح الجملات عند تفسير قوله - وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون
تسبيحهم - والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجملات هو
ما يعبر عنه التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجن ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإن كل موجود
يدل على الصانع . وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح
الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال - ولكن لا تفقهون تسبيحهم - وإنما هو تسبيح مقال ،
واستدل بقوله - وسبحنا مع داود الجبال يسبحن - فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص
داود فائدة ، وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارة ، كما في قوله - وسبحوه - وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله
أن يكون متعديا بنفسه ، لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام فهي إما مزيدة للتأكيد كما في
شكرته وشكرت له ، أو هي للتعليل : أي افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصا له ، وجاء هذا الفعل في بعض
الفوائد ماضيا كهذه الفاتحة ، وفي بعضها مضارعا ، وفي بعضها أمرا للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل
الأوقات لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت ، بل هي مسبحة أبدا في الماضي وستكون مسبحة أبدا في المستقبل
(وهو العزيز) أي القادر الغالب الذي لا ينازعه أحد ولا يمانعه ممانع كائنا ما كان (الحكيم) الذي يفعل أفعال
الحكمة والصواب (له ملك السموات والأرض) يتصرف فيه وحده ولا ينفذ غير تصرفه وأمره ، وقيل أراد
خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق (يحيي ويميت) الفعلان في محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف ، أو في
محل نصب على الحال من ضمير له ، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك ، والمعنى : أنه يحيي في الدنيا
ويميت الأحياء ، وقيل يحيي النطف وهي موات ويميت الأحياء ، وقيل يحيي الأموات للبعث (وهو على كل
شيء قدير) لا يعجزه شيء كائنا ما كان (هو الأول) قبل كل شيء (والآخر) بعد كل شيء : أي الباقي بعد
فناء خلقه (والظاهر) العالي الغالب على كل شيء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة (والباطن) أي العالم بما

بطن ، من قولهم فلان يبطن أمر فلان : أى يعلم داخلته أمره ، ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار والعقول ، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيأتى ، فيتعين المصير إلى ذلك (وهو بكل شىء عليم) لا يعزب عن علمه شىء من المعلومات (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض . وقد تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وفى غيرها مستوفى (يعلم ما يلج فى الأرض) أى يدخل فيها من مطر وغيره (وما يخرج منها) من نبات وغيره (وما ينزل من السماء) من مطر وغيره (وما يعرج فيها) أى يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة سبأ (وهو معكم أينما كنتم) أى بقدرته وسلطانه وعلمه ، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فى الأرض من برّ وبحر (والله بما نعملون بصير) لا يخفى عليه من أعمالكم شىء (له ملك السموات والأرض) هذا التكرير للتأكيد (وإلى الله ترجع الأمور) لا إلى غيره . قرأ الجمهور « ترجع » مبنياً للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر على البناء للفاعل (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) قد تقدم تفسير هذا فى سورة آل عمران ، وفى مواضع (وهو عليم بذات الصدور) أى بضمائر الصدور ومكنوناتها ، لا يخفى عليه من ذلك خافية .

وقد أخرج ابن أبى شيبه ومسلم والترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسأله خادماً ، فقال قولى : اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالتق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا فى الأربعة الأسماء المذكورة وتفسيرها . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر وأبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شىء ، فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأول قبل كل شىء ، والآخر فليس بعده شىء ، وهو الظاهر فوق كل شىء ، وهو الباطن دون كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . » وأخرج أبو داود عن أبى زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى ، قال ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به ، قال : فقال لى : أشىء من شك ؟ قال وضحك ، قال : مانجا من ذلك أحد ، قال حتى أنزل الله - فإن كنت فى شك - مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك - الآية قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وهو معكم أينما كنتم) قال : عالم بكم أينما كنتم .

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضِعُّهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١).

قوله (آمنوا بالله ورسوله) أى صدقوا بالتوحيد وبصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب . ويجوز أن يكون خطابا للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان فى حق المسامحين الاستمرار عليه ، أو الازدياد منه . ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإتفاق فى سبيل الله فقال (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله والعباد خلفاء الله فى أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه وقيل جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم فلا تبخلوا به . كذا قال الحسن وغيره . وفيه الترغيب إلى الإتفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم ويصير إلى غيرهم . والظاهر أن معنى الآية الترغيب فى الإتفاق فى الخير ، وما يرضاه الله على العموم ، وقيل هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص . ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل الله فقال (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) أى الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإتفاق فى سبيل الله لهم أجر كبير ، وهو الجنة (وما لكم لا تؤمنون بالله) هذا الاستفهام للتوبيخ والتفريع : أى أى عذر لكم ، وأى مانع من الإيمان ، وقد أزيحت عنكم العلة ، وما مبتدأ ولكم خبره ولا تؤمنون فى محل نصب على الحال من الضمير فى لكم ، والعامل مافيه من معنى الاستقرار ، وقيل المعنى : أى شئ لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا ؟ وجملة (والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) فى محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل ، ولتؤمنوا متعلق بدعوتكم : أى يدعوكم للإيمان ، والمعنى : أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ؟ وجملة (وقد أخذ ميثاقكم) فى محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا : أى والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم ، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان : قرأ الجمهور « وقد أخذ » مبنيًا للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدم ذكره . وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول (إن كنتم مؤمنين) بما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات) أى واضحات ظاهرات ، وهى الآيات القرآنية ، وقيل المعجزات والقرآن أعظمها (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات ، أو بالدعوة (وإن الله بكم لرءوف رحيم) أى لكثير الرأفة والرحمة بليغهما حيث أنزل كتبه وبعث رسله لهداية عباده فلا رافة ولا رحمة أبلغ من هذه ، والاستفهام فى قوله (وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله) للتفريع والتوبيخ ، والكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله - وما لكم لا تؤمنون بالله - وفى هذه الآية دليل على أن الإتفاق المأمور به فى قوله (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) هو الإتفاق فى سبيل الله كما بينا ذلك ، والمعنى : أى عذر لكم وأى شئ يمنعكم من ذلك ، والأصل فى أن لا تنفقوا ، وقيل إن أن زائدة ، وجملة (ولله ميراث السموات والأرض) فى محل نصب على الحال من فاعل « ألا تنفقوا » أو من مفعوله ، والمعنى : أى شئ يمنعكم من الإتفاق فى ذلك الوجه والحال أن كل مافى السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى

الوارث ، ولا يبقى لهم منه شيء ، وهذا أدخل في التوبيخ وأكمل في التقرير ، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها وتصير لله سبحانه ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله في الحقيقة ، وهم خلفاؤه في التصرف فيها . ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإتفاق في سبيل الله فقال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح) قيل المراد بالفتح فتح مكة ، وبه قال أكثر المفسرين . وقال الشعبي والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك ، وكذا قال مقاتل وغيره ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : لا يستوى من أنفق من قبل الفتح (وقاتل) ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره وللدلالة ماسيأتى عليه ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح ، لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقل وأضعف ، وتقديم الاتفاق على القتال للإيدان بفضيلة الاتفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجودون ما يجودون به من الأموال . والجود بالنفس أقصى غاية الجود . والإشارة بقوله (أولئك) إلى « من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره (أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) أى أرفع منزلة وأعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح وقاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ؛ فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها . قال الزجاج : لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .

وقد أرشد صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » وهذا خطاب منه صلى الله عليه وآله وسلم للمتأخرين وصحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الذى ورد فيه هذا الحديث (وكلا وعد الله الحسنى) أى وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى ، وهى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها . قرأ الجمهور « وكلا » بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر . وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء ، والجملة بعده خبره والعائد محذوف ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

(والله بما تعملون خير) لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم رغب سبحانه في الصدقة فقال (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) أى من ذا الذى ينفق ماله في سبيل الله ، فإنه كمن يقرضه ، والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض ، ومنه قول الشاعر :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه إنما يجزى الفتى ليس الحمل

قال الكلبي (قرضا) أى صدقة (حسنا) أى محتسبا من قلبه بلا من ولا أذى . قال مقاتل : حسنا طيبة به نفسه ، وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة (فيضاعفه له) قرأ ابن عامر وابن كثير « فيضاعفه » بإسقاط الألف إلا أن ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فيضاعفه » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء ورفع الباقون . قال ابن عطية : الرفع على العطف على يقرض ، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء في جواب الاستفهام . وضعف النصب أبو على الفارسي قال لأن السؤال لم يقع عن القرض ، وإنما وقع عن فاعل القرض ، وإنما تنصب الفاء فعلا مردودا على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله (من ذا الذى يقرض الله) بمنزلة قوله أقرض الله أحد (وله أجر كريم) وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هى كون الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يوشك أن يأتي قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم ، قلنا من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : لا ، ولكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا قلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدكم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه ، إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) الآية » وهذا الحديث قال ابن كثير : هو غريب بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن جرير ولم يذكر فيه الحديبية . وأخرج أحمد عن أنس قال : « كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » والذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه » وفي لفظ « ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه » أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلمقام أحدكم ساعة خير من عمل أحدكم عمره .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ
الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ
يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا
وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهْرُهُ مِنْ
قَبْلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ
لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

قوله (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) العامل في الظرف مضمر وهو اذكر ، أو كريم ، أو فيضاعفه ، أو العامل في لهم وهو الاستقرار ، والخطاب لكل من يصلح له ، وقوله (يسعى نورهم) في محل نصب على الحال من مفعول ترى ، والنور هو الضياء الذي يرى (بين أيديهم وبأيمنهم) وذلك على الصراط يوم القيامة ، وهو دليلهم إلى الجنة . قال قتادة : إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدل إلى صنعاء ، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه . وقال الضحاك ومقاتل : وبأيمنهم كتبهم التي أعطوها ، فكتبهم بأيمنهم ، ونورهم بين أيديهم . قال القراء : الباء بمعنى في : أي في أيمنهم ، أو بمعنى عن . قال الضحاك أيضا : نورهم هدايتهم ، وبأيمنهم كتبهم ، واختار هذا ابن جرير الطبري : أي يسعى أيمنهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمنهم كتب أعمالهم .

قرأ الجمهور « بأيمانهم » جمع يمين . وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حنيفة « بإيمانهم » بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر ، وقيل هو القرآن ، والجار والمجرور في الموضعين في محل نصب على الحال من نورهم : أي كائنا بين أيديهم وبأيمانهم (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) بشراكم مبتدأ ، وخبره جنات على تقدير مضاف : أي دخول جنات ، والجملة مقول قول مقدر : أي يقال لهم هذا ، والقائل لهم هم الملائكة . قال مكى : وأجاز الفراء نصب جنات على الحال ، ويكون اليوم خبر بشراكم ، وهذا بعيد جداً « خالدين فيها » حال مقدرة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى النور والبشرى ، وهو مبتدأ وخبره (هو الفوز العظيم) أي لا يقدر قدره حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه (يوم يقول المنافقون والمنافقات) يوم بدل من يوم الأول ، ويجوز أن يكون العامل فيه الفوز العظيم ، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدر : أي اذكر (للذين آمنوا) اللام للتأنيخ كظائرها . قرأ الجمهور (انظرونا) أمراً بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار : أي انتظرونا ، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة . وقرأ الأعشى وحمة ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار : أي أمهلونا وأخرونا ، يقال أنظرته واستنظرته : أي أمهلته واستمهلت . قال الفراء : تقول العرب أنظرنى : أي انتظرنى ، وأنشد قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقيل معنى انظرونا : انظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم (تقتبس من نوركم) أي نستضيء منه ، والقبس : الشعلة من النار والسراج ، فلما قالوا ذلك (قيل ارجعوا وراءكم) أي قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجراً لهم وتهكماً بهم : أي ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذى أخذنا منه النور (فالتمسوا نورا) أي اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم ، فإنه من هنالك يقتبس ، وقيل المعنى : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة ، وقيل أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكماً بهم (فضرب بينهم بسور) السور : هو الحاجز بين الشيتين ، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار . قال الكسائى : والباء في سور زائدة . ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال (له باب باطنه فيه الرحمة) أي باطن ذلك السور . وهو الجانب الذى يلي أهل الجنة فيه الرحمة وهى الجنة (وظاهره) وهو الجانب الذى يلي أهل النار (من قبله العذاب) أي من جهته عذاب جهنم ، وقيل إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون في العذاب وبينهم السور ، وقيل إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين ، ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك فقال (ينادونهم ألم نكن معكم) أي موافقين لكم فى الظاهر نصلى بصلاتكم ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : فإذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين ؟ فقال (ينادونهم) ، ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال (قالوا بلى) أي كنتم معنا فى الظاهر (ولكنكم فتنم أنفسكم) بالزفاق وإبطان الكفر . قال مجاهد : أهلكتموها بالزفاق ، وقيل بالشهوات واللذات (وتربصتم) بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبمن معه من المؤمنين حوادث الدهر ، وقيل تربصتم بالتوبة ، والأول أولى (وارتبتم) أي شككتم فى أمر الدين ولم تصدقوا ما نزل من القرآن ولا بالمعجزات الظاهرة (وغرركم الأماني) الباطلة التى من جلتها ما كنتم فيه من التربص ، وقيل هو طول الأمل ، وقيل ما كانوا يتمنون من ضعف المؤمنين . وقال قتادة : الأماني هنا غرور الشيطان ،

وقيل الدنيا ، وقيل هو طمعهم في المغفرة ، وكل هذه الأشياء تدخل في معنى الأمانى (حتى جاء أمر الله) وهو الموت ، وقيل نصره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم . وقال قتادة : هو إلقاءهم في النار (وغرّكم بالله الغرور) قرأ الجمهور « الغرور » بفتح الغين ، وهو صفة على فعول ، والمراد به الشيطان : أى خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان . وقرأ أبو حيوه ومحمد بن السميع وسماك بن حرب بضمها وهو مصدر (فالיום لا يؤخذ منكم فدية) تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون (ولا من الذين كفروا) بالله ظاهرا وباطنا (مأواكم النار) أى منزل لكم الذى تأوون إليه النار (هى مولاكم) أى هى أولى بكم ، والمولى فى الأصل من يتولى مصالح الإنسان ثم استعمل فيمن يلازمه ، وقيل معنى مولاكم : مكانكم عن قرب ، من الولى وهو القرب . وقيل إن الله يركب فى النار الحياة والعقل ، فهى تتميز غيظا على الكفار ، وقيل المعنى : هى ناصركم على طريقة قول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع * (وبئس المصير) الذى تصيرون إليه وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود (يسعى نورهم بين أيديهم) قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويوقد أخرى . وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي فى البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ (انظرونا نقتبس من نوركم) فلما كنا معكم فى الدنيا ، قال المؤمنون (ارجعوا وراءكم) من حيث جئتم من الظلمة (فالتمسوا) هنالك النور . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترامته على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نورا وكل منافق نورا ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون - انظرونا نقتبس من نوركم - وقال المؤمنون - ربنا أتم لنا نورنا - فلا يذكرك عند ذلك أحد أحدا » وفى الباب أحاديث وآثار . وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت : أنه كان على سور بيت المقدس فبكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : ها هنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى جهنم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذى ذكره الله فى القرآن (فضرَب بينهم بسور) هو السور الذى ببيت المقدس الشرقى (باطنه فيه الرحمة) المسجد (وظاهره من قبله العذاب) يعنى وادى جهنم وما يليه .

ولا يخفى أن تفسير السور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال مالا يدفعه مقال ، ولا سيما بعد زيادة قوله : باطنه فيه الرحمة المسجد ، فإن هذا غير ماسيقت له الآية وغير مادل عليه ، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين والمنافقين ، وأى معنى لذكر مسجد بيت المقدس ها هنا ، فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس ، ويجعله فى الدار الآخرة سورا مضروبا بين المؤمنين والمنافقين ، فما معنى تفسير باطن السور وما فيه من الرحمة بالمسجد ، وإن كان المراد أن الله يسوق فريقى المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد ، ويجعل المنافقين خارجه ، فهم إذ ذاك على الصراط وفى طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس ، فإن كان مثل هذا

التفسير ثابتا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلناه وآمنا به ، وإلا فلا كرامة ولا قبول . وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (واكنكم فتنم أنفسكم) قال : بالشهوات واللذات (وتربصتم) قال : بالتوبة (وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله) قال : الموت (وغرتكم بالله الغرور) قال : الشيطان .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعْفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

قوله (ألم يأن للذين آمنوا) يقال أنى لك بأنى أنى : إذا حان . قرأ الجمهور « ألم يأن » وقرأ الحسن وأبو السماك « ألما يأن » وأنشد ابن السكيت :

ألما يأن لى أن تجلى عماينى وأقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

و (أن تخشع قلوبهم) فاعل يأن : أى ألم يحضر خشوع قلوبهم ويحىء وقته ، ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لى ياقلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

هذه الآية نزلت في المؤمنين . قال الحسن : يستبطنهم وهم أحب خلقه إليه . وقيل إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد . قال الزجاج : نزلت في طائفة من المؤمنين ، حثوا على الرقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرقة والخشوع فطبة فوق هؤلاء . وقال السدى وغيره : المعنى ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر وأسرّوا الكفر أن تخشع قلوبهم (لذكر الله) وسيأتى في آخر البحث ما يقوى قول من قال إنها نزلت في المسلمين ، والخشوع لين القلب ورقته . والمعنى : أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعا ورقة ، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخشع له (وما نزل من الحق) معطوف على ذكر الله ، والمراد بما نزل من الحق القرآن ، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عده مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان ، أو خطور بالقلب ، وقيل المراد بالذكر هو القرآن ، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير ، أو باعتبار تغاير المفهومين . قرأ الجمهور « نزل » مشددا مبنيا للفاعل . وقرأ نافع وحفص بالتحفيف مبنيا للفاعل . وقرأ الجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو في رواية عنه مشددا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود « أنزل » مبنيا للفاعل (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) قرأ الجمهور وبالتحتية على الغيبة جريا على ما تقدم . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عتبة بالفوقية على الخطاب التقاتا ، وبها قرأ عيسى وابن إسحاق ، والجملة معطوفة على تخشع : أى ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا ، والمعنى : النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود النصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن (فطال عليهم الأمد) أى طال عليهم الزمان بينهم

وبين أنبيائهم . قرأ الجمهور « الأمد » بتخفيف الدال ، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديد ها : أى الزمن الطويل ، وقيل المراد بالأمد على القراءة الأولى الأجل والغاية ، يقال أمد فلان كذا : أى غاية (فاستعقلوهم) بذلك السبب ، فلذلك حرقوا وبدلوا ، قهى الله سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكونوا مثلهم (وكثير منهم فاسقون) أى خارجون عن طاعة الله لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرقوا وبدلوا ولم يؤمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل هم الذين ابتدعوا الرهبانية ، وهم أصحاب الصوامع (اعلّموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها (قد بينا لكم الآيات) التى من جملتها هذه الآيات (اعلّمكم تحقلون) أى كى تعقلوا ما تضمنته من المواعظ وتعملوا بموجب ذلك (إن المصدقين والمصدقات) قرأ الجمهور بتشديد الصاد فى الموضعين من الصدقة ، وأصله المصدقين والمصدقات ، فأدغمت الراء فى الصاد . وقرأ أبى « المصدقين والمصدقات » بإثبات التاء على الأصل ، وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق : أى صدّقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به (وأقرضوا الله قرضا حسنا) معطوف على اسم الفاعل فى المصدقين لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حل محل الفعل ، فكأنه قال : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا كذا قال أبو على الفارسي وغيره . وقيل جملة وأقرضوا معترضة بين اسم إن وخبرها ، وهو - يضاعف - وقيل هى صلة لموصول محذوف : أى والذين أقرضوا ، والقرض الحسن عبارة عن التصديق والإنفاق فى سبيل الله مع خلوص نية وصحة قصد واحتساب أجر . قرأ الجمهور (يضاعف لهم) بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف : أى ثوابهم ، وقرأ الأعمش « يضاعفه » بكسر العين وزيادة الهاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب « يضعف » بتشديد العين وفتحها (ولهم أجر كريم) وهو الجنة ، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف (والذين آمنوا بالله ورسوله) جميعا ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول ، وخبره قوله (هم الصدّيقون والشهداء) والجملة خبر الموصول . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صدّيق . قال مقاتلان : هم الذين لم يشكوا فى الرسل حين أخبروهم ولم يكذبوهم . وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة ، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأئم وعليهم ، واختار هذا الفراء والزجاج . وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا فى سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير ، وقيل هم أئم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ ، والظاهر أن معنى الآية : إن الذين آمنوا بالله ورسوله جميعا بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين بعلو الدرجة عند الله ، وقيل إن الصدّيقين هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا بالله وصدّقوا جميع رسوله ، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد . ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسوله فقال (لهم أجرهم ونورهم) والضمير الأوّل راجع إلى الموصول ، والضميران الأخيران راجعان إلى الصدّيقين والشهداء : أى لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال : إن الذين آمنوا بالله ورسوله هم نفس الصدّيقين والشهداء ، فالضامر الثلاثة كلها راجعة إلى شىء واحد ، والمعنى : لهم الأجر والنور الموعودان لهم . ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ذكر حال الكافرين وعقابهم فقال (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى جمعوا بين الدّهر وتكذيب الآيات ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول باعتبار ما فى صلاته من اتصافهم بالكفر والتكذيب ، وهذا مبتدأ وخبره (أصحاب الجحيم) يعذبون بها ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن ، فأنزل الله (ألم يأن للذين آمنوا) الآية » . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون ، فسحب رداءه محمرا وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ، ولقد أنزل على في ضحككم آية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) قالوا : يا رسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ما ضحكتم » . وأخرج مسلم والنسائي وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا) إلا أربع سنين . وأخرج نحوه عنه ابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق أخرى . وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض : أى شئ أحدثنا أى شئ صنعنا ؟ . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن (ألم يأن للذين آمنوا) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظهر فيهم المزاح والضحك ، فنزلت هذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا) . وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس (اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) قال : يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها . وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « مؤمنو أمتي شهداء ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) » . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : كل مؤمن صديق وشهيد . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ، ثم تلا هذه الآية » . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) قال : هذه مفصلة - والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم - . وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني : قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته فمن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء » .

اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرِيَهُ مُّصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَفَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤).

قوله (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني وما وقع منهم من الكفر والكذب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها بين لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على المدار الآخرة ، واللعب هو الباطل ، اللغو كل شيء يتلهى به ثم يذهب . قال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . قال مجاهد : كل لعب هو ، وقيل اللعب ما رغب في الدنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخرة وشغل عنها ، وقيل اللعب الاقتناء ، واللهو النساء ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة الأنعام ، والزينة التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة (وثفاخر بينكم) قرأ الجمهور بتدوين « ثفاخر » والظرف صفة له ، أو معمول له ، وقرأ السلمي بالإضافة : أى يفتخر به بعضهم على بعض ، وقيل يتفاخرون بالحلقة والقوة ، وقيل بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب (وتكاثر في الأموال والأولاد) أى يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتطاوون بذلك على الفقراء ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبا ، وضرب لها مثلا فقال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) أى كمثل مطر أعجب الزراع نباته ، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر : أى يغطونه بالتراب ، ومعنى نباته : النبات الحاصل به (ثم يهيج) أى يحف بعد خضرته ويبيس (فتراه مصفرا) أى متغيرا عما كان عليه من الخضرة : والروث إلى لون الصفرة والذبول (ثم يكون حطاما) أى فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه ، وقد تقدم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف ، والمعنى : أن الحياة الدنيا كالزراع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته . ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن . وقرئ « مصفرا » والكاف في محل نصب على الحال ، أو في محل رفع على أنها خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف . ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، ذكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال (وفي الآخرة عذاب شديد) وأتبعه بما أعدّه لأهل الطاعة فقال (ومغفرة من الله ورضوان) والتكثير فيهما للتعظيم . قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته . قال الفراء : التقدير في الآية إما عذاب شديد ، وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد . ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) لمن اغتر بها ولم يعمل لآخرته . قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه . وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدم ومؤكدة له ، ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة فقال (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) أى سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي ، وقيل المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام قاله مكحول ، وقيل المراد الصف الأول ، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا ، بل هو من جملة ما تصدق عليه ص دقا شموليا أو بداليا (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى كعرضهما ، وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها . قال الحسن : يعنى جميع السموات والأرضين . بسوطات كل واحدة إلى صاحبها ، وقيل المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة . وقال ابن كيسان : عني به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله ، ومن ذلك قول الشاعر :

كان بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة . وفي هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله ورسوله ، ولكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه واجتنب ما نهاه الله عنه ، وهي أدلة كثيرة في الكتاب والسنة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة ، وهو مبتدأ وخبره (فضل الله يوثيه من يشاء) أي يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضيلاً وإحساناً (والله ذو الفضل العظيم) فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق والحواد الذي لا يبخل ، ثم بين سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره وثبت في أم الكتاب فقال (ما أصاب من مصيبة في الأرض) من قحط مطر وضعف نبات ونقص ثمار . قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار ، وقيل الجوائح في الزرع (ولا في أنفسكم) قال قتادة : بالأوصاب والأسقام ، وقال مقاتل : إقامة الحدود . وقال ابن جريج : ضيق المعاش (إلا في كتاب) في محل نصب على الحال من مصيبة : أي إلا حال كونها مكتوبة في كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وجملة (من قبل أن نبرأها) في محل جر صفة لكتاب ، والضمير في نبرأها عائد إلى المصيبة ، أو إلى الأنفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع ذلك ، ومعنى « نبرأها » نخلقها (إن ذلك على الله يسير) أي أن إثباتها في الكتاب على كثرتة على الله يسير غير صير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم) أي اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) منها : أي أعطاكم منها ، فإن ذلك يزول عن قريب ، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله ولا يحزن على فواته ، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره ، فلن يعدوا أمراً ما كتب له ، وما كان حصوله كائناً لا محالة فليس بمستحق للفرح بحصوله ولا للحزن على فواته ، قيل والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز ، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح . قرأ الجمهور « بما آتاكم » بالمد : أي أعطاكم ، وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو بالقصر : أي جاءكم ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد (والله لا يحب كل مختال فخور) أي لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين وهما الاختيال والافتخار ، قيل هو ذم للفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر ، وقيل إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها ، وقيل المختال الذي ينظر إلى نفسه ، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاستحقار . والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناها الشرعية ثم اللغوي ، فمن حصلتا فيه فهو الذي لا يحبه الله (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) الموصول في محل رفع بالابتداء ، وهو كلام مستأنف لاتعلق له بما قبله ، والخبر مقدر : أي الذين يبخلون فالله غني عنهم ، ويدل على ذلك قوله (ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) وقيل الموصول في محل جر بدل من مختال ، وهو بعيد ، فإن هذا البخل بما في اليد وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور ، لالغة ولا شرعاً . وقيل هو في محل جر نعت له ، وهو أيضاً بعيد . قال سعيد بن جبير : الذين يبخلون بالعلم ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس شيئاً . وقال زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حق الله ، وقيل إنه البخل بالصدقة ، وقال طاووس : إنه البخل بما في يديه ، وقيل أراد رؤساء اليهود الذين بخأوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب ما كلهم قاله السدي والكلبي : قرأ الجمهور « بالبخل » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحيد وابن محيصن وحزرة والكسائي بفتحيتين ،

وهي لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وابن السميع بفتح الباء وإسكان الخاء . وقرأ نصر بن عاصم بضمهما ، وكلها لغات (ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) أى ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنى عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك . قرأ الجمهور الغنى بإثبات ضمير الفصل . وقرأ نافع وابن عامر فإن الله الغنى الحميد بحذف الضمير . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم) يقول فى الدين والدنيا (إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) قال نخلقها (لكيلا نأسوا على ما فاتكم) من الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) منها . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو شىء قد فرغ منه من قبل أن تبرا أنفس . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله (لكيلا نأسوا على ما فاتكم) الآية قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا ، ومن أصابه خير جعله شكرا . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، إنه قال (لكيلا نأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وليس هذا من مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ويفرحوا بالحسنة .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْسَ لَكُمُ الْكِتَابُ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

قوله (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) أى بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة (وأنزلنا معهم الكتاب) المراد بالجنس ، فليدخل فيه كتاب كل رسول (والميزان ليقوم الناس بالقسط) قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان العدل ، والمعنى : أمرناهم بالعدل كما فى قوله - والسماء رفعها ووضع الميزان - وقوله - الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان - وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به ، ومعنى - ليقوم الناس بالقسط - ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه

وموجباته . وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب * علفتها تبنا وماء باردا * وأنزلنا الحديد (أى خلقناه كما فى قوله - وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج - والمعنى : أنه خلقه من المعادن وعلم الناس صنعته ، وقيل إنه نزل مع آدم (فيه بأس شديد) لأنه تتخذ منه آلات الحرب . قال الزجاج : يمتنع به ويحارب ، والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب . قال مجاهد : فيه جنة وسلاح ، ومعنى (ومنافع للناس) أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين والفأس والإبرة وآلات الزراعة والنجارة والعمارة (وليعلم الله من نصره ورسله بالغيب) معطوف على قوله يقوم الناس : أى لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم ، وقيل معطوف على علة مقدرة ، كأنه قيل ليستعملوه وليعلم الله ، والأول أولى . والمعنى : أن الله أمر فى الكتاب الذى أنزل بنصره دينه ورسله فمن نصر دينه ورسله علمه ناصرا ، ومن عصى علمه بخلاف ذلك وبالغيب فى محل نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله : أى غائبا عنهم أو غائبين عنه (إن الله قوى عزيز) أى قادر على كل شئ غالب لكل شئ ، وليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم) لما ذكر سبحانه لإرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل ، فذكر رسالته لنوح وإبراهيم ، وكرر القسم للتوكيد (وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) أى جعلنا فيهم النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل جعل بعضهم أنبياء وبعضهم يتلون الكتاب (فمنهم مهتد) أى من الذرية من اهتدى بهدى نوح وإبراهيم ، وقيل المعنى : فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن الطاعة (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أى اتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم (وقفينا بعيسى ابن مريم) أى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم ، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه (وآتيناه الإنجيل) وهو الكتاب الذى أنزله الله عليه ، وقد تقدم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران . قرأ الجمهور « الإنجيل » بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بفتحها (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة) الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله فى قلوبهم مودة لبعضهم البعض ، ورحمة يترحمون بها ، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك ، وأصل الرافة اللين ، والرحمة الشفقة ، وقيل الرافة أشد الرحمة (ورهبانية ابتدعوها) انتصاب رهبانية على الاشتغال : أى وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، وليس بمعطوفة على ما قبلها ، وقيل معطوفة على ما قبلها : أى وجعلنا فى قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم . والأول أولى ، ورجحه أبو على الفارسي وغيره ، وجملة (ما كتبناها عليهم) صفة ثانية لرهبانية ، أو مستأنفة مقررة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم ، والمعنى : ما فرضناها عليهم ، والرهبانية بفتح الراء وضمها ، وقد قرئ بهما ، وهى بالفتح الخوف من الرب ، وبالضم منسوبة إلى الرهبان ، وذلك لأنهم غلوا فى العبادة وحملوا على أنفسهم المشقات فى الامتناع من الطعام والمشرب والمنكح ، وتعلقوا بالكهوف والصوامع ، لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقى منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا ، ذكر معناه الضحاك وقتادة وغيرهما (إلا ابتغاء رضوان الله) الاستثناء منقطع : أى ما كتبناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله . وقال الزجاج : ما كتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئا ألبيته ، قال : ويكون (إلا ابتغاء رضوان الله) بدلا من الهاء والألف فى كتبناها ، والمعنى : ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله (فما رعوها حق رعايتها) أى لم يرعوا هذه الرهبانية التى ابتدعوها من جهة أنفسهم ، بل صنعوها وكفروا بدين عيسى ، ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا

وبدّلوا وتركوا التّرهّب ، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم ، وهم المرادون بقوله (فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الذي يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لما بعثه الله (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذمّ لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاهم بما يعتقدونه ديناً . وأما على القول بأن الاستثناء متصل ، وأن التقدير : ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر . ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسول المتقدّمين بالتقوى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) بترك ما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وآله وسلم (يوتكم كفلين من رحمته) أى نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، وأصل الكفل الحظ والنصيب ، وقد تقدّم الكلام على تفسيره في سورة النساء (ويجعل لكم نورا تمشون به) يعنى على الصراط كما قال - نورهم يسعى بين أيديهم - وقيل المعنى : ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به (ويغفر لكم) ماسلف من ذنوبكم (والله غفور رحيم) أى بليغ المغفرة والرحمة (لئلا يعلم أهل الكتاب) اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان والتقوى ، والتقدير : اتقوا وآمنوا يوتكم كذا وكذا ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب (أن لا يقدرّوا على شيء من فضل الله) ولا في قوله « لئلا » زائدة للتوكيد ، قاله الفراء والأخفش وغيرهما ، وأن في قوله « أن لا يقدرّوا » هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف وخبرها ما بعدها ، والجملة في محل نصب على أنها مفعول يعلم ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرّون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذى تفضل به على من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يقدرّون على دفع ذلك الفضل الذى تفضل الله به على المستحقين له ، وجملة (وأن الفضل بيد الله) معطوفة على الجملة التى قبلها : أى ليعلموا أنهم لا يقدرّون وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه ، وقوله (يوتيهم من يشاء) خبر ثان لأنّ ، أو هو الخبر ، والجارّ والمجرور في محل نصب على الحال (والله ذو الفضل العظيم) هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، والمراد بالفضل هنا ما تفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف . وقال الكلبي : هو رزق الله ، وقيل نعم الله التى لا تحصى ، وقيل هو الإسلام ، وقد قيل إن « لا » فى لئلا غير مزيدة ، وضمير لا يقدرّون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه . والمعنى : لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدرّ النبي والمؤمنون على شيء من فضل الله الذى هو عبارة عما أوتوه ، والأوّل أولى . وقرأ ابن مسعود « لكيلا يعلم » وقرأ خطاب بن عبد الله « لأن يعلم » وقرأ عكرمة « ليعلم » وقرئ « ليلا » بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بفتح اللام .

وقد أخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذى في نوادر الأصول ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق ابن مسعود قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا عبد الله ، قلت لبيك يا رسول الله ثلاث مرات ، قال : هل تدري أى عرى الإسلام أوثق ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا في دينهم ؛ يا عبد الله هل تدري أى الناس أعلم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً بالعمل وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهما : فرقة وازرت الملوك وقتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك فأقاموا بين ظهرائى قومهم

فدعوههم إلى دين الله ودين عيسى فقتلهم الملوك ونشروهم بالمنشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فادعوا حتى رعايتها فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) هم الذين آمنوا بي وصدقوني (وكثير منهم فاسقون) الذين جحدوني وكفروا بي . وأخرج النسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : « كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل فقبل الملوكهم مانجد شيئا أشد من شتم يشتمنا هؤلاء منهم يقرءون - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون - فأولئك هم الفاسقون - مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم ، فادعوههم فليقرءوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنوا ، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل ، أو ليركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها ، فقالوا ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا في القيافي ونحترق الآبار ونحرق البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك ، فأنزل الله (رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فادعوا حتى رعايتها) وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك وقتي من فني منهم قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لاعلم لهم بإيمان الذين اقتلوا بهم ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته وجاء السياح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال الله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) أجريز بإيمانهم بعيسى ونصب أنفسهم والتوراة والإنجيل ، وإيمانهم بمحمد وتصديقهم (ويعمل لكم نورا تمشون به) القرآن واتباعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري في قوله (كفلين) قال : ضعفين وهي بلسان الحبشة . وأخرج القرطبي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر في قوله (يؤتكم كفلين من رحمته) قال : الكفل المئاة جزء وخمسون جزءا من رحمة الله .

تفسير سورة المجادلة

هي ثنتان وعشرون آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني وباقيها مكّي . وقال الكلبي : نزلت جميعها بالمدينة غير قوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) نزلت بمكة . وأخرج ابن الصريس والنحاس وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المجادلة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا إِلَى اللَّهِ وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

قوله (قد سمع الله) قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي بإدغام الدال في السين ، وقرأ الباقر بالإظهار . قال الكسائي : من بين الدال عند السين فلسانه أعجى وليس بعربى (قول التي تجادل في زوجها) أى تراجعك الكلام في شأنه (وتشتكى إلى الله) معطوف على تجادل . والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها قد حرمت عليه ، قالت : والله ما ذكر طلاقاً ثم تقول أشكو إلى الله فاقنى وولدتى وإن لى صبية صغاراً إن ضممتهم لآيه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك ، فهذا معنى قوله (وتشتكى إلى الله) قال الواحدي : قال المفسرون : نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت وكان به لم ، فاشتد به لمة ذات يوم فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقاً في الجاسلية . وقيل هى خولة بنت حكيم ، وقيل اسمها جميلة ، والأول أصح ، وقيل هى بنت خويلد . وقال الماوردي : إنها نسبت تارة إلى أبيها ، وتارة إلى جدّها وأحدّها أبوها والآخر جدّها ، فهى خولة بنت ثعلبة بن خويلد ، وجملة (والله يسمع تحاوركما) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها : أى والله يعلم تراجعكما فى الكلام (إن الله سميع بصير) . يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ما جادلته به هذه

المرأة . ثم بين سبحانه شأن الظهار في نفسه وذكر حكمه فقال (الذين يظهرون منكم من نسائهم) قرأ الجمهور « يظهرون » بالتشديد مع فتح حرف المضارعة . وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي « يظاهرون » بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقرأ أبو العالية وعاصم وزر بن حبيش « يظاهرون » بضم الياء وتخفيف الظاء وكسر الهاء ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب . وقرأ أبي « يتظاهرون » بفك الإدغام - ومعنى الظهار أن يقول لامرأته : أنت علي كظهر أمي : أي ولا خلاف في كون هذا ظهارا . واختلفوا إذا قال : أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم ، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار ، وبه قال الحسن والنخعي والزهرى والأوزاعي والثوري . وقال جماعة منهم قتادة والشعبي : إنه لا يكون ظهارا بل يختص الظهار بالأم وحدها . واختلفت الرواية عن الشافعي ، فروى عنه كالقول الأول ، وروى عنه كالقول الثاني ، وأصل الظهار مشتق من الظهر .

واختلفوا إذا قال لامرأته أنت علي كراس أي أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك ؟ هل يكون ظهارا أم لا ، وهكذا إذا قال أنت علي كأمي ولم يذكر الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهارا . وروى عن أبي حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهارا . وروى عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده . واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية ، فقليل يكون ظهارا وقيل لا ، والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع ، وجملة (ما هن أمهاتهم) في محل رفع على أنها خبر الموصول : أي ما نساوهم بأمهاتهم ، فذلك كذب منهم ، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكييت لهم . قرأ الجمهور « أمهاتهم » بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال « ما » عمل ليس . وقرأ أبو عمرو والسلمي بالرفع على عدم الإعمال ، وهي لغة نجد وبنى أسد . ثم بين سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال (إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم) أي ما أمهاتهم إلا النساء اللائي ولدنهم . ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريرهم فقال (وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا) أي وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكرا من القول : أي فظيحا من القول ينكره الشرع ، والزور الكذب ، وانتصاب منكرا وزورا على أنهما صفة لمصدر محذوف : أي قولنا منكرا وزورا (وإن الله لعفو غفور) أي بليغ العفو والمغفرة ، إذ جعل الكفارة عليهم مغلصة لهم عن هذا القول المنكر (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) لما ذكر سبحانه الظهار إجمالا ووبخ فاعليه شرع في تفصيل أحكامه ، والمعنى : والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور ، ثم يعودون لما قالوا : أي إلى ما قالوا بالتدارك والتلافى كما في قوله - أن تعبدوا لمثله - أي إلى مثله . قال الأخفش (لما قالوا) وإلى ما قالوا يتعاقبان . قال - وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا - وقال - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقال - بأن ربك أوحى لها - وقال - وأوحى إلى نوح - وقال الفراء : اللام بمعنى عن ، والمعنى : ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء . وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . قال الأخفش أيضا : الآية فيها تقديم وتأخير ، والمعنى : والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع (فتحرير رقبة) لما قالوا : أي فعلهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا . فالجاء في قوله (لما قالوا) متعلق بالمحذوف الذي هو خبر المبتدأ وهو فعلهم .

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال : الأول أنه العزم على الوطء وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه ، وروى عن مالك . وقيل هو الوطء نفسه وبه قال الحسن ، وروى أيضا عن مالك . وقيل هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق وبه قال الشافعي . وقيل هو الكفارة ، والمعنى : أنه لا يستبيح

وطأها إلا بكفارة، وبه قال الليث بن سعد، وروى عن أبي حنيفة . وقيل هو تكرير الظهار بلفظه ، وبه قال أهل الظاهر . وروى عن بكير بن الأشبح وأبي العالية والفراء . والمعنى . ثم يعودون إلى قول ما قالوا . والموصول مبتدأ وخبره (فتحريز رقبة) على تقدير فعلهم تحرير رقبة كما تقدم ، أو قالوا جب عليهم إعتاق رقبة ، يقال حررته : أى جعلته حراً ، والظاهر أنها تجزئ أى رقبة كانت ، وقيل يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة فى كفارة القتل ؛ وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه وبالثانى قال مالك والشافعى ، واشترطا أيضا سلامتها من كل عيب (من قبل أن يماس) المراد بالتماس هنا الجماع ، وبه قال الجمهور ، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر ، وقيل إن المراد به الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك ، وهو أحد قول الشافعى ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ وخبره (توعظون به) أى تؤمرون به ، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار ، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة . قال الزجاج : معنى الآية ذلكم التخليط فى الكفارة توعظون به : أى إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تركوا الظهار (والله بما تعملون خير) لا يخفى عليه شئ من أعمالكم ، فهو مجازيكم عليها . ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يماس) أى فمن لم يجد الرقبة فى ماكه ولا تمكن من قيمتها فعليه صيام شهرين متتابعين متوالين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من ستمر أو مرض فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى والشافعى ومالك : إنه يبنى ولا يستأنف . وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعى ؛ ومعنى (من قبل أن يماس) هو ما تقدم قريبا ، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك . وقال الشافعى : لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم ، والأول أولى (فمن لم يستطع) يعنى صيام شهرين متتابعين (فإطعام ستين مسكينا) أى فعليه أن يطعم ستين مسكينا ، لكل مسكين مدآن ، وهما نصف صاع ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال الشافعى وغيره : لكل مسكين مد واحد ، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة ، أو يدفع إليهم ما يشبعهم ، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة ، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم ، وبعضهم فى يوم آخر ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره من الأحكام ، وهو مبتدأ وخبره مقدر : أى ذلك واقع (لتؤمنوا بالله ورسوله) ويجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب ، والتقدير : فعلنا ذلك لتؤمنوا : أى لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه ، أو لتطيعوا الله ورسوله فى الأوامر والنواهي ، وتقضوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها ولا تعودوا إلى الظهار الذى هو منكر من القول وزور ، والإشارة بقوله (وتلك) إلى الأحكام المذكورة وهو مبتدأ ، وخبره (حدود الله) فلا تجاوزوا حدوده التى حدتها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة (وللكافرين) الذين لا يقفون عند حدود الله ولا يعملون بما حده الله لعباده (عذاب أليم) وهو عذاب جهنم ، وسماه كفرا تغليظا وتشديدا .

وقد أخرج ابن ماجه وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شئ . إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهى تقول : يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبر سننى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات (قد سمع الله قول التى تمادى فى زوجها) وهو أوس بن الصامت . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : كان

أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها خولة بنت خويلد ، فظاهر منها فأسقط في يده وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، فانطلق إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسأله ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته ، فقال : ياخولة ما أمرنا في أمرك بشيء ، فأنزل الله على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ياخولة أبشري ؟ قالت خيرا . قال : خيرا ، فقرأ عليها (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) الآيات . وأخرج أحمد وأبوداود وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال « حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت : في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، فدخل علي يوما فراجعتني بشيء فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي ، قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يتغشاه ثم سرى عنه ، فقال لي : ياخولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ، ثم قرأ علي (قد سمع الله قول التي تجادلك) إلى قوله (عذاب أليم) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مريه فليعتق رقبة ، قلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق ، قال : فليصم شهرين متتابعين ، قلت : والله إنه لشيوخ كبير ما به من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر ، قلت : والله ماذا عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فأنا سأعينه بعرق من تمر ، فقلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر ، فقال : قد أصبت وأحسن فتصدي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا ، قالت ففعلت » وفي الباب أحاديث . وأخرج ابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (ثم يعودون لما قالوا) قال : هو الرجل يقول لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر بعتق رقبة (فن) فإن (لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتامسا) والممس النكاح (فن) فإن (لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) وإن هو قال لها : أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث ، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفر ، ولا يقع في الظهار طلاق . وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال ثلاث فيه مد : كفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، وكفارة الصيام . وأخرج البزار والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال « أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني ظاهرت من امرأتي ، فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر ، فوقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ألم يقل الله من قبل أن يتامسا ، قال : قد فعلت يا رسول الله ، قال : أمسك عنها حتى تكفر » . وأخرج عبد الرزاق وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عباس « أن رجلا قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها من قبل أن أكفر ، فقال : وما حملك على ذلك ؟ قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله » . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبوداود والترمذي وحسنه وابن ماجه والطبراني والبخاري في معجمه والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصاري قال : كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ملء يوت غيري ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها في ليلي فأتابع في ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح ، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فوثبت عليها ، فلما أصبحت غلوت على قومي فأخبرتهم خبري ، فقلت : انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بأمرى ، فقالوا : لا ، والله لا نفعل نتخوف أن ينزل علينا القرآن ،

أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقالة يتي علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك قال : فخرجت فأثيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته خبري ، فقال أنت بذاك ؟ قلت أنا بذاك ، قال أنت بذاك ؟ قلت أنا بذاك ، قال أنت بذاك ؟ قلت أنا بذاك وها أنا ذا فأمض في حكم الله فإني صابر لذلك ، قال : أعتق رقبة ، فضربت عنقي بيدي فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : فصم شهرين متتابعين ، فقلت : هل أصابني ما أصابني إلا في الصيام ؟ قال : فأطعم ستين مسكينا ، قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشا مالنا عشاء ، قال : اذهب إلى صاحب ضيقة بني زريق ، فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا ، ثم استعن بسائرهما عليك وعلى عيالك ، فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السعة والبركة ، أمر لي بصدقتكم فادفعوها إلي ، فدفعوها إلي .»

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) .

قوله (إن الذين يحادون الله ورسوله) لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين والمحادة المشاقة والمعادة والمخالفة ، ومثله قوله (إن الذين يحادون الله ورسوله) قال الزجاج : المحادة أن تكون في حدّ يخالف صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحدّاد للبواب (كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم) أى أذلوا وأخزوا ، يقال : كتبت الله فلانا إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له مكبوت . قال المقاتلان : أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة . وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال

ابن زيد : عذبوا . وقال السدي : لعنوا . وقال الفراء : أغفظوا ، والمراد بمن قبلهم : كفار الأمم الماضية المعادين
لرسول الله ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه ، وقيل المعنى : على الماضي ، وذلك ما وقع
للمشركين يوم بدر ، فإن الله كتبهم بالقتل والأسر والقهر ، وجملة (ولقد أنزلنا آيات بينات) في محل نصب على
الحال من الواو في كتبوا : أي والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسله من الأمم المتقدمة ،
وقيل المراد القرائض التي أنزلها الله سبحانه ، وقيل هي المعجزات (وللكافرين عذاب مهين) أي للكافرين بكل
ما يجب الإيمان به ، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوليا ، والعذاب المهين : الذي يهين صاحبه ويذله
ويذهب بعزه (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف منتصب بإضمار اذكر ، أو بمهين ، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار ،
أو بأحصاء المذكور بعده ، وانتصاب جميعا على الحال : أي مجتمعين في حالة واحدة ، أو يبعثهم كلهم لا يبق
منهم أحد غير مبعوث (فينبئهم بما عملوا) أي يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخا لهم وتبكيثا
ولتكميل الحجة عليهم ، وجملة (أحصاه الله ونسوه) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل كيف ينسوه بذلك
على كثرتة واختلاف أنواعه ، فقيل أحصاه الله جميعا ولم يفته منه شيء ، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه ، بل
وجلبوه حاضرا مكتوبا في صحائفهم (والله على كل شيء شهيد) لا يخفى عليه شيء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر .
ثم أكد سبحانه بيان كونه عالما بكل شيء ، فقال (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) أي ألم تعلم
أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما ، وجملة (ما يكون من نجوى ثلاثة) الخ مستأنفة لتقرير
شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات . قرأ الجمهور « يكون » بالتحية . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج
وأبو حيوه بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، ومن مزيدة للتأكيد ، ونجوى فاعل كان ، والنجوى السرار ،
يقال : قوم نجوى : أي ذو نجوى وهي مصدر . والمعنى : ما يوجد من تناجي ثلاثة أو من ذوى نجوى ، ويجوز
أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين ؛ فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه ، وعلى الوجهين
الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أو الصنعة لها . قال القراء : ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت
أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهي قراءة ابن أبي عبلة ، ويجوز رفع ثلاثة على البدل من
موضع نجوى (إلا هو رابعهم) هذه الجملة في موضع نصب على الحال ، وكذا قوله - إلا هو خامسهم - (إلا هو
معهم) أي ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ،
ومعنى رابعهم جاعلهم أربعة ، وكذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم في الاطلاع على تلك النجوى
(ولا خمسة) أي ولا نجوى خمسة ، وتخصيص العددين بالذكر ، لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو
خمسة ؛ أو كانت الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع وخمسة في موضع . قال القراء :
العدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر والجمهور لا يخفى عليه خافية (ولا أدنى من ذلك
ولا أكثر إلا هو معهم) أي ولا أقل من العدد المذكور : كالواحد ، والاثنين ، ولا أكثر منه : كالسنة
والسبعة إلا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه شيء . قرأ الجمهور « ولا أكثر » بالجر بالفتحة عطفا على
لفظ نجوى . وقرأ الحسن والأعمش وابن أبي إسحاق وأبو حيوه ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بن عمر وسلام
بالرفع عطفا على محل نجوى . وقرأ الجمهور « ولا أكثر » بالثنية . وقرأ الزهري وعكرمة بالوحدة . قال الواحدى :
قال المنسرون : إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم ،
فهزنون لذلك ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمرهم أن لا يتناجوا دون

المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله هذه الآيات ، ومعنى (أينما كانوا) إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم في أى مكان من الأمكنة (ثم ينبئهم) أى يخبرهم (بما عملوا يوم القيامة) توبيخا لهم وتبكيئا وإلزاما للحجة (إن الله بكل شئ عليم) لا يخفى عليه شئ كائنا ما كان (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) هؤلاء الذين نهوا ، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدم ذكره من المنافقين واليهود . قال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين اليهود مواعدة ، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا ، فنهاهم الله فلم ينتهوا ، فنزلت . وقال ابن زيد : كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك (ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول) قرأ الجمهور « يتناجون » بوزن يتفاعلون ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله فيما بعد (إذا تناجيتم فلا تتناجوا) . وقرأ حمزة وخلف وورش عن يعقوب « ويتناجون » بوزن يفتعلون ، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه كالكذب والظلم ، والعدوان ما فيه عدوان على المؤمنين ومعصية الرسول مخالفته . قرأ الجمهور « ومعصية » بالإنفراد . وقرأ الضحاك وحيد ومجاهد « ومعصيات » بالجمع (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) قال القرطبي : إن المراد بها اليهود كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا ، فيقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : عليكم . وفى رواية أخرى وعليكم (ويقولون فى أنفسهم) أى فيما بينهم (لولا يعذبنا الله بما نقول) أى هلا يعذبنا بذلك ، ولو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به ، وقيل المعنى : لو كان نبيا لاستجيب له فيما حيث يقول وعليكم ووقع علينا الموت عند ذلك (حسبهم جهنم) عذابا (يصلونها) يدخلونها (فبئس المصير) أى المرجع ، وهو جهنم (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) لما فرغ سبحانه عن نهى اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله كما يفعله اليهود والمنافقون . ثم بين لهم ما يتناجون به فى أنفسهم وخواصهم فقال (وتناجوا بالبر والتقوى) أى بالطاعة وترك المعصية ، وقيل الخطاب للمنافقين ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ظاهرا أو بزعمهم ، واختار هذا الزجاج ، وقيل الخطاب لليهود ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى ، والأول أولى ، ثم خوفهم سبحانه فقال (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فيجزىكم بأعمالكم . ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجى هو من جهة الشيطان ، فقال (إنما النجوى) يعنى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول (من الشيطان) لا من غيره : أى من تزيينه وتسويله (ليحزن الذين آمنوا) أى لأجل أن يوقعهم فى الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها فى مكيدة يكادون بها (وليس بضارهم شيئا) أو وليس الشيطان أو التناجى الذى يزيئه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر (إلا بإذن الله) أى بمشيئته ، وقيل بعلمه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى يكلون أمرهم إليه ويفوضونه فى جميع شؤونهم ويستعيذون بالله من الشيطان ولا يبالون بما يزيئه من النجوى . وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى والترمذى وصححه عن أنس « أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسند جيد عن ابن عمر : إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : السام عليك ، يريدون بذلك شتمه ، ثم يقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ، فنزلت هذه الآية (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى والترمذى وصححه عن أنس « أن يهوديا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم وأصحابه فقال : السام عليكم ، فرد عليه القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : هل تدرون ما قال هذا ؟ قالوا : الله أعلم ، سلم يا نبي الله ، قال لا ، ولكنه قال كذا وكذا ردّوه على فردوه ، قال : قلت السام عليكم ؟ قال نعم ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك : إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب ، فقولوا عليك ، قال عليك ما قلت . قال (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) « وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهود ، فقالوا السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال : يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا المتفحش ، قلت : ألا تسمعونهم يقولون السام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أو ما سمعتمني أقول وعليكم ، فأنزل الله (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) « وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا حيوه : سام عليك فنزلت . وأخرج ابن مردويه عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث سرية وأغزاها التي المنافقون فأنغضوا رؤوسهم إلى المسلمين ويقولون قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن المسلمين ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) الآية » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطرقه أمر أو يأمر بشيء فكثير أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا أنداء نتحدث ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل فقال : ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ قلنا : يا رسول الله إنا كنا في ذكر المسيح فرقا منه ، فقال : ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندي منه ؟ قلنا بلى يا رسول الله . قال : الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل . قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُجِيتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس) يقال فسح له يفسح فسحا : أي وسع له ، ومنه قولهم بلد فسح . أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة في المجلس وعدم التضيق فيه . قال تنادة ومجاهد والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال لتحصيل الشهادة (فافسحوا يفسح الله لكم) أى فوسعوا يوسع الله لكم في الجنة ، أو في كل ما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما ، قرأ الجمهور « تفسحوا في المجلس » وقرأ السلمي وزر بن حبيش وعاصم « في المجالس » على الجمع ، لأن لكل واحد منهم مجلسا ، وقرأ قتادة والحسن وداود ابن أبي هند وعيسى بن عمر « تفسحوا » قال الواحدى : والوجه التوحيد في المجلس ، لأنه يعنى به مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقال القرطبي : الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو يوم الجمعة ، وأن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه ، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه ، ويؤيد هذا حديث ابن عمر عند البخارى ومسلم وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) قرأ الجمهور بكسر الشين فيها ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمها فيهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، يقال نشز : أى ارتفع ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف ، والمعنى : إذا قيل لكم انهضوا فانهضوا . قال جمهور المفسرين : أى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير . وقال مجاهد والضحاك وعكرمة : كان رجال يتثاقلون عن الصلاة ، ف قيل لهم إذا نودى للصلاة فانهضوا . وقال الحسن : انهضوا إلى الحرب . وقال ابن زيد : هذا في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال الله تعالى (وإذا قيل انشزوا) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فانشزوا) فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيئوا إذا دعيت إلى أمر معروف ، والظاهر حمل الآية على العموم ، والمعنى : إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجا أوليا ، وهكذا يندرج ما فيه السياق وهو التفسيح في المجلس اندراجا أوليا ، وقد قدّمنا أن معنى نشز ارتفع ، وهكذا يقال نشز ينشز : إذا تنحى عن موضعه ، ومنه امرأة ناشز : أى متنعية عن زوجها ، وأصاه مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى ، ذكر معناه النحاس (يرفع الله الذين آمنوا منكم) في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما (والذين أوتوا العلم درجات) أى ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا والثواب في الآخرة ، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات ، وقيل المراد بالذين آمنوا من الصحابة وكذلك الذين أوتوا العلم ، وقيل المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دلائل يدل على تخصيص الآية ببعض دون البعض ، وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله ، وقد دل على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية (والله بما تعملون خبير) لا يخفى عليه شيء من أعمالكم من خير وشر ، فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرّا (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) المناجاة المساررة ، والمعنى : إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم فقدموا بين يدي مساررتكم له صدقة . قال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشق عليهم ذلك ، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه . وقال زيد

ابن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدا من مناجاته وكان ذلك يشق على المسلمين ، لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله ، فأنزل الله - يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول - فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى لأنهم لم يقدّموا بين يدي نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدّم من تقديم الصدقة بين يدي النجوى ، وهو مبتدأ وخبره (خير لكم وأطهر) لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امثاله خيرا لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم يبدل على أنه أمر زبد لا أمر وجوب (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) يعني من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى ، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة (ءأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات) أي أخفتم الفقر والعيلة لأن تقدّموا ذلك ، والإشفاق : الخوف من المكروه والاستفهام للتقرير . وقيل المعنى : أبحلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار مخاطبين . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من النهار (فإذا لم تفعلوا) ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى ، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ولم يفعل ، وأما من لم يجد فقد تقدّم الترخيص له بقوله (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) (وتاب الله عليكم) بأن رخص لكم في الترك ، « وإذا » على بابها في الدلالة على الماضي ، وقيل هي بمعنى إذا ، وقيل بمعنى إن ، وتاب معطوف على لم تفعلوا : أي وإذا لم تفعلوا وإذا تاب عليكم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) والمعنى : إذا وقع منكم التثاقل عن امثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما توفرون به وتتهون عنه (والله خبير بما تعملون) لا يخفى عليه من ذلك شيء فهو مجازيكم ، وليس في الآية ما يبدل على تقصير المؤمنين في امثال هذا الأمر ، أما الفقراء منهم فالأمر واضح ، وأما من عداهم من المؤمنين فلأنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة ، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصرا في امثال الأمر بالصدقة ، على أن في الآية ما يبدل على أن الأمر للنذب كما قدّمنا . وقد استدلت بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل ، وليس هذا الاستدلال بصحيح ، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل ، وأيضا قد فعل ذلك البعض ، فتصدق بين يدي نجواه كما سيأتي .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية (إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس) يوم جمعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتمالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فردّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فلم يزل يقيمهم بعدة نفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : ذلك في مجلس القتال (وإذا قيل

انشزوا) قال : إلى الخير والصلاة . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) قال : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات . وأخرج ابن المنذر عنه قال : ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية ، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (إذا ناجيتم الرسول) الآية قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما قال ذلك ظن كثير من الناس وكفوا عن المسئلة ، فأنزل الله بعد هذا (أشفقتم) الآية ، فوسع الله عليهم ولم يضيق . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والنحاس وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال « لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما ترى دينار ؟ قلت لا يطيقونه . قال فنصف دينار ؟ قلت لا يطيقونه ، قال فكم ؟ قلت شعيرة ، قال إنك لزهيد ، قال : فنزلت - أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - الآية ، في خفف الله عن هذه الأمة » والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد واحدة من حب الشعير . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال : ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت ، وما كانت إلا ساعة : يعني آية النجوى . وأخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عنه أيضا قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدمت بين يدي نجواى درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت - أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - الآية . وأخرج الطبراني وابن مردويه - قال البيهقي : بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال « نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنك لزهيد ، فنزلت الآية الأخرى - أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اتَّخَذُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَتَسَوَّبُ فِيهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ

الشَّيْطَانُ إِلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ
أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢).

قوله (ألم تر إلى الذين تولوا قوما) أى والوهم . قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود . وقال السدي ومقاتل :
هم اليهود تولوا المنافقين ، ويدل على الأول قوله (غضب الله عليهم) فإن المغضوب عليهم هم اليهود ، ويدل على
الثاني قوله (ما هم منكم ولا منهم) فإن هذه صفة المنافقين ، كما قال الله فيهم - مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا
إلى هؤلاء - وجملة (ما هم منكم ولا منهم) في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة (ويحلفون على الكذب) أى
يحلفون أنهم مسلمون ، أو يحلفون أنهم مانقوا الأخبار إلى اليهود ، والجملة عطف على تولوا داخلة في حكم
التعجب من فعلهم ، وجملة (وهم يعلمون) في محل نصب على الحال : أى والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا
عليه ، وأنه كذب لا حقيقة له (أعد الله لهم عذابا شديدا) بسبب هذا التولى والحلف على الباطل (إنهم ساء
ما كانوا يعملون) من الأعمال القبيحة (اتخذوا أيمانهم جنة) قرأ الجمهور « أيمانهم » بفتح الهمزة جمع يمين ، وهى
ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقيا من القتل ، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دماءهم كما
يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم . وقرأ الحسن وأبو العالية « إيمانهم » بكسر الهمزة
أى جعلوها تصديقهم جنة من القتل ، فأمنت ألسنتهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم (فصدوا عن سبيل الله)
أى منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التشبیط وتهوين أمر المسلمين وتضعيف شوكتهم ، وقيل
المعنى : فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام (فلهم عذاب مهين) أى يهينهم ويخزيهم ، قيل هو
تكرير لقوله (أعد الله لهم عذابا شديدا) للتأكيد ، وقيل الأول عذاب القبر ، وهذا عذاب الآخرة ، ولا وجه
للقول بالتكرار ، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم
من الله شيئا) أى لن تغنى عنهم من عذابه شيئا من الإغناء قال مقاتل . قال المنافقون : إن محمدا يزعم أنه ينصر
يوم القيامة لقد شقينا إذن ، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة فنزلت الآية (أولئك)
الموصوفون بما ذكر (أصحاب النار) لا يفارقونها (هم فيها خالدون) لا يخرجون منها (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف
منصوب بقوله : مهين ، أو بمقدّر : أى اذكر (فيحلفون له كما يحلفون لكم) أى يحلفون لله يوم القيامة على
الكذب كما يحلفون لكم في الدنيا ، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قد انكشفت
الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة ، فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون
على الكذب (ويحسبون أنهم على شيء) أى يحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً ،

أو يدفع ضرراً كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا (ألا إنهم هم الكاذبون) أى الكاملون في الكذب المتهاكون عليه البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن (استحوذ عليهم الشيطان) أى غلب عليهم واستولى واستولى . قال المبرد : استحوذ على الشيء حواه وأحاط به ، وقيل قوى عليهم ، وقيل جمعهم ، يقال أحوذ الشيء : أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، والمعانى متقاربة لأنه إذا جمعهم فقد قوى عليهم وغلبهم واستولى عليهم واستولى وأحاط بهم (فأنساهم ذكر الله) أى أوامره والعمل بطاعته ، فلم يذكروا شيئاً من ذلك ، وقيل زواجه في النهى عن معاصيه ، وقيل لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره (حزب الشيطان) أى جنوده وأتباعه ورهطه (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أى الكاملون في الخسران حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة (إن الذين يحادّون الله ورسوله) تقدّم معنى المحادّة لله ورسوله في أول هذه السورة ، والجملة تعليل لما قبلها (أولئك في الأذلين) أى أولئك المحادّون لله ورسوله المتصفون بتلك الصفات المتقدمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة لأنهم لما تحدّوا الله ورسوله صلّوا من الذل بهذا المكان . قال عطاء : يريد الذل في الدنيا والحزى في الآخرة (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم في الأذلين : أى كتب في اللوح المحفوظ ، وقضى في سابق علمه : لأغلبن أنا ورسلي بالحجة والسيف . قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة . قال الفراء : كتب بمعنى قال ، وقوله « أنا » توكيد ، ثم ذكر مثل قول الزجاج (إن الله قوى عزيز) فهو قوى على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد (لانجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له : أى يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، وجملة « يوادّون » في محل نصب على أنها المفعول الثاني لتجد إن كان متعدّياً إلى منجولين ، أو في محل نصب على الحال إن كان متعدّياً إلى مفعول واحد ، أو صفة أخرى لقوما : أى جامعون بين الإيمان والموادّة لمن حادّ الله ورسوله (ولو كانوا آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) أى ولو كان المحادّون لله ورسوله آباء الموادّين الخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ، ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) يعنى الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ومعنى (كتب في قلوبهم الإيمان) خافه ، وقيل أثبته ، وقيل جعله ، وقيل جمعه ، والمعانى متقاربة (وأيدهم بروح منه) أى قواهم بنصر منه على عدوّهم في الدنيا ، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم ، وقيل هو نور القلب . وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة ، وقيل بجبريل ، وقيل بالإيمان ، وقيل برحمة . قرأ الجمهور « كتب » مبنياً للفاعل ونصب الإيمان على المفعولية . وقرأ زر بن حبیش والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول ورفع الإيمان على النياية . وقرأ زر بن حبیش « عشيرتهم » بالجمع ، ورويت هذه القراءة عن عاصم (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) على الأباء (رضى الله عنهم) أى قبل أعمالهم وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة (ورضوا عنه) أى فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً (أولئك حزب الله) أى جنده الذين يمثلون أوادره ويقاتلون أعداءه وينصرون أوليائه ، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشریف لهم عظيم وتكریم ذمهم (ألا إن حزب الله هم

المفلحون) أى الفاترون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون فى الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح .

وقد أخرج أحمد والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي فى الدلائل عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا فى ظل حجرة من حججه وعنده نفر من المسلمين ، فقال : إنه سيأتىكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ فقال : ذرنى آتيتكم بهم ، فحلفوا واعتذروا ، نأزل الله (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) الآية التى بعدها » . وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقي فى سننه عن عبد الله بن شاذب قال : جعل والد أبى عبيدة بن الجراح يتقصده لأبى عبيدة يوم بار ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر تصده أبو عبيدة فقتله ، فنزلت (لا تجاهد قوما يؤمنون بالله) الآية .

تفسير سورة الحشر

هى أربع وعشرون آية

وهى مدنية . قال القرطبي فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحشر بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة النصير : يعنى أنها نزلت فى بنى النصير كما صرح بذلك فى بعض الروايات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ

عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧).

قوله (سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) قد تقدم تفسير هذا في سورة الحديد.
(هو الذي أخرج الذين كثروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر) هم بنو النضير، وهم رهط من اليهود
من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً منهم لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فغاروا بالنبي
صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم حتى رضوا بالهجرة. قال الكلبي: كانوا أول من أجلى من أهل الذمة من جزيرة العرب، ثم أجلى
آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، وآخر حشر إجماع عمر لهم. وقيل إن
أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام، وقيل آخر الحشر هو
حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، وهي الشام. قال عكرمة: من شك أن الحشر يوم القيامة في الشام فليقرأ هذه
الآية، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم: اخرجوا، قالوا إلى أين؟ قال إلى أرض المحشر. قال ابن
العربي: الحشر أول وأوسط وآخر، فالأول إجماع بني النضير، والأوسط إجماع أهل خيبر، والآخر يوم القيامة.

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري
فقال: هم بنو قريظة، وهو غلط، فإن بني قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه،
فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، وتغنم أموالهم، فقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسعد:
لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. واللام في لأوّل الحشر متعلقة بأخرج، وهي لام التوقيت كقول
- لدلوك الشمس - (ما ظننتم أن يخرجوا) هذا خطاب للمسلمين: أي ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون
من ديارهم لغزتهم ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة وعقار ونخيل واسعة، وأهل عاد وعدة
(وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وقوله مانعتهم
خبر مضاف، وحصونهم مبتدأ مؤخر، والجملة خبر أنهم، ويجوز أن يكون مانعتهم خبر أنهم وحصونهم فاعل
مانعتهم، ورجع الثاني أبو حيان، والأوّل أولى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) أي أتاهم أمر الله من حيث لم
يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقتالهم وإجلائهم
وكانوا لا يظنون ذلك، وقيل هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف قاله ابن جريج والسائي وأبو صالح، فإن
قتله أضعف شوكتهم. وقيل إن الضمير في أتاهم ولم يحتسبوا للمؤمنين: أي فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا،
والأوّل أولى لقوله (وقذف في قلوبهم الرعب) فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير، لا في قلوب

المسلمين . قال أهل اللغة : الرعب الخوف الذي يرعب الصدر : أى يملؤه ، وقذفه إثباته فيه . وقيل كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ، والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب الذى قذفه الله فى قلوبهم هو الذى ثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) وذلك أنهم لما أيقنوا بالجللاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليدنوا به ما خرب من حصنهم . قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك . قرأ الجمهور « يخربون » بالتخفيف ، وقرأ الحسن والسلمى ونصر بن عاصم وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد . قال أبو عمرو : إنما اخترت القراءة بالتشديد ، لأن الإخراب ترك الشئ خراباً ، وإنما خربوها بالمدام . وليس ما قاله بمسلم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد . قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته وأنزحته وفرحته واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم . قال الزهري وابن زياد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا يستحسنون الخشب أو العمود فيها بمون بيوتهم ويحملون ذلك على إيلهم ويخرب المؤمنون بآتيها . وقال الزهري أيضاً : يخربون بيوتهم بتقص الميامة وأيدي المؤمنين بالمتاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم فى تركهم لها وأيدي المؤمنين فى إجلالهم عنها ، وللملحة إما مستأنفة لبيان مافعلوه ، أو فى محل نصب على الحال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى اتعظوا وتدبروا وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر . قال الواحدى : ومعنى الاعتبار النظر فى الأمور ليعرف بها شئ آخر من جنسها (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا) أى لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبي فى الدنيا كما فعل بنى قريظة . والجلاء مفارقة الوطن ، يقال جلا بنفسه جلاء ، وأجلاله غيره إجلاء . والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما فى الإبعاد واحداً من جهتين : إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . الثانى أن الجلاء لا يكون إلا الجماعة ، والإخراج يكون لجماعة ولواحد ، كذا قال الماوردى (ولهم فى الآخرة عذاب النار) هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب وإن نجوا من عذاب الدنيا ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره من الجلاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى بسبب المشاقة منهم لله ورسوله بعدم الطاعة والميل مع الكفار ونقض العهد (ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) اقتصر هاهنا على مشاقة الله ، لأن مشاقته مشاقة لرسوله . قرأ الجمهور « يشاق » بالإدغام ، وقرأ طلحة ابن مصرف ومحمد بن السبيعي « يشاقق » بالفك (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا فى قطع النخل فنهاهم بعضهم ، وقالوا : إنما هي مغنم للمسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدو ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم فقال - ما قطعتم من لينة - قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، فقال بنو النضير وهم أهل كتاب : يا محمد ألسنت تزعم أنك نبي تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية ، ومعنى الآية : أى شئ

قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير في تركتموها عائداً إلى « ما » لتفسيرها باللبنة ، وكذا في قوله (قائمة على أصولها) ومعنى على أصولها : أنها باقية على ما هي عليه .

واختلف المفسرون في تفسير اللبنة ، فقال الزهري ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله إلا العجوة . وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها . وقال الثوري : هي كرام النخل . وقال أبو عبيدة : إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرني . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة ، وقيل هي ضرب من النخل ، يقال لتمره اللون ، ثمرة أجود التمر . وقال الأصمعي : هي الدقل ، وأصل اللبنة لونة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللبنة لين ، وقيل ليان . وقرأ ابن مسعود « ما قطعتم من لبنة ولا تركتم قوماً على أصولها » أي قائمة على سوقها ، وقرئ « على أصلها » وقرئ « قائما على أصولها » (وليخزي الفاسقين) أي ليند الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ويغيظهم في قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا من القمع والترك ازدادوا غيظاً . قال الزجاج : وليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير : وليخزي الفاسقين أذن في ذلك ، يدل على المحذوف قوله (فبإذن الله) وقد استدل بهذه الآية على جواز الاجتهاد وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى في كتب الأصول (وما أفاء الله على رسوله منهم) أي ما رده عليه من أموال الكفار ، يقال فاء يفع إذا رجع ، والضمير في منهم عائداً إلى بني النضير (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) يقال وجف القرس والبعر يجف وجفا : وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه : إذا حمله على السير السريع ، ومنه قول تميم بن مقبل :

مذ أو بد بالبيض الحديد صقالها عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

وقال نصيب : ألا رب ركب قد قطعت وجيفهم إليك ولولا أنت لم يوجف الركب

و« ما » في (فما أوجفتم) نافية ، والفاء جواب الشرط إن كانت « ما » في قوله (ما أفاء الله) شرطية وإن موصولة فالفاء زائدة ، « ومن » في قوله (من خيل) زائدة للتأكيد ، والركاب ما يركب من الإبل خاصة ، والمعنى : أن ما رده الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلًا ولا تجشمتم لها شقة ولا اقيمتم بها حرباً ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة لهذا السبب ، فإنه افتتحها صلحاً وأخذ أموالها ، وقد كان سأل المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية (ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء) من أعدائه ، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا إليها مشياً ، ولم يقاسوا فيها شيئاً من شدائد الحروب (والله على كل شيء قدير) يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء - لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) هذا بيان لمصارف التي بعد بيان أنه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع أهل القرى موضع قوله « منهم » أي من بني النضير للإشارة بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلحاً ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . قيل والمراد بالقرى : بنو النضير وقريظة وفدك وخيبر . وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها ؟ هل معناها مفتي أو مختلف ، فقيل معناها مترق كما ذكرنا ، وقيل مختلف ، وفي ذلك كلام لأهل العلم طويل : قال ابن

العربي : لا إشكال أنها ثلاثة مبان في ثلاث آيات . أما الآية الأولى ، وهي قوله (وما أفاء الله على رسوله منهم) فهي خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالصة له وهي أموال بني النضير وما كان مثلها . وأما الآية الثانية ، وهي قوله (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) فهذا كلام مبتدأ غير الأول بمسحوق غير الأول وإن اشتركت هي والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاءه الله على رسوله واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال ، وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية ، وهي قوله (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من هاهنا ، فطائفة قالت هي ملحقة بالأولى وهي مال الصلح ، وطائفة قالت هي ملحقة بالثالثة وهي آية الأنفال . والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلنوا هل هي منسوخة أو محكمة هذا معنى حاصل كلامه . وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والآية الثانية هي في بني قريظة ، ويعنى أن معناها يعود إلى آية الأنفال . ومذهب الشافعي أن سبيل خمس النقي سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي بعده لمصالح الملمين (فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) المراد بقوله « لله » أنه (يحكم فيه بما يشاء) « وللرسول » يكون ملكاً له « ولذي القربى » وهربنو هاشم وبنو المطلب لأنهم قد منعوا من الصدقة فجعل لهم حقاً في النقي . قيل تكون القسمة في هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وخمسه يقسم أخماساً . للرسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس ، وقيل يقسم أسداساً . الأسس سهم الله سبحانه ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي كيلا يكون النقي دولة بين الأغنياء دون الفقراء ، والدولة اسم للشئ يتداوله القوم بينهم ، يكون لهذا مرة ، ولهذا مرة . قال مقاتل : المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسدونه بينهم . قرأ الجمهور « يكون » بالتحية دواة بالنصب : أي كيلا يكون النقي دولة . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام وأبو حيان « تكون » بالفوقية دواة بالرفع : أي كيلا تقع أو توجد دولة ، وكان تامة . وقرأ الجمهور « دولة » بضم الدال . وقرأ أبو حيوه والسلي بفتحها . قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعي هما لغتان بمعنى واحد . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل ، وكذا قال أبو عبيدة . ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) أي ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تأخذوه . قال الحسن والسلي : ما أعطاكم من مال النقي فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه . وقال ابن جريج : ما آتاكم من طاعتي فافعلوا ، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه . والحق أن هذه الآية عامة في كل شئ يأتي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمر أو نهى أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعوم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شئ آتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا ، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته ، فقال (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) فهو معاقب من لم يأخذها ما آتاه الرسول ولم يترك ما نهاه عنه .

وقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : كانت غزوة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخيلهم في ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتة والأموال إلا الحلقة :

يعنى السلاح ، فأنزل الله فيهم (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) إلى قوله (لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا) فقاتلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى صالحهم على الإجلاء وجلالهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصيبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، وأولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبي ، وأما قوله (لأول الحشر) فكان إجلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال « من شك أن الحشر بالشام فليقرأ هذه الآية (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يومئذ اخرجوا ، قالوا إلى أين ؟ قال إلى أرض الحشر » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء . وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة ، ولها يقول حسان :

لها على سراة بنى لوى حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) . وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : اللينة النخلة (وليخزي الفاسقين) قال : استنزاهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا ، فلنسألن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله (ما قطعتم من لينة) الآية ، وفى الباب أحاديث ، والكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ، ومما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) فجعل ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها . قال : والإيجاف أن يوضعوا السير ، وهى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان من ذلك خير وفدك وقرى عرينة . وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعمد لينزع ، فاتاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحتواها كلها ، فقال ناس هلا قسمها الله فأنزل الله عذره فقال (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) الآية . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خير نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين ، فكان الذى لله ورسوله من ذلك الكثيرة والوطيع وسلام ووحده ، وكان الذى للمسلمين الشق ، والشق ثلاثة عشر سهما ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خير لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسالم لأحد من المسلمين تخلف عنه عند خروجه إلى الحديبية أن يشهد معه خبير إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى . وأخرج أبو داود وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صفايا فى النضير وخير وفدك ، زاما بنو النضير فكانت حبسا لنوابه ، وأما ذلك فكانت لابن السبيل ، وأما خير فجزاها ثلاثة أجزاء : قسم منها جزئين بين المسلمين ، وحبس جزءا لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله

ردّها على فقراء المهاجرين. وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي شينة وابن زنجويه في الأموال وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا النّبي حقّ إلا ما ملكت أيمانكم . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لعن الله الواشيات والمستوشيات والمتنصبات والمتفلجات للحسن المغيرات لحاق الله » فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أمّ يعقوب ، فجاءت ابن مسعود ، فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في كتاب الله ؟ قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .

قوله (الفقراء) قيل هو بدل من - لدى القربى - وما عطف عليه ، ولا يصح أن يكون بدلا من الرسول وما بعده لئلا يستلزم وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالفقر ، وقيل التقدير - كى لا يكون دواة - ولكن يكون للفقراء ، وقيل التقدير : اعجبوا للفقراء ، وقيل التقدير : والله شديد العقاب للفقراء : أى شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء ، وقيل هو عطف على ماضى بتقدير الواو كما تقول المال لزيد لعبدك بكر ، والمراد بالمهاجرين) الذين هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغبة في الدين ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين ، ومعنى (أخرجوا من ديارهم) أن كفار مكة أخرجوهم منها واضطروهم إلى الخروج ، وكانوا مائة رجل (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أى يطلبون منه أن يتمنصل عليهم بالرزق في الدنيا ، وبالرضوان في الآخرة (وينصرون الله ورسوله) بالجهاد للكفار ، وهذه الجملة معطوفة على يبتغون ، ومحل الجملة المنصب على الحال ، الأولى مقارنة ، والثانية مقدرة : أى ناوين لذلك ، ويجوز أن تكون حالا مقارنة لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله ، والإشارة بقوله (أولئك) إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات ، وهو مبتدأ وخبره (هم الصادقون) أى الكاملون في الصدق الراخون فيه . ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم) المراد بالدار المدينة ، وهى دار الهجرة ، ومعنى تبوءهم الدار والإيمان أنهم اتخذوها مباءة : أى تمكنوا منها تمكنًا شديدا ، والتبوء فى الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل ، وقيل إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور ، والتقدير : واعتقلوا الإيمان أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو على الفارسي : ويجوز أن

يكون على حذف مضاف : أى تبوءوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون تبوءوا مضمنا لمعنى لزموا ، والتقدير : لزموا الدار والإيمان ، ومعنى من قبلهم : من قبل هجرة المهاجرين فلا بد من تقدير مضاف ، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، والموصول مبتدأ وخبره (يحبون من هاجر إليهم) وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم (ولا يجدون في صدورهم حاجة) أى لا يجد الأنصار في صدورهم حسداً وغيظاً وحزاة (مما أوتوا) أى مما أوتى المهاجرون دونهم من النى ، بل طابت أنفسهم بذلك . وفى الكلام مضاف محذوف : أى لا يجدون في صدورهم من حاجة أو أثر حاجة ، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة . وكان المهاجرون في دور الأنصار « فلما غنم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنى النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم ، وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال : إن أحببتهم قسمت ما أفاء الله على من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم والمشاركة لكم في أموالكم ، وإن أحببتهم أعطيتهم ذلك وخرجوا من دياركم ، فرضوا بقسمه ذلك في المهاجرين وطابت أنفسهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة ، يقال : آثرته بكذا : أى خصصته به ، والمعنى : ويؤثرون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا « ولو كان بهم خصاصة » أى حاجة وفقير . والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت ، وهى الفرج التى تكون فيه ، وجملة ولو كان بهم خصاصة فى محل نصب على الحال ، وقيل إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص . وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الانفراد بالحاجة ، ومنه قول الشاعر :

إن الربيع إذا يكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) قرأ الجمهور « يوق » بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية . وقرأ ابن أبى عتبة وأبو حيوقة بفتح الواو وتشديد القاف . وقرأ الجمهور « شح نفسه » بضم الشين . وقرأ ابن عمر وابن أبى عتبة بكسرها . والشح : البخل مع حرص ، كذا فى الصحاح ، وقيل الشح أشد من البخل . قال مقاتل : شح نفسه : حرص نفسه . قال سعيد بن جبيرة : شح النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة . قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه فقد وقى شح نفسه . قال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده ، والشح أن يشح بما فى أيدي الناس ، يحب أن يكون له ما فى أيديهم بالحلال والحرام لا يمنع . وقال ابن عيينة : الشح الظلم . وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشئ من الأشياء التى يقبج الشح بها شرعاً من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك كما تنفذه إضافة الشح إلى النفس ، والإشارة بقوله (فأولئك) إلى « من » باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره (هم المفلحون) والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب . ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار ، ذكر ما ينبغى أن يقول من جاء بعدهم ، فقال (والذين جاءوا من بعدهم) وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، وقيل هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة ، لأنه يصدق على الكل أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار ، والموصول مبتدأ وخبره (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله (والذين تبوءوا الدار والإيمان) ، فيكون يقولون فى محل نصب على الحال ، أو متأنف لا محل له ، والمراد بالأخوة هنا أخوة الدين ، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين

والأنصار (ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) أى غشا وبغضا وحسدا . أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل في ذلك الصحابة دخولا أوليا لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية ، فإن وجد في قلبه غلا لهم فقد أصابه نزع من الشيطان وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجأ إلى الله سبحانه والاستغاثة به ، بأن ينزع عن قلبه ما طرقة من الغل لخير القرون وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم ، فقد انقاد للشيطان بزممام ووقع في غضب الله وسخطه ، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان وزين لهم الأكاذيب المختلفة والأقاصيص المقتراة والخرافات الموضوعة ، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور ، فاشترى الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الحسran العظيم بالربح الوافر ، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب الله وسنة رسوله وخير أمة وصالحى عبادته وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض الله وهجروا شعائر الدين ، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعى ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، والله من ورائهم محيط (ربنا إنك رؤوف رحيم) أى كثير الرأفة والرحمة بليغهما لمن يستحق ذلك من عبادك .

وقد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن سيئهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ؟ أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال : ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمة الله ، فقال رجل من الأنصار ، وفي رواية فقال أبو طلحة الأنصارى : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاتدخريه شيئا ، قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فتوئمين وتعالى فاطمى السراج ، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففعلت ، ثم غدا الضيف على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلاتة ، وأنزل فيهما (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الشعب عن ابن عمر قال : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأس شاة فقال : إن أنخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول ، فنزلت فيهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الشعب عن ابن مسعود أن رجلا قال : إني أخاف أن أكون قد هلك ، قال : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت الله يقول (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شيء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشح ، ولكنه البخل ولا خير فى البخل ، وإن الشح الذى

ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشر ، إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له . وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : من أدنى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه . وأخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما بحق الإسلام بحق الشح شيء قط . وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الشح . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : الناس على ثلاث منازل قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ (والذين جاءوا من بعدهم) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن عائشة قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية (والذين جاءوا من بعدهم) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرا عليه (للفقراء المهاجرين) الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون أفنهم أنت ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه (والذين تبوءوا الدار والإيمان) الآية . ثم قال : هؤلاء الأنصار أفانت منهم ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه (والذين جاءوا من بعدهم) الآية ، ثم قال : أفن هؤلاء أنت ؟ قال أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سب هؤلاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَذِيرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عِقَبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَقَدِّمَتَ لَغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٧)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠).

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ، ذكر ماجرى بين المنافقين واليهود من المناقولة لتعجيب المؤمنين من حالهم ، فقال (ألم تر إلى الذين نافقوا) والخطاب لرسول الله ، أو لكل من يصلح له ، والذين نافقوا هم عبد الله بن أبي وأصحابه ، وجملة (يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر ، واللام في لإخوانهم هي لام التبليغ ، وقيل هو من قول بني النضير لبني قريظة ، والأول أولى ؛ لأن بني النضير وبني قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم ، واللام في قوله (لئن أخرجتم) هي الموطئة للقسم : أي والله لئن أخرجتم من دياركم (لنخرجن معكم) هذا جواب القسم : أي لنخرجن من ديارنا في صحبتكم (ولا نطيع فيكم) أي في شأنكم ، ومن أجلكم (أحدا) ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله (أبدا) . ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنصرة لهم ، فقالوا (وإن قوتلتم لننصرنكم) على عدوكم . ثم كذبهم سبحانه فقال (والله يشهد إنهم لكاذبون) فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم . ثم لما أجل كذبهم فيما وعدوا به فصل ما كذبوا فيه فقال (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود وهم بنو النضير ومن معهم ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة وأهل خيبر (ولئن نصروهم) أي لو قدر وجود نصرهم إياهم ، لأن مانقاه الله لا يجوز وجوده . قال الزجاج : معناه لو قصدوا نصر اليهود (ليولن الأدبار) منهزمين (ثم لا ينصرون) يعني اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم ، وهم المنافقون ، وقيل يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم الله ولا ينفعهم نفاقهم ، وقيل معنى الآية : لا ينصرونهم طائعين ولئن نصروهم مكرهين ليولن الأدبار ، وقيل معنى لا ينصرونهم : لا يدومون على نصرهم ، والأول أولى ، ويكون من باب قوله - ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه - (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله) أي لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفا وخشية في صدور المنافقين ، أو صدور اليهود ، أو صدور الجميع من الله : أي من رهبة الله ، والرهبة هنا بمعنى المرهوية ، لأنها مصدر من المبني للمفعول ، وانتصابها على التمييز (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) أي ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم ، فهو أحق بالرهبة منه دونكم ، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فكان (لا يقاتلونكم جميعا) يعني لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرُونَ على ذلك (إلا في قرى محصنة) بالدروب والدور (أو من وراء جدر) أي من خلف الجدران التي يستترون بها لجبنهم ورهبتهم . قرأ الجمهور « جدر » بالجمع ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وابن كثير وأبو عمرو « جدار » بالإفراد . واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم لأنها موافقة لقوله قرى محصنة . وقرأ بعض المكيين « جلد » بفتح الجيم وإسكان الدال ، وهي لغة في الجدار (بأسهم بينهم شديد) أي بعضهم غليظ فظ على بعض وقلوبهم مختلفة ونياتهم متباينة . قال السدي : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يبتغوا هلي أمر واحد . وقال مجاهد : بأسهم بينهم شديد بالكلام

والوعيد ليفعلان كذا، والمعنى : أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس ، وإذا لاقوا عدوا ذلوا وخضعوا وانهمزوا ، وقيل المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب ، والأول أولى لقوله (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدة . ومعنى شتى متفرقة . قال مجاهد : يعني اليهود والمنافقين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . وروى عنه أيضا أنه قال : المراد المنافقون . وقال الثوري : هم المشركون وأهل الكتاب . قال قتادة : تحسبهم جميعا : أى مجتمعين على أمر ورأى : وقلوبهم شتى متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم ، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق . وقرأ ابن مسعود « وقلوبهم أشت » أى أشد اختلافا (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) أى ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئا ولو عقلوا لعرفوا الحق وانبعوه (كمثل الذين من قبلهم) أى مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، والمعنى : أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين (قريبا) يعنى في زمان قريب ، وانتصاب قريبا على الظرفية : أى يشبهونهم في زمن قريب ، وقيل العامل فيه ذاقوا : أى ذاقوا في زمن قريب ، ومعنى (ذاقوا وبال أمرهم) أى سوء عاقبة كفرهم في الدنيا بقتلهم يوم بدر ، وكان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل المراد بنو النضير حيث أمكن الله منهم ، قاله قتادة . وقيل قتل بنى تريظة ، قاله الضحاك . وقيل هو عام في كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأول أولى (ولهم عذاب أليم) أى في الآخرة . ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر فقال (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) أى مثلهم في تحاذلهم وعدم تناصرهم ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر آخر للمبتدأ المقدر قبل قوله (كمثل الذين من قبلهم) على تقدير حذف حرف العطف كما تقول : أنت عاقل ، أنت عالم ، أنت كريم . وقيل المثل الأول خاص باليهود ، والثاني خاص بالمنافقين . وقيل المثل الثاني بيان للمثل الأول . ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال (إذ قال للإنسان اكفر) أى أغراه بالكفر وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان ، وقيل هو عابد كان في بنى إسرائيل حملة الشيطان على الكفر فأطاعه (فلما كفر قال إني برىء منك) أى فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان . وقبولا لتزيينه قال الشيطان إني برىء منك . وهذا يكون منه يوم القيامة ، وجملة (إني أخاف الله رب العالمين) تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره . وقيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل ، والأول أولى . قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم ، قيل وليس قول الشيطان (إني أخاف الله) على حقيقته ، إنما هو على وجه التبرئ من الإنسان فهو تأكيد لقوله (إني برىء منك) قرأ الجمهور « إني » بإسكان الياء . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها (فكان عاقبتهما أنهما في النار) قرأ الجمهور « عاقبتهما » بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها أنهما في النار . وقرأ الحسن وعمر بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان ، والخبر ما بعده ، والمعنى فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار (خالدين فيها) قرأ الجمهور « خالدين » بالنصب على الحال . وقرأ ابن مسعود والأعمش وزيد بن علي وابن أبي عتبة « خالدان » على أنه خبر أن والظرف متعلق به (وذلك جزاء الظالمين) أى الخلود في النار جزاء الظالمين . ويدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا . ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) أى تنتظر أى شئ قدّمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد ، وقبل ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة (واتقوا الله) كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد (إن الله

خبير بما تعملون) لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) أى تركوا أمره ، أو ما قد روه حق قدره ، أو لم يخافوه ، أو جميع ذلك (فأنساهم أنفسهم) أى جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشتغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصى التى توقعهم فيه ، فى الكلام مضاف محذوف : أى أنساهم حظوظ أنفسهم . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ، وقيل نسوا الله فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد (أولئك هم الفاسقون) أى الكاملون فى الخروج عن طاعة الله (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) فى الفضل والرتبة ، والمراد الفريقان على العموم ، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى الله منهم دخولا أوليا ، ويدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوليا لأن السياق فيهم ، وقد تقدم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة ، وفى سورة السجدة ، وفى سورة ص . ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوى بينهم وبين أهل النار فقال (أصحاب الجنة هم الفائزون) أى الظافرون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه :

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ألم تر إلى الذين نافقوا) قال : عبد الله بن أبى سلول ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيطى ، وإخوانهم بنو النضير . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم فى الدلائل عنه أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبى ابن سلول ووديع بن مالك وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لانسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعير فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) قال : هم المشركون . وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه وأحمد فى الزهد وعبد ابن حميد والبخارى فى تاريخه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن على ابن أبى طالب أن رجلا كان يتعبد فى صومعة وأن امرأة كان لها إخوة ، فعرض لها شئ فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها ، فجاءوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إني أنا الذى زينتك فاسجد لى سجدة أنجيك ، فسجد له ، فذلك قوله (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) الآية . قلت : وهذا لا يدل على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدل على أنه من جملة من تصدق عليه . وقد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا ، وليس فيه ما يدل على أنه المقصود بالآية . وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (كمثل الشيطان) قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر .

لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ

الْمُهَيَّمِينَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِي
الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤).

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم ، وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة ، فقال (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الحرم خاشعا متصدعا : أي متشققا من خشية الله سبحانه خذرا من عقابه وخوفا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب ويدل على هذا قوله (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ وينزجروا بالزواجر ، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ، ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ، والخاشع الدليل المتواضع . وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي . ثم أخبر سبحانه برؤيته وعظمته ، فقال (هو الله الذي لا إله إلا هو) وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك (عالم الغيب والشهادة) أي عالم ما غاب من الإحساس وما حضر ، وقيل عالم السر والعلانية ، وقيل ما كان وما يكون ، وقيل الآخرة والدنيا ، وقد تم الغيب على الشهادة لكونه متقدما وجودا (هو الرحمن الرحيم) قد تقدم تفسير هذين الاسمين (هو الله الذي لا إله إلا هو) كرهه للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك (الملك القدوس) أي الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص ، والقدوس بالتحريك في لغة أهل الحجاز السطل ، لأنه يتطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء . قرأ الجمهور « القدوس » بضم القاف . وقرأ أبوذر وأبو السهالك بفتحها ، وكان سيويه يقول سبوح قدوس بفتح أولهما ، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابيا فصيحيا يقرأ « القدوس » بفتح القاف . قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقدوس ، فإن الضم فيهما أكثر ، وقد يفتحان (السلام) أي الذي سلم من كل نقص وعيب ، وقيل المسلم على عبادته في الجنة ، كما قال - سلام قولاً من رب رحيم - وقيل الذي سلم الخلق من ظلمه ، وبه قال الأكثر ، وقيل المسلم لعباده ، وهو مصدر وصف به للمبالغة (المؤمن) أي الذي وهب لعباده الأمن من عذابه ، وقيل المصدق لرسله بإظهار المعجزات ، وقيل المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب ، يقال آمنه من الأمن وهو ضد الخوف ، ومنه قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير بمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وقال مجاهد : المؤمن الذي وحده نفسه بقوله - شهد الله أنه لا إله إلا هو - . قرأ الجمهور « المؤمن » بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن . وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله - واختار موسى قومه - وقال أبو حاتم : لا يجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفا فأمته غيره (المهيم) أي

الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم . كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل : يقال هيمن يهيمن فهو مهيمن : إذا كان رقيباً على الشيء . قال الواحدي : وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، والأول أولى ، وقد قدمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة (العزيز) الذي لا يوجد له نظير ، وقيل القاهر ، وقيل الغالب غير المغلوب ، وقيل القوى (الجبار) جبروت الله عظمته ، والعرب تسمى الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر إذا أغنى الفقير وأصلح الكبير . ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذي جبر خلقه على ما أراد منهم . وبه قال السدي ومقاتل ، واختاره الزجاج والفراء ، قال : هو من أجبره على الأمر : أي قهره . قال : ولم أسمع فعلاً من أفعل إلا في جبار من أجبر ، ودراك من أدرك ، وقيل الجبار الذي لا تطاق سطوته (المتكبر) أي الذي تكبر عن كل نقص وتعظم عما لا يليق به ، وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد ، ومنه قول حميد بن ثور :

عفت مثل ما يعرف الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصعب وهي ذلول

والكبر في صفات الله مدح . وفي صفات المخلوقين ذم . قال قتادة : هو الذي تكبر عن كل سوء . قال ابن الأنباري : المتكبر ذو الكبرياء ، وهو الملك ، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين . فقال (سبحانه الله عما يشركون) أي عما يشركونه أو عن إشراكهم به (هو الخالق) أي المقدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته (الباري) أي المنشئ المخرع للأشياء الموجد لها . وقيل المميز لبعضها من بعض (المصور) أي الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل قال النابغة :

الخالق الباري المصور في ال أرحام ماء حتى يصير دما

وقرأ حاطب بن أبي بلتعة الصحابي المصور بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للباري : أي الذي برأ المصور : أي ميزه (له الأسماء الحسنى) قد تقدم بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله : والله الأسماء الحسنى فادعوه بها - (يدع له ما في السموات والأرض) أي ينطق بتثنيته بلسان الحال ، أو المقال كل ما فيهما (وهو العزيز الحكيم) أي الغالب لغیره الذي لا يغالبه مغالب ، الحكيم في كل الأمور التي تقتضي بها .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، في قوله (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) قال : يقول لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حماته إياه تصدع وخشع من ثقاه ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وأخرج الديلمي عن ابن مسعود وعلى مرقوعا في قوله (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) إلى آخر السورة قال : هي رقية الصداق . رواه الديلمي بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما . وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناده إلى إدريس ابن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإني قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلة هكذا إلى ابن مسعود فقال : فإني قرأت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فلما بلغت هذه الآية قال لي : ضع يدك على رأسك ، فإن جبريل لما نزل بها قال لي ضع يدك على رأسك ، فإنها شفاء من كل داء إلا السام ، والسام الموت . قال للذهبي : هو باطل . وأخرجه ابن السنني في عمل يوم ولية وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

أمر رجلاً إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال : إن متّ متّ شهيداً . وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكاً يطردون عنه شياطين الإنس والجنّ إن كان ليلاً حتى يصبح ، وإن كان نهاراً حتى يمسي » . وأخرج أحمد والدارمي والترمذي وحسنه والطبراني وابن الضريس والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » . قال الترمذي بعد إخراجها : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن عدى وابن مردويه والخطيب والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (عالم الغيب والشهادة) قال : السرّ والعلانية . وفي قوله (المؤمن) قال : المؤمن خلقه من أن يظلمهم ، وفي قوله (المهيمن) قال : الشاهد .

تفسير سورة الممتحنة

هي ثلاث عشرة آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازاً ؛ كما سميت سورة براءة الفاضحة لكشفها عن عيوب المنافقين ، وقيل الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول أضافه إلى المرأة التي نزلت فيها ، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، لقوله سبحانه - فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَشْقِفُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُفَصِّلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) .

قال المفسرون : نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم أولياء) في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ، وسيأتي ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله ، وقوله (عدوكم) هو المفعول الأول (وعدوكم) مفعول عليه ، والمفعول الثاني أولياء ، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لحرمهم ، والعدو مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، والآية تدل على النهي عن موالاته الكفار بوجه من الوجوه (تلقون إليهم بالموادة) أي توصلون إليهم بالموادة على أن الباء زائدة ، أو هي سببية . والمعنى : تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب الموادة التي بينكم وبينهم . قال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسرته بالموادة التي بينكم وبينهم ، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم ، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء ، وجملة (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) في محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار . قرأ الجمهور « بما جاءكم » بالباء الموحدة . وقرأ الجحدري وعاصم في رواية عنه « لما جاءكم » باللام : أي لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به : أي كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم (يخرجون الرسول وإياكم) الجملة مستأنفة لبيان كفرهم ، أو في محل نصب على الحال ، وقوله (أن تؤمنوا بالله ربكم) تعليل للإخراج : أي يخرجونكم لأجل إيمانكم ، أو كراهة أن تؤمنوا (إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى) جواب الشرط محذوف أي إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالموادة ، أو إن كنتم كذلك فلا تتخذوا عدوكم أولياء ، وانتصاب جهاداً وابتغاء على العلة : أي إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلى ولأجل ابتغاء مرضاتى ، وجملة (تسرون إليهم بالموادة) مستأنفة للتقريع والتوبيخ : أي تسرون إليهم الأخبار بسبب الموادة ، وقيل هي بدل من قوله : تلقون . ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فقال (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) والجملة في محل نصب على الحال : أي بما أضمرتم وما أظهرتم ، والباء في بما زائدة : يقال علمت كذا وعلمت بكذا ، هذا على أن أعلم مضارع ، وقيل هو أفعل تفضيل : أي أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) أي من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوكم وعدوكم أولياء ويلقى إليهم بالموادة فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضل عن قصد السبيل (إن يثقبوكم يكتفونوا لكم أعداء) أي إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ومنه المشاقفة ، وهي طلب مصادفة الغرة في المسابقة ، وقيل المعنى : إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) أي يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه ، وألسنتهم بالشتم ونحوه (وودوا لو تكفروا) هذا معطوف على جواب الشرط ، أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجع هذا أبو حيان ، والمعنى : أنهم تمنوا ارتدادهم وودوا رجوعهم إلى الكفر (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أي لا تنفعكم القربات على عمومها ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم والحنو عليهم ، والمعنى : أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة ، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم ، وجملة (يوم القيامة يفصل بينكم) مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم ومعنى (يفصل بينكم) يفرق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار . وقيل المراد بالفصل بينهم

أنه يفرّ كلّ منهم من الآخر من شدة الهول كما في قوله - يوم يفرّ المرء من أخيه - الآية . قيل ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله : أي لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه . ويبدأ بقوله (يفصل بينكم) والأولى أن يتعلق بما بعده كما ذكرنا (والله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك . قرأ الجمهور « يفصل » بضم الياء وتخفيف الفاء وفتح الصاد مبنيًا للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد . وقرأ عاصم بفتح الياء وكسر الصاد مبنيًا للفاعل . وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة . وقرأ علقمة بالنون . وقرأ قتادة وأبو خيرة بضم الياء وكسر الصاد مخففة .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عليّ بن أبي طالب قال : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا أخرجي الكتاب ، قالت ما معي من كتاب ، فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : صدق ، فقال عمر : دعني أضرب عنقه ، فقال : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . ونزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) . وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة ، وأن هذه الآيات إلى قوله (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم) نازلة في ذلك .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩).

لما فرغ سبحانه من النهي عن موالاة المشركين والذم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه ، فقال (قد كانت لكم أسوة حسنة) أى خصلة حميدة تقتدون بها : يقال لى به أسوة فى هذا الأمر : أى اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به فى ذلك إلا فى استغفاره لأبيه . قرأ الجمهور « أسوة » بكسر الهمزة : وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر القدوة ، ويقال هو أسوتك : أى مثلك وأنت مثله ، وقوله فى إبراهيم والذين معه متعلق بأسوة ، أو بحسنة ، أو هو نعت لأسوة ، أو حال من الضمير المستتر فى حسنة ، أو خبر كان ، ولكم للبيان ، والذين معه هم أصحابه المؤمنون . وقال ابن زيد : هم الأنبياء . قال الفراء : يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ، والظرف فى قوله (إذ قالوا لقومهم) هو خبر كان ، أو متعلق به : أى وقت قولهم لقومهم الكفار (إنا برآء منكم) جمع برىء ، مثل شركاء وشريك ، وظرفاء وظريف . قرأ الجمهور « برآء » بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ، ككرماء فى كريم . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف ، ككرام فى جمع كريم . وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف (ومما تعبئون من دون الله) وهى الأصنام (كفرنا بكم) أى بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً) أى هذا دأبنا معكم مادمت على كفركم (حتى تؤمنوا بالله وحده) وتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة والبغضاء محبة (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) هو استثناء متصل من قوله : فى إبراهيم بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه ، أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه ، أو من التبرى والقطيعة التى ذكرت : أى لم يواصله إلا قوله ، ذكر هذا ابن عطية ، أو هو منقطع : أى لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فلا تأتسوا به ، فاستغفرون للمشركين ، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظن أنه قد أسلم - فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه - وقد تقدم تحقيق هذا فى سورة براءة (وما أملك لك من الله من شيء) هذا من تمام القوم المستثنى : يعنى ما أغنى عنك وما أذفع عنك من عذاب الله شيئاً ، والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرن ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد ، فإنه إظهار للعجز وتفويض للأمر إلى الله ، وذلك من خصال الخير (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها ، وقيل هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول ، والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله ، والإنابة الرجوع ، والمصير المرجع ، وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) قال الزجاج : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيمتنوا بذلك . وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا (واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز) أى الغالب الذى لا يغالb (الحكيم) ذوالحكمة البالغة (لقد كان لكم فيهم أسوة

(حسنة) أى لقد كان لكم فى إبراهيم والذين معه قنوة حسنة ، وكرر هذا للبالغه والتأكيد ، وقيل إن هذا نزل بعد الأول بمدة (لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر) بدل من قوله لكم بدل بعض من كل ، والمعنى : أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع فى الخير من الله فى الدنيا وفى الآخرة (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى يعرض عن ذلك ، فإن الله هو الغنى عن خلقه الحميد إلى أوليائه (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) وذلك بأن يسلموا فبصبروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة ، وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم فى الإسلام مودة وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقررة إلى الله . وقيل المراد بالمودة هنا تزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمة حبيبة بنت أبي سفيان . ولا وجه لهذا التخصيص وإن كان من جملة ما صار سببا إلى المودة ، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح وما بعده (والله قدير) أى بانيغ القدرة كثيرا (والله غفور رحيم) أى بليغهما كثيرا . ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موادتهم فصل القول فيمن يجوز بره منهم ومن لا يجوز فقال (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) أى لا ينهاكم عن هؤلاء (أن تبرؤهم) هذا بدل من الموصول بدل اشتمال ، وكذا قوله (وتقسطوا إليهم) يقال أقسط إلى الرجل : إذا عاملته بالعدل . قال الزجاج : المعنى وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد (إن الله يحب المقسطين) أى العادلين ، ومعنى الآية : أن الله سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال ، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل . قال ابن زيد : كان هذا فى أول الإسلام عند المودة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ . قال قتادة : نسخها - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - وقيل هذا الحكم كان ثابتا فى الصلح بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم . وقيل هى خاصة فى حلفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن بينه وبينه عهد قاله الحسن . وقال الكلبي : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف . وقال مجاهد : هى خاصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وقيل هى خاصة بالنساء والصبيان . وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة . ثم بين سبحانه من لا يحل بره ولا العدل فى معاملته فقال (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم) وهم صناديد الكفر من قريش (وظاهروا على إخراجكم) أى عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم فى عهدهم ، وقوله (أن تولوهم) بدل اشتمال من الموصول كما سلف (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) أى الكاملون فى الظلم لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوا لله ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياء لهم .

وقد أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس (إلاقول إبراهيم لأبيه) قال : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، وقوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة) قال : فى صنيع إبراهيم كله إلا فى الاستغفار لأبيه ، وهو مشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا فى قوله (لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن مردويه عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب وفيه نزلت هذه الآية (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . وأخرج

ابن أبي حاتم عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبل فلقى ذا الحمار مرتداً ، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين . قال : وهو فيمن قال الله فيه (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن عدى وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال : كانت المودة التي جعل بينهم تزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فصارت أم المؤمنين ، فصار معاوية خال المؤمنين . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ثلاث أعطينهن ، قال نعم ، قال : تؤمري حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال نعم ، قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال نعم ، قال : وعندى أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزواجكم . وأخرج الطيالسي وأحمد والبخاري وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيبة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : ضباب وأقط وسمن وهي مشركة ، فأبى أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلى عن هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألته ، فأنزل الله (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين) الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي كانت بين قریش ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر قالت « أتتني أمي رغبة وهي مشركة في عهد قریش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأله وسلم أصلها ؟ فأنزل الله (لا ينهاكم الله) الآية ، فقال : نعم صلى أملك » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ..

لما ذكر سبحانه حكم فريق الكافرين في جواز البر والإقساط للفريق الأول دون الفريق الثاني ذكر حكم من يظهر الإيمان ، فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) من بين الكفار وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يردن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهن فقال (فامتنحنوهن) أى ناخبنوهن . وقد اختلف فيما كان يمتحن به ، فقيل كان يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا بل حبا لله ولرسوله ورغبة في دينه ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم زوجها مهرها ، وما أنفق عليها ولم يردّها إليه ، وقيل الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقيل ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الآية ، وهى - يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات - إلى آخرها .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا ؟ على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر . وعلى القول بعدمه لانسح ولا تخصيص (الله أعلم بإيمانهن) هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله سبحانه ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهن حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعواهن في الرغوب في الإسلام (فإن علمتموهن مؤمنات) أى علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذى أمرتم به (فلا ترجعوهن إلى الكفار) أى إلى أزواجهن الكافرين ، وجملة (لاهن حل لهن ولا هم يحلون لهن) تعليل للنهي عن إرجاعهن . وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحل لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرد هجرتها ، والتكثير لتأكيد الحرمة ، أو الأول لبيان زوال النكاح ، والثاني لامتناع النكاح الجديد (وآتوهم ما أنفقوا) أى وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهن من المهور . قال الشافعى : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن) لأنهن قد صرن من أهل دينكم (إذا آتيتوهن أجورهن) أى مهورهن ، وذلك بعد انقضاء عدتهن كما تدل عليه أدلة وجوب العدة (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) قرأ الجمهور « تمسكوا » بالتخفيف من الإمساك ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لقوله - فأمسكوهن بمعروف - وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد من التمسك ، والعصم جمع عصمة ، وهى ما يعتصم به ، والمراد هنا عصمة عقد النكاح . والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين . قال النخعي : هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوجون المسلمين ، والمسلمون يزوجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب . وقيل عامة في جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها . وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة . وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها (واسألوا

ما أنفقتم (أى اطلبوا مهور نسائكم اللاخقات بالكفار) (وليسألوا ما أنفقوا) قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت ردوا مهرها على زوجها الكافر (ذاكم حكم الله) أى ذاكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم الله ، وقوله (يحكم بينكم) فى محل نصب على الحال . أو مستأنفة (والله عليم حكيم) أى بليغ العلم لا تخفى عليه خافية بليغ الحكمة فى أقواله وأفعاله . قال القرطبي : وكان هذا مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين (وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار) لما نزلت الآية المتقدمة قال المسلمون : رضىنا بحكم الله وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا ، فنزل قوله (وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار) مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات ، وقيل المعنى : وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة (فعاقبتهم) قال الواحدى : قال المفسرون : فعاقبتهم فغنمتم . قال الزجاج : تأويله وكانت العقبي لكم : أى كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم (فأتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا) من مهر المهاجرة التى تزوجوها ودفعوه إلى الكفار ولا تؤتوه زوجها الكافر . قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا من النىء والغنيمة ، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح . وحاصل معناها أن « من أزواجكم » يجوز أن يتعلق بفاتكم أى من جهة أزواجكم ، ويراد بالشئ المهر الذى غزمه الزوج ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشئ . ثم يجوز فى شئ أن يراد به المهر ، ولكن لابد على هذا من مضاف محذوف : أى من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف ، وصفته ، ويجوز أن يراد بشئ النساء : أى نوع وصنف منهن ، وهو ظاهر قوله (من أزواجكم) وقوله (فأتوا الذين ذهب أزواجهم) والمعنى : أنهم يعطون من ذهب زوجته إلى المشركين فكفرت ولم يرد عليه المشركون مهرها كما حكم الله مثل ذلك المهر الذى أنفقه عليها من الغنيمة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى احذروا أن تمرضوا لشئ مما يوجب العقوبة عليكم ، فإن الإيمان الذى أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك) أى قاصدات لمبايعتك على الإسلام ، و (على أن لا يشركن بالله شيئا) من الأشياء كائنا ما كان ، هذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبائعهن ، فأمره الله أن يأخذ عليهن أن لا يشركن (ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن) وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات (ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن) أى لا يلحقن بأزواجهن ولدا ليس منهن . قال القرطبي : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدى منك فذلك البهتان المقترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعت الأم سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ، لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا (ولا يعصينك فى معروف) أى فى كل أمر هو طاعة لله . قال عطاء : فى كل بر وتقوى ، وقال مقاتلان : عنى بالمعروف النهى عن النوح ، وتمزيق الثياب ، وجز الشعر ، وشق الحبيب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم ، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه . قيل ووجه التقييد بالمعروف ، مع كونه صلى الله عليه وآله وسلم لا يأمر إلا به التنبية على أنه لا يجوز طاعة من فى معصية الخالق (فبائعهن) هذا جواب إذا ، والمعنى إذا بايعتك على هذه الأمور فبائعهن ، ولم يذكر فى بيعتهن الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ، وإنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء (واستغفر لهن الله) أى اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعات لهن منك (إن الله غفور رحيم) أى بليغ المغفرة والرحمة لعباده

(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) هم جميع طوائف الكفر، وقيل اليهود خاصة، وقيل المنافقون خاصة وقال الحسن : اليهود والنصارى . والأول أولى ، لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها (قد يئسوا من الآخرة) من لا ابتداء الغاية : أى أنهم لا يوقنون بالآخرة ألينة بسبب كفرهم (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أى كياسهم من بعث موتاهم لا اعتقادهم عدم البعث ، وقيل كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة ، لأنهم قد وقفوا على الحقيقة وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، فتكون « من » على الوجه الأول ابتدائية ، وعلى الثانى بيانية ، والأول أولى .

وقد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) حتى بلغ (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك . وأخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا ، وفيه وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهى عاتق ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (فامتنحنهن) قال : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا علموا أن ذلك حقا منهن لم يرجعن إلى الكفار وأعطى بعلمها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صداقها الذى أصدقها وأحلهن للمؤمنين إذا آتوهن أجورهن . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، فكان من أسلم من نساءهم ، فسئلت ما أخرجك ؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها ورغبة عنه ردت ، وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت وردت على زوجها مثل ما أنفق ، وأخرج ابن أبى أسامة والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى في الكبير وابن مردويه بسند حسن كما قال السيوطى عن ابن عباس في قوله (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنهن) قال : كان إذا جاءت المرأة النبی صلى الله عليه وآله وسلم حلقها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله . وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل الله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى والترمذى وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية (يا أيها النبی إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) إلى قوله (غفور رحيم) فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قد بايعتك كلاما ، والله مامست يده يد امرأة قط من المبايعات ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت : « أتيت النبی صلى الله عليه وآله وسلم في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئا حتى بلغ - ولا يعصينك في معروف - فقال : فيما استطعتن وأطقتن ، فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء ، إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » وفي الباب أحاديث . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبی صلى الله عليه وآله وسلم فقال « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، وقرأ آية النساء ، فمن وفى منكم فأجره على »

الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريح عن ابن عباس في قوله (ولا يأتين بهتان يفتريه) قال : كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية . قال لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن (ولا يعصينك في معروف) قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء . وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت : قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ قال « لا تنحن » ، قلت : يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمى لا بد لي من قضائهن ، فأبى عليّ فعاودته مرارا فأذن لي في قضائهن ، فلم أنح بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أم عطية قالت : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرا علينا أن لا نشرك بالله شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها فلم يقل لها شيئا . فذهبت ثم رجعت فقالت : ما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأم العلاء وبنت أبي سبرة امرأة معاذ أو بنت أبي سبرة وامرأة معاذ » . وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن النوح . وأخرج أبو إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن عمرو وزيد بن الحارث يود أن رجلا من اليهود ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) الآية . وأخرج القرطبي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله (قد يئسوا من الآخرة) قال : فلا يؤمنون بها ولا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات وعابن ثوابه واطلع عليه وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يعيهم الله .

تفسير سورة الصف

هي أربع عشرة آية

وهي مدنية . قال الماوردي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بالمدينة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الصف بمكة ، ولعل هذا لا يصح عنه ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فأم يقيم أحد منا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلينا رجلا رجلا فجمعنا ، فقرا علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها ، وأخرجه ابن أبي حاتم ، وقال في آخره : فنزلت فيهم هذه السورة . وأخرجه أيضا الترمذي وابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين والبيهقي في الشعب والسنن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ يُنِينَ مَرُصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩).

قوله (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) قد تقدم الكلام على هذا ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة ، وفي بعضها بلفظ المضارع ، وفي بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد (وهو العزيز الحكيم) أي الغالب الذي لا يغالب : الحكيم في أفعاله وأقواله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ : أي لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه ، ولم مركبة من اللام الجارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها كما في نظائرها ، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) أي عظم ذلك في المقت ، وهو البغض ، والمقت والمتاة مصدران ، يقال رجل مقت وممقوت : إذا لم يحبه الناس قال الكسائي (أن تقولوا) في موضع رفع ، لأن كبر فعل بمعنى بثس ، ومقتاً منتصب على التمييز ، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم منسب بالنكرة ، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم ، ويجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء ، وخبره الجملة المتقدمة عليه ، أو خبره محذوف أو هو خبر مبتدأ محذوف . وقيل إنه قصد بقوله كبر التعجب ، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب . وقيل إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب ، بل هو مسند إلى أن تقولوا ، ومقتاً تمييز محوّل عن الفاعل (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله ولو ذهب فيه أموالنا وأنفسنا . فأنزل الله (إن الله يحب الذين يقاتلون) الآية ، وانتصاب صفا على المصدرية ، والمفعول محذوف : أي يصفون أنفسهم

صفا ، وقيل هو مصدر في موضع الحال : أى صافين أو مصفوفين . قرأ الجمهور « يقاتلون » على البناء للفاعل .
 وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول وقرئ « يقتلون » بالتشديد ، وجملة (كأنهم بنيان مرصوص) في محل نصب
 على الحال من فاعل يقاتلون ، أو من الضمير في صفا على تقدير أنه مؤول بصافين أو مصفوفين ، ومعنى
 مرصوص : ملتزم بعضه ببعض ، يقال رصصت البناء أرصه رصا : إذا ضمنت بعضه إلى بعض . قال الفرّاء :
 مرصوص بالرصا ص . قال المبرد : هو مأخوذ من رصصت البناء : إذا لايمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة
 واحدة ، وقيل هو من الرصيص ، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، والتراص : التلاصق (وإذا قال موسى
 لقومه) لما ذكر سبحانه أنه يحبّ المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله
 وحلّ العقاب بمن خالفهما ، والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر : أى اذكر يا محمد هؤلاء المعرضين وقت قول
 موسى ، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى
 الله عليه وآله وسلم أن يفتروا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما (يا قوم لم تؤذوني) هذا مقول القول :
 أى لم تؤذوني بمخالفة ما أمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم ، أو لم تؤذوني بالشتم والانتقاص ، ومن
 ذلك رمية بالأدرة ، وقد تقدّم بيان هذا في سورة الأحزاب ، وجملة (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) في محلّ
 نصب على الحال ، وقد لتحقق العلم أو لتأكيد ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، والمعنى : كيف
 تؤذوني مع علمكم بأنى رسول الله ، والرسول يحترم ويعظم ، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من
 المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالي ، وتفيدكم العلم بها علما يقينيا (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أى
 لما أصروا على الزيغ واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وصرفها عن قبول الحق ، وقيل فلما زاغوا
 عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب . قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه ، يعنى أنهم لما
 تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا (والله لا يهدي القوم الفاسقين) هذه الجملة
 مقرّرة لمضمون ما قبلها . قال الزجاج : لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق ، والمعنى : أنه لا يهدي كل متصف
 بالفسق وهؤلاء من جعلهم (وإذا قال عيسى بن مريم) معطوف على (وإذا قال موسى) معمول لعامله ، أو معمول
 لعامل مقدّر معطوف على عامل الظرف الأول (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة)
 أى إني رسول الله إليكم بالإنجيل مصدقا لما بين يدي من التوراة لأنى لم آتكم بشيء يخالف التوراة ، بل هي
 مشتملة على التبشير بي ، فكيف تنفرون عني وتخالفوني ، وانتصاب مصدقا على الحال ، (و) كذا (مبشرا) ،
 والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال ، والمعنى : أنى أرسلت إليكم حال كونى مصدقا لما بين يدي من
 التوراة ومبشرا بمن يأتى بعدى ، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبى ، وأحمد اسم نبينا
 صلى الله عليه وآله وسلم وهو علم منقول من الصفة ، وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه
 أكثر حمدا لله من غيره ، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره . قرأ
 نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمي وزرّ بن حبيش وأبو بكر عن عاصم (من بعدى) بفتح الياء . وقرأ الباقون
 بإسكانها (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) أى لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذى جاءنا به سحر
 واضح ظاهر ، وقيل المراد محمد صلى الله عليه وآله وسلم أى لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة ، والأول أولى .
 قرأ الجمهور « سحر » وقرأ حمزة والكسائي « ساحر » (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام)
 أى لا أحد أكثر ظلما منه حيث يفترى على الله الكذب ، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذى هو خير الأدیان

وأشرفها ، لأن من كان كذلك فحقه أن لا يفترى على غيره الكذب ، فكيف يفترى على ربه . قرأ الجمهور « وهو يدعى » من الدعاء مبنيًا للمفعول . وقرأ طلحة بن مصرف « يدعى » بفتح الياء وتشديد الدال من الادعاء مبنيًا للفاعل ، وإنما عدى بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب (والله لا يهدى القوم الظالمين) هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها . والمعنى : لا يهدى من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) الإطفاء : الإخماد ، وأصله في النار ، واستعير لما يجري مجراها من الظهور . والمراد بنور الله القرآن : أى يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، أو الإسلام ، أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو الحجج والدلائل ، أو جميع ما ذكر ، ومعنى بأفواههم : بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن (والله متم نوره) باظهار في الآفاق وإعلائه على غيره . قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم « متم نوره » بالإضافة والباقون بتنوين متم (ولو كره الكافرون) ذلك فإنه كائن لا محالة ، والجملة في محل نصب على الحال . قال ابن عطية : واللام في ليطفئوا لام مؤكدة دخلت على المنعول ، لأن التقدير : يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المنعول إذا تقدم ، كقولك : لزيد ضربت ، ولرويتك قصدت ، وقيل هي لام العلة ، والمنعول محذوف : أى يريدون إبطال القرآن أو دفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا ، وقيل إنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة بنفسها . قال القراء : العرب تجعل لام كى في موضع أن في أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائي ، ومثل هذا قوله يريد الله ليعين لكم - وجملة (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) مستأنفة مقررة لما قبلها ، والهدى القرآن أو المعجزات ، ومعنى دين الحق : الملة الحققة ، وهى ملة الإسلام ، ومعنى ليظهره : ليجعله ظاهرًا على جميع الأديان عالياً عليها غالباً لها ولو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة . قال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام ، والدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة ، وجواب لو في الموضعين محذوف ، والتقدير أنهم هو أظهره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن أحب الأعمال إيمان بالله لاشك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في قوله (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) قال : هذه الآية في القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفي ولم يفعلوا ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عنه أيضاً قال : قالوا لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه فأخبرهم الله فقال (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ففكروا ذلك ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً (كأنهم بنيان مرصوص) قال : مثبت لا يزول ملصق ببعضه على بعض . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الله الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب : والعاقب الذى ليس بعده نبي » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاذْكُرْ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

قوله (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار . قرأ الجمهور « تنجيكم » بالتخفيف من الإنجاء . وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة بالتشديد من التنجية . ثم بين سبحانه هذه التجارة التي دل عليها فقال (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهلون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وهو خبر في معنى الأمر للإيدان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ، وقد تم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد . قرأ الجمهور « تؤمنون » وقرأ ابن مسعود « آمنوا وجاهدوا » على الأمر . قال الأخفش : تؤمنون عطف بيان لتجارة ، والأولى أن تكون الحملة مستأنفة مهيئة لما قبلها ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد ، وهو مبتدأ وخبره (خير لكم) أي هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم (إن كنتم تعلمون) أي إن كنتم ممن يعلم فإنكم تعلمون أنه خير لكم ، لا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لاتعلمون ذلك (يغفر لكم ذنوبكم) هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الجزم ، ولهذا جزم . قال الزجاج والمبرد : قوله « تؤمنون » في معنى آمنوا ، ولذلك جاء يغفر لكم مجزوما . وقال النجاشي : يغفر لكم جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام ، وقد غلطه بعض أهل العلم . قال الزجاج : ليسوا إذا دهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال الرازي في توجيه قول النجاشي : إن هل أدلكم في معنى الأمر عنده ، يقال هل أنت ساكت : أي اسكت ، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام ، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضا وحثا ، والحث كالإغراء ، والإغراء أمر . وقرأ زيد بن علي « تؤمنوا ، وتجاهدوا » على إضمار لام الأمر . وقيل إن « يغفر لكم » مجزوم بشرط مقدر : أي إن تؤمنوا يغفر لكم ، وقرأ بعضهم بالإدغام في يغفر لكم ، والأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه في اللام (ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) قد تقدم بيان كيفية جري الأنهار من تحت الجنات (وما كن طيبة في جنات عدن) أي في جنات إقامة (ذلك الفوز العظيم) أي ذلك المذكور من المغفرة ، وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذي لا فوز بعده ، والظفر الذي لا ظفر يماثله (وأخرى تحبونها) . قال الأخفش والقرطبي : أخرى معطوفة على تجارة فهي في محل خفض : أي وهل أدلكم على خصلة

أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة ، وقيل هي في محل رفع : أى ولكم خصلة أخرى ، وقيل في محل نصب : أى ويعطيكم خصلة أخرى . ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال (نصر من الله وفتح قريب) أى هي نصر من الله لكم ، وفتح قريب يفتحه عليكم ، وقيل نصر بدل من أخرى على تقدير كونها في محل رفع ، وقيل التقدير : ولكم نصر وفتح قريب . قال الكلبي : يعنى النصر على قريش وفتح مكة . وقال عطاء : يريد فتح فارس والروم (وبشر المؤمنين) معطوف على محذوف : أى قل يا أيها الذين آمنوا وبشر ، أو على تؤمنون لأنه في معنى الأمر ، والمعنى : وبشر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح ، أو وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح ، وبالجنة في الآخرة ، أو وبشرهم بالجنة في الآخرة . ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرته دينه فقال (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) أى دوموا على ما أنتم عليه من نصرته الدين . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع « أنصار الله » بالتثنية وترك الإضافة . وقرأ الباقر بالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معا ، واختار أبو عبيد قراءة الإضافة لقوله « نحن أنصار الله » بالإضافة (كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله) أى انصروا دين الله مثل نصرته الحواريين لما قال لهم عيسى (من أنصاري إلى الله) فقالوا (نحن أنصار الله) والكاف في « كما قال » نعت مصدر محذوف تقديره : كونوا كونا كما قال ، وقيل الكاف في محل نصب على إضمار الفعل ، وقيل هو كلام محمول على معناه دون لفظه ، والمعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله . وقوله (إلى الله) قيل إلى بمعنى مع : أى من أنصاري مع الله ، وقيل التقدير : من أنصاري فيما يقرب إلى الله . وقيل التقدير : من أنصاري متوجها إلى نصرته الله ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران . والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه ، وأول من آمن به ، وقد تقدم بيانهم (فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة) أى آمنت طائفة بعيسى وكفرت به طائفة ، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) أى قوينا المحقين منهم على المبطلين (فأصبحوا ظاهرين) أى عاين غالبين ، وقيل المعنى : فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعا .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قالوا : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فنزلت (يا أيها الذين آمنوا هل أداكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) فكرهوا فنزلت - يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون - إلى قوله - بنيان مرصوص - . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) قال : قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه . وأخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة « أخرجوا إلى اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم » . وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنقباء « إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل قومي ، قالوا نعم » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (فأيدنا الذين آمنوا) قال : فقوينا الذين آمنوا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه فأيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته على عدوهم فأصبحوا اليوم ظاهرين .

تفسير سورة الجمعة

هي إحدى عشرة آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مروه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج مسلم وأهل السنن عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الجمعة سورة الجمعة - وإذا جاءك المنافقون - . وأخرج مسلم وأهل السنن عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن حبان والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة - قل يا أيها الكافرون - . وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِشَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) .

قوله (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) قد تقدم تفسير هذا في أول سورة الحديد ، وما بعدها من المسبحات (الملك القدوس العزيز الحكيم) قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله ، وقيل على البدل ، والأول أولى . وقرأ أبو وائل بن محارب وأبو العالية ونصر بن عاصم وروثة بالرفع على إضمار مبتدأ ، وقرأ الجمهور « القدوس » بضم القاف ، وقرأ زيد بن علي بفتحها ، وقد تقدم تفسيره (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) المراد بالأميين العرب ، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ،

والأُمِّيَّ في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب كذلك ، وقد مضى بيان معنى الأُمِّيَّ في سورة البقرة ، ومعنى « منهم » من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم وما كان حتى من أحياء العرب إلا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم قرابة ، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه (يتلوا عليهم آياته) يعني القرآن مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم ذلك من أحد ، والجملة صفة لرسولا ، وكذا قوله (ويزكيهم) قال ابن جريج ومقاتل : أى يطهرهم من دنس الكفر والذنوب ، وقال السدسى : يأخذ زكاة أموالهم ، وقيل يجعلهم أزكيا القلوب بالإيمان (ويعلمهم الكتاب والحكمة) هذه صفة ثالثة لرسولا ، والمراد بالكتاب القرآن ، وبالحكمة السنة ، كذا قال الحسن . وقيل الكتاب الخط بالقلم ، والحكمة الفقه في الدين ، كذا قال مالك بن أنس (وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) أى وإن كانوا من قبل بعثته فيهم في شرك وذهاب عن الحق (وآخرين منهم) معطوف على الأميين : أى بعث في الأميين ، وبعث في آخرين منهم (لما يلحقوا بهم) ذلك الوقت ، وسيلحقون بهم من بعد ، أو هو معطوف على المفعول الأول في يعلمهم ، أى ويعلم آخرين ، أو على مفعول يزكيهم : أى يزكيهم وآخرين منهم ، والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل المراد بهم من أسلم من غير العرب . وقال عكرمة : هم التابعون . وقال مجاهد : هم الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدسى : وجملة (لما يلحقوا بهم) صفة لآخرين ، والضمير في منهم ولهم راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتى بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان مرسلًا إلى جميع الثقليين ، فتخصيص العرب هاهنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لا ينافى عموم الرسالة ، ويجوز أن يراد بالآخرين العجم لأنهم وإن لم يكونوا من العرب ، فقد صاروا بالإسلام منهم والمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم (وهو العزيز الحكيم) أى بليغ العزة والحكمة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره . وقال الكلبي : يعنى الإسلام . وقال قتادة : يعنى الوحي والنبوة . وقيل إلحاق العجم بالعرب ، وهو مبتدأ وخبره (فضل الله يوثيه من يشاء) أى يعطيه من يشاء من عباده (والله ذو الفضل العظيم) الذى لا يساويه فضل ولا يدانيه (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً فقال (مثل الذين حملوا التوراة) أى كلفوا القيام بها والعمل بما فيها (ثم لم يحملوها) أى لم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها (كمثل الحمار يحمل أسفارا) هى جمع سفر وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ . قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبل ؟ فهكذا اليهود . وقال الجرجاني : هو يعنى حملوا من الحماله بمعنى الكفالة : أى ضمنوا أحكام التوراة ، وقوله : يحمل فى محل نصب على الحال ، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حمارا معينا ، فهو فى حكم النكرة كما فى قول الشاعر :

ولقد أمر على اللثيم بسبني فضيت ثم وقلت لا يعنيني

(بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أى بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، على أن التمييز محذوف ، والفاعل المفسر به مضمرة ، ومثل القوم هو المخصوص بالذم ، أو مثل القوم فاعل بئس ، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف مضاف : أى مثل الذين كذبوا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون فى محل جر ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء (والله لا يهدي القوم الظالمين) يعنى على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوليا (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله

من دون الناس) المراد بالذين هادوا الذين تهودوا ، وذلك أن اليهود ادّعوا الفضيلة على الناس ، وأنهم أولياء الله من دون الناس ، كما في قولهم - نحن أبناء الله وأحباؤه - وقولهم - إن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى - فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادّعوا هذه الدعوى الباطلة (فتمنوا الموت) لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة في زعمكم (إن كنتم صادقين) في هذا الزعم ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار . قرأ الجمهور « فتمنوا » بضم الواو ، وقرأ ابن السمين بفتحها تخفيفا ، وحكى الكسائي إبدال الواو هزة . ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم فقال (ولا يتمونه أبدا بما قدمت أيديهم) أى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي والتحريف والتبديل (والله عليم بالظالمين) يعنى على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوليا . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم وأنه نازل بهم فقال (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) لا محالة ونازل بكم بلا شك ، والفاء فى قوله « فإنه » داخله لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج : لا يقال إن زيدا فنطلق ، وهاهنا قال : فإنه ملاقيكم لما فى معنى الذى من الشرط والجزاء : أى إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه ، وقيل إنها مزيدة ، وقيل إن الكلام قد تمّ عند قوله « تفرون منه » ثم ابتداء فقال « فإنه ملاقيكم » (ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة) وذلك يوم القيامة (فينبشكم بما كنتم تعملون) من الأعمال القبيحة ويجازيكم عليها .

وقد أخرج ابن المنذر والحاكم والبيهقى فى الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) أول سورة الجمعة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب » وأخرج البخارى وغيره عن أبي هريرة قال « كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال له رجل : يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسى وقال : والذى نفسى بيده لو كان الإيمان باثريا لئله رجال من هؤلاء . وأخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ « لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس ، أو قال من أبناء فارس » . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عباد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو كان الإيمان بالثريا لئله ناس من أهل فارس » . وأخرج الطبرانى وابن مردويه والضياء عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن فى أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) وهو العزيز الحكيم » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) قال : للدين . وأخرج عبد ابن حميد من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) قال : اليهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا فى قوله (أسفارا) قال : كتبنا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا

أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الرَّازِقِينَ (١١) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تودى للصلاة) أى وقع النداء لها ، والمراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ، لأنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نداء سواه ، وقوله (من يوم الجمعة) بيان لإذا وتفسير لها . وقال أبو البقاء : إن من بمعنى فى كما فى قوله - أرونى ماذا خلقوا من الأرض - أى فى الأرض . قرأ الجمهور « الجمعة » بضم الميم . وقرأ عبد الله بن الزبير والأعمش بإسكانها تخفيفا . وهما لغتان وجمعها جمع وجمعات . قال الفراء : يقال الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها . وهى صفة لليوم : أى يوم يجمع الناس . قال الفراء أيضا وأبو عبيد : والتخفيف أخف وأقيس ، نحو : غرفة وغرف وطرفة وطرف وحجرة وحجر . وفتح الميم لغة عقيل . وقيل إنما سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم ، وقيل لأن الله فرغ فيها من خلق كل شئ . فاجتمعت فيها جميع المخلوقات ، وقيل لاجتماع الناس فيها للصلاة (فاسعوا إلى ذكر الله) قال عطاء : يعنى الذهاب والمشي إلى الصلاة . وقال الفراء : المضى والسعى والذهاب فى معنى واحد ، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود - فامضوا إلى ذكر الله - وقيل المراد القصد . قال الحسن : والله ما هو سعى على الأقدام ، ولكنه قصد بالقلوب والنيات ، وقيل هو العمل كقوله - من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن - وقوله - إن سعيكم لشتى - وقوله - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ، ومنه قول زهير :

• سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم •

وقال أيضا سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تنزل ما بين العشيرة بالدم
أى فاعملوا على المضى إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، ويؤيد هذا القول قول الشاعر :
أسعى على جل بنى مالك كل امرئ فى شأنه ساعى
(وذروا البيع) أى اتركوا المعاملة به ويلحق به سائر المعاملات . قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع ، والإشارة بقوله (ذلكنم) إلى السعى إلى ذكر الله وترك البيع ، وهو مبتدأ وخبره (خير لكم) أى خير لكم من فعل البيع وترك السعى لما فى الامثال من الأجر والجزاء . وفى عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة (إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم من أهل العلم ، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم (فإذا قضيت الصلاة) أى إذا فعلتم الصلاة وأدبتموها وفرغتم منها (فانتشروا فى الأرض) للتجارة والتصرف فيها يحتاجون إليه من أمر معاشكم (وأبتغوا من فضل الله) أى من رزقه الذى يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح فى المعاملات والمكاسب ، وقيل المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات واجتناب ما لا يحل (واذكروا الله كثيرا) أى ذكرا كثيرا بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخرى والدينى ، وكذا اذكروه بما يقربكم إليه من الأذكار ، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك (لعلكم تفلحون) أى كى تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به (وإذا رأوا تجارة أو هوا انفضوا إليها وتركوك قائما) سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة ، فأقبلت غير من الشام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد . ومعنى « انفضوا إليها » تفرقوا خارجين إليها . وقال المبرد : مالوا إليها ، والضمير للتجارة ، وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهم عندهم ، وقيل التقدير : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو هوا انفضوا إليه ، فحذف الثانى للدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل إنه اقتصر على ضمير التجارة ، لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموماً مع الحاجة إليها فكيف بالانفضاض إلى اللهو ، وقيل غير ذلك (وتركوك قائماً) أى على المنبر : ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا فقال (قل ما عند الله) يعنى من الجزاء العظيم وهو الجنة (خير من اللهو ومن التجارة) اللذين ذهبتم إليهما وتركتم البقاء في المسجد وسماع خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأجلها (والله خير الرازيين) فنه اطلبوا الرزق ، وإليه ترسلوا بعمل الطاعة ، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن أبي هريرة قال « قلت يا رسول الله لآى شيء سمي يوم الجمعة ؟ قال : لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له » . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أتدرى ما يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاث مرات ثم قال في الثالثة : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم أفلاً أحدكم عن يوم الجمعة » الحديث . وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم .

وورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفي الساعة التي فيها ، وأنه يستجاب الدعاء فيها ، وقد أوضحت ذلك في شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره . وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن خرشة بن الحر قال : رأى معى عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت أبى بن كعب ، قال : إن أبيأ أقرأنا للمنسوخ أقرأها « فامضوا إلى ذكر الله » وروى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما تقرأ هذه الآية التي في سورة الجمعة إلا « فامضوا إلى ذكر الله » وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأم وعبد الرزاق والفرجاني وابن جرير وابن أبي حاتم . وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « فامضوا إلى ذكر الله » قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي . وأخرج عبد بن حميد عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد ابن حميد عن ابن عباس (فاسعوا إلى ذكر الله) قال : فامضوا . وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعي العمل . وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب : أن رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانا يختلفان في تجارتها إلى الشام ، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب فيدعونه ويقومون ، فنزلت الآية (وذروا البيع) فحرم عليهم ما كان قبل ذلك . وأخرج ابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » قال : ليس لطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ في الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : « بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت غير المدينة ، فابتدروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم

وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) إلى آخر السورة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال : جاءت غير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام ، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائما على المنبر ، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو خرجوا كلهم لا يضطرم المسجد عليهم نارا . وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم .

تفسير سورة المنافقين

هي إحدى عشرة آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة المنافقين بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط . قال السيوطي بسند حسن عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها على المؤمنين ، وفي الثانية سورة المنافقين فيقرع بها المنافقين . وأخرج البزار والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعا نحوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٨) يَقُولُونَ

لَسْنَا زَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨).

قوله (إذا جاءك المنافقون) أى إذا وصلوا إليك وحضروا مجلسك ، وجواب الشرط قالوا ، وقيل محذوف ، وقالوا حال ، والتقدير : جاءوك قائلين كيت وكيت فلا تقبل منهم ، وقيل الجواب - اتخذوا أيمانهم جنة - وهو بعيد (قالوا نشهد إنك لرسول الله) أكدوا شهادتهم بأن واللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم ، والمراد بالمنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه ، ومعنى نشهد نخلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، ومن هذا قول قيس بن ذريح :

وأشهد عند الله أنى أحبها فهذا لها عندى فما عندها ليا

ومثل نشهد نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم كما فى قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتين منى إن المنايا لاتطيش سهامها

وجملة (والله يعلم إنك لرسوله) معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهره من الشهادة ، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد ؛ لا إلى منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حق ، والمعنى : والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنته كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب وموافقة باطن لظاهر (اتخذوا أيمانهم جنة) أى جعلوا حلفهم الذى حلفوا لكم به إنهم بانكم وإن محمدا لرسول الله وقاية تقيهم منكم وسيرة يستترون بها من القتل والأسر ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، وقد تقدم قول من قال إنها جواب الشرط . قرأ الجمهور «أيمانهم» بفتح الهمزة ، وقرأ الحسن بكسرها ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة المجادلة (فصدوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح فى النبوة . هذا معنى الصد الذى بمعنى الصرف ، ويجوز أن يكون من الصدود : أى أعرضوا عن الدخول فى سبيل الله وإقامة أحكامه (إنهم ساء ما كانوا يعملون) من النفاق والصد ، وفى ساء معنى التعجب والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره من الكذب والصد وقبح الأعمال ، وهو مبتدأ وخبره (بأنهم آمنوا) أى بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقا (ثم كفروا) فى الباطن ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين ، وهذا صريح فى كفر المنافقين ، وقيل نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدوا . والأول أولى كما يفيد السياق (فطبع على قلوبهم) أى ختم عليها بسبب كفرهم . قرأ الجمهور «فطبع» على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعينه ، وقرأ زيد بن على على البناء للفاعل ، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، ويدل على هذا قراءة الأعمش «فطبع الله على قلوبهم» (فهم لا يفقهون) مافيه من صلاحهم ورشادهم وهو الإيمان (وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم) أى هيئاتهم ومناظرهم ، يعنى أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرواق (وإن يقولوا تسمع لقولهم) فتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وقد كان عبد الله بن أبى رأس المنافقين فصيحاً جميلاً ، وكان يحضر مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا قال سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقالة . قال الكلبي : المراد عبد الله بن أبى وجدة بن قيس ، ومعتب بن قيس كلنت لهم أجسام

ومنظر وفصاحة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل لكل من يصلح له ، ويدل عليه قراءة من قرأ
يسمع على البناء للمفعول ، وجملة (كأنهم خشب مسندة) مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الوائى
وتروق الناظر ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على أنها خبر مبتلة محذوف ، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لا تفهم ولا تعلم ، وهم كذلك
لخلوهم عن الفهم النافع والعلم الذى ينفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور ، ثم أعلم أنهم فى ترك
الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب . قرأ الجمهور « خشب » بضمين ، وقرأ أبو عمرو والكسائى وقبيل بإسكان
الشين ، وبها قرأ البراء بن عازب ، واختارها أبو عبيد لأن واحدتها خشبة كبدة وبدن ، واختار القراءة الأولى
أبو حاتم . وقرأ سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب بفتحين ، ومعنى مسندة أنها أسندت إلى غيرها ، من قولهم :
أسندت كذا إلى كذا ، والتشديد للتكثير . ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال (يحسبون كل صيحة عليهم) أى
يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفى المفعول الثانى للحسبان
وجهان : أحدهما أنه عليهم ، ويكون قوله (هم العدو) جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم
يظهرون غير مايطنون ، والوجه الثانى أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله (هم العدو) ، ويكون قوله (عليهم)
متعلقا بصيحة ، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدو ، والوجه الأول أولى .
قال مقاتل والسدى : أى إذا نادى مناد فى العسكر أو انفلت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون لما
فى قلوبهم من الرعب ، ومن هذا قول الشاعر :

مازلت تحسب كل شىء بعدهم خيلا تكرّ عليهم ورجالا

وقيل كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيع دماءهم وأموالهم . ثم أمر الله سبحانه
رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال (فاحذرهم) أن يتمكنوا من فرصة منك أو يطلعوا على شىء من أسرارك لأنهم
عيون لأعدائك من الكفار . ثم دعا عليهم بقوله (قاتلهم الله أنى يوفكون) أى لعنهم الله ، وقد تقول العرب هذه
الكلمة على طريقة التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا ، بل المراد ذمهم
وتوبيخهم ، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عز وجل أن يلعنهم ويخزيهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن
يقولوا ذلك ؛ ومعنى (أنى يوفكون) كيف يصرفون عن الحق ويميلون عنه إلى الكفر . قال قتادة : معناه يعدلون
عن الحق . وقال الحسن معناه يصرفون عن الرشد (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله) أى إذا قال لهم القائل
من المؤمنين قد نزل فيكم ما نزل من القرآن فتوبوا إلى الله ورسوله وتعالوا يستغفر لكم رسول الله (لو أرادهم)
أى حركوها استهزاء بذلك . قال مقاتل : عطفوا رعوهم رغبة عن الاستغفار . قرأ الجمهور « لوأ » بالتشديد .
وقرأ نافع بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد (ورأيهم يصدون) أى يعرضون عن قول من قال لهم :
تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، أو يعرضون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجملة (وهم مستكبرون)
فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى ، وهى يصدون ، لأن الرواية بصرية فيصدون فى محل نصب على
الحال ، والمعنى : ورأيهم صادق مستكبرين (سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أى الاستغفار وعلمه
سواء لا يفتحهم ذلك لإصرارهم على النفاق واستمرارهم على الكفر . قرأ الجمهور « أاستغفرت » بهمزة مفتوحة من غير
مد ، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها . وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف (لن يغفر الله لهم) أى
ماداموا على النفاق (إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) أى الكاملين فى الخروج عن الطاعة والانهمالك فى معاصى الله ،

ويدخل فيهم المنافقون دخولاً أولياً . ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) أى حتى يتفرقوا عنه ، يعنون بذلك فقراء المهاجرين ، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم ، أو لعدم مغفرة الله لهم . قرأ الجمهور « ينفضوا » من الانفضاض ، وهو التفرق ، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي « ينفضوا » من أنفض القوم : إذا فني أزوادهم ، يقال نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض . ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال (والله خزائن السموات والأرض) أى إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين ، لأن خزائن الرزق له فيعطى من شاء ما شاء ويمنع من شاء ما شاء (واكن المنافقين لا يفقهون) ذلك ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل وأنه الباسط القابض المعطى المانع . ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال (يقولون لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبي راس المنافقين ، وعنى بالأعز نفسه ومن معه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه ، ومراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة ، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم ، وهو عبد الله بن أبي ، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون . ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال (والله العزة لرسوله وللمؤمنين) أى القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لا غيرهم . اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين (واكن المنافقين لا يعلمون) بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضرر فيجتنبونه ، بل هم كالأنعام لقرط جهلهم ومزيد حيرتهم والطبع على قلوبهم .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن زيد بن أرقم قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فأصاب الناس شدة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) من حوله ، وقال (لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا : كذب زيد رسول الله ، فوقع في نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقى في إذا جاءك المنافقون ، فدعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم ، وهو قوله (كأنهم خشب مسندة) قال : كانوا رجالاً أجمل شئ . وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان . وأخرج ابن المنذر عنه (اتخذوا أيمانهم جنة) قال : حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنبوا بأيمانهم من القتل والحرب . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً (كأنهم خشب مسندة) قال نخل قيام . وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عنه أيضاً . قال نزلت هذه الآية (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) في عسيف لعمر بن الخطاب . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم وابن مسعود أنهما قرآ (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال « كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة . قال سفيان : يرون أنها غزوة بنى المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال المهاجري باللمهاجرين وقال الأنصاري بالأنصار ، فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما بال دعوة الجاهلية ؟ قالوا رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : دعوها فإنها منتنة ، فسمع

ذلك عبد الله بن أبي فقال : أو قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعراس منه الأذل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقام عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : دعه ، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » زاد الترمذي « فقال له ابنه عبد الله : والله لا تنفقت حتى تقرأئك الدليل ، ورسول الله العزيز ، فعل » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغبا لهم في ذكره فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهمهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، ومعنى لا تلهكم : لا تشغلهم ، والمراد بالذكر فرائض الإسلام ، قاله الحسن . وقال الضحاك : الصلوات الخمس وقيل قراءة القرآن ، وقيل هو خطاب للمنافقين ، ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهرا ، والأول أولى (ومن يفعل ذلك) أي يلهي بالدنيا عن الدين (فأولئك هم الخاسرون) أي الكاملون في الخسران (وأنفقوا مما رزقناكم) الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومته ، ومن للتبويض : أي أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير ، وقيل المراد الزكاة المفروضة (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) بأن تنزل به أسبابه ويشاهد حضور علاماته ، وقدم المفعول على الفاعل للاهتمام (فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب) أي يقول عند نزول ما نزل به مناديا لربه هلا أمهاتني وأخرت موتي إلى أجل قريب : أي أمد قصير (فأصدق) أي فأنصدق بمالي (وأكن من الصالحين) قرأ الجمهور « فأصدق » بادغام التاء في الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمني ، وقيل إن لا في أولها زائدة ، والأصل لو أخرتني . وقرأ أبي وابن مسعود وسعيد بن جبيرة « فأصدق » بدون إدغام على الأصل . وقرأ الجمهور « وأكن » بالجرم على محل « فأصدق » ، كأنه قيل إن أخرتني أنصدق وأكن . قال الزجاج : معناه هلا أخرتني ، وجرم أكن على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتني أصدق وأكن . وكذا قال أبو علي الفارسي وابن عطية وغيرهم . وقال سيبويه حاكما عن الخليل : إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لي أني لست مدرك ماضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

فخفض ولا سابق عطفا على مدرك الذي هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن ومجاهد « وأكون » بالنصب عطفا على فأصدق ، ووجهها واضح . ولكن قال أبو عبيد : رأيت في مصحف عثمان « وأكن » بغير واو ، وقرأ عبيد بن عمير « وأكون » بالرفع على الاستئناف : أي وأنا أكون . قال الضحاك : لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤد زكاة إلا سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية ، ثم أجاب الله سبحانه عن هذا للتمني فقال (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) أي إذا حضر أجلها وانقضى عمرها (والله خبير بما تعملون) لا يخفى

عليه شيء منه فهو مجازيكم بأعمالكم . قرأ الجمهور « تعملون » بالفوقية على الخطاب ، وقرأ أبو بكر عن عاصم والسلمي بالتحنية على الخبر .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم) الآية قال : هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وعن الصلوات الخمس المفروضة . وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من كان له مال يبلغه حج بيت الله ، أو تجم عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل : يا ابن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكافر ، فقال : سأتلوا عليكم بذلك قرآنا (يا أيها الذين آمنوا) إلى آخر السورة » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (فأصدق وأكن من الصالحين) قال : أحج .

تفسير سورة التغابن

هي ثمان عشرة آية

وهي مدنية في قول الأكثر . وقال الضحاك : هي مكية . وقال الكلبي : هي مدنية ومكية . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي ، شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جفاء أهله ووالده ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) إلى آخر السورة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه . وأخرج ابن حبان في الضعفاء ، والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » قال ابن كثير : وهو غريب جداً بل منكر . وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَدَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ

بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) .

قوله (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) أى يزهه سبحانه جميع مخلوقاته التى فى سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب (له الملك وله الحمد) يختصان به ليس لغيره منهما شىء ، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه (وهو على كل شىء قدير) لا يعجزه شىء (هو الذى خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن) أى فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن . قال الضحاك : فنكم كافر فى السر مؤمن فى العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن فى السر كافر فى العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر . وقال عطاء : فنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب . قال الزجاج : إن الله خلق الكافر وكفراه فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر - وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان - والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدّر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل . قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال وهو الذى عليه جمهور الأمة ، وقدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن (والله بما تعملون بصير) لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم . ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال (خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة . وقيل خلق ذلك خلقاً يقينا لا ريب فيه ، وقيل الباء بمعنى اللام : أى خلق ذلك لإظهار الحق ، وهو أن يجزى المحسن بإحسانه والمنسىء بإساءته . ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال (وصوركم فأحسن صوركم) قيل المراد آدم خلقه بيده كرامة له ، كذا قال مقاتل ، وقيل المراد جميع الخلائق وهو الظاهر : أى أنه سبحانه خلقهم فى أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل . والتصوير : التخطيط والتشكيل . قرأ الجمهور « فأحسن صوركم » بضم الصاد ، وقرأ زيد بن على والأعمش وأبو زيد بكسرها (وإليه المصير) فى الدار الآخرة ، لا إلى غيره (يعلم ما فى السموات والأرض) لا تخفى عليه من ذلك خافية (ويعلم ما تسرون وما تعلنون) أى ما تخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فم قبله لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد (والله عليم بذات الصدور) هذه الحملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ، وهى تذييلية (ألم يأتكم نبال الذين كفروا من قبل) وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ، والخطاب لكفار العرب (فذاقوا وبال أمرهم) بسبب كفرهم ، والوبال : الثقل والشدة ، والمراد بأمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر والمعاصى ، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا (ولهم عذاب أليم) وذلك فى الآخرة وهو عذاب النار ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر من العذاب فى الدارين ، وهو مبتدأ وخبره (بأنه كانت تأتيمهم رسلهم بالبينات) أى بسبب أنها كانت تأتيمهم الرسل المرسله إليهم بالمعجزات الظاهرة (فقالوا أبشر يهودنا) أى قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكربن أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك ، وأراد بالبشر الجنس ، ولهذا قال يهودنا (فكفروا وتولوا) أى كفروا بالرسول وبما جاءوا به وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاءوا به ، وقيل كفروا بهذا القول الذى قالوه للرسول (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم . وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات ، وقيل استغنى بسلطانه عن طاعة عباده (والله غنى حميد) أى غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا مكث النفي في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فخرج به إلى الرب فيقول : يارب أذكر أم أنسى ؟ فيقضى الله ما هو قاض ، فيقول : أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق ، وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « العبد يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً ، والعبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيماً ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً » .

زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ
وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ
الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

قوله (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) الزعم : هو القول بالظن ويطلق على الكذب . قال شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، و (أن لن يبعثوا) قائم مقام مفعول زعم ، وأن هي المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب ، والمراد بالكفار كفار العرب ، والمعنى : زعم كفار العرب أن الشأن أن يبعثوا أبدا . ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يرد عليهم ويبطل زعمهم فقال (قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن) بلى هي التي لا يجاب النفي ، فالمعنى : بلى تبعثون . ثم أقسم على ذلك ، وجواب القسم لتبعثن : أى لتخرجن من قبركم لتنبؤن (بما عملتم) أى لتخبرن بذلك لإقامة للحجة عليكم ثم تجزون به (وذلك) البعث والجزاء (على الله يسير) إذ الإعادة أيسر من الابتداء (فآمنوا بالله ورسوله) الفاء هي الفصيحة الدالة على شرط مقدر : أى إذا كان الأمر هكذا فصدقوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال (والله بما تعملون خبير) لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم فهو مجازيكم على ذلك (يوم يجمعكم ليوم الجمع) العامل في الظرف لتنبؤن ، قاله النحاس . وقال غيره : العامل فيه خبير ، وقيل العامل فيه محذوف هو اذكر . وقال أبو البقاء : العامل فيه ما دل عليه الكلام : أى تتفاوتون يوم يجمعكم . قرأ الجمهور

« يجمعكم » بفتح الباء وضم العين ، وروى عن أبي عمرو إسكانها ، ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعاً له كما قرئ في - وما يشعركم - بسكون الواو ، وكقول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا واغل

بإسكان باء أشرب ، وقرأ زيد بن عليّ والشعبي ويعقوب ونصر وابن أبي إسحاق والحدري « يجمعكم » بالنون ، ومعنى (ليوم الجمع) ليوم القيامة فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء ، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله ، وبين كل نبي وأمه ، وبين كل مظلوم وظالمه (ذلك يوم التغابن) يعني أن يوم القيامة هو يوم التغابن ، وذلك أنه يغيب فيه بعض أهل المحشر بعضاً ، فيغيب فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغيب فيه أهل الإيمان أهل الكفر وأهل الطاعة أهل المعصية ، ولا غيب أعظم من غيب أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ والجيد بالردىء والنعم بالعذاب ، وأهل الجنة على العكس من ذلك . يقال غبت فلاناً : إذا بايعته أو شاربته فكان النقص عليه والغلبة ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون من غيب أهلهم ومنازلهم في الجنة (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً نكفر عنه سيئاته) أى من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته ، قرأ الجمهور « يكفر » (ويدخله) بالتحنية ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما ، وانتصاب (خالدين فيها أبداً) على أنها حال مقدرة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر من التكفير والإدخال ، وهو مبتدأ وخبره الفوز العظيم (أى الظفر الذى لا يساويه ظفر

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعم منها ذكر سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء هاهنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه سيكون بسبب التكفير وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وبسبب إدخال الطائفة الثانية النار وخلودهم فيها (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن الله : أى بقضائه وقدره ، قال الفراء : إلا بإذن الله : أى بأمر الله ، وقيل إلا بعلم الله . قيل وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أى من يصدق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء . قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من الله فيسلم لقضائه ويسترجع . وقال سعيد بن جبير : يهد قلبه عند المصيبة فيقول - إنا لله وإنا إليه راجعون - وقال الكلبي : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . قرأ الجمهور « يهد » بفتح الباء وكسر الدال : أى يهده الله ، وقرأ قتادة والسلمي والضحاك وأبو عبد الرحمن بضم الباء وفتح الدال على البناء للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرف والأعرج وسعيد بن جبير وابن هرمز والأزرق « نهّد » بالنون ، وقرأ مالك بن دينار وعمرو بن دينار وعكرمة « يهدأ » بهمزة ساكنة ورفع قلبه : أى يطمئن ويسكن (والله بكل شيء عليم) أى بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى هوتوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله (فإن توليتم) أى أعرضتم عن الطاعة (فإنما على رسولنا البلاغ المبين) ليس عليه غير ذلك وقد فعل ، وجواب الشرط محذوف والتقدير فلا بأس على الرسول ، وجملة (فإنما على رسولنا) تعليل للجواب المحذوف ، ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال (الله لا إله إلا هو) أى هو المستحق للعبودية دون غيره فوحلوه ولا تشركوا به (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى يفوضوا أمورهم إليه ويعتمدوا عليه ، لا على غيره .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له : ما سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في زعموا ؟ قال : سمعته يقول : بثس مطية الرجل . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه كره زعموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يوم التغابن من أسماء يوم القيامة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه في قوله (ذلك يوم التغابن) قال : غبن أهل الجنة أهل النار ، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله (ما أصاب من مصيبة) قال : هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (يهد قلبه) قال : يعنى يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا
وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ
يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُمْضِعْهُ لَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قوله (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم) يعنى أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير ، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولا أوليا ، وهو أن رجلا من مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم ، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريد الله ، والضمير في (فاحذروهم) يعود إلى العدو ، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لأعلى العموم ، بل إلى المتصنين بالعداوة منهم ، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول ، لأن العدو يطلق على الواحد والاثنين والجماعة . ثم أرشدهم الله إلى التجاوز فقال (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا) أى تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها وتركوا التثريب عليها وتسترها (فإن الله غفور رحيم) بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم ، قيل كان الرجل الذى ثبته أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها وفقهوا في الدين هم أن يعاقب أزواجه وأولاده ، فأنزل الله (وإن تعفوا) الآية ، والآية تعم وإن كان السبب خاصا كما عرفناك غير مرة . قال مجاهد : والله ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه . ثم أخبر الله سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى بلاء واختبار ومحنة يحملونكم على كسب الحرام ومنع حتى الله فلا تطيعوهم في معصية الله (والله عنده أجر عظيم) لمن أثر طاعة الله وترك معصيته في محبة ماله وولده . ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال (فاتقوا الله ما استطعتم) أى ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه - فاتقوا الله حتى تقاته - ومنهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد ، وقد أوضحنا الكلام في قوله - فاتقوا الله حتى تقاته - ومعنى (واسمعوا وأطيعوا) أى اسمعوا ما تؤمرون به وأطيعوا الأوامر . قال مقاتل اسمعوا : أى اصغوا إلى ما ينزل عليكم وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم . وقيل معنى اسمعوا : اقبلوا

ما تسمعون لأنه لا فائدة في مجرد السماع (وأنفقوا خيرا لأنفسكم) أى أنفقوا من أموالكم التى رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها ، وقوله (خيرا لأنفسكم) منتصب بفعل مضمر دلّ عليه أنفقوا ، كأنه قال : اتوا في الإنفاق خيرا لأنفسكم ، أو قدّموا خيرا لها ، كذا قال سيبويه . وقال الكسائي والفرّاء : هونعت لمصدر محذوف : أى إنفاقا خيرا . وقال أبو عبيدة : هو خبر لكان المقدّرة : أى يكن الإنفاق خيرا لكم . وقال الكوفيون : هو منتصب على الحال ، وقيل هو مفعول به لأنفقوا : أى فأنفقوا خيرا . والظاهر : فى الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة ، وقيل المراد زكاة الفريضة ، وقيل النافلة ، وقيل النفقة فى الجهاد (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يوق شح نفسه فيفعل ما أمر به من الإنفاق ولا يمنعه ذلك منه فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب ، وقد تقدم تفسير هذه الآية (إن تقرضوا الله قرضا حسنا) فتصرفون أموالكم فى وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس (يضاعفه لكم) فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقد تقدم تفسير هذه الآية واختلاف القراءة فى قراءتها فى سورة البقرة وسورة الحديد (ويغفر لكم) أى يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم (والله شكور حلیم) يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة (عالم الغيب والشهادة) أى ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية ، وهو (العزيز الحكيم) أى الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة . وقال ابن الأنبارى : الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء .

وقد أخرج القرطابى وعبد بن حميد والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوه ، فنزلت إلى قوله (فإن الله غفور رحيم) . وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه وابن مردويه عن بريدة قال « كان النّبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فجعلهما واحدا من ذا الشقّ وواحدا من ذا الشقّ ، ثم صعد المنبر فقال : صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامى ونزلت إليهما » . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى وشتمنى عبدى وهو لا يدري ، يقول : وادهره وادهره وأنا الدهر ، ثم تلا أبو هريرة (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم) »

تفسير سورة الطلاق

هي إحدى عشرة آية ، وقيل اثنا عشرة

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس وابن النحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الطلاق بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَالَّذِي يَتُسِّنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) .

قوله (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) نادى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولاً تشريفا له ، ثم خاطبه مع أمته ، أو الخطاب له خاصة ، والجمع للتعظيم ، وأمه أسوته في ذلك ، والمعنى : إذا أردتم تطليقهن وعزمتن عليه (فطلقوهن لعدتهن) أي مستقبلات لعدتهن أو في قبل عدتهن ، أو لقبل عدتهن ، وقال الجرجاني : إن اللام في لعدتهن بمعنى في : أي في عدتهن . وقال أبو حيان : هو على حذف مضاف : أي لاستقبال عدتهن ، واللام للتوقيت نحو لقيته الليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن ، فإذا طلقوهن هكذا فقد طلقوهن لعدتهن ، وسيأتي بيان هذا من السنة في آخر البحث إن شاء الله (وأحصوا العدة) أي احفظوها واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تم العدة : وهي ثلاثة قروء ،

والخطاب للأزواج ، وقيل للزوجات ، وقيل للمسلمين على العموم ، والأول أولى لأن الضمائر كلها لهم (واثقوا بالله ربكم) فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضاروهن (لا تخرجوهن من بيوتهن) أى التى كنا فيها عند الطلاق مادمنا فى العدة ، وأضاف البيوت إليهن وهى لأزواجهن لتأكيد النهى ، وبيان كمال استحقاقهن للسكنى فى مدة العدة ، ومثله قوله - واذكرن مايتلى فى بيوتكن - وقوله - وقرن فى بيوتكن - ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التى وقع الطلاق وهن فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضا فقال (ولا يخرجن) أى لا يخرجن من تلك البيوت مادمنا فى العدة إلا لأمر ضرورى كما سيأتى بيان ذلك ، وقيل المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس ، والأول أولى (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) هذا الاستثناء هو من الحملة الأولى : أى لا تخرجوهن من بيوتهن ، لامن الحملة الثانية . قال الواحدى : أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا ، وذلك أن تزنى فتخرج لإقامة الحد عليها . وقال الشافعى وغيره : هى البذاء فى اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها فى ذلك البيت ، ويؤيد هذا ما قال عكرمة : إن فى مصحف أبى « إلا أن يفحش عليكم » وقيل المعنى : إلا أن يخرجن تعديا ، فإن خروجهن على هذا الوجه فاحشة ، وهو بعيد ، والإشارة بقوله (وتلك) إلى ما ذكر من الأحكام وهو مبتدأ وخبره (حدود الله) والمعنى : أن هذه الأحكام التى بينها لعباده هى حدوده التى حدتها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها (ومن يتعد حدود الله) أى يتجاوزها إلى غيرها أو يخل بشىء منها (فقد ظلم نفسه) بإيرادها مورد الهلاك وأوقع الضرر بعقوبة الله له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وجملة (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليقه . قال القرطبي : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة ، والمعنى : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثا أضرت نفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلا . وقال مقاتل بعد ذلك : أى بعد طلقة أو طلقتين أمرا بالمراجعة . قال الواحدى : الأمر الذى يحدث أن يوقع فى قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين . قال الزجاج : وإذا طلقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى لقوله - لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا - (فإذا بلغن أجلهن) أى قاربن انقضاء أجل العدة وشارفن آخرها (فأمسكوهن بمعروف) أى راجعوهن بحسن معاشرة ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن (أو فارقوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيملكن نفوسهن مع إيفائهن بما هو لهن عليكم من الحقوق وترك المضارة لهن (وأشهدوا ذوى عدل منكم) على الرجعة ، وقيل على الطلاق ، وقيل عليهما قطعا للتنازع وحسبا لمادة الخصومة ، والأمر للتدب كما فى قوله - وأشهدوا إذا تبايعتم - وقيل إنه للوجوب ، وإليه ذهب الشافعى قال : الإشهاد واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل . وفى قول للشافعى : إن الرجعة لا تقتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وروى نحو هذا عن أبى حنيفة وأحمد (وأقيموا الشهادة لله) هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقربا إلى الله ، وقد تقدم تفسير هذا فى سورة البقرة ، وقيل الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة : أى الشهود عند الرجعة فيكون قوله (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أمرا بنفس الإشهاد ، ويكون قوله (وأقيموا الشهادة) أمرا بأن تكون خالصة لله ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ما تقدم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله ، وهو مبتدأ وخبره (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) ونخص المؤمن بالله واليوم الآخر لأنه المنتفع بذلك دون غيره (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) أى من يتق عذاب الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه والوقوف على حدوده التى حدتها لعباده وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد والحن (ويرزقه من حيث لا يحتسب) أى من وجه

لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه . قال الشعبي والضحاك : هذا في الطلاق خاصة : أى من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدة . وقال الكلبي : ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة . وقال الحسن : مخر : انتهى الله عنه . وقال أبو العالية : مخرجا من كل شيء ضاق على الناس . وقال الحسين بن الفضل : ومن يتق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب : أى يبارك له فيما آتاه . وقال سهل : ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة أهل البدع ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب ، وقيل : وظاهر الآية العموم ، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص ويدخل مافيه السياق دخولا أوليا (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه (إن الله بالغ أمره) قرأ الجمهور « بالغ أمره » بتنوين بالغ ونصب أمره ، وقرأ حفص بالإضافة ، وقرأ ابن أبي عتبة وداود بن أبي هند وأبو عمرو في رواية عنه بتنوين بالغ ورفع أمره على أنه فاعل بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر وبالغ خبر مقدم . قال القراء في توجيه هذه القراءة : أى أمره بالغ ، والمعنى على القراءة الأولى والثانية : أن الله سبحانه بالغ ما يريد من الأمر لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب ، وعلى القراءة الثالثة : أن الله نافذ أمره لا يرد شيء . وقرأ المفضل « بالغا » بالنصب على الحال ويكرن خبر إن قوله (قد جعل الله لكل شيء قدرا) أى تقديرا وتوقينا أو مقدارا . فتد جعل سبحانه للشدة أجلا تنتهى إليه ، وللرخاء أجلا ينتهى إليه . وقال السدي : هو قدر الحيض والعدة (واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم) وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه (إن ارتبتم) أى شككنم وجهلتم كيف عدتهن (فعدهن ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن) لصغرهن وعدم بلوغهن سن الحيض : أى فعدهن ثلاثة أشهر ، وحذف هذا للدلالة ما قبله عليه (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) أى انتهاء عدتهن وضع الحمل ، وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن ، وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث في هذه الآية وفي الآية الأخرى - والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا - وقيل معنى (إن ارتبتم) إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك وهو الظاهر . قال الزجاج : إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحض مثلها . وقال مجاهد : إن ارتبتم : يعنى لم تعلموا عدة الآية والتي لم تحض فالعدة هذه . وقيل المعنى : إن ارتبتم في الدم الذى يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة فالعدة ثلاثة أشهر (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) أى من يتقه في امثال أوامره واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة . وقال الضحاك : من يتق الله فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسرا في الرجعة . وقال مقاتل : من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا في توفيقه للطاعة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر من الأحكام : أى ذلك المذكور من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم) أى حكمه الذى حكم به بين عباده وشرعه الذى شرعه لهم ، ومعنى (أنزله إليكم) أنزله في كتابه على رسوله وبينه لكم وفصل أحكامه وأوضح حلاله وحرامه (ومن يتق الله) بترك ما لا يرضاه (يكفر عنه سيئاته) التى اقترفها ، لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب (ويعظم له أجرا) أى يعطه من الأجر في الآخرة أجرا عظيما وهو الجنة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حفصة فأتت أهلها ، فأنزل الله (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) فقبل له راجعها فلأنها صوامة قوامة وهى من أزواجك في الجنة . وأخرجه ابن جرير عن قتاده مرسلا . وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد أبو ركانة

أم ركانة ، ثم نكح امرأة من مزينة ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يا رسول الله ما يغني عني إلا ما تغني عني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ، فأخذت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حمية عند ذلك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركانة وإخوته ، ثم قال بلحسانه : أترون كذا من كذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد يزيد : طلقها ففعل ، فقال لأبي ركانة ارجعها ، فقال : يا رسول الله إني طلقها ، قال : قد علمت ذلك فارجعها ، فنزلت (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) « قال الذهبي : إسناده واه ، والخبر خطأ ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أنه طلق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأله وسلم ثم قال : ليراجعها ، ثم بمسكها حتى تطهر ثم تحيض وتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسه ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ، وقرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن) . وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (فطلقوهن في قبل عدتهن) . وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر أنه قرأ « فطلقوهن لقبل عدتهن » . وأخرج ابن الأنباري وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ كذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله ، فليطلقها طاهرا في غير جماع . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (فطلقوهن لعدتهن) قال : طاهرا من غير جماع ، وفي الباب أحاديث . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود (وأحصوا العدة) قال : الطلاق طاهرا في غير جماع . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله (ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال : خروجها قبل انقضاء العدة لمن بيتها هي الفاحشة المبينة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قال : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال : الفاحشة المبينة أن تبذو المرأة على أهل الرجل ، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حل لهم إخراجها . وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس في قوله (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) قالت : هي الرجعة . وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلا سأل عمران بن حصين أن رجلا طلق ولم يشهد ، قال : بئس ما صنع ، طلق في بدعة ، وارتجع في غير سنة ، فيشهد على طلاقه وعلى مراجعته ويستغفر الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) قال : مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذي يعطيه وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه ، وفي قوله (ويرزقه من حيث لا يحتسب) قال : من حيث لا يدري . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) قال : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة . وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال : « نزلت هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) في رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابوه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسأله عنها وأخبره خبرها ، فقال : كلها ، فنزلت

(ومن يتق الله الآية) . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال « جاء هوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إن ابني أسره العدو وجزعت أمه ، فما تأمرني ؟ قال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول لاحول ولا قوة إلا بالله ، فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلوا يكثران منها ، فتغفل عنه العدو ، فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فنزلت (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) الآية . وفي الباب روايات تشهد لهذا . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت : يكفيه هم الدنيا وغمها . وأخرج أحمد وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والبيهقي عن أبي ذر قال « جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلو هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فجعل يرددها حتى نعست ، ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتمهم » وفي الباب أحاديث . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) قال : ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي ، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه ودفع عنه ما يكره وقضى حاجته ، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، وفي قوله (إن الله بالغ أمره) قال : يقول قاضي أمره على من توكل وعلى من لم يتوكل ، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، وفي قوله (قد جعل الله لكل شيئا قدرا) قال : يعني أجلا ومنه يبنتهى إليه . وأخرج ابن المبارك والطبراني وأحمد وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير ، تغدو خماسا وتروح بظانا » . وأخرج إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وذوات الحمل ، فأنزل الله (واللاتي يئسن من المحيض) الآية . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو يعلى والضياء في المختارة وابن مردويه عن أبي بن كعب قال : « قلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) أمي المطلقة ثلاثا ، أو المتوفى عنها ؟ قال : هي المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » . وأخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والدارقطني من وجه آخر . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن عليا قال : تعدد آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصص نزلت بعد سورة البقرة (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) بكذا وكذا أشهرا ، وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها . وروى نحوه هذا عنه من طرق وبعضها في صحيح البخاري . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أم سلمة : أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهي حبل ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وفي الباب أحاديث .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُحِمْنَ وَأَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا

بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْضِعْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَتْهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَيْهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧).

قوله (أسكنوهن من حيث سكنتم) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى ، ومن التبويض : أى بعض مكان سكناكم ، وقيل زائلة (من وجدكم) أى من معنكم وطاقتكم ، والوجد القدرة . قال الفراء : يقول على ما يجد ، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإن كان فقيرا فعلى قدر ذلك . قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه .

وقد اختلف أهل العلم فى المصلحة ثلاثا ، هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟ فذهب مالك والشافعى أن لها السكنى ولا نفقة لها . وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة . وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق ، وقد قررته فى شرحى المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره (ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن) نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن فى السكن والنفقة . وقال مجاهد : فى السكن . وقال مقاتل : فى النفقة . وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها ، فإذا بقى يومان من عدتها راجعها ، ثم طلقها (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن) أى إلى غاية هى وضعهن الحمل . ولا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة ، والسكنى للحامل المطلقة ؛ فأما الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال على وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وهما وابن أبى ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع . وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه : لا ينفق عليها إلا من نصيبها ، وهذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة (فإن أرضعن لكم) أولادكم بعد ذلك (فآتوهن أجورهن) أى أجور إرضاعهن والمعنى : أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن فلهن أجورهن على ذلك (وأتمروا بينكم بمعروف) هو خطاب للأزواج والزوجات : أى تشاورا بينكم بما هو معروف غير منكر وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل ، وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم . قال مقاتل : المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، قيل والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر (وإن تعاسرتم) أى فى أجر الرضاع ذابى الزوج أن يعطى الأم الأجر وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر (فسترضع له أخرى) أى يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة ، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر . قال الضحاك : إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر (لينفق ذو سعة من سعته) فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر معنهم (ومن قدر عليه رزقه) أى كان رزقه بمتقار القوت ، أو مضيق ليس بموسع (فلينفق ما آتاه الله) أى مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) أى ما أعطاه من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس فى وسعه ، بل عليه ما يقار عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق (سيجعل الله بعد عسر يسرا) أى بعد ضيق وشدة سعة وغي.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (من وجدكم) قال : من سعتكم (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) قال في المسكن . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (وإن كن أولات حمل) الآية ، قال : فهذه في المرأة يطلقها زوجها وهي حامل ، فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت حتى تظم ، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ولا نفقة لها . وأخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة ، فقيل إنه يلبس الغليظ من الثياب ويأكل أحسن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها ؟ فابلث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله تأول هذه الآية (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) .

لما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام ، حذر من مخالفتها ، وذكر عتو قوم خالفوا أوامره ، فحل بهم عذابه . فقال (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله) يعني عصت ، والمراد أهلها ، والمعنى : وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله ، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين عتت معنى أعرضت ، وقد قد منا الكلام في كآين في سورة آل عمران وغيرها (فحاسبناها حسابا شديدا) أي شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا . قال مقاتل : حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب ، وهو معنى قوله (وعذبناها عذابا نكرا) أي عذبنا أهلها عذابا عظيما منكرا في الآخرة ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير : أي عذبنا أهلها عذابا نكرا في الدنيا بالجوع والقحط والسيوف والحسف والمسوخ ، وحاسبناهم في الآخرة حسابا شديدا . والنكر المنكر (فذاقت وبال أمرها) أي عاقبة كفرها (وكان عاقبة أمرها خسرا) أي هلاكا في الدنيا وعذابا في الآخرة (أعد الله لهم عذابا شديدا) في الآخرة ، وهو عذاب النار ، والتكرير للتأكيد (فاتقوا الله يا أولي الأبواب) أي يا أولي العقول الراجعة ، وقوله (الذين آمنوا) في محل نصب بتقدير : أعني بيانا للمنادي بقوله (يا أولي الأبواب) أو عطف بيان له ، أو نعت (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا) قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل : أي أنزل إليكم قرآنا وأرسل إليكم رسولا ، وقال أبو علي الفارسي : إن رسولا منصوب بالمصدر ، وهو ذكرا ، لأن المصدر المنون يعمل . والمعنى : أنزل إليكم ذكر الرسول . وقيل إن رسولا بدل من ذكرا ، وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة . وقيل إنه بدل

منه على حذف مضاف من الأول تقديره : أنزل ذا ذكر رسولا ، أو صاحب ذكر رسولا . وقيل إن رسولا نعت على حذف مضاف : أى ذكر ذا رسول ، فذا رسول نعت للذكر . وقيل إن رسولا بمعنى رسالة ، فيكون رسولا بدلا صريحا من غير تأويل ، أو بيانا . وقيل إن رسولا منتصب على الإغراء ، كأنه قال : الزموا رسولا . وقيل إن الذكر هاهنا بمعنى الشرف كقوله - لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم - وقوله - وإنه لذكر لك ولقومك - . ثم بين هذا الشرف فقال (رسولا) وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الكلبي : هو جبريل ، والمراد بالذكر القرآن ، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لا يخفى . ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله (يتلوا عليكم آيات الله مبینات) أى حال كونها مبینات ، قرأ الجمهور « مبینات » على صيغة اسم المفعول : أى بينها الله وأوضحها ، وقرأ ابن عامر وحنص وحزة والكسائي على صيغة اسم الفاعل : أى الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام . ورجع القراءة الأولى أبو حاتم وأبو عبيد لقوله « قد بينا لكم الآيات » (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) اللام متعلقة بـ يتلوا : أى ليخرج الرسول الذى يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ويجوز أن تتعلق اللام بأنزل ، فيكون المخرج هو الله سبحانه (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه (ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار) قرأ الجمهور « يدخله » بالتحية ، وقرأ نافع وابن عامر بالنون : وجمع الضمير فى (خالدين فيها أبدا) باعتبار معنى من ، ووحده فى يدخله باعتبار لفظها ، وجملة (قد أحسن الله له رزقا) فى محل نصب على الحال من الضمير فى خالدين على التداخل ، أو من مفعول يدخله على الترادف ؛ ومعنى (قد أحسن الله له رزقا) أى وسع له رزقه فى الجنة (الله الذى خلق سبع سموات) الاسم الشريف مبتدأ وخبره الموصول مع صلته (ومن الأرض مثلهن) أى وخلق من الأرض مثلهن .
يعنى سبعا .

واختلف فى كيفية طبقات الأرض . قال القرطبي فى تفسيره : واختلف فىهن على قولين : أحدهما وهو قرأ الجمهور أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق الله . وقال الضحاك : إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات . والأول أصح ، لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذى والنسائى وغيرهما ، وقد مضى ذلك مبينا فى البقرة قال : وفى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال : سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » إلى آخر كلامه ، وسيأتى فى آخر البحث ما يقوى قول الجمهور . قرأ الجمهور « مثلهن » بالنصب عطفًا على « سبع سموات » أو على تقدير فعل : أى وخلق من الأرض مثلهن . وقرأ عاصم فى رواية عنه بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره (يتنزل الأمر بينهن) الجملة مستأنفة ، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها ، والأمر الوحي . قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين . وقال الحسن : بين كل سماء وبين الأرض . وقال قتادة : فى كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه ، وقيل بينهن إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أدناها ، وبين السماء السابعة التى هى أعلاها ، وقيل هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره ، فينزل المطر ويخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال . قال ابن كيسان : وهذا هو مجال اللغة واتساعها كما يقال للموت : أمر الله وللريح والسحاب ونحوها . قرأ الجمهور

« يتنزل الأمر » من التنزل ورفع الأمر على الفاعلية ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه « ينزل » من الإنزال ، ونصب الأمر على المفعولية والفاعل الله سبحانه ، واللام في (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) متعلق بخلق ، أو يتنزل أو بمقدّر : أى فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته وإحاطته بالأشياء ، وهو معنى (وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) فلا يخرج عن علمه شيء منها كائنا ما كان ، وانتصاب علما على المصدرية ، لأن أحاط بمعنى علم ، أو هو صفة لمصدر مخنوف : أى أحاط إحاطة علما ، ويجوز أن يكون تمييزا .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فحاسبناها حسابا شديدا) يقول : لم ترحم (وعذبناها عذابا نكرا) يقول : عذابا منكرا . وأخرج ابن مردويه عنه (قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا) قال : محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال له رجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله (ومن الأرض مثلهن) قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقي : هذا إسناد صحيح ، وهو شاذ بمرّة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك . والثانية مسجن الرياح ، فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الرياح أن يرسل عليهم ريحا يهلك عادا ، فقال : يارب أرسل عليهم من الرياح قدر منخر الثور ؟ فقال له الجبار : إذن تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله في كتابه - ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم - والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم ، فقالوا : يا رسول الله للنار كبريت ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده ؛ إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسي لماعت » إلى آخر الحديث . قال الذهبي متعبا للحاكم : هو حديث منكر . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التي فيها العرش ، وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها .

تفسير سورة التحريم

هي اثنا عشرة آية

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع ، وتسمى سورة النبي . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت سورة التحريم بالمدينة ، ولفظ ابن مردويه سورة المحرم . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت بالمدينة سورة النساء (يا أيها النبي لم تحرم) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)
قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ
إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ
بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ
فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ
مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَتَّبِعُنَّ عِبَادِي سَخِطَ ثَبِيتٌ وَأَبْنَكَارًا (٥) .

قوله (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) اختلف في سبب نزول الآية على أقوال : الأول قول أكثر المفسرين . قال الواحدي : قال المفسرون : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت حفصة فزارت أباه ، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها : لا تخبري عائشة ولك علي أن لا أقربها أبدا ، فأخبرت حفصة عائشة وكانتا متصافيتين ، فغضبت عائشة ولم تزل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى حلف أن لا يقرب مارية ، فأنزل الله هذه السورة . قال القرطبي : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة ، وذكر القصة . وقيل السبب أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولاً له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغاير . وقيل السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وسيأتي داليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله وستعرف كيفية الجمع بينهما ، وجملة (تبتغي مرضات أزواجك) مستأنفة ، أو مفسرة لقوله « تحرم » ، أو في محل نصب على الحال من فاعل تحرم : أي مبتغيا به مرضاة أزواجك ، ومرضاة اسم مصدر ، وهو الرضى ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف

إلى المفعول : أى أن ترضى أزواجك ، أو إلى الفاعل : أى أن يرضين هن (والله غفور رحيم) أى بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك ، قيل وكان لك ذنبا من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل إنها معاتبة على ترك الأولى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى شرع لكم تحليل أيمانكم وبين لكم ذلك ، وتحلة أصلها تحللة ، فأدغمت . وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد ، والكفارة حل ، لأنها تحل للمحالف ما حرّمه على نفسه . قال مقاتل : المعنى قد بين الله كفارة أيمانكم فى سورة المائدة . أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكفر يمينه ويراجع وليدته فأعتق رقبة . قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرم ما أحل الله .

قلت : وهذا هو الحق أن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه . فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره ، ومعاتبته لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل والمذاهب فيه كثيرة والمقالات فيه طويلة ، وقد حققناه فى مؤلفاتنا بما يشفى .

واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا ؟ وفى ذلك خلاف ، وليس فى الآية ما يدل على أنه يمين ، لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وقد ورد فى القصة التى ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هى سبب نزول الآية أنه حرّم أولا ثم حلف ثانيا كما قدّمنا (والله مولاكم) أى وليكم وناصركم والمتولى لأموالكم (وهو العليم) بما فيه صلاحكم وفلاحكم (الحكيم) فى أفعاله وأقواله (وإذا أسر النّبي إلى بعض أزواجه حديثا) قال أكثر المفسرين : هى حفصة كما سبق ، والحديث هو تحريم مارية ، أو العسل ، أو تحريم التى وهبت نفسها له ، والعامل فى الظرف فعل مقدّر : أى واذكر إذا أسر . وقال الكلبي : الكلبي : أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدى (فلما نبأت به) أى أخبرت به غيرها (وأظهره الله عليه) أى أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها (عرف بعضه) أى عرف حفصة بعض ما أخبرت به . قرأ الجمهور « عرف » مشدّدا من التعريف ، وقرأ على وطلحة بن مصرف وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة والكسائي بالتخفيف . واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله (وأعرض عن بعض) أى لم يعرفها إياه ، ولو كان مخففا لقال فى ضدّه : وأنكر بعضا (وأعرض عن بعض) أى وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر فى الناس ، وقيل الذى أعرض عنه هو حديث مارية . وللمفسرين هاهنا خبط وخلط ، وكل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد فى سبب النزول ، وسنوضح لك ذلك إن شاء الله (فلما نبأها به) أى أخبرها بما أفشت من الحديث (قالت من أنباك هذا) أى من أخبرك به (قال نبأني العليم الخبير) أى أخبرني الذى لا تخفى عليه خافية (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) الخطاب لعائشة وحفصة : أى إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، ومعنى (صغت) عدلت ومالت عن الحق ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو إفشاء الحديث . وقيل المعنى : إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما إلى التوبة ، وقال قلوبكما ولم يقل قلبا كما لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيّتين فى لفظ واحد (وإن تظاهرا عليه) أى تتظاهرا ، قرأ الجمهور « تظاهرا » بحذف إحدى التاءين تخفيفا . وقرأ عكرمة « تتظاهرا » على الأصل . وقرأ الحسن وأبو رجاء ونافع وعاصم ^(١) فى رواية عنهما « تظهرا » بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون ، والمعنى : وإن تعاضدا وتعاوننا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه

(١) (قوله ونافع وعاصم) وذلك فى غير المصهور الآن منهما اجمع .

(فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) أى فإن الله يتولى نصره ، وكذلك جبريل ومن صلح من عباده المؤمنين فلن يعدم ناصرا ينصره (والملائكة بعد ذلك) أى بعد نصر الله له ونصر جبريل وصالح المؤمنين (ظهير) أى أعوان يظاهرونه ، والملائكة مبتدأ وخبره ظهير . قال أبو علي الفارسي : قد جاء فعيل للكثرة كقوله - ولا يسأل حيم حيا - قال الواحدى : وهذا من الواحد الذى يؤدى عن الجمع كقوله - وحسن أولئك رفيقا - وقد تقرر فى علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع . وقيل كان التظاهر بين عائشة وحفصة فى التحكم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى النفقة (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) أى يعطيه بذاكن أزواجا أفضل منكن ، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرا منهن تخويفا لهن ، وهو كقوله - وإن تتواوا يستبدل قوما غيركم - فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم . ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله (مسلمات مؤمنات) أى قائمات بفرائض الإسلام مصدقات بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره . وقال سعيد بن جبیر : مسلمات أى مخلصات وقيل معناه : مسلمات لأمر الله ورسوله (قانتات) مطيعات لله . والقنوت الطاعة ، وقيل مصليات (ثابتات) يعنى من الذنوب (عابدات) لله متذلات له . قال الحسن وسعيد بن جبیر : كثيرات العبادة (سائحات) أى صائمات . وقال زيد بن أسلم : مهاجرات ، وليس فى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سياحة إلا الهجرة . قال ابن قتبية والفراء وغيرهما : وسمى الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه . وقيل المعنى : ذاهبات فى طاعة الله ، من ساح الماء إذا ذهب ، وأصل السياحة الجولان فى الأرض ، وقد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة (ثيبات وأبكارا) وسط بينهما العاطف لتأنيهما ، والثيبات : جمع ثيب ، وهى المرأة التى قد تزوجت ثم ثابتت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج . والأبكار جمع بكر ، وهى العذراء ، سميت بذلك لأنها على أول حالها التى خلقت عليه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمشى عند زينب بنت جحش ويشرب عندها لبنا أو عسلا ، فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحدهما فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود ، فنزلت (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) إلى قوله (إن تتوبا إلى الله) لعائشة وحفصة (وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا) لقوله : بل شربت عسلا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند صحيح عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحا ، فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحا ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه أبدا ، فأنزل الله (يا أيها النبي لم تحرم) الآية . وأخرج بن سعد عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية (يا أيها النبي لم تحرم) قالت : كانت عندي عكة من عسل أبيض ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلعق منها وكان يحبه ، فقالت له عائشة : نحلها تجرس عرفطا فحرمها ، فنزلت الآية . وأخرج النسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت له أمة يطوؤها ، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله هذه الآية (يا أيها النبي لم تحرم) » وأخرج البزار والطبرانى قال السيوطى : بسند صحيح عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدؤ الحديث

في شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت حنصة في يومها ، فوجدت حنصة فقالت : يا رسول الله لقد جئت إلى بشيء ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومى وفي دورى على فراشى ، قال ألا ترخين أن أحرمها فلا أقربها أبدا ؟ قالت : بلى ، فحرمها وقال : لا تذكرى ذلك لأحد ، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه ، فأنزل الله (يا أيها النبي لم تحرم) الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر عن يمينه وأصاب مارية . وأخرج ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا . وأخرج ابن مردويه أيضا من وجه آخر عنه بأخضر منه ، وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عنه مختصرا بلفظ قال : حرم سريره وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روى عنه من هذه الطرق ، وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحنصة لا تحدثي أحدا ، وإن أم إبراهيم علي حرام ، فقالت : أتحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : فوالله لا أقربها ، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف ، وسنده ضعيف . فهذان سببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القصتين : قصة العسل ، وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعا ، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه . وأما ما قيل من أن السبب هو تحريم المرأة التي وهبت نفسها ، فليس في ذلك إلا ما روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك) في المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال السيوطي : وسنده ضعيف . ويردّ هذا أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقبل تلك الوادعة لنفسها ، فكيف يصح أن يقال إنه نزل في شأنها (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك) فإن من ردّ ما وهب له لم يصح أن يقال إنه حرّمه على نفسه ، وأيضا لا ينطبق على هذا السبب قوله (وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا) إلى آخر ما حكاه الله . وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخبره أنهما عائشة وحنصة ، ثم ذكر قصة الإبلاء كما في الحديث الطويل ، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدّمنا من قصة العسل وقصة السرية ، لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين ، وذكر فيه أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يراجعنه ونهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك) . ويؤيد هذا ما قدّمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر من المرأتين اللتان تظاهرتا ؟ فأخبره بأنهما حنصة وعائشة ، وبين له أن السبب قصة مارية . هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية ، ودفع الاختلاف في شأنه فاشدد عليه يدك لتنجوبه من الخطب والخط الذي وقع للمفسرين . وأخرج عبد الرزاق والبخاري وابن مردويه عن ابن عباس قال : في الحرام يكفر ، وقال - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة - . وأخرج ابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل فقال : إني جعلت امرأتى على حراما ، فقال كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا (لم تحرم ما أحلّ الله لك) قال : عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة . وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن عائشة قالت « لما حلف أبو بكر أن لا يفتق على مسطح ، فأنزل الله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) فأحلّ يمينه وأنفق عليه » . وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن عائشة في قوله (وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا) قالت : أسر إليها أن أبا بكر خليفة من بعدى . وأخرج ابن عدي وأبو نعيم في الصحابة والعشائر في فضائل الصديق وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن علي وابن عباس قال : والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب (وإذا أسر النبي إلى بعض

أزواجه حديثاً) قال الحفصة : أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدى ، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا . قلت : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) بل فيه أن الحديث الذى أسره صلى الله عليه وآله وسلم هو هذا ، فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة ، وهى مقدمة عليه ومرجحة بالنسبة إليه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (فقد صغت قلوبكما) قال : زاغت وأثمت . وأخرج ابن المنذر عنه قال : مالت . وأخرج ابن عساکر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه فى قوله (وصالح المؤمنين) قال : أبو بكر وعمر . وأخرج ابن عساکر عن ابن مسعود مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس مثله . وأخرج الحاكم عن أبى أمامة مرفوعا مثله . وأخرج ابن أبى حاتم . قال السيوطى بسند ضعيف عن على مرفوعا قال : هو على بن أبى طالب . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (وصالح المؤمنين) على بن أبى طالب . وأخرج ابن مردويه وابن عساکر عن ابن عباس فى قوله (وصالح المؤمنين) قال : هو على بن أبى طالب . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن بريدة فى قوله (ثيبات وأبكارا) قال : وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه أن يزوجه بالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالبكر مريم بنت عمران .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (وأهلكم) بأمرهم بطاعة الله ونهيهم عن معاصيه (نارا وقودها الناس والحجارة) أى نارا عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالخطب ، وقد تقدم بيان هذا فى سورة البقرة . قال مقاتل بن سليمان : المعنى قوا أنفسكم وأهلكم بالأدب الصالح النار فى الآخرة . وقال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهلكم بوصيتكم . قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - وقوله - وأنذر عشيرتك الأقربين - (عليها ملائكة غلاظ شداد) أى على النار خزنة من الملائكة يابون أمرها وتعذيب أهلها غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحوهم ، لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه وحبب إليهم تعذيب خلقه ، وقيل المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان ، وقيل غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل الغلاظ ضخام الأجسام ، والشداد الأقوياء (لا يعصون الله ما أمرهم) أى لا يخافونه فى أمره ، و « ما » فى (ما أمرهم)

يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف : أى لا يعصون الله الذى أمرهم به ، ويجوز أن تكون مصدرية : أى لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتغال من الاسم الشريف ، أو على تقدير نزع الحافض : أى لا يعصون الله فى أمره (ويفعلون ما يؤمرون) أى يؤذونه فى وقته من غير تراخ لا يؤخروه عنه ولا يقذرونه (يا أيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) أى يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأيسا لهم وقطعا لأطماعهم (إنما تجزون ما كنتم تعملون) من الأعمال فى الدنيا ، ومثل هذا قوله - فالיום لا ينجع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون - (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) أى تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازى ، وهو فى الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنوب وترك المعاودة له .

والتوبة فرض على الأعيان . قال قتادة : التوبة النصوح الصادقة ، وقيل الحالصة . وقال الحسن : التوبة النصوح : أن يفيض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره . وقال الكلبي : التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على أن لا يعود . وقال سعيد بن جبير : هى التوبة المقبولة . قرأ الجمهور « نصوحا » بفتح النون على الوصف للتوبة : أى توبة بالغة فى النصح ، وقرأ الحسن وخارجه وأبو بكر عن عاصم بضمها : أى توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح ، وأن يكون مصدرا : يقال نصح ناصحة ونصوحا . قال المبرد : أراد توبة ذات نصح (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) بسبب تلك التوبة ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع فهى من الله واجبة ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ويدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصره وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرئ بالجزم عطفا على محل عسى كأنه قال : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم (يوم لا يخزى الله النبي) الظرف متعلق بیدخلكم : أى يدخلكم يوم لا يخزى الله النبي (والذين آمنوا معه) والموصول معطوف على النبي ، وقيل الموصول مبتدأ وخبره (نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم) والأول أولى وتكون جملة (نورهم يسمى) فى محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم ، وقد تقدم فى سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط ، وجملة (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) فى محل نصب على الحال أيضا ، وعلى الوجه الآخر تكون خبرا آخر ، وهذا دعاء المؤمنين حين أظفأ الله نور المنافقين كما تقدم بيانه وتفصيله .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب فى قوله (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبواهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله وأمروا أهليكم بالذكور ينجحكم الله من النار . وأخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال : أدبوا أهليكم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر مابين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ليس فى قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب ، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن النعمان بن بشير أن عمر ابن الخطاب سئل عن التوبة النصوح ، قال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدا . وأخرج أحمد

وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود إليه أبدا » وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري ، وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف كما أخرجه موقوفا عنه ابن أبي شبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، وهو في القرآن ، ثم قرأ هذه الآية . وأخرج الحاكم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (يوم لا يخزي الله النبي ، والذين آمنوا معه نورهم يسمى) الآية قال : ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نورا يوم القيامة ، فأما المنافق فيظفأ نوره ، والموث من مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : (ربنا أتم لنا نورنا) .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتَبَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) .

قوله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) أي بالسيف والحجة ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة (واغلظ عليهم) أي شدّد عليهم في الدعوة واستعمل الجسونة في أمرهم بالشرائع . قال الحسن : أي جاهدكم بإقامة الحادود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود (وهأواهم جهنم) أي مصيرهم إليها : يعني الكفار والمنافقين (وبئس المصير) أي المرجع الذي يرجعون إليه (ضرب الله مثلا للذين كفروا) قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة : أي جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة ، وأنه لا يغني أحد عن أحد (امرات نوح وامرات لوط) هذا هو المفعول الأول ، ومثلا المفعول الثاني حسبا قدّما لتحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له وإيضاح لمعناه (كانتا تحت عبادنا صالحين) وهما نوح ولوط : أي كانتا في عصمة نكاحهما (فخانتاهما) أي فوقعت منهما الحياة لهما . قال عكرمة والضحاك : بالكفر وقيل كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيائه ، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبي قط . وقيل كانت خيانتها النفاق ، وقيل خانتاهما بالنميمة (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) أي فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئا من الدفع (وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أي وقيل لهما في الآخرة ، أو عند موتهما ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر والمعاصي . وقال يحيى بن سلام : ضرب الله مثلا للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من

المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين تظاهرتا عليه . وما أحسن من قال ، فإن ذكر امرأتى النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئا ، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون) الكلام في هذا كالكلام في المثل الذي قبله : أى جعل الله حال امرأة فرعون مثلا لحال المؤمنين ترغيبا لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين والصبر في الشدة ، وأن صولة الكفر لا تضرهم كما لم تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم (إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) الظرف متعلق بضرب أو بمثلا : أى ابن لي بيتا قريبا من رحمتك ، أو في أعلى درجات المتربين منك ، أو في مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك وهو الجنة (ونجني من فرعون وعمله) أى من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر (ونجني من القوم الظالمين) قال الكلبي : هم أهل مصر . وقال مقاتل هم القبط . قال الحسن وابن كيسان : نجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها) معطوف على امرأة فرعون : أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران : أى حالها وصفها ، وقيل إن الناصب لمريم فعل مقدر : أى واذكر مريم ، والمقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة واضطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين (التي أحصنت فرجها) أى عن الفواحش ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النساء . قال المفسرون : المراد بالفرج هنا الجيب لقوله (فتفخنا فيه من روحنا) وذلك أن جبريل نتمخ في جيب درعها فحبلت بعمسى (وصدقت بكلمات ربها) يعنى شرائعه التي شرعها لعباده ، وقيل المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها - إنما أنا رسول ربك - الآية . وقال مقاتل : يعنى بالكلمات عيسى . قرأ الجمهور « وصدقت » بالتشديد ، وقرأ حمزة الأموي ويعقوب وقتادة وأبو مجلز وعاصم في رواية عنه بالتخفيف . وقرأ الجمهور « بكلمات » بالجمع ، وقرأ الحسن ومجاهد والجمهور « بكلمة » بالإنفراد . وقرأ الجمهور (وكتابه) بالإنفراد ، وقرأ أهل البصرة وحفص « كتبه » بالجمع ، والمراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون في معنى الجمع ، وهى الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) قال قتادة : من القوم المطيعين لربهم . وقال عطاء : من المصلين ، كانت تصلى بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، وقال : من القانتين ولم يقل من القانتات لتغليب الذكور على الإناث .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله (فخانتاهما) قال : ما زنتا : أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتها . وأخرج ابن المنذر عنه : قال ما بغت امرأة نبي قط ، وقد رواه ابن عساكر مرفوعا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلمت الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة . وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة : أن فرعون وتدل لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها على صدرها (١) وجعل على صدرها رحي واستقبل بها عين الشمس ،

(١) لعله : فل ظهرها بدليل قوله بعد : وجعل على صدرها رحي .

فرفعت رأسها إلى السماء ، (قالت ربّ ابن لي عندك بيتا في الجنة) إلى قوله (من الظالمين) ففرج الله لها عن بيثها في الجنة فرأته . وأخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت (ربّ ابن لي عندك بيتا) » الآية . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . وأخرج وكيع في الفرر عن ابن عباس في قوله (ونجني من فرعون وعمله) قال : من جماعته .

تفسير سورة الملك

وتسمى سورة تبارك ، والواقية والمنجية ، والممانعة ، وهي ثلاثون آية

وهي مكية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت بمكة سورة تبارك الملك . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن الضريس والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له (تبارك الذي بيده الملك) » قال الترمذي : هذا حديث حسن . وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه والضياء في المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة (تبارك الذي بيده الملك) » . وأخرج الترمذي والحاكم وصححه وابن مردويه وابن نصر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : « ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر لإنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هي الممانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر » . قال الترمذي بعد إخرجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تبارك هي الممانعة من عذاب القبر » وأخرجه أيضا النسائي وصححه والحاكم . وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « أنزلت على سورة تبارك ، وهي ثلاثون آية جملة واحدة » ، وهي الممانعة في القبور ، وأخرج عبد بن حميد في مسنده والطبراني والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتخفك بحديث تفرح به ؟ قال بلى : قال : اقرأ (تبارك الذي بيده الملك) وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن ينجيه الله من عذاب النار وينجوها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَبُثَّسُ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) .

قوله (تبارك الذي بيده الملك) تبارك تفاعل من البركة ، والبركة النماء والزيادة ، وقيل تعالى وتعظيم عن صفات المخلوقين ، وقيل دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه . وقال الحسن : تبارك تقدس ، وصيغة التفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء ، والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقيل المراد بالملك ملك النبوة ، والأول أولى ، لأن الحمل على العموم أكثر مدحا وأبلغ ثناء ، ولا وجه للتخصيص (وهو على كل شيء قدير) أى بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع (الذي خلق الموت والحياة) الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له ، والحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به ، وقيل هى ما يصح بوجوده الإحساس ، وقيل ما يوجب كون الشيء حيا ، وقيل المراد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة . وقدم الموت على الحياة لأن أصل الأشياء عدم الحياة ، والحياة غارضة لها ، وقيل لأن الموت أقرب إلى القهر . وقال مقاتل : خلق الموت : يعنى النطقة والمضغة والعلة ، والحياة يعنى خلقه إنسانا وخلق الروح فيه ، وقيل خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمر بشيء إلا حي ، قاله مقاتل والكلبي . وقد ورد في التنزيل - قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم - وقوله - ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة - وقوله - توفته رسلنا - وقوله - الله يتوفى الأنفس حين موتها - وغير ذلك من الآيات (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) اللام متعلقة بخلق : أى خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا ،

فيجازيكم على ذلك ، وقيل المعنى : ليلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا وأشد منه خرفا ، وقيل أيكم أسرع إلى طاعة الله ، وأورع عن محارم الله . وقال الزجاج : اللام متعلق بخلق الحياة ، لا بخلق الموت . وقال الزجاج أيضا والقراء : إن قوله « ليلوكم لم يقع على أي » ، لأن فيما بين البلوى وأي إضمار فعل كما تقول : بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ، ومثله قوله - سلهم أيهم بذلك زعيم - أي سلهم ثم انظر أيهم ، فأيكم في الآية مبتدأ وخبره أحسن ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيدان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين (وهو العزيز) أي الغالب الذي لا يغالب (الغفور) لمن تاب وأناب (الذي خلق سبع سموات طباقا) الموصول يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا ، وأن يكون منقطعا عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح ، وطباقا صفة لسبع سموات : أي بعضها فوق بعض ، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحة ورحاب ، أو مصدر طابق ، يقال : طابق مطابقة وطباقا ، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف : أي ذات طباق ، ويجوز أن يكون منتصبا على المصدرية بفعل محذوف أي طوبقت طباقا (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له ، ومن مزيدة لتأكيد النفي . قرأ الجمهور « من تفاوت » وقرأ ابن مسعود وأصحابه وحمة والكسائي « تفوت » مشددا بدون ألف وهما لغتان : كالتعاهد والتعهد ، والتحمل والتحمل ، والمعنى على القراءتين : ماترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خالقها ، وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور : الشقوق والصدوع والخروق : أي أردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعينة . أخبر أولا بأنه لا تفاوت في خلقه ، ثم أمر ثانيا بتريد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة . قال مجاهد والضحاك : الفطور الشقوق جمع فطر : وهو الشق . وقال قتادة : هل ترى من خلل . وقال السدي : هل ترى من خروق ، وأصله من التفطر والانفطار ، وهو التشقق والانشقاق ، ومنه قول الشاعر :

بني لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور

شقت القلب ثم رددت فيه هواك فلم فالتام الفطور

وقول الآخر :

(ثم ارجع البصر كرتين) أي رجعتين مرة بعد مرة ، وانتصابه على المصدر ، والمراد بالثنائية التكثير كما في لبك وسعديك : أي رجعة بعد رجعة وإن كثرت . ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية ، ولهذا قال أولا (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) ثم قال ثانيا (فارجع البصر) ثم قال ثالثا (ثم ارجع البصر كرتين) فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة وأقطع للمعذرة (ينقلب إليك البصر خاسئا) أي يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا عن أن يرى شيئا من ذلك ، وقيل معنى خاسئا : مبعدا مطرودا عن أن يبصر ما التمس من العيب ، يقال : خسأت الكلب : أي أبعدته وطردته . قرأ الجمهور « ينقلب » بالجزم جوابا للأمر . وقرأ الكسائي في رواية بالرفع على الاستئناف (وهو حسير) أي كليل منقطع . قال الزجاج : أي وقد أعيا من قبل أن يزي في السماء خللا ، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور ، وهو الإعياء ، يقال : حسر بصره يحسر حسورا : أي كل وانقطع ، ومنه قول الشاعر :

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلى الطرف وهو محسب

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) بين سبحانه بعد خلق السموات وخلوها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة ، فصارت في أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجىء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح وهو السراج ، وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء كلضاعة السراج وبعض الكواكب وإن كان في غير سماء الدنيا من السموات التي فوقها ، فهي تراءى كأنها كلها في سماء الدنيا لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراما صقيلة شفافا (وجعلناها رجوما للشياطين) أي وجعلنا المصابيح رجوما يرمي بها الشياطين ، وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهي كونها زينة للسماء الدنيا ، والمعنى أنها يرمي بها الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به كما في قولهم : الدرهم ضرب الأمير : أي مضروبه ، ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدر مضاف محذوف : أي ذات رجم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه . وقيل إن الضمير في قوله (وجعلناها) راجع إلى المصابيح على حذف مضاف : أي شهبها ، وهي نارها المقتبسة منها ، لا هي أنفسها لقوله - إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب - ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرمي بها ، كذا قال أبو علي الفارسي جوابا لمن سأل : كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم ؟ قال القشيري : وأمثلة من قوله هذا أن نقول : هي زينة قبل أن يرمي بها الشياطين . قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدى وظلم ، وقيل معنى الآية : وجعلناها ظنونا للشياطين الإنس ، وهم المنجمون (وأعتدنا لهم عذاب السعير) أي وأعتدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب السعير : أي عذاب النار ، والسعير : أشد الحريق ، يقال سعرت النار فهي مسعورة (وللذين كفروا بربهم) من كفار بني آدم ، أو من كفار القرىقين « عذاب جهنم » قرأ الجمهور برفع « عذاب » على أنه مبتدأ وخبره « للذين كفروا » . وقرأ الحسن والضحاك والأعرج بنصبه عطفا على « عذاب السعير » (وبئس المصير) ما يصيرون إليه ، وهو جهنم (إذا ألقوا فيها) أي طرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار (سمعوا لها شهيقا) أي صوتا كصوت الحمير عند أول نهيها ، وهو أقبح الأصوات ، وقوله « لها » في محل نصب على الحال : أي كائنات لها ، لأنه في الأصل صفة ، فلما قدمت صارت حالا . وقال عطاء : الشهيق هو من الكفار عند إلقاءهم في النار ، وجملة (وهي تفور) في محل نصب على الحال : أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل ، ومنه قول حسان :

تركتم قدركم لاشيء فيه وقدر الغير حامية تفور

(تكاد تميز من الغيظ) أي تكاد تنقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيطها عليهم . قال ابن قتيبة : تكاد تنشق غيظا على الكفار . قرأ الجمهور « تميز » بتاء واحدة مخففة ، والأصل تميز بتاءين . وقرأ طلحة بتاءين على الأصل . وقرأ البزي عن ابن كثير بتشديد ما إدغام إحدى التاءين في الأخرى . وقرأ الضحاك « تمايز » بالالف وتاء واحدة والأصل تمايز ، وقرأ زيد بن علي « تميز » من ماز يميز ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو في محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ ، وجملة (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) مستأنفة لبيان حال أهلها ، أو في محل نصب على الحال من فاعل تميز ، والفوج الجماعة من الناس : أي كلما ألقى في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع (ألم يأتكم) في الدنيا (نذير) ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه ، وجملة (قالوا بلى قد

جاءنا نذير) مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا السؤال ، فقال : قالوا بلى قد جاءنا نذير فأندرنا وخوفنا وأخبرنا بهذا اليوم (فكذبنا) ذلك النذير (وقلنا ما نزل الله من شيء) من الأشياء على ألسنتكم (إن أنتم إلا في ضلال كبير) أى في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ، والمعنى أنه قال : كل فوج من تلك الأفواج حاكيا لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه : ما أنتم أيها الرسل فيم تدعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرونا بها إلا في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره . ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) أى لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل ، أو نعقل شيئا من ذلك ما كنا في عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير وهم الشياطين كما سلف . قال الزجاج : لو كنا نسمع سمع من يمي أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار ، فلما اعترفوا بهذا الاعتراف قال الله سبحانه (فاعترفوا بذنبهم) الذى استحقوا به عذاب النار ، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء (فسحقا لأصحاب السعير) أى فبعدا لهم من الله ومن رحمته . وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد في جهنم يقال له السحق . قرأ الجمهور « فسحقا » بإسكان الحاء . وقرأ الكسائي وأبو جعفر بضمها ، وهما لغتان مثل السحت والرعب . قال الزجاج وأبو عليّ الفارسي : فسحقا منصوب على المصدر : أى أحققهم الله سحقا . قال أبو عليّ الفارسي : وكان القياس إسحاقا فجاء المصدر على الحذف ، واللام في (لأصحاب السعير) للبيان كما في : هيت لك .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله (سبع سموات طباقا) قال : بعضها فوق بعض . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) قال : ماتفوت بعضه بعضها تفاوتاً مفرقا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا في قوله (من تفاوت) قال : من تشقق ، وفي قوله (هل ترى من فطور) قال : شقوق ، وفي قوله (خاسئا) قال : ذليلا (وهو حسير) كليل . وأخرج ابن جرير عنه أيضا . قال : الفطور الوهى . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (من فطور) قال : من تشقق أو خلل ، وفي قوله (ينقلب إليك البصر) قال : يرجع إليك (خاسئا) قال : صاغرا (وهو حسير) قال : معي ولا يرى شيئا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا خاسئا قال : ذليلا (وهو حسير) قال : عبي مرتجع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (تكاد تميز) قال : تتفرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (تكاد) تميز قال : يفارق بعضها بعضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (فسحقا) قال : بعدا .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ

مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ الْإِلَهِ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ
أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١).

قوله (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة ، وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول : أى غائبين عنه ، أو غائبا عنهم ، والمعنى : أنهم يخشون عذابه ولم يروه فيؤمنون به خوفا من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى : يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس وذلك في خلواتهم ، أو أو المراد بالغيب كون العذاب غائبا عنهم لأنهم في الدنيا ، وهو إنما يكون يوم القيامة فتكون الباء على هذا سببية (لهم مغفرة) عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم (وأجر كبير) وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله - من خشى الرحمن بالغيب - . ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال (وأسرؤا قلوبكم أو اجهرؤا به) هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوى الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه ، والمعنى : إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به فى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكل ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية ، وجملة (إنه عليم بذات الصدور) تعليل للاستواء المذكور ، وذات الصدور هى مضمرات القلوب ، والاستفهام فى قوله (ألا يعلم من خلق) للإنكار . ، والمعنى : ألا يعلم السرّ ومضمرات القلوب من خلق ذلك وأوجده ، فالوصول عبارة عن الخلق ، ويجوز أن يكون عبارة عن الخلق ، وفى يعلم ضمير يعود إلى الله : أى ألا يعلم الله المخلوق الذى هو من جملة خلقه ، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه ، وجملة (وهو اللطيف الخبير) فى محل نصب على الحال من فاعل يعلم : أى الذى لطف علمه بما فى القلوب ، الخبير بما تسره وتضمهره من الأمور ، لا تخفى عليه من ذلك خافية . ثم امتنّ سبحانه على عباده فقال (هو الذى جعل لكم الأرض ذابلا) أى سهلة آينة تستقرون عليها ، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشى عليها ، والذابل فى الأصل : هو المنقاد الذى يذل لك ولا يستصعب عليك ، والمصدر الذل ، والفاء فى قوله (فامشوا فى مناكبها) لترتيب الأمر بالمشى على الجبل المذكور ، والأمر للإباحة . قال مجاهد والكلبي ومقاتل : مناكبها طرقها وأطرافها وجوانبها . وقال قتادة وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها ، وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، ومنه الريح المنكب ، لأنها تأتى من جانب دون جانب (وكلوا من رزقه) أى مما رزقكم وخلقكم لكم فى الأرض (ولإليه النشور) أى وإليه البعث من قبوركم ، لا إلى غيره ، وفى هذا وعيد شديد . ثم خوف سبحانه الكفار . فقال (أمأنتم من فى السماء أن يحسف بكم الأرض) قال الواحدي : قال المفسرون : يعنى عقوبة من فى السماء ، وقيل من فى السماء : قدرته وسلطانه وعرشه وملائكته ، وقيل من فى السماء من الملائكة ، وقيل المراد جبريل ، ومعنى (أن يحسف بكم الأرض) يقلعها ملتبسة بكم كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذابلا تمشون فى مناكبها ، وقوله (أن يحسف) بدل اشتمال من الوصول : أى أمأنتم خسفه ، أو على حذف من : أى من أن يحسف (فإذا هى تمور) أى تضطرب وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون . قرأ الجمهور «أمأنتم» بهزتين ، وقرأ البصريون والكوفيون بالتخفيف ، وقرأ ابن كثير بقلب الأولى واوا . ثم كرّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال (أمأنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ، وقيل بحاب فيها حجارة ،

وقيل ريع فيها حجارة (فستعلمون كيف نذير) أى إنذارى إذا عاينتم العذاب ولا ينفعكم هذا العلم ، وقيل النذير هنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قاله عطاء والضحاك . والمعنى : ستعلمون رسولى وصدقه ، والأول أولى . والكلام (فى أن يرسل عليكم حاصبا) كالكلام فى (أن يخسف بكم الأرض) فهو إما بدل اشتمال ، أو بتقدير من (واقعد كذب الذين من قبلهم) أى الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية . كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس وقوم فرعون (فكيف كان نكير) أى فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات) الهمزة للاستفهام والواو للعطف على مقدر : أى أغفلوا ولم ينظروا ، ومعنى (صافات) أنها صافة لأجنحتها فى الهواء وتبسيطها عند طيرانها (ويقبضن) أى يضممن أجنحتهن . قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه صاف ، وإذا ضمها قابض كأنه يقبضها ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ، ومنه قول أبى خراش :

يبادر جنح الليل فهو مزايل تحت الجناح بالتبسط والقبض

وإنما قال (ويقبضن) ولم يقل قابضات كما قال صافات ، لأن القبض يتجدد تارة فتارة ، وأما البسط فهو الأصل ، كذا قيل . وقيل إن معنى (ويقبضن) قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران ، لا قبضها فى حال الطيران ، وجملة (ما يمسكهن إلا الرحمن) فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن ، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه . والمعنى : أنه ما يمسكهن فى الهواء عند الطيران إلا الرحمن القادر على كل شىء (إنه بكل شىء بصير) لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان (أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند الحزب والمنعة . قرأ الجمهور « أمّن » هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من ، وأم بمعنى بل ، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة ، لأن بعدها هنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير ، ومن الاستفهامية مبتدأ ، واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الإشارة ، وينصركم صفة لجند ، ومن دون الرحمن فى محل نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى : بل من هذا الحقيق الذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوزا نصر الرحمن : وقرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى وتثقيب الثانية ، وجملة (إن الكافرون إلا فى غرور) معترضة مقررة لما قبلها ناعية عليهم ما هم فيه من الضلال ، والمعنى : ما الكافرون إلا فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرهم به (أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) الكلام فى هذا كالكلام فى الذى قبله قراءة وإعرابا : أى من الذى يدرّ عليكم الأرزاق من المطر وغيره إن أمسك الله ذلك عنكم ومنعه عليكم (بل لجوا فى عتو ونفور) أى لم يتأثروا لذلك ، بل تمادوا فى عناد واستكبار عن الحق ونفور عنه ولم يعتبروا ولا تفكروا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه : أى إن أمسك رزقه فن يرزقكم غيره ، والعتو العناد والطغيان ، والنفور الشرود .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) قال : أبو بكر وعمر وعليّ وأبو عبيدة ابن الجراح ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (فى مناكبها) قال : جبالها . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أطرافها . وأخرج الطبرانى وابن عدى والبيهقى فى الشعب والحكيم الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (بل لجوا فى عتو ونفور) قال : فى ضلال .

أَقْمَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ
 هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ
 الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ
 وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ
 وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ
 وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاوُكُمْ
 غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) .

ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان ما لهما ، فقال (أقمن يمشي مكباً على وجهه أهدى)
 والمكب والمنكب : الساقط على وجهه ، يقال كبته فأكب وانكب ، وقيل هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يمينا
 ولا شمالاً ولا أماماً فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه . وقيل أراد به الأعمى الذي لا يهتدى إلى الطريق فلا
 يزال مشيه ينكسه على وجهه . قال قتادة : هو الكافر يكب على معاصي الله في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على
 وجهه . والهمزة للاستفهام الإنكاري : أي هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده (أقمن)
 يمشي سويًا معتدلاً ناظراً إلى ما بين يديه (على صراط مستقيم) أي على طريق مستوي لا اعوجاج به ولا انحراف
 فيه ، وخبر من محذوف للدلالة خبر من الأولى وهو أهدى عليه ، وقيل لاجابة إلى ذلك ، لأن من الثانية معطوفة
 على من الأولى عطف المفرد على المفرد ، كقولك أزيد قائم أم عمرو ؟ وقيل أراد بمن يمشي مكباً على وجهه من
 يحشر على وجهه إلى النار ، ومن يمشي سويًا من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذي ذكرناه ،
 ومثله قوله - ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم - قل هو الذي أنشأكم - أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله
 وسلم أن يخبرهم بأن الله هو الذي أنشأهم النشأة الأولى (وجعل) لهم (السمع) ليسمعوا به (والأبصار) ليبصروا
 بها ، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، وقد قد منا بيان هذا في مواضع مع
 زيادة في البيان (والأفئدة) القلوب التي يتفكرون بها في مخلوقات الله ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم
 ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحاً للحجة وقطعاً للمعذرة وذمًا لهم على عدم شكر نعم الله ،
 ولهذا قال (قليلاً ما تشكرون) وانتصاب قليلاً على أنه نعت مصدر محذوف ، وما مزيدة للتأكيد : أي شكراً قليلاً أو
 زماناً قليلاً ، وقيل أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم . قال مقاتل : يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه
 (قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون) أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبرهم أن الله هو
 الذي خلقهم في الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره . ثم ذكر سبحانه أنهم
 يستعجلون العذاب فقال (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أي متى هذا الوعد الذي تذكرونه لنا من

الحشر والقيامة والنار والعذاب إن كنتم صادقين في ذلك ، والخطاب منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولمن معه من المؤمنين ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فينبوه لنا ، وهذا منهم استهزاء وسخرية . ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عليهم فقال (قل إنما العلم عند الله) أى إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره ، ومثله قوله - قل إنما علمها عند ربى - ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال (وإنما أنا نذير مبين) أنذركم وأخوفكم عاقبة كفركم وأبين لكم ما أمرنى الله ببيانه . ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معاناة العذاب فقال (فلما رأوه زلفة) يعنى رأوا العذاب قريباً ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل : أى مزدلفاً أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف : أى ذا زلفة وقرب ، أو ظرف : أى رأوه فى مكان ذى زلفة . قال مجاهد : أى قريباً . وقال الحسن : عياناً . قال أكثر المفسرين : المراد عذاب يوم القيامة ، وقال مجاهد : المراد عذاب بلر ، وقيل رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم كما يدل عليه قوله (ولأيه تحشرون) وقيل لما رأوا عملهم السيئ قريباً (سيئت وجوه الذين كفروا) أى اسودت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة ، يقال ساء الشيء يسوء فهو سيئ إذا قبح . قال الزجاج : المعنى تبين فيها السوء : أى ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسبه فى وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله - يوم تبيض وجوه وتسود وجوه - . قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام ، وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وابن محيصن بالإشمام (وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) أى قيل لهم توبيخاً وتقريباً هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الذى كنتم به تدعون فى الدنيا : أى تطلبونه وتستعجلون به استهزاء ، على أن معنى تدعون الدعاء . قال الفراء : تدعون تفتعلون من الدعاء : أى تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين . وقال الزجاج : هذا الذى كنتم به تدعون الأباطيل والأحاديث . وقيل معنى تدعون : تكذبون ، وهذا على قراءة الجمهور « تدعون » بالتشديد ، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر ، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه ، والمعنى : أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار . وقرأ قتادة وابن أبى إسحاق ويعقوب والضحاك : تدعون مخففاً ، ومعناها ظاهر . قال قتادة : هو قولهم - ربنا عجل لنا قطناً - وقال الضحاك : هو قولهم - اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء - الآية . قال النحاس : تدعون وتدعون بمعنى واحد كما تقول قدر واقتدر ، وغدا واغتدى ، إلا أن أفعل معناه مضى شيئاً بعد شيء ، وفعل يقع على القليل والكثير (قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى) أى أخبرونى إن أهلكنى الله بموت أو قتل ، ومن معى من المؤمنين (أو رحمتنا) بتأخير ذلك إلى أجل ، وقيل المعنى : إن أهلكنى الله ومن معى بالعذاب ، أو رحمتنا فلم يعذبنا (فن يجر الكافرين من عذاب أليم) أى فن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب . والمعنى : أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنون ، أو أمهلهم . وقيل المعنى : إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء ، فن يجركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمرة للتسجيل عليهم بالكفر ، وبيان أنه السبب فى عدم نجاتهم (قل هو الرحمن آمنا به) وحده ، لا نشرك به شيئاً (وعليه توكلنا) لا على غيره ، والتوكل : تفويض الأمور إليه عز وجل (فستعلمون من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم ، وفى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف . قرأ الجمهور « ستعلمون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الكسائى بالتحنية على الخبر ، ثم احتج سبحانه عليهم ببعض نعمه ، ونحو فهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً) أى أخبرونى إن صار ماؤكم غائراً فى الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً ، أو صار ذاهباً فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء . يقال

غار الماء غورا : أى نصب ، والغور الغائر ، وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف (فمن يأتىكم بماء معين) أى ظاهر تراه العيون ، وتنااله الدلاء ، وقيل هو من فعل الماء : أى كثر . وقال قتادة والضحاك : أى جار ، وقد تقدم معنى المعين في سورة المؤمن . وقرأ ابن عباس « فمن يأتىكم بماء عذب » .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (أفن يمشى مكبا) قال : في الصلاة (أمّن يمشى سويا) قال : مهتديا . وأخرج الخطيب في تاريخه وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هذه الآية (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) » . وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات - وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فاستقر ومستودع - إلى - يفقهون - و (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) فإنه يبرأ بإذن الله » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (إن أصبح ماؤكم غورا) قال : داخلا في الأرض (فمن يأتىكم بماء معين) قال : الجارى . وأخرج ابن المنذر عنه (إن أصبح ماؤكم غورا) قال : يرجع في الأرض : وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (بماء معين) قال : ظاهر . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا (بماء معين) قال عذب .

تفسير سورة ن

هي اثنتان وخمسون آية

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أن من أولها إلى قوله (سنسمه على الخرطوم) مكية ، ومن بعد ذلك إلى قوله (من الصالحين) مدني ، وباقيها مكية كذا قال الماوردي . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء ، وكان أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك » ثم نون ، ثم المزمل ، ثم المدثر . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عنه قال : نزلت سورة ن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشْأٍ بِشِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ

مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُلِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنْجِيمٌ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) .

قوله (ن) قرأ أبو بكر وورش وابن عامر والكسائي وابن محيصن وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو . وقرأ الباقر بالإظهار . وقرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل . وقرأ ابن عامر ونصر وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميع وهارون بضمها على البناء . قال مجاهد ومقاتل والسدي : هو الحوت الذي يحمل الأرض وبه قال مرة الهذلي وعطاء الخراساني والكلبي . وقيل إن نون آخر حرف من حروف الرحمن . وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به . وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة . وقال عطاء وأبو العالية : هي النون من نصر وناصر . قال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين ، وقيل هو حرف من حروف الهجاء ، كالقوافح الواقعة في أوائل السور المفتحة بذلك ، وقد عرفناك ما هو الحق في مثل هذه القوافح في أول سورة البقرة ، والواو في قوله (والقلم) واو القسم ، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به . وقال جماعة من المفسرين : المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ ، أقسم الله به تعظيماً له . قال قتادة : القلم من نعمة الله على عباده (وما يسطرون) ما موصولة : أي والذي يسطرون ، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره ، لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب . والمعنى : والذي يسطرون : أي يكتبون كل ما يكتب ، أو الحفظة على ما تقدم . ويجوز أن تكون ما مصدرية : أي ونسطرهم ، وقيل الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وجواب القسم قوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ما نافية ، وأنت اسمها ، وبمجنون خبرها . قال الزجاج : أنت هو اسم ما ، وبمجنون خبرها ، وقوله (بنعمة ربك) كلام وقع في الوسط : أي انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال أنت بحمد الله عاقل ، قيل الباء متعلقة بمضمر هو حال ، كأنه قيل أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة . وقيل الباء للقسم : أي وما أنت ونعمة ربك بمجنون . وقيل النعمة هنا الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا - يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون - (وإن لك لأجراً أي ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة ، وقاسيت من أنواع الشدائد (غير ممنون) أي غير مقطوع ، يقال مننت الحبل إذا قطعته . وقال مجاهد : غير ممنون غير محسوب ، وقال الحسن : غير ممنون غير مكدر باليمن . وقال الضحاك : أجرا بغير عمل ، وقيل غير مقدر ، وقيل غير ممنون به عليك من جهة الناس (وإنك لعل خلق عظيم) قيل هو الإسلام والدين ، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين . وقيل هو القرآن ، روى هذا عن الحسن والعوفي . وقال قتادة : هو ما كان ياتر به من أمر الله وينتهي عنه من نهى الله . قال الزجاج : المعنى إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن ، وقيل هو رفقة بأمنته وإكرامه إياهم ، وقيل المعنى : إنك على طبع كريم . قال الماوردي : وهذا هو الظاهر ، وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب . وقد ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن ، وهذه الجملة والتي قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم (فستبصر ويبصرون) أي ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء وذلك يوم القيامة (بأيكم المقتون) الباء زائدة للتأكيد : أي أيكم المفتون بالجنون ، كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما ، ومثله قول الشاعر :

نحن بنو جمعة أصحاب العليج نصر ببالسيف ونرجو بالفرج
وقيل ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول ، كالمعقول والميسور ، والتقدير : بأيكم الفتون
أو الفتنة ، ومنه قول الشاعر الراعي :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

أى عقلا . وقال الفراء : إن الباء بمعنى في : أى فى أيكم المفتون ، أى الفريق الذى أنت فيه ، أم فى الفريق الآخر ؟
ويؤيد هذا قراءة ابن أبى عبة فى أيكم المفتون ، وقيل الكلام على حذف مضاف : أى بأيكم فتن المفتون ، فحذف
المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، روى هذا عن الأخفش أيضا . وقيل المفتون المذهب ، من قول العرب فتنت
الذهب بالنار إذا أحيطه ، ومنه قوله - يوم هم على النار يفتنون - ، وقيل المفتون هو الشيطان ، لأنه مفتون فى دينه ،
والمعنى : بأيكم الشيطان . وقال قتادة : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى : سترى ويرى أهل مكة إذا
نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون ، وجملة (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) تعليل للجملة التى
قبلها ، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضررهم
فيهما ، والمعنى : هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين (وهو أعلم بالمهتدين) إلى سبيله الموصل
إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، وإن شرا فشر (فلا تطع المكذبين)
نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين ، وهم رؤساء كفار مكة ، لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آبائهم ، فنهاه الله عن
طاعتهم ، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار ، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف مافى الضمير ،
فنهاه الله عن ذلك كما يدل عليه قوله (ودّوا لو تدهن فيدهنون) فإن الإدهان هو الملاينة والمساخمة والمداراة .
قال الفراء : المعنى لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبي . وقال الضحاك والسدي : ودّوا لو تكفر فيتمادوا على
الكفر . وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون . وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون
معك . وقال الحسن : ودّوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك . وقال مجاهد : ودّوا لو تركن إليهم وترك
ما أنت عليه من الحق فيما يلونك . قال ابن قتيبة : كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدة ، ويعبدوا الله مدة ،
وقوله « فيدهنون » عطف على تدهن داخل فى حيز لو ، أو هو خبر مبتدأ محذوف : أى فهم يدهنون . قال
سيبويه : وزعم قالون أنها فى بعض المصاحف « ودّوا لو تدهن فيدهنوا » بدون نون ، والنصب على جواب التمنى
المنهوم من ودّوا ، والظاهر من اللغة فى معنى الإدهان هو ما ذكرناه أولا (ولا تطع كل حلاف) أى كثير
الحلف بالباطل (مهين) فعيل من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز . وقال مجاهد : هو الكذاب . وقال قتادة :
المكثر فى الشر ، وكذا قال الحسن . وقيل هو الفاجر العاجز ، وقيل هو الحقير عند الله ، وقيل هو الدليل ،
وقيل هو الوضيع (هناز مشاء بنميم) الهماز المغتاب للناس . قال ابن زيد : هو الذى يهمز بأخيه ، وقيل الهماز
اندى ، يذكر الناس فى وجوههم ، واللام الذى يذكرهم فى مغيبهم ، ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن
أبى رباح ، وقال مقاتل عكس هذا . والمشاء بنميم : الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال نمّ نمّ :
إذا سعى بالفساد بين الناس ، ومنه قول الشاعر :

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم

وقيل النميم جمع نميمة (مناع للخير) أى بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه ، وقيل هو الذى يمنع أهله وعشيرته عن

الإسلام . قال الحسن : يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفحه بشيء أبدا (معتد أثم) أى متجاوز الحد في الظلم كثير الإثم (عتل) قال الواحدى : المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق . وقال الفراء : هو الشديد الحصومة في الباطل . وقال الزجاج : هو الغليظ الخافى . وقال الليث : هو الأكل المتنوع ، يقال عتل الرجل أعتله : إذا جذبته جذبا عنيفا ، ومنه قول الشاعر :
نقرعه قرعا ولسنا نعتله * (بعد ذلك زيم) أى هو بعد ما عد من معايه زيم ، والزيم هو الدعى الملتصق بالقوم وليس هو منهم ؛ مأخوذ من الزنمة المتدلية في حلق الشاة ، أو الماعز ، ومنه قول حسان :

زيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وقال سعيد بن جبير : الزيم المعروف بالشر ، وقيل هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة ، وقيل هو الظلوم (أن كان ذا مال وبنين) متعلق بقوله « لاتطع » أى لاتطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنين . قال الفراء والزجاج : أى لأن كان ، والمعنى : لاتطعه لماله وبنيه . قرأ ابن عامر وأبو جعفر والمغيرة وأبو حيوة « أن كان » بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام . وقرأ حمزة وأبو بكر والمنضل « أن كان » : بهمزتين مخففتين ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي خوله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله . وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط ، وجملة (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي ، وقد تقدم معنى أساطير الأولين في غير موضع (سنسمه على الخرطوم) أى سنسمه بالكى على خرطومه . قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم الأنف . قال مقاتل : سنسمه بالسواد على الأنف ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار . قال الفراء : والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإنه في مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدى عن بعض . قال الزجاج : سيجعل له في الآخرة العلم الذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوهمهم . وقال قتادة : سنلحق به شيئا لا يفارقه ، واختار هذا ابن قتيبة ، قال : والعرب تقول : قد وسمه ميسم سوء يريدون ألصق به عارا لا يفارقه ، فالمعنى : أن الله ألحق به عارا لا يفارقه كما وسم على الخرطوم ، وقيل معنى سنسمه : سنحطمه بالسيف . وقال النضر بن شميل : المعنى سنحده على شرب الخمر ، وقد يسمى الخمر بالخرطوم ومنه قول الشاعر :

تظل يومك في لهو وفي طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والخطيب في تاريخه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : إن أول شيء خلقه الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم ، وكان عرشه على الماء ، فارتفع بخار الماء ففتت منه السموات ، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس (نون والقلم وما يسطرون) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد » . وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه . وأخرج ابن

جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ، وهى الدواة وخاق القلم ، فقال اكتب ، قال وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وأخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : نـ الدواة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « النون السمكة التى عليها قرار الأرضين ، والقلم الذى خط به ربنا عز وجل القدر خيره وشره وضره ونفعه (وما يسطرون) قال : الكرام الكاتبون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله (وما يسطرون) قال : ما يكتبون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه (وما يسطرون) قال : وما يعلمون . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت : يا أم المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن (إنك لعلى خلق عظيم) . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل والواحدى عنها قالت « ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مادعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال ليبيك ، فلذلك أنزل الله (وإنك لعلى خلق عظيم) » . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أبى الدرداء قال « سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه » . وأخرج ابن أبى شيبه والترمذى وصححه وابن مردويه عن أبى عبد الله الجلى قال « قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قالت : لم يكن فاحشا ولا متفاحشا ، ولا صحابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسبيطة السيئة ، ولكن يعفو ويصنع » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (فستبصر ويبصرون) قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة (بأبيكم المفتون) قال الشيطان ، كانوا يقولون إنه شيطان وإنه مجنون . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : بأبيكم المجنون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (ودوا لو تدهن فيدهنون) يقول : لو ترخص لهم فيرخصون . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (ولا تطع كل حلاف مهين) الآية قال : يعنى الأسود بن عبد يغوث . وأخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدي قال « قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبى بكر وعمر فقال عبدالرحمن ابن أبى بكر : إنها ليست بسنة أبى بكر وعمر ولكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذى أنزل فيه - والذى قال لوالديه أف لكما - الآية ، قال : فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل فى عبد الرحمن ، ولكن نزل فى أبيك (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال « نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) فلم نعرف حتى نزل عليه بعد ذلك زنيم ، فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : العتل هو الدعى ، والزنيم هو المريب الذى يعرف بالشر . وأخرج عبد بن حميد وابن عساكر عنه قال : الزنيم : هو الدعى . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه عنه أيضا قال : الزنيم الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : هو الرجل يمر على القوم ، فيقواون رجل سوء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله (زنيم) قال : ظلوم ، وقد قيل إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق ، وقيل فى الوليد بن المغيرة

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ (٢٥) فَلَمَّارَ أَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْ سَطُّهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طُغِينَ (٣١) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رُغْبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣).

قوله (إنا بلوناهم) يعنى كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، والابتلاء الاختبار ، والمعنى : أعطيناهم الأموال ليشكروا ولا لييطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط (كما بلونا أصحاب الجنة) المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدى حق الله منها ، فمات وصارت إلى أولاده ، فنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله فيها . قال الواحدى : هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل وكان أبوهم يجعل ما فيها من كل شيء حظا للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه : المال قليل ، والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين ، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله فى كتابه . قال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم . وقيل هى جنة كانت بصوران ، وصوران على فراسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير (إذ أقسموا ليصرمها مصبحين) أى حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح ، والصرم القطع للثمر والزرع ، وانتصاب « مصبحين » على الحال من فاعل ليصرمها ، والكاف فى « كما بلونا » نعت مصدر مخنوف : أى بلوناهم ابتلاء كما بلونا ، وما مصدرية ، أو بمعنى الذى ، وإذا ظرف لبلونا منتصب به ، وليصرمها جواب القسم (ولا يستشنون) يعنى ولا يقولون إن شاء الله ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم ، أو حال . وقيل المعنى : ولا يستشنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه أبوهم إليهم ، قاله عكرمة (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) أى طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه ، والطائف قيل هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل : وقيل الطائف جبريل اقتلعها ، وجملة (وهم نائمون) فى محل نصب على الحال (فأصبحت كالصريم) أى كالشيء الذى صرمت ثماره : أى قطعت ، فعيل بمعنى مفعول . وقال الفراء : كالصريم كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهم

والمعنى : أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمية . وقال الأخفش :

أى كالصبح انصرم من الليل ، يعنى أنها يبت وابتضت . وقال المبرد : الصريم الليل ، والصريم النهار : أى ينصرم هذا عن هذا ، وذاك عن هذا ، وقيل سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف . وقال المورج : الصريم الرملة لأنها لا يثبت عليها شئ ى يذفع به . وقال الحسن : صرم منها الخير : أى قطع (فتنادوا مصبحين) أى نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض (أن اغدوا على حرثكم) و « أن » فى قوله « أن اغدوا » هى المفسرة لأن فى التنادى معنى القول ، أو هى المصدرية : أى بأن اغدوا ، والمراد اخرجوا غدوة ، والمراد بالحرث الثمار والزرع (إن كنتم صارمين) أى قاصدين للصرم ، والغلو يتعدى إلى وعلى ، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، وجواب الشرط محذوف : أى إن كنتم صارمين فاغدوا ، وقيل معنى صارمين ماضين فى العزم ، من قولك سيف صارم (فانطلقوا وهم يتخافتون) أى ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم ، يقال خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس ، ومنه قول دريد بن الصمة :

ولم أهلك ملالا ولم أمت خفاتا وكلا ظنه بى عويمر

وقيل المعنى : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم ، فيقصدهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأول أولى لقوله (أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين) فإن أن هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول . والمعنى : يسر بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين ، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم (وغدوا على حرد قادرين) الحرد يكون بمعنى المنع والقصد . قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد ، لأن القاصد إلى الشئ حارد يقال : حرد بحرد إذا قصد ، تقول : حردت حردك : أى قصدت قصدك ، ومنه قول الراجز :

أقبل سبل جاء من عند الله يحرد حرد الجنة المحله

وقال أبو عبيدة والمبرد والقتبي : على حرد على منع ، من قولهم حردت الإبل حردا : إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هى القليلة اللبن . وقال السدي وسفيان والشعبي (على حرد) على غضب ، ومنه قول الشاعر :

إذا جياذ الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر : . . . تساقوا على حرد دماء الأساود . . . ومنه قيل أسد حارد . وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أنهما قالوا : على حرد : أى على حسد . وقال الحسن أيضا : على حاجة وفاقة . وقيل على حرد : على انفراد ، يقال حرد يحرد حردا أو حرودا : إذا تنحى عن قومه ونزل منفردا عنهم ولم يخالطهم ، وبه قال الأصمعي وغيره . وقال الأزهري : حرد اسم قريتهم ، وقال السدي : اسم جنتهم . قرأ الجمهور « حرد » بسكون الراء . وقرأ أبو العالية وابن السميع بفتحها ، وانتصاب (قادرين) على الحال . قال الفراء : ومعنى قادرين : قد قدروا أمرهم وبنوا عليه ، وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم . وقال الشعبي : يعنى قادرين على المساكين (فلما رأوها) أى لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حل بها من الآفة التى أذهبت ما فيها (قالوا إنا لضالون) أى قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه ، ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا (بل نحن محرومون) أى حرمتنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأول إلى هذا القول ، وقيل معنى قولهم (إنا لضالون) أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم (قال أوسطهم) أى أمثلهم وأعقلهم وخيرهم (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى هلا

تسبحون : يعنى تستثنون ، وسبى الاستثناء تسبيحا ، لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناءهم تسبيحا . قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل ، فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله . وقيل المعنى : هلا تستغفرون الله من فعلكم وتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) أى تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا ، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه ، وقيل معنى تسبيحهم الاستغفار : أى نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أى يلوم بعضهم بعضا في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث (قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين) أى عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء . قال ابن كيسان : أى طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عز وجل أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم ، قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها . قرأ الجمهور « يبدلنا » بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل تغيير ذات الشيء ، أو تغيير صفته ، والإبدال رفع الشيء جملة ووضع آخر مكانه ، كما مضى في سورة سبأ (إنا إلى ربنا راغبون) أى طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه وعدى إلى وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع (كذلك العذاب) أى مثل ذلك العذاب الذى بلونا به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ، والعذاب مبتدأ مؤخر ، وكذلك خبره (وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كما بلونا أصحاب الجنة) قال : هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين ، فأت أبوهم فقال بنوه : أن كان أبونا لأحق كان يطعم المساكين (فأقسموا ليصرمها) وأن لا يطعموا مسكينا . وأخرج ابن جرير عنه (فطاف عليها طائف) قال : أمر من الله وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إياكم والمعصية ، فإن العبد ليزن الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليزن فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليزن الذنب فيحرم به رزقا قد كان بهىء له . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كالصريم) قال : مثل الليل الأسود . وأخرج ابن المنذر عنه (وهم يتخافتون) قال : الإسرار والكلام الخفى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (على حرد قادرين) يقول ذو قدرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (إنا لضالون) قال : أضللنا مكان جنتنا . وأخرج عنه أيضا (قال أوسطهم) قال : أعد لهم

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٢٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٢٥)
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٢٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٢٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا
تَخِيرُونَ (٢٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ (٢٩)

لَهُمْ أَهْلُهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)
يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
تَرَهْقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا
الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْ لَا أَنْ تَدْرِكُهُ
نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ
يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)
وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢).

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار ، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين
وما أعد لهم من الخير ، فقال (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) أى المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي
عنده عز وجل في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال (أفنجعل
المسلمين كالمجرمين) الاستفهام للإنكار ، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ
المسلمين فيها ، فلما سمعوا بذكر الآخرة ، وما يعطى الله المسلمين فيها قالوا : إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا
وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، فقال الله مكذبا لهم راداً عليهم : أفنجعل المسلمين الآية ، والفاء للعطف على مقدر
كنظائره . ثم وبخهم الله ، فقال (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوض إليكم تحكمون
فيه بما شئتم (أم لكم كتاب فيه تدرسون) أى تقرءون فيه فتجدون المطيع كالعاصي ، ومثل هذا قوله تعالى - أم لكم
سلطان مبين فأتوا بكتابكم - ثم قال سبحانه (إن لكم فيه لما تخيرون) قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة
لتدرسون : أى تدرسون في الكتاب (إن لكم فيه لما تخيرون) فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله : علمت
إنك لعاقل بالكسر ، أو على الحكاية للمدروس ، كما في قوله - وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في
العالمين - وقيل قد تم الكلام عند قوله (تدرسون) ثم ابتداء فقال (إن لكم فيه لما تخيرون) أى ليس لكم ذلك ،
وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك « أن لكم » بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد
ومعنى (تخيرون) تخنارون وتشتهون . ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال (أم لكم أيمان علينا بالغة) أى عهود
موثقة متناهية ، والمعنى أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة ، وقوله (إلى يوم القيامة)
متعلق بالمقدر في لكم أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لانخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، وجواب القسم قوله (إن
لكم لما تحكمون) لأن معنى (أم لكم أيمان) أى أم أقسمنا لكم . قال الرازي : والمعنى أم أضمتكم وأقسمنا لكم

بإيمان مغلظة متناهية في التوكيد . وقيل قد تمّ الكلام عند قوله (إلى يوم القيامة) ثم ابتداء فقال (إن لكم لما تحكمون) أي ليس الأمر كذلك . قرأ الجمهور « بالغة » بالرفع على النعت لإيمان ، وقرأ الحسن وزيد بن عليّ بنصيبها على الحال من إيمان ، لأنها قد تخصصت بالوصف ، أو من الضمير في لكم أو من الضمير في علينا (سلمهم أيهم بذلك زعيم) أي سل يا محمد الكفار موبخا لهم ومقرّعا أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها . وقال ابن كيسان : الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى . وقال الحسن : الزعيم الرسول (أم لهم شركاء) يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه (فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) فيما يقولون وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف ، وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة (يوم يكشف عن ساق) يوم ظرف لقوله فليأتوا : أي فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ، ويجوز أن يكون ظرفا لفعل مقدّر : أي اذكر يوم يكشف . قال الواحدي : قال المفسرون في قوله (عن ساق) عن شدة من الأمر . قال ابن قتيبة : أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجدة فيه شمر عن ساقه ، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدة ، وأنشد للدريد بن الصمة :

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد

وقال : وتأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق . قال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدة شمر عن ساقه ، فاستغیر الساق والكشف عن موضع الشدة ، وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
وقول آخر : والخيل تعدو عند وقت الاشرار وقامت الحرب بنا على ساق
وقول آخر أيضا :

قد كشفت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا
وقول آخر أيضا في سنة :

قد كشفت عن ساقها حمرا ء تبرى اللحم عن عراقها

وقيل ساق الشيء : أصله وقوامه كساق الشجرة ، وساق الإنسان : أي يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه ، وقيل يكشف عن ساق جهنم ، وقيل عن ساق العرش ، وقيل هو عبارة عن القرب ، وقيل يكشف الرب سبحانه عن نوره ، وسيأتي في آخر البحث ما هو الحق ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . قرأ الجمهور « يكشف » بالتحية مبني للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن أبي عبله « تكشف » بالفوقية مبني للفاعل : أي الشدة أو الساعة ، وقرأ بالفوقية مبني للمفعول ، وقرأ بالنون ، وقرأ بالفوقية المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر : أي دخل في الكشف (ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) قال الواحدي : قال المفسرون : يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ، لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود . قال الربيع بن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ، لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا ، وانتصاب (خاشعة أبصارهم) على الحال من ضمير يدعون ، وأبصارهم مرتفع به على الفاعلية ، ونسبة الخشوع إلى الإبصار ، وهو الخضوع

والذلة لظهور أثره فيها (ترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة شديدة وحسرة وندامة (وقد كانوا يدعون إلى السجود)
 أى فى الدنيا (وهم سالمون) أى معافون عن العلل متمكنون من الفعل . قال إبراهيم التيمى : يدعون بالأذان
 والإقامة فيأبون . وقال سعيد بن جبير : يسمعون حتى على الفلاح فلا يجيبون . قال كعب الأحبار : والله ما نزلت
 هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات . وقيل يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون ،
 وجملة (وهم سالمون) فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) أى حل
 بيني وبينه وكل أمره إلى فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه لا يشتغل به قلبك ، كله إلى فأنا أكفيك أمره . والفاء
 لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها ، و « من » منصوب بالعطف على ضمير المتكلم أو على أنه مفعول معه ،
 والمراد بهذا الحديث القرآن ، قاله السدى . وقيل يوم القيامة ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 وجملة (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله « ذرني ومن يكذب
 بهذا الحديث » ، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها ، والمعنى : سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه
 درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج ، لأنهم يظنونهم إنعاما ولا يفكرون فى عاقبته
 وما سيأتون فى نهايته . قال سفيان الثوري : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر . وقال الحسن : كم من مستدرج
 بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . والاستدراج ترك المعاجلة ، وأصله
 النقل من حال إلى حال ، ويقال استدراج فلان فلانا : أى استخرج ما عنده قليلا قليلا ، ويقال درجه إلى كذا
 واستدرجه : يعنى أدناه إلى التدرج فتدرج هو . ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال (وأملئ لهم) أى أمهلهم
 ليزدادوا إثما ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف والطور ، وأصل الملاوة المدة من الدهر ، يقال أملئ الله
 له : أى أطال له المدة ، والملا : مقصور الأرض الواسعة ، سميت به لامتدادها (إن كيدى متين) أى قوى
 شديد فلا يفوتنى شيء ، وسمى سبحانه إحسانه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته
 ووصفه بالمتانة لقوة أثره فى التسبب للهلاك (أم تسألهم أجرا) أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدم من قوله - أم لهم شركاء -
 أى أم تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله (فهم من مغرم مثقلون) المغرم الغرامة : أى فهم من
 غرامة ذلك الأجر ، ومثقلون : أى يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال ، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب ،
 والاستغناءم للتوبيخ والتفريع لهم ، والمعنى : أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) أى
 اللوح المحفوظ ، أو كل ما غاب عنهم ، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل
 على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك
 والامتنال لما تقول (فاصبر لحكم ربك) أى لقضائه الذى قد قضاه فى سابق علمه ، قيل والحكم هنا هو إمامهم
 وتأخير نصرته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، وقيل هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة ، قيل وهذا
 منسوخ بآية السيف (ولا تكن كصاحب الحوت) يعنى يونس عليه السلام : أى لا تكن مثله فى الغضب والضجر
 والعجلة والظرف فى قوله (إذ نادى) منصوب بمضاف محذوف : أى لا تكن خالك كحال ه وفت نداءه ، وجملة
 (وهو مكظوم) فى محل نصب على الحال من فاعل نادى ، والمكظوم المملوء غيظا وكربا . قال قتادة : إن الله
 يعزى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدم بيان قصته
 فى سورة الأنبياء ويونس والصفافات ، وكان النداء منه بقوله - لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين -

وقيل إن المكظوم: المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس . قاله المبرد ، وقيل هو المحبوس ، والأول أولى ، ومنه قول ذي الرمة :

وأنت من حبّى مضمر حزنا عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

(لولا أن تداركه نعمة من ربه) أى لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله وهى توفيقه للتوبة فتأب الله عليه (لنبد بالعراء) أى لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الحالية من النبات (وهو مذموم) أى يذم ويلام بالذنب الذى أذنبه ويطرده من الرحمة ، والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبد . قال الضحاك : النعمة هنا النبوة . وقال سعيد بن جبير : عبادته التى سلفت . وقال ابن زيد : هى نداؤه بقوله - لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين - وقيل مذموم مبعده . وقيل مذنب . قرأ الجمهور « تداركه » على صيغة الماضى ، وقرأ الحسن وابن هرمز والأعمش بتشديد الدال ، والأصل تتداركه بتاءين مضارعاً فأدغم ، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية ، وقرأ أبى وابن مسعود وابن عباس « تداركته » بتاء التانيث (فاجتباها ربه) أى استخلصه واصطفاه واختاره للنبوة (فجعله من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح وعصمه من الذنب ، وقيل ردّ إليه النبوة وشفعه فى نفسه وفى قومه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدم (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) إن هى الخفقة من الثقل . قرأ الجمهور « ليزلقونك » بضم الياء من أزلقه : أى أزلّ رجله ، يقال أزلقه عن موضعه إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه : إذا تنحى . قال الهروى : أى فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ومجاهد وأبو وائل « ليرهقونك » أى يهاكونك . وقال الكاظمي « يزلقونك » أى يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، وكذا قال السدّى وسعيد بن جبير . وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك . وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك . قال الزجاج فى الآية مذهب أهل اللغة والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون ينظروهم نظر البغضاء أن يصرعوك ، وهذا مستعمل فى الكلام ، يقول القائل نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى ، ونظرا يكاد ياكلنى . قال ابن قتبية : ليس يريد الله أنهم يصيرونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، كما قال الشاعر :

يتعارضون إذا التقوا فى مجلس نظرا يزيل مواطن الأقدام

(لما سمعوا الذكر) أى وقت سماعهم للقرآن لكراهتهم لذلك أشد كراهة ، ولما ظرفية منصوبة بيزلقونك ، وقيل هى حرف ، وجوابها محذوف للدلالة ما قبله عليه أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك (ويقولون إنه مجنون) أى ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، فردّ الله عليهم بقوله (وما هو إلا ذكر للعالمين) والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون : أى والحال أنه تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه ، أو شرف لهم كما قال سبحانه - وإنه لذكر لك ولقومك - وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين وغيرهما ، وله ألفاظ فى بعضها طول ، وهو

حديث مشهور معروف . وأخرج ابن منده عن أبي هريرة في الآية قال : يكشف الله عز وجل عن ساقه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منده عن ابن مسعود في الآية قال : يكشف عن ساقه تبارك وتعالى ، وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه وابن عساكر عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال « غن نور عظيم فيمخرون له سجدا » . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقي عن إبراهيم النخعي عن ابن عباس في الآية قال : يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت الحرب على ساق . قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ، ويقسمو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (يوم يكشف عن ساق) قال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر : * وقامت الحرب بنا على ساق * قال ابن عباس : هذا يوم كرب شديد ، روى عنه نحو هذا من طرق أخرى ، وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما عرفت ، وذلك لا يستلزم تجسيدا ولا تشبيها فليس كمثلته شيء .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) قال : هم الكفار يدعون في الدنيا وهم آمنون فالיום يدعون وهم خائفون . وأخرج البيهقي في الشعب عنه في الآية قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا في قوله (ليزلقونك بأبصارهم) قال : ينفذونك بأبصارهم .

تفسير سورة الحاقة

هي إحدى وخمسون آية ، وقيل اثنان وخمسون

وهي مكية . قال القرطبي : في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحاقة بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبراني عن أبي برزة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الفجر بالحاقة ونحوها » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْحَاقَةُ (١) مَا أَلْحَاقَةُ (٢) وَمَا أَذْرِيكَ مَا أَلْحَاقَةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)
فَإِذَا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَاهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ
خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيِيهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) .

قوله (الحاقة) هي القيامة ، لأن الأمر يحق فيها ، وهي تحق في نفسها من غير شك . قال الأزهرى : يقال حاقته فحققته أحقه غالبته فغلبته أغلبه . فالقيامة حاقة لأنها تحاق كل محاق في دين الله بالباطل وتخصم كل مخاصم . وقال في الصحاح : حاقه أى خاصمه في صفار الأشياء ، ويقال ماله فيها حتى ولا حقاق ولا خصومة ، والتحاق التخاصم ، والحاقة والحقة والحق ثلاث لغات بمعنى . قال الواحدي : هي القيامة في قول كل المفسرين ، وسميت بذلك لأنها ذات الحواق من الأمور ، وهي الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود . قال الكسائي والمؤرج : الحاقة يوم الحق ، وقيل سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وهي مبتدأ وخبرها قوله (ما الحاقة) على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمعنى : أى شىء هي في حالها أو صفاتها ، وقيل إن ما الاستفهامية خبر لما بعدها ، وهذه الجملة وإن كان لفظها لفظ الاستفهام فعناها التعظيم والتفخيم لشأنها كما تقول : زيد ما زيد ، وقد قدما تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة . ثم زاد سبحانه في تفخيم أمرها وتفضيع شأنها وتهويل حالها فقال (وما أدراك ما الحاقة) أى أى شىء أعلمك ما هي ؟ أى كأنك لست تعلمها إذالم تعانينا وتشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم الخلقين . قال يحيى بن سلام : بلغنى أن كل شىء في القرآن وما أدراك . فقد أدراه إياه وعلمه ، وكل شىء قال فيه وما يدريك فإنه أخبره به ، وما مبتدأ ، وخبره أدراك ، وما الحاقة جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بإسقاط الحافض ، لأن أدري يتعدى إلى المفعول الثانى بالباء كما في قوله - ولا أدراكم به - فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثانى ، وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا ، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين ، وجملة وما أدراك معطوفة على جملة ما الحاقة (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى بالقيامة ، وسميت بذلك لأنها تفرع الناس بأهوالها . وقال المبرد : عني بالقارعة القرآن الذى نزل في الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوفونهم بذلك فيكذبونهم ، وقيل القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواما وتخط آخرين ، والأول أولى ، ويكون وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة حالها والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) ثمود هم قوم صالح ، وقد تقدم بيان هذا في غير موضع وبيان منازلهم وأين كانت ، والطاغية الصبيحة التى جاوزت الحد ، وقيل بطغيانهم وكفرهم ، وأصل الطغيان مجاوزة الحد (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) عاد هم قوم هود ، وقد تقدم بيان هذا ، وذكر منازلهم ، وأين كانت في غير موضع ، والريح الصرصر هي الشديدة البرد ، مأخوذة من الصر وهو البرد ، وقيل هي الشديدة الصوت . وقال مجاهد : الشديدة

السموم ، والعاتية التي عثت عن الطاعة فكأنها عثت على خزانها ، فلم تطعمهم ولم يقدروا على ردّها لشدة هبوبها ، أو عثت على عاد ، فلم يقدروا على ردّها ، بل أهلكتهم (سخرها عليهم سبع ليال) هذه الحملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ومعنى سخرها سلطها ، كذا قال مقاتل ، وقيل أرسلها ، وقال الزجاج : أقامها عليهم كما شاء ، والتسخير : استعمال الشيء بالاعتقاد ، ويجوز أن تكون هذه الحملة صفة لريح ، وأن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة ، أو من الضمير في عاتية (وثمانية أيام) معطوف على سبع ليال ، وانتصاب (حسوما) على الحال : أي ذات حسوم ، أو على المصدر بفعل مقدر : أي تحسمهم حسوما ، أو على أنه مفعول به ، والحسوم التابع ، فإذا تابع الشيء ولم ينقطع أوله عن آخره قيل له الحسوم . قال الزجاج : الذي توجب له اللغة في معنى قوله حسوما : أي تحسمهم حسوما تفنيهم وتذهبهم . قال النضر بن شميل : حسمتهم قطعهم وأهلكهم . وقال الفراء : الحسوم الاتباع ، من حسم الداء وهو الكى ، لأن صاحبه يكوى بالمكواة ، ثم يتابع ذلك عليه ومنه قول أبي دواد :
يفرق بينهم زمن طويل تتابع فيه أعواما حسوما

وقال المبرد : هو من قولك حسمت الشيء : إذا قطعته وفصلته عن غيره ، وقيل الحسم الاستئصال ، ويقال للسيف حسام لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته ، والمعنى : أنها حسمتهم : أي قطعهم وأذهبهم ، ومنه قول الشاعر :

فأرسلت ريحا دبورا عقيما فدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد : أي حسمتهم فلم تبق منهم أحدا . وروى عنه أنه قال : حسمت الأيام والليالي حتى استوفتها ، لأنها بدأت بطلوع الشمس من أول يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم . وقال الليث : الحسوم هي الشووم : أي تحسم الخير عن أهلها ، كقوله - في أيام نحسات - .

واختلف في أولها ، فقيل غداة الأحد ، وقيل غداة الجمعة ، وقيل غداة الأربعاء . قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز ، كان فيها برد شديد وريح شديدة ، وكان أولها يوم الأربعاء ، وآخرها يوم الأربعاء (فرى القوم فيها صرعى) الخطاب لكل من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك ، والضمير في فيها يعود إلى الليالي والأيام ، وقيل إلى مهاب الريح ، والأول أولى . وصرعى جمع صريع : يعنى موتى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) أي أصول نخل ساقطة ، أو بالية ، وقيل خالية لاجوف فيها ، والنخل يذكر ويؤنث ، ومثله قوله - كأنهم أعجاز نخل منقعر - وقد تقدم تفسيره وهو إخبار عن عظم أجسامهم . قال يحيى بن سلام : إنما قال خاوية لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية (فهل ترى لهم من باقية) أي من فرقة باقية ، أو من نفس باقية ، أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية . قال ابن جريج : أقاموا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الريح فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقنهم في البحر (وجاء فرعون ومن قبله) أي من الأمم الكافرة . قرأ الجمهور قبله بفتح القاف وسكون الباء : أي ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر القاف وفتح الباء : أي ومن هو في جهته من أتباعه ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود وأبي ومن معه ، ولقراءة أبي موسى ومن يلقاه (والموتفكات) قرأ الجمهور الموتفكات بالجمع وهي قرى قوم لوط ، وقرأ الحسن والحدري الموتفكة بالإفراد ، واللام للجنس ، فهي في معنى الجمع ، والمعنى : وجاءت الموتفكات (بالخطئة) أي بالفعلة الخطئة ، أو الخطأ على أنها مصدر . والمراد أنها جاءت بالشرك والمعاصي . قال مجاهد : بالخطايا ، وقال الجرجاني : بالخطأ العظيم

(فعصوا رسول ربهم) أى فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها . قال الكلبي : هو موسى ، وقيل لوط لأنه أقرب ، قيل ورسول هنا بمعنى رسالة ، ومنه قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحث عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة (فأخذهم أخذة رابية) أى أخذهم الله أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم ، والمعنى : أنها بالغة في الشدة إلى الغاية ، يقال ربى الشيء يربو : إذا زاد وتضاعف . قال الزجاج : تزيد على الأخذات . قال مجاهد : شديدة (إنا لما طغى الماء) أى تجاوز حده في الارتفاع والعلو ، وذلك في زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر وكذبوه ، وقيل طغى على خزانة من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه . قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعا (حملناكم في الجارية) أى في أصلاب آبائكم ، أو حملناهم وحملناكم في أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين . والجارية سفينة نوح ، وسميت جارية لأنها تجري في الماء ، وحمل في الجارية النصب على الحال : أى رفعناكم فوق الماء حال كونكم في السفينة ، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم وذكر ما حلّ بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول قال (لنجعلها لكم تذكرة) أى لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه ، أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة (وتعيها أذن واعية) أى تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت . قال الزجاج : يقال أوعيت كذا : أى حفظته في نفسى أعيه وعيا ، ووعيت العلم ووعيت ما قلته كله بمعنى ، وأوعيت المتاع في الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسك أوعيته بالألف ولما حفظته في نفسك وعيته بغير ألف . قال قتادة في تفسير الآية : أذن سمعت وعقلت ما سمعت . قال الفراء : المعنى لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتي بعد . قرأ الجمهور « تعيها » بكسر العين . وقرأ طلحة بن مصرف وحيد الأعرج وأبو عمرو في رواية عنه بإسكان العين تشبيها لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك . قال الرازي : وروى عن ابن كثير إسكان العين ، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة فخفف وأسكن كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف انتهى . والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف كما في قراءة من قرأ - وما يشعركم - بسكون الراء ، قال القرطبي : واختلفت القراءة فيها عن عاصم وابن كثير : يعنى تعيها (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) هذا شروع في بيان الحاقة وكيف وقوعها بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين . قال عطاء : يريد النفخة الأولى . وقال الكلبي ومقاتل يريد النفخة الأخيرة . قرأ الجمهور « نفخة واحدة » بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة ، وواحدة تأكيد لها ، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل . وقرأ أبو السماك بنصيبهما على أن النائب هو الجار والمجرور . قال الزجاج : قوله (في الصور) يقوم مقام ما لم يسم فاعله (وحملت الأرض والجبال) أى رفعت من أماكنها وقلعت عن مقارها بالقدرة الإلهية . قرأ الجمهور « حملت » بتخفيف الميم . وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة وابن مقسم وابن عامر في رواية عنه بتشديد هاء للتكثير أو للتعدية (فدكتا دكة واحدة) أى فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها ، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كتيبا مهيلًا وهباء منبثا . قال الفراء : ولم يقل فدكتا لأنه جعل الجبال كلها كالحملة الواحدة ، ومثله قوله تعالى - أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما - وقيل دكتا بسطتا بسطة واحدة ، ومنه اندك سنام البعير : إذا انفرش على ظهره (فهو منذ وقعت الواقعة) أى قامت القيامة (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) أى انشقت بنزول ما فيها من الملائكة

فهى فى ذلك اليوم ضعيفة مسترخية ، قال الزجاج : يقال لكل ما ضعف جدا قد وهى فهو واه ، وقال الفراء : وهى تشققها (والملك على أرجائها) أى جنس الملك على أطرافها وجوانبها ، وهى جمع رجنى مقصور وتثنيته رجوان مثل قفا وقفوان ، والمعنى : أنها لما تشققت السماء ، وهى مساكنهم بلحوا إلى أطرافها . قال الضحاك : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت ، وتكون الملائكة على حافات الدنيا حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض ويحيطون بالأرض ومن عليها . وقال سعيد بن جبير : المعنى والملك على حافات الدنيا : أى ينزلون إلى الأرض ، وقيل إذا صارت السماء قطعا يقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشقة فى أنفسها (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أى يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك ، وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل ، وقيل ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة ، قاله الكلبي وغيره (يومئذ تعرضون) أى تعرض العباد على الله لحسابهم ، ومثله - وعرضوا على ربك صفا - ، وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به . وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال وجملة (لا تخفى منكم خافية) فى محل نصب على الحال من ضمير تعرضون : أى تعرضون حال كونه لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم خافية كائنة ما كانت ، والتقدير : أى نفس خافية أو فعلة خافية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (الحاقة) من أسماء القيامة . وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وابن جرير عنه قال : ما أرسل الله شيئا من ريح إلا بمكيال ، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد . فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانة فلم يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ - إنا لما طغى الماء - وأما يوم عاد فإن الريح عنت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ، ثم قرأ (بريح صرصر عاتية) . وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب نحوه . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « نصرت بالصبا ، وأهلك عاد بالدهور » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعا : « قال ما أمر الخزان على عاد إلا مثل موضع الحاتم من الريح ، فعبت على الخزان فخرجت من نواحي الأبواب ، فذلك قوله (بريح صرصر عاتية) قال : عتوها عنت على الخزان » . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (بريح صرصر عاتية) قال : الغالبة . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله (حسوما) قال : متتابعات . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طرق عن ابن عباس فى قوله (حسوما) قال : تباعا ، وفى لفظ : متتابعات . وأخرج ابن المنذر عنه (كأنهم أعجاز نخل) قال : هى أصولها ، وفى قوله (نحاوية) قال : خربة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (إنا لما طغى الماء) قال : طغى على خزانة فنزل ، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانة فنزل بغير كيل ولا وزن . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية من طريق مكحول عن علي بن أبي طالب « فى قوله (وتعيها أذن واعية) قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سألت الله أن يجعلها أذنك يا على ، فقال على : ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئا فذسيته » قال ابن كثير : وهو حديث مرسل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدى وابن مردويه وابن عساكر وابن النجار عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلى « إن الله أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ، وأن تعى ، وحق لك أن تعى ، فنزلت هذه الآية (وتعيها أذن واعية) فأنت أذن واعية ، لعلى » قال ابن كثير : ولا يصح . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عمر فى قوله (أذن واعية) قال :

أذن عقلت عن الله . وأخرج الحاكم والبيهقي في البعث عن أبي بن كعب في قوله (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) قال : تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين ، وذلك قوله - وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قرة - . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (فهي يومئذ واهية) قال متخرقة . وأخرج الثوري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (والملك على أرجائها) قال : على حافاتهما على ما لم يهتئ منها . وأخرج عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية وأبو يعلى وابن المنذر وابن خزيمة والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب في [تالي التلخيص] عنه أيضا في قوله (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) قال : ثمانية أملاك على صورة الأوتعال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا من طرق في الآية قال : يقال ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ، ويقال ثمانية أملاك رعوهم عند العرش في السماء السابعة وأقدامهم في الأرض السملى ، ولهم قرون كقرون الوعلة ، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجداك ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي فأخذ بيمينه وأخذ بشماله » . وأخرج ابن جرير والبيهقي في البعث عن ابن مسعود نحوه .

فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ (٢٦) يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخِطِئُونَ (٣٧) فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)

وَأِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) .

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه ، فقال (فأما من أوتى كتابه يمينه) أى أعطى كتابه الذى كتبه الخنطة عليه من أعماله (فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه) يقول ذلك سرورا وابتهاجا . قال ابن السكيت والكسائي : العرب تقول : ها يارجل ، وللاثنين هاؤما يارجلان ، وللجمع هاؤم يارجال ، قيل والأصل هاؤكم ، فأبدلت الهمزة من الكاف ، قال ابن زيد : ومعنى هاؤم تعالوا . وقال مقاتل : هلم ، وقيل خذوا ، والذى صرح به النحاة أنها بمعنى خذ ، يقول ها بمعنى خذ ، وهاؤما بمعنى خذا ، وهاؤم بمعنى خذوا ، فهى اسم فعل ، وقد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم الإعراب ، وقوله « كتابيه » معمول ليقوله « اقرءوا » لأنه أقرب النملين ، ومعمول « هاؤم » محذوف يدل عليه معمول « اقرءوا » والتقدير : هاؤم كتابيه اقرءوا كتابيه ، والهاء فى كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه هى هاء السكت . قرأ الجمهور فى هذه بإثبات الهاء وقفا ووصلا مطابقة لرسم المصحف ، ولولا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يعتمد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت ويوافق الخط ، يعنى خط المصحف . وقرأ ابن محيصن وابن أبى إسحاق وحيد ومجاهد والأعمش ويعقوب بحذفها وصلا وإثباتها وقفا فى جميع هذه الألفاظ . ورويت هذه القراءة عن حمزة ، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعا للغة . وروى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا ووقفا (إني ظننت أنى ملاق حسابيه) أى علمت وأيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة ، وقيل المعنى : إني ظننت أن يأخذنى الله بسينثائى فقد تفضل علىّ بعفوه ولم يؤاخذنى . قال الضحاك : كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك . قال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك . قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظنّ بربه ، فأحسن العمل للآخرة ، وإن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل . قيل والتعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يتدح فى الاعتماد ما يهيجس فى النفوس من الخطرات التى لاتتمك عنها العلوم النظرية غالبا (فهو فى عيشة راضية) أى فى عيشة مرضية لا مكروهة ، أو ذات رضى : أى يرضى بها صاحبها . قال أبو عبيدة والنراء : راضية أى مرضية كقوله - ماء دافق - أى مدفوق فتد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها ، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد (فى جنة عالية) أى مرتفعة المكان لأنها فى السماء ، أو مرتفعة المنازل ، أو عظيمة فى النفوس (قطوفها دانية) التطوف : جمع قطف بكسر القاف ما يقطف من الثمار ، والقطف بالفتح المصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى : أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع (كلوا واشربوا) أى يقال لهم كلوا واشربوا فى الجنة (هنيئا) أى أكلا وشربا هنيئا لاتكدير فيه ولا تنغيص (بما أسلفتم فى الأيام الخالية) أى بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا . وقال مجاهد : هى أيام الصيام (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول) حزنا وكربا لما رأى فيه من سينثاته (يا ليتنى لم أوت كتابيه) أى لم أعط كتابيه (ولم أدر ما حسابيه) أى لم أدر : أى شئء حسابى لأن كله عليه (يا ليتها كانت القاضية) أى ليت المنة التى منها كانت القاضية ولم أحى بعدها ، ومعنى : القاضية القاطعة للحياة ، والمعنى : أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب ، فالضمير فى ليتها يعود إلى المنة التى قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة ، لأنها لظهورها كانت كالمدكورة . قال قتادة : تمنى

الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه ، وشر من الموت ما يطلب منه الموت . وقيل الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : ياليت هذه الحالة كانت المروءة التي قضيت على (ما أغنى عن ماله) أي لم يدفع عنى من عذاب الله شيئا على أن ما نافية أو استنهامية ، والمعنى : أي شيء أغنى عنى مالى (هلك عنى سلطانيه) أي هلك عنى حجتي وضلتي عنى ، كذا قال مجاهد وعكرمة والسردي والضحاك . وقال ابن زيد : يعنى سلطاني الذي في الدنيا ، وهو الملك ، وقيل تسلط على جوارحي . قال مقاتل : يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك ، وحينئذ يقول الله عز وجل (خذوه فغلوه) أي اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال (ثم صلوه) أي أدخلوه الجحيم ، والمعنى : لاتصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظيمة (ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه) السلسلة خلق منتظمة ، وذرعتها طولها . قال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هو . قال نوف الشامي : كل ذراع سبعون باعا كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان نوف في رحبة الكوفة . قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، ومعنى « فاسلكوه » فاجعلوه فيها ، يقال سلك الطريق إذا أدخلته فيه . قال سفيان : بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه . قال الكلبي : تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ . وقال سويد بن أبي نجيح : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة الدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم ، وجملة (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم) تعليل لما قبلها (ولا يحض على طعام المسكين) أي لا يبحث على إطعام المسكين من ماله ، أو لا يبحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء كما قال الشاعر :

أكفرا بعد رد موتى عنى وبعد عطائك المال الرعابا

أي بعد إعطائك ، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر ، والمعنى : أنه لا يبحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين ، وفي جعل هذا قرينا لترك الإيمان بالله من الترتيب في التصديق على المساكين وسد فاقهم ، وحث النفس والناس على ذلك ما يدل أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم (فليس له اليوم هاهنا حيم) أي ليس له يوم القيامة في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه (ولا طعام إلا من غسلين) أي وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار ، وما يغسل من أبدانهم من القيح والصديد ، وغسلين فعلين من الغسل . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار . وقال قتادة : هو شر الطعام . وقال ابن زيد : لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى . وقال سبكانه في موضع آخر - ليس لهم طعام إلا من ضريع - فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فليس له اليوم هاهنا حيم إلا من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار (ولا طعام) أي ليس لهم طعام يأكلونه . ولا ملجئ لهذا التقديم والتأخير ، وجملة (لا يأكله إلا الخاطئون) صفة لغسلين ، والمراد أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب . قال الكلبي : المراد الشرك . قرأ الجمهور « الخاطئون » مهموزا ، وهو اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمدا ، والخطئ من يفعله غير متعمد . وقرأ الزهري وطلحة بن مصرف والحسن الخطايون بياء مضمومة بدل الهمزة . وقرأ نافع في رواية عنه بضم الطاء بدون همزة (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) هذا رد لكلام المشركين كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون ولا زائدة ، والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه . قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، فيدخل في هذا جميع المخلوقات ، وقيل إن لا ليست زائدة ، بل هي لنفي القسم : أي

لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك ، والأول أولى (إنه لقول رسول كريم) أى إن القرآن لتلاوة رسول كريم ، على أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم . قال الحسن والكلبي ومقاتل : يريد به جبريل ، دليله قوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) وعلى كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو قول الله فلا بد من تقدير التلاوة أو التبليغ (وما هو بقول شاعر) كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها (قليلا ما تؤمنون) أى إيماننا قليلا تؤمنون ، وتصديقنا يسيرا تصدقون ، وما زائدة (ولا بقول كاهن) كما تزعمون ، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا (قليلا ما تذكرون) أى تذكرنا قليلا ، أو زمانا قليلا تتذكرون ، وما زائدة ، والقلة فى الموضعين بمعنى النفي : أى لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلا (تنزيل من رب العالمين) قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هو تنزيل . وقرأ أبو السماك بالنصب على المصدرية بإضمار فعل : أى نزل تنزيلا ، والمعنى : إنه لقول رسول كريم ، وهو تنزيل من رب العالمين على لسانه (واوتقول علينا بعض الأقاويل) أى واوتقول ذلك الرسول ، وهو محمد ، أو جبريل على ما تقدم ، والتقول تكلف القول ، والمعنى : لو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه ، وسمى الافتراء تقولا لأنه قول متكلف ، وكل كاذب يتكلف ما يكذب به . قرأ الجمهور « تقول » مبنيًا للفاعل . وقرئ مبنيًا للمفعول مع رفع بعض . وقرأ ابن ذكوان « ولم يقول » على صيغة المضارع ، والأقاويل جمع أقوال ، والأقوال جمع قول (لأخذنا منه باليمين) أى بيده اليمين . قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب . وقال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة « لأخذنا منه باليمين » أى بالقوة والقدرة . قال ابن قتيبة : وإنما أقام اليمين مقام القوة ، لأن قوة كل شيء فى ميامنه ، ومن هذا قول الشاعر :

إذا ما راية نصبت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وقول الآخر : ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيمينى

(ثم لقطعنا منه الوتين) الوتين عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب ، وهو تصوير لإهلاكه بأفطع ما يفعلهُ الملوك بمن يغضبون عليه . قال الواحدي : والمفسرون يقولون إنه نياط القلب انتهى ، ومن هذا قول

الشاعر : إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

(فما منكم من أحد عنه حاجزين) أى ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه ، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ولا تقدرّون على الدفع منه ، والحجز المنع ، (وحاجزين) صفة لأحد ، أو خبر لما الحجازية (وإنه لتذكرة للمتقين) أى إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به (وإننا لنعلم أن منكم مكذبين) أى أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك ، وفى هذا وعيد شديد (وإنه لحسرة على الكافرين) أى وإن القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين وقيل هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدرّوا على معارضته عند تحذيرهم بأن يأتوا بسورة من مثله (وإنه لحق اليقين) أى وإن القرآن لكونه من عند الله حق فلا يحول حوله ريب ولا يتطرق إليه شك (فسيح باسم ربك العظيم) أى نزهه عما لا يليق به ، وقيل فصل لربك ، والأول أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إني ظننت) قال : أيقنت . وأخرج سعيد بن منصور وابن

أبي حاتم عن البراء بن عازب (قطوفها دانية) قال قريية . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن البراء في الآية قال : يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (فاسلكوه) قال : السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي الدرداء قال : إن لله سلسلة لم تزل تغلى منها مراحل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس ، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحصى على طعام المسكين يا أم الدرداء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الغسلين الدم والماء والصدید الذي يسيل من لحومهم . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو أن دلوًا من غسايں يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار . وأخرج ابن جرير عنه (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) يقول : بما ترون وما لا ترون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (لأخذنا منه باليمين) قال : بقلرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال (الوتين) عرق القلب . وأخرج القرطبي وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضا قال (الوتين) نياط القلب . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عنه أيضا قال : هو حبل القلب الذي في الظهر .

تفسير سورة سائل سائل

ويقال سورة المعارج ، هي أربع وأربعون آية

وهي مكية . قال القرطبي : باتفاق . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة سأل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣)
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا
جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ
عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ (١١) وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا (١٣) وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦) تَذْعُو مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)

قوله (سأل سائل بعذاب واقع) قرأ الجمهور «سأل» بالهمزة ، وقرأ نافع وابن عامر بغير همزة ، فمن همز فهو من السؤال وهي اللغة الفاشية ، وهو إما مضمن معنى الدعاء ، فلذلك عدى بالباء كما تقول دعوت لكذا ، والمعنى : دعاء داع على نفسه بعذاب واقع ، ويجوز أن يكون على أصله والباء بمعنى عن كقوله - فاسئل به خيرا - ومن لم يهمز ، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفا ، فيكون معناها معنى قراءة من همز ، أو يكون من السيلان ، والمعنى : سأل واد في جهنم يقال له سائل كما قال زيد بن ثابت . ويؤيده قراءة ابن عباس «سأل سائل» وقيل إن سأل بمعنى التمس ، والمعنى : التمس ملتئم عذابا للكفار ، فتكون الباء زائدة كقوله - تنبت بالدهن - والوجه الأول هو الظاهر . وقال الأخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان . قال أبو علي الفارسي : وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر ، وهذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال - اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم - وهو ممن قتل يوم بدر صبورا ، وقيل هو أبو جهل ، وقيل هو الحارث بن النعمان النهري . والأول أولى لما سيأتي . وقرأ أبي وابن مسعود «سأل سأل» مثل مال مال على أن الأصل سائل ، فحذفت العين تخفيفا ، كما قيل شاك في شائك السلاح . وقيل السائل هو نوح عليه السلام ، سأل العذاب للكافرين ، وقيل هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بالعقاب عليهم ، وقوله (بعذاب واقع) يعني إما في الدنيا كيوم بدر ، أو في الآخرة ، وقوله (للكافرين) صفة أخرى لعذاب : أي كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع ، واللام للعلقة ، أو بسأل على تضمينه معنى دعا ، أو في محل رفع على تقدير : هو للكافرين ، أو تكون اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبي بعذاب واقع على الكافرين . قال الفراء : التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة (ليس له دافع) صفة أخرى لعذاب ، أو حال منه ، أو مستأنفة ، والمعنى : أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد ، وقوله (من الله) متعلق بواقع : أي واقع من جهته سبحانه ، أو بدافع : أي ليس له دافع من جهته تعالى (ذو المعارج) أي ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة ، وقال الكلبي : هي السموات ، وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها ، وقيل المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق ، وقيل المعارج العظمة ، وقيل هي الغرف . وقرأ ابن مسعود «ذو المعارج» بزيادة الياء ، يقال معارج ومعاريج مثل مفاتيح ومفاتيح (تعرج الملائكة والروح إليه) أي تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم ، وقرأ الجمهور «تعرج» بالفوقية ، وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائي والسلمي بالتحنية ، والروح جبريل ، أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيد هذا قوله - نزل به الروح الأمين - ، وقيل الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل . وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس وليسوا من الناس . وقال قبيصة بن ذؤيب : إنه روح الميت حين تقبض ، والأول أولى . ومعنى «إليه» أي إلى المكان الذي ينتهون إليه ، وقيل إلى عرشه ، وقيل هو كقول إبراهيم - إني ذاهب إلى ربي - أي إلى حيث أمرني ربي (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال ابن إسحاق والكلبي ووهب بن منبه : أي عرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد . وقال عكرمة ، وروى عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي ، ولا يعلم ذلك إلا الله . وقال قتادة والكلبي ومحمد بن كعب : إن المراد يوم القيامة ، يعني أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه في ساعة ، وقيل إن مدة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار ، ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . وقيل إن مقدار يوم القيامة على الكافرين

خمسون ألف سنة ، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر ، وقيل ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها ، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره كما نصف العرب أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، ويشبهون اليوم القصير بابهام القطاة ، والطويل بظل الريح ، ومنه قول الشاعر :

ويوم كظل الريح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

وقيل في الكلام تقديم وتأخير : أى ليس له دافع من الله ذى المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تخرج الملائكة والروح إليه ، وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله في سورة السجدة - في يوم كان مقداره ألف سنة - فارجع إليه . وقد قيل في الجمع إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة ، لأن غلط كل سماء خمسمائة عام ، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام ، فالمعنى : أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة ، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة ، وسيأتى في آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر فقال (فاصبر صبرا جميلا) أى اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرا جميلا لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله ، وهذا معنى الصبر الجميل ، وقيل هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب . قال ابن زيد وغيره : هي منسوخة بآية السيف (إنهم يرونه بعيدا) أى يرون العذاب الواقع بهم ، أو يرون يوم القيامة بعيدا : أى غير كائن لأنهم لا يؤمنون به ، فعنى « بعيدا » أى مستبعدا محالا ، وليس المراد أنهم يرونه بعيدا غير قريب . قال الأعمش : يرون البعث بعيدا لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة كما تقول لمن تناظره هذا بعيد : أى لا يكون (ونراه قريبا) أى نعلمه كائنا قريبا ، لأن ما هو آت قريب . وقيل المعنى : ونراه هينا في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر . ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال (يوم تكون السماء كالمهل) والظرف متعلق بمضمر دل عليه واقع ، أو بدل من قوله (في يوم) على تقدير تعلقه بواقع ، أو متعلق بقريبا ، أو مقدر بعده : أى يوم تكون الخ كان كيت وكيت ، أو بدل من الضمير في نراه والأول أولى . والتقدير يقع بهم العذاب (يوم تكون السماء كالمهل) والمهل : ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة . وقال مجاهد : هو القبيح من الصديد والدم . وقال عكرمة وغيره : هو دردى الزيت ، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف والدخان (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغا . قال الحسن : تكون الجبال كالعهن ، وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف ، وقيل العهن الصوف ذو الألوان ، فشبه الجبال به في تلوّنها ألوانا كما في قوله - جدد بيض وحر - وغرايب سود - فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميا) أى لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله ، كما قال سبحانه - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - وقيل المعنى : لا يسأل حميم عن حميم ، فحذف الحرف ووصل الفعل . قرأ الجمهور « لا يسأل » مبنيا للفاعل ، قيل والمفعول الثانى محذوف والتقدير : لا يسأله نصره ولا شفاعته ، وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وشيبة وابن كثير في رواية عنه على البناء للمفعول . وروى هذه القراءة البرزى عن عاصم . والمعنى : لا يسأل حميم إحضار حميمه ، وقيل هذه القراءة على إسقاط حرف الجر : أى لا يسأل حميم عن حميم ، بل كل إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وجملة (يبصرونهم) مستأنفة ، أو صفة لقوله (حميا) أى يبصر كل حميم

هميمه ، لا ينجي منهم أحد عن أحد . وليس في القيامة مخلوق وإلا وهو نصب عين صاحبه ، ولا ينسألون ولا يكلم بعضهم بعضا لاشتغال كل أحد منهم بنفسه ، وقال ابن زيد : يبصر الله الكفار في النار الذين أضلواهم في الدنيا وهم الرؤساء المتبوعون . وقيل إن قوله (يبصرونهم) يرجع إلى الملائكة : أى يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم ، وإنما جمع الضمير في يبصرونهم ، وهما للحميمين حملا على معنى العموم ، لأنهما نكرتان في سياق النفي ، قرأ الجمهور « يبصرونهم » بالتشديد ، وقرأ قتادة بالتخفيف . ثم ابتداء سبحانه الكلام فقال (يود المحرم لو يفتدى من عذاب يومئذ) المراد بالمحرم الكافر ، أو كل مذنب ذنبا يستحق به النار لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الذي نزل به (بينه وصاحبه وأخيه) فإن هؤلاء أعز الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفتدى بهم نفسه وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل محرم بنفسه بلغ إلى حد يود الافتداء من العذاب بمن ذكر . قرأ الجمهور (من عذاب يومئذ) بإضافة عذاب إلى يومئذ . وقرأ أبو حيوه بتنوين « عذاب » وقطع الإضافة . وقرأ الجمهور « يومئذ » بكسر الميم ، وقرأ نافع والكسائي والأعرج وأبو حيوه بفتحها (وفصيلته التي تؤويه) أى عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب أو عند الشدائد ويأوى إليهم . قال أبو عبيد : الفصيلة دون القبيلة . وقال ثعلب : هم آباؤهم الأذنون . قال المبرد : الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد . وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبها لها بالبعض منه . وقال مالك : إن الفصيلة هى التى تربيه (ومن فى الأرض جميعا) أى ويود المحرم لو افتدى بمن فى الأرض جميعا من الثقيلين وغيرهما من الخلائق . وقوله (ثم ينجي) معطوف على يفتدى : أى يود لو يفتدى ثم ينجي الافتداء ، وكان العطف بـ ثم لدالتها على استبعاد النجاة ، وقيل إن يود تقتضى جوابا كما فى قوله - ودوا لو تدهن فيدهنون - والجواب ثم ينجي ، والأول أولى . وقوله (كلا) ردع للمجرم عن تلك الودادة ، وبيان امتناع ما ودّه من الافتداء ، و« كلا » يأتي بمعنى حقا ، وبمعنى لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، والضمير فى قوله (إنها لظى) عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب ، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده : ولظى علم لجهم ، واشتقاقها من التلظى فى النار وهو التلهب ، وقيل أصله لفظ بمعنى دوام العذاب ، فقلبت إحدى الظاءين ألفا ، وقيل لظى : هى الدركة الثانية من طباق جهنم (نزاعة للشوى) قرأ الجمهور « نزاعة » بالرفع على أنه خبر ثان لأن ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو تكون لظى بدلا من الضمير المنصوب ، ونزاعة خبر إن ، أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علما ، أو يكون الضمير فى إنها للقصة ، ويكون لظى مبتدأ ونزاعة خبره ، والجملة خبر إن ، وقرأ حفص عن عاصم وأبو عمرو فى رواية عنه وأبو حيوه والزعفرانى والترمذى وابن مقسم نزاعة بالنصب على الحال . وقال أبو على القارسى : حمله على الحال بعيد لأنه ليس فى الكلام ما يعمل فى الحال ، وقيل العامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظى ، أو النصب على الاختصاص ، والشوى الأطراف ، أو جمع شواة ، وهى جلدة الرأس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيبة ماله قد جللت شيئا شواته

وقال الحسن وثابت البناني : نزاعة للشوى : أى لمكارم الوجه وحسنه ، وكذا قال أبو العالية وقتادة . وقال قتادة : تبرى اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئا . وقال الكسائي : هى المفاصل . وقال أبو صالح : هى أطراف اليدين والرجلين (تدعوا من أدبر) أى تدعو لظى من أدبر عن الحق فى الدنيا (وتولى) أى أعرض عنه (وجمع فأوعى) أى جمع المال فجعله فى وعاء ، قيل إنها تقول إلى يامشرك ، إلى يامنافق ، وقيل معنى تدهو تهلك ، تقول العرب : دعاك الله : أى أهلكك ، وقيل ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكينا من

عذابهم ، وقيل المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين فأسند الدعاء إلى النار ، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل ، وقيل هو تمثيل وتخيل ، ولا دعاء في الحقيقة ، والمعنى : أن مصيرهم إليها ، كما قال الشاعر :

ولقد هبطنا الواد بين قوادنا ندعو الأنيس به الغصيص الأبكم

والغصيص الأبكم : الذباب ، وهي لاتدعو ، وفي هذا ذم لمن جمع المال فأوعاه ، وكنزه ولم ينفقه في سبل الخير ، أو لم يؤد زكاته .

وقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (سأل سائل) قال : هو النضر بن الحرث قال - اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء - وفي قوله (بعذاب واقع) قال : كائن (للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج) قال : ذي الدرجات . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه في قوله (سأل سائل) قال : سأل واد في جهنم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (ذي المعارج) قال : ذي العلو والفواضل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة ، ويوم كان مقداره ألف سنة قال : يعني بذلك ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : غلط كل أرض خمسمائة عام ، وغلط كل سماء خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث عنه أيضا في قوله - في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون - قال : هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، وفي قوله (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عنه أيضا في قوله (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال : لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم . قال : يعني يوم القيامة . وقد قدمنا عن ابن عباس الوقف في الجمع بين الآيتين في سورة السجدة . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال : « قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم كان يوم مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا » . وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم ، وهما ضعيفان . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في البعث عن أبي هريرة مرفوعا قال : ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس في قوله (فاصبر صبرا جميلا) قال : لاتشكو إلى أحد غيري . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والخطيب في المتفق والمفترق والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله (يوم تكون السماء كالمهل) قال : كدردي الزيت . وأخرج ابن جرير عنه قال (يبصرونهم) يعرف بعضهم بعضا ويتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في قوله (نزاعة للشوى) قال : تنزع أم الرأس .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)
إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ
عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزُوجِهِمْ
حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَى
وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ
هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ
مُكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِيزِينَ (٣٧)
أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩).

قوله (إن الإنسان خلق هلوعا) قال في الصحاح : الهلع في اللغة . أشد الحرص وأسوأ الجزع وأنحشه يقال
هلع بالكسر فهو هلع وهلوع على التكثير . وقال عكرمة : هو الضجور . قال الواحدي والمفسرون يقوون تفسير
الهلع ما بعده يعني قوله (إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) أي إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو
نحو ذلك فهو جزوع : أي كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع
والإمساك . وقال أبو عبيدة : الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشر لم يصبر . قال ثعلب :
قد فسر الله الهلوع : هو الذي إذا أصابه الشر أظهر شدة الجزع ، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس ،
والعرب تقول : ناقة هلوع وهلوع إذا كانت سريعة السير خفيفته ، ومنه قول الشاعر :

شكا ذعلبة إذا استدبرتها خرج إذا استقبلتها هلوعا

والذعلبة : الناقة السريعة ، وانتصاب هلوعا وجزوعا ومنوعا على أنها أحوال مقدرة ، أو محققة لكونها طبائع
جبل الإنسان عليها ، والظرفان معمولان للجزوعا ومنوعا (إلا المصلين) أي المقيمين للصلاة ، وقيل المراد بهم أهل
التوحيد : يعني أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع ، والجزع ، والمنع ، وأنهم على صفات محمودة وخلال
مرضية ، لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على
الاتصاف بصفات الخير . ثم بينهم سبحانه . فقال (الذين هم على صلاتهم دائمون) أي لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا
يصرفهم عنها صارف ، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبدا . قال الزجاج : هم الذين لا يزيلون وجوههم عن
سمت القبلة . وقال الحسن وابن جريج : هو التطوع منها . قال النخعي : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة
المكتوبة ، وقيل الذين يصلونها أوقتها والمراد بالآية جميع المؤمنين ، وقيل الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا
التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين (والذين في أموالهم حق معلوم) قال قتادة ومحمد بن سيرين :

المراد الزكاة المفروضة . وقال مجاهد : سوى الزكاة ، وقيل صلة الرحم ، والظاهر أنه الزكاة أو صفه بكونه معلوماً ولجعله قريباً للصلاة ، وقد تقدم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات مستوفى (والذين يصدّقون بيوم الدين) أى بيوم الجزاء ، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يحسدونه ، وقيل يصدّقونه بأعمالهم فيتعجبون أنفسهم في الطاعات (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) أى خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاقاً لأعمالهم ، واعترافاً بما يجب لله سبحانه عليهم . وجملة (إن عذاب ربهم غير مأمون) مقررة لمضمون ما قبلها مبيّنة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمنه أحد ، وأن حق كل أحد أن يخافه (والذين هم لفروجهم حافظون) إلى قوله (فأولئك هم العادون) قد تقدم تفسيره في سورة المؤمنین مستوفى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى لا يخاون بشيء من الأمانات التى يؤتمنون عليها ولا ينقضون شيئاً من العهود التى يعقدونها على أنفسهم . قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع وقرأ ابن كثير وابن محيصن « لأمانتهم » بالإفراد ، والمراد الجففس (والذين هم بشهاداتهم قانمون) أى يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد أو رفيع أو وضعيع ، ولا يكتُمونها ولا يغيرونها ، وقد تقدم القول في الشهادة في سورة البقرة ، قرأ الجمهور « بشهادتهم » بالإفراد ، وقرأ حفص ويعقوب وهى رواية عن ابن كثير بالجمع . قال الواحدي ، والإفراد أولى لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات . قال الفراء : ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى - وأقيموا الشهادة لله - (والذين هم على صلاتهم يحافظون) أى على أذكارها وأركانها وشرائطها لا يخلون بشيء من ذلك . قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها . وقال ابن جريج : المراد التطوع ، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أولاً ، وما وصفهم به ثانياً ، فإن معنى الدوام : هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف ، ومعنى المحافظة : أن يراعى الأمور التى لا تكون صلاة بدونها ، وقيل المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها ، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لحالاته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصوفين بتلك الصفات (فى جنات مكرمون) أى مستقرون فيها مكرمون بأنواع الكرامات ، وخبر المبتدأ قوله (فى جنات) وقوله (مكرمون) خبر آخر ، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون ، وفى جنات متعلق به (قال الذين كفروا قبلك مهطعين) أى أى شيء لهم حواليك مسرعين : قال الأخفش : مهطعين مسرعين ، ومنه قول الشاعر :

بمكة أهلها ولقد أراهم إلىهم مهطعين إلى السماع

وقيل المعنى : ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم ، وقيل ما بالهم مسرعين إلى التكذيب ، وقيل ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك ويستهزئون بك . وقال الكلبي : إن معنى : مهطعين ناظرين إليك . وقال قتادة : عامدين ، وقيل مسرعين إليك مادى أعناقهم مديعى النظر إليك (عن اليمين وعن الشمال عزين) أى عن يمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن شماله جماعات متفرقة ، وعزين جمع عزة ، وهى العصبة من الناس ، ومنه قول الشاعر :

ترانا عنده والليل داج على أبوابه حلقا عزيينا

وقال الراعى : أخليفة الرحمن إن عشيرتى أمسى سراتهم إليك عزيينا

وقال عنتره : وقرن قد تركت لدى ولى عليه الطير كالعصب العزيينا

وقيل أصلها عزوة من العزو ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى . قال فى الصحاح :

والغزة الفرقة من الناس ، والهاء عوض من التاء ، والجمع عزى وعزون ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال) متعلق بعزين ، أو بمهطعين (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة النعيم) قال المفسرون : كان المشركون يقولون لنن دخل هؤلاء الجنة لندخلن قبلهم ، فنزلت الآية ، قرأ الجمهور (أن يدخل) مبنيا للمفعول . وقرأ الحسن وزيد بن علي وطلحة بن مصرف والأعرج ويحيى بن يعمر وأبو رجاء وعاصم في رواية عنه على البناء للفاعل . ثم رد الله سبحانه عليهم فقال (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) أي من القدر الذين يعلمون به فلا ينبغي لهم هذا التكبر ، وقيل المعنى : إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو امتثال الأمر والنهي وتعريضهم للثواب والعقاب كما في قوله وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - ، ومنه قول الأعشى :

أزمت من آل ليلي ابتكارا وشطت على ذي هوى أن يزارا

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن الهلوع فقال هو كما قال الله (إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) . وأخرج ابن المنذر عنه (هلوعا) قال : الشره . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود (الذين هم على صلاتهم دائمون) قال : على مواقيتها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عمران بن حصين (الذين هم عن صلاتهم دائمون) قال : الذي لا يلتفت في صلاته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عقبة بن عامر (الذين هم على صلاتهم دائمون) قال : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا . وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (فقال الذين كفروا قبلك مهطعين) قال : ينظرون (عن اليمين وعن الشمال عزين) قال : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون فقال : مالي أراكم عزين . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن سعد وابن أبي عاصم والباوردي وابن قانع والحاكم والبيهقي في الشعب ، والضياء عن بشر بن جمحاش قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فقال الذين كفروا قبلك مهطعين) إلى قوله (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) ثم بزق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كفه ووضع عليها أصبعه وقال « يقول الله ابن آدم أتى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدت لك مشيت بين بردين وللأرض منك وثيد فجاءت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أو أتى أو ان الصدقة » .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) .

قوله (فلا أقسم) لا زائدة كما تقدم قريبا ، والمعنى : فأقسم (برب المشارق والمغارب) يعنى مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه . قرأ الجمهور « المشارق والمغارب » بالجمع ، وقرأ أبو حيوه وابن محيصن وحيد بالإفراد (إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أي على أن نخلق أمثلا منهم ، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء

(وما نحن بمسبوقين) أى بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر، ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر (فذرهم يخوضوا ويلعبوا) أى اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ، واشتغل بما أمرت به ولا يعظمن عليك ما هم فيه ، فليس عليك إلا البلاغ (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وهو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف . قرأ الجمهور يلاقوا ، وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وحيد ومجاهد حتى يلقوا (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) يوم بدل من يومهم ، وسراعا منتصب على الحال من ضمير يخرجون ، قرأ الجمهور يخرجون على البناء للأفعال . وقرأ السلمي والأعمش والمغيرة وعاصم في رواية على البناء للمفعول ، والأجداث جمع جدث ، وهو القبر (كأنهم إلى نصب يوفضون) قرأ الجمهور « نصب » بفتح النون وسكون الصاد . وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد ، وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد . قال في الصحاح : والنصب مانصب فبعد من دون الله ، وكذا النصب بالضم ، وقد يحرّك . قال الأعشى :

وذا النصب المنسوب لا تعبدنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

والجمع الأنصاب ، وقال الأخفش والفراء : النصب جمع النصب ، مثل رهن ورهن ، والأنصاب جمع النصب ، فهو جمع الجمع ، وقيل النصب جمع نصاب ، وهو حجر أو صنم يذبح عليه ، ومنه قوله - وما ذبح على النصب - وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد ، وقيل معنى (إلى نصب) إلى غاية ، وهى التى تنصب إليها بصرك ، وقال الكلبي : إلى شيء منصوب علم أو راية : أى كأنهم إلى علم يدعون إليه ، أو راية تنصب لهم يوفضون ، قال الحسن : كانوا يتندرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوى أولهم على آخرهم . وقال أبو عمرو : النصب شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته ، ومعنى يوفضون : يسرعون ، والإيفاض الإسراع . يقال أوفض إيفاضا : أى أسرع إسراعا ، ومنه قول الشاعر :

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجن يوفض من عبقر

وعبقر : قرية من قرى الجن كما تزعم العرب ، ومنه قول لبيد : * كهول وشبان كجنة عبقر * وانتصاب (خاشعة أبصارهم) على الحال من ضمير يوفضون وأبصارهم مرتفعة به ، والخشوع الذلة والخضوع : أى لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب (ترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة شديدة . قال قتادة : هى سواد الوجوه ، ومنه غلام مراهى : إذا غشيه الاحتلام ، يقال رهقه بالكسر يرهقه رهقا : أى غشيه ، ومثل هذا قوله - ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة - والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره . وهو مبتدأ وخبره (اليوم الذى كانوا يوعدون) أى الذى كانوا يوعدونه في الدنيا على السنة الرسل قد حاق بهم وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به ، وإن كان مستقبلا ، فهو في حكم الذى قد وقع لتحقيق وقوعه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) قال : للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه ، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس وغير مغربها بالأمس . وأخرج ابن جرير عنه (إلى نصب يوفضون) قال : إلى علم يستبقون .

تفسير سورة نوح

هي تسع وعشرون آية أو ثمان وعشرون آية وهي مكية

وأخرج بن الضريس والنحاس وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة (إنا أرسلنا نوحا) بمكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَاجًا (٢٠).

قوله (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) قد تقدم أن نوحا أول رسول أرسله الله ، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ ابن أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم ، وقد تقدم مدة لبثه في قومه ، وبيان جميع عمره ، وبيان السن التي أرسل وهو فيها في سورة العنكبوت (أن أنذر قوما) أي بأن أنذر على أنها صدى ، ويجوز أن تكون هي المفسرة ، لأن في الإرسال معنى القول . وقرأ ابن مسعود « أنذر » بدون أن ، وذلك على تقدير القول : أي أنقلنا له أنذر (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) أي عذاب شديد الألم ، وهو عذاب النار . وقال الكلبي : هو ما نزل بهم من

الطوفان ، وجملة (قال يا قوم إني لكم نذير مبين) مستأنفة استئنافا بيانيا على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فإذا قال نوح ؟ فقال : قال لهم الخ . والمعنى : إني لكم منذر من عقاب الله وخوف لكم ومبين لما فيه نجاتكم (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) أن هي التفسيرية لنذير ، أو هي المصدرية : أي بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره واتقوه : أي اجتنبوا ما يوقعكم في عذابه وأطيعون فيما أمركم به فلا إني رسول إليكم من عند الله (يغفر لكم من ذنوبكم) هذا جواب الأمر ، ومن للتبعيض : أي بعض ذنوبكم ، وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته . وقال السدي : المعنى يغفر لكم ذنوبكم ، فتكون من على هذا زائدة ، وقيل المراد بالبعض مالا يتعلق بحقوق العباد ، وقيل هي لبيان الخس ، وقيل يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم ، على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان ، وقيل التأخير بمعنى البركة في أعمارهم أن آمنوا وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا . قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم . وقال الزجاج : أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب . وقال الفراء : المعنى لا يميتكم غرقا ولا حرقا ولا قتلا (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) أي ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء وأنتم باقون على الكفر لا يؤخر بل يقع لا محالة فبادروا إلى الإيمان والطاعة . وقيل المعنى : إن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان ، وقيل المعنى : إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب (لو كنتم تعلمون) أي شيئا من العلم لسارعتم إلى ما أمرتكم به ، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) أي قال نوح مناديا لربه وحاكيا له ماجرى بينه وبين قومه وهو أعلم به منه ، إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائما في الليل والنهار من غير تقصير (فلم يزدكم دعائي إلا فرارا) عما دعوتهم إليه وبعدا عنه . قال مقاتل : يعني تباعدا من الإيمان ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببا ، كما في قوله - زادتهم إيمانا - . قرأ الجمهور « دعائي » بفتح الياء ، وقرأ الكوفيون ويعقوب والدوري عن أبي عمرو بإسكانها ، والاستثناء مفرغ (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم) أي كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة ، وهو الإيمان بك ، والطاعة لك (جعلوا أصابعهم في آذانهم) لئلا يسمعوا صوتي (واستغشوا ثيابهم) أي غطوا بها وجوههم لئلا يروني ، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي ، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سد الآذان ، وقيل هو كناية عن العداوة ، يقال لبس فلان ثياب العداوة ، وقيل استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم (وأصروا) أي استمروا على الكفر ، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه (واستكبروا) عن قبول الحق ، وعن امتثال ما أمرهم به (استكبارا) شديدا (ثم إني دعوتهم جهارا) أي مظهرا لهم الدعوة مجاهرا لهم بها (ثم إني أعلنت لهم) أي دعوتهم معلنا لهم بالدعاء (وأسرت لهم أسرا) أي وأسرت لهم الدعوة أسرا كثيرا ، قيل المعنى : أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سرا فيما بينه وبينه ، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجع ذلك فيهم . قال مجاهد : معنى أعلنت صحت ، وقيل معنى أسرت : أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها . وانتصاب جهارا على المصدرية ، لأن الدعاء يكون جهارا ويكون غير جهار ، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم : قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف : أي دعاء جهارا ، وأن يكون مصدرا في موضع الحال : أي مجاهرا ، ومعنى « ثم » الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما . قرأ الجمهور « إني » بسكون الياء ، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة باخلاص النية

(إنه كان غفارا) أى كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل معنى استغفروا : توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) أى يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار ، وقيل المراد بالسماء المطر ، كما فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمدرار : الدور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ، ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث ؛ تقول امرأة مثناة ومذكارة ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف : أى إرسالا مدرارا ، وقد تقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام ، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر . وفى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق ، ولهذا قال (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات) يعنى بساتين (ويجعل لكم أنهارا) جارية . قال عطاء : المعنى يكثر أموالكم وأولادكم . أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر فى الآخرة الحصب والغنى فى الدنيا (مالكم لا ترجون لله وقارا) أى أى عذر لكم فى ترك الرجاء ، والرجاء هنا بمعنى الخوف : أى مالكم لا تخافون الله ، والوقار العظمة من التوقير وهو التعظيم ، والمعنى لا تخافون بحق عظمته فتوحدونه وتطيعونه ، و (لا ترجون) فى محل نصب على الحال من ضمير مخاطبين ، والعامل فيه معنى الاستقرار فى لكم ، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلى * إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبى رباح مالكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون منه عقابا . وقال مجاهد والضحاك : مالكم لا تبالون لله عظمة . قال قطرب : هذه لغة حجازية . وهذيل وخزاعة وضر يقولون : لم أرج لم أبل . وقال قتادة : مالكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان . وقال ابن كيسان : مالكم لا ترجون فى عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا . وقال ابن زيد : مالكم لا تؤدّون لله طاعة . وقال الحسن : مالكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون له نعمة ، وجملة (وقد خلقكم أطوارا) فى محل نصب على الحال : أى والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة : نطفة ، ثم مضغة ، ثم علقة إلى تمام الخلق كما تقدم بيانه فى سورة المؤمنين ، والطور فى اللغة المرة ، وقال ابن الأنبارى : الطور الحال وجمعه أطوار ، وقيل أطوارا صديانا ثم شبانا ثم شيوخا ، وقيل الأطوار اختلافهم فى الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى : كيف تقصرون فى توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) الخطاب لمن يصلح له ، والمراد الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة : والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب . قال الحسن : خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر ، وقد تقدم تحقيق هذا فى قوله - ومن الأرض مثلهن - وانتصاب طباقا على المصدرية ، تقول طابقه مطابقة وطباقا ، أو حال بمعنى ذات طباق ، فحذف ذات وأقام طباقا مقامه ، وأجاز الفراء فى غير القرآن جرّ طباقا على النعت (وجعل القمر فىهن نورا) أى منورا لوجه الأرض ، وجعل القمر فى السموات مع كونها فى سماء الدنيا ، لأنها إذا كانت فى إحداهن ، فهى فىهن ، كذا قال ابن كيسان . قال الأخفش : كما تقول أتانى بنو تميم ، والمراد بعضهم . وقال قطرب فىهن بمعنى معهن : أى خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض ، كما فى قول امرئ القيس :

وهل يتعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

أى مع ثلاثة أحوال (وجعل الشمس سراجا) أى كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك إلى التصرف فيها

يحتاجون إليه من المعاش (والله أنبتكم من الأرض نباتا) يعنى آدم خلقه الله من أديم الأرض ، والمعنى : أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين ، ونباتا إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد أو مصدر لفعل مخوف : أى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا . وقال الخليل والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى ، لأن معنى أنبتكم : جعلكم تنبتون نباتا . وقيل المعنى : والله أنبت لكم من الأرض النبات فنباتا على هذا مفعول به . قال ابن بحر : أنبتهم فى الأرض بالكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر (ثم يعيدكم فيها) أى فى الأرض (ويخرجكم إخراجا) يعنى يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة (والله جعل لكم الأرض بساطا) أى فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم فى بيوتكم (لتسلخوا منها سبلا فجاجا) أى طرقا واسعة ، والفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء وغيره ، وقيل الفج : المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا فى سورة الأنبياء وفى سورة الحج مستوفى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وجعلوا أصابعهم فى آذانهم) قال : لئلا يسمعوا ما يقول (واستغشوا ثيابهم) قال : ليتكروا فلا يعرفهم (واستكبروا استكبارا) قال : تركوا التوبة . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه (واستغشوا ثيابهم) قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحا ولا يسمعوا كلامه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله (ما لكم لا ترجون لله وقارا) قال : لا تعلمون لله عظمة . وأخرج ابن جرير والبيهقى عنه أيضا (وقارا) قال عظمة . وفى قوله (وقد خلقكم أطوارا) قال : نطفة ثم عاتة ثم مضغة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : لا تخافون لله عظمة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لا تخشون له عقابا ولا ترجون له ثوابا . وأخرج عبد الرزاق فى المصنف عن على بن أبى طالب « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر ، فوقف فنادى بأعلى صوته (ما لكم لا ترجون لله وقارا) » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمرو قال : الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك عليكم أنه من كتاب الله (وجعل القمر فىه نورا وجعل الشمس سراجا) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة عن عبد الله بن عمر قال : تضيء لأهل السموات كما تضيء لأهل الأرض . وأخرج عبد ابن حميد عن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب فتعابتا فذهب ذلك ، فقال عبد الله بن عمرو لكعب : سئنى عما شئت فلا تسألنى عن شئ إلا أخبرتك بتصديق قولى من القرآن ، فقال له : رأيت ضوء الشمس والقمر أهو فى السموات السبع كما هو فى الأرض ؟ قال نعم : ألم تروا إلى قول الله (خلق سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فىه نورا وجعل الشمس سراجا) . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه عن ابن عباس (وجعل القمر فىه نورا) قال : وجهه فى السماء إلى العرش وقفاه إلى الأرض . وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي عن أبى صالح عنه (وجعل القمر فىه نورا) قال : خلق فىه حين خلقهن ضياء لأهل الأرض ، وليس فى السماء من ضوئه شئ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (سبلا فجاجا) قال : طرقا مختلفة .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١)

وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨).

قوله (قال نوح رب إنهم عصوني) أى استمروا على عصياني ولم يجيبوا دعوتي ، شكاهم إلى الله عز وجل ، وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه وهو أعلم بذلك (واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا) أى اتبع الأصاغر رؤساءهم ، وأهل الثروة منهم الذين لم يزد هم كثرة المال والولد إلا ضللا في الدنيا وعتوبة في الآخرة . قرأ أهل المدينة والشام وعاصم وولده بفتح الواو واللام . وقرأ الباقر بسكون اللام ، وهى لغة في الولد ، ويجوز أن يكون جمعا ، وقد تقدم تحقيقه ، ومعنى واتبعوا : أنهم استمروا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع (ومكروا . مكرا كبارا) أى مكرا كبيرا عظيما ، يقال : كبير وكبار وكبار (١) مثل عجيب وعجاب وعجاب ، وجميل وجمال وجمال . قال المبرد : كبارا بالتشديد للمبالغة ، ومثل كبارا قرأ لكثير القراءة ، وأنشد ابن السكيت :

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي بالحسن قلب المسلم القرأ

قرأ الجمهور « كبارا » بالتشديد . وقرأ ابن محيصن وحيد ومجاهد بالتخفيف . قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكرا مكان ذنوب أو أفاعيل ، فلذلك وصفه بالجمع . وقال عيسى بن عمر : هى لغة بمانية .

واختلف فى مكروهم هذا ما هو ؟ فقيل هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح ، وقيل هو تغرييرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضمعة : لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم . وقال الكلبي : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد . وقال مقاتل : هو قول كبارهم لأتباعهم لا تذرنا آلهتكم ، وقيل مكروهم كفرهم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم) أى لا تتركوا عبادة آلهتكم ، وهى الأصنام والصور التى كانت لهم ، ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور (ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) أى لا تتركوا عبادة هذه . قال محمد ابن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتلون بهم فى العبادة ، فقال لهم إيايس : لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة ، ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إيايس : إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم . وقال عروة بن الزبير وغيره : إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم ، وكان ودا أكبرهم . قال الماوردي : فأما ودا فهو أول صنم معبود ، سمي ودا لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

(١) الثانى بالتخفيف ، والثالث بالتشديد اهـ مصححه .

حيالك ودّ فإن لا يحل لنا هو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالحرف من سبأ في قول قتادة .
وقال المهدي : لمراد ثم لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة وعكرمة وعطاء . وقال الثعلبي : كان
لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار في همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

يريش الله في الدنيا ويرى ولا يرى يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذي الكلاع من حير في قول قتادة ومقاتل . قرأ الجمهور « ودّا » بفتح الواو . وقرأ نافع
بضمها . قال الليث : ودّ بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح ، وبه سمى عمرو بن ودّ . قال
في الصحاح ، والودّ بالفتح : الودّ في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال . وقرأ الجمهور « ولا
يغوث ويعقوق » بغير تنوين ، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين
فللعجمة والعلمية . وقرأ الأعمش « ولا يغوثا ويعوقا » بالصرف . قال ابن عطية : وذلك وهم . ووجه تخصيص
هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة ، لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها (وقد أضلوا كثيرا) أي أضلّ
كبرائهم ورؤسائهم كثيرا من الناس ، وقيل الضمير راجع إلى الأصنام : أي ضلّ بسببها كثير من الناس كقول
إبراهيم - ربّ إنهنّ أضللن كثيرا من الناس - وأجرى عليهم ضمير من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها
تعقل (ولا تزدد الظالمين إلا ضلّالا) معطوف على - ربّ إنهم عصوني - ووضع الظاهر موضع المضمّر تسجيلا
عليهم بالظلم . وقال أبو حيان : إنه معطوف على قد أضلوا ، ومعنى الإضلالا إلا عذابا : كذا قال ابن بحر ،
واستدلّ على ذلك بقوله - إنّ المجرمين في ضلال وسعر - ، وقيل إلا خسرا ، وقيل إلا فتنة بالمال والولد ، وقيل
الضبايع ، وقيل ضلالا في مكرهم (مما خطيئاتهم أغرقوا) ما مزيدة للتأكيد ، والمعنى : من خطيئاتهم : أي من
أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان (فأدخلوا نارا) عقب ذلك ، وهي نار الآخرة ، وقيل عذاب القبر . قرأ الجمهور
« خطيئاتهم » على جمع السلامة ، وقرأ أبو عمرو « خطاياهم » على جمع التكسير ، وقرأ الجحدري وعمرو بن عبيد
والأعمش وأبو حيوّة وأشبّه العقيلي خطيئتهم على الأفراد . قال الضحاك عذبوا بالنار في الدنيا مع الفرق في حالة
واحدة كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في جانب . قرأ الجمهور « أغرقوا » من أغرق ، وقرأ زيد بن عليّ
« غرقوا » بالتشديد (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) أي لم يجدوا أحدا يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم
(وقال نوح ربّ لا تنذر على الأرض من الكافرين ديارا) معطوف على (قال نوح ربّ إنهم عصوني) لما أيس
نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك . قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى إليه
- إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن - فأجاب الله دعوته وأغرقهم . وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن
أنس وابن زيد وعطية : إنما قال هذا حين أخرج الله كلّ مؤمن من أصلابهم وأرحام نساءهم ، وأعقم أرحام
النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة ، وقيل بأربعين . قال قتادة : لم يكن فيهم صبي وقت العذاب .
وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلا فيهم ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم
بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب ، ومعنى ديارا : من يسكن الديار ، وأصله ديوار على فيعال ، من دار يدور ،
فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى ، مثل القيام أصله قيوام ، وقال القتيبي : أصله من الدار : أي نازل
بالدار ، يقال ما بالدار ديار : أي أحد ، وقيل الديار : صاحب الديار ، والمعنى : لا تدع أحدا منهم إلا
أهلكته (إنك إن تنذرهم يضلوا عبادك) أي إن تركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحق (ولا يلدوا إلا

فاجرا كفارا) أى إلا فاجرا بترك طاعتك كفارا لنعمتك : أى كثير الكفران لها ، والمعنى : إلا من سيفجر ويكفر . ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين ، فقال (رب اغفر لى ولوالدى) وكانا مؤمنين ، وأبوه لأمك بن متوشلخ كما تقدم ، وأمه سمحاء بنت أنوش ، وقيل أراد آدم وحواء . وقال سعيد بن جبير : أراد بوالديه أباه وجدته . وقرأ سعيد بن جبير « ولوالدى » بكسر الدال على الافراد . (ولمن دخل بيتى) قال الضحاك والكلبي : يعنى مسجده ، وقيل منزله الذى هو ساكن فيه ، وقيل سفينته ، وقيل لمن دخل فى دينه ، وانتصاب (مؤمنا) على الحال : أى لمن دخل بيتى متصفا بصفة الإيمان فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كما رآته وولده الذى قال - سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء - ثم عم الدعوة ، فقال (وللمؤمنين والمؤمنات) أى واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث . ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين ، فقال (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكا وخسرانا ودمارا ، وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (ولا تذرنّ ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) قال : هذه الأصنام كانت تعبد فى زمن نوح . وأخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : صارت الأوثان التى كانت تعبد فى قوم نوح فى العرب . أما ودا فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمрад ثم لبني غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع ، أساء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذى كانوا يجلسون فيه أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت .

تفسير سورة الجن

هى ثمان وعشرون آية

وهى مكية . قال القرطبي : فى قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآهَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَإِنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مُلْتَثَمَةً

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ
شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَإِنَّا لَآنَذِرِي أَشْرَٰءٍ يُرِيدُ بِنَزْلِ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)
وَإِنَّا مِنَّا الصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (١١) وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ
فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن نُّعْجِزُهُ هَرَبًا (١٢) وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا
يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) .

قوله (قل أوحى إلى) قرأ الجمهور « أوحى » رباعيا . وقرأ ابن أبي عبلة وأبو لياس والعتكى عن أبي عمرو
« وحي » ثلاثيا ، وهما لغتان . واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم لم يرههم ؟ فظاهر القرآن أنه لم
يرهم ، لأن المعنى : قل يا محمد لأمتك أوحى إلى علي لسان جبريل (أنه استمع نقر من الجن) ومثله قوله - وإذا
صرفنا إليك نقرأ من الجن يستمعون القرآن - ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم على الجن وما رآهم . قال عكرمة : والسورة التي كان يقرأها رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم هي - اقرأ باسم ربك الذي خلق - وقد تقدم في سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة في هذا . قوله (أنه
استمع نقر من الجن) هذا هو القائم مقام الفاعل ، ولهذا فتحت أن ، والضمير للشأن ، وعند الكوفيين والأنخض
يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجار والمجرور ، والنظر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة . قال الضحاك :
والجن ولد الجن وليسوا شياطين . وقال الحسن : إنهم ولد إبليس . قيل هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم
النارية والهوائية ، وقيل نوع من الأرواح المجردة ، وقيل هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم في دخول مؤمني الجن الجنة كما يدخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك - وجعلناها
رجوما للشياطين . واعتدنا لهم عذاب السعير - وقول الجن فيما سيأتي في هذه السورة ، - وأما القاسطون فكانوا
لجهم خطبا - وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن : يدخلون الجنة ، وقال مجاهد : لا يدخلونها وإن صرفوا عن
النار . والأول أولى لقوله في سورة الرحمن - لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان - وفي سورة الرحمن آيات غير هذه
تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلا منهم ، بل الرسل جميعا من الإنس ، وإن
أشعر قوله - ألم يأتكم رسل منكم - بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أن الله
سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بني آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة (فقالوا
إنا سمعنا قرآنا عجبا) أي قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم : أي سمعنا كلاما مقروءا عجبا في فصاحته وبلاغته ،
وقيل عجبا في مواعظه ، وقيل في بركته ، وعجبا مصدر وصف به للمبالغة ، أو على حذف المضاف : أي ذا عجب
أو المصادر بمعنى اسم الفاعل : أي معجبا (يهدي إلى الرشدا) أي إلى مرشد الأمور ، وهي الحق والصواب ، وقيل
إلى معرفة الله ، والجملة صفة أخرى للقرآن (فآمنا به) أي صدقنا به بأنه من عند الله (ولن نشرك بربنا أحدا)
من خلقه ولا نتخذ معه إلها آخر ، لأنه المنفرد بالربوبية ، وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنوا بالجن
بسماع القرآن مرة واحدة وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ولم ينتفع كفار
الإنس لاسيما رؤسائهم وعظماؤهم بسماعه مرآت متعددة وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم

يثلوه عليهم بلسانهم لاجرم صرعهم الله أذل مصرع وقتلهم أقبح مقتل ، ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون (وأنه تعالى جد ربنا) قرأة حمزة والكسائي وابن عامر وحفص وعلقمة ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف والسلمي (وأنه تعالى) بفتح أن ، وكذا قرءوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها ، وذلك أحد عشر موضعاً إلى قوله (وأنه لما قام عبد الله) وقرأ الباقر بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله (وإن المساجد لله) فإنهم اتفقوا على الفتح ، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع ، فعلى العطف على محل الجار والمجرور في (فأما به) كأنه قيل نصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا الخ ، وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع فعلى العطف على إنا سمعنا : أي فقالوا : إنا سمعنا قرآنا ، وقالوا إنه تعالى جد ربنا إلى آخره . واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة الكسر لأنه كله من كلام الجن وما هو محكي عنهم بقوله فقالوا إنا سمعنا . وقرأ أبو جعفر وشعبة بالفتح في ثلاثة مواضع ، وهي - وأنه تعالى جد ربنا . وأنه كان يقول سفيهاً . وأنه كان رجال من الإنس - قالوا : لأنه من الوحي ، وكسراً ما بقي لأنه من كلام الجن . وقرأ الجمهور « وأنه لما قام عبد الله » بالفتح لأنه معطوف على قوله : أنه استمع . وقرأ نافع وابن عامر وشيبة وزر بن حبيش وأبو بكر والمفضل عن عاصم بالكسر في هذا الموضع عطفاً على فأما به بذلك التقدير السابق ، واتفقوا على الفتح في « أنه استمع » كما اتفقوا على الفتح في « أن المساجد » وفي « وأن لو استنقاهوا » واتفقوا على الكسر في « فقالوا إنا سمعنا » و « قل إنما أدعوا ربى » و « قل إن أدرى » و « قل إني لا أملك لكم » . والجد عند أهل اللغة العظمة والجلال ، يقال جد في عيني : أي عظم ، فالمعنى : ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه قال عكرمة ومجاهد . وقال الحسن : المراد تعالى غناه ، ومنه قيل للحظ جد ، ورجل مجدود : أي محظوظ وفي الحديث « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » قال أبو عبيد والخليل : أي لا ينفع ذا الغنى منك الغنى : أي إنما تنفعه الطاعة ، وقال القرطبي والضحاك : جد آلاؤه ونعمه على خاقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدي : أمره . وقال سعيد بن جبير (وأنه تعالى جد ربنا) أي تعالى ربنا ، وقيل جدته قدرته . وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع بن أنس : ليس لله جد ، وإنما قالته الجن للجهالة . قرأ الجمهور « جد » بفتح الجيم ، وقرأ عكرمة وأبو حيوة ومحمد بن السميع بكسر الجيم ، وهو ضد الهزل ، وقرأ أبو الأشهب « جدى ربنا » أي جدواه ومنفعته . وروى عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتثوين « جد » ورفع « ربنا » على أنه بدل من جد (ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) هذا بيان لتعالى جدته سبحانه . قال الزجاج : تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً ، وكأن الجن نبهوا بهذا على خطئ الكفار الذين ينسبون إلى الله صاحبة والولد ، ونزهوا الله سبحانه عنهما (وإنه كان يقول سفيهاً على الله شططا) الضمير في أنه للحديث أو الأمر ، وسفيهاً يجوز أن يكون اسم كان ، ويقول الخبر ، ويجوز أن يكون سفيهاً فاعل يقول ، والجملة خبر كان ، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر . ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيهم عصاتهم ومشركوهم . وقال مجاهد وابن جريج وقتادة : أرادوا به إبليس ، والشطط : الغلو في الكفر . وقال أبو مالك : الجور ، وقال الكلبي : الكذب ، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحد ، ومنه قول الشاعر :

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا وما ذاك إلا حيث يملك الوخط

(وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) أي إنا حسبنا أن الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكاً وصاحبة وولداً ، فلذلك صدقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن ، فعلمنا بطلان قولهم وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذباً على أنه مصدر مؤكد ليقول ، لأن الكذب نوع من القول ، أو صفة

لمصدر مخنوف : أى قولاً كذبا . وقرأ يعقوب والبخاري وابن أبي إسحاق « أن لن تقول » من التقول ، فيكون على هذه القراءة كذبا مفعول به (وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بموادة قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية . قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيقة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم (فزادهم رهقا) أى زاد رجال الجن من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقا : أى سفها وطغيانا ، أو تكبرا وعتوا ، أو زاد المستعبدون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجن رهقا ، لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون سدننا الجن والإنس . وبالأول قال مجاهد وقتادة ، وبالثاني قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد . والرهق فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق : إذا كان كذلك ، ومنه قوله - ترهقهم ذلة - أى تغشاهم ، ومنه قول الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتنى عاشق مالم يصب رهقا

يعنى إثما ، وقيل الرهق : الخوف : أى أن الجن زادت الإنس بهذا التعوذ بهم خوفا منهم ، وقيل كان الرجل من الإنس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جن هذا الوادي ، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجن ، فيكون قوله برجال وصفا لمن يستعينون به من رجال الإنس : أى يعوذون بهم من شر الجن ، فيكون قوله برجال وصفا لمن يستعينون به من رجال الإنس : أى يعوذون بهم من شر الجن ، وهذا فيه بعد ، وإطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) هذا من قول الجن للإنس : أى وإن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث . وقيل المعنى : وإن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن ، والمعنى : أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون (وأنا لمسنا السماء) هذا من قول الجن أيضا : أى طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا (فوجدناها ملئت حرسا) من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ، والحرس جمع حارس ، و (شديد) صفة لحرسا : أى قويا (وشها) جمع شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب كما تقدم بيانه في تفسير قوله - وجعلناها رجوما للشياطين - ومحل قوله (ملئت حرسا شديدا) النصب على أنه ثاني مفعولى وجدنا ، لأنه يتعدى إلى مفعولين ، ويجوز أن يكون متعديا إلى مفعول واحد ، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد ، وحرسا منصوب على التمييز ، ووصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ ، كما يقال السلف الصالح : أى الصالحين (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أى وأنا كنا معشر الجن قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع : أى مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ، وللسمع متعلق بنقعد : أى لأجل السمع ، أو بمضمر هو صفة لمقاعد : أى مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان ، وذلك أن مرده الجن كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالشهب المحرقة ، وهو معنى قوله (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أى أرصده ليرمى به ، أو لأجله لمنعه من السماع ، وقوله « الآن » هو ظرف للحال واستعير للاستقبال ، وانتصاب رصدا على أنه صفة لشهابا ، أو مفعول له ، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم : لم يكن ذلك . وحكى الواحدى عن معمر قال : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال نعم ، قلت : أفرأيت قوله « وأنا

كنا نقعد منها) الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ، ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال ، فلما بعث منعوا من ذلك أصلا . وقال عبد الملك بن سabor : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرست السماء ، ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنو إلى السماء . وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمي ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رميت بالشهب ، وقد تقدم البحث عن هذا (وإنا لا ندرى أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) أى لاندري أشراً أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء ، أم أراد بهم ربهم رشداً : أى خيراً . قال ابن زيد : قال إبليس : لاندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولا ، وارتفاع « أشراً » على الاشتغال . أو على الابتداء ، وخبره مابعده ، والأول أولى ، والجملة سادة مسند مفعولى ندرى ، والأولى أن هذا من قول الجن فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد (وأنا منا الصالحون) أى قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح (ومنا دون ذلك) أى قوم دون ذلك : أى دون الموصوفين بالصلاح ، وقيل أراد بالصالحون المؤمنين ، وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأول أولى ، ومعنى (كنا طرائق قدا) أى جماعات متفرقة وأصنافا مختلفة ، والقدة : القطعة من الشيء ، وصار القوم قدا : إذا تفرقت أحرارهم ، ومنه قول الشاعر

القابض الباسط الهادى لطاعته فى فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى : كنا ذوى طرائق قدا ، أو كانت طرائقنا طرائق قدا ، أو كنا مثل طرائق قدا ، ومن هذا قول

ليد : لم تبلغ العين كل نهمتها يوم تمشى الجياد بالقدد

وقوله أيضا : ولقد قلت وزيد حاسر يوم ولت خيل عمرو قدا

قال السدى والضحاك : أديانا مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة . وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس ، وكذا قال نجاهد . قال الحسن : الجن أمثالكم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعية ، وكذا قال السدى : (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض) الظن هنا بمعنى العلم واليقين : أى وإنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نفوته إن أراد بنا أمرا (ولن نعجزه هربا) أى هارين منها ، فهو مصدر في موضع الحال (وأنا لما سمعنا الهدى) يعنون القرآن (آمنا به) وصدقنا أنه من عبد الله ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس (فن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أى لا يخاف نقصا في عمله وثوابه ، ولا ظلما ومكروها يغشاه ، والبخس النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى : لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزداد في سيئاته ، وقد تقدم تحقيق الرهق قريبا . قرأ الجمهور « بخسا » بسكون الخاء . وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش « فلا يخف » جزما على جواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء ، والتقدير : فهو لا يخاف والأمر ظاهر .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : إنطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب -

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا - هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم (فقالوا) يا قومنا (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمننا به ولن نشرك بربنا أحدا) فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) وإنما أوحى إليه قول الجن . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) قال : كانوا من جن نصيبين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وأنه تعالى جد ربنا) قال : آلاؤه وعظمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : أمره وقدرته . وأخرج ابن مردويه والديلمي قال السيوطي بسند واه عن أبي موسى الأشعري مرفوعا في قوله (وأنه كان يقول سنيها) قال : إبليس . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والعتيلي في الضعفاء والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وابن عساكر عن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي أنا جارك ، فنادى مناد يأسرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) الآية . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (فزادوهم رهقا) قال : إنما . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه ، فلا يكون بشيء أشد ولعا منهم بهم ، فذلك قوله (فزادوهم رهقا) . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقا ، وأما ما زادوا ، فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم : ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائما يصلي بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك) يقول : منا المسلم ، ومنا المشرك ، و (كنا طرائق قددا) أمواء شتى . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (فلا يخاف بخسا ولا رهقا) قال : لا يخاف نقصا من حسناته ولا زيادة في سيئاته .

وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)
 قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
 فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ
 لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
 يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولُ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ
 بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) .

قوله (وأنا منا المسلمون) هم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم (ومنا القاسطون) أى الجاثرون
 الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ، ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال قسط : إذا جار ، وأقسط : إذا عدل
 (فن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أى قصدوا طريق الحق . قال الفراء : أمّوا الهدى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم
 حطبا) أى وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس (وألوا استقاموا على الطريقة) هذا ليس من قول الجن
 بل هو معطوف على (أنه استمع نقر من الجن) والمعنى : وأوحى إلى أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس أو
 كلاهما على الطريقة ، وهى طريقة الإسلام ، وقد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح أن ههنا . قال ابن الأنبارى :
 والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها ، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل ، يقال فى الكلام والله لو قمت لقمت
 كما فى قول الشاعر :

أما والله أن لو كنت حرّا ولا بالحرّ أنت ولا العتيق

قال : أو على أوحى إلى أنه استمع ، وأن لو استقاموا ، أو على آمنّا به : أى آمنّا به ، وبأن لو استقاموا . قرأ
 الجمهور بكسر الواو من لو لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن وثاب والأعمش بضمها (لأسقيناهم ماء غدقا) أى كثيرا
 واسعا . قال مقاتل : ماء كثيرا من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين . وقال ابن قتبية : المعنى لو
 آمنوا جميعا لو سعننا عليهم فى الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلا لأن الخير كله والرزق بالمطر ، وهذا كقوله - ولو
 أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا - الآية ، وقوله - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - وقوله
 - استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين - الآية . وقيل المعنى : وأن
 لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، واختار هذا الزجاج .
 والماء الغدق : هو الكثير فى لغة العرب (لفتنهم فيه) أى لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم . وقال
 الكلبي : المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا ، لأوسعنا أرزاقهم
 مكرا بهم واستدراجا حتى يفتنوا بها فنعذبهم فى الدنيا والآخرة . وبه قال الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه
 عبد الرحمن والثمالى ويومان بن زيان وابن كيسان وأبو مجلز ، واستدلوا بقوله - فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم

أبواب كل شيء - وقوله - ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة - الآية والأول أولى (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعبا) أي ومن يعرض عن القرآن ، أو عن العبادة ، أو عن الموعظة ، أو عن جميع ذلك يسلكه : أي يدخله عذابا صعبا . قرأ الجمهور « نسلكه » بالنون مفتوحة . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله - عن ذكر ربه - ولم يقل عن ذكرنا . وقرأ مسلم بن جندب وطلحة بن مصرف والأعرج بضم النون وكسر اللام ، من أسألكه ، وقراءة الجمهور من سلكه . والصعد في اللغة المشقة ، تقول تصعدني الأمر : إذا شق عليك ، وهو مصدر صعد ، يقال صعد صعدا وصعودا ، فوصف به العذاب مبالغة ، لأنه يتصعد المعضب : أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . قال أبو عبيد : الصعد مصدر : أي عذابا ذا صعد . وقال عكرمة : الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حذر إلى جهنم كما في قوله - سأرهقه صعودا - والصعود : العقبة الكثود (وأن المساجد لله) قد قدّمنا اتفاق القراء هنا على الفتح فهو معطوف على أنه استمع : أي وأوحى إلى أن المساجد مختصة بالله . وقال الخليل : التقدير ولأن المساجد . والمساجد : المواضع التي بنيت للصلاة فيها . قال سعيد بن جبیر : قالت الجن كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن نأبون عنك ؟ فزلات . وقال الحسن : أراد بها كل البقاع لأن الأرض كلها مسجد . وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، وهي القدمان والركبتان واليدين والجنبه ، يقول هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء . وقيل المساجد هي الصلاة لأن السجود من جملة أركانها قاله الحسن (فلا تدعوا مع الله أحدا) من خلقه كائنا ما كان (وأنه لما قام عبد الله) قد قدّمنا أن الجمهور قرءوا هنا بفتح أن ، عطفا على أنه استمع : أي وأوحى إلى أن الشأن لما قام عبد الله ، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يدعو) أي يدعو الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة كما تقدّم حين قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي ويتلو القرآن ، وقد قدّمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر إن هنا ، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد (كادوا يكونون عليه لبدا) أي كاد الجن يكونون على رسول الله لبدا : أي متراكبين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج : ومعنى لبدا : يركب بعضهم بعضا ، ومن هذا اشتقاق هذه اليبود التي تفرش . قرأ الجمهور « لبدا » بكسر اللام وفتح الباء . وقرأ مجاهد وابن محيصن وهشام بضم اللام وفتح الباء ، وقرأ أبو حنيفة ومحمد بن السميع والعقبلي والحدادي بضم الباء واللام . وقرأ الحسن وأبو العالية والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة . فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه ، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى كثيرا كما في قوله - أهلكم مالا لبدا - وقيل المعنى : كاد للمشركون يركب بعضهم بعضا حرذا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ، ويتم نوره . واختار هذا ابن جرير . قال مجاهد لبدا : أي جماعات ، وهو من تلبد الشيء على الشيء أي اجتمع ومنه اللبد الذي يفرش لثراكم صوفه ، وكل شيء الصقته لصاقا شديدا فقد لبدته ، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد لبدة ، وجمعها لبد ويقال للجراد الكثير لبد ؛ ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشيء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقاءه ، وهو المقصود بقول النابغة : أخني عليها الذي أخني على لبد * (قال إنما أدعوا ربّي) أي قال عبد الله إنما أدعوا ربّي وأعبده (ولا أشرك به أحدا) من خلقه . قرأ الجمهور « قال » وقرأ عاصم وحزة « قل » على الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عادت

الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك (قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق إليكم خيراً ، وقيل الضر الكفر ، والرشد الهدى ، والأول أولى لوقوع النكرتين في سياق النفي ، فهما يعلمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدين (قل إني لن يجيرني من الله أحد) أى لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي (ولن أجد من دونه ملتحداً) أى ملجأ ومعدلاً وحرزاً ، والملتحدة معناه في اللغة المال : أى موضعاً أميل إليه . قال قتادة : مولى . وقال السدي : حرزاً ، وقال الكلبي : مدخلا في الأرض مثل السرب ، وقيل مذهبا ومسلكا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول الشاعر :

يا لهف نفسي ولهفا غير مجدية عني وما من قضاء الله ملتحداً

والاستثناء في قوله (إلا بلاغا من الله) هو من قوله لا أملك : أى لا أملك ضراً ولا رشداً إلا التبليغ من الله ، فإن فيه أعظم الرشد ، أو من ملتحداً : أى لن أجد من دونه ملجأ إلا التبليغ . قال مقاتل : ذلك الذي يجيرني من عذابه . وقال قتادة : إلا بلاغا من الله ، فذلك الذي أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . قال الفراء : لكن أبلغكم ما أرسلت به ، فهو على هذا منقطع . وقل الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله « ملتحداً » أى ولن أجد من دونه ملتحداً إلا أن أبلغ ما يأتي من الله ، وقوله (ورسالاته) معطوف على بلاغا : أى إلا بلاغا من الله وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم ، أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته ، فأخذ نفسي بما أمر به غيري . وقيل الرسالات معطوفة على الاسم الشريف : أى إلا بلاغا عن الله وعن رسالاته ، كذا قال أبو حيان ورجحه (ومن يعص الله ورسوله) في الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه (فإن له نار جهنم) قرأ الجمهور بكسر إن على أنها جملة مستأنفة . وقرئ بفتح الهمزة ، لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، والتقدير فجزاؤه أن له نار جهنم ، أو فحكمه أن له نار جهنم ، وانتصاب (خالدين فيها) على الحال : أى في النار أو في جهنم ، والجمع باعتبار معني من كما أن التوحيد في قوله « فإن له » باعتبار لفظها ، وقوله (أبداً) تأكيد لمعنى الخلود : أى خالدين فيها بلا نهاية (حتى إذا رآوا مايوعدون) يعنى من العذاب في الدنيا أو في الآخرة . والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين حتى إذا رآوا الذي يوعدون به (فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) أى من هو أضعف جنداً ينتصر به وأقل عدداً أهم أم المؤمنون ؟ (قل إن أدري أقريب ما توعدون) أى ما أدري أقريب حصول ما توعدون من العذاب (أم يجعل له ربي أمداً) أى غاية ومدة ، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له متى يكون هذا الذي توعدنا به ؟ قال عطاء : يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله وحده ، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله . قرأ الجمهور « ربي » بإسكان الياء . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بفتحها ، (ومن) في « من أضعف » موصولة ، وأضعف خبر مبتدأ محذوف : أى هو أضعف ، والجملة صلة الموصول ، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء وأضعف خبرها ، والجملة في محل نصب سادة مسد مفعولى أدري ، وقوله « أقريب » خبر مقدم « وما توعدون » مبتدأ مؤخر (عالم الغيب) قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي ، أو بيان له أو خير مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من عدم الدراية . وقرئ بالنصب على المدح . وقرأ السري علم الغيب بصيغة الفعل ونصب الغيب ، والفاء في (فلا يظهر على غيبه أحداً) لترتيب عدم الإظهار على تفرده بعلم الغيب : أى لا يطلع على الغيب الذي يعلمه ، وهو ما غاب عن العباد أحدا منهم ، ثم استثنى فقال (إلا من ارتضى من رسول) أى إلا من اصطفاه من الرسل أو

من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ليكون ذلك دالا على نبوته ، قال القرطبي : قال العلماء : لما تمجد سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكف ويزجر بالطين ممن ارتضاة من رسول فيطلعه على ما شاء من غيبه ، فهو كافر بالله مقرر عليه بحديثه وتحمينه وكذبه . وقال سعيد بن جبير : إلا من ارتضى من رسول هو جبريل ، وفيه بعد . وقيل المراد بقوله « إلا من ارتضى من رسول » فإنه يطلعه على بعض غيبه ، وهو ما يتعلق برسائله كالمعجزة وأحكام التكليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة ، لا مالا يتعلق برسائله من الغيوب ، كوقت قيام الساعة ونحوه . قال الواحدى : وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن . قال في الكشف : وفي هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال للكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط . قال الرازى : وعندى لدلالة في الآية على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه ، فتحمل على غيب واحد وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله (أقريب ما توعدون) الآية . فإن قيل : فما معنى الاستثناء حينئذ ؟ قلنا : لعله إذا قربت القيامة يظهره ، وكيف لا ؟ وقد قال - يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا - فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة ، أو هو استثناء منقطع : أى من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حافظة يحفظونه من شر مردة الجن والإنس . ويدل على أنه ليس المراد به لإطلاع أحدا على شيء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقا وسطيحيا كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل ظهوره ، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى . فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات ، وأيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلية ويكون صادقا فيها ، وأيضا قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان وسألها عن أمور مستقبلية فأخبرته بها ، فوقعت على وفق كلامها . قال : وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل ، فكانت على وفق خبرها . وبالف في كتاب البركات في كتاب التعبير في شرح حالها وقال : فحصت عن حالها ثلاثين سنة ، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارا مطابقا . وأيضا فإننا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضا ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف ، ولو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن فيكون التأويل ما ذكرنا ، انتهى كلامه .

قلت : أما قوله إذ لا صيغة عموم في غيبه فباطل ، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم . وأما قوله : أو هو استثناء منقطع فجرد دعوى ياباه النظم القرآنى . وأما قوله : إن شقا وسطيحيا الخ ، فقد كانا في زمن تسرق فيه الشياطين السمع ويلقون ما يسمعون به إلى الكهان فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت في الحديث الصحيح . وفي قوله - إلا من خطف الخطفة - ونحوها من الآيات ، فياب الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة ، وأنه كان طريقا لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية ، وقالوا - إنا لمسنأ السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فنسمع

الآن يجد له شهابا رصدا - فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بأذنته ، فهو من جملة ما يخص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية . وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ماورد في الحديث « إن في هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا انقضاء لها ، وأما ما اجتراه به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه . فلو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن ، فيقال له ما هذه بأول زلة من زلاتك ، وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك ، يا عجباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجبا لتطرق الطعن إلى القرآن ، وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا :

وإذا رامت الذبابة للشم من غطاء مدت عليها جناحا

وقلت من أبيات :

مهب رياح سدّه بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه ، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته ؟ قلت : نعم ولا مانع من ذلك . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فن ذلك ما صح أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة ، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها ، حفظ ذلك من حفظه ونسبه من نسبه . وكذلك ما ثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يحدث من الفتن بعده . حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه . وثبت في الصحيح وغيره « أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر ، فقال : إن بينك وبينها بابا ، فقال عمر : هل يفتح أو يكسر ؟ فقال : بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب ، وأن كسره قتله » كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة : هل كان عمر يعلم ذلك ؟ فقال : نعم كان يعلم أن دون غد الليلة . وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذر بما يحدث له ، وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذي الثدية ، ونحو هذا مما يكثر تعدده وأوجع لجاء منه مصنف مستقل . وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله ، وأظهرها رسوله لبعض أمته ، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناح النبوي . ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطاع عليه الرسول فقال (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء ، والمعنى : أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرسا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين ، فتلقيه إلى الكهنة ، والمراد من جميع الجوانب . قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا هذا رسول ربك . قال ابن زيد : رصدا : أي حفظة يحفظون النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أمامه وورائه من الجن والشياطين . قال قتادة وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة . وقال القراء : المراد جبريل . قال في الصحاح : الرصد القوم يرصدون

كما الحرس يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث ، والرصد للشئ الرقيب له ، يقال : رصده يرصده رصدا ورصدنا
والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) اللام متعلق بيسلك ، والمراد به العلم
المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات
عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير أبلغوا يعود إلى الرصد . وقال قتادة
ومقاتل : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وفيه حذف تتعلق به اللام : أى أخبرناه
بمخزننا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ . وقيل ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه
رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير . وقيل ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم . وقيل ليعلم إبليس أن
الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط . وقال ابن قتيبة : أى ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم
ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات
ربهم . قرأ الجمهور « ليعلم » بفتح التحتية على البناء للفاعل . وقرأ ابن عباس ومجاهد وهنيد ويعقوب وزيد بن علي
بضمها على البناء للمفعول : أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا
رسالاته : أى ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيبا . وقرأ ابن أبي عبيدة والزهري بضم الياء وكسر اللام (وأحاط بما
لديهم) أى بما عنده الرصد من الملائكة ، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة في محل نصب على الحال من
فاعل يسلك بإضمار قد : أى والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال . قال سعيد بن جبير : ليعلم أن
ربهم قد أحاط بما لديهم قبلوا رسالاته (وأحصى كل شئ عددا) من جميع الأشياء التي كانت والتي ستكون ،
وهو معطوف على أحاط ، وعددا يجوز أن يكون منتصبا على التمييز محولا من المفعول به : أى وأحصى عدد كل
شئ كما في قوله - وفجرنا الأرض عيونا - ويجوز أن يكون منصوبا على المصدرية ، أو في موضع الحال :
معدودا ، والمعنى : أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال ، بل على وجه التفصيل : أى أحصى كل
فرد من مخلوقاته على حدة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال (القاسطون) العادلون عن الحق . وأخرج ابن جرير عنه في قوله
(وألو استقاموا على الطريقة) قال : أقاموا ما أمروا به (لأسقيناهم ماء غدقا) قال : معينا . وأخرج عبد بن حميد
وابن جرير عن السدي قال : قال عمر « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » قال : حيثما
كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (لنفتنهم فيه) قال :
لنبتليهم به . وفي قوله (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) قال : شقة من العذاب يصعد فيها .
وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه عنه في قوله (يسلكه عذابا صعدا) قال : حبلا في جهنم .
وأخرج ابن جرير عنه أيضا (عذابا صعدا) قال : لا راحة فيه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (وأن
المساجد لله) قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا مسجد الحرام ، ومسجد إيلياء بيت المقدس .
وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل
الهجرة إلى نواحي مكة فخط لى خطا . وقال لا تحدثن شيئا حتى آتيك ، ثم قال : لا يهولنك شيئا تراه ، فتقدم
شيئا ، ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط ، وكانوا كما قال الله تعالى - كادوا يكونون عليه لبدا - .
وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال « لما سمعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يثلو القرآن
كادوا يركبونه من الخرص لما سمعوه ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول ، فجعل يقرئه - قل أوحى إلى أنه

استمع نفر من الجن . وأخرج عبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير والمحاكم وصححه وابن مردويه والفضياء في المختارة عنه أيضا في الآية قال « لما أتى الجن إلى رسول الله وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، فعجبوا من طوعية أصحابه ، فقالوا لقومهم لما قام عبد الله يدعوه : كادوا يكونون عليه لبدا » . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا « لما قام عبد الله يدعوه » أي يدعى الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (كادوا يكون عليه لبدا) قال : أعوانا . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا (فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول » قال : أعلم الله الرسول من الغيب الوحي وأظهره عليه مما أوحى إليه من غيبه وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا (رصد) قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذي أرسل إليهم به ، وذلك حتى يقول أهل الشرك قد أبلغوا رسالات ربهم . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها ، حتى يؤدوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قرأ (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يعني الملائكة الأربعة (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) اهـ

تفسير سورة المزمل

هي تسع عشرة آية ، وقيل عشرون آية

وهي مكية . قال الماوردي : كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر ، قال : وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها (واصبر على ما يقولون) والتي تليها . وقال الثعلبي : إلا قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم) إلى آخر السورة ، فإنه نزل بالمدينة . وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت (يا أيها المزمل) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة المزمل بمكة إلا آيتين (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) . وأخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة ، فقالوا سمو هذا الرجل اسما تصدون الناس عنه ، فقالوا كاهن ، قالوا ليس بكاهن ، قالوا مجنون ، قالوا ليس بمجنون ، قالوا ساحر ، قالوا ليس بساحر ، ففترق المشركون على ذلك ، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فزمل في ثيابه وتدنثر فيها ، فأناه جبريل ، فقال : يا أيها المزمل - يا أيها المدثر . قال البزار : بعد إخراجهم من طريق معلى بن عبد الرحمن إن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه ، لكنه إذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها . وأخرج أبو داود والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال : « بت عند خالتي ميمونة ، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي من الليل ، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر ، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر يا أيها المزمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ (١) قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ

وَطَنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) أَلَسَمَاءٌ مُتَفَطِّرُ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨).

قوله (يا أيها المزمل) أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي ، والتزمل التلطف في الثوب . قرأ الجمهور « المزمل » بالإدغام . وقرأ أبي المتزمل على الأصل . وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي ، ومثل هذه القراءة قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في أفانين وبله كبير أناس في لحاد مزمل

وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف في معناه ، فقال جماعة : إنه كان يتزمل صلى الله عليه وآله وسلم بشيابه في أول ما جاءه جبريل بالوحي فرقامنه حتى أنس به ، وقيل المعنى : يا أيها المزمل بالنبوة والمثلزم للرسالة . وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ (يا أيها المزمل) بتخفيف الزاي وفتح الميم مشددة اسم مفعول وقيل المعنى : يا أيها المزمل بالقرآن . وقال الضحاك : تزمل بشيابه لمنامه ، وقيل بلغه من المشركين سوء قول ، فتزمل في ثيابه وتدثر ، فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة ، فأتى أهله وقال : زملوني دثروني ، وكان خطابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الخطاب في أول نزول الوحي . ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة (قم الليل إلا قليلاً) أي قم للصلاة في الليل . قرأ الجمهور « قم » بكسر الميم لا لتقاء الساكنين . وقرأ أبو السماك بضمها اتباعاً لضمة القاف . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأى حركة تحرك فقد وقع الغرض . وانتصاب الليل على الظرفية . وقيل إن معنى قم صل ، عبر به عنه واستعير له . واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضاً عليه أو نفلاً ؟ وسيأتي إن شاء الله ما روى في ذلك . وقوله إلا قليلاً استثناء من الليل : أي صلّ الليل كله إلا يسيراً منه ، والقليل من الشيء هو مادون النصف ، وقيل مادون السدس ، وقيل ما دون العشر . وقال مقاتل والكلبي : المراد بالقليل هنا الثلث ، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله (نصفه) الخ ، وانتصاب نصفه على أنه بدل من الليل . قال الزجاج : نصفه بدل من الليل ، وإلا قليلاً استثناء من النصف ، والضمير في منه وعليه عائد إلى النصف . والمعنى : قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين ، فكأنه قال : قم ثلثي الليل ، أو نصفه أو ثلثه . وقيل إن نصفه بدل من قوله قليلاً ، فيكون المعنى : قم الليل إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه ، قال الأخفش : نصفه أي أو نصفه كما يقال : أعطه درهماً درهمين ثلاثة ، يريد أو درهمين أو ثلاثة .

قال الواحدى : قال المفسرون : أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين ، جعل له سعة في مدة قيامه في الليل وخيره في هذه الساعات للقيام ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشق ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدري كم صلى أو كم بقى من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم ، وقيل الضميران في منه وعليه راجعان للأقل من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقل ، أو أزيد منه قليلا ، وهو بعيد جدا ، والظاهر أن نصفه بدل من قليلا ، والضميران راجعان إلى النصف المبدل من قليلا .

واختلف في الناسخ لهذا الأمر ، فقيل هو قوله « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلاثة » إلى آخر السورة ، وقيل هو قوله « علم أن لن تحصوه » وقيل هو قوله « علم أن سيكون منكم مرضى » وقيل هو مذوخ بالصلوات الخمس ، وبهذا قال مقاتل والشافعي وابن كيسان ، وقيل هو قوله - فاقراءوا ما تيسر منه - وذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم وأوقدر حلب شاة (ورتل القرآن ترتيلا) أى اقرأه على مهل مع تدبر . قال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . قال الزجاج : هو أن يبين جميع الحروف ، ويوفى حتمها من الإشباع . وأصل الترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، وتأكيده الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) أى سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقیل . قال قتادة : ثقیل والله فرائضه وحدوده . قال مجاهد : حلاله وحرامه . قال الحسن : العمل به . قال أبو العالية : ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام . وقال محمد بن كعب : ثقیل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسب آلهتهم . وقال السدي : ثقیل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقیل على : أى يكرم على . قال الفراء : ثقيلا رزينا ليس بالخفيف السفساف ، لأنه كلام ربنا . وقال الحسين بن الفضل : ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد ، وقيل وصفه بكونه ثقيلا حقيقة لما ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه (إن ناشئة الليل) أى ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أولا فأولا ، يقال نشأ الشيء ينشأ : إذا ابتداء وأقبل شيئا بعد شيء فهو ناشئ ، وأنشأ الله فنشأ ، ومنه نشأت السحاب : إذا بدأت ، فنشأة فاعلة من نشأ ينشأ فهي ناشئة . قال الزجاج : ناشئة الليل كل ما نشأ منه : أى حدث ، فهو ناشئة . قال الواحدى : قال المفسرون : الليل كله ناشئة ، والمراد أن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف . وقيل إن ناشئة الليل هي النفس التي نشأ من مضجعتها للعبادة : أى تنهض ، من نشأ من مكانه : إذا نهض . وقيل الناشئة بالحشية قيام الليل ، وقيل إنما يقال لقيام الليل ناشئة إذا كان بعد نوم . قال ابن الأعرابي : إذا نمت من أول الليل ثم قمت فذلك المنشأة والنشأة ، ومنه ناشئة الليل . قيل وناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء ، لأن معنى نشأ ابتداء ، ومنه قول نصيب

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشء الصغارا

قال عكرمة وعطاء : إن ناشئة الليل بدو الليل . وقال مجاهد وغيره : هي في الليل كله ، لأنه ينشأ بعد النهار ، واختار هذا مالك . وقال ابن كيسان : هي القيام من آخر الليل . قال في الصحاح : ناشئة الليل أول ساعاته . وقال الحسن : هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح (هي أشد وطأ) قرأ الجمهور « وطأ » بفتح الواو وسكون الطاء

مقصودة ، واختار هذه القراءة أبو حاتم . وقرأ أبو العالية وابن أبي إسحاق ومجاهد وأبو عمرو وابن عامر وحيد وابن محيصن والمغيرة وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، فالمعنى على القراءة الأولى أن الصلاة في ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار ، لأن الليل للنوم . قال ابن قتيبة : المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار ، من قول العرب : اشتدت على القوم وطأة الساطان : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم أشدد وطأتك على مضر » والمعنى على القراءة الثانية أنها أشد مواطأة : أى موافقة ، من قولهم : واطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء : إذا وافقته عليه . قال مجاهد وابن أبي مليكة : أى أشد موافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه - ليواطئوا عدة ما حرم الله - أى ليوافقوا . وقال الأخفش : أشد قياما . وقال الفراء : أى أثبت للعمل ، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبي : أشد نشاطا (وأقوم قبلا) أى وأشد مقالا وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهدوء الأصوات ، وأشد استقامة واستمرارا على الصواب ، لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ، لأنه زمان التفهم . قال أبو علي الفارسي : أقوم قليلا : أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل . قال الكلبي : أى أبين قولاً بالقرآن . وقال عكرمة : أى أتم نشاطا وإخلاصا وأكثر بركة . وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه في القرآن ، وقيل أعجل إجابة للدعاء (إن لك في النهار سبعا طويلا) قرأ الجمهور « سبعا » بالخاء المهملة : أى تصرفا في حوائجك وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا ، والسبح : الجري والدوران ، ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيدنه ورجليه ، وفرس سابح : أى شديد الجري . وقيل السبح الفراغ : أى إن لك فراغا بالنهار للحاجات ، فصل بالليل . قال ابن قتيبة : أى تصرفا وإقبالا وإدبارا في حوائجك وأشغالك . وقال الخليل : إن لك في النهار سبعا : أى نوما ، والتسبيح التمدد . قال الزجاج : المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ للاستدراك . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو وائل وابن أبي عبيدة « سبعا » بالخاء المعجمة ، قيل ومعنى هذه القراءة : الخفة والسعة والاستراحة . قال الأصمعي : يقال سبخ الله عنك الحمى : أى خففها ، وسبخ الحر فتر وخف ، ومنه قول الشاعر :

فسبخ عليك الهم واعلم بأنه إذا قدر الرحمن شيئا فكائن

أى خفف عنك الهم . والتسبيخ من القطن ما ينسج بعد الندف ، ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهن يذررين التراب كما تذرى سبائح قطن ندف أوتار

قال ثعلب : السبخ بالخاء المعجمة التردد والاضطراب ، والسبخ السكون . وقال أبو عمرو : السبخ النوم والفراغ (واذكر اسم ربك) أى ادعه بأسمائه الحسنى ، وقيل اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك ، وقيل اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته ، وقيل المعنى : دم على ذكر ربك ليلا ونهارا واستكثر من ذلك . وقال الكلبي : المعنى صل لربك (وتبتل إليه تبتيلا) أى انقطع إليه انقطاعا بالاشتغال بعبادته ، والتبتل الانقطاع ، يقال بتلت الشيء : أى قطعته وميزته من غيره ، وصدقة بتلة : أى منقطة من مال صاحبها ، ويقال للراهب متبتل لانقطاعه عن الناس ، ومنه قول الشاعر :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل

ووضع تبتيلا مكان تبتلا لرعاية الفواصل . قال الواحدى : والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله (ربّ المشرق والمغرب) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر بجرّ ربّ على النعت لربك أو البدل منه أو البيان له . وقرأ الباكون برفعه على أنه مبتدأ وخبره (لا إله إلا هو) أو على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هو ربّ المشرق . وقرأ زيد بن على بنصبه على المدح . وقرأ الجمهور « المشرق والمغرب » مفردين ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس « المشرق والمغرب » على الجمع ، وقد قدّمنا تفسير المشرق والمغرب ، والمشرقين والمغربين والمشارك والمغرب (فاتخذوه وكيفا) أى إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذوه وكيفا : أى قائما بأمورك ، وعول عليه فى جميعها ، وقيل كفيلا بما وعدك من الجزاء والنصر (واصبر على ما يقولون) من الأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك (واهجرهم هجرا جميلا) أى لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافاتهم ، وقيل الهجر الجميل الذى لا جزع فيه ، وهذا كان قبل الأمر بالقتال (وذرنى والمكذبين) أى دعنى وإياهم ولا تهتم بهم فإنى أكفيك أمرهم وأنقم لك منهم . قيل نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة وقد تقدّم ذكرهم . وقال يحيى بن سلام : هم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم اثنا عشر (أولى النعمة) أى أرباب الغنى والسعة والترفة واللذة فى الدنيا (ومهلهم قليلا) أى تمهिला قليلا على أنه نعت لمصدر محذوف ، أو زمانا قليلا على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى أمهلهم إلى انقضاء آجالهم ، وقيل إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، والأول أولى لقوله (إنّ لدينا أنكالا) وما بعده فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل وهو القيد ، كذا قال الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال ، والأول أعرف فى اللغة ، ومنه قول الحسناء :

أتوك فقطعت أنكالهم وقد كنّ قبلك لا تقطع

وقال مقاتل : هى أنواع العذاب الشديد . وقال أبو عمران الجوني : هى قيود لا تحلّ (وجحيا) أى نارا مؤججة (وطعاما ذا غصة) أى لا يسوغ فى الخلق بل ينشب فيه ، فلا ينزل ولا يخرج . قال مجاهد : هو الزقوم . وقال الزجاج : هو الضريع كما قال - ليس لهم طعام إلا من ضريع - قال : وهو شوك العوسج . قال عكرمة : هو شوك يأخذ بالخلق لا يدخل ولا يخرج ، والغصة : الشجى فى الخلق ، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره ، وجمعها غصص (وعذابا ألينا) أى ونوعا آخر من العذاب غير ما ذكر (يوم ترجف الأرض والجبال) انتصاب الظرف إما بذرنى ، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا ، أو هو صفة لعذاب فيمطلق بمحذوف : أى عذابا واقعا يوم ترجف ، أو متعلق بالآلما . قرأ الجمهور « ترجف » بفتح التاء وضم الجيم مبنيا للفاعل ، وقرأ زيد بن على على البناء للمفعول ، مأخوذ من أرجفها ، والمعنى : تتحرك وتضطرب بمن عليها ، والرجفة : الزلزلة والردة الشديدة (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) أى وتكون الجبال ، وإنما عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ، والكثيب الرمل المجتمع ، والمهيل الذى يمرّ تحت الأرجل . قال الواحدى : أى رملا سائلا : يقال لكل شىء أرساته إرسالاً من تراب أو طعام أهله هيلا . قال الضحاك والكلبي : المهيل الذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال ، ومنه قول حسان :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحى فى الورق القشيب

(إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم) الخطاب لأهل مكة أو لكفار العرب أو لجميع الكفار ، والرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) يعنى

موسى (فعصى فرعون الرسول) الذى أرسلناه إليه وكذبه ولم يؤمن بما جاء به ، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه (فأخذناه أخذنا وبيلاً) أى شديداً ثقيلاً غليظاً ، والمعنى : عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق ، وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به وإن اختلف نوع العقوبة . قال الزجاج : أى ثقيلاً غليظاً ، ومنه قيل للمطر وابل . وقال الأخفش : شديداً ، والمعنى متقارب ، ومنه طعام وبيل : إذا كان لا يستمر ، ومنه قول الحنساء :

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فوارس مالك أكلا وبيلاً

(فكيف تتقون) أى كيف تقون أنفسكم (إن كفرتم) أى إن بقيتم على كفركم (يوماً) أى عذاب يوم (يجعل الولدان شيباً) لشدة حره : أى يصير الولدان شيوخاً ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة ، وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلاً ، لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ فى الضعف وسقوط القوة ، وفى هذا تقرير لهم شديد وتوبيخ عظيم . قال الحسن : أى كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم ، وكذا قرأ ابن مسعود وعطية ، ويوما مفعول به لتتقون . قال ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم بكفرتم ، وهذا قبيح ، والولدان الصبيان ، ثم زاد فى وصف ذلك اليوم بالشدة فقال (السماء منفطر به) أى متشققة به لشدة وعظيم حره ، والجملة صفة أخرى ليوم ، والباء سببية ، وقيل هى بمعنى فى : أى منفطر فيه ، وقيل بمعنى اللام : أى منفطر له ، وإنما قال منفطر ولم يقل منفطرة لتزيل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت ، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء . وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل منفطرة ، لأن مجازها السقف ، كما قال الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوما لحقنا بالسماء وبالسحاب

فيكون هذا كما فى قوله - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - وقال الفراء : السماء تذكر وتؤنث . وقال أبو علي الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر ، و - أعجاز نخل منقعر - قال أيضا : أى السماء ذات انقطاع كقولهم امرأة مريض : أى ذات ارضاع على طريق النسب ، وانقطاعها لنزول الملائكة كما قال - إذا السماء انفطرت - وقوله - والسموات يتفطرن من فوقهن - وقيل منفطر به : أى بالله والمراد بأمره ، والأول أولى (كان وعده مفعولا) أى وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائنا لا محالة ، والمصدر مضاف إلى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولا ، فالمصدر مضاف إلى مفعوله . وقال مقاتل : كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، والبيهقى فى سننه عن سعد بن هشام قال « قلت لعائشة : أنبئنى عن قيام رسول الله ، قالت : أأستقرأ هذه السورة - يا أيها المزمل ؟ قلت بلى ، قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حولا حتى انتفضت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمها فى السماء اثنى عشر شهرا ، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه » وقد روى هذا الحديث عنها من طرق . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ومحمد بن نصر والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها نحو

من سنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : لما نزلت يا أيها المزمل قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسرقهم حتى نزلت - فافقروا ما تيسر منه - فاستراح الناس . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن نصر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : في المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه نسختها الآية التي فيها - علم أن أن تحصوه فتأب عليكم فافقروا ما تيسر من القرآن - وناشئة الليل أوله كان صلاتهم أول الليل ، يقول هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدرك متى يستيقظ ، وقوله (أقوم قليلاً) هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن ، وقوله (إن لك في النهار سبحة طويلاً) يقول فراغاً طويلاً . وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله (يا أيها المزمل) قال : زمت هذا الأمر فقم به . وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضاً قال : يتزمل بالثياب . وأخرج الفريابي عن أبي صالح عنه أيضاً (ورتل القرآن ترتيلاً) قال : تقرأ آيتين ثلاثاً ثم تقطع لا تهدر . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن منيع في مسنده وابن المنذر وابن أبي حاتم ومحمد بن نصر عنه أيضاً (ورتل القرآن ترتيلاً) قال : بينه تبييناً . وأخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب مرفوعاً نحوه . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائها ، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ، وتأت (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (إن ناشئة الليل) قال : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا نشأ . وأخرج البيهقي عنه قال (ناشئة الليل) أوله . وأخرج ابن المنذر وابن نصر عنه أيضاً قال : الليل كله ناشئة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال (ناشئة الليل) بالحبشة قيام الليل . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن نصر والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال (ناشئة الليل) ما بين المغرب والعشاء . وأخرج عبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله (إن لك في النهار سبحة طويلاً) قال : السبح الفراغ للحاجة والنوم . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : لما نزلت (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً) لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود (إن لدينا أنكالا) قال : قيودا . وأخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس (وطعاما ذا غصة) قال : شجرة الزقوم . وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله (كئيبا مهيلاً) قال : المهيل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً (كئيبا مهيلاً) قال : الرمل السائل ، وفي قوله (أخذاً وبيلاً) قال : شديداً . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضاً « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (يجعل الولدان شيباً) قال : ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : من كم يارب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين وينجو واحد ، فاشتد ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم : إن بني آدم كثير ، وإن بأجوج ومأجوج من ولد آدم ، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ، ففهم وفي أشباههم جنة لكم » . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله (السماء منفطر به) قال : تنشق السماء باللسان الحبشة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : مثقلة . موقرة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : يعني تشقق السماء .

إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

الإشارة بقوله (إن هذه) إلى ما تقدم من الآيات ، والتذكرة الموعظة ، والإشارة إلى جميع آيات القرآن ، لا إلى ما في هذه السورة فقط (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أي اتخذ بالطاعة التي أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقا توصاه إلى الجنة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) معنى أدنى أقل ، استعير له الأدنى لأن المسافة بين السنين إذا دنت قل ما بينهما (ونصفه) معطوف على أدنى (وثلثه) معطوف على نصفه ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه ، وبالنصب قرأ ابن كثير والكوفيون ، وقرأ الجمهور «ونصفه وثلثه» بالجر عطفًا على ثلثي الليل ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وأقل من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله - علم أن لن تحصوه - فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه . وقال الفراء : القراءة الأولى أشبه بالصواب لأنه قال : أقل من ثلثي الليل ، ثم فسر نفس القلة (وطائفة من الذين معك) معطوف على الضمير في تقوم : أي وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك (والله يقدر الليل والنهار) أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ويختص بذلك دون غيره وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة . قال عطاء : يريد لا يفوته علم ما تفعلون . أي أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم قدر الذي تقومونه من الليل (علم أن لن تحصوه) أن لن تطبقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة ، وفي أن ضمير شأن محذوف ، وقيل المعنى : لن تطبقوا قيام الليل . قال القرطبي : والأول أصح ، فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل وغيره : لما نزل «قم الليل إلا قليلا» نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه شق ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفضت أقدامهم وانتفعت ألوانهم فرحمهم الله وخفف عنهم فقال (علم أن لن تحصوه) أي علم أن لن تحصوه لأنكم إن زدتهم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضا ، وإن نقصتم شق ذلك عليكم (فتاب عليكم) أي فعاد عليكم بالعفو ، ورخص لكم في ترك القيام . وقيل فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع كما تقدم ، فالمعنى : رجع بكم من التثقل إلى التخفيف ، ومن العسر إلى اليسر (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) أي فاقرءوا في الصلاة بالليل ما خف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتا . قال الحسن : هو ما تقرأ في صلاة المغرب والعشاء . قال السدي : ما تيسر منه هو مائة آية . قال الحسن : أيضا من قرأ مائة آية

في ليلة لم يحتاجه القرآن . وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين ، وقال سعيد : خسون آية ، وقيل معنى (فاقروا ماتيسر منه) فصلوا ماتيسر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرأنا كقوله - وقرآن الفجر - قيل إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه ، والنقصان من النصف ، والزيادة عليه ، فيحتمل أن يكون ماتيسرته هذه الآية فرضا ثابتا ، ويحتمل أن يكون منسوخا لقوله - ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا - . قال الشافعي : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس . وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه صلى الله عليه وآله وسلم وفي حق أمته . وقيل نسخ التقدير بمقدار ، وبقي أصل الوجوب . وقيل إنه نسخ في حق الأمة ، وبقي فرضا في حقه صلى الله عليه وآله وسلم ، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه صلى الله عليه وآله وسلم وفي حق أمته ، وليس في قوله (فاقروا ماتيسر منه) ما يدل على بقاء شيء من الوجوب لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوع . وأيضا الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل علي غيرها ، يعني الصلوات الخمس ؟ فقال لا : إلا أن تطوع تدل على عدم وجوب غيرها ، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة كما ارتفع وجوب ذلك على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله - ومن الليل فتهجد به نافلة لك - قال الواحدي : قال المفسرون في قوله - فاقروا ماتيسر منه - كان هذا في صدر الإسلام ، ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين ، وثبت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، وذلك قوله - وأقيموا الصلاة - . ثم ذكر سبحانه صدرهم فقال (علم أن سيكون منكم مرضي) فلا يطيقون قيام الليل (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) أي يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل (وآخرون يقاتلون في سبيل الله) يعني المجاهدين فلا يطيقون قيام الليل . ذكر سبحانه هاهنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ، ورفع وجوب قيام الليل ، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم . ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال (فاقروا ماتيسر منه) وقد سبق تفسيره قريبا ، والتكرير للتأكيد (وأقيموا الصلاة) يعني المفروضة ، وهي الخمس لوقتها (وآتوا الزكاة) يعني الواجبة في الأموال . وقال الحارث العكلي : هي صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك ، وقيل صدقة التطوع ، وقيل كل أفعال الخير (وأقربوا الله قرضا حسنا) أي أنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا ، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد . قال زيد ابن أسلم : القرض الحسن النفقة على أهل ، وقيل النفقة في الجهاد ، وقيل هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن ، فيكون تفسيره لقوله (وآتوا الزكاة) والأول أولى لقوله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) فإن ظاهره الغنوم : أي أي خير كان مما ذكر ومما لم يذكر (هو خيرا وأعظم أجرا) مما تؤخرونه إلى عند الموت أو توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب خيرا على أنه ثاني مفعولي تجدوه ، وضمير هو ضمير فصل ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبو السماك وابن السميع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ وخبر خبره ، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجدوه . قال أبو زيد : وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وأنشد سيبويه :

نحن إلى ليل وأنت تركتها وكنت عليها بالملاء أنت أقدر

وقرأ الجمهور أيضا « وأعظم » بالنصب عطفا على خيرا : وقرأ أبو السماك وابن السميع بالرفع ، كما قرأ برفع

« خير » وانتصاب أجرا « على التمييز (واستغفروا الله) أى اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم فإنكم لا تخلون من ذنوب تقربونها (إن الله غفور رحيم) أى كثير المغفرة لمن استغفره ، كثير الرحمة لمن استرحمه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فاقراءوا ما تيسر منه) قال : مائة آية . وأخرج للطرقي والبيهقي في سننه وحسنه عن قيس بن أبي حازم قال : « صليت خلف ابن عباس ، فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين ، وأول آية من البقرة ثم ركع ، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال إن الله يقول (فاقراءوا ما تيسر منه) » قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني ، وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر » . وقد قد جئنا في البحث الأول من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل ، فليرجع إليه .

تفسير سورة المدثر

هي ست وخمسون آية ، وهي مكة بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة المدثر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وسيأتي أن أول هذه السورة أول ما نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)
وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ
عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا
مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ
كَانَ لِابْنِئِنَّا عَينِيدًا (١٦) سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)
ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَذْرِيكَ
مَسْقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) .

قال الواحدى : قال المفسرون : لما بدئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي أتاه جبريل ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ ، ففزع ووقع مغشيا عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه ، وقال : دثرونى دثرونى ، فدثروه بقطيفة ، فقال (يا أيها المدثر قم فأنذر) ومعنى يا أيها المدثر : يا أيها الذى قد تدثر بثيابه : أى تغشى بها ، وأصله المتدثر ، فأدغمت التاء فى اللدال لتجانسهما . وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبى المتدثر على الأصل ، والدثار : هو ما يلبس فوق الشعر والشعار : هو الذى يلي الجسد ، وقال عكرمة : المعنى يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها . قال ابن العربى : وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبيا إذ ذاك (قم فأنذر) أى انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم ، وقيل الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوته ، وقيل إعلامهم بالتوحيد . وقال الفراء : المعنى قم فصل وأمر بالصلاة (وربك فكبر) أى واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقد الكفار ، وأعظم من أن يكون له صاحبة ، أو ولد . قال ابن العربى : المراد به تكبير التقديس والتزيه بخلق الأضداد والأنداد والأصنام ولا يتخذ وليا غيره ولا يعبد سواه ، ولا يرى لغيره فعلا إلا له ولا نعمة إلا منه . قال الزجاج : إن الفاء فى فكبر دخلت على معنى الجزاء كما دخلت فى فأنذر . وقال ابن جنى : هو كقولك زيدا فاضرب : أى زيدا اضرب ، فالفاء زائدة (وثيابك فطهر) المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوى ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها ، وقيل المراد بالثياب العمل ، وقيل القلب ، وقيل النفس ، وقيل الجسم ، وقيل الأهل ، وقيل الدين ، وقيل الأخلاق . قال مجاهد وابن زيد وأبو رزين : أى عملك فأصلح . وقال قتادة : نفسك فطهر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس . وقال سعيد بن جبير : قلبك فطهر ، ومن هذا قول امرئ القيس : * فسل ثيابى من ثيابك تنسل * وقال عكرمة : المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة . وقال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع

والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفى ، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنزة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم

وقول الآخر : * ثياب بنى عوف طهارى نقيه * وقال الحسن والقرظى : إن المعنى وأخلاقك فطهر لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله أشمال ثيابه على نفسه ، ومنه قول الشاعر :

ويحيى لا يلام بسوء خلق ويحيى طاهر الأثواب حر

وقال الزجاج : المعنى وثيابك فقصر ، لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض ، وبه قال طاوس ، والأول أولى لأنه المعنى الحقيقى . وليس فى استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس فى مثل هذا الأصل : أعنى الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف ، وفى الآية دليل على وجوب طهارة الثياب فى الصلاة (والرجز فاهجر) الرجز معناه فى اللغة العذاب ، وفيه لغتان كسر الراء وضمها ، وسمى الشرك وعبادة الأوثان رجزا لأنها سبب الرجز . قرأ الجمهور « الرجز » بكسر الراء . وقرأ الحسن ومجاهد وعكرمة وحفص وابن محيصن بضمها . وقال مجاهد وعكرمة : الرجز الأوثان كما فى قوله

- فاجتنبو الرجس من الأوثان - وبه قال ابن زيد . وقال إبراهيم النخعي : الرجز المأثم ، والهجر الترك . وقال قتادة : الرجز إساف ونائلة ، وهما صنمان كانا عند البيت . وقال أبو العالية والربيع والكسائي : الرجز بالضم الوثن وبالكسر العذاب . وقال السدي : الرجز بضم الراء الوعيد ، والأول أولى (ولا تمنن تستكثر) قرأ الجمهور « لا تمنن » بفك الإدغام ، وقرأ الحسن وأبو اليمان والأشهب العقيلي بالإدغام ، وقرأ الجمهور « تستكثر » بالرفع على أنه حال : أي ولا تمنن حال كونك مستكثرا ، وقيل على حذف أن ، والأصل ولا تمنن أن تستكثر ، فلما حذف رفع . قال الكسائي : فإذا حذف أن رفع الفعل . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش « تستكثر » بالنصب على تقدير أن وبقاء عملها ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ولا تمنن أن تستكثر » بزيادة أن . وقرأ الحسن أيضا وابن أبي عمير « تستكثر » بالحزم على أنه بدل من تمنن كما في قوله - يلق أثاما يضاعف له - ، وقول الشاعر :

متى تأتينا نلتم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

أو الحزم لإجراء الوصل مجرى الوقف : كما في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمنا من الله ولا واغل

بتسكين أشرب . وقد اعترض على هذه القراءة ، لأن قوله تستكثر لا يصح أن يكون بدلا من تمنن ، لأن من غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جوابا للنهي .

واختلف السلف في معنى الآية ، ف قيل المعنى : لا تمنن على ربك بما تتحملة من أعباء النبوة كالذي يستكثر ما يتحملة بسبب الغير ، وقيل لاتعط عطية تلمس فيها أفضل منها قاله عكرمة و قتادة . قال الضحاك : هذا حرمة الله على رسوله ، لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأئمة . وقال مجاهد : لاتضعف أن تستكثر من الخير ، من قولك جبل متين : إذا كان ضعيفا . وقال الربيع بن أنس : لاتعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير . وقال ابن كيسان : لاتستكثر عملا فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته . وقيل لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثره . وقال محمد بن كعب : لاتعط مالك مصانعة . وقال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك (واربك فاصبر) أي اوجه ربك فاصبر على طاعته وفرائضه ، والمعنى : لأجل ربك وثوابه . وقال مقاتل ومجاهد : اصبر على الأذى والتكذيب . وقال ابن زيد : حملت أمرا عظيما فحاربته العرب والعجم فاصبر عليه لله . وقيل اصبر تحت موارد القضاء لله ، وقيل فاصبر على البلوى ، وقيل على الأوامر والنواهي (فإذا نقر في الناقور) الناقور فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر في كلام العرب الصوت ، ومنه قول امرئ القيس : . أخفضه بالنقر لما علوته .

ويقولون نقر باسم الرجل إذا دعاه ، والمراد هنا النفخ في الصور ، والمراد النفخة الثانية ، وقيل الأولى ، وقد تقدم الكلام في هذا في سورة الأنعام وسورة النحل والفاء للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم ، والعامل في إذا ما دل عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين) فإن معناه عسر الأمر عليهم ، وقيل العامل فيه ما دل عليه « فذلك » لأنه إشارة إلى النقر ، ويومئذ بدل من إذا ، أو مبتدأ وخبره يوم عسير ، والجملة خبر فذلك ، وقيل هو ظرف للخبر ، لأن التقدير وقوع يوم عسير ، وقوله (غير يسير) تأكيد لعسره عليهم لأن كونه غير يسير ، قد فهم من قوله يوم عسير (ذرني وهن خلقت وحيدا) أي دعني ، وهي كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى : دعني والذي خلقت حال كونه وحيدا في بطن أمه لا مال له ولا

ولد ، هذا على أن وحيدا منتصب على الحال من الوصول أو من الضمير العائد إليه المحذوف ، ويجوز أن يكون حالا من الياء في ذرني : أي دعني وحدي معه ، فإني أكفيك في الانتقام منه ، والأول أولى . قال المفسرون : وهو الوليد بن المغيرة . قال مقاتل : يقول خل بني وبينه فأنا أتفرد بهلكته ، وإنما خص بالذكر لما زيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه ، وقيل أراد بالوحيد الذي لا يعرف أبوه ، وكان يقال في الوليد بن المغيرة إنه دعى (وجعلت له مالا مندودا) أي كثيرا ، أو يمدد بالزيادة والنماء شيئا بعد شيء . قال الزجاج : مالا غيره منقطع عنه ، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهورا بكثرة المال على اختلاف أنواعه ، قيل كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار ، وقيل أربعة آلاف دينار ، وقيل ألف دينار (وبين شهودا) أي وجعلت له بيتين حضورا بمكة معه لا يسافرون ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم . قال الضحاک : كانوا سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبیر : كانوا ثلاثة عشر ولدا . وقال مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في تقصصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل معنى شهودا أنه إذا ذكر ذكروا معه ، وقيل كانوا يشهدون معه ما كان يشهده ويقومون بما كان يباشره (ومهدت له تمهيدا) أي بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش ، والتمهيد عند العرب التوطئة ، ومنه مهد الصبي . وقال مجاهد : إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهّد القراش (ثم يطمع أن يزيد) أي يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم وإشراكه بالله . قال الحسن : لم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي . ثم ردعه الله سبحانه وزجره فقال (كلا) أي لست أزيده . ثم علل ذلك بقوله (إنه كان لآياتنا عنيدا) أي معاندا لها كافرا بما أنزلناه منها على رسولنا ، يقال عند يعنيد بالكسر إذا خالف الحق وردّه ، وهو يعرفه فهو عنيد وعاند ، والعائد الذي يجوز عن الطريق ويعدل عن القصد ، ومنه قول الحارثي :

إذا ركبت فاجعلاني وسطا إلى كبير لا أطيع العندا

قال أبو صالح : عنيد معناه مباحدا . وقال قتادة : جاحدا . وقال مقاتل : معرضا (سأرهقه صعودا) أي سأكلفه مشقة من العذاب وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق ، وقيل المعنى : إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار ، والإرهاق في كلام العرب : أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل ، وجملة (إنه فكر وقدّر) تعليل لما تقدّم من الوعيد : أي إنه فكر في شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أنزل عليه من القرآن وقدّر في نفسه : أي هيا الكلام في نفسه ، والعرب تقول : هيات الشيء إذا قدرته ، وقدرت الشيء إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه وقدّر في نفسه ما يقول ، فذمه الله وقال (فقتل كيف قدر) أي لعن وعذب كيف قدر : أي على أي حال قدر ما قدر من الكلام كما يقال في الكلام : لأضربنه كيف صنع : أي على أي حال كانت منه ، وقيل المعنى : قهر وغلب كيف قدر ، ومنه قول الشاعر :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربني بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقال الزهري : عذب ، وهو من باب الدعاء عليه ، والتكرير في قواه (ثم قتل كيف قدر) للمبالغة والتأكيّد (ثم نظر) أي بأي شيء يدفع القرآن ويقدم فيه ، أو فكر في القرآن وتدبر ما هو (ثم عبس) أي قطب وجهه لما لم يجد مطعنا يطعن به في القرآن ، والعبس مصدر عبس غففا يعبس عبسا وعبوسا إذا قطب ، وقيل عبس

في وجوه المؤمنين ، وقيل عبس في وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وبسر) أى كلع وجهه وتغير ، ومنه قول الشاعر :

صبحنا نحميا غداة الحفار بشبهاء للموسسة بأسره

وقول الآخر : وقد رابني منها صلود رأيتہ وإعراضها عن حاجتي وبسورها

وقيل إن ظهور العبوس في الوجه يكون بعد المحاورة ، وظهور البسور في الوجه قبلها ، والعرب تقول : وجه بأسر إذا تغير واسود . وقال الراغب : البسر استعجال الشر قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته : أى طلبها في غير أوانها . قال : ومنه قوله - عبس وبسر - أى أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر : أى وقف لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا : أى صرنا إلى البسور (ثم أدبر واستكبر) أى أعرض عن الحق ، وذهب إلى أهله ، وتعظم عن أن يؤمن (فقال إن هذا إلا سحر يوثر) أى يآثره عن غيره ويرويه عنه . والسحر : إظهار الباطل في صورة الحق ، أو الخديعة على ما تقدم بيانه في سورة البقرة ، يقال أثرت الحديث بآثره إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قول الأعشى :

إن الذي فيه تجاربتما بين السامع والأثر

(إن هذا إلا قول البشر) يعنى أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله ، وسيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة إلى آخر كلامه . ولما قال هذا القول الذى حكاه الله عنه قال الله عز وجل (سأصليه سقر) أى سأدخله النار ، وسقر من أسماء النار ، ومن دركات جهنم ، وقيل إن هذه الجملة بدل من قوله (سأرهم صعيدا) ثم بالغ سبحانه في وصف النار وشدق أمرها فقال (وما أدراك ما سقر) أى وما أعلمك أى شئ هـى ، والعرب تقول : وما أدراك ما كذا : إذا أرادوا المبالغة في أمره وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ، وما الأولى مبتدأ ، وجملة ما سقر خبر المبتدأ . ثم فسر حالها فقال (لا تبق ولا تذر) والجملة مستأنفة لبيان حال سقر ، والكشف عن وصفها ، وقيل هـى فى محل نصب على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيم ، لأن قوله (وما أدراك ما سقر) يدل على التعظيم ، فكأنه قال : استعظمواسقر فى هذه الحال ، والأول أولى ، ومفعول الفعلين محذوف . قال السدى : لا تبق لهم لحما ولا تذر لهم عظما . وقال عطاء : لا تبق من فيها حيا ولا تذر ميتا ، وقيل هما لفظان بمعنى واحد ، كررا للتأكيد كقولك : صد عنى ، وأعرض عنى (لواءة للبشر) قرأ الجمهور « لواءة » بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وقيل على أنه نعت لسقر ، والأول أولى . وقرأ الحسن وعطية العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر وابن أبى عتبة وزيد بن على بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل ، يقال : لاح يلوح : أى ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للبشر . قال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا كقوله - وبرزت الجحيم لمن يرى - وقيل معنى (لواءة للبشر) أى مغيرة لهم ومسودة . قال مجاهد : والعرب تقول : لاحه الحر والبرد والسقم والحزن : إذا غيره ، وهذا أرجح من الأول ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

وتعجب هند أن رأتني شاحبا تقول لشئ لواحته السهايم

أى غيرته ، ومنه قول ربيعة بن العجاج :

لوح منه بعد بدن وشبق تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقال الأخفش : المعنى أنها معطشة للبشر ، وأنشد :

سقتني على لوح من الماء شربة سقاها به الله الرهام الغواديا

والمراد بالبشر إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر ، أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش (عليها تسعة عشر) قال المفسرون : يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ، وقيل تسعة عشر صنفا من أصناف الملائكة ، وقيل تسعة عشر صفا من صفوفهم ، وقيل تسعة عشر نقيبا مع كل نقيب جماعة من الملائكة ، والأول أولى . قال الثعلبي : ولا يفكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أخرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق . قرأ الجمهور « تسعة عشر » بفتح الشين من عشر . وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وطلحة بن سليمان بإسكانها .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال : إن أول ما نزل من القرآن (يا أيها المدثر) فقال له يحيى بن أبي كثير : يقولون إن أول ما نزل - اقرأ باسم ربك الذي خلق - فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لا أحد نكث إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت ، فتوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ، ونظرت خلفي فلم أر شيئا ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فحثيث منه رعبا ، فرجعت فقلت دثروني فدثروني ، فزلت (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) » وسألت في سورة اقرأ ما يدل على أنها أول سورة أنزلت ، وبالجمع ممكن . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس (يا أيها المدثر) فقال : دثر هذا الأمر ، فقم به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه (يا أيها المدثر) قال : النائم (وثيابك فطهر) قال : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل (والرجز فاهجر) قال : الأصنام (ولا تمنن تستكثر) قال : لا تعط تلمس بها أفضل منها . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا (وثيابك فطهر) قال : من الإثم . قال : وهي في كلام العرب ثياب . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (وثيابك فطهر) قال : من الغدر ، لا تكن غدارا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله (وثيابك فطهر) قال : لا تلبسها على غدره ، ثم قال : ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

ولاني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع

وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عنه أيضا (ولا تمنن تستكثر) قال : لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عنه أيضا (فإذا نقر في الناقور) قال : الصور (يوم عسير) قال : شديد . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (ذرني ومن خلقت وحيدا) قال الوليد بن المغيرة . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عنه أيضا : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله ، قال : قدر علمت قريش أني من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكسر له ، وأنت تكاره له ، قال ثم ماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده

ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ماتحته ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا صخر يوثر ، يآثره عن غيره ، فنزلت (ذرني ومن خلقت وحيدا) . وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا ، وكذا أخرجه ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وغير واحد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله (وجعلت له مالا مملودا) قال : غلة شهر بشهر . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وجعلت له مالا مملودا) قال : ألف دينار . وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدري في قوله (سأرهقه صعودا) قال : هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، فإذا رفعوها عادت كما كانت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (عنيدا) قال : جحودا . وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ، ثم يهوى وهو كذلك فيه أبدا » . قال الترمذي بعد إخراجهم : غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج . قال ابن كثير : وفيه غرابة ونكارة انتهى ، وقد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (صعودا) صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وأخرج ابن المنذر عنه قال : جبل في النار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا في قوله (لا تبق ولا تذر) قال : لا تبق منهم شيئا ، وإذا بدلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا (لواح للبر) قال : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه ، فيصير أسود من الليل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (لواح) قال : محرقة . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن البراء : أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل ، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت عليه ساعته (عليها تسعة عشر) .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٢١) كَلَّا وَالْقَمَرَ (٢٢) وَاللَّيْلَ إِذَا أَذْبَرَ (٢٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ (٢٤) إِنَّهَا لَإِخْدَى الْكُبَرِ (٢٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٢٦) لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٢٧) .

لما نزل قوله سبحانه (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل : أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم اللدم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار ؟ فقال أبو الأشد ، وهو رجل من بني جمح : يامعشر قريش إذا كان يوم القيامة ، فأنا أمشي بين أيديكم ، فأدفع عشرة

بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر ونمضي ندخل الجنة ، فأنزل الله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) يعني ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغابهم ، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم . وقيل جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرافة ، وقيل لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له ، وأشدهم بأسا وأقواهم بطشا (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة) أي ضلالة (للذين) استقلوا عددهم ومحنة لهم ، والمعنى : ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم ، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم . وقيل معنى إلا فتنة إلا عذابا كما في قوله - يوم هم على النار يفتنون - أي يعذبون ، واللام في قوله (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) متعلق بجعلنا ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم . قاله قتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم ، والمعنى : أن الله جعل عدة الخزنة هذه العدد ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) وقيل المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وقيل أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم ، وجملة (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) مقررّة لما تقدم من الاستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى نفي الارتياب عنهم في الدين ، أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين ، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون ، والسورة وإن كانت مكية ولم يكن إذ ذاك نفاق ، فهو إخبار بما سيكون في المدينة ، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب ، وهو كائن في الكفار . قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض في هذه الآية الخلاف ، والمراد بقوله (والكافرون) كفار العرب من أهل مكة وغيرهم ، ومعنى (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل : قال الليث : المثل الحديث ، ومنه قوله - مثل الجنة التي وعد المتقون - أي حديثها والخبر عنها (كذلك يضلّ الله من يشاء) أي مثل ذلك الإضلال المتقدم ذكره ، وهو قوله (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، يضلّ الله من يشاء) من عباده ، والكاف نعت مصدر محذوف (ويهدي من يشاء) من عباده ، والمعنى : مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضلّ الله من يشاء لإضلاله ويهدي من يشاء هدايته ، وقيل المعنى : كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء ويهدي إليها من يشاء (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد . وقال عطاء : يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله ، والمعنى : أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه . ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال (وما هي إلا ذكرى للبشر) أي وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم ، وقيل (وما هي) أي الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر . وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة ، وهو بعيد . وقيل ما هي أي عدة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر ليعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ، وقيل الضمير في (وما هي) يرجع إلى الجنود . ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال (كلا والقمر) قال الفراء : كلا صلة للقسم ، التقدير : أي والقمر ، وقيل المعنى : حقا والقمر ، قال ابن جرير : المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم : أي ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر

وبما بعده ، وهذا هو الظاهر من معنى الآية (والليل إذ أدبر) أي ولي . قرأ الجمهور « إذا » بزيادة الألف ، دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان ، وقرأ نافع وحفص وحزرة « إذ » بدون ألف ، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان ، ودبر وأدبر لغتان ، كما يقال أقبل الزمان وقبل الزمان ، يقال دبر الليل وأدبر : إذا تولى ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أي أضواء وتبين (إنها لإحدى الكبر) هذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر : أي إن سقر لإحدى الدواهي أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى ، وقال مقاتل : إن الكبر اسم من أسماء النار وقيل إنها : أي تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر ، وقيل إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، ومنه قول الشاعر :

يا بن المعلى نزلت لإحدى الكبر داهية الدهر وصماء الغير

قرأ الجمهور « لإحدى » بالهمزة ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن وابن كثير في رواية عنه « إنها لحدى » بدون همزة . وقال الكلبي : أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها (نذير للبشر) انتصاب نذيرا على الحال من الضمير في إنها ، قاله الزجاج . وروى عنه وعن الكسائي وأبي علي الفارسي أنه حال من قوله « قم فأنذر » أي قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيرا للبشر . وقال الفراء : هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدر ، وقيل إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التنظيم كأنه قيل أعظم الكبر إنذارا ، وقيل إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور في أول السورة ، وقيل منصوب بإضمار أعنى ، وقيل منصوب بتقدير ادع ، وقيل منصوب بتقدير ناد أو بلغ ، وقيل إنه مفعول لأجله ، والتقدير : وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر . قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبي بن كعب وابن أبي عتبة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي هي نذير ، أو هو نذير .

وقد اختلف في النذير ، فقال الحسن : هي النار ، وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال أبو رزين : المعنى أنا نذير لكم منها ، وقيل القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) هو بدل من قوله للبشر : أي نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر عنها ، والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر ، وقيل فاعل المشيئة هو الله سبحانه : أي لمن شاء الله أن يتقدم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر ، والأول أولى . وقال السدي : لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر إلى الجنة .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما سمع أبو جهل (عليها تسعة عشر) . قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدائم ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم ؟ وأخرج ابن مردويه عنه في قوله (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) قال : قال أبو الأشد : خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مرثتهم ، قال : وجدت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصف خزان جهنم فقال « كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم ، لهم مثل قوة الثقلين ، يقبل أحدهم بالآمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل حتى يرمى بهم في النار فيرمى بالجبل عليهم » . وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال : فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا ، فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ، وتلا هذه الآية (وما يعلم جنود ربك إلا هو) » . وأخرج أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أظت السماء وحق لها أن تظط ، ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد » . وأخرجه الترمذي وابن ماجه . قال الترمذي : حسن غريب ، ويروى عن

أبي ذرٍّ موقوفا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (إذ أدبر) قال : دبور ظلامه . وأخرج مسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله (والليل إذ أدبر) فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان ناداني يا مجاهد هذا حين دبر الليل . وأخرج ابن جرير عنه في آوله (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) قال : من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) .

قوله (كل نفس بما كسبت رهينة) أى مأخوذة بعملها ومرتهنة به ، إما خلصها وإما أبقها ، والرهينة اسم بمعنى الرهن ، كالشيمة بمعنى الشيم ، وليست صفة ، وأو كانت صفة لقليل رهين ، لأن فعلا يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمعنى : كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة (إلا أصحاب اليمين) فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم .

واختلف في تعيينهم ، فقليل هم للملائكة ، وقليل المؤمنون ، وقليل أولاد المسلمين ، وقليل الذين كانوا عن يمين آدم ، وقليل أصحاب الحق ، وقليل هم المعتمدون على الفضل دون العمل ، وقليل هم الذين اختارهم الله لخدمته (في جنات) هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله ، ويجوز أن يكون في جنات حالا من أصحاب اليمين ، وأن يكون حالا من فاعل يتساءلون ، وأن يكون ظرفا ليتساءلون ، وقوله (يتساءلون) يجوز أن يكون على بابه : أى يسأل بعضهم بعضا ، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون : أى يسألون غيرهم ، نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأول يكون (عن المجرمين) متعلقا بـ يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين ، وعلى الوجه الثانى تكون عن زائدة : أى يسألون المجرمين ، وقوله (ما سلككم في سقر) هو على تقدير القول : أى يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم : ما سلككم في سقر ، أو يسألونهم قائلين لهم : ما سلككم في سقر ، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال ، والمعنى : ما أدخلكم في سقر ، تقول سلكت الخيط في كذا : إذا دخلته فيه . قال الكلبي : يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يا فلان ما سلكك في النار . وقل إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم ، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم : ما سلككم في سقر . قال الفراء : في هذا ما يقوى أن أصحاب اليمين هم الوالدان ، لأنهم

لا يعرفون الذنوب . ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال (قالوا لم نك من المصلين) أى من المؤمنين الذين يصلون لله فى الدنيا (ولم نك نطعم المسكين) أى لم نتصدق على المساكين ، قيل وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة ، لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات (وكنا نخوض مع الخائضين) أى نخالط أهل الباطل فى باطلهم . قال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . وقال السدى : كنا نكذب مع المكذبين . وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو قولهم كاذب مجنون ساحر شاعر (وكنا نكذب بيوم الدين) أى بيوم الجزاء والحساب (حتى أتانا اليقين) وهو الموت ، كما فى قوله - واعبد ربك حتى يأتبك اليقين - (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى شفاعة الملائكة والنبیین كما تنفع الصالحين (فها هم عن التذكرة معرضين) التذكرة التذكير بمواعظ القرآن ، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها ، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير فى متعلق الجار والمجرور : أى أى شئ حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى . ثم شبههم فى نفورهم عن القرآن بالحر فقال (كأنهم حر مستنفر) والجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل ، ومعنى مستنفر نافرة ، يقال نفر واستنفر ، مثل عجب واستعجب ، والمراد الحر الوحشية . قرأ الجمهور « مستنفر » بكسر الفاء : أى نافرة ، وقرأ نافع وابن عامر بفتحها : أى منفرة مذعورة ، واختار القراءة الثانية أبو حاتم وأبو عبيد . قال فى الكشف : المستنفر الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له ، وحملها عليه (فرت من قسورة) أى من رماة يرمونها ، والقسور الرامي ، وجمعه قسورة قاله سعيد بن جبیر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن كيسان ، وقيل هو الأسد قاله عطاء والكلبي . قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر ، لأنه يقهر السباع ، وقيل القسورة أصوات الناس ، وقيل القسورة بلسان العرب الأسد ولسان الحبشة الرماة . وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل : أى فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأول أولى ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يابنت كوني خيرة خيره أخوالها الحى وأهل القسوره

ومنه قول لبيد : إذا ما هتفنا هتفة فى ندينا أتانا الرجال العابدون القساور

ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال كأنه القسور الرهال

(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد . قال المفسرون : إن كفار قريش قالوا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله . والصحف الكتب وأحدثها صحيفة ، والمنشرة المنشورة المفتوحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه - حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه - قرأ الجمهور « منشرة » بالتشديد . وقرأ سعيد بن جبیر بالتخفيف . وقرأ الجمهور أيضا بضم الحاء من صحف . وقرأ سعيد بن جبیر بإسكانها . ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال (كلا بل لا يخافون الآخرة) يعنى عذاب الآخرة لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات ، وقيل كلا بمعنى حقا . ثم كرر الردع والزجر لهم فقال (كلا إنه تذكرة) يعنى القرآن ، أو حقا إنه تذكرة ، والمعنى : أنه يتذكرك به ويتعظ بمواعظه (فمن شاء ذكره) أى فمن شاء أن يتعظ به اتعظ ، ثم رد سبحانه المشيئة

إلى نفسه فقال (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) قرأ الجمهور « يذكرون » بالياء التحتية . وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية ، واتفقوا على التخفيف ، وقوله « إلا أن يشاء الله » استثناء مفرغ من أعم الأحوال . قال مقاتل : إلا أن يشاء الله لهم الهدى (هو أهل التقوى) أى هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته (وأهل المغفرة) أى هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم . وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (كل نفس بما كسبت رهينة) قال : مأخوذة بعملها . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (إلا أصحاب اليمين) قال : هم المسلمون . وأخرج عبد الرزاق والفرىانى وسعيد بن منصور وابن أبى شبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن على بن أبى طالب (إلا أصحاب اليمين) قال : هم أطفال المسلمين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس (حتى أتانا اليقين) قال : الموت . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى موسى الأشعرى فى قوله (فرّت من قسورة) قال : هم الرماة رجال القسّى . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : القسورة الرجال الرماة القنص . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال : قلت لابن عباس : القسورة الأسد ، فقال : ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصبة الرجال . وأخرج سفيان ابن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس (من قسورة) قال : هو ركز الناس : يعنى أصواتهم . وأخرج أحمد والدارمى والترمذى وحسن والنسائى وابن ماجه والبخارى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى وصححه وابن مردويه عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) فقال : قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فانا أهل أن أغفر له . » وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعاً نحوه .

تفسير سورة القيامة

هى تسع وثلاثون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة القيامة ، وفى لفظ سورة لا أقسم بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت سورة لا أقسم بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥)
يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّؤُا الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤)
وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تَحَرَّكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)
فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)
وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥).

قوله (لا أقسم بيوم القيامة) قال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين : إن لا زائدة ، والتقدير : أقسم . قال
السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم : أقسم ، واختلفوا في تفسير لا ، فقال بعضهم : هي زائدة ،
وزيادتها جارية في كلام العرب كما في قوله - مامنعك ألا تسجد - يعني أن تسجد ، و- لئلا يعلم أهل الكتاب -
ومن هذا قول الشاعر :

تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتقطع

وقال بعضهم : هي ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة ،
وهذا قول الفراء وكثير من النحويين ، كقول القائل لا والله ، فلا ردّ لكلام قد تقدّمها ، ومنه قول الشاعر :
فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أني أفر

وقيل هي للنفي ، لكن لا لنفي الإقسام ، بل لنفي ما ينبيء عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه ، كأن معنى
لا أقسم بكذا : لا أعظمه بإقسامى به حتى أعظمه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك . وقيل إنها لنفي الإقسام لوضوح
الأمر ، وقد تقدّم الكلام على هذا في تفسير قوله - فلا أقسم بمواقع النجوم - وقرأ الحسن وابن كثير في رواية عنه
والزهري وابن هرمز « لأقسم » بـ « ألف » على أن اللام لام الابتداء ، والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال ،
وقد اعترض عليه الرازي بما لا يقدح في قوته ولا يفت في عضد رجحانه ، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه
وتفخيمه ، والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته (ولا أقسم بالنفس اللوامة) ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس
اللوامة كما أقسم بيوم القيامة ، فيكون الكلام في لا هذه كالكلام في الأولى ، وهذا قول الجمهور . وقال الحسن :
أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبي : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا ، ومعنى النفس اللوامة :
النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره ، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها ، قال الحسن : هي والله نفس المؤمن ،
لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا ، والفاجر لا يعاتب نفسه . قال مجاهد : هي التي تلوم
على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم تعمله ؟ وعلى الخير لم تستكثر منه ؟ قال الفراء : ليس من نفس برّة
ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت : هلا ازددت ، وإن كانت عملت سوءا قالت :
ليتني لم أفعل . وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس ، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا . وقيل اللوامة هي
الملومة المذمومة ، فهي صفة ذم ، وبهذا احتج من نبي أن يكون قسما ، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به .
قال مقاتل : هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله ، والأول أولى (أحسب

الإنسان أن لن نجتمع عظامه (المراد بالإنسان الجنس ، وقيل الإنسان الكافر ، والهمزة للإنكار ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، والمعنى : أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بعد أن صارت رفاتا ، فنعيد لها خلقا جديدا ، وذلك حسبان باطل ، فإننا نجتمعها ، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم . قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ليجمعن العظام للبعث ، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف : أى ليعثن ، والمعنى : أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب إليه الاستفهام ، والوقف على هذا اللفظ وقف حسن ، ثم يتبدى الكلام بقوله « قادرين » وانتصاب قادرين على الحال : أى بلى نجتمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدّر ، وقيل المعنى : بل نجتمعها نقدر قادرين . قال الفراء : أى نقدر ، ونقوى قادرين على أكثر من ذلك . وقال أيضا : إنه يصلح نصبه على التكرير : أى بلى فليحسبنا قادرين ، وقيل التقدير : بلى كنا قادرين . وقرأ ابن أبي عتبة وابن السمين (بلى قادرين) على تقدير مبتدأ : أى بلى نحن قادرين ، ومعنى (على أن نسوي بنانه) على أن نجتمع بعضها إلى بعض ، فردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها ، فكيف بكبار الأعضاء ، فنه سبحانه بالبنان ، وهى الأصابع على بقية الأعضاء ، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق ، فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة . وقال جمهور المفسرين : إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا ، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها ، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والحياطة ونحوهما ، ولكننا فرقنا أصابعه لينتفع بها . وقيل المعنى : بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم ، فكيف في صورته التي كان عليها ، والأول أولى ، ومنه قول عنترة :

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندوان

فنه بالبنان على بقية الأعضاء (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) هو عطف على أبحسب ، إما على أنه استفهام مثله وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام . والمعنى : بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات ، وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة . قال ابن الأنباري : يريد أن يفجر ما امتد عمره ، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه . قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير : يقول سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت ، وهو على أشرف أحواله . قال الضحاك : هو الأمل ، يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ، ولا يذكر الموت ، والفجور أصله الميل عن الحق ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل ، ومنه قول الشاعر :

أقسم بالله أبو حفص عمر مامسها من نقب ولا دبر اغفر له اللهم إن كان فجر

وجملة (يسأل أيا يوم القيامة) مستأنفة لبيان معنى يفجر ، والمعنى : يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستمراء (فإذا برق البصر) أى قزع وتحير من برق الرجل : إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . قرأ الجمهور « برق » بكسر الراء . قال أبو عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما : المعنى تحير فلم يطرف ، ومنه قول ذي الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه مى بسافرا كاد يبرق

وقال الخليل والفراء : برق بالكسر : قزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت : قد برق فهو برق ، وأنشد الفراء :

ونفسك فانسع ولا تنعني وداو الكلوم ولا تبرق

أى لا تنزع من كثرة الكلوم التى بك . وقرأ نافع وأبان عن عاصم « برق » بفتح الراء : أى لمع بصره من شدة شخوصه للموت . قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل برق يبرق شق عينيه وفتحهما . وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرهما لغتان بمعنى (وخسف القمر) قرأ الجمهور « خسف » بفتح الخاء والسين مبنيا للفاعل . وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى والأعرج وابن أبى عبله وأبو حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنيا للمفعول ، ومعنى خسف القمر : ذهب ضوؤه ولا يعود كما يعود إذا خسف فى الدنيا ، ويقال خسف : إذا ذهب جميع ضوؤه ، وكسف : إذا ذهب بعض ضوئه (وجمع الشمس والقمر) أى ذهب ضوؤهما جميعا ، ولم يقل جمعت لأن التانيث مجازى . قاله المبرد . وقال أبو عبيدة : هو لتغليب المذكر على المؤنث . وقال الكسائى : حمل على معنى جمع النيران . وقال الزجاج والفراء : ولم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما فى ذهاب نورهما ، وقيل جمع بينهما فى طلوعهما من الغرب أسودين مكورين مظلمين . قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار الله الكبرى . وقيل تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار . وقرأ ابن مسعود « وجمع بين الشمس والقمر » (يقول الإنسان يومئذ أين المفر) أى يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفر : أى الفرار ، والمفر مصدر بمعنى الفرار . قال الفراء : يجوز أن يكون موضع الفرار ، ومنه قول الشاعر :

أين المفر والكباش تنتطح وكل كبش فرّ منها يفتضح

قال الماوردى : يحتمل وجهين : أحدهما أين المفر من الله سبحانه استحياء منه . والثانى أين المفر من جهنم حذرا منها . قرأ الجمهور « أين المفر » بفتح الميم والفاء مصدرا كما تقدم . وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان : أى أين مكان الفرار . وقال الكسائى : هما لغتان مثل مدب ومدب ومصح ومصح ، وقرأ الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار ، ومنه قول امرئ القيس :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

أى جيد الفرّ والكرّ (كلا لا وزر) أى لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله . وقال ابن جبير : لا محيص ولا منعة . والوزر فى اللغة : ما يلجأ إليه الإنسان من حصن ، أو جبل أو غيرهما ، ومنه قول طرفة :

ولقد تعلم بكر أنا فاضلو الرأى وفى الروع وزر

وقال آخر : لعمري ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

قال السدى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال لهم الله : لا وزر يعصمكم منى يومئذ ، وكلاً للردع ، أو لنى ما قبلها ، أو بمعنى حقاً (إلى ربك يومئذ المستقر) أى المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره ، وقيل إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره ، وقيل المستقر : الاستقرار حيث يقره الله (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أى يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشر . وقال قتادة : بما عمل من طاعة ، وما أخر من طاعة فلم يعمل بها . وقال زيد بن أسلم : بما قدم من أمواله وما خلف للورثة . وقال مجاهد : بأول عمله وآخره . وقال الضحاك : بما قدم من فرض وآخر من فرض . قال القشيري : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت . قال القرطبي : والأول أظهر (بل الإنسان على نفسه بصيرة) ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان ، على نفسه متعلق ببصيرة . قال الأخفش : نجعله هو البصيرة كما تقول للرجل : أنت حجة على نفسك ،

وقيل المعنى : إن جوارحه تشهد عليه بما عمل كما في قوله - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - وأنشد الفراء :

كأن على ذى العقل عينا بصيرة بمقعده أو منظر هو ناظر

فيكون المعنى : بل جوارح الإنسان عليه شاهدة . قال أبو عبيدة والقتبي : إن هذه الهاء في بصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كما في قولهم : علامة . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشر ، والتاء على هذا للتأنيث . وقال الحسن : أي بصير بعيوب نفسه (ولو ألقى معاذيره) أي ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك . يقال معذرة ومعاذير . قال الفراء : أي وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره . وقال الزجاج : المعاذير الستور ، والواحد معذار : أي وإن أرخى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه ، كذا قال الضحاك والسدسي . والستر بلغة اليمن يقال له معذار ، كذا قال المبرد ، ومنه قول الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة علينا وأطت يومها بالمعاذر

والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وأبو العالية ومقاتل ، ومثله قوله - يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم - وقوله - ولا يؤذن لهم فيعتذرون - وقول الشاعر :

فما حسن أن يعذر المرء نفسه . وليس له من سائر الناس عاذر

(لا تحرك به لسانك لتعجل به) كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصا على أن يحفظه صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزلت هذه الآية : أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك ، ومثل هذا قوله - ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه - الآية (إن علينا جمعه) في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء (وقرآنه) أي إثبات قراءته في لسانك . قال الفراء : القراءة والقرآن مصدران . وقال قتادة فاتبع قرآنه : أي شرائعه وأحكامه (فإذا قرأناه) أي أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل (فاتبع قرآنه) أي قراءته (ثم إن علينا بيانه) أي تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل منه . قال الزجاج : المعنى علينا أن ننزله عليك قرآنا عربيا فيه بيان للناس . وقيل المعنى : إن علينا أن نبينه بلسانك (كلا بل تحبون العاجلة) كلا للردع عن العجلة والترغيب في الأناة ، وقيل هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن وبكونه بينا من الكفار . قال عطاء : أي لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه . قرأ أهل المدينة والكوفيون « بل تحبون » (وتذرون) بالفوقية في الفعلين جميعا . وقرأ الباقون بالتحتية فيهما ، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريرا وتوبييحا ، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائدا إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس ، والمعنى : تحبون الدنيا وتركون (الآخرة) فلا تعملون لها (وجوه يومئذ ناضرة) أي ناعمة غضة حسنة ، يقال : شجر ناضر وروض ناضر : أي حسن ناعم ، ونضارة العيش حسنة وبهجته . قال الواحدي والمفسرون : يقولون مضيفة مسفرة مشرقة (إلى ربها ناظرة) هذا من النظر : أي إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة : أي تنظر إليه ، هكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر . قال ابن كثير : وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام . وقال مجاهد : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروى نحوه عن عكرمة ، وقيل لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده . قال الأزهرى : وقول مجاهد خطأ لأنه لا يقال

نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، إذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرت كما في قول الشاعر :

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه كما قال الشاعر :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لفعال

وقول الآخر : إني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

أى أنظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغني ، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً . ووجوه مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة لأن المقام مقام تفصيل ، وناصرة صفة لوجوه ، ويومئذ ظرف لناصرة ، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله « ناضرة » مسوّغاً للابتداء بها ، ولكن مقام التفصيل بمجرّده مسوّغ للابتداء بالنكرة (ووجوه يومئذ باسرة) أى كالحلة عابسة كثيفة . قال في الصحاح : بسر الرجل وجهه بسورا : أى كلع . قال السدّى : باسرة : أى متغيرة ، وقيل مصفرة ، والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار (تظنّ أن يفعل بها فاقرة) الفاقرة : الداهية العظيمة ، يقال فقرته الفاقرة : أى كسرت فقار ظهره . قال قتادة : الفاقرة الشرّ ، وقال السدّى : الهلاك ، وقال ابن زيد : دخول النار . وأصل الفاقرة : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى تخلص إلى العظم ، كذا قال الأصمعي ، ومن هذا قولهم : قد عمل به الفاقرة . قال النابغة :

أبا لي قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن سعيد بن جبیر قال : سألت ابن عباس عن قوله (لا أقسم بيوم القيامة) قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه ، قلت (ولا أقسم بالنفس اللوامة) قال النفس اللووم ، قلت (أبحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) قال : لو شاء لجعله خفا أو حافرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (اللوامة) قال : المذمومة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا قال : التي تلوم على الخير والشرّ تقول : لو فعلت كذا وكذا . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : تندم على مافات وتلوم عليه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) قال : يمضي قدما . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو الكافر الذي يكذب بالحساب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال : يعنى الأمل يقول : أعمل ثم أتوب . وأخرج ابن أبي الدنيا في ذمّ الأمل والبيهقي في الشعب عنه أيضا في الآية قال : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عنه أيضا (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) يقول : سوف أتوب (يسأل أياك يوم القيامة) قال : يقول متى يوم القيامة ، قال فبين له (إذا برق البصر) . وأخرج ابن جرير عنه قال (إذا برق البصر) يعنى الموت . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (لا وزر) قال : لاحصن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لا وزر) قال : لاحصن ولا ملجأ ، وفي لفظ : لا حرز ، وفي لفظ : لا جبل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) قال : بما قدم من عمل ، وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شرّ . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بما قدّم من المعصية وأخر من الطاعة فينبؤ بذلك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر من طرق عنه في قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة) قال : شهد على نفسه وحده (ولو ألقى معاذيره) قال : ولو اعتذر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (بل الإنسان على نفسه بصيرة) قال : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه (ولو ألقى معاذيره) قال : ولو تجرد من ثيابه . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفته مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) قال : يقول إن علينا أن نجمله في صدرك ثم تقرأه (فإذا قرأناه) يقول : إذا أنزلناه عليك (فاتبع قرآنه) فاستمع له وأنصت (ثم إن علينا بيانه) أن نبينه بلسانك ، وفي لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق . وفي لفظ : استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (فإذا قرأناه) قال : بيناه (فاتبع قرآنه) يقول : اعمل به . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود في قوله (كلا بل تحبون العاجلة) قال : عجلت لهم الدنيا شرها وخيرها وغيب الآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (وجوه يومئذ ناضرة) قال : ناعمة . وأخرج ابن المنذر والآجزي في الشريعة واللالكائي في السنة والبيهقي في الرواية عنه (وجوه يومئذ ناضرة) قال : يعني حسننها (إلى ربها ناظرة) قال : نظرت إلى الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا (إلى ربها ناظرة) قال تنظر إلى وجه ربها . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال : ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « قال الناس : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه . وقد قدّمنا أن أحاديث الرواية متواترة فلا نطيل بذكرها ، وهي تأتي في مصنف مستقل ، ولم يتمسك من نفاها واستبعدا بشيء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله . وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والطبراني والدارقطني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) » . وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ « إن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » . وأخرج النسائي والدارقطني وصححه وأبو نعيم عن أبي هريرة قال « قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا ؟ قال : هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه ، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها ؟ قلنا نعم ، قال : فإنكم سترون ربكم عز وجل ، حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة ، فيقول : عبدى هل تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : ألم تغفر لي ؟ فيقول : بمغفرتي صرت إلى هذا » .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّفَتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ

وَتَوَلَّى (٢٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٢٣) أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (٢٤) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (٢٥)
أَيَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٢٦) أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى (٢٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوَّى (٢٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٢٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ
يُخَيِّبَ الْهَوَى (٤٠) .

قوله (كلا) ردع وزجر : أى بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ، ثم استأنف ، فقال (إذا بلغت التراقي)
أى بلغت النفس أو الروح التراقي ، وهى جمع ترقوة ، وهى عظم بين ثغرة النحر والعاتق ، ويكنى ببلوغ النفس
التراقي عن الإشفاء على الموت ، ومثله قوله - فلولا إذا بلغت الحلقوم - وقيل معنى « كلا » حقا : أى حقا أن
المساق إلى الله إذا بلغت التراقي ، والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت . قال دريد بن الصمة :

ورب كريمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

(وقيل من راق) أى قال من حضر صاحبها من يرقيه ويشتى برقيته ؟ . قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم
يغنوا عنه من قضاء الله شيئا ، وبه قال أبو قلابة ، ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقى أم هل له من حمام الموت من راقى

وقال أبو الجوزاء : هر من رقى يرقى إذا صعد ، والمعنى : من يرقى بروحه إلى السماء أم ثكة الرحمة أم
ملائكة العذاب ؟ وقيل إنه يقول ذلك ملك الموت ، وذلك أن نفس الكافر تتركه الملائكة قربها (وظن أنه الفراق)
أى وأيقن الذى بلغت روحه التراقي أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد (والتفت الساق بالساق) أى
التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به . وقال جمهور المفسرين : المعنى تتابعت عليه الشدائد . وقال الحسن : هما
ساقاه إذا التفتا فى الكفن . وقال زيد بن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت ، وقيل ماتت رجلاه ويبست ساقاه
ولم تحملاه ، وقد كان جوارا عليهما . وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يجهزون جسده ،
والملائكة يجهزون روحه . وبه قال ابن زيد . والعرب لا تذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار ، والحن العظام ،
ومنهم قولهم : قامت الحرب على ساق . وقيل الساق الأول تعذيب روحه عند خروج نفسه ، والساق الآخر شدة
البعث وما بعده (إلى ربك يومئذ المساق) أى إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه
(فلا صدق ولا صلى) أى لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن ، ولا صلى لربه ، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور
فى أول هذه السورة . قال قتادة : فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله ، وقيل فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى
لا بمعنى لم ، وكذا قال الأخفش : والعرب تقول : لا ذهب أى لم يذهب ، وهذا مستفيض فى كلام العرب ، ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأنى عبد لك لا ألما

(ولكن كذب وتولى) أى كذب بالرسول وبما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان (ثم ذهب إلى أهله
يتمطى) أى يتبختر ويختال فى مشيته افتخارا بذلك . وقيل هو مأخوذ من المطى وهو الظهر ، والمعنى يلوى مطاه .
وقيل أصله يتمطط ، وهو التمدد والتناقل : أى يتناقل ويتكاسل عن الداعى إلى الحق (أوى لك فأوى . ثم أوى
لك فأوى) أى وليك الويل ، وأصله أولاك الله ماتكرهه ، واللام مزيدة كما فى - ردف لكم - وهذا تهديد شديد ،

والتكرير للتأكيد : أى يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة . قال الواحدى : قال المفسرون : أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد أبى جهل ، ثم قال (أولى لك فأولى) فقال أبو جهل : بأى شئ تهددنى لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل أبى شيئا ، وإنى لأعز أهل هذا الوادى ، فنزلت هذه الآية . وقيل معناه : الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هممت بنفسى بعض الهمو م فأولى لنفسى أولى لها

وعلى القول بأنه الويل ، قيل هو من المقلوب كأنه قيل : أويل لك ، ثم آخر الحرف المعتل . قيل ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات ، والأويل لك حيا ، والأويل لك ميتا ، والأويل لك يوم البعث ، والأويل لك يوم تدخل النار . وقيل المعنى : إن الدم لك أولى لك من تركه . وقيل المعنى : أنت أولى وأجدر بهذا العذاب قاله ثعلب . وقال الأصمعى : أولى فى كلام العرب معناه مقاربة الهلاك . قال المبرد : كأنه يقول : قد وليت الهلاك وقد دانيت ، وأصله من الولى ، وهو القرب ، وأنشد الفراء : * فأولى أن يكون لك الولاء * أى قارب أن يكون لك ، وأنشد أيضا : * أولى لمن هاجت له أن يكمد * (أى حسب الإنسان أن يترك سدى) أى هملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب ، وقال السدى : معناه المهمل ، ومنه إبل سدى : أى ترعى بلا راع ، وقيل المعنى : أى حسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يبعث ، وجملة (ألم يك نطفة من منى يمنى) مستأنفة : أى ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منى يراق فى الرحم ، وسمى المنى منيا لإراقته ، والنطفة : الماء القليل ، يقال نطف الماء : إذا قطر . قرأ الجهمور « ألم يك » بالتحية على إرجاع الضمير إلى الإنسان . وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخا له . وقرأ الجهمور أيضا « تمنى » بالفوقية على أن الضمير للنطفة . وقرأ حفص وابن محيصن ومجاهد ويعقوب بالتحية على أن الضمير للمنى ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، واختارها أبو حاتم (ثم كان علقه) أى كان بعد النطفة علقه : أى دما (فخلق) أى فقدّر بأن جعلها مضغة مخلقة (فسوى) أى فعدّله وكمل نشأته ونفخ فيه الروح (فجعل منه) أى حصل من الإنسان ، وقيل من المنى (الزوجين) أى الصنفين من نوع الإنسان . ثم بين ذلك فقال (الذكر والأنثى) أى الرجل والمرأة (أليس ذلك) أى ليس ذلك الذى أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه (بقادر على أن يحيى الموتى) أى يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا ، فإن الإعادة أهون من الابتداء ، وأيسر مؤنة منه . قرأ الجهمور « بقادر » وقرأ زيد بن على « يقدر » فعلا مضارعا ، وقرأ الجهمور « يحيى » بنصبه بأن . وقرأ طلحة بن سليمان والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفا ، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مر فى مواضع .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقيل من راق) قال : تنزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقبه ، قيل من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب (والتفت الساق بالساق) قال : التفت عليه الدنيا والآخرة وملائكة العذاب أيهم يرقى به . وأخرج عبد بن حميد عنه (وقيل من راق) قل من راق يرقى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا (والتفت الساق بالساق) يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا (يتمطى) قال : يختال . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله (أولى لك فأولى) أشئ قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبى جهل من قبل نفسه ، أم أمره الله به ؟ قال : بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (أن يترك سدى) قال :

هملا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري عن صالح أبي الخليل قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ هذه الآية (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال : سبحانك اللهم وبلى » . وأخرج ابن مردويه عن البراء ابن عازب قال : لما نزلت هذه الآية (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سبحانك ربى وبلى » . وأخرج ابن النجار في تاريخه عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند قراءته لهذه الآية « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ منكم والذين والزيتون فانتهى إلى آخرها - أليس الله بأحكم الحاكمين - فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى قوله - أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى - فليقل بلى ، ومن قرأ والمرسلات عرفا - فبلغ - فبأى حديث بعده يؤمنون - فليقل آمنا بالله » وفي إسناده رجل مجهول . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا قرأت لا أقسم بيوم القيامة فبلغت - أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى - فقل بلى » .

تفسير سورة الإنسان

هى إحدى وثلاثون آية

قال الجمهور : هى مدنية . وقال مقاتل والكلبي : هى مكية . وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وقيل فيها مكى من قوله (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) إلى آخر السورة ، وما قبله مدنى . وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سل واستفهم ، فقال : يا رسول الله فضلت علينا بالألوان والصور والنبوة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به : أنى كائن معك فى الجنة ، قال نعم والذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام ، ثم قال : من قال لا إله إلا الله كان له عهد عند الله . ومن قال : سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ، ونزلت هذه السورة (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) إلى قوله (ملكا كبيرا) فقال الحبشى : وإن عيني لترى ما ترى عينك فى الجنة ، قال نعم ، فاشتكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدليه فى حفرة بيده . وأخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال : حدثتني الثقة « أن رجلا أسود كان يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن التسبيح والتهليل ، فقال له عمر بن الخطاب : أكثر على رسول الله ، فقال : مه يا عمر . وأنزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل أتى على الإنسان حين من الدهر حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : مات شوقا إلى الجنة » . وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعا مرسلا . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن منيع وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والضياء عن أبي ذر قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هل أتى على الإنسان) حتى ختمها ، ثم قال : إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء وحتى لها أن تثط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولا خرستم إلى الصعدات تجارون إلى الله عز وجل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ
كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)
يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ
مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً
وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢).

حكى الواحدى عن المفسرين وأهل المعاني أن (هل) هنا بمعنى قد ، وليس باستفهام ، وقد قال بهذا سيويه
والكسائى والفراء وأبو عبيدة . قال الفراء : هل تكون جحدا وتكون خبرا فهذا من الخبر لأنك تقول : هل أعطيتك
تقرره بأنك أعطيته ، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا ، وقيل هى وإن كانت بمعنى قد ففيها معنى
الاستفهام ، والأصل أهل أتى ، فالمعنى : أقدم أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب ، والمراد بالإنسان هنا آدم ،
قاله قتادة والثورى وعكرمة والسدى وغيرهم (حين من الدهر) قيل أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقيل
لأنه خاق من طين أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة
وعشرين سنة . وقيل الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره وقيل المراد بالإنسان بنو آدم ، والحين مدة الحمل ،
وجملة (لم يكن شيئا مذكورا) فى محل نصب على الحال من الإنسان ، أو فى محل رفع صفة لحين . قال الفراء
وقطرب وثعلب : المعنى أنه كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يذكرو ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نفخ
فيه الروح فصار مذكورا . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا ،
وقيل ليس المراد بالذكر هنا الإخبار ، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف ،
كما فى قوله - وإنه لذكر لك ولقومك - . قال القشيرى : ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله سبحانه .
قال الفراء : كان شيئا ولم يكن مذكورا ، فجعل النبی متوجها إلى القيد . وقيل المعنى : قد مضت أزمته وما كان
آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليفة . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين
من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوان (إنا خلقنا الإنسان من
نطفة) المراد بالإنسان هنا ابن آدم . قال القرطبي : من غير خلاف ، والنطفة : الماء الذى يقطر ، وهو المني وكل
ماء قابل فى وعاء فهو نطفة ، وجمعها نطف ، و (أمشاج) صفة لنطفة ، وهى جمع مشج ، أو مشيج ، وهى

الأخلاق ، والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما . يقال مشج هذا بهذا فهو ممشوج : أى خلط هذا بهذا فهو مخلوط . قال المبرد : مشج يمشج إذا اختلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم . قال روثبة بن العجاج :

يطرحن كل معجل مشاج لم يكس جلدا من دم أمشاج

قال الفراء : أمشاج اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال مشج هذا : إذا خلط ، وقيل الأمشاج : الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . قال القرطبي : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة . قال الهذلي :

كأن الريش والفوقين منه خلاف النصل نيط به مشيج

وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد . قال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة . وقيل الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أشجار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة ، وجملة (نبتليه) في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا : أى مريدين ابتلاءه ، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان ، والمعنى : نبتليه بالخير والشر وبالتكاليف . قال الفراء : معناه والله أعلم (جمعناه سميعا بصيرا) نبتليه وهي مقدمة معناها التأخير ، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الحلقة ، وعلى هذا تكون هذه الحال مقدرة ، وقيل مقارنة . وقيل معنى الابتلاء : نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة ، والأول أولى . ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء فقال (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) أى بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر كما في قوله - وهديناه النجدين - قال مجاهد : أى بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك والسدي وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم ، وقيل منافعه ومضاره التي يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب شاكرا وكفورا على الحال من مفعول هديناه : أى مكناه من سلوك الطريق في حالتيه جميعا ، وقيل على الحال من سبيل على المجاز : أى عرفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا . وحكى مكى عن الكوفيين أن قوله إما هي إن شرطية زيدت بعدها ما : أى بينا له الطريق إن شكر وإن كفر . واختار هذا الفراء ، ولا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمّر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكرا وكفورا . ويمكن أن يضمّر فعل ينصب شاكرا وكفورا ، وتقديره : إن خلقناه شاكرا فشكور وإن خلقناه كافرا فكفور ، وهذا على قراءة الجمهور - إما شاكرا وإما كفورا - بكسر همزة إما . وقرأ أبو السماك وأبو العجاج بفتحها ، وهي على الفتح إما العاطفة في لغة بعض العرب ، أو هي التفصيلية وجوابها مقدر ، وقيل انتصب شاكرا وكفورا باضمار كان ، والتقدير : سواء كان شاكرا أو كان كفورا . ثم بين سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) قرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر « سلاسل » بالتنوين ، ووقف قبل عن ابن كثير وحمزة بغير ألف ، والباقون وقفوا بالألف . ووجه من قرأ بالتنوين في سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله وهو - إما شاكرا وإما كفورا - ، وما بعده وهو - أغلالا وسعيرا - منون ، أو على لغة من يصرف جميع مالا ينصرف كما يحكاها الكسائي وغيره من الكوفيين عن بعض العرب . قال الأنخض : سمعنا من العرب من يصرف كل مالا ينصرف ، لأن الأصل في الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها . قال الفراء : هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم : هو أظرف منك فإنهم لا يجرّونه ، وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي لاصينا

ومن ذلك قول الشاعر :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيهم خضع الرقاب نواكس الأبصار
بكسر السين من نواكس ، وقول لبيد :

وحسور أستار دعوني لحتفها بمعالي متشابه أعلاقها
وقوله أيضا : فضلا وذو كرم بعين على الندى سمح لشوب رغائب غنامها

وقيل إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فلأنها فيها بالألف ، وقيل إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف ، والسلاسل قد تقدم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هي القيود ، أو ما يجعل في الأعناق كما في قول الشاعر :

أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال ولكن

جمع غلّ تغلّ به الأيدي إلى الأعناق ، والسعير : الوقود الشديد ، وقد تقدم تفسير السعير ، ثم ذكر سبحانه ما أعدّه للشاكرين فقال (إن الأبرار يشربون من كأس) الأبرار : أهل الطاعة والإخلاص ، والصدق جمع برّ لو بار . قال في الصحاح : جمع البرّ الأبرار ، وجمع البارّ البررة ، وفلان يرّ خالقه ويبرره : أى يطيعه . وقال الحسن : البرّ الذى لا يؤذى النذر . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر . والكأس فى اللغة هو الإناء الذى فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأسا ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة ، بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصينى وغير ذلك ، وقد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر كما فى قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

(كان مزاجها كافورا) أى يخالطها وتمزج به ، يقال مزجه يمزجه مزجا : أى خلطه يخلطه خلطا ، ومنه قول الشاعر :
كأن سبية من بيت رأس كان مزاجها عسل وماء
وقول عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

معتقة كأن الخصى فيها إذا ما الماء خالطها سخيها

ومنه مزاج البدن ، وهو ما يمزجه من الأخلاط ، والكافور قيل : هو اسم عين فى الجنة يقال لها الكافورى تمزج نحر الجنة بماء هذه العين . وقال قتادة ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختّم لهم بالمسك . وقال عكرمة : مزاجها طعمها ، وقيل إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها . وقيل إنما أراد الكافور فى بياضه وطيب رائحته وبرده ، لأن الكافور لا يشرب كما فى قوله - حتى إذا جعله نارا - أى كنار . وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل . وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا ، وإنما سمي الله ماعنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب ، والجملة فى محل جرّ صفة لكأس . وقيل إن كان هنا زائدة : أى من كأس مزاجها كافورا (عينا يشرب بها عباد الله) انتصاب عينا على أنها بدل من كافورا ، لأن ماءها فى بياض الكافور . وقال مكى : إنها بدل من محل « من كأس » على حذف مضاف كأنه قيل : يشربون خراخر عين ، وقيل إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون : أى عينا من كأس ، وقيل هى منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش وقيل منتصبة باضمار فعل يفسره ما بعده : أى

يشربون عينا يشرب بها عباد الله ، والأول أولى ، وتكون جملة - يشرب بها عباد الله - صفة لعينا . وقيل إن الباء في يشرب بها زائدة ، وقيل بمعنى من قاله الزجاج ، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله . وقيل إن يشرب مضمن معنى يلتذ ، وقيل هي متعلقة بيشرب ، والضمير يعود إلى الكأس . وقال الفراء : يشربها ويشرب بها سواء في المعنى ، وكأن يشرب بها يروى بها وينتفع بها ، وأنشد قول الهذلي : * شربن بماء البحر ثم ترفعت * قال : ومثله تكلم بكلام حسن ، وتكلم كلاما حسنا (يفجرونها تفجيرا) أى يحجرونها إلى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاءون ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقا كما يشق النهر ويفجر إلى هنا وهنا . قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم ، والجملة صفة أخرى لعينا ، وجملة (يوفون بالنذر) مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ماذكر ، وكذا ما عطف عليها ، ومعنى النذر في اللغة الإيجاب ، والمعنى : يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات . قال قتادة ومجاهد : يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما . وقال عكرمة : يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه ، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى : يوفون بما أوجبه على أنفسهم . قال الفراء : في الكلام إضمار : أى كانوا يوفون بالنذر في الدنيا . وقال الكلبي : يوفون بالعهد : أى يتممون العهد . والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) المراد يوم القيامة ، ومعنى استطارة شره فشوه وانتشاره ، يقال استطار يستطير استطارة فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، ومنه قول الأعشى :

فباتت وقد أثارت في الفؤاد صدعا على نأيا مستطيرا

والعرب تقول : استطار الصدع في القارورة والزجاجة : إذا امتد ، ويقال استطار الحريق : إذا انتشر . قال الفراء : المستطير المستطيل . قال قتادة : استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . قال مقاتل : كان شره فاشيا في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة ، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيا وأسيرا) أى يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم وقلته عندهم . قال مجاهد : على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له ، فقوله على حبه في محل نصب على الحال : أى كائنين على حبه ، ومثله قوله - لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون - وقيل على حب الإطعام لرغبتهم في الخير . قال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام . وقيل الضمير في حبه يرجع إلى الله : أى يطعمون الطعام على حب الله : أى يطعمون أطعما كائنا على حب الله ، ويؤيد هذا قوله (إنما نطعمكم لوجه الله) والمسكين ذو المسكنة ، وهو الفقير ، أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم يتامى المسلمين ، والأسير الذى يؤسر فيحبس . قال قتادة ومجاهد : الأسير المحبوس . وقال عكرمة : الأسير العبد . وقال أبو حمزة الثمالي : الأسير المرأة . قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف في حق الأسير الكافر . وقال غيره : بل هي محكمة ، وإطعام المسكين واليتيم على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام ، وجملة (إنما نطعمكم لوجه الله) في محل نصب على الحال بتقدير القول : أى يقولون إنما نطعمكم ، أو قائلين إنما نطعمكم : يعنى أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك . قال الواحدي : قال المفسرون : لم يستكملوا بهذا ولكن عامه الله من قلوبهم فأثنى عليهم وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقررة لما

قبلها ، لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ولا يطلب الشكر له فمن أطعمه (لأننا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) أى نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ، ومعنى عبوسا : أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى : أنه ذو عبوس . قال الفراء وأبو عبيدة والمبرد : يوم قمطرير وقماطر : إذا كان صعبا شديدا ، وأنشد الفراء :

بنى عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر

قال الأخفش : القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطول في البلاء ، ومنه قول الشاعر :

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارها ولج بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائي : اقمطر اليوم وازمهر : إذا كان صعبا شديدا ، ومنه قول الشاعر :

بنو الحرب أوصينا لهم بقمطرة ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

وقال مجاهد : إن العبوس بالشفتين ، والقمطرير بالحبهة والحاجبين ، فجعلهما من صفات المتغير في ذلك اليوم لما يراه من الشدائد ، وأنشد ابن الأعرابي :

يقدر على الصيد يعود منكسر ويقمطر ساعة ويكنمهر

قال أبو عبيدة : يقال قمرير : أى متقبض ما بين العينين والحاجبين . قال الزجاج : يقال اقمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها ما يسبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) أى دفع عنهم شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه (ولقاهم نضرة وسرورا) أى أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجود وسرورا في القلوب . قال الضحاك : والنضرة البياض والنقاء في وجوههم . وقال سعيد ابن جبير الحسن والبهاء ، وقيل النضرة أثر النعمة (وجزاهم بما صبروا) أى بسبب صبرهم على التكاليف ، وقيل على الفقر ، وقيل على الجوع ، وقيل على الصوم . والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء ، يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ، وما مصدرية ، والتقدير : بصبرهم (جنة وحريرا) أى أدخلهم الجنة والبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضا عن تركه في الدنيا امثالاً لما ورد في الشرع من تحريمه ، وظاهر هذه الآيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصا كما سيأتى فلا اعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولا أوليا .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (هل أتى على الإنسان) قال : كل إنسان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله (أمشاج) قال : أمشاجها عروقها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم (أمشاج) قال : العروق . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس (من نطفة أمشاج) قال : ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال (أمشاج) ألوان : نطفة الرجل بينضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وحمراء . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الأمشاج الذى يخرج على أثر البول كقطع الأوتار ومنه يكون الولد . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (كان شره مستطيرا) قال : فاشيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه أيضا في قوله (وأسيرا) قال : هو المشرك . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (مسكينا) قال : فقيرا (ويديما) قال لا أب له (وأسيرا) قال : المملوك والمسجون . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ويطعمون

الطعام) الآية قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (يوما عبوسا) قال : ضيقا (قمطيرا) قال : طويلا . وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (يوما عبوسا قمطيرا) قال : يقبض ما بين الأبصار . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال : القمطير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه . وأخرج ابن المنذر عنه (ولقاهم نضرة وسرورا) قال : نضرة في وجوههم وسرورا في صدورهم .

مُتَكِّثِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٢) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقْيَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) .

قوله (متكئين فيها على الأرائك) منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزي ، ولا يعمل فيها صبروا ، لأن الصبر إنما كان في الدنيا ، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لجنه . قال الفراء : وإن شئت جعلت متكئين تابعا ، كأنه قال : جزاهم جنة متكئين فيها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون منصوبا على المدح ، والضمير من فيها يعود إلى الجنة ، والأرائك : السرر في الحجال ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الكهف (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) الجملة في محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة ، أو من الضمير في متكئين ، فتكون من الحال المتداخلة ، أو صفة أخرى لجنه ، والزمهرير أشد البرد ، والمعنى : أنهم لا يرون في الجنة حر الشمس ولا برد الزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمسا ولا زمهريرا

وقال ثعلب : الزمهرير القمر بلغة بطي ، وأنشد لشاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعها والزمهرير مازهر

ويروى ما ظهر : أي لم يطلع القمر ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة مريم (ودانية عليهم ظلالها) قرأ الجمهور «دانية» بالنصب عطفًا على محل لا يرون ، أو على متكئين ، أو صفة لمخدوف : أي وجنة دانية ، كأنه قال : وجزاهم جنة دانية . وقال الزجاج : هو صفة لجنه المتقدم ذكرها . وقال الفراء : هو منصوب على المدح . وقرأ أبو حيوة «ودانية» بالرفع على أنه خبر مقدم وظلالها مبتدأ مؤخر ، والجملة في موضع النصب على الحال . والمعنى : أن

ظلال الأشجار قريبة منهم مظلة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس هنالك . قال مقاتل : يعنى شجرها قريب منهم . وقرأ ابن مسعود « ودانيا عليهم » (وذلت قطوفها تذليلا) معطوف على دانية كأنه قال : ومذلة . ويجوز أن تكون الحملة في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار ، والمعنى : أنها سخرت ثمارها لمتناولها تسخيرا كثيرا بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك . قال النحاس : المذلل القريب المتناول ، ومنه قولهم حائط ذليل : أى قصير . قال ابن قتيبة : ذلت أدنيت ، من قولهم حائط ذليل : أى كان قصير السمك ، وقيل ذلت : أى جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب) أى تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية الفضة ، والأكواب جمع كوب ، وهو الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة ، ومنه قول عدى :
متكى تفرع أبوابه يسمى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف (كانت قواريرا قواريرا من فضة) أى في وصف القوارير في الصفاء وفي بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ، ولونها لون الفضة . قرأ نافع والكسائي وأبو بكر « قواريرا قواريرا » بالتنوين فيهما مع الوصل ، وبالوقف عليهما بالألف ، وقد تقدم وجه هذه القراءة في تفسير قوله « سلاسل » من هذه السورة ، وبيننا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه . وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع . وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف ، وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثانى والوقف على الأول بالألف دون الثانى . وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما ، والوقف على الأول بالألف دون الثانى ، والجملة في محل جر صفة لأكواب . قال أبو البقاء : وخسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها . قال الواحدي : قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة ، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير . قال الزجاج : القوارير التى في الدنيا من الرمل ، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما في داخلها ، وجملة (قدروها تقديرا) صفة لقوارير . قرأ الجمهور « قدروها » بفتح القاف على البناء للفاعل : أى قدرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان . قال مجاهد وغيره : أتوا بها على قدر ربههم بغير زيادة ولا نقصان . قال الكلبي : وذلك ألد وأشهى ، وقيل : قدرها الملائكة ، وقيل قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص . وقرأ على وابن عباس والسلمي والشعبي وزيد بن علي وعبيد بن عمير وأبو عمرو في رواية عنه « قدروها » بضم القاف وكسر الدال مبني للمفعول : أى جعلت لهم على قدر إرادتهم . قال أبو علي الفارسي : هو من باب القلب ، قال : لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم لا قدروها ، لأنه في معنى قدروها عليها . وقال أبو حاتم : التقدير قدرت الأواني على قدر ربههم ، فمفعول مالم يسم فاعله محذوف . قال أبو حيان : والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال : قدر ربههم منها تقديرا ، فحذف المضاف فصار قدروها . وقال المهدوي : إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى ، وكأن الأصل قدروها عليها فحذف حرف الجر كما أنشد سيويوه :

آليت حب العراق الدهر آكله والحب يأكله في القرية السوس

أى آليت على حب العراق (ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجيلا) قد تقدم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر ، وإذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس ، والمعنى : أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأسا من الخمر ،

ممزوجة بالزنجبيل وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته . وقال مجاهد وقتادة : الزنجبيل اسم للعين التي يشرب بها المقربون . وقال مقاتل : هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا (عينا فيها تسمى ساسبيلا) انتصاب عينا على أنها بدل من كأسا . ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدر : أي يسقون عينا ، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض : أي من عين ، والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب : هذا شراب سلس ، وسلسال وسلسبيل : أي طيب لذيذ . قال الزجاج : السلسبيل في اللغة اسم للماء في غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ في حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم كأسا يصفق بالرحيق السلسل

(ويطوف عليهم ولدان مخلدون) لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ، ووصف آنيتهم ، ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب . ومعنى (مخلدون) باقون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة ، لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل معنى (مخلدون) لا يموتون ، وقيل التخليد التحلية : أي محلون (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا مثورا) إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤا مفرقا . قال عطاء : يريد في بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الحيط على البساط كان أحسن منه منظوما . قال أهل المعاني : إنما شبهوا بالمشور لانتشارهم في الخدمة ، ولو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم ، وقيل إنما شبههم بالمشور لأنهم سراع في الخدمة ، بخلاف الحور العين فإنه شبهن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتحن بالخدمة (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) أي وإذا رميت ببصرك هناك ، يعني في الجنة رأيت نعيما لا يوصف ، وملكا كبيرا لا يقادر قدره ، وثم ظرف مكان ، والعامل فيها رأيت . قال الفراء في الكلام ما مضى : أي وإذا رأيت ما ثم ، كقوله - لقد تقطع بينكم - أي ما بينكم . قال الزجاج معترضا على الفراء : إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن رأيت يتعدى في المعنى إلى ثم . والمعنى : إذا رأيت ببصرك ثم ، ويعنى بثم الجنة . قال السدي : النعيم ما يتنعم به ، والملك الكبير : استئذان الملائكة عليهم ، وكذا قال مقاتل والكلبي . وقيل إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوي ، بل معناه : أن بصرك أينما وقع في الجنة رأيت نعيما وملكا كبيرا (عاليهم ثياب سندس) قرأ نافع وحمة وابن محيصن « عاليهم » بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، أو على أن عاليهم مبتدأ ، وثياب مرتفع بالفاعلية وإن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش . وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء ، وخبره : ثياب سندس ، واسم الفاعل مراد به الجمع . وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف في محل رفع على أنه خبر مقدم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل فوقهم ثياب . قال الفراء : إن عاليهم بمعنى فوقهم ، وكذا قال ابن عطية . قال أبو حيان : عال وعالية اسم فاعل ، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب ، وقد تقدم إلى هذا الزجاج وقال : هذا بما لا نعرفه في الظروف ولو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء ، ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم في قوله (يطوف عليهم) أي على الأبرار (ولدان) عاليا الأبرار (ثياب سندس) أي يطوف عليهم في هذه الحال . والثاني أن يكون حالا من الولدان : أي إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا مثورا في حال علو الثياب أبدانهم . وقال أبو علي الفارسي العامل في الحال إنما لقاهم نصرة وسرورا ، وإما جزاءهم بما صبروا . قال : ويجوز أن يكون ظرفا . وقرأ ابن سيرين ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عملة : عليهم ، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة . واختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود : عاليهم . وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس . وقرأ أبو حيوة وابن أبي عملة بتنوين

ثياب وقطعها عن الإضافة ورفع سندس ، و (خضر وإستبرق) على أن السندس نعت للثياب ، لأن السندس نوع من الثياب ، وعلى أن خضر نعت لسندس ، لأنه يكون أخضر وغير أخضر ، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس : أى وثياب إستبرق ، والجمهور من القراء اختلفوا فى خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه ؛ فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس ورفع إستبرق عطفا على ثياب : أى عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق . وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتا للثياب ، وجرّ إستبرق نعت لسندس . واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، والإستبرق من جنس السندس . وقرأ نافع وحفص برفع « خضر وإستبرق » لأن خضر نعت للثياب ، وإستبرق عطف على الثياب . وقرأ الأعمش وحمة والكسائي بجرّ « خضر وإستبرق » على أن خضر نعت للسندس ، وإستبرق معطوف على سندس . وقرأوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه ، قال : لأنه أعجمي ، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب . والسندس : مارق من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه ، وقد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف (وحلوا أساور من فضة) عطف على يطوف عليهم . ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة وفى سورة فاطر - يحلون فيها من أساور من ذهب - وفى سورة الحج - يحلون فيها من أساور من من ذهب ولؤلؤا - ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤا ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، أو أنه يلبس كل واحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك . ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) هذا نوع آخر من الشراب الذى يمن الله عليهم به . قال القراء : يقول هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفا بالنجاسة . والمعنى : أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا . قال مقاتل : هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غشّ وغلّ وحسد . قال أبو قلابة وإبراهيم النخعي : يوتون بالطعام ، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتضمير بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك (إن هذا كان لكم جزاء) أى يقال لهم : إن هذا الذى ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم : أى ثوابا لها (وكان سعيكم مشكورا) أى كان عملكم فى الدنيا بطاعة الله مرضيا مقبولا ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : الزمهرير هو البرد الشديد . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اشتكت النار إلى ربها فقالت : ربّ أكل بعضى بعضا ، فجعل لها نفسين : نفسا فى الصيف ، ونفسا فى الشتاء ، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدة ما تجدون فى الصيف من الحرّ من سمومها » . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد بن السرى وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى قوله (ودانية عليهم ظلالها) قال : قرية (وذلك قطوفها تذليلًا) قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما وقعودا ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا . وفى لفظ قال : ذلت فيتناوون منها كيف شاءوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال (آنية من فضة) وصفواؤها كصفاء القوارير (قدروها تقديرا) قال : قدرت للكف . وأخرج عبد الرزاق

وسعيد بن منصور والبيهقي عنه قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا ففرضتها حتى جعلتها مثل جناح الدباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة بنياض الفضة في صفاء القوارير . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وأخرج الفريابي عنه أيضا في قوله : (قدروها تقديرا) قال : أتوا بها على قدر الفهم لا يفضلون شيئا ولا يشتهون بعدها شيئا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (قدروها تقديرا) قال : قدرتها السقاة . وأخرج ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد والبيهقي في البعث عن ابن عمرو قال : إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وتلا هذه الآية (إذا رأيتهم حسبتهم لو لوأ مشورا) .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا
أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرَوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ
وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى
رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) .

قوله (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) أي فرقناه في الإنزال ولم ننزله جملة واحدة . وقيل المعنى : نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون (فاصبر لحكم ربك) أي لقضائه ، ومن حكمه وقضائه تأخير نصرته إلى أجل اقتضته حكمته . قيل وهذا منسوخ بآية السيف (ولا تطع منها آثما أو كفورا) أي لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر ، فهاه الله سبحانه عن ذلك . قال الزجاج : إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا ، فأطاع أحدهما كان غير عاص ، لأنه أمره أن لا يطع الاثنين ، فإذا قال : لا تطع منهم آثما أو كفورا دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، فقد قلت لإنهما أهل أن يتبع ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع . وقال الفراء : « أو » هنا بمنزلة لا ، كأنه قال : ولا كفورا . وقيل المراد بقوله (آثما) عتبة بن ربيعة ، وبقوله (أو كفورا) الوليد بن المغيرة ، لأنهما قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) أي دم على ذكره في جميع الأوقات . وقيل المعنى : صل لربك أول النهار وآخره ، فأول النهار صلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر (ومن الليل فاسجد له) أي صل المغرب والعشاء . وقيل المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين ، ومن للتبعيض على كل تقدير (وسبحه ليلا طويلا) أي نزهه عما لا يليق به ، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة أو في غيرها . وقيل المراد التطوع في الليل . قال ابن زيد وغيره : إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس . وقيل الأمر للندب . وقيل هو مخصوص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن هؤلا يحبون العاجلة) يعني كفار مكة ومن هو موافق لهم . والمعنى : أنهم يحبون الدار العاجلة ، وهي دار الدنيا

(ويلدرون وراءهم يوماً ثقيلاً) أى يتركون ويدعون وراءهم : أى خلفهم أو بين أيديهم وأمامهم يوماً شديداً عسيراً ، وهو يوم القيامة ، وسمى ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأحوال . ومعنى كونه يذرونه وراءهم : أنهم لا يستعدون له ولا يعبثون به ، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به واستخفافاً بشأنه ، وإن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم (نحن خلقناهم) أى ابتدأنا خلقهم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقه ، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا فى ذلك عمل ولا سعى لا اشتراكاً ولا استقلالاً (وشددنا أسرهم) الأسر : شدة الخلق ، يقال شد الله أسر فلان : أى قوى خلقه . قال مجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم : شددنا خلقهم . قال الحسين : شددنا أوصالهم بعضاً إلى بعض بالعروق والعصب . قال أبو عبيد : يقال فرس شديد الأسر : أى الخلق . قال لبيد :

سأهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوك القند

وقال الأخطل :

من كل محتجب شديد أسره سأس القياد تخاله مختالا

وقال ابن زيد : الأسر القوة ، واشتقاقه من الإسار ، وهو القدر الذى تشد به الأفتاب . ومنه قول ابن أحرر يصف فرساً :

يمشى بأوظفة شداد أسرها شم السبائك لا تنى بالجدجد

(وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) أى لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع الله منهم . وقيل المعنى : مسخناهم إلى أسمى صورة وأقبح خلقه (إن هذه تذكرة) يعنى إن هذه السورة تذكرة وموعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) أى طريقاً يتوسل به إليه ، وذلك بالإيمان والطاعة . والمراد إلى ثوابه أو إلى جنته (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أى وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله ، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، والخير والشر بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فشيئة العبد مجردة لاتأتى بخير ولا تلذع شراً ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ، ويؤجر على قصد الخير كما فى حديث « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » . قال الزجاج أى لستم تشاءون إلا بمشيئة الله (إن الله كان عليماً حكماً) فى أمره ونهيه : أى بليغ العلم والحكمة « يدخل من يشاء فى رحمته » أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، أو يدخل فى جنته من يشاء من عباده . قال عطاء : من صدقت نيته أدخله جنته (والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) انتصاب الظالمين بفعل مقدر يدل عليه ما قبله : أى يعذب الظالمين ، نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب أى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين : أى المشركين ، ويكون أعد لهم تفسيراً لهذا المضمهر ، والاختيار النصب وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور . وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (وشددنا أسرهم) قال : خلقهم . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة (وشددنا أسرهم) قال هى المفاصل .

تفسير سورة المرسلات

هي خمسون آية

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال قتادة : إلا آية منها وهي قوله (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) فإنها مدنية ، وروى هذا عن ابن عباس . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة المرسلات بمكة . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال « بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غار بمنى إذ نزلت سورة المرسلات عرفا ، فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اقلوها ، فابتدرناه فذهبت ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : وقيت شركم كما وقيت شرها . » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفا فقالت : يا بني لقد ذكرتني بقرائك هذه السورة ، إنها آخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها في المغرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَصْفِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفُرْقَاتِ فَرْقًا (٤)
فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعُ (٧) فَإِذَا الذُّجُومُ طُمِسَتْ (٨)
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَضْلِ (١٣) وَمَا أَذْرِيكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ (١٤) وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)
أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلُ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى
قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ (٢٣) وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ
الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءَ وَأَمْوتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشِي شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَاءً
فُرَاتًا (٢٧) وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) .

قوله (والمرسلات عرفا) قال جمهور المفسرين : هي الرياح ، وقيل هي الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي ، وقيل هم الأنبياء ، فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسل لما يأمرها به كما في قوله - وأرسلنا الرياح لواقح - وقوله - ويرسل الرياح - وغير ذلك . وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسل بوجه وأمره ونهي . وعلى

الثالث أقدم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وانتصاب (عرفا) لما على أنه مفعول لأجله : أى المرسلات لأجل العرف وهو ضد النكر ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

أو على أنه حال بمعنى متابعة يتبع بعضها بعضها كعرف الفرس ، تقول العرب : سار الناس إلى فلان عرفا واحدا : إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ، أو على أنه مصدر كأنه قال : والمرسلات إرسالا : أى متابعة ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض : أى والمرسلات بالعرف . قرأ الجمهور « عرفا » بسكون الراء : وقرأ عيسى بن عمر بضمها ، وقيل المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة (فالعاصفات عصفا) وهى الرياح الشديدة الهبوب . قال القرطبي بغير اختلاف : يقال عصفت بالشيء : إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف : أى تعصف براكبها فتضى كأنها ريح فى السرعة ، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت بهم ، وقيل هى الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها ، وقيل يعصفون بروح الكافر ، وقيل هى الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها (والناشرات نشرا) يعنى للرياح تأتى بالمطر وهى تنشر السحاب نشرا ، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنتهم فى الجو عند النزول بالوحى ، أو هى الأمطار لأنها تنشر النبات . وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بنى آدم . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح ، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر (فالفارقات فرقا) يعنى الملائكة تأتى بما يفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقال مجاهد : هى الريح تفرق بين السحاب فتبدده . وروى عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل ، وقيل هى الرسل فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه ، وبه قال الحسن (فالملقيات ذكرا) هى الملائكة . قال القرطبي بإجماع : أى تلقى الوحى إلى الأنبياء ، وقيل هو جبريل ، وسمى باسم الجمع تعظيما له ، وقيل هى الرسل يلقون إلى أمهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب . قرأ الجمهور « فالملقيات » بسكون اللام وتخفيف القاف اسم فاعل ، وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهى إيصال الكلام إلى المخاطب ، والراجع أن الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة ، وهو الذى اختاره الزجاج والقاضى وغيرهما (عنرا أو نذرا) انتصابهما على البدل من ذكرنا ، أو على المفعولية ، والعامل فيهما المصدر المنون ، كما فى قوله - أو إطعام فى يوم ذى مسبغة يتما - أو على المفعول لأجله : أى للإعذار والإنذار ، أو على الحال بالتأويل المعروف : أى معذرين أو منذرين . قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما . وقرأ زيد بن ثابت وابنه خارجة بن زيد وطلحة بضمهما . وقرأ الحرميان وابن عامر وأبو بكر بسكونها فى عنرا وضمها فى نذرا . وقرأ الجمهور « عنرا أو نذرا » على العطف بأو . وقرأ إبراهيم التيمى وقتادة على العطف بالواو بدون ألف ، والمعنى : أن الملائكة تلقى لوحى إعذارا من الله إلى خلقه وإنذارا من عذابه ، كذا قال الفراء ، وقيل عنرا للمحقين ونذرا للمبطلين . قال أبو على الفارسي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالثقل جمع عاذر وناذر كقوله - هذا نذير من النذر الأولى - فيكون نصبا على الحال من الإلقاء : أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار ، أو مفعولان لذكرنا : أى تذكر عنرا أو نذرا . قال المبرد : هما بالثقل جمع ، والواحد عذير ونذير . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال (إنما توعدون لواقع) أى إن الذى توعدونه من مجئ الساعة والبعث كائن لا محالة ، ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال (فإذا النجوم طمست) أى مجى نورها وذهب ضوؤها ، يقال طمس الشيء : إذا درس وذهب أثره (وإذا السماء

فرجت) أى فتحت وشقت ، ومثله قوله - وفتحت السماء فكانت أبوابا - (وإذا الجبال نسفت) أى قلعت من مكانها بسرعة ، يقال نسفت الشيء وأنسفته : إذا أخذته بسرعة . وقال الكلبي : سويت بالأرض ، والعرب تقول : نسفت الناقة الكلاً : إذا رعت ، وقيل جعلت كالحب الذى ينسف بالمنسف ، ومنه قوله - وبست الجبال يسا - والأول أولى . قال المبرد : نسفت قلعت من مواضعها (وإذا الرسل أقت) الهمزة فى أقت بدل من الواو المضمومة ، وكل واوانضمت وكانت ضميتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة ، وقد قرأ بالواو أبو عمرو وشيبة والأعرج وقرأ الباقون بالهمزة ، والوقت : الأجل الذى يكون عنده الشيء المؤخر إليه ، والمعنى : جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما فى قوله سبحانه - يوم يجمع الله الرسل - وقيل هذا فى الدنيا : أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبها ، والأول أولى . قال أبو علي الفارسي : أى جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً ، وقيل أقت : أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به (لأى يوم أجلت) هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب : أى لأى يوم عظيم يعجب العباد منه لشدة ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا ، أو فى محل نصب على الحال من الضمير فى أقت . قال الزجاج : المراد بهذا التأقيت تبين الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أمهم ، ثم بين هذا اليوم فقال (ليوم الفصل) قال قتادة : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم عظم ذلك اليوم فقال (وما أدراك ما يوم الفصل) أى وما أعلمك بيوم الفصل يعنى أنه أمر بديع هائل لا يقدر قلره ، وما يبدأ وأدراك خبره ، أو العكس كما اختاره سيبويه . ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال (ويل يومئذ للمكذبين) أى ويل لهم فى ذلك اليوم الهائل ، وويل أصل مصدر ساد مسد فعله ، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات ، والويل الهلاك ، أو هو اسم واد فى جهنم ، وكرر هذه الآية فى هذه السورة لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر ، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب . ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الحالية فقال (ألم نهلك الأولين) أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال مقاتل : يعنى بالعذاب فى الدنيا حين كذبوا رسلهم (ثم نتبعهم الآخريين) يعنى كفار مكة ، ومن وافقهم حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قرأ الجمهور « نتبعهم » بالرفع على الاستئناف أى ثم نحن نتبعهم . قال أبو البقاء ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى : أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخريين فى الإهلاك . وليس كذلك لأن إهلاك الآخريين لم يقع بعد . ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود « ثم سنتبعهم الآخريين » وقرأ الأعرج والعباس عن أبي عمرو نتبعهم بالجزم عطفاً على نهلك . قال شهاب الدين : على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله « ألم نهلك » (كذلك نفعل بالمجرمين) أى مثل ذلك الفعل القطيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف : أى مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما فى الدنيا أو فى الآخرة (ويل يومئذ للمكذبين) أى ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله ، قيل الويل الأول لعذاب الآخرة ، وهذا لعذاب الدنيا (ألم نخلقكم من ماء مهين) أى ضعيف حقير ، وهو النطفة (فجعلناه فى قرار مكين) أى مكان حرير ، وهو الرحم (إلى قدر معلوم) أى إلى مقدار معلوم ، وهو مدة الحمل ، وقيل إلى أن يصور (فقد رنا) قرأ الجمهور « فقد رنا » بالتخفيف . وقرأ نافع والكسائي بالتشديد من التقدير . قال الكسائي والفرء : وهما لغتان بمعنى تقول : قدرت كنيا ، وقدرته (فنعم القادرون) أى نعم المقدرون نحن ، قيل المعنى : قدرناه قصيراً أو طويلاً ، وقيل معنى

قد رنا ملكنا (ويل يومئذ للمكذبين) بقدرتنا على ذلك . ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال (ألم نجعل الأرض كفاتا) معنى الكفت في اللغة : الضم والجمع ، يقال كفت الشيء : إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر كفت ، والمعنى : ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها والأموات في باطنها تضمهم وتجمعهم . قال الفرّاء : يريد تكفّتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنزلهم ، وتكفّتهم أمواتا في بطنها : أي تحوزهم وهو معنى قوله (أحياء وأمواتا) وأنشد سيبويه :

كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أجحارهن من الصقيع

قال أبو عبيدة كفاتا أوعية ، ومنه قول الشاعر :

فأنت اليوم فوق الأرض حيّ وأنت غدا تضمن في كفات

أي في قبر ، وقيل معنى جعلها كفاتا : أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات . وقال الأخفش وأبو عبيدة : الأحياء والأموات وصفان للأرض : أي الأرض منقسمة إلى حيّ وهو الذي يذبت ، وإلى ميت وهو الذي لا يذبت . قال الفرّاء : انتصاب أحياء وأمواتا بوقوع الكفات عليه : أي ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نون نصب ما بعده ، وقيل نصبا على الحال من الأرض : أي منها كذا ومنها كذا ، وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة . وقال الأخفش : كفاتا جمع كافّة ، والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفت تقليب الشيء ظهرا لبطن أو بطننا لظهر ، ويقال انكفت القوم إلى منازلهم : أي ذهبوا (وجعلنا فيها رواسي شامخات) أي جبالا طوالا ، والرواسي الثوابت ، والشامخات الطوال ، وكل عال فهو شامخ (وأسقيناكم ماء فراتا) أي عذبا ، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به . قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث (ويل يومئذ للمكذبين) بما أنعمنا عليهم من نعمنا التي هذه من جملتها .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي هريرة (والمرسلات عرفا) قال : هي الملائكة أرسلت بالعرف . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود - والمرسلات عرفا - قال الريح (فالعاصفات عصفا) قال : الريح (والناشرات نشرا) قال : الريح . وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب أنه جاء رجل إلى علي بن أبي طالب ، فقال ما العاصفات عصفا ؟ قال الرياح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (والمرسلات عرفا) قال : الريح (فالعاصفات عصفا) قال : الريح (فالفرقات فرقا) قال : الملائكة (فالملقيات ذكرا) قال : الملائكة . وأخرج ابن المنذر عنه (والمرسلات عرفا) قال : الملائكة (فالفرقات فرقا) قال : الملائكة ، فرقت بين الحق والباطل (فالملقيات ذكرا) قال : بالتزويل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود قال : ويل واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فجعل للمكذبين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (من ماء مهين) قال : ضعيف . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (كفاتا) قال : كنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (رواسي شامخات) قال : جبالا مشرفات ، وفي قوله (فراتا) قال : عذبا .

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شُعْبٍ (٣٠)

لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ (٣٣)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٧) هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ جَمْعَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٢٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٢٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوْكَةٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكِعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) .

(انطلقوا إلى ما كنتم) هو بتقدير القول : أى يقال لهم توبيخا وتقريبا (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) في الدنيا ، تقول لهم ذلك خزنة جهنم : أى سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب ، وهو عذاب النار (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) أى إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعبا . قرأ الجمهور « انطلقوا » في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد . وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثانى : أى لما أمروا بالانطلاق امثلوا ذلك فانطلقوا . وقيل المراد بالظل هنا هو السرادق ، وهو لسان من النار يحيط بهم . ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلمهم حتى يفرغ من حسابهم ، ثم يصيرون إلى النار . وقيل هو الظل من يحوم كما في قوله - في سموم وحيم وظل من يحوم - على ما تقدم . ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكما بهم فقال (لا ظليل ولا يغنى من اللهب) أى لا يظل من الحر ولا يغنى من اللهب . قال الكلبي : لا يرد حر جهنم عنكم . ثم وصف سبحانه النار فقال (إنها ترمى بشرر كالقصر) أى كل شررة من شررها التي ترمى بها كالقصر من القصور في عظمها ، والشرر : ماطرير من النار متفرقا ، والقصر : البناء العظيم . وقيل القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل حمر وحمرة وتمر وتمررة ، وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ . قال سعيد بن جبيرة والضحاك : وهى أصول الشجر العظام ، وقيل أعناقها . قرأ الجمهور « كالقصر » بإسكان الصاد ، وهو واحد القصور كما تقدم . وقرأ ابن عباس ومجاهد وخميد والسلمي بفتح الصاد : أى أعناق النخل والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جبيرة بكسر القاف وفتح الصاد ، وهى أيضا جمع قصرة مثل بدر وبدررة وقصع وقصعة . وقرأ الجمهور « بشرر » بفتح الشين . وقرأ ابن عباس وابن مقسم بكسرها مع ألف بين الرأين . وقرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين ، وهى لغات ، ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال (كأنه جمالات صفر) وهى جمع جمال ، وهى الإبل أو جمع جمالة : قرأ الجمهور « جمالات » بكسر الجيم . وقرأ حمزة والكسائى وحفص « جمالة » جمع جمال . وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبيرة وقاتادة وأبو رجاء « جمالات » بضم الجيم ، وهى حبال السفن . قال الواحدى : والصفر معناها السود في قول المفسرين . قال الفراء : الصفر سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة ، لذلك سمى العرب سود الإبل صفرا . قيل والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شئ بالإبل السود ، ومنه قول الشاعر :

تلك نخيل وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

أى من سود ، قيل وهذا القول محال في اللغة أن يكون شئ يشوبه شئ قليل ، فينسب كله إلى ذلك

الشائب ، فالعجب لمن قال بهذا ، وقد قال تعالى (جمالات صفر) . وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهي مضيئة ، فلما خلق الله جهنم ، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار ، وبعث إليها سلطانها وغضبه فاسودت من سلطانه وازدادت سوادا ، وصارت أشد سوادا من كل شيء ، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت : وهذا الجواب لا يدفع ماقاله القائل ، لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء ، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار ، واسوداد شررها ، لقال الله : كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال ، لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ، فكان ما في القرآن هنا واردا على هذا الاستعمال العربي (ويل يومئذ للمكذبين) لرسل الله وآياته (هذا يوم لا ينطقون) أي لا يتكلمون قال الواحدى : قال المفسرون : في يوم القيامة مواقف ، ففي بعضها يتكلمون ، وفي بعضها يحتم على أقواهم فلا يتكلمون ، وقد قدّمنا الجمع بهذا في غير موضع . وقيل إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون ، لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت . وقال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . قرأ الجمهور برفع « يوم » على أنه خبر لإسم الإشارة . وقرأ زيد بن علي والأعرج والأعمش وأبو حيوه وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ، ومجمله الرفع على الخبرية ، وقيل هو منصوب على الظرفية ، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد كأنه قيل هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) قرأ الجمهور « يؤذن » على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن علي « ولا يأذن » على البناء للفاعل : أي لا يأذن الله لهم : أي لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الاذن كما لو نصب . قال الفراء : الفاء في فيعتذرون نسي على يؤذن وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ، ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال - لا يقضى عليهم فيموتوا - بالنصب ، والكل صواب (ويل يومئذ للمكذبين) بما دعاهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين) أي ويقال لهم : هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب في جمعناكم للكفار في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية (فإن كان لكم كيد) أي إن قدرتم على كيد الآن (فكيدون) وهذا تقريع وتوبيخ لهم . قال مقاتل : يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ، وقيل المعنى : فإن قدرتم على حرب فحاربون ، وقيل إن هذا من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيكون كقول هود - فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون - (ويل يومئذ للمكذبين) لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا . ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال (إن المتقين في ظلال وعيون) أي في ظلال الأشجار وظلال القصور ، لا كالظل الذي للكفار من الدخان ، أو من النار كما تقدم . قال مقاتل والكلبي : المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله ، لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم . قال الرازي : فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها وإنما يتم النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم ، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال ، والمراد بالعيون الأنهار ، وبالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) أي يقال لهم ذلك ، فالجملة مقدرة بالقول ، وهي في محل نصب على الحال من ضمير المتقين ، والباء للسببية : أي بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين في أعمالهم ، قرأ الجمهور

« في ظلال » . وقرأ الأعمش والزهرى وطلحة والأعرج « في ظلل » جمع ظلة (ويل يومئذ للمكذبين) حيث صاروا في شقاء عظيم ، وصار المؤمنون في نعيم مقيم (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) الحملة بتقدير القول في محل نصب على الحال من المكذبين : أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تذكير لهم بحالهم في الدنيا ، أو يقال لهم هذا في الدنيا ، والمجرمون المشركون بالله ، وهذا وإن كان في اللفظ أمرا فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم (ويل يومئذ للمكذبين) كبره لزيادة التوبيخ والتقريع (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) أي وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون ، قال مقاتل : نزلت في ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها فقالوا : لانتحنى فإنها مسبة علينا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود . وقيل إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . وقيل المعنى بالركوع : الطاعة والخشوع (ويل يومئذ للمكذبين) بأوامر الله سبحانه ونواهيه (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي فبأي حديث بعد القرآن يصدقون إذا لم يؤمنوا به . قرأ الجمهور « يؤمنون » بالتحية على الغيبة . وقرأ ابن عامر في رواية عنه ، ويعقوب بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بشر كالقصر) قال : كالقصر العظيم ، وقوله (جمالات صفر) قال : قطع النحاس . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وهناد وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن عباس قال : سمعت ابن عباس يسأل عن قوله (إنها ترمى بشر كالقصر) قال : كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل ، فرفعه للشاء فنسميه القصر . قال : وسميته يسأل عن قوله (جمالات صفر) قال : حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال . ولفظ البخاري : كنا نعمل إلى الخشب ثلاثة أذرع وفوق ذلك فرفعه للشاء فنسميه القصر (كأنه جمالات صفر) حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أنه قرأ « كالقصر » بفتح القاف والصاد . وقال قصر النخل : يعني الأعناق . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا قال : كانت العرب في الجاهلية تقول : أقصروا لنا الحطب ، فيقطع على قدر الذراع والذراعين . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود في قوله (ترمى بشر كالقصر) قال : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (كالقصر) قال : هو القصر ، وفي قوله (جمالات صفر) قال : الإبل . وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال : سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله (هذا يوم لا ينطقون) - ولا تسمع إلا همسا - وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون - و- هاوهم اقرءوا كتابيه - فقال له : ويحك هل سألت عن هذا أجل قبلي ؟ قال لا ، قال : أما أنك لو كنت سألت هلكت ، أليس قال الله - وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون - قال بلى ، قال : فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) يقول : يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا .

تفسير سورة عم

وتسمى سورة النبأ ، وهي أربعون آية ، وقيل إحدى وأربعون آية

وهي مكية عند الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت (عم يتساءلون) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاهُ
أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧)
يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَأْبَا (٢٢) لَبِثِينَ فِيهَا
أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦)
إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ
كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) .

قوله (عم يتساءلون) أصله عن ما فادغمت النون في الميم ، لأن الميم تشاركها في الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف لتمييز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم ومم ونحو ذلك ، والمعنى : عن أي شيء يسأل بعضهم بعضا . قرأ الجمهور « عم » بحذف الألف لما ذكرنا ، وقرأ أبي وابن مسعود وعكرمة وعيسى بإثباتها ، ومنه قول الشاعر :

علاما قام يشتمني لئيم كخزير تمرغ في دمان

ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة ، وقرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف ، وروى ذلك عن ابن كثير قال الزجاج : اللفظ لفظ استفهام ، والمعنى تفخيم القصة كما تقول : أي شيء تريد : إذا عظمت شأنه . قال الواحدي : قال المفسرون : لما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت

وتلا عليهم القرآن ، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون : ماذا جاء به محمد وما الذى أنى به ؟ فأنزل الله (عم يتساءلون) قال القراء : التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل ، وقد يستعمل أيضا فى أن يتحدثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال . قال الله تعالى - وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لى قرين - الآية ، وهذا يدل على أنه التحدث ، ولفظ ما موضوع لطلب حقائق الأشياء وذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا ، فجعل الشيء العظيم الذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول ، ولهذا جاء سبحانه بلفظ ما . ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا وبينه فقال (عن النبأ العظيم) فأورده سبحانه أولا على طريقة الاستفهام مبهما لتوجهه إليه أذهانهم وتلفتت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب « عن النبأ العظيم » على مناجاة قوله - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالجاء والجورور متعلق بالفعل الذى قبله ، أو بما يدل عليه . قال ابن عطية : قال أكثر النحاة : عن النبأ العظيم متعلق يتساءلون الظاهر ، كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ، وقيل ليس بمتعلق بالفعل المذكور ، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير أعن النبأ العظيم ؟ فلزم أن يتعلق يتساءلون آخر مقدر ، وإنما كان ذلك النبأ : أى القرآن عظيما ، لأنه ينبي عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور . قال الضحاك : يعنى نبأ يوم القيامة ، وكذا قال قتادة ، وقد استدلل على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله (الذى هم فيه مختلفون) فإنهم اختلفوا فى القرآن ، فجعله بعضهم سمرا وبعضهم شعرا وبعضهم كهانة وبعضهم قال هو أساطير الأولين . وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره . ويمكن أن يقال إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الحملة ، فصداق به المؤمنون وكذب به الكافرون ، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيشية ، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والنزول ، ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه - قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون - ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتآباه عقولهم السخيفة . وأيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث ، فأثبت النصارى المعاد الروحاني ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني ، وفى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف . وفى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين والعذاب للعاصين ، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنهم بقوله - إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين - وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه ، بل شاكة فيه كما حكى الله عنهم بقوله - إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين - وما حكاها عنهم بقوله - وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى - فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة . وقد قيل إن الضمير فى قوله يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه ، فأما المسلم فيزداد يقينا واستعدادا وبصيرة فى دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية . قال الرازى : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون : ما هذا الذى يعدنا به من أمر الآخرة ، والموصول فى محل جر صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيما فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه (كلا سيعلمون) ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه إنما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل كلا بمعنى حقا ، ثم كرر الردع والزجر فقال (ثم كلا سيعلمون) للمبالغة فى التأكيد والتشديد فى الوعيد . قرأ الجمهور بالياء التحتية فى الفعلين على الغيبة . وقرأ الحسن وأبو العالقة وابن دينار وابن عامر فى رواية عنه بالفوقية على الخطاب . وقرأ الضحاك الأول بالفوقية

والثاني بالتحية . قال الضحاك : أيضا (كلا سيعلمون) يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم (ثم كلا سيعلمون) يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم ، وقيل بالعكس ، وقيل هو وعيد بعده وعيد ، وقيل المعنى (كلا سيعلمون) عند النزع ، (ثم كلا سيعلمون) عند البعث . ثم ذكر سبحانه بديع صنعه وعظيم قدرته ليعرفوا توحيده ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال (ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا) أى قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، والمهاد الوطاء والفراش كما فى قوله - الذى جعل لكم الأرض فراشا - قرأ الجمهور « مهادا » وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين « مهدا » والمعنى : أنها كالمهد للصبي وهو ما يهد له فينوم عليه . والأوتاد جمع وتد : أى جعلنا الجبال أوتادا للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى الخيام بالأوتاد ، وفى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث ، لا عن القرآن ، ولا عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قيل ، لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث (وخلقناكم أزواجا) معطوف على المضارع المنى داخل فى حكمه ، فهو فى قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا الأصناف : أى الذكور والإناث ، وقيل المراد بالأزواج الألوان ، وقيل يدخل فى هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير (وجعلنا نومكم سباتا) أى راحة لأبداتكم . قال الزجاج : السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه : أى جعلنا نومكم راحة لكم . قال ابن الأنبارى : جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم ، لأن أصل السبت القطع ، وقيل أصله التمدد ، يقال سبتت المرأة شعرها : إذا سلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق : أى ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد ، فسمى النوم سباتا ، وقيل المعنى : وجعلنا نومكم موتا ، والنوم أحد الموتين ، فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم تفارقه الروح ، ومنه قول الشاعر :

ومطوية الأقرب أما نهارها فسبت وأما ليلها فذميل

ومن هذا قوله - الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها - الآية ، وقوله - وهو الذى يتوفاكم بالليل - (وجعلنا الليل لباسا) أى نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس . وقال سعيد بن جبير والسدى : أى سكنا لكم ، وقيل المراد به ما يستتره عند النوم من اللحاف ونحوه ، وهو بعيد ، لأن الجمل وقع على الليل ، لا على ما يستتر به النائم عند نومه (وجعلنا النهار معاشا) أى وقت معاش ، والمعاش العيش ، وكل شئ يعاش به فهو معاش ، والمعنى : أن الله جعل لهم النهار مضيئا ليسبحوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه الله لهم من الرزق (وبنيينا فوقكم سبعا شدادا) يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام كما ورد ذلك (وجعلنا سراجا وهاجا) المراد به الشمس ، وجعل هنا بمعنى خلق ، وهكذا قوله (وجعلنا نومكم سباتا) وما بعده ، لأن هذه الأفعال قد تعدت إلى مفعولين فلا بد من تضمينها معنى فعل يتعدى لإيهما كالخلق والتصيير ونحو ذلك . وقيل إن الجمل بمعنى الإنشاء والإبداع فى جميع هذه المواضع ، والمراد به الإنشاء التكويني الذى بمعنى التقدير والتسوية . قال الزجاج : الوهاج الوقاد وهو الذى وهج ، يقال وهجت النار تهيج وديجا ووهجانا . قال مقاتل : جعل فيه نورا حرا ، والوهج يجمع النور والحرارة (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) المعصرات هى السحاب التى ينعصر بالماء ولم تمطر بعد ، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك . وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبي : هى الرياح ، والرياح تسمى معصرات ، يقال أعصرت الريح تعصر أعصارا : إذا أثارت العجاج . قال الأزهري : هى الرياح ذوات الأعاصير

وذلك أن الرياح تستدرّ المطر . وقال الفراء : المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر . قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح ، يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات ، والرياح تلتقي السحاب فيكون المطر . ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً ، ويكون المعنى : وأنزلنا من ذوات المعصرات ماءً ثجاجاً . قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتصر بالمطر وعصر القوم أي مطروا . قال المبرد : يقال سحاب معصر : أي ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء . وقال أبي بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات السموات والثجاج : المنصب بكثرة على جهة التتابع ، يقال ثجّ الماء : أي سال بكثرة ، وثجّه : أي أساله . قال الزجاج : الثجاج الصباب . قال ابن زيد : ثجاجاً كثيراً (لنخرج به حبا ونباتا) أي لنخرج بذلك الماء حبا يقات : كالحنطة والشعير ونحوهما ، والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النبات (وجنات ألفافا) أي بساين ملتفت بعضها ببعض لتشعب أغصانها ، ولا واحد للألفاف : كالأوزاع والأخفاف ، وقيل واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي . وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشریف وأشراف ، وروى عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء ونبت لف ، والجمع لف بضم اللام مثل حمر ، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف ، وقيل هو جمع ملتفة بجذف الزوائد . قال الفراء : الجنة مافية النخيل ، والفردوس مافية الكرم (إن يوم الفصل كان ميقاتا) أي وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب ، وسمى يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين خلقه ، وهذا شروع في بيان ما يتساءلون عنه من البعث ، وقيل معنى ميقاتا : أنه حدّ توقّت به الدنيا وتنتهى عنده ، وقيل حدّ للخلافة ينتهون إليه (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) أي يوم ينفخ في الصور ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث (فتأتون) أي إلى موضع العرض (أفواجا) أي زمرا زمرا ، وجماعات جماعات ، وهي جمع فوج ، وانتصاب (يوم ينفخ) على أنه بدل من يوم الفصل ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخرا عن النفخ ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ، وانتصاب أفواجا على الحال من فاعل تأتون ، والفاء في فتأتون فصيحة تدلّ على محذوف : أي فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا (وفتحت السماء فكانت أبوابا) معطوف على ينفخ ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي فتحت لنزول الملائكة (فكانت أبوابا) كما في قوله - ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا - وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب ، وقيل أبوابها طرقها ، وقيل تنحلّ وتنثر حتى تصير فيها أبواب ، وقيل إن لكل عبد بابين في السماء : باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب ، وظاهر قوله (فكانت أبوابا) أنها صارت كلها أبوابا ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة . قرأ ابن عامر وحمة والكسائي فتحت مخففا . وقرأ الباقر بالتشديد (وسيرت الجبال فكانت سرابا) أي سيرت عن أماكنها في الهواء ، وقلعت عن مقارّها ، فكانت هباءً منبثا يظنّ الناظر أنها سراب ، والمعنى : أن الجبال صارت كالأشياء كما أن السراب يظنّ الناظر أنه ماء ، وليس بماء ، وقيل معنى سيرت : أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله - وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب - وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ولكن الجمع بينها أن نقول : أول أحوالها الاندكاك ، وهو قوله - وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة - وثاني أحوالها أن تصير كالعن المنفوش كما في قوله - وتكون الجبال كالعن المنفوش - وثالث أحوالها أن تصير كالهباء ، وهو قوله - وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا - ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح كما في قوله - وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب - وخامس أحوالها أن تصير سرابا : أي

لا شيء كما في هذه الآية . ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال (إن جهنم كانت مرصادا) قال الأزهرى : المرصاد المكان الذى يرصد الراصد فيه العدو . قال المبرد : مرصادا يرصدون به : أى هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار . قال الحسن : إن على الباب رصدا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجىء بجواز حبس . وقال مقاتل : محبسا ، وقيل طريقا وممرًا . قال فى الصحاح : الراصد للشئ والراقب له يقال رصده يرصده رصدا ، والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد . قال الأصمعى : رصده أرصده ترقبته ، ومعنى الآية : أن جهنم كانت فى حكم الله وقضائه موضع رصده يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمر به ويأتى إليهم ، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكتر من جهنم انتظار الكفار . ثم ذكر من دى مرصد له فقال (للطاغين مآبا) أى مرجعا يرجعون إليه ، والمآب المرجع ، يقال آب يثوب : إذا رجع ، والطاغى هو من طغى بالكفر ، وللطاغين نعت لمرصادا متعلق بمحذوف ، ومآبا بدل من مرصادا ، ويجوز أن يكون للطاغين فى محل نصب على الحال من مآبا قدمت عليه لكونه نكرة ، وانتصاب (لاثين فيها) على الحال المقدرة من الضمير المستكن فى الطاغين . قرأ الجمهور « لاثين » بالالف . وقرأ حمزة والكسائى « لاثين » بدون ألف ، وانتصاب (أحقابا) على الظرفية : أى ما كثر فى النار مادامت الأحقاب ، وهى لاتنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهى جمع حقب بضمين ، وهو الدهر ، والأحقاب الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف ، قيل هو ثمانون سنة ، وحكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوما ، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب . وقال السدى : الحقب سبعون سنة . وقال بشير بن كعب : ثلثمائة سنة . وقال ابن عمر : أربعون سنة ، وقيل ثلاثون ألف سنة . قال الحسن : الأحقاب لا يدري أحدكم هى ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كالف سنة . وقيل الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والأولى ما ذكرناه أولا من أن المقصود بالآية التأييد لا التقييد . وحكى الواحدى : عن الحسن أنه قال : والله ما هى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ، ثم آخر ، ثم كذلك إلى الأبد ، وجملة (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميا وغساقا) مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون فى جهنم أو فى الأحقاب بردا ينفعهم من حرها ولا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميا ، وهو الماء الحار ، وغساقا وهو صديد أهل النار . ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين ، أو صفة للأحقاب ، والامتناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، ويجوز أن يكون متصلا من قوله (شرابا) وقال مجاهد والسدى وأبو عبيدة والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى : البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم ، ومنه قول الكندى :

بردت مراشفها على فصدتى عنها وعن تقيلها البرد

أى النوم . قال الزجاج : أى لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور . وقال الحسن وعطاء وابن زيد : بردا : أى روحا وراحة . قرأ الجمهور « غساقا » بالتخفيف . وقرأ حمزة والكسائى بتشديد السين ، وقد تقدم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما فى سورة ص (جزاء وفاقا) أى موافقا لأعمالهم ، وجزاء منتصب على المصدر ، ووافقا نعت له . قال الفراء والأخفش : جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ، قال الزجاج :

جوزوا جزاء وافق أعمالهم . قال الفراء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد . قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأثامهم الله بما يسوؤهم (إنهم كانوا لا يرجون حساباً) أى لا يرجون ثواب حساب . قال الزجاج : كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم ، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور (وكذبوا بآياتنا كذاباً) أى كذبوا بالآيات القرآنية ، أو كذبوا بما هو أعم منها تكديباً شديداً ، وفعال من مصادر التفعّل . قال الفراء : هى لغة فصيحة يمانية ، تقول كذبت كذاباً وخرقت القميص خرقاً . قال فى الصحاح : وكذبوا بآياتنا كذاباً هو أحد مصادر المشدّد لأن مصدره قد يحىء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعّل مثل - ومزقناهم كل ممزق - قرأ الجمهور « كذاباً » بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب بالتخفيف . وقال أبو على الفارسيّ التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكاذبة . وقرأ ابن عمر « كذاباً » بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب . قال أبو حاتم ونصبه على الحال . قال الزمخشريّ : وقد يكون يعنى على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، تقول : رجل كذاب كقولك حسان وبخال (وكل شيء أحصيناه كتاباً) قرأ الجمهور « وكل » بالانصب على الاشتغال : أى وأحصينا كل شيء أحصيناه . وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء ، وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وانتصاب كتاباً على المصدرية لأحصيناه لأن أحصيناه فى معنى كتبناه ، وقيل هو منتصب على الحال : أى مكتوباً ، قيل المراد كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، وقيل أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأول أولى لقوله - وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين - (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات . قال الرازى : هذه الفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالنوق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم ، ومن الزيادة فى عذابهم أنها كلما نصبت جلودهم بدّلهم جلوداً غيرها ، وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس (عن النبأ العظيم) قال : القرآن : وهذا مروى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وجعلنا سراجاً وهاجاً) قال : مضيناً (وأنزلنا من المعصرات) قال : السحاب (ماء ثجاجاً) قال : منصبا . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً (ثجاجاً) قال : منصبا . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً) قال : يبعث الله الريح ، فتحمل الماء فيمطر به السحاب ، فتدر كما تدرّ اللقحة ، والثجاج ينزل من السماء أمثال الغزالي (١) فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً . وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف عن قتادة قال : فى قراءة ابن عباس (وأنزلنا من المعصرات) بالرياح . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وجنات ألفافاً) قال : مائفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً فى الآية قال : يقول : التف بعضها ببعض . وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً فى قوله (وسيرت الجبال فكانت سراباً) قال : سراب الشمس الآل . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً (لا يثين فيها أحقاباً) قال : سنين . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال : سأل على بن أبى طالب هلال الهجرى ماتجدون الحقب فى كتاب الله ؟ قال : نجده ثمانين سنة كل سنة منها اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة . وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه عن ابن مسعود فى الآية قال : الحقب الواحد ثمانون سنة .

(١) الغزالي : جمع عزلاء ، وهو مصب الماء من الراوية ونحوها اه قاموس .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال : الحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم كالف سنة مما تعدون . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : الحقب ثمانون عاما اليوم منها كسدس الدنيا . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه . قال السيوطي : بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لاثنين فيها أحقابا) قال : الحقب ألف شهر ، والشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة وستون يوما كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف سنة . وأخرج البزار وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا ، والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوما ، واليوم ألف سنة مما تعدون » . قال ابن عمر : فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن مردويه عن عباد بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الحقب أربعون سنة » وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله (لاثنين فيها أحقابا) وقوله - إلا ما شاء ربك - إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب ، لأن الله يقول (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « في قوله (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميا) قال : قد انتهى حره (وغساقا) قد انتهى حره ، وإن الرجل إذا أدلى الإناء من فيه سقط فروة وجهه ، حتى يبقى عظاما تقعقع » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (جزاء وفاقا) قال : وافق أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها (فذوقوا فلي نزيدكم إلا عذابا) فهم في مزيد من عذاب الله أبدا .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ
صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ
اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ
الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَبًّا (٤٠) .

قوله (إن للمتقين مفازا) هذا شروع في بيان حال المؤمنين ، وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعد الله لهم من الشر ، والمفاز مصدر . بمعنى الفوز والظفر بالنعمة والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة مفازة تفاولا بالخلاص منها . ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال (حدائق وأعنابا) وانتصابهما على أنهما بدل من مفازا بدل اشتمال ، أو بدل كل من كل على طريق المبالغة يجعل نفس هذه الأشياء مفازة ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى ، وإذا كان مفازا بمعنى الفوز ، فيقدر مضاف محذوف : أي فوز حدائق ، وهي

جمع حديقة : وهي البستان المحوط عليه ، والأعنان جمع عنب : أي كروم أعنان (وكواعب أترابا) الكواعب جمع كاعبة : وهي الناهدة ، يقال : كعبت الحارية تكعب تكعبيا وكعبوا ، ونهدت تنهد نهودا ، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت : أي صارت ثديهن كالكعب في صدورهن . قال الضحاك : الكواعب العذارى . قال قيس بن عاصم :

وكم من حصان قد حوينا كريمة وكم كاعب لم تدر ما البؤس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعة :

وكان مجنى دون ما كنت أتى ثلاث شخوص كاعبات ومعصر

والأتراب : الأقران في السن ، وقد تقدم تحقيقه في سورة البقرة (وكأسا دهاقا) أي ممتلئة . قال الحسن وقتادة وابن زيد : أي مترعة مملوءة ، يقال أدهمت الكأس : أي ملأها ، ومنه قول الشاعر :

ألا أسقني صرفا سقاك الساق من مأها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد (دهاقا) متتابعة يتبع بعضها بعضا . وقال زيد بن أسلم (دهاقا) صافية ، والمراد بالكأس الإناء المعروف ، ولا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) أي لا يسمعون في الجنة لغوا ، وهو الباطل من الكلام ، ولا كذابا : أي ولا يكذب بعضهم بعضا . قرأ الجمهور « كذابا » بالتشديد ، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف ، ووافق الجماعة على التشديد في قوله « وكذبوا بآياتنا كذابا » المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك ، وقد قدمنا الخلاف في كذابا هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة ؟ (جزاء من ربك) أي جازاهم بما تقدم ذكره جزاء . قال الزجاج : المعنى جزاهم جزاء ، وكذا (عطاء) أي وأعطاهم عطاء (حسابا) قال أبو عبيدة : كافيا . وقال ابن قتيبة : كثيرا ، يقال أحسبت فلانا : أي أكثرت له العطاء ، ومنه قول الشاعر :

ونعطي وليد الحى إن كان جائعا ونحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة : أي نعطيه حتى يقول حسبي . قال الزجاج : حسابا : أي مايكفيهم . قال الأخفش : يقال أحسبني كذا : أي كفاني . قال الكلبي : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرة . وقال مجاهد : حسابا لما عملوه ، فالحساب بمعنى القدر : أي يقدر ماوجب له في وعد الرب سبحانه ، فإنه وعد للحسنة عشرة ، ووعد لقوم سبعمئة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لانهاية له ولا مقدار كقوله - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وقرأ أبو هاشم « حسابا » بفتح الحاء وتشديد السين : أي كفافا . قال الأصمعي : تقول العرب : حسبت الرجل بالتشديد : إذا أكرمته ، ومنه قول الشاعر : إذا أتاه ضيفه يحسبه . وقرأ ابن عباس « حسانا » بالنون (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن) . قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب والمفضل عن عاصم برفع (رب) و(الرحمن) على أن رب مبتدأ والرحمن خبره أو على أن رب خبر مبتدأ مقدّر : أي هو رب ، والرحمن صفة ، و(لا يملكون) خبر رب ، أو على أن رب مبتدأ ، والرحمن مبتدأ ثان ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول . وقرأ يعقوب في رواية عنه وابن عامر وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن رب بدل من ربك ، والرحمن صفة له . وقرأ ابن عباس وحمة والكسائي بخفض الأول على البدل ، ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال هذه القراءة أعلها ، فخفض رب لقربه

من ربك ، فيكون نعتا له ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره (لا يملكون منه خطابا) أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه . وقال الكسائي : لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه ، وقيل الخطاب الكلام : أى لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه ، دليله - لا تكلم نفس إلا بإذنه - وقيل أراد الكفار ، وأما المؤمنون فيشفعون . ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال على ما تقدم بيانه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررة لما تفيدته الربوبية من العظمة والكبرياء (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) الظرف منتصب بلا يتكلمون ، أو بلا يملكون ، وصنفًا منتصب على الحال : أى مصطفين ، أو على المصدرية : أى يصفون صفا ، وقوله (لا يتكلمون) فى محل نصب على الحال ، أو مستأنف لتقرير ما قبله .

واختلف فى الروح ؛ فقيل إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال ، وقيل هو جبريل قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبو صالح ومجاهد ، وقيل هم أشرف الملائكة قاله مقاتل بن حيان . وقيل هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيح . وقيل هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة . وقيل هم أرواح بنى آدم تقوم صفا وتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفى . وقيل إنه القرآن قاله زيد بن أسلم . وقوله (إلا من أذن له الرحمن) يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون ، وأن يكون منصوبا على أصل الاستثناء ، والمعنى : لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة ، أو لا يتكلمون إلا فى حق من أذن له الرحمن (و) كان ذلك الشخص ممن (قالوا صوابا) قال الضحاك ومجاهد : صوابا يعنى حقا . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وأصل الصواب السداد من القول والفعل . قيل لا يتكلمون : يعنى الملائكة والروح الذين قاموا صفا هيبة وإجلالا إلا من أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة ، وهم قد قالوا صوابا . قال الحسن : إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل . قال الواحدي : فهم لا يتكلمون : يعنى الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال فى الدنيا صوابا : أى شهد بالتوحيد ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى يوم قيامهم على تلك الصفة ، وهو مبتدأ وخبره (اليوم الحق) أى الكائن الواقع المتحقق (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) أى مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح ، لأنه إذا عمل خيرا قرّبه إلى الله ، وإذا عمل شرا باعده منه ، ومعنى (إلى ربه) إلى ثواب ربه قال قتادة : مآبا : سبيلا . ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) يعنى العذاب فى الآخرة ، وكل ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله - كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها - كذا قال الكلبي وغيره . وقال قتادة : هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين . قال مقاتل : هو قتل قريش ببدر ، والأول أولى لقوله (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) فإن الظرف إما بدل من عذاب أو ظرف لمضمر هو صفة له : أى عذابا كائنا (يوم ينظر المرء) أى يشاهد ما قدمه من خير أو شر ، وما موصولة أو استفهامية . قال الحسن : والمرء هنا هو المؤمن : أى يجد لنفسه عملا ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا ، وقيل المراد به الكافر على العموم ، وقيل أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، والأول أولى لقوله (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء ، والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعدّه الله له من أنواع العذاب ، والمعنى : أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق ، أو ترابا يوم القيامة . وقيل المراد بالكافر أبو جهل ، وقيل أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وقيل إبليس ، والأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ ، ولا ينفيه خصوص السبب كما تقدم غيرهم

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (إن للمتقين مفازا) قال : منتزها (وكواعب) قال : نواهد (أترابا) قال : مستويات (وكأسا دهاقا) قال : ممتلئا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (وكأسا دهاقا) قال : هي الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : يا غلام أسقنا وادهق لنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه دهاقا . قال دراكا . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : إذا كان فيها خمر فهي كأس ، وإذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رءوس وأيد وأرجل » ثم قرأ (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس (يوم يقوم الروح) قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : « الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجنات ومن الملائكة يسبح كل يوم اتى عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يحيى يوم القيامة صفا واحدا » . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال « إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله ، يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك ، ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) » . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله (يوم يقوم الروح) قال : يعنى حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا (وقال صوابا) قال : لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء ، فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجما من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابا ، فذلك حين يقول الكافر (ياليتني كنت ترابا) .

تفسير سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة ، هي خمس وأربعون آية ، وقيل بست وأربعون آية

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة النازعات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبْصُرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِنْآ لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) إِذَا كُنَّا عِظْمًا نَخِرَةً (١١)

قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ
 أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ
 الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
 الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع
 في القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات : يعنى الملائكة ، والعطف
 مع اتحاد الكل لتنزيل التغيرات الوصفى منزلة التغير الذاتي ، كما في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال السدسي (النازعات) هي النفوس حين تغرق
 في الصدور . وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفس . وقال قتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم :
 نزع إليه إذا ذهب ، أو من قولهم نزعت بالحبل : أي لأنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر . وبه قال أبو عبيدة
 والأخفش وابن كيسان . وقال عطاء وعكرمة : النازعات القسي تنزع بالسهم وإغراق النازع في القوس أن يمدّه
 غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل . وقال يحيى بن سلام : تنزع بين الكلا وتنفر ، وقيل أراد بالنازعات الغزاة
 الرماة ، وانتصاب (غرقا) على أنه مصدر بحذف الزوائد : أي إغراقا ، والناصب له ما قبله للملاقاة له في المعنى :
 أي إغراقا في النزاع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد ، أو على الحال : أي ذوات إغراق ، يقال أغرق في الشيء
 يغرق فيه : إذا أوغل فيه وبلغ غايته (و) معنى (الناشطات) أنها تنشط النفوس : أي تخرجها من الأجساد كما
 ينشط العقال من يد البعير : إذا حلّ عنه ، ونشط الرجل الداو من البئر : إذا أخرجها ، والنشاط الجذب بسرعة ،
 ومنه الأنشطة للعقدة التي يسهل حلها . قال أبو زيد : نشطت الحبل أنشطه نشطا عقدته ، وأنشطته : أي حلته ،
 وأنشطت الحبل : أي مددته . قال الفراء : أنشط العقال : أي حلّ ونشط : أي ربط الحبل في يديه . قال
 الأصمعي : بئر أنشاط : أي قرية القعر يخرج الداو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط ، وهي التي لا يخرج منها
 الدلو حتى ينشط كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان . وقال السدسي : هي النفوس حين تنشط
 من القدمين . وقال عكرمة وعطاء : هي الأوهاق التي تنشط السهام ، وقال قتادة والحسن والأخفش : هي
 النجوم تنشط من أفق إلى أفق : أي تذهب . قال في الصحاح : والناشطات نشطا : يعنى النجوم من برج إلى برج
 كالنور الناشط من بلد إلى بلد ، والهموم تنشط بصاحبها . وقال أبو عبيدة و قتادة : هي الوحوش حين تنشط من
 بلد إلى بلد . وقيل الناشطات لأرواح المؤمنين ، والنازعات لأرواح الكافرين ، لأنها تجذب روح المؤمن برفق
 وتجذب روح الكافر بعنف ، وقوله (نشطا) مصدر ، وكذا سبحا وسبقا (والسابحات) الملائكة تسبح في الأبدان
 لإخراج الروح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه . وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من

السبأ مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع في جريه . وقال مجاهد أيضا : السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم . وقيل هي الخيل السابحة في الغزو ، ومنه قول عنترة :

والخيل تعلم حين تسبح في حياض الموت سبحا

وقال قتادة والحسن : هي النجوم تسبح في أفلاكها كما في قوله - وكل في فلك يسبحون - وقال عطاء : هي السفن تسبح في الماء ، وقيل هي أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى الله (فالسباقات سبقا) هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف . قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء . وقال أبو روق : هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، وروى نحوه عن مجاهد . وقال مقاتل : هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . وقال الربيع : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى الله . وقال مجاهد أيضا : هو الموت يسبق الإنسان . وقال قتادة والحسن ومعمّر : هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضها . وقال عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد . وقيل هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار . قال الجرجاني : عطف السباقات بالفاء ، لأنها مسببة من التي قبلها : أي واللاتي يسبحن فيسبقن ، تقول قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت قام وذهب بالتواو لم يكن القيام سببا للذهاب . قال الواحدى : وهذا غير مطرد في قوله (فالمدبرات أمرا) لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبير . قال الرازى : ويمكن الجواب عما قاله الواحدى : بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض كقوله : قام زيد فذهب ، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوّض إليهم التدبير . ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب ، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية . والأولى أن يقال العطف بالفاء في المدبرات طوبى به ما قبله من عطف السباقات بالفاء ، ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته (فالمدبرات أمرا) قال القشيري : أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة . وقال الماوردى : فيه قولان : أحدهما الملائكة وهو قول الجمهور . والثاني أنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل . وفي تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبر طلوعها وأفولها . الثاني تدبر ما قضاه الله فيها من الأحزال . ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما والفاعل للتدبير في الحقيقة وإن كان هو الله عز وجل ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به . وقيل إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها مدبرات . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فهوكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فهوكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فهوكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف : أي والنازعات ، وكذا وكذا لتبعث . قال الفراء : وحذف لمعرفة السامعين به ، ويدل عليه قوله (إذا كنا عظاما نخرة) وقيل إن جواب القسم قوله (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) أي إن في يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ، لأن الكلام قد طال بينهما ، وقيل جواب القسم (هل أتاك حديث موسى) لأن المعنى : قد أتاك ، وهذا ضعيف جدا ، وقيل الجواب (يوم ترجف الراجفة) على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ لأن الفاء لا يفتح بها الكلام ، والأول أولى (يوم ترجف الراجفة) انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم ، أو

بإضمار اذكر ، والراجفة المضطربة ، يقال رجف يرجف : إذا اضطرب ، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد ، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، والرادفة : النفخة الثانية التي تكون عند البعث ، وسميت رادفة لأنها ردت النفخة الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين . وقال ابن زيد : الراجفة الأرض ، والرادفة الساعة . وقال مجاهد : الرادفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة ، وقيل الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة ، وأصل الراجفة الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط ، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا : إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها ، ومنه قول الشاعر :

أبالأراجيف يا ابن اللؤم توعدني وفي الأراجيف نخت اللؤم والخورا

ومحل (تتبعها الرادفة) النصب على الحال من الراجفة ، والمعنى : لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها (قلوب يومئذ واجفة) قلوب مبتدأ ، ويومئذ منصوب بواجفة ، وواجفة صفة قلوب ، وجملة (أبصارها خاشعة) خبر قلوب والراجفة المضطربة القليلة لما عاينت من أهوال يوم القيامة . قال جمهور المفسرين : أي خائفة وجليلة . وقال السدي : زائلة عن أماكنها ، نظيره - إذ القلوب لدى الحناجر - وقال المورج : قلقة مستوفرة . وقال المبرد : مضطربة ، يقال وجف القلب يجف وجيفا : إذا خفق كما يقال وجب يجب وجيبا ، والإيجاف : السير السريع ، فأصل الوجيف اضطراب القلب ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بني جمحجي وقومهم أكبادنا من ورائهم تجف

أبصارها خاشعة : أي أبصار أصحابها ، فحذف المضاف ، والخاشعة الذليلة ، والمراد أنها تظهر عليهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة كقوله - خاشعين من الذل - قال عطاء : يريد أبصار من مات على غير الإسلام ، ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث (يقولون إنا لمردودون في الحافرة) هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون : أي أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ، يقال رجع فلان في حافرته : أي رجع من حيث جاء ، والحافرة عند العرب اسم لأول الشيء وابتداء الأمر ، ومنه قولهم رجع فلان على حافرته : أي على الطريق الذي جاء منه ، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة : أي عند أول ما اتقوا وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشييه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة ، ومن هذا قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من سفه وعار

أي أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل بعد الشيب والصلع ، وقيل الحافرة : العاجلة ، والمعنى : إنا لمردودون إلى الدنيا ، وقيل الحافرة : الأرض التي تحفر فيها قبورهم ، ومنه قول الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا حتى يرد الناس في الحافره

والمعنى : إنا لمردودون في قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء ، وبه قال مجاهد . وقال ابن زيد : الحافرة النار ، واستدل بقوله (تلك إذا كرة خاسرة) . قرأ الجمهور «في الحافرة» وقرأ أبو حيوة «في الحفرة» (إذا كنا عظاما نخرة) أي بالية متفتتة ، يقال نخر العظم بالكسر : إذا بلى ، وهذا تأكيد لإنكار البعث : أي كيف نرد أحياء ونبعث إذا كنا عظاما نخرة ، والعامل في إذا مضمير يدل عليه مردودون : أي أننا كنا عظاما بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة . قرأ الجمهور «نخرة» وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «ناخرة» واختار القراءة

الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية : الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوي . قال أبو عمرو بن العلاء :
الناخرة التي لم تنخر بعد : أى لم تبل ولا بد أن تنخر . وقيل هما بمعنى ، تقول العرب : نخر الشيء فهو ناخر
ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك . قال الأخفش : هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن . قال الشاعر :

يظل بها الشيخ الذي كان بادنا يدب على عوج له نخرات

يعنى على قوائم عوج ، وقيل الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والناخرة التي فسدت كلها . وقال
مجاهد نخرة : أى مرفوعة كما فى قوله - رفاتا - ، وقد قرئ « إذا كنا » و « أنذا كنا » بالاستفهام وبعده . ثم ذكر
سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) أى رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من
الخسران ، والمعنى : أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد . وقيل معنى
خاسرة كاذبة : أى ليست بكائنة ، كذا قال الحسن وغيره . وقال الربيع بن أنس : خامرة على من كذب بها .
وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لن رجعنا بعد الموت لنخسرن بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار ،
والكرة الرجعة ، والجمع كرات . وقوله (فإنما هى زجرة واحدة) تعليل لما يدل عليه ماتقدم من استبعادهم
لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى : لا تستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة ، وكان ذلك الإحياء
والبعث ، والمراد بالزجرة الصيحة وهى النفخة الثانية التى يكون البعث بها . وقيل إن الضمير فى قوله « إنما هى »
راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها (فإذا هم بالساهرة) أى فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض ،
قال الواحدي : المراد بالساهرة وجه الأرض ، وظاهرها فى قول الجميع . قال الفراء : سميت بهذا الاسم لأن فيها
نوم الحيوان وسهرهم ، وقيل لأنه يسهر فى فلاتها خوفاً منها ، فسميت بذلك ، ومنه قول أبى كثير الهذلي :

يردون ساهرة كأن حيمها وغيمها أسداف ليل مظلم

وقول أمية بن أبى الصلت :

وفى لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة . قال فى الصحاح : الساهرة وجه الأرض ، ومنه قوله (فإذا هم بالساهرة) .
وقال : الساهرة أرض بيضاء ، وقيل أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها ، وقيل الساهرة الأرض السابعة يأتى
بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق . وقال سفيان الثوري : الساهرة أرض الشام . وقال قتادة : هى جهنم : أى
إذا هؤلاء الكفار فى جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم ، وجلة (هل أتاك حديث
موسى) مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تكذيب قومه وأنه يصيبهم مثل ما أصاب
من كان قبلهم بمن هو أقوى منهم ، ومعنى هل أتاك : قد جاءك وبلغك ، هذا على تقدير أن قد سمع من
قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه فى شأنهما فيكون المعنى على
الاستفهام : أى هل أتاك حديثه أنا أخبرك به (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) الظرف متعلق بحديث لا بأتاك
لاختلاف وقتيهما ، وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع ما فيه كفاية ، وقد تقدم الاختلاف بين
الفراء فى طوى فى سورة طه . والواد المقدس : المبارك المطهر . قال الفراء طوى واد بين المدينة ومصر . قال :
وهو معدول من طاو كما عدل عمر من عامر . قال : والصرف أحب إلى إذ لم أجد فى المعدول نظيراً له . وقيل
طوى معناه يارجل بالعبرانية ، فكأنه قيل يارجل اذهب ، وقيل المعنى : إن الوادى المقدس بورك فيه مرتين ،
والأول أولى . وقد مضى تحقيق القول فيه (اذهب إلى فرعون إنه طغى) قيل هو على تقدير القول ، وقيل هو

تفسير للنداء : أى ناداه نداء هو قوله اذهب . وقيل هو على حذف أن المفسرة ، ويؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب ، لأن فى النداء معنى القول ، وجملة (إنه طغى) تعليل للأمر أو أوجب الامثال : أى جاوز الحد فى العصيان والتكبر والكفر بالله (فقل) له (هل لك إلى أن تزكى) أى قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكى وهو التطهر من الشرك ، وأصله تزكى فحذفت إحدى التاءين . قرأ الجمهور « تزكى » بالتخفيف . وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى . قال أبو عمرو بن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفى الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به إلى ، والتقدير : هل لك رغبة أو هل لك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى ، ومثل هذا قولهم هل لك فى الخير ؟ يريدون هل لك رغبة فى الخير ، ومن هذا قول الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فانى بصير بما أعيى البطاسى جديما

(وأهديك إلى ربك فتخشى) أى أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الحشية على الهداية ، لأن الحشية لا تكون إلا من مهتد راشد (فأراه الآية الكبرى) هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعنى فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله فى غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال - إن كنت جئت بآية فأت بها - فعند ذلك أراه الآية الكبرى .

واختلف فى الآية الكبرى ما هى ؟ فقيل العصا ، وقيل يده ، وقيل فلق البحر ، وقيل هى جميع ما جاء به من الآيات التسع (فكذب وعصى) أى فلما أراه الآية الكبرى كذب بموسى وبما جاء به وعصى الله عز وجل فلم يطعه (ثم أدبر) أى تولى وأعرض عن الإيمان (يسمى) أى يعمل بالفساد فى الأرض ويجهل فى معارضة ما جاء به موسى ، وقيل أدبر هاربا من الحية يسمى خوفا منها . وقال الرازى : معنى (أدبر يسعى) أقبل يسعى ، كما يقال أقبل يفعل كذا : أى أنشأ يفعل كذا ، فوضع أدبر موضع أقبل لثلا يوصف بالاقبال (فحشر) أى فجمع جنوده للقتال والمحاربة ، أو جمع السحرة للمعارضة ، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع ، أو جمعهم لينعوه من الحية (فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) أى قال لهم بصوت عال ، أو أمر من ينادى بهذا القول . ومعنى (أنا ربكم الأعلى) أنه لارب فوق . قال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها وقال : أنا رب أصنامكم وقيل أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم . والأول أولى لقوله فى آية أخرى - ما علمت لكم من إله غيرى - (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) النكال نعت مصدر محذوف : أى أخذه أخذ نكال ، أو هو مصدر لفعل محذوف : أى أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار ونكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب أول عمره وآخره . وقال قتادة : الآخرة قوله « أنا ربكم الأعلى » والأولى تكذيبه لموسى . وقيل الآخرة قوله « أنا ربكم الأعلى » والأولى قوله - ما علمت لكم من إله غيرى - وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له : أى أخذه الله لأجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض : أى بنكال . ورجع الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال : لأن معنى أخذه الله : نكل الله به ، فأخرج من معناه لا من لفظه . وقال الفراء : أى أخذه الله أخذا نكالا : أى للنكال والنكال اسم لما جعل نكالا للغير : أى عقوبة له ، يقال نكل فلان بفلان : إذا عاقبه ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقبه ، ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله (والنازعات غرقا) قال : هي الملائكة تنزع روح الكفار (والناشطات نشطا) قال : هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها (والساجحات سبحا) هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض (فالسابقات سبقا) هي الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله (فالمدبرات أمرا) هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (والنازعات غرقا) قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار . وأخرج الحاكم وصححه عنه (والنازعات غرقا والناشطات نشطا) قال : الموت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن ميمون (والنازعات غرقا) قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله (والساجحات سبحا) قال : الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار ، قال الله : (والناشطات نشطا) أتدري ماهو ؟ قلت : يابني الله ماهو ؟ قال : كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » . وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكواء سأله عن (المدبرات أمرا) قال : هي الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره . وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن ابن عباس قال (المدبرات أمرا) ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمّن على الدّعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلّي عليه ويدلّي في خفّته . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (يوم ترجف الراجفة) قال : النفخة الأولى (تتبعها الراجفة) قال : النفخة الثانية (قلوب يومئذ واجفة) قال : خائفة (أثنا لمردودون في الحافرة) قال : الحياة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) يقول : مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (قلوب يومئذ واجفة) قال : وجلة متحركة . وأخرج عبد بن حميد عنه (أثنا لمردودون في الحافرة) قال : خلقا جديدا . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه سئل عن قوله (فإذا هم بالساهرة) فقال : الساهرة وجه الأرض ، وفي لفظ قال : الأرض كلها ساهرة ، ألا ترى قول الشاعر :

• صيد بحر وصيد ساهرة • وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا (هل لك إلى أن تزكى) قال : هل لك أن تقول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (فأخذه الله نكال الآخرة) قال : قوله (أنا ربكم الأعلى) والأولى قال : قوله (ما علمت لكم من إله غيري) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : كان بين كلمتيه أربعون سنة .

• أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنِيهَا (٢٧) رَفَعَ سَمُكَهَا فَسَوَّيَهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَيْهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ

يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ
عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا (٤٢) فِيمَ
أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهِيهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشِيهَا (٤٥) كَانَهُمْ
يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحِيَّةً (٤٦).

قوله (أنتم أشد خلقا أم السماء) أى أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفى تقديركم أم خلق السماء ،
والخطاب لكفار مكة ، والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت ، لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الحرم العظيم
وفىها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين الناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها
أول مرة ؟ ومثل هذا قوله سبحانه - لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس - وقوله - أو ليس الذى خلق
السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم - ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال (بناها رفع سمكها فسواها)
أى جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ، ورفع سمكها : أى أعلاه فى الهواء ، فقوله (رفع سمكها) بيان للبناء ،
يقال سمكت الشيء : أى رفعته فى الهواء وسمك الشيء سموكا : ارتفع . قال الفراء كل شيء حمل شيئا من البناء
أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسمام سامك : أى عال ، والسموكات : السموات : ومنه قول الفرزدق :
إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

قال البغوى : رفع سمكها : أى سققها . قال الكسائى والفراء والزجاج : تم الكلام عند قوله (أم السماء بناها)
لأنه من صلة السماء ، والتقدير : أم السماء التى بناها ، فحذف التى ، ومثل هذا الحذف جائز . ومعنى (فسواها)
فجعلها مستوية الخلق معدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ولا شقوق (وأغطش ليلها) الغطش
الظلمة : أى جعله مظلماً ، يقال غطش الليل وأغطشه الله ، كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله ، ورجل أغطش
وامرأة غطشى لا يهتديان . قال الراغب : وأصله من الأغطش ، وهو الذى فى عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى
لا يهتدى فيها ، والتغاطش التعامى . قال الأعشى :

ودهماء بالليل غطشى الفلاة يؤنسى صوت قيادها

وقوله : * وغامرهم مدلم غطش * . يعنى غمرهم سواد الليل ، وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل
يكون بغروب الشمس والشمس مضافة إلى السماء (وأخرج ضحاها) أى أبرز نهارها المضىء بإضاءة الشمس ،
وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهى منسوبة
إلى السماء (والأرض بعد ذلك دحاها) أى بعد خلق السماء ، ومعنى دحاها بسطها ، وهذا يدل على أن خلق الأرض
بعد خلق السماء ، ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم فى سورة فصلت من قوله - ثم استوى إلى السماء - بل
الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض ، وقد قدّمنا الكلام على هذا
مستوفى هنالك ، وقدّمنا أيضاً بحثاً فى هذا فى أول سورة البقرة عند قوله - هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً -

وذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع كما في قوله - عتل بعد ذلك زعيم - ، وقيل بعد بمعنى قبل كقوله - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر - أى من قبل الذكر ، والجمع الذى ذكرناه أولى ، وهو قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير . يقال دحوت الشيء أدحوه : إذا بسطته ، ويقال لعش النعامة أدحى لأنه مبسوط على الأرض ، وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبى الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطانها حتى التنادى

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صفرا ثقلا

دحاها فلما استوت شدّها بأيد وأرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال ، وقرأ الحسن وعمر بن ميمون وابن أبى عتبة وأبو حيوة وأبو السماك وعمر بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء (أخرج منها ماءها ومرعاها) أى فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون ، وأخرج منها مرعاها : أى النبات الذى يرعى ، ومرعاها مصدر ميمي : أى رعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى ، والجملة إما بيان وتفسير لدحاها ، لأن السكنى لا تتأق بمجرّد البسط بل لابد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب . وإما فى محل نصب على الحال (والجبال أرساها) أى أثبتّها فى الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لا تميد بأهلها . قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمر بن ميمون وأبو حيوة وأبو السماك وعمر بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء ، قيل ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل والمشرب (متاعا لكم ولأنعامكم) أى منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والإبل والغنم ، وانتصاب متاعا على المصدرية : أى متعكم بذلك متاعا ، أو هو مصدر من غير لفظه ، لأن قوله (أخرج منها ماءها ومرعاها) بمعنى متع بذلك ، أو على أنه مفعول له : أى فعل ذلك لأجل التمتع ، وإنما قال لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنه لهم ولأنعامهم ، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب (فإذا جاءت الطامة الكبرى) أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات . قال الحسن وغيره : وهى النفخة الثانية . وقال الضحاك وغيره : هى القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها . قال المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طم الفرس طميا : إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطم الماء : إذا ملأ النهر كله . وقال غيره : هو من طم السيل الركبة : أى دفنها ، والطم الدفن . قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى هى التى تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والفاء للدلالة على ترتب مابعداها على ما قبلها ، وجواب إذا قيل هو قوله - فأما من طغى - وقيل محذوف : أى فإن الأمر كذلك ، أو عاينوا ، أو علموا أو أدخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها ، وهو معنى « يومئذ يتذكر الإنسان » فإنه منصوب بفعل مضمر : أى أعنى يوم يتذكر ، أو يوم يتذكر يكون كيت وكيت . وقيل إن الظرف بدل من إذا ، وقيل هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الإنسان ماسعى : أنه يتذكر ماعمله من خير أو شر ، لأنه يشاهده ملونا فى صحائف عمله ، وما

مصدرية ، أو موصولة (وبرزت الجحيم لمن يرى) معطوف على جاءت ، ومعنى برزت : أظهرت إظهارا لا يخفى على أحد . قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ، وقيل (لمن يرى) من الكفار ، لا من المؤمنين ، والظاهر أن تبرز لكل راء ، فأما المؤمن فيعرف برويتها قدر نعمة الله عليه بالسلافة منها ، وأما الكافر فيزداد غما إلى غمه وحسرة إلى حسرته . قرأ الجمهور « لمن يرى » بالتحية ، وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن عليّ بالفوقية : أي لمن تراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يا محمد . وقرأ ابن مسعود « لمن رأى » على صيغة الفعل الماضي (فأما من طغى) أي جاوز الحد في الكفر والمعاصي (وآثر الحياة الدنيا) أي قدمها عن الآخرة ولم يستعد لها ولا عمل عملها (فإن الجحيم هي المأوى) أي مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : أنها منزله الذي ينزله ومأواه الذي يأوى إليه لا غيرها . ثم ذكر القسم الثاني من القسمين فقال (وأما من خاف مقام ربه) أي حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة . قال الربيع : مقامه يوم الحساب . قال قتادة : يقول إن لله عز وجل متما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند مواجهة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله - ولمن خاف مقام ربه جنتان - والأهل أولى (ونهى النفس عن الهوى) أي زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشبهها . قال مقاتل : هـ الرجل يهيم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها (فإن الجنة هي المأوى) أي المنزل الذي ينزله والمكان الذي يأوى إليه لا غيرها (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أي متى وقوعها وقيامها . قال الفراء : أي منتهى قيامها كرسو السفينة . قال أبو عبيدة : ومرسى السفينة حين تنتهي ، والمعنى : يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا في سورة الأعراف (فيم أنت من ذكرها) أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ، والمعنى : لست في شيء من علمها وذكرها إنما يعلمها الله سبحانه ، وهو إنكار ورد لسؤال المشركين عنها : أي فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه (إلى ربك منها) أي منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره ، وهذا كقوله - قل إنما علمها عند ربى - وقوله - إن الله عنده علم الساعة - فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها (إنما أنت منذر من يخشاها) أي يخوف من يخشى قيام الساعة ، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه ، وخص الإنذار بمن يخشى ، لأنهم المتفكرون بالإنذار وإن كان منذرا لكل مكلف من مسلم وكافر . قرأ الجمهور بإضافة « منذر » إلى ما بعده . وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وطلحة وابن محيصن وشيبة والأعرج وحيد بالتثوين ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو . قال الفراء : والتثوين وتركه في منذر صواب كقوله - بالغ أمره - وموهن كيد الكافرين - . قال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن تكون الإضافة للماضي ، نحو ضارب زيد أمس (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أي إلا قدر آخر نهار أو أوله ، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا ، كما قال - لم يلبثوا إلا ساعة من نهار - وقيل لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها . قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب ، يقولون : آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أول النهار . ومنه قول الشاعر :

نحن صبحنا عامرا في دارها • جردا تعادي طرفي نهارها • عشية الهلال أو سرارها

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (رفع سمكها) قال : بناها (وأغطش ليلها) قال : أظلم ليلها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (وأغطش ليلها) قال : وأظلم ليلها (وأخرج ضحاها) قال : أخرج نهارها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (والأرض بعد ذلك دحاها) قال : مع ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضا أن رجلا قال له : آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال : إنما أتيت من قبل رأيك ، قال : اقرأ - قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - حتى بلغ - ثم استوى إلى السماء - وقوله (والأرض بعد ذلك دحاها) قال : خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ، ثم خلق السماء ، ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء ، وإنما قوله (دحاها) بسطها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال (دحاها) أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما في يومين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الطامة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الساعة فنزلت (فيم أنت من ذكرها) » . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت « مازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله (فيم أنت من ذكرها إلى ربك منهاها) فانتهى فلم يسأل عنها » . وأخرج عبد ابن حميد والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت (فيم أنت من ذكرها إلى ربك منهاها) فكف عنها . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس . قال السيوطي بسند ضعيف : أن مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : متى الساعة استهزاء منهم ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) يعني مجيئها (فيم أنت من ذكرها) يعني ما أنت من علمها يا محمد (إلى ربك منهاها) يعني منتهى علمها . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : « كانت الأعراب إذا قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : إن يعيش هذا قامت عليكم ساعتكم » .

تفسير سورة عبس

وتسمى سورة السفرة ، وهي إحدى وأربعون ، أو اثنان وأربعون آية

وهي مكية في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة عبس بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ
الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى (٥) فَآتَتْ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى (٧) وَأَمَّا مَنْ
جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَآتَتْ عَنْهُ تَلْهَى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ

ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مَكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ
 بَرَرَةٍ (١٦) قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩)
 ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
 مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ
 شَقًّا (٢٦) فَانْبَثْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)
 وَفُكْهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَعَّا لَكُمُ وَلِأَنْعَمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ
 أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)
 وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا
 قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢).

قوله (عبس وتولى) أى كلف بوجهه وأعرض . وقرئ عبس بالتشديد (أن جاءه الأعمى) مفعول لأجله :
 أى لأن جاءه الأعمى ، والعامل فيه إما عبس أو تولى على الاختلاف بين البصريين والكوفيين فى النزاع هل
 المختار إعمال الأول أو الثانى ؟ .

وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية : أن قوما من أشرف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن
 يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، فأعرض عنه فنزلت ، وسيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء الله (وما يدريك
 لعله يزكى) التفت سبحانه إلى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن المشافهة أدخل فى العتاب : أى أى شىء
 يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة (لعله يزكى) مستأنفة لبيان أن له شأننا ينافى الإعراض عنه : أى لعله
 يتطهر بالذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك ، فالضمير فى لعله راجع إلى الأعمى ، وقيل هو راجع
 إلى الكافر : أى وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأول
 أولى . وكلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجو الزكى مما لا يجوز .
 قرأ الجمهور « أن جاءه الأعمى » على الخبر بدون استفهام ، ووجهه ما تقدم . وقرأ الحسن « أن جاءه » بالمد على
 على الاستفهام ، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عبس وتولى ، والتقدير أن جاءه الأعمى تولى
 وأعرض ، ومثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - وكذلك قوله
 فى سورة الكهف - ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا - وقوله (أو يذكر) عطف على يزكى داخل معه
 فى حكم الترجى : أى أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ (فتنفعه الذكرى) أى الموعظة . قرأ الجمهور
 « فتنفعه » بالرفع ، وقرأ عاصم ابن أبى إسحاق وعيسى والداوى وزر بن حبيش بالنصب على جواب الترجى (أما
 من استغنى) أى كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الإيمان وعما عندك من العلم (فأنت له تصدى) أى تصنى

لكلامه ، والتصدى الإصغاء . قرأ الجمهور « تصدى » بالتخفيف على طرح إحدى التامين تخفيفاً ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام ، وفي هذا مزيد تنفير له صلى الله عليه وآله وسلم عن الإقبال عليهم والإصغاء إلى كلامهم (وما عليك أن لا يزكى) أى أى شئ عليك فى أن لا يسلم ولا يهتدى ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ، ويجوز أن تكون ما نافية : أى ليس عليك بأس فى أن لا يزكى من تصدى له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدى . ثم زاد سبحانه فى معاتبته رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وأما من جاءك يسعى) أى وصل إليك حال كونه مسرعاً فى الحجى إليك طالباً منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله ، وجملة (وهو يخشى) حال من فاعل يسعى على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف (فأنت عنه تلهى) أى تتشاغل عنه وتعرض عن الإقبال عليه ، والتلهى التشاغل والتغافل ، يقال لهيت عن الأمر ألهى : أى تشاغلت عنه ، وكذا تلهيت ، وقوله (كلا) ردع له صلى الله عليه وآله وسلم عما عوتب عليه : أى لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير ، والتصدى للغنى والتشاغل به ، مع كونه ليس ممن يزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى والقبول للموعظة ، وهذا الواقع من النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به (إنها تذكرة) أى أن هذه الآيات أو السورة موعظة حتمها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك (فمن شاء ذكره) أى فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره . قيل الضميران فى إنها ، وفى ذكره للقرآن ، وتأنيث الأول لتأنيث خبره . وقيل الأول للسورة ، أو للآيات السابقة . والثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر ، وقيل إن معنى « فمن شاء ذكره » فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به ، والأول أولى . ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال (فى صحف) أى إنها تذكرة كائنة فى صحف ، فالجار والمجرور صفة لتذكرة ، وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة ، ومعنى (مكرمة) أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالصحف كتب الأنبياء ، كما فى قوله - إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى - ومعنى (مرفوعة) أنها رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة فى السماء السابعة . قال الواحدى : قال المفسرون : مكرمة يعنى اللوح المحفوظ (مرفوعة) يعنى فى السماء السابعة . قال ابن جرير : مرفوعة القدر والذكر ، وقيل مرفوعة عن الشبه والتناقض (مطهرة) أى منزهة لا يمسها إلا المطهرون . قال الحسن : مطهرة من كل دنس . قال السدى : مصانة عن الكفار لا يناوئنها (بأبلى سفرة) السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب ، والمعنى : أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ . قال الفراء : السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله ، من السفارة وهو السعى بين القوم ، وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومي ولا أمشي بغير أب نسيب

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر ، لأن معناه أنه بين ، يقال أسفر الصبح : إذا أضاء ، وأسفرت المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة : أى أصلحت بينهم . قال مجاهد : هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد . وقال قتادة : السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرءون الأسفار . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم . ثم أثبت سبحانه على السفرة فقال (كرام برة) أى كرام على ربهم كذا قال الكلبي . وقال الحسن : كرام عن المعاصي ، فهم يرفعون أنفسهم عنها . وقيل

يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجه ، أو قضى حاجته . وقيل يوثرون منافع غيرهم على منافعهم . وقيل يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم . والبررة جمع بار مثل كفرة وكافر : أى أتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم ، وقد تقدم تفسيره (قتل الإنسان ما أكفره) أى لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره ، وقيل عذب ، قيل والمراد به عتبة بن أبي لهب ، ومعنى ما أكفره التعجب من إفراط كفره . قال الزجاج : معناه اعجبوا أنتم من كفره ، وقيل المراد بالإنسان من تقدم ذكره في قوله - أما من استغنى - وقيل المراد به الجنس ، وهذا هو الأولى ، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولا أولياً . ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكف عن طغيانه فقال (من أى شيء خلقه) أى من أى شيء خلق الله هذا الكافر والاستفهام للتقرير . ثم فسر ذلك فقال (من نطفة خلقه) أى من ماء مهين ، وهذا تحقير له . قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين ، ومعنى (نقدّره) أى فسوّاه وهبّاه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواس ، وقيل قدّره أطواراً من حال إلى حال ، نطفة ثم حلقة إلى أن تمّ خلقه (ثم السبيل يسره) أى يسرّ له الطريق إلى الخير والشر . وقال السدى ومقاتل وعطاء وقتادة . يسره للخروج من بطن أمه ، والأول أولى . ومثله قوله - وهديناه النجدين - وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور : أى يسر السبيل يسره (ثم أماته فأقبره) أى جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله مما يلتقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفراء : وقال أبو عبيدة : جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه . وقال أقبره ، ولم يقل قبره ، لأن القابر هو الدافن بيده ، ومنه قول الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر

(ثم إذا شاء أنشره) أى ثم إذا شاء إنشاره أنشره : أى أحياه بعد موته ، وعلق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين ، بل هو تابع للمشيئة . قرأ الجمهور « أنشره » بالألف ، وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة نشره بغير ألف ، وهما لغتان فصيحتان (كلا لما يقضى ما أمره) كلا ردع وزجر للإنسان الكافر : أى ليس الأمر كما يقول . ومعنى : لما يقضى ما أمره ، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل المراد الإنسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير . قال الحسن : أى حقاً لم يعمل ما أمر به . وقال ابن فورك : أى كلا لما يقضى لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقضى له . قال ابن الأنبارى : الوقف على كلا قبيح والوقف على أمره جيد ، وكلا على هذا بمعنى حقاً . وقيل المعنى : لما يقضى جميع أفراد الإنسان ما أمره ، بل أخلّ به : بعضها بالكفر ، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله إلا القليل . ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده ليشكروها ، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بخدوئه فقال (فلينظر الإنسان إلى طعامه) أى ينظر كيف خلق الله طعامه الذى جعله سبباً لحياته ؟ وكيف هبّأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الآخروية ؟ قال مجاهد : معناه فلينظر الإنسان إلى طعامه : أى إلى مدخله ومخرجه ، والأول أول . ثم بين ذلك سبحانه فقال (أنا صببنا الماء صبا) قرأ الجمهور « إنا » بالكسر على الاستثناف . وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتغال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام ، فهو كالمشتمل عليه ، أو بتقدير لام العلة . قال الزجاج : الكسر على الابتداء والاستثناف ، والفتح على معنى البذل من الطعام . المعنى : فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبا ، وأراد بصب الماء المطر :

وقرأ الحسن بن علي بالفتح والإمالة (ثم شققنا الأرض شقا) أي شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لاثقا بما يخرج منه في الصغر والكبر والشكل والهيئة . ثم بين سبب هذا الشق وما وقع لأجله فقال (فأنبثنا فيها حبا) يعني الحبوب الذي يتغذى بها ، والمعنى : أن النبات لا يزال ينمو ويزايد إلى أن يصير حبا ، وقوله (وعنبا) معطوف على حبا : أي وأنبتنا فيها عنبا ، قيل وليس من اوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير في خلوه إنبات العنب عن شق الأرض ، والقضب : هو القت الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تعلف به اللواب ، ولهذا سمي قضا على مصدر قضبه : أي قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع . قال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة ، فإذا يبست فهي القت . قال في الصحاح : والقضبة والقضب الرطبة ، قال : والموضع الذي ينبت فيه مقضبة . قال القتيبي وثعلب : وأهل مكة يسمون العنب القضب . والزيتون هو ما يعصر منه الزيت ، وهو شجرة الزيتون المعروفة ، والنخل هو جمع نخلة (وحدائق غلبا) جمع حديقة ، وهي البستان ، والغلب العظام الغلاظ الرقاب . وقال مجاهد ومقاتل : الغلب الملتف بعضها ببعض ، يقال : رجل أغلب : إذا كان عظيم الرقة ، ويقال للأسد أغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعا . قال العجاج

مازلت يوم البين ألقى صلي والرأس حتى صرت مثل الأغلب

وجمع أغلب وغلباء غلب كما جمع أحمر وحمراء على حمر . وقال قتادة وابن زيد : الغلب النخل الكرام . وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : هي غلاظ الأوساط والخنوع . والفاكهة ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب والتين والحوخ ونحوها . والأب كل ما أنبت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلا وسائر أنواع المرعى ، ومنه قول الشاعر :

جسدنا قيس ونجد دارنا ولنا الأب بها والمسكر

قال الضحاك : الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض . وقال ابن أبي طلحة : هو الثمار الرطبة . وروى عن الضحاك أيضا أنه قال : هو التين خاصة ، والأول أولى . ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال (فإذا جاءت الصاخة) يعني صيحة يوم القيامة ، وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الأذان : أي تصمها فلا تسمع ، وقيل سميت صاخة لأنها يصيح لها الأسماك ، من قولك أصاخ إلى كذا أي استمع إليه ، والأول أصح . قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الأذان حتى تصمها بشدة وقعها ، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذة من الصك الشديد ، يقال صكه بالحجر : إذا صكه بها ، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أي فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه ، والظرف في قوله (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) إما بدل من إذا جاءت ، أو منصوب بمقدّر : أي أعنى ويكون تفسيراً للصاخة ، أو بدلا منها مبنى على الفتح ، وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة ، وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم ، وخطب فطيع (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أي لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم . وقيل إنما يفر عنهم حذرا من مطالبهم إياه بما بينهم ، وقيل يفر عنهم لثلا يروا ما هو فيه من الشدة ، وقيل لعلمه أنهم لا ينفعون ولا يغنون عنه شيئا كما قال تعالى - يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا - والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار . قال ابن قتيبة : يغنيه : أي يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال أغن عني وجهك : أي اصرفه . قرأ الجمهور « يغنيه » بالغين المعجمة . وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء : أي يهيمه ، من عناه الأمر إذا

أهمه (وجوه يومئذ مسفرة) وجوه مبثدا وإن كان نكوة لأنه في مقام التفصيل ، وهو من مسوغات الابتداء بالنكوة ، ويومئذ متعلق به ، ومسفرة خبره ، ومعنى مسفرة : مشرقة مضيئة ، وهي وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة ، يقال أسفر الصبح : إذا أضاء . قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء ، وقيل من قيام الليل (ضاحكة مستبشرة) أي فرحة بما نالته من الثواب الجزيل . ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال (ووجوه يومئذ عليها غبرة) أي غبار وكندورة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب (ترهقها قرة) أي يغشاها ويعلوها سواد وكسوف ، وقيل ذلة ، وقيل شدة ، والقتر في كلام العرب الغبار ، كذا قال أبو عبيدة ، وأنشد قول الفرزدق :

متوج برداء الملك يتبعه فوج ترى فوقه الرايات والقرا

ويُدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار . وقال زيد بن أسلم : القرة ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة ما انحطت إلى الأرض (أولئك) يعني أصحاب الوجوه (هم الكفرة الفجرة) أي الجامعون بين الكفر بالله والفجور ، يقال فجر : أي فسق ، وفجر : أي كذب ، وأصله الميل ، والفاجر المائل عن الحق .

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن المنذروا ابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : « أنزلت عيسى وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أتري بما أقول بأسا ؟ فيقول لا ، فني هذا أنزلت » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال : « جاء ابن أم مكتوم ، وهو يكلم أبي بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله (عيسى وتولى أن جاءه الأعمى) فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك يكرمه » . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام وكان يتصدى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي ، وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن قال : يا رسول الله علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعيسى في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله (عيسى وتولى) الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه وقال له : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء ؟ قال ابن كثير : فيه غرابة ، وقد تكلم في إسناده . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (بأيدي سفرة) قال : كتبه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (بأيدي سفرة) قال : هم بالنبطية القراء . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (كرام بررة قال : الملائكة : وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (ثم السبيل يسره) قال : يعني بذلك خروجه من بطن أمه يسره له ، وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) قال : إلى مدخله ومخرجه . وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس (فلينظر الإنسان إلى طعامه) قال : إلى خثرته . وأخرج ابن المنذر عنه (أنا صبينا

الماء صبا) قال : المطر (ثم شققنا الأرض شقا) قال : عن النبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (وقضبا) قال : الفصفصة يعنى القت (وحدائق غلبا) قال : طوالا (وفاكهة وأبا) قال : الثمار الرطبة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الحدائق كل ملتف ، والغلب ما غلظ ، والأب ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (وحدائق غلبا) قال : شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الأب الكلاء والمرعى . وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال : سئل أبو بكر الصديق عن الأب ماهو ؟ فقال : أى سماء تظلى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم ؟ . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد : أن رجلا سأل عمر عن قوله (وأبا) فلما رأهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة . وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى في الشعب والخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر (فأنبتنا فيها حبا وعنبا) إلى قوله (وأبا) قال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأب ؟ ثم رفض عصى كانت فى يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لاتدرى ما الأب ، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال الصاخة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (مسفرة) قال : مشرقة ، وفى قوله (ترهقها قرة) قال : تغشاها شدة وذلة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (قرة) قال : سواد الوجه .

تفسير سورة التكويد

وهى تسع وعشرون آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة (إذا الشمس كورت) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ

نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي
الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ
الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَاَيُّنَ
تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩).

قوله (إذا الشمس كورت) ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين ،
وأما عند الكوفيين والأخفش فهو مرتفع على الابتداء . والتكوير الجمع ، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه
يكورها . قال الزجاج : لفت كما تلف العمامة ، يقال : كورت العمامة على رأسي أكورها كورا ، وكورتها
تكويرا : إذا لففتها . قال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع . قال الربيع بن خثيم كورت : أى
رمى بها ، ومنه كورته فتكور : أى سقط . وقال مقاتل وقتادة والكلبي : ذهب ضوءها . وقال مجاهد :
اضمحلت . قال الواحدي : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن
التكوير إما بمعنى لف جرمها ، أو لف ضوءها ، أو الرمي بها (وإذا النجوم انكدرت) أى تهافتت وانقضت
وتناكرت ، يقال انكدر الطائر من الهواء : إذا انقض ، والأصل في الانكدار الانصباب . قال الخليل : يقال
انكدر عليهم القوم : إذا جاءوا أرسالا فانصبوا عليهم . قال أبو عبيدة : انصبت كما ينصب القاب . قال الكلبي
وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوما ، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض ، وقيل انكدارها طمس نورها
(وإذا الجبال سيرت) أى قامت عن الأرض ، وسيرت في الهواء ، ومنه قوله - ويوم نسير الجبال وترى الأرض
بارزة - . (وإذا العشار عطلت) العشار : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها الواحدة عشار ، وهى التى قد
أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع . وخص العشار لأنها أنفست مال عند العرب ،
وأعزّه عندهم ، ومعنى عطلت : تركت هملا بلا راع ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم ، قيل وهذا على وجه
المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشار ، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشار فى ذلك اليوم أو نوق عشار
لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة ، وسيأتى آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا فى
الدنيا . وقيل العشار السحاب ، فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله - والحاملات وقرا - وتعطيلها عدم إظهارها
قرأ الجمهور « عطلت » بالتشديد ، وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بالتخفيف . وقيل المراد أن الديار تعطل فلا تسكن ،
وقيل الأرض التى تعشر زرعها تعطل فلا تزرع (وإذا الوحوش حشرت) الوحوش ما توحش من دواب البر ،
ومعنى حشرت : بعثت حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجما من القرناء . وقيل حشرها موتها ، وقيل لأنها
مع نفرتها اليوم من الناس وتبددتها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم . قرأ الجمهور « حشرت » بالتخفيف ، وقرأ
الحسن وعمر بن ميمون بآتشديد (وإذا البحار فجرت) أى أوقدت فصارت نارا تضطرم . وقال القرطبي : ملئت

بأن صارت بحرا واحدا وكثر ماؤها ، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك . وقيل أرسل عذبتها على مالجها ومالجها على عذبتها حتى امتلأت ، وقيل فجرت فصارت بحرا واحدا . وروى عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية : يبيت ولا يبتى فيها قطرة ، يقال سمرت الحوض أسجره سجرا : إذا ملأته . وقال القشيري : هو من سمرت التنور أسجره سجرا : إذا أحميته . قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم : أوقدت فصارت نارا ، وقيل معنى سمرت أنها صارت حمراء كالدم ، من قولهم عين سجراء : أى حمراء . قرأ الجمهور « سمرت » بتشديد الجيم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها (وإذا النفوس زوجت) أى قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار . وقال عطاء : زوجت نفوس المؤمنين بالهور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشاطين . وقيل قرن كل شكل إلى شكله في العمل ، وهو راجع إلى القول الأول . وقيل قرن كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك أو سلطان كما في قوله - احشروا الذين ظلموا وأزواجهم - وقال عكرمة (وإذا النفوس زوجت) يعنى قرنت الأرواح بالأجساد . وقال الحسن : ألحق كل امرئ بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل قرنت النفوس بأعمالها (وإذا الموءودة سئلت) أى المدفونة حية ، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة ، يقال : وأد يائد وأدا فهو وائد ، والمفعول به موءود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن ، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت ، ومنه - ولا يثوده حفظهما - أى لا يثقله ، ومنه قول متم بن نويرة : * وموءودة مقبورة في مغارة *

ومنه قول الراجز : سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور « الموءودة » بهزة بين واوين ساكنين كالموءودة . وقرأ البزى في رواية عنه بهزة مضمومة ثم واو ساكنة . وقرأ الأعمش « المودة » بزنة الموزة . وقرأ الجمهور « سئلت » مبنيًا للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل . وقرأ الجمهور « قتلت » بالتخفيف مبنيًا للمفعول ، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير . وقرأ على وابن مسعود وابن عباس سألت مبنيًا للفاعل « قتلت » بفتح التاء الأخيرة . ومعنى سئلت على قراءة الجمهور : أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد . قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وفي مصحف أبي « وإذا الموءودة سألت بأى ذنب قتلتني » (وإذا الصحف نشرت) يعنى صحائف الأعمال نشرت للحساب ، لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها ، فيقول - مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو « نشرت » بالتخفيف . وقرأ الباقر بالتشديد على التكثير (وإذا السماء كشطت) الكشط : قلع عن شدة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش ، والكشط بالقاف لغة في الكشط ، وهى قراءة ابن مسعود . قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف . وقال الفراء : نزعت فطويت . وقال مقاتل : كشفت عما فيها . قال الواحدي : ومعنى الكشط رفعك شيئا عن شيء قد غطاه (وإذا الجحيم سعرت) أى أوقدت لأعداء الله إيقادا شديدا . قرأ الجمهور « سعرت » بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وحفص بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سمرها غضب الله وخطا يابني آدم (وإذا

الجنة أزلقت) أى قربت إلى المتقين وأدنىتهم منهم . قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها . وقال ابن زيد : معنى أزلقت تزينت . والأول أولى لأن الزلنى فى كلام العرب القرب . قيل هذه الأمور الاثنا عشر : ست منها فى الدنيا ، وهى من أول السورة إلى قوله (وإذا البحار سجرت) ، وست فى الآخرة وهى (وإذا النفوس وزجت) إلى هنا ، وجواب الجميع قوله (علمت نفس ما أحضرت) على أن المراد الزمان الممتد من الدنيا إلى الآخرة ، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كل جزء من أجزاء هذا الوقت الممتد ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف : يعنى ما عملت من خير أو شر ، ومعنى ما أحضرت : ما أحضرت من أعمالها ، والمراد حضور صحائف الأعمال ، أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصور بصور تدل عليها وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس ، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ، ويدل على هذا قوله - يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضرا - وقيل يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت ، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله (فلا أقسم بالخنس) لا زائدة كما تقدم تحقيقه وتحقيق مافيه من الأقوال فى أول سورة القيامة : أى فأقسم بالخنس ، وهى الكواكب ؛ وسميت الخنس ، من خنس : إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى ، وهى زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره أهل التفسير . ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس وتقطع المجرة . وقال فى الصحاح : الخنس الكواكب كلها ، لأنها تخنس فى المغيب ، أو لأنها تخفى نهارا ، أو يقال هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . قال الفراء : إنها الكواكب الخمسة المذكورة ، لأنها تخنس فى مجراها ، وتكنس : أى تستتر كما تكنس الأطباء فى المغار ، ويقال سميت خنسا لتأخرها ، لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم . يقال خنس عنه يخنس خنوسا إذا تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلفه ومضى عنه ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، ومعنى (الجوار) أنها تجرى مع الشمس والقمر ، ومعنى (الكنس) أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ؛ فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها ، وقيل خنوسها خفاؤها بالنهار ، وكنوسها غروبها . قال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لحفاؤها فلا ترى ، وتظهر بالليل وتكنس فى وقت غروبها . وقيل المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس . وقال عكرمة : الخنس البقر والكنس الظباء ، فهى تخنس إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها . وقيل هى الملائكة . والأول أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا ، والكنس مأخوذ من الكناس الذى يخفى فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة (والليل إذا عسعس) قال أهل اللغة : هو من الأضداد ، يقال عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس : إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله (والصبح إذا تنفس) قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ، كذا حكاه عنه الجوهري ، وقال الحسن : أقبل بظلامه . قال الفراء : العرب تقول عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس الليل : إذا أدبر ، وهذا لا ينافى ما تقدم عنه ، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على

أدبر ، وإن كان في الأصل مشتركا بين الإقبال والإدبار . قال المبرد : هو من الأضداد . قال : والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد ، وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره . قال ربيعة بن العجاج :

يا هند ما أسرع ما تعسعا من بعد ما كان في ترعرا

وقال امرؤ القيس :

عسعس حتى لو نشاء إذ دنا كان لنا من ناره مقتبس

وقوله : • الماء على الربع القديم تعسعا • (والصبح إذا تنفس) التنفس في الأصل : خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح إقباله ، لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفسا له مجازا . قال الواحدي : تنفس : أى امتد ضوءه حتى يصير نهارا ، ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس . وقيل (إذا تنفس) إذا انشق وانفلق ، ومنه تنفست القموس : أى تصدعت . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال (إنه لقول رسول كريم) يعنى جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلًا به ، وقيل المراد بالرسول في الآية محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأول أولى . ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال (ذى قوة عند ذى العرش مكين) أى ذى قوة شديدة في القيام بما كلف به ، كما في قوله - شديد القوى - ، ومعنى (عند ذى العرش مكين) أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكيمة عند الله سبحانه ، وهو في محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف فلما قدم صار حالا ، ويجوز أن يكون نعتا لرسول ، يقال مكن فلان عند فلان مكانة : أى صار ذا منزلة عنده ومكانة . قال أبو صالح : من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين سرادقا بغير إذن ، ومعنى (مطاع) أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه (ثم أمين) قرأ الجمهور بفتح « ثم » على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو مابعدة ، والمعنى : أنه مطاع في السموات أو أمين فيها : أى موثمن على الوحي وغيره ، وقرأ هشيم وأبو جعفر وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة ، وكان العطف بها للتراخي في الرتبة لأن مابعدا أعظم مما قبلها ، ومن قال : إن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمعنى : أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع بطيعه ، من أطاع الله أمين على الوحي (وما صاحبكم بمجنون) الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم ، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه (ولقد رآه بالأفق المبين) اللام جواب قسم محذوف : أى وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين : أى بمطلع الشمس من قبل المشرق ، لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين ، لأن من جهته ترى الأشياء . وقيل الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ، ومنه قول الشاعر :

أخذنا بأقطار السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه (ولقد رآه بالأفق المبين) مع أنه قد رآه غير مرة ، لأنه رآه هذه المرة في صورته له سمائة جناح ، قال سفيان : إنه رآه في أفق السماء الشرقي . وقال ابن بحر : في أفق السماء الغربي . وقال مجاهد : رآه نحو أجيا بنحو أجياد وهو مشرق مكة ، والمبين صفة للأفق قاله الزبيدي . وقيل صفة لمن رآه قاله مجاهد : ، وقيل معنى

الآية : ولقد رأى محمد ربه عز وجل ، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم (وما هو) أي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (على الغيب) يعني خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا علمه عن أهل مكة (بضنين) بمتهم : أي هو ثقة فيما يؤدّي عن الله سبحانه . وقيل بضنين ببخيل : أي لا يبخل بالوحي ، ولا يقصر في التبليغ ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء ؛ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي « بضنين » بالطاء المشالة : أي بمتهم ، والظنة التهمة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأنهم لم يبخلوا ولكن كذبوه . وقرأ الباقر بضنين بالضاد : أي ببخيل ، من ضننت بالشئ أضنت ضنا : إذا بخلت . قال مجاهد : أي لا يظن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقيل المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين ، والأول أولى (وما هو بقول شيطان رجيم) أي وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب . قال الكلبي : يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان : الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه . ثم بكتم سبحانه ووبخهم فقال (فأين تذهبون) أي أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قاله قتادة . وقال الزجاج : معناه أي طريق تسلكون أين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم ، يقال أين تذهب ، وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشام ، وخرجت العراق ، وانطلقت السوق : أي إليها . قال : سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة ، وأنشد لبعض بني عقيل :

تصبح بنا حنيفة إذ رأنا وأى الأرض تذهب بالصباح

تريد إلى أى الأرض تذهب ، فحذف إلى (إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم ، وقوله (لمن شاء منكم أن يستقيم) بدل من العالمين بإعادة الجار ومفعول المشيئة « أن يستقيم » أى لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) أى وما تشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه - وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله - وقوله - ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله - وقوله - إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء - والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (وإذا الشمس كورت) قال : أظلمت (وإذا النجوم انكدرت) قال : تغيرت . وأخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي مریم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في قوله (وإذا السماء كورت) قال : كورت في جهنم (وإذا النجوم انكدرت) قال : انكدرت في جهنم ، فكل من عبد من دون الله فهو في جهنم ، إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية قال : ست آيات من هذه السورة في الدنيا ، والناس ينظرون إليها ، وست في الآخرة (وإذا الشمس كورت) إلى (وإذا البحار سجرت) هذه في الدنيا والناس ينظرون إليها (وإذا النفوس زوجت) إلى (وإذا الجنة أزلقت) هذه في الآخرة . وأخرج ابن أبي الدنيا في الأهوال وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففرغت الجن إلى الإنس والانس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطيور والوحش فاجوا بعضهم في بعض (وإذا الوحوش حشرت) قال : اختلطت (وإذا العشار عطلت) قال : أهملها أهلها (وإذا البحار سجرت) قال : الجن

للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هر نار تأجج ، فبيناهم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة ، فبيناهم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتهم . وأخرج الفريابي وسعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وإذا الوحوش حشرت) قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب في المتفق والمفترق عنه في قوله (وإذا الوحوش حشرت) قال : يحشر كل شيء يوم القيامة حتى أن الدواب لتحشر . وأخرج البيهقي في البعث عنه أيضا في قوله (وإذا البحار سجرت) قال : تسجر حتى تصير نارا . وأخرج الطبراني عنه (سجت) قال : اختلط ماؤها بماء الأرض . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله (وإذا النفوس زوجت) قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، كذلك تزويج الأنفس : وفي رواية : ثم قرأ - احشروا الذين ظلموا وأزواجهم - وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعا . وأخرج البزار والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال : جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أعتق عن كل واحدة رقبة ، قال : إني صاحب إبل ، قال : فأهد عن كل واحدة بدنة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وإذا الجنة أزلقت) قال : قربت . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله (فلا أقسم بالخنس) قال : هي الكواكب تكنس بالليل وتكنس بالنهار فلا ترى . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (لا أقسم بالخنس) قال خيمته أنجم : زحل وعطارد والمشتري وبهرام والزهرة ، ليس شيء يقطع الحجرة غيرها . وأخرج ابن مردويه والخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في الآية قال : هي النجوم السبعة : زحل وبهرام وعطارد والمشتري والزهرة والشمس والقمر ، خنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود في قوله (بالخنس الجوار الكنس) قال : هي بقرة الوحش . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هي البقرة تكنس إلى الظل . وأخرج ابن المنذر عنه قال : تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : هي الظباء . وأخرج ابن راهويه وعبد ابن حميد والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله (والجوار الكنس) قال : هي الكواكب . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس (الخنس) البقر (والجوار الكنس) الظباء ، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت نظرها . وأخرج أبو أحمد الحاكم في الكنى عن أبي العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل ، فقال يا أمير المؤمنين ما (الجوار الكنس) فطعن عمر بمخضرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه ، فقال عمر : أحروري ؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتكم مخلوقا لأنحيت القمل عن رأسك ، وهذا منكرو ، فالحرورية لم يكونوا في زمن عمر ولا كان لهم في ذلك الوقت ذكر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله (والليل إذا عسعس) قال : إذا أدير (والصبح إذا تنفس) قال : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر . وأخرج الطبراني عنه (إذا عسعس) قال : إقبال سواده . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا

(إنه لقول رسول كريم) قال : جبريل . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود (ولقد رآه بالأفق المبين) قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إنما غنى جبريل أن محمداً رآه في صورته عند سدره المنهى . وأخرج ابن مردويه عنه بالأفق المبين ، قال : السماء السابعة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ (بظنين) بالضاد ، وقال : ببخيل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ (وما هو الغيب بظنين) بالظاء قال : ليس بمتهم . وأخرج الدارقطني في الأفراد والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب في تاريخه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ (بظنين) بالظاء . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت (لمن شاء منكم أن يستقيم) قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : كذبوا يا محمد (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) .

تفسير سورة الانفطار

هي تسع عشرة آية

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت (إذا السماء انفطرت) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النسائي عن جابر قال « قام معاذ فصلى العشاء فطوّل ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أفئتان أنت يا معاذ ؟ أين أنت عن سبع اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت » وأصل الحديث في الصحيحين ، ولكن بدون ذكر - إذا السماء انفطرت - وقد تفرّد بها النسائي ، وقد تقدّم في سورة التكويد حديث « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّيكَ فَعَدَّلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَتِيبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

قوله (إذا السماء انفطرت) قال الواحدى : قال المفسرون : انفطارها انشقاقها كقوله - ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا - والفطر الشق ، يقال فطرته فانقطر ، ومنه فطر ناب البعير : إذا طلع ، قيل والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها ، وقيل انفطرت لهيبة الله (وإذا الكواكب انتثرت) أى تساقطت متفرقة : يقال نثرت الشيء أنثره نثرا (وإذا البحار فجرت) أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا ، واختلط العذب منها بالمالح . وقال الحسن : معنى فجرت ذهب ماؤها وييسر ، وهذه الأشياء بين يدي الساعة كما تقدم فى السورة التى قبل هذه (وإذا القبور بعثرت) أى قلب ترابها وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال بعثر يبعثر بعثرة : إذا قلب التراب ، ويقال بعثر المتاع : قلبه ظهرا لبطن ، وبعثرت الحوض وبحثرته : إذا هدمته وجعلت أعلاه أسفله . قال الفراء : بعثرت أخرج ما فى بطنها من الذهب والفضة ، وذلك من أشرط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها ، ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال : (علمت نفس ما قدمت وأخرت) والمعنى : أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث ، لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والكلام فى أفراد نفس هنا كما تقدم فى السورة الأولى فى قوله - علمت نفس ما أحضرت - ومعنى (ما قدمت وأخرت) ما قدمت من عمل خير أو شر ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة ، لأن لها أجر ماسنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها ، وعليها وزر ماسنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها . وقال قتادة : ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة ، وقيل ما قدمت من فرض وأخر من فرض ، وقيل أول عمله وآخره ، وقيل إن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علما إجماليا ، لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلى فلأنما يحصل عند نشر الصحف (يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) هذا خطاب الكفار : أى ما الذى غرك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذى تفضل عليك فى الدنيا بإكمال خلقك وحواسك ، وجعلك عاقلا فاهما ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التى لا تقدر على جحد شيء منها . قال قتادة : غره شيطانه المسلط عليه . وقال الحسن : غره شيطانه الخبيث ، وقيل حمقه وجهله ، وقيل غره عفو الله إذا لم يعاجله بالعقوبة أول مرة . كذا قال مقاتل (الذى خلقك فسواك فعدلك) أى خالقك من نطفة ولم تك شيئا ، فسواك رجلا تسمع وتبصر وتعقل ، فعدلك : جعلك معتدلا . قال عطاء : جعلك قائما معتدلا حسن الصورة . وقال مقاتل : عدل خلقك فى العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى : عدل بين ما خلق لك من الأعضاء . قرأ الجمهور « فعدلك » مشددا ، وقرأ عاصم وحمة والكسائى بالتخفيف ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى . قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليها قوله - لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم - ومعنى القراءة الأولى : أنه سبحانه جعل أعضائه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى القراءة الثانية : أنه صرفه وأماله إلى أى صورة شاء ، إما حسنا وإما قبيحا ، وإما طويلا وإما قصيرا (فى أى صورة ماشاء ركبك) فى أى صورة متعلق بركبك ، وما مزيدة ، وشاء صفة لصورة : أى ركبك فى أى صورة شاءها من الصور المختلفة ، وتكون هذه الجملة كالبيان لقواه (فعدلك) والتقدير : فعدلك ركبك فى أى صورة شاءها ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال : أى ركبك حاصلا فى أى صورة . ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدلك . واعتراض عليه بأن أى لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها . قال مقاتل والكلبي ومجاهد : فى أى شبه من أب أو أم أو خال أو عم . وقال مكحول : إن شاء ذكر وإن شاء أنثى ، وقوله (كلا) للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به والمعاصى له ، ويجوز أن يكون بمعنى حقا ، وقوله (بل تكذبون بالدين) لإضراب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل : بعد الردع وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل

تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء ، أو بدين الإسلام . قال ابن الأنباري : الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى كلابيخ ، والمعنى : بل تكذبون يا أهل مكة بالدين : أي بالحساب ، وبل لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوما عندهم وإن لم يجر له ذكر . قال الفراء : كلابيخ ليس الأمر كما غررت به . قرأ الجمهور « تكذبون » بالفوقية على الخطاب . وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحذية على الغيبة ، وجملة (وإن عليكم لحافظين) في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون : أي تكذبون والحال أن عليكم من يدفع تكذبيكم ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذبيهم ، والحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها في الصحف . ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ، وجملة (يعلمون ما تفعلون) في محل نصب على الحال من ضمير كاتبين ، أو على النعت ، أو مستأنفة . قال الرازي : والمعنى التعجيب من حالهم كأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى - عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - . ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سبقت له ، وهي كقوله سبحانه - فريق في الجنة وفريق في السعير - وقوله - يصلونها يوم الدين - صفة للجحيم ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ما حالهم ؟ فقيل (يصلونها يوم الدين) أي يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ، ومعنى يصلونها : أنهم يلزمونها مقاسين لوجهها وحرها يومئذ . قرأ الجمهور « يصلونها » مخففا مبنيا للفاعل ، وقرئ بالتشديد مبنيا للمفعول (وما هم عنها بغائبين) أي لا يفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها ، بل هم فيها ، وقيل المعنى : وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرها في قبورهم . ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين) أي يوم الجزاء والحساب ، وكرره تعظيما لقدره وتفخيما لشأنه ، وتهويلا لأمره كما في قوله - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - و - الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة - والمعنى : أي شيء جعلك داريا ما يوم الدين . قال الكلبي : الخطاب للإنسان الكافر . ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع « يوم » على أنه بدل من يوم الدين ، أو خبر مبتدأ محذوف . وقرأ أبو عمرو في رواية « يوم » بالتنوين ، والقطع عن الإضافة . وقرأ الباقر بفتحها على أنها فتحة إعراب بتقدير أعني أو اذكر ، فيكون مفعولا به ، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين ، وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه بدل من يوم الدين . قال الزجاج : يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه مبني على الفتح لإضافته إلى قوله (لا تملك) وما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح ، وإن كان في موضع رفع ، وهذا الذي ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي ، وأما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسي والفراء وغيرهما ، والمعنى : أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرر (والأمر يومئذ لله) وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنا ما كان . قال مقاتل : يعني لنفس كافرة شيئا من المنفعة . قال قتادة : ليس ثم أحد يقضى شيئا ، أو يصنع شيئا إلا الله رب العالمين ، والمعنى : أن الله لا يملك أحدا في ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم في الدنيا ، ومثل هذا قوله - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله (وإذا البحار فجرت) قال : بعضها في بعض ، وفي قوله (وإذا القبور بعثرت) قال : بحت . وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله (علمت نفس ما قدمت وأخرت) قال : ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، أو سنة سيئة تعمل بعده ، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « من استنّ خيرا فاستنّ به فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استنّ شرا فاستنّ به فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم ، وتلا حذيفة (علمت نفس ما قدمت وأخرت) » . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية (ما غرك ربك الكريم) قال : غره والله جهله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره .

تفسير سورة المطففين

هي ست وثلاثون آية

قال القرطبي : وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ، ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وقال مقاتل : أيضا هي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقاتل : هي مدنية إلا ثمان آيات من قوله (إن الذين أجمعوا) إلى آخرها . وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المطففين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الشعب . قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَذْرِيكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ

رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (٢٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧).

قوله (ويل للمطففين) ويل مبتدأ ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ، واو نصب لحاز . قال مكى والمختار : في ويل وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافا أو معرّفا كان لاختيار فيه النصب نحو قوله - ويلكم لا تفترؤا - وللمطففين خبره ، والمطفف المنقص ، وحقيقته الأخذ في الكيل أو الوزن شيئا طفيفا : أى نذرا حقيرا . قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو التقليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للذى ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف . قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف الذى ينقص في الكيل والوزن . والمرد بالويل هنا شدة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشر الشديد ، أو هو واد في جهنم . قال الكلبي : قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وهم يسيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فنزلت هذه الآية . وقال السدي : قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، وكان بها رجل يقال له أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية . قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا . ثم بين سبحانه المطففين من هم ؟ فقال (الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون) أى يستوفون الاكتيال والأخذ بالكيل . قال الفراء : يريد اکتالوا من الناس ، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان ، يقال اکتلت منك : أى استوفيت منك ، وتقول اکتلت عليك : أى أخذت ماعليك . قال الزجاج : إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اترنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر . قال الواحدي : قال المفسرون : يعنى الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال ، ومثله نصحتك ونصحت لك ، كذا قال الأخفش والكسائي والفراء . قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدة والمدين إلى الموضع المقبل . قال : وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيدا : أى توكيدا للضمير المستكن في الفعل ، فيجوز الوقف على كالوا أو وزنوا . قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلهما جرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا ، ثم يقول هم يخسرون . قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما الخط ، ولذلك كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف . والأخرى أنه يقال : كانتك ووزنتك بمعنى : كنت لك ووزنت لك وهو كلام عربى ؛ كما يقال صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك ، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك . وقيل هو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون : أى وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم ، ومعنى يخسرون : ينقصون كقوله - ولا تخسروا الميزان - والعرب تقول : خسرت الميزان وأخسرته : ثم خوفهم سبحانه فقال (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون) والجملة مستأنفة مسوقة لتحويل مفعلوه من التطفيف وتفضيحه والتعجيب من حالهم في الاجترار عليه ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المطففين ، والمعنى : أنهم لا يخطر ببالهم أنهم مبعوثون فسئلواون

غما يفعلون . قيل والظن هنا بمعنى اليقين : أى لا يوقن أولئك ، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن ، وقيل الظن على بابه ، والمعنى : إن كانوا لا يستيقنون البعث ، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ويتركوا ما ينجشون من عاقبته . واليوم العظيم هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ، ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال (يوم يقوم الناس لرب العالمين) انتصاب الظرف بمبعوثون المذكور قبله ، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون . أى يبعثون يوم يقوم الناس ، أو على البديل من محل ليوم ، أو بإضمار أعنى ، أو هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو فى محل جر على البديل من لفظ ليوم ، وإنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل . قال الزجاج : يوم منصوب بقوله مبعوثون ، المعنى : ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ، ومعنى يوم يقوم الناس : يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين ، أو لجزائه ، أو لحسابه ، أو لحكمه وقضائه . وفى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطييف ، ومزيد إثمه وفظاعة عقابه . وقيل المراد بقوله (يوم يقوم الناس) قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم ، وقيل المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد ، وقيل المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء ، والأول أولى . قوله (كلا) هى للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده . ثم استأنف فقال (إن كتاب الفجار لى سجين) وعند أبى حاتم أن كلا بمعنى حقا متصلة بما بعدها على معنى : حقا إن كتاب الفجار لى سجين ، وسجين هو ما فسر به سبحانه من قوله (وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم) فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم : أى مسطور ، قيل هو كتاب جامع لأعمال الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم له . وقال قتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب : إنه صخرة تحت الأرض السابعة ثقل ، فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وبه قال مجاهد ، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير : محل كتاب مرقوم . وقال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج (لى سجين) لى حبس وضيق شديد ، والمعنى : كأنهم فى حبس ، جعل ذلك دليلا على خسارة منزلاتهم وهوانها . قال الواحدى : ذكر قوم أن قوله (كتاب مرقوم) تفسير لسجين ، وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب فى شيء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله (إن كتاب الفجار) على تقدير هو كتاب مرقوم : أى مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون : أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لى ذلك الكتاب المدون للقبائح المختص بالشر ، وهو سجين . ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه ، فقال (وما أدراك ما سجين) ثم بينه بقوله (كتاب مرقوم) . قال الزجاج : معنى قوله (وما أدراك ما سجين) ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك . قال قتادة : ومعنى مرقوم : رقم لهم بشر كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر . وكذا قال مقاتل . وقد اختلفوا فى نون سجين ، فقيل هى أصلية واشتقاقه من السجن ، وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق ، من الخمر والسكر والفسق . وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج . قال الواحدى : وهذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجيئا . ويحاج عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة ، وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجيئا

وقيل النون بدل من اللام ، والأصل سجيل ، مشتقا من السجل ، وهو الكتاب . قال ابن عطية : من قال إن سجيئا موضع فكتاب مرفوع على أنه خبر إن ، والظرف وهو قوله (لى سجين) ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب ،

فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسرا لسجين ما هو ؟ كذا قال . قال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة . قال الشاعر :

سأرقم بالماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم

(ويل يومئذ للمكذبين) هذا متصل بقوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل . ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال (الذين يكذبون بيوم الدين) والموصول صفة للمكذبين ، أو بدل منه (وما يكذب به إلا كل معتد أثم) أى فاجر جائر متجاوز فى الإثم منكم فى أسبابه (إذا تتلى عليه آياتنا) المنزلة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قال أساطير الأولين) أى أحاديثهم وأباطيلهم التى زخرفوها . قرأ الجمهور إذا تتلى بفوقيتين . وقرأ أبو حيوة وأبو السماك والأشهب العقيل والسلمى بالتحية ، وقوله (كلا) للردع والزجر للمعتدى الأثم عن ذلك القول الباطع وتكذيب له ، وقوله (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) بيان للسبب الذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين . قال أبو عبيدة : ران على قلوبهم : غلب عليها رينا وريونا ، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك . قال الفراء : هو أنها كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . قال مجاهد : القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه ، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين . ثم قرأ هذه الآية . قال أبو زيد : يقال قدرين بالرجل رينا : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به . وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يسود القلب من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والإقفال أشد من الطبع . قال الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين . ثم كرر سبحانه الردع والزجر فقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقيل كلا بمعنى حقا : أى حقا لإنهم ، يعنى الكفار عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبدا . قال مقاتل : يعنى أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم . قال الحسين بن الفضل : كما حجبتهم فى الدنيا عن توحيد حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى فى القيامة ، ولو لا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة . وقال جل ثناؤه - وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه . وقيل هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك . وقال قتادة وابن أبى مليكة : هو أن لا ينظر إليهم برحمته ولا يزيكهم . وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان (ثم إنهم لصالوا بالحجيم) أى داخلوا النار وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخى الرتبة ، لأن صلى الحجيم أشد من الإهانة وحرمان الكرامة (ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) أى تقول لهم خزنة جهنم تبكيئا وتوبيخا : هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا فانظروه وذوقوه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال (يوم يقوم الناس لرب العالمين) حتى يغيب أحدهم فى رشحته إلى أنصاف أذنيه » . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية « (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال : فكيف إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » . وأخرج أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهن ذلك على المؤمن كتدلى الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا . وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنه قال : يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة ؟ قال : ألف سنة لا يؤذن لهم . وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله (كلا إن كتاب الفجار لى سجين) قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، فيبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين ، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم ويوضع تحت خد إبليس . أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (سجين) أسفل الأرضين . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جب في جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح » . قال ابن كثير : هو حديث غريب منكر لا يصح . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (سجين) الأرض السابعة السفلى . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه والطبراني والبيهقي في البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابني فأقرته منى السلام ، فقال : غفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حين شاءت ، وإن نسمة الكافر في سجين ؟ قال : بلى ، قالت : فهو ذلك » . وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ (١٨) وَمَا أَذْرِيكَ مَا عَلَيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠)
يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتْمُهُ مِنْسِكٌ وَفِي ذَلِكَ
فَلْيَتَنَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ
الَّذِينَ أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)
وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)

وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ (٢٢) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٢٤) عَلَى
الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٥) هَلْ ثُبَّ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢٦).

قوله (كلا) للردع والزجر عما كانوا عليه ، والتكرير للتأكيد ، وجملة (إن كتاب الأبرار لى عليين) مستأنفة لبيان ماتضمنته ، ويجوز أن يكون كلا بمعنى حقا ، والأبرار هم المطيعون ، وكتابهم صحائف حسناتهم . قال الفراء : عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له ، ووجه هذا أنه منقول من جمع على من العلو . قال الزجاج : هو إعلاء الأمكنة . قال الفراء والزجاج : فأعرب كل عراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين وعشرين وقسرين ، قيل هو علم لديوان الخير الذى دون فيه ماعمله الصالحون . وحكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة . قال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وقال الضحاك : هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شىء من أمر الله لا يعدوها ، وقيل هو الجنة . وقال قتادة أيضا : هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش العلى ، وقيل إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى كما يقال فلان فى بنى فلان : أى فى جملتهم (وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم) أى وما أعلمك يا محمد أى شىء عليون على جهة التفضيم والتعظيم لعليين ، ثم فسره فقال (كتاب مرقوم) أى مسطور ، والكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله (وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم) وجملة (يشهده المقربون) صفة أخرى لكتاب ، والمعنى : أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ، وقيل يشهدون بما فيه يوم القيامة . قال وهب وابن إسحاق : المقربون هنا إسرافيل ، فإذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلأأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها . ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال (إن الأبرار لى نعم) أى إن أهل الطاعة لى تنعم عظيم لا يقادر قدره (على الأرائك ينظرون) الأرائك : الأسرة التى فى الحجال ، وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة . قال الحسن : ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن ، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير . ومعنى (ينظرون) أنهم ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات ، كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار ، وقيل ينظرون إلى وجهه وجلاله (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أى إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والرونق ، والخطاب لكل راء يصلح لذلك ، يقال أنضر النبات : إذا أزهى ونور . قال عطاء : وذلك أن الله زاد فى جمالهم وفى ألوانهم مالا يصفه واصف . قرأ الجمهور « تعرف » بفتح الفوقية وكسر الراء ، ونصب نضرة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وطلحة وابن أبى إسحاق بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ، ورفع نضرة بالنيابة (يسقون من رحيق مختوم) قال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : الرحيق من الخمر مالا غش فيه ولا شىء يفسده ، والمختوم الذى له ختام . وقال الخليل : الرحيق أجود الخمر . وفى الصحاح الرحيق صفرة الخمر . وقال مجاهد : هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهد (مختوم) مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى : أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار . وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى : ختامه آخر طعمه ، وهو معنى قوله (ختامه مسك) أى آخر طعمه ريع المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ربحه كريح المسك . وقيل مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته . والحاصل أن المختوم والختم

إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره ، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه .
قرأ الجمهور « ختامه » وقرأ على « علقمة وشقيق والضحاك وطاووس والكسائي » خاتمه « بفتح الخاء والتاء وألف
بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمه مسكا : أى آخره ، والخاتم والختام يتقاربان
في المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء قال في الصحاح : والختام الطين الذي يختم به ، وكذا
قال ابن زيد . قال الفرزدق :

وبن بجاني مصرعات وبت أفض أغلاف الختام

(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) أى فليرغب الراغبون ، والإشارة بقوله « ذلك » إلى الرحيق الموصوف بتلك
الصفة ، وقيل إن فى بمعنى إلى : أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل كما فى قوله - لمثل هذا فليعمل العاملون -
وأصل التنافس التشاجر على الشيء والتنازع فيه ، بأن يحب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه ، يقال
نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة : أى ظننت به ولم أحب أن يصير إليه . قال البغوى : أصله من الشيء النفيس
الذى تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه ، وينفس به على غيره : أى يضمن به . قال عطاء : المعنى
فليستبق المستبقون . وقال مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون ، وقوله (ومزاجه من تسنيم) معطوف على
(ختامه مسك) صفة أخرى لرحيق : أى ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم ، وهو شراب ينصب عليهم من علو ، وهو
أشرف شراب الجنة ، وأصل التسنيم فى اللغة الارتفاع ، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسفل ، ومنه سنام البعير
لعلوه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور ، ثم بين ذلك فقال (عينا يشرب بها المقربون) وانتصاب عينا على المدح .
وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن تكون عينا حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقرله (يشرب
بها) وقال الأخفش : إنها منصوبة بيسقون : أى يسقون عينا ، أو من عين . وقال الفراء : إنها منصوبة بتسنيم
على أنه مصدر مشتق من السينام كما فى قوله - أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتما - والأول أولى ، وبه قال المبرد .
قيل والباء فى بها زائدة : أى يشربها ، أو بمعنى من : أى يشرب منها . قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من
تحت العرش ، قيل يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين . ثم ذكر سبحانه بعض قبائح
المشركين فقال (إن الذين أجمعوا) وهم كفار قريش ومن وافقهم على الكفر (كانوا من الذين آمنوا يضحكون)
أى كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم (وإذا مروا بهم) أى وإذا مروا بالمؤمنين بالكفار وهم فى
مجالسهم (يتغامزون) من الغمز ، وهو الإشارة بالحقون والحواجب : أى يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم
وحواجبهم ، وقيل يعبرونهم بالإسلام ويعيرونهم به (وإذا انقلبوا) أى الكفار (إلى أهلهم) من مجالسهم (انقلبوا
فاكهين) أى معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية
منهم . والانقلاب : الانصراف . قرأ الجمهور « فاكهين » وقرأ حفص وابن القعقاع والأعرج والسلمى « فكهين »
بغير ألف . قال الفراء : هما لغتان ، مثل طمع وطامع ، وحذر وحاذر . وقد تقدم بيانه فى سورة الدخان أن
الفكه : الأشر البطر ، والفاكه : الناعم المتنعم (وإذا مروا بهم) أى إذا رأى الكفار المسلمين فى أى مكان (قالوا
إن هؤلاء لضالون) فى اتباعهم محمدا ، وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر ، ويجوز أن يكون المعنى :
وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول ، والأول أولى ، وجملة (وما أرسلوا عليهم حافظين) فى محل
نصب على الحال من فاعل قالوا : أى قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم
أحوالهم وأعمالهم (فاليوم الذين آمنوا) المراد باليوم : اليوم الآخر (من الكفار يضحكون) والمعنى : أن المؤمنين

في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، وجملة (على الأرائك ينظرون) في محل نصب على الحال من فاعل يضحكون : أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الحال الفظيع ، وقد تقدم تفسير الأرائك قريبا . قال الواحدى : قال المفسرون : إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله وهم يعذبون في النار ، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم في الدنيا . وقال أبو صالح : يقال لأهل النار اخرجوا ويفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله - فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون - (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) الحملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوب بمعنى أثيب ، والمعنى : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين ؟ وقيل الحملة في محل نصب ينظرون ، وقيل هي على إضمار القول : أى يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ويطلق على الخير والشر .

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله (إن كتاب الأبرار لى عليين) قال : روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء ، ففتح لها أبواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش وتخرج الملائكة ، فيخرج لها من تحت العرش رق فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (لى عليين) قال : الجنة ، وفي قوله (يشهده المقربون) قال : أهل السماء . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين » . وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في قوله (نضرة النعيم) قال : عين في الجنة يتوضئون منها ويغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم . وأخرج عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر والبيهقى في البعث عن ابن مسعود في قوله (يسقون من رحيق مختوم) قال : الرحيق الحمر ، والمختوم يحدون عاقبتها طعم المسك . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عنه في قوله (مختوم) قال : ممزوج (ختامه مسك) قال : طعمه وريحه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في البعث عن ابن عباس في قوله (من رحيق) قال : خمر ، وقوله (مختوم) قال : ختم بالمسك . وأخرج الطبرانى والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى عن ابن مسعود في قوله (ختامه مسك) قال : ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك ، ألم تر إلى المرأة من نسائك تقول خلطه من الطيب كذا وكذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن أبي الدرداء (ختامه مسك) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شراهم ، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (تسنيم) أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمتقين ويمزج لأصحاب اليمين . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود (مزاجه من تسنيم) قال : عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (ومزاجه من تسنيم) قال : هذا مما قال الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .

تفسير سورة الانشقاق

هي ثلاث وعشرون آية ، وقيل خمس وعشرون آية

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الانشقاق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي رافع قال : « صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم صلى الله عليه وآله وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه » . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال : « سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في (إذا السماء انشقت) - وقرأ باسم ربك - » . وأخرج ابن خزيمة والرويان في مسنده ، والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر (إذا السماء انشقت) ونحوها » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) .

قوله (إذا السماء انشقت) هو كقوله - إذا الشمس كورت - في إضمار الفعل وعدمه . قال الواحدي : قال المفسرون : انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها : انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله - ويوم تشقق السماء بالغمام - وقيل تنشق من الحجرة ، والحجرة باب السماء .

واختلف في جواب إذا ، فقال الفراء : إنه أذنت ، والواو زائدة ، وكذلك ألفت . قال ابن الأنباري : هذا

غلط ، لأن العرب لا تفهم الواو إلا مع حتى إذا كقولهم - حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها - ومع لما كقولهم - فلما أسلما وتله للجبين وناديناه - ولا تفهم مع غير هذين . وقيل إن الجواب قوله - فلاقه - أى فأنت ملاقيه ، وبه قال الأخفش . وقال المبرد : إن في الكلام تقدما وتأخيرا : أى يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقه إذا السماء انشقت . وقال المبرد أيضا : إن الجواب قوله (فأما من أوتى كتابه يمينه) وبه قال الكسائي ، والتقدير : إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه يمينه فحكمه كذا ، وقيل هو (يا أيها الإنسان) على إضمار الفاء ، وقيل إنه (يا أيها الإنسان) على إضمار القول : أى يقال له يا أيها الإنسان وقيل الجواب محذوف تقديره بعثتم ، أو لاقى كل إنسان عمله ، وقيل هو ما صرح به في سورة التكوين : أى علمت نفس هذا ، على تقدير أن إذا شرطية ، وقيل ليست بشرطية وهي منصوبة بفعل محذوف : أى اذكر ، أو هي مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة وتقديره : وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض ، ومعنى (وأذنت لربها) أنها أطاعته في الانشقاق من الإذن ، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه (وحققت) أى وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع ، ومن استعمال الإذن في الاستماع قول الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر : إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا منى وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل المعنى : وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق : أى جعلها حقيقة بذلك . قال الضحاك : حقت أطاعت ، وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال فلان محقوق بكذا ، ومعنى طاعتها : أنها لا تمتنع مما أراده الله بها . قال قتادة : حق لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فان تكن العتبي فأهلا ومرحبا وحققت لها العتبي لدينا وقلت

(وإذا الأرض مدت) أى بسطت كما تبسط الأدم ، ودكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا . قال مقاتل : سويت كمد الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها ، وقيل مدت زيد في سعتها ، من المدد ، وهو الزيادة (وألقت مافيا) أى أخرجت مافيا من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها (وتخلت) من ذلك . قال سعيد بن جبير : ألقت ما في بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء ، ومثل هذا قوله - وأخرجت الأرض أثقالها - (وأذنت لربها) أى سمعت وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلي (وحققت) أى وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له ، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا (يا أيها الإنسان) المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر ، وقيل هو الإنسان الكافر ، والأول أولى لما سيأتى من التفصيل (إنك كادح إلى ربك كدحا) الكدح في كلام العرب : السعي في الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيرا أو شرا ، والمعنى : أنك ساع إلى ربك في عملك ، أو إلى لقاء ربك ، مأخوذ من كدح جلده : إذا خدشه . قال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة والضحاك والكلبي : عامل لربك عملا (فلاقه) أى فلاق عملك ، والمعنى : أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب . قال القتيبي : معنى الآية : إنك كادح : أى عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك ، والملاقة بمعنى اللقاء : أى تلقى ربك بعملك ، وقيل فلاق كتاب عملك ، لأن العمل قد انقضى (فأما من أوتى كتابه يمينه) وهم المؤمنون (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) لا مناقشة فيه . قال مقاتل :

لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب بها . وقال المفسرون : هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله ، فهو الحساب اليسير (وينقلب إلى أهله مسرورا) أى وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من عشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة ، أو إلى من أعدّه الله له فى الجنة من الحور العين والولدان المخلدين ، أو إلى جميع هؤلاء مسرورا مبتهجا بما أوتى من الخير والكرامة (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) قال الكلبي : لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلفه . وقال قتادة ومقاتل : تفك ألواح صدره وعظامه ، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك (فسوف يدعوا ثبورا) أى إذا قرأ كتابه قال : يا ويلاه ياثبورا ، والثبور الهلاك (ويصلى سعيرا) أى يدخلها ويقاسى حرّ نارها وشدةها . قرأ أبو عمرو وحمة وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام . وقرأ الباقر بضم الياء وفتح اللام وتشديد ما ، وروى إسماعيل المكي عن ابن كثير وكذلك خارجة عن نافع وكذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرعوا بضم الياء وإسكان الصاد من أصلى يصلى (إنه كان فى أهله مسرورا) أى كان بين أهله فى الدنيا مسرورا باتباع هواه وركوب شهوته بطرا أشرا لعدم خطور الآخرة بباله ، والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة (إنه ظن أن لن يحور) تعليل لكونه كان فى الدنيا فى أهله مسرورا ، والمعنى : أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة ، وأن فى قوله (أن لن يحور) هى المخففة من الثقيلة سادة مع ما فى حيزها مسدّ مفعولى ظنّ ، والحدود فى اللغة : الرجوع ، يقال حار يحور : إذا رجع ، وقال الراغب : الحور التردّد فى الأمر ، ومنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور : أى من التردّد فى الأمر بعد المضى فيه ، ومحاوره الكلام مراجعته ، والمحار المرجع والمصير . قال عكرمة وداود بن أبي هند : يحور كلمة بالحشية ومعناها يرجع . قال القرطبي : الحور فى كلام العرب : الرجوع ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور » يعنى من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفى المثل حور فى محار : أى نقصان فى نقصان ، ومنه قول الشاعر : * والدم يسقى ورادّ القوم فى حور * والحور أيضا الهلكة ، ومنه قول الراجز : * فى بئر لاحور سرا وما شعر * قال أبو عبيدة : أى فى بئر حور ، ولا زائدة (بلى إن ربه كان به بصيرا) بلى إيجاب للمنى بلى : أى بلى ليحورن وليبعثن . ثم علل ذلك بقوله (إن ربه كان به بصيرا) أى كان به وبأعماله عالما لا يخفى عليه منها خافية . قال الزجاج : كان به بصيرا قبل أن يخافه عالما بأن مرجعه إليه (فلا أقسم بالشفق) لا زائدة كما تقدّم فى أمثال هذه العبارة ، وقد قدّمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه ، والشفق : الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة . قال الواحدي : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعا . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر ، وحكاها القرطبي عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء . وقال أسد بن عمر وأبو حنيفة : فى إحدى الروايتين عنه إنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع . قال الخليل : الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة . قال فى الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وجرتها فى أول الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا ، ومنه قول الشاعر :

قم يا غلام أضئ غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق

وقال آخر : * أحمر اللون كحمرة الشفق * وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال (والليل وما وسق) وقال عكرمة : هو ما بين من النهار ، وإنما قال هذا لقوله بعده (والليل وما وسق) فكأنه تعالى أقسم بالضياء

والظلام ، ولا وجه لهذا ، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء ، وروى عن أسد بن عمر الرجوع (والليل وما وسق) الوسق عند أهل اللغة : ضم الشيء بعضه إلى بعض ، يقال استوسقت الإبل : إذا اجتمعت وانضمت ، والراعى يسقها : أى يجمعها . قال الواحدى : المفسرون يقولون : وما جمع وضم وحوى ولف ، والمعنى : أنه جمع وضم ما كان منتشرا بالنهار في تصرفه ، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه ، ومنه قول ضابط بن الحرث البرجمي :

فلانى وإياكم وسوقا إليكم كقابض شيئا لم تنله أناماه

وقال عكرمة (وما وسق) أى وما ساق من شيء إلى حيث يأوى ، فجعله من السوق لا من الجمع ، وقيل (وما وسق) أى وما جئن وستر ، وقيل « وما وسق » أى وما حمل ، وكل شيء حملته فتد وسقته ، والعرب تقول : لا أحمله ما وسقت عيني الماء : أى حماته ، ووسقت الناقة تسق وسقا : أى حملت . قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : وما وسق وما حمل من الظلمة ، أو حمل من الكواكب . قال القشيري : ومعنى حمل ضم وجمع ، والليل يحمل بظلمته كل شيء . وقال سعيد بن جبير : وما وسق : أى وما عمل فيه من التهجيد والاستغفار بالأسحار ، والأول أولى (والتمر إذا اتسق) أى اجتمع وتكامل . قال الفراء : اتساقه امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلى ست عشرة ، وقد افتعل من الوسق الذى هو الجمع . قال الحسن : اتسق امتلا واجتمع . وقال قتادة : استدار ، يقال وسقته فاتسق ، كما يقال وصلته فاتصل ، ويقال أمر فلان متسق : أى مجتمع منتظم ، ويقال اتسق الشيء : إذا تتابع (لتركن طبقا عن طبق) هذا جواب القسم . قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو لتركن بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد ، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي العالية ومسروق وأبي وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وسعيد بن جبير وقرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع وهم الناس . قال الشعبي ومجاهد : لتركن يا محمد سماء بعد سماء قال الكلبي : يعنى تصعد فيها ، وهذا على القراءة الأولى ، وقيل درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة فى القرب من الله ورفعة المنزلة ، وقيل المعنى : لتركن حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها فى الشدة ، وقيل المعنى : لتركن أيها الإنسان حالا بعد حال من تكونك نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا ، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله - يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا - واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية قالوا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقرأ عمر « ليركن » بالتحنية وضم الموحدة على الإخبار ، وروى عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة : أى ليركن الإنسان ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهى لغة ، وقرى بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس . وقيل إن معنى الآية : ليركن القمر أحوالا من سرار واستهلال ، وهو بعيد . قال مقاتل (طبقا عن طبق) يعنى الموت والحياة . وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ . ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقا أى طبقا مجاوزا لطبق ، أو على الحال من ضمير ليركن : أى مجاوزين ، أو مجاوزا (فلهم لا يؤمنون) الاستفهام للإنكار ، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى : أى شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) هذه الجملة الشرطية وجوابها فى محل نصب على الحال : أى أى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن . قال الحسن وعطاء الكلبي ومقاتل : ما لم لا يصلون . وقال أبو مسلم : المراد الخضوع والاستكانة . وقيل المراد نفس السجود

المعروف بسجود التلاوة . وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا ؟ وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الدليل على السجود (بل الذين كفروا يكذبون) أى يكذبون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب (والله أعلم بما يوعون) أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب ، وقال مقاتل : يكتُمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

الخير أبقي وإن طال الزمان به والشر أنخبث ما أوعيت من زاد

ويقال وعاء حفظه ، ووعيت الحديث أعياه وعيا ، ومنه - أذن واعية - (فبشرهم بعذاب أليم) أى اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم ، لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم المؤلم الموضع ، والكلام خارج مخرج التهكم . (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) هذا الاستثناء منقطع : أى لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون : أى غير مقطوع ، يقال مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الشاعر :

فرى خلفهن من سرعة الرجح منينا كأنسه أهيباء

قال المبرد : المنين الغبار ، لأنه تقطعه وراءها ، وكل ضعيف منين وممنون ، وقيل معنى غير ممنون أنه لا يمن عليهم به ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب فى قوله (إذا السماء انشقت) قال : تنشق السماء من الحجرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (وأذنت لربها وحقت) قال : سمعت حين كلمها . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (وأذنت لربها وحقت) قال : أطاعت وحقت بالطاعة . وأخرج الحاكم عنه وصححه قال : سمعت وأطاعت (وإذا الأرض مدت) قال : يوم القيامة (وألقت ما فيها) قال : أخرجت ما فيها من الموتى (وتخلت) عنهم . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (وألقت ما فيها) قال : سوارى الذهب . وأخرج الحاكم ، قال السيوطى بسند جيد عن جابر قال : قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « تمت الأرض يوم القيامة مد الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (إنك كادح إلى ربك كدحا) قال : عامل عملا (فلاقه) قال : فلاق عملك . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ليس أحد يحاسب إلا هلك ، فقلت أليس يقول الله (فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ؟ قال : ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى بعض صلاته « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك » وفى بعض ألفاظ الحديث الأول وهذا الحديث الآخر « من نوقش الحساب عذب » . وأخرج البزار والطبرانى فى الأوسط والبيهقى والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا ويدخاه الجنة برحمته : تعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (يدعوا ثورا) قال : الويل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (إنه ظن أن لن يحور) قال : يبعث . وأخرج

ابن أبي حاتم عنه أيضا (أن لن يحور) قال : أن لن يرجع . وأخرج سمويه في فوائده عن عمر بن الخطاب قال (الشفق) الحمرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال (الشفق) النهار كله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (والليل وما وسق) قال : وما دخل فيه . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر عنه (وما وسق) قال : وما جمع . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (والقمر إذا اتسق) قال : إذا استوى . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (والليل وما وسق) قال : وما جمع ، أما سمعت قوله :

إن لنا قلائصا نقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأخرج عبد بن حميد عنه (والقمر إذا اتسق) قال : ليلة ثلاثة عشر . وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب (لتركبن طبقا عن طبق) قال : محالا بعد حال . وأخرج البخاري عن ابن عباس (لتركبن طبقا عن طبق) محالا بعد حال ، قال : هذا نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج أبو عبيد في القراءات وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ (لتركبن طبقا عن طبق) يعني بفتح الباء من تركبن . وقال : يعني نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم محالا بعد حال . وأخرج الطيالسي وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم والطبراني عنه قال (لتركبن) يا محمد السماء (طبقا عن طبق) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والحاكم في الكنى والطبراني وابن منده وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ (لتركبن) يعني بفتح الباء . وقال لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . وأخرج عبد الرزاق والفريري وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عنه (لتركبن طبقا عن طبق) قال : يعني السماء تنفطر ، ثم تنشق ، ثم تحمر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عنه أيضا في الآية قال : السماء تكون كالمهل ، وتكون وردة كالدّهان ، وتكون واهية ، وتشقق فتكون محالا بعد حال . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (والله أعلم بما يوعون) قال : يسرون .

تفسير سورة البروج

هي اثنتان وعشرون آية ، وهي مكة بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت (والسماء ذات البروج) بمكة . وأخرج أحمد قال : حدثنا عبد الصمد حدثنا زريق بن أبي سلمى حدثنا أبو المهزم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق . وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبه في المصنف وأحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء والطارق والسماء ذات البروج .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَهِيدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

قوله (والسما ذات البروج) قد تقدم الكلام في البروج عند تفسير قوله - جعل في السماء بروجاً - قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : هي النجوم ، والمعنى : والسماء ذات النجوم . وقال عكرمة ومجاهد أيضا : هي قصور في السماء . وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن . وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هي المنازل للكواكب ، وهي اثنا عشر برجا لاثنى عشر كوكبا ، وهي الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان والأسد ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . والبروج في كلام العرب : القصور ، ومنه قوله - ولو كنتم في بروج مشيدة - شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها ، وقيل هي أبواب السماء ، وقيل هي منازل الأتومر ، وأصل البرج الظهور ، سميت بذلك لظهورها (واليوم الموعود) أي الموعود به ، وهو يوم القيامة . قال الواحدي : في قول جميع المفسرين (وشاهد ومشهود) المراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق : أي يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة ، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود يوم عرفة ، لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج ، وتحضره الملائكة . قال الواحدي : وهذا قول الأكثر . وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية ، والمشهود يوم عرفة . وقال النخعي : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر ، وقيل الشاهد هو الله سبحانه . وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، لقوله - وكفى بالله شهيدا - وقوله - قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم - وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله - فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - وقوله - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا - وقوله - ويكون الرسول عليكم شهيدا - وقيل الشاهد جميع الأنبياء

لقوله - فكيف إذا جثنا من كل أمة بشهيد - وقيل هو عيسى بن مريم لقوله - وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيها - والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد ، أو أمم الأنبياء ، أو أمة عيسى . وقيل الشاهد آدم . والمشهود ذريته . وقال محمد بن كعب : الشاهد الإنسان لقوله - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - وقال مقاتل : أعضاؤه لقوله - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم لقوله - وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس - وقيل الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم ، وقيل الأيام والليالي . وقيل الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية ، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه ، وسيأتي بيان ما ورد في تفسير الشاهد والمشهود ، وبيان ما هو الحق إن شاء الله (قتل أصحاب الأخدود) هذا جواب القسم ، واللام فيه مضمرة ، وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره ، وقيل تقديره : لقد قتل ، فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية ، والظاهر أنها دعائية ، لأن معنى قتل لعن . قال الواحدى : فى قول الجميع ، والدعائية لا تكون جوابا للقسم ، فقيل الجواب قوله - إن الذين فتنوا المؤمنين - وقيل قوله - إن بطش ربك لشديد - وبه قال المبرد : واعترض عليه بطول الفصل وقيل هو مقدر يدل عليه قوله (قتل أصحاب الأخدود) كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وقيل تقدير الجواب : لتبعن ، واختاره ابن الأنبارى . وقال أبو حاتم السجستاني وابن الأنبارى أيضا : فى الكلام تقديم وتأخير : أى قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج ، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال : والله قام زيد ، والأخدود : الشق العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد ، ومنه الخد الحجارى الدموع ، والخدة لأن الخد يوضع عليها ، ويقال تخدد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من خراج ، ومنه قول طرفة :
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتخذ

وسياق بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله . قرأ الجمهور (النار ذات الوقود) بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها ، وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة والوقود : الحطب الذى توقد به ، وقيل هو بدل كل من كل ، لا بدل اشتمال . وقيل إن النار مخفوضة على الجوار ، كذا حكى مكى عن الكوفيين . وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرأ قتادة وأبور جاء ونصر بن عاصم بضمها . وقرأ أشهب العقيلي وأبو حنيفة وأبو السماك العدوى وابن السميع وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى هى النار ، أو على أنها فاعل فعل محذوف : أى أحرقتهم النار (إذ هم عليها قعود) العامل فى الظرف قتل : أى لعنوا حين أهدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ، ويقرب إليها . قال مقاتل : يعنى عند النار قعود يعرضونهم على الكفر . وقال مجاهد : كانوا قعودا على الكراسى عند الأخدود (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أى الذين خدوا الأخدود ، وهم الملك وأصحابه ، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود : أى حضور ، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به . وقيل يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم . وقيل على بمعنى مع ، والتقدير : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود . قال الزجاج : أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى الله (وما نقموا منهم) أى ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) : أى إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود فى كل حال . قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنبا إلا لإيمانهم ، وهذا كقوله - هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله - وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قوله :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم
وقول الآخر: ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكلا عيونها
قرأ الجمهور « نقموا » بفتح النون ، وقرأ أبو حيوة بكسرهما ، والفصيح الفتح . ثم وصف سبحانه نفسه بما
يدل على العظم والفخامة فقال (الذي له ملك السموات والأرض) ومن كان هذا شأنه ، فهو حقيق بأن يؤمن به
ويوحده (والله على كل شيء شهيد) من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منه خافية ، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب
الأخدود ، ووعد خير لمن عذبه على دينه من أولئك المؤمنين . ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين
ما فعلوا من التحريق فقال (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) :
أي حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فتن الشيء : أي أحرقته ، وفتنت الدرهم والدينار : إذا أدخلته النار لتتغير
جودته . ويقال دينار مفتون ، ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله - يوم هم على النار يفتنون - أي يحرقون ، وقيل
معنى فتنوا المؤمنين : محنهم في دينهم ليرجعوا عنه ، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ،
فلهم عذاب جهنم : أي لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ، والجملة في محل رفع على أنها خبر إن ، أو
الخبر لهم ، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، ولا يضر نسخه بأن خلافا
للأخفش ، ولهم عذاب الحريق : أي ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذي وقع
منهم للمؤمنين ، وقيل إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير ، وقيل إنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير ثم يعذبون
بعذاب الحريق ، فالأول عذاب يبردها ، والثاني عذاب يحررها . وقال الربيع بن أنس : إن عذاب الحريق
أصيبوا به في الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقهم ، وبه قال الكلبي . ثم ذكر
سبحانه ما أعد للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وظاهر الآية العموم ، فيدخل
في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوليا ، والمعنى : أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات (لهم
جنات تجري من تحتها الأنهار) : أي لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة . وقد تقدم
كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات في غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من
تحتها واضح ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها ،
والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم ذكره مما أعد الله لهم : أي ذلك المذكور (الفوز الكبير) الذي لا يعدله فوز
ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز الظفر المطلوب ، وجملة (إن بطش ربك لشديد) مستأنفة لخطاب النبي صلى الله
عليه وآله وسلم مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه : أي أخذه للجباية والظلمة
شديد ، والبطش : الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم ، ومثل هذا قوله - إن أخذه
أليم شديد - (إنه هو يبدئ ويعيد) أي يخلق الخلق أولا في الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت . كذا قال الجمهور ،
وقيل يبدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا ثم يعيده لهم في الآخرة ، واختار هذا ابن جرير ، والأول أولى (وهو
الغفور الودود) أي بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه . قال
مجاهد : الواد لأوليائه ، فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : معنى الودود الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل
القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وأنشد :

وأركب في الروع عريانة ذلون الجناح لقاحا ودودا

أي لا ولد لها نحن إله . وقيل الودود بمعنى المودود : أي يودّه عباده الصالحون ويحبونه ، كذا قال الأزهري .

قال : ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل : أى يكون محبا لهم . قال : وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جل ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه . قرأ الجمهور (ذو العرش المجيد) برفع المجيد على أنه نعت لذو ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالا : لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بالجر على أنه نعت للعرش . وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما في آخر سورة المؤمنون . وقيل هو نعت لربك ، ولا يضر الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه . وقال مكى : هو خبر بعد خبر ، والأول أولى . ومعنى ذو العرش : ذو الملك والسلطان كما يقال : فلان على سرير ملكه ، ومنه قول الشاعر :

رأوا عرشي تلم جانباه فلما أن تسلم أفردوني

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل المراد خالق العرش (فعال لما يريد) أى من الإبداء والإعادة . قال عطاء : لا يعجز عن شئ يريد ولا يمتنع منه شئ طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ، لأنه نكرة محضة . قال ابن جرير : رفع فعال ، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لأعراب الغفور الودود ، وإنما قال فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة . ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال (هل أتاك حديث الجنود) والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه وكونه فعلا لما يريد ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أى هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها . ثم بينهم فقال (فرعون وثمود) وهو بدل من الجنود ، والمراد بفرعون هو وقومه ، والمراد بثمود القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد وما وقع عليهم من العذاب ، وقصتهم مشهورة قد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب وعند مشركى العرب ودل بهما على أمثالهما . ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه وآله وسلم لمن تقدم ذكره ، وبين أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال (بل الذين كفروا في تكذيب) أى بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب شديد لك ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار (والله من ورائهم محيط) أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك ، والإحاطة بالشئ : الحصر له من جميع جوانبه ، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط . ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال (بل هو قرآن مجيد) أى متناه في الشرف والكرم والبركة لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا ، وليس هو كما يقوون إنه شعر وكهانة وسحر (في لوح محفوظ) أى مكتوب في لوح ، وهو أم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه . قرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن : أى بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح . واتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر وابن السميع فإنهما قرآ بضمها . قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . قيل والمراد باللوح بضم اللام : الهواء الذى فوق السماء السابعة . قال أبو الفضل : اللوح بضم اللام : الهواء ، وكذا قال ابن خالويه . قال في الصحاح : اللوح بالضم : الهواء بين السماء والأرض .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال (البروج) قصور في السماء . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن (السماء ذات البروج) فقال : الكواكب ، وسئل عن قوله

- الذى جعل فى السماء بروجاً - قال : الكواكب ، وعن قوله - فى بروج مشيدة - قال : القصور . وأخرج بن مردويه عن ابن عباس فى قوله (واليوم الموعود وشاهد ومشهود) قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمه وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله ، وأحب الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعبد من شئ إلا أعاده منه » . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة رفعه (وشاهد ومشهود) قال : الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود هو الموعود يوم القيامة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والمشهود يوم النحر ، والشاهد يوم الجمعة . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية « الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبى هريرة مثله موقوفاً . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مرامل سعيد بن المسيب . وأخرج ابن ماجه والطبرانى وابن جرير عن أبى اللرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن على بن أبى طالب فى الآية قال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن على أن رجلاً سأله عن قوله (وشاهد ومشهود) قال : هل سألت أحداً قبلى ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . قال : لا ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قرأ - وجئنا بك على هؤلاء شهيداً - والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ - ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود - . وأخرج عبد بن حميد والطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه عن الحسين بن على فى الآية قال : الشاهد جدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا - إنا أرسلناك شاهداً - ذلك يوم مشهود - . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى الدنيا والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا - ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود - . وأخرج ابن جرير عنه قال : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : الشاهد الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة .

قلت : وهذه التفاسير عن الصحابة رضى الله عنهم قد اختلفت كما ترى ، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم واستدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشئ شاهد أو مشهود ، فجعله دليلاً على أنه المراد بالشاهد والمشهود فى هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين فى هذا

المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذي ذكر في آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا (وشاهد ومشهود) هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل بذلك . فإن قلت : هل في المرفوع الذي ذكرته من حديث أبي هريرة ، وحديث أبي مالك ، وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود ؟ قلت : أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التي ذكر فيها ، بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة ، وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي حديث أبي مالك أنه يوم الجمعة ، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة ، وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة ، فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني ، وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة ، وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة ، وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة ، وفي حديث جبير ابن مطعم أنه يوم عرفة ، وكذا في حديث سعيد فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة ، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدّمنا أنه وقع الاجماع على أنه يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم ، وكان لذلك الملك كاهن يكن له فقال له ذلك الكاهن : انظروا لي غلاما فهما ، أو قال فطنا لقنا فأعلمه علمي ، فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه ، قال : فنظروا له على ما وصف ، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه ، وكان على طريق الغلام راهب في صومعة ، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ويبطئ على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا قال لك أين كنت ؟ فقل عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك أين كنت ؟ فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة ، يقال إنها كانت أسدا ، فأخذ الغلام حجرا فقال : اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتل هذه الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها ، ثم رمى فقتل الدابة ، فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا الغلام ، ففرح الناس وقالوا : قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له : إن أنت رددت على بصري فلك كذا وكذا ، فقال الغلام : لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجعت عليك بصرك أتؤمن بالذي ردّه عليك ؟ قال نعم ، فدعا الله فردّ عليه بصره فأمن الأعمى ، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله ، وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه ، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافون من ذلك الجبل ويردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، ففرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك : إنك لن تقتلني حتى تصلبنى وترميني وتقول إذا رميتني : بسم الله رب الغلام ، فأمر به

فصلب ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد ، فإننا نؤمن برب هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال : فخذ أخذودا ثم ألق فيه الخطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود ، فقال : يقول الله (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) حتى بلغ (العزيز الحميد) فأما الغلام فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر ابن الخطاب وأصبغه على صدغه كما وضعها حين قتل . ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف . وقدر رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب . وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به . وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به . وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله (أصحاب الأخدود) قال : هم الحبشة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم ناس من بني إسرائيل خدوا أخذودا في الأرض أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعرضوا عليها . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : (والسماء ذات البروج) إلى قوله (وشاهد ومشهود) قال : هذا قسم على (إن بطش ربك لشديد) إلى آخرها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (إنه هو يبدئ ويعيد) قال : يبدئ العذاب ويعيده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (الودود) قال : الحبيب ، وفي قوله (ذو العرش المجيد) قال : الكريم . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (في لوح محفوظ) قال : أخبرت أنه لوح الذكر اوح واحد فيه الذكر ، وإن ذلك اللوح من نور ، وإنه مسيرة ثلثمائة سنة . وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) في جبهة إسرافيل . وأخرج أبو الشيخ ، قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق : اكتب علمي في خلقي ، فجري ما هو كائن إلى يوم القيامة اه .

تفسير سورة الطارق

هي سبع عشرة آية ، وهي مكية بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت والسماء والطارق بمكة ، وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني وابن مردويه عن خالد العدواني « أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصي حين أتاهم يتبع النصر عندهم ، فسمعه يقرأ (والسماء والطارق) حتى ختمها ، قال : فوعيتها في الجاهلية ، ثم قرأتها في الإسلام ، قال : فدعنتي ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ، فقرأتها ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧).

أقسم سبحانه بالسما والطارق ، وهو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل . قال الواحدى : قال المفسرون : أقسم الله بالسما والطارق ، يعنى الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار . قال القراء : الطارق النجم لأنه يطلع بالليل ، وما أذاك ليلا فهو طارق . وكذا قال الزجاج والمبرد : ومنه قول امرئ القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمام محول

وقوله أيضا : ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ؟ فقيل هو زحل ، وقيل الثريا ، وقيل هو الذى ترمى به الشياطين ، وقيل هو جنس النجم . قال فى الصحاح : والطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح ، ومنه قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق نمشى على النار

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضى ، وأصل الطروق الدق ، فسمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق . وقال قوم : إن الطروق قد يكون نهارا ، والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين : أى مرتين ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير » . ثم بين سبحانه ماهو الطارق ، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال (وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) الثاقب : المضى ، ومنه يقال ثقب النجم ثقوبا وثقابة إذا أضاء ، وثقوبه ضوؤه ، ومنه قول الشاعر :

أذاع به فى الناس حتى كأنه بعليا نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى : الطارق يقع على كل ما طرق ليلا ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله (النجم الثاقب) قال مجاهد : الثاقب المتوهج . قال سفيان : كل ما فى القرآن « وما أدراك » فقد أخبره ، وكل شىء قال « وما يدريك » لم يخبره به ، وارتفاع قوله (النجم الثاقب) على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله ، كأنه قيل ما هو ؟ فقيل هو النجم الثاقب (إن كل نفس لما عليها حافظ) هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض ، وقد تقدم فى سورة هود اختلاف القراء فى « لما » ، فمن قرأ

بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر ، وهو اسمها ، واللام هي الفارقة ، وما مزيدة : أي إن الشأن كل نفس لعلها حافظ ، ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا : أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر وعاصم وحمة . وقرأ الباقون بالتخفيف . قيل والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشر ، وقيل الحافظ هو الله عز وجل ، وقيل هو العقل يرشدهم إلى المصالح ، ويكفهم عن المفاسد . والأول أولى لقوله - وإن عليكم لحافظين - وقوله - ويرسل عليكم حفظة - وقوله - له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه - والحافظ على الحقيقة هو الله عز وجل كما في قوله - فالله خير حافظا - وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره (فلينظر الإنسان مم خلق) الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه إيعام قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث . قال مقاتل : يعني المكذب بالبعث (مم خلق) من أي شيء خلقه الله ، والمعنى : فلينظر نظر التفكير والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته . ثم بين سبحانه ذلك فقال (خلق من ماء دافق) والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والماء : هو المني ، والدفق : الصب ، يقال دفقت الماء : أي صببته ، يقال ماء دافق : أي مدفوق ، مثل - عيشة راضية - أي مرضية . قال الفراء والأخفش : ماء دافق : أي مصبوب في الرحم . قال الفراء : وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كتقولهم : سرّ كاتم : أي مكتوم ، وهم ناصب : أي منصوب ، وليل نائم ونحو ذلك . قال الزجاج : من ماء ذى اندفاق ، يقال دارع وقابس ونابل : أي ذو درع وقوس ونبل ، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما ، ثم وصف هذا الماء فقال (يخرج من بين الصلب والترائب) أي صلب الرجل ، وترائب المرأة ، والترائب جمع تربية ، وهي موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من الماءين . قرأ الجمهور « يخرج » مبني للفاعل . وقرأ ابن أبي عبة وابن مقسم مبني للمفعول . وفي الصلب : وهو الظهر لغات . قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام . وقرأ اليماني بفتحهما ، ويقال صالب على وزن قالب . ومنه قول العباس بن عبد المطاب : * تنقل من صلب إلى رحم * في أبياته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد تقدّم كلام في هذا عند تفسير قوله - الذين من أصلابكم - وقيل الترائب : ما بين الثديين . وقال الضحاك : ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين . وقال سعيد بن جبير : هي الجيد . وقال مجاهد : هي ما بين المنكبين والصدر . وروى عنه أيضا أنه قال : هي الصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هي التراقي . وحكى الزجاج : أن الترائب عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر والنحر ، ومنه قول دريد بن الصمة :

فإن تدبروا نأخذكم في ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم في الترائب

قال عكرمة : الترائب الصدر ، وأنشد : * نظام درّ على ترائبها *

قال في الصحاح : التربية واحدة الترائب ، وهي عظام الصدر . قال أبو عبيدة : جمع التربية تريب ، ومنه

قول المثقب العبدى :

ومن ذهب بنين على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقول امرئ القيس : * ترائبها مصقولة كالسجنجل * وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع

من يمتدة الصدر ، وأربع أضلاع من بسرة الصدر . قال قتادة والحسن : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب يكون معنى من بين الصلب ، من الصلب ، وقيل إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ولا يخالف هذا ما في الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب ، وقيل إن المعنى : يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما في الآية ، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها (إنه على روجه لقادر) الضمير في إنه يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله « خلق » عليه ، فإن الذي خلقه هو الله سبحانه ، والضمير في روجه عائد إلى الإنسان ، والمعنى : أن الله سبحانه على رجع الإنسان : أي إعادته بالبعث بعد الموت « لقادر » هكذا قال جماعة من المفسرين : وقال مجاهد : على أن يرد الماء في الإحليل . وقال عكرمة والضحاك : على أن يرد الماء في الصلب . وقال مقاتل ابن حيان يقول : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر ، والأول أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبي والقرطبي (يوم تبلى السرائر) العامل في الظرف على التفسير الأول ، هو روجه ، وقيل لقادر . واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم ، وقيل العامل فيه مقدر : أي يرجعه يوم تبلى السرائر ، وقيل العامل فيه مقدر ، وهو اذكر ، فيكون مفعولا به ، وأما على قول من قال : إن المراد رجع الماء ، فالعامل في الظرف مقدر ، وهو اذكر ، ومعنى تبلى السرائر : تختبر وتعرف ، ومنه قول الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدربني فاليوم أبلوك وتبتليني

أي أختبرك وتختبرني ، وأمتحنك وتمتحنني ، والسرائر : ما يستر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، والمراد هنا عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغث من السمين (فما له من قوة ولا ناصر) أي فما للإنسان من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله ، ولا ناصر ينصره مما نزل به . قال عكرمة : هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر . قال سفيان : القوة العشرة ، والناصر الخليف ، والأول أولى (والسماء ذات الرجع) الرجع : المطر . قال الزجاج : الرجع المطر لأنه يجيء ويرجع ويتكرر . قال الخليل : الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع . قال أهل اللغة : الرجع المطر . قال المتنخل بصف سيفا له :

أبيض كالرجع رسوب إذا ماباح في محتفل يمتلئ

قال الواحدي : الرجع المطر في قول جميع المفسرين ، وفي هذا الذي حكاه عن جميع المفسرين نظر ، فإن ابن زيد قال : الرجع الشمس والقمر والنجوم يرجعون في السماء تطلع من ناحية وتغيب في أخرى . وقال بعض المفسرين : ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد . وقال بعضهم : معنى ذات الرجع : ذات النفع ، ووجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته ، وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعا . وقيل إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض ، وقيل سمته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم ، وقيل لأن الله يرجعه وقتا بعد وقت (والأرض ذات الصدع) هو ما تنصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر ، والصدع : الشق لأنه يصدع الأرض فتصدع له . قال أبو عبيدة والفراء : تنصدع بالنبات . قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه ، وقيل ذات الحرث لأنه يصدعها ، وقيل ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث .

والحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال : والأرض ذات النبات ؛ وإن كان المراد به الشق فكأنه قال : والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه ، وجواب القسم قوله (إنه لقول فصل) أى إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما (وما هو بالهزل) أى لم ينزل باللعب ، فهو جد ليس بالهزل ، والهزل ضد الجهد . قال الكميت : * تجدد بنا في كل يوم ونهزل * (إنهم يكيّدون كيّدا) أى يمحرون في إبطال ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدين الحق . قال الزجاج : يخاتلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويظهرون ما هم على خلافه (وأكيد كيّدا) أى أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم ، قيل هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر (فهل الكافرين) أى آخرهم ، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم ، وأرض بما يدبره لك في أمورهم ، وقوله (أمهلهم) بدل ، من مهل ومهل وأمهل بمعنى مثل نزل وأنزل ، والإمهال الإنظار ، وتمهل في الأمر تأد ، وانتصاب (رويدا) على أنه مصدر مؤكّد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف : أى أمهلهم إمهالا رويدا : أى قريبا أو قليلا . قال أبو عبيدة : والرويد في كلام العرب تصغير الرود ، وأنشد :

* كأنها تمشى على رود *

أى على مهل ، وقيل تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم ، ويأتى اسم فعل نحو رويد زيدا : أى أمهله ، ويأتى حالا نحو سار القوم رويدا : أى متمهلين ، ذكر معنى هذا الجوهرى ، والبحث مستوفى في علم النحو .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (والسماء والطارق) قال : أقسم ربك بالطارق : وكل شئ طرقت بالليل فهو طارق . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (إن كان نفس لما عليها حافظ) قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله (النجم الثاقب) قال : النجم المضيء (إن كل نفس لما عليها حافظ) قال : إلا عليها حافظ ، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه (يخرج من بين الصلب والترائب) قال : ما بين الجيد والنحر . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : تربية المرأة وهى موضع القلادة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الترائب بين ثلثي المرأة . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا قال : الترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا (إنه على رجه لقادر) قال : على أن يجعل الشيخ شابا والشاب شيخا . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد والبخارى في تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (والسماء ذات الرجوع) قال : المطر بعد المطر (والأرض ذات الصدع) قال : صدعها عن النبات . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (والأرض ذات الصدع) تصدع الأودية . وأخرج ابن منده والديلمي عن معاذ بن أنس مرفوعا (والأرض ذات الصدع) قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (إنه لقول فصل) قال : حق (وما هو بالهزل) قال : بالباطل ، وفي قوله (أمهلهم رويدا) قال : قريبا .

تفسير سورة الأعلى

ويقال سورة سبع : هي تسع عشرة آية

وهي مكية في قول الجمهور . وقال الضحاك : هي مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة سبع اسم ربك الأعلى بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال : « أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرأنا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وشعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء ، فما جاء حتى قرأت - سبع اسم ربك الأعلى - في سور مثلها » . وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن علي قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحب هذه السورة : سبع اسم ربك الأعلى » . أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن عن توبر بن أبي فاختة عن أبيه عن علي . وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبع اسم ربك الأعلى ، وهل أذاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأها جميعا » وفي لفظ « وربما اجتمعوا في يوم واحد فقرأها » وفي الباب أحاديث . وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كان يقرأ في الظهر بسبع اسم ربك الأعلى » . وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوتر بسبع اسم ربك الأعلى ، وقل يا أيها الكافرون ، وتلى هو الله أحد » . وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة قالت « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بسبع ، وفي الثانية قل يا أيها الكافرون ، وفي الثالثة قل هو الله أحد والمعوذتين » ، وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ « هلا صليت بسبع اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلِي النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩).

قوله (سبح اسم ربك الأعلى) أى نزّهه عن كل مالا يليق به . قال السدّى : سبح اسم ربك الأعلى : أى عظمه ، قيل والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، كما فى قول ليلى :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والمعنى : سبح ربك الأعلى . قال ابن جرير : المعنى نزّه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون على هذا مقحمة . وقيل المعنى : نزّه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت محاشع معظم ، ولذكره محترم . وقال الحسن : معنى سبح اسم ربك الأعلى : صلّ له . وقيل المعنى : صلّ بأسماء الله لا كما يصلّى المشركون بالملكاء والتصديّة . وقيل المعنى : ارفع صوتك بذكر ربك ، ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما سبح الحجيح وكبروا تكبيرا

والأعلى صفة للرب ، وقيل للاسم ، والأول أولى ، وقوله (الذى خلق فسوّى) صفة أخرى للرب . قال الزجاج : خلق الإنسان مستويا ، ومعنى سوّى : عدل قامته . قال الضحاك : خلقه فسوّى خلقه ، وقيل خلق الأجساد فسوّى الأفهام ، وقيل خلق الإنسان وهياه للتكليف (والذى قدر فهدى) صفة أخرى للرب ، أو معطوف على الموصول الذى قبله . قرأ علىّ بن أبى طالب والكسائى والسلمى «قدر» مخففا ، وقرأ الباقر بالتشديد . قال الواحدي : قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدوابّ فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها . وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر ، والسعادة والشقاوة . وروى عنه أيضا أنه قال فى معنى الآية : قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيا . وقيل قدر أرزاقهم وأقواتهم ، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسا ، ولمراعيتهم إن كانوا وحشا . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل خلق المنافع فى الأشياء ، وهدى الإنسان أوجه استخراجها منها . وقال السدّى : قدر مدّة الجنين فى الرحم تسعة أشهر وأقلّ وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم . قال الفراء : أى قدر فهدى وأضلّ فاكتفى بأحدهما ، وفى تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا . والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى إلا بدليل يدلّ عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين ، إما على البدل أو على الشمول ، والمعنى : قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له ، ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه (والذى أخرج المرعى) صفة أخرى للرب : أى أنبت العشب وما ترعاه النعم من النبات الأخضر (فجعله غثاء أحوى) أى فجعله بعد أن كان أخضر غثاء : أى هشيما جافا كالغثاء الذى يكون فوق السيل أحوى : أى أسود بعد اخضراره ، وذلك أن الكلاً إذا يبس أسود . قال قتادة : الغثاء الشيء اليابس ، ويقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس غثاء وهشيم . قال امرؤ القيس :

كأنّ ذرى رأس الجمر غدوة من السيل والأغثاء فلكة مغزل

وانتصاب غثاء على أنه المفعول الثانى ، أو على الحال ، وأحوى صفة له . وقال الكسائى : هو حال من المرعى : أى أخرجه أحوى من شدّة الخضرة والرى (فجعله غثاء) بعد ذلك ، والأحوى مأخوذ من الحوة ، وهى سواد يضرب إلى الخضرة . قال فى الصحاح : والحوة سمرة الشفة ، ومنه قول ذى الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

(سنقرئك فلا تنسى) أى سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقروه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة ، وهى هدايته صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ القرآن . قال مجاهد والكلبي : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت (سنقرئك فلا تنسى) وقوله (إلا ما شاء الله) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل : أى لا تنسى مما تقروه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه . قال القراء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً كقوله - خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك - وقيل إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك ، فإذا قد نسي ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسيانا كلياً . وقيل بمعنى النسخ : أى إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته . وقيل معنى فلا تنسى : فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه . وقيل المعنى : إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل «لا» فى قوله (فلا تنسى) للنهى . والألف مزيدة لرعاية الفاصلة ، كما فى قوله - فأصلونا السبيلا - يعنى فلا تغفل قراءته وتذكره (إنه يعلم الجهر وما يخفى) الجملة تعليل لما قبلها : أى يعلم ما ظهر وما بطن والإعلان والإسرار ، وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل إن الجهر ما حفظه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن ، وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة ، وما يخفى هو إخفاؤها ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل إن الجهر جهرة صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلس عليه ، وما يخفى ما فى نفسه مما يدعو إلى الجهر (ونيسرك لليسرى) معطوف على سنقرئك ، وما بينهما اعتراض . قال مقاتل : أى نهون عليك عمل الجنة ، وقيل نوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل ، وقيل للشرعة اليسرى ، وهى الحنيفية السهلة ، وقيل نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به ، والأولى حمل الآية على العموم : أى نوفقك للطريقة اليسرى فى الدين والدنيا فى كل أمر من أمورهما التى تتوجه إليك (فذكر إن نفعت الذكرى) أى عظم يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير واهدهم إلى شرائع الدين . قال الحسن : تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر . قال الواحدى : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مبلغاً للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله - سرايل تقيكم الحر - الآية . قال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع ، فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع . وقيل إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم ، وقيل إن بمعنى ما : أى فذكر ما نفعت الذكرى ، لأن الذكرى نافعة بكل حال ، وقيل إنها بمعنى قد ، وقيل إنها بمعنى إذ . وما قاله الواحدى والجرجاني أولى وقد سبقهما إلى القول به القراء والنحاس . قال الرازى : إن قوله (إن نفعت الذكرى) للتنبيه على أشرف الخالين وهو وجود النفع الذى لأجله شرعت الذكرى ، والمعلق بأن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل عليه آيات : منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى - واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون - ومنها قوله - ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم - فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه ، ومنها قوله - فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله - والمراجعة جائزة بدون هذا الظن ، فهذا الشرط فيه فوائد : منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الرجل لمن يرشده : قد أوضحت لك إن كنت تعقل ، وهو تنبيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا فى تكرير الدعوة ، فأما الدعاء الأول فعام انتهى . ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال (سيدكر

(من يخشى) أى سيتعظ بعظك من يخشى الله فيزداد بالتذكير خشية وصلاحاً (ويتجنبها الأشقى) أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه في معاصيه . ثم وصف الأشقى فقال (الذى يصلى النار الكبرى) أى العظيمة الفظيعة ، لأنها أشد حرّاً من غيرها . قال الحسن : النار الكبرى نار جهنم ، والنار الصغرى نار الدنيا . وقال الزجاج : هى السفلى من أطباق النار (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) أى لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما النفس لا تموت فينقضى عنها ولا تحيا حياة لها طعم

و ثم للتراخى في مراتب الشدة ، لأن التردد بين الموت والحياة أفضح من صلى النار الكبرى (قد أفلح من تزكى) أى من تطهر من الشرك فأمن بالله ووحده وعمل بشرائعه . قال عطاء والربيع : من كان عمله زاكياً نامياً . وقال قتادة : تزكى بعمل صالح . قال قتادة وعطاء وأبو العالية : نزلت في صدقة الفطر . قال عكرمة : كان الرجل يقول : أقدم زكائى بين يدي صلاتى . وأصل الزكاة فى اللغة النماء . وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها ، وقيل المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ، لأن الأكثر أن يقال فى الأموال زكى لا تزكى (وذكر اسم ربه فصلى) قيل المعنى : ذكر اسم ربه بالخوف فعبدته وصلى له ، وقيل ذكر اسم ربه بلسانه فصلى : أى فأقام الصلوات الخمس ، وقيل ذكر موقفه ومعاده فعبدته ، وهو كالقول الأول . وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير فى أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ، وهو قوله - الله أكبر - وقيل ذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى ، وقيل هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة ، وقيل المراد بالصلاة هنا صلاة العيد ، كما أن المراد بالتزكى فى الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية ، ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة (بل توثرون الحياة الدنيا) هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق : أى لاتفعلون ذلك بل توثرون اللذات الفانية فى الدنيا ، قرأ الجمهور «توثنون» بالفوقية على الخطاب ، ويؤيدها قراءة أبى «بل أنتم توثنون» وقرأ أبو عمرو وبالتحتية على الغيبة . قيل والمراد بالآية الكفرة ، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخرة بالكلية ، وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر ، والمراد بإيثارها ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات وبجملة (والآخرة خير وأبقى) فى محل نصب على الحال من فاعل توثنون : أى والحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل وأدوم من الدنيا . قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى ، والآخرة من خزف يبنى لكان الواجب أن يوتر خزف يبنى على ذهب يفتنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبنى ، والدنيا من خزف يفتنى ؟ والإشارة بقوله (إن هذا) إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده ، وقيل إنه إشارة إلى جميع السورة ، ومعنى (لنى الصحف الأولى) أى ثابت فيها ، وقوله (صحف إبراهيم وموسى) بدل من الصحف الأولى . قال قتادة وابن زيد : يريد بقوله (إن هذا) والآخرة خير وأبقى . وقالوا : تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لنى الصحف الأولى ، وهو قوله (قد أفلح) إلى آخر السورة . قرأ الجمهور «فى الصحف الأولى صحف إبراهيم» بضم الحاء فى الموضعين ، وقرأ الأعمش وهارون وأبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما ، وقرأ الجمهور «إبراهيم» بالالف بعد الراء وبالياء بعد الهاء . وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء ، وقرأ أبو موسى وابن الزبير إبراهيم بالفتن .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهني قال : « لما نزلت - فسبح باسم ربك العظيم - قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها في سجودكم » ولا مطعن في إسناده . وأخرج أحمد وأبو داود والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال : سبحان ربّي الأعلى » : قال أبو داود : خولف فيه وكيع ، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفا . وأخرجه موقوفا أيضا عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال : سبحان ربّي الأعلى وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال « إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى . فقل : سبحان ربّي الأعلى » وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربّي الأعلى وهو في الصلاة ، فقيل له أتزيد في القرآن ؟ قال : لا ، إنما أمرنا بشيء فقلته . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربّي الأعلى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربّي الأعلى ، وكذلك هي في قراءة أبي بن كعب . وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر أنه قال : إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال : سبحان ربّي الأعلى . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال : سبحان ربّي الأعلى ، وهو في الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فجعله غثاء) قال : هشيما (أحوى) قال متغيرا . وأخرج ابن مردويه عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى ، فقيل له قد كفييناك ذلك ونزلت (سنقرئك فلا تنسى) » . وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (إلا ما شاء الله) يقول : إلا ما شئت أنا فأنسبك . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (ونيسرك للنسرى) قال : للخير . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود - ونيسرك للنسرى - قال : الجنة . وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (قد أفلح من تزكى) قال « من شهد أن لا إله إلا الله ، وقطع الأنداد ، وشهد أني رسول الله (وذكر اسم ربه فصلي) قال : هي الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها » . قال البزار : لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (قد أفلح من تزكى) قال : من الشرك (وذكر اسم ربه) قال : وحده الله (فصلي) قال : الصلوات الخمس . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس (قد أفلح من تزكى) قال : من قال لا إله إلا الله . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلي) » . وفي لفظ قال : « سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن زكاة الفطر ، فقال (قد أفلح من تزكى) قال : هي زكاة الفطر » وكثير بن عبد الله ضعيف جدا ، قال فيه أبو داود : هو ركن من أركان الكذب ، وقد صحح الترمذي حديثا من طريقه ، وخطيء في ذلك ، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلي) ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلي يوم الفطر » وليس في هذين الحديثين

ما يدل على أن ذلك سبب النزول ، بل فيهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم تلا الآية وقوله : هي زكاة الفطر ، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكى ، وقد قدّمنا أن السورة مكية ، ولم تكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة ، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري (قد أفلح من تزكى) قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد (وذكر اسم ربه فصلى) قال : خرج إلى العيد وصلى . وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر قال « إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) » . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : قلت لابن عباس : رأيت قوله (قد أفلح من تزكى) للفطر قال : لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها . ثم عاودته فقال لي : والصدقات كلها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود (سبح اسم ربك الأعلى) فلما بلغ (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وقال (بل يؤثرون الحياة الدنيا) بالياء . وأخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « هي كلها في صحف إبراهيم وموسى » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى ، وفي لفظ : هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى . وأخرج عبد ابن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال « قلت يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب » الحديث .

تفسير سورة الغاشية

هي ست وعشرون آية ، وهي مكية بلا خلاف

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الغاشية بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وقد تقدّم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى ، والغاشية في صلاة العيد ، ويوم الجمعة »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلِي نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ
مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ
خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ (٢٢)
إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ
عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

قوله (هل أتاك حديث الغاشية) قال جماعة من المفسرين : هل هنا بمعنى قد ، وبه قال قطرب : أى قد جاءك
يا محمد حديث الغاشية ، وهى القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها . وقيل إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامى
المتضمن للتعجب مما فى خبره ، والتشويق إلى استماعه أولى . وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر
المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما فى قوله - وتغشى وجوههم
النار - وقيل الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها والأول أولى . قال الكلبي : المعنى إن لم يكن أتاك حديث
الغاشية ، فقد أتاك (وجوه يومئذ خاشعة) الحملة مستأنفة بجواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو ؟ أو مستأنفة
استثنافا نحويا لبيان ماتضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة ، ووجوه مرتفع على
الابتداء وإن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل ، وقد تقدم مثل هذا فى سورة القيامة ، وفى سورة النازعات .
والتنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه : أى يوم غشيان الغاشية ، والخاشعة الذليلة الخاضعة ، وكل متضائل
ساكن يقال له خاشع ، يقال خشع الصوت : إذا خفى ، وخشع فى صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه . والمراد
بالوجوه هنا أصحابها . قال مقاتل : يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله . قال قتادة وابن زيد : خاشعة فى
النار ، وقيل أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص ، والأول أولى . قوله (عاملة ناصبة) معنى عاملة أنها
تعمل عملا شاقا . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : عمل يعمل عملا ، ويقال للرجل إذا دام برقه :
قد عمل يعمل عملا . قيل وهذا العمل هو جرّ السلاسل والأغلال والخوض فى النار (ناصبة) أى تعب ، يقال
نصب بالكسر ينصب نصبا : إذا تعب ، والمعنى : أنها فى الآخرة تعب لما تلاقيه من عذاب الله . وقيل إن قوله
(عاملة) فى الدنيا إذ لا عمل فى الآخرة : أى تعمل فى الدنيا بالكفر والمعاصى ، وتنصب فى ذلك . وقيل إنها عاملة
فى الدنيا ناصبة فى الآخرة ، والأول أولى . قال قتادة (عاملة ناصبة) تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله ، فأعملها الله ،
وأنصبها فى النار . بجرّ السلاسل الثقال وحمل الأغلال والوقوف حفاة عراة فى العرصات - فى يوم كان مقداره خمسين
ألف سنة - قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب فأعملها وأنصبها فى جهنم . قال الكلبي :
يجرون على وجوههم فى النار . وقال أيضا : يكلفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فينصبون فيها أشد ما يكون
من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل . قرأ الجمهور (عاملة ناصبة)
بالرفع فهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ ، أو على تقدير مبتدأ ، وهما خبران له ، وقرأ ابن محيصن وعيسى وحيد

وابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الدم ، وقوله (تصلى ناراً حامية) خبر آخر للمبتدأ : أى تدخل ناراً متناهية فى الحر ، يقال حمى النار وحمى التنور : أى اشتد حرهما . قال الكسائى : يقال اشتد حمى النار وحموه بمعنى . قرأ الجمهور « تصلى » بفتح التاء مبنيًا للفاعل . وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمها مبنيًا للمفعول . وقرأ أبو رجاء بضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام ، والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات ، والمراد أصحابها كما تقدم ، وهكذا الضمير (تسقى من عين آنية) والمراد بالعين الآنية : المتناهية فى الحر ، والآنى : الذى قد انتهى حره ، من الإيناء بمعنى التأخر ، يقال آناه يؤنيه إيناء : أى أخره وحبسه كما فى قوله - يطوفون بينها وبين حميم آن - قال الواحدى : قال المفسرون : لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا لذابت . ولما ذكر سبحانه شراهم عقبه بذكر طعامهم فقال (ليس لهم طعام إلا من ضريع) هو نوع من الشوك يقال له الشبرق فى لسان قريش إذا كان رطباً ، فإذا يبس فهو الضريع . كذا قال مجاهد وقتادة وغيرهما من المفسرين . قيل وهو سم قاتل ، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه ، وقيل هو شىء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس ، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع وهاكت هزالاً . قال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر . وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا : بالأول ، ومنه قول أبى ذؤيب :

رعى الشبرق الریان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً بان عنه التحايص

وقال الهذلى يذكر إبلًا وسوء مرعاها :

وحبس فى هرم الضريع وكلها قرناء دامية اليدى جرود

وقال سعيد بن جبیر : الضريع الحجارة ، وقيل هو شجرة فى نار جهنم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويدلون ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمى بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله فى أن يغنى عنه لكرهته وخشونته . قال النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الدليل : أى من شربه يلحقه ضراعة وذلة . وقال الحسن أيضاً : هو الزقوم ، وقيل هو واد فى جهنم ، وقد تقدم فى سورة الحاقة - فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين - والغسلين غير الضريع كما تقدم ، وجمع بين الآيتين بأن النار دركات ، فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين . ثم وصف سبحانه الضريع فقال (لا يسمن ولا يغنى من جوع) أى لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه مابه من الجوع . قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية . قال المشركون : إن إبلنا تسمن من الضريع ، فنزلت (لا يسمن ولا يغنى من جوع) وكذبوا فى قولهم هذا ، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه . وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع . ثم شرع سبحانه فى بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال (وجوه يومئذ ناعمة) أى ذات نعمة وبهجة ، وهى وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وما أعدّه الله لهم من الخير الذى يفوق الوصف ، ومثله قوله - تعرف فى وجوههم نضرة النعيم - ثم قال (لسعياً راضية) أى لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ، لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها ، والمراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدم (فى جنة عالية) أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، أو عالية القدر لأن فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين (لا تسمع فيها لاغية) قرأ الجمهور « لا تسمع » بفتح الفوقية ونصب لاغية : أى لا تسمع أنت أيها المخاطب ، أو لا تسمع تلك الوجوه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وبالتحتية مضمومة مبنيًا للمفعول ورفع

لاغية . وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع لاغية . وقرأ الفضل والجرى بفتح التحتية مبنيا للفاعل ونصب لاغية ، واللغو الكلام الساقط . قال الفراء والأخفش : أى لا تسمع فيها كلمة لغو . قيل المراد بذلك الكذب والبهتان والكفر قاله قتادة : وقال مجاهد : أى الشتم . وقال الفراء : لا تسمع فيها حالفا يحلف بكذب . وقال الكلبي : لا تسمع فى الجنة حالفا يمين برّة ولا فاجرة . وقال الفراء أيضا : لا تسمع فى كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعم الدائم ، وهذا أرجح الأقوال لأن النكرة فى سياق النفي من صيغ العموم ، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص ، ولاغية إما صفة موصوف محذوف : أى كلمة لاغية ، أو نفس لاغية ، أو مصدر : أى لا تسمع فيها لغوا (فيها عين جارية) قد تقدّم فى سورة الإنسان أن فيها عيونا ، والعين هنا بمعنى العيون كما فى قوله - علمت نفس - ومعنى جارية أنها تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة . قال الكلبي : لا أدري بماء أو غيره (فيها سرر مرفوعة) أى عالية مرتفعة السمك ، أو عالية القدر (وأكواب موضوعه) قد تقدّم أن الأكواب جمع كوب ، وأنه القدح الذى لا عروة له ، ومعنى موضوعه : أنها موضوعه بين أيديهم يشربون منها (ونمارق مصفوفة) النمارق : الوسائد . قال الواحدى : فى قول الجميع ، واحدها نمرة بضم النون ، وزاد الفراء سماعا عن العرب نمرة بكسرها . قال الكلبي : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض ، ومنه قول الشاعر :

وإنا لنجربى الكأس بين شروبنا وبين أبى قابوس فوق النمارق

وقال الآخر : كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

قال فى الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة ، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب (وزراني مبثوثة) يعنى البسط ، واحدها زرني وزربية . قال أبو عبيدة والفراء : الزراني الطنافس التى لها خمل رقيق ، واحدها زربية ، والمبثوثة المبسوطة قاله قتادة . وقال عكرمة : بعضها فوق بعض . قال الواحدى : ويجوز أن يكون المعنى : أنها مفرقة فى المجالس . وبه قال القتيبي . وقال الفراء : معنى مبثوثة كثيرة ، والظاهر أن معنى البث : التفرق مع كثرة ، ومنه - وبث فيها من كل دابة - (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) الاستفهام للتقرير والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدّر كما فى نظائره مما مرّ غير مرّة ، والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه ، وكذا ما بعدها ، وكيف منصوبة بما بعدها ، والجملة فى محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل ، والمعنى : أينكرون أمر البعث ويستبعدون وقوعه ، أفلا ينظرون إلى الإبل التى هى غالب مواشيهم وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات (كيف خلقت) على ما هى عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوتها وبديع أوصافها . قال أبو عمرو بن العلاء : إنما خصّ الإبل لأنها من ذوات الأربع تترك فتحمّل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم : قال الزجاج : نبههم على عظم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينبّخه وينهضه ويحمل عليه الثقل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك فى شيء من الحوامل غيره ، فأراهم عظميا من خلقه ليدلّ بذلك على توحيده . وسئل الحسن عن هذه الآية ، وقيل له الفيل أعظم فى الأعجوبة ، فقال : أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به ، ثم هو خنزير لا يركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يحلب درّه ، والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه ، تأكل النوى والقت وتخرج اللبن ويأخذ الصبيّ بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها . وقال المبرد : الإبل هنا هى القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة .

وروى عن الأصمعي أنه قال : من قرأ « خلقت » بالتخفيف عني به البعير ، ومن قرأ بالتشديد عني به السحاب (وإلى السماء كيف رفعت) أي رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل ، وقيل رفعت فلا ينالها شيء (وإلى الجبال كيف نصبت) على الأرض مرساة راسخة لا تميد ولا تميل ولا تزول (وإلى الأرض كيف سطحت) أي بسطت ، والسطح بسط الشيء ، يقال لظهر البيت إذا كان مستويا : سطح . قرأ الجمهور « سطحت » مبنيا للمفعول مخففا . وقرأ الحسن : بالتشديد . وقرأ علي بن أبي طالب وابن السمين وأبو العالية : خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها . ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالتذكير فقال (فذكر) والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها : أي فعظهم يا محمد وخوفهم ثم علل الأمر بالتذكير فقال (إنما أنت مذكر) أي ليس عليك إلا ذلك ، و (لست عليهم بمسيطر) المسيطر بالسين والصاد : المساط على الشيء ليصرف عليه ويتعهد أحواله كذا في الصحاح : أي لست عليهم بمسيطر حتى تكرهمهم على الإيمان ، وهذا منسوخ بآية السيف . قرأ الجمهور « بمسيطر » بالصاد ، وقرأ هشام وقنبل في رواية بالسين . وقرأ خلف بإشمام الصاد زاي . وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول (إلا من تولى وكفر) هذا استثناء منقطع : أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير (فيعذبه الله العذاب الأكبر) وهو عذاب جهنم الدائم ، وقيل هو استثناء متصل من قوله (فذكر) أي فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، والأول أولى . وإنما قال « الأكبر » لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر . وقرأ ابن مسعود « فإنه يعذبه الله » وقرأ ابن عباس وقتادة « ألا من تولى » على أنها ألا التي للتنبيه والاستفتاح (إن إلينا إيابهم) أي رجوعهم بعد الموت ، يقال آب يثوب : إذا رجع ، ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وكل ذي غيبة يثوب وغائب الموت لا يثوب

قرأ الجمهور « إيابهم » بالتخفيف ، وقرأ أبو جعفر وشيبة بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ولو جاز لحاز مثله في الصيام والقيام ، وقيل هما لغتان بمعنى . قال الواحدي : وأما « إيابهم » بتشديد الياء فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج (ثم إن علينا حسابهم) يعني جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث ، وثم للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الغاشية من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (هل أتاك حديث الغاشية) قال : الساعة (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) قال : تعمل وتنصب في النار (تسقى من عين آنية) قال : هي التي قد طال أينها (ليس لهم طعام إلا من ضريع) قال : الشبرق . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) قال : يعني اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها (تسقى من عين آنية) قال : قد أنى غليانها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (تصلى نارا حامية) قال : حارة ، (تسقى من عين آنية) قال : انتهى حرها (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يقول : من شجر من نار . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا (إلا من ضريع) قال : الشبرق اليابس . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (لاتسمع فيها لاغية) يقول : لاتسمع أذى ولا باطل وفي قوله (فيها سرر مرفوعة) قال : بعضها فوق بعض (ونمارق) قال : مجالس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا (ونمارق) قال : المرافق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (لست عليهم بمسيطر) قال : جبار (إلا من تولى وكفر) قال : حسابه على الله . وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضا (لست عليهم بمسيطر) ثم نسخ ذلك فقال - اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - وأخرج ابن المنذر عنه أيضا (إن إلينا إيابهم) قال : مرجعهم .

تفسير سورة الفجر

هي ثلاثون آية ، وقيل تسع وعشرون آية

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال : نزلت (والفجر) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج النسائي عن جابر قال : « صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطوّل ، فصلّى في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذاً فقال : منافق ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله جئت أصلي فطوّل عليّ ، فانصرفت فصليت في ناحية المسجد فعلقت ناضحى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أفتان أنت يا معاذ ؟ أين أنت من سبّح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والفجر ، والليل إذا يغشى . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته . واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا ؛ فقيل هو الوقت المعروف ، وسمى فجراً لأنه وقت انتمجار الظلمة عن النهار من كل يوم . وقال قتادة : إنه فجر أوّل يوم من شهر محرم ، لأن منه تتفجر السنة . وقال مجاهد : يريد يوم النحر . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ، لأن الله قرن الأيام به فقال (وليالٍ عشر) أى ليالى عشر من ذى الحجة ، وبه قال السدي والكلبي . وقيل المعنى : وصلاة الفجر أو ربّ الفجر . والأوّل أولى . وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله (إن ربك لبالمرصاد) كذا قال ابن الأنباري ، وقيل محذوف لدلالة السياق عليه : أى ليجازين كل أحد بما عمل ، أو ليعذبين ، وقدّره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التي قبله : أى والفجر الخ لإيابهم إلينا وحسابهم علينا ، وهذا ضعيف جداً ، وأضعف منه قول من قال : إن الجواب قوله - هل في ذلك قسم لذي حجر - وأن هل بمعنى قد ، لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً (وليالٍ عشر) هي عشر ذى الحجة في قول جمهور المفسرين . وقال الضحاك : إنها الأواخر من رمضان ، وقيل العشر الأوّل من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء . قرأ الجمهور « ليالٍ » بالتثنية ، وعشر صفة لها . وقرأ ابن عباس « وليالى عشر » بالإضافة ، قيل والمراد ليالى أيام عشر ، وكان حقه على هذا أن

يقال عشرة ، لأن المعلوم مذكر . وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعلوم جاز الوجهان (والشفع والوتر) الشفع والوتر يعلمان كل الأشياء شفعها ووترها ، وقيل شفع الليالي ووترها . وقال قتادة : الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها ، منها شفع ومنها وتر . وقيل الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر . وقال مجاهد وعطية العوفي : الشفع الخلق ، والوتر الله الواحد الصمد ، وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقاتدة . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب فيها ركعتان والوتر الركعة . وقال الضحاك : الشفع عشر ذى الحجة والوتر أيام منى الثلاثة ، وبه قال عطاء . وقيل هما آدم وحواء ، لأن آدم كان وترافشع بحواء . وقيل الشفع درجات الجنة وهي ثمان ، والوتر دركات النار وهي سبع ، وبه قال الحسين بن الفضل . وقيل الشفع الصفا والمروة ، والوتر الكعبة . وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضا لقوله - ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم - الآية . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر العدد كله ، لأن العدد لا يخلو عنهما . وقيل الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس . وقيل الشفع حجج القرآن ، والوتر الأفراد . وقيل الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى ، والوتر الجماد . وقيل الشفع ماسمي ، والوتر مالا يسمي . ولا يخفك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين والضعف الظاهر ، والاتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف ، والخطر الخاطي .

والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب ، وهما معروفان واضحيان ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد . فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدادات بأنه شفع أو وتر . وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدادات في تفسير هذه الآية ، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك ، وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعا من تناولها لغيره . قرأ الجمهور « والوتر » بفتح الواو . وقرأ حمزة والكسائي وخلف بكسرها ، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه وهما لغتان ، والفتح لغة قریش وأهل الحجاز ، والكسر لغة تميم . قال الأصمعي : كل فرد وتر ، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد . وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء ، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة ، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء لإجراء اللوصل مجرى الوقف (والليل إذا يسر) قرأ الجمهور « يسر » بحذف الياء وصلا ووقفا اتباعا لرسم المصحف . وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف . قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرءوس الآي . قال الزجاج : والحذف أحب إلى لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياء . قال الفراء : قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها ، وأنشد بعضهم :

كفالك كف ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف دما

ماتليق : أي متمسك . قال المورج : سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال : لا أجيبك حتى تبين علي باب دارى سنة ، فبت على باب داره سنة فقال : الليل لا يسرى ، وإنما يسرى فيه ، فهو مصروف عن جهته ، وكل ما صرفته عن جهته بنجسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله - وما كانت أملك بغيا - ولم يقل بغية ، لأنه صرفها من باغية .

وفي كلام الأخفش هذا نظر ، فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه ، ولو صح ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظية ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، والأصل

ههنا إثبات الياء ، لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعله من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رعوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي : ومعنى (والليل إذا يسر) إذا يمضي ، كقوله - والليل إذا أدبر - والليل إذا عسعس - وقيل معنى يسر : يسار فيه ، كما يقال ليل نائم أو نهار صائم ، كما في قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطى بناثم

وبهذا قال الأنخفش والقتبي وغيرهما من أهل المعاني ، وبالأول قال جمهور المفسرين . وقال قتادة وأبو العالية : (والليل إذا يسر) أي جاء وأقبل . وقال النخعي : أي استوى . قال عكرمة وقاتة والكلبي ومحمد بن كعب : هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه ، وقيل ليلة القدر لسراية الرحمة فيها . والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى (هل في ذلك قسم لذي حجر) هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى تلك الأمور ، والتذكير بتأويل المذكور : أي هل في ذلك المذكور : من الأمور التي أقسمنا بها قسم : أي مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار (لذي حجر) أي عقل ولب ، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به ، ومثل هذا قوله - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - . قال الحسن (لذي حجر) أي لذي حلم . وقال أبو مالك : لذي ستر من الناس . وقال الجمهور : الحجر العقل . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد ، لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر ، الكل بمعنى العقل . وأصل الحجر المنع ، يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لنو حجر ، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته ، ومنه حجر الحاكم على فلان : أي منعه . قال والعرب تقول : إنه لنو حجر : إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها . ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسول تحذيرا للكفار في عصر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وتخويفا لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد) قرأ الجمهور بتنوين « عاد » على أن يكون إرم عطف بيان لعاد ، والمراد بعاد اسم أبيهم ، وإرم اسم القبيلة أو بدلا منه ، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث . وقيل المراد بعاد أولاد عاد ، وهم عاد الأولى ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى ، فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل ، للدلالة على أنهم عاد الأولى لاعاد الأخرى ، ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين : أي أهل إرم ، أو سبط إرم ؟ فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقرأ الحسن وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم . وقرأ الجمهور « إرم » بكسر الهمزة . وفتح الراء والميم . وقرأ الحسن ومجاهد وقاتة والضحاك « أرم » بفتح الهمزة والراء ، وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفا ، وقرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام واحدها أرم ، وفي الكلام تقديم وتأخير : أي والفجر وكذا وكذا (إن ربك لبالمرصاد) ألم تر : أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد ، وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له ، وقد كان أمر عاد وثمود مشهورا عند العرب ، لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون : وقال مجاهد أيضا : إرم أمة من الأمم ، وقال قتادة : هي قبيلة من عاد ، وقيل هما عادان ، فالأولى هي إرم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

مجدا تليدا بناه أوهم أدرك عادا وقبله إرم

قال معمر : إرم إليه مجتمع عاد و ثمود ، وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود ، وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم . قال أبو عبيدة : هما عادان ، فالأولى إرم . ومعنى ذات العماد : ذات القوة والشدة ، مأخوذ من قوة الأعمدة ، كذا قال الضحاك . وقال قتادة ومجاهد : إنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم . وقال مقاتل : ذات العماد يعني طولهم ، كان طول الرجل منهم اثني عشرة ذراعا ، ويقال رجل طويل العماد : أي القامة . قال أبو عبيدة : ذات العماد ذات الطول ، يقال رجل معمد : إذا كان طويلا . وقال مجاهد و قتادة : أيضا كان عمادا لقومهم ، يقال فلان عميد القوم وعمودهم : أي سيدهم . وقال ابن زيد : ذات العماد يعني لإحكام البنيان بالعمد . قال في الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث ، قال عمرو بن كلثوم :
ونحن إذا عماد الحى خرت
على الإخفاض نمنع من يلينا

وقال عكرمة وسعيد المقبرى : هي دمشق ، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب : هي الإسكندرية (التي لم يخلق مثلها في البلاد) هذه صفة لعاد : أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة ، وهم الذين قالوا - من أشد منا قوة - أو صفة للقرية على قول من قال : إن إرم اسم لقريتهم أو للأرض التي كانوا فيها . والأول أولى ، ويدل عليه قراءة أبي « التي لم يخلق مثلهم في البلاد » وقيل الإرم الهلاك . قال الضحاك إرم ذات العماد : أي أهلكهم فجعلهم رميا ، وبه قال شهر بن حوشب . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وإن حصباءها جواهر وترابها مسك ، وليس بها أنيس ولا فيها ساكن من بنى آدم ، وإنما لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع ، فتارة تكون باليمن ، وتارة تكون بالشام ، وتارة تكون بالعراق ، وتارة تكون بسائر البلاد ، وهذا كذب بحت لا ينفق على من له أدنى تميز . وزاد الثعلبي في تفسيره فقال : إن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة ، وهذا كذب على كذب وافتراء على افتراء ، وقد أصيب الإسلام وأهله بداهية دهياء وفاقرة عظمى ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب ، تارة على بنى إسرائيل ، وتارة على الأنبياء ، وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين ، وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدّر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز ، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة والأقاصيص المنحولة والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا . ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتابي الذي سميته [الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة] . ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة ، وهي ثمود على قبيلة عاد فقال (و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد) وهم قوم صالح سموا باسم جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ، ومعنى جابوا الصخر : قطعوه ، والجوب القطع ، ومنه جاب البلاد : إذا قطعها ، ومنه سمي جيب القميص لأنه جيب : أي قطع . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور ثمود ، فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومنه قوله سبحانه - وتنتحون من الجبال بيوتا آمنين - وكانوا ينتحون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها ، وقوله (بالواد) متعلق بجابوا ، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادي القرى . قرأ الجمهور « ثمود » بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ، ففيه التأنيث والتعريف . وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها . وقرأ الجمهور أيضا بالواد بخذف الياء وصلا ووقفا اتباعا لرسم المصحف . وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما . وقرأ قبل في رواية عنه بإثباتها في الوصل دون الوقف (وفرعون ذى الأوتاد) أي ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد ، أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام ، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدّهم

إليها . وقد تقدم بيان هذا في سورة ص^٣ (الذين طغوا في البلاد) الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون : أى طغت كل طائفة منهم في بلادهم وتمردت وعتت ، والطغيان مجاوزة الحد (فأكثرُوا فيها الفساد) بالكفر ومعاصي الله والجور على عباده ، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هم الذين طغوا ، أو في محل نصب على الذم (فصبّ عليهم ربك سوط عذاب) أى أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب ، وهو ما عذبهم به . قال الزجاج : جعل صوته الذى ضربهم به العذاب ، يقال : صبّ على فلان خلعة : أى ألقاها عليه ، ومنه قول النابغة :

فصبّ عليه الله أحسن صبغة وكان له بين البرية ناصر

ومنه قول الآخر: ألم تر أن الله أظهر دينه وصبّ على الكفار سوط عذاب

ومعنى صوت عذاب : نصيب عذاب ، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وقيل ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم ، وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به . قال الفراء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب ، وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل معناه : عذاب يخالط اللحم والدم ، من قولهم ساطه يسوطه سوطا : أى خلطه ، فالسوط خلط الشئ ببعضه ببعض ، ومنه قول كعب بن زهير :

لكنها خلة قد سيط من دمها فجع وولع وإخلاف وتبدل

وقال الآخر : أحارث إنا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى لا يمسّ دم دما

وقال آخر : فسطها ذميم الرأى غير موفق فلست على تسويطها بمغان

(إن ربك بالمرصاد) قد قدّمنا قول من قال إن هذا جواب القسم . والأولى أن الجواب محذوف ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه صلى الله عليه وآله وسلم سيصيبيهم ما أصاب أولئك الكفار ، ومعنى بالمرصاد : أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . قال الحسن وعكرمة : أى عليه طريق العباد لا يفوته أحد ، والرصد والمرصاد : الطريق . وقد تقدّم بيانه في سورة براءة ، وتقدّم أيضا عند قوله - إن جهنم كانت مرصادا - .

وقد أخرج الثوري وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (والفجر) قال : فجر النهار . وأخرج ابن جرير عنه قال : يعنى صلاة الفجر . وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب وابن عساكر عنه أيضا في قوله (والفجر) قال : هو المحرم فجر الدنة ، وقد ورد في فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدلّ على أنه المراد بالآية لامطابقة ولا تضمنا ولا التزاما . وأخرج أحمد والنسائي والبخاري وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن جابر «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (والفجر وليال عشر والشفع والوتر) قال : إن العشر عشر الأضحى ، والوتر : يوم عرفة ، والشفع : يوم النحر . وفي لفظ : هى ليالى من ذى الحجة » . وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله أنه دخل على ابن عمر هو وأبوسلمة بن عبد الرحمن ، فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالى العشر التى ذكرها الله في القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك ، قال : بلى فاشكك . وقد

ورد في فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وليال عشر) قال : هي العشر الأواخر من رمضان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه عن عمران بن حصين « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الشفع والوتر ، فقال : هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » ، وفي إسناده رجل مجهول ، وهو الراوى له عن عمران بن حصين . وقد روى عن عمران بن عصام على عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول . وقال الترمذي بعد إخرجه بالإسناد الذي فيه الرجل المجهول : هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة . قال ابن كثير : وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ، والله أعلم . قال : ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر . وقد أخرج هذا الحديث موقوفا على عمران بن حصين عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، فهذا يقوى ما قاله ابن كثير . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله (والشفع والوتر) فقال : كل شيء شفع فهو اثنان ، والوتر واحد . وأخرج الطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : يومان وليلة ، يوم عرفة ، ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » . وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث » . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع قول الله - فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه - والوتر اليوم الثالث . وفي لفظ : الوتر أوسط أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه (والليل إذا يسر) قال : إذا ذهب . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ (والفجر) إلى قوله (إذا يسر) قال : هذا قسم على إن ربك بالمرصاد . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (قسم لذي حجر) قال : لذي حجى وعقل ونهى . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (بعاد إرم) قال : يعني بالإرم الهالك ، ألا ترى أنك تقول أرم بنو فلان (ذات العماد) يعني طولهم مثل العماد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدم بن معدى كرب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر (إرم ذات العماد) فقال : كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقبها على أيّ حتى أراد فيهلكهم ، وفي إسناده رجل مجهول لأن معاوية بن صالح رواه عن حدثه عن المقدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (جابوا الصخر بالواد) قال : خرقوها . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : كانوا ينحتون من الجبال بيوتا (وفرعون ذى الأوتاد) قال : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله (ذى الأوتاد) قال : وتد فرعون لامراته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (إن ربك لبالمرصاد) قال : يسمع ويرى . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأساء والصفات عن ابن مسعود في قوله (إن ربك لبالمرصاد) قال : من وراء الصراط جسور : جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرحم ، وجسر عليه الرب عز وجل .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَأْيُتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي (٣٠).

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وأن مطمح أنظارهم ومعظم متماصدهم هو الدنيا فقال (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه) أى امتحنه واختبره بالنعم (فأكرمه ونعمه) أى أكرمه بالمال ووسع عليه رزقه (فيقول ربى أكرمن) فرحا بما نال وسرورا بما أعطى ، غير شاكر لله على ذلك ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها ، و« ما » فى قوله (إذا ما) زائدة ، وقوله (فأكرمه ونعمه) تفسير للابتلاء ومعنى (أكرمن) أى فضلنى بما أعطانى من المال وأسبغه على من النعم لمزيد استحقاقى لذلك وكونى موضعاً له ، والإنسان مبتدأ ، وخبره « فيقول ربى أكرمن » ودخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر وإن تقدم لفظاً فهو مؤخر فى المعنى : أى فأما الإنسان فيقول ربى أكرمنى وقت ابتلائه بالإينعام . قال الكلبي : الإنسان هو الكافر أبى بن خلف . وقال مقاتل : نزلت فى أمية بن خلف ، وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة وأبى حذيفة بن المغيرة (وأما إذا ما ابتلاه) أى اختبره وعامله معاملة من يختبره (فقد رزقه) أى ضيقه ولم يوسع له ، ولا بسط له فيه (فيقول ربى أهانن) أى أولانى هواناً ، وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ويوفقه لعمل الآخرة ، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير وما أصيب به من الشر فى الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها لاتعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء . قرأ نافع بإثبات الياء فى « أكرمن وأهانن » وصلاً وحذفهما وقفاً ، وقرأ ابن كثير فى رواية البرزى عنه وابن محيصن ويعقوب بإثباتهما وصلاً ووقفاً ، وقرأ الباقر بحذفهما فى الوصل والوقف اتباعاً لرسم المصحف ولموافقة رءوس الآى ، والأصل إثباتها لأنها اسم ، ومن الحذف قول الشاعر :

ومن كاشع ظاهر عمره إذا ما انتصبت له أنكرن

أى أنكرنى . وقرأ الجمهور « فقلرب » بالتخفيف ، وقرأ ابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان . وقرأ الحزميان وأبو عمرو ربى بفتح الياء فى الموضعين وأسكنها الباقون . وقوله (كلا) ردع للإنسان القائل فى الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق وييسر النعم للإنسان لا لكرامته ، ويضيقه عليه لا لإهانتة ، بل للاختبار والامتحان كما تقدم . قال الفراء : كلا فى هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله على الغنى والفقير . ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال (بل لا تكرمون اليتيم) والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحنية على الخبر ، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور « تحضون » وتأكلون ، وتحبون » بالفوقية على الخطاب فيها . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحنية فيها ، والجمع فى هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان ، لأن المراد به الجنس : أى بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر ، وهى أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم . قال مقاتل : نزلت فى قدامة بن مظعون وكان يتما فى حجر أمية بن خلف (ولا تحضون على طعام المسكين) قرأ الجمهور « تحضون » من حظه على كذا : أى أغراه به ، ومفعوله محذوف : أى لا تحضون أنفسكم ، أو لا يحض بعضكم بعضا على ذلك ولا يأمر به ولا يرشد إليه ، وقرأ الكوفيون تحاضون بفتح التاء والحاء بعدها ألف ، وأصله تتحاضون ، فحذف إحدى التائين : أى لا يحض بعضكم بعضا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه والسلمى « تحاضون » بضم التاء من الحض ، وهو الحث ، وقوله (على طعام المسكين) متعلق بتحضون ، وهو إما اسم مصدر : أى على إطعام المسكين ، أو اسم للمطعم ، ويكون على حذف مضاف : أى على بذل طعام المسكين ، أو على إعطاء طعام المسكين (وتأكلون التراث) أصله التراث ، فأبدلت التاء من الواو المضمومة ، كما فى تجاه ووجه ، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم ، وكذلك أموال النساء ، وذلك أنهم كانوا لا يرثون النساء والصبيان ويأكلون أموالهم (أكلا لما) أى أكلا شديدا ، وقيل معنى لما جمعا ، من قولهم : لمت الطعام : إذا أكلته جميعا . قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليتيم ، وكذا قال أبو عبيدة . وأصل اللم فى كلام العرب : الجمع ، يقال لمت الشيء ألمه لما : جمعته ، ومنه قولهم : لم الله شعثه : أى جمع ما تفرق من أموره ، ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

قال الليث : اللم الجمع الشديد ، ومنه حجر ملموم ، وكتيبة ملمومة ، والآكل يلم الثريد فيجمعه ثم يأكله . وقال مجاهد : يسهه سفا . وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ألم بما لا غيره فأكله ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب (وتحبون المال حبا جما) أى حبا كثيرا ، والجحى الكثير ، يقال جحى الماء فى الخوض : إذا كثر واجتمع ، والجمعة : المكان الذى يجتمع فيه الماء . ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر فقال (كلا) أى ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم . ثم استأنف سبحانه فقال (إذا دكت الأرض دكا دكا) وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر ، والدك : الكسر والدق ، والمعنى هنا : أنها زلزلت وحركت تحريكا بعد تحريك . قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت . قال الزجاج : أى تزلزلت فدك بعضها بعضا . قال المبرد : أى بسطت وذهب ارتفاعها . قال والدك : حط المرتفع بالبسط ، وقد تقدم الكلام على الدك فى سورة الأعراف ، وفى سورة الحاقة ، والمعنى : أنها دكت مرة بعد أخرى ، وانتصاب دكا الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ، ودكا الثانى تأكيد للأول ، كذا قال ابن عصفور . ويجوز أن يكون النصب على الحال : أى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة ، كما يقال : علمته الحساب بابا بابا ، وعلمته

الخط حرفا حرفا ، والمعنى : أنه كرّر الدك عليها حتى صارت هباء منبثا (وجاء ربك) أى جاء أمره وقضاؤه وظهرت آياته ، وقيل المعنى : أنها زالت الشبه في ذلك اليرم وظهرت المعارف وصارت ضرورية كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذى كان يشك فيه ، ، وقيل جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئا من ذلك (والملك صفا صفا) انتصاب صفا صفا على الحال : أى مصطفىين ، أو ذوى صفوف . قال عطاء : يريد صفوف الملائكة ، وأهل كل سماه صف على حدة . قال الضحاك : أهل كل سماه إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض ومن فيها ، فيكزنون سبعة صفوف (وجيء يومئذ بجهنم) يومئذ منصوب بجيء ، والقائم مقام الفاعل بجهنم ، وجوز مكى أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل ، وليس بذلك . قال الواحدى : قال جماعة من المفسرين : جىء بها يوم القيامة مزومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبته يقول يارب نفسى نفسى . وسيأتى الذى هذا نقله عن جماعة المفسرين مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن شاء الله (يومئذ يتذكر الإنسان) يومئذ هذا بدل من يومئذ الذى قبله : أى يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان : أى يتعظ ويذكر ما فرط منه ويندم على ما قدّمه في الدنيا من الكفر والمعاصي . وقيل إن قوله « يومئذ » الثانى بدل من قوله « إذا دكت » والعامل فيهما هو قوله « يتذكر الإنسان » (وأنى له الذكرى) أى ومن أين له التذكر والاعتاظ ، وقيل هو على حذف مضاف : أى ومن أين له منفعة الذكرى . قال الزجاج : يظهر التوبة ومن أين له التوبة ؟ (يقول يا ليتنى قدّمت لحياتى) الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا يقول الإنسان ، ويجوز أن تكون بدل اشتغال من قوله : يتذكر ، والمعنى : يتمنى أنه قدّم الخير والعمل الصالح ، واللام في لحياتى بمعنى لأجل حياتى ، والمراد حياة الآخرة ، فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة . وقيل إن اللام بمعنى فى ، والمراد حياة الدنيا : أى يا ليتنى قدّمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا أنتفع بها هذا اليوم ، والأول أولى . قال الحسن : علم والله أنه صادف حياة طويلة لاموت فيها (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد) أى يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد (ولا يوثق) كـ (وثاقه أحد) أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له ، والضميران على التثنية فى عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور يعذب ويوثق مبنيين للفاعل . وقرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما ، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان : أى لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ولا يوثق كوثاقه أحد ، والمراد بالإنسان الكافر : أى لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر ، وقيل لإبليس ، وقيل المراد به أنى بن خلف . قال الفراء : المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد لتناهيه فى الكفر والعناد . وقيل المعنى : أنه لا يعذب مكانه أحد ولا يوثق مكانه أحد ، فلا تؤخذ منه فدية ، وهو كقوله - ولا تزر وازرة وزر أخرى - والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى التوثيق ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسائى ، قال : وتكون الهاء فى الموضعين ضمير الكافر ، لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . قال أبو على الفارسي : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة : أى لا يعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر . ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال (يا أيها النفس المطمئنة) المطمئنة هى الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله ، الواصلة إلى ثلج اليمين بحيث لا يخالطها شك ولا يعترها ريب . قال الحسن : هى المؤمنة الموقنة . وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان : المطمئنة بذكر الله ، وقيل المخلصة . قال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث (أرجعني إلى ربك) أي أرجعني إلى الله (راضية) بالثواب الذي أعطاك (مرضية) عنده ، وقيل أرجعني إلى مواعده ، وقيل إلى أمره . وقال عكرمة وعطاء : معنى (أرجعني إلى ربك) إلى جسدك الذي كنت فيه ، واختاره ابن جرير ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس « فادخلي في عبادي » بالإفراد ، والأول أولى (فادخلي في عبادي) أي في زمرة عبادي الصالحين وكوني من جملتهم وانتظمي في سلكهم (وادخلي جنتي) معهم قيل إنه يقال لها أرجعني إلى ربك عند خروجها من الدنيا ، ويقال لها : ادخلي في عبادي وادخلي جنتي يوم القيامة ، والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم ، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة ، فلا اعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أكلا لما) قال : سفا ، وفي قوله (حبا جما) قال : شديدا ، وأخرج ابن جرير عنه (أكلا لما) قال : شديدا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (إذا دكت الأرض دكا دكا) قال : تحريكها . وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يوثق بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وأني له الذكرى) يقول : وكيف له ؟ وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (فيومئذ لا يعذب) الآية قال : لا يعذب بعذاب الله أحد ولا يوثق بوثق الله أحد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عنه أيضا في قوله (يا أيها النفس المطمئنة) قال : المؤمنة (أرجعني إلى ربك) يقول : إلى جسدك . قال « نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا ، فقال : أما إنه سيقال لك هذا » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبيرة نحوه مرسلا . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول نحوه عن أبي بكر الصديق وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (يا أيها النفس المطمئنة) قال : هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال (النفس المطمئنة) المصدقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال : تردّ الأرواح يوم القيامة في الأجساد . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (أرجعني إلى ربك راضية) قال : بما أعطيت من الثواب (مرضية) عنها بعملها (فادخلي في عبادي) المؤمنين . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن سعيد بن جبيرة قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لاندري من تلاها (يا أيها النفس المطمئنة أرجعني إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عكرمة مثله .

تفسير سورة البلد

ويقال سورة لا أقسم ، هي عشرون آية

وهي مكة بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠) .

قوله (لا أقسم) لا زائدة ، والمعنى أقسم (بهذا البلد) وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير - لا أقسم بيوم القيامة - ومن زيادة « لا » في الكلام في غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتصدع

أى يتصدع ، ومن ذلك قوله - مامعتك أن لا تسجد - أى أن تسجد . قال الواحدي : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة . قرأ الجمهور « لا أقسم » وقرأ الحسن والأعمش « لأقسم » من غير ألف ، وقيل هو نفي للقسم ، والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . وقال مجاهد : إن « لا » رد على من أنكر البعث ، ثم ابتداء فقال أقسم ، والمعنى : ليس الأمر كما تحسبون ، والأول أولى . والمعنى : أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حل فيه . وقال الواسطي : إن المراد بالبلد المدينة ، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكة لا مدنية ، وجملة قوله (وأنت حل بهذا البلد) معترضة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد (ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد) واعترض بينهما بهذه الجملة ، والمعنى : ومن المكابد أن مثلك على عظيم حرمة يستحل بهذا البلد كما يستحل الصيد في غير الحرم . وقال الواحدي : الحل والحلال والمحل واحد ، وهو ضد المحرم ، أحل الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح حتى قاتل ، وقد قال صلى الله عليه وآله

وسلم ولم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ، قال : والمعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراما ، فوعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده ، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلا انتهى . فالمعنى : وأنت حل بهذا البلد في المستقبل ، كما في قوله - إنك ميت وإنهم ميتون - قال مجاهد : المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حل . قال قتادة أنت حل به لست بآثم : يعني أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي . وقيل المعنى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حل به ومقيم فيه وهو محلك ، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى : لا أقسم به وأنت حل به ، فأنت أحق بالإقسام بك ، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفا لك وتعظيما لقدرك لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيما شريفا ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم ، ولكن هذا إذا تقرر في لغة العرب أن لفظ حل يحى بمعنى حل ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال (ووالد وما ولد) عطف على البلد . قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح (ووالد) أى آدم (وما ولد) أى وما تناسل من ولده أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون . وقال أبو عمران الجوني : الوالد إبراهيم ، وما ولد : ذويته . قال الفرّاء : إن « ما » عبارة عن الناس كقوله - ما طاب لكم - وقيل الوالد إبراهيم ، والولد إسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقال عكرمة وسعيد ابن جبير : (ووالد) يعنى الذى يولد له (وما ولد) يعنى العاقر الذى لا يولد له ، وكأنهما جعلتا ما نافية ، وهو بعيد ، ولا يصح ذلك إلا بإضمار الموصول : أى ووالد والذى ما ولد ، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين ، وقال عطية العوفي : هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات ، واختار هذا ابن جرير (لقد خلقنا الإنسان في كبد) هذا جواب القسم ، والإنسان هو هذا النوع الإنسانى ، والكبد : الشدة والمشقة ، يقال كابدت الأمر : قاسيت شدته ، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائد لها حتى يموت ، وأصل الكبد الشدة ، ومنه تكبد اللبن : إذا غلظ واشتد ، ويقال كبد الرجل : إذا وجعت كبده ، ثم استعمل في كل شدة ومشقة ، ومنه قول أبي الأصمغ :

لى ابن عم لو أن الناس فى كبد لظل محتجرا بالنبل يرمى

قال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال أيضا : يكابد الشكر على السراء ، ويكابد الصبر على الضراء ، لا يخلو عن أحدهما . قال الكلبي : نزلت هذه الآية في رجل من بنى جمح يقال له أبو الأشدين ، وكان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجله ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه نزل (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) يعنى لقوته ، ويكون معنى (في كبد) على هذا : في شدة خلق ، وقيل معنى (في كبد) أنه جرى القلب غليظ الكبد (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) أى يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد ، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هي الخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدّر . ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال (يقول أهلكم إلا ليدا) أى كثيرا مجتمعا بعضه على بعض . قال الليث : ما ليد لا يخاف فناؤه من كثرتة . قال الكلبي ومقاتل : يقول أهلكم في عداوة محمد مالا كثيرا . وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل : أذنب ، فاستغنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأمره أن يكفر ، فقال : لقد ذهب مالى في

الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد . قرأ الجمهور « لبدا » بضم اللام وفتح الباء مخففا . وقرأ مجاهد وحيد بضم اللام والباء مخففا . وقرأ أبو جعفر بضم اللام وفتح الباء مشددا . قال أبو عبيدة : لبدا فعل من التلبيد ، وهو المال الكثير بمضه على بعض . قال الزجاج : فعل للكثرة ، يقال رجل حطم : إذا كان كثير الحطم . قال الفراء : واحدته لبدة والجمع لبدا . وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن (أنحسب أن لم يره أحد) أي أيظن أنه لم يعاينه أحد . قال قتادة : أيظن أن الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟ وقال الكلبي : كان كاذبا لم ينفق ما قال ، فقال الله : أيظن أن الله لم يره ذلك منه ، فعل أولم يفعل ، أنفق أولم ينفق . ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما (واسانا) ينطق به (وشفتين) يستر بهما ثغره . قال الزجاج : المعنى ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام ، وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شمية (وهديناه النجدين) النجد : الطريق في ارتفاع . قال المفسرون : بينا له طريق الخير وطريق الشر . قال الزجاج : المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر ، مبيتين كتبين الطريقين العاليتين . وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك . النجدان : الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والأول أولى . وأصل النجد المكان المرتفع ، وجمعه نجود ، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة ، فالنجدان الطريقان العاليان ، ومنه قول امرئ القيس :
فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

(فلا اقتحم العقبة) الاقتحام : الرمي بالنفس في شيء من غير روية ، يقال منه : قحم في الأمر قحوما : أي رمى بنفسه فيه من غير روية ، وتقحم النفس في الشيء : إدخالها فيه من غير روية ، والقحمة بالضم المهلكة . والعقبة في الأصل الطريق التي في الجبل ، سميت بذلك لصعوبة سلوكها ، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر ، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة . قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا « لا » مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر كقوله - فلا صدق ولا صلي - وإنما أفردا هنا للدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله « ثم كان من الذين آمنوا » قائما مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن . قال المبرد وأبو على الفارسي : إن « لا » هنا بمعنى لم : أي فلم يقتحم العقبة ، وروى نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، ومنه قول زهير :

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبدا ما ولم يتقدم

أي فلم يبدها ولم يتقدم ، وقيل هو جار مجرى الدعاء كقولهم : لا نجاء . قال أبو زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار ، تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة . ثم بين سبحانه العقبة فقال (وما أدراك ما العقبة) أي أي شيء أعلمك ما اقتحامها (فك رقبة) أي هي إعتاق رقبة وتخليصها من أسار الرق ، وكل شيء أطلقته فقد فككته ، ومنه : فك الرهن ، وفك الكتاب ، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المذكورة التي تكون بها النجاة من النار . قال الحسن وقاتدة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر ، فاقتحموها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكلبي : هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف . وقال كعب : هي نار دون الجسر . قيل وفي الكلام حذف : أي وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي « فك رقبة » على أنه فعل ماض ونصب رقبة على المفعولية ، وهكذا قرأ أو اطعم : على أنه فعل

ماض . وقرأ الباقون « فك أو إطعام » على أنهما مصدران وجر رقة بإضافة المصدر إليها ، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلا من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل : فلا فك ولا أطمع ، والفك في الأصل : حل القيد ، سمي العتق فكاً لأن الرق كالقيد ، وسمى المرقوق رقة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) المسغبة المجاعة ، والسغب الجوع ، والساغب الجائع . قال الراغب : يقال منه سغب الرجل سغباً وسغبوا فهو ساغب وسغبان ، والمسغبة مفعلة منه ، وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت حرّاً يا بن قيس بن عاصم لما بتّ شعبانا وجارك ساغباً

قال النخعي (في يوم ذي مسغبة) أي عزيز فيه الطعام (يتيماً ذا مقربة) أي قرابة ، يقال : فلان ذو قرابتي وذو مقربتي ، واليتيم في الأصل : الضعيف يقال : يتم الرجل : إذا ضعف ، واليتيم عند أهل اللغة : من لا أب له ، وقيل : هو من لا أب له ولا أم ، ومنه قول قيس بن الملوّح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكنا إلى الله فقد الوالدين يتيم

(أو مسكيناً ذا متربة) أي لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره ، وليس له مأوى إلا التراب ، يقال ترب الرجل يترب تراباً ومتربة : إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرّاً . قال مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : هو ذو العيال . وقال عكرمة : هو المديون . وقال أبو سنان : هو ذو الزمانة . وقال ابن جبير : هو الذي ليس له أحد . وقال عكرمة : هو البعيد التربة الغريب عن وطنه ، والأول أولى ، ومنه قول الهذلي :

وكنا إذا ما الضيف حلّ بأرضنا سفكنا دماء البدن في تربة الحال

قرأ الجمهور « ذي مسغبة » على أنه صفة ليوم ، ويتيماً هو مفعول إطعام . وقرأ الحسن « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول إطعام : أي يطعمون ذا مسغبة ، ويتيماً بدل منه (ثم كان من الذين آمنوا) عطف على المنى بلا ، وجاء ثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله . وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان ، وقيل المعنى : ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم . وقيل المعنى : أنه أتى بهذه القرب لوجه الله (وتواصوا بالصبر) معطوف على آمنوا : أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلياء والمصائب (وتواصوا بالرحمة) أي بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة (هم أصحاب الميمنة) أي أصحاب جهة اليمين ، أو أصحاب اليمين ، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ، وقيل غير ذلك مما قد قدّمنا ذكره في سررة الواقعة (والذين كفروا بآياتنا) أي بالقرآن ، أو بما هو أعم منه ، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التي تدل على الصانع سبحانه (هم أصحاب المشأمة) أي أصحاب الشمال ، أو أصحاب الشؤم ، أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم ، أو غير ذلك مما تقدّم (عليهم نار مؤصدة) أي مطبقة مغلقة ، يقال : أصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقتة ، ومنه قول الشاعر :

نحن إلى أجبال مكة ناقي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

قرأ الجمهور « مؤصدة » بالواو . وقرأ أبو عمرو وحفص بالهمزة مكان الواو ، وهما لغتان ، والمعنى واحد وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لا أقسم بهذا البلد) قال : مكة (وأنت حلّ بهذا البلد) يعني بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيي من شاء ،

فقتل له يومئذ ابن خطال صبورا ، وهو آخذ بأستار الكعبة ، فلم يحل لأحد من الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يفعل فيها حراما حرمة الله ، فأحل الله له ما صنع بأهل مكة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في قوله (لا أقسم بهذا البلد) قال مكة (وأنت حل بهذا البلد) قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه ، وأما غيرك فلا . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة الأسلمي قال : نزلت هذه الآية (لا أقسم بهذا البلد) وأنت حل بهذا البلد) في ، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، فضربت عنقه بين الركن والمقام . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس (لا أقسم بهذا البلد) قال : أحل له أن يصنع فيه ما شاء (ووالد وما ولد) قال : يعني بالوالد آدم ، وما ولد ولده . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية . قال الوالد الذي ولد ، وما ولد العاقر لا يلد من الرجال والنساء . وأخرج ابن جرير والطبراني عنه أيضا ووالد قال آدم (لقد خلقنا الإنسان في كيد) قال : في اعتدال وانتصاب . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان في كيد) قال : في شدة . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان في كيد) قال : في شدة خلق ولادته ونبت أسنانه ومعيشته وختانه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان في كيد) قال : يمشي على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصبا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان في كيد) قال : منتصبا في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لفرق في الدم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في قوله (مالا لبدا) قال : كثيرا . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله (وهديناه النجدين) قال : سبيل الخير والشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وهديناه النجدين) قال : الهدى والضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : سبيل الخير والشر . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق سنان بن سعد عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » تفرد به سنان بن سعد ، ويقال سعد بن سنان . وقد وثقه يحيى بن معين . وقال الإمام أحمد والنسائي والبخاري : منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه ، قد روى خمسة عشر حديثا منكرا كلها ما أعرف منها حديثا واحدا ، يشبه حديثه حديث الحسن البصري ، لا يشبه حديث أنس . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن طريق عن الحسن قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول ، فذكره . وهما مرسل ، وكذا رواه قتادة مرسلا . أخرجه عنه ابن جرير ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « يا أيها الناس إنما نجدان : نجد خير ، ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » ويشهد له أيضا ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إنما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق عن ابن عباس في قوله (وهديناه النجدين) قال : الثديين . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله (فلا اقتحم العقبة) قال : جبل زلال في جهنم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : العقبة النار . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : عقبة بين الجنة والنار . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت « لما نزل (فلا اقتحم العقبة) قيل

يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السرداء تخدمه ، فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلى من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد . وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ « لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجرا من هذا » . وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة : منها في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج » . وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (في يوم ذي مسغبة) قال : مجاعة . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه (في يوم ذي مسغبة) قال : جوع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا (يتيها ذا مقربة) قال : ذا قرابة ، وفي قوله (ذا مقربة) قال : بعيد التربة : أي غريبا عن وطنه وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا (أو مسكينا ذا مقربة) قال : هو المطروح الذي ليس له بيت . وفي لفظ للحاكم : هو الذي لا يقبض من التراب شيء . وفي لفظ : هو اللازق بالتراب من شدة الفقر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (مسكينا ذا مقربة) قال : الذي مأواه المزابل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وتواصوا بالرحمة) يعني بذلك رحمة الناس كلهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (مؤصدة) قال : مغالقة الأبواب . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة (مؤصدة) قال مطبقة .

تفسير سورة الشمس

هي خمس عشرة آية

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت والشمس وضحاها بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي عن بريدة : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في صلاة العشاء والشمس وضحاها وأشباهاها من السور » . وقد تقدم حديث جابر في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ : « هلا صليت بسمي اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » وأخرج الطبراني عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بالليل إذا يغشى والشمس وضحاها » . وأخرج البيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نصل ركعتي الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها والضحى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَيَّهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ

بَطْغُوبِهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقِيهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَلَمَ دَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّيْهَا (١٤) فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥).

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وقال قوم : إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف : أي (و) رب (الشمس) ورب القمر ، وهكذا سائرهما ، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له ، وقوله (وضحاها) هو قسم ثان قال مجاهد : وضحاها : أي ضوئها وإشراقها ، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي . وقال قتادة : ضحاها بنهارها كله . قال الفراء : الضحى هو النهار . وقال المبرد : أصل الضحى الصبح ، وهو نور الشمس . قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل ، وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فامتشقوا الياء فقلبوها ألفا . قيل والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلا ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد . قال المبرد : الضحى والضحوه مشتقان من الضح وهو النور ، فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف في جواب القسم ماذا هو ؟ ف قيل هو قوله (قد أفلاح من زكاها) قاله الزجاج وغيره . قال الزجاج : وحذفت اللام ، لأن الكلام قد طال ، فصار طوله عوضا منها ، وقيل الجواب محذوف : أي والشمس ، وكذا تتبعن ، وقيل تقديره : لئلا يملن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا ، وأما (قد أفلاح من زكاها) فكلام تابع لقوله (فألهما فجورها وتقراها) على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء ، وقيل هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلاح من زكاها وقد خاب من دساها والشمس وضحاها ، والأول أولى (والقمر إذا تلاها) أي تبعها ، وذلك بأن طالع بعد غروبها ، يقال تلا يتلو تلاوا : إذا تبع . قال المفسرون : وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور . قال الزجاج : تلاها حين استدار ، فكان يتلو الشمس في الضياء والنور ، يعني إذا كمل ضوؤه فصار تابعا للشمس في الإنارة ، يعني كان مثلها في الإضاءة ، وذلك في الليالي البيض . وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها . قال قتادة : إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال . قال ابن زيد : إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب ، وقال الفراء تلاها أخذ منها : يعني أن القمر يأخذ من ضوء الشمس (والنهار إذا جلاها) أي جلى الشمس ، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء ، فكأنه جلاها مع أنها الذي تبسطه . وقيل الضمير عائذ إلى الظلمة : أي جلى الظلمة ، وإن لم يجر للظلمة ذكر لأن المعنى معروف . قال الفراء : كما تقول أصبحت باردة : أي أصبحت غداتنا باردة ، والأول أولى ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل المعنى : جلى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستورة في الليل ، وقيل جلى الدنيا وقيل جلى الأرض (والليل إذا يغشاها) أي يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق ، وقيل يغشى الآفاق ، وقيل الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف ، والأول أولى (والسما وما بناها) يجوز أن تكون ما مصدرية أي السماء وبنيانها ، ويجوز أن تكون موصولة : أي والذي بناها ، وإيثار «ما» على من لإرادة الوصفية

لقصد التفتيح كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذي بناها ، ورجح الأول الفراء والزجاج ، ولا وجه لقول من قال : إن جعلها مصدرية مغل بالنظم . ورجح الثاني ابن جرير (والأرض وما طحاها) الكلام في « ما » هذه كالكلام في التي قبلها ، ومعنى طحاها بسطها ، كذا قال عامة المفسرين ، كما في قوله (دحاها) قالوا : طحاها ودحاها واحد : أي بسطها من كل جانب ، والطحو البسط ، وقيل معنى طحاها قسمها ، وقيل خلقها ، ومنه قول الشاعر :

وما يلدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

والأول أولى . والطحو أيضا : الذهاب . قال أبو عمرو بن العلاء : طحا الرجل : إذا ذهب في الأرض ، يقال ما أدري أين طحا ؟ ويقال طحا به قلبه : إذا ذهب به ، ومنه قول الشاعر :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

(ونفس وما سواها) الكلام في « ما » هذه كما تقدم ، ومعنى سواها خلقها وأنشأها وسوى أعضائها . قال عطاء : يريد جميع ما خلق من الجن والإنس ، والتنكير للتفخيم ، وقيل المراد نفس آدم (فألمها فجورها وتقواها) أي عرفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح . قال مجاهد : عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية . قال الفراء : فألمها عرفها طريق الخير وطريق الشر ، كما قال - وهديناه النجدين - . قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به . قال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور ، واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان . قال الواحدى : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع في قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئا ألزمه ذلك الشيء . قال : وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره (قد أفلح من زكاها) أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب وظفر بكل محبوب ، وقد قدمنا أن هذا جواب القسم على الراجع ، وأصل الزكاة : النمو والزيادة ، ومنه زكا الزرع : إذا كثرت (وقد خاب من دساها) أي خسر من أضلها وأغواها . قال أهل اللغة : دساها أصله دسها ، من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فمعنى دساها في الآية : أخفاها وأضلها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح ، وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فيقصدها الضيوف ، وكانت لثام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين . وقيل معنى دساها : أغواها ، ومنه قول الشاعر :

وأنت الذي دسيت عمرا فأصبحت حبلائله منه أرامل ضيعا

وقال ابن الأعرابي (وقد خاب من دساها) أي دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم (كذبت ثمود بطغواها) الطغوى : اسم من الطغيان كالدهوى من الدعاء . قال الواحدى : قال المفسرون : كذبت ثمود بطغواها أي الطغيان حملتهم على التكذيب ، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي ، والباء للسببية . وقيل كذبت ثمود بطغواها أي بعذابها الذي وعدت به ، وسمى العذاب طغوى لأنه طغى عليهم فتكون الباء على هذا للتعدي . وقال محمد بن كعب : بطغواها : أي بأجمعها . قرأ الجمهور « بطغواها » بفتح الطاء . وقرأ الحسن والحلبي ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء ، فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما قلبت الباء والواو للفرق بين الاسم والصفة لأنهم يقدرون الباء في الأسماء كثيرا نحو تقوى وسروى ، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ونحوهما ، وقيل هما لغتان (إذ انبعث أشقاها) العامل في الظرف كذبت ، أو بطغواها : أي حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف فعقر الناقة ، ومعنى انبعث : انتدب لذلك وقام به ، يقال بعثته على الأمر فانبعث له ، وقد

تقدم بيان هذا في الأعراف (فقال لهم رسول الله) يعني صالحا (ناقة الله) قال الزجاج : ناقة الله منصوبة على معنى ذروا ناقة الله . قال الفراء : حذرهم إياها ، وكل تحذير فهو نصب (وسقياها) معطوف على ناقة ، وهو شربها من الماء . قال الكلبي ومقاتل : قال لهم صالح : ذروا ناقة الله فلا تعقروها وذروا سقياها ، وهو شربها من النهر فلا تعرضوا له يوم شربها فكذبوا بتحذيره إياهم (فعقروها) أي عقروا الأشقي ، وإنما أسند العقير إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله . قال قتادة : إنه لم يعقروها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . قال الفراء : عقروها اثنان ، والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، فلهذا لم يقل أشقياها (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ، وحقيقة الدمدمية : تضعيف العذاب وترديده ، يقال دمدمت على الشيء : أي أطبقت عليه ، ودمدم عليه القبر : أي أطبقه ، وناقة مدمومة : إذا لبسها الشحم ، والدمدمية : إهلاك باستئصال ، كذا قال المؤرج . قال في الصحاح : دمدمت الشيء : إذا ألزقته بالأرض وطحطحته ، ودمدم الله عليهم : أي أهلكهم . وقال ابن الأعرابي : دمدم إذا عذب عذبا تاما . والضمير في فسواها يعود إلى الدمدمية : أي فسوى الدمدمية عليهم وعمهم بها فاستوت على صغيرهم وكبيرهم ، وقيل يعود إلى الأرض : أي فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب ، وقيل يعود إلى الأمة : أي ثمود . قال الفراء : سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم . قرأ الجمهور « فدمدم » بميم بين الدالين ، وقرأ ابن الزبير « فدهدم » بهاء بين الدالين . قال القرطبي : وهما لغتان كما يقال : امتقع لونه ، وامتقع لونه (فلا يخاف عقباها) أي فعل الله ذلك بهم غير خائف من عاقبة ولا تبعة ، والضمير في عقباها يرجع إلى الفعلة ، أو إلى الدمدمية المدلول عليها بدمدم . وقال السدي والضحاك والكلبي : إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه : أي لم يخف الذي عقروها عقبي ما صنع . وقيل لا يخاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أندرهم ، والأول أولى . قرأ الجمهور « ولا يخاف » بالواو ، وقرأ نافع وابن عامر بالقاء .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس (وضحاها) قال : ضوئها (والقمر إذا تلاها) قال : تبعها (والنهار إذا جلاها) قال : أضاءها (والسماء وما بناها) قال : الله بنى السماء (والأرض وما طحاها) قال : دحاها (فألهمها فجورها وتقواها) قال : علمها الطاعة والمعصية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (والأرض وما طحاها) يقول : قسمها (فألهمها فجورها وتقواها) قال : من الخير والشر . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا (فألهمها) قال : ألزمها فجورها وتقواها . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين « أن رجلا قال : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكلمون فيه ، شيء قد قضى عليهم ، ومضى في قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم واتخذت عليهم به الحجة ، قال : بل شيء قد قضى عليهم ؟ قال : فلم يعملون إذن ؟ قال : من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهينه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) » وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » . وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وزاد « كان إذا تلا هذه الآية (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) قال : فذكره » وزاد أيضا « وهو في الصلاة » . وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا . وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (قد أفلح من زكاها) يقول :

قد أفلح من زكى الله نفسه (وقد خاب من دساها) يقول : قد خاب من دس الله نفسه فأضله (ولا يخاف عتباها) قال : لا يخاف من أحد تبعة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (وقد خاب من دساها) يعنى مكر بها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى قوله (قد أفلح من زكاها) الآية : أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير» وجوير ضعيف . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (بطغواها) قال : اسم العذاب الذى جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعداها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : «خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الناقة وذكر الذى عقرها ، فقال (إذ انبعث أشقاها) قال : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة» . وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والبخارى والطبرانى وابن مردويه والحاكم وأبو نعيم فى الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلى : «ألا أحدئك بأشقى الناس؟» قال بلى . قال رجلان : أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك على هذا «يعنى قرنه» حتى تبطل منه هذه «يعنى لحيته» .

تفسير سورة الليل

هى إحدى وعشرون آية

وهى مكية عند الجمهور ، وقيل مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة (والليل إذا يغشى بمكة) . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال : «كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى الظهر والعصر (والليل إذا يغشى) ونحوها» . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته ، فقرأ (والشمس وضحاها - والليل إذا يغشى) فقال له أبى بن كعب : يا رسول الله أمرت فى هذه الصلاة بشىء؟ قال : لا ، ولكن أردت أن أوقت لكم» وقد تقدم حديث «فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى؟» . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إني لأقول إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل (والليل إذا يغشى) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا

تَلْظَى (١٤) لَا يَصْلِيهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧)
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
الْأَعْلَى ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١).

قوله (والليل إذا يغشى) أى يغطى بظلمته ما كان مضيئاً . قال الزجاج : يغشى الليل الأفق وجميع ما بين
السماء والأرض فيذهب ضوء النهار ، وقيل يغشى النهار ، وقيل يغشى الأرض ، والأول أولى (والنهار إذا تجلى)
أى ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل ، وذلك بطلوع الشمس (وما خلق الذكر والأنثى)
ما هنا هى الموصولة : أى والذى خلق الذكر والأنثى ، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ولقصد التفخيم :
أى والقادر العظيم الذى خلق صنئى الذكر والأنثى . قال الحسن والكلبي : معناه والذى خلق الذكر والأنثى
فيكون قد أقسم بنفسه . قال أبو عبيدة : وما خلق : أى ومن خلق . وقال مقاتل : يعنى وخلق الذكر والأنثى
فتكون «ما» على هذا مصدرية . قال الكلبي ومقاتل : يعنى آدم وحواء ، والظاهر العموم . قرأ الجمهور «وما خلق
الذكر والأنثى» وقرأ ابن مسعود «والذكر والأنثى» بدون ما خلق (إن سعيكم لشتى) هذا جواب القسم : أى
إن عملكم لمختلف : فنه عمل للجنة ، ومنه عمل للنار . قال جمهور المفسرين : السعى العمل ، فساع فى فكاك نفسه ،
وساع فى عطبها ، وشتى جمع شتيت : كمرضى ومريض ، وقيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض (فأما
من أعطى واتقى) أى بذل ماله فى وجوه الخير واتقى محارم الله التى نهى عنها (وصدق بالحسنى) أى بالخلف من
الله . قال المفسرون : فأما من أعطى المعسرين . وقال قتادة : أعطى حق الله الذى عليه . وقال الحسن : أعطى
الصدق من قلبه وصدق بالحسنى : أى بلا إله إلا الله ، وبه قال الضحاك والسلمى . وقال مجاهد : بالحسنى بالجنة .
وقال زيد بن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم ، والأول أولى . قال قتادة : بالحسنى : أى بموعد الله الذى وعده
أن يثيبه . قال الحسن : بالخلف من عطائه ، واختار هذا ابن جرير (فسنيسره للعسرى) أى فسنيهته للخصلة
الحسنى ، وهى عمل الخير ، والمعنى : فسنيهته له الإنفاق فى سبيل الخير والعمل بالطاعة لله . قال الواحدى :
قال المفسرون : نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى أيدي أهل مكة
يعذبونهم فى الله (وأما من بخل واستغنى) أى بخل بماله فلم يبذله فى سبيل الخير ، واستغنى : أى زهد فى الأجر
 والثواب ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة (وكذب بالحسنى) أى بالخلف من الله عز وجل ، وقال
مجاهد : بالجنة ، وروى عنه أيضاً أنه قال : بلا إله إلا الله (فسنيسره للعسرى) أى فسنيهته للخصلة العسرى
ونسهلهما له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ويضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار . قال مقاتل :
يعسر عليه أن يعطى خيراً . قيل العسرى الشر ، وذلك أن الشر يؤدى إلى العذاب ، والعسرة فى العذاب ، والمعنى :
سنهيهته للشر بأن نجريه على يديه . قال الفراء : سنيسره سنهيهته ، والعرب تقول : قد يسرت الغنم إذا ولدت أو
نهيات للولادة . قال الشاعر :

هما سيدانا يزعمان وإنما يسوداننا إن يسرت غنماهما

(وما يغنى عنه ماله إذا تردى) أى لا يغنى عنه شيئاً ماله الذى بخل به ، أو أى شيء يغنى عنه إذا تردى :
أى هلك ، يقال ردى الرجل يردى يردى ، وتردى يتردى : إذا هلك . وقال قتادة : وأبو صالح وزيد بن أسلم :

إذا تردى : إذا سقط في جهنم ، يقال ردى في البئر وتردى : إذا سقط فيها ، ويقال ما أدرى أين ردى : أى أين ذهب ؟ (إن علينا للهدى) هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها : أى إن علينا البيان . قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان : بيان حرامه وطاعته ومعصيته . قال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، لقوله - وعلى الله قصد السبيل - يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال الفراء أيضا : المعنى إن علينا للهدى والإضلال ، فحذف الإضلال كقوله - سرايل تقيكم الحرّ - وقيل المعنى : إن علينا ثواب هداه الذى هديناه (وإن لنا للآخرة والأولى) أى لنا كل ما فى الآخرة ، وكل ما فى الدنيا نتصرف به كيف نشاء ، فمن أرادهما أو أحدهما فليطلب ذلك منا ، وقيل المعنى : إن لنا ثواب الآخرة و ثواب الدنيا (فأندرتكم نارا تلظى) أى حذرتكم وخوفتكم نارا تتوقد وتتوهج ، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . وقرأ على الأصل عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف (لا يصلاها إلا الأشتى) أى يصلاها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشتى وهو الكافر ، وإن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه ، والمراد بقوله يصلاها : يدخلها أو يجد صلاها ، وهو حرّها . ثم وصف الأشتى فقال (الذى كذب وتولى) أى كذب بالحق الذى جاءت به الرسل وأعرض عن الطاعة والإيمان . قال الفراء (إلا الأشتى) إلا من كان شقيا فى علم الله جل ثناؤه . قال أيضا : لم يكن كذب بردّ ظاهر ، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيبا كما تقول لقي فلان العدو فكذب : إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال الزجاج : هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء ، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر ، ولأهل النار منازل ، فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب ، فجدير أن يعذب به ، وقد قال - إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن فى قوله - ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - فائدة . وقال فى الكشف : الآية واردة فى الموازنة بين حالى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين ، فقل الأشتى ، وجعل مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل المراد بالأشتى أبو جهل أو أمية بن خلف ، وبالأتقى أبو بكر الصديق ، وممنى (سيجنبا الأتقى) سيأعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا . قال الواحدى : الأتقى أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين انتهى ، والأولى حمل الأشتى والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين ، ويكون المعنى أنه لا يصلاها صليا تاما لازما إلا الكامل فى الشقاء وهو الكافر ، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيذا كاملا بحيث لا يحوم حرّها فضلا عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى ، فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولا غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيذا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها . والحاصل أن من تم لك من المرجحة بقوله (لا يصلاها إلا الأشتى) زاعما أن الأشتى الكافر ، لأنه الذى كذب وتولى ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين فيقال له : فما تقول فى قوله (وسيجنبا الأتقى) فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل فى التقوى ، فمن لم يكن كاملا فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار ، فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله فى الأشتى فخذ إليك هذه مع تلك ، وكن كما قال الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لاعلى ولا ليه

وقيل أراد بالأشتى والأتقى الشقى والأتقى ، كما قال طرفة بن العبد :

نمى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد ، ولا يخفأك أنه ينافى هذا وصف الأشقي بالتكذيب ، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين . ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال (الذى يوتى ماله) أى يعطيه ويصرفه فى وجوه الخير ، وقوله (يتزكى) فى محل نصب على الحال من فاعل يوتى : أى حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكيا لا يطلب رياء ولا سمعة ، ويجوز أن يكون بدلا من يوتى داخل معه فى حكم الصلة . قرأ الجمهور « يتزكى » مضارع تزكى . وقرأ على بن الحسين بن على « تزكى » بإدغام التاء فى الزاى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون الزكى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص : أى ليس ممن يتصدق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنما يبتغى بصدقته وجه الله تعالى ؛ ومعنى الآية : أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يوتى من ماله مجازاتها ، وإنما قال تجزى مضارعا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل ، والأصل يجزىها إياه ، أو يجزىه إياها (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) قرأ الجمهور « إلا ابتغاء » بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجها تحت جنس النعمة : أى لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول له على المعنى : أى لا يوتى إلا لا ابتغاء وجه ربه لا مكافأة نعمة . قال الفراء : هو منصوب على التأويل : أى ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله ، وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة ، لأن محلها الرفع إما على الفاعلية وإما على الابتداء ، ومن مزيدة ، والرفع لغة تميم ، لأنهم يجوزون البدل فى المنقطع ويجرونه مجرى المتصل . قال مكى : وأجاز الفراء الرفع فى « ابتغاء » على البدل من موضع نعمة ، وهو بعيد . قال شهاب الدين : كأنه لم يطلع عليها قراءة ، واستبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية ، وقرأ الجمهور أيضا « ابتغاء » بالمد ، وقرأ ابن أبى عبلة بالقصر والأعلى نعت للرب (ولسوف يرضى) اللام هى الموطئة للقسم : أى وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم . قرأ الجمهور « يرضى » مبنيا للفاعل ، وقرئ مبنيا للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس (والليل إذا يغشى) قال : إذا أظلم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إن أبا بكر الصديق اشترى بلالا من أمية بن خلف وأبى بن خلف بيرة وعشر أواق فأعتقه الله ، فأنزل الله (والليل إذا يغشى) إلى قوله (إن سعيكم لشتى) سعى أبى بكر وأميه وأبى إلى قوله (وكذب بالحسنى) قال : لا إله إلا الله إلى قوله (فسيسره للعسرى) قال : النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (فأما من أعطى) من الفضل (واتقى) قال : اتقى ربه (وصدق بالحسنى) قال : صدق بالخلف من الله (فسيسره للعسرى) قال : للخير من الله (وأما من بخل واستغنى) قال : بخل بماله واستغنى عن ربه (وكذب بالحسنى) قال : بالخلف من الله (فسيسره للعسرى) قال : للشر من الله . وأخرج ابن جرير عنه (وصدق بالحسنى) قال : أيقن بالخلف . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (وصدق بالحسنى) يقول : صدق بلا إله إلا الله (وأما من بخل واستغنى) يقول : من أغناه الله فبخل بالزكاة . وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى أراك تعتق أناسا ضعفا ، فلو أنك تعتق رجلا جلدا يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . قال : أى أبت إنما أريد ما عند الله ، قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسيسره للعسرى) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله (فأما من أعطى واتقى

وَصَدَّقَ بِالْحَسَنِيِّ) قال : أبو بكر الصديق (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسني) قال : أبو سفيان بن حرب ، وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال : « كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جنازة ، فقال « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؛ أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسني - إلى قوله - للعسرى) » ، وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله « أن سراقه بن مالك قال : يا رسول الله في أي شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام ، أم في شيء يستقبل فيه العمل ؟ قال : بل في شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام ، قال سراقه : فقيم العمل إذن يا رسول الله ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (فأما من أعطى واتقى - إلى قوله - فسيسره للعسرى) . وقد تقدم حديث عمران ابن حصين في السورة التي قبل هذه . وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : « لتدخلن الجنة إلا من يأبى ، قالوا : ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ فقرأ (الذي كذب وتولى) » ، وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أمامة قال : لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة ، إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله ، فمن لم يصدقني فإن الله يقول (لا يصلاها إلا الأشقي الذي كذب وتولى) كذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عنه . وأخرج أحمد والحاكم والضياء عن أبي أمامة الباهلي أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يدخل النار إلا شقي . قيل ومن الشقي ؟ قال : الذي لا يعمل لله بطاعة ولا يترك لله معصية » . وأخرج أحمد والبخاري عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل أمي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى ، قالوا : ومن أبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » . وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وزنيرة ، وأم عيسى ، وأمة بنى المؤمل ، وفيه نزلت (وسيجنبا الأتقى) إلى آخر السورة . وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله ابن الزبير ما قد مناه عنه ، وزاد فيه ، فنزلت فيه هذه الآية (فأما من أعطى واتقى) إلى قوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وسيجنبا الأتقى) قال : هو أبو بكر الصديق .

تفسير سورة الضحى

هى إحدى عشرة آية

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس : نزلت (والضحى) بمكة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طريق أبى الحسن المقرئ قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : « قرأت على إسماعيل بن قسطين ، فلما بلغت والضحى قال : كبر حتى تحتم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك . وأخبره ابن عباس أن أبى بن كعب أمره بذلك . وأخبره أبى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره بذلك » . وأبو الحسن المقرئ المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزة المقرئ . قال ابن كثير : فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البرزى من ولد القاسم بن أبى بزة ، وكان إماما فى القراءات . وأما فى الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أخذت عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث . قال ابن كثير : ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر الليل إذا يغشى ، وقال آخرون : من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر . وذكروا فى مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفترتلك المدة ، ثم جاء الملك ، فأوحى إليه (والضحى والليل إذا سجى) السورة كبر فرحا وسرورا ، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي قال : اشتكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليلتين أو ثلاثا ، فأنزل الله (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) . وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن جندب قال : أبطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال المشركون : قد ودع محمد ، فنزلت (ما ودعك ربك وما قلى) . وأخرج الطبرانى عن جندب قال : احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت بعض بنات عمه : ما أرى صاحبك إلا قد قلاك ، فنزلت والضحى . وأخرجه الترمذى وصححه وابن أبى حاتم عن جندب ، وفيه : فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت والضحى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

والمراد بالضحي هنا النهار كله ، لقوله (والليل إذا سجي) فلما قابل الضحي بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه . وهو في الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم في قوله - والشمس وضحاها - والظاهر أن المراد به الضحي من غير تعيين . وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : إن المراد به الضحي الذي كلم الله فيه موسى ، والمراد بقوله (والليل إذا سجي) ليلة المعراج ، وقيل المراد بالضحي هو الساعة التي خرت فيها السحرة سجدا ، كما في قوله - وأن يحشر الناس ضحي - وقيل المقسم به مضاف مقدر كما تقدم في نظائره : أي ورب الضحي ، وقيل تقديره : وضحاوة الضحي ، ولا وجه لهذا ، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه : وقيل الضحي نور الجنة ، والليل ظلمة النار ، وقيل الضحي نور قلوب العارفين ، والنيل سواد قلوب الكافرين (والليل إذا سجي) أي سكن ، كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم : يقال ليلة ساجية : أي ساكنة ، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية ، يقال سجا الشيء يسجو سجوا : إذا سكن . قال عطاء : سجا إذا غطي بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي : سجا امتد ظلامه . وقال الأصمعي : سجو الليل تغطيته النهار ، مثل ما يسجي الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشي بظلامه . وقال سعيد بن جبير : أقبل . وقال مجاهد : أيضا استوى ، والأول أولى ، وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة . ومعنى سكونه : استقرار ظلامه واستواؤه ، فلا يزداد بعد ذلك (ماود عك ربك) هذا جواب القسم : أي ما قطعك قطع المودع . قرأ الجمهور « ماود عك » بتشديد الدال من التوديع ، وهو توديع المفارق ، وقرأ ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هاشم وابن أبي عتبة وأبو حيو بتخفيفها ، من قولهم ودعه : أي تركه ، ومنه قول الشاعر :

سل أميرى ما الذى غيره عن وصالى اليوم حتى ودعه

والتوديع أبلغ في الودع ، لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك . قال المبرد : لا يكادون يقولون ودع ولا وذر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك . قال أبو عبيدة : ودعك من التوديع كما يودع المفارق . وقال الزجاج : لم يقطع الوحي ، وقد قدمت سبب نزول هذه الآية في فاتحة هذه السورة (وما قلى) القلى البغض ، يقال قلاه يقلبه قلاء . قال الزجاج : وما أبغضك ، وقال : وما قلى ولم يقل وما قلاك لموافقة رءوس الآي ، والمعنى : وما أبغضك ، ومنه قول امرئ القيس : . . . ولست بمقلى الخلال ولا قالى . . . (وللآخرة خير لك من الأولى) اللام جواب قسم مخذوف : أي الجنة خير لك من الدنيا ، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ويتضاءل بالنسبة إليه كل زمكرمة في الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم أو كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئا ، ولما كانت طريقا إلى الآخرة وسببا لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الحملة من هذه الحيشة (ولسوف يعطيك ربك فترضى) هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الحملة ، والمبتدأ مخذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ ، وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة ، وقيل هي للقسم . قال أبو علي الفارسي : ليست هذه اللام هي التي في قولك : إن زيدا لقائم ، بل هي التي في قولك لأقومن ، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد ، فكأنه قال : وليعطيتك . قيل المعنى : ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى . وقيل الخوض والشفاعة ، وقيل ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك ، وقيل غير

ذلك . والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا والآخرة ، ومن أهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته (ألم يجدهك يتيما فأوى) هذا شروع فى تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم : أى وجدك يتيما لا أب لك فأوى : أى جعل لك مأوى تأوى إليه ، قرأ الجمهور « فأوى » بألف بعد الهمزة رباعيا ، من آواه يؤويه ، وقرأ أبو الأشهب « فأوى » ثلاثيا ، وهو إما بمعنى الرباعى ، أو هو من أوى له إذا رجه . وعن مجاهد معنى الآية : ألم يجدهك واحدا فى شرفك لانظير لك فأواك الله بأصحاب يحفظونك ويحيطونك ، فجعل يتيما من قولهم درة يتيمة ، وهو بعيد جدا ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنى على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيما فأوى ، والوجود بمعنى العلم ، ويتيما مفعوله الثانى ، وقيل بمعنى المصادفة ، ويتيما حال من مفعوله (ووجدك ضالا فهدى) معطوف على المضارع المنى ، وقيل هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذى قبله كما ذكرنا : أى قد وجدك يتيما فأوى ووجدك ضالا فهدى ، والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كما فى قوله - لا يضل ربى ولا ينسى - وكما فى قوله - وإن كنت من قبله لمن الغافلين - والمعنى : أنه وجدك غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، واختار هذا الزجاج . وقيل معنى ضالا : لم تكن تدرى القرآن ولا الشرائع فهذا لك لذلك . وقال الكلبي والسدسى والفراء : وجدك فى قوم ضلال فهداهم الله لك . وقيل وجدك طالبا للقبلة فهذا لك إليها كما فى قوله - قد نرى قلبك وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها - ويكون الضلال بمعنى الطلب . وقيل وجدك ضائعا فى قومك فهذا لك إليه ، ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل وجدك محبا للهداية فهذا لك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، ومنه قول الشاعر :

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحببها قد أخلقا

وقيل وجدك ضالا فى شعاب مكة فهذا لك : أى ردك إلى جدك عبد المطلب (ووجدك عائلا فأغنى) أى وجدك فقيرا لا مال لك فأغناك ، يقال عال الرجل يعيل عيلة : إذا افتقر ، ومنه قول أحيحة بن الجلاح :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

أى يفتقر . قال الكلبي : فأغنى : أى رضاك بما أعطاك من الرزق ، واختار هذا الفراء ، قال : لأنه لم يكن غنيا من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه ، وذلك حقيقة الغنى . وقال الأخفش : عائلا ذا عيال ، ومنه قول جرير :

الله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقيل فأغنى بما فتح لك من الفتوح ، وفيه نظر ، لأن السورة مكية ، وقيل بمال خديجة بنت خويلد ، وقيل وجدك فقيرا من الحجج والبراهين فأغناك بها . قرأ الجمهور « عائلا » وقرأ محمد بن السمين واليماني « عيلا » بكسر الياء المشددة كسيد . ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال (فأما اليتيم فلا تقهر) أى لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائن ما كان . قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما . قال الأخفش : لا تسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه واذا كر يتمك . قال الفراء والزجاج : لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه ، وكذا كانت العرب تفعل فى حق اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحسن إلى اليتيم ويبره ويوصى باليتامى . قرأ الجمهور « فلا تقهر » بالقاف ، وقرأ ابن مسعود والنخعي والشعبي والأشهب العقيلي « تكهر » بالكاف ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف . قال النحاس : إنما يقال كهره : إذا اشتد عليه وغلظ . وقيل القهر الغلبة ، والكهر الزجر . قال أبو حيان : هى لغة : يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور ، واليتيم منصوب

بتقهر (وأما السائل فلا تنهر) يقال نهره وانهره : إذا استقبله بكلام يزجره ، فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له ، ولكن يبذل له اليسير أو يردّه بالجميل . قال الواحدي : قال المفسرون : يريد السائل على الباب ، يقول لانه : إذا سألك فقد كنت فقيرا ، فلما أن تطعمه ، ولما أن تردّه ردّا لنا . قال قتادة : معناه رد السائل برحمة ولين . وقيل المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين ، فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين ، كذا قال سفيان ، والسائل منصوب بتنهر ، والتقدير : مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل (وأما بنعمة ربك فحدث) أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس وإشهارها بينهم ، والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها . وقال مجاهد والكلبي : المراد بالنعمة هنا القرآن . قال الكلبي : وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرأه . قال الفراء : وكان يقرؤه ويحدث به . وقال مجاهد أيضا : المراد بالنعمة النعمة التي أعطاه الله ، واختار هذا الزجاج فقال : أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله ، وهي أجل النعم . وقال مقاتل : يعني اشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة وجبر اليتيم ، والإغناء بعد العيلة فاشكر هذه النعم . والتحدث بنعمة الله شكر ، والحار والمجور مرتبط بحدث ، والقاء غير مانعة من تعلقه به ، وهذه النواهي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي نواهيه ولأمتهم لأسوته ، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهي بكل فرد من أفراد هذه النواهي .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس (والليل إذا سجي) قال : إذا أقبل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه (إذا سجي) قال : إذا ذهب (ماودعك ربك) قال ما تركك (وما قلى) قال : ما أبغضك . وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « عرض على ما هو مفتوح لأمتي بعدى ، فأنزل الله (وللآخرة خير لك من الأولى) » . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم عنه أيضا قال « عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو مفتوح على أمتي من بعده فسر بذلك ، فأنزل الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم » وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) قال : رضاه أن يدخل أمتي كلهم الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال : من رضا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار . وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه أيضا في الآية قال : لا يرضى محمد وأحد من أمتي في النار ، ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله في إبراهيم - فن تبغى فإنه منى - وقول عيسى - إن تعذبهم فإنهم عبادك - الآية ، فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوئك » . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين رأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي ؟ قال : إى والله . حدثني محمد بن الحنفية عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « أشفع لأمتي حتى يناديني ربى أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يارب رضيت ، ثم أقبل علي فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله - يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا - قلت إنا لنقول ذلك ، قال : فكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وهي الشفاعة » . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وسوف يعطيك ربك فترضى » وأخرج العسكرى في المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرّحى وعابها كساء من جلد الإبل ، فلما نظر إليها قال : يا فاطمة تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة ، فأنزل الله (وسوف يعطيك ربك فترضى) . » وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : سألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحى الموتى ، فقال تعالى : يا محمد ألم أجدك يتما فأويتك ؟ ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى يارب . » وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما نزلت (والضحى) على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بمنّ على ربى وأهل أن يمنّ ربى . » وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله (ووجدك ضالا فهدى) قال : وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلاتهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن على فى قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) قال : ما علمت من الخير . وأخرج ابن أبي حاتم عنه فى الآية قال : إذا أصبت خيرا فحدث إخوانك . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند والبيهقى فى الشعب والخطيب فى المتفق ، قال السيوطى بسند ضعيف عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة . » وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه أبو يعلى وابن حبان والبيهقى والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتبه فقد كفره . » وأخرج البخارى فى الأدب وأبو داود والضياء عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعطى عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أنثى به فقد شكره ، ومن كتبه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبى زور . » وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أولى معروفا فليكافئ به ، فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره . »

تفسير سورة ألم نشرح

هى ثمان آيات

وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت - ألم نشرح - بمكة ، وزاد : بعد الضحى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ألم نشرح بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

معنى شرح الصدر : فتحه بإذهاب ما يصدّ عن الإدراك ، والاستفهام إذا دخل على النفي قرّره ، فصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك ، وإنما خصّ الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات ، والمراد الامتنان عليه صلى الله عليه وآله وسلم بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي ، وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله - أفنّ شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - (ووضعتنا عنك وزرك) معطوف على معنى ما تقدّم ، لا على لفظه : أى قد شرحنا لك صدرك ووضعتنا الخ ، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أى أنتم خير من ركب المطايا ، وأندى الخ. قرأ الجمهور « نشرح » بسكون الحاء بالجزم ، وقرأ أبو جعفر المنصور العباسى بفتحها . قال الزمخشري : قالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها ، فظنّ السامع أنه فتحها . وقال ابن عطية : إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة ، ثم إبداهها ألفا ، ثم حذفها تخفيفا كما أنشد أبو زيد :

من أى يومى من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

بفتح الراء من لم يقدر ، ومثله قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس
بفتح الباء من اضرب ، وهذا مبنى على جواز توكيد المجزوم بلم ، وهو قليل جداً كقوله :
يحسبه الجاهل مالم يعلم شيخا على كرسية معمما

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة : الأول توكيد المجزوم بلم ، وهو ضعيف . الثانى إبداهها ألفا ، وهو خاص بالوقف ، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف . والثالث حذف الألف ، وهو ضعيف أيضا لأنه خلاف الأصل ، وخرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلم ، ومنه قول الشاعر :

في كل ما هم أمضى رأيه قدما ولم يشاور في إقدامه أحدا

بنصب الراء من يشاور ، وهذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح ، وإن صحت فليست من اللغات المعتمدة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها . وعلى كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه وكثرة جبروته وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها . والوزر : الذنب أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية . قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل : المعنى حططنا عنك الذى سلف منك في الجاهلية ، وهذا كقوله - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - ثم وصف هذا الوزر فقال (الذى أنقض ظهرك) قال المفسرون : أى أثقل ظهرك . قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض : أى صوت ، وهذا مثل معناه : أنه لو كان حملا يحمل لسمع نقيض ظهره ، وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمع له صرير ، ومنه قول جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت ثواني زوره أن تحطما

وقول العباس بن مرداس :

وأنقض ظهري ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقا متحننا

قال قتادة : كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له ، وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له : وكذا قال أبو عبيدة وغيره

وقرأ ابن مسعود « وحللنا عنك وقررك » ثم ذكر سبحانه منته عليه وكرامته فقال (ورفعنا لك ذكرك) قال الحسن : وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر معه صلى الله عليه وآله وسلم . قال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى ، فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله . قال مجاهد : (ورفعنا لك ذكرك) يعنى بالتأذين . وقيل المعنى : ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله وأمرناهم بالبشارة به ، وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وعند المؤمنين في الأرض . والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور ، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر ، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه ، وإخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، وأمر الله بطاعته كقوله - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - وقوله - وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - وقوله - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وغير ذلك . وبالحملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم - اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان ، وما أحسن قول حسان :

أغرَّ عليه النبوة خاتم من الله نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد

(فإن مع العسر يسرا) أى إن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ، ومع الكرب فرج . وفي هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسر يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين . ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيذاً ، فقال مكرراً له بلفظ (إن مع العسر يسرا) أى إن مع ذلك العسر المذكور سابقا يسرا آخر لما تقرّر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثانى عين الأول سواء كان المراد به الجنس أو العهد ، بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معنى هذه الآية « ان يغلب عسر يسرين » قال الواحدي : وهذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والمفسرين على أن العسر واحد واليسر اثنان . قال الزجاج : ذكر العسر مع الألف واللام ثم ثنى ذكره ، فصار المعنى : إن مع العسر يسرين . قيل والتذكير في اليسر للتفخيم والتعظيم ، وهو في مصحف ابن مسعود غير مكرّر . قرأ الجمهور بسكون السين في العسر واليسر في الموضعين . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمهما في الجميع (فإذا فرغت فانصب) أى إذا فرغت من صلاتك ، أو من التبليغ ، أو من الغزو فانصب : أى فاجتهد في الدعاء واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب في العبادة ، والنصب التعب ، يقال نصب ينصب نصبا : أى تعب . قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبي : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد . قال الشعبي : إذا فرغت من التشهد فادعوا لدينك وآخرتك ، وكذا قال الزهري . وقال الكلبي أيضا : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب : أى استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك . وقال مجاهد أيضا : إذا فرغت من دينك فانصب في صلاتك (وإلى ربك فارغب) قال الزجاج : أى اجعل رغبتك إلى الله وحده . قال عطاء : يريد أنه يضرع إليه راها من النحر ، راغبا في الجنة ، والمعنى : أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائنا من كان ، فلا يطلب حاجاته إلا منه ،

ولا يقول في جميع أموره إلا عليه . قرأ الجمهور « فارغب » وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبيدة « فرغب » بتشديد الغين : أي فرغب الناس إلى الله وشوقهم إلى ما عنده من الخير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ألم نشرح لك صدرك) قال : شرح الله صدره للإسلام . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو الهيثم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتاني جبريل فقال : إن ربك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : إذا ذكرت ذكرت معي » وإسناد ابن جرير هكذا : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد . وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلابي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (ورفعنا لك ذكرك) الآية قال : لا يذكر الله في ذكره . وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالسا وحياه جحر ، فقال « العسر لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) » ولفظ الطبراني « وتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) » . وأخرج ابن النجار عنه مرفوعا نحوه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه أيضا مرفوعا نحوه . قال السيوطي وسنده ضعيف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الصبر وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعا « لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقول (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) » قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح . قال فيه أبو حاتم الرازي في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قررة عن رجل عن عبد الله بن مسعود . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما فرحا مسرورا وهو يضحك ويقول : « لن يغلب عسر يسرين ، إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » وهذا مرسل . وروى نحوه مرفوعا مرسلا عن قتادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (فإذا فرغت فانصب) الآية قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء واسأل الله وارغب إليه . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال الله لرسوله : إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك . وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود (فإذا فرغت فانصب) إلى الدعاء (وإلى ربك فارغب) في المسئلة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه (فإذا فرغت فانصب) قال : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل .

تفسير سورة التين

هي ثمان آيات

وهي مكية في قول الجمهور . وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية ، ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : أنزلت سورة التين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فصلى العشاء فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ولا قراءة منه » . وأخرج الخطيب عنه قال : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المغرب ، فقرأ بالتين والزيتون » . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد في مسنده والطبراني عن عبد الله بن يزيد « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في المغرب والتين والزيتون » . وأخرج ابن قانع وابن السكن والشيرازي في الألقاب عن زرعة بن خليفة قال « أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اليمامة ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، فلما صلينا الغداة قرأ بالتين والزيتون ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)

قال أكثر المفسرين : هو التين الذي يأكله الناس (والزيتون) الذي يعصرون منه الزيت ، وإنما أقسم بالتين ، لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص وفيها أعظم عبرة لدلائها على من هياها لذلك ، وجعلها على مقدار اللقمة . قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن وأكثرها غذاء ، وذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات ، وأما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الذي هو لإدام غالب البلدان ودهنهم ، ويدخل في كثير من الأدوية . وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى . وقال ابن زيد : التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس . وقال قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقال عكرمة وكعب الأحبار : التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية ، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل . وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول بابه في علم الرواية والدراية . قال الفراء : سمعت رجلا يقول : التين جبال حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام . قلت : هب أنك سمعت هذا الرجل ، فكان ماذا ؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل

عن الشارع . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء ، وقيل إنه على حذف مضاف : أى ومنابت التين والزيتون . قال النحاس : لادليل على هذا من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه (وطور سينين) هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى اسمه الطور ، ومعنى سينين : المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة . وقال مجاهد : هو المبارك بالسريانية . وقال مجاهد والكلبي : سينين كل جبل فيه شجر مشمر فهو سينين وسيناء بلغة النبط . قال الأخفش : طور : جبل ، وسينين شجر ، وأحدته سينة . قال أبو على الفارسي : سينين فعيل فكررت اللام التى هى نون فيه ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء لأنه جعل اسما للبقعة ، وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام ، وهى الأرض المقدسة كما فى قوله - إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله - وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه . قرأ الجمهور « سينين » بكسر السين ، وقرأ ابن اسحاق وعمر و ابن ميمون وأبو رجاء بفتحها ، وهى لغة بكر وتميم . وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة « سيناء » بالكسر والمد (وهذا البلد الأمين) يعنى مكة ، سماه أمينا لأنه آمن كما قال - أنا جعلنا حرما آمنا - يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين . قال الفراء وغيره : الأمين بمعنى الآمن ، ويجوز أن يكون فعिला بمعنى مفعول من آمنه لأنه مأمون الغوائل (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) هذا جواب القسم : أى خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم وتعديل . قال الواحدى : قال المفسرون : إن الله خلق كل ذى روح مكبا على وجهه إلا الإنسان ، خلقه مديد القامة يتناول ما كوله بيده ، ومعنى التقويم : التعديل ، يقال : قومته فاستقام . قال القرطبي : هو اعتداله واستواء شأنه ، كذا قال عامة المفسرين . قال ابن العربى : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلم سميعا بصيرا مدبرا حكيما ، وهذه صفات الرب سبحانه ، وعليها حمل بعض العلماء قوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » يعنى على صفاته التى تقدم ذكرها . قلت : وينبغى أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه - ليس كمثل شئ - وقوله - ولا يحيطون به علما - ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع فلينظر فى كتاب [العبر والاعتبار] للجاحظ ، وفى الكتاب الذى عتمده النيسابورى على قوله - وفى أنفسكم أفلا تبصرون - وهو فى مجلدين ضخمين (ثم رددناه أسفل سافلين) أى رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتى يصير كالصبي فيخرف وينقص عقله ، كذا قال جماعة من المفسرين . قال الواحدى : والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا . وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض ، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة ، ولا ينافى هذا قوله تعالى - إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار - فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسفل ، وقوله (أسفل سافلين) إما حال من المفعول : أى رددناه حال كونه أسفل سافلين ، أو صفة لمقدر محذوف : أى مكانا أسفل سافلين (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) هذا الاستثناء على القول الأول منقطع : أى لكن الذين آمنوا الخ ، ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى . وعلى القول الثانى يكون الاستثناء متصلا من ضمير رددناه ، فإنه فى معنى الجمع : أى رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - (فلهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع : أى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم ، فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى القول الثانى مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد ، وقال : أسفل سافلين على الجمع ، لأن الإنسان فى معنى الجمع ،

ولو قال أسفل سافل لحاز ، لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد . وقيل معنى رددناه أسفل سافلين : رددناه إلى الضلال ، كما قال - إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - أي إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك (فما يكذبك بعد بالدين) الخطاب للإنسان الكافر ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة : أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يملكك على أن تكذب بالبعث والجزاء ؟ وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي أي شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة ، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين . قال الفراء والأخفش : المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين ، كأنه قال : من يقدر على ذلك ؟ أي على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر ، واختار هذا ابن جرير . والدين الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

دينًا تميما كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم من سالف الزمن

وقال الآخر : ولما صرح الشر فأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العلوا ن دنأهم كما دانوا

(أليس الله بأحكم الحاكمين) أي أليس الذي فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعا وتديرا ؟ حتى تتوهم عدم الإعادة والجزاء ، وفيه وعيد شديد للكفار ، ومعنى أحكم الحاكمين : أتقن الحاكمين في كل ما يخلق ، وقيل أحكم الحاكمين قضاء وعدلا . والاستفهام إذا دخل على النبي صار الكلام إيجابا كما تقدم تفسير قوله - ألم نشرح لك صدرك - .

وقد أخرج الخطيب وابن عساكر قال السيوطي بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال : لما أنزلت سورة التين والزيتون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرح فرحا شديدا حتى تبين لنا شدة فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال : التين بلاد الشام ، والزيتون بلاد فلسطين ، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى وهذا البلد الأمين مكة (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) محمدا (ثم رددناه أسفل سافلين) عبدة اللات والعزى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين) إذ بعثك فيهم نبيا وجمعك على التقوى يا محمد ، ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون في إسناده ذلك المجهول . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (والتين والزيتون) قال : مسجد نوح الذي بنى على الجودي ، والزيتون قال : بيت المقدس (وطور سينين) قال : مسجد الطور (وهذا البلد الأمين) قال : مكة (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين) يقول : يرد إلى أرذل العمر كبر حتى ذهب عقله ، هم تفرقوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عندهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم (فما يكذبك بعد بالدين) يقول : يحكم الله . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه أيضا (والتين والزيتون) قال : الفاكهة التي يأكلها الناس (وطور سينين) قال : الطور الجبل ، والسينين المبارك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : سينين هو الحسن . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضا (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) قال في أعدل خلقي (ثم رددناه أسفل سافلين) يقول :

إلى أرذل العمر (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) يعنى غير منقوص ، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر . وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ، وذلك قوله (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (ثم رددناه أسفل سافلين) يقول : إلى الكبر وضعفه ، فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه . وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » . وأخرج الترمذي وابن مردويه عن أنس بن مالك مرفوعاً « من قرأ التين والزيتون ، فقرأ (أليس الله بأحكم الحاكمين) فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً « إذا قرأت التين والزيتون فقرأت (أليس الله بأحكم الحاكمين) فقل بلى » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ (أليس الله بأحكم الحاكمين) قال : سبحانك اللهم فبلى اهـ .

تفسير سورة اقرأ

ويقال سورة العلق ، وهي تسع عشرة آية ، وقيل عشرون آية

وهي مكية بلا خلاف ، وهي أول ما نزل من القرآن . وأخرج ابن مردويه عن طرق عن ابن عباس قال : أول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن الأنباري والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن أبي موسى الأشعري قال (اقرأ باسم ربك الذي خلق) أول سورة أنزلت على محمد . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وصححه عن عائشة قالت : إن أول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل الحديث الطويل الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة ، وفيه « فجاءه الحق وهو في غار حراء ، فقال له اقرأ » الحديث ، وفي الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ (٦) أَن رَّآهُ
أَسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ
إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ

اللَّهُ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالْعَاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)
فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) .

قرأ الجمهور (اقرأ) بسكون الهمزة أمراً من القراءة . وقرأ عاصم في رواية عنه بفتح الراء ، وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر ، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً ، فالتقدير : اقرأ ما يوحى إليك ، أو ما نزل عليك ، أو ما أمرت بقراءته ، وقوله (باسم ربك) متعلق بمحذوف هو حال : أى اقرأ ملتبساً باسم ربك أو مبتدئاً باسم ربك أو مفتتحاً ، ويجوز أن تكون الباء زائدة ، والتقدير : اقرأ اسم ربك كقول الشاعر :

• سود المحاجر لا يقرآن بالسور •
قاله أبو عبيدة . وقال أيضاً : الاسم صلة : أى اذكر ربك . وقيل الباء بمعنى على : أى اقرأ على اسم ربك ، يقال افعل كذا بسم الله ، وعلى اسم الله قاله الأخفش . وقيل الباء للاستعانة : أى مستعيناً باسم ربك ، ووصف الرب بقوله (الذى خلق) لتذكير النعمة لأن الخالق هو أعظم النعم ، وعليه يترتب سائر النعم . قال الكلبي : يعنى الخلاق (خلق الإنسان من علق) يعنى بنى آدم ، والعلقة الدم الجامد ، وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : من علق يجمع علق لأن المراد بالإنسان الجنس ، والمعنى : خلق جنس الإنسان من جنس العلق ، وإذا كان المراد بقوله «الذى خلق» كل المخلوقات ، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشریفاً له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع ، وإذا كان المراد بالذى خلق الذى خلق الإنسان فيكون الثانى تفسيراً للأول . والنكتة ما فى الإبهام ، ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً ثم فسر ثانياً . ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال (اقرأ وربك الأكرم) أى افعل ما أمرت به من القراءة ، وجملة (وربك الأكرم) مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلى الله عليه وآله وسلم من قوله : «ما أنا بقارئ» يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أمي ، فتميل له اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم . قال الكلبي : يعنى الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم ، وقيل إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه ، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد ، والأول أولى (الذى علم بالقلم) أى علم الإنسان الخط بالقلم ، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب . قال الزجاج : علم الإنسان الكتابة بالقلم . قال قتادة : القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة ، أولاً ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش ، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطلت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هى ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا ، وسمى قلماً لأنه يقلم : أى يقطع (علم الإنسان ما لم يعلم) هذه الجملة بدل اشتمال من التى قبلها : أى علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها ، قيل المراد بالإنسان هنا آدم كما فى قوله - وعلم آدم الأسماء كلها - وقيل الإنسان هنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى : أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم ، وقوله (كلا) ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه ، وإن لم يتقدم له ذكر ، ومعنى (إن الإنسان ليطغى) أنه يجاوز الحد ويستكبر على ربه . وقيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل ، وهو المراد بهذا وما بعده إلى آخر السورة ، وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة فى أول هذه السورة . وقيل «كلا» هنا بمعنى حقاً قاله الجرجاني ، وعلل ذلك بأنه

ليس قبله ولا بعده شيء يكون كلاً رداً له ، وقوله (أن رآه استغنى) علة لبطنى : أى لبطنى أن رأى نفسه مستغنياً ، أو لأن رأى نفسه مستغنياً ، والرؤية هنا بمعنى العلم ، ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين فى فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم ، ونحوه . قال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التى تريد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتنى وجسبتنى ، ومتى تراك خارجاً ، ومتى تظنك خارجاً ، قيل والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال . قرأ الجمهور « أن رآه » بمد الهمة . وقرأ قبل عن ابن كثير بقصرها . قال مقاتل : كان أبوجهل إذا أصاب ما لا زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه ، وكذا قال الكلبي : ثم هدد سبحانه وخوف ، فقال (إن إلى ربك الرجعى) أى المرجع ، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ، يقال : رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى ، وتقدم الجار والمجرور للقصر : أى الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره (رأيت الذى ينهى . عبداً إذا صلى) قال المفسرون : الذى ينهى أبوجهل ، والمراد بالعبد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية (رأيت إن كان على الهدى) يعنى العبد المنهى إذا صلى ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (أو أمر بالتقوى) أى بالإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذى تنبى به النار (رأيت إن كذب وتولى) يعنى أبوجهل ، كذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عن الإيمان ، وقوله (رأيت) فى الثلاثة المواضع بمعنى أخبرنى لأن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها ، والخطاب لكل من يصلح له . وقد ذكر هنا رأيت ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فتكون فى موضع المفعول الثانى لها ، ومفعولها الأول محذوف ، وهو ضمير يعود على الذى ينهى الواقع مفعولاً أولاً لأرأيت الأولى ، ومفعول رأيت الأولى الثانى محذوف ، وهو جملة استفهامية كالجملية الواقعة بعد أرأيت الثانية ، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثانى ، حذف الأول لدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه فقد حذف الثانى من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية ، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع لأنه يستدعى إضماراً ، والجمل لا تضمير ، وإنما تضمير المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة ، وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت فى الموضعين الآخرين . فهو محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى (ألم يعلم بأن الله يرى) وإنما حذف للدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى ، ومعنى (ألم يعلم بأن الله يرى) أى يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، فكيف اجتراً على ما اجتراً عليه ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقيل أرأيت الأولى مفعولها الأول الموصول ، ومفعولها الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمدكور ، وأرأيت فى الموضعين تكرير للتأكيد ، وقيل كل واحدة من أرأيت بدل من الأولى ، و (ألم يعلم بأن الله يرى) الخبر . قوله (كلا) ردع للنهى ، واللام فى قوله (لئن لم ينته) هى الموطئة للقسم : أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر (لنسفعا بالناصية) السفع الجذب الشديد ، والمعنى : لناخذن بناصيته ولنجرته إلى النار وهذا كقوله - فيؤخذ بالنواصي والأقدام - ويقال سفعت الشيء : إذا قبضته وجذبه ، ويقال سفع بناصية فرسه : قال الراغب : السفع الأخذ بسفعة الفرس : أى بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد قيل : به سفعة غضب اعتباراً بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتد به الغضب ، وقيل للضقر أسفع لما فيه من لمع السواد ، وامرأة سفعاء اللون انتهى ، وقيل هو مأخوذ من سفع النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى سواد ، ومنه قول الشاعر :

أثناني سفعاً في معرّس مرّجل وقوله (ناصية) بدل من الناصية ، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله (كاذبة خاطئة) وهذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يميزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها . وأما على مذهب البصريين ، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط ، وأنشدوا :

فلا وأبيك خير منك إني ليؤذيني التحمحم والصهيل

قرأ الجمهور بجر « ناصية كاذبة خاطئة » والوجه ما ذكرنا . وقرأ الكسائي في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ : أي هي ناصية ، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبة وزيد بن علي بنصبها على الهمزة . قال مقاتل : أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ ، فقال ناصية كاذبة خاطئة ، تأويلها : صاحبها كاذب خاطئ (فليدع ناديه) أي أهل ناديه ، والنادي : المجلس الذي يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة ؛ والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، ومنه قول الشاعر : * واستبّ بعدك يا كليب المجلس * أي أهله . قيل إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتهدّني وأنا أكثر الوادي نادياً ؟ فنزلت (فليدع ناديه سندع الزبانية) أي الملائكة الغلاظ الشداد ، كذا قال الزجاج . قال الكسائي والأخفش وعيسى بن عمر : واحد هم زابن ، وقال أبو عبيدة : زبانية ، وقيل زباني ، وقيل هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابل . وقال قتادة : هم الشرط في كلام العرب ، وأصل الزبن الدفع ، ومنه قول الشاعر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولوزبنته الحرب لم يترمرم

والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه ، ومنه قول الشاعر :

مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى زبانية غلب عظام حلومها

قرأ الجمهور « سندع » بالنون ، ولم ترسم الواو كما في قوله - يوم يدع الداع - وقرأ ابن أبي عبة « سيدعي » على البناء للمفعول ورفع الزبانية على النيابة . ثم كرّر الردع والزجر فقال (كلا لا تطعه) أي لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة (واسجد) أي صلّ لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه (واقرب) أي تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة . وقيل المعنى : إذا سجدت إقرب من الله بالدعاء . وقال زيد بن أسلم : واسجد أنت يا محمد ، واقرب أنت يا أبا جهل من النار ، والأوّل أولى . والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة ، وقيل سجود التلاوة ، ويدلّ على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية ، كما سيأتي إن شاء الله .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : « أتى جبريل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد اقرأ . فقال : وما أقرأ ؟ فضمه ثم قال : يا محمد اقرأ ، قال : وما أقرأ ؟ قال (اقرأ باسم ربك الذي خلق) حتى بلغ (ما لم يعلم) وفي الصحيحين : وغيرهما من حديث عائشة « فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، فقال : قلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه ، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً » وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي

وفصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر ناديا مني ، فأنزل الله (فليدع ناديه سندع الزبانية) فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي ، فقيل : ما يمنعك ؟ فقال : قد أسود ما بيني وبينه . قال ابن عباس : والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه . وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال : واللوات والعزى لئن رأيت يصلي كذلك لأطأن على رقبتة ولأعفرن وجهه في التراب فاتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي ليطأن على رقبتة ، قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيده ، فقيل له مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لودنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » قال : وأنزل الله (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) إلى آخر السورة : يعنى أبا جهل (فليدع ناديه) يعنى قومه (سندع الزبانية) يعنى الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) قال : أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عنه في قوله (لنسفعا) قال : لناخذن . وأخرج ابن جرير عنه أيضا (فليدع ناديه) قال : ناصره ، وقد قد منا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يسجد في (إذا السماء انشقت) وفي (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

تفسير سورة القدر

هى خمس آيات

وهى مكية عند أكثر المفسرين . كذا قال الماوردى . وقال الثعلبي : هى مدنية فى قول أكثر المفسرين ، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) .

الضمير فى أنزلناه للقرآن ، وإن لم يتقدم له ذكر ، أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم نجوما على حسب الحاجة ، وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث وعشرون سنة ، وفى آية أخرى - إنا أنزلناه فى ليلة مباركة - وهى ليلة القدر ، وفى آية أخرى - شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن - وليلة القدر فى شهر رمضان . قال مجاهد : فى ليلة القدر ليلة الحكم (وما أدراك ما ليلة القدر) ليلة الحكم ، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء

من أمره إلى السنة القابلة . وقيل إنها سميت بذلك العظيم قدرها وشرفها ، من قولهم : لقلان قدر : أى شرف ومنزلة ، كذا قال الزهرى . وقيل سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال الخليل : سميت ليلة القدر ، لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله - ومن قدر عليه رزقه - أى ضيق .

وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً ، قد ذكرناها بأدلتها وبيدنا الراجح منها في شرحنا للمنتقى (وما أدراك ما ليلة القدر) هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا الله سبحانه . قال سفيان : كل ما في القرآن من قوله : وما أدراك فقد أدراه ، وكل ما فيه وما يدريك فلم يدركه ، وكذا قال الفراء . والمعنى : أى شيء يجعله دارياً بها ؟ وقد قدمنا الكلام في إعراب هذه الجملة في قوله - وما أدراك ما الحاقة - ثم قال (ليلة القدر خير من ألف شهر) قال كثير من المفسرين : أى العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، واختار هذا الفراء والزجاج ، ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع ، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة . وقيل أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر ، لأن العرب تذكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة . وقيل وجه ذكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر ، وذلك ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها . وقيل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى أعمار أمته قصيرة ، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم ، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته ، وجملة (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) مستأنفة مبينة لوجه فضلها موضحة للعلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر ، وقوله (بإذن ربهم) يتعلق بتنزل أو بمحذوف هو حال : أى ملتبسين بإذن ربهم ، والإذن الأمر ، ومعنى تنزل : تهبط من السموات إلى الأرض . والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين : أى تنزل الملائكة ومعهم جبريل . ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه . وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرفهم ، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة ، وقيل الروح الرحمة ، وقد تقدم الخلاف في الروح عند قواه - يوم يقوم الروح والملائكة صفاً - قرأ الجمهور « تنزل » بفتح التاء ، وقرأ طلحة بن مصرف وابن السمين بضمها على البناء للمفعول ، وقوله (من كل أمر) أى من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة ، وقيل إن من بمعنى اللام : أى لكل أمر ، وقيل هي بمعنى الباء : أى بكل أمر ، قرأ الجمهور « أمر » وهو واحد الأمور ، وقرأ علي وابن عباس وعكرمة والكلبي « امرى » مذكر امرأة : أى من أجل كل إنسان ، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان ، فمن على هذا بمعنى على ، والأول أولى . وقد تم الكلام عند قوله من كل أمر ، ثم ابتداء فقال (سلام هي) أى ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها ، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة . قال مجاهد : هي ليلة سيالة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى . وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرّون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن ، وقيل معنى سلام الملائكة بعضهم على بعض . قال عطاء : يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته (حتى مطلع الفجر) أى حتى وقت طلوعه . قرأ الجمهور « مطلع » بفتح اللام . وقرأ الكسائي وابن محيصن بكسرها ، فقيل هما لغتان في المصدر ، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل ، وقيل بالفتح اسم مكان ، وبالكسر المصدر ، وقيل العكس ، وحتى متعاقبة

ينزل على أنها غاية لحكم التنزل أى لمكثهم فى محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر ، وقيل متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بحجاب كلام العباد وأعمالهم . وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل فى ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر . وأخرج الترمذى وضعفه وابن جرير والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن الحسن بن على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أرى بنى أمية على منبره فساءه ذلك ، فنزلت - إنا أعطيناك الكوثر - يا محمد يعنى نهرا فى الجنة ، ونزلت (إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) يملكها بعدك بنو أمية . قال القاسم : فعددنا فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما ، والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور فى إسناده . قال الترمذى : إن يوسف هذا مجهول ، يعنى يوسف بن سعد الذى رواه عن الحسن بن على . قال ابن كثير : فيه نظر ، فإنه قد روى عنه جماعة : منهم حماد بن سامة وخالد الحذاء ويونس بن عبيد . وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور . وفى رواية عن ابن معين قال : هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى ابن مازن . قال ابن كثير : ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جدا . قال المزى : هو حديث منكر ، وقول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بنى أمية فوجدوها ألف شهر لا تزيد ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية وهى سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهى سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن على . وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسل نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (سلام) قال : فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن وتفتح فيها أبواب السماء كلها ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب ، فلذا قال (سلام هى حتى مطلع الفجر) قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، والأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، وكذلك الأحاديث فى تعيينها والاختلاف فى ذلك .

تفسير سورة لم يكن

هى ثمان آيات

وهى مدنية فى قول الجمهور ، وقيل مكية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة (لم يكن) بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة لم يكن بمكة . وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل ابن أبى حكيم المزنى ، حدثنى فضل ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الله يستمع قراءة (لم يكن الذين كفروا) فيقول : أبشر عبدى وعزتى وجلالى لأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » قال ابن كثير : حديث غريب جدا . وأخرجه أبو موسى المدينى عن مطر المزنى ، أو المذنى بنحوه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبى بن كعب « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك

(لم يكن الذين كفروا) قال : وسأني لك ؟ قال نعم ، فبكي . وأخرج أحمد وابن قانع في معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه عن أبي حية البلدي قال : « لما نزلت (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) إلى آخرها قال جبريل : يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي : إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة ، فقال أبي : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال نعم ، فبكي . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

المراد بـ (الذين كفروا من أهل الكتاب) اليهود والنصارى ، (و) المراد بـ (المشركين) مشركو العرب ، وهم عبدة الأوثان ، و (منفككين) خبر كان ، يقال فككت الشيء فانفك : أى انفصل ، والمعنى : أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عنه (حتى تأتيهم البينة) وقيل الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية : أى لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة ، وقيل منفككين زائلين : أى لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة ، يقال ما انفك فلان قائما : أى مازال قائما ، وأصل الفك الفتح ، ومنه فك الخلخال . وقيل منفككين بارحين : أى لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به - وعلى هذا فيكون قوله (والمشركين) أنهم ما كانوا يسيئون القول في محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعث ، فإنهم كانوا يسمونه الأيمن ، فلما بعث عادوه وأساءوا القول فيه . وقيل (منفككين) هالكين ، من قولهم : انفك صلبه : أى انفصل فلم يلتصم فيه ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم . وقيل إن المشركين هم أهل الكتاب ، فيكون وصفهم لأنهم قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله . قال الواحدى : ومعنى الآية إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان ، وهذا بيان عن النعمة والانقاذ به من الخلل

والضلالة والآية فيمن آمن من الفريقين . قال : وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظما وتفسيرا ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، وسلكوا في تفسيرها طرقا لاتفضى بهم إلى الصواب . والوجه ما أخبرتك فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال . قال : ويدل على أن البينة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه فسرهما وأبدل منها فقال (رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة) يعني ماتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن ، ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب انتهى كلامه . وقيل إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به ، فلما بعث تفرقوا كما حكاها الله عنهم في هذه السورة . والبينة على ما قاله الجمهور هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه في نفسه بينة وحجة ولذلك سماه سراجا منيرا ، وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله (رسول من الله) فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة . وقال قتادة وابن زيد : البينة هي القرآن كقوله - أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى - وقال أبو مسلم : المراد بالبينة مطلق الرسل ، والمعنى : حتى تأتهم رسل من الله ، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة ، والأول أولى قرأ الجمهور « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » وقرأ ابن مسعود « لم يكن المشركون وأهل الكتاب » قال ابن العربي : وهي قراءة في معرض البيان ، لا في معرض التلاوة . وقرأ الأعمش والنخعي : والمشركون بالرفع عطفا على الموصول . وقرأ أبي « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون » قرأ الجمهور « رسول من الله » برفع رسول على أنه بدل كل من كل مبالغة ، أو بدل اشتغال . قال الزجاج : رسول رفع على البدل من البينة . وقال القراء : رفع على أنه خير مبتدأ مضمرة : أي هي رسول أو هو رسول . وقرأ أبي وابن مسعود « رسولا » بالنصب على القطع ، وقوله (من الله) متعلق بمحذوف هو صفة لرسول : أي كائن من الله ، ويجوز تعلقه بنفس رسول ، ويجوز أبو البقاء أن يكون حالا من صحف ، والتقدير : يتلو صحفا مطهرة منزلة من الله ، وقوله (يتلو صحفا مطهرة) يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول ، أو حالا من متعلق الجار والمجرور قبله . ومعنى يتلو : يقرأ ، يقال تلا يتلو تلاوة ، والصحف جمع صحيفة ، وهي ظرف المكتوب ، ومعنى مطهرة : أنها منزهة من الزور والضلال . قال قتادة : مطهرة من الباطل ، وقيل مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد ، والمعنى : أنه يقرأ ماتضمنه الصحف من المكتوب فيها لأنه كان صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب كما تقدم ، وقوله (فيها كتب قيمة) صفة لصحفا ، أو حال من ضميرها ، والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة ، من قول العرب : قام الشيء : إذا استوى وصح . وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله - كتب الله لأغلبن أنا ورسلي - أي حكم ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم في قصة العسيف « لأقضين بينكما بكتاب الله » ثم قضى بالرجم ، وليس الرجم في كتاب الله ، فالمعنى : لأقضين بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ما قيل إن الصحف هي الكتب ، فكيف قال (صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) وقال الحسن : يعني بالصحف المطهرة التي في السماء ، يعني في اللوح المحفوظ كما في قوله - بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ - (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم ، وبيان أن مانسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمدا ، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا ، فأمن به بعضهم وكفر آخرون . وخص أهل الكتاب ، وإن كان غيرهم مثلهم في التفرق بعد مجيء البينة لأنهم كانوا أهل علم ، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا

الوصف ، والاستثناء في قوله (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) مفرغ من أعم الأوقات : أى وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، وهى بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشرعة الغراء والمحجة البيضاء . وقيل البينة : البيان الذى فى كتبهم أنه نبي مرسل كقوله - وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم - قال القرطبي : قال العلماء : من أول السورة إلى قوله (كتب قيمة) حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركون ، وقوله (وما تفرق) الخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركون بعد قيام الحجج ، وجملة (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم وتوبييخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة : أى والحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحده حال كونهم (مخلصين له الدين) أى جاعلين دينهم خالصا له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين ، وقيل إن اللام فى ليعبدوا بمعنى أن : أى ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله - يريد الله ليبين لكم - أى أن يبين ، و - يريدون ليطفثوا نور الله - أى أن يطفثوا قرأ الجمهور « مخلصين » بكسر اللام . وقرأ الحسن بفتحها . وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات لأن الإخلاص من عمل القلب ، وانتصاب (حقائق) على الحال من ضمير مخلصين ، فتكون من باب التداخل ، ويجوز أن تكون من فاعل يعبدوا ، والمعنى : ماثلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال أهل اللغة : أصله أن يحنف إلى دين الإسلام : أى يميل إليه (ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أى يفعلوا الصلوات فى أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين . قيل إن أريد بالصلاة والزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما فى شريعتنا فعنى أمرهم بهما فى الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا ، وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها (وذلك دين القيمة) أى وذلك المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقامة الصلاة والزكاة (دين القيمة) أى دين الملة المستقيمة . قال الزجاج : أى ذلك دين الملة المستقيمة ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف . قال الخليل : القيمة جمع القيم ، والقيم : القائم . قال الفراء : أضاف الدين إلى القيمة ، وهو نعت لاختلاف اللفظين . وقال أيضا : هو من إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة . ثم بين سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا فقال (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم) الموصول اسم إن ، والمشركين معطوف عليه ، وخبرها فى نار جهنم ، و (خالدين فيها) حال من المستكن فى الخبر ، ويجوز أن يكون قوله والمشركين مجرورا عطفا على أهل الكتاب ومعنى كونهم فى نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون فى نار جهنم والخلود فيها (هم شر البرية) أى الخليقة ، يقال برا : أى خلق ، والبارئ الخالق ، والبرية الخليقة . قرأ الجمهور « البرية » بغير همز فى الموضعين وقرأ نافع وابن ذكوان فيهما بالهمز . قال الفراء : إن أخذت البرية من البراء وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ ، وإن أخذتها من برئت القلم : أى قدرته دخلت . وقيل إن الهمز هو الأصل لأنه يقال برا الله الخلق بالهمز : أى ابتدعه واخترعه ومنه قوله - من قبل أن نبرأها - ولكنها خففت الهمزة ، والتزم تخفيفها عند عامة العرب . ثم بين حال الفريق الآخر فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح (أولئك) المنعوتون بهذا (هم خير البرية) قال : والمراد أن أولئك شر البرية فى عصره صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يبعد أن يكون فى كفار الأمم من هو شر منهم ، وهؤلاء خير البرية فى عصره صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم (جزاؤهم عند ربهم) أى ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح

(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) والمراد بجنات عدن هي أوسط الجنات وأفضلها ، يقال عدن بالمكان يعدن عدنا : أى أقام ، ومعدن الشيء : مركزه ومستقره ، ومنه قول الأعشى :

وإن يتضافوا إلى علمه يضافوا إلى راجح قد عدن

وقد قد منا في غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر ، فجري الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر ، وهو الشجر (خالدين فيها أبدا) لا يخرجون منها ولا يظعنون عنها ، بل هم دائمون في نعيمها مستمرّون في لذاتها (رضى الله عنهم ورضوا عنه) الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء ، وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره وقبلوا شرائعه ، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا ، وأن تكون في محل نصب على الحال باضمار قد (ذلك لمن خشى ربه) أى ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه في الدنيا وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه فإنها ليست بخشية على الحقيقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (منفكين) قال : برحين . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : أتعبجون من منزلة الملائكة من الله ، والذي نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك ، واقرأوا إن شئتم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت « قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله ؟ قال : يا عائشة أما تقرئين (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) » . وأخرج ابن عساکر عن جابر بن عبد الله قال : « كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل علىّ ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسى بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ، ونزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا أقبل قالوا : قد جاء خير البرية » . وأخرج ابن عساکر عن أبي سعيد مرفوعا « علىّ خير البرية » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ : هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » . وأخرج ابن مردويه عن عليّ مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيفة استوى عليه ، ألا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا بلى ، قال : الذي يسأل بالله ولا يعطى به » . قال أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبو هريرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكره .

تفسير سورة الزلزلة

هي ثمان آيات

وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت (إذا زلزلت) بالمدينة . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أقرئني يا رسول الله ، قال : اقرأ ثلاثاً من ذوات الرءاء ، فقال الرجل : كبر سني ، واشتد قلبي ، وغلظ لساني ، قال : اقرأ ثلاثاً من ذوات حم ، فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : اقرأ ثلاثاً من المسبحات ، فقال مثل مقالته الأولى ، وقال : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة ، فأقرأه (إذا زلزلت الأرض زلزالها) حتى فرغ منها ، قال الرجل : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أفلح الرويحل ، أفلح الرويحل . وأخرج الترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ إذا زلزلت الأرض عدلت له بنصف القرآن ، ومن قرأ : قل هو الله أحد عدلت له بثلاث القرآن ، ومن قرأ : قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن » . وأخرج الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » . قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة . وأخرج الترمذي عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل من أصحابه : هل تزوجت يا فلان ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندي ما أتزوج به ، قال : أليس معك قل هو الله أحد ؟ قال بلى ، قال : ثلث القرآن ، قال : أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح ؟ قال بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ قال بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك إذا زلزلت الأرض ؟ قال بلى ، قال : ربع القرآن تزوج . قال الترمذي : هذا حديث حسن . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « من قرأ في ليلة إذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣)
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا
أَعْمَلَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) .

قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) أي إذا حركت حركة شديدة ، وجواب الشرط : تحدث ، والمراد تحريكها عند قيام الساعة فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها . قال مجاهد : وهي النفخة الأولى لقوله تعالى - يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة - وذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله ، والمعنى :

زلزالها المخصوص الذي يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها . قرأ الجمهور « زلزالها » بكسر الزاي ، وقرأ الجحدري وعيسى بفتحها ، وهما مصدران بمعنى ، وقيل المكسور مصدر والمفتوح اسم . قال القرطبي . والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال (وأخرجت الأرض أثقالها) أى مافى جوفها من الأموات والدفائن ، والأثقال جمع ثقل ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها . قال مجاهد : أثقالها موتاها تخرجهم فى النفخة الثانية ، وقد قيل للإنس والجن الثقلان ، وإظهار الأرض فى موضع الإضممار لزيادة التقرير (وقال الإنسان ما لها) أى قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت ؟ لما يدهمه من أمرها ويهره من خطبها ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقوله : ما لها مبتدأ وخبر ، وفيه معنى التعجيب : أى أى شئ لها ، أو لئى شئ زلزلت وأخرجت أثقالها ؟ وقوله (يومئذ) بدل من إذا ، والعامل فيهما قوله (تحدث أخبارها) ويجوز أن يكون العامل فى إذا محذوف والعامل فى يومئذ تحدث ، والمعنى : يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر ، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة ، أو بلسان المقال ، بأن ينطقها الله سبحانه . وقيل هذا متصل بقوله (وقال الإنسان ما لها) أى قال ما لها (تحدث أخبارها) متعجبا من ذلك ، وقال يحيى بن سلام : تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ، وقيل تحدث بقيام الساعة ، وأنها قد أتت وأن الدنيا قد انقضت . قال ابن جرير : تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى ، ومفعول تحدث الأول محذوف والثانى هو أخبارها : أى تحدث الخلق أخبارها (بأن ربك أوحى لها) متعلق بتحدث ، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها ، وقيل الباء زائدة ، وأن وما فى حيزها بدل من أخبارها ، وقيل الباء سببية : أى بسبب إحياء الله إلهيا . قال الفراء : تحدث أخبارها بوحى الله وإذنه لها ، واللام فى أوحى لها بمعنى إلى وإنما أثرت على إلى لموافقة القواصل ، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى ، كذا قال أبو عبيدة . وقيل إن أوحى يتعدى باللام تارة ، وبإلى أخرى ، وقيل إن اللام على بابها من كونها للعبة ، والموحى إليه محذوف ، وهو الملائكة ، والتقدير : أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض : أى لأجل ما يفعلون فيها ، والأول أولى (يومئذ يصلى الناس أشتاتا) الظرف إما بدل من يومئذ الذى قبله ، وإما منصوب بمقدر هو اذكر ، وإما منصوب بما بعده ، والمعنى : يوم إذ يقع ما ذكر يصلى الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتا : أى متفرقين ، والصلى : الرجوع وهو ضد الورد ، وقيل يصلىون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار ، وانتصاب أشتاتا على الحال : والمعنى : أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد ، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال ، مع تفرقهم فى الأديان واختلافهم فى الأعمال (ليروا أعمالهم) متعلق بيصلى ، وقيل فيه تقديم وتأخير : أى تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم (يومئذ يصلى الناس أشتاتا) . قرأ الجمهور « ليروا » مبنيًا للمفعول ، وهو من رؤية البصر : أى ليرىهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وحامد بن سلمة ونصر بن عاصم وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، والمعنى : ليروا أجزاء أعمالهم (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) أى وزن نعمة ، وهى أصغر ما يكون من النمل . قال مقاتل : فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرة خيرا يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به ، (و) كذلك (من يعمل) فى الدنيا (مثقال ذرة شرا يره) يوم القيامة فيسوءه ، ومثل هذه الآية قوله - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - . وقال بعض أهل اللغة : إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرة ، وقيل الذرة ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء ، والأول أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دبّ محول من الذرّ فوق الأتّب منها لأثرا

و«من» الأولى عبارة عن السعداء ، و«من» الثانية عبارة عن الأشقياء . وقال محمد بن كعب : فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا وفي نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله خير ، ومن يعمل مثقال ذرة من شرّ من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله ونفسه وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله شرّ ، والأوّل أولى . قال مقاتل : نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقلّ أن يعطيه التمرة والكسرة ، وكان الآخر يتهاون بالذئب اليسير ويقول : إنما أوعد الله النار على الكافرين . قرأ الجمهور « يره » في الموضعين بضم الهاء وصلّا وسكونها وقفا ، وقرأ هشام بسكونها وصلّا ووقفا ، ونقل أبو حيان عن هشام وأبي بكر سكونها ، وعن أبي عمرو ضمها مشبعة ، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية ، وفي هذا النقل نظر ، والصواب ما ذكرنا . وقرأ الجمهور « يره » مبنيًا للفاعل في الموضعين . وقرأ ابن عباس وابن عمر والحسن والحسين ابنا عليّ وزيد بن عليّ وأبو حيوّة وعاصم والكسائي في رواية عنهما والجحدريّ والسلميّ وعيسى على البناء للمفعول فيهما : أي يريه الله إياه . وقرأ عكرمة « يراه » على توهم أن من موصولة ، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدّرة في الفعل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (إذا زلزلت الأرض زلزالها) قال : تحرّكت من أسفلها (وأخرجت الأرض أثقالها) قال : الموتى (وقال الإنسان ما لها) قال : الكافر يقول ما لها (يومئذ تحدث أخبارها) قال : قال لها ربك قولى (بأن ربك أوحى لها) قال : أوحى لها (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) قال : من كل من ههنا وههنا . وأخرج ابن المنذر عنه (وأخرجت الأرض أثقالها) قال : الكنوز والموتى . وأخرج مسلم والترمذى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «تتّى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القتاتل فيقول في هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول في هذا قطعت رحى ، ويجىء السارق فيقول في هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا» . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الشعب عن أبي هريرة قال «قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يومئذ تحدث أخبارها) قال : أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا ، فهذا أخبارها» . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا زلزلت الأرض زلزالها) حتى بلغ (يومئذ تحدث أخبارها)» . وأخرج الطبراني عن ربيعة الخرسى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، ولأنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا وهى مخبرة» . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في تاريخه وابن مردويه والبيهقى في الشعب عن أنس قال «بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت عليه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فرفع أبو بكر يده وقال : يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شرّ ، فقال : يا أبا بكر أرايت ماترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشرّ ويدخر لك مثاقيل ذرّ الخير حتى توفاه يوم القيامة» . وأخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه

عن أبي أسماء قال : « بينا أبوبكر يتغدى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت هذه الآية (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال شررا يره) فأمسك أبوبكر وقال : يا رسول الله ما عملنا من شر رأينا ، فقال : ماترون مما تكرهون فذاك مما تجزون ويؤخر الخير لأهله في الآخرة » . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « أنزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها وأبو بكر الصديق قاعد فبكى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال : يبكي هذه السورة ، فقال : لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم لخلق الله قومًا يخطئون ويذنبون فيغفر لهم » . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر » الحديث . وقال : « وسئل عن الحمر فقال : ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شررا يره) » .

تفسير سورة العاديات

هي إحدى عشرة آية

وهي مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ، ومدنية في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة (والعاديات) بمكة . وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، والعاديات تعدل نصف القرآن » ، وهو مرسل . وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس مرفوعا مثله ، وزاد « وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا (١) فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ
رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) .

(العاديات) جمع عادية ، وهي البخارية بسرعة ، من العلو : وهو المشى بسرعة ، فأبدلت الواو ياء لحسر ما قبلها كالغازيات من الغزو ، والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العلو ، وقوله (صبحا) مصدر مؤكدا لاسم افاعل ، فإن الضبح نوع من السير ونوع من العلو ، يقال ضبح الفرس : إذا عدا بشدة ، مأخوذ من الضبع ، هو الدفع ، وكان الحاء بدل من العين . قال أبو عبيدة والمبرد : الضبح من إضباعها في السير ومنه قول عنترة :
والخيل تكدح في حياض الموت ضبحا • ويجوز أن يكون مضدرا في موضع الحال : أي

ضابحات ، أو ذوات صبح ، ويجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف : أي تضح ضبحا ، وقيل الضبح : صوت حوافرها إذا عدت ، وقال الفراء : الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت . قيل كانت تكلم لثلاث تصهل فيعلم العلويهم ، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة ، وقيل الضبح : صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل . وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن العاديات ضبحا هي الخيل ، وقال عبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي : هي الإبل ، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع بأيديها إذا صدى الغبار

ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل ، ومنه قول الشاعر : تضح في الكف ضباح الثعلب (فالموريات قدحا) هي الخيل حين توري النار بسنابكها ، والإبراء إخراج النار ، والقدح الصك ، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد ، قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران والكلام في انتصاب قدحا كالكلام في انتصاب ضبحا ، والخلاف في كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذي تقدم في العاديات ، والراجع أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي ، فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل ، وسيأتي ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة (فالمغبرات صبحا) أي التي تغير على العلوي وقت الصباح ، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوه بقتل أو أسر أو نهب وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم ، وانتصاب صبحا على الظرفية (فأثرن به نقعا) معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتي عدون فأثرن ، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول ، فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة ، فالكلام في قوة : واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن ، والنقع : الغبار الذي أثرته في وجه العلوي عند الغزو ، وتخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة ، ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح . وقيل المعنى : فأثرن بمكان عدوهم نقعا ، يقال ثار النقع وأثرته : أي هاج أو هيجته . قرأ الجمهور « فأثرن » بتخفيف المثناة . وقرأ أبو حيوة وابن أبي عتبة بالتشديد : أي فأظهروا به غبارا . وقال أبو عبيدة : النقع رفع الصوت ، وأنشد قول لبيد :

فني ينقع صراخ صادق يجلبوها ذات جرس وزجل

يقول حين سمعوا صراخا أجلبوا الحرب : أي جمعوا لها . قال أبو عبيدة : وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى ، والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع الغبار ، ومنه قول الشاعر :

يخرجن من مستطار النقع دامية كأن أذناها أطراف أقلام

وقول عبد الله بن رواحة :

عدمنا حيلنا إن لم تروها تثير النقع من كنى كداء

وقول الآخر : كأن مشار النقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

وهذا هو المناسب لمعنى الآية ، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى ، فإن قولك أغارث الخيل على بني فلان صبحا فأثرن به صوتا ، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة . وقيل النقع : شق الجيوب ، وقال محمد بن كعب : النقع ما بين مزدلفة إلى منى ، وقيل إنه طريق الوادي . قال في الصحاح : النقع

الغبار ، والجمع أنقاع ، والنقع محبس الماء ، وكذلك ما اجتمع في البئر منه ، والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء (فوسطن به جمعا) أى توسطن بذلك الوقت ، أو فوسطن ملتبسات بالنقع جمعا من جموع الأعداء ، أو صرن بعلوهم وسط جمع الأعداء ، والباء إما للتعدية ، أو للحالية ، أو زائدة ، يقال : وسطت المكان : أى صرت فى وسطه ، وانتصاب جمعا على أنه مفعول به ، والفاءات فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها . قرأ الجمهور « فوسطن » بتخفيف السين ، وقرأ بالتشديد (إن الإنسان لربه لكنود) هذا جواب القسم ، والمراد بالإنسان بعض أفراد ، وهو الكافر ، والكنود : الكفور للنعمة ، وقوله « لربه » متعلق بكنود ، قدم لرعاية الفواصل ، ومنه قول الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنودا لنعماء الرجال يبعد

أى كفور لنعماء الرجال ، وقيل هو الجاحد للحق ، قيل إنها إنما سميت كندة لأنها جمحت أباهما . وقيل الكنود مأخوذ من الكند ، وهو القطع ، كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر . يقال كند الجبل : إذا قطعه ، ومنه قول الأعشى : * وصول جبال وكنادها * . وقيل الكنود البخيل ، وأنشد أبو زيد :

إن نفسى لم تطب منك نفسا غير أنى أمسى بدين كنود

وقيل الكنود الحسود ، وقيل الجهول لقدره ، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام ، والجاحد للنعمة كافر لها ، ولا يناسب المقام سائر ما قيل (وإنه على ذلك لشهيد) أى وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه ، وقيل المعنى : وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد ، وبه قال الجمهور . وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب ، وهو أرجح من قول الجمهور لقوله (وإنه لحب الخير لشديد) فإن الضمير راجع إلى الإنسان ، والمعنى : إنه لحب المال قوى مجده فى طلبه وتحصيله متهاك عليه ، يقال هو شديد لهذا الأمر وقوى له : إذا كان مطيقا له ، ومنه قوله تعالى - إن ترك خيرا - ومنه قول عدى بن حاتم :

ماذا ترجى النفوس من طلب الخير وحب الحياة كاذبها

وقيل المعنى : وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل ، والأول أولى . واللام فى « حب » متعلقة بشديد . قال ابن زيد : سمي الله المال خيرا ، وعسى أن يكون شرا ، ولكن الناس يجدونه خيرا ، فسماه خيرا . قال الفراء : أصل نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير ، فلما قدم الحب قال : لشديد ، وحذف من آخره ذكر الحب ، لأنه قد جرى ذكره ، ولرعو من الآى كقوله - فى يوم عاصف - والعصوف للريح لا لليوم ، كأنه قال : فى يوم عاصف الريح (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور) الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام : أى يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم ، وبعثر معناه نثر وبث : أى نثر ما فى القبور من الموتى وبث عنهم وأخرجهم . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه . قال الفراء : سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول : بثر بالحاء مكان العين ، وقد تقدم الكلام على هذا فى قوله - وإذا القبور بعثرت - (وحصل ما فى الصدور) أى ميز وبين ما فيها من الخير والشر ، والتحصيل التمييز ، كذا قال المفسرون ، وقيل حصل أبرز . قرأ الجمهور « حصل » بضم الحاء وتشديد الصاد مكسورا مبنيا للمفعول . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم حصل بفتح الحاء والصاد وتخفيفها مبنيا للفاعل : أى ظهر (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) أى إن رب المبعوثين بهم لخبير لا تخفى عليه منهم خافية فيجازيهم بالخير خيرا ، وبالشر شرا . قال

الزجاج : الله خير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ، ولكن المعنى : إن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم ، ومثله قوله تعالى - أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم - معناه : أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم . قرأ الجمهور « إن ربهم » بكسر الهمزة وباللام في الخبر ، وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة وإسقاط اللام من الخبر .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد وابن مردويه عن ابن عباس قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيلاً فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خبر فنزلت (والعاديات ضبحاً) ضبحت بأرجلها » ولفظ ابن مردويه : ضبحت بمناخرها (فالموريات قدحا) قدحت بحوافرها الحجارة فأورت نارا (فالمغيرات ضبحاً) ضبحت القوم بغارة (فأثرن به نقعا) أثارت بحوافرها التراب (فوسطن به جمعا) ضبحت القوم جميعاً . وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية إلى العدو فأبطأ خبرها ، فشق ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم ، فقال (والعاديات ضبحاً) قال : هي الخيل » .

والضبح نخير الخيل حين تنخر (فالموريات قدحا) قال : حين تجري الخيل توري نارا أصابت سنا بكها الحجارة (فالمغيرات ضبحاً) قال : هي الخيل أغارت فصبحت العدو (فأثرن به نقعا) قال : هي الخيل أثرن بحوافرها ، يقول بعدو الخيل ، والنقع الغبار (فوسطن به جمعا) قال : الجمع العدو . وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : تناولت أنا وعكرمة في شأن العاديات ، فقال : قال ابن عباس : هي الخيل في القتال ، وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت (فالموريات قدحا) أرت المشركين مكرهم (فالمغيرات ضبحاً) قال : إذا ضبحت العدو (فوسطن به جمعا) قال : إذا توسطت العدو . وقال أبو صالح : فقلت قال عليّ هي الإبل في الحج ومولاي كان أعلم من مولاي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحاً ، فقلت : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوى إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم ، فانفتل غني فذهب إلى عليّ ابن أبي طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبحاً ، فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت عنها ابن عباس ، فقال : هي الخيل حين تغير في سبيل الله ، فقال اذهب فادعه لي ، فلما وقفت على رأسه قال : تفنى الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف تكون (العاديات ضبحاً) إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران ، والمغيرات ضبحاً : من المزدلفة إلى منى ، فذلك جمع ، وأما قوله (فأثرن به نقعا) فهي تقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها . قال ابن عباس : فزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال عليّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود (والعاديات ضبحاً) قال : الإبل ، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعي . قال إبراهيم : وقال عليّ بن أبي طالب : هي الإبل . وقال ابن عباس : هي الخيل ، فبلغ علياً قول ابن عباس : فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كانت تلك في سرية بعثت . وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي قال : تمارى عليّ وابن عباس في العاديات ضبحاً ، فقال ابن عباس : هي الخيل ؛ وقال عليّ : كذبت يا بن فلانة ، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق . قال : وكان يقول هي الإبل ، فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعا فاشيء تثير إلا بحوافرها . وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس (والعاديات ضبحاً) قال : الخيل (فالموريات قدحا) قال : الرجل إذا أوري زنده (فالمغيرات ضبحاً) قال : الخيل تصبح العدو (فأثرن به

نقعا) قال : التراب (فوسطن به جمعا) قال : العدو . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد (والعاديات ضبحا) قال : قال ابن عباس : القتال . وقال ابن مسعود : الحج . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس (والعاديات ضبحا) قال : ليس شيء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس (فاللوريات قدحا) قال : هو مكر الرجل قدح فأورى (فالغيرات صبحا) قال : غارة الخيل صبحا (فأثرن به نقعا) قال : غبارا وقع سنابل الخيل (فوسطن به جمعا) قال : جمع العدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (والعاديات ضبحا) قال : الخيل ضبحتها زحيرها ، ألم تر أن الفرس إذا عدا قال : أح أح ، فذلك ضبحتها . وأخرج ابن المنذر عن علي قال : الضبح من الخيل الحمجمة ، ومن الإبل النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود (والعاديات ضبحا) قال : هي الإبل في الحج (فاللوريات قدحا) إذا سفت الحصى بمناسمها فضرب الحصى بعضه بعضا فيخرج منه النار (فالغيرات صبحا) حين يفيضون من جمع (فأثرن به نقعا) قال : إذا سرن يثرن التراب . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد الكفور . وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (إن الإنسان لربه لكنود) قال لكفور . وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب والحكيم الترمذي وابن مردويه عن أبي أمامة قال : الكنود الذي يمنع رفقده وينزل وحده ويضرب عبده . ورواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والديلمي وابن عساكر مرفوعا ، وضعف إسناده السيوطي ، وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك ، والموقوف أصح لأنه لم يكن من طريقه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (ولأنه على ذلك لشهيد) قال : الإنسان (ولأنه لحب الخير) قال : المال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (إذا بعثر ما في القبور) قال : بحث (وحصل ما في الصدور) قال : أبرز .

تفسير سورة القارعة

هي إحدى عشرة آية ، وقيل عشر آيات

وهي مكية بلا خلاف . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة القارعة بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرِيكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرِيكَ مَا هِيَةٌ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) .

(القارعة) من أسهاء القيامة ، لأنها تفرع القلوب بالفرع وتفرع أعداء الله بالعذاب ، والعرب تقول قرعهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع . قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لراحت عنك حيناً
وقال آخر: متى نقرع بمروءتكم نسؤكم ولم يوقد لنا في القدر نار
والقارعة مبتدأ وخبرها قوله (ما القارعة) وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ عيسى بنصيبها على تقدير : احذروا
القارعة ، والاستفهام للتعظيم والتفخيم لشأنها ، كما تقدم بيانه في قوله - الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة -
وقيل معنى الكلام على التحذير . قال الزجاج : والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب ، وأنشد قول الشاعر :

لحديرون بالوفاء إذا قال أخو النجدة السلاح السلاح

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير ، فإنه أدل على هذا المعنى ،
ويؤيده أيضاً قوله (وما أدراك ما القارعة) فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة
علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم ، وما الاستفهامية مبتدأ ، وأدراك خبرها وما القارعة مبتدأ وخبر ،
والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني ؛ والمعنى : وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ثم بين سبحانه متى
تكون القارعة فتمال (يوم يكون الناس كالفرش المبثوث) وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة :
أي تفرعهم يوم يكون الناس الخ ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير اذكر . وقال ابن عطية ومكي وأبو البقاء :
هو منصوب بنفس القارعة ، وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وإنما نصب لإضافته إلى الفعل ، فالفتحة فتحة بناء
لافتحة إعراب : أي هي يوم يكون الخ ، وقيل التقدير : ستأتيكم القارعة يوم يكون ، وقرأ زيد بن علي برفع يوم
على الخبرية للمبتدأ المقدر . والفرش : الطير الذي تراه يتساقط في النار والسراج والواحدة فراشة ، كذا قال
أبو عبيدة وغيره . قال الفراء : الفرش هو الطائر من بعوض وغيره ، ومنه الجراد . قال وبه يضرب المثل في الطيش
والهوج ، يقال : أطيشت من فراشة ، وأنشد :

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقول آخر : وقد كان أقوام زددت حلومهم عابهم وكانوا كالفرش من الجهل

والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر ، يقال بثه : إذا فرقه ، ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى - كأنهم جراد
منتشر - وقال المبثوث ولم يقل المبثوثة ، لأن الكل جائز كما في قوله - أعجاز نخل منقعر - و - أعجاز نخل خاوية -
وقد تقدم بيان وجه ذلك (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) أي كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نفش
بالندف ، والعهن عند أهل اللغة : الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة ، وقد تقدم بيان هذا في سورة سأل سائل
وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة ، وقد قدمنا بيان الجمع بينها . ثم كر سبحانه أحوال
الناس وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية) قد تقدم القول في
الميزان في سورة الأعراف وسورة الكهف وسورة الأنبياء .

وقد اختلف فيها هنا ، فقيل هي جمع موزون ، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وبه قال الفراء
وغيره ، وقيل هي جمع ميزان ، وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع ، كما يقال
لكل حادثة ميزان ، وقيل المراد بالموازين الحجج والدلائل ، كما في قول الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندى لكل مناصم ميزانه

ومعنى عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها . قال الزجاج : أي ذات رضي يرضاها صاحبها ، وقيل عيشة

راضية : أى فاعلة للرضى ، وهو اللين ، والانقياد لأهلها ، والعيشة كلمة مجمع النعم التى فى الجنة (وأما من خفت موازينه) أى رجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات يعتد بها (فأمه هاوية) أى فسكنه جهنم . وسماها أمه ، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه ، والهاوية من أسماء جهنم ، وسميت هاوية ، لأنه يهوى فيها مع بعد قعرها ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقارنا وفيها نولد

وقول الآخر : يا عمسرو أو نالتك أرماحت كنت كمن تهوى به الهاوية

والمهوى والمهواة : ما بين الجبلين ، وتهوى القوم فى المهواة : إذا سقط بعضهم فى إثر بعض . قال قتادة : معنى « فأمه هاوية » قصيره إلى النار . قال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه . قال الأنخس : أمه مستقره (وما أدراك ما هي) هذا الاستفهام للتوبيخ والتفطير ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ولا تدرك كنهها . ثم بينها سبحانه فقال (نار حامية) أى قد انتهى حرها وبلغ فى الشدة إلى الغاية وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف : أى هى نار حامية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال (القارعة) من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (فأمه هاوية) قال : كقولهم هوت أمه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة (فأمه هاوية) قال : أم رأسه هاوية فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة ؟ فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأم وبئست المربية » . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى نحوه . وأخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضا .

تفسير سورة التكاثر

هى ثمان آيات

وهى مكية عند الجميع . وروى البخارى أنها مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزل بمكة (الهاكم التكاثر) . وأخرج الحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ الهاكم التكاثر » . وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق والديلمى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ فى ليلة ألف آية لى الله وهو ضاحك فى وجهه ، قبل يارسول الله ومن يقوى على ألف آية ؟ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الهاكم التكاثر إلى آخرها ، ثم قال : والذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية » . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ الهاكم التكاثر ، وفى لفظ : وقد أنزلت عليه الهاكم التكاثر ، وهو يقول : ابن آدم ملئ مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت » . وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها بلغظ « يقول العبد مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاثة : ما أكل فأفنى ، أو

لبس فأبلى ، أو تصدق فأقتى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوافذ الأصول والبيهقى فى الشعب وضعفه عن جرير بن عبد الله قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إني قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر ، فمن بكى فله الجنة ، فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك ، فقال الذين لم يبكوا : قد جهدنا يا رسول الله أن نبكى فلم نتمدر عليه ، فقال : إني قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة ، ومن لم يقدر أن يبكى فليتبأكى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) .

قوله (ألهاكم التكاثر) أى شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد والتفاخر بكثرتها والتغالب فيها . يقال : ألهاه عن كذا وألهاه إذا شغله ، ومنه قول امرئ القيس : . فألھینھا عن ذی تمام محول . وقال الحسن : معنى ألهاكم : أنساكم (حتى زرتم المقابر) أى حتى أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال . وقال قتادة : إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاک : ألهاكم التشاغل بالمعاش . وقال مقاتل وقتادة أيضا وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا . وقال الكلبي : نزلت فى حين من قريش : بنى عبد مناف ، وبنى سهم تغادوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف فى الإسلام ، فقال كل حتى منهم نحن أكثر سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا وأكثر قائدا ، فكثرت بنو عبد مناف بنى سهم ، ثم تكاثروا بالأموال فكثرتهم بهم ، فنزلت (ألهاكم التكاثر) فلم ترضوا (حتى زرتم المقابر) مفتخرين بالأموال . وقيل نزلت فى حين من الأنصار . والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها . وفى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الحصل المذمومة ، وقال سبحانه (ألهاكم التكاثر) ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذم ، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام ، ولأن حذف المتعلق بمشعر بالتعميم ، كما تقرر فى علم البيان ، والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كل شئ يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله والعمل للآخرة ، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذى يزوره هذا على قول من قال : إن معنى (زرتم المقابر) متم ، وأما على قول من قال : إن معنى (زرتم المقابر) ذكرتم الموتى وعدتموهم للمفاخرة والمكاثرة ، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم ، وقيل لأنهم كانوا يزورون المقابر ، فيقولون هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان فيفتخرون بذلك (كلاً سوف تعلمون) ردع وزجر لهم عن التكاثر وتذيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة وفيه وعيد شديد . قال القراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر ، ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال (ثم كلاً سوف تعلمون) وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول ، وقيل الأول عند الموت أو فى القبر ، والثانى يوم القيامة . قال القراء : هذا التكرار على وجه التخليط والتأكيد . قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد . وكذا قال الحسن ومجاهد (كلاً لو تعلمون

علم اليقين) أى لو تعلمون الأمر الذى أنتم صائرون إليه علما يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا ، وجواب لو محذوف : أى لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، أو لفعلكم ما ينفعكم من الخير وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه ، وكلا فى هذا الموضع الثالث للزجر والردع كالموضعين الأولين . وقال القراء : هى بمعنى حقا ، وقيل هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا . قال قتادة : اليقين هنا الموت ، وروى عنه أيضا أنه قال : هو البعث . قال الأخفش : التقدير لو تعلمون علم اليقين ما أهاكم ، وقوله (لترون الحليم) جواب قسم محذوف ، وفيه زيادة وعيد وتهديد : أى والله لترون الحليم فى الآخرة . قال الرازى : وليس هذا جواب لو ، لأن جواب لو يكون منفيا ، وهذا مثبت ولأنه عطف عليه (ثم لتسألن) وهو مستقبل لابد من وقوعه قال : وحذف جواب لو كثير ، والخطاب للكفار ، وقيل عام كقوله - وإن منكم إلا واردها - قرأ الجمهور « لترون » بفتح التاء مبنيًا للفاعل وقرأ الكسائى وابن عامر بضمها مبنيًا للمفعول ، ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال (ثم لترونها عين اليقين) أى ثم لترون الحليم الروية التى هى نفس اليقين ، وهى المشاهدة والمعاينة ، وقيل المعنى : لترون الحليم بأبصاركم على البعد منكم ، ثم لترونها مشاهدة على القرب . وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، والثانى رؤيتها حال دخولها . وقيل هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار : أى هى رؤية دائمة متصلة . وقيل المعنى : لو تعلمون اليوم علم اليقين وأنتم فى الدنيا لترون الحليم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهوالها (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) أى عن نعيم الدنيا الذى أهاكم عن العمل للآخرة . قال قتادة : يعنى كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به . قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه ، وهذا هو الظاهر ، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع لأن تعريفه للجنس أو الاستغراق ، ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المستول على النعمة التى يسأل عنها ، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فم صرفها ، وبم عمل فيها ؟ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر ، وقيل السؤال عن الأمن والصحة ، وقيل عن الصحة والفراغ ، وقيل عن الإدراك بالحواس ، وقيل عن ملاذ المأكول والمشروب ، وقيل عن الغذاء والعشاء ، وقيل عن بارد الشراب وظلال المساكن ، وقيل عن اعتدال الخلق ، وقيل عن لذة النوم ، والأولى العموم كما ذكرنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله (أهاكم التكاثر) قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون : مثل ذلك تفاخروا بالأحياء . ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون كذلك ، فأنزل الله (أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (أهاكم التكاثر) قال : فى الأموال والأولاد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أهاكم التكاثر » يعنى عن الطاعة (حتى زرتم المقابر) يقول : حتى يأتىكم الموت (كلا سوف تعلمون) يعنى لو قد دخلتم قبوركم (ثم كلا سوف تعلمون) يقول : لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم (كلا لو تعلمون علم اليقين) قال : لو قد وقفت على أعمالكم بين يدي ربكم (لترون الحليم) وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم ، فجاج مسلم ومخلوش مسلم ومكلوش فى نار جهنم (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) يعنى شيع البطون وبارد

الشرب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم . وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً - وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال : الأمن والصحة . وأخرج البيهقي عن علي بن أبي طالب قال : النعيم العافية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : من أكل خبز البر وشرب ماء القرات مبرداً وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه . وأخرج ابن مردويه عن أبي البرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية : أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء القرات مبرداً . ولعل رفع هذا لا يصح ، فربما كان من قول أبي البرداء . وأخرج أحمد في الزهد وابن مردويه عن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقي فياً كلونه » وهذا مرسل . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية . قال الصحابة : يا رسول الله أي نعيم نحن فيه ؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن قل لهم : أليس تحتنون النعال ، وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم . وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن محدود بن ليبد قال : لما نزلت (أهاكم التكاثر) فقرأ حتى بلغ (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قالوا : يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان : الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعنود حاضرة ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : أما إن ذلك سيكون : وأخرجه عبد بن حميد والترمذي وابن مردويه من حديث أبي هريرة . وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه من حديث الزبير بن العوام . وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك بجسدك ونروك من الماء البارد ؟ » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال « جاءنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر فأطعمناهم رطباً وسقيناهم ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هذا من النعيم الذي تسألون عنه » . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال « خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال : والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوماً فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته ، فلما رآته المرأة قالت : مرحباً ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين فلان ؟ قالت : انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه فقال : الحمد لله ما أخذ اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق فجاء هذق فيه بسر وتمر . فقال : كلوا من هذا وأخذ المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر : والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » وفي الباب أحاديث أخرى .

تفسير سورة العصر

هي ثلاث آيات

وهي مكية عند الجمهور . وقال قتادة : هي مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة العصر بمكة . وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أبي مزينة الدارمي ، وكانت له صحبة قال : كان لرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر . ثم يسلم أحدهما على الآخر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

أقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر ، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده ، ويقال ليل عصر وللنهار عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولم ينته العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ماتمنا
ويقال للغداة والعشي عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملئي ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقال قتادة والحسن : المراد به في الآية العشي ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، ومنه قول الشاعر .

يروح بنا عمرو وقد قصر العصر وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وروي عن قتادة أيضا أنه آخر ساعة من ساعات النهار . وقال مقاتل : إن المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها ، وقيل هو قسما بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال الزجاج : قال بعضهم : معناه رب العصر ، والأول أولى (إن الإنسان لفي خسر) هذا جواب القسم . الخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمعنى : أن كل إنسان في المتاجر والمساعى وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت . وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقيل جماعة من الكفار : وهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ولدلالة الاستثناء عليه . قال الأخفش (في خسر) في هلكة . وقال الفراء : عقوبة . وقال ابن زيد : لفي شر . قرأ الجمهور « والعصر » بسكون الصاد ، وقرأوا أيضا « خسر » بضم الخاء وسكون السين . وقرأ يحيى بن سلام « والعصر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى : « خسر » بضم الخاء والسين ، ورويت هذه القراءة عن عاصم (إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم فى ربح لا فى خسر ، لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، والاستثناء متصل ومن قال : إن المراد بالإنسان الكافر فقط ، فيكون منقطعا ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومومنة ، ولا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح (وتواصوا بالحق) أى وصى بعضهم بعضا بالحق الذى يحق القيام به ، وهو الإيمان بالله والتوحيد ، والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه . قال قتادة : بالحق : أى بالقرآن ، وقيل بالتوحيد ، والحمل على العموم أولى (وتواصوا بالصبر) أى بالصبر عن معاصى الله سبحانه والصبر على فرائضه . وفى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه - إن الله مع الصابرين - وأيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق ، فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ، ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (والعصر) قال : الدهر . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو ساعة من ساعات النهار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشى . وأخرج الفريانى وأبو عبيد فى فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأبارى فى المصاحف عن على بن أبى طالب أنه كان يقرأ « والعصر » ونوائب الدهر ، إن الإنسان لى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « والعصر إن الإنسان لى خسر ، وإنه لفيه إلى آخر الدهر » اهـ .

تفسير سورة الهمة

هى تسع آيات ، وهى مكية بلا خلاف

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت (ويل لكل همزة لمزة) بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)
كَأَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى الْآفَاقَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) .

الويل : هو مرتفع على الابتداء ، وسوَّغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم ، وخبره (لكل همزة لمزة) والمعنى : خذى أو عذاب أو هلكة أو واد فى جهنم لكل همزة لمزة . قال أبو عبيدة والزجاج : الهمزة اللزمة الذى يغتاب الناس ، وعلى هذا ما بمعنى : وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة الذى يغتاب الرجل فى وجهه ، واللمزة : الذى يغتابه من خلفه . وقال قتادة عكس هذا . وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أن الهمزة : الذى يغتاب الناس فى أنسابهم . وروى عن مجاهد أيضا أن الهمزة : الذى يهزم الناس بيده ، واللمزة :

الذي يلمزهم بلسانه . وقال سفيان الثوري : يهزمهم بلسانه ويلمزهم بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة : الذي يؤذى جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذي يكسر عينه على جلسيه ويشير بيده وبرأسه وبجانبه ، والأول أولى ، ومنه قول زياد الأعجم :

تدلى بود إذا لاقيتني كذبا وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقول الآخر : إذا لقيتك عن سخط تكاشرتني وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وأصل الهمز الكسر ، يقال : همز رأسه كسره ، ومنه قول العجاج : • ومن همزنا رأسه تهشما •

وقيل أصل الهمز واللمز : الضرب والدفع ، يقال : همزه يهزمه همزا ، ولمزه يلمزه لمزا : إذا دفعه وضربه ، ومنه قول الشاعر :

ومن همزنا عزه تبركعا على استه زوبعة أو زوبعا

البركة : القيام على أربع ، يقال بركعه فتبركع : أى صرعه فوقع على استه ، كذا في الصحاح وبناء فعلة بدل على الكثرة ، ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيرا ، وأنه قد صار ذلك عادة له ، ومثله ضحكة ولعنة . قرأ الجمهور « همزة لمزة » بضم أولهما وفتح الميم فيهما . وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما . وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش « ويل للهمزة اللمزة » والآية تعم كل من كان متصفا بذلك ، ولا ينافية نزولها على سبب خاص ، فإن الاعتبار بعنوم اللفظ لا بخصوص السبب (الذي جمع مالا وعدده) الموصول بدل من كل ، أو في محل نصب على الذم ، وهذا أرجح ، لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يحزى مجرى السبب ، والعلة في الهمز واللمز ، وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل ، فلأجل ذلك يستقصر غيره . قرأ الجمهور « جمع » مخففا . وقرأ ابن عامر وخمزة والكسائي بالتشديد . وقرأ الجمهور « وعدده » بالتشديد ، وقرأ الحسن والكلبي ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف ، والتشديد في الكلمتين بدل على التكثير وهو جمع الشيء بعد الشيء وتعددته مرة بعد أخرى . قال الفراء : معنى عدده أحصاه . وقال الزجاج : وعدده لنوائب الدهور . يقال أعددت الشيء وعددته : إذا أمسكته . قال السدي : أحصى عدده . وقال الضحاك : أعدته ماله لمن يرثه . وقيل المعنى : فاخر بكثرته وعدده ، والمقصود ذمه على جمع المال ، وإمساكه وعدم إنفاقه في سبيل الخير . وقيل المعنى على قراءة التخفيف في عدده : أنه جمع عشيرته وأقاربه . قال المهدوي : من خفف وعدده فهو معطوف على المال : أى وجمع عدده ، وجملة (يحسب أن ماله أخلده) مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال : أى يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حيا مخلدا لا يموت . وقال عكرمة : يحسب أن ماله يزيد في عمره ، والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ . وقيل هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية ، لا المال . وقوله (كلا) ردع له عن ذلك الحسبان : أى ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده ، واللام في (لينبذن في الحطمة) جواب قسم محذوف : أى ليطرحن في النار وليلقين فيها . قرأ الجمهور « لينبذن » وقرأ علي والحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحيد وابن محيصن : لينبذان بالتثنية : أى لينبذ هو وماله في النار . وقرأ الحسن أيضا : لينبذن^١ : أى لينبذن ماله في النار (وما أدراك ما الحطمة) هذا الاستفهام للتحويل والتفطيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول وتبلغه الأفهام .

ثم بينا سبحانه فقال (نار الله الموقدة) أى هى نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه ، وفى إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك فى وصفها بالإيقاد : وسميت حطمة لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه ، ومنه :

إنا حططنا بالقضيب مصعبا يوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل : هى الطبقة السادسة من طبقات جهنم ، وقيل الطبقة الثانية منها ، وقيل الطبقة الرابعة (التى تطلع على الأفئدة) أى يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها ويفشاها ، وخصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم لأنها محلّ العقائد الزائفة ، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها : أى لأنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون . وقيل معنى (تطلع على الأفئدة) أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بأمارات عرفها الله بها (إنها عليهم مؤصدة) أى مطبقة مغلقة كما تقدّم بيانه فى سورة البلد ، يقال أصدت الباب : إذا أغلقته ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن فى القصر لو دخلنا غزالا مصيبا مؤصدا عليه الحجاب

(فى عمد ممدّدة) فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم : أى كائنين فى عمد ممدّدة موثقين فيها ، أو فى محلّ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هم فى عمد ، أو صفة لمؤصدة : أى مؤصدة بعمد ممدّدة . قال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ثم شدّت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح . ومعنى كون العمود ممدّدة : أنها مطوّلة ، وهى أرسخ من القصيرة . وقيل العمود أغلال فى جهنم ، وقيل القيود . قال قتادة : المعنى هم فى عمد يعدّون بها ، واختار هذا ابن جرير : قرأ الجمهور « فى عمد » بفتح العين والميم . قيل هو اسم جمع لعمود . وقيل جمع له . قال الفرّاء : هى جمع لعمود كأديم وأدم . وقال أبو عبيدة : هى جمع عماد . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بضم العين والميم جمع عمود . قال الفرّاء : هما جمعان صحيحان لعمود . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور . قال الجوهري : العمود عمود البيت ، وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد ، وقرئ بهما . قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (ويل لكل همزة لمزة) قال : هو المشاء بالهمزة ، المفرّق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان . وأخرج ابن جرير عنه (ويل لكل همزة) قال : طعان (لمزة) قال : مغتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا فى قوله (إنها عليهم مؤصدة) قال : مطبقة (فى عمد ممدّدة) قال : عمد من نار . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : هى الأدهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأبواب هى الممدّدة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : أدخلهم فى عمد فشدّت عليهم فى أعناقهم فشدّت بها الأبواب .

تفسير سورة الفيل

هي خمس آيات ، وهي مكية بلا خلاف

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة (ألم تر كيف فعل ربك) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢)
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَا كُؤُل (٥) .

الاستفهام في قوله (ألم تر) لتقرير رويته صلى الله عليه وآله وسلم بإنكار عدمها . قال الفراء : المعنى ألم تخبر . وقال الزجاج : ألم تعلم ، وهو تعجيب له صلى الله عليه وآله وسلم بما فعله الله (بأصحاب الفيل) الذين قصصوا تخريب الكعبة من الحبشة ، وكيف منصوبة بالفعل الذي بعدها ، ومعلقة لفعل الروية ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له . والمعنى : قد علمت يا محمد ، أو علم الناس الموجودون في عصره ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل وما فعل الله بهم فما لكم لا تؤمنون ؟ والفيل هو الحيوان المعروف ، وجمعه أفيال ، وفيول ، وفيلة . قال ابن السكيت : ولا تقول أفيلة ، وصاحبه فيال ، وسيأتي ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله (ألم يجعل كيدهم في تضليل) أي ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم ، والهمزة للتقرير كأنه قيل : قد جعل كيدهم في تضليل ، والكيد : هو إرادة المصرة بالغير ، لأنهم أرادوا أن يكيلوا قريشا بالقتل والسبي ، ويكيلوا البيت الحرام بالتخريب والهدم (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) أي أقاطيع يتبع بعضها بعضا كالإبل المؤبلة . قال أبو عبيدة : أبابيل جماعات في تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبابيل : أي جماعات من ههنا وههنا . قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان توبل على فلان : أي تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له . وقال بعضهم : واحده أبول مثل عجول . وقال بعضهم : أبيل . قال الواحدي : ولم نر أحدا يجعل لها واحدا . قال الفراء : لا واحد له من لفظه . وزعم الرواسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها : أبالة مشددا . وحكى الفراء أيضا : أبالة بالتخفيف . قال سعيد بن جبير : كانت طيرا من السماء لم ير قبلها ولا بعدها . قال قتادة : هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجليه ، وحجر في منقاره لا يصيب شيئا إلا هشمه . وقيل كانت طيرا خضرا خرجت من البحر لها رموس كرموس السباع . وقيل كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب . وقيل في صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير كما في قول الشاعر :

ثم ارمهم إلى الداعي سراعا كأنهم
وتستعملها في غير الطير كقول الآخر :

كادت تهد من الأصوات راحلتي أن سالت الأرض بالجرذ الأبايل

(ترميم بحجارة من سجيل) الحملة في محل نصب صفة لطير . قرأ الجمهور (ترميم) بالفوقية . وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحية ، واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل : الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل . قال الزجاج (من سجيل) أي مما كتب عليهم العذاب به ، مشتقا من السجل . قال في الصحاح قالوا : هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم . قال عبد الرحمن بن أبي : (من سجيل) من السماء ، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط ، وقيل : من الحميم التي هي سجين ، ثم أبدلت النون ما ، ومنه قول ابن مقبل :
• ضربا تواصت به الأبطال سجيلا • وإنما هو سجين . قال عكرمة : كانت ترميم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى ، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة ، وقد قد منا الكلام في سجيل في سورة هود (فجعلهم كعصف مأكول) أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل ، شبه تقطع أوصالهم بفرق أجزاءه . وقيل المعنى : أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا ، أو أكلت حبه فبقي بدون حبه . والعصف جمع عصفة وعصافة وعصيفة ، وقد قد منا الكلام في العصف في سورة الرحمن فارجع إليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحدا ، قالوا : لا ترجع حتى نهدهم وكانوا لا يقدرون فيلهم إلا تأخر ، فدعا الله الطير الأبايل ، فأعطاهما حجارة سودا عليها الطين ، فلما حاذتهم رمتهما فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكمة ، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عنه قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب ، فقال للملكهم : ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فئاتيك بكل شيء ؟ فقال : أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن ، فجئت أخيف أهله ، فقال : إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلمهم طير أبايل التي قال الله (ترميم بحجارة من سجيل) فجعل الفيل يعج عجا (فجعلهم كعصف مأكول) . وقصة أصحاب الفيل مبسوبة مطولة في كتب التاريخ والسير فلا نطول بذكرها . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله (ترميم بحجارة من سجيل) قال : حجارة مثل البندق وبها نضج حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجله ، وحجر منقاره خلقت عليهم من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكريهم . وأخرج أبو نعيم عن طريق عطاء والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا أبايل يريد مجتمعة ، لها خراطيم تحمل حصاة في منقارها وحصاتين في رجلها ، ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ويبقى عظاما نخوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عنه أيضا (فجعلهم كعصف مأكول) يقول : كالتين . وأخرج ابن إسحاق في السيرة والواقدي وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعيين مقعدين يستطعمان ،

وأخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبي بكر . وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل . وأخرج ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقي عن قيس بن مخزومة قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل .

تفسير سورة قريش

ويقال سورة لإيلاف ، وهي أربع آيات

وهي مكة عند الجمهور . وقال الضحاك والكلبي : هي مدنية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة (لإيلاف) بمكة . وأخرج البخاري في تاريخه ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « فضل الله قريشا بسبع خصال لم يعطها أحدا قبلهم ولا يعطيها أحدا بعدهم : أني فيهم . وفي لفظ : النبوة فيهم ، والخلافة فيهم ، والحجاجة فيهم ، والسقاية فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين . وفي لفظ : عشر سنين لم يعبدوا أحدا غيرهم ، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم (لإيلاف قريش) » قال ابن كثير : هو حديث غريب ، ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فضل الله قريشا بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبدوا إلا قريش ، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم ، وهي لإيلاف قريش ، وفضلهم بأن فيهم النبوة ، والخلافة ، والسقاية » . وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعا نحوه ، وهو مرسل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣)
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) .

اللام في قوله (لإيلاف) قيل هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها ، كأنه قال سبحانه : أهلك أصحاب الفيل لأجل تألف قريش . قال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ، لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال (لإيلاف قريش) أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية ، يقولون : هم أهل بيت الله عز وجل ، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارها فيبنى بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه ، فأهلكهم الله عز وجل ، فذكرهم نعمته : أي فعل ذلك لإيلاف قريش : أي ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم ، وذكر نحو هذا ابن قتبية . قال الزجاج : والمعنى - فجعلهم كمصف ما كول (لإيلاف قريش) أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبني قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف . وقال في الكشف : إن اللام متعلق بقوله (فليعبدوا) أمرهم أن يعبدوه لأجل

إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى : أما لا فليعبدوه . وقد تقدم صاحب الكشف إلى هذا القول الخليل بن أحمد . والمعنى : إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . وقال الكسائي والأخفش : اللام لام التعجب : أي اعجبوا إيلاف قريش . وقيل هي بمعنى إلى . قرأ الجمهور « لإيلاف » بالياء مهموزا من ألفت أولف إيلافا . يقال : ألفت الشيء ألقا وألقا ، وألفته إيلافا بمعنى : ومنه قول الشاعر :

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

وقرأ ابن عامر « لإلاف » بدون الياء ، وقرأ أبو جعفر « لإلف » وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر ، فقال :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

وقرأ عكرمة « ليألف قريش » بفتح اللام على أنها لام الأمر ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود وفتح لام الأمر لغة معروفة . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » واستشهد بقول أبي طالب :

تذود الوري من عصابة هاشمية إيلافهم في الناس خير إلاف

وقريش هم : بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ، ومن لم يلد له النضر فليس بقرشي . وقريش يأتي منصرفا إن أريد به الحى . وغير منصرف إن أريد به القبيلة ومنه قول الشاعر : « وكفى قريش المعضلات وسادها » وقيل إن قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر ، والأول أصح . وقوله (إيلافهم) بدل من إيلاف قريش . و (رحلة) مفعول به إيلافهم وأفردها ، ولم يقل رحلتى الشتاء والصيف لأن الإلباس . وقيل إن إيلافهم تأكيد للأول لا بدل ، والأول أولى . ورجحه أبو البقاء ، وقيل إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر : أي ارتحلهم رحلة (الشتاء والصيف) وقيل هي منصوبة على الظرفية ، والرحلة : الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء لأنها بلاد حارة ، والرحلة الأخرى إلى الشام في الصيف لأنها بلاد باردة . وروى أنهم كانوا يشتون بمكة . ويصيفون بالطائف . والأول أولى ، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف في الجاهلية والإسلام . قال ابن قتيبة : إنما كانت تعيش قريش بالتجارة وكانت لهم رحلتان في كل سنة : رحلة في الشتاء إلى اليمن . ورحلة في الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام ، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدرُوا على التصرف (فليعبدوا رب هذا البيت) أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم : أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة ؛ والبيت الكعبة . وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها . وقيل لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك تذكيرا لنعمته (الذى أطعمهم من جوع) أي أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وقيل إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليهم ، فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد القحط ، فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون ، فدعا فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط (وآمنهم من خوف) أي من خوف شديد كانوا فيه . قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها بعضا ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل .

وقد أخرج أحمد وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) ويحكم يا قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من

جوع وآمنكم من خوف . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لإيلاف قريش) قال : نعتي على قريش (لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف) كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف (فليعبدوا رب هذا البيت) قال : الكعبة (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) قال : الجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه (لإيلاف قريش لإيلافهم) قال : لزومهم (الذي أطعمهم من جوع) يعني قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال - وارزق أهله من الثمرات - (وآمنهم من خوف) حيث قال إبراهيم - رب اجعل هذا البلد آمنا - وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا في قوله (لإيلاف قريش) الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة ، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع ، وآمنهم من خوف فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة الله عليهم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا في الآية قال : أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف ، وقد وردت أحاديث في فضل قريش وإن الناس تبع لهم في الخير والشر ، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان ، وهي في دواوين الإسلام .

تفسير سورة أرأيت

ويقال سورة الدين ، ويقال سورة الماعون ، ويقال سورة اليتيم ، وهي سبع آيات

وهي مكية في قول عطاء وجابر ، وأحد قول ابن عباس ، ومدينة في قول قتادة وآخرين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت (أرأيت الذي يكذب بالدين) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، والاستفهام لقصد التعجب من حال من يكذب بالدين . والرؤية : بمعنى المعرفة ، والدين : الجزاء والحساب في الآخرة . قيل وفي الكلام حذف ، والمعنى : أرأيت الذي يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ . قال مقاتل والكلبي : نزلت في العاص بن وائل السهمي . وقال السدي : في الوليد بن المغيرة . وقال الضحاك : في عمرو بن عائذ . وقال ابن جريج في أبي سفيان ، وقيل في رجل من المنافقين . قرأ الجمهور (أرأيت) بإثبات الهمزة الثانية . وقرأ الكسائي بإسقاطها . قال الزجاج : لا يقال في رأيت ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا . وقيل الرؤية : هي البصرية ، فيتعدى إلى مفعول واحد ، وهو الموصول : أي أبصرت المكذب . وقيل إنها بمعنى أخبرني ، فيتعدى إلى اثنين . الثاني محذوف : أي من هو (فذلك الذي يدع اليتيم) الفاء جواب شرط مقدر : أن إن تأملته أو طلبته فذلك الذي يدع اليتيم ،

ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكذب : إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة . فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبر لمبتدأ محذوف : أى فهو ذلك ، والموصول صفته . وعلى الثانى يكون فى محل نصب لعطفه على الموصول الذى هو فى محل نصب . ومعنى يدع يدفع دفعا بعنف وجفوة : أى يدفع اليتيم عن حقه دفعا شديدا ، ومنه قوله سبحانه - يوم يدعون إلى نار جهنم دعا - وقد قدمنا أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان (ولا يحض على طعام المسكين) أى لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلاف المال ، أو تكذيبا بالجزاء ، وهو مثل قوله فى سورة الحاقة - ولا يحض على طعام المسكين - (فويل) يومئذ للمصلين (الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل للمصلين (الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى عذاب لهم ، أو هلاك ، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل ، ومعنى ساهون : غافلون غير مبالين بها ، ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر . قال الواحدى : نزلت فى المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا ، وهو معنى قوله (الذين هم يراءون) أى يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراءون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم . قال النخعي (الذين هم عن صلاتهم ساهون) هو الذى إذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتا . وقال قطرب : هو الذى لا يقرأ ولا يذكر الله . وقرأ ابن مسعود الذين هم عن صلاتهم لاهون (ويمتنعون الماعون) . قال أكثر المفسرين : الماعون اسم لما يتعاضده الناس بينهم : من الدلو والفأس والقدر ، وما لا يمنع كالماء والملح . وقيل هو الزكاة : أى يمتنعون زكاة أموالهم . وقال الزجاج وأبو عبيد والمبرد : الماعون فى الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بأجود منه بماعونه إذا ماسأؤهم لم تغم

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد أيضا : والماعون فى الإسلام الطاعة والزكاة ، وأنشدوا قول الراعى :

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفا نسجد بكرة . وأصيلا

عرب نرى لله من أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

قوم على الإسلام لما يمتنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلة

وقيل الماعون الماء . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون الماء ، وأنشدنى :

تمج صبرة الماعون صبا . والصبيرة السحاب ، وقيل الماعون : هو الحق على العبد على العموم ،

وقيل هو المستغل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن ، وهو القليل . قال قطرب : أصل الماعون من القلة ،

والمعن : الشيء القليل ، فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعونا ، لأنه قليل من كثير ، وقيل

هو ما لا يبخل به كالماء والملح والنار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (رأيت الذى يكذب بالدين) قال : يكذب بحكم الله

(فذلك الذى يدع اليتيم) قال : يدفعه عن حقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه

والبيهقى فى الشعب عنه (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال : هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم

إذا حصروا ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضا هم ، وهي الماعون . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضا (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال : هم المنافقون يتركون الصلاة في السر ويصلون في العلانية . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبي : رأيت قول الله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) أينما لا يسهو ، أينما لا يحدث نفسه ؟ قال : إنه ليس ذلك ، إنه إضاعة الوقت ، وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها . قال الحاكم والبيهقي : الموقوف أصح ، قال ابن كثير : وهذا يعني الموقوف أصح إسنادا . قال : وقد ضعف البيهقي رفعه وصححه وقفه وكذلك الحاكم . وأخرج ابن جرير وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي برزة الأسلمي قال « لما نزلت هذه الآية (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الله أكبر ، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه » وفي إسناده جابر الجعفي ، وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبوداود والنسائي والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن ابن مسعود قال : كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينهم ، وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم ، فأنزل الله (ويمنعون الماعون) وأخرج أبو نعيم والديلمي وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : ماتعون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن قرّة بن دعموص النميري « أنهم وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ماتعهد إلينا ؟ قال : لا تمنعوا الماعون ، قالوا : وما الماعون ؟ قال : في الحجر والحديدة وفي الماء ، قالوا : فأى الحديدة ؟ قال : قدوركم النحاس وحديد الفأس الذي تمتهنون به ، قالوا : وما الحجر ؟ قال : قدوركم الحجارة » . قال ابن كثير : غريب جدا ، ورفع منكر ، وفي إسناده من لا يعرف . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم : الماعون : الفأس والقدر والدلو . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي ، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في الآية قال : عارية متاع البيت . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال : الماعون الزكاة المفروضة (پراءون) بصلاتهم (ويمنعون) زكاتهم .

تفسير سورة الكوثر

هي ثلاث آيات

وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) .

قرأ الجمهور (إنا أعطيناك) وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني « أنطيناك » بالنون . قبل هي لغة العرب العاربة . قال الأعشى :

حباؤك خير حبا الملوك بسان الحلال وتنطى الحلولا

و (الكوثر) فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة ، مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر ، والعرب تسمى كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرًا ، ومنه قول الشاعر .

وقد ثار تقع الموت حتى تكوثرًا . فالعنى على هذا : إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية . وذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدى إلى أن الكوثر نهر في الجنة ، وقيل هو حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف قاله عطاء . وقال عكرمة : الكوثر النبوة . وقال الحسن : هو القرآن . وقال الحسن بن الفضل : هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع . وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة . وقال ابن كيسان : هو الإيثار . وقيل هو الإسلام ، وقيل رفعة الذكر ، وقيل نور القلب ، وقيل الشفاعة ، وقيل المعجزة ، وقيل إجابة الدعوة ، وقيل لا إله إلا الله ، وقيل الفقه في الدين ، وقيل الصلوات الخمس ، وسيأتي بيان ما هو الحق (فصل لربك) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة (وانحر) البدن التي هي خيار أموال العرب . قال محمد بن كعب : إن ناسا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون صلاته ونحره له . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد صلاة العيد ، ونحر الأضحية . وقال سعيد بن جبير : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن في منى . وقيل النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر قاله محمد ابن كعب . وقيل هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره . وقيل هو أن يستقبل القبلة بنحره . قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول نتناحر : أى نتقابل : نحر هذا إلى نحر هذا أى قبالة ، ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنت عمرا مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

أى المتقابل . وقال ابن الأعرابي : هو انتصاب الرجل في الصلاة بازاء المحراب ، من قولهم : منازلهم تتناحر

تقابل . وروى عن عطاء أنه قال : أمره أن يستوى بين السجدين جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التيمي : المعنى : وارفع يديك بالدعاء إلى نحره . وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بمطلق الصلاة ومطلق النحر وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره ، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم التقييد له . وسيأتى إن شاء الله (إن شئت هو الأبر) أى إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم ، فيعم خبرى الدنيا والآخرة . أو الذى لا عقب له . أو الذى لا يبقى ذكره بعد موته . وظاهر الآية العموم ، وأن هذا شأن كل من يبغض النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مر غير مرة . قيل كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا : قد بتر فلان . فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد . فنزلت الآية . وقيل القائل بذلك عتبة بن أبى معيط . قال أهل اللغة : الأبر من الرجال : الذى لا ولد له ، ومن الدواب : الذى لا ذنب له . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبر . وأصل البر القطع . يقال بترت الشيء بترًا : قطعته .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى في سننه عن أنس قال « أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه مبتسما فقال : إنه أنزل على آتفا سورة ، فقرا (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة . آنيته كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يارب إنه من أمتى . فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك » . وأخرجه أيضا مسلم فى صحيحه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ . فضربت يدي إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله » وقد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة . وأخرج ابن أبى شيبه والبخارى وابن جرير وابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم فى بطنان الجنة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة . وأخرج الطبرنى فى الأوسط عن حذيفة فى قوله (إنا أعطيناك الكوثر) قال : نهر فى الجنة ، وحسن السيوطى إسناده . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعا « أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنك أعطيت نهرًا فى الجنة يدعى الكوثر ، فقال : أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ » . وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه « أن رجلا قال : يا رسول الله ما الكوثر ؟ قال : هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة ، فيتعين المصير إليها ، وعدم التعويل على غيرها ، وإن كان معنى الكوثر : هو الخير الكثير فى لغة العرب ، فمن فسرهما بما هو أعم مما ثبت عز النبى صلى الله عليه وآله وسلم فهو تنسير ناظر إلى المعنى اللغوى . كما أخرج ابن أبى شيبه وأحمد والترمذى وصححه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار : قال سعيد بن جبير فى الكوثر : قلت حدثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير ، فقال : صدق إنه للخير الكثير . ولكن حدثنا ابن عمر قال نزلت (إنا أعطيناك الكوثر) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب يجرى على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من

العسل». وأخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : في الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة ، قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوي كما عرفناك ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فسرهُ فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال « لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل : ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربي ؟ فقال : إنها ليست بنخيرة ، ولكن يأمرُك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله - فما استكانوا لربهم وما يتضرعون - » وهو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصمغيني بن نباتة عن علي . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال « إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرِكَ إذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر » . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب في قوله (فصل لربك وانحر) قال : وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة . وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله . وأخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين في سننه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس (فصل لربك وانحر) قال : إذا صليت فرفعت رأسك من الركوع فاستوقا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : الصلاة المكتوبة ، والذبح يوم الأضحي . وأخرج البيهقي في سننه عنه (وانحر) قال : يقول واذبح يوم النحر . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة . فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابي المنبر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة ، قال : أنتم خير منه ، فنزلت (إن شئت لك هو الأبر) ونزلت - ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب - إلى قوله - فلن تجد له نصيرا - قال ابن كثير : وإسناده صحيح . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال : لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابي قد بتر الليلة فأنزل الله (إنا أعطيناك الكوثر) إلى آخر السورة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القاسم ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، فمات القاسم وهو أول ميت من أهله وولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبر ، فأنزل الله (إن شئت لك هو الأبر) وفي إسناده الكلبي . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (إن شئت لك هو الأبر) قال : أبو جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (إن شئت لك) يقول : عدوك .

تفسير سورة الكافرون

هي ست آيات

وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ، ومدنية في أحد قول ابن عباس وقتادة والضحاك . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة (يا أيها الكافرون) بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله ابن الزبير قال : أنزلت (يا أيها الكافرون) بالمدينة . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بهذه السورة ، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوتر بسبح ، و (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) وأخرج محمد بن نصر والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، و (قل يا أيها الكافرون) تعدل ربع القرآن ، وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر » . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن » . وأخرج الطبراني في الصغير والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ (قل يا أيها الكافرون) فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ (قل هو الله أحد) فكأنما قرأ ثلث القرآن » . وأخرج أحمد وابن الضريس والبخاري وحميد بن زنجويه في ترغيبه عن شيخ أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فمر برجل يقرأ (قل يا أيها الكافرون) فقال : أما هذا فقد برئ من الشرك ، وإذا آخر يقرأ (قل هو الله أحد) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : بها وجبت له الجنة » ، وفي رواية « أما هذا فقد غفر له » . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال : يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال « اقرأ (قل يا أيها الكافرون) ثم نم على خاتمها فإنها براءة من الشرك » . وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنوفل بن معاوية الأشجعي « إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ (قل يا أيها الكافرون) فإنك إذا قلتها فقد برئت من الشرك » . وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة ، وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة ، وهو أخو زيد بن حارثة قال : « قلت يا رسول الله علمني شيئا أقوله عند منامي قال : إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ (قل يا أيها الكافرون) حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك » . وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ « اقرأ (قل يا أيها الكافرون) عند منامك فإنها براءة من الشرك » . وأخرج أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أدلكم على

كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرأون (قل يا أيها الكافرون) عند منامكم». وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه عن خباب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أخذت مضجعتك فلقرا (قل يا أيها الكافرون) وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت فراشه قط إلا قرأ (قل يا أيها الكافرون) حتى يحتم». وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد)». وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال: من قرأ (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) في ليلة فقد أكثر وأطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦).

الألف واللام في (يا أيها الكافرون) للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك، لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه. وسبب نزول هذه السورة أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم (لا أعبد ما تعبدون) أي لا أفعل ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام، قيل والمراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه، والمعنى: أنه لم يعهد مني ذلك (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، وهذا على قول من قال إنه لا تكرر في هذه الآيات لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قد منا من أن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل في لن: إن أصله لا، فالمعنى: لا أعبد ما تعبدون في المستقبل، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي. ثم قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي ولست في الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي، وقيل بعكس هذا، وهو أن الجملة الأولى للحال، والجملة الثانية للآخرين للاستقبال بدليل قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) كما لو قال القائل: أنا ضارب زيداً، وأنا قاتل عمراً، فإنه لم يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش والفرأء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل، ونبي عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل. وقيل إن كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال، ولكننا نخص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال رفعا للتكرار. وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا ينبغي على منصف، فإن جعل قوله: ولا أعبد ما تعبدون للاستقبال، وإن كان صحيحاً على

مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتم جعل قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) للاستقبال ، لأن الجملة اسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات فدخول النفي عليها يرفع مادلت عليه من الدوام ، والثبات في كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحا للزم مثله في قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) وفي قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فلا يتم ما قبل من حمل الحملتين الآخرين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ما قبل من العكس ، لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها حمل اسمية مضمرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ لا في كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة . وأما قول من قال : إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو إقرار منه بالتكرار ، لأن حمل هذا على معنى وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل . وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبيهم التي لا تجحد ، واستمع ما لا تهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا ، كما أن من مذاهبيهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا ، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب ، وهذا مما لا يحتاج إلى إقادة البرهان عليه لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ويبرهن على ما هو متنازع فيه . وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شك ، ولا يرتاب فيه مرتاب فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القول والقييل . وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن ، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن وسورة المرسلات وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر ، ومن

ذلك قول الشاعر : يابكر انشروا لي كليا يابكر أين أين الفرار
وقول الآخر : هلا سألت جموع كذا مدة يوم ولوا أين أيننا
وقول الآخر : يا علقمة يا علقمة يا علقمة خير تميم كلها وأكرمه
وقول الآخر : أيا اسلمي ثم اسلمي ثم اسلمي ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقول الآخر : يا جعفر يا جعفر يا جعفر إن أك دحداحا فأنت أقصر
وقول الآخر : * أناك أناك اللاحقوك احبس احبس *

وقد ثبت عن الصادق المصدوق ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات ، وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم ، وإنما عبر سبحانه بما أتى لغير العقلاء في المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك كما في قوله : سبحانه ما سخر كن لنا ونحوه ، والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ولا يختلف . وقيل إنه أراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . وقيل إن « ما » في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة : أي لا أعبد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي الخ ، وجملة (لكم دينكم) مستأنفة لتقرير قوله (لا أعبد ما تعبدون) وقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) كما أن قوله (ولي دين) تقرير لقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) في الموضعين : أي إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بديني كما في قوله - لنا أعمالنا ولكم أعمالكم - والمعنى : أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي كما تطمعون ، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم . وقيل المعنى : لكم جزاؤكم ولي جزائي ، لأن الدين الجزاء . قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل ليست بمنسوخة ، لأنها أخبار والأخبار لا يدخلها النسخ .

قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله « ولي » وقرأ نافع وهشام وحفص واليزي بفتحها . وقرأ الجمهور أيضا بحذف الياء من ديني وقفًا ووصلًا ، وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلًا ووقفًا . قالوا لأنها اسم فلا تحذف . ويحجب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسمًا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس « أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فلإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح ، قال : ما هي ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء الوحي من عند الله (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) إلى آخر السورة ، وأنزل الله - قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون - إلى قوله - بل الله فاعبد وكن من الشاكرين - . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد ابن مينا مولى أبي البحتري قال « لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظًا ، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظًا ، فأنزل الله (قل يا أيها الكافرون) إلى آخر السورة » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا قالت : لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فأنزل الله (قل يا أيها الكافرون) السورة كلها .

تفسير سورة النصر

وتسمى سورة التوديع ، هي ثلاث آيات

وهي مدنية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بالمدينة (إذا جاء نصر الله والفتح) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو سط أيام التشريق بمنى ، وهو في حجة الوداع (إذا جاء نصر الله والفتح) حتى ختمها فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنها الوداع . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعت إلى نفسي » . وأخرج ابن مردويه عنه قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعت إلى نفسي وقرب إلى أجلى » . وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) نعت لرسول الله نفسه حين أنزلت ، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهدا في أمر الآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت « لما أنزل (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله لم يبعث نبيا إلا عمر في أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله ، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل ، وهذه لي عشرون سنة وأنا ميت في هذه السنة ، فبكت فاطمة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنت أول أهلي لحوقا ، فتبسمت » . وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال « لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فاطمة وقال : إنه قد نعت إلى نفسي ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نعت إليه نفسه فبكت ؟ فقال : اصبري فإنك أول أهلي لحاقا بي فضحكت » وقد تقدم في تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) .

النصر : العون ، مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض : إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها ، ومنه قول الشاعر :

إذا انصرف الشهر الحرام فودّ عى بلاد تميم وانصرى أرض عامر

يقال نصره على عدوه ينصره نصرا : إذا أعانه ، والاسم النصرة ، واستنصره على عدوه : إذا سألته أن ينصره عليه . قال الواحدي : قال المفسرون (إذا جاء) ك يا محمد (نصر الله) على من عاداك ، وهم قريش (والفتح) فتح مكة ، وقيل المراد نصره صلى الله عليه وآله وسلم على قريش من غير تعيين ، وقيل نصره على من قاتله من الكفار ، وقيل هو فتح سائر البلاد ، وقيل هو ما فتحه الله عليه من العلوم ، وعبر عن حصول النصر والفتح بالجبيء للإيدان بأنهما متوجهان إليه صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل إذا بمعنى قد ، وقيل بمعنى إذ . قال الرازي : الفرق بين النصر والفتح : أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان مغلقا ، والنصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف عليه الفتح ؛ أو يقال النصر كمال الدين ، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة ؛ أو يقال النصر الظفر ، والفتح الجنة ، هذا معنى كلامه . ويقال الأمر أوضح من هذا وأظهر ، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) أى أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجا بعد فوج . قال الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال العرب : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا : أى جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدا واحدا ، واثنين اثنين ، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام . قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين ، وانتصاب أفواجا على الحال من فاعل يدخلون ، ومحل قوله يدخلون في دين الله نصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية ، وإن كانت بمعنى العلم فهو في محل نصب على أنه المفعول الثاني (فسبح بحمد ربك) هذا جواب الشرط ، وهو العامل فيه ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله . وقال مكى : العامل في إذا هو جاء ، ورجحه أبو حيان وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها ، وقوله (بحمد ربك) في محل نصب على الحال : أى فقل سبحان الله ملتبسا بحمده ، أو حامدا له . وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي

النصر والفتح لأم القرى التى كان أهلها قد بلغوا فى عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم : هو مجنون ، هو ساحر ، هو شاعر ، هو كاهن ، ونحو ذلك . ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار : أى اطلب منه المغفرة لذنبك مضافاً لنفسك واستقصارا لعملك ، واستندراكا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى ، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان قد غفر الله له ماتقدمات من ذنبه وما تأخر . وقيل إن الاستغفار منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدتهم الله به ، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم . وقيل إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته وتعريضا بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار . وقيل إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه . وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلاة . والأولى حملة على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورا بالنعمة ، وفرحا بما هداه الله من نصر الدين ، وكبت أعدائه ونزول الذلة بهم وحصول القهر لهم . قال الحسن : أعلم الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد اقرب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لى إنك أنت التواب . قال قتادة ومقاتل : وعاش صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين ، وجملة (إنه كان توابا) تعليل لأمره صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار : أى من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتواب من صيغ المبالغة ، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين . وقد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سأله عن قول الله (إذا جاء نصر الله والفتح) فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : فأنت يا ابن عباس ماتقول ؟ قال : قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نعت له نفسه . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليربهم ، فقال : ماتقولون فى قول الله عز وجل (إذا جاء نصر الله والفتح) ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا ، فقال : ماتقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه الله له ، قال (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فقال عمر : لا أعلم منها إلا ماتقول . وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبى بكر أن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعت إليه . وأخرج ابن شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، وأستغفره وأتوب إليه ، فقلت : يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقال : خبرنى ربي أنى سارى علامة من أمتى ، فإذا رأيتها أكرت من قول سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها (إذا جاء نصر الله والفتح) فتح مكة (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنبائى وابن ماجه وغيرهم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ،

اللهم اغفر لي يتأول القرآن ، يعني إذا جاء نصر الله والفتح ، وفي الباب أحاديث . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : جاء أهل اليمن هم أرق قلوبا ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة إذ قال الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ، قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) قال : ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا .

تفسير سورة تبت

هي خمس آيات

وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة قالوا : نزلت (تبت يدا أبي لهب) بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) .

معنى (تبت) هلك . وقال مقاتل : خسرت ، وقيل خابت . وقال عطاء : ضلت . وقيل صفرت من كل خير ، وخص اليدين بالتباب ، لأن أكثر العمل يكون بهما . وقيل المراد باليدين نفسه ، وقد يعبر باليد عن النفس ، كما في قوله - بما قد مت يداك - أي نفسك ، والعرب تعبر كثيرا ببعض الشيء عن كله ، كقولهم : أصابته يد الدهر ، وأصابته يد المنايا ، كما في قول الشاعر :

لما أكبت يد الرزايا عليه نادى ألا مخبر

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وقوله (وتب) أي هلك . قال الفراء : الأول دعاء عليه ، والثاني خبر ، كما تقول : أهلكه الله ، وقد هلك . والمعنى : أنه قد وقع ما دعا به عليه ويؤيده قراءة ابن مسعود : وقد تب . وقيل كلاهما إخبار ، أراد بالأول هلاك عمله ، وبالثاني هلاك نفسه . وقيل كلاهما دعاء عليه ، ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة ، وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها ، ولكون اسمه كما تقدم عبد العزى ، والعزى اسم صنم ، ولكون في هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار ، لأن اللهب هي لب النار ، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلا ، وأن وجهه يظلم لمزيد حسنه كما تلهب النار . قرأ الجمهور « لهب » بفتح اللام والماء . وقرأ مجاهد وحيد وابن كثير

وابن هب من بإسكان الهاء ، واتفقوا على فتح الهاء في قوله (ذات لب) وروى صاحب الكشاف أنه قرئ ثبت
يلد أبو لب ، وذكر وجه ذلك (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى مادفع عنه ما حل به من التياب وما نزل به من
عذاب الله ما جمع من المال ولما كسب من الأرباح والجاه ، أو المراد بقوله : ماله ما ورثه من أبيه ، وبقوله (وما
كسب) الذى كسبه بنفسه . قال مجاهد : وما كسب من ولد ، وولد الرجل من كسبه ، ويجوز أن تكون « ما »
في قوله (ما أغنى) استنهامية : أى أى شئ أغنى عنه ؟ وكذا يجوز في قوله (وما كسب) أن تكون استنهامية :
أى وأى شئ كسب ؟ ويجوز أن تكون مصنعية أى وكسبه . والظاهر أن ما الأولى نافية ، والثانية موصولة . ثم
أوعده سبحانه بالنار فقال (سيصلى ناراً ذات لب) قرأ الجمهور « سيصلى » بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف
اللام : أى سيصلى هو بنفسه ، وقرأ أبو رجاء وأبو حمزة وابن مقسم والأشهب العقيلي وأبو السماك والأعمش
ومحمد بن السميع بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير ، والمعنى سيصليه
الله ، ومعنى (ذات لب) ذات اشتعال وتوقد ، وهى نار جهنم (وامرأته حاملة الخطب) معطوف على الضمير
فى يصلى ، وبجاز ذلك للفصل : أى وتصلى امرأته ناراً ذات لب ، وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ،
وكانت تحمل الغضى والشوك فتطرحه بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كذا قال ابن زيد والضحاك
والربيع بن أنس ومرة الهمداني . وقال مجاهد وقتادة والسدي : إنها كانت تمشى بالنخمة بين الناس . والعرب
تقول : فلان يحطب على فلان : إذا نتم به ، ومنه قول الشاعر :

إن بنى الأدرم حاملوا الخطب • هم الوشاة فى الرضا والغضب عليهم اللعنة ترى والحرب
وقال آخر : من البيض لم يصطد على ظهر لامة ولم يمش بين الناس بالخطب الرطب

وجعل الخطب فى هذا البيت رطباً لما فيه من التدخين الذى هو زيادة فى الشر ، ومن الموافقة للمشى بالنخمة .
وقال سعيد بن جبير : معنى حاملة الخطب أنها حاملة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحطب على ظهره ، كما
فى قوله - وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم - وقيل المعنى : حاملة الخطب فى النار . قرأ الجمهور « حاملة » بالرفع
على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لب حاملة الخطب ، وأما على ما قدمنا من عطف وامرأته على
الضمير فى تصلى ، فيكون رفع حاملة على النعت لامرأته ، والإضافة حقيقية لأنها بمعنى المضى ، أو على أنه خبر
مبتدأ محذوف : أى هى حاملة . وقرأ عاصم بنصب « حاملة » على الذم ، أو على أنه حال من امرأته . وقرأ أبو قلابة
« حاملة الخطب » (فى جيدها جبل من مسد) الجملة فى محل نصب على الحال من امرأته ، والجيد العنق ، والمسد
الليف الذى تقتل منه الحبال ، ومنه قول النابغة :

مقدوفة بدحيض النحض نازها له صريف صريف القعواء بالمسد

وقول الآخر : يامسد الخوص تعوذ منى إن كنت لدينا لنا فإنى

وقال أبو عبيدة : المسد هو الجبل يكون من صوف . وقال الحسن : هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن
تسمى بالمسد . وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها . قال الضحاك وغيره : هذا فى الدنيا ، كانت
تعبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالفقر وهى تحتطب فى جبل تجعله فى عنقها فخنقها الله به فأهلكها ، وهو فى
الآخرة جبل من نار . وقال مجاهد وعروة بن الزبير : هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها . وقال
قتادة : هو قلادة من ودع كانت لها . قال الحسن : إنما كان خرزاً فى عنقها . وقال سعيد بن المسيب : كانت

لها قلادة فاخرة من جواهر ، فقالت : واللوات والعزى لأنفقها في عداوة محمد ، فيكون ذلك عذابا في جسدها يوم القيامة . والمسد القتل يقال : مسد حبله بمسده مسدا : أجاد فتلها هـ .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : « لما نزلت - وأنذر عشيرتك الأقربين - خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدق ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبالك إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام فنزلت هذه السورة (تبت يدا أبي لهب وتب) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (تبت يدا أبي لهب) قال : خسرت . وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : إن أطيبت ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ابنته من كسبه ، ثم قرأت (ما أغنى عنه ماله وما كسب) قالت : وما كسب ولده . وأخرج عبد الرزاق والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وما كسب) قال : كسبه ولده . وأخرج ابن جرير والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس في قوله (وامراته حمالة الحطب) قال : كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليعقره وأصحابه ، وقال حمالة الحطب (نقالة الحديث (حبل من مسد) قال : هي حبال تكون بمكة . ويقال : المسد العصا التي تكون في البكرة . ويقال : المسد قلادة من ودع . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر قالت « لما نزلت (تبت يدا أبي لهب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفي يدها فهر ، وهي تقول :

• مذمما أيينا • ودينه قلينا • وأمره عصينا •

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنها لن تراني وقرأنا اعتصم به كما قال تعالى - وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا - فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال : لا ورب البيت ما هجاك ، فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها » وأخرجه البزار بمعناه ، وقال : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد .

تفسير سورة الإخلاص

هي أربع آيات

وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر ، ومدنية في أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي . وأخرج أحمد والبخارى في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن خزيمة وابن أبي عاصم في السنة والبعث في معجمه وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ابن كعب « أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله - قل هو الله أحد ، لم يلد ولم يولد ، - الخ ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث - ولم يكن له كفوا أحد - قال : لم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثل شيء » ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلًا ولم يذكر أيًا ، ثم قال : وهذا أصح . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر

والطبراني في الأوسط وأبونعيم في السلفية والبيهقي عن جابر قال « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : انسب لنا ربك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد) إلى آخر السورة » وحسن السيوطي إسناده . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال « قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انسب لنا ربك فنزلت هذه السورة (قل هو الله أحد) » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس « أن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ، فقالوا : يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد) فيخرج منه الولد . ولم يولد ، فيخرج منه شيء » . وأخرج أبو عبيد في فضائله وأحمد والنسائي في اليوم والليلة وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » . وأخرج ابن الضريس والبخاري والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ قل هو الله أحد مائتي مرة غفر له ذنب مائتي سنة » . قال البخاري : لا نعظم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبي جعفر والأغلب بن تميم ، وهما يتقاربان في سوء الحفظ . وأخرج أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في سننه عن أنس قال « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني أحب هذه السورة (قل هو الله أحد) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حبك إياها أدخلك الجنة » . وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى وابن الأنباري في المصاحف عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ (قل هو الله أحد) ثلاث مرات في ليلة ؟ فإنها تعدل ثلث القرآن » وإسناده ضعيف . وأخرج محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « من قرأ (قل هو الله أحد) خمسين مرة غفر له ذنوب خمسين سنة » وإسناده ضعيف . وأخرج الترمذي وابن عدي والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ (قل هو الله أحد) مائتي مرة ، كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة ، ومحى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » وفي إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخاري وغيره ، ولفظ للترمذي « من قرأ في يوم مائتي مرة (قل هو الله أحد) ، محى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » ، وفي إسناده حاتم بن ميمون المذكور . . وأخرج الترمذي ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عدي والبيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه ، ثم قرأ (قل هو الله أحد) مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب : يا عبدی ادخل على يمينك الجنة » وفي إسناده أيضاً حاتم بن ميمون المذكور . قال الترمذي بعد إخراجهم : غريب من حديث ثابت . وقد روى من غير هذا الوجه عنه . . وأخرج ابن سعد وابن الضريس وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن أنس قال « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالشام ، وفي لفظ : بتبوك فهبط جبريل فقال : يا محمد إن معاوية بن معاوية المزني هلك ، أفتحب أن تصلي عليه ؟ قال نعم ، فضرب بجناحه الأرض فتضعف له كل شيء ولزق بالأرض ورفع له سريرته فصلى عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من أي شيء أوتي معاوية هذا الفضل ، صلى عليه صفان من الملائكة في كل صف ستة آلاف ملك ؟ قال : بقرامة (قل هو الله أحد) كان يقرأها قائماً وقاعداً وجائياً وذاهباً ونائماً » ، وفي إسناده العلامة بن محمد الثقفى وهو متهم بالوضع . وروى عنه من وجه آخر بأطول من هذا ، وفي إسناده هذا التهم . وفي الباب أحاديث في هذا المعنى وغيره . وقد روى من غير الوجه أنها تعدل ثلث القرآن ، وفيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن ، فمن ذلك ما أخرجه مسلم والترمذي وصححه وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

عليه وآله وسلم « احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ (قل هو الله أحد) ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن . وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » يعني (قل هو الله أحد) . وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن . » وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي الدرداء نحوه . وقد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة وحديث ابن مسعود ، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وروى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن وبعضها ضعيف ، ولو لم يرد في فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلا في سرية ، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : سلوه لأى شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال : أخبروه أن الله تعالى يحبه ، هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد . وأخرج البخاري أيضا في كتاب الصلاة من حديث أنس قال « كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فلما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، قال : ما أنا بتاركها إن أحببت أن أوئمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبروه الخبر ، فقال : يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمر بك به أصحابك وما حلك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟ فقال : إني أحبها ، قال : حبك إياها أدخلك الجنة » وقد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

قوله (قل هو الله أحد) الضمير يجوز أن يكون عائدا إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول ، وأن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك ، فيكون مبتدأ ، والله مبتدأ ثان ، وأحد خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، ويجوز أن يكون الله بدلا من هو ، والخبر أحد . ويجوز أن يكون الله خبرا أول ، وأحد خبرا ثانيا ، ويجوز أن يكون أحد خبرا المبتدأ مخذوف : أى هو أحد . ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم ، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه ، والأول أولى . قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله ، والمعنى : إن سألتهم تبين نسبته هو الله أحد ، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد . وقال أبو البقاء : همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد ، ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري : أنه لا يوصف بالأحادية غير الله تعالى ، لا يقال رجل أحد ، ولا درهم أحد ، كما يقال رجل واحد ودرهم واحد ،

قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد . وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد ، وأحد لا يدخل فيه . ورد عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى ، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل . قرأ الجمهور « قل هو الله أحد » بإثبات قل . وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي « الله أحد » بدون قل . وقرأ الأعمش « قل هو الله الواحد » وقرأ الجمهور بتنوين أحد ، وهو الأصل . وقرأ زيد بن علي وأبان بن عثمان وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السماك وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للخفة كما في قول الشاعر

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف ، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين . ويحاج عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر (الله الصمد) الاسم الشريف مبتدأ ، والصمد خبره ، والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات : أي يقصد لكونه قادرا على قضائها ، فهو فعل بمعنى مفعول كالتبضع بمعنى المقبوض لأنه مصمود إليه : أي مقصود إليه ، قال الزجاج : الصمد السند الذي انتهى إليه السرد فلا سيد فوقه . قال الشاعر :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمر وبن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل معنى الصمد : الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول . وقيل معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد . وقيل هو المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وقيل هو المقصود في الرغائب والمستعان به في المصائب ، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول . وقيل هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقيل هو الكامل الذي لا عيب فيه . وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله ابن بريدة وعطاء وعطية العوفي والسدي : الصمد هو المصمت الذي لا جوف له ، ومنه قول الشاعر :

شهاب حروب لا تزال جياده عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير ، ومنه قول الشاعر :

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر :

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الخليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمنزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى ، وقيل إن الصمد صفة الاسم الشريف والخبر هو ما بعده ، والأول أولى لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة (لم يلد ولم يولد) أي لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شيء ، لأنه لا يجانس شيء ، ولا استحالة نسبة العدم إليه سابقا ولاحقا . قال قتادة : إن مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : عزيز ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله فأكذبهم الله فقال (لم يلد ولم يولد) قال الرازي : قد تم ذكر نبي الولد مع أن الولد مقدم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين : إن الملائكة بنات الله ، واليهود : عزيز ابن الله ، والنصارى : المسيح ابن الله ، ولم يدع أحد أن له ولدا ، فلهذا السبب بدأ بالأم

فقال (لم يلد) ثم أشار إلى الحجة فقال (ولم يولد) كأنه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل لأنه ورد جواباً عن قولهم : ولد الله كما حكى الله عنهم بقوله - ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله - فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم ، وهم إنما قالوا ذلك بلا فظ يفيد النفي فيما مضى ، وردت الآية لدفع قولهم هذا (ولم يكن له كفواً أحد) هذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله ولا يشاركه في شيء ، وآخر اسم كان لرعاية القواصل ، وقوله «له» متعلق بقوله «كفوا» قدم عليه لرعاية الاهتمام ، لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته . وقيل إنه في محل نصب على الحال ، والأول أولى . وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدم الظرف كان هو الخبر ، وهما لم يجعل خبراً مع تقدمه ، وقد ردّ على المبرد بوجهين : أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوزه . والثاني أنا لانسلم كون الظرف هنا ليس بخبر ، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً متصفاً على الحال وحكى في الكشف عن سيبويه على أن الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره ، فإنه قال في آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير انتهى . قرأ الجمهور «كفوا» بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء ، وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واوا وصلوا ووقفاً ، وقرأ نافع في رواية عنه «كفاً» بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مدّ ، وقرأ سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس كذلك مع المدّ ، وأنشد قول النابغة : لا تنقضي بركن لا كفاء له . والكفاء في لغة العرب النظير ، يقول هذا كفؤك : أي نظيرك ، والاسم الكفاءة بالفتح .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والمحامي في أماليه والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه . قال (الصمد) الذي لا جوف له ، ولا يصح رفع هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال (الصمد) الذي لا جوف له ، وفي لفظ : ليس له أجشاء . وأخرج ابن أبي عاصم وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عنه قال (الصمد) الذي لا يطعم ، وهو المصمت . وقال : أو ما سمعت النائحة وهي تقول :

لقد بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لا يطعم عند القتال ، وقد روى عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج ، وأنه أنشد البيت واستدلّ به على هذا المعنى ، وهو أظهر في المدح وأدخل في الشرف ، وليس لو صفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عليّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال (الصمد) السيد الذي قد كمل في سودده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظّمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والخيّر الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسودد ، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفو وليس كمثل شيء . وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال (الصمد) هو السيد الذي قد انتهى سودده فلا

شيء أسود منه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال (الصمد) الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء . وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله (ولم يكن له كفوا أحد) قال : ليس له كفو ولا مثل .

تفسير سورة الفلق

هي خمس آيات

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنية في أحد قول ابن عباس وقتادة ، وأخرج أحمد والبخاري والطبراني وابن مردويه من طرق . قال البيهقي : صحيحة عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين في المصحف يقول : لا تخطوا القرآن بما ليس منه إني ليدنا من كتاب الله ، إنما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعوذ بهما ، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما . قال البخاري : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتنا في المصحف . وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن زر بن حبیش قال « أتيت المدينة فلتيت أبي كعب ، فقلت له : أبا المنذر إني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، فقال : أما والذي بعث محمدا بالحق لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهما وما سألتني عنهما أحد منذ سأله غيرك ، قال : قيل لي قل ، فقلت فقولوا فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج الطبراني عن ابن مسعود « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن هاتين السورتين ، فقال قيل لي ، فقلت فقولوا كما قلت » . وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عتبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنزلت على الليلة آيات لم أرها مثلهن قط (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) » وأخرج ابن الضريس وابن الأنباري والحاكم وصححه وابن مردويه في الشعب عن عتبة بن عامر قال « قلت يا رسول الله : أقرئني سورة يوسف وسورة هود ، قال : يا عتبة اقرأ بقل أعوذ برب الفلق ، فإنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله وأبلغ منها ، فإذا استطعت أن لا تفوتك فافعل » . وأخرج ابن سعد والنسائي والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تتعوذ به المتعوذون ؟ قال بلى يا رسول الله ، قال (قل أعوذ برب الفلق - و - قل أعوذ برب الناس) هما المعوذتان » . وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعوذ من عين الجان ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما وترك ما سوى ذلك » . وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن ابن مسعود « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره عشر نخصال ، ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين » . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب السور إلى الله (قل أعوذ برب الفلق - و - قل أعوذ برب الناس) » . وأخرج النسائي وابن الضريس وابن حبان في صحيحه وابن الأنباري وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال « أخذ بمكة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال اقرأ ، قلت : ما أقرأ بأبي أنت وأمي ؟ قال : قل أعوذ برب الفلق ، ثم قال اقرأ ، قلت : بأبي أنت وأمي ما أقرأ ؟ قال : قل أعوذ برب الناس ، ولم تقرأ بمثلها » . وأخرج مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه

بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجهه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتيهما . وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق مالك بالإسناد المذكور . وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أرقم قال « سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل من اليهود ، فاشتكى فأتاه جبريل ، فنزل عليه بالمعوذتين ، وقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، والسحر في بئر فلان ، فأرسل عليا فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية ويحل حتى قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنما نشط من عقال » . وأخرجه ابن مردويه والبيهقي من حديث عائشة مطولا ، وكذلك أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس . وقد ورد في فضل المعوذتين ، وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهما في الصلاة وغيرهما أحاديث ، وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج الطبراني في الصغير عن علي بن أبي طالب قال « لدغت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عقرب وهو يصلي ، فلما فرغ قال : لعن الله العقرب لاتدع مصليا ولا غيره ، ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ : قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

(الفلق) الصبح ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ، وسمى فلقا لأنه يفلق عنه الليل ، وهو فعل بمعنى مفعول : قال الزجاج : لأن الليل ينفلق عنه الصبح ، ويكون بمعنى مفعول ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح ، وهذا قول جمهور المفسرين ، ومنه قول ذي الرمة :

حتى إذا ما انجلي عن وجهه فلق هادئة في أخريات الليل منتصب

وقول الآخر :

بالسلة لم أتمها بت مرتفقا أرحى النجوم لي أن نور الفلق

وقيل هو سجن في جهنم ، وقيل هو اسم من أسماء جهنم ، وقيل شجرة في النار ، وقيل هو الجبال والضخور ، لأنها تفلق بالمياه أي تشقق ، وقيل هو التفليق بين الجبال ، لأنها تنشق من خوف الله . قال النحاس : يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق ، ومنه قول زهير :

مازلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدي الركاب بهم من راكس فلقا

والراكس : بطن الوادي ، ومثله قول النابغة • ودوني راكس فالضواجع • وقيل هو الرحم تنفلق بالحيوان ، وقيل هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى وكل شيء من نبات وغيره . قاله الحسن والضحاك . قال القرطبي : هذا القول يشهد له الانشقاق ، فإن الفلق الشق ، فلقنت الشيء فلانا : شقته ، والتفليق مثله ، يقال فلقت فافلق وتفلق ، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق . قال الله سبحانه - فلق الإصباح - وقال - فلق الحب والنوى - انتهى . والقول الأول لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق ، وقد قيل في وجه تخصيص الفلق بالإيمان

إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقتدر أيضا أن يدفع عن الغائث كل ما يخافه ويخشاه ، وقبل طلوع الصبح كالمثال لمحىء الفرح ، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح ، كذلك الخائف يكون متوقفا لطلوع صباح النجاح ، وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير (من شر ما خلق) متعلق بأعوذ : أى من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور ، وقيل هو إبليس وذريته ، وقيل جهنم ، ولا وجه لهذا التخصيص كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية . وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه وتقويما لباطله ، فتمروا بتنوين شر على أن « ما » نافية ، والمعنى : من شر لم يخلقه ، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن عائذ (ومن شر غاسق إذا وقب) الغاسق الليل ، والغسق الظلمة ، يقال غسق الليل يغسق إذا أظلم . قال الفراء : يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكت الهم والأرقا

وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار ، والغاسق البارد ، والغسق البرد ، ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها وينبعث أهل الشر على العبث والفساد ، كذا قال ، وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين . ووقوبه : دخول ظلامه ، ومنه قول الشاعر :

وقب العذاب عليهم فكأنهم لحقهم نار السموم فأخذوا

أى دخل العذاب عليهم ، ويقال وقبت الشمس : إذا غابت ، وقيل الغاسق الثريا ، وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد . وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق . وقال الزهرى : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ولم يلاحظ معنى الغسوق ، وقيل هو القمر إذا خسف ، وقيل إذا غاب . وبهذا قال قتادة وغيره ، واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت « نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما إلى القمر لما طلع فقال : يا عائشة استعيزى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » . قال الترمذى : بعد إخراجهم حسن صحيح ، وهذا لا ينافى قول الجمهور ، لأن القمر آية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وهكذا يقال في جواب من قال إنه الثريا . قال ابن الأعرابي : في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر . وقيل الغاسق : الحية إذا لدغت . وقيل الغاسق : كل هاجم يضر كائنا ما كان ، من قولهم غسقت القرحة : إذا جرى صليدها . وقيل الغاسق هو السائل ، وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول ، ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر ، والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم : الليل أخنى للويل (ومن شر النفاثات في العقد) النفاثات هن السواحر : أى ومن شر النفوس النفاثات ، أو النساء النفاثات ، والنفس النفخ كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر ، قيل مع ريق ، وقيل بلون ريق ، والعقد جمع عقدة ، وذلك أنهم كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها ، ومنه قول صبرة :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يعقد فحق له العقود

وقول متم بن نويرة :

نفث في الخيط شبيه الرق من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة : النفاثات هن بنات لبني الأعصم اليهودي ، يحرن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ لجمهور « النفاثات » جمع نفاثة على المبالغة . وقرأ يعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر « النفاثات » جمع نافثة . وقرأ الحسن « النفاثات » بضم النون . وقرأ أبو الربيع « النفاثات » بدون ألف (ومن شر حاسد إذا حسد) الحسد : تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود ، ومعنى إذا حسد : إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود . قال عمر بن عبد العزيز : لما أظالمنا أشبه بالمظلوم من حاسد ، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للمحسود إذا تنفس طعنة يا ظالمنا وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضرره ، وهو الغاسق والنفاثات والحاسد ، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ (قل أعوذ برب الفلق) فقال : يا ابن عبسة أتندى ما الفلق ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : بئر في جهنم . وأخرجه ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع . وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرأ (قل أعوذ برب الفلق) هل تدري ما الفلق ؟ باب في النار إذا فتحت سمعت جهنم » وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله عز وجل (قل أعوذ برب الفلق) فقال : هو سخن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتعود بالله منه » . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جب في جهنم » . وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكان المصير إليها واجبا ، والتمول بها متعيينا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفلق سخن في جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : الفلق الصبح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : الفلق الخلق . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (ومن شر غاسق إذا وقب) وقال : التجم هو الغاسق ، وهو الزيا . وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع . وقد قدنا تأويل هذا ، وتأويل ماورد أن الغاسق القمر . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاهة عن كل بلد » ، وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (ومن شر غاسق إذا وقب) قال : الليل إذا أقبل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس (ومن شر النفاثات في العقد) قال : الساحرات . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : هو ماخالط السحر من الرقى . وأخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئا وكل إليه » . وأخرج ابن سعد وابن ماجه والحاكم وابن مردويه عن أبي هريرة قال « جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعوذني فقال : ألا أرقبك برقية رقاني بها جبريل ؟

فقلت : بلى بأبي أنت وأمي ، قال : بسم الله أرقبك والله يشفيك من كل داء فيك» (من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد) فرقى بها ثلاث مرّات . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (ومن شر حاسد إذا حسد) قال : نفس ابن آدم وعينه اهـ .

تفسير سورة الناس

هي ست آيات

والخلاف في كونها مكية أو مدنية كالخلاف الذي تقدّم في سورة الفلق . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بمكة (قل أعوذ برب الناس) . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزل بالمدينة (قل أعوذ برب الناس) وقد قدّمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة وما ورد في فضلها فارجع إليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

قرأ الجمهور (قل أعوذ) بالهمزة . وقرأ بحذفها ونقل حركتها إلى اللام . وقرأ الجمهور بترك الإمالة في الناس ، وقرأ الكسائي بالإمالة . ومعنى ربّ الناس : مالك أمرهم ومصلح أحوالهم ، وإنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ، ولكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس في صدورهم ، وقوله (ملك الناس) عطف بيان بجيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملوك لما تحت أيديهم من ممالكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والسلطان القاهر (إله الناس) هو أيضا عطف بيان كالذي قبله لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد والإعدام ، وأيضا الربّ قد يكون ملكا ، وقد لا يكون ملكا ، كما يقال ربّ الدار وربّ المتاع ، ومنه قوله - اتخذوا أربابهم وربانهم أربابا من دون الله - فبين أنه ملك الناس . ثم الملك قد يكون إلها ، وقد لا يكون ، فبين أنه إله لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد ، وأيضا بدأ باسم الربّ وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلا كاملا ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس . ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وأنه عبد مخلوق وأن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس ، وكرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار ، ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس (من شر الوسواس) قال الفراء : هو بفتح الواو بمعنى الاسم : أي الوسوس ، وبكسرهما المصدر : أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وقيل هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة ، والوسوسة : هي حديث النفس ، يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة : أي حديثه حديثا ، وأصلها الصوت الخفي ، ومنه قيل لأصوات الحلي وسواس ، ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت • قال الزجاج : الوسواس هو الشيطان : أي ذي الوسواس ،

ويقال إن الوسواس ابن إبليس ، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله - فوسوس لهما الشيطان - ومعنى (الخناس) كثير الخنس ، وهو التأخر ، يقال خنس يخنس : إذا تأخر ، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

فإن دخسوا بالشر فاعف تكرّما وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد : إذا ذكر الله خنس وانقبض ، وإذا لم يذكر انبسط على القلب . ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى - فلا أقسم بالخنس - يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم ، وقيل الخناس اسم لابن إبليس كما تقدم في الوسواس (الذي يرسوس في صدور الناس) الموصول يجوز أن يكون في محل جر نعتا للوسواس ، ويجوز أن يكون منصوبا على الدم ، ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير مبتدأ . وقد تقدم معنى الوسوسة . قال قتادة : إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له ، وإذا ذكر العبد ربه خنس . قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك ، ووسوسة هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت ، ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان : جنى وإنسى ، فقال (من الجنة والناس) أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه - شياطين الإنس والجن - ويجوز أن يكون متعلقا بـ يوسوس : أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ، ويجوز أن يكون بيانا للناس . قال الرازي وقال قوم : من الجنة والناس قسيان مندرجان تحت قوله (في صدور الناس) لأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنسانا ، والإنسان أيضا يسمى إنسانا ، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس والنوع بالاشتراك . والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روى أنه جاء نفر من الجن ، فقتيل لهم : من أنتم ؟ قالوا : ناس من الجن . وأيضا قد ساءم الله رجالا في قوله - وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن - وقيل يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس ، وقيل المراد بالناس الناسي وسقطت الياء كسقوطها في قوله - يوم يدع الداع - ثم بين بالجنة والناس لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان ، وأحسن من هذا أن يكون قوله (والناس) معطوفا على الوسواس : أي من شر الوسواس ومن شر الناس كأنه أمر أن يستعيز من شر الجن والإنس . قال الحسن : أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فعوذ بالله من شياطين الجن والإنس ، وقيل إن إبليس يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الإنس ، وواحد الجنة جنى كما أن واحد الإنس إنسى . والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال ، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قدمنا ، ويكون هذا البيان تذكير الثقيلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وقد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله (الوسواس الخناس) قال : مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فيه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس ، وإن سكنت عاد إليه فهو الوسواس الخناس .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله «الوسواس الخناس» قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسرس، وإذا ذكر الله خنس. وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه، وابن مردويه والضياء في المختارة، والبيهقي عنه قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فذلك قوله (الوسواس الخناس) وقد ورد في معنى هذا غيره، وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة، ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيرى الدنيا والآخرة.

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن علي بن محمد الشوكاني، غفر الله له ذنوبه. وكان الفراغ منه في ضحوة يوم السبت لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية.

اللهم كما مننت عليّ بإكمال هذا التفسير وأعنتني على تحصيله وتفضلت عليّ بالفراغ منه، فامنن عليّ بقبوله، واجعله لي ذخيرة خير عندك، وأجزل لي المثوبة بما لاقيه من التعب والنصب في تحريره وتقريره، وانفع به من شئت من عبادك ليوم لي الانتفاع به بعد موتي، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف، واجعله خالصاً لك، وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر سوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص، واغفر لي ما لا يطابق مرادك، فإنني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات، ومسبل ذيل الستر على الهفوات، يا بارئ البريات، وأحمدك لأحصى حمداً لك، وأشكرك لأحصى شكر، أنت كما أثنت على نفسك، وأصلي وأسلم على رسولك وآله أ.

تم سماعاً على مؤلفه حفظ الله عزّته يوم الاثنين صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٤١ هـ.

كتبه

بجي بن علي الشوكاني
غفر الله لهما

فهرس

الجزء الخامس من فتح القدر

- | صفحة | صفحة |
|---|---|
| ٢٥ | ٣ (تفسير سورة الجاثية) |
| عليه وآله وسلم ، وما كان منهم لقومهم | آيات على قدرته عز وجل ، ولتراجع |
| ٢٦ دليل باهر على قارة ربنا على البعث يفهم منكروه | ٥ صفات للكافر ووعيده على هذه الصفات |
| ٢٨ (تفسير سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم) | منن لربنا علينا وهي من آياته |
| ٢٩ ما يفعله الله تعالى بأعمال الكفار ، وما يفعله مع | ٧ ما المراد بالعالمين الذين فضل عليهم بنو إسرائيل ؟ |
| المؤمنين ، والسبب الذي له فعل ذلك | ٨ هل يستوى المسىء والمحسن ؟ |
| ٣٠ ماذا نفعل بالكفار إذا لقيناهم في ميدان القتال ؟ | من هو الذي اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ؟ |
| ٣١ هل أمرنا الله بالجهاد ابتلاء لنا وكان قادرا أن | كلام لمنكرى البعث والرد عليهم |
| ينصرنا بلا حرب ؟ | ٩ حال المبطلين يوم القيامة وما يقال لهم |
| هل إذا دخلنا الجنة عرفنا منازلنا فيها ؟ | ١١ هل استنساخ الملائكة لأعمالنا معناه نسخها من |
| هل ينصر الله من ينصر دينه ؟ | اللوح المحفوظ ويكون ما ينسخ منه موافقا لما |
| ٣٢ هل أهلك الله الكفار وأحبط أعمالهم بأنهم كرهوا | يقع منا تماما ؟ |
| ما أنزل الله ؟ | ١١ المؤمنون والكافرون وأعمال كل وجزأوه |
| وعيد الله لكفار مكة أن يهلكهم كما فعل بالكفار | ١٢ (تفسير سورة الأحقاف) |
| قبلهم لأنه مولى للمؤمنين ، وأولئك الكفار | حديث يدل على أن القرآن لم ينزل في قراءته |
| لا مولى لهم | بوجه واحد |
| هل يدخل الله المؤمنين الجنة لإيمانهم وصالح | ١٣ كلام مع المشركين وبيان قيمة شركائهم |
| أعمالهم ، ويدخل الكافرين النار لأنهم كانوا | ١٦ جزاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا |
| يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ؟ | ١٧ وصية الله تعالى للأبناء على الآباء والأمهات |
| ٣٤ أنهار الجنة | ١٨ هل ينبغي لمن بلغ أربعين سنة أن ينيب إلى ربه ، |
| ٣٥ المنافقون وهم يستمعون إلى الرسول صلى الله | وما جزأوه على ذلك ؟ |
| عليه وآله وسلم | ١٩ قتل سيدنا عبد الله بن سلام رضى الله عنه |
| ما هي أشرط الساعة التي يقول القرآن إنها | ٢٠ جزاء من لم يطع والديه في دعوتيهما له إلى الإيمان |
| جاءت ؟ | ٢٢ ماذا فعلت عاد مع رسولها وماذا فعل الله بهم ؟ |

صيفة

٣٨ حال المنافقين إذا نزلت آية وذكر فيها القتال

كلام مع المنافقين

٤٠ نهى المؤمنين عن أن يضعفوا أمام الكافرين
ويدعوهم إلى السلم ابتداء

٤٣ (تفسير سورة الفتح)

ما ورد في فضلها

٤٤ الكلام على قوله تعالى - إنا فتحنا لك فتحا مبينا
ليغفر لك الله - الخ

٤٧ هل من بايع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
كأنه بايع الله ؟

٤٨ الكلام في شأن الأعراب المنافقين الذين تخلفوا
عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين
خرج عام الحديبية

٥١ هل الفتح القريب الذى أثاب به الله المؤمنين
حينما بايعوا بيعة الرضوان هو فتح خيبر ؟

٥٤ ما هى كلمة التقوى التى كان المؤمنون أحق بها
وأهلها ؟

٥٥ ما هى الرويا التى ذكر الله تعالى أن يصدق فيها
رسوله ؟

صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
٥٨ (تفسير سورة الحجرات)

آداب أدب الله بها الأمة مع رسوله صلى الله
عليه وآله وسلم

٦٠ كيف نكون مع النمام ؟

٦٣ ماذا نفعل لو اقتتل طائفتان من المؤمنين ؟

٦٤ النهى عن السخرية والسرف في ذلك

النهى عن أن يعيب الرجل أخاه أو يشتمه بنحو
يافاسق يامنفاق

النهى عن ظن السوء والتجسس والغيبة

صيفة

٦٧ هل نحن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ؟

لا فضل لواحد على أخيه إلا بالتقوى

الكلام مع قوم من الأعراب أسلموا ليتصدق
عليهم ولم يكونوا مخلصين

٦٨ المؤمنون حقا

تأديب من من بالإسلام ، وإفهامه أن المنة لله
عز وجل

٧٠ (تفسير سورة ق)

ما ورد فيها

٧١ الكلام على لفظ (ق)

عجب الكفار من مجيء منذر لهم ، ومن القول
بالبعث

٧٢ لفت الكفار إلى ما يسهل عليهم الإيمان بالبعث

٧٣ ماذا كان للأمم السابقة لما كذبت كما كذب
هؤلاء ؟

برهان مفحم لمن ينكر البعث

٧٥ هل كل ما يلفظ به الإنسان يكتب عليه ؟

الموت وما بعده من عذاب للكافر ونعيم للمؤمن

٨٢ (تفسير سورة الذاريات)

ماهى الذاريات والحاملات وقرا والجاريات
يسرا والمقسمات أمرا ؟

٨٣ هل الحبك الخلق المستوى الحسن ؟

٨٤ جزاء الكفار على إنكارهم يوم القيامة واختلافهم

في شأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

هل المتقون ، فى جنات وعيون وبماذا كانوا هكذا ؟

٨٥ عبر لفتنا ربنا إليها لنعتبر بها

٨٧ قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة لما دخلوا عليه

٩٠ قصة سيدنا موسى مع قومه

ماذا فعل الله بعاد وثمود وقوم نوح لما كذبوا

رسولهم ؟

صفحة	صفحة
١٢٠ الكلام على أن انشقاق القمر كان في عهد النبوة ، وهو بديع فليتنظر	٩١ عبر أخرى دعائنا ربنا للاعتبار بها
١٢٢ قصة سيدنا نوح مع قومه	٩٢ الكلام على قوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون -
١٢٥ قصة سيدنا هود مع قومه	٩٣ (تفسير سورة الطور)
قصة سيدنا صالح مع قومه	ماورد فيها
١٢٧ قصة سيدنا لوط مع قومه	٩٤ الكلام على الأقسام التي في أول السورة
١٢٨ قصة سيدنا موسى مع قومه	٩٥ هل لا يدفع العذاب عن العصاة يوم تمور السماء وتسير الجبال ؟
الكلام مع كفار مكة	٩٦ كيف يكون المتقون في ذلك اليوم ؟
١٣٠ (تفسير سورة الرحمن)	٩٩ رد الله على القائلين إن الرسول مجنون ومتقول القرآن
ماورد فيها	١٠١ كلام مع أولئك الكفار
١٣١ الامتتان بتعليم القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان وبنعم أخرى	١٠٣ (تفسير سورة النجم)
١٣٣ الحكمة في تكرير فبأي آلاء ربكم اتكذبان بعد كل نعمة ذكرت في هذه السورة	ماورد فيها
١٣٦ معنى كل - يوم هو في شأن - ومعنى - سنفرغ لكم أيها الثقلان -	١٠٤ ماهو النجم ؟
١٣٧ معنى - فكانت وردة كالدهان -	١٠٥ هل شديد القوى هو سيدنا جبريل ؟
١٣٩ الجمع بين قوله تعالى - فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان - وبين قوله - فوربك لنسألنهم أجمعين	هل المرة جزالة الرأي وحصافة العقل ؟
١٤٠ ماهما الجنتان اللتان لمن خاف مقام ربه ؟	١٠٦ هل الذي بالأفق الأعلى ودنا هو سيدنا جبريل
١٤٢ الكلام على الجنتين اللتين من دون الجنتين السابقتين ، ومعنى كونهما من دونهما	دنا من النبي فكان قاب قوسين أو أدنى ؟
١٤٣ ماهو الرفرف الخضر ؟	١٠٧ هل المرثى نزلة أخرى عند سكرة المنتهى هو
ماهو العبرى ؟	سيدنا جبريل رآه سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم ؟
١٤٦ (تفسير سورة الواقعة)	١٠٧ ماهي الآيات الكبرى ؟
ماورد فيها	كلام مع المشركين
١٤٧ آيات لقيام القيامة	١١٢ هل الظن لا يغني في الأمور العلمية دون العملية ؟
١٤٨ هل الناس يوم القيامة يكونون أصنافا ثلاثة ، أهل يمين وأهل شمال وسابقون ؟	١١٣ انتهى من تركية الإنسان نفسه لأن الله أحلم بمن اتقى
السابقون ، والكلام عليهم	١١٦ الكلام مع بعض المشركين
	١١٩ (تفسير سورة القمر)
	ماورد فيها

- ١٨٥ حال من حادّ الله ورسوله في الدنيا والآخرة
- ١٨٦ شمول العلم الإلهي لتناجى من كانوا يتناجون ليحزنوا المؤمنين
- ١٨٧ التعجب من هؤلاء المتناجين لعودهم إلى التناجى بعد نهيم عنه
- تحية هؤلاء المتناجين للرسول ، جزاؤهم وتعليم المؤمنين كيف يتناجون
- ١٨٨ أدب المؤمنين في مجالسهم
- ١٨٩ أمر المؤمنين بالصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول ، ونسخ ذلك تخفيفا
- ١٩١ المنافقون في توليهم اليهود ، وشيء من صفاتهم وجزاؤهم
- ١٩٤ (تفسير سورة الحشر)
- ١٩٥ امتنان الله تعالى على المؤمنين بإخراج بنى النضير من حصونهم وكان يظن أن لا يخرجوا ، وما يتعلق بهذه الغزوة من الأحكام
- ١٩٧ مصارف ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى
- ٢٠١ هل كان الأنصار يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ؟
- ما هو الشح المذموم ؟
- ٢٠٤ المنافقون ووعدهم لأهل الكتاب أن ينصروهم وما يتعلق بذلك
- ٢٠٦ هل لو كان للجبل عقل كان يتصدع ويخشع لو نزل عليه القرآن الكريم ؟
- ٢٠٧ نعوت لربنا عز وجل
- ٢٠٨ ماورد في آخر الحشر
- ٢٠٩ (تفسير سورة الممتحنة)
- نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء وما يتعلق بذلك
- ٢١١ نذب المؤمنين أن يقتنوا بسيدنا إبراهيم وقومه لما تبرعوا من الكافرين

- ١٥٢ أهل اليمين والكلام عليهم
- ١٥٣ أهل الشمال والكلام عليهم
- ١٥٦ الكلام مع منكري البعث
- ١٥٩ الكلام على دلاء في مثل قوله - فلا أقسم بمواقع النجوم
- ١٦٠ ما هو الكتاب الذي لا يمسه إلا المطهرون ؟ ومن هم المطهرون ؟
- ١٦١ معني - وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون -
- ١٦٢ التنصيص على حال كل قسم من الأقسام الثلاثة السابقة
- الكلام على المضاف والمضاف إليه في مثل حق اليقين وعين اليقين
- ١٦٤ (تفسير سورة الحديد)
- ماورد فيها
- ١٦٥ هل تسبيح الجمادات والحيوانات غير العاقلة بلسان الحال أم بلسان المقال ؟
- صفات لله سبحانه وتعالى
- ١٦٦ التحريض على الإيمان والإنفاق في سبيل الله
- ١٦٧ هل من أنفق وقاتل قبل الفتح أجل ممن فعل ذلك بعد الفتح وكل موهود بالجنة
- ١٦٩ حال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة
- ١٧٢ تحريض لطائفة من المؤمنين أن ترق وتخشع لله عز وجل
- ١٧٣ أجر المؤمنين بالله ورسوله ، وعقاب المكذب الكافر
- ١٧٤ مثل الحياة الدنيا
- ١٧٦ هل كل مصيبة تنزل بالعالم مكتوبة قبل أن تخلق ؟
- ١٨١ (تفسير سورة المجادلة)
- ١٨٣ قصة ظهور سيدنا أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة ، وما يتعلق به من الأحكام

- صحيفة
- ٢١٣ من الكافرون الذين نهى المؤمنون عن موالاتهم ؟
- ٢١٤ امتحان المؤمنات اللاتي يهاجرن إلى المؤمنين وما يتعلق بهن من الأحكام
- ٢١٦ مبايعة النساء وشروطها
- ٢١٨ (تفسير سورة الصف) ماورد فيها
- ٢١٩ تقرير من يقولون ولا يفعلون هل يحب الله تعالى من يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ؟
- ٢٢٠ ماذا قال سيدنا موسى لقومه ؟ وماذا قال سيدنا عيسى ؟
- هل أحد أظلم ممن يفترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟
- ٢٢٢ ماهى التجارة التى تنجى من عذاب أليم ، وما جزاؤها فوق تلك النجاة ؟
- ٢٢٣ دعوة المؤمنين أن يكونوا كأنصار سيدنا عيسى
- ٢٢٤ (تفسير سورة الجمعة) فضل ربنا على هذه الأمة
- ٢٢٥ هل مثل اليهود لما لم يعملوا بالتوراة كمثل الحمار يحمل أسفارا ؟
- تكذيب اليهود فى زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس
- ٢٢٧ شىء من أحكام الجمعة
- ٢٢٩ (تفسير سورة المنافقين) شىء من صفات المنافقين
- ٢٣٣ تحذير المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله الذى هو فرائض الإسلام
- أمر المؤمنين بالإتفاق الذى منه الزكاة قبل أن يموتوا ويثمنوا الرجعة
- صحيفة
- ٢٣٤ (تفسير سورة التغابن) ماورد فيها
- نعت لربنا عز وجل
- ٢٣٦ زعم الكافرين أن ان يبعثوا والرد عليهم لماذا سمي يوم القيامة يوم الجمع ويوم التغابن
- ٢٣٧ هل كل مصيبة تنزل بمخلوق بإذن الله ؟ ما معنى هداية الله لقلب من يؤمن بالله ؟
- ٢٣٨ التحذير من الأزواج والأولاد لأن منهم أعداء
- ٢٣٩ التحريض البالغ على الإتفاق فى وجوه الخير
- ٢٤٠ (تفسير سورة الطلاق) كيف يطلق الإنسان زوجته ، ويتعلق بذلك أحكام
- ٢٤١ جزاء من يتقى الله ويتوكل عليه
- ٢٤٢ علة اليائسات ومن لم يحضن وأولات الأحمال
- ٢٤٤ نفقة المطلقة وسكناها وأجرة إرضاعها إذا أرضعت
- ٢٤٩ (تفسير سورة التحريم) عتاب الله تعالى لنبيه لما حرّم السيدة مارية ، وما يتعلق بذلك
- ٢٥٣ أمر المؤمنين أن يقوا أنفسهم وأهليهم نارا وقودها الناس والحجارة
- ٢٥٤ أمر المؤمنين بالتوبة النصوح وجزاؤهم على ذلك
- ٢٥٥ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين وأن يغلظ عليهم
- مثل للذين كفروا ومثل للذين آمنوا ، وما هى خيانة امرأة سيدنا نوح وامرأة سيدنا لوط
- ٢٥٧ (تفسير سورة الملك) ماورد فى فضلها
- ٢٥٨ هل خلقنا الله ليلبونا أينما أحسن عملا ؟
- ٢٥٩ الدعوة إلى العبرة بالسما

صحيفة

- ٢٦٠ ما للذين كفروا يوم القيامة ؟ وكيف تكون معهم النار ، واعترافهم حينئذ
- ٢٦١ عبر وترهيبات
- ٢٦٦ (تفسير سورة ن)
- ٢٦٧ الكلام على ن والقلم
- قسم ربنا أن نبيه ليس بمجنون وأن له أجرا غير مقطوع ، وأنه على خلق عظيم
- ٢٦٨ صفات في غاية الشناعة لمن نهى سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم أن يطيعه
- ٢٦٩ عود إلى الكلام على ن والقلم
- ٢٧١ قصة أصحاب البستان البخلاء ، وما كان منهم ولهم
- ٢٧٤ ما للمتقين عند ربهم ، والرد على المشركين في قولهم : إن صبح رجوعنا يوم القيامة فسنكون أوفر حظا من المسلمين ، وبعد ذلك من التقرير ما يهت الكافر
- ٢٧٥ حال الكفار يوم يدعون إلى السجود في القيامة معنى الساق في قوله تعالى - يكشف عن ساق -
- ٢٧٨ (تفسير سورة الحاقة)
- ماورد فيها
- ٢٧٩ ماذا فعل ربنا بعد وثمود لما كذبوا بيوم القيامة ؟
- ٢٨٠ ماذا فعل بفرعون وقومه لما كذبوا رسول ربهم ؟
- ٢٨١ ماذا فعل بقوم سيدنا نوح لما كذبوه ؟
- ماذا يكون إذا نفخ في الصور ؟
- ٢٨٤ ما لأهل اليمن وما لأهل الشمال ؟
- ٢٨٥ قسم ربنا في الرد على الكفار الذين يقولون إن القرآن شعر وكهانة وتقرير حقيقته
- ٢٨٦ ماذا يكون من ربنا مع نبيه أو تقول عليه بعض الأقاويل ؟

صحيفة

- ٢٨٧ (تفسير سورة سأل سائل)
- ٢٨٨ ماهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة
- ٢٨٩ الحال يوم القيامة
- ٢٩٢ أصناف استثناهم ربنا ونزاهم عن وصف الملح الذي خلق عليه الإنسان
- ٢٩٣ جزاء أولئك الأصناف
- ٢٩٤ إباء ربنا أن يدخل المشركون الجنة وتذكيرهم بأصلهم القدر
- حال الكفار يوم القيامة وقسم ربنا أنه قادر على أن يهلكهم ويبدل خيرا منهم
- ٢٩٦ (تفسير سورة نوح)
- ٢٩٧ ماذا قال سيدنا نوح صلى الله عليه وسلم لقومه لما أرسل إليهم ؟ وماذا كان حالهم معه ؟
- ٣٠٠ شكوى سيدنا نوح قومه إلى ربه ثم دعاؤه عليهم ثم دعاؤه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات
- ٣٠٢ (تفسير سورة الجن)
- ٣٠٣ هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن حين استمعوا وهو يقرأ القرآن ؟
- ماذا قال الجن لما سمعوا القرآن ؟
- ٣٠٨ ماذا يكون من ربنا لمن يستقيم على الطريقة الإلهية ؟
- ٣٠٩ ماذا يكون لمن يعرض عن ذلك ؟
- ٣١٠ الكلام على قوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) وليراجع
- ٣١٤ (تفسير سورة المزمل)
- ماورد فيها
- ٣١٥ المقدار الذي أمر أن يقومه صلى الله عليه وسلم من الليل
- ٣١٦ ماهي ناشئة الليل التي هي أشد وطأ وأقوم قبلا ؟

صحيفة

٣١٨ وعيد المكذبين أولى الغنى والسعة
تهديد المشركين أن يفعل الله بهم ما فعل
بفرعون لما عصى رسوله

٣٢٢ هل نسخ قيام الليل في حقه صلى الله عليه وسلم
وفي حق الأمة ؟

٣٢٣ (تفسير سورة المدثر)

٣٢٤ سبب نزول قوله تعالى (يا أيها المدثر) الخ

٣٢٥ هل إذا نفخ في الصور يكون يوم القيامة يوما
عسيرا على الكافرين ؟

وعيد ربنا عز وجل للوليد بن المغيرة وبيان
حاله المستوجبة لذلك الوعيد

٣٣٠ لماذا جعل الله المدبرين لأمر النار ملائكة
وجعل عدتهم تسعة عشر ؟

٣٣٢ هل أصحاب اليمين مستثنون لا يكونون رهنا
أعمالهم ، بل يعفى عنهم لصالحاتهم ؟

هل يسأل أهل الجنة أهل النار ماسلككم في
سقر ؟ وما هو جواب أهل سقر ؟

٣٣٣ تمثيل الكفار في إعراضهم عن الموعظة بحمر
نافرة فرّت من الرماة التي يصيدونها

٣٣٤ (تفسير سورة القيامة)

٣٣٥ هل الجمهور على زيادة « لا » في مثل قوله
تعالى - لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم - الخ ؟

الرد على منكرى البعث

٣٣٧ هل لا مفر ولا وزر ولا معذرة لمنكر البعث
إذا قامت القيامة ؟

٣٣٨ طمأنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على
القرآن أن يذهب منه ، ونهيه عن تحريك لسانه
به إذا أوحى

بحث رؤية الله في الجنة ، وهو مهم فليراجع

٣٤٠ عود إلى ذلك

صحيفة

٣٤١ الكلام على - أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى -
وهو وعيد شديد لمن لم يصدق ولم يصل ولكنه
كذب وتولى

٣٤٢ برهان على البعث مفحم لمن ينكر البعث

٣٤٣ ماذا يقول من ختم هذه السورة ؟
(تفسير سورة الإنسان)

ماورد فيها

٣٤٤ من هو الإنسان الذي أتى عليه حين من الدهر
لم يكن شيئا مذكورا ؟

٣٤٥ ما الذي أعدّه الله للكافرين ؟

٣٤٦ الأبرار وصفاتهم ، وما أعدّه الله لهم في دار
كرامته

٣٥٥ (تفسير سورة والمرسلات)

ماورد فيها

ماهى المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات
والملقيات ذكرا ؟

٣٥٦ أمور إذا كانت وقع ما يوعد الكفار به من
العذاب الأخروي الذي يكذبون به

٣٥٦ لماذا كررت آية -ويل يومئذ للمكذبين- في هذه
السورة ؟

٣٥٧ براهين محسنة يقيمها ربنا على قدرته على بعث
أولئك الكفار المنكرين للبعث

٣٥٩ ما يقال للكفار يوم القيامة توبيخا وتقريعا وهم
مسوقون إلى جهنم ومقدار شررها

٣٦٠ هل لا ينطق الكفار يوم القيامة ولا يعتذرون ؟
والجمع بين ذلك وبين ما يفيد نطقهم ؟

كيف يكون المتقون حينئذ ؟

٣٦٢ (تفسير سورة عم)

٣٦٣ هل النبأ العظيم الذي يتساءل عنه المشركون هو
البعث ؟

صيفة

صيفة

٣٦٤ دلائل على قدرته تعالى على البعث

٣٨٧ (تفسير سورة التكويد)

٣٦٥ ميقات البعث ، وماذا يكون بعد النفخ في الصور ؟

ماورد فيها

٣٦٦ هل جهنم تنتظر الكفار ولا يزيدهم الله فيها إلا عذابا ، ولماذا ذلك ؟

٣٨٨ أمور إذا كانت علمت كل نفس ما أحضرت من أعمال

٣٩٠ قسم الله بالحنس ، والليل إذا عسعس ،

٣٦٨ ما للمؤمنين عند ربهم ؟

والصبح إذا تنفس إن القرآن قول جبريل

٣٧٠ هل لا يتكلم من الملائكة إلا من أذن له الرحمن ؟

وتوجيه معنى كونه قوله ، ووصف جبريل

هل يتمنى الكافر يوم القيامة أن يكون ترابا ؟

بأوصاف جليلة

٣٧١ (تفسير سورة النازعات)

٣٩١ هل رأى نبينا صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل

٣٧٢ ماهى النازعات والناشطات والسابحات

بالأفق المبين ؟ ووصفه صلى الله عليه وسلم بأنه

والسابقات والمهترات أمرا ؟

ليس بمتهم على الغيب

٣٩٤ (تفسير سورة الانفطار)

٣٧٤ ماذا يكون حال الكفار حين نفخ في الصور

ماورد فيها

النفخة الأولى ثم الثانية ؟

٣٩٥ أمور إذا كانت علمت كل نفس ما قدمت

٣٧٥ قصة سيدنا موسى لما أرسله الله إلى فرعون ،

وأخرت

وما فعله تعالى بفرعون لما كذب

تقريع الكفار على كفرهم بالله وهو ربهم

٣٧٨ براهين على قدرته تعالى على البعث ، وهى

الكريم الذى خلقهم وسواهم وعلمهم فى أى

براهين مسكتة

صورة شاء

٣٧٩ ماهو مأوى الكافر والمؤمن إذا جاءت الطامة

التعجيب من أولئك الكافرين الذين يكذبون

الكبرى ؟

يوم القيامة وعليهم حفظة يكتبون ما يعملون

٣٨٠ هل لا يعام وقت قيام القيامة إلا الله تعالى ؟

٣٩٦ أين يكون الأبرار يوم القيامة ، وأين يكون

٣٨١ (تفسير سورة عبس)

الفجار ؟

٣٨٢ قصة ابن أم مكتوم رضى الله عنه مع رسول

هل يفارق الكفار النار أبدا ؟

الله صلى الله عليه وسلم

هل يكون الأمر كله لله يوم القيامة ليس لأى

٣٨٤ براهين قاطعة ساطعة على قدرته تعالى على

أحد أى تصرف فى أى أمر ظاهرا وباطنا ؟

البعث

٣٩٧ (تفسير سورة المطففين)

٣٨٥ هل إذا جاءت القيامة يفر المرء من أحب

ماورد فيها

الناس إليه ؟

٣٩٨ وصف المطففين

٣٨٦ هل يومئذ تكون الوجوه قسمين قسما مسفرا

هل خطور البعث بالبال على سبيل اليقين

ضاحكا مستبشرا ، وقسما عليه غيرة ترهقه

يردع عن المعاصى ؟

قرة ، والأولون المؤمنون والآخرون المبكثرون ؟

مصحف

٣٩٩ هل يحين هو الكتاب المرقوم ؟ وفي ذلك أقرال آخر ؟

حال المكذبين يوم القيامة

٤٠٠ حال الأبرار يومئذ ، وهل عليهم هو الكتاب المرقوم

٤٠٣ هل يضحك المؤمنون يوم القيامة من الذين أجزموا كما كان أولئك المجرمون يضحكون منهم في الدنيا ؟

٤٠٥ (تفسير سورة الانشقاق)
ماورد فيها

جواب ٤ إذا ، في - إذا السماء انشقت - الخ

٤٠٦ كيف يكون المؤمنون والكافرون يوم القيامة ؟

٤٠٧ قسم ربنا بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركن طبقا عن طبق ، ومعنى هذا الطبق الذي نركبه عن طبق

٤٠٩ هل تنهكم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبشر المكذبين بعذاب أليم ؟
جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات

٤١٠ (تفسير سورة البروج)
ماورد فيها

٤١١ ماهي البروج ، وما هو اليوم الموعود ، وما هو الشاهد والمشهود ؟

٤١٢ ما هو جواب القسم في قوله تعالى - والسماء ذات البروج - الخ

الكلام على أصحاب الأخدود وما فعلوا بالمؤمنين

٤١٣ ما جزاء هؤلاء الذين فتروا المؤمنين والمؤمنات ؟
ما لمن آمن وعمل صالحا ؟

٤١٦ تفصيل ما فعل أصحاب الأخدود

مصحف

٤١٧ (تفسير سورة الطارق)

ماورد فيها

٤١٨ تأكيد أن كل نفس لما عليها حافظ حتى أقسم على ذلك ربنا بالسماء والطارق

٤٢٠ برهان على قدرة ربنا على رجوع الإنسان بعد موته

٤٢١ قسم ربنا بالسماء والأرض إن القرآن قول فصل وما هو بالهزل

٤٢٢ (تفسير سورة الأعلى)
ماورد فيها

٤٢٣ نعوت لمولانا تعالى هو بها جدير أن يسبحه ماسواه

٤٢٤ الكلام على قوله تعالى - فذكر إن نفعت الذكرى -

٤٢٥ هل من لا ينتفع بالذكرى من أهل النار ؟
هل إثارة الحياة الدنيا خلق مدموم ؟

٤٢٧ (تفسير سورة الغاشية)
ماورد فيها

٤٢٨ هل الغاشية القيامة ؟

أهل النار وأهل الجنة يومئذ ، وحال كل منهما
٤٣٠ لفت منكرى البعث إلى خلق ما يرونه بأعينهم من الإبل والسماء والجبال والأرض

٣٣٢ (تفسير سورة الفجر)
ماورد فيها

ما جواب هذه الأقسام ؟ - والفجر ولبال عشر - الخ ، وما معناها ؟

٤٣٥ هل كذب ما يقال في عاد وإرم ذات العماد من أنها مدينة مبنية بالذهب الخ ؟

٤٣٨ هل كافر الذي يعتبر النعم كرامة والفقر إهانة ؟

صحيفة

- ٤٣٩ هل منموم عدم إكرام اليتيم وعدم الخس على طعام المسكين وأكل التراث أكلاما ، وحب المال حبا جما ؟
- ٤٤٠ هل يتمنى الإنسان يوم القيامة أن لو قدم صالحا لحياته الأبدية ؟
- ٤٤٢ (تفسير سورة البلد)
قسم ربنا على أن الإنسان خلق في كبد ومشقة ، فهو لا يزال في دنياه في تعب
- ٤٤٤ الإنكار عليه حيث لم يقتحم العقبة وهي فك رقبة الخ
- ٤٤٧ (تفسير سورة الشمس)
ماورد فيها
- ٤٤٨ معنى « ما » في قوله تعالى - والسماء وما بناها - وكذا ما بعدها
- ٤٤٩ ما هو جواب الأقسام : والشمس وضحاها الخ قصة قوم سيدنا صالح معه ، وما فعلوا بالناقة ، وما نزل بهم
- ٤٥١ (تفسير سورة الليل)
ماورد فيها
- ٤٥٢ اختلاف أعمالنا صلاحا وفسادا ، وقسم ربنا على ذلك
- جزاء من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى
- ٤٥٣ هل الذى على الله البيان وله الآخرة والأولى ؟
- معنى كون النار لا يصبلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى
- هل سيجنب النار الأتقى الذى يرقى ماله يتزكى ؟
- ٤٥٦ (تفسير سورة الضحى)
ماورد فيها وتكلمها من عظمى يمتن بها ربنا على نبيه
- ٤٦٠ (تفسير سورة ألم نشرح) وهي : كسابقتها

صحيفة

- ٤٦٢ تأكيد مولانا الغنى الكريم أن العسر معه يسرا ، وهو وعد تطرب له الأذان سرورا
- معنى - فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب -
- ٤٦٤ (تفسير سورة التين)
ماورد فيها
- هل التين والزيتون هما المعلومان ؟
- ٤٦٥ هل الطور هو الجبل الذى كلم الله سيدنا موسى عليه ؟ وهل البلد الأمين مكة ؟
- هل لم يخلق الله مخلوقا أحسن خلقا من الإنسان ؟
- معنى رد الله تعالى للإنسان إلى أسفل سافلين هل جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجر غير ممنون ؟
- ٤٦٦ توبيخ وتقرير للمكذب بالبعث وهو يرى أنه مخلوق في أحسن تقويم ويرد إلى أسفل سافلين (تفسير سورة اقرأ)
ماورد فيها
- ٤٦٨ هل يطغى الإنسان إذا رأى نفسه استغنى ؟
- ٤٦٩ التعجب ممن ينهى عبدا إذا صلى
- ماذا يكون لو لم ينته هذا الناهى ؟
- ٤٧١ (تفسير سورة القدر) وهي تتضمن فضل ليلة القدر
- ٤٧٣ (تفسير سورة لم يكن الذين كفروا)
ماورد فيها
- ٤٧٤ معنى الآية الأولى من هذه السورة ، وهي من المشكلات
- ٤٧٦ أين الكافرون من أهل الكتاب والمشركون يوم القيامة ؟ وأين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ وما قيمة كل منهما ؟
- ٤٧٨ (تفسير سورة الزلزلة)
ماورد فيها ، وهي في أمور الآخرة

صفحة

٤٨١ (تفسير سورة العاديات)

ماورد فيها

أقسام أقسم بها ربنا إن الإنسان كفور بنعمته ،
وإنه على ذلك شهيد ، وإن حبه للمال شديد ،
وتهديده بأن ربه عليم به ويجازيه على هذه الغفلة

٤٨٥ (تفسير سورة القارعة)

وهي تمثل حال الناس يوم القيامة ، وتبين أين
يكون من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه

٤٨٧ (تفسير سورة التكاثر)

ماورد فيها وكلها تهديد للناس على شغلهم
بالدنيا عن الآخرة

٤٩١ (تفسير سورة العصر)

ماورد فيها وهي تبين الخاسرين والمفلحين

٤٩٢ (تفسير سورة الهمزة)

وهي تهدد بالنار الهمزة اللمزة الذي يحسب أن
ماله يخلده في الدنيا

٤٩٥ (تفسير سورة الفيل)

وهي تتضمن قصة أصحاب الفيل الذين كانوا
يريدون هدم الكعبة وتخريبها

٤٩٧ (تفسير سورة قريش)

ماورد فيها ، وهي تتضمن الامتنان على قريش
بما فيها من الآلاء

٤٩٩ (تفسير سورة أرايت)

وهي تتضمن التهديد بالويل للمكذبين بالآخرة ؟
الذين وصفهم ربنا في السورة بالقسوة على
اليتيم والمسكين والرياء في الصلاة إن صلوا

٥٠٢ (تفسير سورة الكوثر)

وهي امتنان على سيدنا ومولانا رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم بالخير الكثير الذي أعطيه ،
وأمر له بالصلاة ونحر النسك ، ورد على من
قال إنه أبتى بأنه هو الأبتى المقطوع عن رحمة الله

صفحة

٥٠٥ (تفسير سورة الكافرون)

ماورد فيها

٥٠٧ توجيه التكرار الذي في السورة

هل الآية - لكم دينكم ولي دين - منسوخة ؟

٥٠٨ (تفسير سورة النصر)

ماورد فيها

٥٠٩ ما المراد بالفتح

٥١٠ لماذا أمر الأنبياء بالاستغفار ؟

هل أعلم الله رسوله باقتراب أجله لما أمره أن
يسبح بحمده ويستغفره ؟

٥١١ (تفسير سورة تبت)

وهي في أبي لهب وامراته

٥١٣ (تفسير سورة الإخلاص)

ماورد فيها وهي صفة ربنا تعالى

٥١٨ (تفسير سورة الفلق)

ماورد فيها وفي سورة الناس وسبب نزولهما

٥١٩ ماهو الفلق ؟

٥٢٠ ماهو الراجح في معنى قوله تعالى - غاسق إذا وقب -

هل النفاثات الساحرات ؟

٥٢١ ماهو الحسد ، ومعنى قوله تعالى - إذا حسد -

أحاديث في معنى ألفاظ هذه السورة لو صحت
وجب المصير إليها

٥٢٢ (تفسير سورة الناس)

لم كرر لفظ الناس ، ولم يؤت بالضمير بعد الأول

٥٢٣ لم سمي الشيطان خناسا ، وما هي وسوسته ؟

معنى قوله تعالى - من الجنة والناس -

٥٣٦ خاتمة الطبع